الشرق الأدني القديم



مصر والعراق

تأليف : دكتور/ عبد العزيز صالح

مكتبة الأنجلو المصرية

الشرق الأدنى القديم

الجزء الأول

مصر والعراق

دكتور عبد العزيز صالح

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم

وعميد كلية الآثار الأسبق

بجامعة القاهرة



مكتبة الأنجلو المصرية

أسم الكتاب : الشرق الادنى القديم
إسم المؤلف : د / عبدالعزيز صالح
إسم الناشر : مكتبة الانجلو المصرية
اسم الطابع : مطبعة محمد عبدالكريم حسان
رقم الايداع : 2893 لسنة 2012

الترقيم الدولى : I-S-B-N 977-05-2018-7

الموضوعات



الكتاب الأول

الفصل الخامس

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر



الفصل الثانى عشر

الكتاب الثانى

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر



الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر



الفصل العشرون

بابل الكلدانية

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

تقتضى المعاصرة النسبية بين أزمنة الحضارات الكبرى فى الشرق الأدنى القديم ، وما بينها من روابط البيئة والجنس ، وماتوافر لها فى مجالات التعامل والتكامل ، أو المقابلة والتنافس ، من إنجازات وثقافات خاصة - تضمين المعالم الرئيسية لتاريخها القديم العريض فى مؤلف واحد ، ذى خطة شمولية متجانسة ، يمكن أن تتناول أهم مراحل التطور والتأثير والتأثر فى حضارات كل من مصر والعراق والشام وشبه الجزيرة العربية ، وبعض أنحاء شمال أفريقيا وشرقها وشمال السودان ، على التتابع ، إن صعوداً وإن توقفاً أو هبوطاً ، طوال عصورها القديمة وفى نطاق عالمها الكبير . وذاك هدف لاينتقص بحال من الأحوال من قيمة ماصدر عن تاريخ كل حضارة من هذه الحضارات من مؤلفات فردية كثيرة .

وبدأت خطة الإصدار الأول لهذا المؤلف فى عام ١٩٦٧ لتحقيق الفكرة المسبقة، فكرة تقديم تاريخ حضارات الشرق الأدنى القديم فى سياق متصل وفى مجلد كبير شامل . ولكن ما أن تمت به الخطوط العريضة لحضارتى مصر والعراق ابتداء - حتى تأكد ماتوقعناه من أن مختصر الحديث العلمى عنهما هو أضخم من أن يسع معهما بحوثاً أخرى فى مجلد واحد ، وذلك مما تطلب إفرادهما بجزء أول ، على أن يخصص لبقية هذه الحضارات جزء ثان ، أو جزءان يصدران بعده . وقد صدر أحدهما عن تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة .

وندع التمهيد بالعوامل المؤثرة فى مسيرة الحضارات الرئيسية لهذا الشرق القديم والخطوط العريضة لصور التشابه أو التنوع بين إمكاناتها البشرية والمادية واتجاهاتها الثقافية ، لما سوف يتناوله الفصل الأول من هذا الكتاب . وحسب المقدمة الراهنة هنا أن تعرض موجزاً لبعض المذاهب الفكرية الحديثة التى حاولت تعليل البواعث والخصائص ذات الأثر فى تشكيل طابع الحضارات الكبرى ، ومصائرها المتنوعة .

وللشرق الأدنى في عصوره القديمة ، وبعض عصوره الوسيطة ، مكانة عريقة في مواكب الحضارات الكبرى كما هو معروف . وقد تداولت على تاريخ أممه الكبرى، عصور استمسكت خلالها بمراتب الريادة أو القيادة في بعض مجالات الفكر والمادة ، وعصور أخرى انفلتت منها زعامتها والتزمت فيها بالتبعية الضمنية أو الكلية لغيرها . ولهذا كان من البدهي أن تشغل علل أحداثها ومضامينها جانباً مما تدارسه كبار الفلاسفة والمؤرخين منذ عهود الازدهار الإغريقي القديم وحتى الآن ، عن المسببات الرئيسية لازدهار الحضارات الكبرى ، والعلل العامة لضعفها أو انهيارها ، خلال مختلف العصور والظروف .

وإذا عدونا آراء رواد العصور الكلاسيكية القديمة ، ومؤرخي العصور الوسطى ، إلى نماذج مختارة من آراء رواد الفكر الحديث ، بحسبانها أنسب مما سواها لمفاهيم الثقافة المعاصرة ، فثمة محاولات عدة لرد نوعيات الحضارات المتمايزة وطبيعة تطوراتها ، إلى أصول وفروع يرتبط بعضها بنواميس الكون وسنن الحياة والتطور حيناً، ويتصل بعضها بتباين إيحاءات البيئات الطبيعية حيناً آخر ، كما يتأثر بعضها بالروح القومية أو العبقرية الخاصة لكل شعب حيناً ثالثاً ، دون أن تنفي حداثة هذه الآراء وجود أصول مهدت لها ، من عصور سابقة عليها .

ففي المدرسة الإيطالية على سبيل المثال ، ذهب «فيكو» في دفاعه عن منهجية علم التاريخ إلى أن للحضارات الكبرى قواعد حيوية مطردة جرت على مقتضاها ، تستوي في ذلك أمور العمران ، وتصرفات الجماهير ، وقيم الأخلاق والسلوك ، وماعداها . وأقر «فيكو» بأن مايجعل فترة تاريخية ما جديرة بالبحث لايتمثل فيما حققته من أمجاد تقاس بمقاييسها الذاتية فحسب ، وإنما تتحدد قيمتها الجوهرية أساساً بوضعها في نسيج التاريخ العام وتقدير قيمتها بالنسبة إليه .

وقصرت المدرسة الإنجليزية تطورات تاريخ الحضارة على إيحاء عبقريات فردية جبارة فرضت خلاصة فكرها على جموع الناس . وقدرت بالتالي أن نصيب الحضارات من الازدهار أو التخلف والتدهور إنما يرتبط بوفرة أو ندرة مايظهر فيها من العقليات المبدعة في كل مرحلة من مراحلها . وتجاوبت هذه الآراء مع ما حققه أفذاذ علمائها وقادتها من تقدم علمي وانقلاب صناعي وانطلاق عالمي منذ القرن الثامن عشر وماتلاه .

وفى مقابل هذا تداولت المدرسة الفرنسية خلال نهضتها الفكرية فى القرن الثامن عشر أيضاً مذهبين أساسيين : فرد «مونتسكيو» الفوارق بين الحضارات إلى فوارق بيئاتها المناخية وظروفها الخاصة ، وأن الطبيعة البشرية وإن تشابهت فى كل زمان ومكان إلا أنها تسلك مسالك متباينة بوحى البيئات التى تعيش فيها . ولكن ذهب «جان جاك روسو» فى تقرير أولية أثر الإنسان على أثر البيئة ، إلى أن عامل الزمن فى مسيرة كل حضارة ، وتأثير الظروف الخاصة التى عايشها أهلها ، ثم مدى وضوح إرادة المجموع فيها ، ومدى فاعلية التربية فى بنيان مجتمعها ، كل ذلك له تأثيره فى تطور تواريخ الشعوب . ونادى بوجوب الاعتراف بالتالى لكل حضارة ، أياماً كانت مرتبتها ، بجهودها وقيمها الذاتية ، على أساس اعتبارها حلقة من سلسلة تطور طويلة لاتزال الملكات البشرية تنتجها فى مختلف العصور والظروف .

ومع النهضة البروسية الجرمانية ، ذهب «هيردر» إلى أن تاريخ كل شعب هو حصيلة للفعل المتبادل بين مجموعتين من القوى : القوى الخارجية التى تشكل محيطه الجغرافى ، والقوى الباطنية التى يعبر عنها بروح الشعب . وهذه الأخيرة هى الأهم والأبقى . فلكل شعب روح خاصة متمايزة توارثها فى تكوينه فأصبحت تترجم عنه وتعبر عن نفسها فى كل ماخرج به أهله من نظم وتقاليد ، ومثل عليا للحياة كما غدت بالتالى هى المسئولة عن صورة تاريخ شعبها .

وعدل «هيجل» هذا الرأى إلى رأى آخر ، قال فيه إن لكل شعب عبقريته الخاصة التى تنعكس على ما يأتيه من أعمال فى عالم الفكر والمادة ، وبهذه العبقرية يساهم كل شعب مساهمة خاصة قدرت له فى نطاق إمكاناته ، فى صنع تاريخ العالم. ثم أخذ برأى سابق للفيلسوف «كانت» مؤداه أن التاريخ هو تاريخ المجموع ، ينظر المفكر إليه ككل ويتغاضى فيه عن الجزئيات ، ويرى فيه لكل شعب مكاناً فى مسيرة عالمية تتيح للدنيا فى نهاية أمرها تحقيق أسمى غاياتها ومعانيها ، وهى غاية التوازن عند «كانت» ، وغاية الوعى الكامل بالحرية عند «هجيل» .

وكان «كانت» قد استهل فلسفته التاريخية بفكرة مسبقة خلاصتها أنه مامن شىء فى الكون إلا ويسعى إلى غاية عظمى ينتهى إليها . ومن هذا المنطلق رأى أن وقائع الماضى التى قد تبدو متناثرة بغير قيمة تذكر - تتجلى فى مجملها وكأنها تخدم هدفاً أعظم . ذلك لأن التاريخ يكاد يتبع خطة طويلة المدى غايتها البعيدة هى الأنواع



الإنسانية ككل ، ولو أدت إلى التضحية فى سياقها بمنفعة الجزء أو الفرد . وارتأى «كانت» أن السلام والعداء وإن كانا طرفين متناقضين ، إلا أنه لامندوحة عن تواجدهما معاً للحض على التفوق ، ولتحقيق التوازن .

وما من شك فى أن لكل رأى من هذه الآراء قيماً كثيرة لاتجحد . وإذا كان ثمة مايضاف إلى ماسبق الاستشهاد به منها ، فهو أنه ليست الظروف الخاصة بكل أمة ، أو بيئتها وروحها أو عبقريتها ، هى المؤثرة وحدها ودائماً فى تطورات تاريخها - فقد تبقى خصائص روحها الخاصة كما هى فى مجملها ، وتظل بيئتها كما هى ، ولكن قد تتغير الظروف الخارجية المحيطة بها تغيراً جذرياً لادخل لها به ، ويتغير تاريخها تحت تأثيرها إن قليلاً وإن كثيراً ، بطرق مباشرة أو غير مباشرة .

وردد «شبنجلر» آراء سابقيه من الجرمان من أمثال هيردر وهيجل بأن لكل حضارة طابعاً خاصاً تعبر عنه ، وهو فى الوقت نفسه يتداخل فى كل تفاصيلها وكل تطوراتها . ورأى أن كل حضارة أسيرة مصيرها ، وأن اتجاهها لايمكن أن يتحول ، لأنه اتجاه عينه المصيره وحددته الصيرورة . وكل الحضارات على الرغم من تنوعها تشترك فى عملية واحدة تخضع لقانون ملحوظ من قوانين الطبيعة ، وهو أن كلا منها تقطع دورة تشبه دورة حياة الكائن الحى ، تتعاقب فيها مراحل الطفولة والشباب والرجولة والشيخوخة . وهذه الدورة تبدأ بالبربرية التى تطبع المجتمعات البدائية ، ثم تتطور إلى مرحلة تعمل الحضارة فيها على بدء تنظيمها السياسى وبدء مقومات العلوم والفنون فيها بصورة أولية . وفى شبابها تزداد الحضارة نقاء وصفاء وتحقق كينونتها . وتنتقل أخيراً إلى مرحلة المدنية ، فإذا بلغت غايتها من هذه المرحلة جمدت واستهلكت كل إمكاناتها واستنزفت عصارة حياتها ، وأصبح ذلك إيذاناً ببداية انهيارها الذى يقترن عادة باتجاهها إلى لون آخر من ألوان البربرية يصطبغ كل شىء فيه بصبغة المادية والاستغلال والضعة ، وهذه هى نهاية حياتها ، ولن يخلفها شىء من بعد لأنها قد ماتت ونضب معين الابتكار فيها . وتلك سنة يرى أنه لايستطاع معها تحديد عدد مراحل الدورةالحضارية لكل أمة فحسب ، بل ويمكن تحديد مداها الزمنى أيضاً .

وليس من اعتراض على فكرة الدورة الحضارية أو التاريخية فى حد ذاتها ،

ولم يكن القول بها من ابتداع شبنجلر ، وإنما سبقه إلى القول بها كثيرون ومنهم ابن خلدون فى الشرق ، وفيكو فى الغرب . ولكن ينصب نقد آرائه على ما ارتآه من إمكان التنبؤ الصحيح بمستقبل الحضارات وإمكان تحديد زمن دوراتها وتحديد أمد كل مرحلة من مراحلها ، وماقال به من أن انهيار حضارة ما يعنى موتها موتاً لانشور بعده . وقبل الإدلاء ببعض مايمكن تعديل نظريته به يحسن التقديم بأمرين ، وهما : أن قوانين الدورات الحضارية هى قوانين اعتبارية مرنة ليست كالقوانين الطبيعية جامعة ولامانعة . وأن تعبير الدورة لايعنى الحركة الدائرية بالضرورة وإلا لعادت الحضارات إلى حيث بدأت وسارت فى خطوطها القديمة نفسها ، وظلت فى حلقة مقفلة ، وهذا يخالف سنة التطور . كما أنها لاتعنى الحركة الحلزونية دائماً ، كما ظنها «فيكو» ، فالحركة الحلزونية قد تعنى الاتساع إلى الخارج باطراد ، وهذا إن حدث مرة فى حالة خاصة ، فقد لايحدث مرة أخرى فى غيرها .

وفى ظل هذه المقدمات ، يمكن التسليم بأن الدورات الحضارية أو الدورات التاريخية للأمم المتحضرة لاتكاد تخلو من وجوه شبه ظاهرية مع دورة الحياة التى يمر بها الكائن الحى ، لاسيما الكائن العاقل الذى يؤثر فى غيره ويتأثر بغيره ، ويختار بعض أمره ويجبر على بعض أمره . وعلى هذا الاعتبار تعاقبت للحضارات الكبرى مراحل طفولة ونشأة ، ومراحل فتوة وشباب ، ومراحل كهولة وشيخوخة . وكثيراً ما طالت فى الحضارات مراحل نشأتها وتلونت فيها بلون بيئتها ، وتعثرت فيها بين الفشل وبين النجاح فى تجارب تناسبها ، خلقت فيها بمجهوداتها الخاصة أشياء من العدم وقلدت فيها أشياء أخرى اقتبستها عن غيرها . وكثيراً كذلك ما تأثر شباب الحضارات بمدى استمرار الإمكانات والموارد البكر فى أرضها ، ومدى ماتوافر لشعبها من قدرة على الإبداع المادى والمعنوى فى فتوتها ، ومدى ونوع التحديات والأزمات التى واجهتها وأظهرت قيمة معدنها ، وتتفاوت مصائر الحضارات فى مراحل شيخوختها تبعاً لما أسست به بنيانها فى مراحل نشأتها وشبابها وازدهارها . وتتعاقب عليها خلال المراحل السابقة كلها ظروف داخلية وظروف خارجية قد تشجعها على الطفرة حيناً أو تجبرها على التراخى حيناً ، كما تدفعها إلى الانطواء أحياناً . ودورتها لاتكاد تختلف فى ذلك كله عن دورة الحياة للكائن العاقل إلا فيما جرت به سنة الخلق من انتهاء الكائنات الحية بعد الشيخوخة إلى زوال ، على حين استطاعت بعض الشعوب أو الحضارات والثقافات أن تسترجع شبابها بعد شيخوختها مرة ومرات ،

ونجحت فى أن تفيق من نهاية دورة تاريخية لتستأنف دورة أخرى مزودة بعزمات جديدة ، ومستعينة ببعض خبراتها القديمة التى تغنيها عن الرجوع إلى تجارب النشأة أو الطفولة والبدء بها مرة أخرى . وكانت مسيرة أمم الشرق الأدنى فى ركب التاريخ ضمن هذا البعض من الحضارات والشعوب ، فتعددت دوراتها واستعادت شبابها عدة مرات ، ولعلها الآن بسبيلها إلى تحقيق شباب قوى جديد .

عبد العزيز صالح

الفصل الأول

التشابه والتنوع فى حضارات الشرق الأدنى القديم
(والتأثيرات المتبادلة بينها وبين بيئاتها)

تعبير الشرق الأدنى القديم تعبير اصطلاحى تأثر إلى حد ما بالتعبير الأوروبى (The Ancient Near East) . وقد امتدت معالم الحضارات القديمة فى هذا الشرق امتداداً عميقاً واسعاً ، على الرغم من غلبة الطابع الصحراوى على معظم أراضيه . فانتشرت خلال عصور ازدهارها من أعالى الشام وأعالى العراق شمالاً حتى سواحل بحر العرب (أو المحيط الهندى) جنوباً ، ومن مصر وجزء كبير من شمال أفريقيا غرباً حتى الخليج العربى شرقاً . وشغلت ما يكاد يشغله الشرق العربى بمفهومه الحالى فيما يضم مصر والعراق والشام وشبه الجزيرة العربية والخليج ، وبعض شمال أفريقيا وشرقها وشمال السودان ، لولا أن صبغته العربية لم تكن قد اكتملت له بعد .

وبعد أن سايرت الحضارات الأولى للدهور الحجرية فى هذا الشرق الأدنى بقية الحضارات الأولية التى عاصرتها فى أنحاء العالم القديم الصالحة لنشاط الإنسان ، تميزت عنها وتفوقت عليها بالسبق الثقافى منذ فجر تاريخها ، أى منذ الألف السابع أو السادس ق.م فصاعداً ، بعد أن تمايزت بين حضارات وديان الأنهار الكبرى فيها حضارتان أصيلتان توافرت لهما تأثيرات شتى على بعض ما تعاقب بعدهما من حضارات ، ونعنى بهما حضارة مصر وحضارة العراق ، اللتين بدأ فيهما الانقلاب الرئيسى الثانى فى مجالات الحياة المادية للإنسان القديم ، وهو بداية حرفة الزراعة الأولية (بعد معرفة إيقاد النار) – كما بدأ فيهما التطور المعنوى الكبير الثانى لثقافات الشعوب القديمة ، وهو بداية فكرة الكتابة (بعد ممارسة بدايات الفنون الأولية) . ثم ظهرت فى بعض أنحاء الشرق الأدنى مع توالى نضج ثقافاته القديمة قيم أخلاقية وروحية متقدمة وتشريعات وضعية متكاملة ، وعقائد أخروية واعية ، وبذور للوحدانية الدينية ، وبعض أسس العلوم . كما أشرقت فيه ديانات سماوية ساهم بعض أهله فى نشرها – وكانت ولاتزال هدى للعالمين القديم والحديث .



وظلت آثار حضارات الشرق الأُدنى المعمارية والفنية القديمة أوفر عدداً وأعظم ضخامة مما عاصرها من آثار بقية الحضارات الأخرى . كما استمرت تطوراتها أوسع وأوضح من تطوراتها حتى أواسط الألف الأول قبل ميلاد المسيح ، حين أدت ظروفها وملابسات العالم الخارجي إلى انتقال موازين القوى وزعامة الحضارة من بلادها إلى الدولة الفارسية فى شرقها وإلى بلاد الإغريق ومن تلاهم من الرومان فى شمالها الغربى . وإن لم يكن هذا قد حرمها من أن تظل رمزاً باقياً للأصالة ، برغم كل ماتعاقب عليها من محن وشدائد ، كما لم يحل دون نهضتها بعد قرون طويلة عملاقة قوية فى ثوب حضار جديد بعد ظهور الإسلام فى أرضها وانتشاره فيها وفى كثير مما حولها .

وربطت بين مواطن العمران الحضارية الأولى فى الشرق الأدنى القديم عدة روابط طبيعية وجنسية وحيوية بقيت بعض آثارها محسوسة حتى الآن . ومعروف ما لطبيعة العوامل المناخية والبيئية من تأثيرات فى نفسيات الشعوب وملامحها ومعايشها وأخيلتها ، لاسيما فى عصورها التكوينية الأولى التى كان ارتباط الإنسان فيها ببيئته وخضوعه لإيحاءاتها أشد مما هو عليه الآن بكثير . وقد ظلت الظروف المناخية التى سادت العصور التاريخية للشرق الأدنى متشابهة المظاهر ومتشابهة النتائج إلى حد واضح . وكانت ولاتزال تميل إلى الجفاف فى معظم أحوالها ، فيما خلا مناطق قليلة اتصفت بمناخها الخاص على سواحل البحر المتوسط وإلى حد ما على سواحل ومرتفعات البحر الأحمر وبحر العرب أو المحيط الهندى . وظلت معابره البرية الطبيعية التى استخدمها أهله القدماء فى تنقلاتهم واتصالاتهم مفتوحة مطروقة فى غالب الأحيان ، إلا حيثما تطلبت المصالح الإقليمية زيادة تحصيناتها وتشديد الرقابة عليها فى فترات الغزوات الخارجية والهجرات الكثيفة أو العنيفة . وترتب على هذين العاملين أن ظلت أغلب الجماعات ذات الأثر فى عمران الشرق الأدنى وتحضره من السلالات التى عرفت اصطلاحاً باسم السلالات السامية الحامية [١] . وقد تحدرت فى بداية نشأتها من عائلة جنسية متمايزة ذات أرومة لغوية متقاربة . ثم انضافت إلى هوامشها من حين إلى آخر هجرات شعوبية دخيلة وفدت من أواسط آسيا ومرتفعاتها حيناً ومن جزر البحر المتوسط وسواحله حيناً ، ولكنها وفدت فى أغلب حالاتها قليلة

(١) راجع : عبدالعزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة - القاهرة ١٩٨٨ - ص٥ .

الأعداد وعلى فترات متباعدة ، مما شجع اللبانة السامية الحامية على أن تتشربها وأن تصبغها بصبغتها ثم تذيبها فى كيانها الجسنى واللغوى والفكرى الكبير . وقد نتج عن ذلك أن استمرت عوامل ومظاهر التشابه فى لغات هذا الشرق الأدنى القديم ، واتجاهات عقائد شعوبه وأساطيرها ، أكثر وأوضح من مظاهر الاختلافات الإقليمية بينها . وقد استشهدنا على ذلك بنماذج عدة تخيرناها من صور التشابه والتقارب اللغوى بين لغة المصريين القدماء وبين لغات جيرانهم ، التى سميت اصطلاحاً باسم اللغات السامية والحامية فى بعض بحوثنا السابقة ، ولهذا نحيل القارئ إلى ما فصلناه عنها فيها [1] . وحسب هذا الفصل من صور ذلك التقارب إمكان الاستشهاد بما يقر من مائتى كلمة مصرية قديمة ، لاتزال أمثالها حية مستعملة فى مفردات اللغة العربية الفصحى ، وهى مجرد قلة من كثرة اندثر بعضها ، وانزوى بعضها الآخر فى بطون المعاجم نتيجة للتطور الزمنى والحضارى لمفردات الكتابة والحديث . ولعل الأكثر دلالة على صلة الرحم القديمة هو وجود صلات جوهرية بين قواعد النحو فى كل من اللغة المصرية القديمة واللغة العربية بخاصة ، على الرغم من اختلاف صور الكتابة بينهما . ومن ذلك وجود حروف الحاء والعين والقاف فى اللغة المصرية القديمة ، وشيوع المصدر الثلاثى لأفعالها ، وغلبة الفعل المعتل الآخر فيها ، وما أخذت به من سبق الفعل للفاعل ، وإلحاق الصفة بالموصوف ، واستخدام صيغة المثنى ، وإضافة تاء التأنيث فى نهاية بعض الأسماء والصفات المؤنثة ، واستخدام ياء النسبة ، وتمييز البعض من الكل ، واستخدام كاف المخاطب وميم المكان وميم الأداة ونون الجمع ، مثلها فى ذلك مثل اللغة العربية ، فضلاً عن كتابة الحروف الساكنة وشبه اللينة فى كلماتها دون حروف الحركة أحياناً ، وتشابه عدد من ضمائرها مع ضمائر بعض لهجات اليمن ولهجات العراق ولهجات جنوب الشام فى العصور القديمة ، مع اختلافات يسيرة فى النطق بين كل واحدة منها والأخرى . ولاشك فى أن التقارب فى قواعد النحو بين اللغات لايتأتى عادة إلا عن طريق وحدة أصولها القديمة ، حتى وإن كانت أصولاً بعيدة .

غير أنه كان من البديهى أن يترتب على شدة انفساح رقعة الشرق الأدنى

---

(١) للمؤلف نفسه : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٢ - ص١٦ - ٢٢، و «شبه الجزيرة العربية فى المصادر المصرية القديمة» ، فى مجلة عالم الفكر - المجلد ١٥ ، الكويت ١٩ ، ص٢٩٣ ومابعدها .

القديم ، وتباعد المواقع الجغرافية لأطرافه ، وتباين التكوينات التضاريسية لأجزائه ، بعض التنوع الإقليمى فى الأوضاع المعيشية والاجتماعية والسياسية لمجتمعاته . وتتضح بعض صور هذا التنوع فيما ستتناوله الصفحات التالية من تباين تأثيرات ظروف البيئات النهرية والصحراوية والساحلية ، ونوعية ماتوافر لها من فرص الاختلاط والاتصالات مع بعضها البعض أو مع غيرها – فى تكوين قومياتها ومسيرة خصائص حضارات شعوبها .

* * *

فى مصر ووادى النيل :

إذا بدأنا بمصر ، فلعل أقرب ما يتبادر إلى الخاطر من نصيبها فى التمايز الإقليمى عن جيرانها ، هو أن جريان نهر النيل فى أرضها قد خفف نتائج جفافها المناخى بعض الشىء واستخلصها إلى حد كبير من النطاق الصحراوى العظيم ، الذى يحيط بها ويمتد فى أغلب بقاع الشرق الأدنى من الخليج إلى المحيط . ووجه معايش أهلها وجهة زراعية مترابطة وطبعها بطابع خاص من الكفاية والاستقرار ، حين أنسوا إلى سكنى ضفافه وزاد استقرارهم عليها منذ فجر تاريخهم القديم ، ومنذ نجحوا فى استغلالها كما أصبحوا يقدرون جوانب نفعه ، أكثر مما يتهيبون مظاهر جبروته وطغيان فيضاناته .

وأدت خاصية الامتداد الرأسى الطويل لنهر النيل من الجنوب إلى الشمال مع ندرة فروعه الطبيعية الجانبية فى مصر ، إلى تعاقب مواطن العمران فيها على جانبيه تعاقباً رأسياً أكثر منه أفقياً فى معظم واديه ، ولاسيما فى الصعيد ، وقبل التوسع فى استزراع ماحول أراضى الدلتا . وهى ظاهرة أدت إلى نتيجتين متقابلتين ، فأدت إلى ماهو معروف من تكاثف إقامة السكان فى مناطق محدودة المساحات نسبياً . ولكنها سمحت فى مقابل ذلك بتيسير الاتصالات البرية والمكانية ووسائل النقل المائية بينهم. وترتب على هذه الاتصالات البشرية والمكانية المتاحة بعض الأثر فى الإيحاء إلى كبار الحكام وكبار المفكرين المصريين القدماء بواقع الترابط الطبيعى بين أجزاء أرضهم ومدى اتصال مصالحها ومقومات حياتها وقوميتها . وأفضى هذا الأثر أو هذا الإيحاء ، مع غيره من مجريات الأحداث القديمة فى مصر خلال عصر ماقبل الأسرات ، إلى التبكير فيها بظهور أول وحدة سياسية كبيرة مستقرة معروفة فى تاريخ البشرية كلها .

ولم تخل البيئة المصرية من مشكلات تطلبت أن يواجهها سكانها بالتحدى العملى والفكرى حتى يتغلبوا عليها ، أو ييسروها ويقللوا من أخطارها . وغالباً ما كانت التحديات المصيرية ، ولاتزال من أهم الحوافز إلى التجديد والارتقاء والإبداع الحضارى.

والواقع أن أمور النيل ومطالب الزراعة لم تكن هينة دائماً فى أوائل عصور الاستقرار المصرى القديم ، وإنما تخللتها مصاعب وظواهر ظلت تتطلب كثيراً من العمل والجهد المتصل ، وإن يكن جهداً منتجاً فى حد ذاته ففيضانات النهر بقيت على الرغم من وجودها وانتظام مواسمها ، تستدعى اليقظة الجماعية لمواجهتها ، وتتطلب التعاون لتقليل أخطارها ، وتحتاج إلى كثير من بذل الجهد والصبر والمهارة لتيسير الانتفاع بها وتوصيلها إلى الأراضى المرتفعة عن مستوياتها . وظلت بعض ضفاف النيل ومناطق دلتاه بخاصة ، على الرغم من خصوبتها الفطرية ، موطناً للأحراج النباتية والمناقع المائية طوال دهور ماقبل التاريخ بل وخلال أوائل العصور التاريخية ذاتها . وبهذا بقيت هى الأخرى تحتاج إلى تكاتف بشرى وسعى متصل من أجل إستصلاحها وتهذيبها واستغلالها . وأدت جهود المصريين فى الحالين إلى تزكية إحساسهم الجماعى بضرورة الارتباط بحكم مركزى مستقر ، يشرف على جهودهم العامة وينسقها وينظم الانتفاع بنتائجها . وفى كل هذا مايبرر القول بأن الحضارة المصرية القديمة لم تكن هبة من النيل وحده كما يتردد أحياناً ، وإنما كانت هبة منه ومن مجهودات أهلها فى آن واحد [١] .

وإذا كانت الصحراوات المصرية الواسعة قد شابهت غيرها من صحراوات الشرق الأدنى ، فى مظاهر جدبها الطبيعى ، وفى أن الفقر كثيراً ما دفع بدوها إلى تعكير أمن حواف المناطق الزراعية وطرق التجارة البرية ، وظلت أمورها نتيجة لذلك تستدعى اليقظة الدائمة من الحكومات المصرية القائمة لكسر شرة بدوها وإلزامهم حدود الطاعة قدر المستطاع ، إلا أنه بقى لهذه الصحراوات من الخصائص ماتميزت به إلى حد ما عن غيرها .

فعلى نحو ما ظل النيل أباً حانياً لحضارة المصريين القدماء ، رغم الجبروت

(١) عبدالعزيز صالح : المرجع السابق - ص٨٤ - ٨٦ .

ظاهر لفيضاناته ، ظلت صحراواتهم الجافة الموحشة أمّا لحضارتهم من حيث لم حتسبوا . فقد أدى اتساع فيافيها الداخلية الخطرة إلى التقليل من إمكانية استخدامها سبيلاً للغزوات الشعوبية الخارجية ، التى كان يمكن أن تهدد استقرار وادى النيل لأخضر وتجانس سكانه . وتحقق بذلك للمصريين نصيب كبير من الوحدة الجنسية نسبية ومن الأمن الدولى القديم . وكفلت لهم صحاراهم ومرتفعاتها ، على الرغم من حشتها ، بعض مقومات مدنيتهم المادية ، نتيجة لوفرة معادنها من النحاس والذهب فرة نسبية ، وكثرة أحجارها مع تعدد أنواع هذه الأحجار وألوانها وضخامة بحورها ما سمح لهم بأن يقيموا بها على مر الزمن أضخم وأروع عمائر حجرية فى العالم لقديم قبل نهضة الإغريق . بل إن رمال الصحراء القريبة من وادى النيل لم تكن دورها بغير أثر فى تزكية آمال المصريين فى الخلود ، حين استغلوا جفافها لصيانة رفات موتاهم ومقتنيات مقابرهم سليمة لآماد طويلة .

وما من بأس فى أن يضاف إلى كل ذلك أن ما لقيه المصريون من متاعب بيئتهم المعيشية يقل نوعاً عما عاناه بعض جيرانهم الشرقيين من مشكلات بيئاتهم . والبيئة المناخية فى مصر كانت ولاتزال غير ذات تأثير معاكس على وجدان أهلها على الرغم من جفافها وقلة أمطارها . وهى إذا قورنت بكثير غيرها بيئة مأمونة العواقب هينة الحدة قليلة التقلب ، ليس فيها من شدة صراع الظواهر الطبيعية أو مظاهر الرهبة والصخب العنيف ما يمكن أن يوجه أهلها إلى اعتياد الصخب والعنف ، أو يطبعهم بطابع التمرد والقلق وتقلب الأهواء والمشاعر والعادات . ولم يكن من الغريب أن يترتب على ما ألفه المصريون من غلبة الخير على الشر فى أحوال نيلهم وواديهم وصحراواتهم ومناخهم بعض الأثر فى صبغ حضاراتهم المتعاقبة بصبغة غالبة من مظاهر التواصل والتكامل ، وصبغ حياتهم السياسية بطابع الاستقرار والاستمرار ، ثم الإيحاء إليهم بنوع من الشعور التلقائى بالكفاية النسبية ، كفاية الجهد المنتج فى الأرض ، وكفاية الموارد الطبيعية بها ، فضلاً عن كفاية مقومات الحضارة وصلاحية التراث فى بلدهم بوجه عام ، وبغير حاجة إلى مدد خارجى كبير .

ولم يكن انطباع المصريين بيسر البيئة ووضوح معالمها واستقرار أحوالها ، بغير أثر من ناحية أخرى فى ثبات تقاليدهم الاجتماعية والثقافية ، وصبغ إنتاجهم الفنى القديم بصبغة غالبة من بساطة الخطوط ووضوح التعبير وسماحة الهيئة والطابع المميز لاسيما إذا قورن بغيره من الفنون القديمة ، فضلاً عن ثبات عقائدهم الدينية التى

استوحوا أغلبها من طبيعة بيئتهم ، وبعدهم عن التعصب المذهبى وتغليبهم طابع الرحمة فى معبوداتهم القديمة على طابع العنف والنقمة . بل ولم يكن بغير أثر كذلك فى تزكية آمالهم فى عالم أخروى مستقر ، يجدون فيه أحسن ما استحبوه من الطمأنينة والكفاية والاستقرار فى دنياهم .

وعلى أية حال ، فليس فى كل هذا مايؤدى بالضرورة إلى تفضيل بيئة مصر على بيئة غيرها ، أو تفضيل حضارة شرقية على أختها ، وإنما يكفى الاستشهاد به على ما يمكن أن يتأتى من تبادل التأثر والتأثير بين البيئة وبين أهلها ، هنا وهناك ، وما قد يترتب على ذلك من اصطباغ حياة الشعوب بخصائص معينة تحتسب لها أحياناً أو تحتسب عليها أحياناً أخرى .

فى بلاد النهرين :

تشابهت تأثيرات الأنهار الكبيرة والصحراوات الواسعة فى العراق القديم مع تأثيرات أمثالها فى مصر فى بعض أمورها واختلفت عنها فى بعض آخر . فقد كفل نهرا الدجلة والفرات لأهل العراق الأقدمين خصباً وكفاية ، ووفرا لهم نصيباً كبيراً من الاستقرار فى المعيشة والسكن ، الأمر الذى ساعد حضاراتهم الأولى على أن تتضح فى عصور مبكرة لاتبعد كثيراً عن العصور ، التى نمت فيها بدايات الحضارة المصرية القديمة .

وساعد النهران وفروعهما على تيسير الاتصالات المكانية والمواصلات المائية وإتاحة فرص الارتقاء بصناعة السفن منذ فجر التاريخ العراقى القديم فى أواخر الألف الرابع ق.م . ولكن الملاحة فى النهرين لم تكن على الرغم من ذلك مأمونة العواقب دائماً ؛ نتيجة لشدة انحدارهما وسرعة جريان تيارات المياه فى أجزائهما العليا بعامة ، وبطء انحدارهما ، وكثرة مناقعهما فى أجزائهما الدنيا بخاصة ، بحيث ظلت عملية نقل وحدات الجيش عبر أحد النهرين تحتسب من الأمور الشاقة ، التى رددت النصوص العراقية القديمة مخاطرها حتى فى العصور الآشورية المتأخرة (١) . يضاف إلى هذا أن فيضانات النهرين مع ما حملته للعراق من خصب ورخاء واستقرار، كانت

(١) *See*, D.D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Bobylonia*, I, 287, 475, 558, 633, etc.; A. L. Oppenheim, "Babylonian and Assyrian Historical "Texts", in *Ancient Near Eastern Texts* (ed. by J.B. Pritchard), 1955, 275 f.

قبل أن تخفف الجسور ومشاريع الرى الكبرى والسدود من وطأتها وحدتها ، عنيفة مخشية الجانب في غالب أمرها ، لعدم انتظام مواسمها ، وشدة اندفاعاتها ، إلى حد أن أصبحت عبارة «زوبعة الفيضان» مثلاً استخدمه أدباء العراق القدماء للتعبير عن كل أمر كاسح مدمر . وكانت هذه الظاهرة أحد مبررات القول بحدوث طوفان عهد نوح عليه السلام فى العراق بخاصة . وقد تشتد هذه الفيضانات في غير فترات الحاجة الملحة إليها ، بحيث قد تعنف خلال مواسم الحصاد، أو تعنف فى أوائل الصيف حيث تؤدى شدة الحر والبخر إلى سرعة تسرب ماء الرى وجفافه من الأرض .

وأفضت خاصية الامتداد الأفقى الكبير للأراضى التى تتوسط النهرين والأراضى الواقعة على جانبيهما والمترامية على روافدهما وفروعهما (مثل الزاب الكبير والزاب الأصغر وديالى والكرخة وبالخ والخابور ..) ، فضلاً عن الامتداد الطولى الكبير للمناطق العراقية الواقعة بين حافة الخليج العربى وبين مرتفعات أرمينيا وزاجوراس ، إلى ظاهرة قيام وحدات سياسية وحضارية كثيرة متفرقة مستقلة بعضها عن بعضها ، نعمت كل منها بحكمها الخاص فى ظل دويلات المدن لفترات طويلة ، ولكن تفرقها هذا أدى من ناحية أخرى إلى قلة إحساس أهلها بالضرورة الملحة إلى التكاتف السياسى والترابط القومى فيما بينها إلا بوحى المطامع الإقليمية الطارئة ، التى تمثلت فى أغلب أحوالها فى رغبة بعض دويلات المدن في تعويض شح مواردها على حساب جيرانها ، وتأمين طرق تجارتها إذا سلكت سبلها فى أقاليم أخرى قريبة منها . وعملت هذه الأوضاع مع غيرها ، على ماشهد به تاريخ العراق القديم من أن سياسته العامة لم تتطور من الإقليمية إلى مرحلة الوحدة السياسية الكبيرة والقومية الواضحة والاتساع الخارجى إلا فى عصور متأخرة نسبياً (منذ عصر الأكديين) وبغير استقرار فعلى طويل ، ثم ماشهد به من استمرار المشاحنات الداخلية بين أمثال البابليين وجرانهم الآشوريين ، على الرغم مما كان بينهما من صلة الجنس وقرب الجوار ووحدة الديار .

واتصلت ببلاد النهرين من الغرب والجنوب صحراوات وبوادى واسعة لم تخل من نفع كبير ومن متاعب كثيرة فى الوقت نفسه . فكان من وجوه الخير فيها أن قامت على أطرافها أسواق تجارية رائجة (عرفت منها فيما بعد مقدمات الحيرة والأنبار والكوفة) ، وخرجت منها أو عبرها هجرات سامية كبيرة نزلت أراضى العراق

القريبة منها على فترات متقطعة ، وكانت تشتد على أهلها الزراع فى بداية اندفاعها ثم لاتلبث حتى تطمئن بعد ذلك إلى أسلوب معايشهم وتكفل التجديد فى دمائهم وتؤدى إلى التنويع فى حضاراتهم ، بل ونجحت أحياناً فى ضم شملهم وتوسيع حدودهم تحت راية زعمائها ، كما فعل الأكديون الساميون الذين حققوا وحدة جنوب ووسط العراق لأول مرة فى القرن الرابع والعشرين ق.م ، ثم اتسعوا بنفوذه الخارجى لأول مرة فى تاريخه ، وقلدهم بعد ذلك البابليون الساميون . وظل بعض من عاشوا فى واحات البوادى المتناثرة بين العراق وبين الشام من أدوات الاتصال التجارى والتبادل الحضرى بين بلاد النهرين وما أحاط بها من مواطن الحضارات القديمة الأخرى فى الشرق الأدنى . ومعنى ذلك كله أن انكشاف حدود العراق للهجرات السامية الصحراوية لم يكن شراً كله (على خلاف ماتصفه به عادة أغلب المؤلفات التاريخية الحديثة) .

ولكن صحراوات العراق وبواديه ظلت من وجه آخر شحيحة فى مواردها الطبيعية من المعادن والأحجار ، ولم تجد بمثل ما جادت به الصحراوات المصرية منهما . وهو وضع قلل من إمكان إقامة المبانى الحجرية فى جنوب ووسط العراق واستدعى استيراد بعض المعادن من خارجه . كما ظلت حواف البوادى المطلة على أرض الزراعة تتطلب جهداً عسكرياً متصلاً لمراقبة تحركات وتحرشات قبائلها البدوية الرعوية التى لم تكن تنقطع .

وبلاد العراق بلاد قارية داخلية ليست لها سواحل بحرية غير سواحلها الجنوبية على الخليج العربى الذى نافستها إلام فى استغلاله ، وأدى هذا بها إلى أن تتطلع دائماً إلى استخدام مخارج غربية تخدم مصالحها على ساحل البحر المتوسط ، بناء على اتفاقيات سلمية أو مشروعات توسعية حربية .

وجاور بلاد العراق من الشرق شعب كبير آخر لم يقل عن شعبها طموحاً ، ألا وهو شعب إلام أو عيلام ثم ماذى وفارس فى هضبة إيران . وكان من منطق الحوادث ألا ينقطع التنافس بينهما لاتصال الحدود واختلاف الجنس وتضارب المصالح ورغبة الغلبة .

وعوضت المرتفعات الشمالية والشمالية الشرقية سهول العراق القريبة منها ببعض ما أعوز المناطق الجنوبية من المواد الأولية لاسيما الأحجار والمعادن ، لولا أن

شعابها كثيراً ما اجتازتها هى الأخرى هجرات آرية رعوية كاسحة ، وكثيراً ما جاست فى وديانها قليات متفرقة خشنة ، عز على أفرادها أن ينسجموا فى معايشهم وعاداتهم مع الزراع العراقيين المستقرين على السهول ، وعز عليهم التوطن بسهولة معهم . وترتب على ذلك أنه كثيراً ما فاجأت هذه الأقليات وتلك الهجرات دويلات العراق المتحضرة المعاصرة لها بين كل حين وآخر ، وقطعت عليها نضجها السياسى وحرمتها نعمة الاستقرار الطويل . وينطبق ذلك على مافعلته هجرات الجوتيين والكاسيين (والحوريين) والميتانيين ، فضلاً عن غزوات العيلاميين والخاتيين (أو الحيثيين) على التوالى .

ومرة أخرى لم تكن الهجرات الآرية التى نزلت أرض العراق شراً عليها كلها ، فقد توفرت لها جوانب أخرى نافعة ، وقد لايكون من قبيل المصادفة أن أقدم تشريعات أشورية معروفة حتى الآن يغلب على الظن أنها ظهرت فى عصر امتداد هجرات الحوريين الآريين إلى أرض آشور (١) .

ولعله كان لتعدد الجنسيات والهجرات التى دخلت العراق فى عصوره القديمة بعض الأثر فى ظهور تشريعات عراقية متعددة ، تنظم العلاقات بين الطوائف المختلفة من السكان ، وبعض الأثر كذلك فى ظهور فكرة معاجم المفردات المقارنة باللغات القائمة فى حينها لتيسير انتفاع الجماعات المتنوعة بها .

وأخيراً قد لايكون من المستبعد أنه ترتب على ماتعوده أهل العراق القديم من الظواهر الغالبة لفيضاناتهم وصحراواتهم ومرتفعاتهم من حيث تعدد المشكلات فيها إزاء المنافع ، فضلاً عن تقلبات المناخ القارى وحدة الفوارق فيه ، بعض الأثر فى صيغ حياتهم القديمة بغير قليل من الحدة والتوتر ، وهى صبغة توافرت لها مزاياها أحياناً ، كما توافرت لها عثراتها أحياناً أخرى . بل وتوافر لها بعض الأثر كذلك فيما رددته أساطير العراقيين القدامى عن شدة عداء بعض أرباب بيئتهم لبعض ومنافسة بعضهم بعضاً . وبعض الأثر أيضاً فى توجيه فنون النحت والتصوير فى عصورهم الأولى بخاصة ، إلى إيثار المبالغة والميل إلى إشاعة الرهبة . ثم صرف معظم جهودهم الفكرية القديمة إلى توفية المطالب الدنيوية والتشريع لمعاملاتها دون اهتمام

(١) Th. J. Meek, "The Middle Assyrian Laws", in *Ancient Near Eastern Texts*, 1955, 180.

وأفضى هذا إلى نتيجة أخرى ، وهى أن مواضع الاحتكاك فى هذه المناطق كثيراً ما غدت من ميادين التنافس السياسى بين جارتيها القويتين مصر والعراق .

ووقعت أعالى الشام فى الوقت ذاته بين الكتلة السامية فى الشرق الأدنى والمجموعات الآرية، التى تحف بها فى آسيا الصغرى وأعالى النهرين ومرتفعات زاجوراس ، فكانت ميداناً للاتصال الحضرى بينهما واستفادت بذلك منهما ، ولكنها بقيت فى الوقت نفسه ميداناً للتنافس المسلح بينهما ، فشقيت بذلك بهما .

وظلت بوادى الشام من أهم مناطق الجذب والدفع البشريين فى الشرق الأدنى، ولم تهدأ الحركة فيها فى أغلب عصورها القديمة ، وشابهتها فى ذلك إلى حد ما بوادى العراق . وقد اكتسبت خاصية الجذب نتيجة لتميزها عن صحراوات شبه الجزيرة العربية المتصلة بها فى جنوبها ، بوفرة عشبها الطبيعى وفرة نسبية وصلاحية بعض واحاتها للإقامة والتكاثر صلاحية نسبية . فترتب على ذلك أن أصبحت منطقة إغراء بالنسبة لقبائل هذه الصحارى كلما زادت كثافتهم عن طاقة مواردها المحددة ، وكلما طالت موجات الجفاف واشتدت على مراعيهم ، وكلما مزقت الخلافات الداخلية شمل قبائلهم وبطونهم وأجبرت بعضهم على ترك مواطنهم إلى خارجها . واكتسبت هذه البوادى خاصية الدفع ، من ناحية أخرى ، نتيجة لوقوعها بين منطقتين غنيتين تمتازان عنها من مناطق الهلال الخصيب ، وهما ضفاف الفرات شرقاً والوديان والسهول الممتدة إلى سواحل البحر المتوسط غرباً ، مما جعل هاتين المنطقتين مطمحاً دائماً لأهلها ، فتسربوا إلى دولهما فى تحركات صغيرة عديدة خلال عهود تماسكها السياسى وقوتها العسكرية ، كما اندفعوا إليها فى هجرات كبيرة عنيفة فى عهود تخلخلها السياسى وضعفها الحربى (مما سنعود إلى ذكره فى صفحات قادمة) ، بل وامتدت تطلعاتهم أحياناً إلى الحدود المصرية الشمالية الشرقية أيضاً .

ولم تقم بادية الشام وحدها بعمليتى الجذب والدفع البشريين فى تاريخ بلادها ، وإنما شابهتها فى ذلك إلى حد ما بعض المناطق الجبلية الساحلية ، مثل مرتفعات فينيقيا أو سوريا ولبنان . فقد حفلت هذه المرتفعات بغابات متسعة من أشجار الأرز والصنوبر ، استغلها أهلها فى ممارسة الملاحة البحرية على نطاق واسع ، وضمنوا بها موارد تجارية ضخمة فى تعاملهم مع كل من مصر وبلاد النهرين وحوض البحر المتوسط الشرقى ، ولكن غناها النسبى هذا بمواردها الطبيعية جعلها مناطق إغراء فى

صريح عميق بأمور الآخرة وفلسفات الحساب والثواب المعنوية ، على خلاف اهتمامات المصريين القدماء بها ، رغم ماتدل عليه بعض الآداب العراقية من رغبة حكمائها الملحة فى تحصيل الخلود الدنيوى ودفع الموت والفناء بكل سبيل (فى مثل قصة جلجميش وغيرها) (١) ، ثم ماتدل عليه نصوصهم الدينية من حرصهم على إرضاء أربابهم في دنياهم وطمعهم فى أن يدع هؤلاء الأرباب أرواح موتاهم آمنة فى عوالمها البعيدة الغامضة (٢) .

فى بلاد الشام :

تأثرت بلاد الشام فى تاريخها القديم بإيحاءات بيئتها وخصائص موقعها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من مواطن الحضارات القديمة ، أو بما هو أكثر قليلاً منها . ومن أوضح هذه المظاهر والخصائص تأثيراً فيها هو التنوع الواضح فى تضاريسها ، وتعاقب الفواصل الجبلية فيها ، وتباعد مناطقها الخصبة بعضها عن بعض . فقد ترتب على تنوع هذه التضاريس وصلاحيتها فى الوقت نفسه للسكنى والتكاثر العددى ، وضوح التباين بين ميول أهلها ، أهل الجبال ، وأهل السواحل ، وأهل السهول والوديان، وأهل البوادى والصحارى ، وصعوبة اتحادهم فى وحدة قومية صريحة خلال الغالبية العظمى من عصورهم القديمة . وأفضى قيام الفواصل الجبلية فى بلاد الشام وتباعد مناطقها الخصبة بالتالى عن بعضها البعض إلى نتيجة مشابهة ، فتوزعت الوحدات السياسية والاقتصادية فى طول البلاد وعرضها على هيئة دويلات صغيرة أسهمت كل منها بدورها فى ركب الحضارة ، ولكنها ظلت متفرقة الإمكانات ، محدودة المساحات ، محدودة وسائل الهجوم والدفاع ، ولم يلتئم شملها فى وحدة سياسية كبيرة طوال عصورها القديمة حتى بداية ظهور الدولة العربية الإسلامية .

وتوسطت بلاد الشام بين حضارة النيل وبين حضارة النهرين ، فكانت من أدوات الوصل بينهما واستفادت منهما أو تبادلت النفع معهما . وظلت مناطقها الشرقية والشمالية الشرقية أكثر تجاوباً مع حضارات بلاد النهرين بينما ظلت مناطقها الساحلية الغربية ومناطقها الجنوبية أكثر تجاوباً مع حضارة النيل ، منذ مراحلها العتيقة الأولى.

(١) S.N. Kramer, "Sumerian Myths and Epic Tales", *op. cit.*, 44, 48 f.; E.A . Speiser, "Akkadian Myths and Epics", *ibid.*, 79 f. 90, 95, 96.

(٢) S.N. Kramer, *op. cit.*, 50 f., 52 f. ; Speiser, *op. cit.*, 87 f., 107, 109.

الوقت ذاته لطمع الهجرات والغزوات الآرية ذات الصلة بأمثال الحوريين والميتانيين ، الذين اندفعوا عليها على فترات مختلفة عن طريق ثغرة حلب وجنوبى الأناضول ، فضلاً عن إغراء السيطرة الاقتصادية أو السياسية عليها من الدول القوية المحيطة بها (لاسيما دول مصر والعراق وخاتى أو الحيثيين) .

واكتسبت المناطق المرتفعة نفسها خاصية الدفع من جهة أخرى ، نتيجة لأن غناها النسبى لايكاد يوفر الحياة الرغدة لغير الأعداد والجماعات المحدودة من السكان، بينما هو يعجز عن توفيرها بالكفاية نفسها كلما اشتد تكاثف أعدادهم وتضخمت فوق طاقة مواردها الطبيعية ، فلا يكون أمام بعضهم حينذاك إذا شاءوا أن يستعيدوا رغد الحياة إلا أن يلتمسوا أسباب الرزق الواسع بالهجرة لفترات قصيرة أو طويلة ، إلى أراض أخرى تستوعب طموحهم .

وتمتد سواحل الشام امتداداً طويلاً على البحر المتوسط ، وتمثل جزءاً كبيراً من النهاية الغربية لمنطقة واسعة من أقصى غرب آسيا ، وأدى هذا الوضع الطبيعى إلى عدة نتائج حيوية : فكان له أثره فى ازدهار عدة موانى طبقت شهرتها آفاق العالم القديم لعصور طويلة ، وأصبحت عصباً لدويلات مدن مستقلة ثرية (مثل دويلات جبيل وأوجاريت وصور وصيدا ويافا وعكا وغزة) . وكان له أثره كذلك فى توجيه نشاط أهلها وجهة بحرية وتجارية غالبة وقيامهم بدور الوسيط الاقتصادى والثقافى بين بعض المناطق الداخلية فى غرب آسيا وجزر الحوض الشرقى للبحر المتوسط من ناحية ، وبين سواحل أفريقيا الشمالية من ناحية أخرى . كما كان له أثره فى تشجيع بعض طوائفهم على الهجرة إلى الخارج عن طريق البحر المفتوح وبناء على توافر إمكانات التجارة فيه . ثم كان له أثره كذلك فى تعرضهم لهجرات غربية وفدت عليهم عن طريق هذا البحر أيضاً ، وكانت لها منافعها كما كانت لها أخطارها . وأدت هذه العوامل كلها إلى وضوح نسبة الاختلاط الجنسى بين أهل السواحل والأطراف فى الشام وفينيقيا بخاصة ، وتزويدهم بنصيب كبير من المهارة التجارية مع المرونة فى التعامل مع مختلف البيئات والأجناس ، وقدرة ملحوظة على التأقلم السريع بخصائص المجتمعات التى عايشوها أو التى اضطرتهم الظروف إلى الانتقال إليها والتماس الإقامة القصيرة أو الإقامة الطويلة فيها .

فى شبه الجزيرة العربية :

تعتبر شبه الجزيرة العربية من أكبر أشباه الجزر القارية وأشدها جفافاً وصحراوية . وقد وفرت لها طبيعتها البيئية فوائد شتى ومشكلات كثيرة ، حيث حمت كتلتها الصحراوية الكبيرة أهلها القدامى من أخطار الغزوات الكثيفة إلا فى حالات محدودة . وكفلت لهم نعمة الاستقلال آماداً طويلة ، وساعدت على نقائهم الجنسى واللغوى إلى حد مناسب لاسيما فى مناطقها الوسطى . وجعلت بعض سكان أطرافها وسطاء لاغنى عن الاستعانة بهم فى عمليات الوصل التجارى البرى بين سواحل المحيط الهندى ومايصل إليها من شرق أفريقيا من ناحية ، وبين ضفاف الفرات فى العراق ، وسواحل البحر المتوسط فى الشام ، وحدود مصر الشمالية الشرقية من ناحية أخرى . وربما أسبغت على أهل البوادى طبيعتهم الطلقة الرحبة والقاسية فى الوقت نفسه شيئاً من صفاء الذهن وتوقد القريحة التى عرفوا بها قبيل الإسلام ، وإن لم يصلنا للأسف من آثارهما الحضارية الأولى حتى الآن غير القليل النادر .

ولكن ضخامة الكتلة الصحراوية الجافة فى شبه الجزيرة العربية أدت فى الوقت ذاته إلى تضييق آفاق الاستثمار القديم أمام أهلها ، فيما أقامت شعوب الهلال الخصيب القريبة منها حضاراتها المادية عليه ، سواء من حيث اتصال العمران أم من حيث وفرة الإنتاج الزراعى ورواج الصناعة . كما قللت تفاعلهم مع هذه الحضارات تفاعلاً إيجابياً عميقاً ، وإن لم تحرمهم تماماً من الاحتكاك بها والاستفادة بها والاستفادة منها استفادة متقطعة ، عن طريق مناطق حوافها الحدودية وعن طريق الاتصالات التجارية .

وفرضت الظروف الطبيعية لشبه الجزيرة على حياة أهلها القدامى صوراً شتى من التنوع الاجتماعى والاقتصادى . وترتب هذا التنوع على ضخامة مساحتها وتباين تضاريسها واختلاف مواقع أطرافها وبطء الاتصالات بين أجزائها ثم تفاوت نوعية فرص الاستغلال التى تهيأت لكل جماعة من جماعاتها . فشبه الجزيرة العربية مع طابعها العام المعروف ، قد توزعت فيها تلال عادية الارتفاع وجبال شاهقة الارتفاع. وامتدت على حدودها الغربية والجنوبية سواحل صخرية يصعب الانتفاع بها وسواحل أخرى وموان يتيسر استغلالها . وكما شغلت معظمها صحراوات شاسعة مترامية ، تنوعت هيئات كثبانها ورمالها ، انتشرت فى بعض أماكنها الداخلية حرار وأراض

بركانية . وتوزعت فيها وديان تتعرض للسيول العنيفة المتباعدة ، وسهول خصبة تصلح للاستغلال ، وثالثة قاحلة تعز عليها موارد الماء من الأرض أو من السماء على السواء . وأدى هذا التباين الإقليمي والتنوع البيئى فى شبه الجزيرة العربية إلى اختلافات ضمنية فى معايش واتجاهات أهلها القدامى ، البدو منهم والحضر ، والجبليين والزارعيين ، والشرقيين والغربيين ، والشماليين والجنوبيين ، والمستقرين والجوابين ، مع إتساع المسافات الفاصلة بينهم . وكان لذلك بعض الأثر أيضاً فى حرمانها من تحقيق وحدتها السياسية الكاملة فى عصورها القديمة إلى أن توحدت مختلف جماعاتها وأطرافها باسم الدين مع ظهور الإسلام ، ثم أخيراً حين تكونت بها الدول الكبيرة فى العصر الحديث .

ولعل أهم ماتداولته المناقشات التاريخية عن توجيهات بيئة شبه الجزيرة العربية لأهلها ، هو دفعها لأغلب قبائلها البدوية القديمة إلى التحركات الداخلية من منطقة إلى أخرى بين كل حين قصير وآخر ، ثم دفعها لبعض جماعاتها فى هجرات كبيرة إلى ما يجاورها من حواف الهلال الخصيب بين كل حين طويل وآخر .

وتمثلت دوافع التحركات القبلية الداخلية القديمة ، فيما هو معروف ، فى تفرق موارد الماء ، وتغير مناطق العشب والرعى ، وتسابق مختلف القبائل والعشائر إلى استغلال هذه الموارد والمناطق والاستئثار بها والتحكم فيها ، كلما استطاعت سبيلاً إلى ذلك ، فضلاً عن كثرة المنازعات والحروب الداخلية التى تغذيها الطبيعة البدوية والروح القبلية ، واضطرار الجماعات المستضعفة إلى النزوح خلالها عن مواطنها المحلية إلى حيث تبحث عن الأمن والاستقرار ولو بعيداً عنها . وترتبت على هذه التحركات الداخلية مزايا وعيوب . وتمثلت مزاياها فى اعتياد البدوى بعامة على حرية السعي والانتقال ، وتجدد رغبته فى أن تظل مسالك الأرض العربية متاحة له ، يسعى فيها أنى شاء ويتلمس رزقه فيها حيثما شاء ، طالما توفرت له الوسيلة والجرأة وطالما اطمأن إلى مساندة عشريته وكثرتها . على حين تمثلت عيوبها فى أنها كثيراً ماشلت أيدى رؤساء القبائل الكبيرة القديمة عن توحيد كلمتهم داخل وحدات سياسية مستقرة واسعة تستطيع أن ترسى مقومات الحضارة الثابتة وتطورها وتنميها ، إلا لمرات معدودة ولفترات محددة ؛ نتيجة لتباعد مواطن بعض هذه القبائل والمناطق عن بعض ، واختلاف مصالحها الخاصة ، وتضارب الحريات التى افترضتها لأنفسها ، ثم حرص أوفرها عدداً وبأساً على توسيع مجالات نفوذها وحرياتها وأرزاقها على

حساب جيرانها دون كبير اعتبار منها لفكرة الصالح القومى العام ، ودون التزام كبير منها بحقوق بقية القبائل العربية الغربية عنها أو العشائر المستضعفة إزاءها ، على الرغم من وحدة الجنس واللغة والديار بين الجميع .

ولم تقتصر التحركات الداخلية على المناطق الصحراوية الوسطى والشمالية فى شبه الجزيرة ، وإنما امتدت بعض مسبباتها ونتائجها كذلك إلى عدد من المناطق الصالحة للاستقرار الطويل فى الجنوب العربى . فكثيراً أفضت منازعات أمراء القبائل والأقاليم هناك ، وأطماع الدول الجنوبية فيما بينها ، مثل حروب دول السبئيين والمعينيين والقتبانيين والحضرميين ، بل ومنافسات أقاليم الدولة الواحدة منها ، كمنافسات الهمدانيين والريدانيين ، بعضهم لبعض ، إلى استهلاك قوى دولهم ودويلاتهم وإمارتهم بين كل حين وآخر ، وتقصير أمدها وتشتيت بعض أهلها . وكثيراً مادفعت هذه المنافسات بطوناً إلى ترك أمهاتها على أطراف الجنوب والرحيل عنها إلى مواطن أخرى شمالية بالحجاز وما ورائه ، بل وإلى أرض نجد أحياناً ، على الرغم من شدة تصحر بيئتها الطبيعية الداخلية عن بيئة الجنوب .

وانشعبت الآراء فى تعليل دفع شبه الجزيرة العربية لبعض سكانها فى هجرات خارجية كبيرة نسبياً إلى مناطق وأطراف الهلال الخصيب فى العراق والشام ومصر ، إلى ثلاثة آراء رئيسية :

* رأى تصور أصحابه (ومنهم كايتاتى) أن شبه الجزيرة كانت أشبه بمستودع بشرى كبير للعناصر السامية القديمة ، وأن نوبات الجفاف الشديدة الطويلة التى تعاقبت على أرضها فى دورات مناخية ثابتة ظلت عاملاً أساسياً فى ضيقها بسكانها الزائدين عن طاقة مواردها الطبيعية ، وظلت سبباً فى دفعهم إلى الهجرة الكثيفة منها إلى الخارج على حقب متباعدة ، يفصل بين الواحدة منها والأخرى ألف عام [١] .

* ورأى آخر عارض تعليل الرأى الأول ، وهون أصحابه (ومنهم ألوا موزيل) من أهمية تأثير نوبات الجفاف فى ذلك الدفع البشرى الكثيف إلى الخارج .

(١) Caetani, "L'Arabia Preistorica e L'essi Camento della...", *Studi di storia orientale*, I. Milan, 1911, 51 f. and 289 f. (after Alois Musil, *Northern Negd*, Appendix X) .

ورأوا أن تحديد ما بين الدورات المناخية وفترات الهجرة بألف عام ليس له أساس تاريخى يزكيه . وقدروا من ناحيتهم أن أسباب الهجرات العربية الكبيرة القديمة تمثلت أساساً فى عاملين بشريين ، وهما : تعاقب الضعف السياسى على إمارات شبه الجزيرة العربية من حين إلى آخر ، ثم تحول طرقها التجارية عن مسالكها الرئيسية لسبب أو لآخر . وأقام هذا الرأى حجته على أساس أن الإمارات المستقرة القوية تستطيع أن تذود عن ديارها وأن تحمى مواردها الطبيعية وتنميها ، وتستطيع أن تحسن استغلالها وتنظم الإنتفاع بها ، ويمكنها أن ترعى أسباب العمران فى أراضيها ، وأن توفر السلام لأهلها كما تيسر أسباب الرزق لأعدادهم المتزايدة ، طالما احتفظت ببأسها - فإذا اعتراها التمزق السياسى أدى إلى عجزها عن حماية أرضها وعن مواصلة مشاريع التنمية والاستغلال والعمران فيها ، والعجز عن حفظ الأمن والسلام الداخلى ، حتى ينتهى الأمر إلى شيوع الفتن والفرقة فى أقاليمها ، وإلى بوار أرضها وإهمال موارد الرى فيها والعجز عن تنظيم استغلالها ، ثم العجز بالتالى عن توفية مطالب إقامة سكانها .

ولم يقل أثر تحول الطرق التجارية الرئيسية ، فى نظر أصحاب هذا الرأى ، عن أثر ضعف الإمارات فى دفع الهجرات الكثيفة ، على أساس أنه كان من شأنه كلما حدث أن يفضى إلى كساد التعامل وبوار الأرزاق وانتشار الفقر والمجاعات على امتداد الطرق التجارية المهجورة وفى محاط القوافل التى يقل نشاطها الاقتصادى ، ثم يؤدى فى نهاية أمره إلى ضيق أهلها بأرضهم ، وضيق مواردها بهم .

وهكذا إذا اشتد تأثير أحد العاملين ، تمزق الإمارات ، أو تحول طرق التجارة الكبيرة ونضوب مواردها ، أو ازدوج هذين العاملين ، لم يكن هناك مناص من أن تترك جماعات كثيرة من السكان مواطنها وتهاجر منها إلى مواطن أخرى خارجية ، تطمع أن تضمن فيها معاشها وتطمع أن تأمن فيها على أهلها (١) .

ويبدو أن هذا الرأى كان أكثر التفاتاً إلى ظروف الجنوب العربى ، حيث قامت دول ودويلات كثيرة وانهارت ، وحيث اشتدت المنافسات الداخلية والخارجية على

---

(١) Alois Musil, *Northern Negd, A Topographical Itinerary*, (The Oriental Exploration and Studies, V), New York, 1928, 304 f. and 311 f.

تحويل طرق التجارة الكبيرة من مسار إلى مسار بين كل حين طويل وآخر .

وجمع رأى ثالث بين وجهتى النظر السابقتين ، واعتقد أصحابه (ومنهم حزين) أن العوامل السياسية ، التى تمثلت فى تعاقب ضعف الإمارات وعجز الحكام واضطراب موارد التجارة ، كما تمثلت فى تكرار الفتن والمنازعات هى عوامل يشتد أثرها فى دفع الهجرات فعلاً ، ولكنها غالباً ماتكون عوامل مباشرة وليس عوامل أساسية . أما العوامل الأصيلة فتتمثل فى الجفاف الطبيعى نفسه ؛ بمعنى أن منازعات القبائل على الماء والمرعى والتجارة تشتد عادة بعد ظهور الجدب البيئى فعلاً ، وأن ضعف الإمارات يشتد بدوره بعد بوار مواردها وبعد حدوث القحط فعلاً ، لاسيما وأن نزوح الهجرات كان يبدأ عادة من المناطق المعرضة للجفاف الشديد أكثر مما يبدأ من غيرها ، ولكن دون التقيد بدورة الألف عام التى خمنها كايتانى [1] .

ونرى تزكية آراء هذا الاتجاه الأخير ، مع إضافة ملاحظة رئيسية عليه ، وهى أنه مع منطقية اعتبار شبه الجزيرة العربية مصدراً أولياً لكثير من السلالات السامية القديمة ، التى انتشرت فى الشرق الأدنى القديم ، إلا أنه ليس ثمة مايؤكد اتجاه هجراتهم الكثيفة منها إلى الأراضى الزراعية فى بلاد الهلال الخصيب رأساً وفى دفعات كبيرة دائماً أو على فترات قصيرة ، لأمرين : أولهما أن نزوح هجرات كثيفة متماسكة من أرض ما يتطلب عاملاً أساسياً ، وهو أن تسمح موارد هذه الأرض فى أحوالها العادية بتكاثف سكانها ، حتى إذا نزل القحط بها واشتد وطال أمده ونضبت معه مواردها ، اضطرت أعداد كبيرة من سكانها الكثيرين إلى أن تنشد لنفسها حياة خارجية أفضل من حياة أرضها ، على نحو ماحدث بالنسبة لرعاة مناطق الاستبس الأورو آسيوية أكثر من مرة فى تاريخهم القديم وتاريخهم الوسيط .

أما الأمر الآخر فهو أنه لم يكن من اليسير على أصحاب هذه الهجرات وأغلبهم من البدو الرعاة ، أن يسارعوا بتغيير حياتهم ليكونوا مزارعين مستقرين فى الهلال الخصيب بعد وقت قصير من هجرتهم .

ولم تكن موارد شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، تسمح بالتكاثف السكانى الكبير فى أطوارها العادية ، فى حدود المعلومات المعروفة عنها حتى الآن ، وبغض النظر عن الدهور الحجرية المطيرة التى سبقت عصور الهجرات التاريخية

(١) S.A. Huzayyin, *Arabia and the Far East*, Cairo, 1942, 3f.

بعشرات الآلاف من السنين . وإنما الأقرب إلى الظن فيما يبدو هو أن الهجرات السامية الكبيرة لم تكن تصل من شبه الجزيرة إلى مناطق الهلال الخصيب ، دون أن تمر ببضع مراحل تمهيدية ؛ بمعنى أن عوامل القحط والجفاف الشديد وضعف الإمارات ونشوب الخصومات وتغير مسالك التجارة الرئيسية ، كان من شأنها أن تدفع جماعات قبلية صغيرة أو كبيرة إلى التحرك فى هجرات بطيئة متقطعة من شبه الجزيرة العربية إلى بوادى الشام وبوادى العراق ، حيث المعيشة أنسب وآثار القحط أخف وحيث البيئة أقرب إلى بيئتها الأصيلة ، وحيث هى معتادة عليها فى هجراتها الفصلية . فإذا نجحت أمثال هذه الهجرات القبلية المتقطعة فى الإقامة بمواطنها الجديدة مع سكانها الأصليين بناء على تراض واتصالات سابقة ، أو بناء على القسر والغلبة ، تشجعت جماعات قبلية أخرى من جاراتها ولحقت بها ، أو مرت جماعات أخرى بنفس ظروفها وكررت فعلتها ...

وتبدأ مرحلة تالية إذا طال توطن هذه الجماعات فى بيئتها الجديدة ، وساعدتها ظروفها على التكاثر السكانى والتكاثف المعيشى النسبى ، واقترب أهلها شيئاً فشيئاً من أطراف الهلال الخصيب بعد أن سمعوا بخيراتها أو دفعتهم ظروفهم إليها ، ثم تعاملوا معها ونهلوا بعض الشيء من أرزاقها ولمسوا رخاءها ، وطمعوا من ثم فى أن ينعموا بنصيب منه . وترتبط هذه المرحلة بالأمر الآخر الذى بنينا عليها ما أضفناه على المذهب الثالث فى تعليل الهجرات العربية الكبيرة .

وجدير بالذكر ، على سبيل التشبيه الضيق ، أن طغيان العوامل البيئية على مقومات الحياة البشرية فى بعض مناطق شبه الجزيرة العربية وعمله على تقليل فرص الاستقرار والاستثمار الطبيعى ، أمام سكانها بقيت بعض آثاره حتى العصر الحديث فيما قبل استغلال مصادر البترول . فإقليم الأحساء على سبيل المثال ، وهو إقليم ساحلى سبخة كثير المياه والزروع فى أحواله العادية ، كثيراً ماتعرضت أرضه المحيطة بالعقير والقطيف ، وهى من مناطق الاتصال الرئيسية بين المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية وبين جيرانها على الخليج العربى وفى جنوب العراق ، لزحف الكثبان الرملية الكثيفة التى قد تغطى مزارعها أحياناً وتطويها ، بل إنها لتكسو حين شدتها أشجار الأثل والنخيل النامية فى المنخفضات بحيث لاتظهر منها غير أطرافها(١) . وكان من شأن تكرار مثل هذه الظاهرة أو اشتدادها فى عهود ماقبل الثراء

(١) See, P.B. Cornwall, "Explorations in Hasa", *The Geographical Journal, Jan.-Feb.*, 1946, 3f.

النفطى الحديث ، أن يضيق مجالات الرزق أمام أهل المنطقة ويدفع بعضهم إلى الهجرة منها . ولما كانوا أصحاب مزارع ومياه ، فإن بيئة العراق الجنوبى الزراعى ظلت أنسب لهجراتهم من غيرها . ولكن يغلب الظن أن أمثالهم ما كانوا يتركون أرضهم فى شكل هجرة جماعية كبيرة بسهولة ، فأرض الوطن عزيزة على أهلها مهما بلغ من فقرها الطارئ. ولذا أن نفترض أن جماعاتهم الصغيرة كانت تتسرب ببطء تدريجى إلى الشمال مدفوعة بقسوة الظروف . وما كانت مثل هذه الجماعات مهما بلغ عددها لتسمح بتشكيل هجرة تاريخية تدخل أرض العراق مثلاً وتستقر فيها دفعة واحدة ، أو تؤثر فيها تأثيراً فعالاً ، وإنما كان أهلها يتلاحقون وراء بعضهم البعض على فترات ، أسراً وعشائر ، ثم يتفرقون على أطراف العراق أو بالقرب منها ، إلى أن تكتمل لهم مقومات مرحلة جديدة يمكن أن تجعل منهم أصحاب هجرة فعلية مؤثرة ولو إلى حد ما .

وتبدأ مرحلة ثالثة للهجرات الكبيرة ترتبط بما أسلفناه عن عملية الدفع البشرى من بوادى الشام والعراق إلى ماحولها ، حين يتعرف المهاجرون الطامحون على مواطن الضعف فى حدود دويلات الهلال الخصيب المستقرة المجاورة لهم والطامعين فى خبراتها ؛ فيبدأوا من ثم يترقبون الفرص لصالحهم ، حتى إذا تفككت وحدتها وضعفت قوتها وخفت قبضتها عن حماية ذمارها ، لأسباب داخلية أو لأسباب خارجية، تسربوا إليها أسراً وعشائر وشاركوا أهلها معايشهم ، أو اندفعوا إليها قبائل وجيوشاً إذا توافرت لهم الزعامات القوية ، ثم تغلبوا على أهلها وسيطروا على أرضهم وحكمهم .

ويمكن افتراض مايشبه هذه المراحل المتتالية بالنسبة للهجرات الأكدية والبابلية والآرامية حتى نزولها أرض الزراعة بالعراق ، وبالنسبة كذلك لهجرات الأموريين والكنعانيين (والساتو والأخلامو والخابيرو والعابيرو) والآراميين حتى نزولهم مناطق الخصب فى بلاد الشام والعراق .

ولم تخل طبيعة شبه الجزيرة العربية من تأثير فى عقائد سكانها الأوائل ، فقد ترتب على صفاء سمائها فى أغلب أحوالها ، وتطلع أهلها إلى صيب السماء وأمطارها، واعتماد قوافلهم السارية بالليل على هداية القمر والنجوم ، أن اتجه تدينهم إلى السماء أكثر من غيرها ، وحاولوا أن يتقربوا من القوى المتحكمة فيها ، وجعلوا القمر والشمس والشعرى على رأس أربابهم العديدين ، أو هم بمعنى آخر قدسوا أرباباً تخيلوهم

يتحكمون فى هذه الأجرام الثلاثة ، وأطلقوا عليهم ما شاءوا من الأسماء والصفات . وظلت ديانتهم فى جوهرها ديانة قمرية أكثر منها شمسية (١) ، ربما لشدة هجر الشمس وقلة نفعها بالنسبة لأهل الصحارى بخاصة ، وإن لم يصرفهم هذا عن إجلال ربتها ورهبتها .

* * *

وأخيراً فليس من شك فى أن التنوع البيئى والمعيشى والوجدانى والسياسى الذى أوجزناه لبلاد الشرق الأدنى القديم داخل وحدته الجنسية واللغوية الكبيرة القديمة ، كان مسئولاً إلى حد كبير عن مراحل التنافس السياسى والحربى التى نشبت بين شعوبه وقطعت عليها سلامها واطمئنانها من حين إلى آخر . وكان مسئولاً كذلك عن سوء فهم الفريق منها للفريق الآخر أحياناً ، ليس على مستوى الشعوب وحدها بل وبين طوائف الشعب الواحد أيضاً فى بعض الأحوال ، لاسيما فى مناطق العراق وبلاد الشام .

ولكن ليس من ريب كذلك فى أن ذلك التنوع لم يكن فى الوقت نفسه بغير قيم وفوائد حيوية لشعوبه . فقد كان من شأنه أن يحفظ لكل بلد منها شخصيته الإقليمية واضحة ، وأن يكفل لكل شعب منها خبراته الخاصة التى اعتز بها واشتهر بها ، وأن يطلق العنان لخيال أصحابه كى يشيدوا بعراقتهم وأصالة موطنهم كيفما شاءوا . وكان يؤدى إلى ثراء الفنون الشرقية فى مجملها ، وإلى تعدد صناعاتها ، باختلاف مقوماتها واختلاف أذواق أصحابها ، وإلى فتح مجالات المنافسات الاقتصادية والفنية المشروعة بينها فى الأسواق الخارجية . وكان من شأنه كذلك أن يفتح مجالات الاتصالات الحيوية بين مختلف حضاراته ، حين كان يلزم أصحاب كل حضارة بأن يستكملوا ماينقص بيئتهم من المواد الأولية والكمالية ومن الخبرات الصناعية والفنية من أصحاب الحضارات الأخرى .

ولازال مدى تأثير كل حضارة من هذه الحضارات الشرقية فى أختها ، موضعاً لمجادلات تاريخية وأثرية طويلة ، ولكنها مجادلات لاتنفى إطلاقاً عمق صلات

---

(١) ديتلف نيلسن : الديانة العربية القديمة (فصل من التاريخ العربى القديم – تعريب فؤاد حسنين) – القاهرة ١٩٥٨ – ص١٧٢.



بعضها ببعض منذ فجر تاريخها البعيد [١] . وذلك ماسوف تناقشه الفصول التالية فى سياق بحثها لمراحل التطور فى كل حضارة من حضارات الشرق الأدنى القديم على حدة .

* * *

(١) *See*, V. G. Childe, *New Light on the Most Ancient East*, 1952, 111 f.; H. Frankfort, *AJSL*, 1941, 239 f.; *The Birth of Civilization*, 1951, 110 f. ; Scharff-Moortegat, *Die Frukulturen Aegyptens und Mesopotamiens*, 1941; H. Kantor, *JNES*, 1942, 174 f.; 1952, 239 f.; R. Weill, *Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps* Prépharaoniques, 2 partie, Parisa 1961, 279 f.



الشرق الأدنى ودهوره الحجرية فيما قبل التاريخ

تعبير «ماقبل التاريخ» تعبير زمنى اصطلاحى مرن ، يطلق عادة على كل الأزمنة السحيقة التى سبقت عصور اهتداء الأمم القديمة إلى الكتابة وإلى تكوين القوميات الكبيرة والوحدات السياسية المستقرة . ويرادفه إلى حد ما تعبير حضارى اصطلاحى آخر يقل عنه امتداداً فى الزمن ، وهو تعبير «الدهور الحجرية» . وتقصد به الدهور التى بدأت معها حضارة الإنسان البدائى ، أو التى بدأت بمعنى أصح بالدهر ، الذى استطاع الإنسان الأول أن يصنع فيه شيئاً بيده عن قصد وهدف ، والتى لم يستخدم أهلها معادن مصنوعة ، وإنما اعتمدوا أساساً على أدوات حجرية بدائية كانوا يشكلونها بما يناسب مطالبهم المحدودة ، ويستخدمون إلى جانبها أدوات أخرى أقل بقاء منها اتخذوها من فروع الشجر ، ومن عظام الحيوانات الكبيرة النافقة وقرونها وأنيابها الضخمة ، ومن الأصداف البحرية الكبيرة حيثما توافرت لهم .

ولايزيد المعروف من الآثار الحضارية لما قبل التاريخ ودهوره الحجرية الطويلة، عن آثار متواضعة ضئيلة خشنة متفرقة ، لاتكاد ترضى غير المتخصصين فى دراستها وبحثها . ولكنها على الرغم من ضآلتها وخشونتها ، وعلى الرغم من بطء تطورها واستمرار مظاهرها المتواضعة عشرات الآلاف من السنين ، فإنها آثار لايستطيع التاريخ أن يتجاهلها إلا إذا تنكرت البشرية لأصولها الأولى وتناست شقاء أسلافها المبكرين الذين واجهوها وحشية البيئات القديمة وعملوا على أن يستغلوها ، وواجهوا جبروت كائناتها العديدة وكافحوها ما استطاعوا ، وذلك على الرغم من أنهم كانوا حينذاك لايزالون قلائل متفرقين ، وكانوا لايزالون عزلاً إلا من عقليات طفلية حائرة وتجارب محدودة متعثرة ، فى عالم كان البقاء فيه للأقوى دائماً ، قبل أن يصبح البقاء فيه للأذكى .

فى الدهر الحجرى القديم الأسفل :

بدأت بواكير النشاط الحضارى البدائى لإنسان الشرق الأدنى ، وماعداه من

المناطق الصالحة للإقامة فى العالم القديم ، فى دهر يسمى اصطلاحاً باسم الدهر الحجرى القديم الأسفل [(١)] ، وهو دهر مديد للغاية ، لن نطيل فى مناقشة امتداده وخصائصه ، ولكن يكفى التنويه هنا بأن الفوارق الزمنية بين النظريات المختلفة فى توقيته تبلغ وحدها عشرات الآلاف من السنين ، وأنه تعاقبت فيه على مناطق العروض الوسطى والمدارية التى يقع الشرق الأدنى فيها ، حقب مطيرة طويلة جداً ، وحقب أخرى جافة طويلة جداً [(٢)] ، تكاد تقابل ما شهدته مناطق العروض العليا من تقدم موجات الجليد وموجات انحساره .

وكانت خطوات بواكير الحضارة فى هذا الدهر بطيئة للغاية بحيث تشابهت مظاهرها المتواضعة حيثما وجدت آثار البشر فى دهرها . واستخدم الإنسان فيها أدواته اليدوية البدائية فى الدفاع عن نفسه ضد الحيوان وضد أخيه الإنسان . وكان يستعين بها فى تحصيل معاشه ، وذلك كأن يستخدمها فى صيد الحيوانات الصغيرة وتهشيم عظامها وتقطيع لحومها وسلخ جلودها ، ويستخدمها فى اقتلاع مايستسيغ أكله من جذور النباتات ، ومايود إسقاطه من ثمار الشجر . واتخذ الإنسان أدواته تلك من الأحجار وفروع الأشجار ومن العظام والمحار ، ولكنه حرص حيثما استطاع على أن يتخذ أكثرها استعمالاً فى حياته اليومية مما يتوافر فى بيئته من قطع الأحجار الصلبة. وهدته التجارب إلى أن أصلح الأحجار لأغراضه هى قطع الظران ، فكانت أداته المفضلة عبارة عن زلطة غليظة من الظران [(٣)] يحرص حين يتخيرها على أن تكون قاعدتها مناسبة لقبضة يده ، ويترك هذه القاعدة بشكلها الطبيعى وبقشرتها الطبيعية ما دامت ملساء نوعاً لاتؤذى كفه ، ثم يشكل قمتها وجوانبها بما يسمح له بأن يستخدمها فى أغراضه المحدودة التى أسلفناها ، ويمكن تسمية الواحدة من مثل هذه الأدوات باسم الفهر .

ومرة أخرى لن نتعرض لتفاصيل خصائص الفهر وتطوراته ونحيل من شاء الاستزادة من المعلومات عنه إلى كتابنا عن «حضارة مصر القديمة وآثارها» . وكل

(١) O. Menghin, *Welt Geschichte der Steinzeit*, Wien 1931, 88 f.

(٢) *See*, K.S. Sandford and W.J. Arkell, *Palaeolithic Man...*, II 83 f.; S.A. Huzayyin, *The Place of Egypt in Prehistory*, Cairo, 1941, 94 f., 112, 329 f.

(٣) عن صناعتها : إبراهيم رزقانة : الآلات الحجرية - القاهرة - ص٥٠ .

مايعنينا هنا أن فريقاً من الباحثين يفترضون منطقة قديمة واسعة منبسطة السطح متوسطة الموقع معتدلة المناخ مفتوحة المداخل والمخارج ، تمرس الإنسان الأول فيها على صناعة الفهر الحجرى وتطويره ، ثم انتشر به منها إلى بقية المناطقة الصالحة للسكنى فى العالم القديم . ويعتقد بعضهم أن هذه المنطقة ذات الميزات الخاصة كانت ضمن مناطق الشرق الأدنى ، وربما فى شمال أفريقيا وغرب آسيا بخاصة ، وكانت منها هضاب مصر ومايحيط بها شرقاً وغرباً [١] ، وهى هضاب كانت تتلقى نصيباً كافياً من الأمطار ، وتنمو عليها نباتات تشبه نباتات السفانا الحالية ، ولازالت شواهد صلاحيتها المناخية القديمة ماثلة فى بقاء عدد من الوديان والأخاديد والينابيع شقتها المياه الغزيرة وجرت فيها ، ثم جفت أو تحجرت . ولازالت شواهد سكناها القديمة ماثلة كذلك فى وجود أعداد من الأدوات الحجرية البدائية ، التى خلفها إنسانها الأول فى مواضع متفرقة على سطحها .

وقسم الباحثون الحضارات البدائية فى الدهر الحجرى القديم الأسفل إلى قسمين متعاقبين ، وهما : الحضارة الشيلية ، أو الأبيفيلية ، نسبة إلى قريتين فى فرنسا وجدت فيهما نماذج كثيرة لأقدم أدوات الإنسان الأول . ثم الحضارة الأشيلية نسبة إلى قرية أخرى فى فرنسا أيضاً عثر الباحثون فيها على نماذج عدة لأدوات حجرية امتازت بتطور نسبى عن الأدوات الشيلية التى سبقتها . ويتلخص هذا التطور بين الحضارتين فى بداية اهتمام الإنسان بتصغير سمك وحجوم أدواته الحجرية بعض الشىء ، ربما ليسهل عليه استعمال أكبر عدد منها ، ثم اهتمامه بتحديد حوافها وبتهذيب سطوحها بحيث تصبح مستوية بقدر الإمكان ، وبحيث ترضى ذوقه بعد أن أرضت مطلبه المادى منها .

واهتدى الإنسان فى خواتيم هذا الدهر ، وفى بقعة أو بقاع ما من العالم القديم ، إلى طريقة إيقاد النار اهتداءً عفوياً فى الأغلب ، وكان اهتداؤه إليها مبشراً بأول انقلاب مادى فعال فى تاريخ الحضارة البشرية ، انقلاب تميز به طعام الإنسان بعد طهيه بالنار عن طعام الحيوان ، وأصبح الإنسان بفضله أكثر اطمئناناً على نفسه وعلى عياله حين يستعين بدفء النار على مقاومة البرد والصقيع ، وحين يستعين بنورها على مخاوف ظلام الليل عدوه المخيف ، وحين يستعين بأثرها فى حفظ لحم الصيد

(١) Huzayyin, *op. cit.*, 203 f.

وعدم فساده سريعاً . وليس من المستبعد أنه حين لم يعد فكره وأسنانه يتطلبان المجهود الذى كان يبذله فى أكل اللحم النيء - كان لذلك بعض الأثر فى أن تهذبت خلقته وخفت وحشيته .

فى الدهر الحجرى القديم الأوسط :

أعقبت حضارتى الدهر الحجرى القديم الأسفل ، حضارة الدهر الحجرى القديم الأوسط . وهذه نكتفى بأن نذكر عن خصائصها هى الأخرى أن مناطق الشرق الأدنى عاشت فى أغلب دهرها فى ظل حقب مطيرة طويلة ، وإن تكن أقل أمداً واتصالاً من الحقب المطيرة التى سبقتها خلال الدهر الحجرى القديم الأسفل . وأن الاصطلاح العلمى جرى على تسمية الأدوات الشائعة فى أجزاء العالم المعمور خلالها باسم الأدوات الموستيرية (نسبة إلى أدوات كهف موستييه فى فرنسا) ، وميزها توسع أصحابها فى صناعة كان أهل الدهر السابق قد بدأوا بها ، وقامت على أساس استخدام الشظايا التى تنفصل عن جوانب الفهر حين صناعته . وقد زادت مهارتهم فى فصلها بعناية وسهولة وتشكيلها بأشكال مختلفة ، بحيث إذا حددوا جانبى الشظية استخدموها استخدام المدية ، وإذا حددوا أحد جانبيها استخدموها استخدام المبشر أو المكشط ، وإذا دببوا أحد طرفيها استخدموها استخدام المثقاب أو المخراز . وعلى الرغم من شيوع الخصائص العامة لهذه الصناعات الحجرية فى أغلب المناطق المعمورة من العالم القديم ، دون تغيير كبير ، إلا أن بعض جهات الشرق الأدنى استطاعت أن تنحو بصناعتها الحجرية المتواضعة نحو التخصص ، ومنها مصر التى نهج بعض أهلها نهجاً إقليمياً فى صناعة النصال والأفهار (الليفلوازية) مما ميز بعض الشيء بين إنتاجهم المتواضع منها ، وإنتاج الأدوات والشظايا الموستيرية العامة الشائعة عند من سواهم من أهل العالم القديم [١] .

فى الدهر الحجرى القديم الأعلى :

تغيرت بانتهاء الدهر الحجرى القديم الأوسط صورة الشرق الأدنى القديم إلى حد كبير ، فانتهت بانتهائه فترات الأمطار الكثيفة المتصلة فى العروض المدارية

(١) S. H. Breuil, *L'Afrique préhistorique*, 1931, 71; S. *Huzayyin*, *Bull. Soc. de Géigr, d'Egypte*, XX, 210 f. ; E. Massoulard, *Préhistoire et Protohistoire d'Egypte*, 1949, 13.

والوسطى ، وتضاءلت بانتهائه فرص نمو نباتات السفانا الوفيرة ، وقلت بذلك فرص الحياة للحيوانات الضخمة التى تحب وفرة الماء ووفرة النباتات كالفيل والخرتيت والثور البرى ، فانقرض بعضها ، ولجأ بعضها الآخر إلى المناطق الاستوائية أو المناطق الشمالية الباردة . وأخذت ظروف الجفاف تسود الشرق الأدنى شيئاً فشيئاً ، وظهرت معها حضارات بدائية جديدة هى حضارات الدهر الحجرى القديم الأعلى . وفيها حاول الإنسان أن يتطور بوسائله المادية إلى ما يناسب ظروف حياته الجديدة ، فقلل استعمال وحجوم أدواته الحجرية الكبيرة ، وأصبح يستخدم معها أدوات حجرية صغيرة تصلح لأن يصيد بها الحيوانات الخفيفة سريعة العدو ، التى استمرت تعيش معه فى ظل الجفاف وحلت محل الحيوانات القديمة الكبيرة . وبلغ من صغر بعض الأدوات الحجرية المتخلفة عن هذا الدهر ما دعا إلى تسميتها باسم الأدوات الضئيلة والأدوات القزمية . وكانت أكثر هذه الأدوات تنوعاً وتطوراً هى التى استخدمها الإنسان على هيئة السهام بعد معرفته عمل الأقواس ، وأسلحة أخرى أكبر منها كان يثبتها فى أيد من فروع الشجر لتغنيه عن ثقل الأدوات الحجرية ، وتؤدى أغراض الخناجر والحراب .

قرائن مناطق العمران :

وجدت آثار النشاط البشرى خلال الدهور الحجرية القديمة الثلاثة وافرة فى أغلب بقاع الشرق الأدنى القديم . فتفرقت فى مصر ، على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، فى مناطق العباسية والجبل الأحمر وجبل المقطم ودهشور وسقارة وسفوح مرتفعات الأقصر وقرب أسوان ، وفى الطرق المؤدية إلى الواحات ، خلال الدهرين الحجرى القديم الأسفل والحجرى القديم الأوسط . كما وجدت على أطراف الدلتا ، وحول وديان وعيون كان لايزال يجرى بها نذر من الماء كعيون حلوان ، ووادى الطميلات ، ووادى العنجبية ، وفى الجيزة ، والفيوم ، وحوض كوم أمبو ، وقرية السبيل ، والواحة الخارجة ، خلال الدهر الحجرى القديم الأعلى (١) .

(١) A. Huzayyin, *The Place o Egypt in Prehistory*, 1941; E. Massoulard, *op. cit.*; F. Wendorf end Others, The Palaeolithic *f* of the Lower Valley, 1975; Prehistory of the Nile Valley, 1976; PM. Vermeersch, Elkab, L'Elkabien, Epipaléolithique de al Vallée du Nil égyptien, 1978.

وتوزعت آثار الدهور نفسها فى بلاد النهرين فى مناطقها الشمالية أكثر من مناطقها الجنوبية التى غطت الرواسب الطمية الكثيفة على آثارها ، إن كانت بها آثار. فوجدت نماذجها فى الشمال على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر أيضاً ، فى كهف برداپلكا قرب جمجمال خلال الدهر الحجرى القديم الأسفل أو الأوسط . وفيما بين كهف شانيدار وبالى جاورا خلال الدهر الحجرى القديم الأوسط أيضاً . ووجدت غيرها فى مثل كهف هزارمرد وكهف زرزى ، فى أواخر الدهر القديم الأوسط وخلال الدهر الحجرى القديم الأعلى [١] .

ووجدت أمثالها فى الشام فى كهوف عدلون ومنطقتى نهر إبراهيم ونهر الكلب وفى رأس الشمرا ، فى الشمال ، وفى جبل الكرمل وأم قطفة والزطية وقرب مجرى نهر الأردن فى الجنوب ، خلال الدهرين القديم الأسفل والقديم الأوسط ، ثم وجدت غيرها فى كهوف أنطلياس ، ونهر الكلب ، ومغارة الأميرة قرب بحيرة طبرية خلال الدهر الحجرى القديم الأعلى [٢] .

وظلت شبه الجزيرة العربية أقل حظاً من غيرها فى نتائج البحوث الأثرية لأدوات الدهور الحجرية القديمة حتى نشطت مؤخراً [٣] . وقد يعنى ماعثر عليه من أدوات الدهر الحجرى القديم الأسفل فى جنوب الأردن أن هذه المنطقة ومايتصل بها من شمال شبه الجزيرة العربية معها على أقل تقدير ، كانا صالحين للنشاط البشرى منذ أواخر الدهر الحجرى القديم الأسفل . كما أنه من المرجح أن الأودية الجافة الكبيرة

---

(١) R.J. Braidwood, *Prehistoric Man...*; H.E. Wright, *BASOR*, 1952, 11f.

مجلة سومر ١٩٥١ – وأنظر طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة – ج١ ص٢٩ .

(٢) G. Zumoffen, in *Anthropos*, III, 431 f.; D.A.E. Garrod and Others, *The Stone Age of Mountain Carmal*, 1937; D. Mc. Cown and A. Keith, *The Stone Age...*, 1939; W.F. Albright, *From the Stone Age...*, 1946; *The Archaeology of Palestine*, 1961, Ch. 3; D.R., Hughes-Brothwell, "The Earliest Populations of Man in Europe, Western Asia and Northern Africa", *C.A.H*, vol I, Part I, 156 f.

وانظر فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين – ص٩ ؛ لبنان فى التاريخ ، ص٥٢ + .

(٣) *See, Kuml*, 1954 - 1969 .

سليمان البدر : منطقة الخليج العربى خلال الألفين الرابع والثالث ق.م – الكويت ١٩٧٤ .

عبدالعزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية – الكويت ١٩٨١ – ص٦٣ -٧٢ ، ٧٧-٨٠ .

التى لاتزال تقطع شمال الجزيرة ويجرى بعضها ناحية البحر الأحمر ، بينما يجرى بعضها الآخر ناحية الخليج العربى ، قد شقتها أمطار كثيفة خلال فترات مطيرة طويلة ساعدت على قيام النشاط البشرى فى شبه الجزيرة خلال الدهر الحجرى القديم الأسفل أو الدهر الحجرى القديم الأوسط (١) .

أما عن أدوات الدهر الحجرى القديم الأعلى فيها ، فقد عثر عليها فى الشمال ، وفى مناطق الأحساء والعروض وفى سواحل الخليج ، وكذلك فى حضرموت ومناطق متفرقة من اليمن ؛ أى إنها وجدت فى كل من شرق شبه الجزيرة وجنوبها وجنوبها الغربى . وذهب رأى قديم نوعاً إلى أن بعض الأدوات الحجرية البركانية التى عثر عليها فى الأحساء والعروض ، كان أصحابها يجلبون أحجارها البركانية من المناطق الغربية لشبه الجزيرة نظراً لعدم توافرها فى بيئتهم . وقد يصعب تأييد هذا الرأى نظراً لاتساع الشقة بين شرقى شبه الجزيرة وغربها ، مع تفاهة الأدوات نفسها وبطء الإنسان القديم ، ولكنه إذا صح احتمالاً أمكن أن ترتب عليه بداية قيام الاتصالات وتبادل المنافع بين أجزاء شبه الجزيرة منذ ذلك الحين ، على أن نفترض أن هذه الاتصالات كانت تجرى بطرق غير مباشرة ، إذ إنه من الصعب أن نتصور رجالاً يرحلون من أقصى شرقها إلى أقصى غربها من أجل أحجار صغار ، يمكن أن تحل محلها إلى حد ما أحجار بيئتهم .

وذهب الرأى السابق نفسه إلى ماهو أبعد من ذلك ، فرجح تبادل التأثير الحضارى بين مناطق جنوب شبه الجزيرة والمناطق التى تقابلها على سواحل أفريقيا الشرقية (٢) . وقد يكون هذا التأثير المتبادل صحيحاً ، غير أنه ينبغى أن نضيف إليه أن تحديد زمن أدوات الدهر الحجرى القديم الأعلى فى شبه الجزيرة ، وشرقى أفريقيا، بالنسبة لتطور الصناعات الحجرية فى المناطق الخصيبة من الشرق الأدنى أمر غير يسير ؛ فهى قد تعاصر أدوات الدهر الحجرى القديم الأعلى فى مصر وبلاد النهرين والشام فعلاً ، أو تتأخر عنها بعصور طويلة وهذا هو المرجح ، نظراً لاتساع خطى

(١) Caetani, *op. cit.*, I, 64 f.; II, 53 f.; A. Musil, *Northern Negd*, 1928.

(٢) G. Caton - Thompson and E. W. Gardner, "Climate Irrigation and Early Man in the Hadramout", Geog. J., (1939) 18 f.; S. Huzayyin *Nature*, Sep. 18, (513) ; *Arabia and the Far East*, 1942, 36. ; A. H. Masry, *Prehistory in North-eastern Arabia*, 1974.

التطور وسرعتها فى وديان الأنهار الكبيرة عنها فى المناطق الجافة ، مع احتمال بقاء أدوات الدهور الحجرية فى هذه الأخيرة لأزمان طويلة نوعاً .

من السلالات البشرية :

ليس من اليسير الحديث عن أصحاب حضارات الدهور الحجرية القديمة ، والدهر الأسفل بخاصة ، كأجناس أو سلالات أو قوميات ، فكل مايمكن استنتاجه مما أتى به علم الأنثروبولوجى عن أقدم البقايا البشرية فى العالم القديم ، هى الصفات التى استنتجها بعض الباحثين من بقايا ما يسمونه إنسان جاوة ، ثم إنسان بكين أو الصين ، وإنسان شرق أفريقيا . وهى صفات صورت لكل منهم قامة قصيرة وقدرة على انتصاب الجذع مع ميل الرأس الضخمة قليلاً إلى الأمام ، وشدة تراجع الفك الأسفل ، وبروز عظام الحاجبين وغلظهما واتصالهما ببعضهما ، مع ملاحظة تطور الجبهة من الضيق والتراجع فى جمجمة إنسان جاوة إلى البروز الخفيف فى جمجمة إنسان بكين أو الصين . واستمرت سلالات هذه الأجناس آماداً طويلة ، ثم ظهرت معها سلالات أخرى فى أواخر الدهر القديم الأسفل مثلتها فى أوروبا بقايا إنسان هيدلبرج ، الذى اتصف باتساع عظمة الصدغ وقوة عضلات الوجه المتصلة بعملية المضغ ، مع غلظ الفك وتراجعه من ناحية الذقن [1] .

وانتشرت فى الدهر الحجرى القديم الأوسط سلالات من جنس جرى الاصطلاح على تسميته باسم الإنسان النياندرتى أو النياندرتالى (نسبة إلى وادى نياندر بألمانيا) . وهو جنس ذو جسم ممتلئ لم يكتمل انتصاب قامته تماماً ، ورأس كبيرة قليلة الاستدارة لازالت تميل قليلاً إلى الأمام ، وجمجمة ضخمة عريضة سميكة العظام ، وحاجبين شديدى التقوس سميكى العظام ، وفك ضخم بارز ، وأنف متسعة المنخرين ، وإن تميز هذا الجنس فى الوقت نفسه بتناسق أطرافه ، بالنسبة للأجناس التى سبقته . وتضمنت حفريات الشرق الأدنى بقايا من سلالات هذا الإنسان ، فكان منها ما وجد فى كهف شانيدار بالعراق ، كما كان منها ما وجد فى مغارات بجبل الكرمل وجنوب الناصرة وشمال غرب بحيرة طبرية بالشام [2] ، وماوجد من حفريات هوافتيح فى شمال أفريقيا ، والكوبانية فى مصر . وهذه وإن كانت جميعها من

---

(١) *See*, P. Rivet, *L'Origine de l'Homme*, 1954.

(٢) راجع حاشية ١- ص٢٥ .

السلالات النياندرتالية العامة إلا أنها اتصفت بخصائص إقليمية ، مثل وضوح كبر الذقن فى رأس إنسان جبل الكرمل .

وكان الجنس الغالب لإنسان الدهر الحجرى القديم الأعلى جنساً مهجناً وبداية لما سمي باسم الإنسان العاقل Homo Sapiens جد الإنسان الحالى . وقد ظهرت فى بقايا الهياكل البشرية التى عثر عليها فى مناطق قنا وقاو الكبير وكوم أمبو فى مصر ، من الدهر الحجرى القديم الأعلى ، وجوه شبه جنسية قريبة من الهياكل التى تخلفت من فجر التاريخ المصرى القديم [١] ؛ مما يعنى وحدة الجنس واتصال العمران بين هذين الزمنين . كما رأى بعض الباحثين فى بعض هياكل جبل الكرمل المتطورة حلقة وصل بين الخصائص التشريحية لإنسان الدهور الحجرية القديمة والإنسان الحالى . ولعل الخصائص التشريحية والذهنية المميزة لهذا الجنس من بنى الإنسان كانت مسئولة إلى حد كبير عن نجاحه فى تطوير أدواته وتنويعها ، خلال ظروف الجفاف القاسى للدهر الحجرى القديم الأعلى ، ثم نجاحه فى ابتداع حرفة الزراعة وحرفة الرعى وماترتب عليهما فى بداية العصر الحجرى الحديث .

ولم تكن الحدود الإقليمية لجماعات الإنسان القديم وتنقلاتها ، ذات أثر واضح خلال الدهور الحجرية القديمة ، إلا إذا وقفت دونها البحار الواسعة أو الجبال الشاهقة . وكانت شعاب الأرض مفتوحة للأقوى ولمن يستطيع أن يطرقها ، سواء للأفراد والأسر أم للجماعات التى انتشرت تبحث عن الأراضى المعشبة المطيرة التى يتيسر الصيد فيها ، وتتوافر قطعان الماشية البرية على مراعيها . وكان فى هذا ما أدى إلى تشابه أغلب أدوات الدهور الحجرية القديمة مع بعضها البعض إلى حد ما ، سواء وجدت فى الشرق أم وجدت فى الغرب . وبعد أزمان طويلة أخذت كل من هذه الجماعات تألف الإقامة تدريجياً فى البقاع ، التى ناسبتها طبيعتها الجغرافية ، وأحست بالأمن النسبى فيها.

وأعقب هذه الدهور دهر رأى فيه بعض الباحثين من الخصائص مايسمح بتسميته باسم الدهر الحجرى الوسيط ، بينما أنكر باحثون آخرون أهميته بالنسبة للشرق الأدنى بخاصة .

---

(١) Sandford and Arkell, *op. cit.*, (1934), 86; E. Strouhal, in *Homo*, 29 (1978), 108-121.



وعلى أية حال ، فإنما نود قبل أن ننتهى من استعراض أحوال الدهور الحجرية القديمة ، أن نشير إلى أنه ليس من ضرورة للمغالاة فى تصوير مابلغه إنسانها البدائى من قدرة على التطور بحضاراته الأولى والابتداع فيها . فقدرة الإنسان الأول على التفكير والابتداع لم تتعد كثيراً دائرة حياته الفردية الخشنة ودائرة مطالبه المحدودة . ولم يكن التطور فى آفاق حياته ومطالبها يسير فى غالب أمره إلا بجهد جهيد وبطء شديد ، وذلك إلى الحد الذى رتب معه الأستاذ فلندرز بترى أن ألف عام من حياة البشر فى الدهور الحجرية القديمة لاتكاد تعادل فى تطورها الفكرى ، ما كان يتم من تطوير خلال عمر شخص واحد فى العصور التاريخية القديمة . وهذا بطبيعة الحال لايكاد يعادل مايتم خلال أعوام قلائل أو حتى بضعة شهور من حياة الإنسان وإمكانياته فى عصوره التاريخية الحديثة . زد على ذلك أن الأدوات التى كان الإنسان القديم يستخدمها فى عصر ما لم تكن تجب الأدوات ، التى اعتاد أسلافه عليها فيما تقدمه من عصور ، وإنما كانت تستخدم معها جنباً إلى جنب ، وإن زادت عنها فى شيوعها وأعدادها وأنواعها .

* * *

بداية الزراعة فى فجر التاريخ (أو العصر النيوليثى) :

شهد الشرق الأدنى القديم طفرته الحضارية المنتجة حقاً منذ أواسط الألف السابع أو أوائل الألف السادس قبل ميلاد المسيح ، وتلك هى طفرة الاهتداء إلى بداية حرفة الزراعة قبل معرفة المناطق الأوروبية بها بنحو ألفى عام ، وكان من منطق التطور أن تنشأ أولى خطواتها وتنضج فى وديان الأنهار الكبيرة أو بقربها . وقد اشتركت بلاد الهلال الخصيب فى معرفتها بممهدات الزراعة الأولية . ومن ذلك معرفة المصريين وأهل العراق والشام منذ أواخر الدهر الحجرى القديم الأعلى بفوائد النباتات والثمار الدرنية ثم انتقاء أنواع الحبوب الغذائية المفيدة كالشعير البرى والحنطة البرية ، وبطرق جرشها والانتفاع بها ، بدليل العثور على بعض مناجل الحصاد ومراحى جرش الحبوب فى منطقة عيون حلوان وحوض كوم أمبو فى مصر ، وفى

مغارة الناطوف وماحولها فى فلسطين [١] . وربما تولدت عندهم حينذاك معرفة فطرية بظواهر الإنبات الطبيعية ، عن طريق ما كانوا يشهدونه من خروج النبت من الحبوب البرية والبذور التى تلقيها الرياح والمصادفات أمام أعينهم فوق سطح الأرض اللينة ، أو التى تسقط منهم وهم فى طريقهم إلى حيث يقيمون ، كلما أصابها البلل والمطر . ولم تكن مهمة جمع الحبوب الغذائية البرية دائماً ، لتفرق عيدانها فى الطبيعة على مساحات واسعة ، ولتقدم الجفاف شيئاً فشيئاً خلال الدهر الحجرى القديم الأعلى ، وما كان يستتبعه من شح نمو النباتات الطبيعية تدريجياً أيضاً ، وذلك مما كان من شأنه أن يولد الرغبة لديهم فى محاولة الاهتداء إلى وسيلة يضمنون بها تواجد هذه الحبوب المفيدة فى مساحات متصلة ، قرب أماكن إقامتهم بقدر الإمكان .

ووجدت مصر ميلاً كبيراً من أغلب الباحثين لافتراض تحقيق هذه الرغبة ومعرفة الزراعة لأول مرة على أرضها ، على أساس أن اشتداد الجفاف على هضابها الشرقية والغربية فى أواخر الدهر القديم الأعلى كان من شأنه أن يدفع أهلها إلى أن يتتبعوا انتشار النباتات والحبوب الطبيعية على ضفاف مورد الماء الدائم فى أضهم ، وهو نهر النيل ، فاقتربت جماعاتهم من مدرجاته فى دفعات متتالية وشجعتهم أحوالهم الآمنة على الاستقرار عليها . ولما طالت إقامتهم فى أرجائها ابتغاء الانتفاع بنباتاتها الطبيعية وأسماك الماء والحيوانات ، التى تقصد ضفاف النهر وفروعه التماساً للشرب ، أصبحت ملاحظاتهم لنمو بذور النباتات الطبيعية فى أرضها الخصبة مستقرة مضطردة ؛ نتيجة لما كانوا يشهدونه من أثر التعاقب السنوى المنتظم لفيضان النيل وانسياب مائه عليها ثم انحساره ، فى النمو التلقائى السنوى الجديد للنباتات والحبوب ، كلما توافرت لها الأرض الطيبة السوداء على وجه الخصوص . ولما استرعت هذه الظواهر الطبيعية أنظار المصريين جيلاً بعد جيل واستوعبوها ، وأدركوا بها العلة فى نمو النباتات فى أعقاب الفيضانات ، مع انتشار البذور فى الأرض الخصبة ، كما أدركوا معها العلة فى ذواء النباتات وجفافها حين قلة الماء وجفافه وصلابة التربة ، حاولوا أن يستفيدوا مما استخلصوه فائدة إيجابية ، وبمعنى آخر حاولوا أن يباشروا عملية النمو الطبيعية للنباتات والحبوب الغذائية بأنفسهم ، وأن يصبحوا منتجين

---

(١) Ed. Vignard, *B I F A O*, XX, 24; Huzayyin, *The Place of Egypt in Prehistory*, 257 f., 289 f.; A.D.E. Garrod, *"The Natufian of Palestine" T.R.A.I.*, LXII, 257 f. ; H. Farnkfort, *The Birth of Civilization in the Near East*, 1951.

لغذائهم متحكمين فيه بأنفسهم . وسواء طالت محاولاتهم هذه أم قصرت ، فقد انتهت باهتدائهم إلى أساليب الزراعة البسيطة منذ نحو ثمانية آلاف عام أو أكثر ، وقبل غيرهم من أهل العالم القديم المسكون (١) ، أو قبل أغلب أهل العالم القديم المسكون إ نظرنا بعين الاعتبار إلى مايراه أنصار حضارات وديان الأنهار الكبرى الأخرى مثل حضارة بلاد النهرين ، وأنصار حضارة سوريا وفلسطين ، وأنصار حضارة إيران ، بل والباحثين فى حضارات جنوب شرق آسيا ، من أن كلا منها عرفت الزراعة فى عصر قريب من العصر ، الذى اهتدت مصر فيه إلى معرفة الزراعة (٢) .

وترتبت على بدايات معرفة الزراعة فى الشرق الأدنى نتائج اجتماعية وعمرانية واقتصادية متعددة ، كانت أساساً لبعض ماتلاها من مظاهر الحضارات التاريخية :

فقد ترتب على الاشتغال بالزراعة زيادة التماسك الأسرى بين الأفراد نتيجة لإمكان انتفاع رب كل أسرة بمجهودات أولاده وبناته وزوجاته فى عمليات الزراعة ، ثم زيادة الاستقرار السكنى بين الزارعين نتيجة لحرصهم على الإقامة بجوار مزروعاتهم لرعايتها وحمايتها ثم للانتفاع بها ، وزيادة الاستقرار المعيشى بينهم نتيجة لإمكان تحكم الإنسان فى محصول أرضه بقدر ما يبذله فيها من الجهد . مع زيادة التعاون بين الأقارب فى استصلاح مزيد من الأرض واستغلالها . وازدياد الميل إلى التجمع بين الجيران فى سبيل حماية المناطق المزروعة ودرء أخطار الفيضانات عنها . ثم التماس الفرد للأمن وسط الجماعة وفى حماية المجموع ، مع زيادة إحساسه بفرديته وشخصيته نتيجة لما أصبح يمتلكه من الأرض الزراعية وما يستغله عليها من الحيوانات الأليفة ، وإن وضحت الفوارق الاقتصادية فى الوقت نفسه مع حياة الزراعة بين المالك والأجير ، وبين الغنى والفقير .

---

(١) *See also*, S. Huzayyin, *op. cit.*, 231.
تاريخ الحضارة المصرية – القاهرة – ١٩٦٢ – المجلد الأول – ص١٥-١٦ .
عبدالعزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها – الجزء الأول – القاهرة ١٩٦٢ – ص٨١ – ٨٦ .

(٢) *See*, Peake, *The Origins of Agriculture*, 1928; *The Beginning of Agriculture*, 1931; R.J. Braidwood, "The World's first farming villages", *Illustrated London New, April*, 28, 1956, 410 f. ; etc.

تعدد الحرف وبدايات الفنون :

عرف أهل الشرق الأدنى ، وأهل مصر وبلاد النهرين بخاصة ، مع الزراعة نوعاً من ضمان الرزق لم يعرفه أسلافهم من قبل . واتسعت مطالبهم الفردية والجماعية بعض الشيء . وبدأ تعدد الحرف بينهم في الوضوح . فظهرت لديهم إلى جانب حرف الزراعة والصيد واستئناس الحيوان ورعيه وصناعة الأدوات الحجرية ، حرف لصناعة أدوات الزراعة من فؤوس ومناجل ، وأخرى لتضفير الحبال وعمل الزنابيل والسلال (من الخوص ونبات الحلفا وألياف البردى) لخزن الحبوب ، وعمل الحصير ، ونسج الكتان ، وحرف غيرها لصناعة أوانى الفخار والقليل من الأوانى الحجرية [1] .

ولم يكن الإنسان ليستطيع أن يهتدى إلى صناعة من هذه الصناعات بسهولة وفى وقت قصير ، وإنما لعبت عوامل المصادفة والملاحظة والصبر ثم رغبة الابتداع دورها فى كل واحدة منها . ففى عوامل الاهتداء إلى صناعة الأوانى الفخارية على سبيل المثال ، ليس من المستبعد أن يكون الإنسان القديم قد هيأ لنفسه منذ الدهر القديم الأعلى أوعية بدائية خشنة يسيرة يحتفظ فيها بقوت يومه، ويأكل فيها حبوبه المجروشة ويشرب فيها الماء واللبن . وإذا صح هذا الظن ، صح التساؤل معه ، وكيف وفر هذا الإنسان الأول أوعيته هذه وكيف كانت هيئتها ؟ - هناك احتمالان للإجابة على هذا السؤال، وهما : أن يكون الإنسان قد اتخذ أوعيته تلك من بيض النعام على نحو مافعل أصحاب الحضارة القفصية فى شمال أفريقيا . أو يكون قد صنع أوانى الطعام من ألياف النخيل والدوم ومايشبهها ، واتخذ أوانى الشراب من جيوب الجلد التى تشبه السقاء ، على نحو ماتفعل بعض الجماعات البدائية المتخلفة حتى الآن [2].

ومنذ استقر الإنسان القديم على مدرجات وضفاف الأنهار استقراره الطويل ، اهتدى إلى صلاحية الطمى لصناعة أوانيه ، ثم استعمالها بعد حرقها . ومرة أخرى يصح التساؤل عن المقدمات التى سمحت له بأن يتبين خواص الطمى وفوائد حرقه .

---

(١) انظر أيضاً : مصطفى عامر : فى تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الأول - القاهرة ١٩٦٢ - ص٥١ + عبدالعزيز صالح : المرجع السابق - ص٦٨-٩٢ .

(٢) Caton - Thompson, *Man*, XXXII (1932), 131 f.; H. Frankfort, *Studies in the early pottery*, 1924, 12 ; J. Meyers, in *Cambridge Ancient History*. 1. 79.

وفى تخمين هذه المقدمات احتمالان أيضاً ، وهما : أن يكون الإنسان قد لحظ صلابة الطمى وإحمراره تحت مواقد النار التى كان يستعملها منذ دهوره القديمة ، وأطال ملاحظته حتى أدرك أثر الحرارة فى هذه الصلابة وذاك الاحمرار ، ثم تعمد أن ينتفع بهذا الأثر فى حياته العملية وجربه فى صناعة أوانى الفخار حتى أتقنها ، أو أنه اعتاد على أن يغشى أوعيته الليفية القديمة بغشاء خفيف من الطمى يسد مسامها ، ثم لاحظ بعد مرات ومرات ، أن أوعيته تلك إذا تعرضت لحرارة الشمس جف سطحها الخارجى، وإذا تعرضت لحرارة النار احترقت أليافها واحمر طميها أو اسود وتماسك . فلما أطال الملاحظة فى هاتين الظاهرتين أدرك أنه يستطيع أن يستغنى عن استعمال الليف فى صناعة أوانيه ، ويستطيع أن يكتفى فى صناعتها بالطمى المحروق وحده[1].

وظل الصناع يصنعون أوانيهم الفخارية يدوياً أمداً طويلاً (دون معرفة عجلة الفخرانى) . وكان الصانع يبدأ بتنقية الطمى من الشوائب العالقة به ، ويعجنه بالماء بقدميه ، ويضيف إليه أحياناً بعض التبن الدقيق الخفيف أو الروث المسحوق ، ليقلل به لزوجته ويزيد تماسكه . ثم يشكل آنيته ويسوى سطحها بيده المبللة حتى يقلل من سعة مسامها ، ويجففها فى حرارة الشمس قبل أن يحرقها حتى لاتؤثر النار المتوهجة على شكل عجينتها الطرية ، أو تعمل على تبخير مائها بسرعة فتتشقق جوانبها . وكانت هذه الخطوات تكفى لصناعة الأوانى العادية قبل حرقها . فإذا شاء الصانع أن يزيد عنايته بها غشى سطوحها قبل أن تجف بغشاء خفيف من صلصال ناعم ، ليسد مسامها ويقلل رشحها ويجعل سطوحها ملساء تصلح للرسم والزخرفة . وإذا شاء أن يصقلها ، حكها قبل تمام حرقها بصدفة أو حصاة ناعمة ، حتى يزيد تماسك مسامها ويقلل خشونة سطحها ، ويجعلها أكثر قابلية للتلون بعد حرقها فى النار[2] .

وفى ظل الرزق المكفول مرة أخرى ، وفى ظل أوقات الفراغ التى سمحت بها ظروف الدورة الزراعية الواحدة ، مع نمو عادة الادخار وتنوع الحرف ، وفى ظل الرخاء النسبى المترتب على ذلك كله ، بدأت خيوط التحضر فى الشرق تتزايد فى

---

(١) J. Meyers, *op. cit.*, 70.

(٢) الفرد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين - معرب بالقاهرة - ص٥٩٧ - ٦٠١ .

H. Frankfort, *op. cit.*, 6.

الوضوح قليلاً قليلاً ، وأخذت أذواق الرؤساء وأهل اليسار تتحسس سبل الاستمتاع بالجمال ، ومضت صناعة أدوات الزينة وأسالي الزخرف وراءها تتلمس لأصحابها الجزاء المقبول ورواج الصنعة . وبمعنى آخر كان من الطبيعي بعد أن نجح الإنسان القديم فى تحسين حياته المادية ، أن يتجه إلى إشباع ذوقه وإرضاء تطلعاته المعنوية .

وبدأت طفولة الفن حينذاك بصناعة تماثيل صغيرة من الصلصال (والخشب والعظم والعاج) ، قلد الصناع فيها هيئة الإنسان وهيئة الحيوان ، على اختلاف فيما بينهم فى مدى التوفيق فى تحقيق التناسب ودرجة الإتقان . وكانت أغلب التماثيل الإنسانية صغيرة لاتزيد الرأس فيها عن كتلة مستديرة ، تشكل العينان والأنف والفم فيها تشكيلاً بدائياً . ويلتصق الساقان فيها بعضهما ببعض أو يفصل بينهما مجرد حز ضيق، رغبة فى تماسك التمثال . وصاحب صناعة التماثيل ، أو فن التماثيل إن شئنا التجاوز فى التعبير ، فن الرسم والزخرفة ، وقد وجد أولى مجالاته على سطوح الأوانى الفخارية الدقيقة التى كانت تعتبر فاخرة فى حينها ، وكان من رسومه عليها أشكال تعتمد على خطوط وتكوينات شبه هندسية ، وأشكال مستمدة من البيئة ومصنوعاتها ، مثل صور الحيوانات الأليفة والكاسرة ، وصور القوارب فى البيئات النهرية والساحلية، وبعض مناظر الرقص لرجال ونساء .

وبناء على هذه التطورات كلها فى حياة الإنسان ، جرى الاصطلاح على تعريف عصر بداية الزراعة بتعريفات ثلاثة ، وهى : تعريف زمنى يسميه العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) إشارة إلى حداثة زمنه عن أزمنة الدهور الحجرية القديمة التى سبقته ، مع تميزه بأدوات حجرية جديدة ، كان من أهم ما يميزها صقل سطوحها واستواء أشكالها وحدة أسلحتها التى قامت مقام الخناجر ، مع الدقة الواضحة فى تشكيلها وتحليتها . وتعريف حضارى يسميه عصر بداية الإنتاج ؛ نظراً لتحول الإنسان فيه من جامع غذاء إلى منتج غذاء ، ومن كائن يعيش عالة على بيئته إلى كائن يتحكم فى إنتاج أرضه إلى حد مقبول . ثم تعريف تاريخى يسميه عصر فجر التاريخ إشارة إلى وضوح خيوط التحضر خلاله أكثر بكثير ؛ مما كان عليه أمرها فى ليل الإنسانية الطويل خلال الدهور الحجرية القديمة التى سبقته ، ثم إشارة إلى اعتباره مبشراً بصبح البشرية الذى تمثل فى بداية عصورها التاريخية الأولى .

بداية حرفة الرعى :

توافرت التطورات الحضرية السابقة فى مناطق الهلال الخصيب فى الشرق الأدنى القديم ، أكثر من غيرها ، لتوافر مقومات الزراعة فى أنهارها وأمطارها وتربتها . أما شبه الجزيرة العربية التى تحتل رقعة كبيرة من الشرق الأدنى ، فعلى الرغم من نشاط بحوث ماقبل التاريخ مؤخراً فى بعضٍ أرجائها ، إلا أن ماتم من هذه البحوث لايكفى لبيان نصيبها من موارد الزراعة وتصوير الأوضاع المعيشية لأهلها فيما يواكب العصر الحجرى الحديث أو فجر التاريخ ، فيما أحاط بها من أقطار الهلال الخصيب . ولكن يمكن أن يذكر من ناحية أخرى ، أن العصر الحجرى الحديث فى مجمله قد ارتبط فى العالم القديم بتطور مناخى جديد ، إلى جانب التطور البشرى الجديد . فعوضاً عن ظروف الجفاف العنيف التى سادت الشرق الأدنى خلال أواخر الدهر الحجرى القديم الأعلى ، ظهرت فترة رطيبة وصحبتها أمطار قلت من حيث المنسوب والاستمرار عن أمطار الحقب المطيرة القديمة ، ولكنها كانت أمطاراً مناسبة على كل حال ، وصبحها اعتدال واسع فى معدلات الحرارة ، مما دعا الجغرافيين إلى اعتبار عصرها عصراً للمناخ المثالى فى مناطق الشرق الأدنى وفى المناطق الأوروبية أيضاً . وهكذا يمكن أن يفترض أنه إذا كان أهل شبه الجزيرة قد عز عليهم أن يهتدوا إلى الزراعة فى عهود قريبة من العهود ، التى اهتدى إليها فيها أهل المناطق النهرية المحيطة بهم ، وذلك أمر مرجح ، فلا أقل من أن نفترض أنهم استطاعوا أن ينتفعوا بما هيأته لهم الفترة الرطيبة الجديدة من أمطار ونباتات وحياة حيوانية مشجعة على ممارسة حرفة الاستئناس ثم حرفة الرعى . ومرة أخرى إذا تتبعنا العوامل المحتملة المؤدية لظهور حرفة الرعى ، التى بدأت بوادرها فى الشرق منذ أواخر الدهر الحجرى القديم الأعلى ، نجد من الباحثين من يفترض أنه مهدت لها مرحلتان ، وهما : مرحلة أسر الحيوانات البرية من آكلات العشب ، ثم مرحلة استئناسها ، على أساس أنه ترتب على الظروف شبه الصحراوية ثم الصحراوية التى انتهى بها الدهر القديم الأعلى فى المناطق المدارية بخاصة أن تضاءلت فيه مناطق العشب والحشائش ، وتضاءلت معها بالتالى أعداد حيوانات الصيد وأنواعها ، إلا حيث توافرت المجارى المائية التى تتلقى مواردها من بلاد مطيرة بعيدة خارج المنطقة المدارية ، أو تتلقى مواردها من نزول الأمطار والسيول المتقطعة على المناطق الساحلية المرتفعة من حين إلى حين . ولعله حدث خلال تلك الظروف أن تعمد مهرة

الصيادين أن يتخيروا أعداداً مما يتيسر لهم صيده من حيوانات بيئتهم التى اعتادوا أكل لحومها ، لاسيما صغار الحيوانات قليلة البطش ، واستأسروها ليحتفظوا بها دون قتلها أو ذبحها ، بغية أن تنمو وتتوالد عندهم ، وبغية أن تصبح عندهم هى ونسلها بمثابة احتياطى حى من اللحم للظروف التى يعز الصيد عليهم فيها . وبعد أن اطمأنت الجماعات القديمة إلى هذه الوسيلة واعتادوها ، أخذوا يستأنسون ويتألفون أقل الحيوانات ضراوة وأكثرها نفعاً ، لاسيما صغيرة الحجم وذوات الظلف التى أمدتهم باللبن ، ولم تحوجهم إلى ضرورة قتلها من أجل الانتفاع بها ، وعملوا على تربيتها وشجعوا تكاثرها وتعهدوها فى قطعان ، فاستأنست بهم، واستأنسوا معها بعض أنواع الكلاب واستخدموها فى حراستها . وبدأت المرحلة الأولى - أى مرحلة الأسر فيما يرجح منذ أواخر الدهر القديم الأعلى . أما المرحلة الثانية - وهى مرحلة الاستئناس والتربية ثم الرعى - فقد اتضحت مظاهرها خلال العصر الحجرى الحديث نفسه . ورجح بعض الباحثين أن استئناس الحيوان ظهر فى بداية أمره فى منطقة «أناو» فى التركستان وماليها غرباً من مناطق الإستبس ، ثم انتشر منها شرقاً وغرباً . ومن حججهم فى ذلك ظهور ثلاثة أنواع من أسلاف الماشية البرية فى أواسط آسيا دون غيرها [١] .

* * *

بدايات المعادن (فى العصر الخالكوليثى - (Chalcolithic Period) :

كانت الخطوة الحضارية الكبيرة التالية - فى فجر التاريخ - هى معرفة استخراج بعض المعادن وتصنيعها بعد معرفة الزراعة والرعى ، ثم نشأة القرى .

ولعل أقدم ما استخدمه الإنسان من المعادن (فيما خلا حديد النيازك الذى كان يجده عفواً ويستخدمه دون أن يعرف أصله) هو معدن النحاس . وترجع ميزته إلى إمكان العثور عليه قرب سطح الأرض مختلطاً بمواد ، يمكن صهرها وفصلها بمجهود يسير وتحت حرارة ليست شديدة جداً ، مثل مادة الدهنج الخضراء (الملاخيت) ، ومادة الأزوريت الزرقاء ، ومادة الخريسو كولا . وليس من المستبعد أن بعض القدماء قد اهتدوا إلى استخلاص النحاس فى بداية أمرهم عفواً . وذهب الظن فى تصوير

(١) See, O. *Menghin, Weltgeschichte der Steinzeit*, Wien 1331, 302 f. *But compare*, V.G. Childe, *New Light on the Most Ancient East*, 24 f.

مناسبات اهتدائهم إليه إلى عدة فروض ، ومنها : أن مواد الأفران أو الأكوام التى كانوا يحرقون فخارهم فيها كانت تتضمن قطعاً من أخلاط النحاس أحياناً ، فلما تعرضت للحرارة الشديدة خلص النحاس منها وظهر بريقه فالتفتت الأنظار إليه . وأن من النساء من كن يتركن قطعاً من دهنج الكحل (الملاخيت) بجوار مواقد الأكواخ عن غير قصد ، فإذا اشتدت نار المواقد وصهرتها خلصتها من لونها الأخضر وأبقت منها رواسبها المعدنية البراقة . ولما تكررت هذه الظواهر وأمثالها ، والتفتت الأنظار إليها ، وظهر من الصناع من أدركوا مسبباتها ، وأصبحوا يكررونها عن قصد ، ويبحثون عن أخلاط النحاس فى مواطنها القريبة والبعيدة ثم يصهرونها بوسائلهم البدائية اليسيرة(١).

وتعتبر العهود الأولى لاستخدام النحاس فى الشرق الأدنى جزءاً من فجر تاريخه ، ولكنها توصف على الرغم من ذلك بثلاثة تعريفات خاصة بها ، وهى : تعريف زمنى يسميها العصر الإنيوليتى بمعنى العصر الحجرى الأحدث ، وتعريف حضارى يسميها العصر الخالكوليثى بمعنى العصر النحاسى الحجرى (ويعرب تجاوزاً باسم عصر بداية المعادن) ، ثم تعريف تاريخى يسميها باسم عصر ماقبل الأسرات فى مصر بخاصة .

وبدأ الانتفاع بالنحاس على نطاق ضيق ، ولم يزد استخدامه فى بداية أمره عن صناعة مجموعات من الخرز الصغير تستخدم فى أغراض الزينة ، ومثاقب طويلة دقيقة استخدمت فى ثقب حبات الخرز الحجرية ، ودبابيس طويلة استخدمت فى شبك أرديتهم الجلدية أو الكتانية . ثم اتسع استخدام النحاس اتساعاً نسبياً مع مرور الزمن ، وصنعت منه بعض المدى والأسلحة الصغيرة ، وتطلب هذا التوسع مزيداً من النشاط فى استخراج المعدن وتنقيته ، ومزيداً من النشاط فى البحث عن مصادره . وكان أمر هذا النشاط فى مصر أمراً ميسراً بعض الشيء ، فقد توفرت مصادر النحاس فيها فى شبه جزيرة سيناء وبعض مناطق الصحراء الشرقية ، على العكس من حال أهل بلاد النهرين ، الذين قلت مصادر النحاس فى أرضهم ، وتوافرت فيما حولهم فى إيران والأناضول وعمان ، وكان عليهم بذلك أن يبذلوا المجهود فى استيراده .

(١) A. Lucas, *JEA*, XXXI, 96-97; Coghlan, *Man*, July 1939.

الفرد لوكاس : المرجع المعرب السابق - ص٢٨١-٢٨٣ ، ٢٤٦ .

وضوح التجمعات :

صحب التطور الحضارى فى فجر التاريخ بشقيه ، العصر النيوليثى والعصر الخالكوليثى ، اتجاه إلى تكوين المجتمعات القروية ثم بداية التطور نحو المجتمعات المدنية . وقد مر بنا كيف دعت حياة الزراعة أصحابها إلى الاستقرار بالقرب من زراعاتهم لرعايتها وحمايتها ، وإلى التعاون فى سبيل استصلاح الأرض واستغلالها ، ثم فى سبيل دفع أخطار الفيضانات وتيسير الانتفاع بمائها . كما دعتهم إلى التقارب والتماس الأمن للفرد وأسرته وملكيته وسط الجماعة وفى حماية المجموع . وأدت هذه العوامل إلى تجمع سكان المناطق الزراعية فى قرى صغيرة كانوا ينشئونها على مناطق الحواف ، أى الحواف الزراعية والحواف الصحراوية ، أو المناطق المرتفعة بعض الشىء عن مناطق الزراعة المنخفضة ، بغية الابتعاد عن رطوبة أرضها ، وبغية توفير مساحاتها للإنتاج الزراعى بقدر الإمكان . وكانت المادة الميسرة فى إنشاء مساكن القرى الزراعية هى الطين الذى بدأ إستخدامه فى البناء على هيئة الجواليص، أى الكتل غير منتظمة الشكل ، ثم تطور إلى هيئة قوالب اللبن المستطيلة المنتظمة الشكل مع تدعيم الطين فيها بالحشائش الجافة والمواد العضوية حتى يزداد تماسكه ، ومع تدعيم أساسات المساكن نفسها بقطع الدبش الغفل . ونشأت أمثال هذه القرى فى بداية أمرها متواضعة متفرقة متباعدة ، ولكن لم يكن من منطق الأشياء أن تظل على التفرق طويلاً أو تستقل كل منها دائماً عن الأخرى ، وإنما كانت عرضة لأن تستجيب من حين إلى آخر إلى دواعى التقارب والتضام بعضها مع بعض . وقد تكون هذه الدواعى دواعى سلمية كاتصال المصالح التجارية وصلات النسب ، والاشتراك فى الديانة ، والتحالف من أجل تحقيق منفعة أو دفع خطر عدو مشترك ، أو تكون دواعى قسرية تتأتى من سعى بعض القرى القوية إلى بسط نفوذها على القرى الضعيفة القريبة منها وضمها تحت رايتها عن طريق القسر والغلبة . وكانت كل من الطريقتين تؤدى فى العادة إلى تميز قرية معينة ضمن كل مجموعة من القرى ، سواء بميزات الموقع الطبيعى والرخاء النسبى ووفرة الإنتاج واتساع المساحة ، أو بميزات الكثرة العددية وشدة البأس . ومثل هذه القرية القوية بأهلها وبرئيسها وبإنتاجها وبموقعها غالباً ما كانت تتحول إلى بلدة عامرة محصنة بأسوارها ، ومتميزة بأسواقها وصناعها، أى إلى مدينة أولية ، وهنا قد يصحب الرقى المادى فى هذه المدينة رقى فكرى نسبى يماثله ، ثم يؤدى هذا الرقى الفكرى إلى تنظيم سياسى معين أو إلى

تحقيق زعامة دينية أو ما أشبه ذلك مما قد تختلف به كل بلدة عن الأخرى ، وهذا التمايز فيما بين بلدان فجر التاريخ فى الشرق الأدنى القديم ، المتعاصرة مع بعضها البعض ، أو المتتابعة بعد بعضها البعض ، سوف نؤجل بحثه لحين بحث التطور التاريخى والحضرى، لكل شعب من شعوب الشرق القديم، على حدة فى الفصول التالية.

وإذا كان لابد من عودة إلى شبه الجزيرة العربية وأحوالها فيما يعاصر حضارات عصر بداية المعادن فى المناطق المحيطة بها ، فإن كل مايمكن تقديمه بشأنها أمرين ، وهما : أنه ليس من المستبعد أن أهل أطرافها الشمالية الغربية قد عرفوا النحاس وعرفوا استخدامه على نطاق ضيق بحكم مجاورتهم لشبه جزيرة سيناء المورد الرئيسى لمعدن النحاس فى مصر ، ثم بحكم مجاورتهم لجنوب الشام الذى عرف أهله النحاس فى وقت قريب من وقت معرفة المصريين به . ويمكن ترتيب مثل هذا الرأى احتمالاً كذلك بالنسبة للمناطق الشرقية القريبة من حدود العراق والخليج العربى وإيران .

أما الأمر الآخر ، فهو مبنى على ما لوحظ من وجود شيء من التشابه بين بعض المصنوعات والمظاهر الحضارية فى مصر ، وبين أمثالها فى العراق خلال ماقبل العصور التاريخية وفى بدايتها [1] . ونم هذا التشابه الذى سنشرح بعضه فى فصول تالية ، عن اتصال حضارى وتجارى قديم بين أصحاب الحضارتين ، غير أنه لم يكن من الضرورى أن يتم مثل هذا الاتصال بين الفريقين بطرق مباشرة دائماً ، بحيث يرتحل من أجله عراقيون إلى مصر أو يرتحل فيه مصريون إلى العراق بالضرورة ، وإنما يبدو أن أغلب الاتصالات بينهما كانت تتم عن طريق وسطاء تلقائيين يرتادون المناطق التى تفصل بينهما . وغالباً ماكان بعض هؤلاء الوسطاء من أهل الشام ، ولكن لايستبعد فى الوقت نفسه أن بعضهم الآخر كان من أهل شبه الجزيرة العربية ، سواء من أهل أطرافها الشمالية أم من أهل أطرافها الجنوبية . وإذا صح هذا الفرض الأخير ، وهو فيما يبدو فرض محتمل ، أمكن أن نرتب عليه أن بعض أهل هذه الأطراف العربية قد انتفعوا بالحضارتين ، وقلدوا بعض أوجه نشاطهما فى حدود ما كانت تسمح به بيئتهم وما يسد مطالبهم .

* * *

(١) انظر مراجع حاشية ١ ص٢٠ .

الكتاب الأول

مصر القديمة
منذ فجر التاريخ حتى نهاية العصور القديمة (الفرعونية)

تمهيد بتقسيمات عصور الحضارة المصرية القديمة ومصادرها الأصيلة

مهدت لمصر طريقها الحضارى القديم عوامل طبيعية وبشرية عدة ، يرد فى مقدمتها ضخامة نصيبها من مياه نهر النيل فى مجراه الأدنى ، والتجدد السنوى لخصوبة أرضها ، وسهولة الاتصالات بين أجزائها ، مع انبساط سطحها ، وقلة العوائق الطبيعية الحادة فيها . ثم موقعها الجغرافى المتميز واعتدال مناخها بما لم يعق نشاط إنسانها القديم ، وتوافر عدد من المواد الأولية الأساسية فى ساحتها ، وكذا الحصانة الطبيعية النسبية لحدودها البيئية ، على الرغم من شدة اتساعها وطول امتدادها. ولم يقل أثراً عن ذلك كله فى دفع مسيرة الحضارة المصرية كثافة أعداد أهلها ، مع جلدهم ووحدة لغتهم وندرة الفوارق الجنسية بينهم ، وقدم الأواصر بين جماعاتهم ، وقدم إدراكهم لوحدة وطنهم ، فضلاً عن استقرار نظم الحكم الداخلية فى أغلب عصورها . وكلها عوامل ساعدت على نمو الحضارة المصرية ونضجها فى عصور مبكرة ، كما ساعدت على اتصال حلقات تطورها بعضها ببعض دون فجوات كبيرة تذكر فيما بينها .

ولسنا نعنى بتعداد كل هذه الميزات أنها حققت «المثالية» فى تاريخ مصر وحضارتها بحكم الضرورة ، ولكننا نعنى بتقديمها أنها كانت من المقومات الأولية لتكييف مسيرتها الحضارية والتاريخية ، وأنها كانت من العوامل المساعدة على تغليب الجوانب الطيبة فيها ، بغير أن ننفى قيام عوامل أخرى مضادة لها من داخل مصر ومن خارجها .

سمى المثقفون المصريون القدماء أرضهم باسم «كيمة» ، بمعنى السوداء أو السمراء ، إشارة إلى سمرة تربتها الطينية وخصوبتها وكثافة زرعها . وكثيراً ماعبروا عنها باسم التثنية «تاوى» أى الأرضين ، أرض الدلتا وأرض الصعيد فى حال الترابط والشمول . وارتبط الاسم الشائع «مصر» فى اللغة المصرية وبعض اللغات السامية القديمة بمترادفات تدل على معانى الحد والحاجز والمكان الحصين، فضلاً عن البلد المتمدين . كما يحتمل أن اسم إيجبت الشائع عنها فى اللغات الأجنبية منذ عهود المؤلفين الإغريق القدامى ، قد تحرف فى أصله عن اسم آجبة المصرى بمعنى أرض الفيضان ، إلى جانب أسماء أخرى وكنيات كثيرة يمكن مراجعة مدلولاتها فى الفصل الأول من كتابنا عن «حضارة مصر القديمة وآثارها» .

* * *

تقسم عصور الحضارة المصرية القديمة تقسيماً اصطلاحياً إلى ثمان وحدات اعتبارية كبيرة ، تمايزت كل وحدة منها عن أختها من حيث امتدادها الزمنى وطاقتها البشرية ومستوياتها الحضارية وأوضاعها السياسية . ولكن اتصلت كل واحدة منها اتصالاً تطورياً وثيقاً بسابقتها كما مهدت بتطوراتها للاحقتها . وقد تعاقبت بمصادرها القديمة على النحو التالى الذى نصوره ها هنا فى إيجاز :

أولاً – دهور ماقبل التاريخ : وقد اتصفت بامتداد زمنى طويل وظواهر مناخية متمايزة تنوعت بين شدة الأمطار وبين شدة الجفاف ، واستخدمت مصنوعات حجرية متواضعة ، شاعت أمثالها فيما قبل التاريخ فى الشرق الأدنى القديم بوجه عام، ولايكاد يستثنى منها للدراسة التفصيلية بكل بلد فيه على حدة سوى خصائص آخر عصورها ، وهو العصر الحجرى الحديث ، باعتباره البداية الواضحة للتخصص الإقليمى بين بلاد هذا الشرق ، وباعتباره ممثلاً لمرحلة فجر التاريخ فى كل من مصر والعراق بخاصة ، وممهداً لبداية العصور التاريخية التى أعقبته فيهما .

وانحصرت مصادر الدهور الحجرية القديمة ، فيما تركه إنسانها الأول من أدوات بدائية ، كان أغلبها من الحجر . ثم ماتركه فى مناطق سكناه العتيقة من آثار المواقد وبقايا أسنان المناجل وأحجار المراحى ، وماخلفه من رسوم بدائية تعنى باحثها من حيث اتصالها بطفولة الفن الأولى ، وبالتصورات الدينية وتخيلات السحر القديم ، فضلاً عن أنها احتفظت أحياناً بما يصور بعض حيوانات بيئاتها القديمة ووسائل الإنسان فى مواجهتها وفى صيدها .

أما عصر فجر التاريخ بخاصة ، فقد زادت مصادره المادية زيادة نسبية نتيجة لاستقرار حياته الزراعية . فتعددت آثار الحرف الأولية التى مارسها أهله وتخصص بعضهم فيها ، مثل : أدوات الزراعة والأوانى الفخارية والحجرية والصلايات والسلال والمنسوجات البسيطة ، وبدايات المصنوعات النحاسية المتواضعة ، ونماذج الرسوم والنقوش والتماثيل الصغيرة . وقد استمرت كل هذه الآثار غفلاً من الكتابة ، وظل أولاها بالدراسة فى نظر الآثارى المؤرخ؛ للدلالة على التتابع الزمنى والتطور الصناعى والتطور الفنى خلال العصر الحجرى الحديث، هى الأوانى الفخارية، تستوى فى ذلك الأوانى الغفل ذات الأشكال المتطورة، والأوانى ذات الرسوم الأشكال المعبرة .

ثانياً – بداية العصور التاريخية : وتسمى اصطلاحاً كذلك باسم عصر بداية الأسرات ، والعصر الثنى ، والعصر العتيق .. وقد بدأت فى فترة ما من القرن الثانى والثلاثين ق.م ، وامتدت إلى عام ٢٧٨٠ ق.م أو نحوه . وامتازت تاريخياً باستقرار ووحدة مصر السياسية الكاملة منذ أوائلها ، وبمعرفة الكتابة منذ بدايتها ، وبظهور المصادر التاريخية المكتوبة فيها لأول مرة تبعاً لذلك . كما تعتبر عصر التكوين بالنسبة لنظم الحكم وأوضاع الإدارة ، وقد تعاقبت خلالها على عرش مصر الأسرتان الأوليتان من الأسر المالكة فى مصر القديمة .

ثالثاً – عصور الدولة القديمة : وهى عصور بدأت بعصر الأسرة المالكة الثالثة فى أوائل القرن الثامن والعشرين ق.م ، وامتدت حتى نهاية عصر الأسرة السادسة (أو بعده بقليل) فى أواخر القرن الثالث والعشرين ق.م . واتصفت أغلب عهودها بالاستقرار السياسى النسبى ومركزية الحكم ، وتميزت معالم الحضارة فيها بالنمو الداخلى فى شئون العمارة والفنون وتنظيمات الإدارة وعقائد الآخرة . واستقرت مبادئ ذلك كله دونما تأثيرات خارجية ملموسة ، وتمثلت أغلب آثار هذه العصور فى مقابرها الفخمة وأهرامها الرائعة التى انتشرت حول عاصمتها إنب حج أو منف . فيما يمتد بين ميدوم ودهشور وسقارة والجيزة جنوبى القاهرة الحالية ، فضلاً على ما تناثر من آثارها فى بقية مناطق مصر الأخرى .

رابعاً – عصر الانتقال الأول (أو عصر اللامركزية الأولى) : وكان عصر انتقال من مركزية الحكم الموحد إلى تفرق سياسات ووجهات الحكام . ومن الاستقرار السياسى والأمنى إلى حال من القلقلة . ومن ضخامة إمكانيات الدولة إلى تفرقها وقلتها . وإن انتعشت خلال هذا العصر فى الوقت ذاته أحوال الطبقات الوسطى والبسيطة . ونمت فيه روح الفردية ، وظهرت خلاله مبادئ سياسية وعقائد دينية متحررة . وامتد العصر من أعقاب نهاية عصر الأسرة السادسة حتى نهاية عصر الأسرة المالكة العاشرة فى أواسط القرن الحادى والعشرين ق.م .

خامساً – عصور الدولة الوسطى : وهى عصور تميزت باستعادة مركزية الحكم والسلطة الملكية ووحدة السياسة فى شئون الداخل والخارج ، مع الإبقاء على ازدهار الفردية . واتسعت مجالات التعامل والتأثير فيها بين مصر وبين جيرانها فى الشرق الأدنى وجزر البحر المتوسط ، واعتبرت العصر الذهبى لكل من اللغة المصرية وآدابها . واستمرت نحو ثلاثة قرون ، ابتداء من عصر الأسرة الحادية عشرة حتى

النصف الأول من عصر الأسرة الثالثة عشرة فى أوائل القرن الثامن عشر ق.م . وكانت من عواصمها طيبة فى الصعيد ، واللشت عند مدخل مصر الوسطى ، ومنف قرب رأس الدلتا .

سادساً – عصر الانتقال الثانى (أو عصر اللامركزية الثانية) : وكان انتقالاً اضطرارياً من القوة إلى الضعف ، ومن الوحدة السياسية إلى التفكك ، ومن الاستقرار إلى القلق ، ومن الحكم القومى إلى تدخل الأغراب . وامتد بمشكلاته فيما بين أواخر عصر الأسرة الثالثة عشرة ، وأواخر عصر الأسرة السابعة عشرة . وشغلت أغلب أيامه محنة الهكسوس . وانتهى فى أوائل القرن السادس عشر ق.م ، بإجلاء الهكسوس وتشتيتهم وتحرر البلاد منهم .

سابعاً – عصور الدولة الحديثة : وقد بدأت بعودة الاستقرار السياسى القومى الكامل ومركزية الحكم وقوة الملكية . وتميزت ببلوغ الذروة فى الرخاء العام وفى الفنون ، ورقى مذاهب الدين حتى مرتبة الوحدانية . كما تميزت بالانطلاق الواسع فى مجالات السياسة الدولية والتبادل الحضارى والتوسع الخارجى . وبدأت ببداية عصر الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام ١٥٧٥ ق.م، وعمرت نيفا وستة قرون ، حتى بلغت خواتيمها بنهاية عصر الأسرة الحادية والعشرين خلال القرن العاشر ق.م .

ثامناً – العصور المتأخرة (أو خواتيم العصور الفرعونية) : وهذه بدأت مظاهرها منذ القرن العاشر ق.م ، وتذبذب النشاط المصرى خلالها بين مد وجذر فى مجالات السياسة والحروب . واختلطت فيها بعض العناصر الدخيلة بالمصريين اختلاطاً ملحوظاً ، وتأثرت مصر فيها بتأرجح موازين القوى بين أقطار الشرق والغرب القديمة، وابتدات مقاليد الحضارة والسيادة تنفلت منها إلى غيرها ، بل وتعرضت أرضها لأكثر من غزو خارجى ، ثم انتهت بانتهاء الحكم الفرعونى القومى بعد عصر الأسرة الثلاثين ، مع فتح الإسكندر المقدونى لمصر فى خريف عام ٣٣٢ ق.م ، إلى جانب غيرها من أقطار الشرق القديم .

* * *

تعددت المصادر المادية والمكتوبة والمصورة للعصور التاريخية المصرية القديمة السابقة بما يعبر عن آداب أهلها ، وعلومهم ، وعقائدهم ، وفنونهم ، وحرفهم ، وأوضاعهم السياسية ، واتصالاتهم الخارجية ، تعدداً واسعاً . فعبر عن الجوانب الفكرية

والأدبية والعلمية من التراث المصرى القديم ماتضمنته مخطوطات البردى ونصوص اللوحات الحجرية واللخاف المكتشفة ، من قصص وأساطير ، وتعاليم وقصائد وفلسفات، وطب وفلك ورياضيات ، ودروس تعليمية . فضلاً عما أمكن استنتاجه عن عمليات التحنيط من الجثث الباقية ، وما أمكن استخلاصه من مبادئ الهندسة النظرية والتطبيقية من المنشآت المعمارية الكثيرة القائمة .

وعبر عن عقائد مصر القديمة الروحية ، التعبدية منها والأخروية ، ماتضمنته نقوش المعابد والمقابر والنصب ، ومخطوطات البردى ، من نصوص الدعوات والأناشيد وهيئات التعبد وصور الحساب والتصورات عن الآخرة . وتميزت منها تراتيل نصوص الأهرام ومتون التوابيت وكتب الموتى ، فضلاً عما رمزت إليه تماثيل المعبودات وصورهم ، والصفات التى نسبت إليهم ، والألقاب التى حملها كهنتهم .

وعبر عن فنون مصر الإنشائية وفنونها الصغرى والتطبيقية ، مابقى من مقابرها الكبيرة وأهرامها ومعابدها ومساكنها وحصونها ، وماتضمنته مناظرها المنقوشة والمصورة ، وتماثيلها الكبيرة والصغيرة ، فضلاً عن أدوات الترف والزينة التى عثر عليها فى مقابرها وبقايا مساكنها .

أما شئون الأوضاع الاجتماعية والحياة اليومية العادية فى العصور المصرية المتعاقبة ، فقد صورت جوانبها النظرية تعاليم الحكماء ، والمناظر الأسرية المسجلة على جدران المقابر ، ومناظر الزراعة والصناعة التبادل التجارى . وعبر عن جوانبها العملية الفعلية ماعثر عليه من أدوات الاستعمال اليومى فى المساكن والمقابر ، والنماذج الصغيرة التى قلد الصناع بها وجسموا فيها هيئات مصانعهم ومخازنهم ورمزوا بها إلى سير العمل فيها ، ثم الرسائل الشخصية وصيغ الشكوى ونصوص القضايا التى صورت انفعالات أهلها ومشاعرهم ، وعلاقات بعضهم ببعض . ثم عبر عن اتصال مابين هذه الحياة القديمة وما المجتمع المصرى الحديث من أواصر ، مابقى حتى الآن من ألفاظ ومسميات وعادات يمكن ربطها بما جاءت به المصادر السابقة جميعها ، مما هو مكتوب وماهو مصور ومرسوم .

ومن مصادر الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية فى تلك العصور التاريخية المتتالية ، التآريخ الرسمية التى سجل الكتبة والمؤرخون المصريون نصوصها بوحى حكامهم وبأسمائهم ، منذ أوائل عصورهم التاريخية أولاً على جذاذات من البردى

والخشب والعاج بأحداث مفردة ، ثم بعد ذلك فى قوائم متصلة منقوشة على النصب الحجرية وجدران المعابد أحياناً ، وقوائم أخرى مخطوطة على صفحات البردى أحياناً أخرى . ومن أهم ماعرف حتى الآن من هذه وتلك مايسمى اصطلاحاً بأسماء قائمة حجر بالرمو من القرن ٢٥ ق.م ، وقائمة الكرنك من القرن ١٥ ق.م ، وقائمة أبيدوس وبردية تورين من القرن ١٣ ق.م . وقد اكتفت بعض هذه القوائم بتسجيل تتابع أسماء الملوك حتى زمانها ، بينما أضاف بعضها إلى أسمائهم ذكر فترات حكمهم بالأعوام والشهور والأيام . كما تضمن بعضها الآخر ، وهو الأهم ، ما اشتهرت به عهودهم من منشآت خاصة وعامة ، وأعياد وحروب وبعثات تجارية [1] .

وإلى جانب هذه القوائم التاريخية الرسمية ، عمل الكتاب والمؤرخون والفنانون المصريون فى عهد كل ملك على أن يسجلوا مآثره وأعماله وحروبه ، فضلاً عن دلائل تقواه ، على جدران المعابد التى أنشئت فى عهده وعلى نصب حجرية كبيرة أقيم بعضها فى رحاب المعابد والدواوين ، وأقيم بعضها على حدود مصر وعلى حدود أملاكها الخارجية . ولم يكتفوا بالكتابة التاريخية وحدها على هذه وتلك ، وإنما جعلوا مما سجلوه عليها من مناظر وأحداث معرضاً للتاريخ المصور أيضاً .

وساهمت النصوص والمناظر الفردية لكبار الموظفين والأثرياء فى التعبير عما اشترك أصحابها فيه من أعمال عامة وحروب وبعثات ومنشآت ، خلال ما ولوه من مناصب . واصطبغت أغلب تسجيلاتهم الفردية هذه بصبغة تقليدية ردت الأمر كله فيها إلى إيحاءات الملوك ووصفتهم بما كانوا يستحبون أن يوصفوا به دائماً من قداسة وعدل وقوة بأس ، ولو لم يكن لبعضهم نصيب من ذلك كله . بينما اصطبغ بعضها الآخر بنصيب أكبر من الواقعية ، فصورت نصوصها الأحداث قريبة مما جرت به فعلاً ، بغير تضخم كبير ولاتنميق كثير ، وردت بعض الفضل العملى فيها إلى أصحابه الفعليين .

وتكتمل صورة المصادر المصرية القديمة عن العصور التاريخية الطويلة بما كتبه عنها المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى، الذى عاش فى القرن الثالث ق.م ،

---

(١) راجع عن التفاصيل : عبدالعزيز صالح : التاريخ فى مصر القديمة - مفهومه وعناصره وبواعث القومية فيه - القاهرة ١٩٥٧ - والمؤلف نفسه : حضارة مصر القديمة وآثارها - جـ١ - ص٢٣٣ - ٢٤٤ .

وحاول أن يؤرخ به للحياة الاجتماعية والحياة السياسية معاً ، منذ أقدم العصور حتى أيامه ، فنجح حيناً واشتط أحياناً .

أما المصادر غير المصرية فمنها ماروته الكتب السماوية من إشارات قصيرة عن مصر ومن عايشها من الأنبياء . وعبارات متفرقة عن مصر أيضاً تضمنتها بعض نصوص حكام البلاد الشرقية القديمة ورسائلهم إلى الملوك الفراعنة مثل رسائل العمارنة .

وهناك أخيراً كتابات الرحالة والمؤرخين الإغريق والرومان الذين زاروا مصر وكتبوا عنها منذ أواخر القرن السادس ق.م . على أقل تقدير ، من أمثال : هيكاتيوس الميليتي ، وهيرودوت الهاليكارناسي ، وهيكاتيوس الأبديرى ، وديودور الصقلى ، واسترابون البونتى ، وبلينوس الجغرافى ، وبلوتارخ الخايرونى ، فضلاً عمن أقاموا منهم فى مصر ، والإسكندرية بخاصة ، وأصبحوا مواطنين فيها وكتبوا عن تاريخها وأحوال مجتمعها من أمثال : إراتوستينوس ، وأبوللو دوروس ، وهورابوللو ، ويوسيفوس ، ويوليوس أفريكانوس ، ويوسيبيوس ، وجيوجرجيوس ، وغيرهم . واختلف نصيب كل مؤرخ وجغرافى ورحالة من هؤلاء وهؤلاء عن زميله فى مدى تحريه الواقع والأمانة والدقة فيما رواه عن مصر ، ومدى معرفته الصحيحة بتاريخها ومدى إقامته بها ، ومدى فهمه لتقاليد أهلها . بل إن ماكتبه كل منهم جمع فى طياته بين المنطق وبين الخرافة ، وبين الصدق حيناً والافتراء حيناً آخر ، وبين أدلة الذكاء وقرائن الغفلة ، وبين صور المدح وصور الدم فى آن واحد . وكل ذلك مما يحول دون الحكم على أحدهم بحكم عام ، أو الحكم على كفاياتهم كلها بحكم شامل ، لاسيما فيما يختص بكتاباتهم عن العصور القديمة التى سبقتهم ، والتى جمعوا أغلب أخبارها البعيدة من أفواه الرواة أو الأدلاء والكهان ومن منطوق الأساطير ، وهو ماقد تتميز عنه إلى حد ما رواياتهم عن العصور المتأخرة التى زاروا مصر إبانها ، ووصفوا ما رأوه فيها رأى العين، فأصابوا فى وصفه أحياناً ، وخدعوا عنه أو أخطأوا تصويره أحياناً أخرى .

ووضحت لحركة وصف الآثار المصرية الظاهرة فى العصر الحديث مرحلتان ، مرحلة وصفية للآثار القائمة تكفل بها العلماء الفرنسيون ، الذين صحبوا نابليون إلى مصر ، ونشروا نتائجها بين أعوام ١٨٠٩-١٨١٣ ضمن مجلداتهم الضخمة عن وصف مصر "Description de l'Egypte" . ومرحلة أخرى تكفلت بها بعثات

أجنبية أيضاً منظمة منذ عام ١٨٢٨ ، وكان من روادها روسيلليني [١] ، ولبسيوس ، وواصل هذه الأخير عمله ونشر عنه مجلدات ضخمة منذ عام ١٨٤٩ [٢] ، رسم فيها وسجل طائفة كبيرة من نصوص الآثار الظاهرة في مصر والنوبة ، وآثاراً أخرى كشف بنفسه عنها في سقارة ومصر الوسطى . ومنذ ذلك الحين سار وصف الآثار القائمة ورسمها وتصويرها جنباً إلى جنب مع التنقيب عن الآثار المدفونة ، ودراسة اللغة المصرية القديمة ، ونشر نصوصها .

وبدأت دراسة اللغة المصرية وجهتها العلمية بعد العثور مصادفة على حجر رشيد في عام ١٧٩٩ ومحاولة قراءة نصوصه . وهو حجر من البازلت الأسود عثر عليه خلال حفر خندق حول قلعة قايتباي (أو سان جوليان) برشيد ، وحاول الفرنسيون أن يخرجوا به من مصر مع غيره من الآثار التي وجدوها في أرضها ، ولكن هزيمة أسطولهم في أبي قير أدت إلى انتقال هذه الآثار ومن بينها حجر رشيد إلى المتحف البريطاني بلندن .

نقشت على واجهة حجر رشيد (١١٤ × ٧٢ × ١١سم) سطور كثيرة ، بقي منها ١٤ سطراً كتبت بالخط الهيروغليفي في أعلاه ، و٣٢ سطراً كتبت بالخط الديموطي في وسطه ، و٥٤ سطراً كتبت باللغة اليونانية في أسفله . وحاول قراءة نصوصها عدد من الباحثين ، منذ عام ١٨٠٢ ، وكان أكثرهم مثابرة أربعة : البريطاني T. Young، والسويدي J.D. Akerblad, ، والفرنسيان الأكثر شهرة S. de Sacy, and J.F. Champollion . وكان أكثرهم توفيقاً وحظاً واستمراراً هو جان فرنسوا شامبليون . ولهذا أصبح هو الأكثر شهرة . وأدت دراساتهم المتفرقة في عام ١٨٢١ إلى أن نقوش الحجر تضمنت قراراً أصدره كبار الكهنة المصريين المجتمعين في منف في عام ١٩٦ ق.م ، وشكروا فيه الملك البطلمي إبيفانس على إعفاء معابدهم من تكاليف فرضها أسلافه عليها . ومانود أن ندع شكر الكهنة هذا بغير أن نعقب عليه بحقيقتين ، وهما : أن الكاتب المصري كاتب الحجر تعمد أن يجعل كتابته الهيروغليفية المقدسة في أعلى الحجر ، وسجل كتابته الديموطية الشعبية في وسطه ، ونحى الكتابة الإغريقية لغة الملك البطلمي وبطانته إلى أسفله ، وذلك مما قدى يعني أن عجز

(١) J. Rosellini, *I monumenti dell'Egitto e della Nubia*,... Pisa, 1832-44.

(٢) K.R. Lepsius, *Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopien*, Berlin, 1894 f.

المصريين المادى إزاء حكامهم البطالمة الأجانب لم يمنعهم من أن يتلمسوا كل سبيل يعبر عن قوميتهم الدفينة وينتصر لكرامتهم المغلوبة على أمرها ، على الرغم من أن الحجر قد أقيم فى منطقة غلب عليها النفوذ الإغريقى، سواء أكان ذلك فى رشيد نفسها أم كان قد نقل إليها من منطقة سايس (أو صان الحجر الحالية) .

أما الحقيقة الثانية فتتمثل فى أن ثناء الكهنة المصريين على الملك الأجنبى لم يمنعهم من أن يلمزوه فى سياق النص بعبارات ضمنية ، كانت منها عبارة تقول «إن الملك ثبت للمعابد ومصر تقاليدها وفقاً للقانون» وكأنهم بعباراتهم هذه التى ضمنوها عامدين فى سياق شكر الملك لم يروا فيما أثابهم به هذا البطلمى ، غير تسليم بما يأمر به التقليد أو العرف الواجب والقانون [1] .

فقد حجر رشيد عدداً كبيراً من سطوره الهيروغليفية ، ولكنه تضمن سطوره الديموطية والإغريقية شبه كاملة . ويسر على الباحثين قراءة نصوصه معرفتهم السابقة باللغة الإغريقية ، وورود عبارة فى النص الإغريقى توصى بكتابة القرار بالكتابة المقدسة أى الهيروغليفية ، والكتابة العامة أى الديموطية ، فضلاً عن الكتابة الإغريفية ، مما نم عن أن الكتابات الثلاث ليست غير ثلاث نسخ لقرار واحد . ووجد أولئك الباحثون ألفاظاً كررت عدة مرات فى النص الإغريقى ، وحاولوا لتعرف مرادفاتها فى الكتابة المصرية ، ومنها اسم بطلميوس نفسه ، وألفاظ المعابد ، والكهنة ، إلخ . ولما كانت أسماء الأعلام لاتتغير حروفها تغيراً كبيراً بين لغة وأخرى ، بدأوا بتعرف مرادف اسم بطلميوس فى الكتابة المصرية ، ويسر ذلك لهم أن المصريين اعتادوا على تضمين أسماء الملوك فى إطارات مستطيلة ملفوفة الأركان يطلق عليها اصطلاحاً اسم الخراطيش . وبمقارنة هذا الاسم فى نصى اللغتين الإغريقية والمصرية اهتدوا إلى تعرف مدلول بضع علامات وحروف مصرية. ثم تكررت المحاولة فى عام ١٨٢١ على نقوش مسلة مصرية نقلت إلى بريطانيا فى عام ١٨١٩ ، ونشرت صور نقوشها الهيروغليفية ، ونقوش أخرى إغريقية سجلت على قاعدتها . وتضمنت هى الأخرى اسم بطلميوس واسم كليوباترة . وبالجمع بين الحروف المشتركة فى الاسمين ، وضح ثلاثة عشر حرفاً ذات اثنى عشر صوتاً . وكانت محاولات أولئك

(١) عبدالعزيز صالح : دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة - القاهرة ١٩٥٧ - ص٥٣ - ٥٨ .

الباحثين بمثابة مفاتيح لأسرار اللغة المصرية التي استغلقت على من سبقوهم قروناً طويلة ، واستمرت المحاولات حينذاك لقراءة أسماء مصرية وإغريقية ورومانية ، مثل تحوتمس والإسكندر وبرينيكي ودوميشيان وتراجان . واتصلت الدراسات بعد ذلك على الآثار وصفحات البردى جيلاً بعد جيل ، حتى أصبحت اللغة المصرية تعرف اليوم ، مما لم تعرف به لغة قديمة أخرى من الصحة والوضوح [١] .

ومر التنقيب عن الآثار الدفينة في عدة مراحل خلال القرن الماضي والقرن الحالي [٢] فبدأ بمرحلة شغلت النصف الأول من القرن التاسع عشر ، واستغلها طائفة من الأجانب كان أقلهم من العلماء المتخصصين وأكثرهم من الهواة وتجار الآثار ، بل ومن الأفاقين الذين اجتذبتهم شهرة كنوز مصر وفنونها وعجائبها ، وشجعهم استعداد المتاحف الدولية وكبار الأثرياء العالميين على شراء كل مايعرضونه عليهم منها . وعن طريقهم انتقلت كنوز كثيرة إلى الخارج . وأخذت الحكومة المصرية تهتم بقية الآثار القديمة منذ الربع الثالث للقرن ١٩ ، وكانت قد تبنت فكرة إنشاء إدارة تعنى بها منذ عهد محمد على ، ولكن هذه الفكرة تعثرت واكتفى الولاة بتخزين الآثار المكتشفة في دار بالأزبكية حيناً ، وفي القلعة حيناً آخر ، حتى أحيا أوجست ماربيت المدير الفرنسى لدائرة الآثار هذه الدعوة من جديد باسم مصر في عهد الخديو سعيد . وأنشأت مصر متحفاً علمياً منظماً لأول مرة كان مقره في بولاق عام ١٨٥٩ ، وانتقل منها إلى الجيزة ، ثم استقر أخيراً في موضعه الحالي منذ عام ١٩٠٣ . ونشط التنقيب عن الآثار في هذه الفترة بموافقة الدولة ، وظهر جيل من الآثاريين واللغويين والمؤرخين ، راعوا الحرص حين التنقيب عن الآثار وحين تجميعها ، كما راعوا الحرص على التعجيل بتسجيلها ونشر أوصافها ودراسة نصوصها ، وقدروا الأهمية لكل شيء براقاً كان أم غير براق . وتوالت بعثات المؤسسات والمتاحف العلمية والجامعات الأجنبية منذ عام ١٨٩٠ إلى مصر ، وزاد نشاطها العلمي خلال القرن

(١) *JEA*, 1958; A.H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, 1957. 12-15.

أدولف إرمان وهرمان رانكه . مصر والحياة المصرية في عصورها القديمة – المقدمة ج – د .

(٢) Glanville, *The growth and nature of Egyptology*, 1947; G.E. Daniel, *A hundred years of Archaeology* 1949; F. Ll. Griffith "The Decipherment of the Hieroglyphs", *JEA, XXXII*, 38 f. J.A. Wilson, *Sings and Wonders upon Pharaoh*, 1964; M.Pope, *The Story of archaeological Decipherment*, 1975,60 f.

العشرين . وأسهم معها وبعدها نفر من الباحثين المصريين فى مجال الكشف الأثرى والنشر العلمى والتحليل التاريخى ممن يعرفهم الجيل الحاضر ، من خلال سمعتهم ومؤلفاتهم .

وعن طريق كل هذه الجهود ، أصبح التاريخ المصرى القديم بكل مافيه من سياسة واجتماع ودين وأدب وعلم وفن ، يعرف اليوم بنصيب من الترابط والدقة يزيد إلى حد ملحوظ عن نصيب غيره من تواريخ وحضارات الأمم القديمة الأخرى .

* * *

الفصل الثالث

مصر فى فجر تاريخها

(بين أوائل الألف السادس وأواخر الألف الرابع ق.م.)

دعا إلى التردد فى تقديم هذا الفصل عاملان ، وهما : أن تفاصيله تعنى علم الآثار أكثر مما تعنى علم التاريخ ، وأن المحصول الحضارى لعصره ، عصر فجر التاريخ ، ليس غير محصول متواضع بالنسبة إلى ما ألفه العالم المعاصر عن المظاهر الضخمة للحضارة المصرية فى عصورها الفرعونية . ولكن زكى ضرورة كتابته دافعان ملحان أيضاً ، وهما : أن عصره هذا قد امتد أكثر من عشرين قرناً وهى فترة لايمكن إغفالها من عمر الحضارة المصرية بحال من الأحوال ، وأن آثاره وخبراته وتطوراته على الرغم من بساطتها كانت هى الأساس الغفل لأوائل الآثار والخبرات التاريخية التى أتت بعدها . وللتوفيق بين الأمرين ، تكتفى الصفحات التالية بمعالجة الخطوط العريضة فى دراسة هذا العصر ، أما تفاصيله فيمكن الرجوع فيها إلى ماسبق أن نشرناه عنها فى كتابنا الأول عن «حضارة مصر القديمة وآثارها» ، وقد شغلت فيه نيفا ومائة وخمسين صفحة [1] .

وقد مر بنا آنفا كيف وضح تعامل الإنسان مع بيئته فى عصر بداية الزراعة ، أو عصر بداية فجر التاريخ أكثر مما وضح فى الدهور السابقة عليه ، وكيف وضح هذا التعامل على هيئة تحد بطىء متتابع ، بين الزارعين الجدد الذين رغبوا فى الانتفاع بما يستطيعون استغلاله من الأراضى الخصبة وفيرة الماء والقابلة للإنتاج ، ووحشية هذه الأراضى فى أغلب أحوالها واحتياجها إلى جهد طويل وتهذيب وسيطرة حتى تؤتى أكلها حسبما يود أهلها [2] .

---

(١) راجع : عبدالعزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٢ - ص٧٨ - ٢٣٠ .

(٢) *See* also, E. Meyer, *Chronologie égyptienne* (*tr. by* A. Moret), 165; Ehernberg., *Zu Hordot* (Klio XVI), 318 f.

سليمان حزين : فى تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الأول - القاهرة ١٩٦٢ - ص١٧ .



فى الفترة النيوليثية (الحجرية الحديثة) :

أخذ المصريون فى بداية فجر تاريخهم بمثل ما أخذ به غيرهم من أصحاب المجتمعات الزراعية الأولى ، فيما يختص بعلاقاتهم المكانية ووسائلهم الاقتصادية . فظلت جماعاتهم تحيا لفترات طويلة فى وحدات صغيرة متفرقة ، يتصل البعض منها بالبعض الآخر ولكن بمقدار ، ويأخذ البعض منها عن البعض الآخر ولكن بمقدار . وإن كانت على الرغم من تفرقها لم تعدم فى الوقت ذاته ملامح مشتركة قربت بينها، ولم تعدم فنونها على الرغم من بداءتها روحاً من التشابه يؤاخى بينها ، بحيث أصبح التنوع بينها تنوعاً داخل وحدة كبيرة ألا وهى وحدة الجنس ووحدة البيئة ووحدة المطالب والكماليات المحدودة أيضاً . وعلى هذا الاعتبار نجد من التسميات الحضارية الاصطلاحية لأوائل العصر النيوليثى أو العصر الحجرى الحديث فى مصر. تسميات حضارة مرمدة بنى سلامة فى جنوب غرب الدلتا ، وحضارة الفيوم فى مدخل مصر الوسطى ، ثم حضارة دير تاسا فى أسيوط أى فى قلب الصعيد . ولاتعنى هذه التسميات أن قراها (وقليلاً غيرها) [١] هى التى تم الكشف عن آثارها كشفاً منظماً حتى الآن . وقد أخذت كل حضارة منها بالخطوط العامة لتنوع حرف عصرها ، من حيث الجمع بين الزراعة وتربية الحيوان والصيد ، وصقل الأدوات الحجرية ، وصناعة الفخار ، وصناعة الحصير والسلال وغزل الكتان . ولكن تميزت كل منها عن الأخرى فى أساليب صناعتها ، وفى طرق بناء المساكن والمقابر فيها ، وفى مدى مابلغه أهلها من النجاح فى أساليب الزينة والزخرف، وذلك ماسوف نوجزه فيما يلى :

فى مرمدة بنى سلامة :

اتصفت آثار مرمدة بنى سلامة بخصائص أربع ، وهى : أنها عرفت نوعين من المساكن ، أحدهما بيضى القاعدة يبنى من جواليص الطين فى حفرة متسعة بحيث يظل ربعه تقريباً تحت مستوى سطح الأرض مما يؤدى إلى ثبات جدرانه وإلى حمايته من هبات الرياح . وينزل صاحبه إليه من خارجه على درجة من ساق فرس النهر أو قطعة غليظة من فرع شجرة . والنوع الآخر عبارة عن دورة بيضاوية القاعدة أيضاً تشيد من البوص قرب المزارع ، ويلجأ الزارعون إلى مثلها فى أوقات

(١) *See*, J. Vandier, *Manuel d'Archeologie égyptienne*, t. I, Paris, 1952, 64 f.

الراحة نهاراً ، ويبيتون فيها فى ليالى الصيف ومواسم الحصاد [١] ، كما يفعل أضرابهم من المزارعين حتى الآن .

وظهرت الخاصية الثانية لمرمدة بنى سلامة فى أن أهلها اعتادوا على أن يدفنوا أغلب موتاهم بين مساكنهم ، ويرقدوهم على الجانب الأيمن بحيث يتجهون بوجوههم ناحية الشرق وناحية بيوتهم ، دون أن يزودوهم بقربان خاص فيما عدا حفنة من الحبوب قد توضع أحياناً قرب أفواههم [٢] ، اعتقاداً منهم بأن دفنهم بين المساكن يغنيهم عن القربان ويهيئ لأرواحهم أن تشارك أهلها فيما يطعمونه ويشربونه فى بيوتهم . ولاتكاد تشارك مرمدة فى هذه الخاصية فى عصرها غير قرية العمرى قرب حلوان [٣] . أما بقية قرى مصر المعاصرة لها فقد اعتاد أهلها على دفن موتاهم خارج مساكنهم ، واهتموا بتوفير قرابينهم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل .

وتمثلت الميزة الثالثة لمرمدة فى أن بعض مساكنها التى اكتشفت آثارها الطفيفة (من النوع الأول) قد التزمت صفين شبه مستقيمين يفصل بينهما طريق ضيق [٤] . وذلك هو أقدم تخطيط عرف للقرى المصرية حتى الآن ، وأقدم دليل على نشأة نوع من التفاهم الاجتماعى ، ووجود سلطة فى القرية استحبت التنظيم وعملت على تنفيذه .

واتصلت الخاصية الرابعة لمرمدة ببدايات الفنون ، فقد فتح أصحاب الذوق الفنى البدائى من أهلها مجالات جديدة لتشكيل الفخار والأحجار . وعثر لهم على جزء من آنية صغيرة شكلت قاعدتها على هيئة قدم بشرية دقيقة ، وقدم أخرى كانت جزءاً من آنية مماثلة . وقطعة من الصلصال المحروق مثلت الجذع الأعلى لأنثى ترتدى قلادة (فى بداءة كبيرة) [٥] . وتعتبر هذه النماذج أقدم الخطوات المعروفة لتشكيل التماثيل المصرية الصغيرة فى فجر التاريخ . كما عثر لهم على نموذج صغير

---

(١) H. Junker, *Merimde-Benisalame*, 1930, 46, Abb. 4; 1932, 48, Abb., 2, Taf. II. 52 f, Taf. III; 1933, 67., f. Abb., 2, 3; 1940, 11 f.

(٢) *Ibid.*, 1933, 72 f., 74 f.

(٣) *Chronique d'Egypte*, 1946, 51, Figs. 6-7; ASAE, XLVIII, 564-65.

(٤) H. Junker, *op. cit.*, 1933, 58 f.

(٥) Ibid., 1934, 131; *MDAIK*, III, 169; L. Keimer, *ASAE*, XXXV, 162 f., Fig., 1,3.

من الفخار لقارب يغلب على الظن أن قاربه الأصيل كان يصنع من حزم البردى [1] ، ويعتبر بدوره من أقدم الشواهد على اعتياد أهل الفترات الأولى من العصر الحجرى الحديث على ركوب متن النيل . ثم عثر لهم على كأس صغيرة نحتها صانعها من حجر البازلت [2] ، وتعتبر من ناحيتها من أقدم الأوانى الحجرية الصلبة المعروفة .

فى الفيوم :

تعتبر حضارة الفيوم نموذجاً لحضارات بداية العصر الحجرى الحديث فى مصر الوسطى . وتشغل الفيوم منطقة من مناطق الحواف الصحراوية ، ولكن يسرت لها حياتها وعوضتها عن بعدها النسبى بحيرتها الكبرى ، التى كانت فى عصورها القديمة عذبة الماء كثيرة الأسماك تستهوى صنوفاً عدة من الحيوانات ، وتتصل بالنيل بفروع مائية ، فضلاً عن خصوبة مدرجاتها التى سمحت بنمو النباتات الطبيعية فيها وصلاحيتها للزراعة . وشهدت هذه المنطقة حضارتين متواضعتين متعاقبتين فى العصر الحجرى الحديث : حضارة عاش أهلها فوق مدرج متسع عاصر مرحلة بلغ ارتفاع مستوى ماء البحيرة فيها عشرة أمتار فوق مستوى سطح البحر ، ونحو ١٨٠ قدماً فوق مستوى مائها الحالى ، وهى حضارة الفيوم أ [3] . ثم حضارة أخرى أعقبتها وعاش أهلها فوق مدرجين متسعين عاصرا مرحلتين بلغ ارتفاع مستوى ماء البحيرة فيهما أربعة أمتار ومترين على التوالى فوق مستوى سطح البحر ، وهى حضارة الفيوم ب . وكشف فى مدرج الحضارة أ وهى الأهم ، عن منطقة السكن وحدها دون منطقة المقابر . ولم يعثر فيها على أطلال مساكن ظاهرة ، وإنما عثر فيها على مواقع المواقد التى كانت تتوسط المساكن ، وعلى عدد كبير من أدوات الاستعمال اليومى مثل الأوانى الفخارية ومراحى الحبوب وأدوات الزينة المتواضعة وبعض أدوات الزراعة والصيد .

(١) H. Junker, *op. cit.*, 1933, 82 c.

(٢) *Ibid.*, 1929, Taf. 7,1 .

(٣) G. Caton-Thompson & E.W. Gardner, *The Desert Fayum*, London, 1934, pls III. 4, XXI, XXXII; Huzayyin, *op. cit.*, 296, 298. J. Castillos, Fayûm A and B Settlements, *JEA*, 1973. 218; Newsletter, SSEA, 5, No. 2, Dec. 1974, 3-4.

وهبط المستوى الحالى للبحيرة إلى ١٤٧,١٩ من الأقدام تحت سطح البحر (حتى عام ١٩٢٩) .

Sandford & Arkel, *op. cit.*, 1,73.

ولوحظ من العادات العملية لأهل الفيوم أنهم خرجوا بمطامير غلالهم عن منطقة المساكن وحفروها فوق ربوة عالية بعض الشيء بعيدة عن مساكنهم ، ورتبوها فى ساحتين ترتفع إحداهما عن مستوى الأخرى بنحو تسعة أمتار [١] . وحفروا كل مطمورة منها على هيئة مستديرة تفاوت قطرها بين القدم وبين الأربعة أقدام ، وتفاوت عمقها بين القدم وبين الثلاثة أقدام ، وكسوا قاعها وجوانبها بأغشية من الخوص والقش والحصير وأعواد الأثل كانوا يلصقونها بها بملاط من الطين . واحتفظت مطاميرهم ببقايا نادرة من الحنطة والشعير وبذور الكتان وبذور نباتات أخرى ، تفحم بعضها وبقى بعضها الآخر بحالة مقبولة حتى الآن [٢] . ونشب الجدل حول هذه المطامير بناء على ظاهرتين، وهما : أنها تجمعت مع بعضها البعض فى منطقتين متقاربتين وأنها استقلت بنفسها عن منطقة السكن ، على خلاف مطامير مرمدة التى عثر عليها فردية متفرقة بين المساكن أحياناً وداخل المساكن نفسها أحياناً أخرى . وفسر الأستاذ هرمان يونكر أسباب الاختلاف بين مطامير الحضارتين ، مطامير الفيوم ومطامير مرمدة ، بأن جمعها مع بعضها فى الفيوم يدل على شيوع الملكية الزراعية ومحاصيلها بين أصحابها ، فى حين يدل تفرقها فى مرمدة على استقلال كل فرد من أصحابها بملكيته الزراعية ومحاصيلها [٣] ، أو يدل فيما نرى على استقلال كل أسرة صغيرة بملكيتها . وقد يزكى فرض شيوع الملكية فى الفيوم مارواه بعض الرحالة الحديثين عن قدم شيوعية الأرض والقوت لدى بعض الجماعات البدائية المتخلفة الباقية ، وأن أرض الفيوم كانت ضيقة المساحة نسبياً ولاتتيح فرصاً كثيرة للتملك الفردى والأسرى . ومع ذلك فثمة فرض آخر أبسط وأكثر منطقية منه ، وهو أن أهل الفيوم اضطروا إلى الابتعاد بمطاميرهم عن منطقة السكن خوفاً عليها من رطوبة تربتها وانخفاض مستوى أرضها وقربها من شواطئ البحيرة[٤]، وأنهم تعمدوا جمع مطاميرهم فيما نرى فى مكانين متقاربين لتسهل عليهم حراستها .

(١) Caton Thompson & Gardner, *op. cit.*, 41 f., Pl. XXV,2.

(٢) *Ibid.*, Pl. XXXI, 1. f., 46 f.

(٣) *Merimde*, 1933, 5 f.

(٤) Caton - Thompson & Gardner, *op. cit.*, 91.

فى دير تاسا :

مثلت حضارة دير تاسا فى محافظة أسيوط حضارات الصعيد فى بداية العصر الحجرى الحديث ، وقد عمل أهلها فيما عمل فيه معاصروهم من بقية أهل الوادى من حرف متواضعة ، ثم امتازوا عمن سواهم بعدة أمور ، كان منها :

أولاً – أن فخارهم كان أرقى نسبياً من فخار أهل المناطق الأخرى التى عاصرتهم ، سواء من حيث الشكل أم من حيث الزخرف . فمن حيث الشكل صنعوا بعض كؤوسهم على هيئات لطيفة تشبه هيئة زهرة اللوتس أو زهرة التوليب (بغير ضرورة إلى الظن بأنهم عرفوا هذه الزهرة الأخيرة وقلدوا صورة كأسها) . ومن حيث الزخرف تكونت زخارف هذه الكؤوس من مثلثات وأشكال تخطيطية صوروها على سطوحها بطريقتين فرسموا بعضها بخطوط مستقيمة ومائلة كانت تحفر على سطح الكأس ثم تملأ بعجينة بيضاء ، ورسموا بعضها الآخر بنقط محفورة متجاورة كانت تملأ كذلك بالعجينة البيضاء [1] نفسها .

ثانياً – أن عادات الدفن وعقائد مابعد الموت اتضحت فى مقابرهم أكثر مما اتضحت به فى مقابر المناطق الأخرى التى عاصرتهم ، وكانت المقبرة لديهم عبارة عن حفرة صغيرة بيضية ذات أركان ملفوفة ، يكفن المتوفى فيها بلفائف من الجلد أو الكتان أو الحصير بما يتفق مع ثراء أهله ، ويوسد على جانبه الأيسر فى هيئة الانثناء بحيث يتجه وجهه ناحية الغرب ، وتوضع رأسه فوق وسادة من القش أو الكتان . وتوضع معه آنية أو أكثر من الفخار ، وبعض الأدوات التى كان يستخدمها فى حياته، فضلاً عن بعض الحلى وأدوات الزينة التى تخصه ، والتى كان منها بالنسبة للنساء لوحات حجرية صغيرة رقيقة كن يستخدمنها فى صحن الكحل الأخضر لتزجيج العيون ، وصحن المغرة الحمراء لتجميل الوجنات [2] . ويمكن تفسير العقائد المتصلة بهذه العادات بتعليلين، وهما : أن وضع رأس المتوفى فوق وسادة يعنى أن أهله أرادوا له أن يتخذ فى قبره وضع النوم العادى ، وقد يتصل بهذه الفكرة اتخاذه وضع القرفصاء أيضاً [3] ، أو أن هذا الوضع الأخير قد أوحى به ضيق مساحة الحفرة التى

(١) G. Brunton, *Mostagedda and the Tasian Culture*, London, 1937, pls. XII, XXVI; JEA, XIV, pl. XXVI; ASAE, XXXIV, 94 f., pl. 1.

(٢) Brunton. *op. cit.*, 6, 30, 34.

(٣) *Ibid.*, 26.

كانوا يستطيعون حفرها من أجله بأدواتهم المتواضعة فى طبقات الحصباء والرمل بل وفى الصخر نفسه أحياناً . ولاضرورة مع هذا لرأى ثالث شاء أصحابه أن يمثلوا وضع القرفصاء للمتوفى فى قبره بوضع الجنين فى بطن أمه ، فذلك رأى فلسفى قد يقبل بالنسبة للعصور التاريخية الراقية ، ولكن يصعب تصوره لأهل فجر التاريخ . أما وضع بعض أدوات المتوفى وأوانيه معه فى قبره ، فقد يدل أولاً على نوع من إعزاز الأحياء له عن طريق التضحية من أجله ببعض متاعه وبعض متاعهم ، أو يدل ثانياً على أملهم فى أن ينتفع بها بعد موته بطريقة تناسبه بفضل مايتلونه عليها من دعوات وتعاويذ . وعثر فى بعض المقابر القاسية على مايمكن أن يعتبر بداية التطور إلى استخدام التوابيت ، إذ كان الطفل المتوفى يوسد أحياناً فى سلة شبه مستطيلة من البوص والأغصان يغطيها حصير [١] .

* * *

فى الفترة الخالكوليثية (النحاسية الحجرية)

فى البدارى :

استمر التطور الصناعى والاجتماعى خلال فجر التاريخ المصرى ، وكانت خطوته التطورية الرئيسية بعد معرفة الزراعة ، هى معرفة استخراج النحاس من أخلاطه الطبيعية واستخدامه فى صناعة أدوات صغيرة (كما أسلفنا القول من قبل) . وأقدم الأماكن الأثرية التى عثر فيها على مصنوعاته فى مصر هى قرية البدارى فى مديرية أسيوط ، ولو أن مصنوعاتها تلك كانت لاتزال فى مراحلها المتواضعة الأولى ، إذ اكتفى أهلها بأن صنعوا من النحاس مجموعات من الخرز الصغير استخدموها فى الحلى ، ومثاقب دقيقة طويلة استخدموها فى ثقب الخرز الحجرى ، ودبابيس طويلة استخدموها فى شبك أرديتهم الجلدية والكتانية [٢] . ويذهب الرأى إلى رد حضارة البدارى إلى النصف الثانى من الألف الخامس قبل ميلاد المسيح ، وقد ورث أهلها مهارة أهل دير تاسا فى زخارف الفخار وفى عاداتهم وعقائدهم ، ثم تطوروا بها إلى مايناسب أذواقهم وأحوال عصرهم .

---

(١) *Ibid.*, pl. VI, 5,8.

(٢) G. Brunton & Caton - Thompson, *The Badarian Civilisation*, 1928, 7, 27, 33, 41, pl. XXXVI.

ففى صناعة الفخار صنعوا أوانى رقيقة الجدران للغاية ، لايكاد يدانيها فى رقتها فخار آخر سابق عليها . وفى زخارف الفخار اتخذوا من أشكال ورق الشجر وغصون النبات بديلاً عن خطوط الرسم المستقيمة والمائلة ، التى مارستها دير تاسا من قبلهم ، وأحاطوا بعضها بإطارات مرسومة تناسبها ، وقللوا غور الرسوم المحفورة على سطوح أوانى الزينة ، واكتفوا بأن أخرجوها فى حفر مسطح بسيط يكاد يستوى مع سطح الآنية المصقول ، بحيث لاتلحظ العين عمقه إلا بعد تدقيق [١] .

وفى عادات الدفن استمر أهل البدارى على العناية بموتاهم والأدوات التى توضع معهم ، ثم بدأوا عادتين جديدتين ، وهما : وضع المتوفى على لوحة مسطحة ، وتبطين جوانب المقبرة بالحصير [٢] . ويعتبر وضع المتوفى على اللوحة المسطحة مرحلة من مراحل التطور إلى فكرة وضعه داخل تابوت (وقد سبقتها مرحلة أخرى فى دير تاسا بالنسبة لتوابيت الأطفال) ، كما كان تبطين جوانب المقبرة بالحصير مرحلة من مراحل التطور إلى تبطينها بالخشب وتحديدها باللبن فيما تلا ذلك من عصور .

وشغف البداريون بأدوات الزينة والترف المناسبة لعصرهم ، ولم تكن هذه قاصرة على نسائهم ، وإنما اعتاد بعض رجالهم أن يتزينوا بالأساور حول المعاصم والدمالج [٣] . واستحبوا الأصداف والخرز فى زينتهم ، وسلكوا حبات الخرز بخيوط الكتان وشعر البقر واستخدموها قلائد وأساور ورصعوا بها أساور العاج ، وتزينوا بقليل من الخواتم العاجية والعظمية وشنوف الآذان وربما شنوف الأنوف أيضاً [٤] . وصنعوا أمشاطهم من العظم والعاج بأسنان طويلة وتفننوا فى هيئاتها وشكلوا أجزاءها العليا على هيئة رؤوس الطيور [٥] . وصنعوا إبراً من النحاس فضلاً على العظم والعاج ، واهتدوا إلى طريقة ثقبها [٦] ، ولم يكن ذلك الاهتداء بالأمر الهين فى شئون حياتهم اليومية

---

(١) *Ibid*, 20. f., pls. XII, XIV, XVIII, etc.

(٢) *Ibid*, 18, 20.

(٣) *Ibid*., 27, 28, 30, 40 f.

(٤) *Ibid*, 30, pls. XXIIII, 24, XXIV, 7-12, 13; *Mostagedda*, p1. XXV, 12, 13, 33.

(٥) *Bad,. Civil*., pls. XXIV, 4, 18; *Mostagedda*, p1. XXIV, 2.

(٦) *Mostagedda*, pls. XXV; *Bad. Civil*., 32-33, pls. XX, 16, XXIII 26-28; XXVI; 1, XXIX, 4.

على الرغم من بساطته . وكان أمتع ماخلفوه من الأدوات الرقيقة ملاعق من العاج صنعوها بأشكال لاتكاد تختلف عن أشكالها الحالية ، ونوعوا تجاويفها بين هيئة المستطيل والبيضاوى والمربع ، وشكلوا مقابضها بأشكال حيوانية وحلزونية طريفة(١)، وكل ذلك على الرغم من أنهم عاشوا قبل عصرنا الحاضر بأكثر من ستة آلاف عام .

واتجهت أذواقهم إلى الفن التشكيلى ، أى فن التماثيل ، وتخلفت فى مقابرهم سبعة تماثيل صغيرة لنساء : أربعة من الصلصال واثنان من الفخار ، وسابع من العاج. وقد اختلفت صناعتها بين البداوة وبين الإتقان باختلاف مهارة صناعها واختلاف أغراضها واختلاف المواد التى صنعت منها . وأبرعها تمثال من الفخار الملون لفتاة عارية بلغ تناسق جسمها حداً واضحاً من الإبداع ، لولا بروز عجزها الذى يحتمل أنه قصد لذاته ولولا عدم تشكيل كفيها (٢). وكان تمثالها فيما يغلب على الظن واحداً من التماثيل التى اقتناها أصحاب الذوق السليم تقديراً لوجه الفن أكثر من غيره ، وقد ضاع للأسف رأسه وجزء من ساقيه . وتمثال من العاج لفتاة عارية أيضاً، كانت عيناه مرصعتين بمادة أخرى مثل المحار الأبيض أو قشر بيض النعام ، وحاول صانعه أن يظهر تفاصيله الدقيقة مثل فتحتى الأنف وإنسان العين وفارق الشعر من الخلف (٣) . وقد نرى فى صناعة البداريين لبعض تماثيلهم من العاج مايدل على رخاء مجتمعهم رخاءً نسبياً ، ومايتفق مع رقى أذواقهم الذى دل عليه مابقى لهم من الملاعق والأمشاط ، لولا أن تمثالهم العاجى الباقى هذا تنقصه سلامة النسب التى ظهرت فى تمثال الفخار ، وتعيبه ضخامة الرأس وكبر الأنف واتساع محجرى العينين بالنسبة إلى بقية جسمه ، وقد يرجع ذلك إلى حداثة اشتغال صاحبه بنحت العاج .

وقلد الصناع الفنيون البداريون تشكيل هيئة الحيوان كما قلدوا هيئة الإنسان . واستغلوا العاج ، ويحتمل أنه عاج فيلة كانت لاتزال تغشى أرضهم ، فى صناعة أوانى صغيرة ، بعضها أسطوانى ، وبعضها كروى ، وبعضها مستطيل ، وبعضها مزخرف بصفين من الحبيبات البارزة الدقيقة . وكانت أمثالها على الرغم من بساطتها تعتبر فى عصرها من تحف الزينة وتخصص لحفظ المساحيق والعجائن الثمينة . ونسبت إليهم آنية صغيرة ممتعة من العاج شكلوها على هيئة فرس النهر وجعلوا فتحتها فوق ظهرها .

(١) *Bad. Civil.*, pl. XXII; *Mostagedda*, pl. XXXIV.

(٢) *Bad. Civil.*, 28, pl. XXV, 6-7.

(٣) *Ibid.*, 29, pl. XXV, 3-4.

وعلى أية حال ، فإن مايمكن الخروج به من ذكر ما أسلفناه للتاسيين والبداريين عن عادات الدفن وزخارف الفخار وحلى الزينة وتشكيل التماثيل ، هو أن ما اشتهرت به العصور المصرية التاريخية من الاعتقاد بحياة أخرى ، ومن المهارة الصناعية والذوق الفنى المرهف وحب الزخرف ، كل هذا نبتت بذوره فى أرض مصر وبأيدى أهلها ، وامتدت جذوره إلى ماقبل عصورها التاريخية بقرون طويلة .

فى حضارة نقادة الأولى :

استمر التطور الحضارى فى طريقه بعد عهد البدارى ، فزاد المصريون من استخدامهم للنحاس وارتقوا رقياً نسبيّاً بمساكنهم وبزخارف فخارهم ، ومارسوا فن النقش ، كما ارتقوا بصناعة الخناجر والأسلحة من الظران . وتركزت أغلب الآثار التى تنم عن هذه التطورات فى المنطقة المحيطة بنقادة بمحافظة قنا بالصعيد . وبدأت هذه المنطقة نشاطها الحضارى بطابع محلى خاص بها خلال عهد يسمى اصطلاحاً باسم عهد نقادة الأول ، ثم اشتركت بهذا النشاط المحلى فى نشاط حضارى آخر واسع شملها هى وأغلب مناطق الصعيد والدلتا فى عهد يسمى اصطلاحاً باسم عهد نقادة الثانى . وقد تميز كل عهد منهما بخصائص وميزات ندع تفاصيلها لمجالات التخصص ، ويمكن الرجوع إليها فى الجزء الأول من كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها ، وحسبنا أن نستشهد هنا على رقى الحضارة النقادية فى عهديها المتتابعين ، الأول والثانى ؛ بعرض نماذج مختارة من تطور أهلها المناسب لعصرهم بفنون الرسم والنقش ، والمساكن والمقابر .

كانت نقادة التى نسبت الحضارتان إليها مجرد جبانة لمدينة متحضرة ابتعدت عنها شمالاً بسبعة كيلو مترات وهى مدينة نوبت (ربما بمعنى الذهبية لقربها من مصادر الذهب فى الصحراء الشرقية) وقامت على أطلالها بلدة طوخ الحالية على الضفة اليسرى للنيل فى محافظة قنا وفى مواجهة مدينة فقط . وليس من شىء مؤكد عن الأوضاع السياسية والدينية فى هذه المدينة خلال عهد حضارتها الأولى ، وكل مايعرف عنها هو أن الأساطير القديمة احتفظت لمعبودها «ستخ» أو «ست» بذكرى واسعة واعتبرته رباً للصعيد كله ؛ مما يحتمل معه أن أقاليم الصعيد أو أغلبها اعترفت بزعامة نوبت وسيادة معبودها فى فترة من الفترات القديمة البعيدة .

وظهرت الأهمية الأثرية لهذه المنطقة فى القرن الماضى منذ اتخذ الأستاذ



فلندرز بترى من أعداد أوانى الفخار الكثيرة التى وجدها فى مقابرها سبيلاً إلى رسم التتابع الزمنى (Sequence of Date) [1] لآثار المنطقة ومايماثلها من آثار المناطق المعاصرة لها ، بعد أن تبين أنه ما من مقبرة من مقابرها خلت من الفخار ، وأنه ما من صناعة من صناعاتها يمكن أن تعبر عن التطور المستمر أفضل من الفخار . واستعان فى ترتيب أوانى الفخار هذه بملاحظة التطورات الدقيقة فى ألوانها وأشكالها ورسومها السطحية والمحفورة . وعمل على تقسيم أنواعها إلى تسع مجموعات رئيسية، تتضمن كل منها فى داخلها تقسيمات أخرى فرعية ، ثم انتهى إلى تقسيم مراحل التطور فيها إلى خمسين مرحلة بدأها بالرقم ٣٠ وانتهى بها إلى رقم ٧٩ ، وتعمد أن يترك ماقبل الرقم الثلاثين لما يمكن أن يستجد الكشف عنه من آثار حضارات أخرى سبقت حضارة نقادة ، واعتبر الرقم ٧٩ بداية للتطور الحضارى فى أول العصور التاريخية خلال عصر الأسرة الملكية الأولى . وتعرضت تقسيماته هذه لتعديلات كثيرة ، ولكن لازالت فكرتها مقبولة فى جملتها حتى الآن .

كانت رسوم الفخار فى حضارة نقادة الأولى رسوماً تخطيطية فى مجملها ، اعتمدت على الخطوط المستقيمة والمائلة ، وملئت فراغاتها بخطوط أخرى بيضاء متقاطعة ، وذلك مما دعا إلى تسمية فخارها باسم White Cross-lined Pottery وصنعت أوانيها ذات الرسوم على هيئات عدة ، كانت أطرفها أوانى وكؤوس بشعبتين، وثلاث شعب ، بعضها بأربعة قوائم ، وبعضها بقاعدة مرتفعة على هيئة حرف Y [2]. واستأنف صناعها مراحل التطور فى الرسوم التى سبقتهم ، فاستخدموا الطريقة التخطيطية والخطوط اللينة فى تصوير طائفة من حيوانات بيئتهم، وطائفة من مجالات نشاطهم اليومى ، وطائفة من التكوينات الزخرفية اللطيفة ، ونماذج من قواربهم ، فى أشكال مختصرة سريعة أخرجوها فى حيوية مقبولة . وبقى من مجموعاتها الناجحة مايصور أربعة من أفراس النهر تدور خلف بعضها حول دائرة فى قاع إناء مرة ، ومايصورها تدور خلف بعضها حول أربع أسماك فى قاع إناء آخر ،

(١) راجع الدراسة التفصيلية له فى حضارة مصر القديمة - ج١ - ص١٢٧ - ١٣٢

W. Needler. *JSSEA*, XI, 2 (1981) 69-74,97-106.

(٢) W.F. Petrie, *Prehistoric Egypt*, pls. X, 7, XV, 51, 54-55; *Corpus*, pls. XX, 14, XXIV, 81, XXV, 91.

وتتعاقب بعد بعضها فى إطار إناء ثالث [1] .

وصوروا بعض عاداتهم الاجتماعية تصويراً بدائياً ، فصوروا راقصين وراقصات يرقصون فرادى وجماعات ويؤدون حركات تمثيلية ، ويزين رجالهم رؤوسهم بريش طويل [2] . ولكن ظل نجاحهم فى تقليد ملامح الإنسان أقل من نجاحهم فى تصوير هيئة الحيوان ، فكانوا يعبرون عن رأس الإنسان بنقطة بيضاء لاتتضمن شيئاً من التفاصيل غير تصوير الشعر القصير للرجل وتصوير الشعر المرسل للأنثى ، وعبروا عن الجذع العلوى للرجل بما يشبه هيئة المثلث المقلوب ، وعبروا عن ساقيه بخطين متجاورين . وكان عجزهم عن تصوير تفاصيل الجسم البشرى تصويراً سليماً يشبه عجز أهل العصور البدائية فى الحضارات القديمة كلها عن تصوير أنفسهم.

وصوروا صيد البر أحياناً ، ومن أطرف مايستشهد به من مناظرهم ، منظر صغير فى قلب صفحة يصور صياداً يحمل قوسه ويشد خلفه أربعة كلاب وينطلق فى سبيله لصيد الظباء . وجمع الرسام فى تنفيذ هذا المنظر الصغير بين الخطوط الحادة والخطوط اللينة ، واتضحت له خلال عدة محاولات لتوضيح مفردات رسمه ، فرتب الكلاب فى صف رأسى حتى يظهر كل كلب منها بصورته كاملة ، عوضاً عن رسمها على حالها فى الطبيعة يختلط بعضها ببعض ويخفى بعضها بعضاً . وعبر عن بيئة الصيد بوسائله البسيطة فصور فى محيط منظره مثلثات صغيرة تعبر عن التلال ، وصور فى طريقه فروعاً نباتية صغيرة تعبر عن الأشجار ، وحاول أن يظهر أكبر قسط من جسم الصياد ، فصوره من زاويتين ، بأن رسم صدره وكتفيه من الأمام ، ورسم بقية جسمه من الجانب[3] . وجرت أغلب الرسوم النقادية على المنوال نفسه ، فى تصوير الإنسان والحيوان ، فظلت تصور مفردات رسمها مستقلة عن بعضها ، الواحد منها فوق الآخر أو بجانب الخر ، دون أن يخفيه أو يقاطعه . واعتادت أن تصور ذوات الأربع من الجانب فيما خلا القرنين ، إذا كانا مقوسين مثل قرون الثيران فقد اعتادت تصويرهما من الأمام [4] . وعلى الرغم من بساطة هذه الوسائل ، أصبح بعضها من

(١) *Prehistoric Egypt*, pl. XVIII, 71-72; JEA, XV, Fig. 1. 261.

(٢) *Preh. Eg.*, pl. XVIII, 74; JEA, XIV, pl. XXVIII; Baumgartel, *The Cultures of Prehistoric Egypt*, 30, 64.

(٣) *ZAeS*, LXI, 21, Taf. II, 2.

(٤) *JEA*, XIV, pl. XXVIII; *Corpus*, pl. XXV.

مستلزمات الرسم المصرى فى أغلب عصوره ، فظل الرجل يصور من أكثر من زاوية واحدة فى آن واحد ، وظل الرسامون يحرصون على إظهار مفردات رسمهم مستقلة بعضها عن بعض ، عن طريق ترتيبها خلف بعضها أو تصويرها على مبعدة من بعضها . وسوف نرى أمثال هذه الوسائل لبقية فنون الأمم الشرقية الأخرى .

وبدأ النقاديون تصوير الدوائر المنتظمة فى زخارفهم ، وارتقوا برسم الإطارات حول صورهم [١] . وامتاز بعضهم بدقة الملاحظة وبراعة التسجيل فى تصوير قواربهم، وبقيت من صور هذه القوارب صورة قارب رسمه الرسام بمجاذيفه فى وضع جانبى كامل ، وصورة قارب آخر رسمه بمجاذيفه فى مسقط أفقى كامل[٢] ، كما لو كان قد وقف فوق الشاطىء ورسم أجزاءه الظاهرة فوق الماء دون أجزائه المختفية تحته . ولم يكن تصوير هذه المساقط بالأمر الهين بالنسبة لعصره .

واستغل الفنانون سطوح الصلايات لممارسة فن النقش على الحجر ، فنقشوا وخدشوا على بعض سطوحها هيئات الفيلة والتماسيح وغيرها ، نقشاً غائراً أولياً متواضعاً [٣]. ثم واصلوا الخطى البسيطة البطيئة فى سبيل النقش البارز والمجسم ، فجسموا هيئات أفراس النهر والتماسيح والعظايا الكبيرة على جوانب بعض أوانيهم الفخارية وعلى أغطيتها ، وعلى الأطراف العليا لبعض صلاياتهم [٤] . وحملوا بعض هذه المجسمات عقائدهم الدينية ، ومما يستشهد به منها آنية طويلة جسمت على جوانبها رأس وقرنا بقرة وذراعان بشريتان تقدمان ثديين ، رمزاً لربة الخصب أو ربة

---

(١) *Corpus*, pls. XVIII, 72, XX, 10, 12, XXI, 35, XXII, 36, 41; *Steindorff, Die Kunst*, 256 a.

راجع : عبدالعزيز صالح : الفن المصرى القديم (فى تاريخ الحضارة المصرية) - القاهرة ١٩٦١ - ص٢٧٤ .

(٢) *Prehistoric Egypt*, pls. XXIII, 2, XV, 49.

(٣) *Op. cit.*, pls. XLIII, 7 M ; XLIV, 91 M ; Capart, *Les Debuts...*, Figs. 58-59; *Bad. Civil.*, pl. LII, 4.

(٤) *JEA*, XIV, pl. XXVII, 2, 4, *Mahasna*, pl. XI; *Archaic Objects*, pl. 24 No. 11570; *ZAeS*, LXI, Taf. XI, 1 ; *Mostagedda*, pl. XLIII, 3-4; *Preh. Eg.*, pls. XLIII 4, R, XLIV, 91 T, U; *Corpus*, pl. LVIIII.

مدينة نوبت [١] . كما نم بعضها عن الأوضاع السياسية فى عصره ، فجسمت إحداها هيئة تاج الوجه البحرى لأول مرة فى الآثار المصرية على وجه آنية [٢] . وصورت أخرى صقراً ينهض فوق إطار مستطيل أصبح يرمز فى العصور التالية إلى واجهة قصر الملك الحاكم .

واعتاد صناع نقاده على أن يميزوا بعض أوانيهم بعلامات مفردة مختصرة تمثل حيوانات ونباتات وخطوطاً مستقيمة ومتقاطعة ، ورمزت أغلب هذه العلامات إلى أصحاب الأوانى وصناعها ، ورمز بعضها إلى معبودات أصحابه [٣] .

واستمرت صناعة التماثيل الصغيرة من الصلصال والفخار ، وظل أغلبها لنساء، ربما لأن صناعها الرجال كانوا يؤثرون تمثيل الجنس الآخر شأنهم شأن كل فنان مبتدىء ، أو لأن عقائد مابعد الموت تطلبتها ، كما تطلبتها منذ حضارة البدارى ، كى ترمز إلى الزوجات والجوارى اللائى يتمنى المتوفى أن يكفلن له الذرارى فى حياته الثانية ، أو ترمز إلى الراقصات اللائى يتمناهن لمتعته فى الآخرة ، أو ترمز إلى الربات اللائى يتمنى أن يسبغن عليه الحماية حين يبعث ثانية . وصنع أهل نقادة تماثيل بدائية أخرى لرجال ، مثلوا فيها أسرى قيدت سواعدهم خلف ظهورهم . كما استغلوا ليونة الصلصال وسهولة عمل الفخار فى تشكيل مجموعات صغيرة متواضعة تمثل مايقوم به الخدم والأتباع [٤]. وكانوا يضعونها مع المتوفى فى قبره أملاً فى أن تحقق له بعض الفوائد فى عالمه الآخر . ثم مارسوا فنهم التشكيلى بأسلوب آخر ، فشكلوا بعض صلاياتهم على هيئة أفراس النهر والسلاحف والأسماك ، واكتفوا فى تشكيلها بتحديد الخطوط العامة للحيوان الذى تمثله [٥] . ونحتوا من أنياب العاج تماثيل رجال ونساء ، تبدو ملامح وجوههم أكثر وضوحاً من أمثالها فى تماثيل الصلصال . وتمتاز التماثيل النسوية منها باختلاف أوضاع أيديها ، فقد تكون اليدان على الجانبين

(١) Baumgartel, *op. cit.*, 31, pl. 3.

(٢) Wainwright, *JEA*, IX, 26 f., pl. XX, 3.

(٣) Petrie, *Naqada*, pls. LI-LVII; *Preh. Eg.*, 48; A. Scharff, *Altertumer...*, I, 102, 169; J. Capart, *Les Débuts...*, Fig. 77; E. Massoulard, *Prehistoire et Protohistoire d'Egypte*, 1940, pl. 38, 2.

(٤) J. de Morgan, *Recherches...*, Fig. 372 : Scharff, *Altertumer*, II, 34.

(٥) Petrie, *Corpus*, pl. LII, 8 A, 14 D, G; pl. LIV.



أو تحت الثديين أو تستران العورة فى حياء لطيف [1] ، غير أنها فى مجملها تتصف بالنحافة والاستطالة ، ربما بما يناسب قطع العاج المستطيلة التى صنعت منها . كما تتصف بالتصاق الساقين بحيث لايفصلهما فى أغلب أحوالهما غير حز طويل أو شق ضيق ، رغبة فيما يبدو فى تقليل تعرضهما للكسر . وطعم النقاديون عيون بعض تماثيلهم بخرزات ملونة من حجر الدهن وقطع المحار الأبيض وقشر بيض النعام [2] ، وصوروا قلائدها على أجسامها بالألوان .

وهكذا تعددت مجالات الإنتاج أمام صناع الفخار المزخرف والمرسوم وصناع التماثيل الأوائل فى نقادة . وإذا كان المعروف من إنتاجهم لايصل إلى حد الإجادة ، فإن ذلك قد يرجع إلى عامل الصدفة ، وقد تؤدى الكشوف المستقبلة إلى معرفة المزيد من وجوه نشاطهم . والمرجح أن تعدد مجالات إنتاجهم فى الكماليات كان يقابله نشاط مماثل فى إنتاج الضروريات أيضاً . وصنع النقاديون فى أواخر عهدهم خناجر لاتختلف عن خناجر العصور التاريخية فى شىء كثير ، سواء من حيث هيئتها المسلوبة ، أم من حيث تثبيتها فى مقابض تناسب قبضة اليد ، أم حفظها فى قراب من الجلد . وظل أصحابها يصنعون أغلب نصالها من الظران ، ولكنها لم تعد كنصال الظران التى صنعها أسلافهم حتى عهد البدارى ، وإنما أصبحت نصالاً ينتقى لها صناعها المحترفون أجود أنواع الظران عن قصد ويسوونها ويرققونها بعناية كبيرة . وصنعوا مع الخناجر سكاكين رقيقة جميلة على هيئة المعين ، خصصوها للاستعمال الخاص ، وبدأوا يصنعون سكاكين أخرى ذات أطراف مقوسة تقويساً قليلاً وسطوح مموجة على هيئة أوراق الشجر [3] .

وأمكن ترسم علاقات نقادة الأولى بجيرانها فى مصر وخارجها ، فدل تجسيم هيئة التاج الأحمر الشمالى على أحد أوانيها على استمرار الصلات بينها فى الصعيد وبين حضارات الوجه البحرى ووحداته السياسية . وكان سبيل الاتصال ميسراً بينهما عن طريق البر وعلى متن النيل الذى كانت تسلكه مراكب الفريقين . ورأى

(١) Capart, *Les Débus...*, Figs. 116-117.

(٢) Petrie, *Preh. Eg.*, 9 ; pl. II, 20, 22.

(٣) *Op. cit.*, p. 25; *Mostagedda, 9; Bad. Civil.*, p1. XXIX, 3; Baumgartel, *op. cit.*, 28; Huzayyin, *The Place of Egypt in Prehistory*, 311, n. 3.

هورنبلاور فى التماثيل العاجية النقادية شبهاً بتماثيل حضارات فجر التاريخ في بلاد النهرين ، ودليلاً على قيام الصلات بينهما (وإن سمى هذه الحضارات خطأ باسم الحضارة السومرية) ، واستشهد على اعتقاده بتصوير مركب ذات مقدمة مرتفعة على آنية نقادية ، وكانت المراكب ذات المقدمات المرتفعة مراكب عراقية فى رأيه . وقد لاتستقيم حرفية هاتين القرينتين ، غير أن سبل الاتصال بين مصر وبين الحضارات الآسيوية القريبة كانت ممكنة نظرياً عن طريق وادى الحمامات والبحر الأحمر بالنسبة لأهل الصعيد ، وعن طريق برزخ السويس بالنسبة لأهل الوجه البحرى . واعتبر فنكلر رسل هذه الاتصالات من الجانب المصرى جماعات من سكان الصحراء الشرقية ، سماهم باسم أهل الجبال المحليين ، وتمثلهم فى أجداد العبابدة والبشاريين الحاليين ، وعقد الأواصر بينهم وبين أهل حضارة نقادة الأولى ، على أساس ظهورهم فى صورهم يرتدون قراب العورة مثلهم [١] .

فى حضارة نقادة الثانية :

اتسعت مجالات العمل الإقليمى فى إقليم نقادة وماحولها فى عهدها الثانى اتساعاً نسبياً ، ثم انتشرت تقاليدها الصناعية والفنية بين بعض جيرانها في شمال الوادى وجنوبه حتى بلغت النوبة . واتسعت اتصالات مصر ببلاد الشرق وأفريقيا حينذاك اتساعاً نسبياً كذلك وأخذت منها وأعطت لها ، وتخلفت حتى الآن من شواهد تعاملها معها تعاملاً مباشراً أو غير مباشر ، قطع من السبج (الأوبسديان) الأسود الثمين الذى يحتمل أنه وصلها من الحبشة ، وقطع من اللازورد الذى يحتمل أنه وصله من الحبشة أيضاً أو من أعالى الفرات ، وخرزات من السنباذج والذهب تختلف الآراء فيما إذا كانت معادنها من مصر أم من خارجها ، فضلاً عن أدوات صغيرة عثر عليها في ميناء جبيل (ببلوس) بلبنان تشابهت خصائصها مع خصائص الأدوات المصرية ، يمكن أن يفهم منها قيام التبادل بين مصر وبعض مدن الشام فى عهد الحضارة النقادية الثانية [٢] .

(١) Winkler, *Rock Drawings of Soughern Upper Egypt*, 1938; Massoulard, *op. cit.*, 93.

(٢) Petrie, *Preh. Egypt*, 41, 43-44; *Naqada*, 45; *Diospolis*, pl. IV; Scharff *Grund-zugs*, 36; Wainwright in *Anc. Egypt*, 1927 77 f. : H. Kantor *JNES*, 1942 201; W. Davies, *JSSEA*, XI, 1 (1981), 21-27.

وراجع ألفرد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين – الفصل الحادى عشر والفصل السادس عشر .

وتوسع النقاديون فى استخدام النحاس فى صناعاتهم المحلية ، فصنعوا منه ملاعق ومدى وأونى صغيرة وأغطية لبعض القدور وأزاميل ورؤوس فؤوس وخناجر ورؤوس حراب ، ونسبت إلى عهدهم الثانى رأس فأس نحاسية تزن أكثر من كيلو جرام (١) .

وعاد نشاط العهد الجديد على أهله برخاء مناسب ، ظهر أثره فى ثراء مقابر نقادة بعض الشىء عن مقابر العهود السابقة ، كما ظهر أثره فى ارتقاء أذواق أهلها وتطور مهاراتهم فى الرسم والنقش وصناعة التماثيل الصغيرة وصناعة الأسلحة وبناء المساكن والمقابر ، وابتداع وسائل تسلية مهذبة .

فقد ميز أهل نقادة الثانية رسوم أوانى الزينة الفخارية بأن زادوا فيها صور الأحياء والنباتات والمراكب ، وزخارف حلزونية ومتموجة ، وخطوطاً متموجة مفردة ومتشابكة ، وملأوا فراغات المثلثات باللون الأحمر ؛ عوضاً عن الخطوط البيضاء المتقاطعة التى اعتاد أسلافهم عليها . واستخدموها فى أغراض الزخرفة ، وفى أغراض أخرى لها صلتها بعقائد الدين وعالم الموتى (٢) .

واستمروا يصورون الرجال والنساء فى هيئات تخطيطية مختصرة ، ولكنهم أضافوا إليها تجديدات يسيرة ، مثل : تصفيف شعر الأنثى على هيئة مستديرة ، والتعبير عن نشاط الرجل فى حياته العملية بتقديم إحدى ساقيه عن الأخرى (والساق اليسرى بخاصة) ، على عكس ساقى الأنثى المتجاورتين . وتصوير يده اليسرى تقبض على عصا أو قوس أو رمح أو مجذاف (٣). ثم صوروا النساء والرجال فى مجالات الرقص الدينى والدنيوى ، وكانت الراقصة ترفع يديها حين الرقص فوق رأسها أو تضع يديها على خاصرتها ، أو تضع يداً على خاصرتها وتتماسك بالأخرى مع زميلها أو زميلتها ، وترقص منفردة أو مع رفيقاتها ورفاقها . وترقص بغير أصوات تصاحبها ، أو ترقص على أصوات المصفقات التى يصفق بها رجال ونساء ،

---

(١) لوكاس : المرجع السابق ص٣٢٧ +

(٢) Scharff, *Die Altertumer*, 1-143; Baumgartel, *op. cit.*, 59 f.

(٣) H. Schaffer, *Von aeg. Kunst*, 260; Petrie, *Arts and Crafts*, Fig. 66; Capart, *op. cit.*, Fig. 85; Baumgartel, *op. cit.*, pl. IX, 3-4, p. 81, Fig. 29.

وترقص على الأرض ، أو ترقص على سطح مركب أو داخل قمرتها [١] .

وأخرج الرسام النقادى فيما بقى من صوره الممتعة الناجحة منظرين : منظراً مثل راعياً يسوق قطيعاً من الماعز الجبلى ، رسمه حول مسطح آنية لايزيد أوسع قطر لها عن ستة سنتيمترات ، والتزم فى تصوير القطيع بخاصية ترتيب المفردات التى التزمها فنان حضارة نقادة الأولى ، فصور الماعز تسير واحدة منها تلو أخرى رغم سيرها فى الطبيعة جنباً إلى جنب أو مختلطة ببعضها فى غير نظام [٢]. ومنظراً لكبشين أقرنين واجه كل منهما الآخر فى تحفز وفى حيوية ممتعة ، وقد وقفا معاً فوق ربوة تنبت الأشجار فوقها داخل نطاق الصورة ، وصور على مبعدة منها عنزة صغيرة فوق خط يمثل الأرضية التى تقف عليها ، عوضاً عن رسمها فى الفراغ على نحو ما اعتاد أغلب الرسامين فى عهده [٣] . وظهرت فى رسوم نقادة إلى جانب حيواناتها الأليفة طيور مائية طويلة العنق طويلة الساقين ، وهى طيور النحام أو البشروش ، التى كانت تعيش بوفرة فى البحيرات المصرية الشمالية ، وغالباً ماصورت فى مجموعات وفى وضع الوقوف بخطوطها العامة دون تفصيل [٤] .

وزاد تصوير المراكب على أوانى الفخار ، ونم ذلك عن زيادة حاجة أهلها إليها وكثرة استخدامهم لها فى أغراض السفر فى النيل وترعه ، وأغراض نقل المنتوجات ، فضلاً عن نقل الأفراد ونقل رفات الموتى من ضفة إلى أخرى . وأضاف W. F. Petrie, Ch. Boreoux and H. Kantor ، أنها استخدمت منذ ذلك الحين فى الملاحة البحرية أيضاً . وصورت كل مركب منها بقمرتين أو (كابينتين) من سيقان الغاب والنباتات المجدولة ، يفصل بينهما ممر ضيق مكشوف أو مسقوف ، وبجريدة نخل طويلة تراوحت أعداد فروعها من واحد إلى خمسة ، وهذه كانت تضفى نصيباً من الزينة المتواضعة على المركب ، وتميز بين كل مركب وأخرى ، وتضفى الظل على الملاح الذى يجلس تحتها فوق مقعد متواضع صغير . وكان يميز كل مركب منها

---

(١) Petrie, *Corpus*, pl. XXXIV, 46 D; *Diospolis Parva*, pl. XX, 11 B; Edgerton, *AJSL*, XXXIX.

(٢) Fig. 86; Scharff, *op. cit.*, I 142 f.; Vandier, *Manuel d'Archeologie*, I, 350 f. Naville-Peet, *The Cemetries of Abydos*, I pl. V.

(٣) Petrie, *Abydos*, I, 23, pl. L.

(٤) See, L. Keimer, *ASAE*, XXXIV 190 f.

صار طويل يعلو قمته رمز صغير مشكل على هيئة حيوان أو طائر أو نبات أو أداة صيد أو أداة حرب أو مظهر بيئى مثل التلال ، ويرمز إلى صاحب المركب أو يرمز إلى بلده ومعبوده (١).

وبلغت صناعة الأسلحة من الظران ذروة رقيها فى عهد نقادة الثانى ، وزادت فيها السكاكين مموجة السطوح ذات الطرف المقوس على هيئة ورق الشجر رقة وجمالاً ، وكان بعضها يثبت فى مقابض من العاج والخشب . وقد ينقش المقبض بصورة تناسبه ثم يغشى برقائق الذهب (٢) . واستخدم النقاديون رؤوس حراب أو رؤوس مزاريق مشرشرة الحواف تنفرج نهايتها فى شعبتين على هيئة ذيل السمكة (٣). وسايرت صناعة الخناجر النحاسية صناعة الخناجر من الظران ، وسارت فى تطورها من القصر والاستعراض إلى الدقة والطول ، ولكنها ظلت أقل شيوعاً من أسلحة الظران حتى أوائل العصور التاريخية على أقل تقدير .

وما لبثت النقوش النقادية حتى طغت على الرسوم واحتلت مكانتها فى إشباع أذواق أهلها وفى التعبير عن أفكارهم وأساطيرهم . وحدث ذلك نتيجة لأمرين ، وهما: انصراف أذواق الطوائف الثرية والمتوسطة عن أوانى الفخار المرسومة إلى أوانى الحجر إيثاراً لمتانتها ، وبعد أن اكتسب صناعها خبرة وافية فصنعوها بوفرة وإتقان ، وأن الأوانى الحجرية الجديدة لم تكن بحاجة إلى التحلية بالرسم ، وكانت تكفيها جودة الحجر وجودة الصقل وسلامة الذوق . وقد أبدع صناعها نماذجها الغالية بالفعل ، وصنعوها من الأحجار دقيقة الحبيبات ذات التموجات متعددة الألوان ، وشكلوها على هيئات أسطوانية وشبه بيضية وشبه كرية ، وهيئات تشبهها هيئات القنانى الحالية ،

(١) Petrie, *Preh. Eg.*, 18-19, 49; *Corpus*, pls. XXXIV, 46 D; XXXVII, 77; *Diospolis*, pl. XX, 133; *Naqada*, pl. XLII, 14; Ch. Boreoux, "*Etude de nautique egyptienne*", *BIFAO*, L. 17, 20 f.; J. Vandier, op. cit., I. 340-341, and see, André Servin, *ASAE*, XLVIII, 55 f.

(٢) M.C. Currelly, *Stone Implements*, pls. XLV - XLVII; Petrie, *Preh. Eg.*, pl. XLVIII, 3-4 ; *Naqada*, p. 57 f. ; *Diospolis*, 23 f. ; *Capart, Les Debuts...*, 66-67, Fig. 32.

(٣) M. C. Currelly, *op. cit.*, pls. LIX-LX ; *Petrie, Preh. Eg.*, 25 ; *Naqada*, pl. LXXIII, 61, 62; Massoulard, *Rev. d'Eg.*, II, 135 f.

وعلى هيئات الحمام والأسماك والسلاحف والفيلة وأفراس النهر والكلاب (١) . وربما بما يشبه هيئة الجمل البارك أيضاً، وإن لم يخل تحديد هذا الشكل الأخير من الشك (٢).

وكان لابد لوسائل التعبير التصويرية أن تتلمس سبيلاً آخر غير سطوح الفخار وسطوح الأوانى الحجرية ، وقد وجد أصحابها مسطحات تناسبها على سطوح أمشاط عريضة فاخرة من العاج ، كانوا يزخرفون بعض رؤوسها على هيئات الطيور والحيوانات ووجه الإنسان ، وعلى سطوح مقابض عاجية صغيرة كانوا يثبتون خناجرهم فيها ، وعلى سطوح الصلايات الأردوازية الرقيقة ، وعلى سطوح رؤوس مقاطع القتال الكبيرة الفاخرة .

وعبر مهرة الفنانين عن كفايتهم فى النقش على هذه السطوح ، فنقش أحدهم ٢١٨ صورة دقيقة لحيوانات مختلفة فى صفوف أفقية على مقبض سكين لايتعدى عرضه سنتيمترات قليلة (٣) . ونقش آخر صورة فيل يطأ ثعباناً ضخماً ضمن مجموعة من الحيوانات ، فأظهر تفاصيل جسده فى دقة بالغة وحيوية فياضة على الرغم من صغر مساحة السطح الذى نقش صورته عليه (٤) . ومن أمتع مانقشه الفنان النقادى على سطوح الصلايات صورة ظبيين متقابلين يتناجيان ، صورهما فى حيوية فريدة

---

(١) Petrie, *Preh, Eg.*, pls. XXXIV-XLII; *Capart, Les Débuts...*, 92 f., Figs. 67-70; Glanville, *JEA*, XII, pls. XII-XIII.

(٢) لم يستخدم المصريون الإبل إلا فى أواخر عصورهم الفرعونية ، وربما فى أوائل العصور البطلمية، ولكنهم كانوا على معرفة بهيئاتها لاحتكاكهم بجيرانهم البدو . ووجدت الآنية المشار إليها فى أبو صير الملق ، وصنعت من الحجرى الجيرى ، ويرى شارف أن صانعها قلد بها هيئة الجمل عن نموذج سورى (*Abusir*, Taf. XXIV, 209) . ولكن جلانفيل لاحظ أن هيئة الجمل لم تظهر فى الفن السورى إلا فى القرن الحادى عشر ق.م ، أى بعد العهد النقادى بآلاف السنين ولهذا يصعب تخمين الأصل الذى استوحاه الفنان المصرى . ووجدت رأس من الفخار(*op. cit.*) الملون فى المعادى تشبه رأس الجمل إلى حد ما (*Maadi*, pl. XX, 2-3) . وجمع شارف ١٤ حالة لتمثيل هيئة الجمل فى الفن المصرى القديم ، وأرجع إحداها إلى عصر الأسرة السادسة ، وثلاثة إلى الدولة الحديثة ، وأرجع بقيتها إلى العصور المتأخرة (*op. cit.*, 40-41) ، وأضاف فانديه إليها مثلاً آخر من عصر الأسرة الثانية عشرة (*op. cit.* 314, n. 3) .

(٣) G. Bénédite, *JEA*, V, pl. XXXIV.

(٤) *Ibid.*, p. 3 f., pl. I, also pl. XXXIII.

وخطوط متمكنة بسيطة (١). ثم صورة صائد يتعقب ثلاث نعامات ، وقد تقنع بقناع يشبه رأس النعام ليضللها أو يطمئنها ، وأمسك عصا بيسراه وسارت النعامات أمامه فى غير خوف وكأنه يرعاها . وصور صانع هذه الصلاية أشكاله فى غير تفصيل كبير ولا إتقان كبير ، ولكنه أزال طبقة من الأرضية التى تتخللها فبدت هيئاتها ممتلئة بارزة واضحة ، وطعم عيونها بأصداف صغيرة ، وشكل حافة الصلاية فوقها على هيئة طائر عظيم مرتفع الجناح واضح الريش وطعم عينيه وريشه بأصداف صغيرة أخرى (٢) .

واستمر الفنانون يعتبرون عالم الحيوانات والنباتات مجالاً خصباً للتعبير عن أفكار عصرهم وأحداثه وخيالاته وأذواقه . فكرروا نقش صور النخيل والظراف على الصلايات (٣) ، وتفننوا فى تصوير آكلات اللحوم بشراستها وبطشها ، وتصوير آكلات العشب فى مرحها وفى حالات فزعها وضعف حيلتها (٤) . ثم أضافوا إليها من بنات أفكارهم كائنات خرافية توهموها تغشى الفيافى الواسعة المحيطة بواديهم ، وتخيلوها بحسوم الأسود والفهود وأعناق الزراف والثعابين وأجنحة العقبان ، وتخيلوا منها كائنات مخيفة تروع حيوانات بيئتهم ، وكائنات خيالية حارسة أحاطوا بصورها إطارات الموضوعات التى نقشوها على صلاياتهم . وظلت أكثر الخطوط والصور شيوعاً فى لوحاتهم هى تصوير حيوانين خرافيين حول بؤرة الصلاية ، يحيطانها بعنقيهما الطويلتين وتنعقد رأساهما فوقها ، أو تصوير حيوانين حول إطارى الصلاية بحيث يطلان برأسيهما فوق حافتيهما وكأنهما يحميان مناظرها (٥) .

وكان من الطبيعى أن يساير رقى النقاديين النسبى فى الصناعة والفن رقى

(١) Petrie, *Preh. Egpt*, pl. XLIII, 2.

(٢) W. M. Crompton, *JEA*, V, 57 f., pl. VIII.

(٣) Bénédite, in *Monuments Piot*, XI; Scharff, *Altertumer*, II, 74 f., 76, Abb. XXII, 54, 107.

(٤) Legge, "The Carved Slates...", *P.S.B.A.*, XXII, pl. III; Bénédite, *op. cit.*, Figs. 3-4, pl. XI.

(٥) Legge, *op. cit.*, I, III. – وقد تظهر أربعة حيوانات على حافتى الجانبين ، بحيث يتدابر كل اثنين منها ويطلان على قمة الصلاية وقاعدتها (Bénédite, op. cit., pl. XI.) ، أو يقبع حيوان فوق الصلاية كأنه يحميها (part, *Les Debuts*..., Fig. 157) .

آخر نسبي في بناء مساكنهم وحفر مقابرهم ، وفي وسائل التسلية والترف في مجتمعهم . فقد عثر في قبر بالمحاسنة على نموذج صغير من الصلصال الجاف لمسكن مستطيل الشكل مبني من اللبن (١) . يذهب الرأى إلى أن بعديه الحقيقيين كانا ٨ أمتار طولا و ٥و٧٠ من الأمتار عرضاً . وكانت واجهته مائلة الجوانب يزداد اتساعها في أسفلها عن اتساعها في أعلاها لمساعدة رصات اللبن على الثبات وتخفيف الضغط العلوى عليها . وتوسطها مدخل ضيق صنع قائماه الجانبيان وعتبه العلوى من الخشب ، وظهرت له شراعة علوية لإدخال الضوء ، ثبتت تحتها طبلة أسطوانية من الخشب كان أصحاب المسكن يلفون عليها حصيراً يجذبونه إلى أسفل ليستر المدخل وليقوم فيه مقام الباب . وتوسطت الجزء العلوى من الواجهة الخلفية للمسكن نافذتان ضيقتان ، دعمت كل منهما بعارضة سفلية وعارضة علوية من الخشب. وكان داخل المسكن عبارة عن فناء وبضع حجرات جانبية . وربما قامت فى فى حجراته أعمدة خشبية متواضعة للمساعدة فى حمل السقوف المسطحة . ومثل تشييد المساكن من قوالب اللبن المنتظمة الشكل مرحلة تقدمية فى فن البناء ، وظلت هى المادة المفضلة للمساكن العادية خلال العصور التاريخية ؛ لرخص تكاليفها وتوافر موادها الأولية وصلاحيتها للبيئة الحارة .

واستمرت المساكن المشيدة من البوص وفروع الأشجار تخدم أغراضها إلى جانب البيوت من اللبن . ولكنها لم تقتصر على أشكالها المتواضعة القديمة ، وإنما ظهرت معها مساكن مربعة المساحة مرتفعة مسطحة السقوف صورت نقوش مقبض سكين فاخرة وحداً منها ، فظهر بثلاثة مداخل ، وتداخلت فى تكوين واجهته ألياف البردى مع سيقان الغاب طولاً وعرضاً على هيئة نسيج الحصير ، وبرزت الأطراف العليا لسيقان الغاب عمودية فوق الواجهة بشكل لطيف (٢) .

ونسب فلندرز بترى إلى أهل نقادة صوراً طريفة من الرقى الفكرى قد لايبرأ بعضها من الشك والنقد . فهو يعتقد على سبيل المثال أن العلامات التى خطوها على أوانيهم الفخارية لترمز إلى أصحابها أو صانعيها ، لم تكن مجرد رموز عشوائية ، وإنما

(١) عثر عليه فى مقبرة يحتمل ردها إلى مابين المرحلتين ٤٤-٦٤ من التوقيت المتتابع ، ولم يعثر فيها على عظام أصحابها .

(٢) W.C. Hayes, *The Scepter of Egypt*, New York, 1953, Fig. 21.

كانت علامات كتابية تخطيطية، بدأت شخصية ثم شاع بعضها وأصبح أداة خطية من أدوات التفاهم بين الناس. وظهرت ٣٠ علامة من هذه العلامات، فيما يرى بترى، خلال عهد نقادة الأول، ثم اختفت ست منها فى عهد نقادة الثانى وحلت محلها ١٤ علامة جديدة . وعلى حين استخدم بعض أهل نقادة هذه العلامات التخطيطية فى تفاهمهم الكتابى ، بدأ بعضهم الآخر التعبير عن أغراضه برسوم تصويرية مثل صورة الشمس وهيئة الذراعين المرفوعتين إلى أعلى وهيئة التلال الثلاثة المتجاورة ، واستمرت صورهم الكتابية هذه فى طريقها حتى طغت على العلامات التخطيطية وأصبحت أكثر قبولاً عنها وأكثر شيوعاً منها ، ثم جدت عليها علامات هجائية قليلة منذ أواخر حضارة نقادة الثانية، وورثتهما العصور التاريخية فيما ورثته من تراث العصور السابقة لها. وأضاف بترى أن العلامات التخطيطية لم تختف تماماً على الرغم من انزوائها، وإنما اقتصر استعمالها على بعض الطبقات العادية وبلغ عددها خلال عصر الأسرة الأولى ٥٣ علامة، واستمرت فى هذه الطبقات فيما يعتقد حتى الدولة الوسطى على أقل تقدير، وظهرت معها فى تخطيطات عصر الأسرة الثانية عشرة ثلاث علامات جديدة ، وكتب بها رجال المناجم فى شبه جزيرة سيناء ثم فارقت هذه العلامات موطنها المصرى، واحتضنها الكنعانيون الذين تعلموها شيئاً فشيئاً من نصوص سيناء ، وتعلموا معها النظرية المصرية فى استخدام شكل معين للتعبير عن أول حرف هجائى من اسمه، ثم خرجوا مما تعلموه باثنتين وعشرين علامة هجائية كتبوا بها نصوصهم وتعلمها عنهم أهل جنوب شبه الجزيرة العربية، كما اقتبس منهم قدماء الإغريق بعضها وزودوا بها كتابتهم المقطعية القديمة(١) .

وكشفت حفائر المحاسنة عن لوحة من الطين استخدمها صاحبها للعب الدامة (أو السيجة) . وقسم سطحها إلى ثلاثة صفوف ، وقسم كل صف إلى ستة مربعات ، ووضعها فوق قوائم طينية منفصلة (٢) . وأضاف بترى إلى هذه الوسيلة المتواضعة للتسلية ، قوائم مستطيلة صغيرة وجدت فى المقابر وصنعها أصحابها من الكوارتز والألباستر والسماق والعقيق الأحمر والحجر الجيرى ، وعدداً من الكرات الحجرية

(١) See, Petrie, *The Wisdom of the Egyptians*, London, 1940, 41f.; also, J. Capart, *Les Debuts*..., 135 f. ; A.H. Gardiner, *JEA*, III, 1 f. ; Cowley, *JEA*, III, 17 f.

(٢) *El-Mahasna*, pl. XVIII, 1.

الصغيرة (تشبه البلى) وقطعاً حجريه صغيرة، شكلت على هيئة الأوانى المصمتة (وتشبه قطع الشطرنج) ، واعتبرها جميعها تؤلف لعبة راقية تنصب فيها ثلاثة قوائم على هيئة البوابة وترص القطع الصغيرة التى تشبه الأوانى وراءها ، ثم يرمى اللاعب بالكرات من أمام البوابة الصغيرة ليسقط عدداً من الأوانى فى المرة الواحدة (١) . ولاتخلو هذه الصورة التى رسمها بترى لأذواق أهل نقادة ووسائل تسليتهم من شك كبير ، لولا أنه يبدو أنه مامن سبيل لتخمين الغرض منها على غير النحو الذى تخيله لها .

وتنوعت أساليب مقابر الثانية كما تنوعت أساليب بيوتها ؛ فظلت المقابر العادية على حالها القديم ، لاتعدو حفرة قليلة العمق بيضية أو دائرية أو شبه مستطيلة . بينما سلك التطور سبيلاً آخر فى المقابر الثرية نوعاً والمتأخرة فى الزمن نوعاً ، واتجه أكثر ما اتجه نحو تحديد جوانب حفرة المقبرة وتقويتها . واتبع أصحاب المقابر فى سبيل تنفيذ هذا الغرض وسائل كثيرة كانت منها تكسية جدرانها الداخلية بطمى سميك ثم بالبوص أو الحصير ، أو تكسيتها بألواح خشبية . وتتابعت الخطوات بعد ذلك لتدعيم جوانب الحفرة ، عن طريق تحديدها من الداخل بحواليص الطين أو قوالب اللبن ثم كساء الجدران نفسها بألواح خشبية أحياناً (٢) . وأفضت هذه الخطوات إلى تحويل الحفرة إلى حجرة . ثم عاد النقاديون الأواخر فاستحبوا تقسيم الحجرة المبنية بقوالب كبيرة للجثة وحاجياتها الثمينة ، وأخرى صغيرة للأوانى العادية (٣) ، وانتقلوا من ذلك إلى تقسيم الحجرة الصغيرة نفسها إلى حجرتين ، فأصبحت حجرات المقبرة ثلاثاً(٤) .

* * *

(١) Petrie, *Preh. Eg.*, 32; *Ballas*, pl. VIII, p. 14, 19, 20. See, Baumgartel, *Petrie's Naqada Excavations*, Suppl., 1970.

(٢) *See, Absuir*, pl. 3 c. ; *El-Mahasna*, pl. IX; pls. VIII, 42, IX, 46,47; Brunton, *Matmar*. London, 1948, 17.

(٣) *El-Amrah*, pls. III, 2, 4, IV, 6.

(٤) *Ibid.*, IV, 7. – وعثر فى أبو صير الملق على حفر متأخرة مستطيلة قسمت بقواطع عرضية من اللبن والخشب إلى أربع حجرات أو خمس ، ولم يعثر فيها على عظام موتى ، ويحتمل أنها كانت أضرحة رمزية .

Abusir, pl. V, and see, Vandier, *op. cit.*, 256.

بين الصعيد والدلتا :

تشعبت آراء المؤرخين عن أصحاب الحضارة النقادية الثانية ، وعن موطنهم الأصلى، وعن الطريقة التى فرضوا بها حضارتهم على أصحاب الحضارة الأولى . ولن نطيل هنا فى عرض هذه الآراء ومناقشتها، وإنما يكفى أن نقول إنها اتجهت اتجاهين رئيسيين : اتجاهاً افترض أن أصحابها وفدوا على وادى النيل من منطقة قريبة منه مثل جبال البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء وشمال الحجاز [١]، واتجاهاً آخر افترض أن أصحابها كانوا من أهل الوجه البحرى أى من أهل مصر نفسها [٢]. وقد أيدنا هذا الاتجاه الأخير فى الجزء الأول من كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها ، بأدلة من نماذج الرسوم وأشكال الأوانى الحجرية والفخارية وصور المراكب ورموزها وطرز مقاطع القتال وغيرها [٣] ، ويؤدى بنا هذا الرأى إلى حديث قصير عن الوجه البحرى وظروفه القديمة .

فقد ظلت مناطق الوجه البحرى أقل حظاً من مناطق الوجه القبلى فيما بقى من آثارها الحضارية القديمة ، يستوى فى ذلك حظها من آثار فجر التاريخ وحظها من آثار العصور التاريخية نفسها . وترجع أسباب هذه القلة إلى الظروف الطبيعية والبيئية التى أحاطت بالدلتا القديمة ، من حيث انخفاض أرضها ، وكثرة فروعها المائية ، وشدة طغيان الفيضانات عليها ، وكثرة ترسيب الطمى فيها ، وانتشار المناقع فى مناطقها الشمالية ، وماترتب على ذلك كله من ارتفاع نسبة الرطوبة فى تربتها وسرعة تحلل الآثار فيها .

ولكن ظروف الدلتا القديمة كانت ذات شقين ولم تكن شراً كلها ، فليس من

---

(١) *See for example*, W.F. Petrie, *Prehistoric Egypt*, 16 f. 44 f. : *The Making of Egypt*, 47; R. Weill, *Recherches sur la Ier Dynastie et les Temps Prepharaoniques*, Le Caire, 1961, II 279 f.

(٢) *See for example*, P. Newberry, *in Liverpool Ann. of Arch. and Anthrop.*, V, 232; "Egypt as a field for anthropological Research", 446 ; *Ancient Egypt*, 1924, 7-8 ; Foucart Sphinx, XVIII, 51 f. ; Loret, *Rev. eg.*, XI, 75 f. ; A. Moret, *Des Clans aux Empires*, 142.

(٣) عبدالعزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها – الجزء الأول – القاهرة ١٩٦٢ ، ص١٦٣-١٦٨ .

المستبعد أن كثرة تعرض أراضيها لأخطار الفيضان كانت حافزاً لأهلها على مداومة الكفاح والأخذ بأسباب التعاون والتقارب لدرء هذه الأخطار عن أراضى الزراعة وأراضى المساكن . وليس من المستبعد كذلك أن طمع بدو الصحراوين الشرقية والغربية فى خصوبة الدلتا كان دافعاً آخر لأهلها على التعاون لدرء شرهم ، وحافزاً لهم على التجمع في وحدات سياسية مبكرة متكاتفة . ويبدو أن قلة المواد الأولية فى الدلتا كانت دافعاً ثالثاً شجع أهلها على التعاون لتيسير الحصول عليها من مصادرها ، مثل الظران من جنوب الدلتا ، والنحاس من شبه جزيرة سيناء ، والأحجار الملونة من جبال البحر الأحمر ، والأصداف من سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط [١] . وأضاف بعض الباحثين عوامل أخر نسوقها على شك فيها ، ومنها أن اتساع رقعة أراضى الدلتا وانفساحها أديا إلى نوع من رحابة أفق التفكير عند أهلها ، بعكس أراضى الصعيد الزراعية الضيقة التى تحدها التلال والجبال . وأن سهولة اتصال الدلتا ببقية حوض البحر المتوسط كانت من دوافع تقدمها على عكس الصعيد قليل الاتصالات[٢]، (وإن كنا نعلم من جهة أخرى أن حضارات الدلتا والصعيد ظلت فى مجموعها أكثر رقياً من حضارات البحر المتوسط كله خلال فجر التاريخ ، وذلك مما يعنى ضعف احتمال استفادة الدلتا منها) .

وإلى جانب منطقة مرمدة بنى سلامة التى نشأت على الحافة الجنوبية الغربية للدلتا فى أوائل العصر الحجرى الحديث ، أدى البحث الأثرى إلى الكشف عن مناطق عمران أخرى عند رأس الدلتا القديمة ، فى عين شمس والمعادى وطرة ، وكانت ثلاثتها نقاطاً متصلة فى سلسلة من مناطق العمران ، لاتزال أغلب آثارها دفينة فى الأرض حتى الآن ، وكانت المعادى أهمها [٣] .

---

(١) انظر عن أراء أخرى تعارض هذه الاحتمالات :

Baumgartel, *op. cit.*, 3f. ; 8, 18 ; H. Kees, *Das alte Aegypten*, 11, *etc*...

(٢) ت. إريك بيت : فى تاريخ العالم (نشرة هامرتون) – معرب بالقاهرة ، ص٥١٠ ، دريوتون وفانديه : مصر – معرب بالقاهرة – ص – ٤٧ – ٤٨ .

(٣) راجع عن المعادى :

O. Menghin & M. Amer, *The Excavations of the Egyptian University in the Neolithic Site at Maadi*, vols. I-III.

مصطفى عامر : بعض نتائج الحفر فى المواسم الخمسة الأولى بالمعادى – ١٩٣٦ .

وانظر ماكتبناه عنها فى مرجعنا السابق – ص١٥١ – ١٥٦ .

ومضت كل من الحضارتين الصعيدية والبحيرية فى سبيلها ، وتطورت كل منهما بما يناسب بيئتها وثراء أرضها ، ومدى الاتصال والترابط بين أقاليمها ، ومدى توافر المواد الأولية فيها أو قرب أرضها ، حتى انتظمت الأحوال السياسية لأهل الحضارة الشمالية وتجمعت سلطاتها أو سلطات أكبر أقاليمها فى يد ملك تتوج بتاج أحمر ذى شكل خاص ، وصور صناع مملكته تاجه على بعض أوانيهم الفخارية ، ووصلت هذه الأوانى إلى بعض مناطق الصعيد ، ثم ازداد التفوق الحضارى والسياسى لأهل المملكة الشمالية ، وشجعهم هذا التفوق على مد نفوذهم إلى الصعيد ، وسنحت لهم الفرصة فى ظروف تقدم احتمالاتها بعد قليل ، فبسطوا نفوذهم على أهله وسودوا حضارتهم على حضارته ، واتخذوا عاصمته نوبت مركزاً رئيسياً لنفوذهم الحضارى السياسى ، وعندما استقرت أمورهم اشتركوا مع الصعايدة أصحاب الحضارة النقادية الأولى فى تطوير حضارتيهما ، وشاركوهم بعض ميراثهم القديم وإن اختلفوا عنهم فى بعض آخر .

التطور السياسى فيما قبل الأسرات :

أسلفنا أن مواطن الاستقرار الزراعية الأولى لم تكن أكثر من قرى متواضعة متفرقة على مناطق الحواف ، لاندرى عن تصريف الأمور فيها إلا مادلت عليه ظاهرة تنظيم بعض المساكن فى مرمدة من انفعال أهلها بالوعى الجماعى واحتمال خضوعهم السلطة فى القرية استحبت التنظيم وأوصت بتنفيذه ، ومادلت عليه مساكن حلوان القديمة من اشتراك أهلها فى تمهيد منطقة مساكنهم فوق ربوة يأمنون فيها على أنفسهم من أخطار السيول ، ويأمنون فيها من غارات جيرانهم ، ومادلت عليه مطامير الفيوم من اطمئنان أهلها إلى تجميع محاصيلهم فى منطقة مشتركة يتعاونون فى حراستها أو يعهدون بحراستها إلى رئيسهم وأعوانه ، ثم مادلت عليه مخازن الغلال الجماعية فى قرية المعادى من احتمال وجود سلطة فى القرية ، أشرفت على تموينها وحمت محاصيلها .

ولم يكن من شأن القرى المصرية الأولى أن تستمر متفرقة عهوداً طويلة ، وإنما المرجح أنه شجعها على التقارب من بعضها البعض وانضمام بعضها إلى بعض عوامل المصالح المشتركة التى تفرضها البيئات الزراعية على أهلها ، وعوامل الرغبة فى تبادل المواد الأولية التى قد تتوفر فى منطقة دون أخرى ، فضلاً عن تبادل

المصنوعات النامية التى قد تجود فى قرية أكثر مما تجود فى أخرى ، ومناسبات الزواج والمصاهرة فى بيئة قلت فيها مواقع الاتصالات ، ولم يظهر فيها مايدل على الطبقية المانعة أو العصبيات الغالية ، وعوامل التحالف والتكاتف لدرء خطر عدو قريب أو بعيد ، وعوامل الرغبة فى بسط النفوذ التى تراود الجماعات القوية وتدفعها إلى ضم الجماعات القريبة منها تحت زعامتها ، ثم عامل الاشتراك فى تقديس مظهر إلهى معين يتضح أثره فى منطقة واسعة تشترك فى سكناها أكثر من جماعة واحدة .

وليس من نصوص ولامناظر قديمة تصور نتائج العوامل السابقة فى حياة أهلها واحدة فواحدة ، وكل مايمكن تقديمه بشأنها هى مجموعة احتمالات منطقية توائم البيئة المصرية ولاتنبو عن ذكريات العصور التاريخية عنها . فمن الاحتمالات المقبولة لتفسير تحول الجماعات المصرية القديمة من الحياة القروية إلى الحياة المدنية، أنه ترتب على انضمام بعض القرى إلى بعض أن نشأ عدد من الأقاليم ذات الحدود الاعتبارية والحدود الطبيعية . ثم تهيأ للفريق الأقوى فى كل إقليم أن يجعل قريته الكبيرة حاضرة لإقليمه ، مادامت قد تمايزت عما حولها بالحصانة الطبيعية والمقومات المادية والكثرة العددية ، كما تهيأ له أن يسود كلا من حاكمه ومعبوده على بقية الجماعات المشتركة معه فى نطاق إقليمه ، وبهذا أصبح لكل إقليم حاكمه وعاصمته ، ومعبوده الأكبر ، وأصبح له رمزه الذى يقوم عند أهله مقام اللواء والعلم ، وقد يكون هذا الرمز ذا صلة بهيئة المعبود الأكبر فى عاصمته أو ذا صلة بخصائصه بيئة إقليمه، أو ذا صلة بالمهنة الغالبة فى مجتمعه ، أو ذا صلة بالصفات التى يعتقدها أهله فى أنفسهم . واستمرت ذكريات هذه الرموز باقية فيما احتفظت به العصور التاريخية من شعارات الأقاليم ومسمياتها القديمة .

ويغلب على الظن أنه تكرر بين الأقاليم ما حدث بين القرى ، فنما بعضها نمواً سلميّاً ، أى باستصلاح أراض زراعية جديدة ، وبالتوسع فى الإنتاج والتبادل ، والتوسع فى الاتصالات والمحالفات . بينما اتسع بعضها عن طريق القوة وبسط النفوذ على حساب جيرانه المستضعفين ، ثم أدى هذا الطريق وذاك إلى نشأة بضعة أقاليم كبيرة قامت فى زمنها الممالك الصغيرة .

وحاول كل من العلماء كورت زيته وألكسندر موريه وإدوارد ماير وجيمس هنرى برستد وغيرهم إكمال المراحل المحتملة لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية فى فجر التاريخ ، بافتراض عدة مراحل أفضت فى نهاية أمرها إلى توحيد مصر فى

مملكة مستقرة كبيرة [1] . واستعانوا فى تصوير هذه المراحل بما دلت عليه نقوش الصلايات ومقاطع القتال ، ومادلت عليه رموز الأقاليم المصرية وشعاراتها ، وماتضمنته القصص والأساطير الدينية والأدبية فى مصادر العصور التاريخية ، وماتضمنته متون الأهرام من تلميحات عن أحداث بعيدة وعقائد عتيقة وأسماء قومية ودينية ، ثم ماجاءت به قوائم الملوك التى سجل كتابة العصور التاريخية فيها تاريخ أوائل حكامهم القدماء بأسلوبهم الخاص ، ومادلت عليه الألقاب التقليدية التى توارثها الملوك المصريون فى بداية العصور التاريخية . ويمكن أن نرتب من ناحيتنا المراحل المقترحة فى تسع مراحل على النحو التالى :

باشرت أقاليم الوجه البحرى نضجها السياسى منذ أن تجمع أغلبها فى مملكتين محليتين خلال مرحلة قديمة من مراحل ماقبل الأسرات : مملكة لشرق الدلتا قامت فى إقليم عنجة واتخذت عاصمتها فى مدينة سميث باسم إقليمها نفسه ، قرب سمنود الحالية وقرب فرع دمياط . وجعلت لواءها على هيئة الحرية . وقدمت معبودها الأكبر عنجتى الذى صورته متون الأهرام بصورة بشرية وميزته بريشتين فوق رأسه وبمذبة أصبحت تعبر عن الصولجان ، وعصا معقوفة الطرف تشبه عصا الرعاة أصبحت بدورها رمزاً للحكم والسلطان [2]. ويحتمل أن هذه المملكة امتدت جنوباً حتى عين شمس الحالية .

ثم مملكة أخرى فى غرب الدلتا ، اتخذت عاصمتها فيما يعتقد الأستاذ زيته فى مدينة قامت على أطلالها مدينة دمنهور الحالية ، وقدست ربها الأكبر حور ورمزت إليه بهيئة الصقر ورفعت صورته فوق ألويتها ، ويحتمل أنها امتدت جنوباً حتى أوسيم الحالية [3] .

---

(١) *See especially*, K. Sethe, *Beitraege zur altesten Geschichte Aegyptens. Untersuchungen*, III, Leipzig, 1905 ; *Nachrichten der Kgl. Gesell. der Wis., Göttingin*, 1922, 197-252; *Urgeschichte und alteste Religion der Aegypter*, Leipzig, 1930; Ed. Meyer, *Geschichte des Altertumer*; A. Morel, *Des Clans aux Empires*, Pairs, 1923; *Le Nil et la Civilisation egyptienne*, Paris, 1926; J.H. Braested, *BIFAO*, XXX, 709 f.

(٢) A. Moret, *Le Nil...*, 91.

(٣) *See*, R. Weill, *Recherches...*, 321.

وتمت الخطوة السياسية الثانية فيما يرجح حتى الآن باتحاد مملكتى الدلتا فى مملكة واحدة ، اتخذ حكامها عاصمتهم فى مدينة ساو ، أو سايس ، التى قامت على أطلالها صان الحجر قرب فرع رشيد فى غرب الدلتا . واعتبروا المعبودة نيت حامية لهم ، وهى معبودة رمزوا إليها بسهمين متقاطعين حيناً ، وقوسين متشابكين حيناً وجعبة سهام حيناً آخر ، باعتبارها من رعاة الحرب ، كما اتخذوا هيئة النحلة «بيت» شعاراً لدولتهم ، ربما للتشبه بما تتميز به من نشاط متصل وإنتاج مستحب بصورتها أو بلفظها ، وتتوجوا بتاج أحمر .

وقامت خطوة ثالثة فى الصعيد لعلها كانت معاصرة للخطوة الثانية فى الدلتا ، فاجتمع شمل أكبر أقاليم الصعيد تحت زعامة مدينة نوبت فى منطقة قنا ، واعترف الصعيد بزعامة ربها «ست» الذى رمز أتباعه إليه بصورة حيوان أسطورى (١) ، واعتبروه من أرباب السماء والأمطار ، ووصفوه بأنه يهز الأرض هزاً ويرسل العواصف وله صريخ فى السماء كأنه الرعد (٢) . وازدهرت حضارة نقادة الأولى فى ظل مملكة نوبت الناهضة ودل على عمرانها النسبى ورخائها النسبى كثرة مقابرها التى تدل بالتالى على كثرة أهلها ، ورقى أذواق الأدوات التى وجدت فيها . واتصلت أسباب التبادل التجارى بين المملكتين ، مملكة الصعيد ومملكة الدلتا ، ودل عليها وجود أدوات تجمع بين خصائص حضارتيهما فى نقاذة .

وفى المرحلة الرابعة انتقلت عاصمة الوجه البحرى من غرب الدلتا إلى شرقها؛ أى من مدينة ساو إلى مدينة عنچة القديمة التى سميت بعد ذلك باسم چدو ، واعترف حكامها بزعامة أوزير (أوزيريس) و الذى خلعوا عليه ألقاب عنچتى وبعض صفاته ،

---

(١) ZAeS, XLVI, 90, L, 84; LXI, 18; *P. S. B. A.*, XXVIII, 123; Sethe, *op. cit.*, 86 f. ; Ayrton, *Mahasna*, pls. XII, 2, XVII, 2; Vandier, *Religion*, 27.

وعن زعامته الصعيد وعلو مكانته وانتشار عبادته فى أربع مدن أو خمس بالصعيد والواحات فضلاً عن نوبت :

See Pyr. 203 b, 204, 270 b ; Gardiner, *Onomastica*, II, 31, 110-111, 116.

(٢) *Pyr.* 581, 1855, 308, 1150; Pap. Sall. IV, 13, 5 ; Book of the Dead, XXXIX, 14-15; Rhind Math. Pap., No 87 b.

وقدسوه أكثر منه فى مدينته ، وترتب على ذلك أن نسبت المدينة إليه فى العصور التاريخية وسميت بر أوزير ، وقامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة أبوصير بنا الحالية وحاول من أسلفناهم من الباحثين أن يفسروا خطوة انتقال عاصمة الوجه البحرى من غرب الدلتا إلى شرقها فافترضوا قيام نوع من التنافس بين مملكتى الصعيد والدلتا ، وأن هذا التنافس تطور إلى نزاع حربى انتهى بغلبة الوجه البحرى على الصعيد ، وأن كبار حكام الدلتا نقلوا عاصمتهم بعد النصر إلى شرق الدلتا تحت زعامة أوزير ، اعترافاً فيما يحتمل لأثر أتباعه فى تحقيق هذا النصر .

والواقع أنه ليس مايزكى صحة هذه الخطوة الرابعة ، غير قرائن نظرية وأسطورية ، وهى : ماذكرته القصة الأوزيرية فى العصور التاريخية من أن أوزير كان أول من ولى عرش مصر من البشر المؤلهين أو الآلهة الأرضيين ، وتصويره فى صوره وتماثيله على هيئة ملك متوج بتاج مزدوج، يجمع بين الريشتين اللتين ورثهما عن عنچتى رب مينة عنچة بالوجه البحرى وبين تاج الصعيد ، ثم ما أكدته الأساطير ونصوص الدين من ارتباط طائفة من أرباب الدلتا ورباتها بأوزير وقصته ، لاسيما رابطة الأخوة والزواج بينه وبين المعبودة إيسة (إيزيس) ، وهو ترابط يدل على التقارب بين مواطن عبادتهم وبين جدو مدينته فى عهد توافر لها فيه من السلطان السياسى مادفع غيرها إلى التودد إليها والارتباط بها .

وذهب كورت زيته فى تصوير ممهدات المرحلة الخامسة إلى أن دولة الوجه البحرى لم تكتف بانتصارها على الصعيد ، وإنما بسطت سلطانها عليه لبعض الوقت . ولكن الصعيد ثار عليها وانسلخ عنها وقلب الآية عليها فانتصر عليها وأضعفها ، وتعصب لمعبوده ست أكثر مما كان يتعصب له من قبل . وليس من دليل يؤكد هذه المرحلة الخامسة هى الأخرى غير ماذكرته القصة الأوزيرية عن نقمة أخيه ست (أو ستخ رب نوبت) عليه وعمله على إقصائه عن ولاية أمور البلاد والعباد ، وقتله إياه ، ربما بما يعنى عمله على القضاء على كيان دولته .

وفى المرحلة السادسة سعت مملكة الشمال إلى توحيد مصر تحت لوائها مرة أخرى ، ونجحت فى مسعاها ، ولكن حكامها لم يتخذوا عاصمتهم هذه المرة فى شرق الدلتا أو فى غربها ، وإنما اتخذوها فى مدينة تتوسط بين نهاية الدلتا وبين نهاية الصعيد ، وهى مدينة أونو (عين شمس والمطرية وماحولهما) ، وظلوا أوفياء فيها

لربهم أوزير ، إلى جانب اعترافهم بربها القديم أتوم ، ثم برب آخر أصبح فيما بعد أكثر شهرة منهما، وهو رع رب الشمس .

ونسب إلى فلاسفة هذه المدينة الخروج بأقدم مذهب دينى لتفسير نشأة الوجود. وقد مر هذا المذهب بتطورات فكرية كثيرة ، وبدأ بصورة مادية ثم مال إلى المعنويات شيئاً فشيئاً ، ولم يسجله المصريون كتابة إلا بعد تأليفه بقرون طويلة . وفى صوره الناضجة رد أصحابه عناصر الكون وأسباب عمرانه إلى تسعة أرباب وتخيلوا فيما سبقها محيطاً مائياً أولياً لاحس فيه ولاحياة ، يسمى نون . ومن هذا المحيط الأولى ظهر الإله الخالق أتوم الذى أوجد نفسه بنفسه وعاش فريداً حتى ذرأ من نفسه عنصرين مقدسين ذكراً وأنثى ، وهما شو روح الهواء والفضاء والنور ، وتفنوت روح الرطوبة والندى ، وتولد عن اجتماع هذين العنصرين ذكر وأنثى قدسيان آخران ، وهما : جب رب الأرض ونوت ربة السماء ، وظل هذان متصلين حتى أذن الخالق بانفصالهما ، فرفع شو السماء بربتها إلى أعلى عليين وملأ ما بينها وبين الأرض وربها بنوره وأنفاسه ، ولكن بعد أن تولد عن ربى الأرض والسماء فى فترة اتصالهما أربعة أبناء ، ذكران وأنثيان : أوزير وست ، وإيسة ونبت حت (أو على حد التعبير الإغريقى أوزيريس وست ، وإيزيس ونفتيس) . ومثل هؤلاء الأربعة الرعيل القدسى الأول الذى جمع بين الألوهية وبين البشرية وبدأ به تنظيم عمران الكون ، كما تم به تاسوع أونو أو عين شمس الأكبر . ولايخلو بعض هذا مما يقارن جزئياً بما روته ديانات أخرى عن الخلق الأول .

ولم يجد أغلب المؤرخين بأساً فى أن يقربوا بين عهد هذه الوحدة الجديدة ، وبين عهد نقادة الثانى الذى نشأت حضارته فى الوجه البحرى ثم زحف أصحابها بها إلى الصعيد وصبغوا حضارته بصبغتها وتطورو بها فى رحابه . ولكن يبدو أن أمور دولة عين شمس لم تسر هينة دائماً ، ولم تسلم من منازعات قامت فى مدينة عين شمس نفسها . ورويت الأساطير أخبار هذه المنازعات بأسلوبها الخاص ، فزعمت أن قتالاً دار بين الإله رع وبين كبير أعدائه قرب شجرة مقدسة فيها ، وأن عدوه تنكر له فى هيئة أفعوان فاتك ، فتنكر له هو الآخر على هيئة قط نافر وفتك به . ويحتمل من هذا التصوير الرمزى أن أتباع الشمس كانت لهم موقعة فاصلة مع أعدائهم قرب شجرة مقدسة ، فلما كتب النصر لهم وقتل زعيم أعدائهم تحت الشجرة ، ردوا ذلك إلى تأييد ربهم واشتراكه معهم فى صورة خفية لاتمت إلى صورة البشر فى قليل أو

كثير [1] . وصورت الأساطير وجوه نزاع أخرى حدثت بين أرباب عين شمس والأشمونين فى مصر الوسطى أو بين أتباعهم ، وكان لابد لأمثال هذه المنازعات من أن تؤدى إلى نهاية ، وقد أدت إلى غير ما أراده حكام الدولة المتحدة ، فتفتتت وحدتهم وزال ملكهم .

وبدأت مرحلة سابعة يفهم من متون الأهرام عنها أن ضياع نفوذ أرباب أو حكام الوجه البحرى لم يكن بغير رد فعل إيجابى فى الدلتا ، وترتب عليه أن اتحد حلفاء أوزير القدامى ، وأتباع الأرباب المتصلين به ، وابتغوا القصاص لمقتله أو تمزيقه على حد رواية الأساطير ، وبمعنى آخر ابتغوا القصاص لضياع نفوذهم القديم وتمزيق وحدة دولتهم ، فجعلوا زعامتهم الدينية والرمزية للمعبود حور الذى قام أحد مراكز عبادته فى «به» قرب دسوق ، وأعلنوه ولداً روحياً لأوزير من زوجته إيسة ، وأطلقوا عليه لقب المدافع عن أبيه أو المنتقم لأبيه . وبدأوا جهودهم لتنفيذ رغبة القصاص وتوحيد البلاد تحت زعامتهم ، وطالت المواقع بينهم وبين أتباع ست رب الصعيد ، وظل النصر دولة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويبدو أن كلاً منهما أضر بالآخر ضرراً بليغاً [2] . ولكن لم ينته النزاع بينهما إلى نتيجة حاسمة ، وهنا تدخل بينهما زعماء الأشمونين أتباع المعبود تحوتى ، وكانوا قد اتخذوا موقفاً مائعاً فى النزاع ، فتوسطوا ونجحوا فى عقد هدنة بينهما . وشجعت الهدنة أنصار حور على عرض خصومة ست لأبيه على حكماء البلاد ، أو أربابها كما روت الأساطير ، فبرأوا أوزير من تهمة العدوان ، وتشجع أنصار ولده حور بهذا الحكم فعاودوا العمل على نشر نفوذهم ، بيد أنهم اكتفوا فى هذه المرة بنشر نفوذهم الدينى ، ونجحوا إلى حد ما فى مسعاهم

---

(١) راجع عبدالعزيز صالح : التاريخ فى مصر القديمة (مفهومه - عناصره - وبواعث القومية فيه) - القاهرة ١٩٥٧ - ص٨-١٠ ؛ و«قصة الدين فى مصر القديمة - المجلد العدد ٢٣ - نوفمبر ١٩٥٨ - ص٥١ .

See, Grapow, *Religiose Urkunder*, 1951, 6 f.; Plyte and Rossi, *Pap. Turin* 118, 11; H. Kees, *ZAeS*, LXXVIII, 41 f. ; Anthes, *Felsinschriften*, 23, 7; 24, 10 f.

وانظر عن احتمال فتنة أخرى فى قفط : Massoulard, *Prehistoire et Protohistoire d'Egypte*, Paris, 1949, 434.

(٢) *Pyr*. 1463, 141 d.

فأصبحت هيئة الصقر رمز ربهم علماً على أرباب مدن كثيرة فى الدلتا وفى الصعيد أيضاً [١] ، ولكن هذا لم ينفعهم سياسياً ، وظل زعماء الصعيد يصرون على استقلالهم فيه .

وفى مرحلة ثامنة عادت مصر بهذا الوضع مملكتين : مملكة للوجه البحرى فى مدينة «به» التى قامت أنقاضها قرية إبطو أو تل الفراعين قرب دسوق ، واحتفظ ملوكها بميراث مملكة غرب الدلتا القديمة التى قامت عاصمتها فى مدينة ساو ، فتتوجوا بتاجها الأحمر وانتسبوا إلى رمزها المصور على هيئة النحلة وتلقب كل منهم بلقب «بيتى» ، إلى جانب اعتبارهم ورثة حور (حورس) على الأرض [٢] . أما مملكتهم نفسها فاتخذت نبات البردى شعاراً لها . وجاورت مدينة به ضاحية دينية تسمى «دب» عبدت معبودة أطلق عليها اسم «واچة» ورمز إليها بهيئة الحية ، فانتسب الملوك إليها واعتبروها حاميتهم واعتادوا على وضع رمزها على جباههم تبركاً به والتماساً لحمايته .

ثم مملكة الصعيد وقد استقر زعماؤها فى «نخن» وهى مدينة قامت على أطلالها قرية الكوم الأحمر الحالية شمال إدفو ، ويحتمل أنهم استمسكوا بها باعتبارها مسقط رأس كبارهم ، واحتفظوا بزعامتها الدينية للمعبود حور (الصعيدى) ورمزوا إليه بالصقر أيضاً . وكشفت التنقيبات الأثرية فى أطلال نخن عن بقايا سور أقيم على هيئة بيضاوية أو شبه مستديرة داخل المدينة ، ودعم بأحجار غفل غير منتظمة من الدبش ، وذهب الرأى حتى الآن إلى أنه كان يحيط بتل صناعى من الرمال شيد أهل المدينة فوقه معبد ربهم حور [٣] . وتتوج ملوك هذه المملكة بتاج أبيض طويل ، واتخذوا نباتاً يسمى «سوت» رمزاً لهم ، قد يكون من البوص أو الأسل أو الخيرزان ربما للرمز إلى صلابتهم مثله ، وانتسبوا إليه فأصبحوا يلقبون بين قومهم بلقب «سوتى» أو «نيسو» [٤] . أما مملكتهم نفسها فاتخذت زهور اللوتس أو الإيريس أو الزنبق شعاراً لها.

---

(١) مثل نخن وإدفو وأرمنت وقوص وقفط وقاو الكبير وبنى حسن والعطاولة ... (انظر للمؤلف : حضارة مصر القديمة وآثارها - جـ١ - ص٢٠٧ - ٢٠٨) .

(٢) *Pyr.* 724 ; *ZAeS*, XXX, 113.

(٣) J.E. Quibell-F.W. Green, *Hierakonpolis*, II, 3 f.; Sethe, *op. cit.*, ; *Urgeschichte*, 188.

(٤) *ZAeS*, XLIX, 15, 18 ; *Rec. Trav.*, XXXVIII, 69; ASAE, LI, 308 f.

وجاورت العاصمة نخن ضاحية دينية سميت «نخاب» قامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة الكاب الحالية ، وعبد أصحابها ربة نسبوها إلى بلدتهم فسموها نخابة ورمزوا إليها بأنثى العقاب ، فاعتبرها الملوك راعيتهم وحاميتهم .

ومن هذه المملكة الصعيدية بدأت المرحلة التاسعة والحاسمة وخرج منها دعاة الوحدة التاريخية الكاملة الذين نخص بالذكر منهم كلا من الملكين العقرب ؛ ونعرمر (راجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) ، وإن كان يبدو أن عاصمتها انتقلت حينذاك من نخن فى أقصى الصعيد إلى مدينة ثنى فى أواسطه قرب سوهاج .

* * *

من تطورات الفنون وتعبيراتها :

اعتاد الرسامون المصريون على تصوير رسومهم بلون واحد على سطوح الفخار حتى أواسط حضارة نقادة الثانية ، ثم خطوا خطوة جديدة عدلوا فيها وسائل الرسم ومسطحاته وموضوعاته ، وعملوا فيها على الرسم بألوان متعددة على جدران واسعة شادوها من اللبن وكسوها بالملاط ، وبدأوا يعبرون على سطوحها عن أساطيرهم وأخبارهم وأفكارهم تعبيراً أكثر صراحة ووضوحاً من تعبيرات رسوم الفخار القديمة . واحتفظت بلدة نخن ببناية صغيرة من اللبن تحت سطح الأرض كسى جداران منها بطبقة من الملاط ، وصورت عليهما مناظر قتال ومناظر صيد ومناظر أسطورية ومناظر ملاحية ، بألوان بيضاء وخضراء وحمراء وسمراء [١] . ونجح الرسام فى تصوير ملامح الحيوانات وحركاتها أكثر مما نجح فى تصوير ملامح الإنسان وحركاته. وصورت مناظر الصيد فيها بيئة صحراوية وحيوانات سريعة من حيوانات الصحراء والحواف الزراعية ، وأبدع الرسام تصوير خمسة ظباء ، علقت سيقانها بفخ كبير نصبه صائد . وخلع روح الفن على صورته ، فرتب الظباء حول الفخ فى دائرة كاملة وجعلها تبدو كما لو كانت قد استسلم لمصيرها وتمددت على جنوبها ، ولونها بألوان مختلفة ، حتى لقد صور بعضها بثلاثة ألوان .

(١) J.E. Quibell-F.W. Green, *op. cit.*, II, 20-21, pls. LXXV-LXXIX; L. G. Brunton, in *Studies Presented to Griffith*, 1, 272 f. ; andsee, H. Schaefer *Von Aeg., Kunst*, 158, 244; Vandier, *Manuel..*, I 56f. B. Kemp, *JEA*, 1973, 36-43; Adams, *Anc. Hierakonpolis....*, Suppl., 1974.

وتضمنت المناظر الأسطورية فيها مجموعتين لبطل يواجه أسدين بمقمعة حرب طويلة أو عصا ذات رأس كرية ، ومجموعة أخرى لبطل يحاول أن يفصل بين أسدين أو يحاول أن يصرعهما بيديه المجردتين ، وليس من المستبعد أن تكون كل من المجموعتين ، والأخيرة منهما بخاصة ، قد رمزت إلى فئتين حاول أحد الزعماء الأبطال أن يفصل بينهما أو يخضعهما لسلطانه .

وتألفت مناظر الملاحة من ستة مراكب ، تساوى ارتفاع المقدمة والمؤخرة فى خمسة منها ، بينما ارتفعت مقدمة السادسة عن مؤخرتها ارتفاعاً كبيراً . وأدى طراز هذه المركب السادسة إلى كثير من الجدل ، وقد صور الرسام على سطحها مقصورة مقبية السقف . وذهب أغلب الباحثين إلى اعتبار طرازها طرازاً دخيلاً يشبه طراز المراكب السومرية ، ويتعلق بغزاة أو مهاجرين من بلاد النهرين .

ولسنا نجادل فى غرابة هذا الطراز عن طراز مراكب الصعيد العادية فى عصرها ، ولكنا نود الإشارة إلى ثلاث حقائق تتعلق بها ، وهى : أن قمرتها أو (مقصورتها) مقبية السقف تشبه مقاصير بعض ماعثر عليه من نماذج المراكب الصعيدية التى صنعها أصحابها من الصلصال . وأن تصويرها بمفردها بين خمس مراكب مصرية ينفى عن أصحابها صفة الغزاة الأغراب . وأن الحضارة السومرية لم تكن قد بدأت حينذاك فى بلاد النهرين وإنما كان العراق لايزال يعيش فى حضارة الوركاء ،التى لاندرى مدى صلاحية سفنها للإبحار من العراق إلى مصر عن طريق الخليج العربى والمحيط الهندى ثم البحر الأحمر [١] ، وهو طريق صعب . وكل ذلك مما يحملنا على الاعتقاد بنسبتها إلى منطقة مافى مصر مثل شمال الدلتا ، كما سيتضح لنا من مثل آخر تال .

* * *

(١) يعترف كونتينو بأن مصر حين بدأت عصورها التاريخية كانت العراق لاتزال فى مرحلة الانتقال من حضارة الوركاء إلى حضارة جمدة نصر . G. Conteneau, *Manuel d'Archeologie Orientale*, IV, 1947.

على الرغم من أنه من القائلين بتأثير الحضارة السومرية فى الحضارة المصرية عن طريق الهجرة الجنسية على حد قوله .

See also, *Historie de l'Orient*, 1936, 169-172.

سكين جبل العركى :

سابق فن النقش فن الرسم فى خدمة أغراض قومه ، وتعدت نقوش مقابض السكاكين والخناجر تصوير صفوف الحيوانات إلى تصوير موضوعات أسطورية وتاريخية . وأوضح مايستشهد به منها نقوش مقبض سكين وجدت فى منطقة جبل العركى تجاه نجع حمادى فسميت اصطلاحاً باسمه [١] . وصور فنانها على أحد وجهى مقبضها معركة جرت على البر والماء بين فريقين اتخذ أحدهما هيئة المصريين واتخذ ثانيهما هيئة أهل الصحراء الغربية ، وكانت الغلبة للفريق الأول . وصور فى معركة الماء ثلاثة مراكب على الطراز المصرى ، وتعاقبت هذه المراكب خلف بعضها ولكن أطرافها تداخلت مع بعضها . ثم صور مركبين فى صف مستقل على طراز مختلف ارتفعت فيه مقدمة المركب ومؤخرتها ارتفاعاً كبيراً ، وعبر عن نتيجة المعركة بصور رجال غرقى صورهم فى أوضاع مختلفة بين صفى المراكب . ونقش الفنان على الوجه الثانى للمقبض موضوعات أخرى ، بدأها فى الصف العلوى بتصوير شيخ كبير ملتح يشبه هيئة الساميين القدماء ، ويرتدى رداء كثيفاً يمتد من وسطه حتى منتصف ساقيه ، ويلبس عمامة فوق رأسه ، ويفصل بيديه المجردتين بين أسدين ناهضين عظيمين أو يحاول إخضاعهما لسطوته ، وصور تحته بيئة صيد متسعة ، تضمنت حيوانات برية تميزت منها صورة لبؤة تهاجم ثوراً وحشياً من خلفه .

هذا عن موضوعات مقبض السكين ، أما دلالتها ، فيغلب الظن أن صاحبها أراد أن يعبر بها عن أحداث قديمة وأفكار معينة ، وإن ظلت هذه الأحداث والأفكار موضعاً لتفسيرات شتى . فرأى أغلب الباحثين وضوح التأثير الآسيوى ، والعراق بخاصة ، فى موضوعاتها ، واستشهدوا على ذلك بتصوير الشيخ ذى العمامة والرداء السميك ، وفكرة الفصل بين الأسدين ، ومهاجمة اللبؤة لفريستها من خلفها ، وتصوير المركبين الغريبتين عن الطراز المعتاد للمراكب المصرية ، مع شيوع هذه العناصر

---

(١) Louvre E. 11517; G. Bénédite, in *Mon. Piot.*, XXII, p. 1 f., pl. I; *JEA*, V, pl. XXXII; Vandier, *op. cit.*, 533 f. ; and for other references see, R. Weill, *Recherches...*, 1961, II, 208 f.

كلها فى الطراز العراقى خلال حضارات الوركاء وسومر[1] . بينما رأى باحثون آخرون تداخل عنصر الصحراء الغربية فى موضوعات النقوش ، واستدلوا على ذلك بصور أحد الفريقين المتقاتلين وصور الحيوانات التى عاشت أمثالها فى الصحراء الغربية . ثم قيل فيما قيل إن الأسدين صورا بمعرفة كثيفة على هيئة أسود شرق أفريقيا دون أسود غرب آسيا .

ونرى من ناحيتنا أن العنصر المصرى هو العنصر الغالب على نقوش المقبض من حيث الأسلوب ومن حيث الموضوع ، فأسلوب النقش فيها أسلوب مصرى صريح ، سواء فى تصوير الإنسان أم فى تصوير الحيوان . والفريق المنتصر فى معركة البر ومعركة الماء هو الفريق المصرى ، ولم يكن من المنتظر أن يصور نصر المصريين فنان غير مصرى . ورموز المركبين الغريبتين يمكن تقريبها إلى الرموز المصرية المقدسة المعروفة . ويمكن أن نعتبر المركبين الغريبتين من مراكب السواحل المصرية الشمالية الغربية القريبة من الحدود الليبية ، والتى لم تتبق من صورها باقية ، لاسيما وقد لوحظ أن بعض آثار هذه السواحل لم تخل من تشابه مع آثار حضارة نقادة الثانية[2]، وأن أحد الفريقين المتقاتلين على البر تغلب عليه هيئة رجال الصحراء الغربية. وتتبقى صورة الشيخ ذى العمامة واللحية والثوب الكثيف ، وهذه إذا صح أنها تشبه صور الساميين الأوائل ، فلا بأس من أن نفترض أن الفنان المصرى استوحاها من أثر عراقى وصل إليه عن طريق التجارة وقلدها على مقبض سكينه . هذا ويضاف من حيث الموضوع أن مقاتلة الأبطال المصريين للوحوش بدأ بيد لم تقتصر على الأسود ، وإنما تعدتها إلى مصارعتهم لأفراس النهر أيضاً[3] . وكانت هذه الأفراس حيوانات مصرية محلية . وإذا ندر تصوير هذه الفكرة فى عصور الأسرات التاريخية ، فلعل ذلك لأن المصريين فى عصورهم التاريخية صدفوا عامدين عن

---

(١) *For references see*, A. Scharff, *Die Fruhkulturen Aegyptens und Mesopotamiens*, 1941; R Weill, op. cit., 2e partie, 297 f. Also, A. Kelley, *JSSEA*, IV, 2 (1973), 5-8; IV,3 (1974), 2-11. But cf. *JEA*, 1971, 237.

(٢) *See, O. Bates*, "Archaic burials at Marsa Matruh", *Ancient Egypt*, 1915 158. Compare also, Moret, op. cit.

(٣) Petrie, *Royal, Tombs*, II, pl. VII, 6 ; L. Borchardt, *Die Annalen...*, 36, Abb., 6.

تصوير الأوضاع الفنية العنيفة ، بعد أن تبينوا أنها لاتتفق مع تحضرهم المستمر [١] .

وأضاف R. Hamann تفسيراً طريفاً لموضوعات الوجه الثانى من المقبض ، فرآها تعبر عن سلسلة متصلة من عوالم الأرباب والحيوان والإنسان ، واعتبر الشيخ الملتحى إلهاً للرعاة وحامياً لقطعانهم استأنس الأسود الضارية وأخضعها لسلطانه ، واعتبر الكلاب المصورة تحته كلابه الأمينة على قطعانه ، واعتبر بقية المناظر تعبر عن بيئة الصحراء بما يعيش فيها من آكلة اللحوم وآكلات العشب ، وبما يتداول فيها من خير وشر كما تعبر عن عالم الصيادين والرعاة مما يكتنفه من مكاسب ومتاعب فى سبيل تحصيل الرزق والقوت [٢] .

ومضت نقوش الصلايات فى تطورها وانتقلت من تصوير الرموز والأفكار الصغيرة إلى تصوير الأساطير والحوادث التاريخية بنقوش بارزة وغائرة تشغل وجهها كله أو وجهيها كليهما . ومن أهم مايستشهد به منها ، صلايتان ترجعان إلى أواخر حضارة نقادة الثانية ، ويطلق على إحديهما اصطلاحاً اسم صلاية صيد الأسود ، وعلى الأخرى اسم صلاية الأسد والعقبان .

صلاية صيد الأسود [٣] : هذه صلاية نقشها فنانها من وجه واحد ، وصور عليها مجموعتين من الرجال انتظموا فى صفين على حافتيها العريضتين ، وحملوا أسلحة متنوعة مثل الأقواس الشديدة من قرون التياتل والحراب ومقاطع القتال والعصى المعقوفة وحبال الصيد والبلط ذات الحدين والحراب ذات الرأسين والتروس البيضاوية التى تشبه ظهور السلاحف المائية . وأظهر الفنان بين صفيهما ساحة صيد واسعة تفرقت فيها الوعول والنعام والأرانب البرية والأسود والثعالب وحيوانات أخرى صورها له خياله . ورصع عيون الرجال والحوانات الكبيرة بمواد أخرى ضاعت معالمها . وفاقت الأهمية التاريخية والأسطورية لمناظر الصلاية أهميتها الفنية بكثير ،

(١) H. Kees, *Das alte Aegypten*, 1958, 7; *ZAeS*. LXVII, 56 f.
وانظر الكسندر شارف : تاريخ مصر منذ فجر التاريخ – معرب بالقاهرة – ص٥٢ .

(٢) R. Hamann, *Aeg. Kunst*, 81. f. ; H. Kees, *op. cit.*, 6-7.

(٣) Legge, *P.S.B.A.*, XXI, pls. II, IX ; Bénédite, *op. cit*, Fig. 5; H. Ranke,:Lowenjagd-Palette: *Sitzb. Heidel. AK. Wiss.*, 1924-1925; Vandier, *op. cit.*, 584 f. ; and *see*, L. Keimer, *ZAeS*, LXXII, 121 f. ; *Bull. Inst. Eg.*, 1950, 76 f.
عبدالعزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها – ج١ – ١٩١ – ١٩٢ .

فقد ظهر من الفريقين ثلاثة رجال أو أربعة يحملون ألوية خاصة ، فرفع اثنان منهم لواءين تعلو كلاً منهما هيئة الصقر رمز المعبود حور ، وكان رمز أكبر أقاليم غرب الدلتا فيما قبل الأسرات كما مر بنا . ورفع واحد أو اثنان آخران رمزاً يمثل حرية يتدلى منها شريط ، ويعترض جزأها العلوى عارض أفقى ، وكان رمزاً لأكبر أقاليم شرق الدلتا فى العهد نفسه . ويستدل من اجتماع الرمزين الكبيرين فى صعيد واحد على اتحاد شرق الدلتا وغربها فى مملكة واسعة خلال العهد الذى نقشت الصلاية فيه أو فيما قبله بقليل . ولعله كان يحدث من حين إلى آخر أن يخرج عظماء الإقليمين الكبيرين فى هذه المملكة فى رحلة صيد يحيون بها ذكرى كفاح أسلافهم الأوائل فى إبادة الوحوش التى كانت تهدد أرضهم .

صلاية الأسد والعقبان : نقشت على وجهها وظهرها (١) . وتوسط وجهها ، أو بمعنى أصح توسط ساحة القتال المصورة على وجهها أسد ضخم غضوب يمزق صدر عدو عار يتلوى جسده على الأرض فى قسوة بالغة . وتوزعت حول الأسد وفريسته بقية مفردات المعركة . فترامى بجانبه ومن تحته أفراد من الأعداء ، عراة بلحى طويلة وشعور مفلفلة ، وظهر منهم من تلوى جسده على الأرض وكأنه لايزال يعانى سكرات الموت ، وظهر منهم من أسلم الروح وتمدد على الأرض جثة هامدة . وانقضت على جثثهم جميعاً أسراب من كبار الجوارح وصغارها ، عبر الفنان عنها بعدد من العقبان وعدد من الغربان ، أخذت تنهش أيديهم وأرجلهم وتفقأ عيونهم وتنقر رؤوسهم .. وجمع مفردات مناظره فى وحدة تصويرية واحدة توسطها الأسد وفريسته، دون أن يفصل بين جزء منها وآخر بفواصل أو خطوط ، على الرغم من أنه احتفظ لكل شكل فيها بفرديته واضحة ، واحتفظ لكل مجموعة صغيرة فيها بدلالاتها واضحة ، ونجح فى التعبير عن قسوة الأسد فى ملامح وجهه ، وعن ألم المنهزمين فى تلوى أجسادهم ، وعبر عن فكرته فى زعيم قومه أو ملك قومه أروع تعبير ، وجعل صوره رسوماً مقروءة تفهم العين مدلولها بأقل مجهود ، ثم خصص ظهر الصلاية لوحدة زخرفية ، ألف فيها بين نخلة باسقة وزرافتين وطائرين فى توفيق

---

(١) Legge, *op. cit.*, pl. VI; Bénédite, *op. cit.*, Figs. 8-18; E. Peet, *JEA*, II, 93 f., Cottevielle-Girandet, *BIFAO*, 1933, pl. XIII; Vandier, *op. cit.*

لطيف (١) .

* * *

تركت التطورات السياسية أثرها فى حياة ممالك ماقبل الأسرات ، ووجدت الفنون مجالات طيبة فى رحاب ملوكها الصغار ، فارتقت رقياً نسبياً من حيث الصناعة والذوق والمهارة وحسن اختيار المادة ، كما وجدت فى أخبار حروبهم ومشروعاتهم مادة دسمة لموضوعاتها .

فواصل فن التماثيل طريقه فى حدود إمكانيات مجتمعه ، وتجرأ أصحابه على نحت بعض التماثيل الصغيرة من الحجر ، اللين منه والصلب ، وكان الحجر أصلح المواد من غير شك لضمان خلودها ؛ فذللوا صخر البازلت لصناعة تماثيل إنسانية صغيرة ، عثر على تمثال منها بلغ طوله نحو ٤٠سم ، مثل رجلاً واقفاً ذا لحية مستعارة طويلة ، يرتدى حزاماً يتدلى منه قراب سميك لستر العورة . ولم يستطع صانع التمثال أن يحقق التناسب بين أجزاء تمثاله ، ولكنه حاول أن يعبر عن تفاصيلها، فمثل عظام الركبتين وأظافر اليدين واستدارة الكتفين وبروز العجز بقدر ماسمحت له صلابة الحجر (٢) . وتطلع بعض المثالين إلى الأحجار الكريمة ، فنحتوا من اللازورد تماثيل نسوية صغيرة رقيقة ، بقى منها تمثالان لأنثيين صور إحداهما أنثى عقدت ذراعيها أسفل صدرها ، ونبض ثدياها وبدت ملامح وجهها واضحة على الرغم من صغر حجم تمثالها ، وكانت عيناه مطعمتين بالعاج (٣). ثم استغلوا صلابة الظران ووفرته وشكلوا قطعه العريضة الرقيقة على هيئات الطيور والأسماك والحيوانات ، واستخدموا قطع الشست للغرض نفسه (٤) . ونجحوا فى تشكيل الهيئات

---

(١) شاع أسلوب هذه الزخارف الشجرية والحيوانية فى فن بلاد النهرين ، وأوحى ذلك باحتمال استيحاء الفنان المصرى صوره من نموذج عراقى ، ولكن P. Gilbert دفع هذا الاحتمال بملاحظة أن الزراف الذى استحب المصريون تصويره على صلاياتهم حيوان أفريقى غير آسيوى *Chr, d'Egypte*, 1947, 37 f. Cf. JEA, 1971,237.

(٢) J. Capart, *Les Débuts de l'Art en Egypte*, 44-45, Fig. 20; Vandier, *op. cit.*, I, 961-62.

(٣) Quibell, *Hierakonpolis*, I, pl. XVIII, 3, p. 7, vol. II, p. 38; E.D. Ross, *The Art of Egypt through the Ages*, 84, 3.

(٤) J. Capart, *op. cit.*, 147 f. 106-108.

الحيوانية أكثر مما نجحوا فى تمثيل هيئة الإنسان . وبلغوا مستوى راقياً من دقة التعبير فى نحت تماثيل صغيرة من الحجر الجيرى لكلاب وأسود وقرود عثر عليها فى منطقة أبو صير الملق [١] ، وكانت تستخدم لألعاب التسلية ، أو تؤدى غرض التمائم فضلاً عن اعتبارها من المقتنيات الفنية .

وختم فنانو ماقبل الأسرات محاولاتهم فى نحت التماثيل بأن نحتوا ثلاثة تماثيل كبيرة من الحجر الجيرى للمعبود مين رب السيول والإخصاب وحامى القوافل، وعبروا فيها عن عظمة معبودهم تعبيراً بدائياً بأن نحتوها بأحجام ضخمة ، بحيث بلغ ارتفاع أكبرها نحو ثلاثة أمتار ، ولكنهم شكلوها بخطوط عامة ، وحاولوا إظهار التفاصيل فى مثل عظام الركبتين وزخارف حزام الوسط فلم ينجحوا غير نجاح ضئيل. ولم يستطيعوا التعبير عن كفايتهم إلا فى نقش صور معبرة على بدن المعبود مين وحزامه لأصداف وفيلة وثيران برية ، لعلها كانت تعيش على الطريق الذى يحميه والذى يمتد بين قفط وبين البحر الأحمر ، فضلاً عن بضعة رموز دقيقة تخص المعبود نفسه [٢]. وتعتبر هذه التماثيل أقدم تماثيل مصرية كبيرة معروفة أظهرت المعبودات فى هيئات بشرية .

واستفادت نقوش العصر من خبراتها القديمة ، وتطورت بأشكالها ومواضيعها على مقابض الخناجر والسكاكين الفاخرة وعلى سطوح الصلايات ورؤوس المقامع . وكانت مقابض خناجر الزعماء وأهل اليسار تنقش وتغشى بالذهب وكان لايزال عزيزاً حينذاك . ومن نماذجها الممتعة الباقية مقبضان مذهبان منقوشان فى متحف القاهرة[٣] .

* * *

---

(١) A. Scharff, *Abusir el-Meleq*, Taf. 38.

(٢) Petrie, *Koptos*, 7f., pls. III-V; Capart, *op. cit.*, 216 f., Figs. 150-151; and see, Baumgartel, *ASAE*, 1948, 533-553.

(٣) Cairo 64737, Currelly, *Stone Implements*, pl. XLVII, 251; E. Peet, *JEA*, II, pl. XII, Fig. 4; Cairo 64868; Quibell, *ASAE*, II, pl. I, 3, 5, p. 131-132; ... Currelly, *op. cit.*, pl. XLVII, p. 272.

من آثار الملك العقرب :

بدأت النقوش تسجل أحداثاً بعينها وتنقش بأسماء أشخاص بعينهم ، وأقدم المعروف منها فى هذا السبيل ، نقوش رأس مقمعة حجرية لملك صعيدى لقب لسبب ما بلقب العقرب (١). وقد صورته ملكاً يولى مشروعات الرى والزراعة حقها ، ويولى مشروعات الحرب والفتح حقها . فصورته فى هيئة فارعة يتوسط مناظر رأس المقمعة بتاج الصعيد ورداء قصير يغطى كتفاً واحدة ويمتد حتى الركبة ويتدلى من خلفه ذنب طويل ، ويقبض بيديه على فأس كبيرة يهم أن يشق الأرض بها فى حفل افتتاح مشروع للرى أو للزراعة . وظهر أمامه عدد من حاملى الألوية يتقدمون موكبه، وكاهن برداء قصير ذى حمالات من جلد الفهد ، يتقدم إليه بمجموعة من سنابل الغلال ، وتابع ينحنى أمامه بمكتل من الخوص ، يحتمل أنه كان يتضمن كمية من البذور أو كمية من تربة الزراعة . وظهر خلفه تابعان آخران يرفعان مروحتين عاليتين لتخفيف الحر أو حرارة الشمس عنه . ثم مجموعة إناث ، جلست بعضهن فى محفات ، ووقفت الأخريات يصفقن ويرقصن ، مشاركة منهن فى مراسم الحفل ، وظهرت إلى جانبهن مجموعة من سيقان البردى . وحاول الفنان أن يصور معالم البيئة الزراعية التى جرى الحفل فيها ، فصور شبه جزيرة يحيطها النهر بذراعيه ويعمل بها نفر من المزارعين وأظهر فيها نخلة وكوخاً من البوص ، رمزاً بطبيعة الحال إلى عدد أكبر من النخيل والأكواخ . وصور معبدين صغيرين متباعدين على ضفة النهر (أو فوق جزيرتين أخريتين) ، يعتبر تصويرهما من أقدم صور المعابد المصرية العتيقة المعروفة . وعلى نحو ما رمز الفنان بنقوشه إلى النشاط المدنى لمولاه، رمز بها إلى جهودها الحربية فصور فى أعلا رأس المقمعة مجموعة من رموز الأرباب ، تدل على تأييدهم له فى حروبه وعلى تحالف أنصارهم تحت رايته . كما صور رموزاً لبعض الجماعات التى أخضعها ، وفى ذلك مايوحى بدوره فى الكفاح لتحقيق الوحدة التاريخية المرتقبة .

وخدم فنان المقمعة فنه كما خدم ملكه ، فصوره فى هيئة فارعة متكاملة تعتبر السلف الصادق لصور الملوك المصريين فى عصورهم التاريخية . وأظهر أتباعه حوله فى حيوية لطيفة ، وصورهم وهم يؤدون أعمالهم تصويراً جانبياً سليماً فيما خلا العين

(١) *Hierakonpolis*, I, pls. XXV, 2, XXVI, C.



التى صورها كاملة . ولم ينس أن يعبر عن بيئة الحقل بما يدل عليها من ماء وزرع ورقص ومساكن ومعابد ، على الرغم من صغر المساحة التى صورها عليها ، وعلى الرغم من قدم العهد الذى صورها فيه (١) .

صلاية الفحل : امتازت من صلايات الكفاح للوحدة صلاية تعرف اصطلاحاً باسم صلاية الفحل (٢) . بقى جزء منها ، تصدر نقوشه فحل عنيف نفرت عروقه وهجم بقرنيه العظيمين على عدوه فألقاه على وجهه ، وضغط بحافره على فخذه ليشل حركته ويجبره على الاستسلام . وأبدع فنان الصلاية تمثيل القوة البدنية للفحل وإظهار تفاصيل جسده وعضلات سيقانه ، ولكنه تصرف فى تشكيل رأسه وعينيه ، فكسا جبهته ومقدمة رأسه بشعر مموج مرتب ، وأظهر خطوطاً حول عينيه وأنفه توحى بأن وجهه قد كسى بغطاء مزخرف . ولم يرمز به إلى ثور حقيقى أو معبود ، وإنما رمز به إلى ملكه الذى تخيله ذا بطش شديد . والفحول فيما هو معروف أكثر الحيوانات الأليفة فى البيئات الزراعية نفعاً حين هدوئها وأكثرها احتمالاً ، حين عملها ثم هى أكثرها بطشاً حين غضبها ، ولهذا ظل تشبيه الملوك المصريين بالفحول قريناً لتشبهم بالأسود (٣) .

وأدت نقوش الأختام الأسطوانية المهمة نفسها ، وكانت هذه الأختام عبارة عن قطع أسطوانية صغيرة من العاج أو الحجر أو الخشب تنقش عليها صور وعلامات تخص صاحبها ويختم بها على الطين فتؤدى غرض الختم ذى التوقيع (٤) . واستغل الفنانون أهمها فسجلوا عليها بعض أحداث عصرهم تسجيلاً يناسبها . وبقيت منها

---

(١) راجع مناقشة أكثر إسهاباً لهذه النقوش وبقية نقوش الملك العقرب : عبدالعزيز صالح : المرجع السابق - ص٢١٦-٢٢٠ .

(٢) Capart, *op. cit.*, Figs. 165-166; Legge, *op. cit.*, pl. IV; Bénédite, *op. cit.*, Figs. 6-7.

(٣) لم يكن تشبيه الأبطال وكبار الشعراء بالفحول غريباً عن العقلية العربية ، والطريف أن أهل كسلا فى السودان يمجدون أحد أولياء مدينتهم بقولهم «ياثور كسلا ياذا اللبن الأبيض» . ولو أن هرمان كيس يعتبر الفحول التى رمز المصريون بها إلى ملوكهم ثيراناً وحشية ، ويراها من ذكريات عصور الصيد القديمة . (Kees, *Götter.*, 6 ; *Das alte Aegypten*, 5).

(٤) وجد ختمان أسطوانيان من أواسط عهد حضارة نقادة الثانية (*Harageh*, 14, pl. VI, 3) . ويذكر شارف أنهما من نوع الأختام التى عرفت فى حضارة الوركاء بالعراق . (*ZAeS*, 1935, 1011).

ثلاثة أختام نقشت على سطوحها صورة حاكم ، يأخذ بناصية أسير مقيد ويهم بضربه بمقمعته على أم رأسه . وكررت الصورة على سطح كل ختم أحياناً بحيث إذا ختم به ودار دورة كاملة ، طبع تسع صور أو اثنتى عشرة صورة من صوره .

آثار الملك نعرمر :

صورت آثار الملك نعرمر مرحلتين متمايزتين فى عهده ، مرحلة واصل خلالها كفاح أسلافه لضم الدلتا إلى سيطرة الصعيد ، وأخرى استمتع فيها بنتائج جهوده وجهود أسلافه بعد أن حقق وحدة البلاد كاملة تحت حكمه . وبقى نقش من نقوش مرحلته الأولى ، حل اسمه فيه محل صورته ، وهو أول اسم معروف كتب بمقطعين صوتيين ، على هيئة صورة سمكة وصورة إزميل . وصورت السمكة (نعر) (وهى المقطع الأول من اسمه) بيدين بشريتين ، تمسك عصا ضخمة تكاد تهبط بها على رؤوس مجموعة من الأسرى الموثقين بالحبال . وسجل الفنان فوق اسم ملكه رمز المعبود ست رب الصعيد القديم ، ورمز المعبود حور رب الدولة القائمة ، ورمز المعبودة نخابة ربة الكاب [١] ، ليؤكد التقارب بين المعبودات الثلاثة ويؤكد مؤزارتهم للملك فى كفاحه .

وسجلت صلاية نعرمر آخر مراحل كفاحه ونتائجها ، وهى من الصلايات الكاملة النادرة ، وقد وجدت فى معبد نخن [٢] . واشتركت نقوش وجهها وظهرها فى مناظر معينة واختلفت فى مناظر أخرى . فظهر على الجزء العلوى لكل منهما اسم نعرمر داخل إطار مستطيل يرمز إلى واجهة قصره ، ويسمى عادة باسمه المصرى القديم «سرخ» . وظهر على جانبى الاسم (على الوجهين) رأسان للمعبودة حتحور مثلاها بوجه سيدة مليحة وقرنى البقرة وأذنيها . وكانت من المرات الأولى التى صور المصريون فيها رباتهم بصورة تجمع بين البشرية والحيوانية فى وضوح .

واختلف وجه الصلاية وظهرها فى بقية المناظر ، ولكن مهدت مناظر أولهما لمناظر الآخر . فتصدرت نقوش الوجه صورة نعرمر فى قوام فارع وحجم كبير يزيد عن أحجام المصورين حوله ، تأكيداً لجلاله وعظم قدره . وأظهرته بتاج الصعيد ،

(١) *Heirakonpolis*, I, pl. XV, 7.

(٢) *Ibid.*, 10, pl. XXIX; B. Trigger, The Narmer Palette..., *Festschrift E. Edel*, 409-419.

يأخذ بناصية زعيم خصومه ، ويهم بضربه بمقمعته . وواجه الملك صقر عظيم يرمز إلى المعبود حور آخذاً فى كفه البشرية اليمنى بخطام رأس كبيرة تخرج من أرض تنمو فيها سيقان البردى وترمز فيما هو مأخوذ به حتى الآن إلى أرض الوجه البحرى، كأنه يقدمها إليه ويسلس قيادها من أجله ويتم بها وحدة ملكه . وظهر أسفل الملك قتيلان سجل الفنان مع كل منهما اسم مدينته ، وظهر خلف الملك رجل من رجال حاشيته يتقلد بقلادة عريضة ، ويحمل له نعليه وقدراً تحوى ماء الغسيل أو التطهير .

ووفق الفنان توفيقاً كبيراً فى إظهار تفاصيل صوره ، لاسيما وجه حتحور اللطيف وشفتيها الممتلئتين البضتين وأذنيها ذواتى التفاصيل الدقيقة ، وريش الصقر المهيب ، وعضلات ساعدى الملك وساقيه ، وعظام ركبتيه ، وتفاصيل ردائه وهو رداء قصير يغطى كتفاً واحدة ويصل إلى ماقبل الركبة ، مشدوداً إلى وسطه بحزام عريض مرقش تتدلى منه حليات على هيئة رؤوس حتحور - بأهداب كتانية طويلة - ويتدلى من خلفه ذيل طويل . وتمتاز كفاية الفنان فى هذه الصور كثيراً عن الكفايات المحدودة التى سبقت عهده .

وأكملت نقوش ظهر الصلاية قصة الملك مع الوجه البحرى ، فصورته متوجاً بتاج الدلتا ، يسير فى موكبه بمقمعته ومذبته إشارة إلى اجتماع روح الحرب وروح السلام فيه ، ويتقدمه أحد عظماء بلاطه . وسار أمامه أربعة من حملة الألوية فى جيشه . وسار فى معيته ومن خلفه حامل نعليه بقدره . وقد خرج الملك حافياً على الرغم من تاجه وصولجانه إشارة إلى قداسة الحفل الذى يقصده . وعبر الفنان قبالة الموكب عن غايته التى كان يقصدها بصورة صغيرة قد ترمز إلى رحلة الملك بقاربه إلى مدينة «به» ، وسجل صوراً أخرى غريبة تمثل عشرة أشخاص موثقين بالحبال قطعت رؤوسهم ، ووضعت رأس كل منهم بين رجليه ، ويبدو أنه رمز بها إلى مناسبة الزيارة ، وهى الاحتفال بذكرى نصر قديم انتصر الملك أو أحد أسلافه فيه على عشرة زعماء أو أحلاف من مناهضيه .

واستغل الفنان وسط الصلاية لتنفيذ تصميم استحبه أسلافه ، وهو تصوير حيوانين خرافيين تتعانق عنقاهما حول بؤرة الصلاية المستديرة وتتلاقى رأساهما فوقها . ونفذ تصميمه بيد متمكنة مجربة ، وأظهر كل حيوان بجسم أسد (؟) وعنق تشبه عنق الثعبان ورأس فهد ، وأظهرهما ممتلئين قويين يرفعان ذيليهما فى غضبة

غليظ ليبعده عن مقاتلة الآخر ، مما يرمز فى الغالب إلى ماكان من مصادمة جماعتين قويتين ومحاولة كبح جماحها على أيدى رجال العهد الجديد .

وفى أسفل الصلاية ، نقش الفنان هيئة فحل شديد يهدم بقرنيه سور مدينة محصنة ، ويطؤ بحافره ذراع زعيمها الذى تمدد مستسلماً على الأرض . وقد رمز الفحل إلى الملك ، ولم يكن فى تصويره على هيئة الفحل شيء جديد ، ولكن الجديد هنا هو تقليل وحشيته فى الفتك بعدوه وتصويره على شيء من الهدوء ، وكأنه يبتغى السيطرة على أهل المدينة التى فتحها دون الفتك بهم ، وكان ذلك فيما يبدو رمزاً لآخر أدوار الكفاح المسلح ؛ من أجل تحقيق السلام والوحدة السياسية الكاملة المستقرة التى بدأت بها العصور التاريخية (١) .

(١) Cf. M.A. Hoffman, *Egypt before the Pharaohs*, 1979; L.Krzyzniak, Trends. in the Socio-Economic Development of Egyptian Predynastic Societies in *Acts 1st. ICE*. 1979. 407-412.

الفصل الرابع

بداية العصور التاريخية المصرية

(أو عصر بداية الأسرات الملكية - منذ أواخر الألف الرابع ق.م.)

تبدأ العصور التاريخية لكل شعب قديم ببداية اهتداء أهله إلى تخطيط أشكال اصطلاحية متعارف عليها يتفاهمون بها بالكتابة ويستخدمونها فى تسجيل أخبار حوادثهم الرئيسية وتدوين بعض معارفهم الدنيوية وعقائدهم الدينية ولو بطريق الإيجاز ، عوضاً عن الاكتفاء بتداولها عن طريق الرواية أو الاكتفاء بالتلميح إليها عن طريق الرسم والرمز إليها عن طريق الأساطير . أو هى تبدأ بمعنى آخر ببداية العصر الذى يكتب أهله خلاله تاريخهم بأنفسهم ويصفون فيه أعمالهم لجيلهم وللأجيال التى تليهم . وتقترن هذه البداية عادة بأحد اعتبارين آخرين أو بكليهما ، وهما بداية اصطباغ حضارة شعبها بصبغة قومية متجانسة ، ثم بداية ائتلاف بلدها فى وحدة أو حدات سياسية كبيرة مستقرة تهتم بالكتابة وتسجل بها شئونها كما تنظم أمورها الحكم والإدارة وترسيها على أسس مسجلة صريحة . وبناء على هذه الاعتبارات الثلاثة ، وبناء على الاعتبار الأول منها بخاصة ، أصبحت بداية العصور التاريخية لكل شعب قديم بداية اعتبارية محضة تخصه ، وقد يختلف زمنها فيه عن زمنها لدى غيره من الشعوب . وعن طريقها تميزت مصر عن بقية الشعوب المعاصرة لها بقدم تاريخها المكتوب ووفرته (١) .

---

(١) يذكر على سبيل المثال أن بلاد النهرين بدأت الكتابة التصويرية فى أوائل الألف الثالث ق.م. ثم طورتها إلى الكتابة المسمارية بعد عهود قليلة . وبدأ أهل كريت كتابتهم التصويرية فى أوائل الألف الثانى ق.م. ثم بدأوا كتابتهم الخطية فى القرن السادس عشر ق.م أو قبله بقليل . وعرف أهل ميكيناى فى شبه الجزيرة الإغريقية الكتابة فى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر ق.م. وكتب أهل إيبلا أو جاريت فى الشام بحروف هجائية وخط مسمارى منذ القرنين العشرين والخامس عشر ق.م. على التوالى . وكتب أهل جبيل الفينيقيون نصوصهم بالحروف الهجائية منذ القرن الحادى عشر أو العاشر ق.م. وربما بدأت مرحلة الكتابة فى اليمن فى الوقت نفسه أو بعده بقليل . واستعاد الإغريق كتابتهم واستخدموا فيها الحروف الهجائية منذ القرن التاسع ق.م. على وجه التقريب . ويمكن أن نضيف على سبيل المقارنة بين قدم حضارة الشرق عن الغرب ، أن بداية عصور الكتابة فى الجزر البريطانية تأخرت حتى القرن الأول الميلادى وهو القرن الذى أدخل الرومان خلاله حروفهم اللاتينية إليها .



تطور الكتابة وتوابعها :

توافرت الاعتبارات الثلاثة السابقة لدى المصريين منذ أواخر الألف الرابع ق.م ، وكانوا قد بشروا بمقدمات الكتابة منذ أواخر فجر تاريخهم القديم ، وبدأوها فيما يحتمل بطريقتين : طريقة تخطيطية لم يقدر لها الشيوع وإن لم تختف تماماً (وتراجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) ، وأخرى تصورية أو تصويرية استمروا عليها ، وكانت طريقة تعبر عن الشيء بصورته التقريبية أو الاصطلاحية ، وتصلح للتعبير عن الماديات (أكثر من المعنويات) كالتعبير عن الشمس مثلاً بدائرة تتوسطها نقطة تعبر عن مركز الحرارة فيها . والتعبير عن نبات أو حيوان أو طائر أو عضو من الجسم أو شيء مصنوع بما يقترب من هيئته أو شكله . وعلى الرغم من اقتراب هذه الطريقة من واقع الأشياء التى تمثلها ، إلا أنه لم يكن من شأنها أن تعبر بسهولة عن معنويات الخير والحب والفضيلة والعدالة مثلاً (فيما خلا حالات معنوية قليلة عبرت فيها صورة الذراع عن القوة ، وصورة الساقين عن الحركة ، وصورة الأذن عن السمع ، والعين عن الرؤية ، ووضع اليد على الفم للتعبير عن معنى الكلام أو الطعام ، والتعبير عن الدعاء برفع اليدين ، وهلم جرا) . وكان لابد من ابتداع أسلوب كتابى جديد تحقق باستخدام علامات اصطلاحية وتصورية أيضاً تؤدى غرض المقاطع الصوتية ، أى تعبر كل علامة منها عن مقطع صوتي ذى حرفين أو ثلاثة حروف ، يمكن استخدامه فى التعبير عن الأوصاف والمعنويات حين يشترك مع كلمة معنوية تماثله فى النطق . ثم إضافة رمز أو مخصص يحدد المعنى المقصود من كل لفظ فى سياق الكتابة . واستمروا يزيدون أعداد هذه وتلك وأنواعها . ثم أضافوا إليها حروفاً هجائية يدل كل شكل منها على حرف واحد هو الأول من اسمه ، وقد بلغت عدتها عند اكتمالها أربعة وعشرين حرفاً ، وكان ابتداعهم لها هو الخطوة الحاسمة فى اكتمال كتابتهم وتميزها عن غيرها ، وتصادف أن بدأت معها عصور وحدتهم السياسية التاريخية . وقد اصطلحوا على الكتابة منذ ذلك الحين بخطين ، دفعتهم روح المحافظة على أن يجمعوا فيهما بين صور الأشياء والمقاطع الصوتية والحروف الهجائية والرموز التخصيصية فى آن واحد . وظل أول الخطين يغلب عليه طابع التصوير المتقن وروح الزخرف ، وقد نقشوا به نصوصهم على سطوح اللوحات الحجرية وما يصلح للنقش عليه من الخشب والأبنوس والعاج والمعادن ، وعلى جدران المعابد والمقابر والتوابيت ، كما دونوا به بعض النصوص الدينية على صفحات البردى . ونشأ الخط الثانى سريع

الأداء يعتمد على الصورة المختصرة التى تطور بعضها مع الزمن إلى أشكال شبه خطية ، سجلوا به الشئون الحكومية والرسائل والآداب والعقود الشخصية وبقية شئون الحياة اليومية ، ولم يزد الفارق بين الخطين كثيراً عن الفارق الحالى بين خطوط اللافتات والعناوين وبين خط الرقعة اليدوى السريع . وقد عبر المصريون عن الخطين بكلمة «سش» بمعنى الكتابة ، وإن ميزوا أولهما فأدمجوه فيما أطلقوا عليها تعبير «مدونثر» بمعنى أقوال الرب أو الأقوال المقدسة ، إشارة إلى قداسة أصله وإكباراً لأصحاب الفضل الأول فى اختراعه . وعندما وفد الإغريق إلى مصر أطلقوا على الخط الأول اسم الخط الهيروغليفى بمعنى الخط المقدس ، وأطلقوا على الخط الثانى اسم الخط الهيراطى [1] بمعنى الخط الكهنوتى (فضلاً عن خط ثالث استحدثه المصريون فى أواخر عصورهم الفرعونية خلال القرن الثامن أو السابع ق.م وجعلوه أكثر إيجازاً فى تخطيطاته وصوره من خطهم الثانى ، وأطلق الإغريق عليه اسم الخط الديموطى بمعنى الخط العام أو كتابة الجمهور . وأصبحت هذه المسميات الإغريقية لخطوط الكتابة المصرية هى الشائعة بين الباحثين ، ثم خط رابع استخدمه المصريون بعد اعتناقهم المسيحية ، واستعاروا أغلب أشكال حروفه من صور الحروف اليونانية ، وهو الخط القبطى .

وجعلوه أكثر إيجازاً فى تخطيطاته وصوره من خطهم الثانى ، وأطلق الإغريق عليه اسم الخط الديموطى بمعنى الخط العام أو كتابة الجمهور . وأصبحت هذه المسميات الإغريقية لخطوط الكتابة المصرية هى الشائعة بين الباحثين . ثم خط رابع استخدمه المصريون بعد اعتناقهم المسيحية ، واستعاروا أغلب أشكال حروفه من صور الحروف اليونانية ، وهو الخط القبطى .

والواقع أنه مهما يبدو للعين المعاصرة من غرابة صور الكتابة المصرية القديمة التى بدأها المصريون منذ نيف وخمسة آلاف عام وسبقوا بها بقية أمم العالم المتحضر القديم ، فإن هذه الغرابة تقل إذا قدرنا أن الحروف التى نكتبها اليوم ، عربية كانت أم لاتينية ، ليست غير تطورات أخيرة لصور قديمة عرف علماء اللغات بعضها وعزت

---

(١) يبدو أن تعريب كلمتى Hieratic and Demotic بكلمتى هيراطى وديموطى ، أصح من تعريبهما الشائع بكلمتى هيراطيقى وديموطيقى ، حيث تكفى ياء النسبة العربية للتعبير عن مقطع النسبة ic أو tic فى التسمية الإغريقية أو الأوروبية . وهو ماجرى العرف على أتباعه فعلاً فى تسمية قبطى المرادفة لكلمة Coptic وليس قبطيقى بطبيعة الحال .

عليهم معرفة أصول بعضها الآخر ، وحسبنا منها هيئة حرف F أو حرف Z مثلاً فى الكتابة الأفرنجية السريعة ، وشكل الحرف الأول من الأبجدية العربية الذى هو عبارة عن لفظ من ثلاثة حروف أو أربعة وهى «ألف» أو «أليف» ، وكان يرمز بصورته الأولى إلى رأس ثور ، والباء حرفها الثانى الذى رمزت صورته الأولى إلى هيئة بيت، وحرف الجيم حرفها الثالث الذى لم يكن شكله غير اختصار لهيئة رأس الجمل ... وهلم جرا .

واهتدى المصريون المبدعون من أهل الفترات الأخيرة للألف الرابع ق.م. إلى جانب علامات الكتابة وحروفها إلى تصوير رموز مفردة مبسطة عبروا بها عن العشرات الحسابية ومضاعفاتها أى المائة والألف وعشرة الآلاف ومائة الألف وألف الألف (أو المليون) (١) . وأفضى استخدامهم لها إلى سهولة ضرب وقسمة العشرات ومضاعفاتها ، وسهولة تسجيل المجاميع العددية الكبيرة فى وحدة مرتبة متصلة تستطيع العين أن تلم بها فى نظرة واحدة . واقترن التطور الفكرى لابتداع الكتابة والعلامات الحسابية ، بتطور صناعى لصناعة صفحات البردى البيضاء من لحاء نبات البردى ، واستخدام المداد وأقلام (أو فرش) البوص الرفيع للكتابة عليها وعلى لخاف الأحجار وكسر الفخار ، فضلاً عن نقش النصوص التقليدية على اللوحات أو النصب والجدران الحجرية وعلى بطاقات ولوحات الخشب والأبنوس والعاج وبعض المصنوعات المعدنية . وأفضى ذلك كله إلى تيسير تناقل معارفهم من جيل إلى جيل ، وإلى تنظيم أعمالهم الحكومية وحفظ معاملاتهم الشخصية ، وتيسير تصميم مشروعاتهم المعمارية .

سياسة الحكم والإدارة :

توافرت لمصر معرفة الكتابة ، فى الوقت نفسه الذى توافر لها فيه الاعتباران الآخران اللذان أسلفناهما ، وهما تجانس الحضارة ووحدة الحكم والسياسة فى الدولة ، خلال القرن الثانى والثلاثين ق.م أو نحوه ، وبدأ فيها منذ ذلك الحين عصر جديد سمى بعدة أسماء اصطلاحية ، وهى : اسم عصر «بداية العصور التاريخية» ، على

(١) K. Sethe, *Von Zahlen und Zahlworten bei den Aegyptern...*, 1916; K. Vogel, *Die Grundlagen der aegyptischen Arithmetik*, 1929 ; O. Neugebauer, *Arithmetik und Rechentechnik der Aegypter*, 1931; *etc...*

أساس وجود المصادر والنصوص والمخطوطات التاريخية الخطية بين آثاره نتيجة لبداية شيوع الكتابة فيه ، وبداية استقرار الوحدة السياسية والنظم الإدارية في أيامه كأساس لما أتى بعدها . واسم «عصر بداية الأسرات» على اعتبار أنه أول عصر يمكن تأكيد استقرار وراثة عرش مصر منذ أيامه بين أسرات حاكمة ارتبط ملوكها بعضهم ببعض بروابط الأبوة والبنوة والقرابة . ثم اسم «العصر العتيق» إشارة إلى قدمه البعيد وسبقه لعصور الدولة القديمة . واسم «العصر الثني» نسبة إلى مدينة ثني ، التي يبدو أنها كانت مسقط رأس أوائل ملوكه وأكبر عواصم ملكهم المتحد في الصعيد بعد مدينة نخن، وقبل تركز حكمهم الأعلى في مدينة إنب حج وهي منف .

ويعتبر عصر بداية الأسرات عصر تكوين لنظم الإدارة المصرية . ويعني التكوين هنا معنيين : أحدهما أن العصر كان محدود المطالب والوسائل بالنسبة إلى العصور التي تلته ، ولهذا اكتفى بما ناسب دنياه الخاصة من التنظيمات ، التي قامت بعدها وتطورت عنها في عصور الدولة القديمة .

وتضمن العصر عهود الأسرتين الحاكمتين الأوليين من أسرات مصر الفرعونية . وارتبط تأسيس حكم الأسرة الأولى منهما بثلاثة أسماء ملكية ، وهي أسماء: نعرمر وعحا ومني . وقد دارت حولها مناقشات تاريخية حديثة نتجاوز عن تفاصيلها ونكتفي هنا عنها بما انتهينا إليه بشأنها في كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها ، وهو احتمال دلالة الأسماء الثلاثة على ملك واحد بدأ حكمه باسم نعرمر (وهو أصح من تسمية نارمر الشائعة - وقام بما صورته نقوشه المنوه عنها) ، ثم تلقب بلقب عحا أي المحارب اعتزازاً بجهوده الحربية في توطيد ملكه ، وكما تلقب أخيراً بلقب مني (وهو أصح من اسم مينا الشائع) بمعنى المثبت أو الراعي أو الخالد ، تنويهاً بنجاحه في تثبيت ملكه ورعايته له وخلود اسمه فيه . ثم تتابع بعده ستة ملوك من أسرته عرفوا بأسماء : جر ، وواجي ، ودن ، وعنجاب ، وسمرخت ، وقاي عا ، مع مترادفات كثيرة لألقابهم لاتزال هي الأخرى موضعاً للجدل اللغوي والجدل التاريخية حتى الآن .

وتعاقب بعد هؤلاء ملوك الأسرة الملكية الثانية ، وكانوا ثمانية ملوك على أقل تقدير إن لم يكن أكثر ، اشتهروا على الترتيب بأسماء : حوتب سخموي ، ونبي رع ، وني نثر ، وبر إيسن ، وونج ، وسنج ، وخع سخم ، وخع سخموي . وكان لكل اسم

تعبيره الذى يدل به على شخصية صاحبه وعلى روح عصره [1] .

وسلك أوائل أولئك الملوك سياسة حكيمة فى توثيق الروابط بين الصعيد والدلتا بعد اتحادهما ، عن طريق المصاهرة وحسن السياسة وازدواج الألقاب والاشتراك فى عبادة الأرباب . فتزوج أولهم «نعرمر» بإحدى سليلات البيت الحاكم القديم فى الدلتا ، وهى نيت حوتب ، وتزوج رابعهم دن بأميرة أخرى من الدلتا تدعى مريت نيت . وتمتعت كل من الملكتين بمكانة طيبة دلت عليها الآثار الباقية باسميهما من عهديهما، وربما تكرر الأمر نفسه بالنسبة لملوك آخرين وزوجاتهم . وسمح الملوك للوجه البحرى بشخصية متميزة فى إدارته تحت ظل التاجين ، فخصصوا له بيت مال وحامل أختام وأهراء غلال ودور وثائق ...، جنباً إلى جنب مع بيت مال وأختام وشون ودور ثائق الصعيد . وانتسبوا إلى ربته الحامية «واجة» وإلى شعاره شعار النحلة «بيت» جنباً إلى جنب مع انتسابهم إلى ربة الصعيد «نخابة» وشعاره «سو» . وشغف أغلبهم بإقامة الأعياد الدينية الملكية والتقليدية ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من مؤسسى الدول الجديدة ، غبة فى إستغلال مناسباتها لاكتساب الشهرة وتجميع الخواص حولهم وتذكير الناس بهم ، مع إظهار تقواهم وكرمهم خلال إحتفالهم بها ؛ فرددت حولياتهم احتفاءهم بأعياد آلهة كثيرة مثلت أغلب مناطق دولتهم ، ورمزت إلى أهم وجوه النشاط فى عصرهم . وكانت أهم أعيادهم الخاصة أعياد ارتقاء العرش وأعياد التجلى كل عامين [2] ، وأعياد ذكرى توحيد الوجهين . ثم عيد السد أو «حب سد» على حد تعبير المصريين القدامى ، ربما بمعنى عيد النهاية ، وكان من المفروض أن يحتفل الملك به بعد ثلاثين عاماً من بداية حكمه أو من بداية اختياره لولاية العهد [3] ، ويقيم فيه مراسم وطقوساً يشكر أربابه بها على ما وهبوه من امتداد العمر وطول الحكم ، ويعتقد هو أو يعتقد رعاياه أنه يستطيع عن طريق هذه الطقوس والمراسم أن يجدد

---

(١) راجع مناقشتنا لها فى : حضارة مصر القديمة وآثارها - جـ١ - ص٢٥١-٢٥٨ . ويغير حرف الجيم فى أسماء ملوك الأسرتين إلى جيم معطشة نظراً لعدم توافره فى حروف الطباعة .

H.R. Kaplan, The Problem of the Dynastic Position of Meryet - Nit, JNES, (..؟..) 38, 1979, 23-37.

(٢) Palermo. rt. II, 9, III. 3, Iv, 5, 9; Urk.. I, 239 ; Breasted, *Ancient Records*, I, 99, 105, 114. 116. 119, 121, etc.

(٣) K. Sethe, *Untersuchungen*, I, 10, *ZAeS*, XXXVI, 64.

بأسه ويستزيد القدرة على مواصلة الحكم . وجرت العادة على أن يتحين الملك مناسبة هذا العيد ويقيم لأربابه معابد وهياكل جديدة ، ويقدم لهم تماثيل وهبات عساهم يحققوا أمله ويؤيدوا حكمه . ولم يكن الملوك يلتزمون بفترة الثلاثين عاماً دائماً ، وإنما كانوا يتحينون لإقامة هذا العيد فرصة كل نصر عظيم ، أو خلاص من شدة خطيرة ، وربما أعادوه أكثر من مرة طالما توافر لهم إمتداد الحكم وسعة الإمكانيات .

لقب الفرعون : كان الملك المصرى أو الفرعون المصرى كما اشتهر بذلك فيما بعد ، هو رأس الدولة بعامة ، له الرئاسة العليا فى شئون التشريع والحكم والإدارة والجيش والدين ، وعادة ماتنسب سلطاته العليا هذه إلى قصره المسمى «برعو» أو «برنيسو» . وصورت النصوص القديمة سلطانه مطلقاً بما يزيد كثيراً عما عبر به بعد آلاف السنين ملك فرنسا لويس الرابع عشر فى عهد «الملكية المقدسة» بمثل قوله «أنا الدولة والدولة أنا» . على أنه ليس من الضرورى أن تؤدى هذه السلطة المطلقة للملك المصرى الملقب بالفرعون إلى الإسراف فى الربط بينها وبين ربوبية لازمة أو سلطة غاشمة كما يتردد أحياناً . فلفظ «فرعون» لم يكن فى بدايته أكثر من تعريف إصطلاحى إدارى ، كتب فى صيغته المصرية «برعو» بمعنى البيت العالى أو القصر العظيم ، قصر الحكم الأعلى الذى يتجه الشعب إليه بمشاعر التعظيم والأمل والولاء والرهبة . ثم امتد مدلول لفظ «برعو» على القصر والملك ساكنه الذى يعتلى عرشه المقدس . وقد يفهم بعض هذا بمقارنته بما شاع فى العصر العثمانى مثلاً بعد عشرات القرون ، من التعبير بلفظ «الباب العالى» عن قصر السلطنة وبالتالى عن السلطان نفسه (مع تقدير معنى «باب» فى اللغتين الفارسية والتركية) ، بل ومقارنته بما تذكره لغة الصحافة الحديثة عن سياسة «البيت الأبيض» فى الولايات المتحدة مثلاً ، وتعنى بها سياسة رئيس الدولة فيها وجهازه الأعلى فى قصره . وأخيراً شاع لفظ «فرعون» مع الاسم الشخصى لكل ملك مصرى منذ أواسط الألف الثانى ق.م. (كما شاع فيما بعد ذلك بقرون طويلة لقب «قيصر» على كل حاكم أعلى للرومان والبيزنطيين ، وشاع لقب كسرى بين العرب على كل ملك فارسي ، ولقب «نجاشي» لكل ملك حبشي) . وحرفت النصوص العبرية لفظ «برعو» إلى «فرعو» (نظراً لاختلاط نطق الباء مع الفاء فى اللغات القديمة) ، ثم أضافت اللغة العربية إليه نونه الأخيرة . وهكذا لم يكن لفظ فرعون (وجمعه فراعنة) يدل على جنس أو على طغيان الحكم ، كما يشيع خطأ أحياناً، وإذا وصف القرآن الكريم والتوراة الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام

بالتجبر والطغيان وادعاء الربوبية ، فلا جدال في وجوب التسليم بكل ماوصف به ، ولكن ليس علينا أن نعمم صفاته هذه على كل الفراعنة ، لاسيما وأن القرآن الكريم لم يأب أن يصف عزيز مصر وملكها اللذين آويا يوسف عليه السلام بعد أن ردا عليه اعتباره ، بأوصاف طيبة . بل وروت التوراة أن إبراهيم عليه السلام قصد مصر ليمتار منها بعد أن عم القحط في أرضه ، وبعد أن حدث بينه وبين فرعون مصر شيء من سوء الظن ، أكرمه الفرعون ومنحه عطايا كثيرة . وما من شك في أن الحكام في كل مجتمع وكل زمان ، وأياً ما كانت ألقابهم ، يتعاقب منهم العادل والظالم، والصالح والطالح . وأخيراً وعلى الرغم من أن تسمية «الفراعنة» بمفهومها العلمي لاضير فيها ، وأن الفراعنة قد مثلوا جزءاً من صميم الشعب المصرى فعلاً ، إلا أنه لم يكن من المنطق تعميم هذه التسمية على المصريين القدامى جميعهم . فمن المسلم به أن تسمية «القياصرة» مثلاً لم تطلق على الرومان والروم كلهم ، وإنما على ملوكهم «الأكاسرة» على الفرس كلهم ، ولم يطلق لقب «نجاشي» على الأحباش كلهم ، وإنما على ملوكهم . وهكذا كان الأمر بالنسبة لقدامى المصريين وملوكهم الملقبين بالفراعنة .

وتلقب كل ملك بعدة ألقاب ومسميات عقد الصلة بها بين شخصه وبين مقدسات وطنه ، لتأكيد شرعية سلطانه الديني والدنيوى . واستقر من هذه الألقاب والتسميات خلال عصر بداية الأسرات ، ثلاثة قد يختارها الملك أو أعوانه على صورة واحدة أو يجعل كل واحد منها مختلفاً عن الآخر[1] ، وهي : **الاسم الحورى** : وكان يؤكد صلة الملك بالمعبود حور ويجعله وريثاً له ، يحكم باسمه ويتجسد شخصيته ، **والاسم النبتي** ، وكان يؤكد صلة الملك بالربتين الحاميتين القديمتين ، نخابة حامية الصعيد التى رمز إليها بأنثى العقاب ، وواجة حامية الوجه البحرى التى رمز إليها بحية ناهضة . ثم **الاسم النسوبيتى** ، وكان يؤكد صلة الملك بالشعارين المقدسين القديمين ، «سو» شعار مملكة الصعيد القديمة ، و «بيت» شعار مملكة الدلتا القديمة ، ويؤكد بالتالى اعتباره الوارث الشرعي لكل من هاتين المملكتين القديمتين صاحبتي

(١) *See*, A. Moret, *Du Caractére religieux de la royalité pharaonique*, Paris, 1912; A.H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, 71-76, H. Müller, *Die Formale Entwicklung der Titulatur der aegypytischen koenige*, 1938. H. Fischer, *JEA*, 1974, 94; E. Baumgartel, *ibid.*, 1975, 28-32; A. Foder, *ibid.*, 1975, 238-240.

الشعارين مع اندماجهما فى دولة واحدة . وأدى تعدد أسماء الملوك وألقابهم إلى صعوبة تعيين تتابعهم وصعوبة التثبت من شخصياتهم عن يقين ، فقد تحتفظ قائمة من قوائم الملوك الحورية وحدها ، وتذكرهم قائمة أخرى بأسمائهم النبتية وحدها ، بينما تهتم الآثار القائمة بذكر أسمائهم النسوبيتية أكثر من غيرها (١) وتشتد هذه الصعوبة فى عصر بداية الأسرات بالذات ، نظراً لقدمه البعيد وقلة الآثار المتبقية من أيامه ، فضلاً عن إيجاز نصوصه .

واعتمد الإسراف الإدارى الفعلى منذ هذا العصر على بضع طوائف من كبار الموظفين تداخلت اختصاصاتهم بعضها مع بعض ، واعتاد أفرادها أن يجمعوا بين أكثر من لقب واحد من ألقابها ، وكان منهم تبعاً لأهم ألقابهم التى سجلوها على بطاقاتهم الصغيرة وعلى أختامهم ومختومات مقابرهم : حملة الأختام ، ورجال بيت المال ، وحكام الأقاليم ، وكبار رجال البلاط ، ورؤساء الكتاب (٢) .

وعرف العصر بيتين للمال سمي أحدهما برحج بمعنى بيت الفضة أو البيت الأبيض أو بيت المال الأبيض (مع تقدير أن المال بمعنى النقود لم يكن معروفاً بعد) ، واختص بضرائب الصعيد ودخله وخرجه . وسمى الآخر بردشر أى البيت الأحمر ، واختص بضرائب الوجه البحرى ودخله وخرجه . ووجود بيتين للمال فى ذلك العصر يمكن أن يفسر بأحد فروض ثلاثة وهى : الرغبة فى تيسير الإشراف على موارد البلاد الواسعة بتوزيع مسئولية هذا الإشراف على إدارتين كبيرتين ، تختص إحداهما بموارد الصعيد وتختص الأخرى بموارد الوجه البحرى . أو مايحتمل من أن ملوك العصر الأوائل حرصوا على أن يحتفظوا للوجه البحرى بشخصية اسمية ترضى أهله وتنسيهم أنهم ذابوا فى وحدة البلاد الكبيرة ، ولهذا أفردوا لهم بيت مال خاص نسبوه إلى اللون الأحمر (رمزاً فيما يحتمل إلى لون تاجهم القديم) . أو أن البيتين كان لهما وجودهما المستقل فعلاً قبل توحيد البلاد فى بداية عصر الأسرة الأولى ، فأبقى الملوك عليهما

(١) *See*, K. Sethe, *ZAeS*, XXXV, 1 f.

(٢) *See*, Petrie, *Royal Tombs*, I, II; R. Weill, *Les IIet IIIe dynasties egyptiennes*, Paris, 1908; W.B. Emery, *Great Tombs of the First Dynasty*, Cairo, 1949 f. ; with Zaki Saad, *The Tomb of Hemaka*, Cairo, 1938 : *Hor-Aha*, Cairo, 1939; and partly, J. Pirenne, *Histoire des Institutions et du droit privé de l'anc. Egypte* I, Bruxelles, 1932.

مراعاة للتقاليد التى حتمت عليهم الاحتفاظ بالتاجين والانتساب إلى الربتين والشعارين . واعتمدت موارد بيتى المال على تحصيل الضرائب العينية من محاصيل الأرض وإنتاج المصانع ونتاج الماشية وجلودها ومحصول المصايد ، فضلاً عما كانت الحكومة تستثمره بواسطة رجالها من المحاجر ومناجم النحاس والذهب ، وماتتولى أمره من المتاجر الخارجية أو تعود به جيوشها من الأسلاب والمغانم . ثم يتولى البيتان الإنفاق من هذه الموارد على مشروعات الدولة ومشروعات الملك ومرتبات الموظفين العينية ، بناء على توجيهات القصر الملكى لكبار موظفيه بطبيعة الحال .

وقام حكام الأقاليم بدورهم فى تنفيذ سياسة حكومتهم المركزية ومشروعاتها ، وحمل كل منهم لقب «عج مر» ، ربما يعنى معنى القائم على حفر الترع ليؤكد أن إشراف الحكام على شئون الرى والزراعة من أهم ما يتكفلون به ويسألون عنه من عمان ولم يكن الإشراف على شئون الرى والزراعة من واجبات حكام الأقاليم وحدهم وإنما حرص الملوك أنفسهم على أن يجعلون من أولى مهام حكومهم المركزية .

وأشرف رجال البلاط الملكى على إحصاء عام كانوا يجرونه كل عامين ، ويخرجون فى السفن حين إجرائه ويتنقلون فى النيل من إقليم إلى إقليم فى موكب عبرت الحوليات عنه باسم موكب حور أو موكب مراكب حور [١] . وكان إحصاء لا زلنا على غير بينة من حقيقته ، فقد يكون إحصاء لمساحات الأراضى المنزرعة وموارد المناجم كما يفهم من نص فى حوليات حجر بالرمو ، أو إحصاء للسكان (وممتلكاتهم) كما يظن الأستاذ برستد ، أو إحصاء للماشية لتقدير نصيب الدولة منها ومن جلودها ، كما نصت على ذلك بعض نصوص الدولة القديمة فيما بعد .

وعنيت الحكومة المركزية برصد ارتفاع فيضان مياه النيل عاماً فعاماً ، لتتخذ الإجراءات المناسبة لمواجهة ارتفاعاته ، وتنظيم الانتفاع بمياهه ، وحتى تقدر الضرائب الزراعية العينية على أساس مدى انتفاع الأراضى الزراعية به . ويحتمل أن

(١) Palermo, rt., IV, 3, 5, 7, 9, 11, 13, 15, and see *R. T.*, I, XVII, 26, 29; *Unters.*, III, 46, f., 68. Palermo, V, 4, 5; J. H. Breasted, *Ancient Records*, I, 6, 106; Gardiner - Peet. *Sinai*, pl. VII, 13; *Urk.* I, 16, 55; *Rec. Tr.*, XXV, 73; Sethe, *Unters.*, III, 79 f.

عملية الرصد الرئيسية كانت تتم على أساس مقياس للنيل يجاور العاصمة منف (وربما فى حى الروضة أو حى مصر العتيقة حالياً ، أى حيث تعاقبت فيما بعد مقاييس النيل فى العصور الإسلامية) .

وعرف الكاتب المصرى القديم بلقب «سش» ، وكان لقباً يحمل فى طياته معنى المثقف ومعنى من يحسن الكتابة ، فضلا عن معنى الموظف . وكان للكتبة دورهم الرئيسى فى بيوت المال بما تستدعيه أعمالها من جباية وتسجيل وحساب وتوزيع ، وفى القصور الملكية لكتابة الأوامر والرسائل وتسجيل الدخل والخرج فيها ، وفى المعابد الكبرى وكذا فى الأسواق الرئيسية .

ولم يرد النشاط الداخلى إلى جهود الموظفين الإداريين وحدهم . وإنما كان للفنيين والمعماريين أثرهم فى أعمال الإنشاء والتعمير . وقد اتخذ المعماريون ربة راعية سميت «سشات» ، وكانت فى الوقت نفسه راعية للكتاب والحاسبين . وقيل عنها إنها كانت «أول من خط وحسب» . وتدل رعايتها للمعماريين والكتبة والحاسبين على حاجة المنشآت إلى مجهوداتهم جميعا وعلى مشاركة الأنثى للرجل فى الإبداع الحضارى .

وتضمنت نصوص العصر ألقاباً مدنية كثيرة أخرى حملها نظار القصور الملكية والسكرتاريون أو المطلعون على الأسرار على حد التعبير المصرى القديم ، والمشرفون على المزارع والحدائق الحكومية ، إلى جانب ألقاب ومراتب دينية كثيرة جعلت للكهنوت أهمية كبيرة تحت إشراف الدولة ورعاية الملكية .

واستمتع كبار الموظفين فى عصر بداية الأسرات بمكانة لا بأس بها إلى جانب ملوكهم . وكان أكبر لقب ظهر لهم فى نهاية هذا العصر هو لقب «تبى خرنيسو» أى الأول لدى الملك أو الأول بعد الملك . ونم عن ثرائهم ما تركوه من مقابر ضخمة لا زالت أطلالها باقية فى سقارة وغيرها . فاحتوت مقبرة «حماكا» أمين أختام الوجه البحرى فى عهد «دن» رابع ملوك الأسرة الأولى ، بسقارة ، على إثنتين وأربعين حجرة فوق سطح الأرض وتحتها ، وتضمنت من المحتويات ما دلت به على ثراء صاحبها ورفاهة أيامه [١] (وراجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) .

(١) W. Emery - Zaki Saad, *The Temb of Hemaka,* Cairo, 1938 .



رأينا كيف تمتع ملوك عصر بداية الأسرات بقداسة نظرية واسعة وسلطان سياسي عريض ، نمت عنهما ألقابهم وتمجيد كبار موظفيهم لهم . بيد أنه على الرغم من ذلك لكه لم تخل عهودهم من خصومات خفية ومنازعات صريحة بين المستحقين للعرش والطامعين فيه ، وربما لم تخل من اضطرابات حدودية أيضاً .

فقد شهدت أواخر أيام الأسرة الأولى خصومة أو أكثر من خصومة أسرية في عهود ملوكها الثلاثة الأواخر عنچإب وسمرخت وقاى عا . وكانت خصومة نم عنها أن رجال سمرخت أزالوا بإذنه أسماء سلفه عنچإب مما وصلت أيديهم إليه من آثاره وآثار أمه مريت نيت . ثم تعمد رجال قاى عا بدورهم أن يمحوا أسماء سلفه سمرخت من أغلب آثاره [١]. وليس من المستبعد أن الملوك الثلاثة كانوا إخوة من أمهات مختلفات ، أو كانوا ينتمون إلى فروع مختلفة من الأسرة الحاكمة إدعى كل فرع منها أحقيته في العرض دون غيره من الفروع .

ولم تهدأ المطامع على الحكم إلا ببداية عصر الأسرة الثانية التى تسمى أول ملوكها باسم يؤكد عودة الاستقرار والهدوء عهده ، وهو «حوتب سخموى» الذى يعنى «ضى القويان» أو «إستقر القويان» ، ويرمز إلى رضا الربين القويين حور وست بما انتهت إليه أحوال البلاد فى عهد صاحبه .

وافترض الباحثون فيى وإدوارد ماير ونيوبرى [٢] أن خصومة من نوع آخر حدثت فى النصف الأخير من عصر الأسرة الثانية ، وكانت فيما رأوا خصومة سياسية دينية تعصبية فى آن واحد ، شذ فيها الملك بر إبسن عن سنة أسلافه الذين اعتادوا على أن يصوروا الصقر رمز المعبود حور فوق أشكال واجهات القصور التى تضمنت أسماءهم ، وتخلى عن الانتساب إليه ، وتعصب للإله ست رب الصعيد القديم ، وسمح لرجاله بأن يصوروا ست هذا بتاج الصعيد وصولجانه وبهيئة شبه بشرية على أختامه . ويصوروا رمزه فوق صورة قصره عوضاً عن رمز حور ، وذلك مما يعنى فى اعتقاد أولئك الباحثين أنه أراد أن يؤكد للناس أنه وريث ست دون غيره وأنه لا يعترف بالفضل لمن سواه ، وأنه تخلى عن الانتساب إلى حور نتيجة لخصومة عنيفة بينه

---

(١) W. F. Petrie, *The Royal Tombs*, I, p. IV, 5; VI, 9 - 10.

(٢) R. Weill, *Rec. Tr.*, XXIX, 29 f; Ed. Meyer, *Geschichte*, 213; Newberr., *Anc Egypt*, 1922, 40 f.

وبين مناطق الدلتا التى تعصب أهلها لربهم القديم حور .

ولا تخلو هذه التخريجات من وجاهة ، ولكن نضيف إلى جانبها أننا استشهدنا فى كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها ، بآثار أخرى متفرقة ، يمكن إرجاعها إلى عهد بر إيسن نفسه قد توحي بأنه لم يكتف بأن ينتسب فى حياته إلى المعبود ست وحده ، وإنما انتسب كذلك فى أحد أسمائه إلى المعبود حور ، ولو لفترة ما من حكمه . ومجد إلى جانبهما إله الشمس أيضاً [1] باعتباره أحد من تولوا عرش البلاد المقدس القديم ، ولو أننا لانستطيع أن نقف بقضية بر إيسن عند هذا الحد ، فقد ظلت شبهاتها باقية بعد وفاته ، وأرخ رجال خليفته «خع سخم» لأحد أعوام جمه باسم عام الحرب وإخضاع الدلتا . وصوروا الربة نخابة حامية الصعيد تستقر بساقها اليسرى فوق دائرة تشبه الختم ، وتقبض بمخلبها الأيمن على نباتى الصعيد والدلتا متعانقين ، وتتقدم بهما إلى اسم الملك الذى حل فى المنظر محل صورته ونقش داخل سرخ وقف فوقه صقر يرمز إلى المعبود حور متوجاً بتاج الصعيد ، دلالة على سيطرته على الوجهين واجتماعهما تحت طاعته وطاعة ربته الحامية [2] . وصور أحد فنانى هذا الملك على قاعدتى تمثالين صغيرين له ، أعداداً من أسره وقتلاه ، وصور معهم نبات البردى الذى يرمز عادة إلى أراضى الدلتا .

وبالجمع بين أطراف هذه المشكلة فى عهدى كل من بر إيسن وخع سخم ، ظهر رأى جديد [3] يمكن أن نرتب من ناحيتنا الجوانب المقبولة منه بأنه حدث فى عهد الملك فى نثر السابق لعهد بر إيسن والذى حكم مابين عشرين وثلاثين عاماً وكان مصلحاً ، أن هاجمت بعض قبائل الصحراء الغربية أرض الدلتا واحتلوها عنوة ، وانفصلوا بها عن الصعيد . فلما أعقبه بر إيسن لم يحكم غير الصعيد ، ولكنه اعتزم

(١) Abydos, III, p. IX, 3; Petrie, "*History of Egypt*, 10 ed., 32-33 ; *ASAE*, XXVIII, pl. 2,3; Maspero, *Revue archeologique*, 1898, 307, *L.R.*, I, 24; G. Müller, *Die Formale Entiwicklung der Titulatur der aegyptischen Koenige*, 1938; M.B. Grdseloff, *ASAE*, XLIV, 295; Spiegel, *Das Werde-n der alt-aegyptischen Hoch-Kultur*, 216.

(٢) *Hierakonpolis*, I, pls. XXXVIII, XXXIX-XLI.

(٣) *See*, J. Spiegel, *op. cit.*, 216.



الكفاح وتسمى باسم «سخم إب» أى الجسور ، وتلقب بلقب يعنى معنى «الذى خرج للحق» أو معنى «انبعث النظام» ، واستمسك فى أغلب أحواله برب الصعيد ست باعتباره من أرباب الحرب (وربما استنصر معه من أرباب مصر الكبار الإلهين رع وحور) ، واحتفظ لنفسه بلقب نيسوبيتى ولقب نبتى ، أى ظل يحتفظ بانتسابه إلى شعار الدلتا وربتها إلى جانب شعار الصعيد وربته (١) . ولكنه لم ينته فى كفاحه إلى شيء ، فخلفه خع سخم واتخذ ثوب ممثل حور واستنصره ، ولم يجد بأساً فى أن يعترف بالأمر الواقع فى بداية حكمه ، فظهر فى تماثيله بتاج الصعيد وحده ، وصور رجاله المعبود حور متوجاً بتاج الصعيد تارة وبلقب حور السماء مرة أخرى (٢) . ثم هاجم أراضى الدلتا وقاتل قبائل البدو المسيطرين عليها قتالاً عنيفاً حتى انتصر عليهم فى نهاية عهده ، وعندما أراد رجاله أن يعبروا عن انتصاره عليهم أشاروا إلى الدلتا باعتبارها الأرض التى كان بدو الحدود الغربية يحتلونها وليس باعتبارها وطنهم الأصيل أو أرض الخصوم الفعليين .

وأخيراً أكد الملك خع سخموى آخر ملوك الأسرة الثانية إتمام وحدة البلاد فى عهده ، بأكثر من وسيلة ، فصور له رجاله المعبودين حور وست فوق أشكال واجهة القصر التى تضمنت اسمه ، دلالة على تآلفهما وتأكيداً لانتسابه إليهما . وتصرف الفنانون فى تصويرها عنده بأوضاع مختلفة ، فصوروهما متقابلين متقاربين يكاد كل منهما يقبل الآخر دلالة على المحبة بينهما ، وصوروهما على هيئة صقرين إشارة إلى أن صورة كل منهما يمكن أن تدل على صورة الآخر ، أو إشارة إلى اجتماع شمل حور الصعيد وحور الدلتا مرة أخرى . وسجل خع سخموى وحدة الربين والوجهين عن طريق اسمين من أسمائه ، وهما : «خع سخموى» الذى يمكن ترجمته بمعنى شع القويان أو تجلى القويان ، وقد يكون القويان هما الصعيد والدلتا أو معبوديهما ، والاسم الآخر اسم مركب يمكن ترجمته بمعنى «اطمأن السيدان به» ، والسيدان هنا هما حور وست ربا الصعيد والدلتا (٣) . غير أنه على الرغم من منطقية القرائن السابقة عن

(١) *Royal Tombs*, I, pls. IV, 7 ; XXII, 190; XXIX, 97.

(٢) *Hierakonpolis*, I, 48, pl. LVIII.

(٣) But cf. R. Weill, *Recherches..*, I, 318-319 : "Lever des Deux Sceptre", et "Dont l'essence est constituée par les deux Horus réunis"

أحداث النصف الثانى من عصر الأسرة الثانية ، فإننا لاننكر أن حقيقة الأوضاع فيه لازالت مشوبة بشيء من الغموض ، ولازالت تتطلب قرائن أثرية جديدة تجلو غموضها .

وعلى أية حال فإنما تنتهى من هذه المشكلات كلها إلى أن الملوك الأوائل الذين نسبتهم نصوصهم إلى الأرباب وصورت لهم قداسة واسعة ، لم تخل أيامهم مما يحدث عادة فى مختلف الشعوب ومختلف العصور من تنازع أسرى وشقاق داخلى ومتاعب قومية . لولا أن أيام ذلك التنازع وهذا الشقاق وتلك المتاعب كانت لحسن الحظ قصيرة وقليلة إذا قورنت بأمثالها فى حياة الشعوب القديمة الأخرى . وظلت أيام الاستقرار والسلام والوحدة هى الغالبة ، وبلغت البلاد فى ظلها بحكامها ومحكوميها مابلغته من الرقى النسبى فى الفكر والمادة ، والاتساع النسبى فى النشاط الداخلى والخارجى معاً .

فى العمران والفكر :

تركزت وجوه النشاط السياسى والدينى فى عصر بداية الأسرات ، فى ثلاث مدن كبيرة ، وهى نخن وثنى وإنب حج [1] . وسوف نكتفى هنا بالحديث عن «إنب حج» التى اشتهرت فيما بعد باسم «منف» ، وسوف نستخدم هذا الاسم الأخير للتعبير عنها فيما يلى نظراً لشيوعه .

كانت إنب حج أو «منف» ثالثة المدن الكبرى فى عصر بداية الأسرات من حيث الزمن ، ولكنها ظلت أوفرها مجداً وأبقاها شهرة . وتعددت الاحتمالات حول ترجمة اسمها الأول إنب حج ، فهو قد يعنى الجدار الأبيض ، أو الحصن الأبيض ، أو السور الأبيض ، أو الأسوار البيضاء ، ويمكن التعبير به عنها كمدينة بألفاظ شعرية ، مثل الحوراء [2] ، والحصن الأبلق ، ... إلخ . أما اسم منف فكان تحريفاً لاسم «مننفر» الذى جد على المدينة بعد هذا العصر بعدة قرون خلال عصر الأسرة السادسة ، وكان يخص هرم الملك ببى الأول القريب منها ، ويصفه بأنه الأثر الجميل أو الاستقرار الأخير، ثم أطلق فيما بعد على المدينة كلها .

---

(١) راجع للمؤلف عن هذه المدن الثلاثة حضارة مصر القديمة وآثارها ، ج١ ص٢٧٩ - ٢٨٧ وتغير جيم انب حج إلى جيم معطشة لعدم توافرها فى حروف الطباعة .

(٢) Papyrus Sallier, IV, vs. I, 1 f.

نشأت المدينة قرب منطقة ذات تاريخ حضارى قديم ، قامت فيها فى فجر التاريخ حضارات حلوان وطرة والمعادى إلى جنوب القاهرة الحالية . ووقعت غربى النيل وكانت تصلها مياه فيضانه ، وقامت لها ميناء نهرية لعلها كانت قرب محطة البدرشين ، وإن بعدت عنها أطلالها المتأخرة فى قرية ميت رهينة الحالية بنحو ثلاثة كيلو مترات . ودل على تحول أغلب النشاط الإدارى إلى منف منذ أوائل عصر بداية الأسرات ، ثلاث قرائن ، وهى : احتفال ملوك العصر ببعض أعيادهم الرسمية وأعياد أربابهم فيها ، وتأكيد نصوص المذهب المنفى فى خلق الوجود (انظر ص٩٣) أنها كانت مركزاً رئيسياً للفصل فى منازعات العرش والفصل فى قضايا الأرباب منذ الأزل القديم ، ثم وجود عدد كبير من المقابر الضخمة لكبار موظفى عصر بداية الأسرات فى جبانتها سقارة ، وقد أنشأوها بطبيعة الحال قرب مقر أعمالهم ، وامتازت عن هذه المقابر خمس أخرى تحتمل نسبتها إلى ثلاثة ملوك من الأسرة الأولى وملكين من الأسرة الثانية .

وليس من شك فى أن العامل الرئيسى فى اختيار موقع منف مركزاً للنشاط الحكومى فى عصر بداية الأسرات هو توسطها بين النهاية الشمالية للصعيد والنهاية الجنوبية للدلتا ، وسهولة الإشراف منها على شئون الوجه البحرى بخاصة . واستنتج الأستاذ كورت زيته مما ذكرته النصوص الدينية عنها ، ومما رواه المؤرخان هيرودوت وديودور بشأنها وسمعاه من المصريين الذين عاصروهما [١] ، أن أحد فروع النيل كان يطغى على منطقتها فيجعلها كالمستنقع الكبير ، ويجعل أرضها أشبه بالجزيرة الطافية أو الأرض الناهضة التى سميت «تاثنن» فى النصوص المصرية القديمة . فعمد أول ملوك العصر ، أو عمد مهندسوه وعماله بمعنى أصح ، إلى تحويل فرع النيل عنها ناحية الغرب (ويختلف هذا عما ذكره المؤرخان وبعض المؤلفين من أن مينا أول ملوك الأسرة الأولى قد حول مجرى النيل عن منف ؛ إذ إن تحويل مجرى النيل ليس بالأمر اليسير ويصعب تخيله لأهل ذلك العصر البعيد) . ثم شقوا قناة أخرى قربها ناحية الشمال ، وبذلك جفت منطقتها ، وتوفرت لها حماية طبيعية مناسبة ، فأصبح النيل يحميها من الشرق وفرعه يحميها من الغرب والقناة الجديدة تحميها من الشمال . ولم يكتف منشئو المدينة لها بالحماية الطبيعية وحدها ، وإنما

(١) Herodotus, II, 4, 99; Diodorus, I, 50 ; Sethe, *Unters*, III, 125.

سوروها بسور أو أسوار كبيرة أحاطتها من كل جانب فيما خلا ناحية الجنوب التى واجهت الصعيد ، فقد ظلت مفتوحة . ويمكن تعليل تحصينها حينذاك بأحد غرضين ، فهو قد يكون مجرد إجراء عادى لتعيين حدودها وتمييزها عن المجتمع الريفى المحيط بها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الرئيسية فى عصرها . أو يكون تحصيناً مقصوداً لذاته ، جعله أوائل ملوك الأسرة الأولى ضماناً لأمن العاصمة من الانتفاضات المحتملة من الوجه البحرى ، الذى كان قد أدمج لتوه فى الوحدة السياسية الجديدة تحت زعامة ملوك من الصعيد .

ونسب المصريون الألوهية الكبرى فى منف إلى بتاح ، وكان من أوائل المعبودات التى صورت بصورة بشرية منذ ماقبل عصر بداية الأسرات ، وظل يصور بها حتى نهاية عصور التاريخ المصرى القديم . وشاركه شهرته فى مدينته معبود آخر وهو «سكر» ، الذى اعتبره أتباعه من رعاة الحرث والزراعة وتوهموه يسكن تحت الأرض ، فأصبح من ثم راعياً كذلك لمن يسكنون تحتها فى منطقته وهم الموتى ، وكان له مزاره فى جبانة سقارة التى سميت باسمه .

وضرب فقهاء المدينة بسهم وافر فى رقى الفكر والعقيدة ، وصور هذا الرقى نص لوحة حجرية عرفت اصطلاحاً باسم لوحة شاباكا ، وهى لوحة نقش نصها خلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين فى نهاية القرن الثامن ق.م ، وجدد كاتبها بإذن ملكه شاباكا نصاً قديماً كان قد كتب على الجلد أو البردى وأوشكت الأرضة أن تأتى عليه ، وقد تضمنت مذهب مفكرى منف فى نشأة الوجود ، وعرف اصطلاحاً تبعاً لذلك باسم المذهب المنفى . وربما تجددت كتابته عدة مرات منذ الدولة القديمة حتى ماقبل عهد شاباكا ، وإن لم يعثر بعد للأسف على أى من نسخه القديمة .

وود زعماء منف أن يكفلوا لمدينتهم زعامة الفكر والدين والأدب إلى جانب ماتوافر لها من زعامة الإدارة والسياسة ، وابتغوا أن يقنعوا الناس بأنه كان لإله مدينتهم الأثر الأصيل القديم فى نشأة الوجود والموجودات ، وهو الإله بتاح الذى قد يعنى اسمه معنى الصانع أو الفتاح أو الخلاق ، ولقبوه بلقب «تاثنن» بمعنى (رب) الأرض العالية أو الناهضة . فأدلوا برأيهم فى مناقشة مذهب الخلق القديم الذى نادت به مدينة أونو أو عين شمس ، والذى تحدث علماؤها فيه عن ماض بعيد لم تكن فيه أرض ولاسماء ولابشر ، وما من دودة أو علقة ، وما من حس أو حسيس ، وما من

موت أو حياة ، وما من نزاع أو خصام ، وإنما خضم مائى أزلى واسع حوى بين طياته عنصر الحياة لكل شيء ، وهو «نون» الذى خرج منه الإله الخالق أتوم ، ثم تعاقب بعده بقية التاسوع المقدس (راجع ما سبق ذكره فى هذا الصدد) .

وتدبر مفكرو منف عقائد أخرى تتصل بعصرهم وسياسته ، ثم خرجوا على الناس بمذهب جديد يصطبغ بالمعنوية أكثر مما يصطبغ بالمادية ، وجعلوا صلبه الدين وأكسبوه إهاب التاريخ ، وردوا فيه خلق الوجود وما احتواه إلى قدرة عاقلة مدبرة آمرة ، وتمثلوا هذه القدرة العاقلة الآمرة فى إلههم بتاح ، وأكدوا أنه أوجد نفسه بنفسه ، وأبدع الكون ومعبوداته وناسه وحيواناته وديدانه عن قصد منه ورغبة ، وأن سبيله إلى الخلق كله كان هو سبيل القلب واللسان ، أى الفكر والكلمة ، فكرة تدبرها قلبه أو عقله وأصدرها لسانه فكان من أمر الخلق ما كان . وكان لفظ القلب يعنى عندهم مايشمله مثله فى اللغة العربية من معانى العقل والفكر والإرادة والضمير ، كما عنى لفظ اللسان معنى أداة النطق والأمر والكلام . وأكدوا أنه عن سبيل القلب واللسان ، أو الفكر والكلمة ، بدأ سعى الأرجل وحركات الأذرع وخلجات الأعضاء ، وصدرت الشرائع وتهيأت الموارد وتعينت العبادات ، وحق الأمان لأهل السلام وحق العقاب على أهل الآثام [1] . وهكذا اتجهوا بفكرة الخالق والخلق فى مذهبهم إلى التجريد والمعنوية ، وعدلوا بها عن مادية التجسيد فى مذهب عين شمس ، وأوشكوا أن يرهصوا ببعض ما أكدته الكتب السماوية ، حين ردوا الخلق إلى القلب واللسان بمعنى الإرادة والأمر ، واقتربوا بذلك من قول التنزيل الحكيم **(الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)** (سورة آل عمران - آية ٤٧) . ولم يعتبروا ربهم خالقاً فحسب وإنما اعتبروه مشرعاً وعادلاً أيضاً . ولم يفسد عليهم سمو تفكيرهم إلا أنهم اعترفوا بوجود أرباب كثيرين إلى جانبه ، وبرروا ذلك بأنه خلقهم من نفسه وتعهدهم وأمر بعبادتهم والاهتمام بمعابدهم صوراً منه أو أقانيم له . وإن كانت الحقيقة أنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا مما ألفه أسلافهم وورثوه عنهم من عبادتهم .

---

(١) *See*, A. Erman, *Ein Denkmal memphitischer Theologie*, 1911; K. Sethe, *Dramatische Texte*, 1928; H. Breasted, *The Down of Concience*, 1933, 29 f. ; H. Junker, *Die Gotterlehre von Memphis*, 1940.

و راجع : عبدالعزيز صالح : «فلسفات نشأة الوجود فى مصر القديمة» - المجلة - فبراير ١٩٥٩، ص٣٩-٤١ .

حفلت مدن عصر بداية الأسرات بعمرانها ، وتمثلت قرائن هذا العمران فيما ذكرناه عن أطلال أسوارها وحصونها ومعابدها ، كما تمثلت فى رسوم ونقوش مختصرة صورها أهل العصر على آثارهم الصغيرة ، ورمزوا ببعضها إلى واجهات قصور ملوكهم وواجهات أسوارها . وكانت قصوراً كبيرة فخمة ، شيدت من اللبن ، واستخدم الحجر فيها على نطاق ضيق لإقامة أعتاب الأبواب وأكتافها وإقامة الأعمدة. وتعاقبت فى أسوارها دخلات عميقة (تسمى اصطلاحاً باسم المشكاوات) تمتد رأسياً بارتفاع جدرانها وتتعاقب على جوانب الأبواب ، وتبعد كل دخلة منها عن الدخلة التى تليها بمسافة متسوية . وكان الهدف منها أن تقلل حدة الاستقامة فى واجهات الأسوار المتسعة ، وإذا لونت جوانبها وسطوحها الداخلية وزخرفت برسوم النباتات والزهور احتفظت بألوانها أطول مدة ممكنة وخلعت على مبناها صورة بهيجة مستحبة . ومن المحتمل أن الحراس كانوا يستظلون فيها من الشمس ويحتمون فيها من برد الليل حين الضرورة . وتوسط واجهة كل قصر من هذه القصور مدخلان يرمز أحدهما إلى الصعيد ويرمز الآخر إلى الدلتا ، أو ثلاثة مداخل : مدخل ملكى رئيسى واسع ومدخلان صغيران على جانبيه [١] .

ويغلب على الظن أن مبانى قصور الأمراء وكبار الموظفين ، كانت على شيء قريب من فخامة قصور الملوك ، أو على الأقل لم تكن تقل فخامة وضخامة عن مبانى قبور أصحابها التى لاتزال أطلالها باقية . ويبدو أن جدران حجراتها الرئيسية كانت تكسى من الداخل بالحصير الملون الفاخر الذى يقوم مقام الستائر أو الطنافس الحالية ، وأنها كانت ذات حدائق وأحواض ماء داخلية ، وتطل على شوارع متقاطعة ممهدة عبرت عن تناسقها رموز المدن المصورة على آثارها . ولم تبق من أمثال هذه المساكن باقية ، ولاتقتصر هذه الظاهرة على مساكن عصر بداية الأسرات وحدها ، وإنما تنطبق كذلك على أغلب المبانى الدنيوية فى عصور مصر القديمة ، وفيما يعاصرها من مبانى الحضارات الأخرى أيضاً ، نتيجة لعدة أسباب ، كان من أهمها : بناء غالبية هذه المبانى من اللبن سريع التهدم ، وكثرة استعمالها مما كان يؤدى إلى

---

(١) Alex. Badawy, *Le Dessin Architectural chez les Anciens Egyptiens*, Le Cairo, 1948, 76 f. ; Jequier, *L'Architecture*, 1924, ; H. Balcz, *Die altaegyptische Wandgiederung*, 54 f. ; W. Wolf, *ZAeS*, LVII, 129 f; M. Atzler, *Oriens*, 23-24 (1974), 406-432.

استهلاكها ، ثم بناء مساكن العصور المتتالية على أنقاض مساكن العصور السابقة لها. وهكذا لم يتبق شيء منها إلا حيث أدت الظروف إلى هجران بلدة ما لأسباب قاهرة ثم تغطية الرمال والرديم عليها بعد هجرها أو نسيانها . وكان لاستخدام اللبن فى بناء المساكن مايبرره فى دنيا الفقراء ودنيا الأغنياء على السواء ، فيبرره للفقراء توافره وقلة الكلفة فى البناء به ، كما يبرره للأغنياء ملاءمته لبيئة الشرق الحارة قليلة الأمطار . واللبن عازل جيد لاتتسرب الحرارة الداخلية منه بسهولة ولايمتص الحرارة الخارجية بسهولة . ثم هى العادة أخيراً اعتادها الناس فى بناء مساكنهم أغنياء وفقراء. غير أنه لم يكن من الطبيعى بناء المسكن كله من اللبن . وإنما كانت أعتابه وأكتاف أبوابه وأعتاب نوافذه تصنع من الحجر كما أسلفنا ، وكانت أعمدته الداخلية تنحت من الحجر كذلك إذا حملت فوقها ثقلاً كبيراً ، أو تصنع من الخشب إذا حملت ثقلاً خفيفاً ، أو تبنى من اللبن المكسو بالملاط إذا كان الثقل فوقها بين بين .

أما عن بيوت الآخرة وهى المقابر التى كانت تستخدم للدفن لمرة واحدة أو لمرات معدودات ، وتشيد فى مناطق الحواف الصحراوية الجافة وتنحت أجزاوها السفلى على أقل تقدير فى باطن الصخر ، ثم تكتسب بعد ذلك شيئاً من الحرمة أو القداسة ، فلا زال الباقى منها أكثر من غيرها . وانتشرت بقاياها الحالية من عصر بداية الأسرات فى مناطق كثيرة من الصعيد وأطراف الوجه البحرى [١] . واختلف طرازها بعض الشيء فى كل من الوجهين عن الآخر ، وظلت أكثرها احتفاظاً بأجزائها العلوية هى مقابر سقارة ، التى سوف نكتفى فيما يلى بعرض خصائصها العامة .

امتازت مقابر سقارة بضخامتها واتساعها وبقاء أغلب أجزائها العلوية المبنية باللبن . وتضمنت حجرات قليلة منحوتة فى الصخر حول حجرة الدفن تحت سطح الأرض وحجرات أخرى كثيرة داخل بناء المصطبة فوق سطح الأرض . وتعاقبت فى واجهاتها الأربع دخلات (أو مشكاوات) رأسية تفاوتت فى اتساعها وفى مدى إتقان بنائها وزخارفها من مصطبة إلى أخرى . ويستنتج من أطلال المصاطب الكبيرة منها

---

(١) See, G.A. Reisner, *The Development of the Egyptian Tomb down to the accession of Cheops*, 1936; W.B. Emery, *Excavations at Saqqara*, 1938, 1939, 1949, 1952; J. Vandier, *Manuel d'Archéologie Egyptienne*, I, 1952.

أنه كان يحيط بكل واحدة منها سوران ، وأن مابين السورين كان يستخدم لأداء الشعائر الدينية وتقديم القرابين للموتى واجتماع الأهل فى المواسم الدينية والتقليدية . وأن بعض هذه المصاطب كانت تحفر بجانبه حفرة على هيئة مركب تليس بالطين أو تكسى بقوالب اللبن . وربما وضعت فيها مركب خشبية حقيقية ، وفى هذه الحالة قد تكون المركب الخشبية هى المركب التى نقل أهل المتوفى جثته فيها على النيل ثم آثروه بها وحرموا ركوبها على غيره ، أو تكون مركباً صنعت ليوم وفاته ليستخدمها فى عالمه الآخر استخداماً يناسبه ، كأن يتنقل بها فى أنهار الجنة أو يحج بها إلى مدن الحج العتيقة . ومن الاستثناءات اللطيفة فى هذه المصاطب أن البعض منها غرست فى الأرض أمام واجهاتها رؤوس ثيران ضخمة ، شكلت من الطمى وزودت بقرون حقيقة ، فبدت كما لو كانت من عالم آخر بعيد أو من محيط مائى عميق . ويبدو أن أمثال هذه الرؤوس كانت تعلو أسوار بعض المصاطب أيضاً ، وأنها ترمز إلى المعبود حاب أحد أرباب منف وسقارة . وثمة استثناء آخر نفذه أحد المعماريين فى مصطبة ثرى يدعى «نبت كا» حيث بنى جزءها العلوى على هيئة مسطح أفقى متسع تؤدى إليه درجات متعاقبة ضيقة فى جهاته الأربع بحيث جعلت المقبرة على هيئة المصطبة المدرجة . ثم اهتدى غيره من المعمارين فى عهده أو بعده بقليل إلى مرحلتين أخريين من التطور فى بناء المصطبة ، وتعمدوا فى المرحلتين أن يدعموا جوانبها ويعملوا على حماية المدخل المؤدى إلى جزئها الأسفل . ونفذوا المرحلة الأولى ببناء إضافة من اللبن أحاطت بالمصطبة من كل جهاتها ولكنها قلت ارتفاعاً عنها وأزادت سمك أسافل جدرانها . ثم أتموا المرحلة الثانية ببناء إضافة جديدة تشبه الإضافة الأولى وتعتمد عليها وتقل ارتفاعاً عنها ولما أدت الإضافتان غرضهما العملى، وهو تقوية جوانب المصطبة وحماية مدخلها ، ظهر لهما فى مخيلة المعماريين غرض آخر فنى ، وهو إظهار المصطبة ذات السطح الواحد بمظهر المصطبة المدرجة ذات السطوح الثلاثة أو ذات الدرجات الثلاث ، وذلك مما سيصبح أساساً فيما بعد لفكرة الهرم المدرج .

ونسب الأثرى ولتر إمرى خمس مقابر من مقابر سقارة ، إلى خمسة ملوك من ملوك بداية الأسرت ، كما أسلفنا ، على الرغم من أن منهم من شادوا لأنفسهم مقابر أخرى فى جبانة أبيدوس المجاورة لمدينة ثنى بالصعيد . ويرر إمرى ذلك بأنه كان لكل ملك مصرى قبران ، قبر باعتباره ملكاً للوجه البحرى وقبر باعتباره ملكاً للوجه

القبلى ، وأن كل قبر منهما كان يبنى أسلوب العمارة وتقاليد الدفن الشائعة فى أحد الوجهين ولما لم يكن من المعقول دفن الملك فى قبرين ، كان لابد أن يكون أحدهما قبراً فعلياً والآخر ضريحاً رمزياً . وذهب عدد من الباحثين ، فى شىء من التردد ، إلى أن مقابر سقارة كانت هى المقابر الفعلية ، لاتصالها بمدينة منف عاصمة الحكم الرئيسية ، وأن مقابر أبيدوس كانت مقابر رمزية تشبه المزارات والأضرحة ، أقامها ملوك عصر بداية الأسرات قرب مدينة ثنى عاصمة الحكم القديمة ؛ وفاء لها وتأكيداً لاعتزازهم بالانتساب إليها ، وأخيراً باعتبارها من مراكز عبادة المعبود أوزير [1] .

وللرأى السابق منطقيته ، نظراً لضخامة مقابر سقارة وفخامتها عن مقابر أبيدوس ، ولكثرة الأتباع المدفونين حولها عن مقابر أبيدوس ، وإن أمكن أن يعترض عليه فى الوقت نفسه بعدة قرائن ، ومنها :

(أ) أن مقابر سقارة نفذت بطراز معمارى متشابه فى مجموعها ، فيما خلا تعديلات فردية قليلة ، ولو صح أن بعضها كانت مقابر ملكية فعلاً ، لتميزت هذه المقابر الملكية عما سواها باتساعها وبأسلوب بنائها .

(ب) أن المقابر الأبيدية تضمنت نصباً حجرية نقشت عليها أسماء أصحابها ، وامتازت لملكية منها بضخامتها وصلابة أحجارها ووضوح نقوشها ، ودل بعضها على ذروة عالية فى براعة النقش ومهارة الصناعة [2] ، ولم تتضمن مقابر سقارة أمثالها.

(جـ) ماسنذكره بعد قليل من أنه عثر داخل المقبرة المنسوبة إلى الملك چر ثانى ملوك الأسرة الأولى فى أبيدوس ، على ذراع آدمية كفنت بالكتان وتحلت بأربع أساور ، ومن المرجح أنها كانت ذراع زوجة چر وأنها هى كل ماتبقى من جسدها ، كما أن بعض أختام المقبرة حملت اسمها وألقابها[3] . وإذا صح هذا الترجيح ، كان معناه أن المقبرة الأبيدية خصصت للدفن فعلاً ، ولم تكن مجرد ضريح رمزى ، وربما دفن چر

(١) W. Emery, *Hor-Aha*, I; *Great Tombs*, II, 1945; Vandier, *op. cit.*, II, 142 f.
وراجع : دريوتون - فانديه : مصر - ص١٥٣ .

(٢) Petrie, *Royal Tombs*, I, Frontispiece, II, XXXI ; *Abydos*, I, pls. V, XIII.

(٣) Petrie, *R. T.*, II, Frontispiece, pp. 16-17, pl. IV, 7.

نفسه فيها أو بقربها ، حيث لم يكن من المقبول أن تدفن زوجته فى قلب الصعيد ، ويدفن هو قرب رأس الدلتا .

واحتفظت بعض المقابر السابقة بما عبرت به عن الشوط الواسع الذى قطعته المهارات الفنية فى عصرها . فاحتفظت مقبرة حماكا فى سقارة بعدد من أقراص كبيرة وصغيرة من الألباستر والشست تعتبر بصناعتها ورقتها وزخارفها آية لرقى الصناعة فى عصرها ، وصناديق صغيرة مطعمة ، وسهام وحراب ، وأوان للمشروبات والزيوت التى اعتقد صاحبها أنه سوف ينتفع بها فى أخراه . واحتفظت مقابر أخرى فى حلوان من نهاية العصر نفسه بكؤوس وطاسات من الصخر البللورى تكاد تكشف سطوحها الخارجية عن دواخلها ، وانثنت أطرافها إلى الداخل والخارج كما تنثنى أوراق الرسم المقواة الحالية ، وبلغت حداً من الرقة والروعة قل أن فاقته صناعة أمثالها فى العصور الأخرى ، واحتفظت أيضاً بكأس صغيرة مصمتة قلدت هيئة زهرة اللوتس الملونة ، وصحاف من الشست قلدت هيئة أوراق التين ، وأخرى قلدت هيئة صحاف الخوص المجدولة ، وكل ذلك مما ينم عن حذق صناعها وسلامة أذواقهم كما يتم عن ترف أصحابها .

وقطعت صناعة الحلى الشوط نفسه ، وأمتع مايستشهد به من روائعها هى الأربع الأساور التى وجدت فى أبيدوس ونسبت إلى زوجة الملك جر ، وقد صيغت حباتها ووحداتها من الذهب والفيروز والجمشت على هيئة زهيرات رقيقة وحبيبات كرية وحبيبات قلدت قطرات الماء ، ووحدات قلدت هيئة واجهات القصور الملكية . ثم حليات أخرى ذهبية رقيقة وجدت فى نجع الدير وقلدت هيئات وعول وعجول مدللة أحاط أصحابها أعناقها بتمائم لطيفة .

والخلاصة أن وسائل أهل عصر بداية الأسرات فى النشاط الداخلى كانت وسائل عدة ، اتجهوا فيها إلى استغلال موارد البلاد الطبيعية استغلالاً يفوق ما كانت تستغل به قبلهم ، وحاولوا توحيد طابع الحضارة الفنية والمعمارية لمصر كلها وصبغها بصبغة واحدة متجانسة ، وعملوا على تجميع الكفايات الإدارية والفنية فى عاصمتهم، والارتقاء بالكتابة وتوسيع استخدامها فى شئون الإدارة والعقائد ، وإرساء أسس مشاريع الرى والزراعة وتنظيمات الضرائب وإدارة الأقاليم .

وكان من صور استغلال الموارد الطبيعية فى عصرهم استغلال المحاجر والمناجم ، فاستخدموا الديوريت الجرانيت والأحجار الجيرية لرصف أرضيات المقابر الملكية وتسقيفها وعمل نصبها ، واستخدموها فى بناء بوابات بعض المعابد الكبيرة ، وربما واجهاتها أيضاً ، وإذا استشهدنا باستخدام الحجر فى المقابر والمعابد دون غيرها ، فمرجع ذلك إلى ما أسلفناه من أن المقابر والمعابد هى التى بقيت حتى الآن دون المساكن . ومن المحتمل أن أنواع الأحجار نفسها استخدمت فى بناء أكتاف أبواب القصور وأساطينها وأرضياتها كما أشرنا من قبل .

ونجح أهل العصر فيما أرادوه من صبغ الحضارة المادية المصرية بصبغة متجانسة ، فتشابهت آثارهم التى تركوها عند رأس الدلتا ، مع آثارهم التى تركوها فى مصر الوسطى ، وآثارهم التى تركوها فى الصعيد فى خصائصها الرئيسية ، وإن تنوعت فى أذواقها وتفاصيلها المحلية . وكان فنانو البلاط الملكى وتلاميذهم هم أدوات تحقيق التجانس فى هذه الآثار ، فعملوا بأسماء ملوكهم فى أنحاء الوادى كله ، وعملوا بإذن ملوكهم فى خدمة رجال بلاطهم حيثما استقر مقامهم وأقيمت مقابرهم .

* * *

النشاط الحدودي والخارجي :

لم تقتصر مصادر عصر بداية الأسرات على تصوير وجوه النشاط الداخلى وحده ، وإنما صورت نقوش العصر وآثاره وجوه نشاط أخرى حدودية وخارجية ، سلمية وحربية .

فمن أدلة الامتدادات الجنوبية أنه عثر على اسم الملك چر ثانى ملوك الأسرة الأولى مسجلاً على إحدى صخور جبل الشيخ سليمان قرب وادى حلفا ، وذلك مايحتمل تفسيره باتساع التبادل التجارى لدولته مع منطقة النوبة ، التى لم تكن قد اكتمل تمصرها حضارياً بعد ، أو ببلاد السودان التى تقع وراءها ، واتساع نشاط حكومته فى استغلال مناجم الذهب فى وادى حلفا ، وقيام جيشه بحماية هذا الاستغلال أو ذلك التبادل . وقد استمرت جهود العهود التالية له على السبيل[1] نفسها.

وتعين على حكام العصر أن يتيقظوا للحدود الصحراوية الشرقية والغربية ، وأن

(١) J. Capart, *Les Debuts...*, Figs., 159-160.

يكفلوا حماية المتاجر والقوافل وبعثات المناجم والمحاجر التى تجوس خلالها ، عن طريق حمل بدوها الرحل على الطاعة والتعاون والسلام . وأثرت لأغلب فترات العصر جهود فى هذا السبيل منذ عهد الملك عحا الذى رمزت مناظر صلايته إلى كثرة من واردات الواحات الغربية دلت على أنها كانت حينذاك وفيرة المراعي والشجيرات والأنعام . ونقش اسم الملك «واجى» على صخرة قريبة من البحر الأحمر فى نهاية واد يصل بينه وبين إدفو [١] ، وذلك مما يعنى استغلال أحجار ومعادن الوادى فى عهده واستغلاله كطريق تجارى بين النيل وبين البحر الأحمر [٢] .

وسجلت بطاقة من عهد «دن» أخبار نصره على أهل الشرق لأول مرة ، كما قال كاتبها [٣] ، كما سجلت بطاقات من عهد ولده عنچاب نشاطاً مماثلاً ضد قوم أطلقت عليهم اسم «الإونتيو» [٤] ربما بمعنى «أصحاب العمد» . ويغلب على الظن أنهم كانوا من الأقوام الشرقيين الذين أشارت إليهم بطاقة أبيه ، أى من بدو الصحراء الشرقية وبدو سيناء وربما مما وراءها أيضاً .

وتأكدت اتصالات مصر بأطراف غرب آسيا ، فاستورد المصريون أخشاب الأرز والصنوبر من فينيقيا واستخدموها فى تسقيف مقابر ملوكهم لاسيما فى منطقة أبيدوس ، وربما استخدموها كذلك فى صناعة السفن الكبيرة منذ عهد عحا . واستوردوا الزيوت والخمور أوان فخارية فاخرة من جنوب سوريا . واعتبرت H. Kan-tor هذه الواردات بمثابة جزى وردت إلى مصر من المناطق الخاضعة لها حينذاك فى سوريا وفلسطين [٥] . وذهب De Rougé, R. Weill, and Y. Yadin (وآخرهم باحث يهودى) إلى أن مصر كانت لها حصون وعمليات دفاعية فى المناطق الآسيوية منذ عهود نعرمر وخلفائه چر ، ودن ، وقاى عا . واستدلوا على نشاطها هناك من

---

(١) Clere, *ASAE*, XXXVIII, 85 f.

(٢) *ZAeS*, XXXV, 71.

(٣) Palermo, rt., III. 2.

(٤) *Royal Tombs*, I pls. LXII, LXV, LXVII; JEA, XII, 83; Kees, *Das alte Aegypten*, 58.

(٥) H. Frankfort, *Studies in the early pottery...*, 108 f. ; M.W. Prausnitz, "Abydos and combed ware, *Palestine Expl. Quart*, London, 1954 91 f. ; H. Kantor, *JNES*, 1942, 174 f. ; 201 f.

صورة حصن نقشت على صلاية نعرمر ، ومن ذكر اسم حصن يدعى «باب عن» ، وآخر يدعى «ونة» فى جنوب لاشام ، على آثار العصر نفسه ، ووجود اسم نعرمر على أثر صغير فى فلسطين . ويصعب تأكيد هذه الاستنتاجات بأدلة قاطعة ، وإن وجدت قرائن فى نقوش الملوك وفى حوليات حجر بالرمو (١) . وعثر فى مقابل هذه الواردات على صادرات مصرية فى ميناء جبيل بلبنان الحالية(٢)، وكانت أكبر مركز للتبادل التجارى مع مصر فى غرب آسيا ، وأصبحت بعض السفن المصرية المتعاملة معها أو المصنوعة بأخشابها تسمى أحياناً «الكبنية» أى «الجبيلية» . ويرى الأستاذان بترى وشارف (٣) أن هذه الميناء ظلت واسطة لاتصال التجار المصريين ببحر إيجه وبالتجار الكريتيين فى العصر نفسه . وعثر بترى فى أبيدوس على أوان تشبه زخارفها زخارف الأوانى الإيجية . وإن كان يبدو أن تأكيد التبادل مع الكريتيين فى ذلك العصر البعيد لايخلو من الشك ، لاسيما بالنسبة لأهل كريت الذى لم تكن حضارتهم ذات شأن حينذاك . (وقد زاد شارف فذكر أن المصريين قد وصلوا إلى كريت رأساً بوسائلهم البحرية الخاصة) .

ورتب عدد من الباحثين نشاط التأثير بين بلاد النهرين ومصر فى أوائل هذا العصر على أساس وجود شيء من التشابه بين بعض الأساليب المعمارية والزخرفية والأسطورية فى إنتاج كل من البلدين . مثل أسلوب المشكاوات (أى الدخلات الرأسية العميقة المتعاقبة على مسافات متساوية) فى واجهات المبانى اللبنية، وفكرة تصوير أبطال أسطوريين يفصلون بين حيوانات مفترسة ويخضعونها ، وفكرة استخدام أختام أسطوانية صغيرة منقوشة للختم بها على سدادات الأوانى الفاخرة وربما على الوثائق أيضاً ، وفكرة نقش وتصوير حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة مقوسة لغرض الزخرف أو للتعبير عن الأساطير . واستنتج بعض أولئك الباحثين من صور هذا التشابه استنتاجات شتى لايخلو بعضها من إسراف ، وقد ناقشناها بتفصيل فى كتابنا

(١) Petrie *Royal Tombs*, I, pls. XV, 16-18, XVII, 30; vol. II, pl. XVII, 30 ; *Abydos*, I, pl. XI, 8 ; Y. Yadin, *Israel Exploration Journal*, 1955, 1-16; R. Weill, *Recherches...*, I, 15 f.

(٢) P. Montet, *Byblos et l'Egypte*, 271; Dunand, in Syria, 1928, 18, Fig 1.

(٣) Petrie, *Royal Tombs*, II, 46, pl. L VI, – الكسندر شارف : تاريخ مصر من فجر التاريخ – معرب بالقاهرة – ص٤٨ .

الأول عن حضارة مصر القديمة وآثارها (راجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) ، وانتهينا من مناقشتها إلى أن الأساليب والأفكار السابقة وإن تشابهت من حيث دواعى نشأتها فى كل من البلدين ، إلا أنها تمايزت فى كل منهما فى طريقة تنفيذها وفى أغراضها وفى مجالات استعمالها ، مما يوحى بأن كلا منهما قد نمت وتطورت فى أحضان حضارة أهلها المحلية وسايرت تقاليدهم الخاصة فى الصناعة والزخرف والتعبير ، بغير ضرورة إلى الظن بتأثير لازم من أحد البلدين فيها على البلد الآخر ، وإن لم يحل هذا إطلاقاً دون افتراض استمرار الصلات الحضارية العادية بين الطرفين بطرق مباشرة أو عن طريق وسطاء ، أو افتراض تقليد بعض الصناع والفنانين فى كل من البلدين زخارف البعض الآخر تقليداً شخصياً حراً .

وانقضى عصر بداية الأسرات بمظاهره الحضارية حوالى عام ٢٧٨٠ ق.م. ، بعد انتقال أزمة الحكم من أسرته الثانية إلى فرع حاكم جديد يتصل بها برابطة الدم والنسب . وانقضت بعده قرون طويلة ظل المصريون خلالها يردون إليه بعض معارفهم وعلومهم القديمة ، فتضمنت بردية طبية من الدولة الحديثة فصلاً طبياً فيها ردته إلى عهد الملك دن (الذى ذكرته باسم سمتى)(١) . وذكر فى كتب الموتى أن فصلاً منها وجد فى زمن قديم فى البهو الكبير لقصر الملك نفسه (٢) . وذكر المؤرخ المصرى مانيتون أن الملك جر (الذى ذكره باسم أثوثيس) ألف كتاباً فى التشريح وكان بارعاً فى الطب (٣) . وذكر المؤرخ ديودور الصقلى أن الكهان أخبروه بأن منى كان أول من علم الناس أسلوب الحياة المهذبة وطقوس العبادة ، وأرشدهم إلى فوائد البشنين وكيف يصنعون الخبز منه (٤) .

وليس من ضرورة بطبيعة الحال إلى الأخذ بحرفية هذه الأخبار ، فقد يكون الغرض منها هو رغبة أصحابها المصريين فى صبغ معارفهم بصبغة القداسة عن طريق ردها إلى أصول قديمة عريقة . ولكن حسبنا منها أن ذكريات عصر بداية الأسرات ظلت ماثلة فى أذهان المصريين ، يعتزون بها وينسجون القصص والأساطير حولها .

---

(١) *Der Grosse Medizinsche Papyrus des Berlin Museums*, XVI, 1, f.

(٢) B. *D.*, *Ch.*, CXXX, (*ZAeS*, 1857, 54).

(٣) Maneto, In Cory, *Ancient Fragments*..., 894.

(٤) Diodorus, I, 45.



تعرف عصور الدولة القديمة أحياناً بتعريفين اصطلاحيين ، وهما : «العصور المنفية» إشارة إلى استمرار استقرار ملوكها وحكوماتهم المركزية فى مدينة منف ؛ ثم «عصور بناة الأهرام العظام» كناية عن فخامة ماشيد فيها من أهرام لاتزال مفخرة لعصورها وشاهدا على كفاية من تكفلوا بإنشائها . وهى تشمل مايمتد من بداية عصر الأسرة الثالثة حتى نهاية عصر الأسرة السادسة [١] . ومع وحدة طابعها الحضارى العام يتصف كل عصر من عصورها بما يميزه عما سبقه من عصور .

أولاً - الرشاقة والابتكار فى عصر الأسرة الثالثة

(٢٧٨٠-٢٦٨٠ ق.م.)

بدأت عصور الدولة القديمة بعصر الأسرة الثالثة ، وبدأ الحكم فيها بولاية ملك ذكرته نصوص عهده باسم «نثررخت» وهو إسم يقرأ بمترادفات ومعان كثيرة [٢] ، ثم اشتهر باسم چسر أو زوسر ، ربما بمعنى المقدس . واعتادت الكتب التاريخية على ترديد هذا الاسم الأخير نظراً لشيوعه وسهولة نطقه ، وسوف نجرى على طريقتها فى ذلك . ويبدو أن زوسر كان ولداً للملك خع سخموى آخر ملوك الأسرة الثانية من زوجة تدعى «نى ماعت حاب» . ولابأس هنا من أن نبدأ بهذه البنوة . بنوة زوسر لآخر ملوك الأسرة الثانية ، لنعقب عليها بما يصور بعض الأسباب التى كانت تفرق بين كل أسرة وأخرى من الأسر الملكية المتعاقبة ، ولنجيب على تساؤل يسهل تبادره إلى الذهن ، وهو : إذا صح أن زوسر كان ولداً للملك خع سخموى ، فما الذى دعا إلى اعتبار عهده بداية لأسرة حاكمة جديدة ، ولم لم يسلك ضمن ملوك الأسرة الثانية التى انتسب أبوه إليها ؟

---

(١) Cf., W. S. Smith, The Old Kingdom in Egypt, *CAH*, vol. I, Ch. XIV, 1965; H. Goedicke, *Königliche Dokumente aus demalten Reich*, 1967.

(٢) راجع للمؤلف مناقشة أربعة منها فى : حضارة مصر القديمة وآثارها - ج١ ص٢٩٩ .

سجلت بردية تورين اسم زوسر بالمداد الأحمر بين أسماء ملوك الدولة القديمة ، تأكيداً لتميزه وأهمية عهده . وقرنه كاتب مصرى من القرن الثانى عشر ق.م ، مع كل من مؤسس الأسرة الخامسة ومؤسس الأسرة السادسة ، باعتباره رأس أسرة حاكمة جديدة مثلهما . ثم سجل المؤرخ المصرى مانيتون رأيه فى الملك نفسه فاعتبره بداية لملوك منف كلهم[1] ، ويبدو أن المصادر التى أخذ منها هؤلاء الثلاثة ، تأثرت باحتمالات أربعة وهى :

أولاً – أنه تدخل بين عهد خع سخموى وعهد ولده زوسر بعض المغتصبين للعرش من أبنائه الآخرين أو من بقية فروع أسرته . فلما استرد زوسر العرش منهم أصبح فى نظر قومه بداية لفرع جديد تميز به عن فروع إخوته وعن فروع أقاربه . ويزكى هذا الاحتمال أن بعض القوائم التاريخية للملوك أضافت أسماء ملوك يتراوح عددهم بين الاثنين وبين الأربعة ، بين اسم خع سخموى واسم زوسر ، على الرغم من أنه لم يعثر لهؤلاء الملوك على آثار هامة تدل على استقرار عهودهم أو طول أمدها وكان من أخصهم سانخت ونب كا[2] (وقد ناقشنا أمرهم فى كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها – ج١ – ص٣٠٠-٣٠٢ ، وص٣١٨-٣١٩) .

ثانياً – كان زوسر أكثر اهتماماً بمدينة منف ، وأكثر استقراراً فيها من الملوك الذين سبقوه ، وشيد هرمه المدرج فى جبانتها . ففسر خلفاؤه المصريون ذلك برغبته فى اختيار أرضها مقراً لدنياه وآخرته ، واعتبروه رأساً لملوكها ، ثم عبر مانيتون عن رأيهم باحتسابه رأس الملوك المنفيين .

ثالثاً – أن نجاح زوسر فى تشييد هرمه المدرج ، وهو أول هرم فى الوجود ، أظهره بين مواطنيه بمظهر المباشر ببداية عصر حضارى جديد يتميز بمظاهره عن عصر الأسرة الثانية الذى عاش أبوه فيه .

رابعاً – تضمن اسم الملكة «نى ماعت حاب» أم زوسر ، اسم «حاب» وهو معبود قديم من معبودات منف ، وذلك مما يحتمل معه أنها كانت من مواليد مدينته التى يقدس فيها ، وأن ابنها اهتم بمسقط رأسها وتشيع له فنسبه مواطنوه هو وفروعه إليه .

---

(١) Turin Pap. III, 5; Cairo 33258 = *BIFAO*, V, 41 f.

(٢) Cf., W.S. Smith, *CAH*, I, 1965, Ch. XIV, 4.

ارتبطت بعهد زوسر معالم وذكريات حضارية كثيرة ، نكتفى بأن نذكر منها فيما يلي خصائص مجموعته المعمارية بسقارة ومايتصل بها من فنون وعقائد . ثم قصة المجاعة التى تنسب أحداثها إلى أيامه . وفكرة ابتداع التقويم السنوى المدنى المرتبط بدورة الشعرى والتقويم الشمسى فى عهده . وترتبط كل هذه المعالم إلى حد كبير بشخصية إيمحوتب أكبر شخصيات دولته .

إيمحوتب وشواهد العمارة والفن :

كان لحسن الحظ أن احتفظت الأيام باسم مهندس مجموعة زوسر المعمارية فى سقارة وصاحب الفضل فى تصميمها وهو إيمحوتب الذى سجل من ألقابه فى عهد ملكه ألقاباً تدل على أنه كان أميناً لأختام الوجه البحرى ، وتالياً للملك أو الأول لدى الملك ، وناظراً على القصر العالى ، ومهندساً ، ومسجلاً للحوليات ، وكبيراً للرائين . وكان اللقب الأخير لقباً مميزاً لكبار كهنة مدينة عين شمس ذات الشهرة الفكرية القديمة (١) . ويدل تنوع هذه الألقاب وتعددها على حب العصر لتنوع الثقافة والأخذ من كل معرفة بنصيب . واحتفظت أجيال المصريين بذكرى إيمحوتب قروناً طويلة ، وجعله المتعلمون فى الدولة الحديثة على رأس أهل الحكمة والتعاليم ، واعتبروه من رعاة المثقفين ، واستحبو أن ينثروا قطرات من الماء من الأوانى الصغيرة المتصلة بمحابرهم مع التمتمة باسمه ، تبركاً به كلما هموا بكتابة أمر خطير . ثم قدسه المواطنون فى عصورهم المتأخرة واعتبروه ولداً للإله بتاح رب الفن والصناعة . وأخيراً ذكره الإغريق المتمصرون باسم إيموتس واعتبروه رباً للشفاء . وشاد له مريدوه على هذا الاعتبار مقصورة فوق المسطح العلوى لمعبد حاتشبسوت فى الدير البحرى . وشبهوه كما روى مانيتون بالمعبود الإغريقى أسخليبيوس راعى الطب والحكمة عندهم، ومجدوه لمهارته الطبية ، ولمهارته فى الأدب والكتابة ، ولأنه كان أول من استخدم الحجر المنحوت فى البناء كما قالوا . وقدسوه على هذه الاعتبارات فى «اسكليبيون المجاور لمنف» وهو معبد أقاموه فوق ماظنوه قبره القديم جنوبى

(١) Urk. I, 153 ; Firth - Quibell, *The Step Pyramid*, I, p. 58. – وسجل له أحد أحفاده البعيدين ألقاباً أخرى نعته فيها بلقب الوزير واعتبره مدير المنشآت العامة في الصعيد والدلتا وكاهناً مرتلاً عظيماً ، وذكر أباه باسم كانفرو وذكر أمه باسم عنخ خردو . (*See Sethe, Imhotep*, 14) . ولم يكن منصب الوزير قد ابتدع رسمياً فى أيام إيمحوتب .

السيرابيوم[1] . وفى كل هذا مايعنى أن مجد الشهرة فى مصر القديمة لم يقتصر على الملوك وحدهم ، وإنما كان لبعض الأفراد الأفذاذ نصيب منه قد يزيد عن نصيب ملوكهم أحياناً .

أشرف إيمحوتب على بناء مقبرة ملكه زوسر وتوابعها فى منطقة سقارة ، وأجرى فيها ثلاث محاولات كبيرة ، وهى : استخدام الحجر على نطاق واسع لأول مرة فى بناء الجزء العلوى من المقبرة وتوابعها ، والانتقال بهيئة جزئها العلوى من شكل المصطبة المستطيلة إلى هيئة الهرم المدرج ، ثم تقليد وتخليد خصائص العمارة النباتية واللبنية التى عرفها أسلافه ، فى بناء عمارته الحجرية الجديدة [2] . وبدأ بمراحل البناء الثلاث التى انتهى إليها بعض أسلافه فى بناء المقابر : مصطبة وإضافتين . ولكنه بناها جميعها بالحجر وليس من اللبن كما كانت تبنى قبل عهده . ولعله تبين حينذاك أنه يستطيع أن يستعين بالحجر الذى استخدمه على نطاق واسع لأول مرة ، على تنفيذ مشروع كبير يتفق مع جلال ملكه ورخاء عهده ، فعمل على زيادة إضافات حجرية جديدة جانبية مائلة ، تعتمد كل إضافة منها على الأخرى ، وتعتمد كلها على المبنى الأصيل للمصطبة الذى كان يزيد ارتفاعه قبل كل إضافة . وأتم ذلك فى ثلاث مراحل أخرى ، حتى تحولت المصطبة المدرجة القديمة إلى شكل هرمى مدرج ظهر فى هيئته الأخيرة، كما لو كان ذا ست درجات ، بلغ ارتفاعه معها نحو ستين متراً ، وبلغ طول أسفلها نحو ١٣٠ متراً ، وعرضها نحو مائة متر وعشرة .

احتل هرم سقارة مركزاً متوسطاً فى مجموعة معمارية كبيرة، أحاطت به وشغلت معه مساحة تزيد على (٢٥ ألف متر مربع . وأحاط به وبها سور ضخم كبير بلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، وبلغ سمكه فى بعض مواضعه نحو ستة أمتار ، وكساه المعماريون بالحجر الجيرى الأبيض الأملس ، وشادوا فيه الدخلات الرأسية المتعاقبة نفسها، التى ظهرت قبل عهده فى عمارة اللبن ، بعد أن زادوها فى العمق والسعة بما يتناسب مع ضخامة بنائها ومادة بنائها حتى حققت لعمارتها الجديدة طابع الزخرف والفخامة كاملاً ، فقللت حدة الاستقامة المطلقة فى الواجهة الضخمة للسور ، وسمحت

---

(١) H. Schaefer, *ZAeS*, XXXVI, 147; K. Sethe, *op. cit.*, H. Kees, *op. cit.*, 88.

(٢) See, M. Firth-J.E. Quibell, *The Step Pyramid*, I-II, Cairo, 1935; J.P. Lauer, *La Pyramide a degrés*, I-III, Le Caire, 1936-39; I.E. Edwards, *The Pyramids of Egypt*, London, 1947, Ch. II.

تضاعيفها الداخلية بتعاقب الأضواء والظلال فيها بين الجوانب والسطوح ، وقللت شدة انعكاس أشعة الشمس على واجهة السور ذى الكساء الحجرى الأبيض المصقول .

وتضمنت مجموعة زوسر ست عمائر دنيوية ودينية خلاف الهرم والسور . فأطلق إيمحوتب ورجاله أيديهم فى هندسة هذه العمائر وقلدوا فيها ما أرادوا تقليده وتخليد هيئته من مظاهر العمارة النباتية واللبنية القديمة ، فأقاموا فيها أساطين ذات أضلاع محدبة متجاورة ، تقلد هيئة سيقان الغاب المحزومة ذات العقل التى استخدمها أسلافها لرفع سقوف المبانى الخفيفة القديمة . وشكلوا أساطين ذات أضلاع مقعرة متجاورة تقلد أساطين شجرية ، تناولها إزميل النجار القديم بالتشذيب والتجويف الخفيف. كما نحتوا أساطين ثلاثية المقطع تقلد هيئة سيقان البردى بتيجانها وأوراقها . ونحتوا أساطين أخرى نصف دائرية المقطع، تقلد نباتاً اتخذه أهل الصعيد رمزاً لأرضهم فى فجر تاريخهم القديم . ثم امتد التقليد إلى الأبواب والسقوف ، فنحت المعماريون بإرشاد إيمحوتب أبواباً من الحجر على هيئة الدلف الخشبية المفتوحة . وشكلوا السطوح الداخلية لبعض السقوف على هيئة فلوق النخيل ذات المقطع نصف المستدير ، وجعلوا هذه الفلوق الحجرية متعاقبة الواحد منها بجانب الآخر ، حتى بدت كأنما حملت سقفاً من بوص وخشب وليس من حجر .

ولم يقتصر المجهود المعمارى فى الهرم المدرج على جزئه العلوى وحده ، وإنما امتد إلى جزئه الأسفل . فشاد المعماريون حجرة دفنه من أحجار جرانيتية ضخمة على عمق ثمانية وعشرين متراً . ولاشك فى أن نقل هذه الأحجار الجرانيتية الضخمة من محاجر أسوان أو جبال البحر الأحمر يدل على مجهود كبير بالنسبة لعصره . وقطع الصناع فيما يجاور سطح حجرة الدفن سراديب وغرفاً كثيرة ، كسوا بعض جدرانها بقراميد صغيرة محدبة من القاشانى الأزرق، ثبتوا كلاً منها فى ملاط جدارها بثقبين صغيرين يمر فيهما خيط من الكتان أو الجلد ، ورصوا كلاً منها إلى جوار الأخرى ، لكى يقلدوا بها هيئة الحصير الفاخر المجدول الذى كانوا يتخذونه فى البيوت ستاراً وزينة . وتضمنت سراديب الهرم وحجراته مايزيد عن ٤٠ ألفاً من أوانى الفخار والألباستر والشست والبرشيا ، حقق صناعها فى تشكيلها مهارتهم التى اكتسبوها وورثوها عن أسلافهم أهل عصر بداية الأسرات ، ثم زادوها دقة حتى بلغوا بصناعة بعضها حداً من الرقة جعل سطوحها الخارجية تكاد تكشف عن سطوحها

الداخلية كأنها البللور الشفاف . وكان بعضها متاعاً وميراثاً لصاحب الهرم وأسرته ، وبعضها الآخر هدايا من أقاليم دولته وتقرب إليه ببعضها كبار موظفيه ، وعثر فى مقابر أسرة زوسر التى غطى هرمه عليها على بقايا توابيت فاخرة من الحجر الجيرى والمرمر المصرى ، كانت تثبت فوق قواعد حجرية تناسبها ، وتعلوها أغطية مقبية . ووجدت معها قطع خشبية صغيرة تخلفت عن تابوت طفل ، صنعت من ست طبقات متلاصقة من الخشب المضغوط ولم يزد سمكها فى مجملها عن ملليمترات قليلة ، ثم غشيت سطوحها برقائق ذهبية ثبتت فيها بوصلات ذهبية قامت مقام المسامير ، ولو رجعت إلى عهد زوسر فعلاً ، لدلت على رقى رائع فى صناعة الخشب .

يبدأ المدخل الرئيسى فى سور مجموعة زوسر بباب مفتوح على مصراعيه كأنما يرحب بالوافدين ، لولا أنه باب من حجر قلد فيه بناؤه تفاصيل الأبواب الخشبية العادية . ويفضى الباب إلى البهو الكبير ، وهو بهو طويل تحف به الأساطين الحجرية التى تقلد حزم الغاب ، وهى أساطين رقيقة فى بنائها وفى مظهرها تستند على حواجز خلفية وتتخذ هيئة انسيابية يقل قطرها من أسفل إلى أعلى ، وتزينها فى أعلاها حليات شكلت على هيئة أوراق الشجر العريضة المقلوبة ، ويعلوها الشقف ذو الجذوع الحجرية . وكانت تحلى أبواب البهو زخارف هندسية على هيئة أقواس كبيرة ، رشيقة دلت على يد متمكنة فى رسمها ونحتها ، وعلى هيئة رموز دينية تسمى رموز «جد» ، وتعنى معنى الدوام والاستقرار وتعتبر من رموز المعبود أوزير . وينتهى البهو بقاعة تطل على الفناء الكبير للهرم ، وترفع سقفها ثمانية أساطين يصل بين كل أسطونين منها جدار خفيض . وكان للملك وحاشيته سبيل آخر حين احتفاله بعيد السد بالقرب من هرمه ، فكان يسلك طريقاً قصيرة جانبية تبدأ من أول البهو وتمتد حتى فناء العيد ، وهو فناء رحب واسع حفت بجانبيه مقاصير فخمة ، بنيت الغربية منها بأسماء أرباب الصعيد ، وشيدت الشرقية منها بأسماء أرباب الوجه البحرى ، أولئك الأرباب الذين تخيل أتباعهم أنه لابد لهم من أن يشاركوا الملك فى عيده ويباركوه فيه ويتقبلوا صلواته . وتصدرت الفناء منصة حجرية متسعة ترتفع عن الأرض بنحو المتر ، ويؤدى إلى سطحها درجان فى واجهتها الشرقية . وكانت تعلوها مظلتان تضم إحداهما عرش الصعيد وتضم الأخرى عرش الدلتا . وكان الملك يتجه فى بعض مراسم الحفل من عرشه إلى المقاصير واحدة فواحدة ، ويقدم فى كل منها دعاء أو قرباناً يناسب إلهها ، وربما اصطحب معه فى كل مرة شارة تتفق مع رموز ربها . ولم يتبق من

مقاصير العيد غير أطلال تنم ، على الرغم من قلتها ، عن مهارة صانعيها وعن فخامة مظهرها القديم . وكانت تتصدر واجهاتها أساطين محدبة المقطع تحليها فى أعلاها دلايات مشكلة فى الحجر على هيئة أوراق الشجر . وتبقت فيها ثقوب كانت تثبت فيها قوائم خشبية تحمل رموز أرباب مقاصيرها . ولما كان العيد عيد الملك قبل كل شيء ، أقيم له تمثالان كبيران على منصتين مرتفعتين في مقدمة المقاصير ، وربما كان له كذلك تمثال صغير فى كل مقصورة مع تمثال ربها تدليلاً على اتصال الروابط بينهما. وتبقت أجزاء متناثرة من تماثيل أخرى كان بعضها يمثل الملك بحجم ضخم يفوق حجمه الطبيعي بكثير ، واستند بعضها إلى صفات مبنية فى فناء العيد وشارك فى حمل سقفها ، واستند بعض آخر إلى أساطينها واعتمد عليها . ثم مثل الملك مع زوجته وابنتيه فى مجموعة أسرية مترابطة لم يتبق من تماثيلها غير أربعة أزواج من الأقدام فى المقصورة الأخيرة الغربية لفناء العيد . وجاور مبانى العيد بناء صغير رشيق ذهب الاحتمال إلى أنه كان مخصصاً للملك ليستبدل فيه ملابسه وشاراته خلال أداء الطقوس . وكانت للعيد مرحلة أخيرة تجرى فى ساحة جنوبى الهرم حددت بنصب حجرية كبيرة ، ولسنا ندرى تفاصيل ماكان يتم فيها ، ولكن ليس من المستبعد أنها ارتبطت بصورة ما بما سمى باسم عيد الطواف وجرى الفحل .

وتعامد معبد الشعائر على واجهة الهرم الشمالية ، وكان ضخماً كثير الحجرات، ربما قلد بناؤه جزءاً من قصر الملك فى دنياه . وقامت لدى مدخله حجرة مغلقة سميت اصطلاحاً باسم السرداب ، واتخذت جوانبها الميل الانسيابى نفسه، الذى اتخذته جوانب قاعدة الهرم لتنسجم خطوطها مع خطوطه . وتضمنت فى داخلها التمثال الكامل الوحيد الباقى للملك زوسر ، وتقدمها جناحان حجريان قلدا هيئة باب مفتوح بدلفتين يستقبل ناحية الشمال ، وهى الناحية نفسها التى استقبلها التمثال الموجود فيها بوجهه ، والناحية نفسها التى قام فيها معبد الشعائر وانفتح عليها باب الهرم . وربط أنور شكرى بين هذه المظاهر وعقيدة مصرية، آمن أصحابها بأن أرواح ملوكهم وأرواح أبرارهم تستقر فى الناحية الشمالية من السماء بين النجوم الخالدة ، وخرج من هذا الربط بأن تمثال الملك فى سردابه لم يكن أكثر من هاد لروح صاحبه عندما تهبط من شمال السماء فتستهدى به ثم تتجه إلى معبد الشعائر لتنعم بالقرابين والدعوات المقدمة فيه نعيماً يناسبها ويناسب العالم غير المنظور الذى تعيش فيه ، وتقصد بعد ذلك حجرة دفن صاحبها . ويختلف هذا الغرض الذى خدمه تمثال زوسر

عن أغراض أخرى خدمتها التماثيل فى عهود تالية لعهده ، حين اعتبرها أصحابها مقراً للروح تتلبسها إذا شاءت وحين تفنى الجثة ، واعتادوا تقديم القرابين أمامها بأسمائهم . وليس من المستبعد أيضاً تفسير اتجاه هذه المداخل ناحية الشمال بتقليد البنائين لما جروا عليه من تفضيل الواجهة الشمالية للبيوت الدنيوية .

هذه مجرد صورة عامة لمجموعة زوسر فى منطقة سقارة ، يفهم منها أنها لم تكن مجرد جبانة ، وإنما كانت أشبه بمدينة عامرة يطرقها الناس فى مناسبات كثيرة تتعلق بدنياهم ودينهم وموتاهم . ويسكن فيها القائمون على شعائرها وإدارتها والمتكفلون بحراستها ، ويتردد عليها الزائرون المعجبون بفخامتها وفن بنائها .

وألحقت بها مخازن غلال كثيرة ، لعلها استخدمت فى تموين العمال والصناع أثناء بناء الهرم وتوابعه ، ثم استخدمت لتموين كهنة المنطقة وموظفيها بعد ذلك .

وإذا كنا قد قدمنا لمجموعة زوسر ببعض التجديدات الفنية فى أسلوب بناء أساطينها وأبوابها وسقوفها فما من بأس فى أن نعقب بخصائص أخرى مبسطة تعمدها المعماريون فى بنائها ونترك بقيتها لكتاب نصدره عن العمارة والفنون بمعناها الصريح . ومن هذه الخصائص استخدامهم أحجاراً صغيرة الحجم والاتساع . وتشييدهم مداميك الحجر فى الهرم مقوسة إلى أسفل جرياً على عادة بنائى اللبن الذين يخشون انزلاق صفوفه وتشقق جدرانه لو بنوا مداميك اللبن أفقية مسطحة . وعدم إقامتهم أسطوناً بقطره كاملاً . واكتفاؤهم بإقامة الأساطين نصف أسطوانية تعتمد على واجهات مبانيها أو تعتمد على جدران نصفية ساندة . وقد يرجع هذا وذاك إلى ذوق فنى استحبوه أو يرجع إلى أنهم، وهم لايزالون فى بداية عهدهم ببناء العمائر الحجرية لم يكونوا مطمئنين تماماً إلى استخدام الأحجار الكبيرة أو ترك الأساطين منفردة بذاتها . ومن الخصائص كذلك استمرارهم على تقليد عمارة الخشب واللبن القديمة ، ولو لم تكن لها ضرورة إلا إظهار البراعة واستخدامها فى الزينة . فقد زخرفوا الأجزاء العليا من واجهة السور الضخم بمربعات صغيرة محفورة قليلة العمق تصل بين كل حجر والحجر الذى يعلوه ، ونحتوها لغرض الزخرفة أولاً وليقلدوا بها وصلات وتعاشيق العمارة الخشبية القديمة ثانياً ، وبنوا سقوفاً حجرية مقبية قلدت أقبية اللبن والنبات القديمة . وجعلوا الأطراف العليا لواجهات بعض المقاصير مائلة فى جانبيها ؛ لكى يقلدوا بها هيئة أطراف أعواد الغاب وجريد النخيل التى كانت تتداخل

فى بناء أكواخ العبادة القديمة وأسوارها ، وبدأوا بها عنصراً معمارياً مميزاً يطلق عليه اصطلاح اسم الكورنيش المصرى . وزخرفوا واجهات أخرى بما يمثل عقوداً معمارية مقوسة مفتوحة ، وأقاموا جدراناً منخفضة تقلد ستائر البوص والحصير الفاخرة التى كانوا يقيمونها مقام الحواجز بين مقاصير العبادة الإقليمية ، ويعقدون أطرافها العليا فى هيئات زخرفية لطيفة ، واستعاضوا عن بعض الأركان الرأسية فى واجهات مبانيهم بأركان ملفوفة تكفل التنوع المعمارى وتقلل الاحتكاك من ناحية ، كما توفر المساحة إلى جانبها من ناحية أخرى ، وتظهر براعة النحات من ناحية ثالثة . وشكلوا أركاناً أخرى على هيئة سيقان الغاب، التى كان أجدادهم الأقدمون يدعمون بها جوانب أكواخهم النباتية ويشدون جدرانها إليها بالحبال .

وإلى هذا الحد يتضح كيف كان معماريو عصر الأسرة الثالثة فنانين، ولم يكونوا مجرد بنائين ، وكيف كانت مشاعرهم ذواقة وأذهانهم مشحونة بحب التنويع ، ولم تكن مجرد أذهان ومشاعر آلية عملية تسير على وتيرة جامدة . وكيف كانت أيديهم تهتم بكل تفصيل كما لو كان وحدة قائمة بذاتها، دون أن تكتفى بالمظهر العام بسيط التنفيذ .

لم يكن المجد الفنى قاصراً على المعماريين وحدهم، وإنما شاركهم فيه فنانو النقش والنحت أيضاً . ونقش الفنانون ست لوحات أسفل الهرم وأسفل مقبرة تجاوره تسمى المقبرة الجنوبية ، صوروا فيها ملكهم يؤدى الطقوس أمام مقاصير أربابه ، مشدود العضلات واقفاً متزناً حيناً ، ومسرعاً تكاد أطراف أصابعه لاتلمس الأرض حيناً آخر . وجعلوا لسطوح صوره تموجات خفيفة تعبر عن تكوين عظامه وشدة عضلاته ونحافة خصره وامتلاء شفتيه . وعبرت الصور عن كل ذلك بوضوح، على الرغم من أنها لاتبرز عن مسطح لوحاتها بأكثر من ملليمترات قليلة . ونقشوا على قواعد بعض تماثيله عبارات وأشكالاً هيروغليفية بلغت حد الروعة فى رقتها ونعومة مظهرها . وأظهر تمثال زوسر الكامل صاحبه فى وقار وجدية ، واكتفى المثال فى نحته بالخطوط العامة ، ولكنه تجاوز هذه الخطوط فى تماثيله الأخرى التى أقامها فى فناء العيد ، فأظهر فيها إلى جانب البساطة فى هيئتها العامة نصيباً بارعاً من العناية بالتفاصيل فى تمثيل جدائل الشعر المستعار وتفاصيل نسيج الثياب وزخارف أهدابها ، وتفاصيل الخرز المنظوم فى شرائط الأحزمة التى كان الملك يتمنطق بها .

* * *

وسايرت فنون الأفراد فى عصر الأسرة الثالثة آثار الملوك فى حدود إمكاناتها . ومن أبرع مابقى من نقوشها نقوش الكاتب العالم «حسى رع» وقد نفذها فنانوها على إحدى عشرة لوحة خشبية كست مشكاوات واجهة مقبرته . وأظهروا فيها صوره وعلامات الكتابة التى سجلوا بها ألقابه بالرقة نفسها وقلة البروز وخاصية النحافة التى أظهروا بها صور الملك زوسر ونقوشه . واستعانوا بتموجات السطوح على إظهار رشاقة صاحبها وعظام خديه وترقوتيه بل وشفافية جلد وجهه . وأنفقوا الجهد والصبر وأظهروا البراعة فى تمثيل شعوره المستعارة بتفاصيل دقيقة تختلف من لوحة إلى أخرى . وشاركهم رسام بارع سجل رسومه على جدار دهليز داخلى بنى من اللبن بنفس المقبرة وكسيت واجهته بالملاط ، واستخدم فيها ستة ألوان زاهية صور بها ستائر الحصير الفاخرة ، ورسم أسرة ومقاعد بمساقط أفقية ورأسية وجانبية سليمة . وجمع فى الشكل الواحد منها بين أكثر من مسقط واحد رغبة فى إظهار خصائصها على أوضح ماتكون . وعلى أساس هذه الرغبة رسم أوانى ومرايا ومغارف داخل صناديق . ولكنه رسمها بتفاصيلها واضحة ظاهرة ، كأنما صنعت صناديقها من مادة شفافة أو كأنما نزعت عنها جوانب صناديقها وأغطيتها (١) .

وبقى من تماثيل كبار الأفراد فى عصر الأسرة الثالثة نحو ثمانية تماثيل يرجع أغلبها إلى مابعد عهد زوسر بقليل . ويمتاز الجالس منها بجلوس صاحبه على مقعد حجرى بسيط يقلد مقعداً خشبياً بمسند منخفض أو بغير مسند وله قوائم ملتوية من الخيزران قلدت فى الحجر بالنقش البارز ، وتفاوتت قيم هذه التماثيل من حيث مدى إتقانها ونجاح النحت فيها . وأفضلها ثلاثة : اثنان لرجل يدعى سبا ، والثالث لزوجته . وقد صنعها مثالها من الحجر الجيرى وأظهر نسبها سليمة وأظهر تفاصيل شعورها وثيابها ، ولون بعض أجزائها بألوان لايزال باقياً منها لون الكحل الأخضر حول العيون. ومثل عصا سبا فى جسم تمثاله بما يشبه النقش البارز أو النقش المجسم (٢) .

* * *

قصة المجاعة :

أشادت بعهد زوسر وحكمة إيمحوتب نقوش صخرة كبيرة باقية فى جزيرة

(١) J.E. Quibell, *Tomb of Hesy*, Cairo, 1913.

(٢) W.S. Smith, *A History of Egyptian Sculpture and Painting*, 17 f.

سهيل جنوبى مدينة أسوان ، ويطلق عليها اصطلاحاً اسم لوحة المجاعة . وتقص نقوشها أنه حدث فى العام الثامن عشر من حكم الملك زوسر وفى أيام الحاكم «مادير» رئيس معابد الجنوب وأمير النوبيين فى آبو ، أن زاد ضيق البلاد بعد أن عز الفيضان عليها سبع سنين ، فقلت الحبوب وتضاءلت المحاصيل ، واستشعر شيوخ البلاد وشبابها وأطفالها بآلام المجاعة . حتى الملك نفسه لحقه الهم وأراد أن يتحرى الأصول والأسباب لما لحق ببلده من بلاء ، فاستدعى رئيس الكهنة المرتلين إيمحوتب، وطلب إليه أن يتعرف منبع النهر والإله الذى يجمع ماءه . فاختلى إيمحتوتب بمخطوطاته ، وعاد إلى الملك يخبره بأن ثمة قرية تسيطر على النهر والنبع تسمى آبو، تعتبر بداية البداية وحاضرة الإقليم الأول ، وعندها يوجد المنبعان اللذان يصدر عنهما كل خير ، وهى المهد الذى ينشأ الفيضان عنده ويتجمع . ولما سمع زوسر هذه الفتوى سارع بتقديم الأضاحى والقرابين لأرباب وربات آبو (أسوان الحالية وإن اقتصر اسمها بعد ذلك على جزيرة أسوان) . غير أنه لما جن الليل عليه رأى فيما يرى النائم الإله خنوم مشكل البشر من صلصال يحدثه جهرة ويقول له : «أنا خنوم خالقك ، أنا من يرسل يديه من ورائك لأكفل لك التأييد وأهب بدنك العافية ، أنا الذى أوجدت اليابسة ، ووهبتك أحجار الجرانيت منذ القدم فشاد الناس بها المعابد وجددوا بها المنهدم ، أنا نون العظيم الموجود منذ الأزل ، أنا الفيضان الذى يرتفع حينما يشاء» . ولما أفاق الملك أيقن بأن صاحب السيطرة فى منطقة آبو هو «خنوم» دون سواه ، وأمر بأن توقف بعض خيرات المنطقة لصالحه وحده ، وأن يجعل لمعبده الحق فى الحصول على ضريبة العشر من صيد السمك والطيور وأعمال المحاجر والمتاجر بمنطقته . وأصدر مرسوماً خاصاً يحدد دائرة نفوذ الإله خنوم وخاطبه فيه، قائلاً : «جعلت حدك الغربى جبال مانون ، وحدك الشرقى جبال بخت ، من آبو إلى المحرقة اثنى عشر فرسخاً – بما فى ذلك الضفة الشرقية والضفة الغربية ، من أراضى الزراعة ودروب الصحراء ومجرى النهر وكل مكان يقع فى دائراة الفراسخ المذكورة آنفاً ...» .

نقشت نقوش لوحة المجاعة أو صخرة سهيل هذه فى صورتها الحالية فى عصر البطالمة ، وتعمدت تحديد فترة المجاعة وتسمية الوالى النوبى للإيحاء بالثقة فى روايتها . ولعل فى تحديد فترة السبع السنوات العجاف فيها ما يماثل فترة المجاعة فى مصر أيام يوسف عليه السلام ، كما أن فى ذكر رؤيا زوسر والاهتمام بتفسيرها مايشبه رؤيا الملك الذى عاصر يوسف . وإن فيما روته القصة عن استفتاء إيمحوتب وبحثه

فى المخطوطات مايزكى علمه ، ولو أن ماذكرته عن نشأة الفيضان عند أسوان مايشير إلى غموض أسبابه عند معاصريها ، كما أن فى تحديد نصيب معبد خنوم بعشر الدخل ماقد يوحى بأن نسبة العشر كانت نسبة مقبولة فى تحصيل الضرائب .
واتجه الباحثون فى شأن القصة وجهتين : وجهة ارتأى أصحابها، ومنهم ماسبرو أنها قصة مختلفة ابتدعها كهنة خنوم فى المنطقة لاستدرار عطف البطالمة، بعد أن طغت عليهم شهرة معبد للمعبودة إيسة أقيم عن قرب منهم فى جزيرة فيلاى وانصرفت إليه هدايا الملوك وقرابينهم . ثم وجهة أخرى ارتأى أصحابها ومنهم كورت زيته أن للقصة أصلاً قديماً ، وأن الأسلوب الذى كتبت به فى عصر البطالمة لايخلو من تعبيرات ترجع إلى الدولة القديمة ذاتها ، وأنه يحتمل لذلك أنه كان لها متن قديم مكتوب على الحجر أو غيره ولكنه تعرض للتلف بمرور الزمن ، فلما زاد أحد الملوك البطالمة المنطقة ، وهو بطليموس الخامس أو بطليموس العاشر ، قص الكهان عليه القصة كاملة ، فأمر بنقشها من جديد وتجديد معبد خنوم فى جزيرة سهيل ، مع تنفيذ ماجاء فى القصة لصالح معبده . ولازال هذا التفسير هو المقبول حتى الآن (١) .

التقويم المدنى (أو النجمى الشمسى) :

زاد الاهتمام فى عهد زوسر بمدينة أونو (أو عين شمس) مقر عبادة الشمس ، وحمل كبير مهندسيه إيمحوتب لقباً قد يقرأ «كبير المتطلعين (إلى السماء)» لرصد حركات الكواكب والنجوم فيها ، باعتباره رئيس الفلكيين فى مدينته ، أو يقرأ بما يعنى أنه «المتطلع إلى (رب الشمس) الكبير» باعتباره رئيس كهنته . وارتبطت رعاية زوسر للمدينة بخطوة حضارية جديدة اهتدى علماؤها فيها إلى ابتداع تقويم مدنى سنوى جمع بين خصائص التقويم النجمى والتقويم الشمسى ونفذوه منذ عام ٢٧٧٣ ق.م على وجه التقريب ، واحتسبوا أيام السنة على أساسه ٣٦٥ يوماً وقسموها إثنى عشر شهراً ، ضمنوا كل شهر منها ثلاثين يوماً ، ثم اعتبروا الأيام الخمسة الأخيرة أيام أعياد تحتفل الدولة فيها بموالد الأرباب ، أوزير ، وإيسة ، وست ، ونبت حت ، وحور (أى أوزيريس وست ونفتيس وحورس) . وهى أيام النسىء الخمسة أو الأيام التكميلية أو الإضافية التى تحتفظ السنة الزراعية بها حتى الآن ، ودعا قدم هذا الإجراء البارع إلى تعدد الآراء فى تفسير مراحله .

(١) See. J. Vandier, *La famine dans l'Egypte ancienne*, Le Caire, 1936, 39 f., 132 f.

وكان كل من الباحثين العلماء كورت زيته ، ولودفيج بورخارت ، وإدوارد ماير، قد ردوا هذه الخطوة الحضارية إلى أيام مجد عين شمس السياسى خلال فجر التاريخ ، وبدأوا التقويم السنوى على هذا الأساس فى فترة تقع بين عامى ٤٢٤٢ – ٤٢٣٦ ق.م. ثم قام جدل طويل اعترض اعتقادهم ، وهو جدل لايخلو من منطقية ووجاهة(١) ، ومؤداه أن ابتداع المصريين لهذا التقويم لم يكن بالأمر الهين ، وأنه كان يتطلب ملاحظة طويلة ويعتمد على نضج عقلى واسع لم يكن من السهل أن يتوافر فى دنياهم قبل عهد زوسر . وأنه إذا كان المصريون قد اهتدوا إلى تقويم سنوى قبل عهده، فهو التقويم النيلى ، أو التقويم الذى يبدأ ببداية وصول فيضان النيل إلى منطقة معينة ذات أهمية سياسية أو قيمة حيوية ، وهى منطقة برحعبى أى «بيت إله الفيضان» بين عين شمس ومنف قرب جزيرة الروضة أو مصر العتيقة الحالية . وإذا كان المصريون قد اهتدوا إلى التأريخ بالشهور قبل عهد زوسر ، وهذا مؤكد ، فهو تأريخ اعتمد على الدورة القمرية الشهرية، التى يمكن ترسم بدايتها ونهايتها فى يسر وسهولة . ولكن شيئاً فشيئاً لحظ المصريون المحتفلون بوفاء نيلهم أن فجر وصول فيضانه إلى مايجاور عين شمس ومنف يقترن بظاهرة سماوية معينة ، وهى أن نجم الشعرى ذى الضوء الساطع (صيفاً بخاة) ، والذى اعتبروه أنثى (مثل العرب الشماليين دون العرب الجنوبيين) وسموه «سوبدة» ، بعد أن يختفى عن مجال الرؤية نحو سبعين يوماً ، يعود فيتألق شروقه الاحتراقى حتى مطلع الشمس المبكر كأنما ليبشر ببداية الفيضان . ولما استقرت هذه الظاهرة فى أذهانهم ، ولحظوها زمناً ، أصبحوا يترقبون اجتماع هذه المشاهد الطبيعية عن قصد ، وأطلقوا على الشعرى لقب جالبة الفيضان ، واعتبروا بداية ظهورها فى الأفق الشرقى عند الفجر (بين ١٧، ١٩ يوليو من التقويم اليوليانى) أول يوم فى أول شهر فى أول فصل ، وهو فصل الفيضان. ثم حسبوا مابين كل ظهور صادق وظهور صادق آخر للشعرى مع مطلع الشمس ،

(١) Neugebauer, "Die Bedeutungslosigkeit der Sothisperiode", *Acta Orientalia*, XVIII (1938), 175 F. ; A. Scharff "Die Bedeutungslosigkeit des sogenannten altester Datums" in *Hist.* A., 1940, 3 f. ; Kees, *Göttergl.*, 259 f. ; R.W. Sloely, "The Origin of the 365-day Egyptian Calendar", *ASAE*, XLVIII, 261 f. ; Parker, *The Calendars of Ancient Egypt*, 1950, W. Smith, *JNES*, 1952, 122-123; *JEA* 1969, 36 f. ; *Orientlia* 43 (1974), 261-274; W. O'Neil, *Time and the Calendars*, 1976.

فوجدوه ٣٦٥ يوماً ، ووجدوه يتضمن اثنى عشر شهراً قمرياً وكسوراً لاتصل إلى نصف شهر ، فأكملوا عدة كل شهر ثلاثين يوماً ليميزوه عن الشهر القمرى بتثبيت أيامه ، وتبقت خمسة أيام احتسبوها نسيئاً وأعياداً . ثم قسموا السنة ثلاثة فصول : فصل الفيضان «آخة» ، وفصل خروج النبت (من الأرض) «برة» وهو يوازى فصل الشتاء ، ثم فصل التحاريق «شمو» . وكان من المتوقع أن تتم هذه الخطوة البارعة فى عهد نشط ينزع أهله إلى التجديد ويسعون إليه ، وكان فيما يرجحه المعترضون على رأى زيته وزملائه عهد زوسر . ولم يسجل المصريون شيئاً عن مراحل هذه الخطوة فى حينها أو فى عهد آخر من عهود الدولة القديمة ، ولكنهم أرخوا بالفصول والشهور الاثنى عشر بالفعل بعد عهد زوسر [١]. ثم أشار خلفاؤهم إلى دورة الشعرى فى وثائقهم ثلاث مرات على أقل تقدير على فترات متباعدة [٢] .

غير أن هذه الخطوة التى ربط المصريون بينها وبين دورة الشعرى ، كما ربطوا بينها وبين الانقلاب الشمسى قصداً أو اتفاقاً ، وقسموا الشهور على أساسها اثنى عشر شهراً ، كما قسموا الشهر ثلاثة أثلاث ، وسبقوا بها كل شعوب العالم القديم التى ظلت تؤرخ بالتقويم القمرى وحده - لم تكن بغير نقيصة تؤخذ عليها ، فهم قد احتسبوا سنتهم ٣٦٥ يوماً وليس ٣٦٥ يوماً وربع يوم ، وكان من شأن ربع اليوم أن يصبح يوماً كل أربع سنوات ، ويصبح شهراً كل ١٢١ عاماً وربع عام تقريباً ، وبمعنى آخر كان من شأن بداية السنة المدنية الفلكية (المرتبطة بالدورتين الشعرية والشمسية) أن تتأخر عن بداية الفيضان الفعلية شهراً بعد كل ١٤٥٦ عاماً .

ولم تتكرر ظاهرة الاتفاق بين البدايتين ، بداية السنة المدنية أو الفلكية وبداية الفيضان ، غير ثلاث مرات منذ أن بدأ المصريون توقيتهم : عام ٢٧٧٣ ق.م وهو عام البداية [٣] ، وعام ١٣١٧ ق.م وهو عام تولى سيتى الأول ، ثم عام ١٤٩م - وقد سجل

---

(١) ذكر فصل «شمو» فى حوليات سنفرو رأس الأسرة الرابعة .

وتأكد اعتبار السنة ٣٦٥ يوماً فى حوليات الأسرة الخامسة ، ولو أن هذا لايمنع من أنه بدأ قبلها .

(٢) فى وثائق من العام السابع لحكم سنوسرت الثالث حوالى عام ١٨٧٢ ، وفى العام التاسع من حكم أمنحوتب الأول حوالى عام ١٥٣٦ ، وخلال عهد تحوتمس الثالث حوالى عام ١٤٦٩ .

(٣) أو عام ٢٧٧٦ كما يظن شارف ، أو بين ٢٧٧٠-٢٧٦٩ كما يظن سيدنى سميث ، أو بين ٢٧٧٣-٢٧٧٠ كما يظن شتوك .

(*As. J.Arch.*, XLIX, 1945, 24).

هذه المرة الأخيرة الروماني المتوطن كنسورينوس، وأثبت فيها أن نجم سيريوس (أو سوثيس) ظهر في موعده ، واعتبرت حينذاك كرامة ساعدت على تقديس الامبراطور الروماني في وقتها (١) .

وأدرك المصريون هذا الفارق وتندر أدباؤهم به ، ولكنهم لم يعملوا على تلافيه، في حدود ماتدل عليه وثائقهم المعروفة حتى الآن ، إلى أن أشار قرار كانوب (أبو قير) الذى أصدره مجمع الكهنة المصريين عام ٢٣٧ ق.م إلى اتجاه النية حينذاك إلى إضافة يوم على أيام النسيء الخمسة، وذلك ، على حد قولهم ، «حتى لاتأتى أعياد الشتاء في الصيف نتيجة لتغير الشمس يوماً كل أربع سنوات ، وحتى تصبح أعياد الصيف الحالية أعياداً شتوية في المستقبل ، كما كان عليه حالها في الماضي» . غير أن التجديد لم يستمر ، ولم يتعدل التقويم بصورة دائمة إلا في عهد أوجسطوس عام ٣٠ ق.م حيث أعلن القويم اليولياني وثبت العام بمقتضاه ٣٦٥ يوماً وربع يوم ، والطريف أن كلاً من استرابون وديودور الصقلي قد ردا الفضل الأصيل في هذا التعديل الأخير إلى المصريين أنفسهم، واعتبراه اختراعاً ذكياً قديماً (٢) .

وعلى أية حال.. فلايزال التقويم المصرى القديم مأخوذاً به في أساسه حتى الآن في السنة الزراعية ، أو مايعرف تجاوزاً باسم السنة القبطية (٣) . ويفضله المزارعون عادة على التقويم الميلادى وشهوره الأفرنجية ، ويرونه أنسب لتعيين مواقيت الحرث والبذر والرى والحصاد على الرغم من نقص ربع اليوم الفلكى فيه . ولازال بعض المزارعين يحتفظون بذكريات أجدادهم في تسمية ليلة الفيضان «ليلة النقطة» أو «ليلة سقوط الدمعة ، في ١٢ بؤونة ، أي الليلة التى دمعت فيها الربة إيسة (إيزيس) المرموز إليها بنجم الشعرى على زوجها أوزير فجرى الفيضان من دمعتها . وظل المصريون القدماء يميزون الشهور بأرقامها ، إلى أن ربطوا بينها وبين أسماء ومناسبات مقدسة خلال الدولة الحديثة ، ثم استقرت هذه الأسماء ، منذ القرن السادس ق.م، وبقيت حتى الآن مع قليل من التحريف اللفظى، مثل : توت وكان يوافق عيد الإله تحوتى ، وهاتور وكان يوافق عيد الربة حتحور ، وهلم جرا .

* * *

(١) أما في عرف من رجعوا ببداية التوقيت إلى فجر التاريخ، فقد حدث التوافق أربع مرات، بدأت أولاها بين ٤٢٤١ و ٤٢٣٦ ق.م. ، أو بين ٤٢٢٩ و ٤٢٢٦ ق.م .

(٢) *See*, Strabo, XVII, 29; Diodorus, I, 50.

(٣) تبدأ هذه الأخيرة بعام الشهداء في عهد دقلديانوس عام ٢٨٤م .

تعاقب بعد زوسر عدد من الملوك ، جعلتهم القوائم الملكية بين الأربعة والستة ، وجعلهم مانيتون ثمانية ، واحتفظت الآثار القائمة بأسماء ما بين الثلاثة والخمسة منهم. ثم انتهت أيام الأسرة بالملك حونى ، وهو ملك ذكرت بردية تورين أنه حكم أربعة وعشرين عاماً . وقد شاد له مهندسوه هرماً ضخماً فى منطقة ميدوم غيروا تصميمه أكثر من مرة ، وجعلوه فى نهاية أمره على هيئة هرم مدرج ذى ثمان درجات كاملة . وبدأوا فى كساء درجاته بأحجار جيرية بيضاء ، ولكن الملك مات قبل إتمامه ، فأتموه فى عهد ولده نسفرو أول ملوك الأسرة الرابعة ، واستفادوا من تجارب عهده لإنشاء هرم كامل حاد الزوايا مستوى الخطوط ، وعملوا بإذنه ، أى بإذن سنفرو، على تنفيذ هذا التجديد فى هرم أبيه ، فملأوا الفراغات بين درجاته بالأحجار وكسوه ببلاطات جيرية كبيرة ليكون مستوى الجوانب أو ليتخذ هيئة الهرم الكامل ، ولسنا ندرى مدى نجاحهم فى تحقيق هذه الغاية ؛ إذ تهدمت أغلب أجزاء الهرم ، ولم يتبق منه غير نحو ثلث ارتفاعه الأصلى .

* * *

ثانياً - الروعة والبنيان الراسخ فى عصر الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ - ٢٥٦٠ . ق.م.)

تجديدات عهد سنفرو :

بدأ عصر الأسرة الرابعة بعهد الملك «سنفرو» (نب ماعت) ، وكان منذ بدايته بشيراً بنهضة جديدة اتسع خلالها نشاط مصر التجاى مع جيرانها ، وامتد نشاطها العسكرى إلى نهايات حدودها ، وتطورت فيها عمائرها وفنونها تطوراً واسعاً .

فاتسع نطاق تبادلها التجارى مع فينيقيا بحيث سجلت حوليات سنفرو فى قائمة بالرمو وورد أربعين سفينة منها محملة بأخشاب «عش» خلال عام واحد من أعوام حكمه (١) ، وهى أخشاب من فصيلة الأرز أو الصنوبر استخدم رجاله بعضها فى تشييد سفن كبيرة بلغ طول بعضها مائة ذراع ، أى نحو اثنين وخمسين متراً ، كما استخدموا بعضها الآخر فى صناعة أبواب قصوره ، وفى بعض الأجزاء الداخلية من هرمه .

ويبدو أن عهده كان ذا اهتمام خاص بالملاحة ، إذ ذكرت حولياته مشروعاً لصناعة ستين سفينة ، لكل سفينة منها ستة عشر مجذافاً ، دفعة واحدة (٢) . وزكت ضخامة المركب النهرية التى عثر عليها بجوار هرم ولده خوفو صدق ماروته حوليات حجر بالرمو عن ضخامة السفن البحرية فى عهده .

وسجلت الحوليات نفسها نشاطاً عسكرياً واسعاً فى سبيل تأمين الحدود الجنوبية والغربية وتعويد قبائلها النظام والطاعة ، واشتدت عليهم بعض الشيء فى هذا السبيل . وتوفر للعهد نشاط مماثل على الحدود الشرقية وفى شبه جزيرة سيناء . وكانت لسيناء كإقليم متطرف من مصر أهمية فى اقتصاديات البلاد ؛ إذ ظلت المورد الرئيسى للفيروز والدهنج والنحاس ، وسمى جزء منها باسم مدرجات الفيروز ، ثم هى بموقعها الحدودى تحف بطرق التجارة البرية بين مصر وبين جنوب الشام . غير أنها لتطرفها واتساعها وصحراويتها وجدبها كثيراً مادفع الفقر قبائلها البدوية من حين إلى حين إلى تعقب بعثات الاستثمار وقوافل التجارة ونهب مؤنها وبضائعها . وتعين لذلك على

(١) Palermo, rt. VI, 2, *and see, Wb.* I, 228 for "abies ciliciea" cedar wood.

(٢) *Urk.* I, 236.

الحكومات القائمة فى مصر القديمة أن تباشر حماية بعثاتها وقوافلها بقوات عسكرية تصحبها وتكفل لها الأمان والهيبة . ولم يكن الأمر يخلو من اشتباكات بين قوات الحكومة والبدو . وحرص قادة هذه القوات على أن يسجلوا أخبار نشاطهم على صخور سيناء ولاسيما صخور (وادى) مغارة ، وينسبوها إلى ملكهم ويصوروه على الصخر وهو يؤدب كبير شيوخ البدو ، ويكاد يهوى على رأسه بمقمعته ولكن دون أن يقتله . واحتفظت صخور مغارة بصورة من هذا القبيل للملك سنفرو ، تعتبر من مفاخر النقش على الصخر فى عهده ، على الرغم من أنها نقشت على صخر ردئ [١]. وظلت ذكرى سنفرو ماثلة فى شبه جزيرة سيناء أجيالاً طويلة ، حتى اعتبره خلفاؤه من حملتها ، وقدسوه فيها ، وضموه إلى رعاتها من الأرباب [٢] ، وظلت بعض نقط الحراسة على الحدود الشمالية الشرقية تعرف باسمه حتى الدولة الوسطى على أقل تقدير .

تطور بناء الهرم :

وضحت نتائج النشاط التجارى والسياسى فى عهد سنفرو ، فى آثاره وآثار أسرته ، وفى نصوص رعاياه [٣] . وسمح رخاء عهده لرجاله بأن يشيدوا له هرمين عظيمين بمعابدهما فى منطقة دهشور ، وأن يكملو هرم أبيه حونى فى ميدوم. ومثلت هذه الأهرام وملحقاتها مرحلة جديدة من مراحل العمارة المصرية . فقد شاد له مهندسه هرمه فى دهشور ليكون هرماً مكتمل الشكل منذ بدايته ، وبدأ بناءه بزاوية ميل مقدارها ٥٤,١٤ درجة ، ولكنه بعد أن بلغ بهذا الميل مايزيد ارتفاعه عن تسعة وأربعين متراً ، أدرك أنه لو واصل البناء على أساسه ، فسوف يرتفع الهرم إلى أكثر مما قدره له أو أكثر مما تحتمل قاعدته . ولحظ أن بعض الجدران الداخلية للهرم بدأت تتشقق بالفعل ، فغير زاوية الميل إلى ٥٣,٢١٠ درجة ، وأكمل الهرم حتى بلغ ارتفاعه ١٠١,١٥ من الأمتار ، ولكنه ظهر فى هيئته الأخيرة منكسر الزاوية فى منتصفه على غير ما أراده صاحبه ومهندسه . ولهذا استغل المهندس سعة إمكانيات عهده فى تشييد هرم آخر شمالى الهرم الأول بما يقل عن الكيلو مترين، واستفاد فى تصميمه من

---

(١) Petrie, *Researches in Sinai*, pls. 50,51.

(٢) Breasted, *Ancient Records*, I, 722, ; L. D., II, 137 g.

(٣) Breasted, *op. cit.*, I, 165, 5; 312, 21.

تجاريه فى الهرم السابق ، فبدأه بزاوية ميل مناسبة تبلغ ٤٣,٤٠ درجة . وعندما أتمه أصبح أول هرم كامل صحيح النسب حاد الزاويا مستوى الجوانب ، بلغ ارتفاعه نحو ٩٩ متراً . وقد كسى هو الهرم الأول بأحجار جيرية بيضاء ملساء (١) . وأطلق الكهنة برضاء الملك أو بوحيه ، على كل هرم من الهرمين اسم «خع سنفرو» ربما بمعنى شع سنفرو ، أو تجلى سنفرو (٢) . وليس من المستبعد أنهم جعلوا بين هذا الاسم وبين كساء الهرمين وصاحب الهرمين نوعاً من الارتباط المقصود ، فقد كان من شأن الكساء الأبيض الناصع لكل هرم أن يستقبل أشعة الشمس القوية ويعكس نورها على ماحوله ، فيبدو النور فى أسفل الوادى وكأنما يصدر عن الهرم نفسه ، أو بمعنى آخر كأنما يشع عن صاحبه الثاوى فيه .

كان الشكل الهرمى ثمرة أخيرة للتطور المعمارى الطويل، الذى بدأ فى عصر بداية الأسرات بالمصطبة مائلة الجوانب ذات المسطح الواحد، وانتقل منها إلى المصطبة ذات المسطحين أى ذات الإضافة الواحدة المحيطة بها ، والمصطبة ذات المسطحات الثلاثة أى ذات الإضافتين المحيطتين بها . ثم تطور فى عصر الأسرة الثالثة إلى هرم زوسر المدرج ، وبعده إلى هرم ميدوم الذى حاول مهندسوه أن يجعلوه كاملاً مستوياً فى مظهره مدرجاً فى مخبره . ثم ارتقى فى بداية عصر الأسرة الرابعة إلى هرم دهشور الجنوبى الذى أظهر نواحي الخطأ والصواب فى التجارب المعمارية لمنشئه ، وانتهى أخيراً إلى هرم دهشور الشمالي الذى نجح مهندسه فى تنفيذ هيئته الهرمية كاملة . وليس مايمنع من أن نفترض أن أصحاب هذا التطور الهرمى قد استرشدوا فى بعض مراحله بنموذج طبيعى ماثل فى بيئتهم ، وهو مظهر التلال الهرمية أو المخروطية التى تحف بالوادى من شرقه وغربه ، والتى كان المعماريون يرونها رأى العين كلما جالوا فى الصحراء التى تحيط بمناطق الجبانات نفسها .

ألحق رجال سنفرو بهرمه الجنوبى معبدين ، معبداً صغيراً يلاصق الواجهة

---

(١) A. Fakhry, *The Monuments of Sneferu*, Cairo, 1959; G. Reisner, *Development...*, 197, f.,
199 f.; Edwards. *Pyramids of Egypt*, 68 f., 82 f. ; *Lauer, Le Probléme des Pyramides*, Paris, 1949.

(٢) Gauthier, *L.R.*, 65. – ولكنهم ميزوا بين كل منهما بقولهم الأمامى والخلفى أو القبلى والبحرى.

الشرقية للهرم ، وينفتح ناحية الشرق ، ويسمى اصطلاحاً باسم معبد الشعائر ، ومعبداً آخر عند اتصال الهضبة التى شادوا الهرم فوقها بالوادى المنزرع ، ويسمى اصطلاحاً باسم معبد الوادى . ويصل بين المعبدين طريق ممهد صاعد . وجرت العادة على تخصيص المعبد الأول لأداء الدعوات والشعائر اليومية والموسمية لصالح الملك المتوفى وتقديم القرابين باسم روحه؛ لتنعم بها وتستفيد منها فائدة معنوية تناسبها وتناسب عالمها الذى تعيش فيه (ولهذا أسميناه معبد الشعائر وليس المعبد الجنائزى كما تسميه أكثر المؤلفات الحديثة ، حيث تقل صلته بالجنازة) . وقد أسلفنا فى حديثنا عن عصر الأسرة الثالثة مايحتمل من ارتباط وجود معبد الشعائر ناحية الشمال من هرم زوسر بعقائد أهل عصره عن انتقال أرواح ملوكهم وأخبارهم بعد الموت إلى السماء وحياتها بين النجوم النيرة الشمالية الخالدة وهى مجموعة النجم القطبى . أما اتجاه معبد سنفرو إلى الشرق فيمكن تعليله بأحد تعليلين وهما : أن تشييد معابد الأهرام فى الصحراء الغربية فى أغلب الأحوال أثار رغبة أصحابها فى أن تستقبل واجهاتها ومداخلها دنيا الأحياء فى الشرق أى فى الوادى المنزرع ، وتستقبل مواكب الكهنة ومواكب القرابين الآتية منه ، وكانت هذه هى الرغبة نفسها، التى حدت بكبار أصحاب المصاطب القديمة إلى بناء مقاصير قربان مقابرهم ناحية الشرق منذ عصر الأسرة الأولى . أما التعليل الثانى فهو رغبة منشئ المعبد أو صاحبه فى أن يتجه بمدخله ناحية الشمس عند شروقها ، إما تعبداً لرب الشمس ، أو بناء على اعتقاد جديد بأن روح الملك سوف تصحب رب الشمس فى تجواله فى سماء الدنيا نهاراً وسماء الآخرة ليلاً . ولما كان من المفروض أن تظهر معه فى الشرق كل صباح، وجب أن ينفتح باب معبدها إلى ناحية الشرق أيضاً ليستقبلها كلما رنت إلى زيارة هذا المعبد حين تقدم القرابين فيه باسم صاحبها كل صباح ، وبعد أن تكون قد أتمت رحلتها الليلية مع ربها. وأصبح تشييد معبد الشعائر شرقى الهرم تقليداً متبعاً منذ عهد سنفرو ، بينما اقتصر الاتجاه ناحية الشمال على مداخل الأهرام دون مداخل معابدها، (وإن كان هرم سنفرو الجنوبى قد تضمنت مدخلين، مدخلاً شمالياً وآخر غربيا) ، ويبدو فى هذا الازدواج بين الشمال والشرق مايتصل بخاصية لازمت الحضارة المصرية فى كل أطوارها ، وهى روح المحافظة ومسايرة الجديد للقديم دون أن يقضى عليه .

معالم حضارية أخرى :

وضحت مظاهر الرفاهة والغنى والحياة الرغدة فى مقابر أسرة سنفرو فى

ميدوم ودهشور والجيزة ، ومنها مقبرة زوجته حوتب حرس التى يعتقد الأثرى ريزنر أن أغلب محتوياتها قد نهبت فى دهشور فى عهد ولدها العظيم خوفو ، وإذا صح هذا كان معناه أن التقديس الرسمى للملوك لم يكن يمنع بعض رعاياهم من الاعتداء على آثارهم إذا سنحت لهم الفرصة ودفعهم دافع الطمع . ولازال القليل الباقى من آثار حوتب حرس التى نقلت إلى مقبرة أخرى فى الجيزة ، ينم عن ذوق رفيع فى صناعة وزخرفة سريرها ومقعدها ومحفتها ، وتطعيم أخشابها بالأبنوس وتصفيحها برقائق الذهب ، وصناعة حليها الفضة وملاعقها الذهبية وأوانيها المرمرية وأباريقها وقنانى دهونها الأنيقة ، ثم فى تنفيذ نقوشها الصغيرة التى صورت الملكة وسجلت ألقابها ، الموصورت زوجها على عرشه ، وصورت عدة زخارف على هيئة الفراشات والحيات فى روعة وإتقان بالغين . ثم نقوش الأميرين نفرماعت ، ورع حوتب فى ميدوم ، وقد صورت وجوه العمل اليومى فى الزراعة وتربية الحيوان والملاحة والصيد فضلاً عن بعض وسائل المرح الخفيف . ورسوم مقبرة الأميرة إتت زوجة الأمير نفرماعت التى تعتبر من أفضل رسوم الدولة القديمة . وأهم مابقى منها هى اللوحة المشهورة بلوحة الأوز وتتميز بدقة تفاصيلها وألوانها ووضوح نسيج ريش طيورها ، مع طرافة توزيع ظلالها ، وتصوير الحشائش وحبات الحصى الصغيرة تحت أقدام هذه الطيور . وأخيراً تمثالا الأمير رع حوتب وزوجته نفرة ، وكل منهما غنى عن التعريف بما اكتمل فيه من سلامة النسب والحيوية المتدفقة التى زاد منها احتفاظ كل منهما بألوانه الأصيلة وتطعيم عينيه ، مع الاهتمام البالغ بتصوير ملامح الوجهين والنجح فى التعبير عن مشاعر صاحبيهما (١) ، ولازال المتحف المصرى بالقاهرة يفخر باحتوائهما .

ولم تقتصر مظاهر الرخاء فى عهد سنفرو على آثاره وآثار أسرته ، وإنما دلت نصوص فردية من عهده على أن مجال الثراء ومجال الترقى فى المناصب الحكومية كانا متاحين للنابهين من أفراد شعبه . ومن هذه النصوص نص رجل يدعى مثن ، ذكر فيه أنه لم يرث عن أبيه غلالاً ولا أثاثاً ، وإنما قليلاً من المدخرات والأتباع ، وأنه بدأ حياته الوظيفية باشكاتباً لإدارة التموين وأميناً على محتوياتها ، ثم ترقى فى الوظائف حتى ولى إدارة بعض أقاليم الوجهين ، القبلى والبحرى ، فضلاً عن رئاسة

(١) توجد هذه النماذج بالمتحف المصرى .

عدد من مدنهما الكبيرة ، وذكر أنه كوفئ باقطاعية واسعة من الأرض ، واستغل اثنتى عشرة ضيعة لحسابه ، وشاد لنفسه دواراً أحاطت به حدائق غناء ، وبلغت مساحته معها نحو عشرة آلاف متر مربع ، فضلاً عن ثلاثين فداناً (٥٠ ستاة) ورثها عن أمه . ولم تقتصر إنعامات الدولة عليه على شئون دنياه وحدها ، وإنما كفلت له رزق آخرته ، فخصصت لمقبرته مائة رغيف يومياً قرباناً من معبد شعائر أم ولد الملك «نى ماعت حاب» (وهى أم الملك زوسر) (١) .

تلقب سنفرو بلقب معبر ، وهو «نب ماعت» ، أى رب العدالة ، وامتازت الأوضاع السياسية فى عهده بإنشاء منصب الوزارة رسمياً لأول مرة ، وقد أسنده إلى أمير كبير من أولاده أو من أسرته وهو نفرماعت . وظلت الوزارة فى الأمراء الكبار وحدهم حتى نهاية عصر الأسرة الرابعة . ويعتقد الأستاذ ريزنر أن الملوك جعلوها فى البداية فى أكبر أبناء الملكات الثانويات تعويضاً لهم عن وراثة العرش وإرضاء لأمهاتهم (٢) .

ذكرت بردية تورين أن سنفرو حكم أربعة وعشرين عاماً . وقد توافر له بين قومه نصيب واف من مدلول لقبه «نب ماعت» ، فاحتفظ له الأدب الشعبى بذكرى عطرة قلما احتفظ بها لملك سواه ، وتضمنت هذه الذكرى ثلاث روايات صورته جميعها على وتيرة متشابهة ، فوصفته بأنه «ملك فاضل» ، وصورته متواضعاً يميل إلى المعرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستماع ويكتب بنفسه ، ولا يأبى أن يسأل عما لايعرفه ، كما صورته يميل إلى المرح والاستمتاع ، وسوف نستشهد بروايتين منها فى فصل الأدب المصرى القديم .

عهد خوفو :

ورث عرش سنفرو ولده «خنوم خوفوى» ، أو «خوفو» كما اختصر اسمه قديماً ولازال يعرف به . واستفاد عهده من خبرات رجال أبيه وجهودهم المتنوعة ، وتوافر له من سعة السلطان أكثر مما توافر لأبيه ، كما توافر لمصر فى عهده من الإمكانات المادية والكفايات الفنية أكثر مما توافر لها فى عهد أبيه . وعلى الرغم من ذلك ،

---

(١) *Urk.*, I, 1 f. (2, 4, 9). ; *MDAIK* 1965, 1 f.

(٢) A. Weil, *Die Veziere des Pharonenreiches*, 1 ; G. Reisner, *The Tomb of Hetep Heres*, I, 9.

وعلى الرغم من شهرته كصاحب الهرم الأكبر ، فليس مايعرف عن أخبار عهده غير القليل . ومن هذا القليل أن نقش اسمه على جزء من محاجر منطقة جنوبية بعيدة تقع فى الصحراء الغربية شمال شرق أبو سنبل وشمال غرب توشكا . وقد استغل رجاله منجم الجمشت فيها ، كما قطعوا أحجار الديوريت منها ونقلوا عدداً من كتلها الضخمة نحو ٧٥٠ ميلاً إلى الجيزة ليصنعوا منها تماثيل مولاهم ، وليرصفوا بها أرضية معبده أيضاً فوق هضبة الجيزة ، وخلدوا بذلك آيات جلدهم مثلما استطاع مولاهم أن يخلد سلطانه بضخامة هرمه . والغريب أنه لم يبق من تماثيله شبه الكاملة غير تمثال صغير جالس لايزيد ارتفاعه عن ٩سم [١].

وظهر اسم خوفو على بعض آثار معبد قديم فى ميناء جبيل بلبنان ، ووجدت معه أسماء ملوك مصريين آخرين سبقوه ولحقوا به ، من العصر العتيق ومن الدولة القديمة [٢] . وليس مايعرف حتى الآن عن الصورة الأولى التى نشأ هذا المعبد عليها ، فهو قد يكون معبداً أمورى الأصل ، أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه فأهدوهم هدايا ثمينة تحمل أسماءهم ، وبهذا لم يمنعهم تمسكهم بدينهم المصرى من أن يتسامحوا مع عقائد جيرانهم ويعملوا على إثراء معابدهم . وقد يكون معبداً مصرى الأصل شادته جالية مصرية تجارية أقامت فى جبيل وعكفت فيه على عبادة أربابها المصريين وسجلت أسماء ملوكها على مقتنياته ، أو يكون أخيراً معبداً مصرياً كذلك أقامه أمراء جبيل مجاملة للمصريين المقيمين فى مدينتهم ، وتقبلوا له الهدايا من الملوك المصريين .

---

(١) *ASAE*, XXXVIII, 369 f. ; Kees, *Das alte Aeg*., 179. – ولكن يفهم من حوليات خوفو أنه نحت له ١٤ تمثالاً دفعة واحدة مثلثه واقفاً . ووجدت بقايا متناثرة كثيرة لتماثيله قرب هرمه . *Urk*., I, 238, 1; W.S. Smith, *A History of Egyptian Sculpture*..., 20-21.

(٢) P. Montet, *Byblos et l'Egypte*, 1928, 291, 68 f. ; Nelson, in *Beyruts*, 1934, 19 f. أطلق المصريون على جبيل فى نصوص الدولة القديمة اسم «كبن» ، وفى نصوص الدولة الوسطى «كبني» ، وفى نصوص الدولة الحديثة «كبنا» ربما تحريفاً عن كبلة أو جبلة . وذكرها الأشوريون باسم «جوبلا» .

H. Gauthier, *Dict. géog*., V, 197 f. ; Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, I, 257.

تعبيرات الهرم الأكبر :

ليس من شك فى أن الهرم الأكبر الذى أقيم باسم خوفو فوق هضبة الجيزة شمال العاصمة القديمة منف (أو إنب حج) هو الشاهد الصريح على عظمة عهد صاحبه . وليس من شك كذلك فى أن مهندس هذا الهرم قد استفاد من المحاولات والتجارب التى سبقت عهده، والتى حاول أصحابها أن يتموا بها هيئة الهرم الكامل لمقابر ملوكهم : لولا أنه بز محاولاتهم جميعاً بضخامة هرمه الهائلة والدقة البالغة التى أتم بها بنيانه ؛ فمنطقة هرم خوفو شغلت مساحة تقرب من ١٣ فداناً أو حوالى ٥٢,٩٠٠ متر مربع ، ويلغ ارتفاعه الأصلى نحو ١٤٦ متراً (أنقصتها العوامل الجوية إلى ١٣٨,٧٤٥ متراً) [١] . وافترض رأى حديث أنه كان يعلوه هريم من الجرانيت يشبه ما أخذت به أهرام أخرى متأخرة فى الزمن عنه – وهو رأى يصعب التسليم به، ولم يتكرر فى الهرمين المجاورين له فى الجيزة لولده وحفيده . وعلى الرغم من قيام قاعدة صلب الهرم فوق نتوء صخرى طبيعى ضخم ، فقد قدر ما استخدمه البناؤون فى بنائه بنحو مليونين وثلاثمائة ألف كتلة حجرية، تراوحت زنة الواحدة منها بين الطنين والنصف والثلاثة أطنان وماهو أكثر ، وبقى منها ٢٠١ مدماك [٢] ، وقد قطعوها جميعها من محاجر هضبة الجيزة التى شيدوا الهرم فوقها ، فيما عدا الكساء الخارجى للهرم فقد قطعوا لوحاته السميكة الضخمة من محاجر طرة (والمعصرة) ، التى امتازت بأحجارها الجيرية الناصعة البياض ، قرب ضفة النيل الشرقية المقابلة للضفة التى أقاموا الهرم على مقربة منها ، فضلاً عما ذكر عن احتمال استخدامهم أحجار الديوريت فى رصف أرضية معبده .

تعددت أغراض الهرم ، فبنى أساساً ليصبح ملجأ أميناً لجثة الملك ومقتنياته ، ثم ليكون شاهداً على ثرائه وسعة سلطانه ، ووسيلة الخلود ذكره وذيوع شهرته ، ودليلاً على رفعة شأنه فى الدنيا وفى الآخرة ، وصورة من صور رقى العمارة والفن فى عهده ؛ أى إنه لم يكن مجرد مقبرة فى جبانة ، ولم يكن مجرد جبل من الأحجار

(١) بلغ ارتفاعه وفقاً للمقاييس المصرية ٢٨٠ ذراعاً ، ويبلغ طول قاعدته ٤٤٠ ذراعاً ، أو مابين ٢٢٧ و ٢٣٠ متراً .

(٢) قدرت زنة أحجار الهرم بنحو ستة ملايين وربع مليون طن ، وقيل إنها تكفى لبناء سور يحيط بفرنسا ، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار وسمكه متراً ، أو سور يحيط بثلثى الكرة الأرضية عند خط الاستواء ويبلغ ارتفاعه قدماً واحداً .

يشهد بجبروت صاحبه ، وإنما كان ولايزال عملاً فنياً فى داخله وخارجه . وقد أطلق عليه صاحبه ، أو أطلق عليه كهنته ، اسم (آخت خوفو» بمعنى مشرق خوفو أو أفق خوفو ، بناء على الدافع نفسه الذى دعا أمثالهم إلى تسمية هرم أبيه «خع سنفرو» أى شع سنفرو . وللهرم مدخله الشمالى الذى غطت عليه أحجار الكساء الخارجى بعد إجراء مراسم الدفن ، ومدخل آخر اصطناعى يقع إلى أسفله، وقيل إنه نقر فى عهد الخليفة المأمون لدخول الهرم والبحث عن كنوزه . وتضمن الهرم ثلاث حجرات كبيرة ، حجرة أسفله نحتت فى باطن الصخر وهجرت قبل أن ينتهى العمل فيها ، وأخرى فى باطنه تسمى خطأ باسم غرفة الملكة وهجرت هى الأخرى بعد أن أوشك العمل فيها على الانتهاء ، وثالثة فى نصفه العلوى لدفن الملك فى تابوتها الجرانيتى . وفسر تعدد هذه الحجرات برأى مقبول ، مؤداه أن الهرم بنى على ثلاث مراحل، انتقل المهندس من مرحلة منها إلى أخرى نتيجة لازدياد خبراته وازدياد إمكانيات عهده ونتيجة لامتداد أجل ملكه . فبنى الهرم فى مرحلته الأولى ليكون هرماً متوسط الحجم مائل الجوانب حاد الزوايا مستوى الخطوط يشبه هرم دهشور ولكن تقع حجرة دفنه فى أسفله ، ثم أزاد حجمه بعد فترة ما وقبل أن يتم بناءه وشاد حجرة دفن جديدة فى باطنه ، ثم زاده للمرة الأخيرة وشاد الحجرة الثالثة للدفن فى نصفه العلوى من أحجار جرانيتية هائلة . وكان بارعاً حين أقام فوقها خمسة سقوف يتعاقب كل منها فوق الآخر بعد ارتفاع قليل ، رغبة فى تخفيف الضغط عن سقفها الأول الذى تألف من تسعة ألواح تزن فى مجموعها نحو ٤٠٠ طن . وجعل أربعة من هذه السقوف مسطحة، وبنى خامسها (وهو العلوى) مثلثاً على هيئة الجمالون لتوزيع ضغط البنيان العلوى من الهرم على جوانب الحجرة وسقوفها دون وسطها ، ويصل بين الغرفة الوسطى وغرفة الدفن العليا فى باطن الهرم دهليز صاعد متدرج السقف، يعتبر من روائع الفن المعمارى لعصره ، طوله ٤٧ متراً وارتفاعه ٨,٥ من الأمتار ، كسيت الأجزاء السفلى من جانبيه بأحجار مصقولة ضخمة ، وبرز كل مدماك من مداميكه العليا ، وعددها سبعة فى الجانبين ، عن المدماك الذى يرتكز عليه بمقدار ثلاث بوصات . والتصق كل مدماك منها بالآخر وكل حجر منها بالآخر فى إتقان شديد دفع بعض العلماء إلى المبالغة فى تقديره بقولهم إن مابين كل حجر وآخر لايكاد يسمح للشفرة بالنفاذ منه . ومن الأوصاف الممتعة فى تصوير مدى الدقة فى بناء الهرم ، مايقال من أن متوسط الخطأ فى طول جوانبه لايعدو ١ : ٤٠٠٠ ، وأن الخطأ

فى عمليات التربيع التى استخدمت فيه لايعدو كسراً عشرياً يساوى دقيقة واثنتى عشرة ثانية ، وأن معدل الخطأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لايزيد عن ٣ : ١٠٠ ، وأن الفواصل بين بعض أحجاره لاتزيد عن نصف ملليمتر .

ويتضح لظواهر الضخامة الفريدة مع البراعة الفائقة التى امتاز الهرم الأكبر بها أكثر من مدلول ، يتصل بالأوضاع السياسية والعملية والاقتصادية والاجتماعية والعقائدية فى عهد إنشائه ، فهى من الناحية السياسية تنم عن نظام من الحكم كان يسمح للملك صاحب الهرم بتصرف واسع فى إمكانات البلاد المادية والبشرية . وهى من الناحية المعمارية تشهد لمهندس الهرم أو مهندسيه [١] بدراية واسعة بمبادئ الهندسة وفن العمارة ، بحيث لايكاد العلم الحديث يجد خطأ واضحاً فيما أتموه . وهى من الناحية العملية تشهد للصناع الفنيين بمهارة أصيلة فى نحت الأحجار الضخمة وتسويتها وتثبيتها فيما يلائمها من جسم الهرم ، ومهارة أصيلة مماثلة فى تنفيذ ماخططه المهندسون بنجاح كبير . وهى من الناحية البشرية تشهد لآلاف العمال العاديين ، الذين اشتركوا فى بناء الهرم بجلد شديد وقوة احتمال كبيرة فى قطع أحجاره الضخمة من محاجرها ونقلها ثم رفعها إلى مواضعها من بنائه . ثم هى من الناحية الإدارية تشهد لرجال الإدارة المشرفين على نظام العمل فى الهرم بحظ كبير من الكفاية فى رسم الخطط لتجميع آلاف العمال وتموينهم ، وحسن الاستفادة بهم وضمان استمرار قوتهم البدنية على مواصلة العمل ، مع تنظيمهم وتقسيمهم فرقاً لا زالت بعض أسمائها مسجلة على أحجار متفرقة من جوانب الهرم [٢] .

ومن أمتع تعليقات المؤرخين القدامى على الأهرام المصرية قول المؤرخ ديودور الصقلى فى القرن الأولى ق.م : «واتفقت الآراء على أن الأهرام لم تحظ فى

(١) يعتقد يونكر وريزنر أن مهندس الهرم هو الأمير حم أونو ابن أخ خوفو أو ابن عمه ، وكان أميراً دلت ملامحه فى تمثاله على أنه كان ذا شخصية قوية آمرة ، ودلت سعة مصطبته وفخامتها على مكانته فى عصره – وتلقب بألقاب المهندس الملكى ومدير المنشآت المقدسة كلها (أو مدير أعمال الرب كلها) ، وربما ولى الوزارة .

G. Reisner, *The Tomb of Hetep-Heres*, I, 1955, 9.

واعتقد برستد أن مهندس الهرم أمير آخر يحتفظ المتحف المصرى بتابوته وهو «خوفو عنخ» .

(٢) عن فرق أخرى للعمال نسبت إلى اسم خوفو Reisner, *op. cit.*, 8; *Smith, JNES*, 1952, 125.

مصر بذلك المركز الممتاز لضخامة بنائها وباهظ تكاليفها فحسب ، بل ولدقة بنائها أيضاً ، ومهندسو المشروع أولى بالإعجاب فيما يقال من الملوك الذين دبروا المال لإنجازه ، لأن المهندسين استنفذوا فى إنجاز المشروع أرواحهم وهممهم ، بينما استغل الملوك الأموال التى ورثوها ومجهودات الآخرين» (الكتاب الأول : ٦٤) . ولم يكن المؤرخ الرحالة المسلم عبداللطيف البغدادى أقل توفيقاً فى القرن الثالث عشر الميلادى عن ديودور الصقلى فى تعليقه على الأهرام المصرية بقوله : «فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها ، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ماعندها لها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلاً هى غاية إمكانها ، حتى إنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم ، وتنطق عن علومهم وأذهانهم ، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم» .

والواقع أن الهرم الأكبر لايكاد يذكر إلا ويظهر معه التساؤل عما إذا كان المصريون قد شادوه وشادوا أمثاله ، راضين أم مجبرين ، مأجورين أم مسخرين . وإذا تجاوزنا آراء الأقدمين إلى آراء الباحثين المحدثين ، وجدنا كل فريق منهم قد ذهب مذهبه وتحمس له . فأكد هرمان يونكر أن روح الرضا والرغبة فى الإبداع وإشباع المزاج الفنى كانت غالبة على من تكفلوا ببنائه ، على أساس أن عوامل التسخير والإجبار يمكن أن تبنى الهرم الأكبر ، وربما ماهو أعظم منه ، ولكنها لم تكن لتستطيع أن تبلغ به إلى مابلغه بنيانه من الإتقان بحال من الأحوال ، وكرر رأى يونكر كثيرون وحوروا فيه . وأكد ألكسندر شارف من ناحيته أن تأليه المصريين لملوكهم وعبادتهم بعد موتهم هى التى دفعتهم إلى التفانى فى بناء أهرامهم ومعابدهم ، وأن حرص أفراد الطبقات الكادحة على أن يدفنوا حول هرم خوفو حتى بعد أربعة قرون من وفاته يؤكد بقاء ذكراه الطيبة بينهم وتبركهم بمنطقته ويبعد عنه سمة العتاة المستبدين . وكرر رأيه هو الآخر كثيرون وحوروا فيه . بينما ظهرت آراء أخرى ذهبت إلى النقيض ، فلم تر فى هرم خوفو وأمثاله سوى أثرة الملوك المصريين واستبدادهم وسوء استغلالهم للقوة البشرية والإمكانيت المادية فى دولتهم ، ولم تر غير عوامل التسخير وحدها هى القادرة على إقامة الأهرام وتوابعها .

ونعتقد من جانبنا أنه من الإسراف أن يقتصر القول على عامل واحد يسر لخوفو بناء هرمه أياً ماكان هذا العامل ، أو افتراض وسيلة واحدة أو عقيدة واحدة خضع لها كل القائمين على بناء هرمه . فليس من اليسير أن نفترض ، كما ذهب

يونكر ، أن كل من كدحوا فى سبيل بناء الهرم كانوا يشبعون مزاجهم الخالص ، وإن أمكن أن نفترض مثل هذا المزاج الخالص لكبار المهندسين ورؤساء الصناع ذوى الأجور العالية . وليس من اليسير كذلك أن نفترض ، كما ذهب شارف ، أن كل من حشدوا لبناء الهرم كانوا يهللون لما جمعوا له باسم الدين وتأليه الملوك كما يقول ، وأكثرهم من الفقراء الكادحين فى سبيل لقمة العيش . وليس من اليسير أخيراً أن نجعل القسوة أو السخرة علماً على سلطان الملوك المصريين على الإطلاق ودون استثناء ، كما ذهب أصحاب الرأى الثالث لمجرد ضخامة آثارهم . ونرى أنه من الأفضل أن تستكمل للقضية كل أطرافها المحتملة ، على ضوء من بقية الأوضاع الاقتصادية والسياسية والروحية ، التى عاش فى ظلها صاحب الهرم والقائمون على تشييد الهرم .

فقد اعتمدت مصر القديمة فى أغلب حياتها الزراعية على دورة زراعية سنوية رئيسية واحدة كانت تؤدى إلى تعطيل المزارعين عدة شهور من كل عام . وفى هذه الشهور ، أو فى البعض منها ، اعتاد الحكام أن يعملوا على تجميع أعداد كبيرة من عمال الأرض وزراعها ، ليقوموا بخدمة مشاريع الحكومة العامة ومنشآت الملوك الخاصة أساساً ، ثم ليكتسبوا من العمل فى هذه المشاريع والمنشآت مورد رزق مناسب لهم فى مواسم تعطلهم عن العمل ضمناً (وذلك إلى جانب الصناع الفنيين الدائمين) . وأشار المؤرخون الإغريق الذين زاروا مصر فى أواخر عصورها القديمة إلى مثل هذا الوضع ، فذكروا أنهم سمعوا أن العمل فى الهرم كان يجرى (وعلى الأصح كان يشتد) فى مواسم الفيضان بخاصة ، وفى فترات التعطل عن الزراعة كل عام . وترتب على ذلك فيما رووه أن بناء الهرم الأكبر وتوابعه قد استغرق نحو عشرين عاماً ، ولم يتم فى وقت قصير . وقد يزكى هذا ماسلف عن احتمال تغيير خطة بناء الهرم أكثر من مرة ، مما يعنى أن ضخامته الأخيرة المفرطة لم تستهدف منذ بدايته بحيث تتطلب التسخير الصريح .

واعترفنا من قبل بأنه توافر للملوك أو الفراعنة المصريين نظام من الحكم المطلق أتاح لهم إشرافاً واسعاً وهيمنة كبيرة على موارد البلاد وإمكاناتها المادية والبشرية ، ونضيف إلى ذلك أن هذا النظام نفسه من الحكم أتاح لحكوماتهم سلطاناً إدارياً واسعاً ، وجعل لها الحق فى أن تكلف من تشاء من القادرين على العمل من السكان ، بالعمل فى مشروعاتها ومشروعات الملوك الدنيوية والدينية ، حيثما أرادت . وهو تكليف لم يكن يعفى منه فيما يرجح غير طوائف المتعلمين من موظفى الدولة

وكهنة المعابد الكبار وبالتالى كبار أعيان المجتمع فى المدن وربما أعيان القرى أيضاً ، ولكن دون أن يصل إلى درجة التسخير المفروض .

وإلى جانب السيطرة السياسية والاقتصادية والإدارية الواسعة للملوك للفراعنة وحكوماتهم ، استحب هؤلاء الملوك لأنفسهم ، وأكد لهم أشياعهم ، قدراً كبيراً من القداسة الروحية والسيادة الدينية على رعاياهم (وإن لم يصل هذا القدر إلى حد التأله الصريح) ، فالملك رأس الحكومة ، كان يعتبر بالتالى رئيس الديانة ووريث الأرباب . والوسيط فيما بينهم وبين الناس ، كما كان يعتبر من المتحكمين فى شئون الآخرة والمهيمنين على مصائر أهلها . وآزر رجل الحاشية والكهان ملوكهم فيما ادعوه لأنفسهم من قداسة وسيادة ، ورددوه فى نصوصهم الدنيوية والدينية مراراً وتكراراً . فآمنت بهذا الذى ادعاه الملوك والكهان وأهل البلاط عهود ، وكفرت به عهود أخرى ، وسلمت بصحته طوائف وتجاهلته طوائف عداها ، غير أن الملوك استطاعوا فى أغلب أحوالهم أن يستغلوا سلطانهم الدينى والروحى التقليدى أوسع استغلال، واستطاعوا أن يوجهوه لتنفيذ رغائبهم وضخامة منشآتهم . وليس من المستبعد أن الكهان كانوا يتعمدون فى مواعظهم أن ييسروا على الكادحين شقاءهم فى سبيل تحصيل الرزق . ويخففوا عن المكلفين بمشروعات الملوك متاعبهم ، بشىء من الأمل فيما ينتظرهم فى الآخرة من الشفاعة والرضا وحسن الجزاء من هؤلاء الملوك، الذين أوهموهم أنه سوف يكون لهم فى شئون الحياة الثانية مثل ماتحكموا به فى شئون الحياة الدنيا سواء بسواء.

ولكن ألم يكن أولى بالفراعنة أو الملوك أن يوجهوا الجهود الضخمة التى بذلها رعاياهم فى تشييد أهرامهم ومعابدهم إلى نواح عمرانية أخرى، يعم نفعها على جمهرة شعبهم ؟ ليس من شك فى أننا لو حكمنا منطق عصرنا الحالى ، لأجبنا بالإيجاب ، وأن ذلك كان أولى بهم وأنفع لشعبهم فعلاً . ولكن يجب أن يقدر من ناحية أخرى أنه كان للدولة مشاريعها العمرانية العامة فعلاً ، وأنها تمتعت باستقرار متين، هيأ لها أن تنفذ مشاريعها طويلة الأجل وكفل لها الأمن الخارجى ، كما كفل لها الثراء العريض . وأن نقدر من ناحية أخرى أن لكل عصر منطقه ، وأن المبادئ التى يتبينها أو يعتنقها عصر معين، ليس من الضرورى أن يتبينها عصر آخر أو يسلم بها . ثم إنه ليس أيسر على أنصار الحاكم الأعلى فى كل مجتمع وكل زمان من أن يقنعوا أنفسهم أو يخدعوا أنفسهم ويخدعوا الناس معهم ، بأن حاكمهم الأعلى يعتبر رمزاً لشعبه ، وأنه ما من بأس فى أن تبذل الدولة والشعب فى سبيله كل مرتخص وغال ،

وأنه يرفع من سمعة أهل عهده أن يشيدوا له آثاراً تفوق ماشيده أسلافهم لسلفه ، ويرفع ذكرهم أن تتعجب الأجيال التالية لعهدهم مما أنفقوا جهودهم فى تشييده والارتفاع ببنيانه . والواقع أنه إذا كان لكل طائفة من الحكام آفة ، وكان من آفة ملوك آشور وفارس القدماء مثلاً حب البطش والنهم إلى الجبروت ، وكان من أمر أباطرة الرومان الأقدمين مثل أمرهم من القسوة والفساد وشدة التسلط ، ثم كان من آفة حكام العصور الوسطى الشرقيين بذل جانب كبير من موارد أممهم وبيوت أموالها فى سبيل بناء القصور وحياة الاستمتاع والإغداق على الشعراء ، فقد كان من آفة الملوك الفراعنة المصريين أنهم وجهوا جانباً كبيراً من موارد أرضهم إلى صالح كبرى المعابد والأهرام وإقامة التماثيل فضلاً عن القصور ومحتوياتها ، وابتغوا بذلك تكريم الأرباب ، ونعيم الآخرة ، وحسن الثواب ، واستمالة الكهان ، وأن يظهروا للشعب فى سمات التقوى والصلاح . كما انساقوا وراء التقليد ، وابتغوا خلود الذكر الشخصى والتفاخر فيما بينهم فى أغلب الأحيان .

ومهما يكن من أمر ، فقد اشترك آلاف العمال والصناع فى بناء هرم خوفو وبناء معبديه وملحقاته ، سواء عن سعى إلى تحصيل الرزق من ورائه ، أو بناء على تكليف (أو تسخير) من الحكومة ، أو طاعة للملك ذى القداسة التقليدية فى الدنيا ، أو تصديقاً لما أوهمهم الكهان به عما ينتظرهم منه فى الآخرة من الشفاعة وحسن المصير والجزاء - ولكن كيف كانوا يعاملون ؟ وهل كانوا يؤجرون ؟

ليس من آثار أو نصوص باقية لخوفو بخاصة تكشف عن طريقة معاملة رؤساء رجاله لعماله ، ولكن يمكن أن نستشهد فى سياق ذلك عن طريق غير مباشر بما سبق ذكره عن تخصيص شون للغلال فى مجموعة زوسر بسقارة لتموين العمال وقت بناء الهرم ثم تموين الكهنة بعد بنائه ، وماسوف نذكره عن تخصيص عدد من المساكن للعمال بجوار هرم خفرع لإيوائهم عوضاً عن تركهم يبيتون فى العراء . وقد تخلفت نصوص لأثرياء من عصر الأسرة الرابعة نفسها وأثرياء عهود مختلفة أخرى بعدها من الدولة القديمة ، تعمد أصحابها أن يصوروا بها الظروف التى شيدوا فيها مقابرهم ، والأساليب التى عاملوا بها من استأجروهم فيها ، فقال رجل من عصر الأسرة الرابعة: «كل صانع عمل فى مقبرتى أرضيته» . وردد آخرون فى نصوصهم قولهم : «أنفقت على قبرى هذا من متاعى الحلال ، ولم يحدث إطلاقاً أنى اغتصبت متاع شخص ما». وقال غيرهم فى نصوصهم : «أرضيت كل الصناع الذين أتموا لى عملاً فى هذا

القبر بالطعام والشراب وكل شيء طيب» . وقال بعض من تولوا رياسة الأتباع والعمال: «لم أضرب إنساناً وقع تحت يدى ، ولم أستبعد أحداً فى العمل» (١) . وليس من شك فى أن أمثال هذه الأقوال لاتخلو من مبالغات يستقبل الشخص بها حياته الأخرى ، ولكن ليس من المستبعد كذلك أنها لاتخلو من إثارات صدق ، وأنها تدل على وجود وازع دينى، كان يدعو الأثرياء إلى حسن معاملة الأتباع والأجراء واكتساب السمعة الطيبة من وراء ذلك .

فهل كان الملوك بدورهم ينفقون على دور أخراهم ، أى أهرامهم ومعابدها ، بسخاء ومن متاع حلال ؟ وهل كانوا يعملون عن طريق ممثليهم من رؤساء العمل ، على إرضاء من يعملون فى أهرامهم ويحرصون على إحسان معاملتهم ، مثل رعاياهم الأتقياء الأغنياء ؟ ذلك أمر لانستطيع أن نؤكد جواباً معيناً بشأنه ، فى ضوء النصوص المعروفة حتى الآن ، ولكن يمكن أن نشير من ناحية أخرى إلى أن النصوص الدينية التى سجلت فى أهرام الملوك المصريين منذ نهاية عصر الأسرة الخامسة، وعرفت باسم متون الأهرام، قد ألمحت مرات إلى أن أحدهم إنما كان يندمج بين أرباب الآخرة وحكامها، على أساس مايذكر عن قيامه بالعدل فى أرضه ودنياه وعمله على صوالح رعاياه (٢) .

كان هرم خوفو جزءاً من مجموعة معمارية واسعة ، خدمت صاحبها وخدمت فن العمارة ، وخدمت عقائد الدين . وكان من الضرورى أن يتناسق كل عنصر فيها مع بقية العناصر ، ويكمل كل جزء منها بقية الأجزاء . وتألفت هذه المجموعة من العناصر الرئيسية نفسها، التى تألفت منها مجموعة أبيه فى دهشور ، أى من معبد الشعائر ومعبد الوادى والطريق الواصل بينهما ، فضلاً عن عناصر أخرى فرعية ، مثل هرم صغير إلى الجنوب الشرقى من الهرم الكبير ، لايزال غرضه غير معروف حتى الآن ، وسور كبير يحيط بالهرم وتوابعه القريبة ، وعدة أهرام لزوجات الملك ، وعدد من مقابر كبار رجال المملكة، حرص أصحابها على أن يدفنوا حول هرم

(١) *Urk.*, I, 23, 8; 49; 50, 1-2; 70, 5-7; 236; 269, 11; 271; D. Dunham, *JEA*, XXIV, 5-6.

(٢) A. Moret, "Le jugement du roi dans les textes des Pyramides" L'Annuaire de *l'Ec. des Hautes Etudes*, 1922-23, 1-32; *La Nil*,..., 215 ; Breasted, *The Dawn of Concience*, 127-128.

فرعونهم، ليس فقط تقرباً منه ، وإرضاء لولى عهده ، ودلالة على التفافهم حوله، أو رغبة منهم فى أن يبعثوا فى معيته فى الحياة الثانية على نحو ماكانوا فى معيته فى الحياة الأولى وإنما رغبة منهم كذلك فى انتفاع موائد قرابينهم بخيرات ا لمعبدين الملحقين بهرمه، ورغبة في انتفاع مقابرهم بحالة الأمن والعمران التى كانت تكفلها كثرة الحراس والكهان والأتباع والعمال الذين يعيشون حول هرمه ويعملون فى معبديه.

وخضعت مصاطب كبار رجال الدولة حول الهرم لتخطيط مرسوم ، فخصص شرقى الهرم لمصاطب الأمراء ، وغربيه لمصاطب كبار الموظفين (فيما خلا استثناءات قليلة) . وشيدت أغلب هذه المصاطب على نسق متشابه ، ورتبت فى صفوف تفصل بينهما طرقات مستقيمة ، وتجمعت على جانبى الهرم ومن تحته ، فزادت من جلاله وأكدت ضخامته وسموه ، حتى بدا الهرم بينها وكأنه يشرف عليها من على، كما كان صاحبه يشرف على أصحابها فى دنياه من عل . وشاد عظماء الأسرة الرابعة مصاطبهم من الحجر لأول مرة بعد أن كان أسلافهم يشيدونها من اللبن خلال عصور الأسرات الثلاث الأولى ، وشادوها صماء لا فراغ فيها إلا فتحة من أعلاها تخترق وسطها وتخترق الأرض من تحتها حتى تصل إلى حجرة الدفن فى باطن الصخر وكان المعماريون يكسون جدران حجرة الدفن الصخرية أحياناً بألواح من الحجر الجيرى الأبيض ويلونونها بنقط حمراء؛ ليقلدوا بها هيئة الجرانيت فى مدافن ملوكهم . وألحقوا بالواجهة الشرقية لكل مصطبة مقصورة للقرابين ينتفع الزائرون بها فى المواسم والأعياد ويقدمون القرابين فيها باسم المتوفى ، ويدخلها الكاهن ليرتل دعواته وتعاويذه لمصلحة صاحبها . وكانوا يثبتون فى صدر جدارها الداخلى لوحة صغيرة مستطيلة من الحجر الجيرى تنقش عليها هيئة المتوفى جالساً أمام مائدته ، وينقش حوله اسمه وألقابه وأنواع القرابين التى يرجو أن تتوافر له فى حياته الثانية . وتعتبر نقوش هذه اللوحات من أروع مظاهر الإنتاج الفنى فى عهد خوفو ، وكانوا يضعون على سطح الأرض أسفل اللوحة مائدة للقرابين ، يقوم على جانبيها قائمان من الفخار تعلو كلاً منهما مبخرة لحرق البخور .

* * *

ولعل أقرب ما لفت الأنظار من آثار خوفو فى السنوات الماضية ، هى مراكبه ، فقد عثر له حتى الآن على خمسة مواضع لمراكب ، ثلاثة منها تقع إلى الشرق من

هرمه ، وقد نزعت منها مراكبها الخشبية أو بطانتها الخشبية فى عصور تالية على عهده واقتصرت فى حالتها الراهنة على مجرد حفر طويلة عميقة نحتت فى الصخر على هيئة المراكب ، وتتجه اثنتان منها اتجاهاً موازياً للضلع الشرقى للهرم بين الشمال والجنوب ، وتتعامد الثالثة على هذا الضلع بين الشرق والغرب ، ثم عثر له فى عام ١٩٥٤ على موضعين جديدين لمركبين كبيرتين منحوتين فى الصخر إلى جنوب هرمه . وتم كشف أحد الموضعين بالفعل ولازال الآخر مغطى بسقفه الحجرى المحكم حتى الآن . ووجدت فى الموضع المكتشف ألواح كثيرة لمركب خشبية ، يبلغ طولها ٤٣,٢٠ من الأمتار ويبلغ أكبر عرض لها نحو ستة أمتار ، وقد فككت أجزاؤها ورتبت إلى حد ما مع بعضها البعض بحيث يسهل تجميعها ، ووضعت معها مجاذيفها وحبالها وجوانب مقاصيرها (أو كبائنها) وأساطينها الخشبية التى شكلت تيجانها على هيئة سعف النخيل وزهور اللوتس . وذهب الرأى فى حينه إلى تسمية مركب خوفو هذه وأخواتها ، باسم مراكب الشمس ؛ والربط بينها وبين رحلتين يقوم إله الشمس بهما كل يوم ويصحب الملك المتوفى معه فيهما ، رحلة يجوب بها سماء الدنيا بالنهار وأخرى يجوب بها سماء العالم السفلى بالليل . ولكن صعب تأكيد هذه التسمية لعدة أسباب ، أهمها سببان، وهما : أن أشكال الحفر التى نحتت لمراكب خوفو أشكال متباينة تختلف من واحدة إلى أخرى ، وذلك مما يخالف القول بأن مراكبها كانت تخدم غرضاً واحداً وهو رحلة الملك مع إله الشمس فى سماء الدنيا أو سماء الآخرة . وأن المراكب التقليدية التى صورتها المناظر المصرية لرحلة إله الشمس ، تمتاز عادة برموز خاصة لم يعثر على واحد منها فى المركب التى كشف عنها ، على الرغم من أن أجزاءها وجدت كاملة تقريباً . ولهذا افترضت عدة احتمالات لأغراض هذه المراكب ، وهى : أن واحدة منها على الأقل استخدمت فى نقل جثة خوفو بعد وفاته ، من قصره إلى قرب هرمه ، ثم وضعت فى حفرتها وغطيت بأحجارها . ولعل المراكب الباقيات كان شأنها شأن غيرها من الأثاث الفاخر، الذى اعتاد المصريون على أن ينتفعوا به فى دنياهم ثم يضعوه فى مقابرهم أو أهرامهم لينتفعوا به فى العالم الآخر، لولا أن ضخامتها ، أى ضخامة المراكب ، حالت دون وضعها مع بقية الأثاث داخل الهرم نفسه ، فوضعت حوله . ومن المحتمل كذلك أن خوفو استخدم بقية مراكبه فى حياته فى مناسبات دينية ورسمية ، ومن هذه المناسبات مناسبة تتويجه (وكانت بعض مراسم التتويج تجرى على السفن فعلاً) ، ومناسبات تردده على معابد

الأرباب الكبار فى طول البلاد وعرضها ، وزياراته لمدن الحج المقدسة القديمة ، فضلاً عن جولاته الإدارية التى كان يقوم بها بين مراكز الدولة من حين إلى حين على متن النيل ، إلى جانب رحلاته الفردية والأسرية الخاصة .

كان الاسم الحورى لخوفو هو «مچدو» ، وكان اسمه الكامل هو «خنوم خوفوى» كما ذكرنا ، بمعنى «خنوم يحمينى» أو يرعانى ويدل على الإيمان بحاجته إلى كائن معبود أكثر قدرة منه يرعاه ويحميه ، وقد يكون هذا الإيمان إيمان أبويه اللذين سمياه باسمه ، ولكن ليس من المستبعد أن يكون خوفو قد آمن كذلك بمثله . وحكم خوفو ٢٣ عاماً ، وصور أديب مصرى الجانب الإنسانى فيه فى قصة تعرف باسم قصة خوفو والسحرة (أو الكهنة المرتلين) بمعنى أصح ، نخيله فيها يسامر أولاده ويستمع إلى قصصهم ويحترم العلماء ، ويجهل بعض ما يعرفه عالم من أهل عهده (راجع لهذا فصل الأدب) .

* * *

هزات مؤقتة - فى عهد چد فرع :

رتب خوفو أمره على أن يخلفه ولده الأكبر «كاوعب» على عرشه ، ويبدو أنه نشأه تنشئة طيبة شجعته على أن يظهر فى بعض تماثيله على هيئة الكاتب العالم ، وكانت هى المرة الأولى فيما نعلم ، التى ظهر فيها أمير عظيم متربعاً على هيئة الكتاب [١] . غير أن كاوعب هذا مات قبل وفاة أبيه بقليل بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت وفاته فاتحة لانقسام الأسرة الحاكمة إلى فروع ، تربص كل فرع منها بفرع آخر وحاول أن يستأثر بالحكم دونه . وكانت هذه الفروع ثلاثة : فرع أبناء الزوجة الرئيسية أم كاوعب وبقى منه أميران صغيران لم يستطيعا الوصول إلى العرش أو المطالبة به ، وهما چدف حور (أو ددف حور أو حور ددف) وباوفرع ، وفرعاً من زوجة ثانية ترأسه چد فرع ، ثم فرعاً من زوجة ثالثة ترأسه خفرع [٢] . واستطاع چد فرع أن يبلغ العرش بعد أبيه وتلقب بلقب «خبر» . ووفى لذكراه فأشرف على شعائره حين دفنه ووجد اسمه مسجلا على سقف مركبه . إلا أنه لم يكن كذلك بالنسبة لأغلب

(١) Boston Nos. 34 - 4 - 1; 25 - 1 - 393 (*Bull. Mus. Boston,* XXXIII, 75)

(٢) Papyrus Westcar, IV, 17, 18; VI, 2; VII, 9, 8; Tombs: G 7210 - 7220; G 7310 - 7320; Reisner, *Mycerinus,* 241 .

أمراء أسرته ، فاكتفى بأن تزوج من أرملة أخيه ولى العهد القديم كاوعب ليزكى حقه فى العرش عن طريقها ويضمها إلى صفه ، واصطفى بعض أمراء أسرته دون بعض آخر ، وتعمد أن يبتعد بهرمه عن منطقة الجيزة بما تتضمنه من مقابر الأمراء الكبار الذين لم يرض عنهم ، وشاد هرمه ومعبديه إلى الشمال الغربى منها بنحو ثمانية كيلو مترات فى منطقة أبى رواش [١] وتبعه فى ذلك أنصاره وأفراد حاشيته ، وشرعوا فى تشييد مقابرهم حول هرمه . وسرى الإهمال فى منطقة الجيزة بضع سنين ، واضطر أمراؤها إلى وقف العمل فى مقابرهم بعد أن شرعوا فى توسيعها ونقش جدرانها فى أواخر عهد أبيه ، وأتموا بناء مقاصيرها على عجل باللبن والدبش وليس بالحجر الكبير[٢] .

شغل هرم چد فرع مساحة تقل عن نصف المساحة التى قام عليها هرم أبيه ، ولم يبق من جزئه العلوى غير القليل ، وربما كان مكسواً كله بأحجار الجرانيت . وانصرف مهندسه فى حفر جزئه المنحوت فى باطن الأرض عن أسلوب الأسرة الرابعة وعاد به إلى أسلوب الأسرة الثالثة فحفره على هيئة خندق مكشوف وبئر عمودية . وشاد معبد شعائره إلى شرقه كالعادة ولكنه بنى بعض أجزائه باللبن ، وجعل الطريق الصاعد إلى شماله وليس إلى شرقه ومده نحو كيلو متر ونصف . ويغلب على الظن أن هذه التعديلات رجعت إلى طبيعة سطح الهضبة التى شيد الهرم وتوابعه عليها . وإن كان إدواردز قد أضاف احتمالا آخر ، وهو رغبة چد فرع فى الانصراف عن طراز الهرم الكامل إلى طراز الهرم المدرج مخاصمة منه للكهنة أنصار عقيدة الهرم الأول وإرضاء للكهنة أنصار عقيدة الهرم الثانى بعد أن ساعدوه على بلوغ العرش دون إخوته . ولكن ليس من أساس قوى لقبول هذا الرأى .

لم يطل حكم چد فرع أكثر من ثمان سنين ، غير أنه يبدو أن عهده لم يكن خاملا كل الخمول ، وإنما استمر نشاط الفن خلاله ماضياً قدماً فى طريقه ، ونحت له

---

(١) Reisner, *The Tomb of Hetep - Heres*, I, 8 (G 2120, 7430 - 7440); *Lexikon der Aegyptologie*, I, 1975, 24 - 25.

(٢) Boreux, *Guide - Catalogue* (Musée du Louvre) Pl. LXI; Smith, *A History of Egyptian Sculpture...* , pl. XI a - d

الفنانون عدة تماثيل رائعة أظهروا فيها ملامح وجهه بأسلوب واقعى صارم حزين [١].
وابتدعوا فى عهده ، فيما يظن ، أول نموذج لتماثيل أبو الهول برأس إنسان وجسم أسد رابض . وظهر وجه هذا النموذج دقيق التقاطيع ملوناً بلون أصفر وبغير لحية ، ولهذا افترض von W. Federn أنه وجه أنثى . وافترض يواقيم شبيجل أنه يمثل العدالة ماعت ولا يمثل الملك بالذات . ويبدو أن چد فرع تعهد أولاده بتربية طيبة سمحت لهم بأن يظهروا فى تماثيلهم على هيئة الكتاب والقراء فى ساحة معبده [٢] ، ولكنهم ظلوا بعيدين عن الحكم فى عهود خلفائه حتى قدر الأمير من فرعهم أن يعتلى العرش فى بداية عصر الأسرة الخامسة وأن يجمع شمل الفروع المتناحرة من بقية أسرته (راجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) .

عهد خفرع :

تولى العرش بعد چد فرع أخوه خفرع (حرفياً : خعفرع) [٣] فى ظروف غير معروفة ، واتخذ اللقب الحورى «وسر إب» أى قوى القلب) . وأعاد لبقية أفراد الأسرة الحاكمة مكانتهم ، كما أعاد للجيزة أهميتها ، وربما ضمن ولاء أسرة أخيه كاوعب ولى العهد القديم بأن تزوج إبنته (؟) وطال عهده خمسة وعشرين عاماً أو تزيد . ولكننا لا ندرى للأسف عما تم فى عهده من مشاريع عمرانية أو جهود حربية غير النادر القليل ، ولا ندرى معها غير أمرين ، وهما أن لقباً ملكياً جديداً تأكد ظهوره فى عهده ، وأن آثار العمارة والنحت التى تخلفت من أيامه تشهد بأن الفن خطا فى ظل سلام عهده خطوات واسعة لا تقل عن الخطوات التى مر بها فى عهد أبيه وعهد جده . فقد تلقب خفرع بلقب «مارع» أى إبن رع ، وكانت من المرات الأولى التى يصرح ملك فيها ببنوته للإله رع إله الشمس ، ثم أصبحت تقليدا ثابتا بعد عهده ، واكتملت بها ديباجة الألقاب الملكية الخمسة . وكان للملك المصرى هدفان من لقبه الجديد أحدهما هو مسايرة مذهب الشمس فى نشاطه الواضح السافر الممتد حتى عهده ، وهى

---

(١) Cairo 35137; v. W. Federn, *Archiv fur Age., Arch.*, Wien, 1938, 60; Spiegel, *op. cit.*, 528 *But see*, Smith, *op. cit.*, 33.

(٢) E. Chassinat, *Fond., Piot,* XXV, 64 f.; Cairo 36,; von Walter Federn, *op. cit.*, 57.

(٣) ذكره هيرودوت باسم خفرن ، وذكره مانيتون باسم سوفيس أوس اوفيس . ويرى رانكه وآخرون قراءة اسمه «رع خعف» (Ranke, *op. cit*) ، ولكن دون قرائن مقنعة .

مسايرة بدأها الملوك منذ عصر الأسرة الثانية حيث سمى أحدهم «نبى رع» ، وفى أوائل عصر الأسرة الثالثة ، وربما سايرها كذلك سنفرو مؤسس الأسرة الرابع حين شاد معبد شعائره ومعبد شعائر أبيه الأخروية إلى الشرق من هرميهما، بدلاً من ناحية الشمال التى شاد ملوك الأسرة الثالثة معابدهم فيها . ثم استمر خوفو على هذه السياسة حين سمى ثلاثة من أبنائه على أقل تقدير بأسماء يتداخل فيها اسم رع ، وهم : چد فرع ، وباو فرع ، وخفرع . أما الهدف الثانى من اللقب الجديد فهو رغبة الملك فى التدليل على أنه يعتلى العرش بناء على بنوته للمعبود رع صاحب العرش المقدس القديم وبتفويض منه ، كما تروى الأساطير الدينية [١] ، وربما عن رغبة منه كذلك فى أن يتبرك باسمه وأن يكتب له دوام مثل دوامه ، ولو خلال حياته الثانية [٢] .

آثار عهده : تألفت أهم آثار العمارة فى عهده ، من هرمه ومعبديه والطريق الواصل بينهما . ويقل هرم خفرع عن هرم أبيه نوعاً ما من حيث الضخامة والإرتفاع، حيث قارب ارتفاعه ١٤٣ متراً (وبلغ ارتفاعه الآن ١٣٦ متراً أو أقل) . ويبلغ طول ضلعه ٢١٥,٥ من الأمتار (وبلغ طول ضلع هرم أبيه ٢٣٠ متراً) ولكن مهندس هرم خفرع شاده على جانب من هضبة الجيزة أكثر ارتفاعاً بقليل من الجانب الذى بنى عليه هرم أبيه فعوضه بعض الشىء عن قلة ارتفاعه عنه . وسماه صاحبه أو سماه كهنته «ورخفرع» بمعنى عظيم خفرع ، أو جلال خفرع . ويمتاز الهرم فى حالته الراهنة باحتفاظ قاعدته بمدماك من حجر الجرانيت ، واحتفظ قمته بأجزاء من ألواح الحجر الجيرى الأبيض الضخمة التى كانت تكسوه .

تبدأ ملحقات الهرم بمعبد الوادى ، وهو معبد ضخم يعتبر أكمل معبد من عصره وجد حتى الآن ، ولهذا نتخذ وصفه نموذجاً لأمثاله . وقد شيد من أحجار هضبة الجيزة ، وارتفعت واجهته نحو ثلاثة عشر متراً وكسيت بألواح ضخمة سميكة من الجرانيت ، وهى ظاهرة لاتقتصر أهميتها على الدلالة على ماكان يكسر المعبد من جلال وروعة فى عهد صاحبه . وإنما تمتد كذلك إلى تمجيد من قطعوا ونقلوا كل هذه الألواح الضخمة من محاجرها فى أسوان أو جبال البحر الأحمر حتى الجيزة رغم بساطة إمكانياتهم . وتستقبل واجهة المعبد ناحية الشرق بمدخلين ، يرمزان إلى

(١) H. Junker, *Die Politische Lehre...*, 63-4. cf. *ZAeS*, 1946, 129.

(٢) *cf.* Wainwright, *JEA*, XXV, 30 f.

الوجهين : الوجه القبلى والوجه البحرى ، ويجسدان اجتماع شمل أهلهما فى طاعة الملك وفى ساحة معبده . وكانت مواكب الحاشية فى حياة الملك ، ومواكب الزائرين بعد وفاته ، تصل إلى المعبد عن طريق قناة تربط بينه وبين النيل ، وتنتهى هذه القناة بمرساة يصعدها الزائرون والكهان ليقفوا قليلاً خاشعين فى مواجهة المعبد ومواجهة تمثال للملك كان يستقر داخل ناووس حجرى كبير ، لم يتبق مما يدل عليه حتى الآن غير موضع القاعدة التى كان مثبتاً فيها . ثم يعبرون مدخلى المعبد . وكان يحرس كل مدخل من هذين المدخلين ، تمثالان متقابلان (من الجرانيت) يمثلان الملك على هيئة أبوالهول ، بوجه إنسان وجسم أسد ، حراسة رمزية بطبيعة الحال[١] . ويفضى كل من المدخلين إلى ردهة مستطيلة تتصدرها مشكاة ضخمة عالية ، كان يستقر فيها تمثال خفرع بتاج الصعيد أو بتاج الدلتا ، مع ربة من الربات الأثيرات لديه مثل حتحور أو باسطة ، التى وصفته نقوش معبده بأنه كان حبيبها وأظهره أحد تماثيله الباقية يجلس بجانبها [٢] .

وتجتمع الوفود فى البهو الداخلى للمعبد ، وهو بهو رحب كسيت أرضيته بالألباستر الأبيض وكسيت جدرانه بالجرانيت الوردى ، ورفع سقفه ستة عشر عموداً ضخماً من الجرانيت . وكان يستقر على جوانبه ثلاثة وعشرون تمثالاً للفرعون مثلته جالساً فى مهابة يضم يمناه إلى صدره ويرسل يسراه على فخذه ، ونحت بعضها من الألباستر الأبيض ، ونحت بعضها من الديوريت الأزرق . ونحت بعضها من الشست الأخضر . وكان فى اجتماع ألوانها مع ألوان الجدران والأرضية والأعمدة تحت أشعة الشمس الذهبية ، التى تندفع إليها من فتحات السقف الحجرى وتنعكس عليها من الأرضية البيضاء الناصعة ، مايضفى على بهو المعبد جلالاً وبهاءً . وتهشم أغلب هذه التماثيل وبقى أقلها سليماً ، ومن هذا القليل تمثال من الديوريت (نقل إلى المتحف المصرى) خلع الفنان على ملامح وجهه مهابة وقداسة تليقان بصاحبه ، وظللت مؤخرة رأسه بصقر شامخ ، يرمز إلى المعبود السماوى حور يفرد جناحيه حول رأس الملك الأرضى كأنه يتحد معه ويظله ويحميه . واستطاع الفنان أن يذلل صخر الديوريت ببراعة فى تمثاله ، وهو من أشد الصخور قساوة ، فأظهر تقاطيع خفرع فيه

(١) Hölscher, *Grabdenkmal des Chephren*, Abb. 5.

(٢) Borchardt, *Statuen*..., 11-12.



دقيقة ناطقة ، وأظهر فيه عضلات بدنه مشدودة قوية واضحة كأنما ترمز إلى قوة الملكية في عهده .

نشأت بشأن أغراض معبد الوادى آراء عدة ، منها ثلاثة محتملة ، وهى : أن جانباً منه كان يعتبر استراحة مؤقتة للملك فى حياته كلما زار منطقة الجيزة ليشرف على بناء هرمه فيها . وأن جانباً منه جرت فيه طقوس تحنيط جثة الملك وبعض مراسم جنازته . وأنه أصبح يستخدم بعد ذلك لاجتماع وفود كبار الزائرين خلال المواسم والأعياد ، يقصدونه من كل حدب وصوب ، حتى إذا اكتملت أعدادهم فيه ، وحيوا تماثيل الملك الموجودة به ، وتلوا دعواتهم عند بعض آثاره الشخصية الباقية ، خرجوا بين تراتيل الكهان وأنغام الموسيقى الدينية من بابه الخلفى ، وبدأوا مسيرتهم على الطريق الصاعد ، وهو طريق يمتد نحو نصف كيلو متر (٤٩٤,٦٠ من الأمتار) طولاً وخمسة أمتار عرضاً ، وكان يحف به جداران سميكان مرتفعان يميلان فى الخارج ويستقيمان فى الداخل ، وتكسوهما من الداخل بلاطات جيرية بيضاء ومن الخارج بلاطات جرانيتية حمراء . وليس مايمكن تأكيده حتى الآن عما إذا كان هذا الممر مسقوفاً أم غير مسقوف ، ولكن يتجه الظن إلى أنه كان مسقوفاً بإحكام بحيث لاينفذ الضوء إليه إلا من فتحات ضيقة فى أعلاه ، رغبة فى توفير الرهبة وطابع السرية والغموض فيه ، وبما يجعله ممثلاً للصراط السوى المؤدى إلى الآخرة .

وتنتهى الوفود من الطريق الصاعد إلى مدخل معبد الشعائر ، وهو معبد يجاور الهرم من ناحيته الشرقية كما سلف ذكره ، ولايقل فى ضخامته عن ضخامة معبد الوادى ، لولا أن التهدم أصاب جانباً كبيراً منه . وكان يتألف فى تخطيطه القديم من عناصر كثيرة ، يمكن إجمالها فى قسمين متصلين : قسم أكبر يغلب عليه طابع العمومية ، وقسم أصغر تغلب عليه صفة الخصوصية وطابع السرية . ويتلو القسم الأكبر باب الدخول ، وإليه تنتهى الوفود بعد خروجها من الطرق الصاعد ، ويتألف من ثلاثة أجزاء : فيبدأ بصالة أعمدة تتدرج من الاتساع إلى الضيق نحو الداخل ، بحيث يتسع عرضها فى بدايتها لثمانية أعمدة جرانيتية كبيرة متجاورة ، ويتسع عرضها فى منتصفها لأربعة أعمدة ، ويقتصر عرضها فى نهايتها على عمودين فحسب . ويتلو الصالة بهو أعمدة مستطيل كان يتضمن تماثيل لخفرع تصوره فى ردائه الدنيوى الرسمى ، وحده تارة ومع زوجته تارة أخرى . وينتهى البهو إلى فناء رحب متسع تتعدد الممرات حوله وتوجد عدة أبواب على جانبيه ، وتتعاقب بين

الأبواب تماثيل لخفرع تصوره بردائه الأخروى (وهو عباءة محبوكة) متوجاً بتاج الصعيد على الجانب الأيسر ومتوجاً بتاج الدلتا على الجانب الأيمن ، وتتوسط الفناء مائدة قربان ضخمة تضع الوفود هداياها عليها باسم صاحب المعبد . ويتألف القسم الأصغر للمعبد من ثلاثة أجزاء أيضاً ، تؤدى فيها الشعائر اليومية والموسمية لصالح صاحبها ، وهى : خمس حجرات مستطيلة ، يذهب الظن إلى أنها كانت تتضمن خمسة تماثيل ملكية يتقدم الكهنة أمام كل تمثال منها بالدعوات والقرابين باسم من أسماء الملك الخمسة أو ألقابه الخمسة . ثم حجرات أخرى تضمنت كنوز المعبد وذخائره وأدوات طقوسه . وأخيراً قدس الأقداس أو الحرم المقدس الذى لم يكن يقربه غير الملك الحاكم وكبير الكهان ، وهو عبارة عن مقصورة بسيطة مستطيلة يتصدرها باب وهمى عظيم من الجرانيت ومائدة كبيرة للقرابين .

وبقيت مجموعات متصلة من المساكن الصغيرة إلى الغرب من هرم خفرع ، بلغ عددها ٩١ مسكناً ، وبنيت من الدبش ثم كسيت بملاط من الطين والطفل أو الجير. وكانت مقبية السقف ودكت أرضها بالطين . وقامت كل مجموعة منها فى صف متصل يستند على جدار ساند واحد ، وكانت فى مجملها مساكن متواضعة لايزيد كل مسكن منها عن حجرة واحدة يبلغ عرضها نحو ثلاثة أمتار وارتفاعها مترين أو أكثر قليلاً . ويفترض الأستاذ بترى أنها كانت تتسع لنحو أربعة آلاف عامل من العمال فى منطقة الهرم [١] ، وقد نرى بمنطق عصرنا الحالى أن تكديس مثل هذا العدد فى مساكن قليلة لايخلو من امتهان لكرامة الإنسان . وهذا حق ، ولكنه كان بالنسبة لأهل عصره من العمال خيراً من المبيت فى العراء .

أبو الهول :

امتاز فن النحت فى عهد خفرع بأثر كبير آخر ، طغت شهرته على شهرة هرمه ومعبديه ، وهو أبو الهول . ولأبو الهول جسم أسد رابض ورأس إنسان ناهض كما هو معروف ، جمع الفنان بينهما فى انسجام عجيب لايكاد الرائى يشعر معه أنه أمام كائن مفتعل غريب [٢] . ونحت الفنان الرأس فيما يرجح حتى الآن على هيئة رأس ملكه خفرع تزينه شارات الملك ، وهى عصابة رأس مخططة عريضة تصنع

(١) Holscher, *op. cit.*, 70; Petrie, *The Pyramids and Temples of Gizeh*, 101.

(٢) آثرنا فى حديثنا أن نعتبر اسم «أبو الهول» اسماً مبنياً ، حيث لا أبوة فيه ولا بنوة .

من قماش مقوى لتغطى الرأس ومؤخرته ، وحية حارسة تنهض على الجبين ، ولحية دقيقة طويلة مستعارة ترمز إلى إلتحاء أوائل الملوك الأقدمين (وقد سقطت الحية واللحية من موضعيهما) . وعبر الفنان فى تمثاله عن رأى أهل عصره فى مثالية ملوكهم ، أو على الأقل عن رأى أهل الحاشية فى مثالية ملوكهم ، وهى مثالية جمعوا إليهم فيها بين سمو التفكير البشرى وبأس الأسد ، واستمروا يرددونها لهم طوال عصورهم القديمة ، على نحو ما استمروا يلقبونهم بالأسود والفحول .

ينهض تمثال «أبوالهول»فوق قاعدة مرتفعة نحت معها فى الصخر الطبيعى للهضبة ، ولكنها كسيت بأحجار جيرية ملساء ، وبلغ ارتفاعه معها نحو اثنين وعشرين متراً . وقام فى مواجهته معبد كبير لازالت الآراء مختلفة فى تحديد أغراضه ، ومن هذه الآراء رأى يعتقد أصحابه أنه أعد لتقديم القرابين والدعوات باسم صاحب التمثال نفسه ، وأن التمثال بعد أن كان يرمز إلى خفرع أصبح فى عهده نفسه أو بعده بقليل يعتبر حارساً لمدينة الموتى فى منطقته أى منطقة الجيزة ويستحق التمجيد والتقديس تبعاً لذلك . وقرناً فقرناً نسى المصريون أصل تمثال «أبوالهول» أكثر فأكثر ، واعتبره بعض أهل الدولة الحديثة صورة من صور إله الشمس ، وظلوا يتعبدونه على هذا الاعتبار ، وأقاموا النصب باسمه بين يديه وفى معبده ، واستوى فى ذلك الملوك ورعاياهم [١] وأضاف شبيجل رأياً عن تمثال أبو الهول ، مؤداه أنه رمز منذ بدايته إلى (ماعت) بمعنى العدالة المستقرة أو النظام المستقر ، وذلك فى مقابل دلالة الهرم على الكيان الهرمى الدنيوى الذى يحتل الملك أرفع مكانة فيه [٢] .

أما عن اسمه فمن الآراء فى تعليله أنه سكن منطقة الجيزة قوم من الكنعانيين خلال الدولة الحديثة ، فتعبدوا التمثال باعتباره صورة أصيلة لمعبود كنعانى قدسوه فى وطنهم باسم «حورون» ، وأطلقوا اسمه على التمثال[٣] . ولعل المصريين قد أجازوا ما أتى الكنعانيون به ، ثم حرف الاسم الكنعانى إلى حورنا ، وأخيراً إلى «حول» . ورأى آخر قرب بين اسم التمثال وبين اسم ورد له فى النصوص المصرية المتأخرة

---

(١) S. Hassan, *The Great Sphinx and its Secrets*, Cairo, 1953, 25, f. 157, 221 f.

(٢) J. Spiegel, *Das Werden der Altaegyptischen Hochkulture*, 528.

(٣) *See*, Posener, *JNES*, IV (1945), 240 f.

بمعنى الأسد «باحو» [1] . وانتهت أسماء التمثال إلى اسمه الحالى أبو الهول ، وهو اسم يعبر فى اللغة العربية عن طابع الرهبة أو طابع الهول الذى اكتسى التمثال به وظنه الناس فيه ، ولكنه لايخلو فى الوقت نفسه من صلة تربطه بأحد الأسماء القديمة «حو أو حورون أو حول» بعد إحلال الهاء محل الحاء ، وبعد إضافة كلمة «أبو» ، وهى كلمة تطورت فيما يبدو عن أحد لفظين مصريين قديمين ، لفظ «بو» بمعنى مكان ، أو أداة التعريف المذكرة المفردة «با» .

وظل تمثال أبو الهول طوال عصوره مثاراً للإعجاب حيناً ، ومثاراً للرهبة حيناً آخر . وظن فيه مؤرخو العصور الوسطى قدرة سحرية ، وسموه بأسماء غريبة ، فذكره المقريزى باسم بالهيب ، وحكى أن شيئاً يدعى صايم الدهر أراد أن يمسخ وجهه باعتباره أثراً من آثار الوثنية الأولى ، فهبت على زروع الجيزة ريح عاتية أتلفتها ، فظن صايم الدهر أنها كرامة من صاحب التمثال واضطر إلى العدول عن محاولته .

وظهر من المؤرخين المسلمين من تجاوز هذا التصوير الساذج لأبو الهول ، ومنهم عبداللطيف البغدادى فى القرن الثالث عشر الميلادى حيث قال عنه : «..وسألنى بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت ، فقلت تناسب وجه أبى الهول ، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصورة متناسبة ، والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها وأنه ليس فى أعمال الطبيعة مايحاكيه ...» .

عهد منكاورع وعواقب الإسراف (فى النصف الثانى من عصر الأسرة الرابعة) :

ورث خفرع فى عرشه ولده منكاورع ، بلقبه الحورى «كاخت» ، وبدأت فى أواخر سنوات حكمه فترة جديدة فى تاريخ أسرته ، اختلفت فى إمكاناتها وأحجام عمائرها وعلاقات حكامها بمحكوميها عن الفترة التى سبقتها ، والتى انتهت بحكم خفرع وامتدت عدة سنوات فى بداية عهد منكاورع .

---

(١) *Wb.*, III, 45.

ويتجلى اختلاف الامكانيات واختلاف الأوضاع بين الفترتين بمقارنة عمائر منكاورع وخلفائه بعمائر أسلافهم . فأهم الآثار الباقية من عهده هو هرمه ومعبد شعائره . ويبلغ الارتفاع الحالى لهرمه نحو ٦٢ متراً ولم يزد ارتفاعه الأصلى عن ٦٦,٥٠ متراً ، أى أقل من نصف ارتفاع هرم أبيه خفرع، وأقل من نصف ارتفاع هرم جده خوفو [١] . وإن امتاز فى حالته الراهنة بأن ستة عشر مدماكاً من مداميكه السفلى كسيت بأحجار جرانيتية ضخمة ؛ مما دعا المقريزى إلى أن يصفه فى أيامه باسم الهرم الملون . وللهرم معبدان وطريق صاعد شأنه شأن بقية أهرام الأسرة الرابعة : معبد شعائر أخروية ضخم معقد التركيب ، بدأ المهندسون بناءه بأحجار ضخمة هائلة وأنفقوا فيه جهداً كبيراً [٢] ، ولكنهم لم يتموه فى عهد صاحبه ، على الرغم من احتمال حكمه واحداً وعشرين عاماً ، فبقى ناقصاً إلى عهد ولده شبسكاف حيث أتموا بعض أجزائه الداخلية من اللبن دون الحجر . وطريق صاعد كان شأنه شأن معبد الشعائر ، رصف رجال منكاورع جزءاً كبيراً من أرضيته بالحجر ثم أتمه رجال شبسكاف ، فبنوا بقية أرضيته وجدرانه من اللبن . ثم معبد الوادى ولم يكن منكاورع قد أنشأ منه شيئاً ذا بال حتى وفاته ، فأمر شبسكاف بتشييده باللبن أيضاً فيما خلا أعمدته وأعتاب أبوابه ، التى كان لابد من أن تبنى بالحجر [٣] . وفى ذلك كله ما يباعد بين حال آثار منكاورع وإمكانات خليفته ، وبين فخامة آثار سنفرو وخوفو وخفرع وضخامة عمارتها وضخامة الجهود التى بذلت فيها .

غير أن آثار منكاورع لم تخل على الرغم من ذلك مما يشهد لأهل العمارة والفن فى عهده بالبراعة والقدرة على التجديد . وكان من صور تصرف المعماريين فى بناء هرمه شق ثلاث قنوات رأسية كبيرة على جانبى أحد دهاليزه الداخلية؛

---

(١) قدر بعض المهندسين أن هرم خوفو تضمن أحجاراً تبلغ نحو مليونين ونصف مليون من الأمتار المكعبة ، وتضمن هرم خفرع نحو ١.٨ مليون متر مكعب ، بينما تضمن هرم منكاورع ربع مليون متر مكعب فقط ، ولم يزد طول ضلع قاعدته عن ١٠٨.٥٠م (cf., Speigel, *op. cit.*, 528).

(٢) يقال إن بعض الكتل التى استخدموها فيه بلغت زنة الواحدة منها ٣٠ طناً .

(٣) دعا إلى نسبة إتمام المعبد إلى عهد شبسكاف نص، وجد فى المعبد ذكر على لسان شبسكاف أنه شيده تذكاراً لأبيه ملك الصعيد والدلتا منكاورع - راجع قرار شبسكاف عن هرم منكاورع (*Urk.* I, 160) ، وقراراً آخر لصالحه وصالح كهنته (*Ibid.*, 277) .

لتنزلق فيها ثلاثة متاريس حجرية ضخمة ظلت مرفوعة على مساند حجرية أو خشبية حتى وفاة الملك ودفنه ، ثم أسقطت فى قنواتها وسدت الدهليز سداً محكماً (ولو أن إحكام سده لم يحل دون سرقة كنوزه) ، ونحتوا تابوت منكاورع من البازلت وربما زخرفوا جوانبه بما يشبه المشكاوات الرأسية التى كانت تتعاقب فى واجهات القصور وواجهات أسوارها [١]، على عكس أغلب توابيت أسلافه التى كانت عاطلة من الحلية (ربما فيما خلا تابوت نسب إلى سخم خت من عصر الأسرة الثالثة) . ونحتت لمنكاورع عدة تماثيل رائعة ، مثله بعضها وحده ، ومثله أحدها مع زوجته ، ومثلته عدة مجموعات منها يقف مشدود القامة مع معبودين ، المعبودة حتحور على جانب ومعبود آخر يرمز إلى إقليم من الأقاليم المصرية على جانب آخر [٢] ، وكانت لحتحور منزلة خاصة فى عهده تشبه منزلة باسطة فى عهد أبيه ، فوصفته بعض أختامه بأنه حبيبها ، وظهرت فى بعض تماثيلها معه تحيط خصره بذراعها وتلمس ذراعه بكفها. وبلغ الفنانون فى نحتها جميعاً مبلغاً طيباً من دقة النحت ودقة التعبير وسلامة التنفيذ .

وتهيأ لكبار الأفراد فى عهد منكاورع من الثراء وحرية التصرف فى طرز مقابرهم وعناصرها أكثر مما تهيأ لأسلافهم فى عهد أبيه وعهد جده ، فكثرت تماثيلهم فى مقابرهم ، وزادت نقوشهم ومناظرهم على جدرانها ، ونحتوا بعض هذه المقابر داخل الجدار الصخرى لهضبة الجيزة عوضاً عن تشييدها من الحجر فوق سطح الأرض ، ومارسوا شعائرهم فيها بحرية أوسع مما سمح لهم به أبوه وجده . واستن منكاورع طريقة سياسية جديدة ، فسمح بفتح قصره لأبناء المقربين إليه من كبار موظفيه ، وعهد بتربيتهم إلى كبار رجال القصر مع أبنائه ، ليشبوا أوفياء له مخلصين لبلاطه ، وكان منهم شاب يدعى شبسبتاح . وصور صلات منكاورع بكبار شخصيات العاصمة واهتمامه بضمان ولائهم عن طريق العطايا والسماحة ، نص سجله رجل يدعى دبحن ، يفهم منه أن منكاورع كان فى طريقه ذات مرة ليتفذ أعمال البناء فى هرمه ، فاعترض موكبه بأن يشيد لنفسه مصطبة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسين ، وعهد لصالحه بخمسين عاملاً من عمال الأملاك الملكية وأذن بإعفائهم من

(١) غرق هذا التابوت ، خلال نقله ، فى خليج بسكاى . Lepsius, *Auswahl*, Taf. VII; L.D., II, 2 e.

(٢) Smith, *A History of Egyptian Sculpture...*, pl. 13; *Urk.*, I, 15 g.

كافة الأعباء فيما خلا أعباء بناء المصطبة وتمهيد الأرض حولها ، وأمر بأن يشرف على تشييدها مهندسه الخاص واثنان من كبار فنانى عهده . وسمح له بأن يستورد من أحجار طرة والمقطم مايكفى لكسائها وبناء مقصورتها وصناعة بابين وهميين فيها ونحت تمثاله بحجم أكبر من حجمه الطبيعى بكثير ، فضلاً عن نحت تمثالين لمساعديه [1]. وكانت أمثال هذه اللفتات من منكاورع لكبار رجال رعيته وتساهله فى الإذن لهم بإقامة التماثيل فى مقابرهم وممارسة الشعائر فيها فى حرية مطلقة ، أصلاً فيما يبدو لما سمعه هيرودوت فى العصور المتأخرة من أن المصريين أحبوا منكاورع أكثر مما أحبوا أباه وجده . وفى قصة دبحن مايعنى كذلك أن الدفن فى الجبانة الملكية كان لايزال يعتبر امتيازاً خاصاً يمنح من قبل القصر الملكى ، وأن المحاجر الممتازة كانت احتكاراً حكومياً أو ملكياً ، وأن التماثيل الكبيرة التى تفوق الحجم الطبيعى كانت متاحة لكبار الشخصيات .

نوهت النصوص فيما بعد منكاورع باسم الملك شبسكاف (وله لقبه الحورى : شبس خت) ، وشاد له مهندسوه قبراً فى جنوب سقارة ، يعرف الآن باسم مصطبة فرعون . وانصرفوا ببنيانه عن طراز الهرم ، وشيدوه على هيئة تابوت ضخم مستطيل مائل الجوانب (١٠٠ متر طولاً ، و٧٢متر عرضاً ، و١٨ متراً ارتفاعاً) ترتفع جوانبه فوق مستوى سقفه ، وأقاموه فوق قاعدة منخفضة ، ثم كسوه بأحجار بيضاء وأحاطوا قاعدته بإزار من الجرانيت ، وشادوا له معبدين صغيرين وطريقاً صاعداً بنوا جداريه الجانبيين من اللبن .

واتبع شبسكاف سياسة منكاورع فى ضمان ولاء عظماء قومه عن طريق رعاية أبنائهم فى قصره . ويذكر له من ذلك أنه زوج ابنته الكبرى من الشاب شبسبتاح الذى رباه منكاورع فى قصره وواصل رعايته [2] . وكان زواج الأمراء بغير الأميرات قد أصبح حينذاك أمراً مألوفاً ، ولكن كانت هذه هى المرة الأولى فيما نعلم التى زوج فيها ملك ابنته من أحد خاصة أفراد رعيته ، ولعلها كانت كذلك الأولى من نوعها بالنسبة للأسر المالكة فى العالم القديم كله . وسلك شبسكاف سياسة مماثلة فى سبيل ضمان ود كبار كهنة المعابد فى عهده ، عن طريق إعفائهم وإعفاء معابدهم من

(١) *Urk.*, I, 18 f., ; Breasted, *A.R.*, I, 211 f.

(٢) *Urk.*, I, 51 f.; Breasted, *op. cit.*, I, 257.

بعض التكاليف التى كانت مفروضة عليهم لحساب خزانته . وبدأ فى ذلك بمجموعة أبيه هرم منكاورع وكهنتها ومواردها .

وبعد نحو أربع سنوات ، انتهت وراثة عرش الأسرة الرابعة إلى الأميرة خنتكاوس . وطال نقاش الباحثين فى نسبها ، وفى مدى استغلالها لحقها الوراثى فى العرش ، وفيما إذا كانت أختاً لشبسكاف وزوجة له أم لم تكن ، وفيما إذا كانت شهدت ملكاً آخر يحكم بعد شبسكاف أم لم تشهد ، ثم فى مدى تأثيرها فى توجيه أمور الدولة فى عهد زوجها «وسركاف» الذى أصبح رأساً لأسرة حاكمة جديدة ، وعهد ولدها ساحورع الذى اعتلى العرش بعده .

ويتجه الترجيح حتى الآن إلى اعتبار خنتكاوس ابنة لمنكاورع ، وأختاً لشبسكاف . ويعتقد يونكر أنها ابنة منكاورع من زوجته مرس عنخ الثالثة ، وأن هذه الزوجة كانت من سلالة جد فرع . وأضاف أن شبسكاف كان أخاها غير الشقيق وكان من فرع ثانوى [(١)]. وقد شاد المهندسون مقبرتها على هيئة تابوت ضخم فوق قاعدة صخرية مربعة عالية ، أى بما يشبه مقبرة أخيها إلى حد كبير ، وجوفوا معبد شعائرها فى صلب قاعدة المقبرة ، وبنوا معبد الوادى التابع لها قريباً من معبد وادى هرم أبيها منكاورع ، ووصلوا بين معبديها بطريق يمتد من معبد شعائرها ناحية الشرق ثم ينحرف ناحية الجنوب فى زاوية قائمة . وتلقبت خنتكاوس فى نصوص مقبرتها بلقب قرأه يونكر : «... ملكة الصعيد والدلتا أم ملك الصعيد والدلتا ، بنت الرب» . واستنتج منه أن انحصار شرعية وراثة العرش فى خنتكاوس سمح لها بأن تتلقب بلقب الملكة ، وأنه من المحتمل أن تكون قد حظيت بتأثير واسع على ولدها حين تولى العرش فى صغره[(٢)] ، وأن تلقبها بلقب بنت الرب يشير إلى اعتبارها الابنة البكر لأبيها أو إلى دورها فى نقل شرعية الحكم إلى زوجها .

* * *

انتهت شجرة نسب الأسرة الرابعة بخنتكاوس ، كما سلف القول ، وتمايزت لهذه الأسرة فيما رأينا فترتان : فترة انتهت بعد حكم خفرع ، وفترة بدأت فى أواخر سنوات حكم منكاورع . ونمت آثار الفترة الثانية ونصوصها عن ظروف تختلف عن

(١) H. Junker, *Mitt. Kairo*, III, 142 f., 136.

(٢) Cf. *ASAE*, XXXVIII, 209 f. : Junker, *op. cit.*, 129, 131, 143.

ظروف الفترة الأولى إلى حد كبير ، ظروف اتصفت بضعف الموارد الحكومية إلى حد ما ، وقلة الضخامة والفخامة فى آثار الملوك بالنسبة إلى آثار أسلافهم الأقربين ، وإن اتصفت هذه الفترة فى الوقت نفسه بظاهرة مستحبة ، وهى حرص ملوكها على اكتساب ولاء كبار موظفيهم وكبار كهنّهم .

ويمكن إيجاز أسباب الاختلاف بين ظروف الفترتين فى ثلاثة عوامل ، وهى :

أولاً – أن الأسرة بدأت عصرها برخاء عظيم واستقرار مكين وجهد كبير فى تنمية موارد البلاد عن طريق تنشيط الاستثمار الداخلى وتوسيع التجارة الخارجية ، ونمت عن رخائها حينذاك مصادر وآثار عهود سنفرو وخوفو وخفرع على وجه أخص، لولا أن الأهرام الضخمة ومعابدها وتماثيلها ، التى أسرف هؤلاء الملوك الكبار فى إنشائها لأنفسهم ، وألحقوا بخدمتها الأعداد الكبيرة من الكهنة والأتباع ووقفوا عليها الكثير من الأراضى الواسعة والأنعام ، وسمحوا بإنشاء الأهرام الصغيرة لزوجاتهم إلى جانبها ، والمقابر الضخمة لأبنائهم ، مع متطلباتها من وجوه الإنفاق الكثيرة ، قد أدت كلها إلى استنفاذ قطاعات كبيرة من إمكانات البلاد ومواردها ، واستنزفت بمعنى آخر جانباً كبيراً من موارد الخزائن الملكية ومدخراتها ، وجعلت الملكية أقرب إلى أن تفقد إحدى وسائلها الرئيسية للتعبير عن مجدها وسلطانها وثرائها فى نظر البلاد وأهلها ، وهى الوسيلة المادية (أو المالية) .

ثانياً – مايحتمل من أن فترات التنافس الداخلى بين كبار الأمراء على العرش ، التى بدأت عقب وفاة خوفو ، وربما كذلك عقب وفاة منكاورع وعقب وفاة شبسكاف ، قللت بعض الشىء من هيلمان الملكية وأشعرت الملوك ، كما أشعرت الناس ، بحاجتهم إلى تأييد كبار رعاياهم وأهمية كسب ودهم ، ولو على حساب خزائن حكومتهم التى كانت تعتبر خزائنهم .

ثالثاً – أن ملوك الأسرة عملوا على مسايرة دين الشمس وزيادة انتشاره فى مراحل عدة . ولم يكن دين الشمس فى حد ذاته جديداً فى حياة شعبهم ، وإنما كان الجديد هو اعتراف الدولة به رسمياً على نطاق واسع . بل إن اعتراف الدولة به لم يكن فى حد ذاته أمراً ذا خطر ، ولكن الخطر كان فى أن يعقبه أمران ، وهما : أن ينصرف جانب من ولاء الرعايا إلى الإله رع رب الشمس ، وهو المعبود الظاهر لكل الناس والقريب من كل الناس ، على حساب ولائهم القديم شبه المطلق للملوك وربهم

الملكى وحاميهم الخفى حور . وأن ينصرف بالتالى جانب كبير من الموارد المادية إلى الديانة الجديدة ، ديانة الشمس ، على هيئة أوقاف وهبات وإعفاءات لمعابدها ومرتبات لكهنّها الذين أخذت أعدادهم تتزايد باستمرار ، على حساب بقية موارد الحكومة وخزائنها وبمعنى آخر على حساب موارد الملكية وخزائنها .

وشهدت أواخر عصر الأسرة الرابعة عواقب هذه الظروف كلها بخيرها وشرها ، فشهدت تسرب جزء من الموارد الملكية إلى مصارف جديدة ، واتجاه الملوك إلى بناء أهرام صغيرة ومقابر على هيئة التوابيت وشهدت زيادة اهتمامهم بكسب ود كبار رعاياهم ، وشهدت انصراف جانب من ولاء الرعية وجانب من الموارد الملكية إلى كبار المعابد وكهنتها . وكان أكثر المستفيدين من هذه الظروف هم كبار أنصار ديانة الشمس ، الذين أخذوا يتطلعون إلى مزيد من اهتمام حكومتهم بهم ، ومزيد من الدالة على العرش وصاحبه . وتهيأت لهم فرص هذه الدالة وهذا التأثير منذ أن انتهت وراثة عرش الأسرة الرابعة إلى الأميرة خنتكاوس بعد وفاة أخيها ، فشجعوا أحد خاصة المؤيدين لهم على الزواج منها ، وهو «وسركاف» ، وكان فيما يعتقد جردسلوف أميراً حفيداً للملك چدفرع ، ورث الإمارة عن أمه نفر حوتبس بنت چدفرع [1] ، ولم يرثها عن أبيه الذى يحتمل أنه كان من أنصار الشمس أو كبار كهنتها (على عكس رأى يونكر الذى خمن فيه أن خنتكاوس هى التى انحدرت من سلالة چد فرع) . وعندما تزوجها انتفع عن طريقها بشرعية الحكم التى ورثتها عن أبيها وأخيها ، واشتركت معه فى تأسيس أسرة حاكمة جديدة وهى الأسرة الخامسة . ويبدو رأى جردسلوف مقبولاً إلى حد كبير ، وإن لم يصل بعد إلى مرتبة اليقين .

---

(١) *ASAE*, 1942, 64 f.

ثالثاً - التقوى والرفاهة فى عصر الأسرة الخامسة (٢٥٦٠-٢٤٢٠ ق.م.)

يعتبر عصر الأسرة الخامسة فاتحة تاريخ زاهر جديد ، اتسعت فيه آفاق ديانة الشمس وشملت أمور الدنيا وعقائد الآخرة ، وازداد التقارب خلاله بين كبار أفراد الشعب وبين الملوك ، وسار التطور الطبقي والاجتماعى فيه بخطي صريحة ، وبلغت فنون العمارة والنحت والتصوير والنقش فيه ذرى عالية ، واستأنفت مصر خلاله صلاتها التجارية الخارجية على نطاق واسع ، مع فينيقيا فى شمالها الشرقى ، وبلاد بوينة فى جنوبها الشرقى . وإن لم يمنع هذا من وجود عيوب ونقائص فى أيامه وحكامه .

جمعت الأسرة الجديدة فى بدايتها بين فرعى الأسرة الرابعة الكبيرين المتنافسين كما أسلفنا ، فرع خفرع الذى مثلته خنتكاوس وفرع جدفرع الذى مثله وسركاف ، وحققت الوئام بينهما . غير أن الملوك الأوائل لهذه الأسرة لم يقنعوا بحق الحكم عن طريق زواج أبيهم بسليلة الفرع الحاكم من الأسرة الرابعة ، وابتغوا أن يردوا شرعية هذا الحكم إلى إرادة ربانية قديمة وأصل مقدس ، فخرج دعاتهم على الناس بدعاية ناسبت الأفكار الدينية فى عصرها ، واعتمدت على القول بأسطورة نسبتهم إلى (روح) الإله رع رب الشمس وإن أنجبتهم أمهم من رجل مبارك من أنصاره . وبقيت من صورها المكتوبة نسخة من الدولة الوسطى سجلت على بردية عرفت اصطلاحاً باسم بردية فستكار . ولسنا ندرى مدى قبول الناس لما روته هذه الدعاية أو هذه الأسطورة ، إن كانوا قد تقبلوه عن إيمان وتصديق ، أم اعتبروه مجرد مبالغة من الكهان وأهل البلاط لصالح ملوكهم [١] ، ولكننا ندرى أن ملوك الأسرة ظلوا أوفياء للإله رع الذى اعتبروه صاحب الفضل فى ارتقائهم العرش ، وظلوا كرماء مع كهنته الكبار الذين آزروهم فى حكمهم [٢] .

تلقب وسركاف أول ملوك الأسرة بلقب معبر يناسب وضعه كمؤسس لأسرة جديدة وهو «إرماعت» أى واضع النظام أو محق الحق . وتعاقب بعده ثمانية ملوك

(١) يراجع عن تفاصيل هذه القصة ومايستنتج منها عن العادات المصرية القديمة : عبدالعزيز صالح: الأسرة المصرية فى عصورها القديمة - القاهرة ١٩٨٨ - ص٧٧-٧٨ .

(٢) الغريب أن المؤرخ مانيتون نسب مؤسس الأسرة الخامسة إلى إلفنتينى (أى أسوان) .

وهي : ساحورع ، ونفرإر كارع ، وشبسكارع ، ونفرفرع ، ونى وسررع ، ومن كاوحور ، وجد كارع إسسي ، وونيس . وتداخل اسم رع في الأسماء الشخصية لمعظمهم [١] ، الذين اهتموا بمعبد إله الشمس في مدينته المختارة «أونو» أو «عين شمس» ثم أقاموا له ستة معابد على مثاله ، وبدأ هذه المعابد رأس الأسرة وسركاف ، ولأمر غير معروف بنى معبده متواضعاً من اللبن وشيده في منطقة أبي غراب جنوبي الجيزة ، وليس في عين شمس نفسها كما بنى هرمه ومعبداه إلى الجنوب منه في سقارة وقد تهدم جزء كبير من الهرم ومعبديه ، وإن تبقى من صور الطيور والزهور التي تزين جدران معبد شعائره مايتم عن أيد فنية متثبتة وإحساس مرهف بجمال الطبيعة الطلقة وكائناتها . كما بقيت رأس ضخمة رائعة من الجرانيت لـ «وسركاف» ، يذهب الظن إلى أنها كانت رأساً لتمثال كامل . وإذا صح هذا الظن ، لم يكن ارتفاع تمثالها ليقل عن خمسة أمتار [٢] . ويبدو أن ضخامة التماثيل كانت تستهدف عن قصد لمؤسسي الأسر الحاكمة ؛ إذ أثرت الضخامة أيضاً لبعض تماثيل زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، وأمنمحات مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، كنوع من الدعاية لعظيم شأنهم . وبنى أغلب خلفاء وسركاف أهرامهم ومعابدها في منطقة أبوصير [٣] ، التي لاتبعد عن أبي غراب بأكثر من ميل واحد .

خصائص معابد الشمس :

لعل أكثر معابد الشمس بقاء حتى الآن هو معبد ني وسررع سادس ملوك الأسرة . وهو معبد ضخم في أبوصير شيد هو وأغلب ملحقاته من الحجر [٤] . وتكونت عمارته معها من ثلاثة عناصر متمايزة : مبنى ضخم ينهض على حافة الهضبة ويطل على الوادي ، ويعتبر مدخلاً إلى منطقة المعبد ، ويشبه معبد الوادي بالنسبة لمناطق الأهرام . ويليه طريق صاعد إلى أعلى مكشوف لأشعة الشمس تعبره الوفود

---

(١) ومن أسمائهم الحورية على التوالي : إرماعت ، ونب خعو ، ووسرخعو ، ... ، ونفرخعو ، وستب تاوى ، ومن خمو ، وجدخعو ، وواج تاوى .

(٢) Firth, *ASAE*, XXIX, pls. I-II ; *ZAeS*, 1955, 140-144.

(٣) سنعتبر اسم «أبوصير» اسماً مبنياً باعتباره تحريفاً لاسم «بو أوزير» أو «برأوزير» .

(٤) F.W. von Bissing-L. Borchardt, *Das - Re - Heiligtum des Kongis Ne - Woer - Re* (Rathuresl) I - III, Berlin, 1905-1928; von Bissing-H. Kees, Unters. *zu den Reliefs dem Rê-Heiligtum des Rathures,* Munich, 1922.

وهى تهلل لربها نور السماء والأرض . ثم معبد الشمس الرئيسى ذاته ، وهو بناء ضخم ولكنه بسيط التكوين ، يتألف من فناء رحب مرصوف عظيم الاتساع ينكشف لضياء إله الشمس ويتضمن رموزه التى رأى الناس آياته فيها ورمزوا بها إليه . وأهم هذه الرموز مسلة حجرية ضخمة من عهد نى وسررع بلغ ارتفاعها ٢٢ متراً فيما يعتقد بورخارت ، وهى وقاعدتها نحو ٣٦ متراً . واتخذت قمتها هيئة الشكل الهرمى الصغير، وكانت هذه القمة مكسوة فيما يرجح بصفائح النحاس أو مموهة بالذهب ليتألق نورها ويتوهج ، حين تنعكس عليها أشعة ربها كل صباح ، ولعلها لهذا سميت «بنبن» ربما بمعنى المشعة [(١)]. ويرى شبيجل أن قمة المسلة كانت ترمز إلى مارمزت إليه قمم الأهرام من حيث اعتبارها رمزاً للنظام العالمى الذى يحتل الرب أو الملك قمته وأعلى وأرفع مكان فيه . وكان يتقدم المسلة من ناحيتها الشرقية مائدة متسعة من المرمر ، تقدم القرابين عليها ويحرق بعضها ليتصاعد عبيرها إلى رب الشمس فى سمائه . ويتضمن المعبد موضعين آخرين لنحر الضحايا ، تجرى الدماء منهما فى مجار مكشوفة إلى أحواض حجرية مستديرة واسعة . وجاورت المعبد من الخارج قرب جداره الجنوبى هيئة مركب شيدة من اللبن ، كانت تتضمن مركباً خشبية يبلغ طولها نحو ثلاثين متراً ، ترمز إلى مركب الشمس . ويحتمل أنه كانت تقابلها مركب أخرى، بحيث ترمز إحداهما إلى مركب النهار «معنجة» التى اعتقد المصريون أن رب الشمس يعبر بها سماء الدنيا لينيرها للأحياء ، وترمز الأخرى إلى مركب الليل «مسكتة» التى يعبر بها سماء العالم السفلى لينيرها للموتى ، موزعاً فضله على هؤلاء وهؤلاء . وكأنهم اعتبروا زرقة السماء بحراً وسيلة العبور فيه هى المراكب أهم وسائل الإنتقال فى دنياهم .

ومن خصائص معابد الشمس أنه لم تجر عادة المصريين على أن يضمنوها تماثيل لربها أو محاريب مغلقة يعبد فيها . واتجهوا بدعائهم إلى كوكبه فى سمائه ، وقدموا قرابينهم إلى الشرق من مسلته ، ونزهوه عن أن يختفى فى أرضهم داخل تمثال أو خلف جدران وأستار . واستمرت هذه المظاهر تميز معابد الشمس المصرية عن معابد بقية الأرباب فى أغلب العصور الزاهرة القديمة . وسجل أتباع الشمس فى معابد ربهم مظاهر فضله على ملوكهم ، وهم يتتوجون ويحتفلون بأعياد السد فى ظله

(١) J. Spiegel, *op. cit.*, 606; *Orientalia*, 1970, 389 f.



ثم سجلوا فيها نعمته على عباده بعامة ، فزينوا بعض قاعاتها وممراتها الجانبية بمناظر ذات ألوان زاهية رمزوا بها إلى مظاهر الحيوية فى الدنيا ووجوه النشاط التى تتعاقب خلال فصول السنة بفضل الشمس وربها ، من حرث وبذر وجنى وحصاد ، وتناسل الحيوانات وتكاثرها ، وحياة الطيور فى الطبيعة الطلقة حين تغرد وحين تمرح وحين تفزع وحين يعتدى كبارها على صغارها ، وحين تعطف الأم على أفراخها ، ثم تعبئة عسل النحل وتخمير العنب .. ، وهلم جرا . وبلغ فنانو عصر الأسرة الخامسة فى ذلك النجاح كله ، من حيث حيوية التصوير ووضوح الألوان ودقة النقوش والتفاصيل[1] .

أهرام العصر ومعابدها :

اهتم ملوك الأسرة الخامسة ببيوت خلودهم ، أى أهرامهم ومعابدها ، فضلاً على معابد أربابهم (شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم) . وتوزعت أهرامهم فى سقارة وأبوصير ، ولكن ظلت الفوارق واضحة بين أهرامهم هذه وبين أهرام الأسرة الرابعة فى الجيزة ، وأهم هذه الفوارق ثلاثة ، وهى :

أولاً – أنها قلت كثيراً عن أهرام الأسرة الرابعة من حيث الضخامة وأحجام الأحجار ، وبالتالى من حيث القدرة على مغالبة عوادى الزمن ، كما قلت عنها فى فخامة مظهرها . ويمكن أن ترد قلة الضخامة فيها إلى ذوق معمارى خاص ساد عصرها ، ولكن قلة المتانة فيها وبساطة البناء وقلة فخامتها من الخارج أقرب إلى أن تعلل بأن سيطرة ملوك العصر على موارد البلاد أصبحت أقل نوعاً من سيطرة الأسرة الرابعة عليها ، وأن نصيباً كبيراً من موارد الخزانة الحكومية تسرب إلى معابد رع وأنصاره ، فضلاً عن معابد بقية الأرباب الأخر ، الذين احتفظ المصريون بالولاء لهم، جنباً إلى جنب مع معبودهم الأكبر رع .

ثانياً – اهتم الأسلوب الفنى للمعابد الملحقة بها ، أى معابد الشعائر ومعابد الوادى فضلاً عن الطرق الواصلة بينها ، بعنصر الزخرف أكثر مما اهتم به الأسلوب الفنى لمعابد الأسرة الرابعة . ووضح هذا الاهتمام فى تشكيل أساطينها على هيئة النخيل والبردى ، أو على الأصح تشكيل تيجانها أى أجزائها العلوية على هيئة سعف النخيل وزهور البردى . ووضح كذلك فى كثرة المناظر المنقوشة على جدرانها

(١) Wresz, *Atlas*, III, 106; von Bissing, *ASAE*, 1955-1956, 319 f.

الداخلية ، كثرة جعلت بورخات يقدر أن مساحات الجدران التى أعدت للنقش فى مجموعة ساحورع ثانى ملوك الأسرة وله اسمه الحورى «نب خعو» ، بلغت نحو عشرة آلاف متر مربع (لم يبق منها حتى الآن للأسف غير مائة وخمسين متراً مربعاً) . وصورت هذه المناظر انتصارات الملوك ، وعلاقاتهم بأربابهم ، وبعض أعيادهم الرئيسية ، وصورت جوانب من حياتهم الخاصة ، وجوانب من أعمال شعبهم ، كما صورت السفن النيلية الكبيرة تفد من أسوان إلى منطقة المعابد محملة بالكتل الجرانيتية الضخمة ، والسفن البحرية الكبيرة التى ترددت فى عصرهم بين مصر وفينيقيا، تحمل الرجال والمتاجر والمصنوعات والحيوانات الغريبة كالدببة .

ولم تخل التفاصيل المعمارية الصغيرة فى معابد الأسرة الخامسة من تجديدات. واهتمت بعض هذه التفاصيل بتنظيم وسائل تصريف المياه من سطوح المعابد وأرضياتها فضلاً عن أرضيات الطرق الواصلة بينها ، وكانت وسائل تصريف المياه قد بدأت فى مبانى عصر الأسرة الرابعة على أقل تقدير ، ولكنها بلغت درجة واضحة من الذوق المعمارى فى مبانى عصر الأسرة الخامسة ، فأصبحت مياه السطوح تنساب إلى ميازيب شكلت نهاياتها على هيئة رؤوس أسود ضخمة تتناسب هيئاتها مع ضخامة المبانى وفخامتها ، ويمر المجرى عادة من تحت ذقن الأسد . أما مجارى الأرضية فكانت تنحت ضيقة فى الأرضية الحجرية أحياناً ، وتجرى فى مواسير من النحاس أحياناً أخرى ، ثم تنتهى إلى حوض كبير من الحجر .

ثالثاً – متون الأهرام : حفلت جدران حجرة الدفن والقاعة المؤدية إليها فى هرم آخر ملوك الأسرة الخامسة زمناً وهو هرم ونيس (وليس أوناس كما تذكره المؤلفات الحديثة عادة) فى سقارة ، بمتون دينية وأسطورية كشف عنها فى أواخر القرن الماضى . وقد نقشها الفنانون بالكتابة التصويرية الهيروغليية ، فخرجت معجزة فى إتقان نقشها ورقة حروفها ودقة التفاصيل الصغيرة فى صورها البشرية والحيوانية والطبيعية ، التى تداخلت فى تكوين مقاطع جملها ومخصصاتها ، ثم لونوها بألوان ممتعة لازالت تحتفظ بجانب كبير من رونقها وبريقها وجمالها حتى اليوم ، على الرغم من مرور مايقرب من أربعة وأربعين قرناً عليها . وزخرفوا معها سقف حجرة

الدفن بأشكال النجوم حتى بدا كأنه سماء تظل جثة الملك وتحتويها (١) .

نقشت متون الأهرام لأول مرة فى هرم ونيس (الملقب فى اسمه الحورى : واج تاوى) كما ذكرنا ، فى أواخر القرن ٢٥ أو أوائل القرن ٢٤ ق.م. على وجه التقريب(٢) ولايعنى ذلك أنها ألفت فى عهده لأول مرة ، أو أنها كانت من وضع فرد بعينه ، أو أنها اقتصرت على عقائد عصر بعينه . وإنما هى على الأرجح من حصيلة عصور وقرون طويلة ، وإنتاج كفايات فكرية متباينة ، ومذاهب دينية متعددة ، ظلت نصوصها وأفكارها متفرقة قبل عهد ونيس فى صدور الكهان ، وعلى أفواه الرواة والمحدثين ، وعلى صفحات البردى ولخاف الفخار والأحجار عهوداً طويلة ، حتى صحت الرغبة فى عهد ونيس فى تسجيلها فى باطن هرمه تأكيداً لاستفادته الأخروية من تراتيل الدين التى تضمنتها ، وربما تعويضاً لفخامة هرمه عن صغر حجمه . وحينذاك توافد على المشرفين على بناء هرمه كل من ظن أنه يعرف من التعاويذ والتراتيل ماينفع الملك فى أخراه ، وكل من ظن أنه يعرف عن عقائد الأقدمين وأساطيرهم مالا يعرفه سواه – توافدوا جميعهم على المشرفين على إعداد الهرم ، رغبة منهم فى إظهار علمهم حيناً ، وتقرباً منهم إلى صاحب الهرم حيناً ، وطمعاً فى خيراته فى أغلب الأحيان . فتقبلوا منهم كل ماتتسع له المسطحات المعدة للنقش فى باطن الهرم فيما خلا الجدار الغربى لحجرة الدفن حيث يوضع التابوت عادة ، وحيث يصبح بوسع الملك الثاوى فيه على جانبه أن يرى ويقرأ مايمتد إليه بصره مما حوله من التراتيل والدعوات القرابين . وترتب على تنوع مصادر متون الأهرام وتعدد مؤلفيها أن خرجت فى نهاية أمرها تحمل أكثر من دلالة على أصحابها وتحمل أكثر

---

(١) كتب عن متون الأهرام باحثون كثيرون ، ومن أوضحهم فى كتابته عنها الأستاذ جيمس هنرى برستد فى كتابيه :

J. H. Breasted, *Development of Religion and Thought in Ancient Egypt*, London, 1912; and *The Dawn of Conscience*, New York, 1933.

See also, S. Mercer, *The Pyramid Texts*; R. Faulkner' *The Pyramid Texts*, London, 1970.

(٢) *cf.*, Abdel-Aziz Saleh, "The Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the *Gebbanitae* of the Classical Writers", *BIFAO*, LXXII, 245-262; "Some Problems Relatiog to the Pwenet Reliefs at Deir el-Bahari", *JEA*, LVIII (1972), 140-158.

من دلالة للباحثين فيها ، فظهرت فيها أخيلة عدة صورت بعث الملك وخلوده وأشادت بتمجيده ، وظهرت فيها صيغ كثيرة كانت تتلى عند تقديم القرابين باسمه لتحويل نفعها إلى روحه ، كما ظهر فيها كثير من أسماء الأرباب ونعوتهم ، وكثير كذلك من الصفات ، القدسية المسرفة التى اعتاد الكهان والساسة وأهل البلاط أن يخلعوها على ملوكهم تقرباً منهم ، وبعض قصص الأحداث القومية القديمة ، وبعض تصورات كبار المفكرين عن الخلق الأول ونشأة الوجود والعلاقات بين أرباب التاسوع الأكبر لاسيما أتوم وجب وأوزيروست وإيسة ، فضلاً عن حور ، ورع ، وكثير من أمانى المؤمنين بالآخرة ، وكثير من مخاوفهم من أخطارها وعقابتها ، وكثير من تصوراتهم عن سلطان الملوك فيها . وزادت هذه المتون عند اكتمالها فيما بعد عن ٧٠٠ فقرة مما نعرض نماذج منه فى مؤلف عن الديانة المصرية القديمة .

الاتصالات الخارجية والإجراءات الحدودية :

وضحت علاقات مصر ببلاد بوينة (أو بونت) خلال عصر الأسرة الخامسة أكثر مما وضحت من قبله . وبلاد بوينة بلاد قصد المصريون بها منطقة الصومال وإريتريا وربما ضموا إليها فيما بعد ما يقابلها من الجنوب والجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية [١]. وكانت بعثاتهم تتجه إليها فى الدولة الوسطى على الأقل عن طريق وادى الحمامات ثم تنزل البحر الأحمر عند القصير أو مرسى جواسيس ، أو تسلك طريق وادى الطميلات ثم خليج السويس والبحر الأحمر [٢] ، لتستورد منها البخور واللبان والمر والصموغ لطقوس المعابد وضرورات التحنيط ، والمعادن والأحجار شبه الكريمة والعاج وبعض الأخشاب الثمينة لصناعة الحلى وأدوات الترف، وربما استوردت عن طريقها أقزاماً وجلود الفهود والنمور وحيوانات نادرة مما يليها ، فى مقابل مبادلة أهلها بالمصنوعات المصرية التى تروج بينهم وترضى أذواقهم. وسجلت حوليات الملك ساحورع ثانى ملوك الأسرة الخامسة من صور هذه الاتصالات أنه وردت فى عهده كميات هائلة من منتجات بوينة ، وصور فنانوه أفراداً من هذه البلاد فى مناظر معبده بـ «أبو صير» على هيئة الخاضعين لسطوته [٣] ، وإن كانوا فى

---

(١) *See,* Abdel - Aziz Saleh, *op. cit.*

(٢) يعتقد كيس أن رحلات الدولة القديمة إلى بلاد بوينة كانت تركب البحر من السويس فقط .

(٣) L. Borchardt, *Sahurê...*, Taf. VI, 19 f. ; *Urk.*, I 246.

الأغلب ممن يتاجرون مع دولته .

واتسعت اتصالات مصر التجارية بفلسطين عن طريق البر ، وبفينيقيا عن طريق البحر . وظهر من قرائنها أن صور أحد فنانى معبد الملك ساحورع بضع مراكب بحرية كبيرة استقبلها الملك وحاشيته حين عودتها من فينيقيا محملة بالرجال والخيرات والحيوانات ، وكان من الشخصيات البارزة فيها شخصية المترجم (الذى كان يقوم مقام السفير) . ومن الباحثين من يظن أنها حملت عروساً فينيقية سامية كذلك إلى الملك ، ولهذا استقبلها بنفسه وأكرم مرافقيها ، وإذا صح هذا الظن كان أقدم دليل على اتخاذ مصاهرات الملوك والبيوتات الحاكمة سبيلاً إلى تدعيم العلاقات الدولية بين الشعوب [١] .

واستمرت الجهود الاقتصادية المألوفة ، والجهود العسكرية المعتادة ، لاستغلال مناطق الحدود فى الجنوب والغرب والشرق وشبه جزيرة سيناء ، وتأمينها من شغب البدو . ووصلت المتاجر المصرية جنوباً حتى منطقة بوهن على أقل تقدير ، وصحبها فى الأغلب نوع من النفوذ السياسى [٢] . وتوفر للملكين ساحورع وونيس نشاط عسكرى ضد فريق من عصاة القبائل فى الصحراء الغربية . وشجعت انتصارات جيوشهما على تصوير بعض أمراء هذه القبائل وزوجاتهم وأولادهم على جدران معبديهما على هيئة المستسلمين لسطوتيهما وتصوير مصادرة جيوش ساحورع لآلاف كثيرة من مواشيهم وأنعامهم بما يدل على أن واحاتهم ومناطقهم الساحلية كانت وفيرة العشب والمرعى [٣] ، وإن هددها القحط والمجاعات من حين إلى آخر .

التطور السياسى الاجتماعى :

سارت الأوضاع السياسية والاجتماعية بخطى واسعة فى سبيل التطور المحمود خلال عصر الأسرة الخامسة . ورأى الملوك أنهم يعملون فى ظروف تختلف بعض

(١) Borchardt *op. cit.*, Taf. XIII; *Urk.*, I, 169; P. Montet, dans Mélange Dussaud, 191 f.

وعثر على كأس باسم وسركاف فى إحدى جزر بحر إيجه ، غير أن هناك شكاً فى وصولها إليها فى عصر الأسرة الخامسة .

K. Sethe *ZAeS*, LIII, 55 f. (Athens Mus. 4578).

(٢) W. Emery, *Egypt in Nubia*, III, 127.

(٣) L. Borchardt, *op. cit.*, Taf. I, f.

الشيء عن الظروف التى حكم فيها أسلافهم ، فأزادوا الإنعامات المادية والأدبية لكبار كهنة الشمس ومعابدهم رغبة فى أن يضمنوا ولاءهم ويضمنوا استمرارهم على التسبيح بفضلهم والدعاية لهم بين الناس . وأعفوا بعض معابد الأرباب الآخرين من جانب من التكاليف المفروضة عليها (١). وأزادوا الإنعامات المادية والأدبية كذلك للمدنيين من الطبقة العليا ، وسمحوا لكبار أفرادها أن يبلغوا منصب الوزارة ، أكبر مناصب الدولة ، بعد أن كان قاصراً منذ إنشائه فى عهد سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة على كبار الأمراء وحدهم (٢) . وتصاهروا معهم وزوجوا بعضهم بأميرات من أسرتهم الحاكمة (٣) . ومضوا على تربية أبناء الكبراء فى قصورهم (٤) ، وسمحوا لعدد من هؤلاء الأبناء بأن يرثوا مناصب آبائهم ما داموا أهلاً لها وما دامت تتوافر لديهم الكفاية لشغلها . وظهر من ملوك الأسرة ملوك متعلمون ، كانوا يتفقدون دور الكتب ودور المحفوظات بأنفسهم ، ويراسلون وزراءهم بعبارات المودة ويردون بخطهم على رسائلهم إليهم (٥) . ومن أمتع مابقى من رسائلهم رسالة كتبها الملك إسسى إلى وزيره شبسرع يقول له فيها رداً على رسالة منه إليه فى أحد أعياده وصفه فيها بما يجب أن يوصف به : «اطلع جلالتى على الحديث الممتع الى أرسلته إلى القصر فى هذا اليوم الجميل ، .. وسررت به لأنك تعرف كيف تتحدث بما يستحبه جلالتى ، وإن كل ماتقوله ليروق لى إلى أقصى حد .. وهأنذا أقول الآن وأردد باستمرار ، ياحبيب مولاه ، يا من أنعم عليه مولاه ، يامستشار مولاه ، الحق إن رع أكرمنى بأن وهبنى إياك . وبحق حياتى الخالدة لئن أبديت لى أية رغبة بكتاب اليوم لقضيتها لك فى التو» (٦) .

---

(١) W.F. Petrie, *Adydos*, II, Pls. XIV, XVII, ; *Urk.*, I, 170.

(٢) لم يل الوزارة من الأمراء فى عصر الأسرة الخامسة غير أميرين : سخم كارع ، ونفر سشم سشات .

See, A. Weil, *op. cit.*, 5 f.

(٣) Junker, *Giza*, III, 211; V, 9 f., 12 f.

(٤) Ibid., VII, 230 f.; Mariette, *Mastabas*, 402; Borchardt, *Statuen und Statuetten*, 76.

(٥) *Urk.*, I, 60-62; Quibell, *Saqqara*, 1907-*, 79 f., pl. 61; Junker, *Giza*, VII, 233.

(٦) *Urk.* I, 179.

وظهر من ملوك الأسرة من لم يكن يأبى أن يترضى رجاله عما أصابهم منه أو من جرائه عن قصد أو عن غير قصد . وحكى رجلان من عهد الملك نفر إركارع كاكاى شيئاً من ذلك . فقص «رع ور» أحد من عملوا فى خدمة القصر وفى سلك الكهنوت أن ملكه وكز ساقه بمنسأته (ربما عن غير قصد) خلال حفل كبير ، ثم لم يأب أن يطمئنه على سلامة العقبىَ ويخصه بوداده ويسمح له بأن ينقش هذا فى مقبرته [1] .

وقص آخر أن أباه الوزير واشبتاح (أو بتاح واش) دهمه الموت فجأة وهو يرافق الملك فى حفل افتتاح إحدى المنشآت الملكية ، وأن الملك حاول إسعافه بنفسه واستعان فى ذلك بمخطوطاته الطبية الخاصة أو عقاقيره الخاصة ، ولكنه فشل وعاد إلى مقصورته ودعا الأرباب من أجله ، أى ترحم عليه ، وسمح لولده بأن يسجل خبر ذلك كله نقشاً فى مقبرته [2] . وكان فى ذلك مافيه من الدلالة على معرفة الملك ببعض مبادىء الطب أو التطبيب ، إلى جانب إظهاره التعاطف الإنسانى مع من حوله .

واعتقد الأستاذ فيكنتيف أن وقوع الحادثتين فى عهد ملك واحد يدل على أنه كانت له مصلحة فيهما ، وأنه كان يود أن يتخلص من الرجلين فنخس أحدهما بعصاه التى يحتمل أنها كانت مسمومة وسم الآخر بطريقة ما ثم أظهر حزنه عليه . ولو صح ذلك لدل على ضعف سلطان الملك واضطراره إلى سلوك طريق ملتوية للتخلص ممن لايطمئن إليهم . ولكن الأستاذ شارف فسر الحادثة الأولى بتفسير آخر ، واعتقد أن الملك وكز رع ور عن غير قصد فعلاً ، ولكن إيمان رع ور بأن عصا الملك كانت عصا مقدسة شأنها شأن بقية شاراته جعله يتخوف العاقبة ، ويتوقع حلول غضب الأرباب عليه ، فطمأنه الملك وأفرخ روعه .

واتسعت تنظيمات الإدارة خلال عصر الأسرة الخامسة بما يتوازى مع مابلغه

---

(١) S. Hassan, *Excavations at Giza*, 1929-1930, I, 18.

(٢) Breasted, *A. R.*, I, 257 f.

مثقفوها من رقى الفكر والمادة في نواحى حياتهم [(١)]. وترأس الوزير جهاز الحكومة المركزية بعد الملك ، وكان قد بدأ عمله خلال عصر الأسرة الرابعة ، بمثل ما بدأ به فيما بعد أوائل الوزراء فى العصور الإسلامية ، أى باعتباره حامل الوزر (والمسئولية) ومسئولاً عن شئون الدولة أمام مولاه . وظلت النصوص الرسمية تثبت له هذه الصفة باستمرار . ولكن الوزراء مالبثوا حتى أصبحوا فى نظر جمهرة الناس شيئاً آخر بعد أن ولى الوزارة رجال من كبار الشعب فى عصر الأسرة الخامسة ، وبعد أن لجأ الملوك إزاء اتساع شئون دولتهم أو إزاء التطور الطبقى فى دولتهم ، إلى أن ينقلوا بعض سلطاتهم الفعلية إلى وزرائهم ويركزوها فى أيديهم . وترتب على ذلك أن انتقل إليهم نصيب من قداستهم أو مهابتهم ، ونسب الناس إلى أحدهم (أو اثنين منهم) الحكمة وتأليف تعاليم تهذيبية . وعندما اكتملت للوزير اختصاصاته كانت تعرض عليه أمور الدولة الهامة ، ثم يتولى هو عرضها على الملك ، وكان يعتبر محافظاً للعاصمة ورئيساً للبلاط وللديوان الملكى ، ويتولى الإشراف الأعلى على الخزائن وشئون الرى والزراعة وشون الغلال الحكومية والمنشآت العامة والأشغال المعمارية الكبيرة ، لاسيما الملكية منها . ويتولى الإشراف الأعلى على دور القضاء ودور المحفوظات ودور السلاح . وكان يتلقب منذ عصر الأسرة الرابعة بلقب قضائى يجعله كبير خمسة دار تحوتى[(٢)]، ربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم إلى المعبود تحوتى رب العدالة والكتابة والحساب . ثم تلقب خلال عصر الأسرة الخامسة بلقب «حم ماعت» أى «كاهن ماعت» أو «خادم العدالة» ، ولقب رئيس الدواوين الست الكبيرة [(٣)] . ولسنا على بينة من الاختصاصات الفعلية لهذه الدواوين ، أو المناطق التى كانت توجد فيها، وإن يكن من المحتمل أنها كانت تمثل دور القضاء العليا للدولة فى العواصم الكبيرة .

---

(١) *See especially*, M. A. Murray-K. Sethe, *Index of Names and Titles of the Old Kingdom*, 1908, 1937; J. Pirenne, *Histoire des Institutions et des droit privé de l'Ancienne Empire*, t. I-III, 1937-1935; A. Weil, *Die Veziere des Pharonemreiches*, 1908; H. W. Helck, *Untersuchungen zu den Beamtentiteln den aegyptischen alten Reiches*, 1954; K. Baer, *Ranks and Titles of the Old Kingdom*, 1960.

(٢) A. Weil, op. cit., Nr. 2,3, ; Mariatte, *Mastabas*, 125.

(٣) Weil, *op. cit.*, 10-12, etc. ; Mariette, *op. cit.*, 228, 407-409 ; L. D., II, 103; *ZAeS*, XX, If. ; XXVIII, 43 f. ; *P.S.B.A.*, XIII, 121 f.

وسرى شيء من ارتفاع شأن الوزارة إلى كبرى الوظائف المتدرجة تحتها . وترتب على كل ما أسلفناه أن توافر لأهل الطبقة العليا وربما كبار أهل الطبقة الوسطى أيضاً منذ عصر الأسرة الخامسة ، من الإمكانيات المادية والقيم الاعتبارية أكثر مما توفر لأسلافهم ، ولم يعودوا يتقيدون كثيراً بتشييد مدافنهم حول أهرام ملوكهم كما كان شأن أمثالهم فى عصر الأسرة الرابعة ، فتوزعت مقابرهم فى سقارة والجيزة . ولم يتردد بعض حكام الأقاليم فى أن يعملوا على نحت مقابرهم فى سفوح التلال فى مناطق حكمهم بعيداً عن جبانة العاصمة . وشيد بعض هؤلاء وهؤلاء لأنفسهم مقابر واسعة ذات حجرات عدة وأبهاء ذات عمد ، وضمنوها عدداً من تماثيلهم الكبيرة والصغيرة ، ووضعوا فى جزئها الأسفل عدداً كبيراً آخر من التماثيل الصغيرة لأتباعهم وخدمهم الذين تمنوا أن يقوموا بخدمتهم فى دنياهم الثانية . وعنوا بزخرفة جدران مقابرهم بنصوص ومناظر كثيرة اتسمت فى مجملها بطابع الزخرف والألوان البهيجة، وشاعت فيها النقوش الهادئة متوسطة البروز ، وغلبت الحيوية والنضارة على صور ناسها وطيورها وحيواناتها . وتنوعت موضوعاتها ورمزت إلى ماكانوا يملكونه من ضياع وأنعام ومراكب للصيد والنزهة والانتقال ، وأشارت إلى من كانوا يتبعونهم من جماعات الكتبة وجماعات الصناع (وهى جماعات محدودة العدد بطبيعة الحال)، ورمزت إلى ماكانوا ينعمون به من حياة رغدة ومن رعاية الخدم والأتباع . ومن أمتع مايستشهد به من مقابرهم من حيث أسلوبها المعمارى وأسلوبها الفنى ، ومن حيث تنوع مناظرها التى تصور الحياة اليومية داخل البيوت وخارجها ، مقبرة «تى» أحد رؤساء دواوين الكتاب فى عصره ، وأخرى للوزير «بتاح حوتب» الذى عاصر الفرعون إسسى . وقد توافر لهذا الوزير «بتاح حوتب» نصيب واسع من الشهرة ، وقدر لاسمه أن يخلد فى عالم الأدب المصرى القديم قروناً طويلة ، حيث نسب إليه تأليف نصائح مطولة فى آداب المعاملة والسلوك نصح ولده بها ، وابتغى أن يتأدب بها بقية الشباب فى مثل سنه ، وحاول خلالها أن ينظم علاقة ولده بقرارة نفسه وأسرته وعمله ومجتمعه ، وأن يجعله على تقى من ربه . فدعاه فيما دعاه إلى أن يراعى التوسط فى اختيار مناسبات صمته ومناسبات كلامه ، ويراعى التوسط فى معاملته لنفسه ومطالب بدنه ، ويراعى التوسط فى معاملته لرئيسه ومرؤوسيه ، مما سنعالجه بتفصيل فى حديث الأدب [1] .

(١) ويراجع عن ظروف نهاية عصر الأسرة الخامسة وعلاقات ملوكها الثلاثة الأواخر بديانة الشمس وكبار كهنتها ، كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها – ص٣٧٨-٣٨٠ .

رابعاً - البيروقراطية والتحرر الاجتماعى فى عصر الأسرة السادسة (٢٤٢٠-٢٢٣٠ ق.م.)

كان رأس الأسرة السادسة فرعون يدعى تتى (ولقبه : سحتب تاوى) ، أقيم هرمه فى سقارة وتضمن نصوصاً لاتكاد تختلف عن نصوص هرم ونيس إلا فى زيادة اهتمامها بذكر المعبود أوزير وتأكيدها تشبيه الملك المتوفى به . وأقيمت بعض مقابر أتباعه حوله في طرقات يمكن ترسمها . وشاءت المصادفات أن تحتفظ بردية طبية مصيرة كبيرة بتفاصيل عقاقير لتقوية بصيلات الشعر صنعت أحدها أمه شيشى (أو صنع من أجلها) ، وألف بقيتها كبير الأطباء خوى [1] . ويبدو أن التخصص فى العلاج خلال عصر الأسرة السادسة كان قائماً فعلاً ؛ إذ ظهر من أطباء العصر من اشتهر بطب العيون ، وكان لأطباء القصر الملكى رئيس مما يدل على تعددهم ، ويبدو أن تتى تعرض لمؤامرة ما فى نهاية حياته .

وشهدت مصر بعد عهد تتى تطورات متصلة فى حياتها السياسية والاجتماعية، وفى روابطها بالنوبة وبجيرانها فى فلسطين . واشتهر خلال العصر من الشخصيات ذات الأثر فى مجالات السياسة والحرب والاقتصاد ، ثلاثة من الملوك، وهم ببى الأول ، وولداه مرنرع ، وببى الثانى [2] ، ثم ثلاثة من خاصة القوم ، وهم : ونى ، وحرخوف ، وببى نخت .

نمو البيروقراطية :

أسلفنا فى عرضنا للأوضاع السياسية خلال عصر الأسرة الخامسة ، أنه توافر لكبار الأفراد حينذاك ، وكبار الموظفين والكهنة بخاصة ، نصيب واسع من القيم الاعتبارية والإمكانات المادية ، وأن أسباب التقارب بينهم وبين ملوكهم ازدادت شيئاً فشيئاً ، دون أن يؤثر هذا التقارب فى هيبة الملوك تأثيراً ذا بال ، ودون أن يؤثر فى ولاء كبار الموظفين والكهان لهؤلاء الملوك تأثيراً ذا بال . وأن هؤلاء الملوك لم يجدوا بأساً فى أن يعهدوا إلى أبناء كبار موظفيهم المقربين بمناصب آبائهم بعد وفاتهم .

---

(١) Papyrus Ebers, 62, 4; Spiegelberg, *ZAeS*, LVIII, 152.

(٢) وألقابهم الحورية هى : مرى تاوى ، وعنخ خعو ، ونثر خعو .

Lex. der Aeg., IV (1982), 926-929; VI (1985), 457-59.

وازدادت سياسة التقارب هذه بين الفريقين فى عصر الأسرة السادسة ، فتكرر سماح بعض ملوكها بتزويج بناتهم من صفوة موظفى دولتهم (مثل : كايجمنى ومرروكا ، وكان الأخير زوج ابنة الفرعون تتى) . بل وتزوج أحد هؤلاء الملوك من ابنتى أحد كبار ولاة الصعيد (راجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) . وتوسعوا فى تربية أبناء كبار موظفيهم فى قصورهم [١] . وأزادوا مراسيم الإعفاء التى كانوا يحررون المعابد بها من بعض التكاليف الواجبة عليها [٢] ، ويكتسبون ولاء الكهنة وحسن السمعة عن طريقها ، وإن خسروا بها جانباً غير قليل من موارد خزائنهم . وكان منهم من يبدأ مرسومه بإعفاء أوقاف تماثيله وقرابينه فى معبد معين من التكاليف المفروضة عليها ؛ أى إنه يبدأ بمراعاة صالحه أولاً ، ثم يعمم الإعفاء على أوقاف المعبد كله ثانياً .

وتضخمت مكانة كبار الموظفين فى هذا العصر خلال توليهم منصب الوزارة ، ومناصب حكام الأقاليم الكبيرة ، ومنصب والى الصعيد ، فضلاً عن مناصب أخرى كثيرة كانت تندرج تحت اختصاصات هذه المناصب الثلاثة، ويحتفظون بالإشراف الأعلى عليها . وظهر أكثر التطور حينذاك فى سلطات حكام الأقاليم الذين اختلف نفوذهم تبعاً لشخصياتهم وشخصيات الملوك، الذين عملوا فى عهودهم أو عملوا فى خدمتهم وتبعاً كذلك لمدى أهمية أقاليمهم . فدأب أغلبهم على أن يردوا وجوه نشاطهم فى أقاليمهم إلى أمر الملك وتوجيهه وفضله ، بينما امتاز منهم عدد قليل آخر حرص أفراده على أن يسجلوا أخبار مجهوداتهم الشخصية ومآثرهم الفردية فى نقوش مقابرهم ، فشرحوا كيف عملوا على تعمير أقاليمهم ووطدوا الأمن فيها ، وكيف ساروا بالعدل بين أهلها وأسعدوهم ، وإن لم يأبوا فى الوقت نفسه أن يوفوا التقاليد الشكلية حقها ، فسجلوا إلى جانب مآثرهم الخاصة صوراً من طاعتهم للملك المعاصر لهم ، وحرصهم على التقرب مه وإرضائه . ومن هؤلاء الحكام المتميزين «هنقو» الملقب «نفرنچم» والرئيس الأعلى لمنطقة «چوفة» أو «چوفية» قرب أسيوط فى أواخر عصر الأسرة السادسة أو بعدها بقليل [٣] . وقد افتخر فى نقوش مقبرته بدير الجبراوى بأنه

(١) *Urk.*, I, 251 f., 296 f. ; *ZAeS*, LXIV, 93.

(٢) A. Moret, *Journal Asiat.*, 1916, 232 f.; Hayes, *JEA*, 1946, 3 f.

(٣) *Urk.*, I, 76-97. – وقد أرخ الأستاذ كورت زيته عهده بأواخر عصر الأسرة الخامسة أو أوائل عصر الأسرة السادسة . ولكن تلقيبه بالرئيس الأعلى للإقليم ، وعدم تسجيل اسم الملك الذى عاصره صراحة كلاهما يوحى بأنه عايش نهاية الدولة القديمة أو مابعدها بقليل .

أغدق الطعام والشراب والكساء على فقراء إقليمه ، وأنه بلغ من كرمه أن أشبع ذئاب الصحارى وعقبان السماء بلحوم الماعز التى كان يضحى بها (أو بما يتبقى منها) . وذكر من وسائله إلى رعاية إقتصاديات إقليمه مايعتبر مفخرة لعهده البعيد (فى فترة من القرن ٢٣ ق.م.) . حيث شجع هجرة أهل الأقاليم الأخرى كثيفة السكان إلى إقليمه لتعمير قراه قليلة السكان ، ثم جعل مزارعيه ملاكاً ، وزاد أعداد الماشية على شواطئه وقطعان الماعز على مراعيه ، بما ينحو منحى الإصلاح الزراعى وتنمية الثروة الحيوانية فى التعبيرات الحديثة ولكن على نطاق ضيق . وبلغ من طيب سمعة بعض حكام الأقاليم حينذاك أن رفعهم رعاياهم إلى مصاف الأولياء وقدسوهم ومنهم إيسى والى أدفو فى بداية عصر الأسرة السادسة [١] .

ورضى ملوك العصر بنشاط أصحاب الشخصيات القوية من ولاة الأقاليم ، أو هم اضطروا إلى مسايرته ، ولكنهم توقوا أن يؤدى ازدياده إلى hنفلات السلطان من أيديهم ، أو يؤدى إلى تهاون الولاة فى أداء التبعات والضرائب المفروضة عليهم ، أو يشجع بعضهم على الاستقلال بحكم أقاليمهم . وتفادوا هذه التوقعات عن طريق التوسع فى استخدام وسيلتين قديمتين ، وهما : التوسع فى تربية أبناء كبار الولاة فى قصورهم ليتشربوا حبهم وأملاً فى أن يشبوا أوفياء لهم ولأولادهم ، ويخلصوا لطاعتهم إذا تولوا حكم أقاليمهم [٢] . ثم إعادة منصب والى الصعيد الذى استحدثته الأسرة الخامسة وعهدت إلى أصحابه بالرقابة باسم الملك على ضرائب الصعيد وشئون حكامه ، وكان قد ألغى فيما يبدو فى عهد تتى أول ملوك الأسرة السادسة ، ثم أعيد فى عهد مرنرع رابع ملوكها وزاد نفوذه [٣] .

وصور بعض مشاكل قصور الأسرة السادسة ، ومكانة بعض كبار الموظفين فيها ، مواطن كبير يدعى «ونى» (وليس أونى كما تسميه بعض المؤلفات الحديثة) . وقد دونت قصة حياته فى نقوش مقبرته بأبيدوس ، ثم نقلت إلى متحف القاهرة منذ أواخر القرن الماضى . وقص فيها أنه بدأ حياته الوظيفية فى عهد تتى وأنه ارتقى فى مناصب البلاط حتى اشتغل محققاً فيه خلال عهد ببى الأول ، وأنه شارك الوزير فى

(١) Alliot, *Bull. Inst. frs.* XXXVII, 93 f.

(٢) *Urk.*, I, 251 f.; Kees, *ZAeS*, LXIV, 93 .

(٣) دريوتون وفاندييه : مصر – ص٢٦٣ .

كل قضاياه الخاصة ، أو على الأصح ساعد الوزير فى القضايا الخاصة . وعمل فى دور القضاء الستة، ثم حدث أن اتهم الملك ببى زوجته الملكة إمتس فى أمر أتته ، وربما اشتركت فيه مع وزير عهدها ، وهو أمر لاندرى شيئاً مؤكداً عن حقيقته ، وقد يكون خيانة زوجية ، أو تآمراً على إحدى ضرائرها المحبوبات عند زوجها ، أو تآمراً على أحد أبناء ضرائرها لمنع بلوغه العرش بعد زوجها ، أو تآمراً على زوجها الملك نفسه . ويبدو أن ببى لم يشأ أن يأخذ زوجته بالظن أو ينفرد بإدانتها ، فعهد إلى ونى بأن يتولى التحقيق معها ، فقام به منفرداً ورفع نتيجته إليه [1] . ولم يسجل التاريخ شيئاً عن هذه النتيجة ولا عن قرار ببى فيها ، ولكنه سجل من ناحية أخرى أنه تزوج غيرها ، ولم يجد بأساً فى أن يصهر إلى أحد عظماء مدينة جرجا فى عهده ، وكان يدعى «خوى» فتزوج إبنته ، وأنجب منها ولى عهده مرنرع ، وربما تزوج أختها (بعد وفاتها ؟) وأنجب منها ولداً آخر ولى العرش بعد أخيه باسم ببى (الثانى) [2]. وكانت هى المرة الأولى ، فيما نعلم حتى الآن ، التى تزوج ملك فيها واحدة من غير الأميرات خلال توليه الحكم ، ثم رفعها إلى مكانة الزوجة الرئيسية واعترف بولدها ولياً شرعياً لعهده .

أحداث الشمال الشرقى والتنظيمات العسكرية :

أدت الظروف الخارجية إلى أن يعمل ونى باسم ملكه واسم بلده خارج الحدود فيما هو أهم من عمل الحاشية وتحقيقات البلاط . فقد توافدت على أراضى فلسطين خلال عهد الملك ببى أو قبله ، هجرات بدوية متقطعة سماها المصريون باسم «عامو حريوشع» بمعنى بدو الرمال ، أو القبليين الذين على الرمال ، ويحتمل أنها كانت فرعاً من الهجرات الأمورية التى انتشرت على كل حدود الهلال الخصيب ، وهددت سبل التجارة بين مصر وجيرانها ، وحاولت أن تثير الاضطرابات وأن تعبرحدود مصر الشمالية الشرقية : فعهد ببى إلى ونى بدرء شرها وحماية حدود مصر وتجارتها الخارجية . ويحتمل أنه خرج على رأس نحو خمس حملات ، أربع منها عن طريق البر وخامسة عن طريق البر والبحر حصر العدو بها بين فكى كماشة ، وتكللت حملاته كلها بالنجاح على حد قوله . ويكفينا من النصوص التى سجلها عنها ، بضع

(١) *A. R.*, I, 294, 307 f.; H. Goedicke, *J.A.O.S.*, 1954, 88-89.

(٢) *Urk.*, I, 117-119 ; Mariette, *Cat. des Mon. d'Abydos*, No. 253.

عبارات تكشف عن سياسة الحرب وتنظيم الجيوش فى أيامه . فقد قص ونى أن ملكه جند تحت إمرته عشرات الآلاف الكثيرة من حاميات المدن وأهل الأقاليم الجنوبية والشمالية ومن جنبى الدلتا ، فضلاً عن بعض أهل النوبة الموالين لمصر من قبائل إرثة ومجا وإيام وواوات وكاو ، وبعض سكان الصحراوات الغربية من قبائل ثمحو . وأوفد معه طائفة من المترجمين والموظفين والكهان . وعقب ونى بأنه نظم مسيرة الجنود على خير وجه ، وأنه ترتب على حكمته فى رسم خطته أنه لم يحدث أن تنازع جندى مع زميله ، أو اغتصب جندى كسرة خبزة من عابر سبيل أو اغتصب نعله ، ولم يحدث أن نهب أحد جنوده خرقة من قرية ، أو سلب عنزة من عشيرة ، حتى جاوز بجيشه مناطق الحدود الشمالية الشرقية ، أو جاوز على حد تعبيره الجزيرة الشمالية ، وبوابة إيمحوتب ، وساقة حورنب ماعت [1] . وترتب على المعارك التى خاضها ونى مايترتب على الحروب عادة فى كل آن ، من أسر وتقتيل ، ونهب وتدمير . ولما تكللت مساعيه بالنصر ، وعاد بعسكره إلى أرض مصر ، رفع إلى ملكه تقرير الحرب ، وعقب عليه بسبعة أبيات من الشعر ، أكد خلالها سلامة جيشه سبع مرات ، وبدأ كل شطر فيها بعبارة تقول : عاد الجيش سالماً بعد أن فعل كذا وكذا ... ، فقال على سبيل المثال : «عاد الجيش سالماً بعد أن دمر أرض أهل الرمال ... ، عاد الجيش سالماً بعد أن أسقط حصونهم ، عاد الجيش سالماً بعد أن خرب مزارع التين واقتلع الكروم» .

لم يبرأ تقرير ونى من المبالغة فى تصوير كثافة جيوشه ، حين ادعى أنها بلغت عشرات الآلاف ، ولم يبرأ من المبالغة حين ادعى أن جنوده لم يحيدوا عن جادة الصواب فى أى كبيرة وصغيرة . غير أن روايته على الرغم مما تضمنته من مبالغات ، لاتخلو من دلالات تنم عن التنظيمات العسكرية فى عصره ، ومنها أن الملوك تعودوا أن يجندوا قطاعاً واسعاً من إمكانات البلاد لأغراض الدفاع والهجوم كلما آن أوانها (دون الالتزام بنظام الجيش الكبير الدائم) ، وأنهم اطمأنوا إلى ولاء بعض النوبيين وبدو الصحراء الغربية واستعانوا بهم فى جيوشهم ، وأن الكتبة المدنيين كانوا يقومون بتوفير المؤن وتوزيعها على وحدات الجيش ، كما أن رجال الدين كان

---

(١) حورنب ماعت هو لقب سنفرو ، وتسمية المنطقة باسمه تعنى تحصينها فى عهده .

See, Erman, ZAeS, 1891, 120; *A.R.,I*, 312 d; *Lex. d. Aeg.*, VI (1985), 852-53.

لهم نصيب من المشاركة في الجيش حين الخروج إلى الحرب ، ولعلهم كانوا يثيرون حماس الجنود ويذكرونهم بآلاء الأرباب وضرورة الولاء للملوك والرؤساء، والحرص على تقاليد الدين . وكان التراجمة يعاونون القادة على التفاهم مع أهل المدن التى يفتحونها أو تفتح لهم أبوابها من تلقاء نفسها . ونم وصف ونى لمسلك جنوده الحميد داخل مناطق الحدود ، وافتخاره به ، عن أن رؤساء عهده ممثلين فى شخصه ، كانوا يقدرون من تبعات القيادة أربعة واجبات ، وهي : العمل على تغليب روح الطاعة فى الجيش ، وتقليل دواعى الشقاق بين الجنود ، وتغليب روح التراحم بينهم وبين مواطنيهم المدنيين ، والعمل على تزويد الجيش بمؤونة مناسبة تصرف رجاله عن الدنية وعن محاولات النهب والعدوان . ونم وصفه لمنطقة حرويه، وذكره مزارع التين والكروم فيها ، عن أنه توغل بجيشه فى فلسطين ، وقد ذكر منطقة منها باسم «أنف الغزال» ، وهذه يراها الأستاذ جاردنر قريبة من جبل الكرمل . ويبدو أن سلامة الجيش التى رددها ونى فى نهاية تقريره المنظوم عدداً من المرات لم تكن من مستلزمات الشعر وحده ، وإنما تضمنت خبراً مروياً عما حدث للجنود فعلاً ، أو هى على الأقل عبرت عن أمل كان المقيمون يرجونه لجيشهم فعلاً[1].

بعثات التجارة والكشف فى الجنوب :

عبر الكتبة المصريون فى الدولة القديمة عن أكبر أجزاء النوبة باسم «واوات» ، كما عبرو عن أهلها باسم عام وهو «نحسيو» (ومنه أتى اسم بانحسى أى النوبى وخرج به العبرانيون ونطقوه فنحاس) . واعتادوا أن يعبروا عن مناطقها وقبائلها الأخرى الرئيسية بأسمائها المحلية مثل : إيام ، وإرثة ، ومعخز ، ومجا ، وكاو [2] . وازدادت علاقاتهم بها دوماً ، بناء على اعتبارات عدة ، من أهمها : اعتبارهم مناطقها السفلى الممتدة جنوبى أسوان جزءاً متمماً وتابعاً لبلادهم ، ورغبتهم فى تأمين الحياة فيها والحد من شغب قبائلها غير المستقرة التى كثيراً ما دعاها الفقر إلى الاعتداء على

(١) راجع عبدالعزيز صالح : «التربية العسكرية فى مصر القديمة» – فى تاريخ الحضارة المصرية – القاهرة ١٩٦٢ ، ص١٨٩ .

(٢) A.H. Gardiner, *Anc. Eg. Onomastica*, I, 47 f. ; Junker, *JEA*, VII, 121 f. ; J. Yoyotte, *BIFAO*, LII, 176; D. Dixon, *JEA*, 1958, 401-20; E. Edel, *Aeg. Stud.*, 51 f. ; *Kush*, VI, 39 f.

مراكز الحدود الزراعية وقوافل التجارة ، مع حرص الدولة استغلال محاجرها الممتازة، كمحاجرالديوريت ، التى بدأ استخدامها منذ عصر الأسرة الرابعة على أقل تقدير ، وربما استغلال مناجم الذهب كذلك فى مناطقها الشرقية [١] ، ومن أجل فتح أسواق للتبادل التجارى فى مناطقها المسكونة ، واتخاذها سبيلاً ووسطياً للاتصال بأراضى السودان الغنية بمنتجاتها الطبيعية ونباتاتها وحيواناتها . وكانوا يصدرون إليها فيما تذكر النصوص الدهون العطرة والعسل الأبيض والمنسوجات والزيوت ومصنوعات القاشانى ، ويستوردون منها أو عن طريقها الماشية والعاج والأبنوس وريش النعام وجلود الضباع والفهود وربما الذهب والغلال أيضاً . وازدادت هذه الصلات والرغبات وضوحاً خلال عصر الأسرة السادسة على هيئة بعثات كشفية ورحلات تجارية وتجريدات تأديبية . وتكفل بأعمال الكشف وترويج التجارة فيها عدد من كبار شخصيات أسوان ، جمعوا فيما يحتمل بين الدم المصرى والدم الجنوبى وعرفوا اللهجات النوبية والسودانية وتفاهموا بها مع أهلها ، وحملوا لذلك لقب رؤساء المترجمين «إميراعو» ، وسجلت النصوص من أسمائهم أسماء : إرى ، وحرخوف ، ومخو ، وسانبى ، وببى نخت . وكان أكثرهم أثراً اثنان ، هما : حرخوف ، وببى نخت .

قام «حرخوف» [٢] بأربع رحلات إلى الجنوب فى عهدى الملكين مرنرع وببى الثانى ، سلك خلالها طريقين طريقاً يوازى النهر والدروب القريبة منه ، وطريقاً يصل إلى الواحات عبر الصحراء الغربية . وبدأ رحلاته فى صحبة أبيه إرى ، وبلغ معه منطقة إيام (أو يام أو إيما) وهى منطقة قريبة من مجرى النيل حول الشلال الثانى[٣]، وذكر فى نصوص رحلته الأولى أنه أراد أن «يكتشف بها طريقاً إلى تلك الفيافى» مما ينم عن وضوح نية الكشف عنده . وهو إن كان كشفاً تجارياً وإدارياً قبل كل شىء ،

---

(١) هناك رأى بأنهم لم يستغلوا ذهب النوبة قبل الدولة الوسطى . Gardiner, *op. cit.*, 134.

(٢) وقرئ اسم «حرخوف» «خوف حر» أو «حروخويف»

See, G. Fecht, in *Festschrift* E. Edel, 1979, 105 f.

(٣) يراها ديكسون جنوب بطن الحجر ولاتتعدى جنوب خط ٢٢ ، ويراها يويوت فى واحة دنقل ، ويراها جاردنر جنوب الشلال الثانى وفيما بينه وبين الشلال الثالث .

Dixon, *op. cit.*, 40 f., 53-54; J. Yoyotte, *op. cit.*, 176 f. ; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*.

إلا أن ذلك لايعيبه فى عصره البعيد إذا قدرنا أن الاكتشافات الأوروبية حتى فى العصر الحديث ، كانت على الرغم من نتائجها العلمية ، تستهدف التجارة والاستغلال بل والاستعمار أساساً . وكان قد سبقه وسبق أباه إلى رغبة الكشف مصرى آخر سجل اسم الملك ببى الأول على صخور توماس شمال كورسكو ، وذكر أنه أراد أن يكتشف منطقة إرثة [1]. وقضى حرخوف فى رحلته تلك سبعة شهور ، ثم قام برحلته الثانية ، وبدأها من أبيدوس وسلك فيها طريقاً سمى طريق العاج . وقطع بقافلته ورجاله نحو ١٧٢٥ كيلو متر على ظهور الحمير حتى بلغوا دنقلة الأوردى قرب الشلال الثالث ، وعاد بعد ثمانية شهور ذهاباً وإياباً [2] . وسلك فى رحلته الثالثة «طريق الواحة» من أبيدوس أيضاً [3] ، وهو طريق يحتمل أنه طريق درب الأربعين نفسه الذى تسلكه القوافل حتى اليوم ، ويصل من الجنوب إلى الشمال بين منطقة دارفور والواحة الخارجة ثم يمتد منها إلى أسيوط . وروى حرخوف فى أخباره عن رحلته هذه أنه صادف نزاعاً بين قبائل إيام وقبائل الثمحو ، وكانت الأخيرة منهما قبائل تنتشر فى جنوب طريق الواحات الغربية وتمتد حتى واحة سليمة على أقل تقدير . فعمل على إصلاح مابينهما ، رغبة منه فى إظهار مسعاه الحميد لدى الطرفين فضلاً عن العمل على شهرة ملكه ، وحرصاً على تأمين سبل التجارة التى انتدبه إليها . وأتم حرخوف رحلته الرابعة فى عهد ببى الثانى الذى ولى العرش طفلاً ، وكان قد اعتاد فى عودته من رحلاته السابقة أن يؤكد للملك انتشار نفوذه على المناطق الجنوبية التى زارها أو اكتشف سبل الوصول إليها ، وكما اعتاد أن يقدم لبلاطه خير متاجرها وخير هداياها أو خير جزاها ، وكان يتلقى المكافآت العينية والتشريفية جزاء عمله فى كل مرة ، وقد وصف نفسه فى نصوصه بأنه المشرف على الجنوب وعلى كل البرارى فى رأس الصعيد [4]. ثم عاد من رحلته الرابعة بما اعتاد أن يعود به من غيرها ، وزاد عليه قزماً ربما حصل عليه من أسواق الجنوب وكتب بخبره إلى بلاط مولاه ، فاهتم الملك الطفل به أكثر من اهتمامه بنتائج الرحلة نفسها ، ورد على كتاب حرخوف برسالة ساذجة تتبدى فيها روح الطفولة وانفعالاتها، وتتبدى فيها فى الوقت نفسه مساوئ

(١) *See Dixon, op. cit.*, 47 f.

(٢) *Ibid.*, 44, 45-55.

(٣) أو من بلدة هو كما يظن هرمان كيس . *Kees, op. cit.*, 177.

(٤) *A.R. I*, 333, 334, 336.

النظام الوراثى المطلق، الذى لايأبى أن يضع أزمة أمور دولة بأسرها فى يد طفل صغير . وأوصى ببى حرخوف فى رسالته بالعجلة فى الحضور إليه والحرص على سلامة القزم ، وشدد عليه فى أن يخصص له حرساً يحوطونه على جانبى المركب خشية أن يسقط فى الماء ، ويتفقدونه خلال نومه عشر مرات فى كل ليلة ، وصرح له بأنه أصبح يهتم بهذا القزم الذى أتى له به من عالم الأرواح (سكان الأفق)، أكثر من اهتمامه بمنتجات أرض المناجم ومنتجات بلاد بوينة نفسها ، ووعده إن وصل به سالماً أن يكافئه مكافأة لايحلم بها ، مكافأة يعتز بها أولاده وأحفاده (١) .

وكان الأقزام يقومون بأدوار مختلفة فى قصور الملوك والأثرياء وفى المعابد . فعمل بعضهم فى مجالات الرقص والفكاهة ، وأؤتمن بعضهم على المقتنيات الخاصة لمواليهم ، وعمل بعضهم فى الصناعات الدقيقة كصناعة الحلى ، واشترك بعضهم فى أداء طقوس المعابد ورقصاتها ، وفى بعض مراسم الجنازات الكبيرة (٢) . وكان بعضهم يجلبون من بلاد السودان أو مما وراءها كما حدث على يد حرخوف فى عهد ببى ، ومن بلاد بوينة كما حدث فى أيام الفرعون إسسى من الأسرة الخامسة حيث أحضر رجل يدعى «باور چدى» قزماً من أسواق إيام ، وذكر أنه استورده من «أرض الأرواح» (٣)، على حين كان بعضهم الآخر يختارون من بين قصار القامة وناقصى التكوين من المصريين أنفسهم (٤). ولم تكن أوضاع هؤلاء مهينة دائماً ، لاسيما إذا كانوا من المصريين ، فقد ولى القزم المصرى نسب مناصب كبيرة فى البلاط والكهنوت فى نهاية عصر الأسرة الخامسة أو بداية عصر الأسرة السادسة ، وتزوج من سيدة نبيلة ، وأصبح يخرج فى مواكبه يصحبه مالا يقل عن أربعة أتباع يحملون محفته وعصاه ويرفعون له مظلته (٥) .

وأكمل ببى نخت مجهودات سلفه حرحوف فى أعمال الكشف وتأمين سبل التجارة فى الأقطار الجنوبية فى أوائل عهد ببى الثانى ، وكان يكنى «حقا إب» أى

---

(١) A. R. I, 351 f. ; *Urk.* I, 129 f.

(٢) H. Junker, *Giza, V,* Abb., I, 1-11.

(٣) *Urk.*, I, 128.

(٤) *See, JEA*, XXIV, 185 f.

(٥) Junker, *op. cit.*, Abb., 26.

«المتحكم (فى) قلبه» . واستعان على تنفيذ أغراضه بالشدة حيناً وبالسياسة حيناً أخر[1]. وترتب على ذلك كله أن استمرت التجارة المصرية فى التوغل فى الجنوب، وربما وصلت حينذاك إلى أسواق كرما فى أقصى مديرية دنقلة [2] ، وكانت كرما من أكبر الأسواق التى توسطت بين النوبة وبين السودان .

واستمرت اتصالات مصر التجارية القديمة ببلاد بوينة (بونت) ، وسواحل فينيقيا ، وتبقى من قرائن هذه الاتصالات أن سجل ملاح مصرى يدعى خنوم حوتب، أنه تردد بمركبه مع رئيسيه ثنى وخوى على ميناء جبيل من ناحية ، وعلى سواحل بوينة من ناحية أخرى ، إحدى عشرة مرة ، واستمتع بما شاهده هنا وهناك[3].

صور من العمارة والفن والمجتمع :

شيدت أهرام ملوك الأسرة السادسة فى جبانة سقارة منذ عهد تتى (ص١٤٦)، وشيد هرم الملك ببى الثانى إلى جنوبها بقليل . وشابهت هذه الأهرام أهرام الأسرة الخامسة فى بساطة أحجامها النسبية وصغر أحجارها الخارجية ، وبالتالى قلة متانتها ومقاومتها نسبياً ، وإن تألفت بعض أجزائها الداخلية من كتل ضخمة هائلة . وجرت هذه الأهرام على أسلوب هرم ونيس فى نقش متون الأهرام على جدران حجرات الدفن فيها وبعض القاعات المتصلة بها . ثم ما لبثت هذه المتون أن وجدت سبيلها إلى أهرام الملكات أيضاً ، فنقشت فى هرم الملكة إبوة زوجة تتى مؤسس الأسرة ، وهرمى نيت ووجبتن زوجتى ببى الثانى أخر الملوك الكبار فى الأسرة [4] ؛ مما قد يعنى زيادة مكانتهن عما كانت عليه منزلة الملكات فى العصور السابقة .

ولم يتبق من تماثيل ملوك الأسرة السادسة غير القليل ، ومن هذا القليل تمثالان للملك ببى الثانى ، مثله أحدهما عارياً فى سن الرضاعة ، ومثله آخر جالساً على حجر أمه فى سن الطفولة ، وتمثالان للملك ببى الأول مثله أحدهما جاثياً على ركبتيه فى

(١) *A. R., I*, 358, 359; *Lex. der. Aeg.*, IV, 1982, 929.

(٢) Reisner, *ZAeS*, LII, 34 f.; Dixon, *op. cit.*

(٣) *Urk.*, I, 140-141. See also, A. R. Schulman, *JSSEA*, IX, 2; March 1979, 79-104.

(٤) G. Jequier, *La Pyramide d'Oudjebten*, Le Caire, 1928; *Les Pyramides des Reines Neit et Apouit*, Le Caire, 1933.

سن الرجولة يقدم قرباناً لربه ، ومثله الآخر كهلاً يدفع عصاه بيده ويقف بجواره ولى عهده مرنرع عارياً فى سن الطفولة . ولم يجرؤ فن النحت على تمثيل هذه الأوضاع للملوك قبل ذلك ، وإنما اعتاد أن يمثلهم فى سن الرجولة الناضجة دائماً وفى سمات أبناء الأرباب ، تكسوهم القداسة ويحف بهم الجلال والوقار حين يعتلون عروشهم فى تعال وأبهة ، وحين يقفون فى انتصابة وشموخ ، وحين يظهرون مع أربابهم فى زمالة حبيبة أو بنوة رفيقة . ولم يحرم الفنان الملكى تماثيله من مظاهر الأبهة حتى وهو يمثل الملك صغيراً رضيعاً ، ولكنه بدأ فى الوقت نفسه ينفعل بآراء جديدة عرفها عصره ونشرحها بعد قليل ، وبدأ يحس معها بأنه يمثل إنساناً ، وإن يكن إنساناً ملكاً ، فمثله عارياً ، ومثله يحن إلى حجر أمه . وبدأ يشعر بأنه لاضير عليه فى التعبير عن العلاقة بينه كإنسان وبين ربه بتعبيرها الصحيح ، فصوره جاثياً يبتغى من خالقه الرضا وقبول قربانه ، وإن يكن بطبيعة الحال إنساناً مميزاً أو إنساناً مقدساً[1] .

دلت رقة أسماء تنى وببى وخوى وونى وششى وثثى فى هذا العصر على رفاهة حياة أثريائه . وانعكس تضخم ثراء كبار رجال الدولة وازدياد مكانتهم السياسية والاجتماعية على آثارهم ، ففاقت مقابرهم مقابر أمثالهم فى عصر الأسرة الخامسة من حيث السعة والفخامة وتعدد النقوش وموضوعات المناظر . وتفرقت بين جبانة العاصمة منف فى سقارة وماحولها وبين جبانات حواضر الأقاليم ، وكانت أفخمها بطبيعة الحال هى مقابر الوزراء وكبار رجال البلاد قرب العاصمة أى فى سقارة والجيزة . وأشهر مايستشهد به منها مقبرتان : مقبرة مرروكا ، ومقبرة كايجمنى . وتضمنت أولاهما ٣٣ حجرة فوق سطح الأرض ، وامتلأت أغلب جدرانها بالمناظر المنقوشة الملونة . واستحب كبار العصر طابع الامتلاء فى حياتهم وفى نقوشهم ، وأسرف عظماؤهم فى الاستمتاع بحياتهم ، وتعمد الفنانون حشو مناظر المقابر بتفاصيل ماكان يتحلى الأثرياء به من الشعور المستعارة والقلائد . وزادوا من تصوير تفاصيل الغدران التى كانوا يرتادونها للتريض وتفاصيل نباتاتها وأسماكها وأفراسها وتماسيحها ، بل ولم يجدوا بأساً من تسجيل تفاصيل الجنازات أيضاً ومناظر العويل والبكاء والحزن فيها . واستمتع مجتمعهم بنصيب واسع من التحرر الاجتماعى والتحرر المعيشى ، فلم يتردد فن التصوير فى أن يعكس مظاهر هذا التحرر على

---

(١) عبدالعزيز صالح : «*الفن المصرى القديم*» – فى تاريخ الحضارة المصرية – ص٢٣٧ ، لوحة ٣٠؛ دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة – ١٩٥٧ – ص٨ .

مناظر الحياة اليومية التى صورها الفنانون على جدران القبور . ويتضح بعض هذا فى ثلاث لوحات صورها الفنانون لجاريات وراقصات فى مناظر الجيزة وسقارة . فقد صورت اللوحة الأولى فتياتها يرتدين ملابس نصفية ويرفعن سيقانهن فى رشاقة واتزان بما يكاد يشبه بعض أوضاع الباليه الحالية . وصورت الثانية جواريها بملابس نصفية شفافة هفهافة تكشف عما تحتها ، وصورتهن ينثنين إلى الخلف فى دلال لإظهار رشاقتهن . وأظهرت الثالثة جواريها عاريات فى مجموعات ثلاثية ترفع الواحدة فيها ساقها العارية حتى تكاد تلامس بها كتف أختها [١] . ويتضح من المقارنة بين هذه اللوحات الثلاث ، إلى أى حد تدرجت حرية الفنانين حينذاك فى التعبير عن أوضاع الرقص ، وإلى أى حد تدرجت الراقصات فى تأدية الحركات الجريئة وفى التخفف من الثياب ، بعد أن كانت لوحات الرقص فى مناظر النصف الأول من الدولة القديمة تتوخى الحشمة فى تصوير الراقصات وتكتفى بتسجيل حركاتهن البطيئة الرتيبة .

ونود أن نشير قبل أن نختتم هذه المرحلة من عصر الأسرة السادسة ، إلى أن التطور الطبقى فيها لم يقتصر على كبار الموظفين وحدهم ، وإنما امتد إلى الطبقة الوسطى أيضاً ، وبقيت من صوره الطريفة رسالة رد بها قائد صغير على وزير عصره ، ويفهم منها أن الوزير كان قد طلب منه أن يوافيه إلى العاصمة بجانب من فرقته التى تعمل فى طرة ، حتى توزع الكساوى عليهم فى حضرته ، فرد القائد عليه بما يدل على أنه لم يهتم بأن يجارى كبرياء رئيسه فى أن يظهر فضله على الجند وجهاً لوجه ، وأبدى له أن تحقيق طلبه يقتضى التضحية بستة أيام كاملة ، هو أحوج إليها لأداء ما أوكل إليه من المهام . أما توزيع الملابس على الجند ، فيمكن أن يتم فى يوم واحد على حد قوله ، إن هو أرسلها إليه مع رجال البريد [٢] .

---

(١) عبدالعزيز صالح : الفن المصرى القديم – فى تاريخ الحضارة المصرية – لوحة ٢٩ .

(٢) Gardiner, *JEA*, XIII, 75 f. ; B. Grdseloff, *ASAE*, XLIII, 505 f.

عصر الانتقال الأول (أو عصر اللامركزية الأولى)

(من أواخر القرن ٢٣ ق.م إلى أواسط القرن ٢١ ق.م.)

نهاية الدورة التاريخية الأولى :

مر بنا كيف ورث ببى الثانى العرش طفلاً ، وربما سانده فى البداية اثنان ، أمه وخاله ، كما يحتمل أن يكون قد حكم أكثر من تسعين عاماً وهى أطول مدة حكمها ملك مصرى قديم . وقد سارت أمور البلاد ، أوائلها على النهج العادى الذى سارت عليه فى عهود أسلافه ، من حيث النشاط الداخلى والخارجى ، ومن حيث الثراء الملكى من جهة ، ثم من حيث ازدياد سلطات حكام الأقاليم واتساع ثرواتهم وثروات الوزراء وبقية رجال البلاط من جهة أخرى ، مع ميل المجتمع إلى التحرر فى السلوكيات وسبل الحياة . ويحتمل كما يعتقد شتوك أنه أصبح لمصر فى عهد ببى الثانى وزيران ، وزير للصعيد وآخر للوجه البحرى ، وأن هذا فتح باباً للامركزية فيما بعد .

ولم يخل ازدياد سلطان حكام الأقاليم وتضخم ثرواتهم من الاقتران بمظاهر الضعف فى الحكم المركزى . فهذا السلطان وإن أدى إلى إبراز شخصياتهم وفردياتهم إلى جانب شخصية ملكهم ، وأدى إلى استفادة بعض الأقاليم بمجهودات المصلحين منهم وذلك أمر محمود ، إلا أنه لم يكن خيراً كله ، فقد كان من شأنه إذا زاد عن حده أن يجرئ بعضهم على أن يختطوا لأنفسهم سياسة ضيقة الأفق ينشغلون فيها بمصالحهم وتوسيع سلطانهم فى أقاليمهم ، ولو أدى ذلك إلى الانصراف قليلاً أو كثيراً عن رعاية مصلحة الدولة فى مجموعها والصالح العام ككل ، وعن مراعاة حقوق الحكومة المركزية فى العاصمة . ولم يكن من المنتظر أن يظل كل الحكام على سواء فى عدالة الحكم ورعاية شئون الأقاليم ، إذا أصبحوا بمأمن من رقابة الحكومة المركزية وقدرتها على الحساب والعقاب . وكان من منطق الحوادث أن يؤدى هذا إلى أن تستأثر بعض أسرهم بخيرات أقاليمها دون الغالبية العظمى من أهل هذه الأقاليم . ومعنى ذلك كله أنه كان لازدياد سلطان حكام الأقاليم وجهان ، وجه طيب ووجه سيء ، ولم يكن هناك مجال للخوف من وجهه السيء ما دامت الحكومة المركزية فى

العاصمة قوة تعمل لصالح الدولة ككل وترعى شئون الكافة ، ومادام ولاة أقاليمها وكبار موظفيها يعترفون بواجباتهم نحوها ويدينون بالطاعة لها . وقد استمر الحال كذلك خلال العهود الأولى من حكم الأسرة السادسة كما سبق ذكره . ثم تبدل حال الحكومة المركزية وحال حكام أقاليمها فى عهودها الأخيرة ، وتضخمت العيوب بوجه خاص منذ أواخر عهد ببى الثانى حين طال حكمه واستبدت به شيخوخته وكثرت المشكلات حوله ، فدب الضعف فى حكومته وقلت هيبتها ، وأخذ الزمام ينفلت من يدها أكثر فأكثر . وكان أغلب حكام الأقاليم وكبار الموظفين قد مضوا فى طريقهم ، فزاد استمساكهم بتوريث مناصبهم لأبنائهم واعتبروه حقاً مكتسباً لهم وليس مجرد منحة من ملوكهم كما كان من قبل . وجعلوا منصب والى الجنوب الذى ابتدعته الحكومة المركزية للإشراف على مصالحها فى الصعيد والإشراف على سياسة حكامه منصباً غير ذى موضوع ، بعد أن انتحله نفر منهم لأنفسهم في وقت واحد . ومنع بعض حكام الصعيد القصى عن حكومة الدولة نصيبها من موارد أقاليمهم ، فأصبحت شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها وممارسة حقوقها وتبعاتها ، وأخذت ظواهر السخط تتجمع ضدها ، واستعدت بعض طوائف الشعب للثورة عليها وعلى أوضاع العصر كله ، وعلى اتساع الفوارق الطبقية فيه . وزادت الأمور سوءاً بعد أن عاث الجنود المرتزقة ، الذين استعانت الدولة بهم فى جيشها فساداً فى الأرض دون خشية منها .

ولم يتأت الخطر على مصر حينذاك من مشكلاتها الداخلية وحدها ، وإنما دهمها الخطر كذلك من خارج حدودها ، فتجددت أخطار الهجرات الأمورية على التخوم الشمالية الشرقية بعد أن كانت قد خفت حدتها وانكسرت شرتها مؤقتاً على يدى ونى وجيشه ، وتبعها أن تجرأ بعض بدو سيناء وبدو فلسطين على هيبة الدولة وأمن سبل تجارتها مع بقية بلاد الشام ، وحرمت خزائنها بذلك كثيراً من دخول التجارة الخارجية وضرائبها . كما تسرب بعض هؤلاء وهؤلاء إلى حواف الدلتا وقراها وحاولوا الاستقرار فيها ، وعجزت الحكومة القائمة حينذاك عن تأديبهم وإلزامهم حدود الطاعة لها .

الثورة الشعبية وانهيار الدولة القديمة :

صور نتائج الأوضاع التى انتهت إليها أمور الحكام والمحكومين فى أواخر عصر الأسرة السادسة وفى أعقابها ، حكيم مصرى يدعى إيوور (أو إبو العجوز) ، يبدو أنه عاصر أواخر عهد الملك ببى الثانى (أو الملك مرنرع عنتى مساف) أو عهد أحد خلفائه الضعاف . ويغلب على الظن أيضاً أنه كان ذا صلة بأحد مناصب الدلتا

الكبيرة ، وأنه نجح بعد لأى فى أن يبلغ صوته إلى البلاط الملكى ، وربما نجح فى مقابلة الملك نفسه ، وحاول أن يحمله هو وحكومته نصيباً من تبعة ما آلت إليه أحوال البلاد على أيامه من ضعف ودمار . وحفظ الأدباء المصريون آراء إيوور ووصفه لأحداث عصره فى بضع برديات (١) مما سنعود إلى تفصيله وتحليل عناصره فى فصل الأدب . ويكفى أن نذكر هنا أن الرجل صور ثورة عنيفة عارمة ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية التى اشتد فسادها فى أيامه . ويفهم من حديثه أن هذه الثورة بدأت بالعاصمة ، وهى رأس الدولة ، وأنه صحبها فى بدايتها كثير من العنف ورغبة التنفيث والانتقام ، فنزع بعض الثوار عن ملكيتهم القائمة ماتبقى لها من قداسة شكلية، وأباحوا لأنفسهم أن يغتصبوا أملاكها ومواردها وأملاك أنصارها . وقلبوا أوضاع العاصمة رأساً على عقب ، واقتحموا دواوينها ومزقوا وثائقها ، حتى «انقلبت العاصمة فى ساعة» على حد قوله ، «وانكشفت أسرار ملكية الصعيد والدلتا» . وجرى بعض أهل الأقاليم مجرى أهل العاصمة فهاجموا المتسيطرين عليهم «وقالت كل مدينة دعونا نقصى العتاة من بيننا» . ولم تقتصر حملات الناقمين حينذاك على الأثرياء الأحياء وحدهم ، وإنما امتدت كذلك إلى انتهاك حرمة مقابر ومقاصير الأثرياء الموتى، الذين نعموا فى دنياهم بما لم ينعم به سواهم ، ورصدوا على أهرامهم ومقابرهم ومعابدهم من الخيرات والأوقاف ماكان الأحياء من أفراد الشعب أولى بمثله. وهكذا انقلبت أوضاع الطبقات فى الدولة لفترة ما فافتقر بعض الأثرياء واغتنى بعض الفقراء كما تغيرت بعض العقائد .

بيد أنه على الرغم من السوءات التى صاحبت تلك الثورة فى بدايتها ، ترتبت عليها نتائج أخرى طيبة يمكن أن نستخلصها من جانبنا مما صوره إيوور عنها ، وكانت أوضحها ثلاثة ، وهى :

أنها استثارت نوعاً من الوعى القومى لدى المفكرين المصلحين الذين عز عليهم عجزهم عن دفع البلاء عن وطنهم قبل وقوعه ، وعز عليهم أنهم لم ينشطوا للتصرف الحكيم عند ظهور بوارد الخطر ولم يتلافوها ، وصعب عليهم أن تنتهك حرمات البلاد وتبتذل مقدساتها الدينية والتقليدية تحت أبصارهم وأسماعهم ، سواء

(١) Papyrus Leiden, I, 344 rt.; A.H. Gradiner, *The Admonitions of an Egyptian Sage*, Leipizig, 1909.

بأيدى المهاجرين أم بأيدى بعض المواطنين الموتورين . وعبر إيبوور عن هذا الوعى فى صحوة ضميره ، فقال : «وما أشق ذلك على نفسى ، بل وعلى كلى ، وليتنى رفعت صوتى فى ذلك الحين ، وإذاً لأنقذنى ذلك من عذاب أعانيه» . وحين قابل إيبوور ملكه صور له جهله وحيرة شعبه، قائلاً له : «كان من الممكن أن يرتاح قلب الملك لو بلغته الحقيقة ، فهذه كل بلد أجنبية (تجرأت علينا) ، وهذا ماؤنا (أمامنا) ، وهذه سعادتنا (فى أرضنا) ، ولكن ما الذى نستطيع أن نفعله من أجلها والكل آيل إلى الدمار؟ » ، بل وقال له : « ... إن مايروى لك هو الباطل ، فالبلاد تشتعل والناس قد أهلكوا ...» . ثم تجرأ الرجل على الملك وحاسبه قائلاً : «لديك الوحى والبصيرة و(أسباب) العدالة ، ولكنك بعثت الفوضى فى البلاد مع أهل الفتن» . وقص عليه بلاء الناس ثانية ، ثم عنف عليه قائلاً له : «وليتك تذوقت بعض هذه المصائب وإذاً لرويت (خبرها بنفسك) » وتلك جرأة لاشبيه لها فى تاريخ الشعوب القديمة الأخرى .

ونتيجة أخرى ترتبت على هذه الثورة ، وهى أنها دفعت المفكرين المصلحين إلى تخيل صورة واضحة للحاكم الصالح ، الذى يتمناه وطنهم بعد أن جرب الحكم الملكى المطلق طوال العصور السابقة ، وجرب فى عصره الملكية المهلهلة وسيطرة العوام . وعبر إيبوور عن هذه الصورة المرجوة وهو يخاطب أهل الحاشية الملكية ، فوصف لهم الحاكم المنتظر بأنه : من يعمل للبناء ، ولايفرق بين جرئ وهياب ، وصوره «رجلاً يستطيع أن يحيل اللهب برداً وسلاماً ، ويمكن أن يعتبره قومه راعياً للناس أجمعين ، ليس فى قلبه ضغينة ، وإذا تفرقت رعيته قضى يومه يجمعها» [(١)] .

أما النتيجة الثالثة التى ترتبت على الثورة بعد أن هدأت وقر قرارها ، فهى نشأة طبقات جديدة لم تعد تعتز بالحسب والنسب بقدر ماتمجد العصامية ، ويعتز الفرد منها فى نصوصه بأنه مواطن قادر بتكلم بفمه (أى يتكلم بوحى نفسه وليس بإيعاز من غيره) ، ويفخر بأنه يعمل بساعده ويحرث بمواشيه ويتنقل بقاربه (أى يعتمد فى عمله وحله وترحاله على ماتمتلكه يداه ، وليس على مايمتلكه سواه» [(٢)] .

---

(١) راجع عن أرقام سطور العبارات المقتبسة من بردية إيبوور ومراجعها مؤلفنا عن : حضارة مصر القديمة وآثارها - ج١ ص٣٩٤-٣٩٩ .

(٢) *cf.*, J. Clére-J. Vandier, *Textes de la prémiere periode intermediaire...*, 1948.



الغموض :

طال تطلع المصريين فى نهاية الدولة القديمة إلى ملك صالح يرعى البلاد جميعها ويسوس الحكام والمحكومين ويلزمهم جادة الصواب . وتوالى على عرش الأسرة السادسة فى خواتيم أيامها ملوك ضعاف ، ظهر من أسمائهم فى بردية تورين اسم لشخصية تدعى «نيت إقرتى» ، اختلفت المؤرخون فى شأنها اختلافاً كبيراً ، فاعتبرها بعضهم أم ببى الثانى أو زوجته أو أخته ، واعتبرها بعضهم رجلاً أتى بعده ، واعتبرها بعضهم امرأة انتهت إليها وراثة العرش فى آخر أيام الأسرة السادسة (١) . ويعتقد أصحاب هذا الرأى الأخير أن هذه السيدة هى التى اشتهرت لدى بعض المؤرخين الإغريق باسم نيتو كريس ، وأنها استطاعت أن تنفرد بالحكم عامين ، غير أن أيامها انتهت دون أثر هام يذكر لها إلا انهيار العرش الملكى بعدها ، ثم دخلت ذمة الأساطير . ويبدو أنها تلقبت بلقب منكارع ، فخلط أولئك المؤرخون بينها وبين اسم الملك منكاو رع (وربما بينها كذلك وبين ابنته خنتكاوس) ونسبوا إليها إكمال هرمه . وعرفت أميرة أخرى باسم نيت إقرت أو نيتو كريس أيضاً فى الأسرة السادسة والعشرين ، وهى ابنة بسماتيك الأول . ويحتمل أن سمعتها اختلطت فى أذهان الناس والمؤرخين الأواخر بسمعة نيت إقرتى القديمة (كما اختلطت بسمعة الغانية «رودوبيس» موردة الوجنتين) . وروى مانيتون أنها كانت أنبل وأجمل أهل زمانها . كما روى هيرودوت أنه سمع من المصريين عنها أنها كانت ذات جمال طاغ ، وأنها وليت العرش بعد مقتل زوجها ، فاتجهت بكليتها إلى محاولة تعرف قاتليه والفتك بهم ، وكادت لهم طويلاً ولجأت فى خطتها الأخيرة إلى إعداد بهو ضخم فخم فى باطن قصرها ، وأمرت بحفر سراديب خفية حوله تصله بنهر النيل ، واستبقت أمر هذه السراديب سراً لايعلمه إلا خاصة المقربين إليها ، ثم دعت من حامت الشبهات حولهم فى مقتل زوجها إلى افتتاح البهو الجديد ، فلما اكتملت أعدادهم فيه وانصرفوا إلى اللهو والشراب ، أمرت بفتح السراديب عليهم فغرقوا أجمعين . وحين ثابت الملكة إلى رشدها وهدأت الحمية فيها ، تخوفت نقمة شعبها وثورته على فعلتها ، فرمت نفسها فى أتون متأجج من النار وقضت على نفسها بنفسها .

---

(١) Turin Pap. IV, 7 (or IV, 8); Herodotus, II, 100; P.E. Newberry, *JEA*, 1942, 51 f.; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 102.

قد تكون قصة «نيت إقرتى» هذه أو نيتوكريس ، أسطورة مختلفة فى معظمها ، ولكنها على الرغم من ذلك لاتخلو من مغزى ، فترديد الرواة المصريين لها أمام الإغريق ينم فى أغلب الظن عن اعتزازهم بعصر قديم ، كان الملوك يخشون فيه انتقام رعاياهم ويفضلون أن يلاقوا حتفهم بأيديهم عن ملاقاة ثورتهم وبطشهم .

لم يكتنف الغموض أواخر عصر الأسرة السادسة وحدها ، وإنما شمل كذلك عصراً طويلاً تلاها، استمر نحو قرن ونصف قرن وامتد من أعقاب الأسرة السادسة حتى نهاية الأسرة العاشرة ، وهو مايعرف اصطلاحاً باسم عصر الانتقال الأول أو عصر اللامركزية الأولى (بينما يسميه مؤرخون آخرون باسم عصر الاضمحلال الأول وهو مانعارضه بعد قليل) ، وبدأ فيما يظن فى أواخر القرن الثالث والعشرين ق.م، وسوف نتخفف هنا من مختلف الآراء فى توقيته وشخصيات ملوكه مما يمكن مراجعته فى كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها [1] . وقد ظل النزاع على العرش بين أدعياء الحكم والطامعين فيه مستمراً فى أوائله ، بحيث روى مانيتون أنه تولى الحكم فى عصر الأسرة السابعة سبعون ملكاً لمدة سبعين يوماً . ومع وضوح الغرابة فى هذه الرواية ، حاول بعض الباحثين المحدثين أن يستشفوا شيئاً منها، فافترضوا أن السبعين ملكاً كانوا مجموعة من كبار الموظفين كونوا من أنفسهم حكومة بيروقراطية ترأسها كل منهم يوماً واحداً ، أو جماعة من أشراف العاصمة وكبار حكام الأقاليم كونوا فيما بينهم حكومة أرستقراطية وأرادوا إقامة حكم مشترك يتعاقبون فى رئاسته على التناوب، وهى تصورات غريبة نوعاً عن أساليب الحكم الشرقية القديمة . ويمكن أن نفترض من ناحيتنا أن السبعين يوماً كانت فترة اضطراب شامل خلا العرش فيها من صاحبه ، فانتحل كل حاكم من حكام الأقاليم الكبار السلطان المطلق لنفسه ، مع اعتبار القول بعدد السبعين ملكاً مجرد مبالغة عددية لتصوير كثرتهم وحيرة الناس بينهم .

وبدأت أيام الأسرة الثامنة واستمرت على الضعف نفسه، الذى انتهت إليه أيام الأسرة السادسة وقامت عليه الأسرة السابعة . ولايكاد يعرف من آثارها المكتوبة غير عدة نصب عثر عليها فى منطقة فقط القريبة من مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية

(١) عبدالعزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - جـ١ - ١٩٦٢ ، ص٤٠- *For Further discussions see, JNES,* 1952. 113f. وحاشيتا ٣٥ ، ٣٦ .

وتجارة البحر الأحمر ، لأسرة نبيلة كان أوائلها من أصهار الملوك ببى الثانى ، ونفركاو حور ، ودمج إب تاوى ، ونفر إركارع . وقد شغلوا منصب الوزارة ومنصب والى الصعيد ، ومدت أسرتهم سلطتها على سبعة أقاليم من جنوب الصعيد لما بين واحد وعشرين وأربعين عاماً فيما يفترض الأستاذان زيته وهيس (١) . ثم ما لبثت أن تسربت زعامة الصعيد منها إلى أيدى حكام إقليم طيبة ، وهو إقليم حصين يتمتع بمكانة دينية وشهرة تجارية . وفى الوقت نفسه تقريباً انتقلت زعامة مصر الوسطى من أيدى من بقى من ملوك منف الضعاف إلى أيدى كبار حكام منطقة أهناسيا غربى بنى سويف الحالية ، وهى منطقة تتمتع بخصوبتها الزراعية ، وإمكاناتها الاقتصادية ، وموقعها المتوسط .

وهكذا استمر تطلع أهل العواصم المصرية إلى حاكم أعلى يجمع شمل البلاد ويحقق الأمل الذى نادى بمثله إبوور ، عهوداً طويلة ، وإن ظهر عدد من حكام الأقاليم حاول كل منهم أن يقوم بدور الحاكم الصالح فى إقليمه ، واعتبر نفسه شبه ملك فى حدود منطقته ، وأرخ بعضهم نصوصه باسمه وبفترة ولايته ، وافتخر أغلبهم فى نصوصهم بمحاولة حل ثلاث مشكلات كانت تقلق بال الناس فى عهودهم ، وهى: مشكلة اضطراب الأمن ، ومشكلة تطهير الترع القديمة وحفر ترع جديدة وإصلاح الأراضى البور التى هجرها أصحابها ، ثم مشكلة المجاعات التى تسببت فيها المشكلتان الأوليتان . وافتخر أغلبهم فى نقوش مقابرهم بأنه اعتبر نفسه زوجاً للأرامل وأباً لليتيم ، وأنه آوى من لاعائل له ودفن من لا أهل له . وقد لاتخلو هذه العبارات من مبالغات ، ولكنها لاتخلو فى الوقت ذاته من دلالة على ظهور مثل عليا اجتماعية وسياسية جديدة ، حاول معها بعض الحكام المصلحين اكتساب السمعة الطيبة لأنفسهم، واكتساب محبة الرعية لحكمهم عن طريق الظهور بمظهر الآخذين بتعاليم الدين والعاملين بدعوات المصلحين فى معاملة الطبقات الفقيرة بخاصة .

وحين استأثر أولئك الحكام الكبار بالسلطة الواسعة فى أقاليمهم ، من النواحى الإدارية والقضائية والدينية ، جعل بعضهم وراثة الحكم فى أعقابهم قضية مسلماً بها ، وترتب على ذلك مايترتب على نظام الحكم الوراثى من احتمال ولاية وريث الحاكم

(١) K. Sethe, in *Gottingen Gelehrte Anzeige*, 1912, 705 f. ; W. C. Hayes, *J.E.A.*, 1946, 3f.

منصبه فى سن الطفولة ، فكان من رواية «تفيبى» حاكم أسيوط عن إيكاله الحكم إلى ولده قوله «... خلفنى ولدى ، وخضع له الموظفون ، وحكم منذ أن كان طفلاً فى طول الذراع ورحبت به المدينة التى تحفظ الجميل ...» [١]. وكون كل حاكم من أولئك الحكام جيشاً محلياً وأسطولاً محلياً بما يناسب إمكانيات إقليمه ، وصورت مناظر مقابرهم كثيراً من مناظر الحرب والاستعداد لها [٢]. وعثر على مجموعتين من تماثيل أو نماذج صغيرة تمثل بعض الجيش الإقليمى لحاكم فى أسيوط يدعى «مسحتى» . وتألفتا من مجموعة تسلح أفرادها بالحراب والتروس الكبيرة ، ومجموعة أخرى تسلح أفرادها بالأقواس والسهام . وكان أفراد هذه الحاميات يلقون معاملة طيبة من حكامهم، ويدربون تدريباً مناسباً ، ويضمون أحياناً مرتزقة من النوبيين لحراسة الحواف الصحراوية . غير أن وجودهم تحت إمرة حكام الإقليم مباشرة كان يشجع هؤلاء الحكام على التنافس المسلح فيما بينهم ، ويدفع أقوياءهم إلى محاولة السيطرة على أصحاب الإمكانيات المحدودة من جيرانهم .

وربما انتمى إلى هذه الفترة «عنخ تيفى» حاكم الإقليم الخامس بالصعيد . وقد ادعى فى نقوش مقبرته بالمعلا جنوبى الأقصر[٣] ادعاءات عريضة عن تموين إقليمه فى أيام «هلك الناس جوعاً خلالها حتى فارق كل أب أولاده ، وعن تدخله فى نزاع عنيف شمل مدن طيبة وقفط وأرمنت وغيرها ، مع نجاحه فى توفير الأمن لبلده حتى أصبح الرجل يقابل قاتل أبيه أو أخية فيعانقه وينسى ثأره عنده .

انتفاضة اليقظة فى العهود الأهناسية :

قامت أعنف أدوار التنافس التى سجلتها أخبار هذا العصر بين حكام طيبة وحكام إهناسيا . وكان كبار حكام طيبة الذين يبدو أنهم انتقلوا إليها من مسقط رأسهم أرمنت ، قد ورثوا زعامة الصعيد بعد أن ولت عنه زعامة قفط . واشتهر أوائلهم باسم الأناتفة ، نظراً لتسمى أغلبهم باسم إنتف ، أو إينتوف . وبدأوا على شىء من الحذر ، فلم يدعوا لأنفسهم فى بداية أمرهم ملكاً صريحاً ، ولم يتلقبوا بألقاب الملوك واكتفوا مؤقتاً بألقاب الإمارة . وبلغ من حيطتهم أن هادنوا تلك الأسرة القوية

(١) *Siut*, III; *A. R., I*, 395, *see also*, 413.

(٢) *Ibid.*, I. 410-11 ; Winlock, *Bull. Metr., Mus.*, 1928, II, 11 f.

(٣) See, Lex. der, Aeg., VI, 1985, 1437-42.

التى أسلفنا أنها ظهرت وحكمت فى مدينة أهناسيا بمصر الوسطى ، وربما اعترفوا اعترافاً ضمنياً بسيادتها ، أو على الأقل لم ينازعوها سيادتها بعد أن تبينوا أنها فاقتهم سلطاناً وقوة وأنها استطاعت أن تمد نفوذها إلى منطقة منف ذاتها .

وشجع هذا الوضع حكام أهناسيا على أن يتخذوا صفة الملوك ، واعتبروا أنفسهم خلفاء لملوك منف ، واستحبوا تعظيم الإله رع والإله أوزير مع الإله المحلى حريشف . وتعاقبت فيهم على هذا الوضع أسرتان حاكمتان ، تعرفان اصطلاحاً باسم الأسرتين التاسعة والعاشرة . وقد أسس أولاهما الملك خيتى (الأول مرى إبرع ؟) ، ويبدو أنه بدأ حكمه بكثير من الشدة ، قصد بها تأييد ملكه الجديد والذود عنه ، شأنه فى ذلك شأن أغلب مؤسسى البيوت الحاكمة . وروى عنه أحد أحفاده أنه كان يبرر شدته بقوله : «إن الرب نفسه ينتقم ممن يعادى معبده» [1] . وردت أجيال المناهضين له من المصريين أخبار قسوته وضخمت فيها ، إلى حد أن وصفه المؤرخ المصرى مانيتون بأنه تطبع بقسوة فاقت قسوة من عداه وتأثر بها كل المصريين ، وأنه لقى جزاءه بأن جن فى نهاية عمره وافترسه تمساح . ومهما يكن فى هذه الرواية الأخيرة من خيال ، فهى لاتخلو من دلالة على إيمان راويها بأن عواقب القسوة أو الظلم لابد وأن تعود بالشر على رؤوس أصحابها .

وظل حكام مصر الوسطى وما حولها على حالهم من الاستقلال الداخلى ، فى ظل ملوك أهناسيا . وظلوا على تفاخرهم بأعمالهم فى الوقت نفسه . وأشبع فيهم أهل أقاليمهم حبهم للشهرة ، فمدح أحد كتبة أسيوط خيتى بن تفيبى الذى كان يتفاخر بأنه سليل حاكم وابن بنت حاكم ، بقوله : « ما أبدع ماتم فى عهدك ، لقد رضيت المدينة بك ، وماكان مستغلقاً على الناس جعلته مكشوفاً متاحاً من تلقاء نفسك ، عن رغبة منك فى إسعاد أسيوط . لقد جعلت كل موظف يستقر فى منصبه ، وما عاد أحد يقتتل أو يطلق سهمه ، ولم يعد طفل يلقى حتفه بجوار أمه ولامواطن بجوار زوجته ، بعد أن هداك رب مدينتك الذى أحبك» [2] . وقد حدث ذلك فى أغلب الظن بعد فترة ما من الفوضى ، تكررت فيها المشكلات التى أعلن نجاحه فى وقفها .

وربط ملوك أهناسيا حكام الأقاليم بهم عن طريق مرونة السياسة ، واتبعوا فى

(١) Pap. Petersburg, 1116 *A*, *rt*, 109-110.

(٢) *A. R.*, I, 404.



ذلك وسيلة بعض ملوك الدولة القديمة فى تربية أبناء الحكام الكبار فى قصورهم بغية أن يشربوهم ولاءهم وأن يشبوا أوفياء لهم . وكانوا يجاملون أولئك الحكام فى الملمات ويشاركونهم المسرات ، بغية أن يردوا الجميل مضاعفاً . فأشار أحد نصوص حكام أسيوط وكانت تربطهم بملوك أهناسيا صداقة حميمة أو قرابة ، إلى أنه عندما توفى حاكمها الأخير «بكى الملك نفسه (فى أهناسيا) ، وبكى أهل مصر الوسطى والدلتا ، واجتمع الملك والنبلاء حين دفنه» . بل وسمح الملك لابنة المتوفى الكبرى بأن تتولى شئون أسيوط لانعدام الأبناء الكبار الذكور مع طفولة ولدها وحفيده ، ثم ربى هذا الحفيد وكان يدعى خيتى فى قصره . وعندما بلغ سناً مناسبة سافر الملك وبلاطه على متن النيل ليشرف على حفل تنصيبه والياً . وسجل هذا الوالى قوله [١] : «سمح الملك لى بأن أتولى الحكم ولم أكن قد تعديت الذراع طولاً ، ورفع منزلتى فى صباى، وسمح بأن أتعلم السباحة مع الأمراء ، ولهذا أصبحت صادق الرأى براء مما يسىء إلى مولاه الذى رباه طفلاً . ونعمت أسيوط بحكمى وأثنت على أهناسيا (نفسها) ، وقال عنى أهل مصر الوسطى والدلتا : تربية ملك ...» ، ثم وصف ثمرة تربية الملوك هذه بنشاطه الاقتصادى فى حفر الترع والآبار وزيادة أنصبة المزارع من المياه مع إشرافه على تنظيمها ، وتعيين السقاية لبيوت المدينة ، وتموين أهلها فى أوقات العسرة وتخفيف متأخرات الضرائب عنهم ، دون تفرقة بينهم .

أعقب خيتى الأول ملك أهناسيا ، عدة ملوك يصعب التيقن من عددهم . ثم أعقبهم فرع آخر من أسرتهم عرف اصطلاحاً باسم الأسرة العاشرة ، وعندما تبلورت آمال هذه الأسرة ومضت تبغى الاتساع السياسى وازدادت آمالها ، كان حكام طيبة بدورهم قد أحسوا البأس والقوة من أنفسهم ، فتخلوا عن حذرهم القديم وتطلعوا إلى اتخاذ ألقاب الملوك عوضاً عن ألقاب الإمارة القديمة . وهنا انتقل التنافس بين طيبة وأهناسيا من طوره السلبى إلى طوره الإيجابى ، واستمر نحو ثمانين عاماً . وكانت سياسة أهناسيا إزاء حكام الأقاليم الموالين لها قد آتت ثمارها ، فنفعوها فى تنافسها ، واعتادوا أن يؤكدوا فى نصوصهم ولاءهم للقصر الملكى وإن لم يذكروا اسم الملك غير مرات نادرة . وكان من أكبر أولئك الحكام : حكام أسيوط ، وبنى حسن، وأخميم ،

(١) Op. cit., 407-413; Brunner, *Die Texte aus den Graben der Hierakleopoliten Zeit von Siut*, V, 20 f.

والأشمونين ، وحتنوب . وحاول هؤلاء الحكام بدورهم أن يجيبوا فيهم أهل أقاليمهم بغية اتخاذهم عوناً حين الشدائد ، فقال حاكم أسيوط تفيبى فى نصوص مقبرته : «استمعوا إلى أهل الغد . لقد كنت سخياً مع الناس جميعهم ... سديد الرأى ، نافعاً لبلده ، سمحاً مع الشاكى ، إذا جن الليل (اطمأن) النائم فى الطريق ودعا لى وأصبح كمن نام فى داره تحرسه هيبة عسكرى ...» . ودعا الرجل إلى مبدأ أهم من هذا الادعاء ، فأعلن إيمانه بأن الشخص النبيل هو الذى يستطيع أن يتفوق بمآثره على مآثر أبيه ، وأن جزاءه على ذلك سوف يكون الرحمة فى الآخرة ، وتمكين الحكم فى أسرته بحيث يرثه ولده فى قصره ، فضلاً عن حسن سمعته فى بلده ، وتعظيم الناس لتمثاله بعد موته (حين يحمل فى المواكب العامة) [(١)] .

وعملت طيبة من ناحيتها على أن تجمع الأحلاف حولها ، وربما نجحت فى ذلك بعض الشىء ، ولكنها اعتمدت أكثر ما اعتمدت على حصانتها الطبيعية ، وصلابة رجالها الصعايدة ، وإذكاء روح الأمل والطمع فيهم ، إلى جانب وفائهم لإله الحرب مونتو وعملهم على إعلاء شأن الإله أمون .

وبدأ النزاع بين البيتين الطيبى والأهناسى بصورة مستترة ، ثم اتخذ صورة عدائية مكشوفة ، وتخللته معارك متقطعة على البر وعلى متن النيل . وظلت الحدود بين الطرفين خلاله بين مد وجذر . ولازالت خطوات هذه المعارك غامضة إلى حد كبير [(٢)] . ولكن يبدو أن مراحلها الأولى انتهت بانتصار خيتى الثالث (أو الرابع) ملك أهناسيا على معاصره ملك طيبة مونتو حوتب (الأول) ، بعد أن دارت بين جيشيهما معارك عدة فى منطقة ثنى أدت إلى تخريب جبانتها القديمة أبيدوس ، أو هى منطقة نجع الدير وبعض أماكنها المقدسة ، وانتهت بسيطرة أهناسيا عليها حوالى عام ٢٠٦٥ ق.م .

وشجع نصر أهناسيا ملكها خيتى («نبكا ورع» أو «واح كارع») على نشاط حربى آخر أوسع أثراً وأكثر أهمية ، يظهر به أراضى الدلتا من البدو الأموريين الذين

---

(١) *A.R.*, *I*, 395.

(٢) *See*, Winlock, *The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes*, 10 f. ; Baly, *JEA*, XVIII, 173 f.

وانظر للمؤلف : حضارة مصر القديمة وآثارها – ج١ ص٤٠٧–٤٠٨ .



تسربوا إليها منذ أواخر الدولة القديمة وحاولوا أن يتخذوا مصر دار إقامة ، وتطبعوا بالعادات المصرية ، وجمعوا بين أسمائهم والأسماء المحلية ، وربما انتحل كبارهم لأنفسهم ألقاب الملوك . وقد عبر عن هذا الوضع اسمان لحاكمين لايخلوان من لكنة أمورية ، وهما «خندى» الذى تلقب باللقب المصرى «نفر كارع» ، ثم «ترورو» أو تلولو الذى تلقب باللقب نفسه [1] . واستخدم أولئك المهاجرون المتمصرون أختاماً خشنة الصناعة والنقش هرمية الشكل تشبه الأزرار ، وجد لها ما يماثلها فى الشام والحوض الشرقى للبحر المتوسط [2] . ولكن ظل المصريون خارج الدلتا وفى الدلتا نفسها ، ينكرون على البدو المتمصرين سيادتهم ، فاستغل خيتى هذه الروح ، ونجح مع جيشه فى إبعاد بعض الأموريين وكسر شوكة بعضهم الآخر .

وطال عهد خيتى ، ولما أحس دنو أجله استجمع تجاربه الطويلة فى الحرب مع الطيبيين وتجاربه فى الحرب مع البدو الأموريين ، وخلاصة تجاربه فى الحكم والسياسة الداخلية ، وآراءه فى عقائد الدين ، وجعلها على هيئة التعاليم ونصح ولده وولى عهده مريكارع بأن يأخذ بأفضلها ويتجنب مواطن الزلل فيها [3] .

روى خيتى لولده مريكارع قصة حربه مع الطيبين فى ثنى وأبيدوس أو نجع الدير ، وندم على ما أتاه فيها وماترتب عليه من تهديم أماكنها المقدسة ، واعترف بخطئه ، وكان أسلافه ينزهون أنفسهم دائماً عن الخطأ . ودعا ولده ألايفعل مثل فعلته ، وأوصاه بأن يهادون الصعيد حرصاً على الهدوء الداخلى فى مملكته ، ورغبة فى تأمين سبل التبادل وسبل المواصلات وسبل التجارة مع أهل الجنوب ، وحتى لايستغل

(١) Abydos List, 45, 49; *JEA*, XII, 92, fig. 6 ; Petrie, *Scarabs and Cylinders*, pl. X, 7, 10.

(٢) H. Frankfort, "Egypt and Syria in the First Intermediate Period", *JEA*, XII, 88.

(٣) Pap. Petersburg 1116 A, rt., Gardiner, *JEA*, I, 20 f. ; A. Scharff, *Der historische Abschnitt der Lehre fur Konig Merikare*, 1938; A. Volten, *Zwei altaeg. politische Schriften*, 1945; *Chr. d'Egypte*, 1947, 89 f. ; *ZAeS*, 1967, 117 f. ; Posener, *Annuaire du College de France*, 1962 f., D. Redford, *JEA*, LI, 1965, 107 f. ; S. Smith, CAH, I, Ch. XIV, XX, 1964-65; W. Helck, *Die Lehre fur König Merikare*, 1977.

الآسيويون فرصة انشغاله بالحرب الداخلية ويثورون ضده أو يهاجمونه فى عقر داره ، على حد قوله (١) .

وصور خيتى الطريقة التى اتبعها لإضعاف البدو المهاجرين وإجلائهم عن الدلتا ، ودعا ولده إلى أن يترسمها ، وجعل لهذه الطريقة شقين : أولهما الاهتمام ببث الروح الحربية فى البلاد والعناية بمجنديها الشبان ، وقال له فى ذلك : «انهض بجماعة الشبان تحبك العاصمة ، ورد أتباعك من الرعية ، ولاحظ أن بلدك عامر بنشء غض فى سن العشرين ، وأن الجيل الناشئ ليسعد بمن يستوحى ضميره ، (فإن فعلت ذلك وحكمت ضميرك) قلدك العامة وأتاك رب كل أسرة بأبنائه راضياً ، فبهذه السياسة حارب القدماء من أجلنا منذ أن رفعت أنا شأنهم ، فارفع إذاً شأن نبلائك ، وعظم محاربيك ، واسبغ الخير على جيل الشباب من أتباعك ، واحرص على أن يتزودوا بالعطايا ويطمئنوا بامتلاك الأرض ، ويكافأوا بالأنعام» (٢) .

ولاندرى هل كانت سن العشرين التى أشار خيتى إليها هى سن التجنيد أم لا ، ولكننا نتبين فى سياسة تزويد الجنود الشبان بالأراضى والنعم سياسة حكيمة تجعلهم يدافعون عن أرض لهم نصيب فيها ، وتطمئنهم على مستقبل أهلهم إن استشهدوا من أجلها .

أما الشق الآخر من سياسة خيتى فى مكافحة البدو ، فهو التضييق عليهم والحد من أخطارهم عن طريق إنشاء مدن محصنة على حواف الصحراء وعلى الحدود وتعميرها برجال مختارين يسكنونها ويزرعون ماحولها ويتحصنون بها حين الشدة ويصدون منها غارات أهل البادية ، وقال له فى ذلك : «لاتتهيب العدو فهو لايغير إلا على الموطن المنعزل ولايجرأ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان» . ثم شجعه على اتباع سياسته ، وقال له : «أقم الحصون فى كل المناطق الشمالية ، ولاحظ أن سمعة الرجل فيما يفعله ليست بالشيء الهين والبلد العامر بالسكان لن يمسه سوء ، فابن مدناً» . ثم هون عليه شأن أعدائه البدو فى عبارات أخرى تدل على معرفته بعاداتهم وأحوال المناطق التى يعتصمون بها وتتوافد هجراتهم منها» قائلاً له : «هذا هو شأن

---

(١) Pap. Peteraburg 1116 *A, rt.*, 71 f., 80 f., 106.

(٢) راجع : عبدالعزيز صالح : «*التربية العسكرية فى مصر القديمة*» - تاريخ الحضارة المصرية - القاهرة ١٩٦٢ - ص١٩٥ .



البرابرة ، فالعدو اللعين موطنه وعر ، وماؤه آسن ، حزون بكثرة غاباته ، سيئة طرقاته بما يكتنفها من المرتفعات ، ولذلك لم يستقر في مكان واحد ، واستمر دائم الترحال ، وظل يشاغب منذ عهد (الإله) حور ، فلا هو يغلب ولا هو يغلب [١] .

ازدهار الفردية :

ليس من شك فى أن المنازعات بين البيت الأهناسى والبيت الطيبى لم تكن فى مصلحة البلاد دائماً بعد أن أصبح بأس أهلها شديداً بينهم ، ولكن نتائجها تعنينا على الرغم من ذلك من ثلاث وجهات ، وهى :

أولاً – أنها زكت الروح الحربية وروح النضال المنظم فى حياة خاصة المصريين وعامتهم ، على الرغم من أنها كانت على حساب بعضهم بعضاً ، فأصبح الرجل منهم يفخر فى نصوص مقبرته بأنه رب للسيف ، وأنه جرئ يوم الصدام ، وأنه كان شديداً بقوسه جريئاً بسيفه عظيم الهيبة بين جيرانه . ويرى أن ذلك يزكى سمعته وسمعة أسرته إلى أبد الآبدين . وتلك روح وثابة أضيفت إلى روح العصامية التى تمخضت عنها الثورة الشعبية فى نهاية الدولة القديمة .

ثانياً – أنها زادت من شعور الملوك الأهناسيين والطيبيين أيضاً بحاجتهم إلى إخلاص رعاياهم وتأييدهم ، وزادت بالتالى فرص التقارب بينهم وبينهم . وعبر خيتى عن هذا الإحساس وهو يوصى ولده ويزوده بخلاصة تجاربه فى الحكم والسياسة ، فأوصاه بمبدأ يعتبر من أنبل المبادئ التى تمخضت عنها الثورة الشعبية فى نهاية الدولة القديمة واحتفظ بها عصر الانتقال الأول . وحضه فيه على أن يقدر الفردية لذاتها قائلاً له : «لاتفرق بين ابن النبيل وبين ابن فقير الأصل ، وتخير الفرد بكفايته» . وأوصاه بأن يلتزم القدوة الطيبة قائلاً له : «قل الحق فى قصرك يخشاك عظماء الأرض ، فاستقامة الخلق أليق بالحاكم» . ثم أوصاه بالعدالة ، وقال له : «إلزم العدل تخلد على الأرض ، واحذر أن تعاقب خطأ ، فالقتل لن يفيدك ، ولكن عاقب بالضرب والحبس ، وبذلك تزدهر (أحوال) البلاد ، فيما عدا المتآمر ، فالإله يقدر خبثه ويطلب دمه جزاء جرمه» [٢] .

وأراد أن يبين له أن الناس سواسية أمام خالقهم ، وأن على الملكية واجبات

---

(١) Pap. Petersburg, 1116 *A, rt.* 91-93.

(٢) *Op. cit.*, 47 f.



توازى حقوقها ، وأن كل راع مسئول عن رعيته ، فقال له : «البشر رعايا الإله ، خلق السماء والأرض بما يشتهون ، وأجرى المياه دافقة ، (من أجلهم) . وأرسل لهم النسمات كى يحيوا بها.. هم أشباه له ، صدروا عن بدنه.. وهو يتجلى فى السماء ليلبى مايرغبون فيه.. ويخلق العشب والأنعام والطير والأسماك حتى يقتاتوا بها .. ويبشر بالفجر لنفعهم ، ويعبر السماء ليراهم ، وإذا بكوا سمع ولباهم . وهو الذى تعهد الحكام منذ الصغر من أجلهم ورفعهم (درجات) ليكونوا سنداً لظهور ضعفائهم» [1] . وما نظن أن شعباً آخر بلغ هذا المبلغ فى تكريم الإنسان والاعتراف بحقوق المحكومين فى مثل ذلك العصر البعيد، الذى سبق عصرنا الحالى بأكثر من أربعة آلاف عام .

ثالثاً – أنها كانت من عوامل تشجيع المصريين على إعلان عقائدهم الخاصة وآرائهم فى مذاهب أسلافهم بالنقد تارة ، والمدح تارة ، ورغبة التعديل تارة أخرى . فقد ترتب على اهتزاز الأوضاع القديمة فى سبيل البحث عن وضع جديد ، كما ترتب على اعتداء بعض الثوار فى أواخر الدولة القديمة على الأهرام والمقابر وتخريبهم لها ونهبهم محتوياتها وتعطيلهم شعائرها ، بل وجرأتهم على معابد أربابهم أحياناً ، أن ظهرت فى المجتمع المصرى أربعة اتجاهات عقائدية متمايزة : اتجاه متشكك متطرف شك أصحابه فى مقومات الخلود التى آمن أسلافهم بها وشادوا الأهرام والمقابر من أجلها ، ورتبوا الشعائر والقرابين لصالحها ، بل وشكوا فى عقيدة الخلود نفسها . واتجاه متطرف آخر يقابله أخذ به المتزمتون، الذين برموا بأصحاب الاتجاه الأول ورموهم بالكفر ، وغلب التشاؤم على نظرتهم إلى الحياة الدنيا وأحوالها . ثم اتجاه ثالث غالب محافظ أصر أصحابه على عقائد أسلافهم فى الخلود ومقوماته وقرابينه ودعواته وإن لم يأبوا أن يضيفوا إليه جديداً يزكيه . وأخيراً اتجاه رابع متطور آمن أصحابه بأن الخلود حق لاشك فيه، ولكنهم آمنوا فى الوقت نفسه بأن سعادة الفرد فى أخراه ليس من الضرورى أن ترتبط ببناء المقابر الفخمة أو مواصلة تقديم القرابين وترتيل الدعوات وإقامة الطقوس التقليدية ، بقدر ما ترتبط بصلاح أعمال الإنسان فى دنياه وإيمانه بعدل أربابه فى أخراه ، مع أدائه واجباته إزاءهم فى الوقت نفسه .

وبدأ تيار التشكك منذ أيام الثورة الطبقية ، وعبر إبوور حينذاك بقوله : «يقول

---

(١) *Ibid.*, 130 f.



المنفعل : لو علمت أين للرب لعملت له» [1] . ثم استمرت موجة الشك فى طريقها ، وخلف بعض المتشككين والناطقين بلسانهم مواويل سائرة كانوا يرددونها فى تنغيم ، ويدعون المترفين فيها إلى التمتع بمباهج الحياة الدنيا ما وسعهم إلى ذلك من سبيل ، دون قلق على الآخرة وما يصيبهم فيها . ويمكن ترجمة بعض فقرات هذه المواويل بأسلوب عادى يتفق مع أسلوب أصحاب الموال المعاصر ، مع تصرف يسير . فقد ردد أحد رواتها مواله على أنغام الجنك فى حفل أقيم لذكرى أمير عزيز ، قائلاً بعد أن مدح صاحب الذكرى : «... أجساد تروح وأجساد جاية من زمن الأوائل . ياما سمعنا الكثير من كلام الحكما أمثال إيمحوتب وددف حور . لكن فين الحكما ، وفين ديارهم؟ انهدت جدرانهم وطاحت مساكنهم ، وماعاد منها كيان . راحوا وماعاد منهم حد ، راحوا وماحكى لنا عن حالهم حد ، ولاحكى لنا عن مطالبهم حد ، ولاطمنا عليهم حد. افرح ، وخل قلبك ينسى يوم نعيك ، وارض نفسك طول العمر ، ادهن رأسك والبس الكتان وتعطر ، تمتع بيوم الهنا ولاتمله ، ماحد راح وأخذ معاه حاجة ، وماحد راح وعاد ثانى . اللى مات قلبه ماسمع صراخ حد ، والنعى ماخلص من الآخرة حد» [2] .

وبدأت الموجة المناقضة للأولى ، أى موجة التزمت والتشاؤم واليأس من الدنيا، منذ أيام الثورة أيضاً ، وعبر إيبور عن ظهورها بانتحار بعض الناس غرقاً ، وسخط الأطفال على ولادتهم ، ورغبة الجميع فى فناء العالم كله حتى تستريح الأرض من الضجيج على حد قوله . واستمرت هذه الموجة فى طريقها ، وعبر عنها بعد ذلك حوار سجله أديب مصرى على بردية بين رجل سئم عيوب الحياة فى عصره ، وروحه ، جاعلاً الروح تتحدث فى هذا الحوار كأنها شخص مستقل . وبدأت المناقشة بين الرجل وروحه بأن أعلن لها ضيقه بمساوئ عصره ، بينما أعلنت هى رضاها بدنياها ونصحته بأن يترك مابعد الموت لما بعد الموت (وكأنها تناصر الاتجاه الأول الذى سبق تصويره) . ولما احتدم الجدل بينهما تحدته أن يحرق نفسه وينتحر إذا كان جاداً فى ضيقه بالحياة ، ولكنه تردد ، وظل كل منهما يحاور الآخر ويداوره ، حتى

---

(١) Pap. Leiden, 344, V, 3.

(٢) Pap. Harris 500, VI, 2-VII, 3 and variants, See, M. Lichtheim, *JNES*, IV (1945), 178 f., 192, f., 211 f. J; Assmann, in *Frugen an die altaeg Liter.*, 1977, 55-84; H. Goedicke, *ibia*, 185-196.

اضطر إلى أن يهادنها قليلاً ، وهنا قصت عليه مثلين من مصائب الناس في فقد أولادهم وفقد ثرواتهم ، لعلها تخفف عنه بلواه . كما قص هو عليها ما دعاه إلى الضيق بالحياة ، ويبدو أنه كان قد تكفل بدعوة مابين الناس ولكنه لم يجد بينهم سميعاً ولامجيباً ، بقدر ماوجد منهم من أساءوا إليه وشوهوا سمعته ، ثم قص شكواه فى ثلاث قصائد ، بدأ كل قصيدة منها ببدايات متشابهة . وأخيراً عاوده اطمئنانه فراح يؤكد لها في قصيدة رابعة إيمانه بالحياة بعد الموت وإيمانه بالثواب فيها وحسن المآب وعدل الأرباب ، مما سنعود إلى تفصيله فى حديث الأدب [1] .

واستمر أصحاب الاتجاه الثالث المحافظ على عقائد أسلافهم ، وكانوا أكثر عدداً ممن سواهم . وقد اعتبروا حوادث التخريب والشك حوادث عارضة ، فظلوا يعنون بمقابرهم وموتاهم وقرابينهم ، وسجلوا على توابيتهم دعوات كثيرة اقتبسوا بعضها من دعوات كهان الدولة القديمة ، واقتبسوا بعضها من متون الأهرام ، ثم ألفوا بعضها الآخر بما يناسب عصرهم ويناسب الأمانى التى أصبحوا يرجونها لأنفسهم ولأهلهم فى دار الآخرة . وتعرف هذه الدعوات اصطلاحاً باسم «متون التوابيت» . ولعل أهم تجديداتها هو تلقيب كل متوفى بلقب أوزير ، أملاً فى أن ينعم فى عالم الآخرة بما نعم به ربه أوزير ، وأن يخلد فيها مثل خلوه . وكان فى هذا التجديد تطور ضخم المدلول ، فقد كان التلقب بلقب أوزير قاصراً فى الدولة القديمة على الملك المتوفى وامتيازاً دينياً له وحده ، فلما زلزلت أركان الملكية فى أواخر الدولة القديمة واقتسم سلطانها كبار حكام الأقاليم ، تجرأ هؤلاء الحكام على اقتسام امتيازاتها الدينية أيضاً ، فأصبحوا يرجون لأنفسهم فى الآخرة ماكان الملوك يرجونه لأنفسهم ، وتلقبوا مثلهم بلقب أوزير، وقلدهم فى ذلك كبار الموظفين وكبار الكهان ، ثم أصبح المصير الأوزيرى شيئاً فشيئاً أملاً مشاعاً لكل إنسان .

وبشر هذا الاتجاه الأخير بالاتجاه الرابع المتطور ، وقد عبر عنه خيتى ملك أهناسيا بنفسه قائلاً لولده ، وهو ينصحه بمذهبه فى الدين وتقديم القرابين : «أصلح

---

(١) L. Erman, *Gespirach cins Lebensmuden mit seiner Seele*, 1896; A. Scharff, *Der Bericht uber das Streitgesprach eines Lebensmuden mit seiner Seele*, Munche, 1937; R.O. Faulkener, *JEA*, 1956, 21 f.

عبدالعزيز صالح : «الحوار فى الأدب المصرى القديم» - المجلة ، العدد التاسع - سبتمبر ١٩٥٧ ، ص١٦-٢٨.

مكانك فى العالم الآخر بالاستقامة وأداء العدالة ... فإن قلوب (الأرباب) ترتاح إليهما. وإن طباع رجل قويم السريرة أكثر قبولاً عند الرب من فحل (يقدمه إليه) رجل اعتاد الشرور ... واعمل لربك يعمل لك بالمثل» (اذكروا الله يذكركم) . ثم نصحه بمذهبه فى البعث والحساب ، قائلاً له : «لاتثق فى امتداد السنين ، فإن (قضاة الآخرة) يرون العمر كأنه ساعة ، واذكر أن الإنسان يبعث ثانية بعد وفاته وتوضع أعماله على هيئة الكوم بجانبه . وأن الحياة هناك معناها الخلود . وأن الغبى هو من يستخف بها ، وأن من بلغها دون أن يرتكب إثماً سوف يعتبر فيها كأنه معبود ويسير (فيها) كأرباب الخلود» [(١)] . وكان من الطبيعى أن يظل هذا الاتجاه الرابع الواعى هو اتجاه القلة المستنيرة من المصريين دون كثرة المتشككين والمتزمتين والمحافظين . وعلى أية حال فثمة حقيقة واضحة يمكن أن تستنتج من كثرة هذه الاتجاهات ، وهى دلالتها على مرونة العقائد المصرية القديمة ، وعدم التزامها صفة الجمود التى اعتادت أغلب المؤلفات الحديثة على أن تلصقها بها .

* * *

أسهمنا فى الاستشهاد ببعض المثل العليا التى تضمنتها تعاليم خيتى فى العصر الأهناسى ، أو على الأصح بعض المثل العليا التى كان المصلحون ينادون بها فى عهده أو قبل عهده ، غير أنه لم يكن من المتوقع أن تطبق أمثالها فى الحياة العامة بحذافيرها أو يلتزم الحكام بها التزاماً تاماً فيها بينهم وبين المحكومين ، وإنما كان شأنها شأن المثل العليا فى كل مجتمع وكل زمان ، بل وشأن المثل العليا فى كل الأديان ، ينادى المصلحون بها ثم يتفاوت الناس فى مقدار تطبيقهم لها . وقد صورت هذه الأوضاع بشقيها ، أى المثل العليا ومدى تطبيق الحكام لها ، قصة تسمى اصطلاحاً باسم قصة «القروى الفصيح» ألفها أديب من العصر الأهناسى أو فيما بعده بقليل ، ليصور بها ماهو كائن فعلاً فى عصره من أوضاع الحكم والإدارة ، ويعقب عليها بما يرجو المصلحون أن يسود عصره من أوضاع مستحبة بين الحكام والمحكومين ، مما سوف نعرضه بتفصيل فى حديث الأدب .

تقويم عصر الانتقال الأول بين دورتين تاريخيتين :

لم يطل الأمد بالمجد الأهناسى ، وبدأت أهناسياً تفقد استقرارها واضطرت إلى

(١) Pap. Petersburg, 1116 *A, rt.*, 128 f., 53 f.



أن تقنع بالقليل من سلطانها منذ عهد ملكها خيتى الخامس [١] ، بعد أن طغى عليها نفوذ منافستها طيبة التى تعاقب على عرشها ملكان طموحان ، وهما مونتوحوتب سعنخ إب تاوى ، ومونتو حوتب نب حبة رع ، وحاول كل منهما أن يخضع أهناسيا لنفوذه المباشر وتطلع إلى إعادة وحدة البلاد تحت رايته ، وذلك ماسوف نبدأ به الفصل التالى ، ونسبقه الآن بأن ثانيهما حقق أمله حوالى عام ٢٠٥٢ ق.م وترتب على نجاحه فى توحيد مصر تحت سلطانه أن انتهى عصر اللامركزية، بعد أن استمر نحو قرن ونصف قرن ، وبعد أن مثل فترة انتقال اضطرارية بين عصور الدولة القديمة وبين عصور الدولة الوسطى ، وبمعنى أوضح مثل فترة انتقال من وحدة سياسية قديمة غالبة ، إلى تفرق ولامركزية ، ثم إلى وحدة سياسية أخرى جديدة . ومثل فترة انتقال من المتعة القومية القديمة ، إلى التفكك والتنازع الداخلى ، ثم إلى متعة أخرى وقرة جديدة . ومثل فترة انتقال من أوضاع وتقاليد اجتماعية وسياسية ودينية معينة ، إلى أوضاع جديدة سواها اختلفت عنها فى بعض أمورها واتفقت معها فى بعض آخر . ومثل فترة انتقال من إمكانيات مادية واسعة توفرت للدولة بمجموعها وللقائمين على أمرها ، إلى إمكانيات إقليمية محدودة بالحدود التى امتد إليها سلطان حكامها ، ثم إلى إمكانيات أخرى واسعة جديدة ، كما مثل فترة انتقال من حياة فنية نشطة خصبة شملت آفاق مصر كلها إلى حياة فنية ضيقة محدودة الوسائل ، ثم إلى حياة فنية نشطة أخرى خصبة جديدة .

غير أن ذلك كله لايعنى بالضرورة أن عصر الانتقال الأول كان عصراً عقيماً كله أو عصراً خامداً تماماً كما اعتاد بعض الباحثين الحديثين على تصويره فى تسميتهم له بعصر «الاضمحلال الأول» . فالعصر وإن غابت عنه وحدة الحكم فى البلاد وضعف شأن ملوكه وقلت إمكانياته المادية واتصالاته الخارجية ، إلا أنه كان فى حقيقة أمره أشبه بفترة من التراخى المؤقت، اضطرت مصر إليها اضطراراً بعد أن قطعت من عمرها السياسى دورة تاريخية طويلة، استمرت نحو تسعة قرون وشاخ معها جهازها السياسى والحربى . ولم تخل فترة التراخى هذه من انتفاضات سياسية واجتماعية كما رأينا ، صدرت عن أهناسيا حيناً وعن طيبة حيناً آخر . ولم تخل كذلك

(١) F. Vogelsang und A.H. Gardiner, *Die Klagen des Bauern*, Leipzig, 1908; Gardiner, "The Elopquent Peasant", *JEA*, IX, 5 f.; W. Barta, *JEOL*, VIII, 24 (1975-76), 50 f.

من انتفاضات فكرية تطلع أصحابها إلى نظام من الحكم يفضل كل ماتقدمه من نظم، وتطلعوا إلى حقوق للفرد تفضل كل ماحصل الأفراد عليه قبل ذلك من حقوق ، كما نطلعوا إلى مصير كريم للفرد فى الآخرة يفضل كل ماكان الأفراد يتطلعون إليه من قبل عن مصائرهم بعد الموت . وكان لحرية الكلمة بينهم أثر فى إثراء الأدب القديم بخواطر ومداخل جديدة ، آتت ثمارها بعدهم خلال الدولة الوسطى ، ولم يكن ذلك كله بالشيء القليل .

من معالم الفن الإقليمى :

أسلفنا أن إمكانات ومجالات العمارة والنحت والتصوير والنقش اختلفت فى عهود اللامركزية خلال عصر الانتقال الأول ، عما كانت عليه فى عصور الدولة القديمة ، بعد أن تفرقت موارد البلاد وإمكانات الحكام ، فضعفت وحدة الفن القديمة ، وأصبح الفن يخدم الأقاليم أكثر مما يخدم العاصمة ، وظل رجاله تنقصهم المهارة وروح الإبداع فترات طويلة ، واستمر أغلب إنتاجهم يتصف بالطابع الإقليمى تارة والطابع الريفى تارة أخرى .

وتعتبر توابيت عصر الانتقال الأول من خير مايستشهد به من آثاره ، سواء من حيث النواحى الفنية التى تمثلت فيها وعبرت بها عن روح عصرها ، أم من حيث النصوص التى تضمنتها وعبرت بها عن عقائد أصحابها . وكان فنانو العواصم وصناعها المهرة قد فضلوا صناعة توابيت كبار الأفراد من الخشب الفاخر منذ عصر الأسرة السادسة ، وأصبحوا ينقشون عليها دعوات بأسماء أصحابها وألقابهم ، ويصورون عينين كبيرتين على الجانب الأيمن الخارجى للتابوت فى مقابل رأس المتوفى ؛ أملاً فى أن يتطلع منهما إلى العالم الخارجى ، أو إلى مقدمى القرابين ، وإلى نور الشمس الذى كان يرجو ألا يحرم منه حتى بعد موته . وصوروا عليها بعض القرابين وبعض المتاع الذى كان المتوفى يتمناه لنفسه فى أخراه . وزادت هذه الخصائص فى توابيت عصر الانتقال الأول ، وكانت صناعتها من الخشب تجعلها أصلح للرسم والنقش الغائر البسيط ، وتجعلها أقرب إلى أن تتناسب مع إمكانات أهل الطبقة الوسطى ، وكان من الطبيعى أن تختلف أذواقها وبراعة نقوشها ووضوح نصوصها من إقليم إلى إقليم ، وكان أفضلها ماتمت صناعته خلال العصر الأهناسى ، لاسيما حين تطلع حكامه إلى العاصمة القديمة منف واتجه فنانوهم معهم إليها وحاولوا أن يستوحوا فنها القديم ويقلدوه فى حدود إمكاناتهم ومعتقدات عصرهم .

وظلت مسطحات الرسم والنقش الأخرى فى عصر الانتقال الأول مسطحات محدودة المساحة ، سواء على جدران المقابر الصغيرة أم على سطوح النصب واللوحات الصغيرة ، التى أقام أصحابها بعضها فى مقابرهم وتركوا بعضها الآخر فى جبانة أبيدوس حول ضريح معبودهم رب الآخرة «أوزير» تبركاً به وأملاً فى أن يبعثوا من حوله ويطعموا من خيره . واتصفت صورهم المنقوشة على هذه اللوحات والنصب بنوع من خشونة التنفيذ ، ولكنها فى مقابل هذا تحررت بعض الشيء من أوضاع التصوير التقليدية القديمة ، وتميزت بتعبيرها عن الحياة العادية والأسرية بتلقائية لطيفة ؛ بحيث لم يكن من بأس على الفنان فى أن يصور المتوفى صاحب النصب واقفاً يمسك قوسه ، أو يصوره جالساً يضع ولده على حجره . وقلما ظهر ذلك على اللوحات الدينية أو الأخروية من قبل .

واقتصر جهد المثالين فى العصر نفسه على نحت أغلب التماثيل من الخشب لرخصه وسهولة نحته ، وهى تماثيل صغيرة نسبياً تتصف بالخشونة فى صناعتها وتميل إلى الاستطالة والنحافة ، شأنها فى ذلك شأن أسلوب التصوير والنقش فى عصرها ، ولكن ميزها أن فنانيها حاولوا أن يترسموا فيها مذهباً واقعياً متواضعاً فأظهروا الملامح الشخصية لوجوه أصحابها فى غير تجميل مقصود ، واستطاعوا بذلك أن يعوضوا خشونتها بنوع من صدق التعبير فى إظهار الملامح الريفية الطيبة على حالها ، الذى تحتفظ به حتى الآن .

وكثرت إلى جانب تماثيل الخاصة مجموعات خشبية لتماثيل الأتباع والخدم ، تبدت فيها خشونة الصناعة بشكل واضح أيضاً ، ولم يميزها هى الأخرى غير شيء واحد ، وهو أن صناعها صنعوا منها مجموعات مترابطة وعبروا بأوضاعها عن الأعمال الجماعية ، التى يقوم بها أصحابها فى مصانع النجارة والنسيج وفى الصوامع والمخابز والمطابخ ، فأسبغوا بذلك عليها شيئاً غير قليل من الحيوية وطرافة التعبير ، وأصبحت مصدراً رئيسياً من مصادر تصوير الحياة اليومية العادية فى البيوت ، وفى مجالات العمل بين الأوساط الشعبية بخاصة [١] .

---

(١) راجع عبدالعزيز صالح : الفن المصرى القديم - فى تاريخ الحضارة المصرية - ج١ - القاهرة ١٩٦١ - ص٢٣٧-٢٣٨ ، ٣١٣ .

أولاً - عودة الوحدة السياسية مع عصر الأسرة الحادية عشرة (٢١٣٤-٢٠٥٢ ثم من ٢٠٥٢-١٩٩١ ق.م [١])

عندما أصرت طيبة على استرجاع ماتفرق من وحدة البلاد وماتفرق من عزماتها وإمكاناتها ومعتقداتها ، كان ذلك بشيراً لمصر بأنها تستطيع أن تبدأ دورة تاريخية جديدة ومرحلة شباب فتية جديدة . وبدأ البيت الطيبى بأولئك الأمراء الذين تسمى كل منهم باسم إنتف (أو إيتوف) ، وهم من أسلفنا أنهم بدأوا سياستهم بمهادنة أهناسيا حتى أحسوا البأس من أنفسهم ، وحينذاك ابتغوا الزعامة وعملوا لها . ويبدو أنه تعاقب منهم ثلاثة أو أربعة جعلوا مدينة طيبة (الأقصر) دار حكم وعاصمة بعد أن كانت مجرد مدينة عادية فى إقليم «واسة» ، فبدأت شهرتها تطغى على شهرة أرمنت حاضرة هذا الإقليم القديمة ومسقط رأسهم ، ورفعوا من شأن آمون رب طيبة وشأن معبده البسيط القديم [٢]، وشادوا مقابرهم الملكية فى غربها ، وتخير لها مهندسوهم منطقة صخرية ، مهدوا فيها مسطحات متسعة تشبه الشرفات ، ثم نحتوا المقابر بمقاصيرها متجاورة جنباً إلى جنب فى جدارها الصخرى ، فظهرت فى مجملها على هيئة أبهاء طبيعية ذات عمد من صخر الجبل نفسه . وجرى المناتحة خلفاء الأناتفة على طريقتهم ، فارتضوا مدينة طيبة عاصمة لملكهم المتحد وشادوا مقابرهم إلى الغرب منها أيضاً ، وشادوا معبداً لربها آمون حلت محله بعض أجزاء مجموعة الكرنك الحالية ، وربما شادوا له كذلك معبداً صغيراً آخر شغل مكانه جزء من معبد الأقصر

---

(١) يبدأ التاريخ الأول بحكم الأناتفة فى طيبة ، ويبدأ التاريخ الثانى باستكمال الوحدة السياسية على أيدى المناتحة . وجمعت بردية تورين الفترتين واعتبرت مجموع عصر الأسرة ١٤٣ عاماً (أو ١٤٢ عاماً) - وأنظر حاشية ١ - ص١٧٣ .

Farina, Il *Papiro die Re*, 1938, 35; Gardiner, ; *The Royal Canon of Turin*, 1959

W.C. Hayes, The Middle Kingdom in Egypt, *CAH*, vol. I, Ch. XX, 1964.

(٢) See, Petie, Qurneh, pl. X, 1, 3; J. Vandier, Religion..., 147.

الحالى [١] ، وإن ظلوا فى الوقت نفسه أوفياء لرب أرمنت مسقط رأس أسرتهم ، وهو «مونتو» راعى الحرب الذى كان له مكانه وهيكله فى منطقة الكرنك كذلك ، ونسبوا أسماءهم إليه حين توارثوا اسم «مونتو حوتب» ، بمعنى «مونتو راض» أو «مونتو المنعم» ، ولهذا عرفوا اصطلاحاً باسم «المناتحة» ، تعبيراً عن وفائهم له ، واعتزازاً بطابع الحرب والكفاح الذى يتمثل فيه ، والذى أسسوا به دولتهم وأعادوا به إلى مصر وحدتها ، تلك الوحدة التى تمت على يدى مونتو حوتب «نب حبة رع» ، وهو ملك طال حكمه واحداً وخمسين عاماً ، استمتع فيها بنتائج جهوده وانتفع بعزمات أهل عصره ، وأقيمت باسمه معابد كثيرة لأرباب أسوان والجبلين والطود ودندرة وأبيدوس وغيرها ، وتبعه خلفاؤه على الطريق نفسها .

استرجاع مركزية الحكم والسياسة :

استمتع مونتو حوتب «نب حبة رع» بشىء من التقديس والإكبار عند معاصريه وخلفائه ، وترددت شهرته بعد وفاته بقرون طويلة ، سواء لشهرة معبده الفخم فى غرب طيبة ، أو تقديراً لجهوده فى إعادة وحدة البلاد . وسلكوا اسمه بناء على هذا الاعتبار الأخير فى صف واحد بين اسم الملك «منى» وبين اسم الملك «أحمس» ، الأول باعتباره رأس العصور التاريخية ، وهو باعتباره رأس الدولة الوسطى ، ثم أحمس باعتباره رأس الدولة الحديثة [٢] .

ونهج الرجل فى سياسة حكمه الداخلية منهاجاً مرسوماً ، اتبعه بعض خلفائه من بعده . وعمل فى هذا المنهاج على أن يركز سلطان الحكم فى عاصمته ، وأن يحد من سلطات حكام الأقاليم كلما تيسر له الحد منها ، ونجح هو وبعض خلفائه فيما أرادوه إلى حد كبير ، فاختفى لقب «حاكم الإقليم العظيم» وغيره من النعوت الضخمة التى انتحلها حكام الأقاليم لأنفسهم خلال عصر اللامركزية الأولى [٣] ، وندرت إقامة مقابرهم فى أقاليمهم ونحت أغلبها حول مقابر ملوكهم فى غرب العاصمة طيبة تأكيداً لتبعيتهم لهم والتفافهم حولهم .

---

(١) *ZAeS*, XXXIV, 122-23; *Unters.*, V, 1, S. 4-5; *ASAE*, 1904, 28; 1947, pl. XXXIV.

(٢) *See*, Sauneron, *Chr. d'Egypte*, 1951, 46 f.; H. Goedicke, *JSSEA*, XII, 4 (1982), 157-164.

(٣) دريوتون وفانديه : مصر - مترجم القاهرة - ص٢٧١ ، ٢٨٠ .

وعبر عن عظم سلطان الملوك وحكومتهم المركزية حينذاك قائد خرج لكسر شوكة جماعات من البدو ، وانتصر عليهم ، ثم سجل أخبار نصره على الصخر ، ولكنه لم يرده إلى نفسه ، وإنما رده إلى ملكه ، قائلاً : «كان الخوف منه (أى من الملك) هو الذى جعلهم يخشوننى ، وكانت سطوته هى التى جعلتهم يرهبوننى كما أن حب (الأرباب) له هو الذى جعل الأرضين تعشقانه» (١). وينم مثل هذا النص عن أن أغلب القادة والولاة ومن ساووهم عادوا يعتبرون أنفسهم مجرد موظفين ينفذون أوامر ملوكهم ويردون الأمر والفضل إليهم ، على نحو ما اعتاد أسلافهم فى عصور المركزية القديمة . غير أنه يبدو أن ولاءهم هذا للملوك لم يمنع أصحاب الشخصيات القوية منهم من أن يرددوا آيات نجاحهم فى مناصبهم ويفخروا بجهودهم فى إصلاح أحوال أقاليمهم تحت طاعة ملوكهم . ومن هذا الفريق رجل يدعى «إتيش ، لم يكن أكثر من مساعد لأحد رؤساء بيت المال ، ولكنه وصف نفسه بأنه مواطن كفء يعمل بساعده ، وأضاف أنه كان يعتبر سنداً فى إقليم طيبة ، وأنه أحيى منطقة الجبلين فى سنوات قل الخير فيها وتعطل فيها أربعمائة رجل . وأكد أن نفسه أبت عليه أن يستغل ابنة فقير أو يغتصب أرضه ، وأنه استطاع أن يجهز عشرة قطعان من الماعز وقطيعين من الماشية وقطيعاً من الحمير ، ثم خصص عدداً من الرجال لكل قطيع .. ، وجهز ثلاثين مركباً ، وثلاثين أخرى ، وسد كفاية الجبلين بالغلال ، وأفاض مابقى من غلاله على منطقة إسنا ومنطقة الحية ..، ثم أشار إلى أنه تبع مولاه الكبير ومولاه الصغير . ولم ينس بعد ذلك دنياه ، فأضاف أنه ابتنى لنفسه داراً فاخرة زودها بكل شيء ثمين ، وأنه على الرغم من ثرائه ظل الناس يؤكدون أنه برىء من الرشا والاغتصاب ، وكان بذلك مثلاً طيباً لمثل طبقته فى عصره (٢) .

وتعاقب على عرش مصر فى نهاية عصر الأسرة الحادية عشرة بضعة ملوك ، لايقل الخلاف حول عددهم وتتابعهم عن الخلاف حول عدد أوائل ملوك الأسرة وألقابهم (٣) . ومن أسمائهم المؤكدة : مونتو حوتب «نب تاوى رع» ، ومونتو حوتب «سعنخ كارع» . ويذكر لسياسة الحكم خلال عهودهم احتمال اشتراك أولياء عهودهم

(١) Gardiner, *JEA*, IV, 35 f.

(٢) *Ancient Records*, I, 459.

(٣) *See*, J. Vandier, "L'Ordre de Succession des derniers Rois de la XI dyn.", *Analecta Orientalia*, XVII, 36 f.; H.E. Winlock, *JEA*, XXVII (1941), 116 f.

معهم فى الحكم رغبة فى أن يكتسبوا الخبرة فيه، ويضمنوا ولاء الأنصار قبل أن ينفردوا به . وكانت ظاهرة إشراك أولياء العهود فى الحكم تقليداً نسب دريوتون أصوله إلى عصر الأسرة السادسة (١) .

الاستثمار الحدودى والنشاط الخارجى :

لعل أوضح مايذكر للنشاط الاقتصادى خلال النصف الثانى من هذا العصر هو استعادة الاستثمار الواسع لموارد الصحراوين الشرقية والغربية ، واستعادة الاتصال الواسع ببلاد النوبة وما ورائها ، وبلاد بوينة . وبدأ هذا الاتجاه بمحاولة توطيد الأمن فى السبل المؤدية إلى البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية ، والعمل على تعميرها ، وإعادة استغلال محاجرها ومناجمها لصالح الدولة وصالح المشروعات الملكية . ويبدو أن ذلك لم يكن بالأمر الهين ، إذ تحدثت نصوص العصر عن بعثتين كبيرتين ، لازال الباحثون على خلاف فى أيهما سبقت الأخرى . وقد خرجت إحداهما فى عهد مونتو حوتب «نب تاوى رع» فى عشرة آلاف رجل بين مدنيين وعسكريين ، وترأسها وزير يدعى «أمنمحات» ، فوطدت الأمن فى وادى الحمامات وعمرت بعض مواطنه القديمة المهجورة ، ويحتمل أنه كان من هذه المواطن ميناء وادى جواسيس قرب القصير الحالية ، ثم أعادت استغلال محاجره . وقد يكون عدد العشرة الآلاف هذا عدداً مبالغاً فيه ولكنه ينم عن أن أصحابه كانوا فى خلق كثير . وقص الوزير أمنمحات رئيس البعثة فى النقوش التى سجلها باسم ملكه «نب تاوى رع» أن معجزتين حدثتا خلال قيام رجاله بقطع التابوت الملكى وغطائه من محاجر وادى الحمامات ، وروى فى المعجزة الأولى أن غزالة حبلى قصدت معسكر رجاله واتجهت إليه وهى تتلفت خلفها دون اضطراب أو استغراب ، ثم استقرت فى مكان بعينه ووضعت وليدها فيه ، فاعتبرها الرجال معجزة تنبههم إلى الموضع المناسب الذى ينبغى أن يقطعوا حجر تابوت ملكهم منه ، وتوهموا فيما بينهم أن حيوانات البرارى نفسها لم تكن تأبى أن تسعى من أجل صالحه .

وروى أمنمحات أن المعجزة الثانية حدثت بعد المعجزة الأولى بثمانية أيام ، وكان قد عز على رجاله أن يعثروا على موارد الماء فى مسالك الصحراء والجبال ،

(١) ريوتون وفانديه : المرجع السابق – ص٢٧٢ .

cf., M.E. Krauss. Middle Kingdom Coregencies and the Turin Canon, *JSSEA*, XII, 1 (1982), 17-20.

وأوشكوا أن ييأسوا من مسعاهم ، ولكن حدث فجأة أن تجلت كرامة الإله مين رب الصحراء الشرقية ، وتجلت مكانة الملك عنده ، فهطل المطر مدراراً ، واستحال حضن الجبل إلى بحيرة ، وانكشفت فوهة بئر بلغ عمقها فى قاع الوادى عشرة أذرع وبلغ عرضها عشرة أذرع امتلأت بالماء الصافى حتى حافتها ، على الرغم من أن جيوشاً عدة وبدوا كثيرين مروا على مكانها أعواماً طوالاً ، دون أن تراها عين أو يلحظها إنسان، على حد قول الوزير أمنمحات [١] .

وقال رجل آخر من عهد الملك نفسه فى نص نقشه بوادى الحمامات : «خرجت إلى هذه البرية كما لو كنت ابن ستين (وعندى) سبعون ولداً ولدوا من امرأة واحدة ، وأديت كل ماهو صواب من أجل «نب تاوى رع» ، عاش أبداً ، ويبدو أنه أوكلت إلى هذا الرجل مهمة الإشراف على منطقة واسعة فى الصحراء الشرقية ، بحيث ذكر أنه أصبح «المدير الفعلى لأرض الصحراء كلها» . وأضاف من صور نجاحه وإخلاصه فى أداء مهمته أنه أحال وديان الصحراء ومرتفعاتها إلى غدران ، وعمرها بالذرارى ، وروى أنه تكفل بعمل تحصينات حدودية امتدت شمالاً حتى «منعة خوفو» فى محافظة المنيا ، وربما امتدت جنوباً إلى بلدة لقيطة فى وادى الحمامات [٢] . وخرجت بعثتان إلى النوبة فى عهد الملك نفسه لاستغلال الجمشت فى وادى الهودى إلى الجنوب الشرقى من أسوان بنحو سبعة عشر ميلاً [٣].

أما البعثة الكبيرة الأخرى التى تقرن ببعثة أمنمحات فقد خرجت فى العام الثامن من عهد الملك مونتو حوتب «سعنخ كارع» برياسة موظف كبير يدعى حنو (أو حننو) ، وبلغ تعداد رجالها نحو ثلاثة آلاف رجل ، مدنيين وعسكريين . وكانت تستهدف تأكيد الأمن فى مسالك القوافل وتعميرها وتحصيل الهدايا باسم القصر الملكى وقطع أحجار لتماثيل ملكية ضخمة ، ثم الإشراف على إنزال سفن «جبيلية» إلى البحر الأحمر لاستعادة الاتصال ببلاد بوينة عن طريقه واستيراد «بخور طازج» منها . واعترف حنو بأنه انتفع من حالة الأمن التى حققتها بعثة عسكرية سبقته إلى تأمين

---

(١) L. D. II, 149; cf. Erman, *ZAeS*, 1891, 60; *A.R.*, I, 451.

(٢) Couyat-Montet, *Hammamat*, pl. I; P. Newberry, *Beni Hasan*, II, 18-19.

(٣) A. Rowe, *ASAE*, XXXIX, 187 f.; A. Fakhry, *The Inscriptions of Wadi el Hudi*, Cairo, 1952.

الطريق ، وقد تكون تلك البعثة هى بعثة أمنمحات ، أو بعثة استطلاعية من رجال حنو نفسه ، وذكر أنه بدأ طريقه من قفط وسلك درباً مختصر من دروب الصحراء ، وجهه إليه مولاه ، وأكد أنه أكرم رجاله فسمح لكل منهم بسقاء (أو قربة ماء صغيرة) وحامل (أى عصا مثل عصا الراعى يعلق فيها سرة الخبز وسقاء الماء) وقدرين ، وصرف لكل منهم عشرين رغيفاً (صغيراً) يومياً ، وسمح لهم بأن يحملوا نعالهم على ظهور الحمير، وأضاف أنه ود لو جعل الطريق نهراً وجعل الصحراء طريقاً زراعياً ، وأنه عمل على تطهير آبار قديمة وحفر آبار أخرى جديدة ، وقد بلغت فى مجملها خمسة آبار (لازالت بعض معالمها باقية) . ثم استمر حنو فى طريق حتى بلغ ساحل البحر الأحمر ، وأنزل سفينة أو سفناً إلى البحر ودشنها بذبح القرابين أمامها ، ثم عهد بها إلى رجالها وحملها ببضائع يستبدلون بها ماتوده الخزائن الملكية ومعابد الدولة من بلاد بوينة ، ثم استغل طريق عودته لقطع أحجار تماثيل ملكه ، وروى أنه فعل ذلك نظراً لحب مولاه الشديد له [١] .

ويبدو أن انقطاع الاستغلال الواسع لمناطق المناجم والمحاجر ، وانقطاع الاتصال ببلاد بوينة خلال عصر الانتقال الأول ، جعل استعادة النشاط فى هذه النواحى ضرباً من المخاطرة والبسالة ، وجعل أصحاب هذا النشاط يتلمسون طريقهم من جديد كما فعل كل من الوزير أمنمحات وزميله حنو .

وصورت مخاطرات العصر قصة جمع فيها مؤلفها بين الواقع وبين الخيال ، وعرفت فى الكتب العربية باسم قصة الملاح الغريق ، وإن كان عكس هذه التسمية أى «نجاة الملاح» أولى بها . وروت القصة أن أحد رجالات البلاد كان فى سبيل عودته على متن النيل من مهمة كلفه الملك بها فيما وراء أرض واوات بالنوبة ، ولكن لم يقدر له النجاح فيها . ولما اقتربت سفينته من العاصمة أتاه أحد خاصته من الملاحين يهنأونه بسلامة العودة دون نقص فى ملاحيه ، ويصف له فرح رجاله ومعانقة بعضهم لبعض . ولكن الرجل كان فى واد آخر ، وظل مهموماً يتخوف عاقبة فشله ، فانبرى الملاح يسرى عنه ويهون عليه ويبعث الأمل فى نفسه ، وقص عليه قصة تداولت عليه فيها شدائد ظن أن لانجاة له منها ، ولكنه نجى وسلم وعاد إلى وطنه

(١) *Hammamat*, 114; Breasted, *op. cit.*, 429 f.; W.C. Hayes, "Career of the great steward Henenu", *JEA*, XXXV, 43 f.

واستمتع باجتماع شمله بأهل بيته ، مما سنعود إلى تفصيله فى حديث الأدب .

وفى البعثات المسلحة سجل أحد قادة مونتو حوتب «نب حبة رع» على صخور أبيسكو قرب الشلال الأول أنه صحب مولاه فى حملة جنوبية ، وأضاف حديثاً يفهم منه أن استقرار أمور ملكه فى مصر سمح له بأن يلتفت إلى ماوراء حدودها ، وأن نشاطه العسكرى هيأ له أن يبعث هيبته فى نفوس أهل «چانى» ، أى أهل جنوب الشام(١) وأضاف رئيس بيت المال خيتى أنه خرج بسفن إلى واوات فى النوبة ، وأنه عاد من إحدى بعثاته الخارجية بمعادن وأحجار كريمة (٢). ثم ذكر ملك من الأسرة نفسها فى نص له أنه قاوم الأسيويين فى بواديهم . وزاد حنو أمراً فى عهد الملك مونتو حونب «سعنخ كارع» ، فذكر لنفسه دوراً فى معاملة الحاونبو ، أى أهل جزر البحر المتوسط لاسيما الكرينيين ، وقد تكون هذه المعاملة ودية أو عدائية ، وإن كان الاحتمال الأول هو الأرجح .

صور من حياة المجتمع :

تميز من بين المدنيين فى النصف الأخير من عصر الأسرة الحادية عشرة ثلاث شخصيات : فنان مجتهد يدعى إرتيسن ، وكاهن مزارع من أواسط الناس يدعى حقانخت ، وموظف كبير يدعى مكت رع . وصورت مخلفات الرجال الثلاثة ثلاثة جوانب من الحياة الاجتماعية فى العصر الذى عاشوا فيه .

كان «إرتيس» أقدم الثلاثة وقد عاصر الملك نب حبة رع ، وترك نصاً يفهم منه أنه قسم معرفته ثلاثة أقسام : معرفة باللغة ، ومعرفة بمراسيم الدين وطرق السحر وتنظيم المواكب الدينية ، ثم معرفة فنية وآلية . وكان مما اعتز به أنه ابتدع مواد للتغشية لاتحرقها النار ولايزيلها الماء ، وأنه كان يتقن تصوير الجسم البشرى فى كل أوضاعه ، لاسيما حركات التقدم والتأخر ، وحركة الشخص الجارى ، وكيفية رفع الذراع عند صيد فرس النهر . وكان ينحت تماثيله من كل المواد الثمينة ابتداء من الفضة والذهب على حد قوله وانتهاء بالعاج والأبنوس ، واعتز بأن ما وصل إليه يبلغه

(١) Weigall, *Antiquities of Lower Nubia*, pl. XIX; Roeder, *Debod..*, 282; Saeve Soderbergh, *Aegypten und Nubien*, 1941, 58.

(٢) Breasted, *op. cit.*, ; I, 426; Gardiner, *JEA*, IV, 29 f.



أحد سواه هو وولده سنوسرت (١) .

وكانت مخلفات «حقانخت» ، عبارة عن بضع رسائل كتبها إلى ولده الأكبر «مرسو» (٢) ، يمكن أن تستنتج منها بعض مجريات الأمور فى الأسر المصرية الوسطى فى عهده ، ثم مدى السلطة التى افترضها الآباء لأنفسهم على أولادهم وإن بلغوا سن العمل ، ومدى الفوارق الطبيعية فى معاملة الوالد لأبنائه وفق أعمارهم .

كان «حقانخت» مشرفاً على شئون مقبرة أحد الوزراء وأوقافها الموزعة فى الصعيد والدلتا ، كما كانت له أملاكه الخاصة . وقد ترك أولاده الخمسة فى طيبة وارتحل عنهم إلى نواحى منف ليباشر أعماله فيها لفترة أوفت على العام . وعهد إلى ولده الأكبر مرسو بأرضه ومخازن غلاله ومدخرات داره ، كما عهد إلى ولد آخر يصغره بخمسة وثلاثين رأساً من الماشية شارك جاره فيها . وكتب حقانخت إلى ولده الأكبر بضع رسائل من منف تتبدى شدته فيها عليه وتحميله مسئولية الأسرة كاملة . فكتب إليه فى بعض أموره يقول : «إذا طغى الفيضان على أرضى فالويل لرجالى ولك ، ولن ألقى المسئولية إلا عليك» . ويقول : «عليك أن تبذل الجهد فى أرضى واجتهد بأقصى ما تستطيع ، اغرق الأرض، وتدخل فى كل عمل» . وكان لا يفتأ يردد عليه قوله : أنت سعيد لأنى أعولك ، ولماذا أعولك ؟ . وإذا اجتهدت دعا الناس لك . وإذا لزمت الهدوء فإنه نعم العمل . ولكنه تخلى تماماً عن هذه الشدة بالنسبة لولده الأصغر سنفرو ، فكتب عنه إلى أخيه يقول :

«إذا لم يكن لسنفرو مايكفيه معك فى البيت فلا تتوان عن إخبارى ، فقد بلغنى أنه غير راض . اعتن به كثيراً واعطه مؤونته ، وبلغه سلامى ألف سلام ، بل مليون مرة . اعتن به وأرسله إلى بعد أن تحرث الأرض مباشرة» . ثم كتب عنه ثانية قائلاً : «إذا كان سنفرو يريد أن يعتنى بالماشية فدعه يفعل ، إذ يبدو أنه لايحب أن يجرى معك هنا وهناك فى حرث الأرض ، كما أنه لايريد أن يأتى إلى هنا ، وعليك أن

---

(١) Louvre, C 14; M. Baud, "Le Métier d'Iritisen", *Chr. d' Egypte*, 1938, 21 f. ; H.E.Winlock, *The Rise and Fall of the Middle Kingodom*, 32.

(٢) *Op. cit.; Bull. Metr. Mus.*, 1921, 12 f.; James, *The Hekanakhte Papers...*, 1961.

عبدالعزيز صالح : الأسرة المصرية فى عصورها القديمة – القاهرة ١٩٨٨ – ص١١٥-١١٦ .

تمتعه بكل مايحب» .

وكان للرجل ولد شقى صغير يدعى «ساحتحور» اشترك فى مشاكسة جارية أبيه مع خادمة تدعى سنن ، فلم يزد حقاً نخت على أن صب جام غضبه على الابن الأكبر والخادمة معاً ، وتغاضى عن شقاوة الولد الصغير ، وقال لمرسو : «اطرد الخادمة سنن من دارى على التو ، ولكن احرص على أن يتردد ساحتحور عليك يومياً وإذا بقيت سنن فى الدار يوماً واحداً وأساءت إلى جاريتى فأنت الملوم . وإلا فما الذى تستطيع أن تفعله جاريتى إزاءكم وأنتم خمسة أولاد ؟ سلم لى على أمى إيبى ألف سلام ، بل مليون مرة» . وعاود الحديث عن الجارية فى خطاب آخر فقال : لاحظ أنها جاريتى ، وأنه ينبغى إحسان معاملة جارية الإنسان ... ، وإلا فكيف أعيش معكم فى دار واحدة ، إن لم تحترموا جارية من أجل خاطرى ؟ » .

وعثر فى مقبرة «مكت رع» بمنطقة الدير البحرى فى غرب طيبة[1] على نماذج كثيرة لأدوات زينته وأناقته ، ونماذج أخرى لداره أو دواره وما كان يلحق بها من مكاتب ومصانع وحظائر ومخازن ، فضلاً عمن كانوا يعملون فيها من موظفين وأتباع وصناع . وتبقى من نموذج لمسكنه الخاص جانب أمامى من طابق أول لايكاد يختلف كثيراً عن الطوابق الأولى فى الفيلات الحديثة ، يتألف من فناء متسع يتوسطه حوض ماء مستطيل كبير تشرف الأشجار على جانبيه ، وتلى الفناء صفة مرتفعة أو شرفة متسعة يعتمد سقفها على ثمانية أساطين خشبية دقيقة ملونة ، شكلت سيقانها وتيجانها على هيئة اللوتس والبردى .

وتخلف من ملحقات الدار أو الدوار نموذج لمصنع غزل ونسيج، تعمل فيه طائفة من النساء ، وكان صاحبه يؤدى ضرائبه العينية إلى الدولة ، وربما اشتغل لحسابها أيضاً . ونموذج مصنع للنجارة يعمل فيه صناعه ويستخدمون أدوات يدوية لاتزال تستعمل حتى الآن ، وأخصها المناشير والأزاميل والدقاميق . ونموذج كرار لتخمير الجعة وتصفيتها ، وآخر لمعجن ومخبز يعمل فيه رجال ونساء ، وغيره لحظيرة متسعة جاورتها ظلة مرتفعة فسيحة، جلس فيها رب الدار ومن حوله حراسه حاملو الحراب ، وكتبته الذين جلس كل منهم أمام منضدة حجرية صغيرة وضع فوقها أدوات كتابته . وهكذا احتفظت نماذج مكت رع بصورة لثراء المترفين فى عصره ،

---

(١) H.E. Winlock, Excavations at Deir el-Bahari, 1942, 58 f.

عصر الأسرة الحادية عشرة ، ونمت عن أنه كان من أصحاب الأملاك من حققت لهم أملاكهم الواسعة حظاً من الكفاية الذاتية فى إنتاج مطالبهم ومطالب أسرهم وأتباعهم المحيطين بهم .

ولم تتضمن مقبرة مكت رع صورة من حياة النعيم وحدها ، وإنما تضمنت فى الوقت نفسه مئات من أسلحة الحرب ونماذجها ، لاسيما الحراب والأقواس وجعاب السهام ؛ مما يعنى أحد فروض ثلاثة ، وهى : أن الرجل كان من هواة جمع الأسلحة وكان يحتفظ بها فى قاعة بداره ، أو أن تقاليد عصره كانت تفرض على الأثرياء أن يحتفظوا بأسلحة كثيرة ليزودوا بها رجال أقاليمهم حين تطلب الدولة منهم تسليحهم ، أو أن أيام مكت رع بالذات كانت أياماً مضطربة وكان عليه أن يترقب مفاجآتها بأسلحته . وكل فرض من هذه الفروض الثلاثة محتمل .

من المساكن العادية : لم تقتصر مخلفات عصر الأسرة الحادية عشرة على نماذج المساكن الثرية وحدها ، وإنما احتفظت معها بنماذج صغيرة من الطين قلدت التخطيط العام لبيوت الطبقات الفقيرة والطبقات الوسطى العادية . وظهرت هذه النماذج منذ نهاية الدولة القديمة ، واستمرت خلال عصر الانتقال الأول ، ثم اكتملت عناصرها فى بداية الدولة الوسطى ، واقترح فلندرز بترى تسميتها اسم بيوت «الكا» ، إيماء إلى تخصيصها لنفع النفس (أو الروح) فى أخراها (١) .

وظلت نماذج البيوت الفقيرة منها لاتعدو فناءً مسوراً بسور طينى خفيض ، يقوم فى مؤخرته من الداخل كوخ (خص) مقبى السقف مبنى بجواليص الطين ، أو تحل محله صفة (أو تسقيفة) متواضعة مسطحة أو مائلة السقف يرفع سقفها عمودان أو ثلاثة من جواليص الطين أيضاً . وتميزت من هذه النماذج نماذج أخرى تفضلها بعض الشيء قلدت البيوت الريفية اللبنية الشائعة ، واحتوت فى نهاية فنائها على ثلاث حجرات متصلة أو منفصلة ، يتقدمها رواق مستطيل مسقوف ، ويعلوها سطح مسور بحواجز بسيطة (درابزين) تنفذ منه منافذ مائلة للتهوية والضوء (تشبه ملاقف الهواء التى كانت تتضمنها بيوت الجيل الماضى ودوارات الريف) . وقد يتصرف أصحاب المسكن فى حجراته فيرتبونها على جانبى الرواق أو على جوانبه الثلاثة ،

(١) Petrie, *Gizeh and Rifeh*, I, XIV f.; *Egyptian Architecture*, pl. XXIV, etc.; Niwinski, *Etudes et Travaux*, Warszawa, 8 (1975), 73-112.

ويستفيدون من السطح المتسع فيقيمون بين منفذى الهواء (الملقفين) حجرة عليا صغيرة . وقد يشيدون الدرج المؤدى إلى السطح من ركن الفناء أو يجعلونه يعتمد على الجدار الخارجى للمسكن إذا كان بعيداً عن جدار السور . وغالباً ماكانوا يبنون حجرة ضيقة فى ركن الفناء لاستخدامها مخزناً أو حظيرة للطيور، ويتركون بقية الفناء لمبيت الماشية .

وامتازت عن النماذج السابقة من حيث الثراء ومن حيث التطور نماذج بيوت أهل الطبقة الوسطى الريفية العادية ، وكانت ذات طابقين وسطح ، يؤدى إلى طابقها العلوى وسطحها درج يعتمد على عقد مقبى ، ويكون لحجراتها العليا نوافذ حيث لاخوف من تلصص المارة فى الطريق على أهلها . وظل للأروقة الأمامية المسقوفة مكانها فى الطابقين لجلوس أهلها فى أمسيات الصيف ولاستقبال الضيوف . وقد يحتوى فناؤها الواسع على حوض رباعى تحيط به ظلة (تسقيفة) ذات أعمدة . وكثيراً ما وجدت فى حجرات هذه النماذج نماذج أخرى صغيرة لأسرة ومقاعد ؛ مما يعنى أنها أصبحت تخدم غرضين ، وهما : نفع النفس أو الروح ، والرمز إلى المسكن الذى يتمناه المتوفى لنفسه فى أخراه .

فى العمارة الدينية والفنون :

مر بنا حين استعرضنا الخطوط العامة لفنون النحت والنقش خلال عصر الانتقال الأول ، أنها ظلت محدودة الكفاية ، محدودة الآفاق ، وإن ميز التماثيل الخشبية لسادتها طابع ريفى مستحب وأسلوب واقعى متواضع . وميز تماثيل أتباعها الخشنة تآلفها الجماعى وحرية الحركة الممثلة فيها . وميز هيئاتها النحيلة قليلة التناسب نوع من صدق التعبير عن طبيعة الحياة الأسرة وعلاقات أفرادها بعضهم ببعض . كما ميز نقوش توابيتها ورسومها نوع من الإفاضة فى تصوير المقتنيات وتسجيل التراتيل والدعوات . وكانت كلها ميزات عفوية وموضوعية ، أكثر منها ميزات فنية إبداعية مدروسة ، ولم يقترن بها شىء مهم من تجديدات فن العمارة .

وترتب على ذلك أن فنون أوائل الدولة الوسطى لم ترث عن سابقتها فى عصر الانتقال الأول شيئاً كثيراً ، ولم تجد وراءها نماذج راقية قريبة ترجع إليها وتستوحيها ، لاسيما وأنها تركزت فى طيبة بعيدة عن منف عاصمة الفن القديمة ، وكان عليها لذلك أن تتلمس لنفسها سبلاً جديدة تعبر بها عن روح عصرها وأوضاعه وخصائصه .

وظهرت أولى تجديدات العمارة فى آثار متمم الوحدة السياسية الملك مونتو حوتب «نب حبة رع» ، حين ابتغى مهندسه أن يشيد له ضريحاً يليق بمكانته وسمعته، فاستوحى هيئة أهرام الدولة القديمة ، وهيئة مقابر عصر الأناتفة المنحوتة ذات الأبهاء، ثم عدل طرز هذه وتلك وخرج منهما معاً بأسلوب مبتكر جديد .

فعلى حين اعتاد أسلافه مهندسو الدولة القديمة على أن يقيموا معابد شعائر الملوك إلى جانب أهرامهم، دون أن يجمعوهما معاً فى وحدة معمارية صريحة واحدة، حاول هو من ناحيته أن يجمع لأول مرة بين هرم ملكه وبين معبده فى بناء واحد قائم متصل ، وتخير لمشروعه حضن جبل ناهض من جبال طيبة الغربية ، وأراد أن يطاول هرم ملكه ارتفاع الجبل ، فشيد تحته مسطحين واسعين عظيمين يعلو أحدهما فوق الآخر ، ويؤدى إليهما طريق طويل عريض يبدأ بمدخل متسع عند حافة الوادى المنزرع . ثم جمل المهندس البناء بتوابع كثيرة ، من الحدائق الرحبة والأعمدة المرتفعة ، والتماثيل الملكية الواقفة والجالسة ، التى استكمل بها نواحى الفخامة والجمال فى عمارته . ولما أكمل مشروعه وتوابعه ، أصبح الزائرون يتطلعون إلى مجموعته من أرض الزراعة إلى حيث ينهض ضريح الملك عالياً يحميه الجبل من خلفه ، ويعبرون خلال طريقهم إليه غابة شجرية زرعت بأشجار وارفة من الجميز والأثل تظلل تحتها عدداً من تماثيل الملك جالساً أو واقفاً ، ثم يصعدون فى نهايتها على طريق صاعد طويل يواجهون معه المسطح الأول للضريح ، ويواجهون فى مقدمته بهواً عريضاً ترتفع فيه أعمدة مربعة . فإذا اعتلوا هذا المسطح الأول واجهوا غابة فسيحة أخرى تكسو المسطح الثانى ، لكنها غابة من حجر ، تتضمن عشرات وعشرات من الأعمدة الحجرية المضلعة التى قامت فيها مقام الشجر ، وفى قلب هذه الغابة الحجرية ينهض الهرم الملكى عالياً فى تسام وأبهة[1] .

وضم ضريح مونتو حوتب عدداً من مقابر نساء أسرته ووصائفهن . وكان لكل أميرة منهن مقصورة خاصة ، ولكل مقصورة بئر تؤدى إلى حجرة دفنها [2] . وكانت

(١) E. Naville. *The XI Dyn. Temple*, III vols., 1907 f.; H.E. Winlock, *Excavations at Deir el-Bahari*, 1942.

ويراجع عن تفسيرات أخرى لهذه المجموعة المعمارية :

D. Arnold, *Der Tempel des Konig Mentuhotep von Der el-Bahari*, I-II, 1974.

(٢) Evers, *Staat aus dem Stein*, II, Taf. XIF.; III, Tat. II-III.

أشهرهن أميرة تدعى «كاوية» ، وأخرى تدعى «عاشية» [١] . وبقى عدد من المحتويات الثمينة فى مقبرتهما ، ومنها تابوتان من الحجر الجيرى النقى ، حفلت جوانبهما بمناظر دنيوية وأخروية . ومن هذه المناظر مايصور الأميرة تمسك بمرآتها النحاسية، بينما ترجل لها خادمتها شعرها وتروح لها أخرى بمروحتها ويصب لها وصيفها لبناً فى كأس . وكان لكل من الأميرتين تابوت خشبى وضع داخل تابوتها الحجرى ، وزين كل منهما بنصوص دينية ومناظر قطع فنانها مرحلة طيبة فى سبيل إجادتها ورشاقة خطوطها . وقد ضارعتها فى مستوى التطور نقوش أخرى احتفظت ، مقاصير معبد الطود من أيام الملكين مونتو حوتب الثالث ومونتو حوتب الخامس[٢] .

وبدأت بواكير الازدهار النسبى لفن النحت حينذاك فى تماثيل مونتو حوتب «نب حبة رع» أيضاً . واشتهر منها تمثال يظهر الملك برداء قصير يشبه أردية أعياد السد ، ويظهره بلون أسود قد يرجع استخدام الفنان له إلى رغبته فى تشبيه ملكه بالمعبود أوزير باعتباره رب الخصب ، أو يرجع إلى سوء اختياره للون المناسب . ويبدو أن الفرض الأخير هو الأرجح ، إذ يزكيه عيب آخر فى تمثاله ، وهو أن الفنان حين حاول أن يعبر فى تمثاله عن عظمة ملكه لم يستطع أن يترجم عنها بغير إظهار امتلاء وجهه وهيبته وامتلاء جسده وضخامته ، بينما اكتفى بالخطوط العامة له دون إظهار عضلات جسمه وانثناءاته . ثم مثله يعقد يديه على صدره فى جلسة أوزيرية مهيبة، وإن كان فى الوقت نفسه قد أظهره برداء العيد القصير الذى لاينسجم مع أردية أوزير الطويلة التقليدية ، أو على الأقل لم تجر العادة على تصويره فى تماثيل الملوك التى أظهرتهم فى هيئة أوزيرية . بل وقد نحت ساقى التمثال بضخامة ملحوظة ، وتحتمل هذه الضخامة بدورها أكثر من فرض واحد : فهى قد تدل على ابتلاء الملك بمرض تضخم الساقين (داء الفيل) كما ظن بعض الباحثين ، ولو أنه فرض نستبعده حيث لم تجر عادة الفنانين المصريين على إظهار العيوب البدنية للسادة فى تماثيل يأملون أن يبعثوا على هيئتها فى الآخرة ، وقد تدل على عدم تمكن الفنان تماماً من فنه وعدم استطاعته تقدير النسب السليمة فى تمثاله . أو هى ترجع أخيراً إلى أن هذا التمثال كان واحداً من تماثيل كثيرة لصاحبه قامت فى معبده وعلى جانبى الطريق المؤدى إليه ، وربما رأى المثالون فى كثرتها مايغنى عن الاهتمام

---

(١) *Metr. Mus. Bull.* 1921, 36 f. ; Evers, *op. cit.*, XIX A,B.

(٢) Bisson de la Roque,. *Tod*, Le Caire 1937.

بتفاصيلها ، ولم يجدوا ضرورة للعناية الكاملة بكل واحد منها على حدة [١] .

وعلى أية حال ، ومهما يكن من عيوب هذا التمثال ، فهي عيوب تغتفر له إذا قورن بتماثيل عصر الانتقال الأول التي سبقته ، ولاتمنع إطلاقاً من اعتباره باكورة طيبة لفن النحت في عصره . وقد لحق النجاح النسبي في نحته ونحت أمثاله من التماثيل الملكية ، ببعض تماثيل الخاصة أيضاً . ومن هذه التماثيل بضعة تماثيل لمكت رع وولده ، وتمثالان صغيران لموظف يدعى مرى نحتهما الفنان من الحجر وأظهره في أحدهما يبسط يديه على صدره في وضع تعبدي لطيف ، وتمثال آخر بالوضع نفسه لرجل يدعى «إقر» . ثم تمثال خشبي صغير للأميرة عاشية وجد داخل تابوتها وميزته حيوية واضحة زادها احتفاظه بتطعيم عينيه [٢] .

بل وأصاب النجاح النسبي تماثيل الجواري والأتباع الصغيرة كذلك ، فبلغت حداً لابأس به من سلامة النسب ورقة التفاصيل ، وإن تفاوتت فيما بينها من حيث الحيوية ودقة الصناعة . ومن أمتع مايستشهد به منها تمثالان لجاريتين من حاملات القرابين وجدا في مقبرة مكت رع ، وظهر فيهما من حلاوة التعبير وصفاء الملامح وتفاصيل الثياب المشغولة بالخرز على هيئة فلوس السمك ، ماجعلهما يفوقان أشباههما من تماثيل عصر الإنتقال الأول بمراحل واسعة [٣] .

وبعد أن أعاد عصر الأسرة الحادية عشرة وحدة الحكم ووحدة الحضارة إلى بلده ، انتهت أيام أسرته الحاكمة على غير ما بدأت به ، لأمر ما لم تكشف عنه الوثائق المعروفة ؛ بحيث تعاقبت في أواخرها سبع سنوات عز فيها الاستقرار والحاكم الصالح . ثم انتقل العرش منها إلى فرع من أقاربها أو من أصهارها ، بدأ بحكمه عصر جديد مجيد هو موضوع البحث التالي .

* * *

(١) Cairo, 36195, Metropolitan Museum, 26-3-29.

(٢) *Ibid.*, 20-3-4; 26-7-1393; British Museum, 37895, 37896, etc.

(٣) Cairo 46725; Metropolitan Museum, 20-3-7.

ثانياً - الازدهار والكلاسيكية فى عصر الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٧٨ ق.م)

يعتبر عصر الأسرة الثانية عشرة أزهى عصور الدولة الوسطى فى نواحى نشاطه الداخلية والخارجية . وقد بدأ الحكم فيه بملك ذكرته نصوص عهده باسم أمنمحات الأول ، وسوف تجرى فيما بعد على استعمال الاسم الأخير نظراً لشيوعه . وقد خرج أهل الدعاية فى عهده بقصة اشتهرت اصطلاحاً باسم تنبؤات نفررحو (أو تنبؤات نفرتى) [١] ، واستهدف دعاة أمنمحات من قصتهم هذه أن يظهروا ملكهم الجديد لأفراد شعبة فى هيئة المنقذ المنتظر ، وأن يوهموهم بأن العناية الإلهية قد تخيرته منذ الأزل ، وأن المتنبئين بشروا به منذ عهد سنفرو ، أى قبل مولده بقرون طويلة . وسوف نعرض لهذه القصة فى حديثنا عن الأدب ، وتتلخص فى أنها جعلت حكيمها نفررحو يصور للملك سنفرو أياماً يتوقعها فى عالم الغيب ، يهلك فيها الحرث والنسل ويشيع الفساد ، ويظل أمرها كذلك حتى ترسل العناية الإلهية ملكاً من أهل الجنوب يدعى «أمينى» يولد لسيدة من إقليم تاستى ، فيصلح الحال ويسعد به أهل عصره . وكان اسم أمينى الذى بشرت النبوءة به هو الاسم المختصر لاسم أمنمحات فى الدولة الوسطى [٢]، ثم لجأ امنمحات إلى التبشير لحكمه وعهده بين شعبه بطريقة أخرى ؛ فاستخدم لنفسه لقب «وحم مسوت» [٣] وهو لقب يعنى معنى معيد النهضة (إلى جانب معان حرفية أخرى مثل «تكرار المواليد») .

واعتماداً على هذه الدعايات اعتبر بعض المؤرخين المحدثين أمنمحات مغتصباً للعرش من الأسرة السابقة له ، وأضافوا أنه قد يكون بنفسه الوزير أمنمحات الذى خرج فى عهد مونتو حوتب «نب تاوى رع» بعشرة آلاف جندى ، وأنه قد استغلهم فى الإطاحة بملكه والاستيلاء على عرشه ، وأن أمه كانت نوبية من إقليم تاستى الجنوبى الذى ذكرته النبوءة ، وأنه يزكى أصله الجنوبى هذا ظهور غلظ الشفاه وسعة الأنوف وبروز الوجنات فى تماثيله وتماثيل أفراد أسرته [٤] .

(١) Cf. H. Goedicke, the Protocol of Neferyt, 1977 and older references.

(٢) H. Gauthier, *L.R.*, I, 265, 283, and *see*, Breasted, *Ancient Records*, I, p. 251, n. a.

(٣) Gauthier, *op. cit.*, 268, and *see*, Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 127.

(٤) بدأت بهذه الآراء مراجع إفرنجية ، ثم رددتها عنها كتب عربية .

وندع للجزء الثاني من كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها تفنيد هذه الآراء ومناقشة قرائن أصحابها في تفصيل ، وحسبنا منه هنا أن إقليم تاستى الذى اعتبروه نوبياً خالصاً ، كان يشتمل كذلك على المنطقة التى تمتد بين أسوان وبين إدفو، فهو إذن من أقصى الصعيد أيضاً وليس من النوبة كله . وليست ملامح النوبيين فى حد ذاتها بالملامح الغليظة التى صوروها ، وإنما هى ملامح قد لاتخلو من رقة وبساطة على الرغم من سمرتها . ولم تظهر الملامح الغليظة فى غير تماثيل أحد أحفاد أمنمحات (وهو سنوسرت الثالث) ، مع ملاحظة أن تنوع الملامح بين أفراد الأسرة الواحدة ليس بالأمر الغريب بين المصريين وغير المصريين ، ثم إن أمنمحات الوزير لو أراد أن يستخدم العشرة الآلاف جندى فى الثورة على ملكه لما مجده أمام نفس الجنود فى نصوصه حتى أوشك أن يرتفع به أمامهم إلى مصاف الآلهة ، كما أن بعض خلفائه من ملوك أسرته قد جروا على أسلوبه فى تمجيد ذكرى ملوك الأسرة الحادية عشرة السابقة عليهم ، وفى هذا ماينفى أن رأسهم قد اغتصب الملك منها . وبناء على هذه القرائن وغيرها مما يرد تفصيله وأدلته فى كتابنا آنف الذكر ، يبدو أن أمنمحات كان من أقرباء الأسرة الحادية عشرة السابقة له أو من أصهارها ، وأنه لم يعتل العرش اغتصاباً من ورثتها ، وإنما اعتلاه بعد أن عجزوا عن الاحتفاظ به ، وبعد أن مرت البلاد بفترة عز عليها فيها الاستقرار والحكم الصالح .

فى السياسة الداخلية :

جمعت أيام الأسرة الثانية عشرة بين خصائص الدولة القديمة وعظمة سلطان ملوكها ، ومكاسب عصر اللامركزية الأولى ونمو روح الفردية فيه ، فى آن واحد، دون أن تضحى بأحديهما تماماً فى سبيل الأخرى . غير أن هذا التقديم لايمنعنا من ذكر حقيقة واقعة وهى أن مصادر هذا العصر ، وغيره من العصور ، لاتزودنا فى أغلب أحوالها إلا بما أراده أصحابها من تصوير الجوانب النيرة فى حياتهم . أما الجوانب السيئة ، ولابد أنها كانت متعددة ، فقلما تركوا لنا مايسمح بتصورها إلا عن طريق التخمين وعن طريق استقراء مابين السطور .

طال حكم **أمنمحات الأول** ثلاثين عاماً يبدو أنها كانت حافلة بالإصلاح، وإن لم تخل من الكفاح والمخاطر فى بدايتها وفى نهايتها ، فيفهم من نصوص رجل

معاصر له من حكام الأقاليم يدعى «خنوم حوتب» ونصوص حفيده [1] ، أنه ظهر لأمنمحات فى بداية عهده منافسون على العرش ، وأنه عمل على نفيهم من مصر واستعان على إضعافهم بعض زعماء الأسر المصرية القوية فى مصر الوسطى ، ثم كافأ أنصاره بتوليتهم حكم المزيد من المدن والأقاليم ، وإن كان قد حرص فى الوقت ذاته على أن يشعر هؤلاء الأنصار بأن يده هى اليد العليا دائماً ، فتدخل فى تحديد حدود أقاليمهم ورسم سياستها ، وتعيين موارد الرى فيها ، وتحديد سلطاتهم عليها .

وأشرك أمنمحات ولى عهده سنوسرت فى الحكم معه عشر سنين حتى يعتاد على تصريف الأمور تحت إشرافه ، ويأمن الخلاف والطمع فى عرشه بعد وفاته ، وظن أن ذلك يدعم مركزيهما معاً ، ولكن كان من تصاريف القدر أن تعرض فى فترة متأخرة من حكمه لمؤامرة دبرت لاغتياله من قبل المتصلين به لسبب لانعرفه . وصور الملك هذه المؤامرة من وجهة نظره فى مجموعة وصايا وجهها إلى ولده ، وحرص على أن يعدد له فى مقدمتها ما أسلف لبلده من أياد بيضاء ، فأكد أنه عمل على ألايكون فى عهده جائع ولاظمآن ، وأن كل ما أمر بتنفيذه خلال حكمه كان كما ينبغى أن يكون . وأكد أنه يسر لكل معدم أن يحقق أهدافه كما لو كان من ذوى الحيثية . ثم تحدث عن نشاطه الإدارى فذكر أنه وقف على مشارف الأرض وعاين دواخلها ، وأنه وسع مفهوم البأس بشجاعته وأعماله ... ، وادعى أنه أذل الأسود وأخضع التماسيح .. ، غير أن ذلك كله لم يجد ، فانقلب عليه أقرب الناس إليه ، وتعمد من طعم خبزه أن يحرض القوم عليه ، كما تعمد من تلقى يد المعونة منه أن يستغلها فى خلق المتاعب ضده ، وذكر أمنمحات أن المتآمرين دبروا أمرهم خلال غياب ولده ، فحدث ذات ليلة بعد العشاء ، وحين أرخى الليل سدوله ، وبعد أن استرخى هو فى مضجعه ، أن سمع صليل السلاح وحديثاً يقال عنه ، فظل فى فراشه يقظاً كثعبان الصحارى ، ثم نهض ليدافع عن نفسه ، ووجدها مؤامرة من بعض الحراس ، فاستل سلاحه ، وكان كفئاً لهم كما قال ، لولا أنه «ما من شجاع بليل» «وما استطاع إنسان أن يحارب بمفرده» ، «وما تم أمر ناجح بغير مساعد» ، على حد

(١) Breasted, *op. cit.*, 224; Newberry, *Beni Hasan*, I, pl. XLIV.

تعبيره[1]. ووجه أمنمحات وصيته إلى ولده من وحى هذه التجربة البشرية ، فأوصاه بالحذر ، وبألايقرب الناس وحيداً ، وألا يسرف فى الإخلاص لمن يدعى أخوته ، أو يصطفى خليلاً لنفسه ، وعلل ذلك كله بأن المرء قد يفتقد أهله فى يوم الشدة .

وتشعبت الآراء فى تصوير نهاية أمنمحات وفى استخلاص النتائج من وصاياه، وتميز منها رأيان : رأى اعتقد أصحابه أن المؤامرة حدثت فى العام العشرين من حكمه وأنه نجا منها وتعمد بعدها أن يشرك ولده سنوسرت فى الحكم ، ليسانده ويشد أزره . ثم رأى آخر اعتقد أصحابه أن المؤامرة حدثت فى العام الثلاثين من حكمه وأنها أدت إلى مقتله بالفعل ، وأن ولده سنوسرت أوحى إلى أديب من أهل عصره بأن يقصها على لسان أبيه كما لو كانت قد صدرت عنه قبل أن يسلم روحه ، أو كما لو كانت قد صدرت عنه وحياً من السماء بعد أن ارتفع إليها . وقدم كل من أصحاب الرأيين قرائنهما ، وقد رجحنا الرأى الأول منهما بقرائن جديدة نحيل المتخصصين إليها فى كتابنا آنف الذكر .

على أنه مهما يكن من أمر المؤامرة ضد أمنمحات ، فقد استفادت مصر من جهوده ، كما استفاد بخبرته ولده سنوسرت الأول (خبر كارع)، الذى طال حكمه أربعة وثلاثين عاماً فضلاً عن العشرة الأعوام التى قضاها مشتركاً مع أبيه . وكان الإبن حصيفاً فلم يسلم بحرفية وصايا أبيه، وأدرك أن دعوة الحذر التى دعاه إليها كانت مجرد رد فعل مؤقت للمؤامرة الغادرة التى صدم بها ، فجرى مع روح عصره ولم يتردد فى أن يقرب إليه ذوى الكفاية من رجال دولته ، ويسر لهم السلطان الواسع تحت إشرافه . وترتب على ذلك أن وزيره «مونتو حوتب» لم يجد مايمنعه من أن يشيد بنفسه الإشادة الواسعة تحت سمع مولاه وبصره . فذكر فى نصوصه أنه كان رباناً للشعب ... ، قيم القسطاس مثل الإله تحوتى (رب العدالة والميزان) .. ، وأنه كان يعتبر أخاً لهذا الإله (فى عدالته وحكمته) ، ويعرف بواطن النفوس جميعها ، كما كان

---

(١) Pap. Millingen; see, G. Maspero, *Les enseignements d'Amenemhait Ier*, 1914; Erman, *Die Literatur der Aegypter*, 108 f. ; A. Volten, *Zwei altaeg. politische Schriften*, 1945; G. Posener, *Littérature et politique dans l'Egypte de XIIe Dynastie*, 1956 R. A nthes, in *Fragen an altaeg. Literatur*, 1977, 41-54; J.L. Foster, *JEA*, 68 (1982), 36 f.

حسن الإصغاء نافعاً حسن الكلام حلالاً للمشكلات [(١)]. وفى كل هذا مايعود بنا إلى صفات الحاكم الصالح والمواطن القادر التى دعت قصة القروى الفصيح إلى مثلها أيام العصر الأهناسى .

وسرت روح الطمأنينة التى شجعت مثل هذا الوزير على أن يفخر بمكانته بين شعبه ويدعى الأخوة لربه ، إلى كبار رجال الأقاليم المتمتعين برضا الملك وتأييده ، فجمعوا بين اعتزازهم بجهودهم الإصلاحية ، وبين إرضاء الملك وبين ، العمل لصالح الرعية ، فذكر رجل يدعى «أمينى» كان حاكماً على إقليم الوعل فى مصر الوسطى أنه توخى العدالة المطلقة فى حكم إقليمه ، وأنه تنزه عما يأتيه أصحاب السلطة إذا توافرت لهم السلطة . فقال وهو يفخر بنفسه ويؤكد عدله : «لم أسىء إلى ابنة مواطن فقط ، ولم أزجر أرملة ، ولم أقس على مزارع ، ولم أبعد راعياً ، ولم أحجر على عمال ريس أنفار فى مقابل الضرائب المستحقة عليه ، ولم يكن بين قومى بائس أو جوعان... ، وعندما تعاقبت سنوات القحط أشرفت على استغلال إقليم الوعل من جنوبه إلى شماله ، وكفلت الحياة لأهله ووفرت لهم الأقوات ، فقل بينهم المحتاج ، وأهديت الأرملة كما أهديت ذات البعل ، ولم أميز عظيماً على فقير فيما أعطيته . وعندما عادت الفيضانات العالية وأدت المحاصيل وتوافر كل شىء ، تجاوزت على متأخرات ضرائب المزارع» [(٢)] . ولم يتردد الرجل مع شعوره بمكانته فى أن يؤرخ نصوصه التى سجلها فى مقبرته بتاريخ ولايته إلى جانب تأريخها بتاريخ حكم ملك عهده [(٣)].

وكان فى سعة الألقاب التى ادعاها حكام الأقاليم حينذاك واحتفاظ أغلبهم بقوات محلية كبيرة فى أقاليمهم وجرأة مثل أمينى على تأريخ نصوصه بسنوات ولايته ، ما دعا الأستاذين هرمان كيس وألن جاردنر إلى اعتبار النصف الأول من عصر الأسرة الثانية عشرة عصراً إقطاعياً من نوع جديد ، لم تهن فيه سلطة الملوك ، ولكن تضخمت فيه سلطة حكام الأقاليم برضاء الملوك ولصالح الرعية [(٤)] . واستمرت هذه الأوضاع قائمة فى النصف الأول من عصر الأسرة ، خلال عهدى الملكين

(١) Cairo 20539.

(٢) Newberry, *Beni Hasan*, I, pl. VIII; Breasted, *op. cit.*, 519, 523.

(٣) *Ibid.*, 418.

(٤) Kees, *Ancient Egypt*, tr., Gardiner, *op. cit.*, 129; L. Saffirio, Aegyptus 55 (1975), 14-46.

أمنمحات الثانى (نوب كارع) وسنوسرت الثانى (خع خبررع) .

ثم اتجهت السياسة الداخلية وجهة مختلفة بعض الشىء فى عهد سنوسرت الثالث (خع كاورع) ، وكان فرعوناً طموحاً شديد المراس ، عمل على أن يقلل سلطان حكام الأقاليم الذين آزرهم أسلافه، وعلى أن يقضى على إصرارهم على توريث أبنائهم حكم أقاليمهم حتى ولو كان الوريث طفلاً صغيراً [1] . فقلت فى أواخر عهده الألقاب الضخمة التى اعتاد كبار حكام الأقاليم أن يدعوها لأنفسهم فى كنف أسرته منذ أن استعان جده الأكبر أمنمحات الأول ببعضهم لتدعيم ملكه . كما قلت ضخامة مقابرهم الفخمة التى اعتادوا أن يتخذوها فى أقاليمهم [2] . ولو أن هذه السياسة التى اختطها لحكومته المركزية وعمالها لم تؤد إلى الإجحاف بالحقوق المشروعة والثروات المعقولة للعاملين المخلصين من حكام الأقاليم فى عهده . ودل على ذلك أن تضمنت مناظر مقبرة حاكم منهم يدعى «تحوتى حوتب» فى منطقة البرشة مايصور تمثالاً ضخماً يمثله ، أذن الملك له بإقامته فى مقصورة مقبرته ، وذكر أن ارتفاعه يقرب من ستة أمتار وثلاثة أرباع المتر (مقومة بوحدة الذراع) . وأنه تكفل بنقله وسار فى الإحتفال بإقامته ١٧٢ رجلاً بين مأجورين ومجندين ومتطوعين [3] .

واستمرت مركزية الحكم قوية فى عهد خلفه الملك أمنمحات الثالث (نى ماعت رع) ، وحرص كبار رجال دولته على أن يسجلوا إخلاصهم له ، وذهب من تمتعوا بإنعاماته إلى ماهو أبعد من حدود الإخلاص . فسجل رجل منهم يدعى «سحتب إب رع»، على نصب أقامه فى مقبرته ، وصية طويلة وجهها إلى أولاده أوصاهم فيها أن يخلصوا لملكهم قلباً وقالباً ، ونبههم إلى أن الملك يفطن إلى مافى النفوس ، وأن عينيه تخترقان الأجسام ، وأن شأنه شأن الأرباب ، وأنه يستطيع أن يحيى ويميت ، وأن الخير لأوليائه والحرمان لأعدائه .. ولايخفى بطبيعة الحال أن سحتب إب رع تعمد بهذا الإسراف أن يتملق ملكه لغرض فى نفسه ولكثرة إنعاماته عليه ، شأنه فى ذلك شأن رجال البلاط والحاشية فى كل عصر ، غير أن المهم أنه لم يخص بالمبالغة الملك وحده ، وإنما مهد بها لتقريظ نفسه أيضاً ، فقال وهو يفخر بكفاياته وسجاياه الخاصة

---

(١) *See*, Breasted, *op. cit.*, 631.

(٢) ألكسندر شارف : تاريخ مصر من فجر التاريخ – معرب بالقاهرة – ص١٠٠ .

(٣) Newberry, *El-Bersheh*, I, pl. VX; Vandier, *Chronique d'Egypte*, 1944, 185 f.

التى أبلغته مابلغه من عز وسؤدد فى ظل ملكه : «إنى نبيل على رأس الناس ، يرحب أهل البلاط بمقدمه ويفضى الناس إليه بأسرارهم ...، رجل عدل فى نظر أهل الصعيد والدلتا ، شاهد صدق مثل الإله تخوتى ، أشد دقة من الميزان ..، مخلص النصيحة ، يتحدث صدقاً ، ويكرر مايستحب ، لاشبيه له ، حسن الإصغاء ، حلال للمشكلات ..، صورة صادقة للود ، برئ من ارتكاب الإثم ..، يحيل البؤس سعداً ، ويدير الأمور إدارة صالحة ...» [١] .

فى العمران :

بدأ مؤسس الأسرة الثانية عشرة حكمه فى طيبة ، واهتم بمعبد ربها آمون ، ولكنه انتقل بعد سنوات بمقر حكمه إلى عاصمة جديدة شمال الفيوم قرب بلدة اللشت الحالية، وأطلق عليها اسم «إثت تاوى» بمعنى رابطة الوجهين أو القابضة على الأرضين . ويمكن أن نعلل إقدامه على هذه الخطوة بعدة احتمالات ، ومنها : رغبته فى أن تصطبغ دولته بروح الجدة فى مظهرها ومخبرها معاً، وأن تنسب إليها عاصمة خاصة تذكر بها ، ولعله تعمد أن يتخذ هذه العاصمة قرب منطقة بكر يمكن استغلالها فى مشاريع زراعية جديدة ، وهى المنطقة المحيطة ببحيرة الفيوم (وإن يكن استغلالها الفعلى لم يتضح إلا فى عهود خلفائه) . ثم رغبته فى أن تنتفع عاصمته الجديدة بخاصية التوسط النسبى بين أقاليم الوجهين وقرب منف المجيدة ، وأن تجعل بلاطه بعيداً عن منافسيه من فروع الأسرة السابقة عليه ، وأن تجعله هو على مقربة من أقاليم أنصاره الذين أزاد سلطانهم وأثابهم على تأييدهم له (فى مصر الوسطى) ، وكان عليه أن يظل متيقظاً لهم قريباً منهم حتى لايسيئوا استغلال السلطان الذى هيأه لهم .

ومع ذلك احتفظت طيبة فى بقية عهود الأسرة بمركز العاصمة الدينية ، ومما بقى من عمائرها الفخمة مقصورة حجرية شيدت فى عهد سنوسرت الأول فى رحاب معبد آمون بالكرنك ، ولازالت تعتبر من أمتع آثار الدولة الوسطى الباقية من حيث أسلوبها المعمارى ومن حيث رقة تفاصيلها . وقد بناها مهندسه فوق منصة مسطحة مرتفعة، يصعد الزائرون إليها على طريق صاعد قصير خفيف الميل يتوسطه درج ، ويهبطون منها على طريق آخر يماثله ويواجهه . ولم تكن المقصورة فى حد ذاتها غير ساحة مستطيلة تحيط بها أعمدة رباعية، تتصل ببعضها بجدران منخفضة تجعل

(١) G. Maspero, *Etude de Mythologie*, IV, 137 f., ; Breasted, *op. cit.*, 745, 747.

الساحة وراءها غير مكشوفة كلها ولامحجوبة كلها [١]. ولازال الرأى يتأرجح بين اعتبار هذه المقصورة الفريدة إحدى مقصورتين احتفل فيهما سنوسرت الأول بعيد يوبيله الثلاثينى ، بصفته ملك الصعيد فى أحديهما وملك الوجه البحرى فى الأخرى ، أو اعتبارها استراحة مقدسة تريح مركب الإله آمون فيها، حين يطوف الكهنة بها فى منطقة المعبد خلال أعياده .

ولم يحل الاهتمام بمعابد طيبة دون العناية بمعابد العواصم الدينية الأخرى . فقد بقيت من عهد سنوسرت الأول مسلة من الجرانيت بلغ ارتفاعها نحو ٢٢ متراً ، أقيمت باسمه فى المطرية الحالية (وهى جزء رئيسى من مدينة أونو القديمة إلى الشمال الشرقى من القاهرة) ، بمناسبة احتفائه بيوبيله الثلاثينى ، أمام محور معبد كبير للإله «أتوم» . وتعتبر أقدم مابقى كاملاً من المسلات المصرية الكبيرة ، وربما جاورتها حينذاك مسلة أخرى .

وعن شرق الدلتا ، تحدث المؤرخون والرحالة الإغريق والرومان : هيرودوت وديودور واسترابون وبلينى ، عن قناة كانت تصل بين النيل وبين البحر الأحمر ، وتبدأ من الفرع البوباسطى للدلتا شمالى الزقازيق بقليل، ثم تمتد خلال وادى الطميلات حتى تنتهى إلى البحيرات المرة . ونسب بلينى أقدم مشروع لهذه القناة إلى عهد الملك «سيزوستريس»، ورأى بعض المؤرخين ومنهم الأستاذ جيمس هنرى برستد ماسبق ذكره من أن سيزوستريس هذا هو اسم محرف عن اسم سنوسرت الأول (أو هو سنوسرت الثالث ، وربما كان يعنى رمسيس الثانى أيضاً) ، وأن القناة بدأت فى أيامه. ولكن عارض رأيهم باحثون آخرون، ومنهم الأستاذ بوزنر الذى رجح أنه لم يكن لهذه القناة وجود بصورتها ووظيفتها آنفة الذكر حتى شقت فى عهد الملك نيكاو فى عام ٦٠٠ ق.م على وجه التقريب [٢] ، ولازال هذا الرأى الأخير مأخوذاً به حتى الآن .

وكشف فلندرز بترى حول هرم الملك سنوسرت الثانى (خع خبر رع) فى اللاهون قرب الفيوم فى مصر الوسطى عن بقايا بلدة، ترجع أهميتها الحضارية إلى أنها من أقدم المناطق المصرية واضحة المعالم التى تعرف الآثاريون على أطلال مساكنها ، بعد أن تعاون على إخفاء آثار أمثالها بناء بيوتها من اللبن سريع التهدم ،

---

(١) *JEA*, 1973, 72 f.

(٢) G. Posener, *Chronique d'Egypte*, XXVI, 1938, 259. f.

واستخدامها للسكنى جيلاً بعد جيل ، وقيام مساكن العصور اللاحقة لها على أطلالها . ولاتكاد تسبقها فى القدم من آثار العمران الفعلى، التى كشف عنها حتى الآن غير مساكن حى لكهنة معبد الوادى لمنكاو رع كشف عنه جورج ريزنر ، ومساكن حى لكهنة معبد الوادى لخنتكاوس كشف عنه سليم حسن ، ثم مبانى حى صناعى من عصور لاحقة، منها ما كشفنا عنه من عصر الرعامسة فى منطقة المطرية) .

وشاء حظ بلدة اللاهون أن شادها أصحابها فى منطقة من مناطق الحواف الصحراوية الجافة ثم هجروها بعد إنشائها بأجيال قليلة لأسباب غير معروفة ، فغطت الرمال على مابقى من أطلالها وحفظت منها ما سلم من أيدى القرويين المنقبين عن قوالب اللبن والسماد القديم . وهكذا كان للكشف عن بقايا أطلالها فى أواخر القرن الماضى ، صدى متستحب ، وكتب عنها مكتشفها الأستاذ فلندرز بترى : أن الآثاريين لم يعودوا يتلمسون حياة الدولة الوسطى فيما صورته مناظر مقابرها وتحدثت عنه نقوشها فحسب ، وإنما غدا فى وسعهم كذلك أن يطرقوا الشوارع والأزقة التى مشى فيها أهلها ويريحوا فيها حيث كانوا يريحون .

شيدت هذه البلدة وفقاً لتخطيط مرسوم ، وخصصت كبار مساكنها للمهندسين والفنانين والمعماريين والمشرفين الإداريين ورؤساء الصناع الذين اشتركوا فى بناء هرم سنوسرت الثانى وملحقاته . كما قامت فيها استراحة ملكية كان الملك ينزل بها كلما تردد على منطقة هرمه . وأحاطت بالبلدة أسوار سميكة من اللبن ذات بوابتين . وانقسمت فى داخلها إلى حيين متمايزين : حى لمساكن الخاصة ، وحى آخر صغير لبيوت الصناع والعمال . وقامت مساكن الحى الكبير على مثال الدوارات الريفية الواسعة ، بحيث قيل إنه بلغت مساحة الواحد منها نحو ٢٧٠٠ متر (؟) ، وتضمنت البعض منها فى رحابه نحو سبعين حجرة وصالة ودهليزاً ومخزناً ، وتميز فى كل منها جناح لرب الدار وضيوفه ، وجنح للحريم وغرف النوم . وابتعدت عن الجناحين حجرات الخدم والمطابخ والمخازن . وتوزعت مساكن الخاصة هذه على جانبى شارع رئيسى متسع اخترقت أرضيته فى وسطها قناة ضيقة ، كسيت جوانبها بالحجر ومالت إليها أرضية جانبى الشارع حتى يسهل أن تنصرف إليها مياه البيوت ومياه المطر . وتفرعت من هذا الشارع الرئيسى طرقات ضيقة توسطت أرضياتها مجار مماثلة . ويعتبر مثل هذا الإجراء فى تصريف المياه شيئاً مبتكراً بالنسبة لعصره البعيد، أما حى العمال فتضمنت بيوتاً منخفضة ضيقة متواضعة متلاصقة ، واخترقه شارع رئيسى

بلغ عرضه مابين ثمانية وتسعة أمتار ، وتفرعت منه على جانبيه إحدى عشرة حارة بلغ عرض كل منها نحو أربعة أمتار(١) .

وعثر داخل بيوت اللاهون على كثير من أدوات الاستعمال اليومى ، مثل بقايا الصناديق والمقاعد والحصير والصنادل والمغازل ، ولعب الأطفال ، فضلاً عن بعض أدوات البناء وأدوات النجارة . غير أن أهم ماعثر عليه فيها هو مجموعة قصاصات من برديات كتبت بالخط الهيراطى وتضمنت موضوعات إدارية وتعليمية وطبية (٢) . وتعلقت القصاصات الإدارية منها بتعداد للسكان كان رب كل أسرة يذهب خلاله إلى مكتب حكومى يتبع ديوان الوزير فى منطقته ، فيدلى لموظفيه ببيان عن أفراد أسرته وأتباعه وأعمار أطفاله ، ثم يقسم على صدق بياناته ، ويستشهد على صحتها وصحة تسجيلها بعدد من الشهود . وينم هذا الإجراء عن رقى النظم الإدارية فى أيامه والحرص على التدقيق فى صحة بياناتها ، وكان يمكن أن يعين على تصور أعداد سكان مصر فى عصره لولا أن ما وجد من بردياته لايزيد عن قصاصات صغيرة تخص بلدة اللاهون وحدها .

وتضمنت بقايا البرديات ذات الصبغة الطبية جزءاً من بردية طبية لأمراض النساء ، وجزءاً من بردية بيطرية لعلاج عيون وأسنان العجول والكلاب . وفى هذه وتلك مايعنى وضوح التخصص فى العلاج ، إن لم يكن فى مهنة الطب نفسها ، كما يعنى روحاً رقيقة حانية دفعت أصحابها إلى العناية بحيواناتهم الأليفة وعلاجها .

وتضمنت قصاصات اللاهون التعليمية تمارين لتعليم الإنشاء وصيغ الرسائل كان التلاميذ ينسخون دروسها وينسجون على منوالها ، ثم تمارين حسابية ورياضية ، كان أمتع مافيها أخذها بطريقة التربيع والجذر المربع . وتضمينها مسائل تشبه معادلات الدرجة الأولى فى الجبر .

سد اللاهون : لعل أهم مايذكر من المشاريع العمرانية لعهد أمنمحات الثالث «نى ما عت رع» ، ولعهود الأسرة كلها ، هو مشروع الانتفاع بمنخفض الفيوم فى الرى وتوسيع رقعة الزراعة حوله . ولاتزال تفاصيل هذا المشروع يحوطها بعض

(١) Petrie, *Illahun, Kahun and Gurob.*, London, 1891; *and see*, Erman, Ranke, *Aegypten..*, 197.

(٢) *See*, Griffiith, *Heiratic Papyri from Kahun*, London, 1898.

الغموض نظراً لتضارب الروايات التى سجلها عنه المؤرخون والرحالة الكلاسيكيون[١] . ولكن الصورة العامة المحتملة له ، هى أنه قام على أساس توجيه جانب من فيضانات النيل إلى منخفض بحيرة الفيوم الواسعة التى كانت لاتزال تحتفظ بعذوبة مائها ، لرفع مستوى سطح الماء فيها حتى تنتفع به أكبر مساحة ممكنة من أراضى المدرجات الخصبة التى تحيط بها ، ثم الانتفاع ببعض مياهها المخزونة لرى الأراضى القريبة منها فى غير أوقات الفيضان .

وتم المشروع ببناء سد أو سدود ذات فتحات فى أضيق ممر ينفذ منه فرع بحر يوسف الحالى خلال جريانه إلى منخفض الفيوم ، فى جنوبه الشرقى عبر أخدود هوارة بين التلال الصحراوية شمال جبل سد منت . وكان ممراً يسمى «راحنة» بمعنى فم البحيرة ، ثم تحرف اسمه إلى لاهنة وأخيراً إلى لاهون وهو اسمه الحالى . وسمحت السدود الجديدة ذات الفتحات لرجال الرى المصريين بأن يوجهوا مياه الفيضان توجيهاً سليماً حين تجرى على الانخفاض التضاريسى التدريجى من ضفة النهر حتى بحيرة الفيوم ، وربما سمحت لهم من ناحية أخرى بإمكان تقليل أو وقف اتجاه الماء إلى البحيرة بعد الفيضان ، وتوجيهه عوضاً عنها إلى قناة أخرى تجرى إلى الشمال الشرقى منها . وأدى المشروع فى نهاية أمره إلى استصلاح نحو ستة وعشرين أو سبعة وعشرين ألف فدان جديدة ، كانت شيئاً كبيراً فى زمانها ، استغلتها الدولة للزراعة وإنشاء القرى والمدن الجديدة . ويصور أهمية هذا المشروع أن البلدان التى أنشئت معه ارتفعت نحو عشرين متراً عن مستوى القرى القديمة التى سبقت عصره ، وأن بعض بلدانه الجديدة التى جاورت البحيرة أصبحت مواقعها تبعد الآن عن ضفافها عدة كيلو مترات، بعد أن انكمشت مساحة البحيرة وانخفض مستوى مائها[٢] . وكان إرساب الطمى داخل وشمال أخدود هوارة قد عمل من قبل على تكوين مثلث خصب داخل البحيرة قامت عليه مدينة شدة (أى الفيوم) التى جاء ذكرها منذ نصوص الدولة القديمة . ولتوسيع رقعة هذه الأرض الخصبة كان ينبغى تقليل اندفاع الماء إلى منخفض الفيوم بما يسمح بسهولة إرساب الطمى والتقليل من سرعة تبخر

(١) Herodotus, II, 129; Strabo, XVII, 809 f.; Didorus, I, 51-52.

(٢) *cf.*, Pasarge, Fajum und Moeris-See, *Geogr. Zeitschrift*, XLVI, 1946, 353 f.; Ali Shafei, Fayum Irrigation, *Bull. de la Soc. Geog. Royale de l'Egypte*, XX, 1940; W.C. Hayes, *CAH*, I, ch. XX, 49 f.

ماء البحيرة ، ثم حماية هذه الأرض من طغيان الفيضانات المتتالية بعدد من الجسور وقنوات الصرف . وتحتمل بداية هذا المشروع فى عهد الملك سنوسرت الثانى بإنشاء سد على فم أخدود هوارة بجوار اللاهون لتنظيم اندفاع الماء ، ثم استكمل المشروع فى عهد أمنمحات الثالث .

وربط بعض المؤرخين الكلاسيكيين بين اسم أمنمحات الثالث الذى ذكروه باسم Lamarres (ومترادفات أخرى) ، وبناء ضخم فى منطقة الفيوم أطلقوا عليه اسم **لابيرنثوس** Labyrinthus ، ويختصر فى العربية عادة إلى اللابيرنث ، وهو اسم استعاروه من اسم قصر الحكم العظيم فى مدينة كنوسوس بجزيرة كريت .

ووصف هيرودوت المبنى المصرى بأنه تألف من طابقين ، وتضمن ثلاثة آلاف غرفة نصفها فوق سطح الأرض ونصفها تحتها . وتضمن اثنتى عشرة باحة مسقوفة بسقوف حجرية ، تتصل كل منها بالأخرى ، وتقوم على جوانبها أعمدة وتماثيل ، وقام إلى خلف المبنى هرم ضخم ، وأحاط به هو والهرم سور كبير . واعتبر هيرودوت اللابيرنث أجل من الأهرام المصرية نفسها ، واعترف بأن آثار الإغريق لو تجمعت كلها فى صعيد واحد لما طاولته فى فخامته ، وأضاف أن الكهنة سمحوا له بزيارة الأجزاء العلوية منه دون أجزائه السفلى ، التى أخبروه أنها تضمنت رفات اثنى عشر ملكاً ورفات التماسيح المقدسة (١) .

ووصف استرابون بوصف آخر ، فاعتبره بناء منيفاً يقف على قدم المساواة مع هرم صاحبه الذى يجاوره ، وذكر أنه تضمن قصوراً ذات طابق واحد وأبهاء احتفالات بلغ عددها عدد الأقاليم المصرية القديمة . واتصلت القصور والأبهاء بعضها ببعض بممرات وأقبية يتوه الغريب فيها، ويصعب عليه أن يتلمس طريقه بينها دون دليل يرشده ، ولعله لهذا أن سمى البناء باسم اللابيرنث أو قصر التيه . وسقفت كل وحدة من هذه الوحدات بحجر ضخم واحد . واعتاد ممثلو الأقاليم وكهنتها وكاهناتها أن يجتمعوا فى أبهاء المبنى، خلال الأعياد لتقديم القرابين وإقرار العدالة فى شئونهم الكبرى (٢) .

وعلى الرغم من هذا الوصف الممتع الذى ساقه هيرودوت واسترابون ، وساق

(١) Herodouts, II, 148.

(٢) Strabo, XVII,37.



مـثله ديودور وبلينى ، دلت البحـوث الأثرية على أن ذلك المبنى الذى دخل ذمـة الأساطير كان معبداً ضخماً أقيم بجوار هرم أمنمحات الثالث لأداء شعائره الأخروية . ولو أنه لايستبعد أن يكون أهل المنطقة قد استخدموه لأغراض أخرى بعد عهد صاحبه، مثل الاحتفال فيه بأعياد الفيضان وأعياد رب الفيضان ، وأعياد سوبك معبود منطقة البحيرة [1] .

تطور الأساليب الفنية :

تأثرت أساليب النحت فى عصر الأسرة الثانية عشرة بمدرستين فنيتين رئيسيتين : مدرسة فى منف رجعت بتقاليدها الفنية إلى تراث الدولة القديمة وخلطت الواقعية بالمثالية فى نحت تماثيل ملوكها ، فلم تكتف بأن تصور وجوههم وأبدانهم كما هى فى واقع أمرها ، وإنما تعمدت أن تضفى على هذه الوجوه والأبدان هيبة مطلقة وشباباً خالداً ، وتقاطيع مليحة متناسقة ، وانتصابة قوية كاملة ، وهيبة مترفعة متسامية . ثم مدرسة أخرى فى طيبة ، استحبت الأسلوب الواقعى الذى بدأ عفواً خلال عصر الانتقال الأول ، واهتمت بدراسة الوجوه ، وعبرت عن ملامح أصحابها كما هى فى واقع أمرها ، وحاولت أن تترجم عن خصائص الطبع والمزاج التى فرقت بين كل ملك وآخر من ملوك عصرها . وبلغت هذه المدرسة ذروة نجاحها فى منتصف عصر الأسرة الثانية عشرة ، حين عبرت بالملامح الجادة القوية فى وجوه تماثيل الملك سنوسرت الثالث ، عن شخصية عسكرية عنيدة قوية الإرادة بلغ من حزم صاحبها أن أعلن تبرأه من كل ولد له لاينهج منهاجه فى الحرب وحماية حدود بلاده وتوسيعها . بينما عبرت بالملامح الرصينة الطيبة فى تماثيل الملك أمنمحات الثالث عن شخصية هادئة مالت إلى حياة السلم واستحبت مشاريع العمران . وهكذا كان أمرها فى التمييز بين ملامح كل ملك وآخر من بقية ملوك الأسرة ، مع الاحتفاظ لهم جميعهم بطابع أسرى موروث كان من أوضح مظاهره بروز عظام الوجنتين .

وعلى نحو ما درس الفنانون خصائص وجوه ملوكهم ، ليترجموا بها عن واقع حياتهم ، جددوا فى أوضاع تماثيلهم وعبروا بها عن حقيقة الصلات التى اعتقدوا

---

(١) Kees, *op. cit.*, 225; K. Michalowski, *JEA*, 1968, 219 f., A.B. Lloyd, The Egyptian Labyrinth, *JEA, 65* (1970), 81 f.; L. Foti, in *Annales Univ. Scientiarum Budapestiensis*, 15 (1974), 3-15.

بوجودها بينهم وبين أربابهم . فمثلوا الملك سنوسرت الثالث رجل الحرب العنيد بملامحه الجادة المعتادة ، ولكن فى لحظات خاصة لانت فيها شدته ، ورق فيها عناده، ووقف فيها على هيئة المتعبد أمام ربه الذى يخشاه وينهج فى حكمه وعدله بما يرضاه ، فأرسل يديه متراخيتين على ساقيه فى تقى وخشوع كريم . ونحتوا تماثيل ملكية أخرى ، بقى منها مايمثل الملك جالساً يضع تمثال ربه على ساقيه ، ومايمثله جاثياً على ركبتيه يقدم آنيتين على يديه قرباناً لخالقه .

ويغلب على الظن أنه شجع المدرسة الطيبية على أسلوبها هذا ، انفعال فنانيها بالتطورات السياسية التى مست أوضاع الملكية فى عصرهم ومن قبله فى عصر الانتقال الأول . وهى تطورات كان من أوضح مظاهرها أن الملوك أصبحوا يعترفون بواجباتهم علانية إلى جانب حقوقهم ، وأصبح منهم من يتعرض للقتل فى عقر داره، ويصرح بعجزه وهو وحيد أمام كثرة خصومه . وأصبح بعضهم يرضيه أن يوصف بأنه يعمل بيديه يقود جيشه بنفسه ويقاتل مع المحاربين ويكافح فيما يكافحون فيه . وترتب على هذه التغييرات كلها أن أصبح الفنانون يعتبرون أن مظاهر الحياة الفعلية الصالحة التى عاشها ملوكهم تكفيهم للتعبير عن مثاليتهم ، وأن إظهارهم بمظهر الخاشعين لربهم لن يقلل من مكانتهم .

وتأثرت تماثيل كبار الأفراد فى عصر الأسرة الثانية عشرة بروح عصرها ، وخضع بعضها للطابع الإقليمى إلى جانب المدرستين الفنيتين الرئيسيتين اللتين تأثرت بهما تماثيل الملوك . فقد مر بنا كيف توافر لكبار حكام الأقاليم منذ أواخر عصر الأسرة الحادية عشرة وخلال النصف الأول من عصر الأسرة الثانية عشرة ثراء واسع هيأ لفنون أقاليمهم نصيباً من الازدهار . وكان نصيب فن النحت من هذا الازدهار الإقليمى نصيباً قليلاً ، فخرجت تماثيله لاتخلو من خشونة نسبية ، وإن دلت تقاطيعها على سحن إقليمية أو ريفية صادقة صميمة (١) .

ولم يكن ثراء حكام الأقاليم خلال عهود الأسرة الثانية عشرة بغير نتائج حضارية أخرى ، فقد تضمنت مناظر مقابرهم صوراً تدل على أن اهتمام مجتمعهم بأمور الدين والآخرة لم يصرفه عن التماس متع الدنيا ومرحها ما استطاع سبيلاً إليها.

---

(١) راجع عبدالعزيز صالح : *الفن المصرى القديم* - فى تاريخ الحضارة المصرية - ج١ - القاهرة ١٩٦١ - ص٣٣٨-٣٤٣ .

ومن أمتع مناظرها على جدران مقابر ولاة إقليم الوعل ومنعة خوفو في جبانة بنى حسن ما صور رياضة البدن ، الخفيفة منها والعنيفة . وكان للرياضة الأولى منهما تمارين تشبه بعض تمارين الجمباز الحالية فى أوضاعها بل وفى ملابس لاعبيها [١]، ومن أطرفها مايصور غلاماً يعتمد على ناصية رأسه ويحفظ توازنه في استقامة كاملة بغير أن يرتكز على يديه أو كفيه [٢] . كما كان منها مايصور أوضاعاً مختلفة للعب البنات بكرات اليد الصغيرة [٣]، وصورت الرياضة العنيفة تمارين المصارعة وحمل الأثقال وما يشبه القفز الطويل . وكانت المصارعة هي الأكثر شيوعاً ، بحيث صورت لها إحدى لوحات المقابر ٢١٩ وضعاً لايكاد يتشابه وضع منها مع الآخر ، وذلك مما يعني أنه كانت قد استقرت لها قواعد وأصول منذ ماقبل أوائل الألف الثاني ق.م. ، وأن المصورين والهواة كانوا يستمتعون بها ويدركون مابين كل وضع من أوضاعها وبين بقية الأوضاع من اختلاف . ولم تكن مبارياتها تستهدف حب الغلبة دائماً بقدر ماتستهدف إظهار الفن والمران والترفيه أحياناً . ففي بدايتها يقف المتباريان في مواجهة بعضهما في سماحة ، بحيث يتمهل أحدهما حتى يفرغ زميله من عقد حزامه حول خصره ، ثم يأخذان معاً في مباراة مهذبة، وإن تكن جادة مجهدة في الوقت نفسه [٤]. وقد ظهر من مبادئ المصارعة في مناظر أخرى لاحقة من عصور الدولة الحديثة مايفهم منه أن المباراة كانت تبدأ بأن يشد كل لاعب على يد منافسه بيسراه ويجذب عنقه بيمناه حتى يتبين قوة غريمه ويعجم عوده ، وأنه كان من شروط الفوز إجبار المغلوب على لمس الأرض بثلاث نقط مثل اليدين والركبة ويتساوى حينذاك إن كان قد انكفأ على بطنه أم ألقى على ظهره أم تمدد على جنبه . وتعتبر هذه المناظر من أقدم المصادر الرئيسية لتاريخ رياضة المصارعة في العالم . ومن أساليب حمل الأثقال التي صورتها رياضة الدولة الوسطى رفع غرارة مملوءة بالرمل حتى ثلاثة أرباعها بيد واحدة إلى أعلى ، مع محاولة اللاعب الاحتفاظ بها في وضع رأسي ما أمكن [٥] . كما كان من أساليب القفز الطويل أن يقفز اللاعب عالياً على امتداد ظهر

(١) J. G. Wilkinson, *A popular account of the Ancient Egyptians*, 1851, vol., I, Fig. 203.

(٢) Newberry, *Beni Hasan*, II, pl. XVI.

(٣) *Ibid.*, pls., IV, XIII.

(٤) *Op. cit.*, pls., V. XXXII.

(٥) *Ibid.*, II, pl., VII.

ثور واقف ؛ أي فيما بين مؤخرته وبين قرنيه ، في حين يمسك زملاؤه بقرني الثور وأطرافه حتى لايتحرك فيؤذيه (١) .

النشاط الحدودي والسياسة الخارجية :

قامت سياسة عصر الأسرة الثانية عشرة على أساس تغليب علاقات الود مع الدول المجاورة في الشام والعراق وجزر بحر إيجه ، واتخاذ الصلات التجارية معها سبيلاً إلى التأثير الحضاري فيها . كما قامت على أساس توطيد النفوذ وتوسيع الإشراف والاستثمار على امتداد الحدود في الغرب والجنوب ، أي في الصحراء الغربية والنوبة مع إيثار السلام المسلح القائم على التحصين واليقظة في الناحيتين ، وعدم الالتجاء إلى استخدام القوة فيهما إلا حين الضرورة (٢) .

وبدأ تنفيذ سياسة السلام المسلح منذ عهد أمنمحات الأول مؤسس الأسرة ، فيذكر له من مشاريع عهده الدفاعية أنه شيدت في أيامه تحصينات طويلة، امتدت على الحدود الشرقية والشمالية الشرقية وسميت في مجملها باسم «أسوار الوالي» (٣) . كما كان من أثر تأمين سبل التجارة الجنوبية في عهده أن امتد التبادل الحضاري والإشراف السياسي المصري في بلاد النوبة حتى كورسكو (جنوبي دنقلة)(٤) ، وازدهر كذلك في «كرما» التي أطلقت النصوص على أسوارها اسم «أسوار أمنمحات المبجل» (٥) .

وذادت مصر عن حدودها الجنوبية في عهد سنوسرت الأول بعدة حملات حربية ، وبزيادة حصونها الجنوبية ضد هجرات زنجية دفعت أمامها جماعات سودانية (؟) إلى منطقة النوبة فأشاعت الاضطرابات فيها (٦) . وأطلقت النصوص

(١) *Ibid.*, pl. XXXI.

راجع عبدالعزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة – القاهرة ١٩٦٦ – ص١١٣–١١٦ .

(٢) Also, W. A. Ward, *Egypt and the East Mediterranean World*, 2200-1900 B. C., ..., 1971 (rev.in *JEA*, 61 (1975), 273-277.

(٣) *Sinuhe*, 42 *of; JEA*, I, 105; Anthes, *ZAeS*, LXV (1936), 108 f.

(٤) Breasted, *op. cit.*, I, 472-473; *ZAeS*, XX, 30.

(٥) جون ولسون : الحضارة المصرية – معرب بالقاهرة – ص٢٣٥ .

(٦) Junker, *JEA*, VII, 121 f.; G. Reisner, *Excavations at Kerma ; Harvard African Studies*, JV-V, 556, Gardiner, *op. cit.*, 134.

المصرية اسم «كاش» منذ ذلك الحين على منطقة النوبة العليا ، التى تمتد من الشلال الثانى ناحية الجنوب ، وقد حرف هذا الاسم فيما بعد وفى نصوص من التوراة إلى «كوش» (١)، «واوات» ، وتتابعت بعثات الاستثمار حينذاك إلى مناجم الذهب فى المنطقتين .

وعين سنوسرت الأول حكاماً مصريين (شماليين) على المدن الكبرى ببلاد النوبة ، وكانت أكبر هذه المدن هى مدينة «كرما» التى تقع خلف الشلال الثالث ، وتعتبر الحد الشمالى للمناطق الزراعية فى الجنوب كما تعتبر سوقاً رئيسياً لتجارة القوافل التى تخرج منها غرباً إلى واحة سليمة ثم تتجه إلى درب الأربعين ، أو تتجه منها شمالاً حتى الشلال الثانى(٢). واشتهر من ولاة سنوسرت الأول على كرما الوالى «حعبى چفاى» وحظى بالسلطة والثراء فى عصره فتلقب بلقب الرئيس الأعلى للجنوب، ورئيس زعماء الجنوب ، ولم يتردد فى أن يتغنى بمكانته ويفخر بنفسه فى نصوصه ، فذكر أن علماء الدنيا كانوا يقدرون سياسته ، وأنه كان نجماً هادياً لأمثاله ومرشداً لمن هم أكبر منه .. ثابت الفؤاد .. يخمن الأمور المستقبلة ويعرف مافى الصدور ، فصيح اللسان لبق الكلام ، ... اهتدى بعقله إلى سبيل الحسنى ، وعرف دائماً كيف يقدر خطواته .. (٣) . وشاء حظ حعبى چفاى أن يتوفى فى كرما ، وألا يدفن فى قبر فخم شاده لنفسه فى أسيوط ، فدفنه أهل كرما وفق تقاليدهم المحلية، وقيل إنهم وسدوا فى الممر المؤدى إلى حجرة دفنه مابين مائتين وثلاثمائة من أتباعه وخدمه النوبيين (ولسنا ندرى هل تم ذلك فى وقت واحد أم على فترات أصبح فيها مكان المقبرة مكاناً مقدساً) ، وضحوا له بألف ثور وضعوا رؤوسها حول مقبرته (٤). واشتهرت مقبرته فى أسيوط بما نقش فيها من صيغ العقود، التى أبرمها مع عدد من الكهنة للقيام بالشعائر الدينية له بعد وفاته(٥) .

---

(١) *Ibid*, 134.

(٢) Reisner, *op. cit.*, 56; *ZAeS*, LII, 34 f. ; Saeve Soderbergh, *Aegypten und Nubie*, 103 f.

(٣) Sethe, *Urkunden des Mittleren Reiches*. .... Nr. 212 f.

(٤) Reisner, *Bull of the Mus. of Fine Arts*, Boston, XIII, 72 f. ; and see, JEA, V, 79 f.; Griffith, *ibid.*, X, 340 f. ; Dunham, *ibid.*, 1958, 82 f.

(٥) See for example, A. Théodorides, in *Mélanges Pirenne*, 1973, 439-466.

وصورت جانباً من علاقات مصر بمناطق الشام فى عهدى أمنمحات الأول وسنوسرت الأول ، قصة تسجيلية أدبية عرفت باسم قصة «سنوهى»، وهى قصة رجل من بلاط أمنمحات ومن المتصلين بأجنحة بناته ، صحب سنوسرت خلال ولايته للعهد فى تجريدة عسكرية إلى الصحراء الشمالية الغربية الليبية ، وسمع خلال استعداده للعودة بنبأ وفاة أمنمحات ، كما سمع لغطاً فهم منه وجود أخذ ورد بين الأمراء ، واحتمل معه قيام مشاكل على ولاية العرش لايدرى كيف سيكون موقفه منها ، فآثر البعد بنفسه ، واعتزل الجيش خفية ، وساقته قدماه إلى رحلة طويلة بلغ بها مشارف لبنان حيث طالت إقامته بجوارها سنوات طويلة ، وأقدم فيها على مغامرات كثيرة ، ثم حن إلى وطنه وعاد إليه شيخاً كبيراً ، وسجل قصته نثراً شائقاً [١]، نستعرضه فيما بعد فى فصل الأدب . ويكفى أن نستشهد من قصته هنا ببعض دلالاتها التاريخية ، ومنها أن فكرة المصريين عن خشونة بدو الصحارى الشمالية الشرقية وشغبهم لم تمنع سنوهى من أن يعترف لبعضهم بالكرم والنجدة ، ولم تمنع العواصم المصرية من أن تستقبل وفوداً منهم للتجارة أو للزيارة فيتعرفون فيها شخصياتها البارزة التى يسمعون عنها . ويفهم من القصة كذلك أن اللغة المصرية ، لغة سنوهى ، كانت معروفة لبعض أهل الشام ، وأن الرسل والتجار المصريين كانوا يترددون على نواحى لبنان حيث أقام ، ويمرون بها إلى ماهو أبعد منها . وأن حكام الشام كانوا على اتصال بمجريات الأمور فى مصر ويحبون أن يستزيدوا من أخبارها . وأن سنوهى اشترك على رأس فرقة من أهل المنطقة التى نزلها فى صد جماعات سمى رؤساءهم باسم «حقاو خاسوت» بمعنى حكام البرارى ، وهو الاسم نفسه الذى أطلقه المصريون فيما بعد على زعماء الهكسوس ، مما قد يعنى أن بلاد الشام بدأت تتعرض منذ ذلك الحين لهجرات أجنبية عنها ، ليس من المستبعد أنها كانت تمثل أسلاف الهكسوس ، وإن كانت هذه الهجرات لاتزال حينذاك قليلة ضعيفة .

وترتب على جهود أمنمحات الأول ورجاله وجهود سنوسرت الأول ورجاله أن غلب السلام والأمن والرخاء على أحوال مصر وعلى حدودها ومسالك تجارتها وعلاقاتها الخارجية فى عهدى كل من الملكين أمنمحات الثانى (نوب كارع)

---

(١) A.M. Blackman, *Middle Egyptian Stories*, 1932, I f.; Gardiner, *Notes on the Story of Sinuhe*, 1916; J.J. Clere, in *Mélanges offerts a René Dussaud*, 1939, II, 829 f.; H. Goedicke, *JEA*, 1957, 77 f.; 1965, 291.

وسنوسرت الثانى (خع خبر رع) (بين ١٩٢٩ - ١٨٧٧ ق.م.) . وأكدت الآثار المكتشفة عمق الصلات بين المصريين وأهل الشام فى ذلك الحين ، فعثر فى نواحى فلسطين وسوريا وفينيقيا ، فى مثل مدن جزر ومجدو وجبيل ورأس الشمرا وقطنة وعطشانة وغيرها ، على تماثيل وأوان وجعارين وأختام نقشت بأسماء أفراد مصريين، ترددوا على بلاد الشام وتعاملوا مع أهلها ، وكان منهم رسل من البلاط الفرعونى وحكام أقاليم وأفراد عاديون لعلهم من التجار عمل بعضهم لحسابه الخاص وعمل بعضهم الآخر لحساب دولته وملكه (١) .

وتوالت إهداءات الملوك المصريين إلى أمراء الشام الموالين لهم فى مقابل ماكانوا يتلقونه منهم من هدايا وتعاون . ومن هذه الإهداءات أوان من حجر السبج (الأوبسديان) الأسود اللامع ذات حواف مذهبه أهديت إلى أحد أمراء جبيل فى عيد توليته إمارة بلده (٢) . وآثار دقيقة لأميرات مصريات ، يغلب على الظن أنهن أهدينها إلى صديقاتهن من الأميرات الشاميات ، ومن أطرفها تمثال صغير على هيئة «أبو الهول» للأميرة «إتا» ابنة أمنمحات الثانى عثر عليه فى قطنة شمال حمص (٣) ، وهو أقدم تمثال معروف من نوعه يمثل سيدة مصرية فى هيئة «أبوالهول» (وراجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) ، ثم تمثال صغير آخر للأميرة «خنمة نفرة حجة» أخت الملك سنوسرت الثانى .

وكان لهذه الصلات أثرها فى رواج التجارة، كما كان لها أثرها فى أساليب الفن والصناعة ، بل وفى أمور الدين . وظهرت حينذاك صناعة البرونز المصرية لأول مرة ، وكان المصريون يستوردون القصدير اللازم لها عن طريق موانىء فينيقيا(٤) . وقد عثر منه على شفرات ذات مقابض مذهبة فى مقابر اللاهون بمصر

(١) J. Wislon, Egyptian Middle Kingdom at Megiddo", *AJSL*, 1941, 235f.; P. Montet, *Byblos et l'Egypte*; Dunand, *Fouilles de Byblos*, 1939; Sidney Smith, *Chronique d'Egypte*, 1940, 75 f.

(٢) P. Montet, *op. cit.*, pls. 88-89; *Syria*, 1922, pl. 67.

(٣) Porter and Moss, *Topographical Bibliography*, VII, 392; see also, *Rev. d'Eg.* 1967, 29 f.

(٤) A. Lucas, *JEA*, XIV, 97 f.

الوسطى[1]،كما عثر منه على أوان صغيرة ، أهداها ملك مصرى إلى أحد حكام جبيل فى لبنان ؛ مما يعنى أن المصريين عرفوا صناعته قبل عصر الهكسوس على عكس الرأى الشائع الذى جعله من تجديدات الهكسوس ، وإن يكن ذلك على نطاق ضيق . واستغل الصناع فى الشام ماكان يصلهم من أدوات الترف المصرية فقلدوها ، وعثر فى مدنهم على حلى مذهبة وأسلحة جمعت بين الطراز المصرى والطراز الشامى وصنعتها أيد فينيقية، قلدت عليها صور الكتابة المصرية .

وعثر على تماثيل صغيرة لمعبودات مصرية فى مدن الشام ، كما ظهر فى أسماء عدد قليل من النساء فى مصر اسم بعلة جبيل، التى اعتبرها المصريون صورة من صور ربتهم حتحور ، مما يعنى نوعاً من التسامح والتبادل الدينى بين الفريقين .

ولسنا ندرى إن كان النفوذ السياسى المصرى قد شمل بلاد الشام حينذاك بصورة فعلية أم لا ، ولكن يغلب الظن أن استمرار علاقات مصر معها قد خصها بنوع من الحماية وسمح لها بالازدهار ظله ، وخفف عنها احتمالات التوسع من دول العراق[2] .

واحتفظت مناظر مقبرة خنوم حوتب حاكم إقليم الوعل فى عهد سنوسرت الثانى بتصوير فريد لجماعة من الأموريين أو الكنعانيين وفدوا عليه . ولم يكن وفود أمثالهم من الساميين إلى مصر جديداً فى تاريخها ، ولكن الجديد فيه هنا هو تصويرهم فى مجموعات أسرية بخصائصهم القومية . وقد بلغ أفراد المجموعة التى وفدت على ختوم حوتب سبعة وثلاثين فرداً من شباب وشيوخ ونساء وأطفال ، وتزعمهم شيخ يدعى «إبشا» [3] .

وسوف نعرض لخصائصهم الجنسية وملابسهم القومية ، ومايحتمل أنهم كانوا يقومون به من أعمال ، فى بحثنا عن حضارات أهل الشام . ويعنينا أن نشير هنا إلى أنه يصعب أن نتصور أن جماعة إبشا قد هدفت حين خروجها من ديارها فى فلسطين أو فيما ورائها ، أن تقصد إلى إقليم الوعل بمصر الوسطى بالذات وهو البعيد عن موطنها ، وإنما يغلب على الظن أن التجاءها إليه أتى عفواً ، وكان مرحلة من مراحل

(١) Winlock, *The Treasure of El-Lahun*, 6274.

(٢) See also, Kees, *op. cit.*, 138.

(٣) Newberry, *Beni Hasan*, I, pls. XXVIII, XXX-XXXI; Wresz., *Atlas*, II, Taf. 6.



تنقلاتها فى سبيل العيش هنا وهناك . ويغلب على الظن أيضاً أن جماعات أخرى أمثالها كانت تعيش فى مراكز متفرقة من شرق الدلتا ومايليه من مناطق الحواف ، وهى مناطق أقرب إلى مواطنها الأصيلة وأقرب إلى بيئتها الطبيعية .

واحتفظت نصوص مصرية من الدولة الوسطى بأسماء أمورية وكنعانية كثيرة، عمل بعض أصحابها فى مناطق المناجم والمحاجر المصرية فى سيناء ، وعمل بعضهم الآخر أتباعاً وإماء فى المعابد والبيوت المصرية (١) .

ولم تقتصر اتصالات مصر الخارجية حينذاك على بلاد الشام بأجزائها والنوبة بقبائلها وبلاد بوينة وماهو قريب منها ، وإنما امتدت واتسعت مع أقطار أخرى عرفها المصريون منذ عصور بعيدة . فقد عثر تحت أرضية معبد مصرى فى بلدة الطود جنوبى الأقصر على أربعة صناديق صغيرة ، تضمنت تمائم من اللازورد وأختاماً أسطوانية عراقية ذات أسلوب يرجع إلى عصر أسرة أور الثالثة ، وتماثيل ذات طراز بابلى ، ومصوغات ذات طراز إيجى (٢) . وعثر فى منطقة هوارة ومناطق مصرية أخرى متفرقة على أختام وأوان ذات زخارف تشبه زخارف الحضارة الكريتية المينوية الثانية (٣) . كما عثر بالتالى على مصنوعات مصرية متنوعة وتماثيل بنقوش مصرية فى عواصم جزيرة كريت (٤) . وكانت الموانئالفينيقية فيما يبدو من مراكز انطلاق الاقتصاد المصرى إلى جزر إيجه وكريت ، وربما تعاون مع المصريين فى عمليات التسويق هنا وهناك تجار وملاحون من الفينيقيين (٥) .

---

(١) *Archiv Orientalni*, VII 1935 t.; Lange-Schaefer, *Grab und Grabsteine*, I 196; II, 177-178; F.L. Giiffith, Kahun..., 12, 10; W.C. Hayes, *A Papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum*, 1955; G. Posener; *Syria*, 1957, 145-63.

(٢) Vandier, *Syria*, 1937, 174 f., pls. XXVIII-XXIX; Bisson de la Roque, *Tod.*, 113 f.

(٣) Hall, *JEA*, I, 110; Peot, i. XVII, 250 f. Glotz. *La civilsation égéene*, 1923, 47f., 235 f.

(٤) *Ibid.*, Porter and Moss, *op. cit.*, VII, 405; Gardiner, op. cit., 137.

(٥) *Ibid.*, 132; Kees, *op. cit.*, 139.



وهناك مايدفع إلى الاعتقاد بأن الصلات التجارية بين مصر وبين كريت وغيرها من جزر بحر إيجه لم تخل من أثر فى الحياة الثقافية للجانبين ، فقد أشار مصرى مثقف من ذلك العصر إلى أنه كان يمسك «قلمى الحاونبو» [١] ، ربما بما يعنى أنه كان يعرف خطى الحاونبو ويكتب بهما . وكان لفظ «الحاونبو» هو الاسم المصرى لسكان جزر الحوض الشرقى من البحر المتوسط . وإذا صح هذا التفسير أمكن أن يدل على أحد أمرين : إما وجود جاليات إيجية تجارية فى العواصم المصرية والموانىء المتصلة بها فى الشام ، واتصال الموظفين المصريين بها ، ومعرفتهم بكتابة أهلها ، أو وجود مترجمين مصريين فى البلاد الفرعونى كانوا يقرأون الرسائل الإيجية التى ترد إلى مصر ويردون عليها بلغة أهلها . وتدعو عبارة قلمى الحاونبو إلى تذكر وجود مرحلتين للخطوط الإيجية (Linear A & Lirear B) و، إن كان يبدو أن ظهور المرحلة الثانية منهما كانت متأخرة عن عصور الدولة الوسطى فى مصر .

وواجهت مصر فى عهد سنوسرت الثالث (خع كاورع) تحركات مريبة قرب حدودها الشمالية والجنوبية فاضطر الرجل إلى الاستعانة فى سياسته الخارجية بالقوة المسلحة فى سبيل تأمين الحدود وتأمين سبل التجارة وبث الاحترام فى نفوس الجيران. وترأس زغلب حملاته بنفسه ، فقادها إلى أواسط فلسطين، وكانت له معركة فيها قرب سكيم أو سشم الحالية [٢] .

وكانت عواقب سياسة السلام التى نهجتها مصر فى عهدى سلفيه أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى ، أشد خطراً فى الجنوب عنها فى الشمال ، فقد ظلت هجرات الزنوج التى بدت بوادرها منذ عهد سنوسرت الأول تدفع أمامها قبائل سودانية (؟) إلى أراضى النوبة ، وحاولت هذه أن تسيطر على طرق القوافل بين النوبة وبين مصر، وربما نجحت فى دفع الحدود المصرية ناحية الشمال إلى مايقرب من الشلال الثانى ، فحاربهم سنوسرت الثالث بقواته أربع مرات ، ومهد لحروبه معهم بالعمل على شق فتحة واسعة بين صخور الشلال الأول ، بلغ عرضها ٢٠ ذرعاً ، وبلغ طولها ١٥٠ ذراعاً وبلغ عمقها ١٥ ذراعاً [٣] ، لتيسر انتقال أسطوله وجيشه وتيسر وصول الإمدادات إليه . وأزاد رجاله الحصون فوق المرتفعات وعلى ضفتى النيل وفوق

(١) Petrie, *Kahun*, 42 f.; Illahun, 9f.

(٢) Breasted, *op. cit.*, I, 676 f.; Gardiner, *op. cit.*, 132.

(٣) Berlin 14753; K. Sethe, *Lesestucke*, 85.

الجزر، من أسوان حتى وادى حلفا [1] . وتخلفت من هذه الحصون بقايا حصنين كبيرين فى سمنة وقمة على جانبى النيل شمال وادى حلفا . وقام كل حصن منهما فوق ربوة عالية ، وبلغ ارتفاع جدرانه مايتراوح بين عشرة أمتار وبين اثنى عشر متراً ، وأحاطت به الأبراج ، وتضمن فى داخله مساكن الجند ومعبداً صغيراً يؤدى الجند شعائرهم فيه لأربابهم المصريين وبعض أرباب النوبة [2]. وترك سنوسرت فى معبد حصن سمنة نصيبين من الجرانيت سجل كاتبه على أحدهما سياسته الحدودية ، وسجل على الآخر تفاصيل حروبه وشجاعته فيها ، فذكر فى نصوص النصب الأول أنه أقامه فى العام الثامن من حكمه ليعين به حدوده الجنوبية ، وأمر ألا يتعداه زنجى قط عن طريق البر أو عن طريق النيل ، إلا من ابتغى التجارة فى سوق إقن الكبير ، أو أوفد فى مهمة ، فأولئك سوف يعاملون بالحسنى (مما يتفق مع قواعد المعاملة الدبلوماسية) ، ولكن بغير أن تتعدى سفنهم شمالى سمنة [3] .

وحظى الرجل بنصيب كبير من تمجيد شعبه ، ودبج الشعراء قصائدهم فى مدحه ، واحتفظت الأجيال بذكراه ، فظلت بعض حصون النوبة تسمى باسمه ، وذكره تحوتمس الثالث أعظم الملوك المصريين المحاربين بالخير، بعد نحو أربعة قرون من وفاته وأقام له نصباً باسمه . وعندما وفد المؤرخون الإغريق والرومان إلى مصر سمع بعضهم عنه حكايات شائقة وخلطوا بين أعماله وأعمال سنوسرت الأول وأعمال رمسيس الثانى ، وضخموا فيها باسم سيزوستريس ونسبوا إليه فتوحات واسعة فى آسيا الغربية وأوروبا الشرقية . وذكر المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى أنه اهتم بتسجيل أحوال الناس أينما ذهب ، وأنه حدد جماعات النبلاء والنبيلات على النصب ، ثم ذكر ديودور الصقلى أنه تحقق من أن سيزوستريس هذا أو سيزوسيس نشأ على طبيعة الحرب منذ صغره ، وأنه تحبب إلى رعيته ليساندوه فى مشاريعه ، واتخذ بطانة من أترابه الأشداء ، وفتح بلاد العرب والحبشة والهند وبلغ البحر الأسود ووصل تراقيا وجعلها حدود ملكه [4] . وليس فى كل هذا بطبيعة الحال مايقطع بالتسليم به ، نظراً لعدم العثور على أدلة مادية تزكيه ، ولكن حسبنا منه أن أعمال المشاهير

(١) Saeve Soderbergh, *op. cit.*, 89 f.

(٢) Clarke, *JEA*, III, 174 f.

(٣) Berlin 14753; Sethe, *op., cit.*, 83 f.; L. V. Zabkar, *JEA*, 58 (1972), 83-90.

(٤) Diodorus, I, 53 f.

والشجعان من الرجال كانت تخلد وتتضخم أنباؤها مع الزمن ، حتى تشبه الأساطير وتصبح مثاراً لفخر خلفائهم .

* * *

غلب السلام على عهد أمنمحات الثالث (نى ماعت رع) فى الخارج وفى الداخل ، فاتسع نشط الدولة فى استغلال موارد الصحراء الطبيعية من معادن وأحجار على أيامه . واتسعت صلات مصر التجارية والثقافية بمناطق الشام ، لاسيما دولتى الميناءين التجارين جبيل وأوجاريت ، وعثر فى مقابر أمراء هاتين الدولتين وغيرهما من دويلات الشام على آثار مصرية وصلتهم على هيئة الهدايا من أمنمحات الثالث وخلفه أمنمحات الرابع (١) . وعثر لأمنمحات الثالث على تمثال على هيئة «أبوالهول» أقيم لدى مدخل معبد الإله بعل فى أوجاريت ؛ مما يتفق مع أسلفناه من أن الصلات التجارية كانت تعقبها صلات حبية ودينية فى أغلب الأحوال . وكان الحرص على استمرار العلاقات الطيبة بين الشام ، حرصاً مشتركاً بين الطرفين ، ولم يعتمد على دافع واحد ، فمصر على سبيل المثال لم تبن علاقاتها ببلاد الشام على أساس الرغبة فى فتح أسواق فيها لتصريف مصنوعاتها فحسب ، ولا على أساس الرغبة فى استيراد أحسن أخشابها وزيوتها فحسب ، ولكن كان يعنيها كذلك أن تستورد ماكان يتجمع فى موانيها من منتجات الحوض الشرقى للبحر المتوسط من فضة وزيوت ومعادن وأحجار كريمة ، وأن تستورد ماكان يتجمع فى أسواقها الداخلية من منتجات بلاد النهرين وإيران والأناضول وشبه الجزيرة العربية ، ويعنيها أن تظل روابطها بفلسطين قوية ، باعتبارها العصب الرئيسى لتجارتها البرية مع مايليها من بلاد الشام .

وعلى نحو ماحرصت مصر على بقاء شرايين اتصالاتها بجيرانها مفتوحة ومأمونة ، وجدت المدن والدويلات الصغيرة فى فلسطين وسوريا وفينيقيا فى مصر خير عميل للتبادل التجارى الواسع معها ، ومصدراً رئيسياً للتبادل الحضارى بمعناه الواسع . وكان يعنيها على وجه الإجمال أن تظل علاقاتها بمصر القوية الغنية طيبة ، لولا مشاكل الحدود التى كانت تنشب بين الحاميات المصرية وبين بدو الصحارى الفلسطينية من حين إلى آخر . ولم تأب مصر من ناحيتها أن تفتح مجالات العمل أمام الراغبين فيه من شيوخ جنوب الشام ورجالهم فى عمليات استغلال الفيروز فى

(١) Wilson, JASL, VIII, 1941, 235; Porter and Moss, op. cit., VII, 386.

شبه جزيرة سيناء ، ولم تأب أن تفتح أمام الراغبين منهم فى الاستقرار فيها باب الوظائف فى عاصمتها ذاتها [١] .

* * *

أعقبت اسم أمنمحات الثالث ثلاثة أسماء ملكية من أسرته ، لازال النقاش قائماً حول ترتيب أصحابها وعهودهم وطريقة حكمهم ، وهى أسماء : أمنمحات الرابع (ماعت خرورع) ، وحور آوت إب ، وسوبك نفرو . وندع مناقشة أمر الاسمين الأولين إلى كتابنا المتخصص فى حضارة مصر القديمة وآثارها ، ونكتفى هنا بالاسم الأخير منها ، وهو اسم ملكة كتب بمترادفات عدة ، مثل: سوبك كارع، وسوبك نفروع [٢] ، ولعلها كانت الابنة الكبرى لأمنمحات الثالث واشتركت فى الحكم معه ثم مع أخيها أمنمحات الرابع ، ولما مات أبوها ، ثم أخوها بعد فترة حكم قصيرة ، انفردت بالعرش واعتمدت على مكانتها وشهرتها منذ عهد أبيها ، وحاولت أن تهتدى بسياسته فى السلام والتعمير ، على اعتبار أنها السياسة المناسبة لحكم الملكات ، لولا أن حظها العاثر شاء أن يختل الأمن فى عهدها ، وألايكون فى سوابق حكم الملكات المصريات مايشجع على الإخلاص لحكمها ، وأن تظهر بوادر هجرات شعوبية وقلاقل وراء الحدود الشمالية الشرقية ، فمضت أيامها بغير آثار هامة تذكر لها ، ولم يطل حكمها أكثر من ثلاثة أعوام ومابين الأربعة والعشرة شهور ، وانتهى بنهاية عهدها عصر الأسرة الثانية عشرة فى عام يتراوح بين ١٧٨٦ و١٧٧٨ ق.م. [٣] .

---

(١) Archtv Orientalni, VII, 1935, 384 f.; Chronique d'Egypte, 1950, 50 f.

(٢) Newberry, JEA, XXIX, 1943, 74-75; Gauthier, L.R., I, 341.

(٣) Edgerton, JNES, I, 307 f.; Saeve Soderbergh, JEA, XXXVII, 1951, 53; and see Gardiner, op. cit., 125 (1786 B.C.).



الفصل الثامن

عصر الانتقال الثانى (أو عصر اللامركزية الثانية)

أولاً - عصر الأسرة الثالثة عشرة

(أ) فى نصفه الأول :

انتقلت مقاليد الحكم فى مصر من الأسرة الثانية عشرة إلى أيد حاكمة جديدة فى نحو أواخر الربع الأول من القرن الثامن عشر ق.م. بوسائل غير معروفة ، وتعاقب على عرشها ملوك لم يستطع كاتب بردية تورين التاريخية أن ينسبهم إلى بيت معين أو عاصمة واحدة . ويبدو أنهم كانوا من بيوت عدة ، استحب بعضهم مدينة طيبة عاصمة له ، واستحب بعضهم الآخر مدينة إثت تاوى عاصمة له ، وانتسب هؤلاء وهؤلاء فى أسمائهم إلى معبودى العاصمتين ، آمون وسوبك ، وحرص بعضهم على التسمى بأسماء تشبه أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة مثل أمنمحات وسنوسرت ، وأسماء تشبه أسماء مؤسسى الأسرة الحادية عشرة السابقة لها مثل اسم إنتف ، ليعبروا فى الحالتين عن وراثتهم الشرعية للأسرتين [١] .

ظلت وحدة البلاد قائمة فى بداية هذا العصر من الناحية الشكلية ، واستمرت أعمال تعداد السكان وإحصاءات المواشى والعقارات تجرى فى مكاتب الإدارة المحلية والإقليمية . وورث الحكام الجدد عن الأسرة السابقة لهم حدوداً جنوبية تمتد إلى مابعد الشلال الثانى عند حصنى سمنة وقمة فحافظوا عليها لفترة قصيرة ، وسجلت بردية من أوائل عهودهم بقاء ثلاثة عشر حصناً نشطت فيها دوريات مراقبة الوافدين عبر الحدود [٢]. ورددت أكثر رسائل حاميات هذه الحصون مايفيد استتباب الأمن على مناطق الحدود ، لولا أنه كان استتباباً خادعاً كما سنتبين بعد قليل . وكان من قول

---

(١) See W.C. Hayes, Egypt from the Death of Ammenemes III to Seqenenre II, *CAH*, vol. II, Ch. II, 1965. ; J. von Beckerath, Unters. z. *politischen Geschichte der Zueiten Zuischenzeit in Aegypten*, 1965.

(٢) Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, 1947, vol. I, pp. 10-11.



أصحابها فيها «إن أملاك الملك سالمة صحيحة ، وكل أموره هنا باقية سليمة» (١) .

ثم مالبثت عهود النصف الأول من هذا العصر أن تخللتها فترات اضطراب داخلى لانعرف شيئاً عن تفاصيلها غير مانمت عنه بردية تورين من قصر فترات حكم ملوكها ومرور ست سنوات بغير ملك يعترف به الجميع . وليس من المستبعد أن يكون قد ترتب على تلك الفترات المضطربة اضطرابات أخرى خارجية أحاطت بالإشراف المصرى فى الشمال وفى الجنوب ، حتى ولى العرش رجل من خاصة الشعب يدعى نفر حوتب (خع سخم رع) استعاد وحدة بلاده ووجد اسمه على بعض آثار وادى حلفا فى الجنوب ، كما عثر على نصب فى فينيقيا بالشام يصور «يوناثان» أمير جبيل جالساً أمام شخص عظيم اختفت صورته ، ولكن النصوص المدونة إلى جانبه رجحت أنه الملك المصرى نفر حوتب «خع سحم رع» (٢) .

وجرياً على عادة أغلب الحكام الجدد غير ذوى الدم الملكي الموروث ، تعمد نفرحوتب أن يظهر تقواه وعلمه أمام أفراد شعبه لكى يؤكد لهم أنه لايقل عن ورثة البيوت المالكة القديمة حرصاً على التراث المجيد ، فسجل باسمه نصاً طريفاً ، تحدث فيه عن رغبته الملحة فى أن يزور مكتبة معبد الإله أتوم فى مدينة عين شمس ليطلع فى وثائقها القديمة على الصورة الأصيلة لإله الغرب أوزير وهيئة جسده وأطرافه ، حتى يوصى رجاله بصنع تماثيله على منوالها . وروى كيف أفضى برغبته هذه إلى رجال حاشيته العلماء فاصطحبوه إلى المكتبة حيث فتح الوثائق بنفسه وعرف منها مالم يعرفه غيره (٣) . وحضر الملك عيد المعبود أوزير فى أبيدوس ، وجمع كهنته وأوصاهم بعدم التهاون فى مراسم معبدهم وطقوسه ، وقال لهم بعد حديث قصير : «... أنا الملك ، عظيم البأس ، شديد الإرادة ، لن يحيا من يعادينى . ولن يتنفس الهواء من يتآمر ضدى ، لن يبقى له اسم بين الأحياء ، ولسوف تزهق روحه أمام الموظفين ويطرد من عند هذا الإله ، هو ومن لايهتمون بأمر جلالتى ومن لايعملون بأمر جلالتى ..» (٤). ولم تكن نغمة التهديد هذه معهودة من ملوك العهود المصرية

(١) Smither, *JEA*, XXXI, 1945, 3f.

(٢) Dussaud, *Les Peuples de l'orient Mediterranéen, Il, L'Egypte*, 278.

(٣) Mariette, *Abydos*, II, 28-30; Breasted, *op. cit.*, I, 755 f.; Max Pieper, Die *grosse Inschrift des Koenigs Neferhotep*, 1929.

(٤) Mc. Iver, *El-Amrah and Abydos*, pl. XXIX.

المستقرة ، ولم يكن من داع لذكرها بين الكهنة مالم تكن قد أحاطت بصاحبها ، الذى ولى العرش بمجهوده حركات عصيان أجبرته على أن يردد تهديده ووعيده فى كل مناسبة تسنح له ولو فى وسط الكهان وداخل أروقة المعابد .

وظهر من أسماء خلفاء نفر حوتب على العرش ، اسم «خنجر» ، وهو اسم غريب بعض الشىء عن الأسماء المصرية المألوفة ، وتسمى به ملك أو ملكان . وقص كاهن يدعى «أمينى سنب» من معاصرى خنجر (الأول ؟) ، قصة طريفة تكشف عن بساطة العلاقات بين الحكام والمحكومين فى عهده ، وقال فيها : «أتانى كاتب الوزير وهو ولده سنب ، ودعانى باسم والده ، فذهبت معه ووجدت الوزير محافظ العاصمة عنخو فى ديوانه ، فأصدر إلى أمراً قائلاً : تقرر أن تتولى ترميم معبد أبيدوس ، وسوف يصحبك الفنانون لإنجاز هذه المهمة ويصحبك كهنة مخزن القرابين بالمنطقة ...» . وقام أمينى سنب بمهمته ولقى جزاءه الذى ختم روايته عنه بقوله «وهكذا حققت أملى، ورضى الرب عنى ، وأثنى الملك على» .

وظلت قصور ملوك هذه الفترة عامرة بموظفيها وحشمها وخدمها ومراضعها وجواريها ، وبأهل الموسيقى والطرب وجماعات الصناع والعمال ، فضلاً عن سكانها من الأمراء والأميرات . وكانت تجرى عليهم جميعهم رواتب مقررة ، احتفظ سجل يومى من عهد ملك يدعى «أمنمحات سوبك حوتب» بصورة لها ضمنها تفاصيل الدخل والخرج يوماً بيوم لفترة اثنى عشر يوماً . ويفهم من هذا السجل أن مخصصات القصر كانت نوعين : مخصصات دائمة تكفل بأدائها ديوان رأس الجنوب وديوان مدفوعات الناس والخزانة ، ومخصصات طارئة غطت مصاريف المكافآت والحفلات الخاصة ، وكان الوزير أو من ينوب عنه هو المسئول عنها [١] . وكانت واردات القصر ومصروفاته ، على الرغم من كثرة الحفلات والمكافآت التى تحدث السجل عنها فى فترة الاثنى عشر يوماً ، هزيلة تنم عن فقر الملكية فى عهدها قياساً إلى الثراء الواسع . الذى اشتهرت به ملكية الأسرة الثانية عشرة وملكيات الدولة القديمة من قبلها .

(ب) مظاهر الأفول فى النصف الثانى لعصر الأسرة الثالثة عشرة

انتقلت مقاليد الحكم من أولئك النفر من الملوك إلى ملوك آخرين وثبوا على

(١) Pap. Boulaq XVIII; *ZAeS*, XXIII, 56 f.; XXIX. 100 f.; LVII, 46, 70. *Compare also, JEA*, 1973, 222 f.; *ibid.*, 1974, 189 f.



العرش واحداً بعد الآخر ، ولم تلعب الوراثة بينهم دوراً واضحاً وربما لم تربط بينهم صلات قرابة ظاهرة . وإنما جمعت بين عهودهم عوامل أخرى من قلة الاستقرار وفساد الإدارة وتفرق الكلمة واضطراب حبل الولاء فى الداخل وفى الخارج . وصورت حال مصر إبان فترات حكمهم أربعة مصادر ، وهى : بردية تورين ، وآثارهم القليلة القائمة ، ونصوص تسمى اصطلاحاً نصوص اللعنة ، ثم تعليقات المؤرخ المصرى مانيتون .

فقد بقى من أسماء أولئك الملوك على بردية تورين نحو ستين اسماً ، وردت فى غير ترتيب يعتمد على صحته . وحكم ثلاثة وعشرون منهم فى اثنين وخمسين عاماً بمعدل يزيد عن العامين بقليل لكل منهم . ويعتقد الأستاذ ألن جاردنر [١] أن البردية كانت تتضمن أصلاً نحو مائة وثمانين اسماً من ملوك العصر ، وهو لو صح عدد ضخم لم يسبق أن تواتر مثله لأسرة ملكية مصرية ، وليس فى ذلك غير مايدل على اضطراب الحكم فى نهاية عصر الأسرة بوجه خاص ، وعلى أن ملوكها لم يأمنوا البقاء على عروشهم لفترات طويلة . وليس من المستبعد أن بعض أصحاب تلك الأسماء الملكية الكثيرة كانوا متعاصرين، يحكم كل منهم منطقة محدودة من أرض مصر ، ولكنه يدعى لنفسه صفة الملك وينتحل على آثاره وبين رعاياه ألقاب الملوك .

وزكت الآثار القائمة هذا الاحتمال الأخير ، فعثر لبعض ملوك العصر الأواخر على آثار فى الصعيد دون الوجه البحرى ، والعكس بالعكس الصحيح ؛ مما ينم عن تفتت وحدة البلاد فى عهودهم وضآلة الإمكانات السياسية والمادية، التى توافرت لهم.

وصورت نصوص اللعنة الظروف السابقة من زاوية أخرى ، واشتملت على دعوات كتبها الكهنة (السحرة) بالمداد الأحمر على قدور من الفخار الأحمر وتماثيل صغيرة من الصلصال ، وصبوا اللعنة فيها على أفراد من البلاط الفرعونى ، ونفر من حكام النوبة ، وعدد من شيوخ الصحراء الغربية أو الليبية وعدد من حكام القبائل والمدن فى جنوب الشام [٢]. وكان من المفروض أن يجمع الكهنة هذه القدور

---

(١) Gardiner, *The Turin Canon of Kings*, 1952, 1959; R. Tanner, ZAeS, 101 (1974), 121-129.

(٢) Sethe, *Die Aechtung feindlicher Fürsten*, 1926; G. Posener, *Princes et Pays d'Asie et de Nubie*, 1940.

راجع بعض هذه الأسماء ودلالتها فى الجزء الخاص ببلاد الشام من هذا الكتاب .

والتماثيل الصغيرة بأسمائها الملعونة ، ويتلوا عليها قراءات سحرية معينة ثم يحطموها في حفل خاص ، أملاً فى أن يؤدى تحطمها إلى تحطيم عزائم المذكورين عليها . وكل مايعنينا الآن منها هو دلالتها على أن الأخطار التى تعرض لها أمن البلاد فى أواخر عصر الأسرة الثالثة عشرة لم تتأت عن أصحاب المطامع البعيدين عن العرش فحسب ، وإنما تأتت كذلك من اضطراب الأمن فى البلاط الملكى نفسه ، واضطراب الأمور فى جنوب مصر وشمالها الشرقى أيضاً . ويعنينا كذلك منها أنه لما أن عزت القوةالمادية والحربية على حكام مصر حينذاك ، إعتمد أعوانهم على طرق السحر والشعوذة وهى شر الطرق وأضعفها [١] .

وظل اضطراب الأمور فيما وراء الحدود الشرقية والشمالية الشرقية هو الخطر الأكبر ، وقد استفحل شره حتى انتهى إلى نتيجة صورها المؤرخ المصرى مانيتون ، ونقلها عنه المؤرخ اليهودى يوسيفوس ، فقال فى حديثه عن ملك ذكره باسم «توتيمايوس» (وهو ددومس) : «وفى عهده ، كيف لاأدرى ، عصف بنا غضب الرب، ووفد غزاة من الشرق مجهولو الأصل إلى أرضنا دون توقع ، وكلهم أمل فى النصر فهاجموها عنوة واستولوا عليها بسهولة ، وتغلبوا على حكامها ، وحرقوا مدننا فى وحشية ، وسووا معابد الأرباب بالأرض ، وعاملوا المواطنين بخشونة وفظاظة ، وذبحوا بعضهم واسترقوا نساء بعض آخر وأطفالهم» .

وفى رواية مانيتون مايشير إلى صعوبة تعرف الأصول الجنسية للغزاة ، وهذا حق ، ومايشير إلى عنفهم والأضرار التى لحقت بمصر من جراء غزوتهم ، وهذا أمر طبيعى منتظر من كل غاز ، وفيها كذلك مايشير إلى حيرته فى معرفة أسباب حلول هذه النكبة ببلده ، وكان بوسعه أن يخمنها فيما أصابها من تفكك وحدتها وتفرق كلمتها .

وفى نهاية حديثه عن الغزاة ، ذكر مانيتون أن جنسهم كان يسمى فى مجموعه باسم الهكسوس [٢] ... وهؤلاء هم موضوع البحث التالى .

---

(١) *CHA*, 1964, I, Ch. XX, 47; G. Posener, in *Annuaire de Collége du France*, 74 (1973-74), 397-403; J. OSING, *MDAIK*, 32 (1976), 133-185.

(٢) وقد عرفت لها أمثلة قديمة ولكنها كانت قليلة منزوية .

Josephus, *Contra Apionem*, I, 14.



ثانياً - محنة الهكسوس

لم تعبر تسمية الهكسوس فى أصلها عن شعب معين بقدر ماعبرت عن صفة لمجموعة من الحكام أطلق المصريون عليهم إسم «حقاو خاسوت» بمعنى حكام البرارى. وحور بعض مؤرخى الإغريق والمتأغرقين هذه التسمية إلى «هكسوس» التى ترجمها مانيتون بمعنى «ملوك الرعاة» ، ثم ترجمها يوسيفوس اليهودى بمعنى «الأسرى الرعاة» ووصل بينهم وبين العبرانيين كفئة تابعة لهم ، وافترض أن النبى يوسف دخل مصر فى عصرهم ، وأنهم - أى العبرانيين - خرجوا معهم بعد جلائهم عن مصر . وهو وإن أنزلهم فى تسميته إلى مرتبة الأسرى والرعاة ، إلا أن تخريجاته التى قصد أن يدلل بها على قدم نشأة اليهود يحوطها شك كبير؛ حيث لم يعرف لهم تاريخ مؤكد إلا بعد هذا بعدة قرون .

ومرة أخرى لم يعبر المصريون باسم «حقاو خاسوت» (ومترادفات أخرى مثل عامو) عن قومية معينة بقدر ماعبروا به عن صفات البربرية والأجنبية والقبلية بوجه عام [١]. والواقع أن الأصل الجنسى للهكسوس لازال مشكلة تنتظر الحل النهائى ، والرأى المقبول نسبياً فيها هو أن هجرة الهكسوس إلى مصر كانت ذات صلة بتحركات شعوبية كبيرة هاجرت تباعاً من سهوب أواسط آسيا ، تحت ضغط ظروف طبيعية أو بشرية لانعرفها ، منذ أوائل الألف الثانى ق.م ، ثم تدفقت على فترات متقطعة طويلة إلى شرق أوروبا من ناحية ، وإلى الأناضول وأراضى الهلال الخصيب من ناحية أخرى . واختلفت وسائل تحركاتها ونتائج هجراتها من عهد إلى عهد ، ومن أرض إلى أرض ، مكا اختلفت الأسماء التى عرفها التاريخ بها باختلاف الظروف التى ظهرت على مسرح الحوادث فيها ، واختلاف الأسماء التى عبر بها أهلها عن أنفسهم، أو عبر عنهم بها أهل البلاد التى دخلوها . وهكذا عرفهم بعض المؤرخين باسم عام وهو اسم الآريين أو الهندو آريين وعرفتهم مصادر بلاد النهرين باسم الكاسيين أو الكاشيين ، وعرفتهم مصادر آسيا الصغرى باسم الخاتيين (والحيثيين) ، وعرفتهم شواطئ الفرات العليا والمناطق السورية الشمالية الشرقية باسم الحوريين أو الخوريين ،

(١) Abdel-Aziz Saleh, Arabia and the Northern Atabs in Ancient Egyptian Records, *J. of the Faculty of Archaeology*, Cairo Univ., 2, Part 3, 1978, 69 f.

وسلكتهم بعض المصادر الإغريقية فى تسمية الآخيين ، وعرفتهم المصادر المصرية باسم حقاو خاسوت الذى تحرف إلى هكسوس . وجمع بين عادات أغلب المهاجرين إلى الشرق من هؤلاء وهؤلاء أنهم جروا على أن يؤلفوا فى بداية أمورهم إمارات منفصلة ، تلحق بعواصمها معسكرات كبيرة تحيطها سياجات وأسوار لبنية سميكة مرتفعة ، ويحف بها خندق عميق . وكانوا فيما يقال يضحون بجحش فى حفل بناء سور المدينة ، ويدفنون تحت السور طفلاً ، ويدفنون خيولهم فى مدافن خاصة أو يدفنونها مع أصحابها تنويهاً باعتزازهم بها (١) .

وبلغت شعبة من هذه الهجرات أرض سوريا خلال القرن ١٩ أو أوائل القرن ١٨ ق.م ثم تسربت منها إلى جنوبها ، وتزلزلت تحت ضغطها إمارات سورية كثيرة ، وبدأ الأموريون فى الشام يموج بعضهم فى بعض ، وأخذت بعض جماعاتهم تندفع ناحية الجنوب والشرق تحت ضغط المهاجرين وتأثرت مصالح مصر فعلاً بهذه التحركات فى عصر الأسرة الثالثة عشر، وأخذ كهنتها يستنزلون اللعنات على أصحابها. وعندما اقتربت جماعات المهاجرين من الحدود المصرية الشمالية الشرقية ، كانوا خليطاً من الغالبين والمغلوبين ، وبمعنى آخر كانوا خليطاً من جماعات آرية غازية دفعتها الظروف إلى جنوب الشام ، ومن جماعات أمورية هاربة عجزت عن الاحتفاظ بأرضها فى مناطق الشام وبواديها . ولم يدخل هؤلاء وهؤلاء أرض مصر دفعة واحدة، وإنما بدأوا فانتشروا قرب حدودها وحول سبل تجارتها البرية مع بلاد الشام . وتسلل بعضهم إلى مراعى شرق الدلتا فى جماعات متناثرة خلال فترات الاضطراب الداخلى التى انتهت بها أيام الدولة الوسطى ، وكان أغلب هؤلاء الأخارى من الأموريين بخاصة ، ويسر لهم طريقهم سابق معرفتهم بطرق الصحراء الشمالية الشرقية وسابق اتصالهم بأهل مصر . وقد احتفظت بعض الآثار من أسمائهم ذات الصبغة السامية باسم عبد وماتحتمل قراءته يعقوب هر وعنات هر ، وهو ما أوحى إلى بعض الباحثين الحديثين باحتمال وجود طائفة عبرية بينهم (٢) ، ولكن هذه فيما نعتقد أسماء أمورية تسبق عصر الأسماء العبرية بكثير وإن تسموا فيما بعد بأمثالها .

(١) W. F. Petrie, *Ancient Gaza*, I, 4, pls. VIII-IX; vol. II, 4, 15; vol. IV, 16.

(٢) B. Couroyer, in *Revue Biblique*, 81 (1974), 321-354 and 481-523; W.A. Ward, in *Ugarit- Forschunge*, 8 (1976), 353-69.

واستمرت بقية جماعات المهاجرين الكثيفة برؤسائها ذوى الأصل الآرى (؟) وراء الحدود المصرية إلى حين . وليس من بينة صريحة عن الظروف التى ساعدتها على اختراق الحدود المصرية عنوة للمرة الأخيرة ، ولكن يحتمل أنها أقدمت على ذلك فى أوائل القرن السابع عشر ق.م [(١)] ، كرد فعل أخير لضغط آرى جديد شرد أمامه الجماعات التى سبقته فى الهجرة ابتداء من شمال سوريا إلى جنوبها ، وهو فيما يغلب على الظن ضغط الحوريين . ووجد الهكسوس سبيلهم ميسراً نتيجة لاشتداد نزاع الشخصيات الكبيرة فى مصر على السلطة فى أواخر عصر الأسرة الثالثة عشرة ، وماترتب عليه تلقائياً من تمزيق وحدة أمتهم وإضعاف إمكاناتها ومعنوياتها ، الأمر الذى لم يتح لها مقاومة الغزاة مقاومة مجدية . وليس من المستبعد أن جماعات المتسللين الأموريين الذين تسربوا قبل ذلك إلى شرق الدلتا قد يسروا سبيل الغزو للجاحافل الكبيرة عن غير قصد ، وخوفوا الناس من عنفها ومما تحمله معها من أسلحة جديدة للحرب لم يكن المصريون ولاجيرانهم يستخدمونها . ولايزال المؤرخون على خلاف فى تعيين هذه الأسلحة الجديدة ، فعلى خلاف رأى قديم اعتقد أصحابه أن الهكسوس كانوا أول من أدخل صناعة البرونز إلى مصر ، وأنهم دخلوها لأول مرة بالخيول وبالعربات الحربية التى كان لها ما للمصفحات الحالية من الأثر فى تمزيق صفوف المشاة [(٢)] ، ودلت اكتشافات حديثة على أن المصريين عرفوا صناعة البرونز منذ الدولة الوسطى (راجع ماسبق ذكره) ، وإن لم يستخدموه للأسف فى أسلحتهم . وعرفوا قبله فكرة العجلات أو الطارات المستديرة منذ النصف الثانى للدولة القديمة واستخدموها فى دفع سلالم الحصار الكبيرة [(٣)] ، وإن لم يعمموا استخدامها للأسف

---

(١) لايزال تحديد زمن هذا الغزو موضع جدل طويل ، وتتراوح تقديرات المؤرخين له بين ١٧٣٠ و١٧١٠ و ١٦٩٠ ق.م أو مابعد ذلك .

See, Alliot, *JNES*, 1950, 204 f.; *and compare*, Sethe, *ZAeS*, LXV, 85f., P.C. *Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten*.., 1936; *Stock, Studien zur Geschichte und Archaeologie der* 13 bis 17 *Dynastie Aegyptens*, 1941; J. Van Seters, *The Hyksos*, 1966; D.B. Redford, *Orientalia*, 1970, I f.

(٢) A.R. Schulman, Chariots, chariotry and the Hyksos, *JSSEA*, vol. X, No. 2, 1980, 105-153.

(٣) Quibell, *Teti Pyramid*, North Side, Frontispiece.

أيضاً على نطاق واسع . وفى شىء من التردد، ظهرت آراء حديثة ترى أنهم عرفوا الجياد منذ الدولة الوسطى أيضاً [١] ، وخرج الأستاذ ولتر إيمرى بهذا الرأى بعد قيامه بحفائر أثرية فى منطقة بوهن بالنوبة العليا ، وعثوره فيها على هياكل خيول دفنت فى مستويات قديمة لأطلال أحد الحصون المصرية هناك ، وقد حدد تاريخ هذا المستوى بأيام الدولة الوسطى . ولكن ظهرت آراء أخرى تعارضه وتود إرجاع هذا المستوى إلى أوائل الدولة الحديثة . وقيل أيضاً إن الهكسوس لم يدخلوا مصر بالخيل والعربات منذ بداية أمرهم ، وإنما وفت بها جماعات قوية منهم أتت بعد تسرب أوائلهم إلى مصر بفترة غير قصيرة . وهكذا يتجه الترجيح حتى الآن إلى أن أهم عدد الحرب الجديدة التى أعانت الغزاة هى الدروع التى أكسبتهم مناعة وثقة ، والأقواس المركبة الكبيرة المصنوعة من (طبقات) الخشب ومن القرون ومن أوتار شديدة [٢] ، وكانت ترمى بقوة وإلى مدى أبعد من مرمى الأقواس المصرية القديمة ، وأخيراً عربات الحرب بخيولها . وفى اعتمادهم على عربات الحرب بخيولها مايضعف رأى قديم رد أصل الهكسوس إلى شبه الجزيرة العربية ، حيث لم تكن صحراؤها تسمح باستخدام مثل هذه العربات، ولم تظهر أدلة ما حتى الآن عن استخدامها لخيول الحرب فى ذلك الحين . أما عوامل التفكك الداخلى التى يسرت للهكسوس سبيل الغلبة فقد شرحناها من قبل ، وأما وقع غزوتهم على المواطنين المصريين فيكفى فيه ما استشهدنا به من وصف مانيتون المؤثر له .

ولم يكن من المتوقع أن يخلص أمر الدولة التى طمع الهكسوس فى إقامتها بمصر لملك واحد على الفور ، فقد حال دون ذلك أمران ، وهما : أن الهكسوس كانوا قبليين فى مجموعهم ، آريين وأموريين ، اعتادوا أسلوب الإمارات المنفصلة – وأنه لم يكن من المنتظر أن تدين مصر العظيمة لهم بالطاعة فى سهولة . وترتب على هذين الأمرين أن تعددت أسماء الحكام فى عهودهم الأولى تعدداً كبيراً ، وكان من هؤلاء حكام مصريون استمسكوا بأقاليمهم فى غرب الدلتا وفى أقصى الصعيد ، واختلفت صلاتهم بالهكسوس تبعاً لموقفهم منهم ومدى قدرتهم على مقاومتهم ، واعتبر كبارهم أنفسهم الورثة الشرعيين لملوك الدولة الوسطى الوطنيين وخلعوا على أنفسهم ألقاب

(١) W.B. Emery, *Kush* VIII, 1960, 8, pl. III b.; Clutton - Brock, The Buhen Horse, *J. of Arch. Science*, London, I (1974), 89-100.

(٢) جون ولسن : الحضارة المصرية – ص٢٧٢ .

الفراعنة ، ولهذا جرى الاصطلاح على تسمية عصرهم باسم عصر الأسرة الرابعة عشر ، على الرغم من أن القرابة بينهم كانت محدودة وكانوا معاصرين للهكسوس فعلاً ، ودل ذلك على أن روح المقاومة الوطنية لم تمت . وفي الوقت ذاته لم يكن زعماء الغزاة أقل طموحاً ، فانتحلوا لأنفسهم صفات الملوك المصريين وألقابهم، ثم أخضعهم لسلطانه أشدهم بأساً وجنوداً وجمعهم تحت رايته ، وكان فيما روى مانيتون يسيطر على منطقة منف الغنية مركز الحكم القديم ، ويدعى «سالتيس». واتخذ سالتيس (وهو اسم محرف) عاصمة جديدة في شرق الدلتا على ضفة الفرع التانيسي القديم ، كانت تسمى في اللغة المصرية «حة وعرة» وهو اسم بقي حتى الآن في اسم هوارة وحوره كتبة الإغريق إلى «أفاريس» [١] . واعتمد اختيار هذه العاصمة على أساس وقوعها وسط أتباع الهكسوس من المهاجرين الأموريين ، وقيامها فوق كثبان رملية تطل على الفرع التانيسي ، وحماية المناقع لها على بعد منها ، ثم على أساس قربها النسبي من آخر المواطن التي وفد الهكسوس منها على مصر ، وهي جنوب الشام ، وقربها من الطريق التجاري البري الذي يصل بين مصر وبين سوريا . وحصن الهكسوس العاصمة الجديدة تحصيناً شديداً ، وزودوها بحامية كبيرة العدد ، اتقاء ثورات المصريين ، واتقاء للهجرات الجديدة المحتملة التي تخوفوا أن يقوم بها أبناء عمومتهم الآريون أو الأموريون . ووجد الهكسوس في معبود هذه المدينة «سوتخ» أو «ست» شبهاً بمعبودهم القومي ، أن في الشكل أو في الصفات ، فمزجوا بينهما وعبدوا كلاً منهما في شخص الآخر .

وندع مناقشة تتابع ملوك الهكسوس وعلاقات بعضهم ببعض خلال مايسمى باسم عهود الأسرات الخامسة عشرة والسادسة عشرة وجزء من السابعة عشرة لكتابنا الثاني عن حضارة مصر القديمة وآثارها . ونكتفي هنا بالملامح الرئيسية لهذه العهود، التي يحتمل من بردية تورين أنها شغلت مائة عام وثمانية، أو ماهو أقل من ذلك بكثير [٢] . ومن هذه الملامح أنهم جمعوا بين أسمائهم الأجنبية مثل خيان وإببي،

(١) *See* Junker, *ZAeS*, LXXVII; Montet, *Tanis*, 1942; Kees, Tanis, 1944; Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, II, 179 f; M. Bietak, *Antike Welt*, VI, (1975), 28-43; *Tell El-Dabaa*, I-II, 1975.

(٢) *See*. H. Stock, *op. cit.*; Saeve Soderbergh, *JEA*, XXXVII, 62 f.; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 158 f.

وأسماء مصرية خالصة مثل سوسرنرع ، وعاوسر رع . وأنهم تشبهوا بالملوك المصريين الوطنيين فى ألقابهم وملابسهم وهيئات تماثيلهم ، وادعوا التقرب من الأرباب المصريين، وسجلوا أسماءهم على معابدهم بل وعلى بعض تماثيل الملوك المصريين السابقين . ويمكن أن ينم ذلك كله عن أنهم مع استحواذهم على السلطة العليا حاولوا أن يتمصروا ويتخذوا مصر موطناً ودار إقامة دائمة . ولم يعتبروها دولة تابعة ، وحاولوا أن يموهوا على أهلها ويوحوا إليهم بنسيان غرابة أصلهم وقسوة غزوهم لأرضهم . وعثر لبعض هؤلاء الملوك على آثار قليلة فى جنوب فلسطين ، وفى كرما فى النوبة بل وفى كريت وفى بغداد أيضاً (١) . وتم ذلك فيما يغلب على الظن عن طريق التجارة والتبادل ، دون الغزو وبسط النفوذ كما ذهبت آراء قديمة تخيلت للهكسوس امبراطورية متسعة ذات نشاط فى البر وفى البحر معاً .

وارتبط بأذواق عصر الهكسوس شيوع أنواع متواضعة من المشابك والحلى ، وزخارف الجعلان والأختام ، وزخارف الفخار الملون والمشكل على هيئة الطير ، وظهور وحدة جديدة للموازين والمقاييس ، فضلاً عما ارتبط بوجودهم من انتشار الخيول وعربات الحرب والدروع والسيوف المقوسة والأقواس المركبة .

ولكن لوحظ أن النماذج الفنية الباقية من آثارهم صغيرة قليلة ، وأن عصرهم فى مجمله لم يترك تأثيراً ذا بال فى تطوير فنون النحت والنقش وهندسة العمارة ، إلى الحد الذى تطابقت معه الروح الفنية لآثار العهود الأخيرة من الدولة الوسطى ، التى سبقت دخول الهكسوس ، مع الروح الفنية لآثار أوائل عهود الدوة الحديثة التى أعقبت خروجهم من مصر .

وعلى نحو ما عجز الهكسوس عن إضافة شيء جديد إلى الحياة الفنية ، عجزوا كذلك عن تبديل تقاليد مصر الروحية واللغوية والدينية ، فظلت كما هى ، وحدث على العكس أن تأثروا هم بها وتطبعوا بها ، وإن لم يمنع هذا من الاعتراف بأنهم جعلوا جنسهم يمثل الطبقة العليا أو يمثل جزءاً منها على أقل تقدير .

* * *

---

(١) Catalogue of the British Museum, No. 987; Budge, *Guide*..., No. 340; A. Evans, *The Palace of Minos*, 419, Fig, 304 b.; R. Giveon, CdE, 49 (No. 98), 1974, 222-233.



ثالثاً - مراحل الجهاد والتحرير

بدأت عزمات التحرر من إقليم طيبة ، وكان قد استغل بعد موقعه في قلب الصعيد وتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي ، وعلقت بأذهان أهله أمجادهم القديمة في الدولة الوسطى . ثم استطاع كبار حكامه أن يمدوا نفوذهم حتى أبيدوس ، وأزاحوا نفوذ الهكسوس إلى الشمال حتى حدود القوصية ، واعتبروا أنفسهم الخلفاء المباشرين لملوك الدولة الوسطى . وعرفت أسرتهم المالكة باسم الأسرة السابعة عشرة الوطنية وعاصرت أواخر ملوك الهكسوس . ولم تكن مهمة الإحياء التي تكفلوا بها مهمة هينة ، فبدأو بها على حذر اتقاء إثارة الهكسوس ضدهم قبل استكمال استعدادهم . وندع خطواتهم الأولى في الإعداد الإقليمي ، مراعاة للإيجاز ، ونكتفي بجهاد المصريين تحت راية الثلاثة الأخيرين منهم ، وهم القادة الملوك : سقننرع (تاعا قن الثاني ؟) وولداه كامس وأحمس . وقد صورت طرفاً من بداية انتفاضتهم بردية كتبها طالب مصري يدعى «بنتاورة» (وليس بنتاؤور كما شع خطأ) ، خلال القرن الثالث عشر ق.م ، أي بعد خروج الهكسوس من مصر بنحو ثلاثة قرون [1] ، وبما يعني أن أخبار الأحداث القومية الرئيسية لم تكن تنمحي من أوساط المثقفين مهما طال الأمد عليها . وروت نصوص البردية في مستهل حديثها أن أرض مصر كانت تئن تحت وطأة الوباء ، وأنه لم يكن فيها سيد يعتبر ملك زمانه ، فبينما حكم الملك سقننرع تاعا قن (الثاني) في مدينة طيبة (الجنوبية) ، حل الوباء في مدينة العامو (الهكسوس) ، وبمعنى آخر استقر الملك إيبي (ملك الهكسوس) في حة وعرة . وأضافت البردية أن إيبي هذا تعصب للمعبود سوتخ (أو ست) ، ولم يقدر رباً سواه ، وأقام له معبداً عظيم الشأن بجانب قصره ، وكان يبكر يومياً في تقديم القرابين إليه ، واعتاد رجال حاشيته على أن يحملوا إليه باقات الزهور ، تقليداً لما كان يجري في معبد «بارع حر آختي» (المعبود المصري الكبير) ، على حين ناصر سقننرع ملك طيبة الإله آمون رع واستنصره واعتبره كبير الأرباب .

ولم يقتصر الأمر حين ذاك على اختلاف المذهبين الدينيين ، وإنما كانت وراءه ترتيبات مصرية مستترة ، عمل إيبي ملك الهكسوس في سبيل وأدها على أن

(١) Pap. Sallier, I, 1, If.; Gardiner and Gunn, JEA, V, 40 f.; Gardiner, *Late Egyptian Stories*, 1932, 85 f.; *MDAIK*, 1965, 621.

يستفز الملك المصرى سقننرع إلى حرب صريحة قبل أن يستكمل عدته لها ، فجمع كتبته وحكماءه كما روت البردية ، وشاورهم فى الأمر ، فأوحوا إليه بحيلة ماكرة عقبوا عليها بقولهم «ولسوف نرى إذاً قدرة ربه الذى يحتمى به ، وهو الذى لايعتمد على إله غير آمون رع ملك الأرباب» . واتبع إبيى مشورتهم فأوفد رسولاً إلى سقننرع، يقول له : «أسكتوا أفراس الماء فى البحيرة الشرقية بطيبة فضجيجها يحرمنى النوم فى نهارى وليلى ، وأصواتها تطن فى مسامع مدينتى» .

وأغلب الظن أن إبيى المقيم فى شمال شرق الدلتا ، كان يعنى بضجيج أفراس النهر بطيبة فى أقصى الصعيد نشاط سقننرع ورجاله واستعداداتهم العسكرية ، وقد تعمد أن يلمزهم ويستثيرهم ويقلل من شأنهم ، ولكنه كشف عن هم الليل والنهار الذى لحقه منهم من حيث لايدرى . وأضافت البردية أن سقننرع عامل الرسول كما تنبغى معاملة الرسل ، فأكرمه وهاداه ، ثم جمع كبار رجاله ورؤساء جيشه وبدأ يشاورهم فى الأمر .. وهنا انتهى درس البردية فى غير خاتمة واضحة ، ولكنه على الرغم من قصره قد نم عن أن المصريين ظلوا يطوون صدورهم على كره الهكسوس وذكريات احتلالهم حتى لقد شبهوهم بالوباء أو الطاعون ، وأنه لم يكن فى وسع ملك الهكسوس أن يعتبر لنفسه ملكاً على مصر كلها ، وأنه ضاق بنشاط أهل طيبة وقلق من النتائج التى يمكن أن تترتب عليه . وأن الطيبيين جعلو من اختلاف المذهب الدينى بينهم وبين الهكسوس سبباً لصبغ جهادهم ضدهم بصبغة مقدسة ، وإذا كان هذا الجزء المكتوب المتبقى من البردية قد انتهى بغير نهاية واضحة ، فقد صورت جانباً من هذه النهاية رأس سقننرع التى عثر عليها فى طيبة الغربية ، وقد توجتها خمسة جراح عميقة من ضربات سيف ومقمعة وبضعة سهام ، ودل كل جرح منها على بداية الجهاد المسلح فى عهد صاحبه واستبساله واستماتته فى الظفر بمأربه ، وقد مات وهو لايزال فى أوائل الثلاثينيات من عمره[١] .

وتولى زعامة طيبة بعده ولده كامس (واز خبر رع) وصورت جهاده وجهاد رجاله ثلاثة نصب أقامها فى الكرنك ، ودرس تاريخى كتبه طالب على لوحة خشبية صغيرة . وصور الدرس التاريخى المراحل الأولى للجهاد فى عهده كما رواها

(١) M. Bietak u. E. Strouhal, *in Ann. des Naturhist. Museums in Wien*, 78 (1974), 29-52; E. Strouhal, in *Novy Orient*, 30, 3 (1975), 76-78.

أنصاره[1]. فوصفه بأنه كان ملكاً فاضلاً ، وأن الإله رع شاء أن يجعله ملكاً فعلياً ووهبه الجرأة في الحق . وذكر أنه ضاق بأحوال البلا ،د وقال ذات مرة فى مجلس بلاطه : «كيف أقدر نفوذى هذا إذا كان هناك حاكم فى حة وعرة وحاكم آخر فى كاش ؟ ولا زلت شريكاً لهكسوسى وزنجى ، وكل منا يسيطر على رقعة من هذه البلاد؟ إنى لا أكاد أبلغ منف ، وقد سيطر (العدول) على منطقة الأشمونين ؛ وماعاد أحد يأمن السلب والنهب والعبودية للبدو الأسيويين ..» . وحاول كامس أن يستفز أهل بلاطه إلى الحرب ، فقال لهم «ولسوف أقاتل (العدو) وأبقر بطنه ، وإن غايتى أن أحرر مصر وأستبيح دماء العامو ..» ، ولكنهم فيما قال استمرأوا مانعموا به فى حدود الصعيد ، وقالوا إن هاجمنا العدو قاومناه . وهنا ضاق الرجل بالتواء منطقهم وأحسن الظن بسواد شعبه ، فقال لأهل بلاطه «سوف أحارب العامو (الهكسوس) وسوف يحالفنى النجاح ، وقد تباكى بعضكم ، ولكن البلاد سوف ترحب بى ، أنا الحاكم الجسور فى طيبة ، أنا كامس حامى حمى مصر» .

وبهذه الروح الوثابة انطلق كامس بجيشه المصرى ، وجند فريقاً من البجاويين النوبيين الذين دانوا بالولاء له ، واستخدمهم فى طليعة جيشه . وصدق ظنه فى سواد شعبه ، فهرع إليه أهل الشرق والغرب ، كما قال ، وأمدوا جيشه أينما حل بالإمدادات والمؤن . ووصف مسيرته مع جيشه براً ونهراً ، فقال : «أبحرت فى عزم لأجلى الهكسوس وفقاً لأمر آمون ذى الرأى الرشيد ، وجيشى أمامى مستبسل كأنه شعلة من نار» .

وبدأ بمصر الوسطى فطهرها من الهكسوس، وعاقب الخانعين لهم فى بلدة نفروسى . وشجعه هذا على كفاح تحدثت عنه نصوص نصبه فى الكرنك [2] ، ويفهم منها أنه شن حملة مفاجئة على أرض كاش الجنوبية وأجبر واليها الجديد على أن يوقف صداقته للهكسوس . ثم اندار إلى شمال الوادى وعمل بأعوانه على قطع الإمدادات التى كانت تصل إلى الهكسوس عن طريق فروع النيل . وهنا انقسم

(١) Carnarvon Tablet, No. I; Cardiner and Gunn, *op. cit.*, 5 ; Erman, *Die Literatur*..., 82f.

(٢) See ASAE, XXXV, III f.; XXXIX, 25 f., LIII; LI, 195 f.; *Kush*, IV, 54 f. *CAH*, rev. ed., II, 1965, Ch. VIII, 4f.; *Bior.* 32 (1975), 287-290, *ZAeS*, 103 (1976), 48-76.

الهكسوس على أنفسهم ، وخرج بعضهم على طاعة ملكهم . وأحرز كامس نصراً فى بعض المواقع النهرية ، ووصف دخوله إحدى المدن فى أسلوب لطيف قال فيه (أو قال على لسانه أحد أدباء عصره) : «لمحت نساء العدو فوق دياره يتطلعن من النوافذ إلى الشاطىء ، وحين سمعن صوتى لم يستطعن حراكاً ، ومددن أنوفهن من خلال الجدران كأفراخ القطا فى جحورها حين كنت أنادى : هذا أوان الهجوم ، ها أنذا ولسوف أنتصر» . وسجل رجاله فى نصوصه بعض العبارات التى كان يرددها فى مجالسه أو يرسل بها إلى عدوه يتوعده بها ، وكان من قوله فيها : «سوف تعجز مع جيشك أيها العامو .. وينكشف ظهرك أيها الخاسئ ، فها هو جيشى وراءك ، وسوف يصيب العقم نساء عاصمتك ، ولن تنبض قلوبهن فى أبدانهن حين يسمعن صرخة الحرب من جيشى . إن يدى هى العليا ، والنجاح حليفى .. ، أى وحق ربى آمون القادر ، لن أدع لك بقاء ولن أدعك تخطر على أرضى دون أن أركب فوقك ، وحينئذ تخمد أنفاسك» ، وكان من قوله كذلك : «لقد خابت آمالك أيها الخاسئ الذى اعتاد على أن يقول أنا السيد ولامثيل لى . أما (عاصمتك) فسوف أمحوها ولن أجعل أحداً يعثر لها على أثر ، وسوف أدمر قرى (شعبك) ، وأحرق ديارهم حتى تصبح تلالاً حمراً إلى الأبد ، جزاء وفاقاً على ما ألحقوه بمصر من دمار ، وسوف يسمع الناس (عويل) الهكسوس حين يفارقون مصر سيدتهم (مرغمين) » [1] .

وهكذا سار كفاح كامس على نهج مرسوم ، فبدأ بتعبئة الحماس والمشاعر من أجل الكرامة وضد المحتلين ، وعمل على تطهير الجبهة الداخلية وتأمين ظهره وزيادة أتباعه ، ثم أحكم الحصار الاقتصادى على أعدائه وحاول أن يبث الفرقة بينهم ، وهاجم بجيشه بعض مراكز تجمعهم ، واستخدم الحرب النفسية ضدهم . وليس من المستبعد أن تهديداته كانت تبلغ أسماع الهكسوس وتفعل فعلها فيهم . فلما طال المطال عليهم ، حاول ملكهم أن يوقع كامس بين مايشبه فكى الكماشة ، فبعث برسالة إلى حاكم كاش الجديد فى الجنوب يدعوه ولده ويعاتبه على عدم إخطاره بولايته ، ويحرضه على كامس ويخوفه عاقبة أمره ويشجعه على مهاجمته من الجنوب حتى ينحصر بينهما وحينئذ يغلبانه ويقتسمان مصر معاً ، كما قال . وأرسل الهكسوسى رسله

(١) الغريب أن الأستاذ جاردنر يرى أن كامس وجه تهديده بتدمير القوى للمصريين المعادين له ، وليس الهكسوس ، وهو تخريج مشكوك فيه . See, Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 197 f.; Wilson, *ANET*, 554-55.

على طريق الواحات ليكونوا بمأمن من عيون كامس . ولكن هؤلاء الأخارى علموا بأمرهم وأبلغوا مولاهم فأرسل كامس سرية من جيشه ترصدت الرسل واستولت على الرسالة ثم أطلقتهم لينقلوا إلى ملكهم خيبة أمله وفشل مسعاهم . فأرسل كامس سرية من جيشه ترصدت الرسل ، واستولت على الرسالة ثم أطلقتهم لينقلوا إلى ملكهم خيبة أمله وفشل مسعاهم . وخشى كامس أن يعيد الحليفان الكرة ، فوضع بعض وحداته فى مصر الوسطى والواحات ، ورحل هو إلى عاصمته طيبة ، وكان يوم عودته إليها يوماً مشهوداً ، وصف كاتبه قائلاً : «طابت رحلة الحاكم إلى الجنوب ، وجنوده أمامه لم ينقصوا ، ولم يخسر أحدهم رفيقه ، ولم تشتك قلوب (المدنيين) منهم ....، وأصبح إقليم طيبة كأنه فى عيد الفيضان ، وهرع النسوة والرجال يتطلعون إلى الأمير وأسرعت كل زوجة إلى زوجها تعانقه ، وقد خلت الوجوه من آثار الدموع» .

وتوفى كامس فى ظروف غير معروفة ، قبل أن يدخل معركته الفاصلة ضد الهكسوس ، وربما أعقبت وفاته فترة من القلق ، ثم خلفه أخوه أحمس (نب بحتى رع) وأتم عمله وعمل أبيه ، وانتفع باشتداد عزائم مواطنيه بعد كفاحهم تحت رايتيهما ، فاستنفرهم ولبوا نداءه لاستكمال الجهاد والانتقام ، وخرجوا معه لمهاجمة الهكسوس فى عقر عاصمتهم «حة وعرة» .

ولاتزال تفاصيل المرحلة النهائية لطرد الهكسوس فى عهد أحمس شحيحة لقلة المصادر المعروفة عنها على الرغم من أهميتها البالغة . ولكن صور جانباً منها قائد من جيشه يدعى أحمس بن إبانا (أو أبينا) بدأ جندياً صغيراً ، ولكنه استطاع أن يظهر كفايته فى المعارك التى خاضها ، وروى فى نصوصه أنه كان كلما نشط فى عمليات الأسر والقتل خلال المعارك ، أبلغ العرفاء أمره إلى الملك فى مركز القيادة فكافأه بما يناسب مجهوده وشجعه على المزيد . وهكذا استمر فى نشاطه وترقياته حتى بلغ مرتبة القائد الملاحى ، وذكر أنه اشترك مع الملك أحمس فى محاصرة عاصمة الهكسوس وأن المعارك دارت حولها وإلى الجنوب منها ، فى البر وعلى الماء عدة مرات [١] . والواقع أنه ليس من بينة مرجحة تصور كيفية جلاء الهكسوس عن حة وعرة ، فبينما يفهم من نصوص ابن إبانا المعاصر لهذه الأحداث أن المصريين دخلوها عنوة ودمروها وأسروا معظم حاميتها وأجبروا غالبية سكانها على الخروج

(١) Sethe, *Urkunden*, IV, 3f.; Gunn and Gardiner, *op. cit.*, 48 f.

منها، ذكر يوسيفوس اليهودى بعد قرون طويلة من الجلاء أن الهكسوس أعلنوا التسليم لأحمس بشرط أن يدعهم يغادرون مصر آمنين ، فرضى ، وخرجوا منها بأمتعتهم ، وكانوا لايقلون فى زعمه عن ٢٤٠ ألف شخص (هم فى الغالب وأولادهم ونساؤهم) .

وقد يزكى الرواية المصرية أنه عندما جلا الهكسوس عن مصر، جمعوا فلولهم فى مدينة من معاقلهم القديمة فى جنوب فلسطين تدعى شاروحين ، (تل العجول أو تل فرعة الحالية) ، وتحصنوا بها ، فأدرك أحمس أنه لن يأمنهم ولن يأمن على حدوده ماداموا قريبين منها ، فلحقهم بجيشه وفرض الحصار حولهم ، واستمر يضيق عليهم نحو ثلاث سنوات حتى اضطروا إلى النزوح عنها [١] . وهكذا لفظت مصر الهكسوس أغراباً كما دخلوها ، على الرغم من طول إقامتهم فيها . وعهد ما سوى مصر من الشعوب أن تنزلها الهجرات فتطغى على قوميتها أو تمتزج بأهلها ويمتزجوا بها وتفرض عليهم حضارتها إن كانت ذات حضارة ، أو تفرض عليهم لغتها إن أعوزتها الحضارة ، وماحدث شيء من ذلك فى مصر ، وإنما باعدت مصر مابينها وبين الهكسوس فى لغتها وعاداتها ودينها قدر ما استطاعت ، وإن غلبت عسكرياً على أمرها . وعندما أخذت عنهم استخدام الخيول وعربات الحرب والدروع والأقواس المركبة ، استعانت بما أخذته عنهم وأجلتهم به ، وكان ذلك بين عامى ١٥٨٠ و١٥٧٥ ق.م .

والطريف أن فترة الجهاد ضد الهكسوس لم يقتصر نشاطها على الرجال وحدهم، وإنما ساهمت بعض النساء فيها بما يناسب استعدادهن . ولما كان التاريخ حفياً دائماً بأسماء أصحاب السلطان أكثر ممن سواهم ، فقد ردد من أسماء صاحبات الشهرة فى ذلك العصر اسمى : تتى شرى أم سقننرع (تاعا قن الثانى) ، وإياح حوتب زوجته وأم ولديه . وقد نعتت أولاهما فى نصوص حفيدها أحمس بلقب العالمة أو العارفة تقديراً لخبرتها وصواب رأيها ، وقد عاشت حتى جزء من عهده ، وأقام باسمها هريما ومقصورة فى أبيدوس ، فضلاً عن ضريحها بها ، ومقبرتها فى طيبة . وقيل عن الثانية إنها «ربة الأرض ، وسيدة الحاونبو ، رفيعة السمعة فى كل قطر أجنبى ، التى دبرت سياسة القوم .. القديرة الجليلة التى أحكمت شئون مصر ، وجمعت (صفوف) جيشها ، ورعت أهلها ، وأعادت الفارين ، ولمت (شتات) المهاجرين ، وهدأت (قلق)

(١) *Urk.*, IV, 4; *ZAeS*, XXIV, 136; J. Weinstein, *ARCE*, 95 (1975-76), 13f.

الصعيد ، وأرهبت عصاته ، الملكة إياح حوتب لها الحياة» [١] . ويبدو أن ماتحدث هذا النص به عن أثرها فى السياسة الداخلية قد ترتب على اشتراكها فى جمع كلمة الجيش والمدنيين على الاعتراف بالطاعة لأحد ولديها حين اعتلائه العرش ، وهو فى الأغلب أحمس بعد فتنة لعلها حدثت عند وفاة كامس . وقد يفسر هذا احتواء مقبرتها على بلطة وخنجر باسم ولدها أحمس ، فضلاً عن حليها التى عثر عليها مرقومة باسمى ولديها كامس وأحمس . أما ماتحدث النص به عن شهرتها الخارجية ، وعن سيادتها للحاونيو ؛ أى جزر الحوش الشرقى من البحر المتوسط . فيمكن تفسيره بأن انتصارات مصر فى عهد ولدها أحمس فى جنوب الشام فتحت أمامها سبل الاتصالات القديمة مع الموانى الفينيقية وماكان يتعامل معها من جزر البحر المتوسط ، وقد أراد أهل هذه الجزر ، والكريتيون بخاصة ، أن يتقربوا إلى الملك المصرى المنتصر فهادوه وهادوا أمه ، وخلعوا عليها لقب «سيدة الجزر» تشريفاً لها ، وهو ماعبر النص المصرى عنه بلقب «سيدة الحاونبو» ، واحتفظت مقبرتها بالفعل بآثار ذات زخارف تماثل أسلوب الفن المينوى . وكما عمرت تتى شرى إلى عهد حفيدها أحمس الأول ، وظلت رفيعة المقام عنده ، عمرت إياح حوتب إلى عهد حفيدها أمنحوتب الأول – وكانت تجزل العطاء لأتباعها [٢] .

* * *

(١) *Urk*, IV, 21 : Meyer, *Ceschichte*..., II I, 45; Winlock, *JEA*, X, 246 f.

(٢) T. James, *CAH*, vol. II, ch. VIII, 1965, 19-21; L. Troy, *G.M.*, 35 (1979), 81-91.

الفصل التاسع

الدورة التاريخية الثالثة فى الدولة الحديثة

(١٥٧٥-٩٥٠ ق.م)

تمهيد :

شبه المؤرخ أرنولد توينبى مشاعر الأمة الناهضة فى بداية نهضتها بعد نكستها، بأحاسيس شخص استغرق فى سبات طويل وخمول فاتر ، ثم استيقظ ليجد نفسه فى قاع واد عميق قلت فيه عوامل الفزع، ولكن قلت فيه فى الوقت ذاته فرص الحركة ولذة النجاح ، فالتلال قد حمت الوادى من جانبيه ولكنها حرمت ساكنه فى الوقت نفسه من أن يمارس حرية السعى على مدى كبير، وحرمته من أن يتطلع منها إلى ماوراء واديه ، فبدأ من ثم يشعر بضيق شديد لم يكن يشعر به قبل أن يسترد يقظته ، ودفعه ضيقه الشديد إلى إعلان السخط والتحدى ، وصحت عزيمته على أن يخاطر بنفسه ويخاطر بالأمن الزائف الذى يعيش فيه ، ليتسلق جوانب الوادى الذى يحتويه ويعتلى التلال المحيطة به عله يشرف منها على عالم آخر جديد . ومنذ ذلك الحين بدأ يبذل المجهود ويقدر احتمالات السقوط ويعمل فى الوقت نفسه على تلافى الهبوط ، كما بدأ يحس أخطار الصعود ويستعذب فى الوقت ذاته لذة الطلوع ، وأصبح كلما نجح فى تسلق جانب من جوانب الوادى ازدادت ثقته بنفسه وبدأ يستعيد رضاه عن حياته ، ثم استمر نجاحه بمجهوده يشجعه على أن يطلب المزيد ، وعلى أن يرجو لنفسه آفاقاً رحبة جديدة .

وكان ذلك هو شأن أهل طيبة بالفعل منذ بدأوا انتفاضتهم القوية فى أواخر عصر الأسرة السابعة عشرة ليتخلصوا من حال التراخى ومظاهر الضعف وسوءاته ، ومنذ استجابت مصر لهم ولبت دعوة الدم والتحرر ، وصحت عزائم أهلها على الجهاد ضد الهكسوس وعلى الإبلال من النكسة الطويلة التى أصيبوا بها تحت حكمهم ، حتى أجلوهم عن أرضهم وأقصوهم عن حدودهم القريبة جهد الطاقة .

وكان أحمس بن سقننرع ، آخر الحكام الثلاثة المجاهدين للهكسوس ، نهاية



جيل قديم وبداية جيل جديد ، وبمعنى آخر كان ختاماً للأسرة السابعة عشرة ورأساً للأسرة الثامنة عشرة فى الوقت نفسه ، وكان صدر عهده خاتمة لعصر الانتقال الثانى، كما أصبح آخر عهده مبشراً ببداية عصور الدولة الحديثة .

وقد بدأت الدولة الحديثة حوالى عام ١٥٧٥ ق.م. أو نحوه ، بالأسرة الثامنة عشرة . وامتدت عصورها حتى عام ٩٥٠ أو ٩٤٥ ق.م تقريباً ، حيث انتهت بنهاية عصر الأسرة الحادية والعشرين ؛ أى إنها عمرت ستة قرون وربع القرن ، حافظت مصر فيها على استقلالها الكامل دون شائبة تشويه ، واستطاعت خلال أربعة قرون منها أن تصبح كبرى دول الشرق القديم، بفضل حضارتها المتطورة وبفضل قوتها الضاربة فى آن واحد .

أولاً - الانطلاق الواسع فى عصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥-١٣٠٨ ق.م)

فى السياسة الداخلية :

استعادت الملكية فى عصر الأسرة الثامنة عشرة هيبتها التقليدية ، بشخصيات ملوكها وجهودهم فى سبيل توطيد استقلال دولتهم وتنمية ثرائها وتوسيع حدودها وإعلاء شهرتها . وإن كانت أغلب هذه الجهود من حيث الواقع العملى من كسب أعوان الملوك والشعب، أكثر مما هى من كسب الملوك أنفسهم، على الرغم من كفاية أغلب هؤلاء الملوك وصادق تأثيرهم فى سياسة دولتهم . واستمسكت هذه الملكية بما استمسكت به الملكيات القديمة المستقرة من حيث الإصرار شكلاً على الأقل على المركزية الواسعة، وادعاء حق الحكم الإلهى، والقول بالوراثة المقدسة والبنوة للألهة الكبار . وعمرت أسرة أحمس على العرش أكثر من قرنين ونصف قرن ، وهى فترة كبيرة فى عمر الأسر الحاكمة . وتعاقب من صلبها اثنا عشر ملكاً ، كانوا على التوالى[1]:

---

(١) أخذنا فى تحديد تواريخ حكم هؤلاء الملوك بنتائج دراسة الأستاذ ألن جاردنر .

cf. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 1961. 443.

وتختلف عنه تقديرات كل من دريوتون وفانديه وجون ولسن وآخرين .

Cf. D.B. Redford, *History and Chronology of the Eighteenth Dyndsty of Egypt*, 1967; J. E. Harris, *ARCE*, No. 87 (1973), 31f.; W.C. Hayes, *CAH*, vol. II, Ch. IX, Parts I, II, 1966.

أحمس الأول (نب بحتى رع) : ١٥٧٥-١٥٥٠ ق.م.

أمنحوتب الأول (چسر كارع) : ١٥٥٠-١٥٢٨ ق.م.

تحوتمس الأول (عا خبر كارع) : ١٥٢٨-١٥١٠ ؟

تحوتمس الثانى (عا خبرن رع) : ١٥١٠ ؟ - ١٤٩٠ ؟

حاتشبسوت (ماعت كارع) : ١٤٩٠ ؟ - ١٤٦٨ .

تحوتمس الثالث (من خبر رع) : ١٤٦٨-١٤٣٦ ، فضلاً عن تسع سنوات فى حكم مشترك منذ ١٤٩٠ .

أمنحوتب الثانى (عا خبرو رع) : ١٤٣٦-١٤١٣ .

تحوتمس الرابع (من خبرو رع) : ١٤١٣-١٤٠٥ .

أمنحوتب الثالث (نب ماعت رع) : ١٤٠٥-١٣٦٧ .

أمنحوتب الرابع (آخناتون) (نفر خبرو رع) : ١٣٦٧-١٣٥٠ .

سمنخ كارع (عنخ خبرو رع) : ١٣٥٠-١٣٤٧ .

توت عنخ آمون (نب خبرو رع) : ١٣٤٧-١٣٣٩ .

ثم خلف هؤلاء ملكان من خارج الأسرة يمثلان - وثانيهما على وجه أخص - مرحلة انتقالية بينها وبين الأسرة التالية لها ، وهما :

آى (خبر خبرو رع) : ١٣٣٩-١٣٣٥ .

حور محب (چسر خبرو رع) : ١٣٣٥ - ١٣٠٨ ؟ ق.م .

من شخصيات الفراعنة : كالمألوف من مصادر التاريخ القديم ، اهتمت نصوص العصر ومناظره بإظهار الجوانب الطيبة وحدها من شخصيات الملوك ، ولم تشذ عن ذلك فى غير القليل النادر . ولسنا ننفى احتمال الافتعال فيما أتت به هى وأمثالها عن ملوكها، الذين سوف نتوسع فيما يلى فى ذكرهم بلقب «الفراعنة» أكثر من سابقيهم ، ولكننا لن نستطيع أن نحرمها فى الوقت نفسه من إثارات صدق كثيرة أو قليلة زكتها أعمال أصحابها . وهكذا ، وبغير أن نتقيد تماماً بحرفية رواياتها ، صورت هذه المصادر بعض فراعنتها قريبين كل القرب من قلوب رعاياهم ، حتى لقد أنزلوهم

منازل القديسين بعد وفاتهم ، ومنهم أحمس رأس الأسرة ، وولده أمنحوتب الأول الذى رأى أهل طيبة فى مناقبه ومناقب أمه أحمس نفرتارى مادعاهم إلى التبرك بتصويرهما داخل مقابرهم، وتقديم الابتهالات لهما لبضعة قرون بعد وفاتهما ؛ لاسيما فى قرية عمال دير المدينة التى ولى بعضهم الكهانة لهما .

وكانت أحمس نفرتارى قد ورثت مكانة أمها وجدتها فى عهد زوجها أحمس الأول . ولما لم يكن لها مجال فى مرحلة التوسع الحربى ، حملت عدة ألقاب دينية كبيرة ، وخلع عليها زوجها منصب الكاهن الثانى لآمون فى الكرنك ، ثم لقبت بلقب «حرم الإله (آمون) » لأول مرة (أو على الأكثر بعد أمها إياح حوتب) ، وصورت مع زوجها أحمس فى مثل حجمه على لوحة فى الكرنك [١] .

وتميز الملك تحوتمس الثالث برقة إحساسه وذوقه ، ولم تحل طبيعته العسكرية دون أن يصفه وزيره رخميرع بأنه «كان أباً وأماً للناس أجمعين» [٢] ، وأن يشهد رفيق صباه «من خبر رع سنب» بأنه كان يقضى بعض سويعات فراغه فى ابتكار تصميمات ورسوم لأوان فاخرة وهيئات تماثيل صغيرة ويكلف فنانيه بتنفيذها حتى يهديها إلى معبد آمون . ولم تصرفه حروبه الطويلة عن أن يوصى بجمع الزهور والنباتات النادرة والطيور المختلفة من أرجاء دولته الواسعة وتربيتها فى مصر [٣] ، وقد أهدى بعضها إلى حديقة الكرنك، وأوحى بنقش صورها المتنوعة فى قاعة ملحقة به تسمى غرفة النباتات [٤] .

ثم آخناتون صاحب دعوة التوحيد الذى اعتبره أنصاره نبياً أو أكثر من نبى ، والذى سلك سبيله إلى قلوب أتباعه بالمنطق والقدوة الطيبة ، وسارع بنفسه وزوجته وبناته إلى معابد العاصمة يؤم العبادة ويرتل الدعوات ، وابتعد بنفسه وبآل بيته عن مظاهر التزمت الملكى التقليدية، وخرج بهم على أهل العاصمة يرونه ويرونهم على ماهم عليه . وفتح مغاليق حياته الخاصة للمثالين والرسامين ، فصوروه فى بشريته الخالصة وفى فرحه وحزنه ، وعبثه وجده ، وما ابتلى به من أعراض المرض

---

(١) M. Gitton, L'epouse du dieu Ahmes Nefertary, 1975.

(٢) *ZAeS*, LX, 66.

(٣) Breasted, *Ancient Records*, II, 545, 773, 557.

(٤) Urk. IV, 775f.; Wresz., *Atlas*, II, 26f.

وعيوب البدن . وإن اعتبره خصومه على الرغم من ذلك كله مارقاً ، ثم أنصفه التاريخ واعتبره فيلسوفاً . تداخلت بعض آثار وألقاب وأعمال الملوك خلفاء الملك أمنحوتب الأول مما أثار جدلاً طويلاً بين المؤرخين الحديثين ومنهم برستد وزيته وادجرتون ، حول مايسمى بمشكلة تتابع الملوك التحامسة ، وسوف نتخفف من تفاصيل هذا الجدل هنا، ونتتبع ما انتهت إليه أرجح النظريات فى شأنها .

وعادة ما ازداد تمسح أولئك الملوك بالدين وكرامات معبودهم الأكبر آمون رع، كلما أحس أحدهم بشبهة يمكن أن تمس شرعية ولايته للعرش ، وحينئذ يسارع إلى تأكيد تدخل آمون رع رب الدولة بنفسه فى اختياره ، أو يسارع بتأكيد بنوته المباشرة له نتيجة لتقمصه روح أبيه حين أنجبه . وعبرت عن هذه الإدعاءات أربع روايات للملوك : حاتشبسوت وتحوتمس الثالث وتحوتمس الرابع وأمنحوتب الثالث . وكانت حاتشبسوت ابنة للملك تحوتمس الأول من زوجة رئيسية ، وكان من المفروض أن تخلفه على العرش، لولا أن سوابق حكم الملكات فى مصر القديمة لم تشجعه ولم تشجعها على إعلان تتويجها دفعة واحدة فزوجها من أخ لها غير شقيق ولد له من زوجة أقل مرتبة من أمها وولى العرش بعده باسم تحوتمس الثانى . ونجحت هى فى أن تؤكد شخصيتها فى عهد هذا الزوج وعلى حسابه، وأن تمهد لخلافتها إياه . ثم حالفها الحظ واختطفه الموت بعد أن أنجب منها بنتين وأنجب ولداً من زوجة أخرى ، ولكنها آثرت الحذر مرة أخرى ، فلم تعلن نفسها ملكة على التو ، وإنما قدمت ابن زوجها الذى ولى العرش باسم تحوتمس (الثالث) وزوجته بنتها حاتشبسة، وجعلت نفسها شبه وصية عليه نحو ثمان أو تسع سنوات استغلتها فى تجميع الأنصار حولها . وعندما اطمأنت إلى قوة مركزها وكثرة مريديها، نحت الغلام جانباً وأزعمته على الاعتكاف ، وبررت فعلتها فأوحت إلى أتباعها بقصة نشروها بين الناس ثم سجلوها تصويراً فى لوحات فنية كبيرة على جدران معبدها فى الدير البحرى بطيبة الغربية[1]، وأكدوا فيها أن الإله آمون رع أنجبها بنفسه أو من روحه ، وأن أباها البشرى تحوتمس الأول ارتضى هذه البنوة، وأعلنها شريكة له فى الحكم خلال حياته وأوصى لها بالملك بعد وفاته . وبدأت القصة بتصوير مشاعر آمون إزاء أمها أحمس ، فأظهرته يدبر أمره لإيجاد وريث شرعى من سلالته يحكم مصر ويعوضها عما سلف

(١) E. Naville, *The Temple of Deir el-Bahari*, II, pl. 47 f.



من أمرها ، ثم صورته ينصرف بتفكيره ورغبته إلى الملكة أحمس بعد أن تشاور في شأنها مع صفيه ومبعوثه المعبود تحوتي وسمع منه الثناء المستفيض عليها ، وحينئذ أعلن لبقية الأرباب أنه سيهبها مولوداً من صلبه يعتلي العرش ، وأنه قضى بجعل مولوده المرتقب أنثى . وتحققت المعجزة وحملت الملكة ، وأوحى آمون فيما ادعت القصة إلى المعبود خنوم المتكفل بخلق البشر بأن يصور بدن الجنيني من صلصال ففعل. واختار آمون اسم المولودة من سياق حديث شائق دار بينه وبين أمها ، فسماها «حاتشبسوت خنمة آمون» بمعنى «ذروة النبيلات صفية آمون» وقدم مولودته إلى الأرباب باعتبارها وريثته على الأرض . ثم تلقى أبوها البشرى تحوتمس إرادة آمون عن رضها وأعلنها على الناس . ولما أصبحت الابنة شابة جميلة نضرة تضارع الربة «إحو» في زمانها ، طاف بها على المعابد الكبرى وأعلنها خليفته على العرش [١] .

وجرى **تحوتمس الثالث** على سبيل مشابه ليفسد على خصيمته دعواها ، فروت نصوصه قصة يبدو أن أباه كان قد دبرها مع الكهنة ، ليقيه ضرر طموح حاتشبسوت. وذكرت أنه حدث خلال عيد ديني كبير في الكرنك أن انتحى تحوتمس الصغير جانباً من البهو الشمالي للمعبد ليشهد منه موكب ربه آمون ، وكان قد انتظم حينذاك في سلك التربية الدينية بالمعبد ولكنه لم يكن قد بلغ بعد منصب «خادم الرب» . وعندما مر الموكب والفرعون في مقدمته تعمد (تمثال) الإله أن يتجه بموكبه إلى البهو الشمالي ويطوف به ، وقد تبعه الكهنة ورجال الدولة دون أن يعلموا حقيقة هدفه ، حتى بلغ موضع تحوتمس الصغير وتوقف عنده ، فخر الأمير ساجداً ، واعتبرها الكهنة حينذاك آية ، وفسروها برغبة الإله في اختيار الطفل لعرش آياته . ويوحي الإله أنهضوا الأمير وقدموه في الموضع المخصص للحاكم ، وبعدها انكشفت له آفاق ربه وطار إلى سمائه وتلقى منه ألقابه ، أو هكذا روت القصة .

وكان لحفيده تحوتمس الرابع عدة إخوة من أمهات مختلفات ، وفي سبيل تأييد حقه في العرش أشاع قصة عرفت اصطلاحاً باسم قصة الرؤيا ، ومؤداها أنه حدث في إحدى رحلات صيده للغزلان بصحراء الجيزة أن آوى إلى الظل بجواره تمثال أبو الهول ، وأخذته سنة من النوم رأى الإله فيها يتحدث إليه بلسان مبين ، ويقول له فيما

(١) راجع رأينا فيما يمكن استنتاجه من وقائع وعادات من هذه القصة في كتابنا عن : الأسرة المصرية في عصورها القديمة - القاهرة ١٩٨٨ - ص٧٥-٧٧ .

روى : «ولدى تحوتمس ، تأملنى فأنا أبوك ، إنى واهبك ملكى على الأرض لتصبح سيداً على الأحياء ... ، وستكون لك الأرض بطولها والعرض ، وكل ماتضيئه عين رب الكل ....، وها أنذا موليك وجهى فكن حفيظاً على شئونى ....» إلخ [١] . وكان فى ذلك إيحاء إلى الناس بتفضيل الإله إياه ليتولى عرشه .

وأحاطت بتولية ولده أمنحوتب الثالث ظروف لاندرى حقيقة تفاصيلها ، جعلته يدعى الميلاد الإلهى هو الآخر . ومن هذه الظروف احتمال بنوته لأم ميتانية الأصل تزوجها أبوه تحوتمس الرابع ليزكى صلاته بدولة الميتان . وعندما خشى أمنحوتب أن تعيبه أجنبية أمه ، ادعى هو وأنصاره أن آمون أنجبه منها بنفسه أو من روحه بعد أن اصطفاها وارتضاها لذاته . وصوروا هذا الإدعاء فى لوحات فنية كبيرة بمعبد الأقصر، ونقشوها بمناظر ومراحل تشبه مراحل قصة ميلاد حاتشبسوت .

ولسنا ندرى مدى تصديق المصريين لهذه الإدعاءات من هذا الملك أو ذاك ، ولكن حسبها ماتدل عليه من اعتقاد الملوك الفراعنة بأن الأمر الواقع فى ارتقاء العرش والهيمنة على السلطة لايكفى ، وأنه لابد من تأييده بسند من الدين يرضى الكهان والخاصة والعوام .

* * *

وفت الأسرة الثامنة عشرة لمدينة طيبة واحتفظت بها عاصمة أولى للدولة ، باعتبارها مسقط رأس ملوكها ، والأتون الذى انبعثت منه شرارة التحرير ، وباعتبارها مقر المعبود الأكبر آمون رع ، الذى استعان أوائل ملوك الأسرة به لصبغ جهادهم ضد الهكسوس بصبغة مقدسة ، وظل خلفاؤهم يحاربون تحت رايته ويردون انتصاراتهم إلى تأييده ونصره . وكان فى كل هذا ماعوض طيبة الواقعة فى قلب الصعيد عن ميزة الموقع المتوسط فى الدولة، بعد أن اتسعت حدود هذه الدولة اتساعاً كبيراً شمالاً وجنوباً . وقد تجلى الاهتمام بها وبإلهها فى كثرة ما أقيم فيها على مر الزمن من عمائر ومعابد دنيوية وأخروية ، فى ناحيتها الشرقية وناحيتها الغربية ، وهذه سوف نعرض نماذج مختارة منها فى حديثنا عن العمارة والفن فى العصر نفسه . ولكن يعنينا هنا أن الإسراف فى الاهتمام بآمون ومعابده ، والإسراف فى رصد الأوقاف

---

(١) A. Erman, *Die Splhinxstele*, 1904.



الضخمة عليها وعلى عبادنه ، وقد كانت تبلغ أحياناً خراج مدن كاملة ، والإفساح لكبار كهنته في بلوغ كبرى مناصب الدولة .. كل هذا أصبح فيما بعد من عوامل حض الملك آخناتون على ضرورة التغير الشامل فى سياق دعوته الدينية الرامية إلى توحيد العبادة لإله واحد ، حتى يتخلص ضمناً من تعدد المعبودات وكثرة المعابد، التى أصبحت تمتص خيرات الدولة بغير طائل ، ويتخلص كذلك من تدخل كبار الكهنة الذين أصبحوا قبيل عهده يبدون كأنهم أصحاب دولة داخل الدولة . أما عن تفاصيل دعوة التوحيد نفسها، فهذه سنتناولها بالتفصيل فى فصل العقائد الدينية .

وظلت الشخصية الثانية بعد الفرعون ، هى شخصية الوزير وربما ازدوجت الوزارة حينذاك ، فاستقر الوزير الأكبر فى العاصمة طيبة ، وظهر أحياناً وزير آخر فى منف التى كانت مقراً لأولياء العهود ومركزاً لبعض وحدات الجيش والملاحة النيلية(١). وشغل الوزارة فى هذا العصر مدنيون وآخرون جمعوا بين الوزارة وبين رئاسة كهنوت آمون . وسجل «رخميرع» وزير تحوتمس الثالث فى نقوش مقبرته بغرب طيبة مرسوم تكليفه بأعباء الوزارة وتعاليم الفرعون له بما ينبغى أن يتخلق به خلال قيامه بها . وقد لاتكون هذه التعاليم من بنات أفكار تحوتمس الثالث كلها ، حيث سجلت بصور مختلفة عند وزراء لفراعنة آخرين ، ولكنها فى مجملها كانت أليق به بما عرف عنه من عدالة وحصافة ، ويمكن أن تعتبر فى مجملها دستوراً لعلاقة الحكام والولاة برعاياهم خلال الدولة الحديثة . وبدأت بقول الملك : «يأبى الرب التحيز ، وهذه تعاليم نرجو أن تتبع سبيلها» ، ثم استرسل فى نصائحه وقال فيما قال : «تطلع إلى منصب الوزير هذا وكن يقظاً لكل مايحدث فيه ، فهو عماد الأرض كلها ، ولاحظ أنه ليس بالمنصب الهين ، ولكنه مر المذاق ..، وهو لايعنى (مجرد) تقدير الذات واحترام الرؤساء ورجال البلاد ، وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفراداً من الشعب...، فإذا قصدك شاك من الصعيد أو من الدلتا أو من أى بقعة فى الأرض ، فعليك أن تتأكد من أن كل شيء يجرى وفقاً للقانون والعرف . وامنح كل ذى حق حقه ..، ولاحظ أن من يلى منصباً كبيراً يردد الهواء والماء كل مايفعله ولايمكن أن تستمر تصرفاته خافية..، تصرف وفقاً للعدل ، فالمحاباة يمقتها الرب . وإليك نصيحة تتخلق بها : عامل من تعرفه كما تعامل من لاتعرفه ، وانظر إلى المقرب إليك نظرك

(١) Kees, *Priestertum*, 62 f.; A. Badawi, *Memphis*, 53 f.; 58 f.

إلى البعيد عنك ...، لاتشح بوجهك عن صاحب شكوى ، ولاتؤمن سريعاً على حديث من يحادثك ..، لاتغضب على فرد بغير حق ، واقصر غضبك على من ينبغى الغضب منه . كن مهيباً يهابك الناس ، والنبيل هو من يجله الناس وتتأتى مهابته إذا أحق الحق ..، ولكنه إذا أخاف الناس وأسرف فى ترويعهم ، وكانت به نقيصة ، نزلوا به عن مصاف الرجال .

ولسوف تنجح فى تحقيق الهدف من منصبك إذا نصرت الحق ، فالناس يتوقعون العدل فى كل تصرفات الوزير ، وتلك سنة القضاء منذ حكم الرب على الأرض ....، كن عنيفاً مع المتكبر ، فالفرعون يفضل من يستحى على من يتكبر..،[١] . وهذه كلها تعاليم يمكن أن يصلح الحكم بها فى كل عصر .

وزادت مركزة الأمور فى يدى الوزير الأعلى (فى طيبة) عما كانت عليه قبل الدولة الحديثة ، وأصبح إشرافه على ولاة الأقاليم أعم وأكبر ، وكان له رسل ومندوبون يعملون كحلقة وصل بينه وبين المصالح الإقليمية ويقدمون تقاريرهم لرؤسائهم ثلاث مرات فى العام ؛ الأمر الذى قلل من شأن الأسر الإقطاعية الكبيرة فى حكم الأقاليم . واتسعت تبعات الوزير فى مقابل ذلك باتساع آفاق الموارد والاستثمارات والمسئوليات فى شئون الضرائب والزراعة والرى والمنشآت وتنظيمات الجيش والبحرية والأمور الخارجية ، فى فترات الازدهار الداخلية والانطلاق الخارجى من هذا العصر .

إصلاحات حور محب (چسر خبرو رع) :

لم يكن من المتوقع أن تسير أمور الإدارة سيراً مثالياً أو هادئاً دائماً ، لاسيما فى فترات القلق التى أعقبت عهد آخناتون وعهود خلفائه فى أواخر هذا العصر ، والتى لم تتخلص مصر منها إلا بعد أن شهدت نشاطاً داخلياً جديداً ببداية حكم حور محب (١٣٣٥-١٣٠٨ ؟) وكان رجلاً من خاصة الشعب تزوج النبيلة موت نجمة ، واعتلى العرش بعد أن عز وجود وريث شرعى قوى الشكيمة من صلب الأسرة المالكة . وساعدته خبرته بأمور الحرب وأحوال الإدارة منذ أيام آخناتون وأبيه ، وتمتعه بحزم،

(١) *Urk.* IV, 1090 f.; Sethe, *Einsetzung des Veziers unter 18 Dyn.*, 1902; Gardiner, *Rec. Tr.*, XXVI, If.; R. Faulkner, "The Installation of the *Vizier*", *JEA*, XXLI, 18 f.

تطلعت البلاد إليه ،بعد فترة طال فيها النزاع بين القصر الفرعوني وكهنوت آمون في عهد الملك نفسه ، وعجز فيها كل من الفريقين المتنازعين عن أن يحقق لنفسه سيطرة كاملة على الفريق الآخر ويعيد إلى البلاد استقرارها القديم ؛ الأمر الذى أدى إلى سوء الإدارة وإلى تعطل النشاط العسكرى فى الخارج واجتراء بعض العسكريين المتعطلين على حقوق الدولة وممتلكات المواطنين . وفى بداية حكمه الذى اختلف تقديره بين ١٢ وبين ٢٥ عاماً ، أصدر حور محب مجموعة من المراسيم عرفت باسم «قوانين حور محب» ، ثم نقشت على الوجه الداخلى للصرح العاشر بالكرنك وقد أكد فى مقدمتها أسفه على ضياع السلطة فى الأرض ، وأنه ابتغى بقوانينه أن يمحو بها أعمال النهب والعنف وأنه أملاها بنفسه على أهل بلاطه ، وأنه اختار قضاته الإداريين الجدد لتطبيقها ممن يحسنون القول ، ويمتازون بالخلق الطيب ويدركون خفايا الأمور .

ويتبين من قوانينه هذه أن الضريبة التى اعتادت الدولة أن تفرضها على جلود الماشية وتجبيها من الزراع والرعاة كل عامين ، أصبحت نهباً مشاعاً لعدد كبير من الموظفين والعسكريين كانوا يغالطون دافعي الضرائب ويجبونها سنوياً لصالحهم . وأن بعض الجنود كانوا يعتدون على سفن الغلال المتجهة إلى أهراء الدولة وينهبونها . وأن أصحاب المراكب غالباً ماكانوا يحرمون من أجورهم على مايؤدونه من خدمات للدولة ، وكانوا يعوضون ذلك بالاشتطاط فى طلب أجور باهظة عن النقل المدنى . واستهدف حور محب فى قوانينه أن يحمي دافعي الضرائب وعمال المزارع ، ففرض على المعتدين والمرتشين عقوبات رادعة ، تمثلت فى الجلد بالسياط وجدع الأنف، والنفى إلى ثارو على الحدود الشمالية الشرقية . وربما امتد نفى المذنبين إلى الواحات والنوبة أيضاً . وعمل على تنفيذ مراسيمه من تاريخ صدورها دون أثر رجعي ، والمسارعة بمعاقبة المخالفين ليكونوا عبرة لمن سواهم ، والحرص على استرداد المسروقات ، وإعفاء صاحب الماشية من الضرائب المستحقة عليه، إذا سرقت ماشيته أو نفقت بشرط أن يثبت ضياعها أو هلاكها . وكان حازماً مع رجال جيشه، على الرغم من أنه كان منهم ، فساوى بينهم وبين غيرهم فى الردع والعقاب (١) .

* * *

(١) *Urk.* IV, 2140 f.; Helck, *ZAeS*, LXXX, 109 f.; K. Pfluger, *JNES*, V, 260 f.; Van de Walle, *Chronique d'Egypte*, 1947, 230 f.; see *ZAeS*, 1955, 109-136; Helck, *CdE*, 48 No. 96 Cairo 42114; Berlin 2296; Polacek, in *Le Droit egyptien ancien*, 1976, 87-111.

من مفاخر كبار الأفراد :

لم يحل سلطان فراعنة الأسرة الثامنة عشرة دون ذيوع شهرة كبار رجال دولتهم . ولم يتردد هؤلاء الكبار في أن يصفوا أنفسهم علناً بما كانوا يعتقدون أنهم أهل له من الكفاية والاقتدار . ومن هؤلاء القائدان أحمس ابن إبانا ، وأحمس بانخبة ، اللذان سوف نستشهد بنصوصهما في سياق حديثنا عن بداية التوسع الخارجي ، وكبير المهندسين «سنموت» صفي حاتشبسوت ومربي لبنتها ، وكان من قوله يفخر بمهارته الفنية أو العلمية: «ابتدعت أموراً من تلقاء نفسي فيما نفذته في عملي ، لم توجد من قبل في كتابات الأقدمين» [١] . ثم الوزير رخميرع الذى عقب على أخذه بتعاليم مولاه بقوله: «ها أنذا أتحدث بنفسي وأعلنها حتى يسمعها أولو الألباب . لقد سموت بالعدالة حتى عنان السماء ، وجعلت بهاءها يعم الأرض باتساعها ، فاستقرت في خياشيم الناس كنسمة الشمال التي تطرد عكوسات البدن ....، وأبيت المنكر ولم أفعله ، وجعلت النمام يلقى على أم رأسه ...، ولم أضح بحق من أجل مكافأة ، ولم أصم أذني عن صفر اليدين ، ولم أقبل رشوة إنسان ...، وعلمت الجاهل ماينبغي عليه أن يفعله ...» [٢]. ثم وصف نفسه بأنه «نبيل يتلو الملك (مباشرة) ، ورابع حكم بين الرفيقين المقدسين (حور وست) ....، بارع في عرف الأحياء ، وصاحب المقام الأول في رأى الجماهير» . وقال في أسلوب طريف وهو يصف حصافته في توجيه شئون الدولة« كنت رباناً لاأغفل ليلاً أو نهاراً ، وسواء وقفت أم جلست، وجهت بصيرتي إلى مقدمة سفينتي ومؤخرتها . ولم تتراخ يدى عن العصا التي أسير بها أعماق الماء ، وظللت يقظاً حتى لاتجنح (السفينة) مني في فرصة ما ...» .

ووصف حاجب للفرعون تحوتمس الثالث ، يدعى إنتف ، نفسه بأنه الحكيم المجتبى بالمعرفة ، المؤتمن حقاً ...، وأنه مكتمل العقل للغاية ، ذكى الفؤاد ، يدرك النوايا قبل أن تفصح عنها الشفاه ، يتكلم عن بصيرة وبوحى رأيه الخاص ، ليس من أحد لايعرفه .. ، خادم للفقير ، أب لليتيم ...» ، ثم قال : سيطر على ضميرى ودفعني إلى أن أفعل مافعلت ، وهو وازع جليل ، لم أتعد وحيه ، وخشيت أن أخالف صوته ، فنعمت به كثيراً وأصبحت كاملاً بما دفعني إلى عمله ، وذا مقام بفضل توجيهه .. ،

(١) Cairo 42114; Berlin 2296; E. Drioton, *ASAE*, XXXVIII, 231 f.

(٢) *ZAeS*, LX, 69.

فهو الذى قال الناس عنه إنه معجزة الأرباب ، ذلك الكائن فى كل جسد ، هو الوازع ، وهو الهادى إلى خير طريق لبلوغ الكمال ...» [١] .

واشتهر من رجال أمنحوتب الثالث أصحاب الفضل فى مشاريعه المعمارية والحربية والمدنية سميه أمنحوتب ابن حابو ، وقد عبر عن خبرته فى الدنيا والدين بقوله: «تعمقت فى الأقوال القدسية ، واطلعت على أعمال تحوتى (رب الحكمة) الباهرة، وتزودت بكل أسرارها وكشفت عن كل فصولها ، واعتاد الناس أن يستشيرونى فى كل أمورها ..»[٢] . واطمأن الفرعون إلى رجله هذا فعهد إليه بتربية ابنته ، وسمح له بأن يقيم تماثيله الخاصة داخل رحاب الكرنك معبد آمون وفى معبد موت[٣]. وذاعت شهرة ابن حابو بالتقى، وشجعه ذلك على أن يعد الناس فى نقوش تماثيله ، إن هم ترحموا عليه ، بأن يتشفع لهم من ناحيته عند ربه آمون . وعندما بلغ الثمانين من عمره كان لايزال يأمل فى المزيد ، فقال فى نقوشه : «بلغت الثمانين وأرجو أن أعيش حتى مائة وعشرة» (وكانت هى السن المثالية لشيوخ المصريين) . وترتب على سمعته الطيبة أن قدسه مواطنوه بعد وفاته واعتبروه من الأولياء ، ثم ألهوه فى عصورهم المتأخرة وشاركهم الإغريق فى تأليهه ، وقدسوا أمه وصوروها على هيئة الربة سشات راعية الكتابة والحساب . ونسبوا إليه المعرفة بالطب ، وأعادوا بناء مقصورة شعائره فى غرب طيبة وأحالوها إلى معبد كبير ، وقرنوه بإيمحوتب مهندس عصر الأسرة الثالثة وحكيم زمانه ، وخصصوا لهما مقصورتين فى السطح العلوى من معبد حاتشبسوت بالدير البحرى ، وشادوا بكراماته فى قضاء حوائجهم وشفاء مرضاهم إذا باتوا فى معبده ، ثم جمعوا بينه وبين ملكه أمنحوتب الثالث فى أسطورة سموها «تنبؤات الفخرانى» [٤] .

ومرة أخرى لانود أن نتخيل حياة أولئك الكبار مثالية كما صوروها ، ولا أن نتخيلها نموذجاً لحياة كثيرين من أفراد شعبهم ، فشتان مابين مقدرات الكبار والصغار، وبين القول وبين التطبيق فى كل مجتمع وكل زمان ، ولكننا نود أن نجمع بين

(١) Louvre C 26; Breasted, *op-cit.*, II, 763 f.; *ZAeS*, XXXIX, 47 f.

(٢) Breasted, *op. cit.*, II, 915.

(٣) Helck, *Der Ein fluss der Militarfuhrer*, 3f., 12, 22, etc.

(٤) *See*, Sethe, "Egyptian Heros", in *Hasting's Encyclopaedia*, VI, 650 f.; Robischon et Varile, *Le Temple de Scribe royal Imenhotep fils d'Hapou, 1936.*

تراجمهم وبين تراجم من استشهدنا بهم فى مناسبات سابقة من رجالات العصور المتعاقبة ، فى تزكية مانراه من أن شخصية الفرد (البارز) إزاء ملكه فى مصر القديمة كانت أظهر بكثير من شخصيات كبار الأفراد فى الأمم الشرقية المعاصرة ، مثل بلاد النهرين ، إزاء ملوكهم ، سواء من حيث الثراء والآثار أم من حيث الاعتداد بالنفس ، على عكس الظن الشائع باختفاء شخصية الفرد المصرى القديم أمام تأله ملكه وتقديس سلطانه .

* * *

فى السياسة الحدودية والخارجية :

خرج أولو الرأى المصريون من محنة الهكسوس وقد غلب على تفكيرهم أنه لاأمان لاستقلال بلادهم من غدر أعدائهم إلا إذا واصلوا الاهتمام بجيشهم وزادوا إمكاناته البشرية والدفاعية والهجومية ، وأنه لا أمان لاقتصادها الدولى من اعتداءات بقايا الهكسوس وأمثالهم إلا إذا أبعدوهم عن مسالك تجارتهم الخارجية جهد مايستطيعون ، وأحاطوها بأنصارهم جهد مايستطيعون . وأنه لا أمان لمستقبل وطنهم من أخطار هجرات شعوبية جديدة غريبة ،و إلا إذا سيطروا بأنفسهم على مداخل الهجرات فى شمال الشام وأطراف العراق [1] . وتكفل بالمرحلتين الأولتين من هذه السياسة الملكان أحمس الأول وأمنحوتب الأول على التعاقب ، بينما أخذ خليفتهما تحوتمس الأول على عاتقه أن يبدأ بتنفيذ المرحلة الثالثة منها .

وكان أحمس الأول (نب بحتى رع) قد استن من جانبه أدوات تنفيذ المرحلتين الأولتين فيما مر بنا ، فترأس جيوشه بنفسه بعد استكمال عتادها وأجلى بها أعداءه وخرج بها عن حدود بلده ، وقدر خطورة إقامة الهكسوس على مقربة من هذه الحدود، فحاصر مركز تجمعهم فى شاروحين حتى أجلاهم عنها وشتتهم منها كما أسلفنا . ثم استعاد هو ورجاله صلات مصر بمتاجر الشمال والجنوب ؛ أى تجارة بلاد الشام ، ومن كانوا يتعاملون مع موانيها من تجار كريت وجزر بحر إيجه ، ثم تجارة النوبة وكاش وما وراءها من الأقطار الجنوبية .

(١) Compare, D. Lorton, *The Juridical Terminology of International Relations in Eygptian Texts through Dyn.* XVIII, Baltimor 1974; *JARCE*, 11 (1974), 53-68.

فى عهد أمنحوتب الأول :

خلف أحمس الأول على عرش مصر ولده أمنحوتب الأول (چسر كارع)، الذى يحتمل أن يكون قد شاركه فى الحكم لفترة ما فانتفع بجهوده . واستقرت أحوال مصر فى عهده الذى استمر أكثر من واحد وعشرين عاماً (١٥٥٠-١٥٢٨ ق.م) غلب السلام عليها ، ويذكر له فيها أنه جرى على أسلوب أبيه، فخرج على رأس جيشه إلى ماتجاوز الحدود المصرية فى الشمال والجنوب والغرب؛ ليثبت أن سلام مصر فى عهده هو سلام الأقوياء . وصحبه فى بعض حملاته قائدان من قادة جيشه، كان لهما فضل كبير فى تسجيل أخبار حروبه ، أولهما أحمس بن إبانا (أو إبينا) الذى خدم أباه أحمس، وقد ذكر فى نصوصه أنه تولى قيادة الأسطول النهرى وعاد به من النوبة في يومين (حتى أسوان ؟) [١] ، وثانيهما رجل يدعى أحمس كذلك واشتهر باسم أحمس بان نخبة [٢] ، وسوف يكون له دوره هو الآخر فى سياق الحوادث بعد عهد أمنحوتب.

وعمل أمنحوتب الأول على أن يجعل لبلاد النوبة السفلى شخصية واضحة فى صلب أقاليم الدولة ، فسلكها فى وحدة إدارية واسعة، تمتد من الشلال الثانى وتدخل فى صلب الحدود المصرية متضمنة محافظة أسوان ، ليثبت عملياً أنها جزء من مصر يجرى عليها مايجرى على أقاليم مصر نفسها ، وكان حاكمها يلقب بلقب والى الأقاليم الجنوبية [٣] (وإن استمرت الألقاب تترى على صاحب هذا المنصب فيما بعد حتى أصبح أشبه بنائب ملك فى النوبة وغداً يلقب بلقب الإمارة) . وتميز من حكامها ثوروى قائد حامية بوهن ، الذى عين فى العام السابع من عهد ملكه .

وليس من تفاصيل معروفة حتى الآن عن مشروعات عهد أمنحوتب الأول فى بلاد الشام ، إلا أن رجلاً من رجاله ذكر اسم دولة الميتان وأرض مثن فى نصوصه لأول مرة [٤] ؛ مما يعنى أن جهود رجاله قد ترتبت عليها زيادة معرفتهم بأحوال

(١) Sethe, *Urkunden*, IV, 7, 15; Breasted, *Ancient Records*, II, 39; *JEA*, 1974, 250-51.

(٢) Sethe, *op.* cit., 32 f.

(٣) *Ibid.*, 78.

(٤) Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 197 (*after* L. Borchardt).

الشرق القديم وأحوال دوله . وكانت جماعات الميتان آرية الأصل اتجهت هجراتها إلى شمال شرق سوريا وأطراف العراق ، قبيل أوائل القرن السادس عشر ق.م، واعتمدت فى بداية أمرها على نظام الإمارات الفيدرالية لفترة طويلة قبل الانتقال إلى النظام الملكى . وتركزت أهم مدنها على نهير الخابور ونهر الفرات (١) .

فى عهد تحوتمس الأول :

لم يكن السلام المسلح الذى غلب على أحوال مصر فى عهد أمنحوتب الأول غير فترة استجمام ، استجمعت البلاد قواها فيها وتحفزت بعدها لخطوات جريئة جديدة. وبدأت هذه الخطوات الجديدة بتولى تحوتمس الأول (عا خبر كارع) الذى اعتلى العرش فى سن الرجولة الناضجة (ربما بعد الأربعين) ، أى بعد أن حدد أهدافه ورسم آماله . وهو وإن سجل اسمه إلى جانب اسم سلفه أمنحوتب الأول على مقصورته المرمرية فى الكرنك إلا أنه لم يذكر اسم أبيه فى مرسوم اعتلائه العرش على حين ذكر اسم أمه سنى سنب . وبقيت نسخة من هذا المرسوم وجهها إلى ثوروى وإلى النوبة ، ولابد أنه وجه أمثالها إلى ولاته الآخرين فى بقية أنحاء الدولة ، وقال فيه «يوجه إليك هذا المرسوم الملكى لإخطارك أن جلالتى تجلى كملك للصعيد والدلتا على عرش حور الأحياء ، وأنه لامثيل له . وعليك أن تجرى ديباجة ألقابى على النحو التالى ..» . وبعد أن سردها عليه أعلن أن اسمه الذى يجب استعماله فى المراسم الدينية وفى حلف اليمين هو عاخبر كارع . ثم قال وهذه مراسلة لإخطارك بهذا الحدث ولإعلانك بأن البيت الملكى فى حال طيبة وأنه زاهر . كما حدد تاريخ يوم عيد التتويج باليوم ٢١ من الشهر الثالث فى فصل الشتاء .

وآثر تحوتمس الأول لنفسه خطة النضال وسياسة الهجوم ، فكان من قوله عن نفسه إن ساعة الحرب أشهى عنده من يوم هنئ (٢) ، وإنه يتشوف للقتال وينشرح كلما بلغه نبأ تحرك الأعداء (٣). واستغل تحوتمس هذه القوة الدافعة فى نفسه كما استغل الروح الحربية التى سادت شعبه منذ عهدى سلفيه ، فترأس قواته ومد حدود مصر

---

(١) *See*, Sidney Smith, *Early History of Assyria*, XIV, XV; W.F. Albright, JEA, XIV, 283 f.; Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, I, 173 f., 266, 286.

(٢) *Urk.*, IV, 85, 9.

(٣) *L. D.*, III. 128 a.

الجغرافية إلى المدى الذى كان يعتقد أنه مداها الطبيعى ، حيث وصل بها إلى قرب الشلال الرابع ثم عاد وسجل أخبار انتصاراته على الصخور المواجهة لجزيرة تومبس[١] . وزاد فيما فعله سلفه أمنحوتب الأول فجمع المناطق الجنوبية فى النوبة وكاش ، فى وحدة إدارية كبيرة امتدت من نواحى نباتا حتى مدينة نخن أو الكاب قرب إدفو ، ورفع قيمة واليها بما يتفق مع إتساعها الجديد فخلع عليه لقب الإمارة (حرفياً : ابن الملك) [٢] ، واستمرت بقية بلاد النوبة تتمصر منذ ذلك الحين بخطى سريعة وتهذبت مصنوعاتها المحلية التى شاعت فيها منذ أيام الدولة الوسطى [٣] .

واتجه تحوتمس ناحية الشام وأطراف العراق . ووجهه إليها عاملان : عامل القوة الدافعة التى صبغت سلوكه وروح شعبه وعصره ، وعامل تحرك الجماعات الميتانية التى ذكرتها نصوص عهد سلفه ، قرب نهرى الخابور والفرات وفى شمال شرق الشام . وكان فى كل من العاملين ماشجعه على تنفيذ المرحلة الثالثة من السياسة الخارجية للدولة ، ألا وهى السيطرة على أبواب التجارة الدولية ومداخل الهجرات الشعوبية فى شمال الشام وأطراف العراق . ولم تكن أحوال بلاد الشام حين ذاك مما يمكنها من صد هجرات جديدة أو كسر شدة الهجرات الموجودة على أطرافها، دون دفع خارجى أو عون خارجى . وحين تطلع تحوتمس الأول إلى جمعها تحت رايته اعتمد على جرأته واستعداد جيشه واستعان بسلاح المبادرة والتحركات القوية الخاطفة ، فمرق بجيشه من مصر عبر الشام فى سرعة غريبة ودون معارضة كبيرة حتى بلغ نهرينا فى منطقة الميتان [٤] ثم عبر نهر الفرات وأرسى على ضفته الشرقية نصباً حدد به تخوم دولته الناهضة [٥] التى امتدت على حد تعبير نصوص عهده من قرن الأرض فى الجنوب إلى أطراف المياه المعكوسة فى الشمال ، أى من جبل برقل والشلال الرابع حتى أطراف مياه الفرات التى استغرب المصريون جريانها من الشمال إلى الجنوب على عكس جريان مياه نيلهم ، فاعتبروا جريانها جرياناً

---

(١) *Urk.*, IV, 82 f.; *Ancient Records*, II, 67 f.; Saeve-Soderbergh, *Aegypten und Nubie*, 148, 154.

(٢) Urk. IV, 80; *and see*, *JEA*, VI, 82 f.; *Rec. Trav.*, XXXIX, 182 f.

(٣) الكسندر شارف : تاريخ مصر ، ص١٢٢ .

(٤) See, Gardiner, *Onomastica*, I, 144, 171 f., 180, 266.

(٥) Breasted, *op. cit.*, II, 478; D.B. Redford, *JSSEA*, X, 1 (1979), 68-69.

معكوساً، ووصفوها بأنها المياه التى تجعل المبحر يقبل (أو تجعل الطالع نازلا) (١) . وعند عودته من ضفاف الفرات ، وجد تحوتمس من وقت فراغه ومن شعوره بالطمأنينة ماشجعه على أن يمتع نفسه هو وخاصة رجاله بصيد الفيلة فى منطقة أحراج «نى» (٢) .

وظل الرجل فخوراً بما أداه لمصر ، وكان من قوله بين كهنة أوزير فى أبيدوس: «أطلقت حدود تامرى (أى مصر) إلى ماتحيط الشمس به ، وعوضت أهلها بعد خوفهم قوة (وأمناً) ، وأقصيت الشر عنها ، وجعلتها فوق رأس الدنيا كلها ، وجعلت الجميع أتباعاً لها» (٣) .

وهكذا كان لتحوتمس الأول فضل إرساء الخطوط العامة للتوسع الخارجى المصرى الذى يوصف بالامبراطورى تجاوزاً ، وإن كانت شهرة حفيده تحوتمس الثالث فى الحفاظ على مثل هذا التوسع فيما بعد قد غطت جزئياً على شهرته .

ولحسن الحظ احتفظت النصوص المصرية بأقوال بعض من شاركوه فى السمعة الحربية من شجعان جيشه ، وكان منهم أحمس بن إبانا الذى تمرس على الحرب منذ أيام الكفاح ضد الهكسوس ، وقد كتب فى نقوش مقبرته مايقول : «حين بلغ الفرعون نهرينا ... كنت فى مقدمة جيشنا ، وشهد جلالته مدى جرأتى ، وقدت إليه (ذات مرة) عربة حربية بخيلها وبمن فيها أسرى وقدمتهم إليه ، فكافأنى بالذهب ضعفاً..»(٤)، وكان فى قوله «كنت فى مقدمة جيشنا» مايشهد باعتزازه بهذا الجيش وبأن أمثاله من المواطنين أصبحوا يعتبرون الجيش جيشهم وليس جيش الفرعون وحده. ثم أحمس بأن نخبة الذى زامله فى خدمة أمنحوتب الأول ، وذكر هو الآخر أنه اشترك فى حروب نهرينا وأنه قتل واحداً وعشرين شخصاً وأسر وغنم مركبة حربية ... (٥) .

---

(١) *Urk.*, IV, 85, 14; H. Goedicke, The Inverted Water, *GM*, 10 (1974), 13-17.

(٢) *See*, Gardiner, *op. cit.*, 158 f.

(٣) *Urk.*, IV, 102, II f.; *ZAeS*, 1910, 73-74.

(٤) *Urk.*, IV, 9, 10-10,3. See, H. Goedicke, *JARCE*, 11 (1974), 31-41.

(٥) *Urk.* IV, 36, 10-11.

فى عهد حاتشبسوت :

كان منطقياً أن تعقب فترة النضال المستمر فى المرحلة الألى من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فترة هدوء واستجمام نسبى ، وقد حدثت هذه الفترة بالفعل فى عهدى ولدى تحوتمس الأول ، وهما تحوتمس الثانى ثم حاتشبسوت . وقد سارت العلاقات الخارجية فى عهد تحوتمس الثانى (عاخبرن رع) سيراً عادياً هيناً ، وتكفلت جيوشه بمجهودات يسيرة لتوطيد الأمن فى الأملاك الجنوبية (١) والشمالية (٢) .

واتجهت سياسة الدولة فى عهد حاتشبسوت (ماعت كارع) وجهة أفريقية أكثر منها أسيوية ، فعملت دولتها على توطيد الأمن فى منطقة كاش (٣) وعلى استغلال مناجمها وزيادة التبادل التجارى معها هى ماورائها من بلاد السودان . وخرجت فى عام حكمها التاسع بعثتها الاقتصادية الكبيرة المشهورة إلى بلاد بوينة (أو بونت)، وقد صورت أهم مراحلها على جدران معبدها فى الدير البحرى ، وقيل معها إنها بدأت بوحى الإله أمون رع، وإنه أرشدها إلى خير السبل إلى بلاد بوينة ومدرجات أشجار الكندر . وخرجت البعثة فى عدة سفن شراعية كبيرة ومعها سرية من الجند وأبحرت فى البحر الأحمر حتى قرب باب المندب، واتجهت إلى بلاد بوينة (فى جزء من إرتيريا أو الصومال) فاستقبلها حاكم بوينة وزوجته وأولاده وكبار رجاله ، وانحنى كبار حاشيته أمام رمز حاتشبسوت وقالوا وهم يحيونه ويلتمسون البركة منه «تحية لك ملك مصر ، الشمس الأنثى التى تضىء مثل الكوكب» ، وقالوا «حقاً إن ملك مصر لايعزب عنه شىء» . ويبدو أن البعثة هدفت أصلاً إلى بلوغ مدرجات الكندر فى نواحى اليمن لتستورد خير أنواه وتتفادى تدخل الوسطاء فى تجارته ولكن أمير بوينة ورجاله خوفوا رجال البعثة مشقة الطريق ، حتى لايفقدوا مكاسب الوساطة ، وقاموا باستيراد ٣١ من شجيرات الكندر عن طريقهم لصالح المصريين(٤) . ثم بادلوا البعثة متاجرها ، وعادت من أرضهم بكميات كبيرة من الذهب وثمار البخور الجيد وأشجار

---

(١) *Ancient Records*, II, 119 f.

(٢) Urk. IV, 124.

(٣) *See, JNES*, XVI, 99 f.; *ZAeS*, 1966, 97 f.; Redford, *History and Chronology of the 18 th Dynasty in Egypt*, 1967, 57-60.

(٤) Abdel-Aziz Saleh, "Some Problems relating to the Pwenet reliefs at Deir el-Bahari", *JEA*, 1972, 140-158.

الكندر والأبنوس ، والعاج وجلود الفهود والنمور ، وكميات من الكحل ، والمصفقات التى يستخدمها أهل بوينة فى أعيادهم وأفراحهم ، ومجموعة من كلاب الصيد والزراف والقرود . وكان قد صحب الرحلة فنان كبير تولى بعد عودته نقش مناظرها ومراحلها على جدران المسطح الأول لمعبد ملكته فى الدير البحرى (١) ، وصور معها خصائص قرى بلاد بوينة بنخيلها وأكواخها العالية ، التى تقوم على أعمدة من سيقان الأشجار ويصعد إليها أصحابها على سلالم خشبية متنقلة ، وصور بعض حيواناتها وبعض خصائص سكانها ، وسجل معها لوحته الفكاهية الشهيرة الطريفة التى صور فيها أميرة بوينة بدينة ذات أرداف ثقيلة تقف مع زوجها ، وصور معها حماراً صغيراً كتب عنه أنه الحمار الذى يحمل زوجته ، تلاعباً باللفظ بين الزوج الآدمى والزوج الحيوانى ، وإشفاقاً على الحمار الصغير من حمل ذلك الثقل الكبير .

واقتصر الامتداد المصرى فى الشام خلال عهد حاتشبسوت على النشاط التفتيشى، الذى يحتمل أن يكون تحوتمس الثالث قد شارك فيه خلال اشتراكه معها فى الحكم، وقبل أن يخلفها فيه (٢) .

عهد تحوتمس الثالث :

انفرد تحوتمس الثالث (من خبر رع) أحد أعاظم رجال الحرب من الفراعنة المصريين بالعرش عام ١٤٦٨ ق.م أو نحوه . وهو نفس الغلام الذى أشركته حاتشبسوت معها فى بداية حكمها ثم نحته عن الحكم وأجبرته على الانطواء فى معبد آمون . وعندما اعتلى العرش منفرداً واجه مشكلة واسعة هددت زعامة مصر وسمعتها الدولية فى الشرق الأدنى ، وكان عليه أن يتحداها ويثبت كفايته لحلها. وتفرقت مواطن هذه المشكلة فى نواح من بلاد الشام وأطراف بلاد النهرين . وكانت عواملها ثلاثة ، وهى : اهتمام عهد حاتشبسوت بسياسته الأفريقية أكثر من اهتمامه بسياسته الأسيوية ، مما باعد بعض الشيء بين مصر وجيرانها أهل الشام ، وأمل دولة الميتانيين التى بدأت تلم شملها وتعترف بملك واحد فى أن يصبح لها ضلع فى توجيه أحوال الشرق الأدنى وتجارته ، لاسيما وأن موقعها على الفرات وامتدادها إلى شرقه

---

(١) E. Naville, *The Temple of Deir el-Bahari*, vol. III; Brunner-Traut, E., "Die Krankheit der Fursten von Punt", *Welt des Orients*, X (1957), 307-11.

(٢) Redford, *op. cit.*, 62.

نحو دجلة سمح لها بمركز تجارى متوسط، يمكن أن تتحكم به فى مداخل التجارة السورية العراقية ويمكن أن تنافس مصر به [1] . ثم اتجاه حكامها إلى شغل مصر عنهم بإثارة الاضطرابات ضدها ، وقد استجاب لتحريضاتهم بالفعل بعض حكام الشام وشيوخ بدوها ، لاسيما وأنه كانت لاتزال تعيش بينهم بقية من ذرارى الهكسوس الذين طردهم المصريون من بلادهم شر طردة [2] .

وتمخضت هذه العوامل الثلاث عن تحالف ضم عدداً من رؤساء القبائل والمدن الشامية ، وتزعمه أمير قادش ، وكان فيما يحتمل ميتانى الأصل ، أو كان على الأقل كبير المستجيبين للميتان والضالعين معهم . وقد اتجه بحلفائه وخيلهم ورجلهم ، على حد تعبير النصوص المصرية [3] ، إلى شمال فلسطين وسيطر على مدينة مجدو وجعلها مركزاً لأطماعه ، ومد نفوذه حتى مدينة شاروحين معقل الهكسوس القديم . وتمثلت أهمية مجدو (التى قد يعنى اسمها معنى الحصن أو القاطع ، وقامت على أطلالها بلدة تل المتسلم الحالية) فى أنها كانت تتحكم بموضعها فى الممرات الجبلية، التى تجتازها طرق التجارة الدولية بين جنوب الشام وجنوب العراق من ناحية ، وفلسطين ومصر من ناحية أخرى .

وتعنينا الآن خطط تحوتمس الثالث فى معالجة مشكلات عصره من نواح ثلاثة، وهى : دلالاتها على صورة من صور التكتيك الحربى فى عهده . وتعبيرها عن تقليد عسكرى مستحب، وهو حرص الفرعون على تبادل الرأى مع ضباط جيشه عند مواجهة مفاجآت الحرب وقبل دخول المعارك الكبيرة [4] . ثم نجاحها فى إعادة الاستقرار المنشود إلى ربوع الشرق (الأدنى) . فقد لجأ تحوتمس إلى سرعة الإعداد ، ولم يقض فى مصر غير شهور قلائل منذ انفراده بالحكم ، واعتزم الهجوم الخاطف وسرعة التنفيذ على غرار سياسة جده تحوتمس الأول . وخرج بجيشه فى أبريل

---

(١) J. Wilson, *The Collapse of an Ancient* Civilisation, 1940, 4.

(٢) *See, Ibid.*, 2; Sethe, ZAeS, XLVII, 84; JEA., V, 54, n. 2; *Ancient Records*, II, 636.

(٣) *Urk.*, IV, 649.

(٤) Compare, H. Goedicke, *JSSEA*, vol. X, No. 3, 1980, 201.

١٤٦٨ ق.م [١] . وقطع به مابين ١٢٥ ميلاً و ١٥٠ ميلاً من المنطقة الصحراوية الممتدة بين منطقة ثارو (تل أو صيفة شرق القنطرة الحالية) وبين غزة فى تسعة أيام أو عشرة ؛ أى بمعدل مابين ١٢,٥ و ١٥ ميلاً فى اليوم الواحد ، على الرغم من صعوبة الطريق، وعلى الرغم من أن جيشه هذا بلغ تعداده مابين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً أغلبهم من المشاة . وأقام تحوتمس في غزة يوماً واحداً احتفل فيه بعيد توليته العرش ، ثم واصل الزحف بجيشه حتى بلغ مشارف جبل الكرمل فى أحد عشر يوماً أو إثنى عشر يوماً قطع فيها ثمانين ميلاً أخرى ، ونزل فى بلدة «يحم» (فى ٧ مايو ١٤٦٨ ق.م) ، عند مفترق ثلاثة طرق تنتهى جميعها إلى مجدو ، وكان أقصر هذه الطرق طريق وعر ضيق ذكرته النصوص باسم طريق عارونا ، يمر خلال شعب من جبال الكرمل وينفذ رأساً إلى مجدو ، أما الطريقان الآخران وهما طريق تاعاناقا وطريق چفتى ، فكلاهما رحب متسع ، غير أن كلاً منهما طويل، وينعطف فى نهايته بعيداً بعض الشيء عن مجدو . وعقد تحوتمس مجلس حربه ، وقال لقادته : «الآن دخل العدو مدينة مجدو ، وضم إليه أمراء الأقطار .. بخيلهم ورجلهم» ، ثم عرض عليهم أمر الطرق الثلاثة وطلب منهم رأيهم فى اختيار الطريق المناسب، وقال لهم «أفتونى بما فى نفوسكم» . وشعر القادة بأن ملكهم يميل إلى سلوك الطريق القصير الضيق ، فقالوا : «وكيف يتيسر المسير على طريق وعر بالغ الضيق ؟» ثم شك بعضهم في الأنباء التى بلغت الفرعون عن دخول الأعداء فى مدينة مجدو ، وخشوا أن يحتل الأعداء مرتفعات الطريق الضيق ويتعقبوهم أو يحتلوا مخرجه ويتصيدوهم ، فقالوا له : «هناك نبأ يقول إن الأعداء لازالوا فى الخلاء ، يفوقون الحصر عداً ، ثم إنه لن يستطيع جواد أن يسير بجوار جواد فى هذا الطريق الضيق ، فضلاً عن الجنود والمدنيين ، وقد تقاتل مقدمتنا هناك وتظل مؤخرتنا هنا فى عارونا بغير قتال ...» ومعنى ذلك أن مايناسبنا جميعاً هو الطريق المتسع ، سواء الطريق المؤدى إلى تاعاناقا، أو الطريق الآخر المؤدى إلى شمال چفتى ، وعلينا بعد ذلك أن نتجه شمال مجدو ، فليسلك مولانا الهمام أى طريق شاء من الطريقين (الواسعين) ، ولكن لايجبرنا على أن نسير فى الطريق الحزون» . وهكذا دبر القادة أمرهم ، وحاولوا تبرير رأيهم ، وأرادوا أن يؤمنوا جيشهم ضد مفاجآت الطريق ، ولكنهم فضلوا الحذر واللباقة، فتركوا لملكهم حرية اختيار أصلح الطريقين المتسعين .

(١) يفترض ونت وراثة تحوتمس الثالث للعرش عام ١٥٠٤ وليس ١٤٩٠ ق.م ، وأن معركة مجدو وقعت فى الشهر الأول من فصل شمو للعام ٢١ منها .

Wente, *JNES*, 34 (1975) 265 f.



ولم يتكلم تحوتمس لتوه ، وأراد أن يقنع القادة المتشككين ، بصدق ما أخبرهم به عن دخول الأعداء إلى مدينة مجدو ، فاستدعى عيونه وأمرهم أن يعيدوا على مجلس الحرب ماسبق أن أنبأوه به عن مواقع الأعداء ثم اعتزم أمراً ، ولكنه لم يشأ أن يصدره إلى رجاله فى هيئة الأمر ، وفضل أن يعلن استعداده للتضحية بنفسه ثم يترك لرجاله الخيار فى متابعته أو مخالفته ، فقال لهم : «أقسم بحب رع ، وفضل أبى آمون..، لأسلكن هذا الطريق (الضيق) ، طريق عارونا بالذات ، فليذهب من شاء منكم على الطريقين اللذين ذكرتموهما ، وليأت معى من رغب منكم فى متابعتى . وإلا فما الذى سيقوله الأعداء أعداء رع ، ألن يقولوا إن جلالته سلك طريقاً آخر من فرط خوفه منا ؟» . وأفحم القادة بمنطق الملك وهزتهم الأريحية للدفاع عن سمعة الفرعون وكرامة رع وآمون ، فأمنوا عليه وقالوا له : «ليساعدك أبوك آمون ، وهانحن فى معيتك سائرون أينما سرت ، فتقدم ونحن معك كالتابع فى معية مولاه» . وشفع تحوتمس حديثه بالعمل ، أو بمعنى آخر شفع المشورة بسرعة التجهيز والتنفيذ ، واعتزم الهجوم الخاطف ، فاستقبل جيشه ونادى : «هلموا آزروا مولاكم المظفر ، وسيروا على هذا الطريق برغم ضيقه الشديد» ، ثم أقسم قائلاً : «ولن أسمح بأن يتقدمنى أحد حتى فرق الطليعة فى هذا المقام» . وبر الملك بيمينه ، وأصر على أن يخرج بنفسه فى طليعة جيشه» وحينذاك أخطر المنادون كل فرد بمكانه فى المسيرة ، وسار الجواد فى إثر الجواد والملك على رأس الجنود» .

لم يتوقع خصوم تحوتمس أنه سيجازف وجيشه الكثيف بسلوك الطريق الضيق، فابتعدوا عنه ، وخرج هو بطليعة جيشه . ولكن صدق شك ضباطه فى الأنباء التى وصلته عن تجمع خصومهم داخل مجدو ، فقد كان هؤلاء لايزالون منتشرين فى الخلاء فعلاً . ولما تيقن القادة من ذلك قالوا لملكهم بجرأة وصراحة : «نرجو أن يستمع مولانا إلينا فى هذه المرة ، ويتركنا نحافظ على مؤخرة جيشه وأفراد شعبه ، فإذا وصلت إلينا مؤخرة الجيش قاتلنا الأعداء دون أن ينشغل بالنا على رجالنا» . وأطاع تحوتمس رجاله ، وجلس على مقعده أمام سرادقه ، حتى خرجت إليه مؤخرة جيشه عند الزوال ، وأكرم القادة وأرسل المؤن للأتباع وعين حرس المعسكر وأوصاهم بالثبات واليقظة .. ، ثم أتته الأنباء بخلو الساحل وأن فرق العسكر الجنوبية والشمالية فى وضع سليم . وفى يوم عيد القمر الصادق (بما يوافق ١٢ مايو ١٤٦٨ ق.م) خرج الملك فى الفجر ، فى عربة مذهبة مزودة بأسلحة الحرب ، وتوسط جيشه ثم انحط به على الميدان . ولم تطل المعركة ، وآثر خصومه الفرار ، وتركوا خيولهم وعرباتهم

المذهبة والمفضضة . وكان أهل مجدو قد أغلقوا أبواب مدينتهم ، ولكنهم عاونوا كبار الفارين ودلوا لهم أقمشة ربطوها حول خصورهم ورفعوهم بها ...، وهنا عقب المراسل الحربى لتحوتمس بأنه لو لم ينشغل جيش جلالته بجمع الغنائم لاستولى على مدينة مجدو فى الحال ، ولكن انشغالهم سمح لأمير قادش وأمير مجدو بالفرار إليها ...، واضطر الجيش المصرى إلى تطويق المدينة ، فأحاطها بخندق وطوقها بسور من جذو الأشجار ، واستمر فى مراقبتها سبعة شهور ، حتى إذا طال المطال على أهلها أخرجوا أبناءهم إلى تحوتمس يقدمون له السلاح والهدايا ، فعفا عنهم وقبل هداياهم ، ثم خرج إليه حلفاؤهم الأمراء وأعلنوا استسلامهم ، فقبل جزاهم وسرحهم إلى مدنهم ، واكتفى بأن جعلهم يستبدلون حلفاؤهم الأمراء وأعلنوا استسلامهم ، فقبل جزاهم وسرحهم إلى مدنهم ، واكتفى بأن جعلهم يستبدلون الحمير بخيولهم ، عقاباً يسيراً ، وهوناً من هوان، ولأنه كان أحوج إلى الخيول كما قال [(١)] . وعندما عاد بجيوشه إلى مصر كان قد أعاد الاستقرار إلى جنوب الشام وأرهب خصومه ، وكسب ود الأمراء الذين تسامح معهم ، وأصطحب معه بعض أبنائهم إلى مصر ليكونوا ضماناً لإخلاص آبائهم [(٢)] .

وتفقد تحوتمس أحوال الشام بعد ذلك أربع مرات فى أربعة أعوام متتالية ، كان يخرج فيها فى عروض عسكرية سلمية ضخمة . ثم اعتزم فى مرته السادسة منازلة أمير قادش رأس المشكلة فى عقر داره ، بعد أن اطمأن إلى سلامة ظهره ، أى اطمأن إلى إخلاص المدن الشامية التى تركها خلفه واطمأن إلى كفاية أساطيله وقدرتها على تموين جيشه من ناحية البحر، وحماية إمداداته فيما لو حدث شيء يهدد اتصالاته من ناحية البر .

وكانت قادش ، وهى تل نبى منذ الآن ، تستمتع بحصانة طبيعية وتحتل موضعاً استراتيجياً أصيلاً فاقت أهميتها به أهمية مجدو ، فقد وقعت بين ثلاثة تحصينات مائية : نهر العاصى الذى قامت على ضفته الشرقية وفرع صغير اتصل به عندها من ناحيته الغربية ، ثم بحيرة حمص التى تقع إلى الشمال منها بقليل .

---

(١) *Urk.*, IV, 647 f.; *Ancient Records*, II, 391 f.; H.H. Nelson, *The Battle of Megiddo*, 1913; R. Faulkner, *JEA*, XXVIII (1942), 2 f.

عبدالعزيز صالح : «التربية العسكرية فى مصر القديمة» – بحث فى المجلد الأول من تاريخ الحضارة المصرية – القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص١٩٦-١٩٨ .

(٢) *But Compare, Ancient Records*, II, p. 170.



وتحكمت قادش بحكم موقعها فى المدخل الشمالى لوادى البقاع المؤدى إلى قلب سوريا، وأشرفت على وادى النهر الكبير المؤدى إلى ساحل البحر المتوسط ، وأطلت على طريق تجارى رئيسى يصل بين بلاد النهرين وسوريا . وكانت محصنة ويقوم بالقرب منها معسكر قديم من معسكرات الهكسوس ، كما يقوم على بعد ٣٥ ميلاً منها معسكر قطنة أكبر معسكرات الهكسوس جميعاً (راجع أيضاً حضارة الشام فى جزء تال لهذا الكتاب) .

ونجح تحوتمس بجيشه فى هزيمة خصمه أمير قادش بعد مجهود كبير ، ودخل المدينة وأصلح رجاله أسوارها ، وألف بينها وبين بقية المدن السورية ، ورجع إلى مصر ومعه بعض أمرائها الصغار الذين قالت عنهم حولياته الرسمية : «استحضر جلالته أولاد الأمراء وإخوتهم ليكونوا ودائع على أرض مصر ، حتى إذا توفى أحد الأمراء عين جلالته ولده فى منصبه ، وكان عددهم فى هذا العام ٣٦ فرداً ، ومعهم من الخدم والجوارى ١٨٨» [1] . وعلى الرغم من الرغبة فى اتخاذ هؤلاء الأمراء ودائع ضماناً لإخلاص آبائهم ، فإن بقية السياق تدل على أنه كان ينظر إليهم نظرة طيبة تحفظ عليهم مكانتهم الأولى وينعمون فيها بخدمهم وجواريهم العديدين ، وأن من أغراضه من استقدامهم أن يلمسوا أمجاد مصر وعظمة عاصمتها، التى كانت بهرة العالم المتمدين فى ذلك العصر ، وليطمئنوا إلى الحضارة المصرية ويتشبعوا بها ويصبحوا أوفياء لها ولفراعنتها إذا تولوا حكم مدنهم وإماراتهم بعد وفاة آبائهم .

وعندما خرج تحوتمس بجيشه إلى سوريا فى مرته الثامنة (فى العام ٣٣ من حكمه) كان قد اعتزم أن يهاجم دولة الميتان فى عقر دارها ليأمن دسائسها وتحريضاتها وليستقر الأمن بعدها على حدود دولته . وعمل فى سبيل نجاح خطته على تنظيم الموانى الشامية وتزويدها بما كان يعوزها من المحاصيل الغذائية ، وقالت نصوصه فى ذلك : «تعليماته لإعداد الموانى : مون جلالته كل ميناء وصل إليها بالخبز الجيد (من القمح ؟) وأنواع الخبز الأخرى ، وزيت الزيتون والبخور والنبيذ والعسل والفواكه»[2] . ثم طلب إلى رجاله أن يجهزوا أسطولاً كبيراً من أخشاب لبنان وأن ينقلوا سفنه وناقلاته مفككة عن طريق البر على عربات تجرها الثيران إلى قرب

---

(١) Mariette, *Karnak*, 13, 11; *Anc. Records*, II, p. 198.

(٢) Erman, *Die Literatur der Aegypter*, 1923, 284 f.

نهر الفرات . والتقى تحوتمس وجيوشه بالميتانيين فى قرقميش ، وانتصر برجاله عليهم ، ففر ملكهم إلى أحد أقاليم دولته القصية ، وهنا قال تحوتمس فى حولياته «قسمت جيشى بعد المعركة قسمين ، عبر أحدهما الفرات وتتبع الأعداء ، ولاحق الآخر العدو الخاسئ (ملك الميتان) فى جبال ميتانى ، ولكنه فر إلى بلد بعيد» ، وقد يعنى هذا أن دولة الميتان لم يقض عليها تماماً، وأنه كان ينبغى أن تحدث معها جولات تالية . ومع ذلك فقد توج تحوتمس نصره بأن عبر الفرات بسفنه ، ثم أرسى رجاله نصبين على ضفتيه سجلوا عليهما أخبار نصره وعينوا بهما حدود فتوحاته [١]. وكانت هى المرة الأولى التى نقلت السفن الحربية فيها على طريق البر لمسافة تقرب من ٢٥٠ ميلاً (وكانت السفن المصرية تصنع من ألواح ودسر كثيرة وذلك مما ساعد على نقلها وتركيبها) ، كما كانت من أولى المرات التى استخدمت فيها لعبور جيش كبير على متن نهر واسع كالفرات فى التاريخ القديم[٢] . وعبر تحوتمس حينذاك عن اتساع حدود دولته بعبارة قريبة إلى أقاصى آسيا (الغربية) »[٣]. ثم خرج إلى الأقاليم الشمالية نحو ثمان مرات أخرى أو تسع ، قصد بها الاستطلاع حيناً ، والإصلاح حيناً، وتوطيد الأمن وإرهاب العصاة حيناً ، ومجرد الزيارة والرحلة حيناً آخر .

وازدادت صلات الود والحضارة بين مصر وبين بلاد الشام من وراء هذه الجهود ، وزادت أعداد المصريين فيها من إداريين وعسكريين وتجار ، كما ازدادت أعداد مواطنيها فى مصر زواراً وتجاراً وعاملين . ولم يجد كبار الموظفين المصريين بأساً من أن يوقروا بعض أرباب الشام إلى جانب توقيرهم لمعبوداتهم [٤] . وكان من ذلك على سبيل المثال أن ذكر أحد رؤساء الخزانة فى عهد تحوتمس الثالث أنه حرص على أن يقدم قرابينه إلى «ربة جبيل المسماة بعلة» قبل أن يصعد جبل لبنان لانتقاء

(١) *Urk.*, IV, 697 f.; *Anc. Records*, II, 476 f.; *JEA*, XXXII, 39f.; Mond and Myers, *Armant*, 103, 7f.

(٢) *See*, Faulkner, *JEA*, 1946, 39 f.; Redford, *JSSEA*, X, 1 (1979), 63-66.

(٣) Gebel Barkal Stela, 8; *ZAeS*, LXIX, 24 f.; *var. Urk.*, IV, 587, 2 f.

(٤) *See*, Steindorff, *ZAeS*, XXXVIII, 15f.; Gustavs, *ZAeS*, LXIV, 54 f.; G. Opsener, *Syria* 1937, 183f.; W.F. Albright, *J.A.O.S.*, 1954, 222 f.; Seforad, *ibid.*, 1956, 215; W. Helck, *Die Beziehungen Aegyptens zu Vorderasien im 3 und 2. Jahrtausend*, v. Chr. 1962.

أشجار الأرز اللازمة لمهمته (١) .

وكان من التنظيمات الإدارية فى أقاليم الشام حينذاك توجيه رجال الإدارة فيها إلى إجراء إحصاء لمحاصيلها بمختلف أنواعها لتقدير الضرائب عليها على أساس سليم. وتوجيههم إلى الاهتمام بالموانى بوجه خاص «وتموينها على أساس التعيين المقرر لها كل عام» كما قالت نصوص العصر . وترك تحوتمس الولاة المحليين فى حكم إماراتهم واعتبرهم نواباً «إدنو» ، وإن كان قد أقام معهم فى المدن الرئيسية مفتشين مصريين ، وعين حاكماً عاماً للشام ، وجعل مدينة غزة ومدينة سميرا من مراكز الإدارة الرئيسية (٢) .

وبعد أن أتت جهوده ثمارها فى الشام ، توافرت له الشهرة الخارجية الواسعة ، وأحست الدول المجاورة بيقظته ورغبت فى مصادفته ، وهادته . ومنها بابل التى كان من هداياها إليه كميات من اللازورد الجيد (٣) ، وآشور التى أهدته هى الأخرى كميات من اللازورد الحر (٤) ، وخت (أو خاتى) دولة الحيثيين فى آسيا الصغرى(٥).

وكان من الطبيعى أن تجد بلاد النوبة بقسميها من اهتمام الدولة فى هذا العهد ما لايقل عن اهتمامها ببلاد الشام . فتأكد استتباب النفوذ المصرى حتى الشلال الرابع أو بعده بقليل . وتعينت الحدود بلوحة أقامها رجال تحوتمس عند جبل برقل ، ضمنوها أخبار الفتوحات الأولى لملكهم، وذكروا أنه مد حدوده إلى المدى الذى وصلت إليه فى عهد جده تحوتمس الأول(٦) . وسرى التنظيم الإدارى فى مناطق النوبة ، وظل الولاة النوبيون يتلقبون بألقاب النواب «إدنو» ، وزادت المعابد الفخمة فى النوبة عوضاً عن المعابد البسيطة المبنية باللبن (٧) .

---

(١) *Urk*, IV, 532 f.; Montet, *Byblos et L'Egypte*, 35 f., Pl. XXVIII, 2.

(٢) *See*, D. G. Hogarth, *JEA*, I, 9 f.; W.F. Albright, *AJSL*, 1938, 352; Edgerton, *JNES*, VI (1947), 152 f.

(٣) *Urk.*, IV, 668, 13; A.R., II, 484.

(٤) *Urk.*, IV, 668, 6; 671, 8; *A.R.*, 446 f.

(٥) *Urk.*, IV, 701, 11; 727, 13; A.R., II, 485.

(٦) G. Reisner, *ZAeS*, XLIX (1933), 24 f.; *Var.*; Mond and Myres, *Armant*, Pl. 103.

(٧) Kees, *Ancient Egypt*, 325.

وزاد صبغ البلاد بالحضارة المصرية الراقية . وعلى نحو ما انتفعت النوبة بأمها مصر ، انتفعت مصر بها ، فكان يصلها من ذهب النوبة السفلى مايتراوح بين ٢١٢ و٢٢٧ من الكيلو جرامات سنوياً ، ويصلها من ذهب النوبة العليا مقدار يقل عن ذلك [١] . ويبدو أن الحائل الذى وقف دون مد الحدود المصرية مع نهر النيل إلى مابعد المدى الذى وصله نفوذ تحوتمس ، هو انحناءة النيل بعد الشلال الرابع وابتعاده شرقاً عن طريق القوافل التجارية التى كانت تتجه إلى الجنوب وإلى الغرب [٢] .

وظهر فى نصوص تحوتمس الثالث ما رجحنا معه وصول بعثة تجارية من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى مصر تحمل معها بعض منتجات بلادها من البخور والكندر ، وتبغى عقد علاقات مباشرة مع فرعون مصر المنتصر ، وكان أفرادها من «الجنبتيو» أسلاف العرب القتبانيين[٣] .

* * *

فى عهد أمنحوتب الثانى :

ولى أمنحوتب الثانى (عاخبرو رع) عرش مصر بعد أبيه تحوتمس الثالث فى عام ١٤٣٦ ق.م ، وانتفع بالتربية العسكرية التى تعهده أبوه بها [٤] فى توطيد أركان الأمن فى دولته وإشاعة الهيبة فى أرجائها الواسعة ، تلك الدولة التى روى «مين مس» مهندسه ومهندس أبيه أنه ثبت حدودها فى العام الرابع من حكمه بنصبين جديدين : نصب أقيم فى أرض نهرينا على الفرات ، ونصب آخر أقيم فى أرض كاروى فى جنوب النوبة [٥] وذكرت نصوص أمنحوتب أنه تفقد المناطق الشمالية مرتين ، بلغ فى إحديهما أوجاريت وألالاخ (تل العطشانة قرب أنطاكية) [٦] . كما وجد له تمثال

---

(١) *Urk.*, IV, 931; Save-Soderbergh, *op. cit.*, 210-211.

(٢) *See*, Kees, *op. cit.*, 337.

(٣) Abdel-Aziz Saleh, "The *Gnbtyw* of Thutmosis III's Annals and the South Arabian *Gebbanitae* of the Classical Writers", *BIFAO*, LXXII, 245-262.

(٤) راجع للمؤلف : «التربية العسكرية فى مصر القديمة» – فى المجلد الأول من «تاريخ الحضارة المصرية» – القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص٢٠٣-٢٠٥ .

(٥) *L.D.*, *Text*, I, 20; *Ancient Records*, II, 800.

(٦) Ch. Kuentz, *Amada*, 2, 210, 227; Karnak Stela, II, 13.



جاث، يحمل آنيتين قرباناً على يديه قرب شندئ على مسافة سبعين ميلاً شمالى الخرطوم .

ومالت حوليات أمنحوتب الثانى ونصوصه إلى المبالغة فى تصوير انتصاراته ، على العكس من حوليات أبيه التى راعت الواقع وسلامة المنطق فى روايتها بقدر الإمكان . ولو أن نصوص أمنحوتب امتازت على الرغم من عنصر المبالغة فيها بنصيب كبير من الحيوية والتفصيل ، لاسيما فيما روته عن أخبار صاحبها فى المرات التى تعمد فيها أن يستعرض فتوته وعضلاته داخل مصر وخارجها . وكان من ذلك على سبيل المثال أنها روت أنه عبر بجيشه ذات مرة مياه نهر العاصى الهادرة ، ثم اندار فجأة ليطمئن على سلامة جيشه ، فلحظ جماعة أتوا من ناحية قطنة خلسة يحاولون الانقضاض عليه ، فقصدهم وحيداً وانقض عليهم انقضاض الباشق ، فانطلقوا مذعورين ووقع كل منهم فوق رفيقه ومعهم قائدهم ، ولكنه لاحقهم ولحقهم وهو وحيد وفتك بهم أجمعين . ثم روت أنه تجمع فى معسكر الأسرى ذات مرة أكثر من ثلاثمائة أسير ، فلما رأى أن عددهم كبير خشى هروبهم ، فقام بليل وحفر حولهم حفرتين أوقد فيهما ناراً ، وظل ساهراً يرقبهم حتى الصباح «وهو يحمل بلطة الحرب في يده ، وكان بمفرده وليس معه مصرى آخر ، بل وكان جيشه بعيداً عنه ، بعيداً عن سماع صوته» (١) .

ومع حب المبالغة مال أمنحوتب الثانى فى بعض أحواله إلى الغلظة فى معاملة خصومه ، على العكس من أبيه . وإن كانت هذه الغلظة لم تؤثر عنه غير مرتين اشتد فيهما على كبار خصومه الذين غدروا بولائهم له (من وجهة نظره) ؛ ليكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالتآمر عليه والغدر به . واختتمت نصوصه أخبار انتصاراته الحربية بتصوير النتائج التى ترتبت عليها ، بالأسلوب نفسه الجانح إلى المبالغة ، فى قولها : «وحين سمع أمير نهرينا (الميتانى) وأمير خاتى (الحيثى) ، وأمير سنجار (البابلى) ، بانتصارات جلالته ، نافس كل منهم الآخر في هداياه إليه .. وتوجهوا إليه بدعائهم من أجل إقرار السلام ، (وقال رسلهم إليه) : أتينا بهدايانا إلى قصرك يا ابن رع أمنحوتب ، حاكم الحكام ، الأسد الهصور فى كل مكان ، وفى هذه الدنيا كلها ، إلى أبد الآبدين» .

* * *

(١) A. M. Badawi, *ASAE*, XLII, 1 f.

فى عهد تحوتمس الرابع :

انتقلت مقاليد الأمور فى مصر إلى تحوتمس الرابع (من خبرو رع) ، وكان كفئاً لشغل منصبه على الرغم من صغر سنه ، وقد لجأ فى سياسته الخارجية إلى وسيلتين ، فاتبع سياسة القوة فى بداية عهده وخرج بقواته إلى أطراف دولته وضرب بها على أيدى جماعات من الخوارج فى الشمال وفى الجنوب حاولوا استغلال فرصة وفاة أبيه وصغر سنه ، حتى إذا ما أعاد لحكومته هيبتها واستقر السلام فى دولته وجرت أمورها فى مجاريها الطبيعية ، سمحت له تطورات العصر بأن يتبع سياسة جديدة لضمان السلم فى الشرق القريب . وكان كل من المصريين والميتانيين قد أدركوا أن أمن التجارة البرية التى يأخذون بناصيتها فى أسواق الشرق الأدنى لن يستقر إلا إذا استقرت قبله أحوال السياسة بينهما ، وشعرت كل من الدولتين حينذاك ببوادر الخطر من أطماع دولة خاتى (أى دولة الحيثيين) الآرية، التى قامت فى آسيا الصغرى وأطلت على الفرات الأعلى وعلى شمالى سوريا فى الوقت نفسه . ورأت الدولتان أن توثيق روابط الصداقة والتقارب بينهما يمكن أن يحد من أطماع هذه الدولة الثالثة الناهضة ويجعلها تفكر مرتين قبل أن تهاجم واحدة منهما . ولسنا ندرى أى الدولتين سبقت الأخرى برغبتها فى إقرار السلم ، ولكننا ندرى أن تحوتمس رأى أن خير روابط السلم المنشود هو رباط المصاهرة ، فخطب لنفسه ابنة أرتاتاما ملك الميتان [١] ، وقيل إن أباها جادله فى مهرها عدة مرات رغبة فى زيادة نصيبه من الهدايا قبل أن يزفها إليه[٢] ، ولم يكن زواج الفرعون المصرى بأميرة أسيوية جديداً تماماً على تقاليد أسلافه الأقربين ، فقد تزوج جده تحوتمس الثالث ثلاث أميرات سوريات ، وامتلأ قصر أبيه أمنحوتب الثانى بجوار أسيويات من أخوات الأمراء وبناتهم كما قالت نصوصه [٣]، وليس من المستبعد أن يكون قد تزوج بواحد منهن أو أكثر من واحدة . ولكن الجديد فى أمر تحوتمس الرابع هو مايحتمل من أنه جعل زوجته الميتانية من زوجاته الرئيسيات فى قصره [٤] (أنظر ص٢١٩) ، بينما أنزل

---

(١) Knudtzon, *Die El-Amarna Tafeln*, Nr. 29.

(٢) *Ibid.*, Nr. 29, 11, 16-18.

(٣) *See*, Helck, *JNES*, 1955, 29.

(٤) Wolf, *ZAeS*, LXV, 98 f.; Newberry, *JEA* XIV, 82 f.

أسلافه زوجاتهم الأسيويات منزلة الزوجات الثانويات .

* * *

فى عهد أمنحوتب الثالث :

أدت جهود النصف الأول من عصر الأسرة الثامنة عشرة إلى أن بلغت خيرات مصر وثرواتها فى بداية عهد أمنحوتب الثالث (نب ماعت رع) خليفة تحوتمس الرابع (منذ ١٤٠٥ ق.م) ، مبلغاً لم تبلغه من قبل ، ليس فحسب عن طريق الضرائب والاستغلال الداخلى ، والغنائم والجزى من الخارج ، بل ولأن الدولة قد وطدت سيطرتها على عصب التجارة البرية فى الشرق ، وأزادت أساطيلها فى البحرين الأحمر والمتوسط ، واستخدمتها أداة للرخاء التجارى ولأمان البحر وأمان السواحل ولتوسيع إتصالاتها بجيرانها . وحملت طرق البر والبحر الآمنة أفواجاً من التجار والسفراء والرسل والإداريين والزوار من مصر وإليها ، فضلاً عن أفواج الأرقاء والجوارى الواصلة إليها من الشمال والجنوب ، وظل هؤلاء جميعهم من أدوات التبادل والتقارب الثقافى واللغوى والفنى والصناعى بينها وبين جيرانها . وترتبت على ذلك كله بالنسبة لمصر نتائج طيبة وأخرى غير مستحبة ، فكان من النتائج الطيبة أن اتسعت آفاق المصريين المادية والفكرية واستحبوا حياة السلام ، وخفت حدة النزعات العنصرية بينهم وبين جيرانهم ، وزاد انتشار حضارتهم بين أهل الشام وبلاد الميتان . وانتفع هؤلاء وهؤلاء بالفن المصرى ومزجوا بينه وبين فنونهم الإقليمية . وازدادت أعداد المصريين فى الشام، كما استقبلت مصر مزيداً من أفواج أهل الشام بصدر رحب واستحبت مصنوعاتهم وفنونهم ، ونفعتهم وانتفعت بهم ، واستضافت بعض معبوداتهم ومعبودات الميتان فى معابدها (١) .

ولم يكن من بأس على أثرياء مصر فى أن يستمتعوا بما أفاءته عليهم جهود أسلافهم من نعمة ونعيم ، ولكن الضرر أوشك أن يقع بهم حين استمرأوا النعمة واستناموا إلى النعيم . وإذا كان الناس على دين ملوكهم ، كما يقال ، فقد بدأوا وبدأ فرعونهم أمنحوتب الثالث عهده بمظاهر الفتوة التى بدأ بها عهد أبيه ، فخرجت

(١) *See*, Frankfort, *The Art and Architecture of the Ancient Orient*, 1958, 148-149; Montet, *Les Reliques de l'Art Syrien...*, 1937; Berlin 1248 : Amarna Letters, 23: *ASAE*, XI, 258; *Chronique d'Egypte*, L, 62; Helck, op. cit.

جيوشه فى جولة تفتيشية إلى الشام ، وخرجت فى جولة أخرى إلى النوبة (١) ، واستحب أن يوصف فى نصوصه بأنه «حاكم ينال (مايشاء) بسيفه ويعمل بيديه» ، وأنه حاكم «يعمل بساعديه ... رب للسيف» (٢) . ومارس فى شبابه حياة الصيد شأن آبائه الرياضيين ، وهاداه ملوك الشرق وأمراؤه ، واعتاد كل منهم أن يسأل عن أهل الآخر وجنوده وخيوله تعبيراً عن عمق المودة ورفع الكلفة ، وتطلعوا جميعهم إلى ثراء مصر ، وكانوا لايفتأون يرجون فرعونها أن يفيض عليهم من ذهبها نظير هداياهم إليه من الأرقاء والجوارى والخيول والمركبات والأحجار الكريمة ، تساوى فى ذلك ملوك الميتان ، وملوك بابل ، وملوك آشور ، وحكام قبرص ، فضلاً عن أمراء الشام .

وهكذا كتب ملك الميتان ذات مرة إلى صهره أمنحوتب الثالث ، يقول له : «أخى ، أرجو أن تهدينى ذهباً كثيراً لايحصى ، وإنى على ثقة من أن أخى سوف يحقق ذلك ويهدينى ذهباً أكثر من الذهب الذى حصل والدى عليه ، أليس الذهب فى بلد أخى كتراب الأرض ؟ بارك الأرباب فيه حتى يصبح الذهب فى أرض أخى أضعاف ماهو عليه الآن . وعسى ما أطلبه لايضايق أخى ولايضيق به قلبه .. ، وسوف أرد لأخى فضله عشرة أمثال مما يشتهيه . فهذه الأرض أرض أخى وهذا البيت بيت أخى» . واستغل أمنحوتب من ناحيته صداقاته لملوك الشرق وتقديرهم له ، فى إرضاء نزواته من الزيجات وأسرف فى ذلك إسرافاً كبيراً . وسار على سياسة أبيه فى توثيق عرى المودة بينه وبينهم عن طريق المصاهرات . وظل على الرغم من ترحيبهم فى مجملهم بمصاهرته ، ضنيناً عليهم بأميرات بيته ، فكتب إليه معاصره ملك بابل كاداشمال إنليل الأول ، يعتذر له بأنه ليس له أخت يرسلها عروساً إليه ، ويرجوه فى الوقت نفسه أن يزوجه من إحدى بناته ، فاعتذر أمنحوتب بحجة أنه «لم يسبق أن أرسلت أميرة مصرية إلى أى إنسان» ، فعاد البابلى وألح عليه بأن يتخير له أى فتاة من قصره ، ويرسلها إليه باعتبارها أميرة من بيته صوناً لكرامته بين شعبه . وفى كل ذلك مايشير إلى عظم مكانة مصر واعتزاز أهلها بسمو منبتهم .

ولكن تبدلت أحوال الاستقرار الخارجى فى عهد أمنحوتب شيئاً فشيئاً ، بعد أن استنام حياة الرفاهة وترك تقاليد آبائه فى إيثار السلام المسلح والخروج من حين إلى

---

(١) Urk., IV, 1661 f.; *Ancient Records*, II, 842 f., 851, 5.

(٢) Petrie, *Six Temples*, 9.



حين إلى أطراف دولته لطمأنة الموالين لها والضرب على أيدى الخارجين عليها والحد من أطماع الدول المتربصة بها ، فافتقد الشعب الشامى بخاصة صلاته الشخصية به وبدأ يئن تحت وطأة دسائس أصحاب المطامع فى الداخل وفى الخارج . كما بدأ الحيثيون (الخاتيون) يعبثون بالحدود السورية والحدود الميتانية ، ويغرون ضعاف النفوس من البلدين بالعمل لصالحهم . وعندما خفت قبضة الإدارة المصرية فى بلاد الشام أغار بعض أمرائها على جيرانهم ، وهددت هجرات قبائل الخابيرو والعابيرو البدوية الأمن وسبل التجارة ، فتوالت صرخات الاستغاثة من الأمراء الموالين لأمنحوتب ، وكانت إذا وجدت الاستجابة مرة ، وجدت الإهمال مرات . ولم يقدر أمنحوتب خطورة هذه الأحوال تقديرها الصحيح ، واستمر يظن فى نفسه السيادة، واستمر يتلقى رسائل التكريم من أمراء بابل والميتان وبعض أمراء آسيا الصغرى . وكان شر ما أعماه عن تبين حقيقة الأوضاع هو أمر عدد من أمراء كنعان ومن الخابيرو والعابيرو ، مهروا فى النفاق واستمروا يضللونه ويضللون ولده آخناتون من بعده ، ويسرفون فى إظهار الود والطاعة لمصر وفرعونها ، ويسرفون فى الوقت نفسه فى إضمار الحقد لهما .

وصورت هذه البلبلة مجموعة رسائل كانت محفوظة بديوان رسائل أمنحوتب الثالث وولده آخناتون من بعده ، عثر عليها خلال القرن الماضى مصادفة فى أطلال العمارنة ، فنسبت إليها وسميت باسم رسائل العمارنة ، وبلغ ماعثر عليه منها ٣٧٧ رسالة، تضمنت المراسلات المتبادلة بين الفرعونين وبين ملوك الشرق وحكام الشام فى عهديهما (١) . ويفهم منها أنه امتاز من بين حكام الأموريين فى أواسط سوريا وشرقها حاكمان : حاكم يسمى ريب أدى أشرف على منطقة واسعة تمتد من الساحل إلى الداخل حول ميناء جبيل ، وظل موالياً لمصر حتى آخر حياته ، وكان يؤيده حلف من الموانى الكبيرة التى تشترك مع جبيل فى المصالح التجارية مثل بيروت وصور وصيدا وعكا . ثم حاكم آخر يدعى عبدو عشرتا (أو أشرتا) أشرف على جزء كبير من حوض نهر العاصى وبسط نفوذه عنوة على حساب جيرانه فاحتل عرقة وقطنة وحماة ونى فى الداخل لحسابه ، وتوالت شكاوى ريب أدى إلى أمنحوتب الثالث بعد أن

---

(١) J. A. Knudtzon-E. Ebeling- O. Weber, *Die El-Amarna Tafeln*, 1907-15; O. Schroeder, *Die Tontafeln von El-Amarna*, 1915; S.A.B. Mercer, *The Tell El-Amarna Tablets*, 1939.

أصبحت عاصمته جبيل شبه محصورة ، وتوالت رسائل حلفائه إلى مصر ترجو نجدة حليفهم ، وذلك فى الوقت نفسه الذى بلغ فيه من فجور عبدو عشرتا أنه كان يبعث الرسائل إلى مصر يكذب كل مايتهم به ويسرف فى إظهار الخضوع، فيقول فيما يقول : «إلى الملك شمسي ومولاى ، يقول عبدو عشرتا عبدك وتراب قدميك : أجثو عند قدمى مولاى الملك سبعاً ، وسبعاً ، فأنا خادم الملك وجرو بيته وأحرس أرض أمورو كلها من أجل مولاى وسيدى» (١) . وكان ذلك كافياً لإشباع غرور الملك وخديعته .

وعندما هلك عبدو عشرتا سلك ولده عزيرو مسلكه ، فى حين كتب ريب أدى إلى الفرعون قائلاً : «كان حكام كنعان إذا رأوا جندياً مصرياً ولوا الأدبار ، أما الآن فإن أبناء عبدو عشرتا يستخفون بالمصريين ويهددوننى بأسلحة فتاكة» . وغدا الرجل حسيراً محصوراً فى عاصمته جبيل كطائر فى قفص ، فكتب إلى الملك المصرى يقول ثانية : «قديماً كان للملك عندنا قلعة ومؤونة ، وكان الملك يكفل تموينها من إيار يموتا، ولكن عزيرو يهاجمنا الآن مراراً دون خوف ، ولم يبق لى حاشية أو مؤونة ، بعد أن أصبحت قراى الآن فى حوزة عزيرو ، وهو يظهر لى الرغبة فى أن أنضم إليه ، ولكن لماذا أنضم إليه ؟ إنهم أجراء أبناء عبدو عشرتا هؤلاء ، يبغون مصالحهم ويخلفون مدن مولاى الملك طعاماً للنيران» (٢) .

وكتب حاكم مدينة تونيب يردد الشكوى نفسها قائلاً : «مولاى ملك مصر ، نحن أهل تونيب أتباعك ، ندعو لك بالحياة ونقبل قدميك ، إن أمتك مدينة تونيب تقول من ذا الذى كان يستطيع أن ينهب تونيب دون أن ينتقم لها منخبريا (تحوتمس الثالث) ويفعل بالناهب مافعل بها : إن آلهة مولانا الملك وتماثيله لدينا ، وليسأل مولانا شيوخ رجاله ليعرف إذا ما كنا نقول الحقيقة أم غيرها . إذا لم يدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عزيرو سيصنع معنا ماصنعه فى مدينة نى ، وحينئذ لن نبكى وحدنا بل سيبكى معنا أيضاً ملك مصر مما يرتكبه عزيرو من أعمال ، لأنه سيرفع يده حينذاك ضد مولانا» . وتوالت رسائل أهل تونيب وكتبوا إلى الفرعون يقولون له «إن مدينتك تونيب تبكى ، ودموعها تجرى ، ولاناصر لنا ، أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق رداً منه» .

(١) Amarna Letters, No. 60, also 42; Albright, in *CAH*, vol. II, ch XX, 1966.

(٢) *Op. cit.*, No. 109 : G. Steindorff-K.G. Seele, *When Egypt ruled the East*, 107.



ومضى عزيرو فى غيه ، واستمال أمير صيداً الذى لجأ إليه ريب أدى فى آخر مطافه فسلمه إليه ، واستولى هو على ألازا (شمال طرابلس) ، وأرداتا (قرب زغزتا) ، وحرق أوجاريت ودمر سميرا ، وظل يرسل خطاباته المخادعة إلى آخناتون يظهر ولاءه فيها ، ويدعى أنه إنما يستولى على المدن ليحميها من الحيثين ، وأنه يخرب بعضها حتى لايستفيدوا منها ، وبلغت به صفاقته أنه كان يراسل الملك بأمله فى أن يرى وجه مولاه البهى ، وذهب إليه بالفعل ورجع آمناً من عنده [1] .

حدث هذا فى أواسط سوريا وشمالها بتحريض الحيثين (الخاتيين) وأطماع بعض الأموريين ، وحدث مايماثله فى منطقة فلسطين ، وقام بدور المخربين فيها جماعات العابيرو ، وبدور عبدو عشرتا رجل يدعى لا بآيو حكم مدينة سشم وهاجم مدينة جزر وغيرها من مدن جيرانه ، وتعاون هو وأولاده مع قبائل العابيرو وسمح لهم بدخول مدينته . وجأر الحكام بالشكوى منه إلى أمنحوتب الثالث ثم إلى آخناتون[2] فبلغت الصفاقة بلا بآيو أن كتب إلى الفرعون قائلاً «إلى الملك مولاى وشمسى يقول لا بآيو خادمك والتراب الذى نطأ عليه : أجثو لدى قدميك سبعاً وسبعاً . (وبعد أن تنصل من كل مانسب إليه وادعى أنه وقف موقف المدافع) ، ختم رسالته بقوله : «وهل إذا طلب الملك امرأتى أستطيع أن أمنعها ؟ وإذا كتب لى أن اضرب قلبك بخنجر ومت ، فهل أخالف أمر مولاى ؟» [3] ، وعندما لقى لا بآيو حتفه خلفه فى الشر والنفاق ولداه .

فى عهود آخناتون وخلفائه :

توالت رسائل مدن الكنعانيين والآراميين على آخناتون (نفر خبر رع) ، تفيض نفاقاً ، فأصبح لايعرف المخلص منها من المخادع ، فبينما كتب إليه أحد الحكام يشكو إليه حاكم أورشليم عبدو خيبا ذا الأصل الحورى ، ويقول له إذا كان لا بآيو قد مات فقد ظهر بدله عبدو خيبا [4] ، الذى بعث برسائل تفيض بالولاء للملك والشكوى من جيرانه ومن العابيرو ، وكان يكرر فيها أنه يتمنى أن يقابل الفرعون ويرى عينيه

(١) Amarna Letters, No. 164 f.

(٢) *Ibid.*, Nos. 244, 270, 287.

(٣) *Ibid.*, 254, also 252.

(٤) *Op, cit.*, No. 280.

ويتمنى أن يموت لديه ، ويعترف بأنه ماولى منصبه عن أبيه ولا عن أمه ولكن بفضل الملك ، ويخبره بأنه عمل كل مافى وسعه ولكن تخلى الكل عنه ، وأنه إذا لم تصله إمدادات مولاه ضاعت منه أرضه [١] .

بدأت كل هذه الخلخلة فى أواخر عهد أمنحوتب الثالث ، كما رأينا ، واشتدت فى عهد ولده آخناتون فى وقت انصرف فيه هذا الأخير إلى دعوة الوحدانية (راجع فصل عقائد الدين) وظن معها أن الدعوة لإله واحد يعبده الجميع ويتساوى عنده الجميع يمكن أن تربط بين مصر وبين أتباعها وجيرانها بروابط أوثق من كل ماجريه أسلافه من وسائل الحرب والسياسة والمصاهرة ، ولكن فاته أن الشرق أصبح فى شغل شاغ بمخاوفه وأطماعه عن دعوة التوحيد والإخاء والمساواة التى دعا إليها . وأحاط بآخناتون عدد مداهن من رجال حاشيته طمأنوه إلى بأس جيشه ، ورحموا اعتلال صحته فأخفوا عنه تذمر قادته وخوفهم من ضياع سمعة البلاد وتفسخ أملاكها ، كما أحاط به عدد آخر من غير المصريين خدعوه عن حقيقة مجريات الأمور فى الخارج وتواطأوا مع مخادعيه فيها ، وكان منهم رجل يدعى توتو ، راسله أحد المنافقين ذات مرة قائلاً له : «لا أستطيع أن أنحرف عن كلمات سيدى وربى وشمسى ، ولا أحيد عن كلمات سيدى توتو ... ، فأنا أخشى مولاى الملك وأخاف توتو ...» .

وإذا كان ثمة مايعقب به على ما أفاء به عصر الأسرة الثامنة عشرة على أهله من ثراء ، وعلى عظمائهم والمقربين منهم إلى الفرعون وحاشيته وحكومته ومشروعاته الحربية والمدنية ، بمعنى أدق ، فهو ماثل فيما تعتز به المتاحف العالمية مما كشف عنه من آثار ملوك العصر وعظمائه . وكان أسعد هؤلاء الملوك حظاً فيما أبقت الأيام عليه من اثاره الخاصة هو توت عنخ آمون (نب خبرو رع) ، على الرغم من أنه كان نكرة بين الفراعنة ، ولى الحكم غلاماً بعد وفاة أخويه (؟) آخناتون وسمنخ كارع ، ولم يطل عهده غير ثمانى سنوات أو تسع ، بدأها بالارتداد عن ديانة آتون ، وشغلها بالتقرب إلى كهنة آمون ومضاعفة ثروات معابدهم تكفيراً عما أصابهم من هوان فى عهد أخناتون . ثم أسعد الحظ ذكراه بأن علت فوق مقبرته مقبرة أخرى ضخمة من عصر الرعامسة فسترتها عن عومل النهب والتخريب حتى اكتشفت شبه كاملة فى عام ١٩٢٢ ، وحققت لصاحبها شهرة واسعة ماكان يستحقها لنفسه . وقد

(١) *Ibid.*, 286, 287, 288.

تضمنت أثاثه الأخروى وبعض ماكان يعتز به من مقتنياته الدنيوية الخاصة ومقتنيات أسرته . ومن أروع مافيها قناعه الذهبى وتوابيته الثلاثة التى شكلت على هيئته وصيغ الداخلى منها من الذهب الخالص وصفح الآخران بالذهب وطعما بأحجار شبه كريمة. ثم مقعد عرشه وصندوقه الخاص ، ومجموعة رائعة من تماثيله المعدنية الصغيرة وتماثيل بعض أفراد أسرته . ومجموعات من أدوات الزينة والأوانى المرمرية الشفافة تعتبر من أرق نماذج الصناعة الفنية فى العالم القديم كله [1] . ولسنا ننكر ما فى ذلك من مفخرة لاتزال نعتز بها على القدماء والمحدثين معاً ولكن أن يكتنز شخص واحد هذا الثراء كله ويدخره لمقبرته ولآخرته ، لهو الإسراف المشين . وعلى أية حال وإذا كان ذلك هو ثراء مقبرة فرعون قصير الأجل مضطرب العهد ، غطت صفائح الذهب على عجلاته الحربية وسرادقاته الخشبية ، فلا شك فى أن ثراء مقابر أسلافه وخلفائه العظام كان أجل وأعظم ، لولا أن تعرضت للعبث والنهب على مر العصور ، ولم يبق من مدخراتها غير القليل النادر .

وقل الأمر نفسه بالنسبة لمقابر كبار الأفراد من العصر نفسه ، فقليل منها احتفظت بمحتوياتها ، مثل مقبرة يويا وثويا صهرى أمنحوتب الثالث [2] ، ولكن قليلها يشهد فى الوقت ذاته بترف واسع أثرى الفن وأغنى التاريخ ، وإن كان قد تحقق لأصحابه على حساب الملايين من الشعب . وسوف يكون لما تضمنته هذه المقابر وتلك وما احتوته معابد القصر من فنون النحت والنقش والتصوير ، بحث موجز خاص يرد فى ختام هذا الفصل .

* * *

وظلت سياسة مصر الخارجية مائعة متدهورة خلال عهود خلفاء آخناتون الأقربين : سمنخ كارع (عنخ خبرو رع) ، وتوت عنخ آمون (نب خبرو رع) ، وآى (خبر خبرو رع) ، ولم يجد جديد عليها إلا بولاية حور محب (چسر خبرو رع) ، الذى مثل عهده فترة انتقالية بين عصر الأسرة الثامنة عشرة وبين عصر الأسرة التاسعة عشرة . وكان فيما أسلفنا من قادة الجيش فى عهد آخناتون أو منذ ماقبله ،

(١) Carter and Mace, *The Tomb of Tut-Ankh-Amen*, 3 vols., 1923- 33; Ch. D.- Noblecourt, *Vie et Mort d'un Pharaon, Toutankhamon*, 1963.

(٢) Davies and Maspero, *The Tomb of Iouiya and Touiyou*, 1907.



وخاض معركتين على الأقل فى عهده وعهد توت عنخ آمون . وتحدث فى نص مؤرخ فى العام ١٦ من أيامه عن حملة له ظافرة وصلت من ببلوس إلى قرقميش[١] .
وكان الجديد فى أيامه ، هو أن معاصره فى حكم الحيثيين الملك مورسيل (الثالث) قد مال إلى السلام ، كما مال إليه حور محب له ، وربما حدثت بينهما هدنة، تفرغ حور محب بعدها للإصلاح الداخلى وتأمين الاقتصاد القومى فى بلده ، وإن أخذ عليه أن سمح بإخفاء آثار الفترة الأتونية داخل صروحه الثلاثة فى الكرنك ، لمحو ذكراها وإبراز شخصه .

* * *

(١) D.B. Redford, *Newsletter, JSSEA*, 4 No. 1 (July 1973), 6-23.



ثانياً - عودة الكفاح ثم الرفاهة فى عصر الرعامسة مع الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨-١١٩٤ ق.م)

لم يكن رأس الملوك الرعامسة وريث بيت مالك ، وإنما كان قائداً ووزيراً من خاصة الشعب يسمى «بارع مسسو» اطمأن حور محب إليه وجعله الرجل الثانى فى الدولة [١] ، ثم عهد إليه بالحكم بعده ، فاعتلى العرش فى عام ١٣٠٨ بإسم «رعمسسو من بحتى رع» بمعنى «رع أنجبه ودامت قدرة رع» ، وهو اسم اعتادت المؤلفات الكلاسيكية والحديثة على أن تعبر عن شطره الأول بإسم «رمسيس» فحسب ، وهو ما سنجرى عليه بالنسبة له ولأحفاده الذين تسموا بمثل اسمه . وكان حين ولى العرش كهلاً فلم يعمر عليه أكثر من عامين استعان فيهما بولده «سيتى» على تصريف شئون البلاد ، وعهد إليه بالوزارة والقيادة ورئاسة الشرطة والرياسة التقليدية للكهنة . وبهذا لم يذكر للكهل من جديد أكثر من أنه ضمن الحكم لأهله وخلف فيه ولد،ه الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لملك أسرته [٢] .

عهد سيتى الأول :

ارتقى سيتى (من ماعت رع) العرش بعد أن تخطى سن الأربعين فجمع نضج السن إلى مرانه فى عهد أبيه ، وكان لتوليته صدى مختلف فى مصر وخارجها . أما فى مصر فاعتبر عهده بشيراً باستعادة المجد السالف، وسمى «وحم مسوت» أى تجديد المواليد أو معيد المواليد وبما يعنى معنى عهد النهضة (وهى تسمية كانت لها سابقتها فى بداية عصر الأسرة الثانية عشرة) . وأما فى الخارج ، فرأت بعض الطوائف الشمالية فى حداثة العهد الجديد فرصة للقضاء على مابقى لمصر من نفوذ خارجى فى شئون التجارة والسياسة .

ولسنا ندرى شيئاً واضحاً عن تفاصيل النهضة التى وصف المصريون بها

(١) *See, ASAE*, XIV, 29 f.; Helck, *Der Einfluss der Militarfuhrer...*, 84 f.

(٢) *See*, R. Faulkner, *CAH*, vol. II, Ch. XXIII, 1966; Murnane, *Serapis*, 3 (1975 -76) 23-33; A.J. Spalinger, *JSSEA*, 9 (1978-79).



عهدهم الجديد ، إلا أن تكون اطمئنانهم إلى ولاية فرعون حازم طموح، يستطيع أن يستعيد هيبة بلاده فى الخارج مما سيتناوله حديثنا عن السياسة الخارجية ، ويستطيع أن يثبت دعائم الاستقرار فى الداخل بما يستتبعه عادة من أمن ورخاء وعمران . وجرى الرجل على سنة حور محب فى تشديد العقوبات على المفسدين ، وتوعد فى بعض مراسيمه من يسلب راعياً ، ويتسبب فى ضياع أو هلاك الماشية التى يرعاها بضربه مائتى عاص وتغريمه أمثالاً مضاعفة عن الماشية المفقودة ، وتوعد الراعى السارق بالهلاك على الخازوق واسترقاق زوجته وأولاده . وتوعد من يشترى الماشية المسروقة برد مائة (؟) مثل عنها . وتوعد من يتستر على جريمة كبرى بالحرمان الدينى ، وإن كان قد هدد بكل هذه العقوبات العنيفة المعتدين على حرمة أملاك المعابد ومراعيها أكثر من غيرهم [1] .

وجرت النصوص الرسمية القديمة على أن تربط بين شواهد العمران والتقوى وبناء المعابد وتجديدها وعلى هذا الاعتبار سجلت لسيتى «هتماماً مفرطاً بالمعابد ، ليغطى على انتسابه إلى الإله ست، وليثبت أن رعاية أسرته للدين وأربابه لاتقل عن عناية الأسر المالكة التى سبقتها إن لم تزد عنها ، وأوصى بجمع أكبر عدد من تماثيل الأرباب الكبار فى كبرى المعابد، التى شادها ليتألف بذلك قلوب أتباعهم أصحاب المذاهب المختلفة فى بلده . وسجلت له نصوصه حديثاً لطيفاً، خاطب به أولئك الأرباب قائلاً لهم : «... إنما أنا سبيل الإخلاص لكم وسبيل الحسنى معكم ...» . ووصف سبيلهم هذا بقوله «إن من راعى كلمة الرب سعد ولن تفشل مشاريعه ..» ، ووعظ خلفاءه فقال : «إن من عطل مصالح غيره لقى جزاءه بالمثل ، والمغتصب سوف يغتصب ...» ، ثم خوفهم عذاب الآخرة قائلاً : «سيكون (المردة) حمراً مثل لهب الجحيم ، وسوف يشوون لحوم من لايستمعون إلى قولى ...» [2] ، وهكذا كانت تقوى بعض الفراعنة وحصافة أقوالهم وإجلالهم لمعبوداتهم وتقديرهم لحسن السمعة وللثواب والعقاب – مايختلف إلى حد ما عن الرأى الشائع فى أغلب المؤلفات التاريخية الحديثة عن تألههم وجبروتهم .

وكان من وجوه النشاط الداخلى فى عهد سيتى «تساع «ستغلال مناجم الذهب

(١) *Edgerton, JNES,* 1947, 219 f.

(٢) Gunn and Gardiner, *JEA*, IV, 244 f.; 247; also, XIII, 193 f.; XXXVIII, 24 f.

فى الصحراء الشرقية . وقد صور أحد مهندسيه خريطة على بردية لبعض مناجم وادى الحمامات ، لاسيما مناجم أم الفواخير ، حدد فيها مواقعها والطرق المؤدية إليها ، والطريق المؤدى منها إلى البحر الأحمر ، وموقع معبدها المحلى ثم موقع جبل بخن (جبل الشست) منها . وعرف بعض معالمها بأسماء مختصرة، كان أمتعها اختصار اسم البحر الأحمر إلى لفظ «يم» وهو الاسم السامى الذى عبر القرآن الكريم به عن البحر والنهر . وتعتبر هذه أول أو ثانى خريطة من نوعها عرفت حتى الآن من العالم القديم (١) . وتقرن مهارة مهندسها بخريطة أخرى، نقشت فى العهد نفسه فى الكرنك، وصورت المحطات والحصون المنتشرة على الحدود الشمالية الشرقية حتى بداية فلسطين ، وقد أثبتت مفرداتها فى ترتيب مكانى صحيح ، وتعتبر بدورها أقدم خريطة حربية جغرافية مصورة معروفة . ومن تفصيلاتها الطريفة تصوير مدينة ثارو (قرب القنطرة) تحميها تحصينات أمامية ويمتد جسر فوق قناتها ، وتصوير عدد من كهنّها وموظفيها يحملون طاقات الزهور ليستقبلوا بها فرعونهم عند عودته إليهم منتصراً من حملة حربية (٢) .

ومع الاهتمام بالمناجم سجلت نصوص الملك سيتى حديثاً آخر، يحمل بدوره طابع الشفقة والبساطة والأدب ولايقل طرافة عن حديثه إلى آلهته . وروت أن سيتى أراد أن يتحقق من أحوال الصحراء ومسالك المناجم فيها ، وكان يظن أنه تتوافر فيها مجار مائية كافية ، ولكنه بعد أن سار فيها ولمس قسوتها، راجع نفسه وقال : «ما أتعس الطريق الذى يعوزه الماء ، وكيف يكون حال المسافرين فيه إذا أرادوا أن يتقوا جفاف حلوقهم ؟ ومن ذا الذى يرد ظمأهم .. ومواطنهم بعيدة والصحراء مديدة ؟ فيالتعاسة من يظمأ فى البرية ... ، هلم إلى عقلى حتى أفكر فى راحتهم وأكفل لهم مايصون حياتهم ويجعلهم يترجمون على فى السنين المقبلة ، وعسانى أعمل عملاً يشكرنى عليه أهل الأجيال القادمة ، أنا الشفوق الذى يعنينى الرخاء» . وتجول الفرعون فى الصحراء حتى حقق ربه مسعاه وهداه إلى موضع أمر رجاله بأن يحفروا بئراً فيه ،

(١) Lepsius, *Auswahl...*, Tafel 22; Ball, *Egypt in the classical geography*, 1942, 180 f. G. Goyon, *ASAE*, XLIX, 337 f.

وراجع خريطة نفر العراقية من أوائل الألف الثانى ق.م – ولو أنها أقرب إلى التخطيط منها إلى الخريطة .

(٢) Wreszinski, *Atlas*, II, 34, 40-41; *JEA*, VI, 99 f.; XXXIII, 34 f.

ولما نجح مسعاهم ، قال سيتى : «أجاب الرب دعانى ، وأفاض الماء من أجلى على الهضاب ، فى طريق كان موحشاً منذ عهود المعبودات ، فأصبح رخاء فى عهدى ، وأرجو أن تنمو فيه حشائش تفيد الرعاة . ولاريب فى أنه إذا نشط الملك سعدت بلاده... ، وقد أوحى الرب إلى أن أشيد هاهنا قرية يتوسطها معبد ، فالبلد الذى يتضمن معبداً بلد مبارك» (١) .

وكما نشط العمران على الأقل بالمعنى الذى قصدته نصوص سيتى ، بلغت فنون النقش والتصوير والنحت فى عهده ذرى عالية من الجمال المترف والذوق المبدع ، لاسيما فى معبد شعائره فى أبيدوس ، ونقوش مقبرته فى غرب طيبة ، ومناظر حروبه الخارجية ومناظر تقواه فى الكرنك حيث صور فىhاثنين وعشرين وضعاً خاشعاً يتعبد فيها ربه آمون رع ، ويتخذ فى كل وضع منها هيئة معينة ويدعو بدعاء خاص مختلف .

* * *

أسلفنا أن بداية عصر الأسرة التاسعة عشرة فى مصر كان لها صدى داخلى يختلف عن صداها فى الخارج ، فعلى حين اعتبرها المصريون بشيراً بعصر نهضة ، ظنت بعض الطوائف الخارجية أن حداثتها فرصة لحرمان مصر مما بقى لها من نفوذ خارجى فى عالم التجارة والسياسة ، وشجعها على هذا الظن عدة عوامل، كان منها: قلة النشاط العسكرى لمصر فى أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وانهيار دولة حلفائها الميتان تحت ضربات الحيثين (الخاتيين) عام ١٣٦٥ ق.م ، ثم تفرغهم لتحريض من والاهم من أمراء الشام على المصريين . وزاد الوضع سوءاً بظهور هجرات آرية الطابع عرفت اصطلاحاً بشعوب البحر ، وخرجت طوائفها الأولى من مواطنها المجهولة منذ أوائل القرن الرابع عشر ق.م ، وتسللت إلى الحوض الشرقى للبحر المتوسط واختلطت بسكان سواحله وجزره اختلاطاً جزئياً ، وعمل رجالها مرتزقة عند من يجزلون العطاء لهم من أمم الشرق الغنية . ثم رنت بعض طوائفهم إلى الشواطىء الجنوبية للبحر فى أواخر القرن نفسه ، ولما عز عليها أن تجتاز السواحل

(١) Gunn and Gardiner, *Op. cit.*

المصرية مباشرة اتجهت إلى النزول غربها على الشواطىء الليبية [١] . وواجه سيتى الأول كل هذه المشاكل بحزم وكفاية وأعادت جيوشه الاستقرار إلى أرض كنعان التى هددها العدو ، وسيطرت قواته على مرتفعاته ، وبلغت فى تقدمها جبال لبنان ، ثم أتتها أنباء تحركات مريبة على حدود مصر الغربية تحت ضغط الهجرات الآرية، التى أشرنا إليها ، فواجهتها الجيوش المصرية وكسرت حدتها ، كما عادت بعد فترة إلى سوريا ، ولكن تقدمها فيها أقلق دولة الحيثيين (الخاتيين) ، وهنا أراد كل من الفريقين أن يجرب بأسه مع الآخر وجهاً لوجه ، فتلاقى جيش الحيثيين مع الجيش المصرى فى شمال قادش ، وكان لقاء مباشراً أدرك كل من الخصمين الكبيرين فيه أنه لن يتيسر له القضاء على قوة خصمه بسهولة ، فتميع الموقف بينهما إلى حين وربما إنتهيا إلى عقد هدنة ، وإن كانت نصوص كل فريق منهما قد ادعت النصر لأهلها على الفريق الآخر .

وأرخ رجال سيتى لحروبه كتابة وتصويراً ، وسجلوا مراحلها على بعض جدران الكرنك ، وصوروا قتال العربات وتدمير المدن وسوق الأسرى فى لوحات كبيرة ، وسجلوا خريطتهم الحربية المصورة التى أشرنا إليها ، وأظهروا ملكهم يقاتل راكباً وراجلاً ، وليس راكباً فقط ، كما جرت العادة فى صور ملوك الدولة الحديثة ، وصوروه فى المعركة يضغط بثقله على عدوين تحت إبطيه ، ومن حوله أولاده يشاركونه الحرب، وكان كل ذلك جديداً فى تاريخ التسجيل الفنى للحروب [٢] .

وظلت شئون الإدارة الخارجية على حالها الذى استقرت عليه خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة ؛ فتولى أمرها فى الشام أمراء وولاة محليون ، وشاركهم فى مسئولية توطيد الأمن حاميات مصرية شامية ، وقام بمهمة التنسيق بين البلدين رسل

---

(١) *See*, Pendlebury, *JEA*, XVI 75 f.; Wainwiight, *JEA*, XXV, 148 f.; Bonfante, *Am. J. of Arch.*, 1946, 251 f.; Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, I, 191 f.; *Helck, Die Seevolker in den aegyptischen* Quellen, *Jahr. der Univ.*, Frankfort..., 1979, 7-21.
R.D. Barnett, *CAH*, vol. II, Ch. XXVIII, 1969;

(٢) Wieszinisk, *Atlas*, II, Pl. 34 f.; *JEA*, VI, 99 f.; XXXIII, 34 f.



ملكيون . وتولى الإدارة فى النوبة أمراء محليون أيضاً تحت إشراف أمير كاش المصرى ونوابه (١) .

* * *

عهد رمسيس الثانى :

خلف سيتى ولده رمسيس الثانى (وسر ماعت رع ستبن رع) فى عام ١٢٩٠ ق.م بعد فترة من مشاركته فى الحكم (٢) . وكان أحد شخصيات حاكمة فرضت شهرتها على التاريخ ورواته (٣) ، وتهيأت له منزلته فى حواث عصره نتيجة لعوامل عدة ، كان منها : أنه ورث عن أبيه عرش دولة قوية ذات ثراء عريض ، وأنه شاركه فى الحكم بضع سنين فاكتسب خبرة لابأس بها فى شئون السياسة والحرب ، وأنه ولى الحكم شاباً تملؤه الحمية وتحدوه آمال واسعة ، وأنه وجد فى رجاله ، مدنيين وعسكريين ، خبرة أصيلة ، وأنه تحدى أضخم قوة عسكرية فى عصره وهى قوة الخاتيين (الحيثيين) واستطاع هو وجيوشه أن يصونوا سمة مصر العسكرية إزاءها ، وأنه كان شغوفاً بتخليد ذكراه والدعاية لنفسه بكل سبيل ، وأن حكمه طال سبعة وستين عاماً أنجز له رجاله خلالها عدداً من المعابد والقصور والمسلات والتماثيل، بلغ حداً من الكثرة والضخامة قل أن بلغته آثار حاكم آخر فى العالم القديم .

وتكونت لمصر عاصمة سياسية جديدة فى عهد رمسيس الثانى ، ارتبطت شهرتها باسمه ، فسميت «بر رعمسو» أى دار رمسيس ، وأصبحت واحدة من أمهات العواصم فى الشرق القديم ، ويفهم من جدل طويل حول تعيين مكانها ، أنها كانت تمتد وتضم بضياعها مابين قنتير وبين صان الحجر الحاليتين فى شرق الدلتا ، على الفرع التانيسى لدلتا النيل (قرب عاصمة الهكسوس القديمة) (٤) . وكانت بهذا ذات موقع مناسب يتوسط دولة الرعامسة فى مصر والشام ، ويسمح بوجود احتياطى عسكرى كبير فيها، يمكن أن ينجد الحاميات الشمالية على جناح السرعة فى عصر

(١) Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 255.

(٢) Parker, *JNES*, XVI, 43 f.; W. Murnane, *Ibid.*, XXXIV (1975), 153-190.

(٣) J.D. Schmidt, *Ramesses* II.., 1973; K.A. Kitchen, *Pharaoh Triumphant,... Ramsses*, II, 1982, and older references.

(٤) See, Kemi, IV, 199 f.; Gardiner, *Anc. Egyptian Onomastica*, II, 171 f.; *ASAE*, XXX, 31 f.; LII, 443 f.



اشتدت فيه أخطار الحيثيين ثم شعوب البحر ، فضلاً عما توافر لها من استراتيجية حيوية ودفاعية مقبولة ، نظراً لإشرافها على الفرع التانيسى للدلتا البر حين الضرورة، وحماية ظهيرها بمناقع الدلتا الشمالية من ناحية البحر . وربط بعض المؤرخين بين الجهود ، التى بذلت فى إنشاء هذه المدينة وبين ماذكرته قصص الخروج فى التوراة من تسخير فرعون موسى للعبرانيين فى إنشاء مدينة ضخمة فى أرض جوشن بشرق الدلتا ، وهو ربط لايزال فى مرحلة الفروض .

وعمر رجال رمسيس عاصمته الشمالية بتماثيل ومعابد كثيرة أغلبها جديد قطعوا أحجاره من محاجرها ، كما تخيروا عدداً من تماثيله ومسلاته وأحجاره مما تضمنته بعض معابد الوجه البحرى ومصر الوسطى وبعض معابد الصعيد من آثار العصور السابقة . وسجلوا إسم ملكهم على هذه وتلك ، وتبعهم فى مثل هذا الإجراء خلفاؤهم فى بقية عصر الرعامسة بالنسبة لملوكهم ؛ الأمر الذى يدعو إلى الحكم على تصرفهم هذا بأحد أمرين أو كليهما : إما دمغهم ودمغ فراعنتهم بالسرقة والاعتداء على آثار الأسلاف فى سبيل إضفاء الفخامة ومظاهر الثراء على عاصمتهم حديثة النعمة سريعة التكوين ، وإما أن نلتمس لهم مبررات تناسب عصرهم وظروفهم دون أن نبرئهم البراءة كلها . ومن هذه المبررات أن الغزاة الهكسوس كانوا قد سبقوهم إلى انتحال بعض هذه التماثيل والآثار لأنفسهم بعد أن محوا منها أسماء أصحابها ، فاستردها رجال رمسيس وسجلوا إسمه عليها باعتباره الوارث الشرعى لأصحابها الأصيليين الذين عز على رجاله أن يتعرفوا على أسمائهم الأولى ، ثم أكرموها بوضع أغلبها فى معبد الإله آمون الذى توسط العاصمة الجديدة وقام فيها بدور معبده الكبير فى طيبة . وليس من المستبعد كذلك أنهم وجدوا بعض العمائر القديمة التى أعادوا استخدام أحجارها مهدمة مهملة بالفعل ، فاعتبروا إعادة استعمالها أفضل من تركها تزداد خراباً ، واعتبروا تسجيل إسم فرعونهم عليها أماناً لها من تكرار الاعتداء والإهمال . هذا.. وإن كنا لاننكر أخيراً أن كل هذه المبررات كانت تخدم أغراضاً أخرى ومنها إشباع شغف رمسيس بالعمائر والتماثيل عن أقرب سبيل ، فى الدلتا وفى الصعيد أيضاً ، مادامت التقاليد قد جعلته صاحب التصرف الأول فى عصره وممثل الأرباب والأسلاف فى أرضه ، إلى جانب ما رآه أعوانه من أن استخدام التماثيل والأحجار المصقولة من الآثار القديمة يوفر لهم كثيراً من الجهد فى أعمال المحاجر وأعمال النحت ، وهو عذر غير مقبول .

وعلى أية حال ، فلم ينل مجد العاصمة الجديدة كثيراً من أمجاد العاصمتين القديمتين منف وطيبة . فاحتفظ الرعامسة بقصورهم فى منف ، وزادوا عمرانها ، كما ظلت معابد آمون رع الكبرى فى طيبة تحظى بأكبر قسط من رعاية الدولة وثرائها، مما سنعرض نماذجه فى حديثنا عن تطور الفنون فى الدولة الحديثة ، ويكفى أن نشير هنا إلى أن ضخامة آثار هذا العهد، وفى طيبة بالذات فضلاً عن غيرها من مدن القطر ، تدل ضمناً على ثراء واسع تمتعت الدولة به، وإن كنا للأسف لانستطيع أن نربط بينه بالضرورة، وبين رخاء عام يقابله تمتع به الشعب فى مجمله.

وعمر رمسيس الثانى مايقرب من تسعين عاماً ، ونعم بحكم طويل بلغ سبعة وستين عاماً ، واستمتع فى حياته الخاصة بأكثر مما استمتع به الفراعنة الذين سبقوه ، وبز أمنحوتب الثالث المزواج فى عدد زوجاته وجواريه ، وأنجب عدداً كبيراً من الأبناء قدر بعض المؤرخين أنهم بلغوا ٥٩ بنتاً و ٧٩ ولداً أو مائة ولد . غير أن هذا التقدير ونحوه لايخلو من شك كبير ، ولايبعد أن بعض ممن اعتبرهم المؤرخون أبناءه كانوا من بيته الملك فحسب ؛ أى من الفروع والأقارب الذين انتسبوا إليه تشرفاً ، وخدع بعض المؤرخين فى نسبهم أن اللقب المصرى «سانيسو» بمعنى ابن الملك ، ولقب «سات نيسو» بمعنى بنت الملك ، لم يكن أحدهم يختلف عن لقب الإمارة العادى لبقية أفراد الأسرة المالكة الذين لم يكن يتميز عنهم بلقبه غير ولى العهد . وقد تنقلت ولاية العهد فى أيام رمسيس بين ثلاثة عشر ولداً من صلبه ، مات اثنا عشر منهم فى حياته ، وكان أشهرهم خعمواس الذى اكتسب سمعة واسعة فى عصره بعلمه الدينى وبإشرافه على إنشاء كثير من آثار أبيه وتنظيم أعياده ، وحرصه على ترميم بعض آثار العصور السابقة (١) .

وقع العبء الأكبر فى ملاقاة الحيثيين (الخاتيين) على مصر فى عهد رمسيس الثانى ، وكان على رأس الحيثيين حينذاك ملك يسمى موتاللى، لم يكن يقل عن رمسيس طموحاً ورغبة فى إثبات جبروت دولته ، فاستعد للحرب وسخر لها معظم إمكانيات مملكته وجمع حوله جيوشاً تنتمى ، فيما ذكرته المصادر المصرية ، إلى ما لايقل عن عشرين طائفة وجنسية ، وبدأ توسعه بهم حتى بلغ نهر الكلب شمالى

---

(١) Giriffith, *Stories of the high priests*, 2 f.; Petrie, *A History of Egypt*, III, 8 f.; Drioton & Lauer, *ASAE*, 1937, 102 f.

بيروت ، وأعد رمسيس عدته هو الآخر ، وخرج فى حملة استطلاعية خلال عام حكمه الرابع ووصل بجيشه نهر الكلب الحد الفاصل بين نفوذه وبين نفوذ خصومه ، وهناك أمر بنقش نصبين على جبل يشرف على أعالى النهر ويطل على البحر ، تذكاراً لحملته وتحدياً لأعدائه القريبين منه . واتخذت جيوش الحيثيين وحلفائهم مدينة قادش مركزاً لعملياتها الحربية ، وكانت لها الأهمية الطبيعية والاستراتيجية نفسها التي وصفناها لها خلال حروب تحوتمس الثالث ، من حيث وقوعها بين ثلاث مساحات مائية وإشرافها على وادى النهر الكبير ، وتحكمها فى مدخل وادى البقاع وأحد طرق التجارة الرئيسية مع بلاد النهرين .

وعاد رمسيس لملاقاة الحيثيين وحلفائهم فى العام التالى بجيش بلغ نحو عشرين ألف مقاتل فى أربعة فيالق ، سمى كل فيلق منها باسم أحد الأرباب المصريين الكبار : آمون ، ورع ، وبتاح ، وست . وعندما بلغ الجيش أرض آمور تخير رمسيس مجموعة من صفوة الشبان في جيشه، ذكرتهم نصوصه باسم نعرن أو نعرونا بمعنى فرق الفتوة أو شيئاً قريباً من ذلك ، وأوصاهم بالتزام خطوط الساحل وبأن يتخيروا الفرص المناسبة لحماية ظهره ونجدته حين الحاجة ، ثم تقدم جيشه بفيلق آمون حتى بلدة شابتونا (ربلة) وانتظر مايعود إليه به عيونه ، وهناك واجهته خديعة كلفته هو وجيشه كثيراً من الجهد والرجال ؛ إذ وفد على معسكره جاسوسان، إدعيا أنهما هربا من جيش الحيثيين الظلمة خلسة ، وأن ملكهم تراجع عن قادش وعسكر فى منطقة حلب . وانخدع رمسيس برواية الرجلين وظنها فرصته، واعتزم الإسراع إلى قادش قبل عودة أعدائه إليها فانطلق بفيلق آمون فى سرعة جنونية وترك فيلق رع يلحق به ، وخلف جنود الفيلقين الآخرين على مبعدة منه، يسيرون على مهل ليحموا ظهره ويبلغوا ساحة الحرب فى راحة مناسبة . وعندما عبر نهر العاصى اشتد عيونه على جاسوسين آخرين أقرا لهم بالأمر الواقع وهو أن الحيثيين تواروا بجيوشهم شرق قادش ليداهموا المصريين على غرة بمشاتهم وعرباتهم . وشعر رمسيس بالخطر يوشك أن يحيط بجيشه ، فأمر وزيره بأن يستعجل فيلق بتاح ، فأرسل الوزير فارسين على متنى جوادين سريعين ولحق بهما بعربة . ثم خاطر رمسيس برجاله ، وتقدم بفيلق آمون إلى الموضع الذى ظن أن أعداءه عسكروا فيه ، ولكن الحيثيين كانوا قد بدلوا مراكزهم بمهارة ، وانفلتوا إلى جنوب المدينة وعبروا مخاضة النهر ، وتربصوا بفيلق رع حين اقترب منهم فى سبيله إلى فيلق آمون وباغتوه فجأة فشطروه فريقين : فريقاً

عاد من حيث أتى وفريقاً أسرع رجاله إلى معسكر الفرعون واحتموا بفيلقه . وفى غمرة الاضطراب الذى أشاعوه فى المعسكر بدخولهم المفاجىء ، لحق الأعداء بهم وفردوا أجنحتهم الواسعة حولهم وكان فى كل عربة من عرباتهم الحربية ثلاثة رجال ، فتصدى المشاة المصريون لهم وانتزعوا بعضهم من عرباتهم وقاتلوهم بالحراب والسيوف ، ولكن العدو كان كثيراً عليهم ، والمفاجأة أذهلت عدداً منهم ، وحينذاك لم يجد رمسيس بدأ من المجازفة بنفسه ، فاستقل عربته ولحق به نفر قليل ممن كانوا حوله من القادة وحراس بدنه ، واستنصر ربه آمون وعاتبه عتاب المؤمن ، ودعاه بدعاء الإبن لأبيه ، قائلاً : «ما هذا والدى آمون ، هل من شأن الوالد أن يتخلى عن ولده ؟ هل أتيت أمراً دونك ؟ ألم أمش وأقف تبعاً لقولك وماتعديت أمرك ؟ ... ما أجل رب مصر العظيم حين يسمح للأجانب بأن يقتربوا من حماه . ما الذى غير نفسك آمون ؟ وما قيمة هؤلاء الأجانب يا آمون ، وهم أشرار يكفرون بالرب ... ؟ ، أدعوك أبى آمون ، وأنا بين أجانب كثيرين لا أعرفهم ، وقد تضافرت الأقطار الأجنبية ضدى . وأصبحت وحياً وما من أحد حولى ، وتركنى جنودى الكثيرون ، ولم يلفت إلى واحد من خيالتى ، وناديتهم فلم يستمع واحد منهم إلى ندائى ...» .

انحط رمسيس بحرسه القليل على جماعات كثيفة من أعدائه كانوا يجاورون نهر العاصى واندفع بين صفوفهم ، وكاد يضيع بين عرباتهم ، لولا أنه أذهلهم باستماتته واستبساله . وفجأة أتاه عون ربه ، ولاحت له فرق نعرونا أو فرق الفتوة التى تركها على شاطىء آمور (١) ، فعبرت النهر الكبير ولحقت به ، وانصب أفرادها على جماعة من الحيثين انشغلوا بنهب المعسكر المصرى وشتتوهم ، فظنهم الأعداء بداية جيش كبير وتخاذلوا أمامهم . وهنا اشتدت عزيمة رمسيس وشدد هجومه، فلم يجد أعداؤه أمامهم غير النهر فألقوا أنفسهم إليه وغرق بعضهم فيه ، وكان منهم أمير حلب، فانتشله أتباعه قبل غرقه وصورتهم المصادر المصرية يعلقونه من قدميه، ويجعلون رأسه إلى أسفل حتى يفرغ من فمه ما ابتلعه من الماء . وظلت هذه اللحظات مثار فخر كبير ردده رمسيس مراراً، وأرجع النصر فيه إلى ربه وإلى نفسه .

وتتابعت جيوش رمسيس نحوه فأنبهم على تباطئهم عليه ، وعاتب ضباطه بحديث لاذع ، حاول أن يستفزهم به إلى حسن البلاء ، وتعمد أن يذكرهم فيه بما

(١) A.R. Schulman, The N'rn at Kadesh once again, *JSSEA*, XI, 1 (1981), 7-19.



وفره لهم فى مصر من مآثر وحسن معاملة ، وكيف قربهم إليه وأحبهم وكاد ينسى أنه السيد الآمر بينهم ، وقال لهم :

« لعله ما من أحد منكم إلا أسديت إليه فضلاً فى وطنى ، واذكروا أنى لم أقف منكم موقف السيد ، وأنكم كنتم فقراء فأغنيتكم بأفضالى المستمرة ، وأقمت الابن منكم على أملاك أبيه ، وحرصت على أن أبعد كل شر عن أرض مصر ، وتجاوزت عن ضرائبكم ، ولم يحدث أن اغتصب أحد شيئاً منكم ، وكل من أعلن منكم شكاية زكيته على طول الخط .. ، والواقع أنه ما من مولى قدم لجنوده ماقمت به لإرضائكم ، فقد سمحت لكم بالاستقرار فى بيوتكم ومدنكم كلما أعفيتكم من القيام بمهام الجيش . وهكذا كان شأن خيالتى ، يسرت لهم السبيل إلى قراهم (كلما شاءوا أو كلما سمحت الظروف) » .

وما نظن أن حديث رمسيس يخلو من المبالغة ، ولكنه لايخلو فى الوقت نفسه من حقائق مقبولة . فقد دلت متون بعض أفراد الجيش العاديين ، وليس الضباط وحدهم ، على أنهم تمتعوا بإنعامات الملوك فعلاً ، وأنهم كانوا من ملاك الأراضى ، وذوى خدم وعبيد ، ليس فى الدولة الحديثة وحدها ، وإنما فى بعض ما سبقها كذلك من عصور ، وكان من شأن غناهم النسبى ، فيما يرجح ، أن يجنبهم الدنية ويهذب خشونتهم ويكفل لهم كرامة العيش ، فضلاً عما يرتضونه لأنفسهم من كرامة المظهر .

وتوالت هجمات رمسيس وجيوشه على جيوش أعدائه ست مرات ، وكانت السادسة هى الفاصلة ، فانسحب الحيثيون إلى مدينة قادش ، وزادت المصادر المصرية فروت أن ملكهم أوفد رسولاً إلى رمسيس يعرض عليه السلم ويستعطفه بعبارات لاتخلو من ألم ومذلة ، ويقول فيما روى المؤرخون المصريون : « ... هل من الخير أن تبطش بعبيدك ، ووجهك الكريم يلحظهم دون أن ترحم ؟ تذكر مافعلته بالأمس حين أتيت فقتلت منا مئآت الألوف ، أتأتى اليوم أيضاً ولاتبقى من رجالنا باقية ؟ لاتكن قاسياً فى حكمك أيها الملك الهمام ، فالسلام خير من الحرب ... » .

ومال رمسيس إلى الاستجابة من أجل نفسه التى أجهدتها الحرب ، ولصالح جيشه ، ورحمة بعدوه ، ولكنه أراد أن يعرف رأى رجاله أولاً ، فاستدعى رؤساء جيشه ، خيالة ورجالة ، وجمعهم فى صعيد واحد ، وأسمعهم عرض كبير الحيثيين ، فأجابوه فى صوت واحد . «الصلح خير عظيم جداً ، مولانا الحاكم ، وليس فى السلام

من بأس إن نفذته . ومن ذا الذى لايهاب يوم نقمتك ؟ » . وغلبت على المصرى سماحته «فأذن الفرعون بالاستجابة إلى دعاء العدو ، وبسط يديه من أجل السلام ، وقفل راجعاً مع جنوده فى أمان إلى أرض مصر» .

سجل أعوان رمسيس تفاصيل معركة قادش كتابة وتصويراً على جدران معابد الكرنك والأقصر والرمسيوم وأبيدوس وأبى سبل ، وسجلوها على صفحات البردى للذكرى والتفاخر والدراسة [1] ، وغالوا فى تصوير جرأته فيها كما غالوا فى تصوير عجز أعدائهم فيها . وكان من الطبيعى أن يسجل الحيثيون من أخبار المعركة مايحفظ عليهم ماء وجههم ، فأنكروا فى نصوصهم أنهم طلبوا العفو من رمسيس ، وادعوا أنه يئس منهم فنزح عنهم ، وأنهم تعقبوا مؤخرة جيشه [2] . وحار المؤرخون بين الروايتين ، ومال كل فريق منهم إلى جانب ، غير أنه من المرجح أن رمسيس وإن لم يطرد الحيثيين تماماً من شمال الشام ، فإنه قد أفسد خطتهم التوسعية ، وأوقف تقدمهم بعد قادش ، وأرهب أعوانهم ، ومع الهزيمة عن جيشه ، ثم عاد إلى مصر ليستجمع قوى دولته ويتحين الفرص لمعاودة هجومه . وواتته الفرصة فى العام الثامن من حكمه ، حين عاود الحيثيون الفتنة وإثارة الاضطرابات فى بعض مدن الشام ، فخرج بجيشه وأعاد الاستقرار إليها بعد مجهود عنيف [3]. وواصلت جيوشه نشاطها التفتيشى فى أرجاء دولته الواسعة بعد عامه الثامن ، وقادها بنفسه فى بعض هذه المرات ، وذكر فى نصوصه أنه قاتل إحدى المدن التى سيطر الحيثيون عليها ساعتين كاملتين قبل أن يرتدى درعه [4]. واستمرت حالات التوتر الخارجى حتى العام الحادى

---

(١) عبدالعزيز صالح : *التاريخ فى مصر القديمة* - مفهومه وعناصره وبواعث القومية فيه - القاهرة ١٩٥٧ ، ص٣٢ .

Breasted, *The Battle of Kadesh*, 1903; Kuentz, *La Bataille de Qadech*, 1928; Gardiner, *The Kadesh Inscriptions* of Ramesses II, 1960; and see *The Battle of Kadesh, Publications of the Centre of Documentation*, F. 58.

(٢) E. Edel, *Zeitschrift fur Assyriologie* (NF), 1949, 195 f., 212; A. Goetze, in *ANET*, 319.

(٣) Wreszinski, *Atlas*, II, 90; Sethe, *ZAeS*, XLIV, 36 f.

(٤) *Ibid.*, *Ancient Records*, III, 352.



والعشرين من حكمه وفيه ظهر تحول واسع جديد فى تاريخ العلاقات المصرية الحيثية وفى تاريخ الشرق القديم وتقاليده .

وكانت قد أحاطت بدولة الحيثيين قبل ذلك العام هزات داخلية وخارجية عنيفة، ففى الداخل توفى موتاللى عدو رمسيس اللدود ، وتنازع ولى عهده مع عمه على ولاية العرش ، والتمس ولى العهد معاونة رمسيس ، ويحتمل أنه وعده بها ، ولكنه لم يتخذ خطوات فعالة بشأنها ، واستطاع العم «خاتوسيلى» أن يتغلب على ابن أخيه ، ولكنه أدرك أن مصر ستظل ملاذاً لخصومه على عرشه ، فاعتزم أن يسلك معها سياسة جديدة . وحضته على انتهاج هذه السياسة الجديدة هزات خارجية قوية صدرت عن دولة آشور، التى بدأت حينذاك عصرها الوسيط وبدأت تتطلع إلى نصيب من السيادة فى عالم الشرق وسياسته ، ثم هزات أخرى تمثلت فى تدفق الهجرات الآرية التى أطلقت النصوص المصرية عليها اسم شعوب البحر ؛ على حوض البحر المتوسط وشواطئه . وكل من الأمرين تخوفته مصر أيضاً وخشيت منهما زيادة اختلال توازن القوى فى الشرق ، وأصبحت على استعداد لاتخاذ خطوة إيجابية لإعادة هذا التوازن من جديد .

وبدأت خطوات التجديد من قبل الحيثيين ، على حد قول المصادر المصرية ، فأوفد ملكهم خاتوسيلى مندوبين أو رسولين إلى قصر رمسيس فى عاصمته واصطحبهما اثنان من البلاط الفرعونى ، وعرض الرسولان على الفرعون مشروع معاهدة تحالف بين مصر وخاتى ، وكان المشروع مسجلاً بالخط المسمارى على لوحة من الفضة باسم خاتوسيلى ، فقبله رمسيس من حيث المبدأ وكتب رجاله نصاً آخر باللغة المصرية على لوح من الفضة أيضاً ، قد يكون متفقاً مع المشروع الخاتى أو معدلاً عنه تعديلاً يسيراً ، وبعد اتصالات أخرى وقع الملكان على المعاهدة حوالى عام ١٢٧٠ ق.م ، وربما وقعت الملكتان عليها أيضاً ، وبدأ حين [١] ذاك عهد جديد .

وتضمنت المعاهدة دلالات ومبادئ دولية بارزة ، كان منها أن أشارت فى مقدمتها إلى علاقات ود قديمة ربطت بين مصر والحيثيين ، ويحتمل أنها عنت بها فترتى الهدنة، التى أسلفنا احتمال حدوث إحداهما فى عهد حور محب وحدوث

(١) Langdon and Gardiner, *JEA*, VI, 179 f.; Gurney, *The Hittites*, 1952, 117 f.; Wilson, in *ANET*, 1955, 199 f., ; A Goetez, *Ibid.*, 201-203.

الأخرى فى عهد سيتى الأول ، أو عنت بها فترات تبادل الهدايا والرسائل بين الفريقين فى عهد تحوتمس الثالث وعهد أمنحوتب الثالث وبداية عهد ولده آخناتون . وأشهدت المعاهدة فى خاتمتها ألفاً من الأرباب والربات المصريين وألفا من الأرباب والربات الحيثيين ، مما ينم عن استعداد كل من الدولتين لاحترام آلهة الدولة الأخرى، واستعدادهما لعهد تسامح دينى جديد ، وهو تسامح رضى المصريون بمثله فيما بينهم وبين النوبيين وفيما بينهم وبين أهل الشام منذ عهود قديمة ، ولكنهم لم يرتضوه فيما يبدو مع دولة خارجية أخرى قبل هذه المرة ، إلا مع دولة الميتان لفترة قليلة حينما ربطت بينهما روابط الود والمصاهرة .

وتعهدت كل دولة من الدولتين بعدم الاعتداء على حدود الأخرى ، وهى حدود لاندرى خطوطها الحقيقية فى شمال الشام . واحترمت كل منهما كيان الأخرى على قدم المساواة معها ، دون أن تدعى إحداهما سيادة على أختها أو تدعى أفضلية عليها ، وكان فى ذلك مافيه من محاولة التخلى عن التعصب الجنسى القديم ، وهى محاولة لم تسبقها فيما نعلم غير محاولة غير مقصودة فى عهد أمنحوتب الثالث، حين تقبل لفظ الأخوة من أمراء الشرق وملوكه وخاطبهم بها ، ومحاولة أخرى فى عهد آخناتون حين اعترف للشعوب كلها بحق الحياة فى ظل معبوده الواحد .

وتعهد كل من الطرفين المتعاهدين بنجدة الطرف الآخر بعسكره إذا وقع اعتداء مسلح على دولته ، ولم تتعد المعاهدة هذا التحالف الدفاعى الثنائى إلى تحالف هجومى على دولة ثالثة . كما تعهد كل من الطرفين بألا يأوى الخوارج الفارين من بلد الطرف الآخر ، وأن يعيدهم إليه أياماً كانت مراتبهم الاجتماعية سواء أكانوا من العظماء أم من العوام ، بشرط عدم التنكيل بهم (بالتشويه أو بالقتل ؟) أو التعرض لزوجاتهم وأولادهم ، ويعتبر هذا الشرط أقدم تصوير معروف لأوضاع اللاجئين السياسيين فى العالم القديم .

وحققت المعاهدة أغراضها ، فساد السلام بين الدولتين ، وتبودلت الرسائل بين الملكين ، ودلت الألواح الحيثية على أن رمسيس أرسل مالا يقل عن ثمانية عشرة رسالة إلى خاتوسيلى وإلى زوجته تودوخيبا، التى يحتمل أنها لعبت دوراً فعالاً فى سياسة زوجها . وراسلتهما أمه تويا وزوجته نفرتارى ، وربما ولده ست حرخبشف

أيضاً ، كما وردت إلى البلاط الخاتى رسائل أخرى من وزيره باسيرو (١) ، وأضاف النص الحيثى للمعاهدة فى نهايته وصول التهانى بعقدها من زوجة رمسيس ومن أمه . وعاد توزان القوى في الشرق القديم إلى حال مستقرة ، وتوقفت من جرائه أطماع آشور إلى حين ، وأراد ملك الحيثيين أن يدعم تحالفه مع فرعون مصر فى العام الرابع والثلاثين من حكمه ، فزوجه ابنته وقدم بها عليه بنفسه ، وروت المصادر المصرية قصة هذا الزواج من وجهة نظرها بأسلوب طريف فقالت «...» ظل عظيم خاتي يكتب إلى جلالته عاماً بعد عام يسترضيه دون دجوى ، ولكنه حين وجد أرضه فى حالة عوز شديد بقدرة جلالته ، قال لعسكره وأهل بلاطه : ما معنى أن تبور أرضنا ويغضب علينا ربنا سوتخ وتحرمنا السماء من فيضها ، كأنما قدر علينا أن نفقد كل مالنا وابنتى فى المقدمة ؟ علينا أن نقدم فروض الطاعة إلى الرب الطيب حتى يهبنا الحياة والسلام» .. ووصف المصريون وعورة الطريق الذى سلكه الحيثيون، ورووا أن الفرعون قدر من تلقاء نفسه خطورة امتناع الأمطار عن سوريا وفلسطين بخاصة ، فأقام الصلوات لأبيه سوتخ حتى يصلح المناخ (٢) ... ووصل وفد الحيثيين وملكهم وابنته العروس على رأسهم ، فأكرمهم الفرعون وأشركهم فى موائده ومجلس شرابه وجعل العروس من زوجاته الأثيرات وخلع عليها اسم «ماحور نفرو رع» . وأصبح الملكان على حد قول النصوص المصرية «قلباً واحداً كأخوين ، ولم تعد هناك حفيظة فى قلب أحدهما على الآخر» . وأكرم الفنانون المصريون صهر فرعونهم ، فصوروه فى معبد أبى سنبل فى وضع لائق قريباً منه ، ولم يكن أسلافهم قد تعودوا أن يصوروا حاكماً أجنبياً فى وضع محترم مع فرعونهم قبل هذه المرة .

وبقيت أمام الدولة جهود أخرى تبذلها ناحية الغرب ضد هجرات شعوب البحر التى زادت أعدادها ومنها قبائل المشوش والربو ، وأوشكت أخطارها أن تتفاقم على الحدود الليبية ، بدأ رجال رمسيس استعداداتهم لها بتقوية سلسلة الحصون الممتدة على

(١) E. Edol, *Zeit. f. Indogermanische Forschungen*, II, 262 f.; *SAK*, 1974, 105 f.; A. R. Schulmn, *JSSEA*, VIII, 4 (1978), 112-30.

(٢) *Ancient Records*, III, 410 f.; Kuentz, *ASAE*, XXV, 181 f.; also 34 f.; and see, *Abou Simbel Exéteriere*, Publications of the Center of Documentation, C. 17, 6 f.

ساحلهم الشمالى ناحية الغرب [١] .

* * *

فى عهد مرنبتاح :

انتهت ولاية العهد إلى مرنبتاح (بانرع) الذى خلف أباه على العرش فى عام ١٢٢٤ ق.م ، وهو كبير السن ، وجرى على مجراه فى سياسته ، بل وقلده فى تسجيل اسمه على بعض تماثيل أسلافه وعمائرهم ، ودفعه إلى ذلك كبر سنه ورغبته فى الإسراع بتسجيل ذكراه عن أقرب سبيل ، إلى جانب الدوافع الأخرى التى أسلفناها بالنسبة لأبيه ورجاله . ولم تسر أموره هينة دائماً، وإنما تعددت حروب عهده فى الشمال الشرقى وعلى حدود مصر الغربية وفى بلاد كاش ، ونكتفى هنا بالآثار المترتبة على مشاكل الجبهتين الأولين فى حياة مصر العامة .

فقد ذكرت نصوصه من الأقوام التى أخضعتها جيوشه فى الشمال الشرقى قبائل «الإسرائيليين» وكانت أول وآخر مرة ورد ذكرهم فيها فى النصوص المصرية ، ويبدو أن جيوشه اشتدت عليهم بحيث قال راويها «أبيد شعب الإسرائيليين، ولن يكون له بذر» [٢] . ودعت هذه العبارة إلى التساؤل عن مدى ارتباط هذه الحملة بخروج بنى إسرائيل من مصر، وبمعنى آخر هل تم الخروج أيام مرنبتاح أم قبلها ، وهل مرنبتاح هو فرعون موسى أم غيره ؟ لاسيما وأنه أثر عنه التنكيل بخصومه بطريقة لم يتبعها الفراعنة إلا نادراً . ولكن لم تتوافر حتى الآن أدلة كافية لإثبات خروج بنى إسرائيل فى عهد هذا الفرعون أو نفيه ، ويبدو أن قرائن النفى أقوى من قرائن الإثبات فيه ، ومنها أن النص السالف اعتبرهم من نزلاء جنوب الشام، ولم يذكر تتبعه لهم من مصر ؛ مما يعنى أنهم دخلوا فلسطين قبل عهده، وخرجوا من مصر بالتالى قبل

---

(١) *Cf.*, A Rowe, *A History of Ancient Cyrenaica*, 1948.; L. Habachi, *BIFAO*, 1980, 13-30.

(٢) تنسب هذه اللوحة أصلاً إلى الملك أمنحوتب الثالث ، ولكن أعيد استعمالها فى عهد مرنبتاح وسجل هذا النص على ظهرها .

Cairo, 34025, I, 26 f.; *Ancient Records*, II, 602 f.; Wilson, in *Ancient Near Eastern Texts*, 1955, 378; Kuentz, *BIFAO*, XXI, 113 f.; E. Helmut, *Biblica*, 1979, 373-399; G. Pendsburg, *JSSEA*, XI, 3 (1981), 171-2.

عـهده . ويلاحظ مع ذلك أن قصة غرق فرعون موسى لاتحل المشكلة ، فالقرآن الكريم يذكر أنه أنجى ببدنه بعد غرقه ليكون لمن خلفه آية؛ أى إننا لن نستغرب عدم غياب جثة فرعون موسى من بين جثث الفراعنة الباقية . ولم يكتف المؤرخون بوضع احتمالات عهد مرنبتاح فى هذا الشأن إلى جانب احتمالات عهد أبيه ، وإلى جانب ماروجه المؤرخ القديم يوسيفوس اليهودى عن الربط بين عصر الهكسوس وبين العبرانيين وخروجهم معهم فى عهد أحمس (راجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) ، وإنما أضاف بعضهم فرضين آخرين باحتمال خروجهم فى عهد تحوتمس الثالث أو ولده أمنحوتب الثانى ، على أساس ذكر اسم الأسرى العابيرو فى نصوصهما لأول مرة، مع تقريبه إلى اسم العبرانيين ، وهذا ما لم يتأكد أيضاً ، بل وافترض بعض ثالث خروجهم فى عهد آخناتون ، ولازالت القضية بغير حل مرض حتى الآن[1] .

أما عن الآثار المترتبة على معارك جيش مرنبتاح على حدود مصر الغربية ، فتتلخص فى اندفاع عدد من قبائل الصحراء الغربية وشمال أفريقيا نحو الحدود المصرية فى بداية عهده ، سواء نتيجة لزوال شخصية أبيه صاحب الشهرة الحربية الواسعة ، أم تحت ضغط هجرات آرية جديدة نزلت سواحل أفريقيا الشمالية ، أم نتيجة لقحط محلى شديد . وقد تزعم المهاجرين شيخ قبائل ربو (= ليبيو) ، ومارای شيخ قبائل الثحنو ، مع أعداد من خمس جماعات آرية مهاجرة ، وهى : الإقوش ، والتورشا ، والروكى (اللوكى) ، والشرادنة ، والشكرش (الشكلش) ، ثم اندفعوا بنسائهم وأولادهم وقطعانهم القليلة ، وطمعوا فى أن يعبروا البرارى إلى الدلتا ويستقروا فى أرضها الخصبة . ووصفت المصادر المصرية تحركاتهم بأنهم «ظلوا يهيمون خلال الحدود ويقاتلون فى سبيل ملء بطونهم يوماً بيوم ، ثم وصلوا مصر (الزراعية) يتلمسون فيها طعاماً لأفواههم» ؛ مما يعنى أنهم كانوا فى مسغبة شديدة . ووصل المهاجرون حتى الفرع الكانوبى ، وكانوا فى أعداد كثيرة ، فأعد لهم مرنبتاح ما استطاع من قوة ، وذكر فى نصوصه أنه استنصر ربه بتاح ، فأوحى إليه بالتأييد والنصر وقال له «إثبت وانزع الشك من قلبك» . ولم تستمر المعركة أكثر من ساعات وانتهت بأن أعلن الباقون الطاعة ، وكان المصريون يدركون مدى الفوضى التى كان

(١) *cf.* G. E. Wright, *Biblical Archaeological*, III, 1940, 25 f.

يمكن أن تحيق بأرضهم لو دخلها المهاجرون منتصرين ، ولما كانت معركتهم معهم من المعارك المعدودة التى دارت رحاها على مشارف أرضهم منذ طرد الهكسوس ، فقد غدا لنبأ النصر عندهم رنة عظيمة ، ووصف شاعرهم فرعونه إثر انتصار جيوشه بأنه شمس بددت الغيوم التى رانت على مصر ، وأنه جعل تامرى (مصر الزراعية) ترى أشعة الكوكب ، وأنه كمن أزاح جبلاً من النحاس من فوق أكتاف الناس، ووهب نسمة الحياة لشعب كاد يختنق .

وصور الشاعر زعيم المهاجرين ماراى يهرب تحت جنح الليل وحيداً فريداً وقد سقطت ريشة رأسه، وأضاع نعليه وعز عليه الزاد والماء وانفض أنصاره عنه وتنكروا له. وصور عظم وقع النكبة على المغلوبين فجعل شاباً منهم يقول لزميله «لم يحدث لنا شيء من ذلك (إطلاقاً) منذ عهد رع» ، وشيخاً يقول لولده «وانكبتاه على ربو (ليبيا)، حرم أهلها المعيشة الطيبة (فى مصر) وما عادوا يجرأون على السعى بين المزارع ، وتوقف سعيهم جملة فى يوم واحد» . وصور الشاعر عودة السلام إلى مشارف مصر فذكر أن أهلها الأصيلين عادوا يسعون فيها بغير عائق ولاخوف ، وأن حراس المعاقل غدوا ينامون ملء جفونهم ولاترقظهم غير حرارة الشمس ، وأن الماشية أصبحت ترعى بين الحقول بغير رعاتها .. ، وأصبح الناس يروحون ويغدون وهم يترنمون ، وما عاد أحد يسمع صياح قوم يتوجعون ... ، وجثا شيوخ (المهاجرين) يقولون سلاماً سلاماً ..» (١) .

وجدير بالذكر أن محاربة المصريين للربو أو الليبيين الجدد وحلفائهم فى هذا العهد لم تمنعهم فى الوقت نفسه من استخدام أهل الحدود الغربية الأصيلين المسالمين فى حراسة معاقلهم الصحراوية ، بل ولم تمنعهم من استخدام بعض المهاجرين الآريين القدماء من المشاوش وإلقحق فى جيوشهم وفى مراقبة المهاجرين الشرسين الجدد بأنفسهم (٢) .

ويذكر لعهد مرنبتاح وفاؤه لمعاهدة أبيه مع الحيثيين بأن أمدهم بمدد كبير من الغلال حينما خرجت هجرات شعوب البحر أرضهم وقضت فى النهاية على استقلالها، وكان قد اضطر فى فترة سابقة إلى حربهم .

(١) Wilson, *op. cit.*, 376 f.

(٢) *cf.* Papyrus Anastasi, I, 17, 4; IV, 10, 8; Erman, *Die Literatur*, 345.



واستمرت المشاكل على الرغم من جهود العصر ، واضطربت أحوال مصر الداخلية بعد عهد مرنبتاح ، وولى عرشها ولده سيتى الثانى مرنبتاح (وسر خبرو رع) الذى لم يطل عهده أكثر من سبع سنوات مرت، دون أى أثر جليل يذكر لها إلا ما أبقت عليه المصادفات من برديات تعليمية نسخها بعض الطلبة خلالها [(١)] . وحدث على العكس أن أشارت برديات أخرى إلى اضطراب داخلى شمل منطقة وليبة، ويحتمل أن أصحابه من أنصار الإله آمون عبروا به عن سخطهم على العاصمة المحدثة بر رمسيس وربها ست، بعد أن مضت عهود فراعنتها الكبار [(٢)] . وفى الحياة العادية أشارت إحدى برديات العهد وبعض لخافه إلى قضية اتهم عامل فيها أحد رؤسائه بالسلب والرشوة والشروع فى القتل وسرقة الأحجار من قبر ملكى ، كما اتهم فيها وزير الصعيد بقبول الرشوة [(٣)]. ثم قضية أخرى صغيرة اتهم فيها عامل بسب فرعونه . وهذه المواقف الأخيرة وإن كانت شيئاً تافهاً فى حد ذاتها، إلا أنها تكشف عن إحساس رجل الشارع بتفاهة ما يردده الرسميون والكهنة عن تأله فرعونهم وجلاله وقداسة ممتلكاته (راجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) .

واستمر القلق السياسى حول وراثة العرش بعد وفاة سيتى الثانى وتردد من الأسماء المتطلعة للعرش «أمنمس» ولعله أحد أحفاد رمسيس الثانى ، وأنه بلغ العرش لفترة وجيزة [(٤)] . واستغل هذا الوضع المضطرب شامى متمصر يدعى «باى» كان الخازن الأكبر للدولة ، فى فرض وصايته ونفوذه على ابن سيتى الثانى الذى ورث العرش طفلاً باسم سابتاح (مرنبتاح) ، وأصبح يفخر بمساعدته إياه على بلوغ العرش حتى اشتهر بين الناس باسم «إرسو» أى الذى عمله [(٥)] . ورضيت الملكة تاو سرة زوجة سيتى الثانى ، بالوضع القائم مضطرة ، ويبدو أنها كانت ضرة لأم الطفل الملك، وظهرت معه فى بعض صوره . وعندما مات هذا الطفل أو قتل، استأثرت تاوسرة بالسلطة، ووجدت من يناصرها على محاولة بسط نفوذها على شئون مصر

---

(١) ألكسندر شارف : تاريخ مصر .. - ص١٥٩ .

(٢) *cf.*, Gardiner, *Late Egyptian Miscellanies*, 1937.

(٣) Papyrus Salt, 124; *JEA*, XV, 243 f., *see also*, Gardiner, *The Inscriptions of Mes*, 1905; R. Anthes, *Mitt. Cairo.*, IX, 93 f.

(٤) R. Krauss, *SAK*, 4 (1976), 161 f.; 5 (1977), 131 f.

(٥) Cf. H. Goedicke, *WZKM*, 1979, 14-17.

كلها ؛ مما شجعها على اتخاذ ألقاب الملوك ، ويعتبرها بعض المؤرخين بذلك ثالثة النساء اللائى تطاولن إلى بلوغ العرش فى مصر القديمة (١) أو رابعتهن . ويميل البعض إلى الربط بين اسمها وبين اسم ثوريس، الذى أنهى به المؤرخ مانيتون عصر الأسرة التاسعة عشرة لفترة سبع سنين واعتبره ملكاً . وعلى أية حال.. فإن سلطانها لم يطل وأدى اضطراب عهدها إلى انتقال الحكم من أسرتها إلى فرع آخر للزعامسة قوى الشكيمة، وهو فرع الأسرة العشرين .

* * *

(١) Gardiner, *JEA*, 1958, 14 f.; *Egypt of the Pharaohs*, 277 f.; Faulkner, *CAH*, 1960, 24; *JEA*, 1982, 107-115.

ثالثاً - اخر الشوط مع الرعامسة
فى عصر الأسرة العشرين (١١٨٤-١٠٨٧ ق.م)

الدفعة الأولى :

أعلن مؤسسو هذه الأسرة الجديدة أنفسهم ساخطين على عيوب الحكم السابق ، منقذين موهوبين تخيرتهم الأقدار لتخليص البلاد من شرور العهد البائد ، شأنهم فى ذلك شأن كل أسرة حاكمة جديدة ، وبدأ حكمهم كهل يدعى «ست نخت» (وسر خعو رع) قام بما قام به رمسيس الأول فى ضمان الحكم لأسرته، فقدم ولده (رمسيس الثالث) أمامه ليتم ما أراده هو ولم تسمح له به سنه . وعندما صور دعاة أسرته رأيهم فيما مرت مصر به بين عهد مرنبتاح وبين عهده مما أوجزناه فى حديثنا عن خاتمة السياسة الداخلية حينذاك ، قالوا : «... وقعت مصر فريسة للاضطرابات ، وأصبح كل إنسان فيها يقنن لنفسه ، ولم يكن لأهلها زعيم لسنوات عديدة ، وكانت مجرد بلد موظفين وعمد ، يفتك الإنسان فيها برفيقه كبيراً كان أم صغيراً . وتلت ذلك سنوات فارغة ، ظهر بينهم فيها إرسو الخورى واعتبر نفسه أميراً ، وحاول أن يخضع البلاد كلها لرأيه وألزمها بدفع الضرائب (إليه) . وأصبح كل إنسان يلتمس رفيقاً يسايره فى طريقه خوفاً من أن يعتدى أحد عليه . وعامل (أعوان إرسو) الأرباب معاملة البشر ، وامتنع هو عن تقديم القرابين فى المعابد . وعندما شاءت الآلهة أن يظهروا رحمتهم ويصححوا الأوضاع فى مصر ويعيدوها إلى سيرتها الأولى ، نصبوا ولدهم الذى خرج من صلبهم «ست نخت» حاكماً على البلاد كلها، وجعلوه على عرشهم الكبير ، فتجلى على هيئة خبرى ست الغضوب وأعاد السلام إلى الأرض القلقة ، وفتك بالغادرين فيها وطهر عرش مصر العظيم ...» (١) . وكان سخط ست نخت على الملكة السابقة تاوسرة شديداً حتى لقد سمح باغتصاب مقبرتها، وإزالة اسمها وإزالة صور سيتى الثانى وسابتاح .

وقد يكون فيما أتى به هؤلاء الدعاة عن الفترة القلقة التى سبقت عصرهم الجديد صحيحاً ، ويكون تمسحهم فى الدين وغضب الأرباب على الأمس وأملهم فى الغد مما أوحت به التقاليد . أما تضخيمهم لشأن «ست نخت» فقد كان مسرفاً بعض

(١) Pap. Harris, 75, 2-5; *Ancient Records*, IV, 398 f.; *ANET*, 260; and see, Helck, *ZDMG*, 1955, 27 f.

الشيء، فالرجل الكهل الذى زكته للناس سنه وخبرته، لم يعمر فى الحكم غير عامين.

وخلفه ولده رمسيس الثالث (وسر ماعت رع - حقا أونو) الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لسياسة الأسرة ، منذ عام ١١٨٢ ق.م. وقد جعل سلفه القديم رمسيس الثانى مثله الأعلى، وتلقب بأغلب ألقابه وكنياته ، واستطاع مثله أن يدفع بجيشه عن مصر أخطاراً جسيمة ، ولكنه اختلف عنه فى أنه كان الشخصية العظيمة الوحيدة فى أسرته الكبيرة . وبدأ عهده ببداية مشرفة ثم انتهى إلى خاتمة نؤجلها لحينها ، وقد تشابكت السياسة الداخلية مع السياسة الخارجية فى عهده ولهذا نبحثهما معاً فيما يلى :

فقد تأتت الأخطار على عهده عن طريق شعوب البحر، كما تأتت من قبل فى أيام مرنبتاح ، ولكنها أصبحت أشد وأعتى ، وارتبطت فى عهده بهجرات وتحركات جديدة أوشكت أن تطبق على مصر بهيئة فكى الكماشة من غربها ومن شمالها الشرق ومن البر والبحر معاً ، ولو أن ذلك كله كان عن غير تعاون مقصود بينها ، وكان مما وصف به أفرادها أنهم أجانب اليم ، والشماليون الذين فى جزرهم .

وقد بدأت بتحرك جماعات شعوب البحر التى انتشرت وراء حدود مصر الغربية فى تحركات مريبة ، وكان فيهم الكثيرون من الريو والسيد وتزعمهم بعض المشاوش (المشوش)، الذين عرفهم المصريون منذ أواسط عصر الأسرة الثامنة عشرة واستخدموا بعضهم كمرتزقة فى جيشهم ، ولكن بنى جلدتهم استغلوا فترة القلاقل التى انتهت بها أيام الأسرة التاسعة عشرة وتنمروا لها ، ولم تلن قناتهم حتى السنوات الأولى من عهد رمسيس الثالث حين حاول أن يحل مشكلتهم بطريقة سلمية ، فولى عليهم شاباً من نواحى ليبيا تربى فى مصر ، فرفضوه . ولعلهم قد اشتدت عزائمهم بنزول هجرات جديدة عليهم من بنى عمومتهم الآريين ، أو هم على العكس من ذلك تخوفوا من نزولهم ، فنزحوا أمامهم إلى حدود الدلتا بقضهم وقضيضهم كما نزح أسلافهم فى عهد مرنبتاح ، بل وتسرب بعضهم إلى حوت كابتاح فى نواحى مف . وقد لاقتهم الجيوش المصرية فى العام الخامس من عهد رمسيس الثالث (عام ١١٧٨ ق.م) قرب وادى النطرون وردتهم على أعقابهم [١] ، ثم اكتفت بأن أضعفت شوكتهم وتركت بعض قبائلهم يعيشون على حدودها تحت طاعتها ، بل وأبقت على من كانت

(١) Edgerton and Wilson, *Historical Records of Ramses, III*, 1936, 19, f.; *Orinetal Institute Publications*, vols. VIII-IX, pls. 27-28.

تستخدمهم من جنسهم في جيشها [١]

وخاضت مصر معركتين خلال العام الثامن من عهد رمسيس (١١٧٥ ق.م) : معركة مع المهاجرين الذين وصلوا إلى الشام عبر آسيا الصغرى وانتشروا في أرض آمور نزحوا إلى أرض كنعان عن طريق البر [٢] ، ومعركة مع من اندفعوا بأساطيلهم إلى شواطئ جنوب سوريا وربما وصلوا حتى مصبات النيل الشمالية الشرقية عن طريق البحر [٣] . ووصفت النصوص تحركات هؤلاء المهاجرين وخيبة مسعاهم وصفاً شائقاً ، على لسان رمسيس الثالث ، فقالت [٤] « .. (تآمرت) شعوب أجنبية في جزرها ، وسريعاً ما زالت بلاد وشردت الحرب (أهلها) ، ولم يستطع بلد أن يثبت أمام أسلحتهم ، ابتداء من خاتي وقدى وقرقميش وأرزاوا إلى إرس (ألاسيا) في آن واحد (أي من آسيا الصغرى وشمال سوريا وشواطىء الفرات إلى قبرص في عرض البحر) ، وتركز عسكرهم في بقعة (بأرض) آمور ، فشردوا أهلها ، وأصبحت أرضها كأنها لم تكن ، ثم تقدموا نحو مصر ، ولكن النار كانت على استعداد للقائهم . وتألف حلفهم من برستي (البلستي) والثكر والشكرش والدانيين (أو الدانونيين) ، والوشاوش ، واتحدوا جميعاً ووضعوا أيديهم على البلاد في مدار الأرض كلها ، واستبشروا وملائهم الثقة بأنفسهم، وقالوا : سوف تنجح مشاريعنا ، ولكن عقل الإله كان واعياً وعلى استعداد لأن يقتنصهم كالطيور ... ، وهكذا نظمت حدودي في چاهي ، وأعددت أمامهم الأمراء وقادة الحاميات والماريانو ، وأمرت بتحصين مصبات الأنهار لتكون كالسد الكبير وزودتها بسفن وزوارق وناقلات للجنود ، امتلأت جميعها من مقدماتها إلى مؤخراتها بمحاربين مهرة مسلحين . وتألفت قوات المشاة من خيرة شباب مصر، وكانوا أشبه بالأسود الزائرة على قمم الجبال ، وتألفت فرق الفرسان من عداءين مهرة وقادة قادرين ، ومن كل فارس عربة متين . وهزت الخيول أعطافها واتسعدت لسحق الشعوب الأجنبية تحت حوافرها ، وكنت مونتو المقتدر ، أقف على رأسهم ، ليشهدوا بأنفسهم ماتفعله يداي .. أما من بلغ حدودي . فلم تبق منهم باقية ، وانمحت قلوبهم

---

(١) *Ibid.*, pl. 24; Pap. Harris, 76, 11 f.

(٢) *Oriental Institute, op. cit.*, pl. 32 f.; Wainright, *JEA*, 1939, 148 f.

(٣) *Ibid.*, pl. 37 f.

(٤) Edgerton and Wilson, op. *cit., 25* f.

وأرواحهم إلى الأبد وأما من أتوا (بجموعهم) معاً عن طريق البحر ، فقد واجهتهم نار حامية على مصبات الأنهار ، وأحاط بهم على البر سد من الحراب ، واستدرجوا إلى الداخل وحوصروا وألقوا على وجوههم على الشاطئ، ثم قتلوا ومزقوا إرباً من القدم حتى الرأس ، وغرقت سفنهم وأمتعتهم فى البحر ...» . ولاندرى هل عنى بالنار الحامية على مصبات فروع النهر قوة الدفاع عنها، أم عنى بها ناراً فعلية ترميها المنجنيقات .

وعلى نحو ما أمتع كاتب الملك فى وصف أطماع شعوب البحر ووصف مصيرهم ، أبدع الفنانون فى تصوير هزيمتهم ، على جدران معابد طيبة . فصوروهم يفرون على البر بعربات تشبه الصناديق يجر كل عربة منها أربعة ثيران ، وصوروا الأمهات من فرط جزعهن يهرعن إلى العربات قبل أطفالهن ، ويحاولن بعد ذلك أن ينتشلن الصغار من الأرض قبل أن يسرع السائق فى فراره . وصوروا ساحة الحرب بعد الموقعة خراباً يباباً ، اجتث أهلها من فوق الأرض كما اجتث شجرها سواء بسواء[1] . وعندما انتقل الفنانون إلى قتال البحر صوروا سفن الفريقين، وقد طوت أشرعتها ، ورمى المصريون أعداءهم بالنبال ، ثم صادموهم بالمراكب وقاتلوهم وجهاً لوجه بالسيوف والخناجر ، وبدأت السفن يقلب بعضها بعضاً ، حتى انتهت المعركة بانتصار المصريين [2] . وهكذا استطاعت مصر أن تنقذ نفسها وجيرانها من غزو كثيف حطم ممالك عدة قبلها، ولكنه تحطم عند أرضها وعلى شواطئ بحرها .

وتشتت جموع شعوب البحر فى عدد من جزر البحر وسواحله ، واحتفظت بعض هذه الجزر والسواحل بأسمائها ، وهكذا يتجه بعض الرأى إلى الربط بين الشرادنة وبين السردانة (أهل سردينيا) ، والربط بين الشكلش (شكرش) وبين الصقليين (أو الشكليين) ، والربط بين الثكر وبين الصقليين أيضاً أو الطروادبين ، والربط بين التورشا وبين التورسينيين أسلاف الإتروريين ، والربط بين اللوكى (الروكى) وبين اللوكيين (سكان ليكيا فى آسيا الصغرى) ، والربط بين الأقاوشا (أقوش) وبين الآخيين (؟) (أو بينهم وبين الأهياوا الذين ذكرتهم النصوص الحيثية)،

---

(١) *Oriental Institute...*, *op. cit.*, 32-24.

(٢) *See*, Nelson, *JNES*, 1943, 40 f.



والربط بين الدانيين وبين الداناوى الذين ذكرتهم إلياذة هوميروس [1] . وإن لم يتضح بعد إن كانت هذه الهجرات قد اكتسبت أسماءها من الأماكن التى نزلتها، أم أنها هى التى خلعت عليها أسماءها .

ولم يستقر قريباً من الحدود المصرية الشمالية الشرقية ممن ارتبطوا بشعوب البحر فى أعداد كبيرة غير فريقين ، وهما : جماعات الثكر وجماعات برستى أو البلستى ، وقد صورت المناظر المصرية رؤساءهم ملتحين (وجنودهم بغير لحى) ، وبأغطية رأس ذات ريش ، وبسيوف طويلة عريضة وخناجر مثلثة النصل وتروس مستديرة وحراب كبيرة . ونزل الثكر موانىء سوريا الجنوبية ، وسكن البلستى مرتفعاتها الساحلية الجنوبية ، وخلعوا اسمهم عليها ، واحتفظوا لأنفسهم بسر صناعة الحديد (والدروع الحديدية) واحتكروها دون العبرانيين زمناً طويلاً ، واحتفظ التاريخ باسمهم للأرض التى سكنوها وهو اسم فلسطين ، وإن لم يرجع ذلك إلى جدة غالبية أهلها وإنما يرجع إلى أن جماعاتهم كانت من أواخر الهجرات التى سكنتها ، وإلى أن ترديد التوراة لاسمهم فيها ترك أثره فى تسمية التاريخ لها . وقد اندمج هؤلاء البلستيون أو الفلسطينيون فى جنوب الشام مع بقية أهل كنعان الأصيلين جنساً ولغة وشكلوا مع مر الزمن قومية واحدة . وكان حظ «الثكر» أقل من حظهم فى الاستقرار، إذا اختفى اسمهم من التاريخ فى أعقاب القرن العاشر ق.م .

وتجددت مشكلات المهاجرين على حدود مصر الغربية فى العام الحادى عشر من حكم رمسيس ، ولم يحمدوا له أنه سمح لهم بالمعيشة قربها طالما أعلنوا السلم والطاعة ، وظهرت بينهم جماعات جديدة ذكرتها المصادر المصرية بأسماء قريبة من الأسباط والقايقاش والشايتيت والهاسا والباقان .. ، واستجاب لهم عدد من بنى جلدتهم الذين عاشوا قرب غرب الدلتا وعاونوهم بزعامة شيخهم كابور وولده مشر أو مشاشار. وامتد تسربهم إلى ماوراء الفرع الكانوبى للدلتا ، وشتتوا أمامهم جماعات التحنو سكان الواحات الأصلين ، فاشتدت القوات المصرية عليهم وأحبطت مشاريعهم وكسرت

(١) cf. Wainwright, *JEA*, XXV, 148 f.; Hall, in *Rec. Champ.*, 300 f.; in *Klio*, XXII, 366; Gurney, *The Hittites*, 1952, 51 f., Weinberg, ed., *The Aegean and the Near East*, 1956; R.D. Barnett, The Sea Peoples, CAH, vol. II, Ch. XXVIII, 1969, and older references.

وراجع (ص٢٤٦) .

شرتهم وأسرت مشاشار ابن قائدهم وسفكت دمه وأحرقت عليه قلب أبيه هو وحراس بدنه (١) . وبذلك انتهت محاولاتهم لدخول مصر عن طريق العنف ، وأخذوا يتسللون إليها تسللاً سلمياً بطيئاً ، فتسامح رمسيس معهم باسم مصر ، كما تسامح مع أسراهم الذين بدأهم بالشدة ثم عاد عليهم بالعفو واكتفى بإحكام الرقابة عليهم ، فقال حين غضبته عليهم : «اعتقلت قادتهم فى حصون تحمل اسمى ، ووليت عليهم ضباطاً ورؤساء قبائل ، واعتبرتهم عبيداً مدموغين بإسمى ، وعومل نساؤهم وأطفالهم نفس المعاملة ، ووهبت قطعانهم إلى دار آمون ...» . ثم قال عنهم بعد أن خف غضبه عليهم «وضعتهم فى الحصون ، ودمغتهم باسمى ، وكانت جماعاتهم الحربية تقدر بمئات الألوف ، وخصصت لهم مخصصات من الكساء والزاد ، تصرف من الخزانة وشون الغلال كل عام ...» .

وأضافت بردية من أواخر عهده أن الشرادنة والفحق استقروا فى مدنهم، التى خصصها لهم ، وأقام بعضهم فى حصونه (٢) ، وأقام بعض آخر وسط المزارع التى سمح لهم بها .

وأضافت بردية أخرى كتبها صاحبها بعد عهده أنه أنشأ لبعض المجندين منهم فيما أنشأ محلة فى الصعيد، ليعيش فيها «الشرادنة وكتبة الجيش الملكى» على حد قوله(٣) . وعلى الرغم من أن هذا التساهل النسبى يعتبر مكرمة للخلق المصرى فى جملته ، إلا أنه جر على مصر بعد ذلك شروراً كثيرة ، كانت فى غنى عنها لو أنها استأصلت شأفة أعدائها من جذورها ..

وحاولت مصر أن تنعم بفترة من الرخاء والسلام بعد انتصاراتها على شعوب البحر التى دوخت غيرها من دول الشرق الكبرى ، وبعد أن أكدت ثقتها بنفسها وتدفقت الثروات عليها من غنائم الحروب والجزى ، ولكن كان لايزال للكفاح بقية . فقد صورت أخبار أحد الأعوام التالية من عهد رمسيس محاصرته وجيوشه لخمس مدن فى بلاد الشام ، كانت منها تونب وإروازا وربما قادش وشابتونا أيضاً . ويبدو أن

---

(١) *Orental Institute, op. cit.*, pls. 62 f.; 80 f.; Edgerton and Wilson, *op. cit.*, 59 f., 74f.

(٢) Pap. Harris, I, 76, 11 f., 78, 10.

(٣) Gardiner, *Wilbour Pap.*, II, 80f.; *JEA*, 1941, 47.

الأجناس الدخيلة فى سوريا ومنها بقايا الحيثيين كانت لهم يد فى إثارة الاضطرابات فيها ، وإذا سلمنا برواية مؤرخ رمسيس عن نصره يكون هذا النصر قد أعاد الأمن كاملاً إلى خطوط مصر الدفاعية البعيدة ، وإلى مسالك تجارتها الخارجية . وكالعادة كان أكثر المصريين استفادة من هذه النهضة الجديدة هو الفرعون وأمراء أسرته ، وبطانته من حاشية القصر وكبار رجال الجيش وكبار رجال الدين . ومن أروع ماشاده المهندسون من عمائر رمسيس الثالث الخاصة معبدان فضلاً عن قصرين مؤقتين ، أما المعبدان فأحدهما ضخم شاهق خصص لإقامة شعائره الأخروية وشعائر آمون ومعبودات أخرى ، فى غرب طيبة ، وهو معبد حابو . وأما الآخر فهو معبد صغير ولكنه ممتع خصص لاحتفالات يوبيله وأعياد ربه آمون فى رحاب الكرنك بشرق طيبة . ولازال كل منهما يعتبر من أكمل المعابد المصرية الباقية فى عناصره المعمارية وفى لوحاته المصورة المنقوشة [1] . وامتدت المنشآت الدينية حينذاك إلى الشام والنوبة ، واحتفظت النصوص بذكرى معبد للإله آمون فى كنعان، أجرى رمسيس عليه خراج تسع مدن (أو قرى) فى منطقته ، ومعبد آخر فى عسقلان باسم الإله بتاح .

من عواقب الإسراف :

طال عهد رمسيس الثالث نحو واحد وثلاثين عاماً حتى عام ١١٥١ ق.م ، استمتع فى أغلبها بما دلت عليه ضخامة منشآته من ثراء ومجد ونعيم ، ثم آذنت أموره وأمور بلده بالتحول من حال إلى حال ، وكان من أهم عوامل هذا التحول : تزايد أعداد الأجانب المتمصرين فى البلاط والجيش ، وتزايد أعداد الأرقاء الأجانب فى القصور والمعابد ، ودبيب روح الخلاف والتآمر فى الأسرة المالكة نفسها ، وتزايد نفوذ وثراء كبار الساسة والكهان ، فى مقابل ضيق الطبقات العامة بقلة مايصلها من مجهود يمينها ومما نعم بمثله كبار الكهان وأهل البلاط .

فقد مر بنا كيف تقبلت مصر بعض الوافدين عليها مما وراء حدودها الشمالية الشرقية والغربية ، ومن الآريين وبعض شعوب البحر المسالمين ، بصدر رحب منذ أواسط عصر الأسر الثامنة عشرة ، وكيف استخدمتهم فى جيشها ووظائفها وبادلتهم بعض عقائدهم ببعض عقائدها . وقد زاد هذا الاتجاه خلال عصرى الأسرتين التاسعة

(١) cf., Nelson, *JAOS*, LVI, No. 2, 232 f.

عشرة والعشرين . وفى مقابل ماتقبله أهل الشام من العقائد والمعبودات المصرية ، لم يأب الكتبة المصريون حينذاك أن يعبروا بأسماء أرباب الشام : بعل وعشترة وعنات وقدش عن ربوبية البأس والقوة ، جنباً إلى جنب مع أسماء رعاة الحرب المصريين : آمون ، ومونتو ، وست ، وسخمة ... ، ولم تأب بعض الأسر أن تنسب مواليدها إلى أسماء أرباب سوريين، فى مقابل ما انتسب إليه بعض السوريين من الأرباب المصريين. وترك مهندس مصرى نصباً فى بيت شان فى فلسطين وجه دعواته عليه إلى ميكال معبودها المحلى ، وترك كاتب مصرى آخر نصباً فى أوجاريت فى سوريا وجه دعواته فيه إلى بعل زفون الإله السورى الكبير (١) . وتقبلت الجيوش المصرية أعداداً من الأجانب فى فيالقها ، سواء باعتبارهم مرتزقة ، أو من أسرارها السابقين أو من أبناء أسراها ، وأشركتهم فى حامياتها الآسيوية ، حيث كان يطيب لهم أن يقيموا فى الأقطار الشمالية . وظن ملوكها أنه يمكن الاطمئنان إلى أغراب يسيطرون على أملاك أسيوية من أجل مصر ، وذلك خطأ محض . وعين رمسيس الثالث بعض هؤلاء الأجانب فى مناصب القيادة ، وكان يعلن لهم قراراته إلى جانب غيرهم من القادة وكبار الموظفين المصريين (٢) ، واعتقد أن الأمان الذى وفره لهم من مآثر عهده وكفيل ببث الإخلاص فى قلوبهم .

وتزايد نصيب القصور الفرعونية من الزيجات الأجنبيات ، وتقبلت أعداداً أكثر من الجوارى من كل قطر . وقلدت قصور الأثرياء قصور الفراعنة فى هذا السبيل ، سواء بفعل ظروف الحرب وكثرة سباياها وغنائمها ، أو حباً فى ملاحة الشماليات ودفء الجنوبيات وتقبلت القصور إلى جانب الجوارى أعداداً من الحشم الأجانب عملوا وصفاء وخدماً وسقاة فيها .

وزاد رمسيس الثالث ، فعين بعض أولئك الأجانب فى وظائف البلاط وفى مناصب القضاء . أما المعابد فكان نصيبها من الأرقاء والأسرى الأجانب والمتمصرين أضخم ، بحيث ذكرت نصوص رمسيس الثالث أنه خصص ذات مرة ٢٦٠٧ من أسراه لأملاك آمون ، و٢٠٩٣ لأملاك رع ، و ٢٠٥ لأملاك بتاح (٣) ؛ لكى يعملوا

(١) *Anc. Records*, IV, 219, 226, 384; A. Rowe, *The Topography of Beth-Shan*, pl. 51; G. Loud, *The Megiddo Ivories*, II f., Helck. *op. cit.*

(٢) *Anc. Recrods*, IV, 397 f.

(٣) *Ibid.*, 225, 281, 338.



بأسماء هذه المعابد فيما يتبعها من الحقول والمحاجر والمناجم ، بل وفى شئون العبادة أحياناً .

ولم يكن تكاثر الأسرى والأجانب الذين أهدى منهم رمسيس الثالث إلى المعابد ١١٣٤٣٣ شخصاً ، ولم يكونوا يقلون بعائلاتهم عن ربع مليون نسمة يعادلون نحو ١٠ ٪ من الفئات الوطنية العاملة ، يحتسبون من القرى المنتجة لمصلحة البلاد دائماً ، فهؤلاء نافس بعضهم العمال المواطنين فى أعمالهم وأرزاقهم ، وأصبح أغلبهم عالة على الاقتصاد القومى ووقع عبء إطعامهم على كاهل بقية السكان (١) .

ولم يكن من بأس فيما جرت عليه مصر من فتح قصورها ودواوينها ومعابدها لأبناء جيرانها ولأسراها ولجماعات المرتزقة المسالمين ، طالما ظلت قوية يقظة وطالما بقيت يدها هى اليد العليا . ولكن الخطر كل الخطر كان يتمثل فى ألا يخلو إخلاص هؤلاء النزلاء لها من شوائب ، وأن يتمصروا بمظهرهم وليس فى مخبرهم ، وأن يظل بعضهم على استعداد للتنكر لها متى سنحت لهم فرصة أو ألمت بها نكبة ، وما كان أكثر احتمالات وقوع النكبات عليها فى ذلك الزمان .

وكشفت عن مشاكل قصر رمسيس الثالث وأوضاع الأجانب فى بلاطه ، مؤامرة من إحدى زوجاته الملكيات دب النفور بينه وبينها إلى حد أن تجاهل الفنانون تسجيل اسمها مع بعض صورها فى معبده ، وأحست هى برغبته فى إقصاء ولدها بنتاورة عن ولاية العهد ، فتآمرت مع بعض سقاة البلاط ونسائه وحرسه وخدمه من المصريين ومن النزلاء المتمصرين . واستعان المتآمرون بالسحر ووجدوا فى مكتبة القصر مايهديهم إلى عمل تماثيل من الشمع صنعوها على هيئة الحراس وتلوا عليها سحرهم وتعاويذهم ليلقوا لى أصحابها السبات ويضعفوا عزائمهم ، أو هكذا أملوا . ولكن المؤامرة انكشف أمرها ، وتولى التحقيق فيها بأمر الفرعون أربعة عشر قاضياً ومحققاً كان من بينهم أربعة تدل أسماؤهم على أنهم لم يكونوا مصريى الأصل . وقبل أن ينتهى التحقيق استطاع بعض أقارب المتهمين أن يرشوا ثلاثة من القضاة وضابطين ، ولكن أمرهم انكشف وتحول القضاة الثلاثة والضابطان إلى متهمين . وحكمت المحكمة على الأمير بنتاورة وثلاثة من شركائه بالإعدام ، وتركت لهم أن ينتحروا بأنفسهم . وحكمت على متهمين آخرين بالجلد والسجن ، وعلى بعض آخر بجدع

(١) فلندرز بترى : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة (مترجم) – ص٦٧ .

الأنف وصلم الأذنين ، وكان من هؤلاء الأخارى قاضيان وضابطان من المرتشين ، فعزت على أحد القاضين نفسه ، أو صحا ضميره فانتحر ، ثم عادت المحكمة فبرأت زميله . أما ما أصاب رمسيس الثالث من هذه المؤامرة ، واسم الفرعون الذى تمت المحاكمة فى عهده ، إن كان هو نفسه أم ولده رمسيس الرابع ، فكلاهما موضع جدل حتى الآن (١) .

ولايستبعد أن أعمال التحقيق والاستجوابات فى مثل هذه القضية الكبيرة كان يشوبها شىء من التشدد والقسوة ، ولكن قد يدل تنوع أحكام المحكمة على المتهمين على مراعاة العدالة فى عقوبة كل منهما بما يتناسب مع نوع جريمته ، وتبرئته إن لم تثبت الجريمة عليه أصلاً . ومع تنوع العقوبات بين السجن والجلد والتشويه البدنى والإعدام ، يلحظ ماقضت به المحكمة من إمكان أن يتولى المحكوم عليه بالموت تنفيذ الحكم على نفسه بنفسه زيادة فى التنكيل، أو زيادة فى إكرام الكبار (مثلما حدث فيما بعد فى محاكمة سقراط) .

كانت الخيرات الطائلة لاتزال تترى على خزائن الدولة طوال عهد رمسيس الثالث ومن بعده حتى أواسط عصر الأسرة العشرين ، ولكن هذه الخيرات لم تتجه وجهتها السليمة ، فاستهلكت المنشآت الملكية الخاصة النفقات نفسها التى كانت تستهلكها فى أوج عهود التوسع ، ولم يفطن أصحابها إلى أن مجالات التوسع أصبحت ضيقة أمامهم، بعد أن كانت طلقة ميسرة فى عهود أسلافهم . وحرصت المعابد من ناحيتها على ثرواتها القديمة ، وزادها رمسيس الثالث ثراء على ثراء ، وفاته أنه إذا استطاع أن يبذل عن سعة فى بعض عهده فلن يستطيع أن يجد السعة نفسها فى أواخر عهده . ويفهم من أكبر وثائق عهده وهى بردية هاريس أن نصيب معابد أمون فى طيبة وحدها عادل نحو ٦٢ كيلو جرام من الذهب ، ونحو ١١٨٩ كيلو جرام من الفضة ، نحو ٢٨٥٥ كيلو جرام من النحاس ، وأن مراعيها كان يسرح على ٤٢١,٣٦٢ رأساً من الماشية الكبيرة والصغيرة ، وقد أهدى رمسيس منها للمعبود آمون ٢٨,٣٣٧ رأساً دفعة واحدة (ربما تعويضاً لمعابده عما ساعدته به من موارد فى نفقات حروبه) . وبلغ دخل معابد مصر حينذاك نحو مائة ألف مكيال من الغلال ، واستأثرت بخيرات ١٦٩ بلدة فى مصر وخارجها ، وامتلكت أكثر من ٨٨ سفينة ، ونحو ٥٠ ترسانة

(١) *Ancient Records*, IV, 416 f., 454, 469 f.; JEA, XXIII, 152 f.; *ZAeS*, LXXII, 109 f.; *BIFAO*, 107 f.; *JEA*, XLII, 8, 9.

لصناعة السفن وإصلاحها ، وتراوحت مساحة مزارعها بين ١٢ و ١٥ ٪ أو ماهو أكثر من أراضى مصر الزراعية . وكان على المعابد أن تساهم بنصيب فى مشروعات الدولة ، ولم يكن لخزائن الدولة غنى عن هذا النصيب ، ولكنه لم يكن يصلها كاملاً من المعابد الكبيرة نتيجة لمغالطات كهنّها وامتداد نفوذ كبارهم كالأخطبوط إلى أغلب إدارات الدولة ومرافقها . أما المعابد الصغرى فكان يحدث العكس معها ؛ إذ يذوب ريع أوقافها عادة بين أيدى الموظفين، ولايصلها منه غير القليل (١) .

وثمة صورة لها وجهان : وجه يعيب فراعنة الأسرة الشعرين وسياسة عصرهم، ووجه آخر يرحب التاريخ به لأنه يكشف عن حقيقة روح شعبية مصرية، لم تكن تهضم الضيم ولاتأبى أن تعارضه رغم أنف التقاليد الرسمية ومتملقى الحكام ، على عكس ما ألصقه بها كثير من المؤرخين من صفات الاستكانة واللامبالاة والتسليم المطلق دائماً بما يقضى به الرؤساء والسادة . وتقتصر هذه الصورة فى حالتها الراهنة على العاملين فى الجبانة الملكية بطيبة الغربية ، ولكن ليس مايمنع إطلاقاً من اعتبارها نموذجاً لما كان يجرى فى مناطق كثيرة غيرها مما لم يبق من أخبارها شىء مدون ؛ فقد صورت متاعب العاملين فى هذه المنطقة عدة مصادر ومنها بردية نسبت حوادثها إلى العام التاسع والعشرين من حكم رمسيس الثالث (٢) ، وذكرت أنهم أضربوا عن العمل عدة مرات لتأخر صرف مرتباتهم الشهرية ، واستمر إضرابهم فى إحدى المرات ثلاثة أيام، خرجوا فيها من قريتهم واعتصموا خلف أحد المعابد حتى اتفقوا على خطة، ثم اتجهوا بجمعهم إلى معبد الرمسيوم وكان مركز الإدارة فى المنطقة ويتضمن مخازن غلالها . وهناك برروا إضرابهم أمام الحراس والكهنة ، بمثل قولهم : «ساقنا إلى هنا الجوع والعطش ، فليس لدينا كساء ولادهون ولاسمك ولاخضر، فأخطروا مولانا الفرعون واكتبوا إلى الوزير المسئول عن أمرنا؛ حتى يعطينا مايقيم

(١) *Inc. Records*, IV, 151 f., 224, 226, etc.; Erman, *Zur Erklarung des Pap. Harris; Erichsen, Papyrus Harris*, 1933; *H. Schaedel, Die Listen des grossen Papyrus Harris*, 1936; Lefebvre, *Historiedes grands Pretres d' Amon*, 1929; *JEA*, X 116f., *Rev. d'Eg.*, VII, 35f., f., *Bibl. Eg.*, 1939. 69 f.; JEA, 1941, 19 f., 72f.

أدولف إرمان وهرمان رانكه : مصر والحضارة المصرية – ص٣٢٠ + ؛ جون ولسون : الحضارة المصرية (معرب) – ص٤٣٩ + .

(٢) *JNES* 1951, 137; Gardiner, *Ramesside Administrative Documents*, 1948, 49 f.

أودنا» ، ففتحوا لهم المخازن بعد لأى وصرفوا لهم مخصصات شهر سابق ، فتشجعوا وطلبوا مخصصات الشهر الذى أضربوا فيه ، وتجمعوا عند مركز الشرطة ، فلم يجد رئيس الشرطة سوى التسليم بحقهم فيما طلبوه ولكنه طلب منهم عدم الإخلال بالنظام ووعدهم بأن ينضم إليهم فى اليوم التالى هم وزوجاتهم وأولادهم ، إذا وجدوا ضرورة للاعتصاب .

وتجرأ العمال فى إضراب آخر فقالوا للموظفين الذين تصدوا لهم : «أخبروا رؤساءكم وهم واقفين بين زملائهم أننا لم نخرج بسبب جوعنا فحسب ، ولكن لدينا اتهاماً خطيراً نود أن نعلنه ، وهو أن جرائم ترتكب فى هذا المكان التابع للملك ، وأن مركز هذا الملك معرض للضرر» . واستمر العمال فى الشكوى والخوض فى أمر الوزير والفرعون إلى حد أن أرسل الوزير إليهم من يقول لهم باسمه «تقولون لاتهضم حقوقنا، فهل تظنون أنى عينت لأغتصب وأنهب ؟ إن واجبى هو أن أعطى .. فلو كانت أهراء الغلال خاوية فلسوف أرسل إليكم ما أستطيع أن أدبره»(١) . – (تراجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) .

* * *

تعاقب على العرش بعد رمسيس الثالث ثمانية فراعنة من أسرته ، تسموا جميعاً باسم رمسيس ، ابتداء من رمسيس الرابع حتى رمسيس الحادى عشر . ويرى زيته أن كلا من رمسيس الرابع ورمسيس الخامس كانا ولدين للملك رمسيس الثالث ، وأن رمسيس السادس كان حفيداً له من ابن لم يل العرش ، ثم تعاقب الملوك الباقون من أولاده أو من نسله . وقد حكموا فترات تفاوتت بين القصر والطول ، ولكنها لم تزد فى مجموعها عن ٧٥ أو ٨٠ عاماً(٢) . وكان من أسماء العرش الأخرى لهم على التعاقب : حقاً ماعت رع (٤) ، وسر ماعت رع سخبر نرع (٥) ، نب ماعت رع – نثر حقا أونو (٦) ، وسر ماعت رع – نثر حقا أونو (٧) وسر ماعت رع عنخن آمون (٨) ، نفر كا رع – خع مواسة (٩) ، خبر ماعت رع – آمون حر خبشف (١٠) من ماعت

(١) *See*, Peet, *JEA*, X, 116 f.; 72f.; XIV, 52f., Parker, *Rev. d'egyptol.*, 1957, 163 f,.. Kitchen, *JEA*, 68 (1982) 116-127.

(٢) J. Cerny, *A Community of Workmen at Thebes in the Ramesside Period*, 1973; J.J. Janssen, *Commodity Prices from the Ramesside Period*, 1975.

رع – نثر حقا أونو (١١) . وظلت مستويات المعيشة للحكام والطبقات العليا خلال هذه الفترة تختلف اختلافاً بيناً عن حياة بقية الجماهير ، فاستمر الملوك والأمراء وكبار الموظفين والكهان على ثرائهم التسبى الذى سمحت به موارد عهودهم ، وأعد بعض الفراعنة لأنفسهم مقابر ضخمة على غرار مقابر من سبقوهم من حكام العصور المستقرة الغنية ، ومنهم رمسيس السادس الذى تعتبر مقبرته من أضخ مقابر طيبة وأحفلها بما يعبر عن تصورات عصرها عن الآخرة ونعيمها وعذابها وأربابها وشياطينها وجناتها ومخاطرها ، على الرغم من سوء الحال الاقتصادية التى عانتها البلاد فى عهده .

واشتدت الضائقة بالطبقات العاملة أكثر فأكثر ، وحدثت مجاعة عنيفة فى أواخر أيام الأسرة العشرين أطلق على أحد أعوامها hسم «عام الضباع» . وارتفعت أسعار الأقوات إلى أكثر من ثلاثة وخمسة أمثالها . وحدث أن قل الفيضان وتضخم عدد عمال الجبانة الملكية دون عمل منتج يقومون به ، وتكررت إضراباتهم فى غرب طيبة ، ولم يعدموا من يعطف عليهم ويرى الحق فى جانبهم من كبار زائرى المنطقة ، ولكنه غالباً ما كان عطفاً مؤقتاً لايسمن ولايغنى من جوع ، فإذا تصادف أن اتبعوا العطف بالعمل لم يكن العمال يترددون فى رد الجميل بمثله ، كما فعلوا مرة حين أهدوا صندوقين وأدوات مكتبية لبعض الكتبة الذين عاونوهم فى قضيتهم ، اعترافاً بفضلهم . وحدث مرة أن عطف عليهم عمدة خير فصرف لهم خمسين غرارة من الحبوب من مخازن معبد الرمسيوم ، وقال لهم «حتى تتعيشوا بها إلى أن يصرف (رجال) الملك مخصصاتكم» ، ولكن كهنة المعبد تآزروا ضده وعز عليهم أن ينتقص من مدخرات المعبد ليطعم العمال منها ، فاشتكوه إلى الوزير ووصفوا فعلته بأنها اغتصاب وجريمة شنعاء .

وبلغ من ضيق العمال وجرأتهم أن طلب وزير ذات مرة رجالاً منهم ليحملوا متاعاً لمقبرة الملك رمسيس التاسع ، فرفضوا ورد أحدهم على رسول الوزير بقوله : «دع الوزير نفسه يحمل متاع الفرعون نفر كا رع ويحمل خشب الأرز أيضاً (إذا شاء)»(١) .

(١) Spiegelberg, *Arbeiten und Arbeiterbewegung... unter dem Ramessiden*, 1895; Botti-Peet, *Il Giornale della Nacropoli di Tebe*, 1928; JEA, XII, 258.; *Archiv Oirentalni*, 1933, 137f.; *JNES*, 1951, 137f., Gardiner, *The Wilbour Papyrus*, *1948-1952*.

ولم يكن ذلك هو كل مـــاترتب على اضطراب الأمن وتدهور الأحـــوال الاقتصادية فى أواخر عصر الرعامسة ، وإنما استشرت جرأة المعتدين وحاجة المقلين على مقابر الفراعنة وكبار الأثرياء في غرب طيبة ، فنهبوا عدداً كبيراً منها وتستر عليهم بعض كبار الموظفين ، وتوالت التحقيقات بشأنها ، ولكن بغير جدوى وتدخلت فى الأمر الخلافات والاتهامات الشخصية بين عمدة طيبة الغربية وبين عمدة طيبة الشرقية مما نتجاوز عن تفاصيله (١) .

ولم يكن من سبيل لتغيير هذه الأوضاع إلا عن طريق ثورة أو انقلاب ، وللأسف لم تكن إمكانات الجماهير حينذاك تسمح بثورة عامة ، فحدث انقلاب محدود قام به بعض كبار كهنة آمون مع تنوع وسائلهم فى تحقيق أغراضهم . وكان أولهم أمنحوتب قد توارثت أسرته رياسة كهنوت آمون منذ عهد رمسيس الرابع وآل المنصب إليه فى عهد رمسيس التاسع . ونجح فى الإيحاء بأهمية شأنه حتى لفنانى عصره ، فصوروه فى منظرين بمعبد الكرنك بحجم مساو لحجم الفرعون فى مواجهته وهو يتقبل إنعاماته ، على عكس ماقضت به التقاليد من الرمز لعلو شأن الفرعون بتصويره بحجم أعظم دائماً من قامات أتباعه . ويبدو أنه استعان فى البداية بشيء من مرونة السياسة ، بحيث وجد له نص من عهد هذا الملك يذكر لقبه ككاهن أكبر للإله آمون رع ملك الآلهة ويذكر هنه في الوقت نفسه أنه خادم الفرعون . ثم ازدادت سلطة أمنحوتب فى عهد رمسيس العاشر القصير حتى بلغت غايتها فى عهد رمسيس الحادى عشر ، فتضخم عدد أنصاره وأتباعه ، كما تضخم التذمر فى الوقت نفسه ضد طموحه وضد الثروات التى تكدست بين أيدى أسرته . وهنا تحدثت وثائق العصر بتلميحات غامضة قصيرة عن انقلاب ، استخدمت القوة ضده فى إقليم طيبة وجزء من مصر الوسطى حتى بلدة القيس (حردى) حاضرة الإقليم السابع عشر . وكانت الشخصية الرئيسية التى برزت ضد كبير الكهنة هى شخصية بانحسى نائب الملك فى النوبة . وقد جند الأول أرقاء المعابد لمصلحته ، واستعان الثانى بجنود مرتزقة من النوبيين ومن بدو الصحراء الغربية . وتعددت الخسائر بين هذا وذاك على حساب الأهالى وعلى حساب سلطة الملك ، ثم انتهت باختفاء الطرفين وفشلهما معاً فى فترة مابين

(١) Peet, *The Mayer Papyri*, 1920; *The great tomb-robberies*, 1930; Capart and Gardiner, *Le Pap. Leopld* II..., 1939; Van de Walle, *JEA*, XXIV, 59 f.; Wainwright, *JEA*, XXIV, 59 f.



العام ١٢ والعام ١٨ من حكم الملك المعاصر . ولم تخلص الجماهير لهذا أو ذاك لأن أياً منهما لم يقم بحركته لمصلحتها [١] ، ويحتمل أن يكون أمنحوتب قد عزل كما يفهم من تأريخ بعض أحداث قرية عمال دير المدينة بحادثة إبعاده ، وحيث ذكر إسمه على تابوت نقل حديثاً إلى متحف اللوفر بغير لقب الكاهن الأكبر . كما يحتمل أن يكون بانحسي قد انزوى في النوبة بعد ذلك أيضاً . ورأى بعض المؤرخين فى أحداث طيبة هذه أكثر من وجه واحد ، فرآها بيير مونتيه تعبيراً عن سخط قديم ادخره أتباع آمون ضد إهتمام الرعامسة بعاصمتهم الشمالية وربهاست ، ولكنهم لم يعلنوه صراحة إلا بعد أن تأكدوا من ضعف فراعنة عصرهم وضيق الناس بالأوضاع القائمة، بل وأضاف أن سرقات المقابر التى تفشت حينذاك كانت مقصودة أو على الأقل وجدت تشجيعاً ، لتزويد أصحاب الحركة بالذهب والسلاح ولتعويض قلة استخراج المعادن وتكاليف استيراد الحديد .

وولى رياسة الكهنة بعد ذلك حريحور ، فجرى على سبيل سلفه فى التمهيد لبسط نفوذه الدينى والدنيوى ، ولم يكن من أسرة كبيرة مثله ، ولكن كان له ماضيه فى الجيش والوظائف المدنية إلى جانب معارفه الدينية [٢] ، ثم جمع إلى كل ذلك منصب نائب الملك فى النوبة حتى يتقى أن يشغله من يقضى على آماله ، واتخذ لقب وزير طيبة لبعض الوقت على أقل تقدير (حيث ظهر اسم وزير آخر يدعى «نب ماعت رع نخت» فى العام الثالث والعشرين من حكم رمسيس الحادى عشر) . ثم تمادى حريحور فى نفوذه باسم الدين أكثر فأكثر ، ونم عن ذلك أنه بدأ بذكر اسم ملكه وحده فى عدد من النقوش والمناظر، التى أشرف على تنفيذها فى معبد الإله خنسو فى رحاب الكرنك وظهر إلى جانبه بضع مرات فى وضع عادى بلقب الكاهن الأول وإن أوحى المنظر بأن الإله يخاطبه . ثم أمر بتسجيل اسمه إلى جانب اسم الملك فى عدد آخر وهو يقدم القربان أمام الثالوث المقدس فى بهو الأعمدة . وانتهى بالاكتفاء

---

(١) Peet, *JEA*, XII, 254 f.; Sethe, *ZAeS*, 59, 60 f.; Lefebvre, *Inscriptions concernant le grands pretres d'Amon*, 1929; Kees, *Herihor und die Aufrichtung des Gottesstaates*, 1936, 4f.

(٢) يفترض الأستاذ كيس أن حريحور كان مناصراً لبانحسي ، بينما يفترض الأستاذ جاردنر أنه كان صهراً لخصمه أمنحوتب حيث تزوج ابنته نجمة من زوجة له تسمى حررة . وتراجع الحاشية ٣ والصفحة التالية .

بذكر إسمه وحده فى خرطوشين ، وانتحل كنيات وشارات تشبه ألقاب الملكية وشاراتها . وكان هذا المعبد قد بدأ إنشاؤه فى عهد رمسيس الثالث واستمر العمل فيه فى عهد رمسيس الرابع ببناء قدس الأقداس والقاعات المحيطة به ، ثم اتسع جنوباً وشيدت له صالة أعمدة فى عهد رمسيس الحادى عشر . ورضى الفرعون المغلوب على أمره بالأمر الواقع ، واعتبر الكهنة ذلك نصراً لهم وبشيراً بعصر جديد تبجحوا وسموه عصر النهضة منذ مايعادل العام ١٨ من حكم الفرعون ، وأرخوا به وثائقهم . واعتبر حريحور نفسه كما لو كان ملك طيبة (وإن ظهر اسمه دون لقب ملكى ودون خرطوش فى أربع وثائق وهى بردية قصة ونآمون ، ولفائف مومياء سيتى الأول ومومياء رمسيس الثانى فى العام السادس للنهضة ، وعلى لوحة من الكرنك غير مؤرخة بعام ما ، كما ظل رمسيس الحادى عشر على العرش حتى العام ٢٧ أو ٢٩ من حكمه) . والطريف أنه ورد فى نص أشورى أن الملك المصرى أرسل إلى آشور بل كالا ملك آشور هدية تمساحاً (تمسوخو) وقرداً كبيراً[(١)] . وباشر حريحور سلطانه الأعلى فى طيبة وأضاف إلى عمائرها الدينية فناء باسمه إلى جنوب معبد خنسو ، وقيل عنه فى نقوشه إنه البذرة المقدسة لسيد الأرباب ، ونسله البهى الذى حملت به الربة موت ليصبح حاكماً على مدار الشمس ، مع وضع إسمه وكنياته فى خراطيش وظهوره بالتاج المزدوج والصل . ولكنه استعان بالسياسة ، فلم يظهر عداء لرؤساء كهنة الشمال، كما يفترض مونتيه أنه حدث فى عهد سلفه ، وإنما صادق صاحب السلطة العليا فيه وهو نيسوبا نب چدة ، الذى ذكره المؤرخ مانيتون بإسم سمندس . ثم ورث حريحور بعض ألقابه ووظائفه لولده (؟) «بى عنخ» خليفته فى رئاسة كهنة طيبة وإمارة كاش وقيادة الجيش ، ولكن دون بعض ما انتحله لنفسه من كنيات فرعونية[(٢)] .

---

(١) Millard, *Iraq*, XXXII, 1970, 168-9.

(٢) Lefebvre, *op. cit.*, 205 f., 272 f.; *JEA*, XV, 194 f.; *ZAeS*, 1930, 129 f.; *JNES*, 1948, 157 f.

Kess, *Herihor und dic Aufrichtung des Gottesstaates*, 1936; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 1961, 302, f. See *JNES*, 1967, 155 f.; *BIFAO*, 1979, 267-283.

والغريب أن ياروسلاف تشرنى مساعد الأستاذ جاردنر قد كرر آراء أستاذه عن شخصية حريحور وزمنه فى مقال تال فى عام ١٩٦٥، دون أن يشير معها إلى اسم أستاذه الذى كان قد توفى ذلك الحين.

CAH, vol. I, Ch. XXXV, 1965, 32 f.



ولم يكن لهذه النهضة أى صدى فى الخارج ، وإنما صور تخلخل نفوذ مصر الخارجى حينذاك كاهن مصرى مثقف يدعى ونآمون خرج من مصر إلى الشام لاستيراد أخشاب أرز من أجل مركب تمثال مقدس للإله آمون رب الدولة فى الدولة الحديثة ، وكان أمثال ونآمون من الرسل يجدون الترحاب حيثما حلوا، أما هو فقد وجد الصدود حيثما ذهب ، وعز عليه أن يجد بين الطوائف الجديدة فى الشام الأمن القديم الذى كفله المصريون والسوريون فى أيام استقرارهم ومجدهم . وعندما عاد إلى وطنه كان أميناً فى تسجيل ما مر به وتحدث به أو سمعه بكل مافيه من مرارة وأسى على سمعة وطنه (١) ، وهو مايدعو إلى الاستشهاد بقصته هنا تفصيلاً فى سياق تاريخ عصره .

وإلى جانب صبغتها التقريرية أو الإدارية تعتبر قصة ونآمون من عيون أدب الرحلات فى العصور القديمة ونموذجاً لأسلوب الكتابة واللغة المصرية القديمة فى عصورها الأخيرة ، كما تحمل أكثر من شاهد على اعتزاز المصرى الأصيل بقوميته وكرامة وطنه حتى فى فترات ضعفه ، ولباقته فى مواجهة المصاعب وهو مغترب عنه .

شغل ونآمون منصب كبير مدخل معبد أو دائرة (أملاك) الإله آمون فى طيبة؛ أى إنه لم يكن من كبار كهنة المدينة أو عظمائها ، وإن لم يحرمه هذا من الثقافة الأدبية والثقافة الدينية ، ويبدو أنه كان لمداخل المعابد أهمية خاصة بحيث كانت تعقد فيها أحياناً مجالس القضاء . وأرخ ابتعاثه من طيبة إلى لبنان ليستورد أخشاباً لسفينة «آمون» «وسرحات» العظيمة الفخيمة ، باليوم السادس عشر للشهر الرابع من صيف العام الخامس للنهضة التى أعلنها حريحور كبير كهنة آمون ، ولم يؤرخه بأعوام حكم الملك رمسيس الحادى عشر الذى لازال حينذاك يعتلى العرش وإن بقى مسلوب السلطة

(١) Gardiner, *Late Egyptian Stories*, 61 f.; J. Wilson, in *ANET*, 25 f.; Leftbvre, *Chr. d'Egypte*, 1936, 97 f.; H. Goedicke, *The Report of Wenamun*, 1975.

عن توقيت قصة ونآمون بنهاية عصر الأسرة العشرين ، وليس بعصر الأسرة الحادية والعشرين كما كان شائعاً بين المؤرخين :

See, Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 306 f.

ومرة أخرى أخذ تشرنى هذا الرأى عن أستاذه، ولم يشر إلى مصدره فى مؤلفه الذى تلاه .

وبهذا كان ونآمون مبعوثاً لكبير الكهنة حريحور ، وليس مندوباً للملك الشرعى الذى أغفل ذكره ويحتمل أن يكون قد ألمح إليه عرضاً فى سياق حديثه باسم «خعمواسة» ووصفه بأنه مجرد إنسان ، مما يعنى أنه لم يكن من أنصاره ولم يدخر له نصيبه التقليدى من الإجلال والتقديس ، وكانت هذه الملابسات من عوامل إضعاف موقف ونآمون فى مواجهة من قابلهم من أمراء موانى الشام ومواجهة أمير جبيل بخاصة .

وبلغ ونآمون مدينة بررعمسسو (أوتانيس) العاصمة الشمالية التى ولى أمرها نس بانب جدة وزوجته تانت آمون ، وقد ذكرهما باسميهما وليس بألقاب الملك التى لم يكونا قد اتخذاها بعد ، وعبر عنهما معاً باسم «الشركة التى وضعها آمون فى شمال أرضه» . ولعله فى حرصه على ذكر تانت آمون كان يقدر مكانتها ضمناً كأميرة ملكية من بيت الرعامسة أثيرة لدى زوجها الشاب ، أو كان يقدر نفوذها وقوة شخصيتها إزاء زوجها ، ويبدو أنه كان يدين لها بفضل ما لاسيما وقد ذكر فى قصته أنها خصته بهدايا أرسلت إليه فى لبنان . وفى يوم وصوله لم يضيع وقتاً وسلم الزوجين مامعه من رسائل فقالا «يقيناً سوف ننفذ ماقاله ربنا آمون رع ملك الأرباب» ولكنهما لم يذكرا كبير الكهنة حريحور بشىء ، مع كونه صاحب الرسائل الفعلى وصديقهما ، بل وترى آراء حديثة أن نس بانب جدة كان أخاً أو ابن أخ لحريحور أو كان أحد أبنائه الذين بلغوا على مايقال ١٩ ولداً وخمس بنات من زوجته نجمة . وربما ولى وزارة الشمال لفترة فى عهد رمسيس الحادى عشر ، وإن ظلت هذه الآراء فى مرحلة الفروض . وبحكم إشراف بررعمسسو على التجارة والملاحة الشمالية ، أوفده الزوجان مع ربان السفينة منجبة ، وهو تسم غريب بعض الشىء عن الأسماء المصرية ، ولهذا عير به ونآمون فيما بعد .

وخلال أحاديثه عن رحلته فى الشام ، أوحى ونآمون بأنه كان يتفاهم مباشرة مع الأمراء والموظفين ، تدليلاً على ثقافته ومعرفته بلغاتهم ، أو لشيوع لغته المصرية فى بلاد الشام بعد القرون الطويلة التى ارتبطت مع مصر فيها خلال الدولة الحديثة .

ووصلت سفينة ونآمون إلى «دور» وهى ميناء للثكر (وهم كما سلف القول طائفة من شعوب البحر هاجرت إلى شمال الشاطئ الفلسطينى) ، حيث أهداه أميرها «بدر» خمسين رغيفاً (أو فطيرة) ، وزق خمر وفخذ ثور . ولكنه لم يهنأ كثيراً بهذه الحفاوة ؛ إذ سرقه رجل من سفينته وفر بثروته التى تألفت من آنية ذهبية تساوى

قيمتها ٥ دبنات ، وأربع أوان فضية تعادل ٢٠ دبناً ، وكيس تضمن ١١ دبناً من الفضة ، وهى ثروة متواضعة بالنسبة لما كان يود استيراده من أخشاب لبنان ، ولعله كان ينوى أن يقدمها هدايا إلى الأمراء ، الذين ود أن يقدموا له الأخشاب هدية لمولاه أو لإلهه . وفى الصباح الباكر قصد ونآمون إلى حيث يوجد الأمير بدر ليعمل على إعادة ماسرق منه باعتباره أمير البلدة ، ولكى يستثير اهتمامه أو نخوته أعلن أن ماسرق منه لايخصه فى الواقع بقدر مايخص آمون رع ملك الآلهة ورب العالمين ، ويخص نس بانب جدة وحريحور وخاصة المصريين ، كما يخص الأمير بدر والأميرين ورت ومكمر ، وذكر بعل أمير جبيل ، ولعل هؤلاء الثلاثة الأخارى هم من اعتزم أن يخصهم بهدايا سادته فى مصر فى مقابل ما أراده من أخشاب بلادهم .

وجادله الأمير بدر قائلاً : هل أنت جاد فعلاً أم مدع ؟ إنى لا أكاد أتفهم ماتعنيه ، فإذا كان لصاً من مدينتى قد تسور سفينتك وسرق مالك ، أديت لك المال من خزائنى حتى يمكن العثور على السارق أياً ما كان اسمه . ولكن اللص من حيث الواقع كان تابعاً لك ولسفينتك ، فامض فى ضيافتى بضعة أيام حتى أجده لك .

وليس من المستبعد أن قانون الثكر كان يأخذ بمثل ماسنته تشريعات حمورابى من قبل فى بابل ، من حيث مسئولية الدولة عن تعويض المواطن عما سرق منه إن لم تقبض على سارقه ، وإن كان الأمير بدر قد تنصل من تطبيقه لأن السارق لم يكن من بلده .

وقضى ونآمون تسعة أيام فى ميناء دور ثم واجه أميرها بأنه مادام لم يجد ماله فلا أقل من أن ييسر له الرحيل ، فرد عليه بعبارات يصعب تبين تفاصيلها ، وإن كان من المحتمل أنه أوعز إليه إن اقترب من مقصده أن يأخذ من السفينة التى يبحر بها مايعوضه عن ماله كرهينة ويدع ملاحيها يبحثون عن سارقه - وأبحر ونأمون إلى صور ثم فارقها عند انبلاج الفجر ، وروى أنه عندما بلغ جبيل وجد فى السفينة حقيبة تتضمن ٣٠ دبناً من الفضة فأخذها ولم يكتم أمرها ، وإنما قال للملاحين من الثكر : لقد أخذت المال وسوف يظل فى حوزتى حتى تجدوا مالى أو اللص الذى سرقه ، وأنا لم أنهبه ولكنى سوف أحتجزه .

وعلى شاطىء البحر فى ميناء جبيل احتفل ونأمون بسلامة وصوله فى خباء صغير ، ووجد مكاناً لتمثال «آمون على الطريق» الذى خرج به من مصر متبركاً به؛

وليكون وسيلته فى إثبات قداسة مهمته ، ووضع متعلقاته فى الخباء .

وفوجئ ونأمون بما لم يتوقعه ، فعندما بلغ خبره أمير جبيل وأنه لايحمل أوراق اعتماد رسمية رفض إستقباله وبعث إليه يقول له : غادر مينائى . فأرسل ونأمون إليه قائلاً : فأين أذهب ؟ إن وجدت لى سفينة فدعها تعيدنى إلى مصر .

وسواء استقل الأمير شأن ونأمون لشخصه أم لأشخاص من أرسلوه ، أو أراد إبعاده تفادياً للمشكلات التى يمكن أن تنشب بينه وبين أصحاب السفينة ، فقد قضى ونآمون ٢٩ يوماً على رصيف جبيل ، والأمير لايفتأ كل يوم يأمره أن غادر مينائى . ثم حدثت المعجزة ؛ إذ بينما الأمير يقدم القربان لآلهته يوماً أن تلبس الإله (آمون) فتى من فتيانه ولعله أصابه بنوبة من الدردشة أو وجد الصوفية فأصبح قادراً على التنبؤ ، وأخذ يصيح أن أدع الإله وأدع الرسول الذى يحمله فإن آمون هو الذى أرسله .

وحدث ذلك فى الوقت الذى وجد ونآمون فيه سفينة متجهة إلى مصر ، وشحن متاعه فيها وأخذ يترقب الظلمة ، حتى ينقل تمثال معبوده على ظهرها خفية دون أن تراه عين . وهكذا أظهر آمون معجزته فى الوقت المناسب ليحفظ لمبعوثه ماء وجهه ، أو هكذا أراد ونآمون أن يصور الحادثة ، إذ مالبث أن هرع إليه رئيس الميناء يطلب إليه بإسم الأمير أن يتريث حتى الصباح ، فعاتبه بقوله ألست أنت الذى لم تفتأ كل يوم تقول دع مينائى ؟ ألا تقصد أن تضيع السفينة التى تخيرتها للرحيل ثم تأتى من بعد فتطردنى ؟ فلم يجد الأمير إلا أن يأمر ربان السفينة مباشرة بأن يتوقف إلى الغد ، ثم استدعى ونآمون فى الصباح ، فترك هذا إلهه فى خبائه على شاطىء البحر ، ورأى الأمير فى هيئة رسمها بقصته فإذا هو يجلس فى شرفة عالية وقد أدار ظهره إلى نافذته بحيث تتلاطم أمواج البحر من خلفه . وحياه ونآمون بتحية مصرية قائلاً : «فليغفر آمون» ، واستهل الأمير حديثه بأن سأله عن الفترة التى قضاها منذ أن خرج من أرض آمون فإذا هى خمسة شهور ، ثم قال له وهو يحاوره ليضعف من موقفه : والآن إذا صح هذا فأين تفويض آمون المفروض أن تحمله ، وأين رسالة كبير كهنة آمون المفروض أن تكون فى يدك ؟ فأجابه بأنه ترك رسائله لدى نس بانب جدة وتانت آمون – فامتعض الأمير وقال له : ما من تفويض ولا رسالة معك ، فأين سفينة (نقل) أخشاب الأرز الى خصصها لك نس بانب جدة إذاً ؟ وأين بحارتها السوريون ؟ ألا يكون (قد خدعك) ووضعك فى سفينة أجنبية كى يقتلك ولكى يلقوا بك فى البحر؟

فمن كان ينقذك ومن كان يجد الرب ؟

وأبى ونآمون أن يقبل التعريض به وبكرامة ربه وبلده فقال : الواقع إنها سفينة مصرية ، بل هو أسطول مصرى تحت طاعة نس بانب جدة ، وليس لديه بحارة سوريون .

فجادله الأمير قائلاً : والواقع كذلك أنه ترسو هنا فى مينائى عشرون سفينة تتعامل مع نس بانب جدة (بما يعنى أن نس بانب جدة كان يستطيع أن يرسله على إحداها) ، كما أن فى صيدا الميناء الأخرى التى مررت بها خمسين سفينة تتعامل مع وركاترا (وهو أمير غير معروف ، وإن كان سامياً أمكن اعتبار اسمه تحريفاً لاسم وركة إيل - ولو أن الباحث ألبريت يعتبره من أمراء الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى) .

وأسقط فى يد ونآمون فلزم الصمت ، حتى قال له الأمير : وأى مهمة هذه التى أتيت من أجلها ؟ فقال له : من أجل أخشاب مركب آمون رع الفخيمة العظيمة ، أتيت، ومافعله أبوك وأبو أبيك سوف تفعله . وأضاف ونآمون فى روايته : هكذا قلت له، كأنه يعتز بجرأته فى مواجهته .

ولكن الأمير ظل على صلفه قائلاً : حقاً لقد وفروها ، فإذا دفعت (الثمن) وفرتها أنا أيضاً . فهم قد فعلوا ذلك من بعد أن أرسل الفرعون (ذات مرة) ست سفن محملة بمنتجات مصرية ضمت إلى مخازنهم ، فما الذى أتيت به أنت إلى ؟ واستحضر الأمير سجلاً لأسلافه ، وأمر بأن يقرأ أمام ونآمون ، فتأكد أنه تضمن ذكر ألف دبن فضة وبضائع من كل نوع .

واسترسل الأمير قائلاً : أما عن حاكم مصر ، فحتى إن كان سيد ما أملك وكنت أنا كذلك تابعه - فإنه ليس بمجرد القول أن نفذ مهمة آمون ، وإنما اعتاد أن يرسل فضة وذهباً ، وكانت الهدايا الملكية تصل إلى أبى . أما عن نفسى ، فلست خادمك ولا خادم من أرسلك .

ويلحظ أن الأمير لم يذكر هنا حاكم مصر بلقب الفرعون أو الملك ، وأخذ من ثم يعرض بـ «ونآمون» وبمن أرسله على اعتبار أنه ليس مرسلاً من قبل ملك مصر الشرعى .

واسترسل الأمير فى صلفه قائلاً : إنى إذا صحت فى لبنان تفتحت السماء وإذا

بالألواح هنا على شاطئ البحر (يعنى بهذا قوة نفوذه فى بلده وأن السماء لن تبخل عليه بالأمطار التى يستعان بانحدار سيولها على دفع أخشاب الأشجار من مرتفعات الغابات إلى ساحل البحر) ، فقدم لى إذن السفن والحبال لشحنها وسوف أعطيك إياها ، وإلا غرقت السفن وهلكت وسط البحر . ثم تطلع هنا : إن آمون رعد فى السماء من بعد أن وضع الإله سوتخ إلى جانبه ، وإن آمون خلق العالم بعد أن أوجد ابتداء أرض مصر التى أتيت منها . ولكى يتم الوصول إلى البلد الذى أوجد به خرجت المهارة منها ، ولكى يجرى بلوغ المكان الذى أوجد به صدر العلم منها . فما هدف هذه الأسفار الغبية التى كلفت بأدائها ؟ (وكأنه يقول إنه وإن صح أن المهارة والمعرفة ترجعان أصلاً إلى مصر ، فإن خالق البلاد وإن ميز مصر ابتداء بما ميزها به فقد كان ذلك لخير جبيل التى يتولى هو أمرها . وإذا كانت مصر قد اعتادت من قبل أن تصدر المهارة والمعرفة – فما بال ونأمون قد خرج منها إذن فى حال يئيسة ؟) .

وهنا بلغ الاعتزاز بالقومية مداه عند ونآمون فاستجمع جأشه ولباقته ورد قائلاً:

«هذا قول خاطئ ، فما هى بأسفار غبية ، وما من سفينة على النهر لاتتبع آمون ، والبحر بحره ، ولبنان أرضه التى تقول إنها تتبعك ، ومن أجل آمون وسرحات سيدة كل السفن تنمو الغابات على المرتفعات . وقد قال آمون حقاً وصدقاً لمولاى حريحور إبعثه – وقد أوفدنى بهذا الإله الجليل ، وها أنت قد تركت هذا الرب العظيم ينتظر ٢٩ يوماً فى مينائك هذه ، وأنت تعلم أنه هنا – وتلك مشيئته ، وها أنت تجادل على تجارة لبنان مع آمون مولاها . أما عن قولك إن الملوك السابقين أرسلوا الفضة والذهب ، فإنهم إن ملكوا الحياة والعافية ما أرسلوا ما أرسلوه من منتجات ، فعوضاً عن الحياة أرسلو البضائع إلى آبائك . وهاهنا آمون رع ملك الآلهة ، وهو رب الحياة والعافية ورب آبائك وقد قضوا العمر يتوددون إليه – فما أنت إلا خادم لآمون ، وإذا نويت أن تنفذ وأن تتم رسالته فلسوف تحيا وستعد ويعمم الخير على كل أرضك وشعبك، فلاتطمع لنفسك فيما هو ملك آمون رع ملك الأرباب ، فالأسد حقاً يتطلع إلى مافى يده ... ، ومع ذلك استحضر لى كاتباً أوفده إلى نس بانب جدة وتانت آمون ، الشركة التى وضعها آمون فى شمال أرضه ، ولسوف يرسلان ماهو لازم ، ويكفى أن أرسل لهما هذه العبارة : «أرسلاه (أى ثمن الأخشاب) إلى أن أرجع إلى الجنوب ، ولسوف أعمل حينذاك على رد مالكما من دين» .

وهكذا أرضى ونآمون كرامته ودافع عن ربه وعن قوميته وظل عزيز النفس، وهو وحيد فى مواجهة الأمير مما كان له وقعه فى نفسه فأرسل مع كاتبه ورسالة ونآمون سبعة ألواح من متطلبات سفينة آمون ، إلى مصر عربوناً على حسن نواياه .

وعاد الرسول من مصر إلى لبنان فى الشهر الأول من الفصل الثانى ، وقد أرسل معه نس بانب چدة وتانت آمون أربع أوان وصحفة من الذهب ، وخمسة أوانٍ من الفضة ، وعشرة كساوى من كتاب بيسوس الملكى ، وعشر غلالات من كتان الصعيد الرقيق الجيد ، و٥٠٠ حصيرة فاخرة ، و٥٠٠ جلد (أو مؤخرة) ثور ، و٥٠٠ لفة حبل (أو لفافة بردى) ، و٢٠ غرارة عدس ، و٣٠ سلة سمك . ويبدو أن هذه البضائع هى التى كان ينبغى على حريحور تزويد ونأمون بها منذ البداية وكان على هذا الأخير أن يصر على التزود بها لنجاح مهمته . وأرسلت تانت آمون لو نآمون شخصياً خمسة كساوى وخمس غلالات من نسيج الصعيد الرقيق الجيد ، وغرارة عدس ، وخمس سلال سمك ، (ويبدو أن السمك هنا كان من السمك المجفف أو المملح الذى اشتهرت مصر به إلى جانب العدس والفول والكتان والبردى والمصنوعات المعدنية الفاخرة) .

وقر الأمير عيناً وخصص ٣٠٠ رجل و٣٠٠ ثور ، وعين عليهم رؤساء لإسقاط الأشجار من الغابات فقضوا فصل الشتاء هناك ، وعندما جفت الأخشاب نقلوها فى الشهر الثالث للصيف إلى شاطىء البحر . واحتفى الأمير بهذه المناسبة ودعا ونآمون، ولكن ظلت للمشاكل التى واجهته بقية . فحين جاور الأمير غطاه ظل مظلته التى شكلت على هيئة زهرة اللوتس المصرية ، فغار منه ساقى الأمير ، وكان للأسف ذا اسم مصرى وهو بن آمون ، ولعله كان لبنانياً ولد فى مصر أو من أب مصرى ، فنحاه وسخر منه قائلاً ها قد سقط عليك ظل مولاك الفرعون . فأظهر الأمير استياءه وقال له دعه لحاله ، وإن ظل يضمر نية المضايقة لو نآمون ؛ حيث قال له : ها قد رأيت أن المهمة التى أداها أبى من قبل أديتها ، ولو أنك لم تؤد لى ما أداه أباؤك لآبائى ، وقد وصلتك آخر أخشابك ووسقت ، فافعل ما آمرك به واشحنها ولاتذهب مراعياً فقط انقلاب البحر فإنك إذا راعيته وحده فسوف تواجه غضبى . والواقع إنى لم أتخذ معك ما وقع لرسل خعمواسة حينما قضوا ١٧ سنة فى هذه البلاد وماتوا فيها . ثم قال لساقيه خذه يرى قبرهم الذى يرقدون فيه .

وأجفل ونآمون قائلاً : لاتدعنى أراه ، وأما عن خعمواسة (ورجاله) فإنهم بشر أولئك الذين أرسلهم إليك ، وهو نفسه بشر ، وليس أمامك الآن واحد منهم لتقول له اذهب لترى رفقاءك» . (ويرى ألن جاردنر أن خعمواسة هو رمسيس الحادى عشر نفسه ولعله أرسل رسله هؤلاء فى بداية حكمه) ، وسواء ذكره أمير جبيل باسم خعمواسة فعلاً دون لقب الملك ، أم أن ونآمون تعمد أن يذكره به لعدم ولائه له ، فإن كلا الأمرين يعنى ضعف نفوذه وسمعته كملك كما يعنى الاعتقاد ببشرية الملك ، على الرغم مما اعتادت النصوص التقليدية أن تصف به أمثاله من ألفاظ التقديس والألوهية ، وذلك مع ما تقديم ما هبطت إليه سلطة هذا الملك بالذات.

واسترسل ونآمون قائلاً «ومن حقك أن تسعد إذا وجد لك نصب تقول عليه : أرسل إلى آمون رع ملك الآلهة «آمون على الطريق» رسوله (له الحياة والعافية والسعادة) وونآمون رسوله البشرى ، من أجل أخشاب مركب آمون رع ملك الآلهة الفخيمة المعظمة ، فنفذت ذل وأرسلتها إليه بسفنى وبحارتى وجعلتهم يصلون إلى مصر ليسألوا لى ٥٠ عاماً من آمون فوق نصيبى (من الحياة) . وقد يسعدك الحظ يوماً فيأتى رسول من أرض مصر يعرف كتابتك ويقرأ اسمك على النصب (فيدعو لك بدعائنا) ، ولسوف تتلقى حينئذ ماء الغرب كالأرباب الذين يوجدون فيه ، وأردف الأمير مؤمناً على قوله أو متهكماً بما قد يعنى : هذه لفتة حق قلتها لى .

وأضاف ونآمون : أما عن كل ماذكرته لى فإنى إذا بلغت بلدى حيث يوجد كبى كهنة آمون ورأى بضاعتك ، «فإن بضاعتك هذه هى التى سوف تجلب الخير لك» .

ومضى ونآمون على شاطئ البحر حيث الأخشاب موسقة ، ولكنه لمح حظه أحد عشر ملاحاً من الثكر يتجهون إليه من ناحية البحر وهم يصيحون اعتقله ولاترسل معه شاحنة إلى مصر . وهنا فاض الكيل بالرجل فجلس ودمعت عيناه ، فقال له كاتب رسائل الأمير ، وماذا بعد ؟ فقال وفى نفسه غصة من طول تعويقه وبقلبه أمل وشوق للعودة إلى بلده : لاشك أنك رأيت الطيور المهاجرة وقد انطلقت إلى مصر مرتين ، فانظر إليها وهى تهرع إلى بلد الماء الزلال ، وأنا إلى متى أظل

مهملاً هنا ، وهاقد رأيت من أتوا ليعتقلونى ؟

ورجع الكاتب إلى الأمير وأبلغه بالخبر ، فأسف الأمير على ماسمع ، وأراد أن يهون على ونآمون ، فأوفد كاتبه إليه بزقى خمر ولحم شاة ، وبعث إليه بمغنيته المصرية تانت نى قائلاً لها : غن له ولاتدعيه ينعى هماً (وكانت لبعض المصريات شهرة بالإنشاد الديني . وكانت منهن من ترأس منشدات معبد بتاح في منف ، ومن ترأس منشدات معبد أمون فى طيبة ، وإذا صح أن تلك المغنية أو المنشدة كانت مصرية حقاً وتشدو بلغتها فإن هذا يؤكد ما أسلفناه من قبل عن معرفة بعض أهل مصر والشام بلغة بعضهم البعض ، ليس فى مجال المصالح التجارية والسياسية فحسب بل وفى مجالات الفنون مثلما يحدث حتى الآن) . وأرسل الأمير إلى ونآمون قائلاً ، اطعم واشرب ولاتنع هماً ، ولسوف تسمع ماسوف أبلغك به غداً . وفي الغد استدعى أعضاء مجلسه وتوسطهم مخاطباً الثكر : ماهدفكم ؟ فقالوا إنما أتينا نتتبع البحارة الذين تريد أن توفدهم إلى مصر مع من نطلبه . فقال لهم أما عن نفسى فلاأستطيع أن أعتقل رسول آمون فى أرضى ، فدعونى أرسله بعيداً ولكم أن تتبعوه وتعتقلوه إن أردتم .

ورحل ونآمون بالسفينة فى البحر حتى ألقته الرياح على أرض جزيرة (إرس) أو ألاسيا وهى قبرس . وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار إذ اجتمع أهل المدينة ليقتلوه ، ولكنه شق طريقه بينهم إلى حيث صادف (هاتيبا) أميرة إرس ، وهى تنتقل من أحد قصورها إلى قصر آخر ، فحياها وقال لمن كانوا حولها لابد أن بينكم من يفهم اللغة المصرية . ولحسن حظه قال أحدهم أعرفها ، فقال له قل لسيدتى إنى كنت أسمع فى المدينة (طيبة) مقر آمون أنه وإن اتبع الظلم فى كل بلد ، فالعدالة تتبع فى إرس ، أفلا يتبع العدل حقاً هنا كل يوم ؟ فقالت الأميرة (عن طريق مترجمها) مامعنى قولك؟ فقال أعنى أنه إذا كانت أمواج البحر والرياح قد ألقتنى هنا حيث توجدين ، فيجب ألا تتركينهم يأخذوننى ليقتلونى ، فإنما أنا مبعوث آمون ، وأنا مطلوب وإن طال الأمر . وراعى بحارة جبيل الذين يودون قتلهم معى ، فهؤلاء لابد أن مولاهم سوف يقتل بهم عشرة من بحارتك . وجمعت الأميرة قومها فاصطفوا وقالت له اقض الليل هنا ...» . وهنا انتهى الجزء المدون من القصة على بردية يحتمل العثور عليها فى منطقة اللشت أو فى منطقة

الفشن المواجهة للحيبة فى أواخر القرن الماضى ، واقتناها الباحث الروسى فيلاديمير جولنشف وأهداها إلى متحف موسكو (١) .

وعلى هذه الحال فى الداخل وفى الخارج ، انتهت أيام الأسرة العشرين بعد أن وليت أمور مصر ٩٧ عاماً ، وانتهت بختامها عصور الرعامسة ، وإن بقيت ذكراها خالدة بحلوها ومرها فى آثارها ووثائقها .

* * *

(١) W. Golenischeff, *Recueil des travaux...*, XXI, 74-102; Gardiner, *Late Egyptian Stories*, 1932, 61-96; G. Lefébvre, Chr. d'Egypte, 1937; 97 f.; Wilson, *ANET*, 25 f.; M. A. Korostovstev, *The Voyage, of Wenamon to Byblos* (in Russian), 1960; E.F. Wente, *JNES*, 26 (1967), 174-175
F. Nims, *JEA*, 54 (1968), 163-164; W.K. Simpson and oghers, *The Lieterature of Ancient Egypt*, 1973, 142f.



رابعاً - الثيوقراطية والفتور فى عصر الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٧ - ٩٤٥ ق.م)

ارتبطت سياسة هذه الأسرة بأحداث الفترة الأخيرة من عصر الأسرة السابقة لها ، وبدأت بعاصمتين للحكم : عاصمة فى طيبة التى ضمن فيها كبار كهنة آمون خلفاء حريحور صاحب السلطان الواسع فى عهد رمسيس الحادى عشر ، لأنفسهم حكماً ثيوقراطياً اعتمدوا فى تدعيمه على ماتخلف لمدينتهم ومعبدها الكبير مقر آمون رع رب الدولة ، من ثراء موروث وسيادة دينية ، وزعامة صعيدية ، وإشراف على خيرات النوبة . وقد مدوا نفوذهم حتى الحيبة فى مصر الوسطى وحصنوها [١] ، ثم عاصمة فى بررعمسسو (أو تانيس) بشرق الدلتا حكم فيها بيت تيسو بانب چد (أو نس بانب چدة) الذى ذكره أفريكانوس فيما بعد عن مانيتون باسم سمندس (الأول) ، وولى السلطة فى الوجه البحرى ومصر الوسطى منذ عهد الملك رمسيس الحادى عشر، وقد استند أفراده إلى اعتبارهم الورثة الشرعيين للأسرة السابقة لهم بحكم قرابتهم أو مصاهرتهم لها بعد أن أيد رأسهم الوزير الشمالى (؟) شرعية سلطته بزواجه من تانت آمون سليلة بيت الرعامسة ، كما شجعهم ماكانوا يصيبونه من ثراء ورخاء نسبيين؛ نتيجة لإشرافهم على تجارة مصر الخارجية مع آسيا الغربية والبحر المتوسط . وقد وجد هذا البيتان الحاكمان أنه لاقبل لأحدهما بتجاهل الآخر أو الانفراد بالأمر دونه ، فأتما سياسة المسالمة التى بدأها حريحور ، وزاوجا بين سلطتيهما الدينية والدنيوية عن طريق المصاهرة بين بيتيهما ، واعتزازهما معاً بمذهب آمون رع . وكان أكثر الغنم فى تحالفهما للبيت الشمالى ، إذ بقيت الألقاب الفرعونية كاملة لملوكه . وتلقب أغلبهم بلقب ستبن آمون ولقب مرى آمون ، أى المصطفى من آمون وحبيبه مما يعنى حرصهم على إبقاء صلاتهم برب طيبة رب الدولة الكبير . وثمة نص فى محجر الجبلين ينسب إلى نيسو بانب چد أنه جلس ذات مرة فى قصره فى منف يفكر فى عمل يكسبه التكريم ، وقد بلغه أن بهو أعمدة بنى فى عهد تحوتمس الثالث فى الأقصر قد طغى الماء عليه حتى كاد أن يبلغ سقفه ، فأرسل ثلاثة آلاف عامل لقطع الأحجار له وترميمه . وقد يعنى هذا رغبة الفرعون فى مد مآثره ونشاطه إلى طيبة، كما أن فيه مايدل على تعاقب تهديد المياه الجوفية للآثار المعمارية منذ العصور القديمة .

(١) See, Kees, *op. cit.; Ancient Egypt*, 203.

وأيد حكام طيبة نفوذهم بدورهم باتخاذ أكثر من اسم واحد على عادة الملوك ، ولكن قلما وضعوا أسماءهم فى الخراطيش الملكية . وجمعوا بين ألقابهم الكهنوتية وبين ألقاب عسكرية مثل القائد الكبير للجيش ، والقائد الأعلى للجيش فى البلاد كلها .

ولازال بعض الجدل قائماً حول تأريخ عصر الأسرة الحادية والعشرين وتتابع ملوكه وكبار كهنته ، وحول الصيغ المرجحة لألقاب هؤلاء وهؤلاء . وكان أفريكانوس قد نقل عن مانيتون ذكر سبعة أسماء لملوك هذا العصر نسبهم إلى العاصمة نانيس وقدر مجموع مدد حكمهم بمائة وثلاثين عاماً . واحتفظت الآثار المكتشفة حتى الآن والنصوص الموجزة المسجلة على التوابيت وأكفان المومياوات بما يزكى صحة بعض هذه الأسماء ومايزاد عليها . وبينما افترض الرأى الغالب بين المؤرخين المحدثين لمجموع مدد حكم أولئك الملوك ١٤٢ عاماً امتدت بين عام ١٠٨٧ وعام ٩٤٥ ق.م ، افترض لهم رأى آخر ١٤٤ عاماً امتدت بين ١٠٨٩ و ٩٤٥ ق.م ، وافترض لهم رأى ثالث ١٢٤ أو ١٢٥ عاماً بين عام ١٠٦٩ أو ١٠٧٠ وعام ٩٤٥ ق.م. وقد سلفت الإشارة بأنه مهدت لهذا العصر فترة أحد عشر عاماً بدأت بما اعتبره كبار كهنة آمون عصر نهضة ، واقتسم السلطة الفعلية خلالها فى أواخر حياة رمسيس الحادى عشر الذى تعددت الآراء أيضاً فى تحديد فترة حكمه فى منف أو فى غيرها بين ١١٠٠ إلى ١٠٨٩ أو بين ١٠٩٨ إلى ١٠٨٧ ، ق.م ، أو بين ١٠٨٠ إلى ١٠٦٩ ق.م ، كل من نس بانب جدة (سمندس) الذى يحتمل أنه كان وزيراً شمالياً فى العاصمة بررعمسسو (أوتانيس) ، واثنان أو ثلاثة من كبار كهنة طيبة كانوا على التتابع : حريحور (لنحو ست سنوات) ، وباى عنخ (لفترة أربع سنوات) ، ثم باى نجم (لفترة عام واحد) ، وإن احتمل رأى آخر أن تكون فترة رياسة باى عنخ لكهنوت طيبة قد استمرت لبضع سنوات أخرى، بعد وفاة الملك وحتى عام ١٠٦٤ ق.م ، فى رأى أصحاب التاريخ المختصر .

وعلى عرش العاصمة بر رعمسسو طال عهد نس بانب جدة بعد وفاة رمسيس الحادى عشر ٢٦ عاماً ، ثم تتابع بعده الملوك : آمون منيسو (لفترة ٤سنوات) ، وباسبا خع منى (أومنو) الذى ذكره مانيتون باسم بسوسينيس الأول وطال حكمه ٤٦ أو ٤٨ عاماً ، وأمنموبة وقد شارك سلفه عامين ثم استقل بالعرش لنحو ٩سنوات ، وملك ذكره مانيتون باسم أسوخور (؟) اشترك مع سلفه ثلاث سنين ثم انفرد بالحكم ست سنوات ، وسا آمون لفترة ١٧ أو ١٩ عاماً ، وباسبا خع منى (أو منو) الثانى (بسوسينيس الثانى)

لفترة ٢٤ عاماً ، وذلك مع بعض الشك في أسبقية الملك الثالث في قائمة هؤلاء الملوك عن الملك الثاني منهم [(١)] .

ومن أسماء العرش الأخرى لهؤلاء الملوك ، وفق ترتيبهم المقترح : حچ خبر رع ستبن رع (١) ، نفر كارع - حقا واسة (٢) ، عاخبر رع - ستبن أمون (٣) ، وسر ماعت رع - ستبن أمون (٤) ، .. (٥) ، نثر خبر رع - ستبن أمون (٦) ، تيت خبرورع - ستبن رع (٧) .

ومن استعراض مدلولات بعض هذه الأسماء ، يتضح مدى إصرار أغلب أصحابها على الانتساب إلى آمون رب طيبة ورب الدولة ، ورع رب الشمس ، فضلاً عن الدلالة الواضحة لاسم «باسبا خع منى» ، الذى يعنى «النجم قد شع فى المدينة» وهى مدينة طيبة ، كما يتضح تعدد ظاهرة اشتراك ولى العهد فى الحكم مع أبيه .

وفى سبيل تحقيق الوفاق مع سلطات طيبة الدينية ، ومن أجل تزكية امتداد نفوذهم فيها فى الوقت نفسه ، زوج بعض أولئك الملوك بناتهم لكبار كهنة آمون الذين تتابع منهم بعد حريحور وولده بى عنخ ، أى بعد وفاة رمسيس الحادى عشر ، ستة أو سبعة وهم : باى نچم (الأول) ، وماساحرتا (أو ماحسا إرتى ؟) ، وحچ خنسف عنخ ، ومن خبر رع ، ونيس باتچد (سمندس الثانى ؟) ، وباى نچم (الثانى) ؛ ثم باسباخع منو (بسو سينيس الثالث ؟) .

وكفل ملوك بررعمسسو لبناتهم بهذه المصاهرات ممارسة نصيب من النفوذ الدينى فى طيبة ، لاسيما مع رئاسة كل منهن لكاهنات آمون وتلقبها بلقب «الحرم المقدس لآمون» ، وإن نقلت بنات الملوك إلى أزواجهن أو أولادهن بهذه المصاهرات فى الوقت نفسه حقوقاً شرعية ، استغلها بعضهم فى اتخاذ ألقاب الملوك كما فعل باى نچم (الأول) زوج الأميرة ماعت كا رع . وقد تشجع ولداه منها ماساحرتا ومن خبر رع على اتخاذ ألقاب الملكية أيضاً على التتابع . ويبدو أن ثورة نشبت فى طيبة بعد

(١) *Compare*, Breasted, *A.R.*, IV, 606-7; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 323-324, 330, 447; E.F. Wentc, *JNES*, 66 (1967), 155 f.; Kitchen, *The Third Intermediate Period in Egypt* (1100-650 B.C.), 1973, 5-6, 32 f; 225, 465-466; Nivinski, *JARCE* 16 (1979), 49-68.

دريوتون وفانديية : مصر (معرب بالقاهرة) - ص٥٦٥ ، ٦٢٠ .

وفاة أولهما وأدت إلى الاستعانة بوحى آمون فى نفى زعمائها إلى الواحة الخارجة حتى عفا عنهم من خبر رع وأعادهم إلى طيبة لتهدئة نفوس أهلها . وعندما استتب الأمر له عاود التنكيل بهم مستعيناً بوحى آمون للمرة الثانية . وبسياسته هذه ذات الوجهين طال عهده ٤٨ عاماً ، وأشرف على موارد الأقاليم التى تمتد من أسوان إلى بنى سويف ومن ساحل البحر الأحمر إلى الواحات الغربية ، ثم ورث زعامة طيبة لولديه على التوالى (١) .

يرجع الأصل القديم للقب «الحرم المقدس لآمون» إلى عصر الأسرة السابعة عشرة وعصر الأسرة الثامنة عشرة ، وبدأ تشريفياً ثم جمع بين الصبغة الدينية وبين النفوذ الكهنوتى ، وقد آثرنا له هذه الترجمة التى تعنى من تلوذ بالإله وتكتسب شيئاً من حرمته وتشرف على حرمه المقدس وعلى كاهناته ، عوضاً عن ترجمته الشائعة فى أغلب المؤلفات الحديثة بعبارة زوجة الإله آمون (God's Wife of Amun) ، ذلك أنه كان مما اختلفت الديانة المصرية به عن غيرها من الديانات الوضعية المعاصرة لها أنها لم تأخذ بمثل المدلول الحرفى للقب زوجة الإله، وهو المدلول الذى أدى فى أمم أخرى إلى مايسمى اصطلاحاً باسم البغاء الدينى، وبمقتضاه تهب الكاهنة نفسها وعفافها راضية للإله أو للملك ، أو كبير الكهنة ، الممثل للإله ، على اعتبار أنها تضحى بذلك بأعز ما تملك لإرضاء ربها.. من أجل خير شعبها ولتوفير خصوبة الأرحام فيه وخصوبة أرضه . وقد لقبت الأميرة ماعت كارع بلقب «الحرم المقدس لآمون» وهى طفلة ، مما يؤكد أنها لم تخضع للمدلول الحرفى للقب زوجة الإله ، ثم تزوجت باى نجم (الأول) ، بما يزكى هذا الرأى ويعنى عدم ترهبها للإله (٢) .

ومال بعض الباحثين إلى اعتبار عصر الأسرة الحادية والعشرين بداية للعصور المصرية المتأخرة ، ربما على أساس غلبة الخمول على سياسته وضعف وحدة الحكم الأعلى فيه ، وتوزع سلطاته بين الشمال والجنوب ثم تقلص النفوذ المصرى خلاله خارج الحدود . وذهب رأى آخر قال به ألكسندر شارف ثم توسع فيه كنيت كتشن ، إلى اعتبار عصر الأسرة الحادية والعشرين ومايمتد منه حتى نهاية الأسرة الخامسة

---

(١) Louvre C 256, Breasted, *A.R.*, IV, 650-8.

(٢) دريوتون وفانديبه : المرجع السابق – ص٥٦٦–٥٦٩ .

Sander-Hansen, *Das Gottesweib des Amun*, 1940; M. Gitton, *BSFE*, 75 (1976), 31-46.



والعشرين – عصر انتقال ثالث [1] توسط بين العصر الزاهر للأسرة العشرين وبداية عصر الأسرة السادسة والعشرين ، الذى جرى الاصطلاح على تسميته باسم عصرالنهضة الصاوى (وإن سبقته نهضة أخرى نسبية خلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين) .

ولاشك فى أن هذه كلها أسباباً وجيهة للتسميتين السابقتين ، ولكن ينبغى أن يلحظ إلى جانبها أن مصر وإن لم تحقق توسعاً خارجياً يذكر فى عصر الأسرة الحادية والعشرين إلا أنها حافظت خلاله على حدودها الخاصة ، كما حافظت على استقلالها دون شائبة تشوبه ، وظل حكمها الأعلى فى أيد مصرية قومية سواء أكان ذلك فى بررعمسسو أم فى طيبة ، وكل ذلك مما يفرق بين أوضاع هذا العصر وصورته العامة، وأوضاع أخرى أكثر سوءاً منها شهدتها العصور التالية عليه واستوجبت من أجلها أن تسلك فى العصور المتأخرة ، من حيث الزمن ، والمتأخرة ضمناً من حيث ركب الحضارة ، ثم من حيث تزايد نفوذ العناصر الدخيلة ، التى أثرت فى حياتها تأثيراً كبيراً.

وعلى أية حال.. فقد أدت سياسة المسالمة واقتسام المنافع فى عصر الأسرة الحادية والعشرين بين البيتين الكبيرين فى بررعمسو وطيبة ، إلى الإبقاء على نظام الحكم الثنائى نحو مائة واثنتين وأربعين سنة، اتسمت بالفتور وبالسياسة الانطوائية فى مجملها ، وتأثرت فى ذلك بعوامل داخلية وخارجية تمثلت فى أن مصر بعد أن قطعت نحو خمسة قرون فى يقظة شبه متصلة خلال الدولة الحديثة أرهقت وأسنت ووقعت فى استرخاء طويل ، وأن مشاركة كبار كهنة آمون فى مسئوليات الدولة خدرت الناس باسم الدين ، وأن مصر لم تتعرض لتحديات كبيرة أو لهزات خارجية عنيفة تجبرها

---

(١) يقارن على سبيل المثال كيف يضع أ. هـ. جاردنر تاريخ هذا العصر تحت عنوان : مصر تحت الحكم الأجنبى .

Gardiner, *op. cit.*, Ch. XII, 316 f.

ويضعه جون ويلسن : الحضارة المصرية (معرب بالقاهرة) – ص٤٥٧ ، تحت عنوان : القصبة المرضوضة ، ويضعه أحمد فخرى : مصر الفرعونية – الفصل الثامن – ص٣٢٩ ، تحت عنوان: العصر المتأخر .

and *see* K. Kitchen, *The Third Intermediate Period in Egypt*, (1100-650 *B.C.*), 1973.

على الحركة ؛ فالمناطق الجنوبية كانت قد اصطبغت بالحضارة المصرية المهذبة وربطت مصائرها بمصائرها ، وبقية بلاد الشرق الأدنى كانت فى شغل بمشكلاتها الإقليمية بعد أن استقرت شعوب البحر فى مواطنها الجديدة . وبعد أن انشغلت كل دولة ودويلة فى الهلال الخصيب بمحاولة إثبات كيانها على حساب جيرانها ، انشغل الأشوريون فى نزاع طويل ضد الآراميين ، وشهد جنوب الشام منافسة طوائف العبرانيين بعضهم لبعض على الحكم وزعامة الدين ، فضلاً عن حروبهم المتقطعة مع الكنعانيين والآراميين والفلسطينيين ، حتى نجح داود فى تأسيس مملكته على حساب بعض جيرانها . وقد أسلفنا أن العصر وفر لمصر استقراراً مديداً ، ولكنه لم يكن استقراراً من النوع المكين الذى عرفته مصر فى عصور قوتها ، وإنما كان استقراراً فاتراً ، لم يخل من خصومات بين الحكام ، وانقسامات طائفية ، ومؤامرات من الجماعات المهاجرة التى استوطنت أقاليم الحدود الغربية وواحاتها (١) ، وهذه سوف تصبح فيما بعد شر البلية .

وليس من المستبعد أن يكون تاريخ عصر الأسرة الحادية والعشرين فى مصر مغبوناً بمحض المصادفة ؛ نتيجة لقلة ماكشف من آثاره الصعيدية حتى الآن ، ونتيجة لتحلل أغلب آثاره فى الدلتا بفعل رطوبة أرضها وكثافة طميها وكثرة فروعها المائية واتساع مناقعها القديمة ؛ بحيث لايكاد التاريخ يعرف من نشاط هذه الأسرة فى الحقل الداخلى غير استمرار الاهتمام بعمائر الإله آمون رع وبقية الأرباب الكبار ، على الرغم من قلة إمكانيات عصرها قلة نسبية ، ثم تغليب طابع الدين على روح العصر وسياسة الحكم فيه . وكان من صور هذا التغليب أن جعل الحكام لاستخارة الإله آمون ووحيه نصيباً كبيراً فى حل المشكلات الكبيرة ، وبمعنى أصح جعلوا لتوجيهات كبار كهنته نصيباً فى حل مشكلات بلدهم ، إرضاء للكهنة كشركاء ، ورغبة فى أن يتخففوا هم من عبء المسئوليات وأن يلقوا عواقبها على عاتق وحى آمون (٢) . وجرى كبار الكهنة من ناحيتهم على إجراء سنه لهم رأسهم حريحور ، وهو العناية الشخصية بالسلف الصالح عن طريق رعاية جثث الفراعنة القدامى ، الذين انتهكت حرمة مقابرهم فى فترات الاضطرابات منذ أواخر عصر الرعامسة ، وترميم توابيتها ، وكان

(١) Louvre C 256; Kees, *Ancient Egypt*, 282 f.

(٢) *Anc. Records*, IV, 650 f.; *Rec. Trav.*, XXXII, 175 f.; *JNES*, VII, 157.; *JEA*, XLI, 83 f.; XLVIII, 57.



ذلك الإجراء من أهم مآثرهم على التاريخ ؛ إذ ظلت هذه التوابيت الثمينة مصونة مجهولة حتى كشف عنها فى أواخر القرن الماضى ، كما سنفصل ذلك فى الصفحات التالية .

وظلت الإمكانيات المادية للدولة محدودة ، بحيث استعانت فى بعض منشآتها المعمارية بأحجار المبانى القديمة . وانكمشت بررعمسسو (أوتانيس) العظيمة عاصمة الرعامسة إلى نصف مساحتها السابقة [1] . ولكن لم يحل هذا الأمر أو ذاك دون استمرار الفراعنة وكبار الكهنة على حب الترف القديم فى شئون الدنيا ومطالب الدين وبناء المقابر الضخمة ، وأن يظلوا أكبر المستفيدين دائماً من إمكانيات عصرهم ؛ الأمر الذى تجلت مظاهره فى ثراء ماكشف عنه من مقابر ملوك تانيس وأمرائها وأثريائها (لاسيما باسبا خع منى (بسوسينيس) ، وموت نجمة ، وأمنموبة ، وأونو چباوتجد) ، بمدخراتها الفضية والذهبية الرائعة ، وما أبقت الأيام عليه من توابيت كبار الكهنة والكاهنات فى طيبة بكنوزها وصورها الملونة ونصوصها العقائدية الكثيرة [2] .

أما فى العالم الخارجى ، فلاتسمح المعلومات الراهنة بغير تصوير جانب ضئيل من علاقات مصر بمملكة داود ، وكانت علاقات عادية فى مجملها وفى ظاهرها ، ولكنها لم تمنع من التجاء الأمير هداد (أو حداد) حاكم إدوم فى جنوب فلسطين إلى مصر بعد أن خرب داود وقائده يعقوب إمارته ، وسفك دماء آلاف من رجالها ، وأباحها لجيشه ستة شهور . ووجد هداد فى مصر الرفد والملجأ ، وزوجه فرعونها (مجهول الاسم) من أخت زوجته ، وأكرمه حتى عاد إلى إمارته بعد وفاة داود حيث أصبح من ألد خصوم ولده سليمان [3] .

وعندما اتسع سليمان بملكه واشتهر أمره ، مال إلى محالفة المصريين ، وهنا استحب الفرعون المصرى (الذى قد يكون سا آمون أو بسوسينيس الثانى) أن يظهر لسليمان قدرة مصر ويبين له أن تحالفها معه هو تحالف الأقوياء ، فبعث ببعض جيشه إلى جنوب أرض كنعان حيث استقرت جماعات شعوب البحر من منافسى سليمان ،

(١) Breasted, *Op. cit.*, 203.

(٢) *ASAE*, VIII, 3f.; P. Montet, *La Necropole royale de Tanis*, I-III, 1947-1951; *Kemi*, 1942, I f.

(٣) الملوك الأول ١٠ : ١٤-٢٢ ؛

G.R. Bartlett, *ZAW*, 1976, 206-226.

وسيطرت قواته على مدينة جزر التى عجز العبرانيون عنها عدة مرات ، ثم جعلها هدية لابنته التى رضى أن يزوجها لسليمان (١) ، وفى ذلك مايعنى ضمناً أن مصر ظلت حتى فى عهود ضعفها أقوى مرات من ملك سليمان الذى تحدثت به الأمثال وأشادت به بالنسبة لما كان عليه ملك أسلافه وجيرانه بطبيعة الحال .

وإذا كان نهب المقابر الملكية فى أواخر عصر الرعامسة مؤشراً على سوء الأوضاع ،التى استغلها كبار كهنة آمون للجمع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية في أيديهم فى الصعيد والمشاركة فى توجيه مصير الدولة فى مجملها فى عصر الأسرة الحادية والعشرين ، فقد كانت معاودة نهب هذه المقابر فى القرن الماضى بداية لتوجيه الأنظار إلى الكشف عنها، والاستدلال منها على رعاية بعض الملوك وكبار الكهنة هؤلاء للسلف الصالح وحرمة الموتى، وبدأ هذا الكشف بصورة درامية مثيرة .

فقد قل ما احتوته متاحف العصر الحديث من الآثار الملكية المصرية حتى عام ١٨٧٠ ، ثم شهدت أسواق التحف فى مصر وأوروبا منذ عام ١٨٧١ وعلى دفعات متباعدة ، فيضاً من هذه الآثار ، الأمر الذى نبه الأذهان إلى تقصى تحركات مهربى الآثار من الوطنيين والأجانب وعملائهم المحتمين بالامتيازات الأجنبية ، فى المناطق الأثرية الكبرى ولاسيما فى طيبة الغربية . ولم تجد التحريات البوليسية أو الشخصية شيئاً فى هذا المضمار بقدر ما أدى اختلاف الأخوة من أسرة عبد الرسول أعتى مهربى الآثار والمتعاملين فيها فى قرية القرنة حينذاك ، إلى بداية الكشف عن مخابئ أثرية قل أن شهد التاريخ الحديث ما يماثلها غنى وغرابة . فقد نم أحد أولئك الأخوة عن سر إخوته الذين خاصمهم ، فى الاهتداء إلى بئر مقبرة عميقة صعبة المنال تقع جنوب وادى الدير البحرى وتتوسط بينه وبين بيبان الملوك . وكانوا قد احتكروا هذه البئر ونزلوها خفية ثلاث مرات خلال نحو عشر سنوات ، وخرجوا منها بما ملأ أسواق التحف من البرديات والقلائد وتماثيل الشوابتى والجعلان ، وما إليها ، وما ملأ بيوتهم من أموال كانت ثمناً بخساً بالنسبة إلى ما استحقته هذه الآثار من قيم تاريخية ومادية وفنية فريدة .

---

(١) الملوك الأول ٩ : ١٦ - والواقع أن تحديد اسم هذا الفرعون لازال فى مرحلة الفروض ، فهو قد يكون أحد الاثنين اللذين ذكرناهما أو يكون أول ملوك الأسرة التالية لهما .

See, Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 329-339; *Cambridge Anc. Hist.*, *op. cit.*, 53-54.



ولم يكن الفرنسي جاستون ماسبيرو ومدير مصلحة الآثار المصرية ، بمصر حين نم الرجل عن أسرته ، فناب عنه في الكشف عن المقبرة المعنية في شهر يوليو من عام ١٨٨١ وكيله هنريش بروكش ومساعده المصرى أحمد كمال . وفي دهشة بالغة واجه العالم الحديث لأول مرة بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام وجوه مومياوات نخبة من كبار فراعنة الأسرات الممتدة من السابعة عشرة إلى العشرين، وهم : سقنن رع ، وأحمس الأول ، وأمنحوتب الأول ، وتحوتمس الأول (؟) ، وتحوتمس الثاني ، وتحوتمس الثالث ، وسيتي الأول ، ورمسيس الثاني ، ورمسيس الثالث ، فضلاً عن حوالي الثلاثين من كبار كهنة آمون وكبار شخصيات الدولة الحديثة . وفي عجلة وتكتم عمل بروكش وأحمد كمال على نقل ما أمكنهما الخروج به من المقبرة ، خلال أسبوع واحد والاتجاه بمومياوات الملوك وكبار الكهان إلى متحف القاهرة ، ثم تم نقل ماتخلف من كنوز المقبرة في يناير من عام ١٨٨٢ بإشراف ماسبيرو . وفي يوليو من عام ١٨٨٦ جرى في القاهرة حفل مهيب عوض الفراعنة العظام بعض الشيء عما فاتهم من مهابة الاستقبال ، وحضره خديو مصر ، وقيل إنه حلت أمامه أكفان فرعونه مصر العظيم رمسيس الثاني ليطالع الجميع بوجهه العجوز الصلب المعبر .

ولحسن الحظ لم تشغل الكنوز الثمينة الباحثين عن دراسة تقارير موجزة كتبت بالخط الهيراطي على التوابيت وأكفان الملوك ، وسجلت أسماء أصحابها وأسماء الملوك والكهان أصحاب الفضل في مراجعة حال مقابرهم أو إعادة دفنهم وإكرام مثواهم . وقد تبين منها أنه بعد أن تعرضت مقابر الملوك للنهب أكثر من مرة ، وتعرضت جثثهم وأكفانهم للتلف عولجت مومياوات الملوك تحوتمس الأول وأمنحوتب الأول وسيتي الأول ورمسيس الثاني ورمسيس الثالث ، وأعيد إحكام لفائفها في فترة من رئاسة باى نجم الأول لكهنوت طيبة ، وخلال الأعوام ٦-١٧ من عهد ملك لم يذكر اسمه ولعله باسباخع منى الأول . وأعيدت معالجة مومياء أمنحوتب الأول ، كما عولجت مومياوات أحمس الأول والملك سات كامس والأمير سا آمون ، في فترة من رئاسة ماساحرتا للكهنوت ، ثم أعيدت معالجة مومياء سيتي الأول مرة أخرى في عهد كبير الكهنة من خبر رع .

وكان في إعادة معالجة هذه المومياوات مايعني قلة العناية التي بذلت في معالجتها ، أو يعني تكرار الاعتداءات على مقابرها ، ولعله لهذا اتجهت الرغبة قديماً إلى تجميعها في مقبرة أو مقابر محدودة ، يصعب دخولها وتسهل حراستها في الوقت

نفسه ، بل وتعدد النقل أحياناً من مقبرة إلى أخرى تضليلاً فيما يبدو للمعتدين .

وهكذا أودعت جثة رمسيس الثانى العظيم فى مقبرة أبيه سيتى الأول ، وعندما خيف على هذه الأخيرة نقلت منها إلى مقبرة أمنحوتب الأول . ومرة أخرى، أودعت مومياوات سيتى الأول ومومياء رمسيس الثانى فى مقبرة الملكة إن حعبى ، وسجل تقرير بهذا الإجراء فى العام العاشر من عهد الملك سا آمون .

ثم نقل عديد من المومياوات الملكية إلى مقبرة نس خنسو وزوجها كبير الكهنة باى نجم الثانى فى فترة رئاسة باسباخع منى (الثالث) للكهنوت ، وظلت هاجعة فى مثواها الأخير منذ بداية عصر الأسرة الثانية والعشرين حتى نبشتها أيدى اللصوص ، ثم حملتها أيدى رجال الآثار فى أواخر القرن التاسع عشر .

وأودعت مومياوات ملكية أخرى فى مقبرة الفرعون أمنحوتب الثانى ، وقد أصابها وأصاب توابيتها من التلف أكثر مما أصاب غيرها ، وحينما فتحت المقبرة فى عام ١٨٨٩ ، كانت قد بقيت منها مومياوات الفراعنة تحوتمس الرابع ، وأمنحوتب الثالث (؟) ، ومرنبتاح ، وسابتاح ، وسيتى الثانى ، ورمسيس الرابع ، ورمسيس الخامس ، ورمسيس السادس ، فضلاً على ثلاث نساء وطفل.

وكما أكرم كبار كهنة الأسرة الحادية والعشرين مثوى جثث الفراعنة السابقين ، كانوا كراماً مع جثث أسلافهم كبار كهنة آمون . وحدث بعد عشر سنوات من الاهتداء إلى خبيئة الملوك فى عام ١٨٨١ و ١٨٨٢ على أيدى بروكش وأحمد كمال وماسبيرو ، أن أبلغ أحد أفراد أسر عبدالرسول مدير مصلحة الآثار جريبو بوجود خبيئة هائلة أخرى إلى شمال معبد الدير البحرى . وعثر مساعده دارسى فى عام ١٨٩١ فى دهاليز وحجرات مقبرة من عصر الأسرة الحادية عشرة على ما أذهل العالم بأخباره ؛ إذ وجد ١٥٣ تابوتاً تضمنت ٥٢ تابوتاً فردياً ، و١٠١ من التوابيت الزوجية والثلاثية ، لكبار كهان وكاهنات ، وأتباع من المنشدين والموسيقيين وأمثالهم .

وفى غمرة أصداء هذه الكشوف الأثرية التى دوت متتابعة فى أواخر القرن الماضى ، لوحظ أن توابيت المخابئ الملكية التى صنعت من الخشب على هيئات بشرية ، لأمثال الملوك العظام : تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى وتحوتمس الرابع وسيتى الأول وغيرهم ، غلبت روح البساطة على ألوانها ونصوصها وزخارفها ، ولم يبق على بعضها غير شريط طولى من النصوص يمتد من أسفل الصدر حتى

القدمين، وثلاثة أشرطة عرضية تلتف حول الجسد بما يشبه أربطة الكفن ، فضلاً عن تصوير ربة مجنحة تحيط صدر المتوفى بجناحيها وحمايتها .

وتثير ظاهرة البساطة هنا الدهشة إذا قورنت بالثراء الفاحش ، الذى تمتع أصحابها به ودلت عليه معابدهم ونقوش مقابرهم ، أو قورنت بثراء وروعة التوابيت التى عثر عليها فيما بعد فى مقبرة توت عنخ آمون وهو من أقل الملوك حكماً وأهمية . ويمكن تعليل ظاهرة بساطة توابيت المخابىء الملكية بأحد فرضين . فلعل لصوص المقابر كانوا قد نزعوا عن بعضها أغشيتها من رقائق الذهب وماكان يرصعها من الأحجار الكريمة قبل أن تودع فى مخابئها الأخيرة ، وذلك فرض يزكيه بقاء قطع متناثرة من الكساء الذهبى القديم على تابوتى تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث ، ولم يكن من المتوقع حين أعيد ترميمها أن يعاد إليها رونقها ومانزعه اللصوص من زخارفها .

أما الفرض الآخر فهو أن تكون بعض التوابيت العاطلة من الحلية ليست أكثر من توابيت بديلة عما تحطهم أو سرق من التوابيت الملكية الأصيلة ، ولم يكن من المنتظر أن تصنع بمثل فخامتها أو بكل تفاصيلها .

واحتفظت أغلب توابيت خبيئة كبار كهنة عصر الأسرة الحادية والعشرين بروعتها وفخامتها . وتميزت ألوانها بطلاء أصفر فاقع لامع ، وتعددت عليها صور المعبودات ورموزهم المقدسة ومناظر الآخرة والحساب وصور التعبد وتقديم القرابين ، فضلاً على نصوص كتب الموتى .

ومن طريف مايذكر أن واحداً من أقدم هذه التوابيت وأجملها، وهو تابوت كبير الكهنة باى نجم الأول كان فى حقيقته تابوتاً للملك تحوتمس الأول ، وإذا كان كبير الكهنة على علم مسبق بهذا فإنه يكون أقل أحل لنفسه ما أنكره على غيره . وظن أن ثوابه فى معالجة جثة ذلك الملك المهاب وغيرها من جثث الملوك العظام يغطى على اغتصابه لتابوته (١) .

(١) G. Maspero, *Les momies royales de Deir el-Bahari*, 1889, 72-90; G. Eliot Smith, *The Royal Mummies*, 1912; G. Daressy, *Cercueils des cachettes royales*, 1909; *ASAE*, VIII, 3 f.; *JEA*, XXXII, 24-30; Poreter and Moss, *Topographical Bibliography*, I, 173 f., 198 f.

خامساً - نماذج من الفنون والعمارة فى الدولة الحديثة

سايرت فنون الدولة الحديثة طبيعة حياة أهلها وظروف عصورها ، وترجمت عنها في كل ما بدأت به وتطورت إليه . وظهرت لأساليب النحت والنقش والتصوير خلالها أربع مراحل ، يمكن إيجازها على النحو التالى (١) :

مرحلة أولى : بدأت منذ أواخر عصر الأسرة السابعة عشرة (٢) ، وامتدت مظاهرها حتى أواسط عهد الملك أمنحوتب الثانى ، وكانت مرحلة استحب أهلها روح الفتوة ومظاهر الجدية ، واستلزم عصرها مجهودات متصلة واسعة لإقالة البلاد من النكسة التى أصابتها فى عصر سيطرة الهكسوس ، ثم لتأمين حدودها وتوسيع نفوذها ، وتكثيف إنتاجها ، وتنشيط تجارتها الخارجية وحمايتها . وعندما ابتغت مدارس النحت فى الحجر أن تعبر عن طابع هذه الفترة وتوجهاتها ، آثرت طابع الاتزان فى تشكيل تماثيل كبار الشخصيات واستحبت لها الخطوط البسيطة المعبرة ، وكستها بروح الفتوة، وقللت تمثيل صنوف الزينة عليها (٣) ، وجمعت فى تماثيله ملوك عصرها بين المثالية المتزنة وبين الجمالية المتزنة ؛ فجسدت لهم فيها ما كانوا أهلاً له بمجهوداتهم الحربية والسياسية ، من شدة المراس ورفعة الشأن ونبل الهيئة وسماحة الوجه فى آن واحد . وبلغت هذه المدارس غاية رفيعة ملحوظة فى تماثيل حاتشبسوت، التى لم يمنع وقار الملك وجدة الطابع أهل الفن فى عهدها من أن يكسوا وجوه تماثيلها بأنوثة حلوة ناضجة مترفعة تليق بها ، ولم يستثنوا من هذه الأنوثة المليحة وجوه التماثيل، التى مثلوا ملكتهم فيها رابضة على هيئة الأسود (٤) . ثم بلغت غاية أسمى فى نحت تماثيل

---

(١) عبدالعزيز صالح : *الفن المصرى القديم* - فى تاريخ الحضارة المصرية - القاهرة ١٩٦١ - ص٣٤٣ - ٣٦٥ .

(٢) Brit. Mus. 22558, Louvre E 15682, Turin 1372, Edinbourg 1956, 140; and *see* Winlock, *JEA*, X, pl. XII f.

(٣) *cf.*, J. Vandier, *La Statuaire Egyptienne*; 503, 506, pls. CLXII. 1,3,5, CXLIII, 2, XCLI, 4, CLV, 5, CLXX, 4,6.

(٤) وراجع من الاستثناءات القليلة التى جمل المثال فيها تماثيله :
Ibid., pls. CXL, 1, CLIX, 5, CXL, 1 ; Chicago 13649.
Metr. Mus. 29. 3.2.31.3.94, Cairo 11440, 42069, *see* also Metr. Mus. 26.7. 1400; 31. 3, 155; Edinbourg 1900, 212, 10.



تحوتمس الثالث ، التي جمع الفنانون في هيئاتها بين فتوة الحرب ورقة الطابع الشخصي ونبل الملامح والمشاعر معاً . وبقي من هذه التماثيل مايظهر تحوتمس الثالث واقفاً منتصباً وجاثياً خاشعاً ، ورابضاً على هيئة الأسد . كما صور له فنان وزيره رخميرع ، تماثيل أخرى ضاع أغلبها ، مثلته يجلس مع زوجته ، ويقدم قرابينه إلى ربه واقفاً تارة ، وزاحفاً على ركبتيه تارة أخرى ، دون أن يقلل زحفه من مكانته وهيبته (١) .

وارتقى النحت في الخشب منذ بداية العصر ، فصنع فنانوه توابيت خشبية كبيرة على هيئات بشرية لأميرات الأسرة وملكاتها ، وأظهروا في بعض وجوهها ملامح صاحباتها في رقة وخطوط سلسة ، جعلتها من روائع يسر النحت وجماله في عصرها .

وسلك فن التصوير خلال هذه المرحلة ، سبيل الاتزان نفسه فيما أخرجه من روائع نقوش ومناظره ، ولكن أصحابه التمسوا لصورهم نوعاً من التفصيل وحلاوة التعبير يزيد عن نصيب التماثيل . وبقيت من إنتاجهم على سبيل المثال صورة للملكة أحمس أم حاتشبسوت أظهرتها بابتسامة حلوة مشرقة مستبشرة ، وصورة أخرى مبدعة لسنموت كبير المهندسين في عهد حاتشبسوت ، عبرت عن امتلاء صدغيه وطيات ذقنه وتفاصيل شعره في خطوط بسيطة متمكنة . وصور الفنانون خصائص الرسل الأجانب الذين كانوا يفدون إلى مصر بجزاهم وهداياهم (٢) ، وصوروا بيئة بلاد بوينة (بونت) بقراها وحيواناتها وخصائص أهلها الجسمية ، في تفصيل لطيف وفي روح مرحة فكهة سبقت الإشارة إليها .

* * *

وامتازت المرحلة الثانية لفنون الدولة الحديثة بمزيد من الرقة ورغبة التعبير عن مظاهر الترف وميل إلى التحرر القليل من التقاليد الفنية القديمة وأحمالها ، وميل يساويه إلى عشق الطبيعة وجمالها . وبدأت هذه المرحلة منذ أواخر عهد تحوتمس

---

(١) Davies, *Rekhmiré*, pls. XXXVI-XXXXVII; *see also*, Davies, *Kenamen*, pl. XVII f.

(٢) من نماذج هذا التصوير مناظر مقابر سنموت ورخميرع ومن خبر رع وأمنحوتب .

الثالث [١] ، واستمرت حتى نهاية عهد أمنحوتب الثالث . وكانت مصر قد جنت خلالها ثمار جهودها الحربية والسياسية والاقتصادية، التى بذلتها راضية فى المرحلة الأولى ، وتوافر لها من حياة السلام والطمأنينة ماجعل خاصة أهلها ينعمون برغد العيش كاملاً غير منقوص ، وجعلهم يصدرون فى جل أمرهم عن مشاعر رقيقة هادئة ، فخرج الفن يعبر عن تطور هذا العصر بأطرافه ، وانتفع المثالون بأسلوبين قديمين جديدين فى الوقت نفسه ، أسلوب واقعى مهذب مرفه ، يخالف سلفه الأسلوب الواقعى الجاد الذى استحبته فنون الدولة الوسطى ؛ ثم أسلوب جمالى ناعم منمق ، يخالف الأسلوب الجمالى المتزن المبسط استحبته فنون المرحلة الأولى من الدولة الحديثة . واستطاع مهرة المثالين فى الأسلوبين أن يضفوا على سطوح تماثيلهم ليونة واستدارة ورقة مقصودة ، ونجحوا فى أن يظهروا المشاعر التى تتفاعل فى نفوس أصحاب التماثيل على ملامح وجوه تماثيلهم [٢] ، ومن أمتع مايستشهد به من إنتاجهم فى الأسلوبين : تماثيل الملك أمنحوتب الثالث ، وزوجته تى ، وتماثيل حكيم عصره أمنحوتب بن حابو .

فقد نحت فنان الأسلوب الواقعى المرفه رأسين للملك أمنحوتب الثالث[٣] ، وعبر عن مذهب الواقعية فيهما بوجه مستطيل ، وعينين لوزيتين ، وحاجبين طويلين، وشفتين ممتلئتين ، وذقن صلبة بارزة ، وأنف مستقيمة وانحدار فى صفحتى الخدين . وكاد وجه الملك فى الرأسين يكون صورة أصيلة لوجه ولده آخناتون بملامحه المتميزة المشهورة ، لولا أن المثال أسبغ على هذا الوجه صبغة أخرى مقصودة أكد بها مظاهر الملكية المثالية المفروضة فيه ، فعكس القوة الذهنية الجبارة على ملامحه ، وأظهر ابتسامة مترفعة على شفتيه ، وشد عضلات وجهه فى قوة واضحة .

---

(١) يرى فانديبه أن تطور هذه المرحلة بدأ فى عهد أمنحوتب الثانى . *Manuel d'Archaeologie*, II, 510.

وقد يصح ذلك بالنسبة لأساليب النحت ، ولكنه لايتفق مع أوضاع التماثيل (راجع حاشية ٥ فى الصفحة السابقة) ، أو مع التحرر فى تصوير الراقصات فى الحفلات الخاصة (فى مثل مقبرة رخميرع وزير أبيه تحوتمس الثالث) .

(٢) راجع كذلك : دريوتون وفانديبه – مصر – ص٥٣٨ و ٥٤٠ .

(٣) Brit. Mus. 416 (6).



ونحت مثال آخر تمثالاً صغيراً للملك نفسه ، صوره فيه على سجيته في هيئة طبيعية خالصة ، وفي وقفة متراخية ، وامتلاءة ودعة ، وفي ثوب طويل ذي ثنيات عديدة مزركشة ، وأجرى سطوح بدنه في نعومة وأناقة مترفة (١) . وضاع رأس هذا التمثال للأسف ولاندري كيف كانت ملامحه .

وكانت الملكة تي زوجة أمنحوتب الثالث امرأة متكملة الأنوثة ذات جاذبية طاغية ، وشخصية قوية ، تحكمت بهما في قلب زوجها على الرغم من أنها لم تكن من أسرته المالكة ، فاطمأن إليها وأظهرها معه في حفلاته وسجل اسمها مع إسمه في بعض مراسيمه ، وأشركها في تقرير علاقاته بملوك الشرق وأمرائه ، وعمل في خدمة هذه الملكة عدد من مهرة الفنانين استحب بعضهم الأسلوب الواقعي المرفه ، وبقيت من إنتاجهم عدة رؤوس صغيرة لتماثيل الملكة (٢) ، لم يراعوا تجميلها بقدر ماراعوا أن يعبروا فيها عن ملامح صريحة وشخصية قوية ، تمتاز بإدارة نفاذة وطابع فريد ومزاج خاص .

ونحت الفنانون عدة تماثيل لحكيم عصرهم أمنحوتب بن حابو ، مثلوه فيها على هيئة الكاتب ، وصوروه في واحد منها شيخاً بوجه نحيل بارز العظام ، انكمشت طيات جسده نتيجة لكبر سنه ، وكشفت ملامحه عن صلابة الرأي عند الشيوخ ، وعما يتوافر لهم عادة من خبرة وحكمة وتجارب طويلة (٣) .

واستخدم مثالو المدرسة الثانية الأسلوب الجمالي المنمق في خدمة أولئك الثلاثة الكبار ، فنحتوا لأمنحوتب الثالث مع زوجته عدة تماثيل ، حولوا استطالة وجهه فيها إلى استدارة . وأشهرها مجموعة مثلته هو وزوجته وبناته ، وبلغ ارتفاع تمثاله فيها وارتفاع تمثال الملكة نحو ١٧ متراً (٤) . وبقيت من إنتاجهم كذلك قطعة من وجه

---

(١) Metr. Mus. 30874.

(٢) Cairo 38257 (J.E.), Berlin 21834, etc.; Davies, *Amarna*, III, pl. XVIII; Sandman, *Tomb of Huya*, 38.

(٣) Cairo 42127.

Cairo 610.

(٤) وعثر في أرمنت على تمثال كبير من الألباستر للفرعون أمنحوتب الثالث يمثله مع المعبود سوبك، وقد نحت وجهه بالأسلوب الناعم نفسه ، ولو أنه مستطيل بعض الشيء .



الملكة تى نحتوها لها فى شبابها ، وأفرغوا فى شفتيها حلاوة وسحراً ما بعدهما من مزيد (١) . ونحتوا تمثالاً أنيقاً لابن حابو ، مثله هذه المرة على هيئة كاتب شاب بوجه ممتلئ ، ترهلت طيات جسده عن امتلاء وصحة وحياة رغدة ، ومال بوجهه على برديته مستغرقاً فى تفكير عميق .

وأشبع أصحاب الأسلوب الجمالى هؤلاء روح الترف التى استحبها أثرياء عصرهم . فجسموا فى تماثيلهم النعيم الذى عاشوا فيه ، وأظهروا وجوهها ممتلئة ، ونحتوا تفاصيلها رقيقة مجملة ، وأظهروا أجسامهم غضة بضة ، وأجروا خطوطها أنيقة ناعمة ، واعتنوا بتقليد شعورهم المموجة وتمثيل ثنيات ملابسهم الهفهافة ، وتفاصيل حليها وزينتها (٢) .

وسارت مذاهب التصوير على نحو قريب من مسالك أساليب النحت فى المرحلة نفسها ، وبقيت من نماذجها الواقعية المترفة ، لوحة صغيرة منقوشة لأمنحوتب الثالث وزوجته تى ، صورته معها فى جلسة ناعمة حالمة ، أرسل يده فيها فى تراخ على ركبته ، وأحاط زوجته بيده الأخرى ، وامتلأ وجهه المستطيل امتلاءة النعيم ، وجلست تى بجانبه بثوب قصير ينتهى فوق الركبة .

وعبرت فنون النقش كذلك عن نعيم المترفين فملأت جدران المقابر بمناظر المآدب والمحافل ، والرقص والشراب ، والطرب والتطريب ، وزادت تصوير الزهور والمزاهر ، وصورت مجالات الطبيعة الطلقة ، وصيد البر وصيد النهر . وصورت الخيل المطهمة والعربات الفارهة ، وتحررت فى تصوير أشكالها التابعة أكثر مما تحررت فى عصورها الماية . وزادت من تصوير الأتباع والراقصات من ثلاثة أرباع أجسامهم من الأمام (٣) ، ومن الخلف (٤) . وزادت التعبير عن الحيوية الدافقة فى لفتات الجوارى وحين التثنى ، وصورت بعض المجموعات فيما هو أقرب إلى قواعد المنظور . وأخرجت ذلك كله فى خطوط طلقة مرسلة، تعودتها أيدى مهرة المصورين

---

(١) *Metr. Mus. Eg. Statues*, 1945, pl. 16.

(٢) Cairo 801, 806, 42084, Brooklyn 40523; von Bissing, Denkmaeler aegyptischer Sculptur, Taf. 50.

(٣) Wresz., Atlas. 60; Prisse d'Avennes, Histoire de l'Art eg., pl. 14.

(٤) Wresz, op. cit., 89. 19, also Davis, Tomb of Nacht, pl. 13; L.D. III, 42.

فى كل ماصوروه ونقشوه ، حتى أخضعوا لها صور الجنازات نفسها وصور الناديات والمشيعين[١] .

ووجدت مدارس الرسم سبيلها هى الأخرى منذ أوائل هذه المرحلة للتعبير عن معتقدات أصحابها فى نعيم الآخرة وعذابها ، وطرقاتها وعقباتها ، وأربابها وشياطينها، كما تضمنتها كتب الموتى ، فرسمتها على جدران حجرات دفن الملوك بطريقة تخطيطية مبسطة ، ثم حورت خطوطها شيئاً فشيئاً إلى هيئة الصور الكاملة ذات الخطوط الممتلئة اللينة .

* * *

وشغلت المرحلة الثالثة لفنون الدولة الحديثة وأشهر مراحلها جميعها ، عهد آخناتون ، وتأثرت مدارس الفن خلالها بدعوة صريحة صبغت مذاهب الفكر ومذاهب الدين فى عهد هذا الفرعون ، وكانت دعوة إلى تصوير الواقع كما هو ، وإلى التعبير عن صور الطبيعة وأحوالها فى بساطة متناهية . وتقبلت مدارس الفن هذه الدعوة ، وكان عندها استعداد لها منذ مرحلتها السابقة [٢] ، ثم تخير كل فرع للنحت والتصوير سبيله الخاص للتعبير عنها .

ففسرت مدارس النحت دعوة العهد الجديد ، على أنها دعوة إلى التحرر من كثير من قيود الأوضاع والأساليب القديمة ، وأرادت أن تترجم عن هذا التحرر بتمثيل الأشخاص على هيئاتهم الدنيوية الصريحة ، دون مثالية جمالية مكشوفة . ومرت هذه المدارس فى تحررها بمرحلتين :

مرحلة بدأت بها فى مدينة طيبة عندما كان أمنحوتب الرابع (آخناتون) لايزال مقيماً فيها خلال الفترة الأولى من حكمه ، وهى مرحلة اتصفت بالمغالاة والاندفاع ، شأنها فى ذلك شأن كل دعوة جديدة فى أوائل أيامها . وبدأت مدرسة النحت المتحرر حين ذاك بالملك نفسه ، فنحتت تماثيله بسمات شخصية مغالية ، فأظهرت وجهه مستطيلاً ، وذقنه طويلة مترهلة ، وشفتيه غليظتين ، ورقبته نحيلة ، وبطنه منتفخة ، وفخذيه غليظين[٣] .

(١) Berlin 12411; Wresz., *op. cit.*, 8.

(٢) Cf., Davies, *JEA*, IX, 132 f.; B.B.A., 1923, 40 f.

(٣) Cairo 49528, 49529, 55938, etc....

ثم ظهرت المرحلة الثانية لمدرسة النحت الجديدة المتحررة فى مدينة العمارنة، بعد أن انتقل آخناتون ببلاطه إليها ، وكانت مرحلة قرت فيها أوضاع الدعوة الجديدة، واستقرت أغراضها وهدأت حميتها ، فنحت المثالون تماثيل الملك وأسرته على هيئات سواء مقبولة ، تخلوا فيها عن العيوب الجسمية التى ظهرت لأبدانها فى طيبة ، واهتموا اهتماماً بالغاً بدراسة الوجوه وأحاسيس أصحابها والتعبير عنها ، وتجلت آثار هذه الدراسة أكثر ماتجلت في تمثيل وجه آخناتون ووجه زوجته الجميلة نفرتيتى ، فظهر كل منهما فى روحانية ووداعة ، ومظهر متفلسف حالم ، ورقة ملكية مستحبة (١) .

واشتهر من مثالى العمارنة حين ذاك ثلاثة فنانون ، وهم : باك وأوتى وتحوتمس (٢) ، واحتفظ آخرهم فى داره بمجموعة من التماثيل ورؤوس التماثيل الصغيرة للملكة نفرتيتى وزوجها وبناتها ، بعضها كامل التشكيل، وبعضها لم يتم صنعه(٣) ، ولكنها فى مجملها لاتقل رقة وحلاوة وإتقاناً عن تمثال نفرتيتى النصفى الذى نقل خفية إلى متحف برلين وطبقت شهرته آفاق العصر الحديث . وتخلفت معها أقنعة جصية لرجال ونساء ، تكاد تنطق من فرط واقعيتها وصدق تعبيرها ، وكان الفنانون يتخذونها، فيما يبدو نماذج لما ينحتونه من وجوه تماثيل أصحابها (٤) .

وسارت مدارس التصوير والنقش فى العمارنة على الأساليب ذاتها التى جرى فن النحت عليها فى عهدها . وكانت مجالاتها أرحب من مجالاته ، فى التعبير عن الحركة ، وتصوير الواقع ، والجرى مع مظاهر الطبيعة وكائناتها حيث جرت ، وبدأت مدارس التصوير بالملك نفسه على نحو ما بدأ فن النحت به . وبدت كأنما فتحت مغاليق قصره ، وتسربت إلى مجالسه ومخادعه ، فصورته على سجيته ، حين يأكل فى شهية ، وحين يلاصق زوجته وتلاصقه ، وحين يمرح معها بعريته ، وحين يضم

(١) Berlin 21348; Cairo 59286, *see* also Cairo 53480, Berlin 17540, 21840, Louvre 11076, 15593.

(٢) Davies, *Amarna*, III, pl. 18; J. Capart, *Chr. d'Egypte*, 1957, Fig. 48; von Bissing, *Denkmaeler Zur Geschichte der Kunst Amenophis* IV, b.

(٣) Capart, *op. cit.*, see for example, Berlin 21263, 21300, 21223; Louvre E 14715; Cairo 59286, *JEA*, XIX, pl. XII.

(٤) *Chr. d'Egypte, op. cit.*, 208, 216, Figs. 46, 62; Berlin 21262, 21299, 21340, 213480. 21359; Lange, *Echnaton und die Amarna Zeit*, Taf., 28-35.

بناته فى شغف ، وحين يندب إحداهن فى أسى ، وحين يتعبد ربه فى إخلاص ، وحين يجود بالعطايا ، وحين يتقبل الهدايا . وصورت بناته تضم إحداهن الأخرى وتداعبها ، وصورت أتباعه حين المرح ، وحين التعب ، وحين الهرولة ، وصورت الرسل الأجانب يتدافعون إليه جثياً وسجداً ، وأظهرت صورها كلها فى مرونة ، وحركة نشطة ، وبساطة مستحبة ، وفى مزاج فردى أحياناً، وزادت من صور الطبيعة المتفتحة ، وأضفت عليها نصيباً من روح عصرها ، فصورتها طلقة باسمة ، تموج بالحركة والألوان والبهجة ، ورصعت بصورها جدران القصور وأرضياتها وجدران المقابر على حد سواء [١] .

ومارس فن التصوير حين ذاك تجارب جديدة للتوسع فى إظهار وحدة المناظر واستغلال وحدة المكان . وهى تجارب اقتصرت سوابقها القديمة على المساحات الضيقة والوحدات الصغيرة والأشكال التابعة ، فانطلق فنان العمارنة وأخرج صوراً ربط فيها عدة مناظر بروابط ظاهرة جعلتها سلسلة مؤتلفة واحدة [٢]، ومنها صورة نشر فيها منظراً واحداً على ثلاثة جدران فى حجرة واحدة ؛ ليعبر عن وحدة المكان الذى شغلته وصورت فيه [٣] .

وانتهى عهد آخناتون حوالى عام ١٣٥٠ ق.م ، فعادت مدارس الفن برجالها من العمارنة إلى طيبة ، ولكنها لم تستطع أن تتخلى عن قواعد العمارنة الفنية دفعة واحدة ، واستمرت تمارسها فى عهود خلفاء آخناتون الأقربين سمنخ كارع ، وتوت عنخ آمون ، وآى ، وبعض عهد حور محب أيضاً .

فجرى النحت فى أعقاب عهد آخناتون ، على سنة العمارنة فترة غير قصيرة . وأثبت روحها الرقيقة الناعمة فى تماثيل توت عنخ آمون ، وفى قناعه الذهبى الكبير ، ورؤوس توابيته ، وفيما عثر عليه فى مقبرته من تماثيل صغيرة ناطقة مثلته هو وزوجته وبعض نساء بيته المالك ، ومثلت عدداً من معبودات عصره .

---

(١) Peet-Wooley, *The City of Akhenaten*, 1922, pls. XXXVII-XXXIX; Davies and Gardiner, *Egyptian Paintings*, II, pl. LXXXVI; Pendlebury, Tell *el-Amarna*, 1935, pl. VIII.

(٢) *Amarna*, V, pl. 5.

(٣) *Aldred*, New Kingdom Art, 26.

وتبقى من نقوش خلفاء آخناتون المباشرين ، عدة لوحات صغيرة ، لأخيه سمنخ كارع وزوجته ، وتوت عنخ آمون وقرينته ، وكشفت كل لوحة منها عن معظم خصائص فن العمارنة ، فترجمت عن آيات عشق الطبيعة ، ومظاهر التنعم اللذيذ ، وأخذت بالخطوط المرسلة والرقة المتناهية ؛ وعبرت عن أصدق مايكون من مشاعر الود والتحاب والتعاطف بين المرء وزوجته (١) .

ونقش فنان توت عنخ آمون منظراً صغيراً على جانب صندوق فخم مطعم بالأبنوس والعاج ، صور ملكه فيه يصيد السباع ؛ فسجل لحظات الصيد بروح العمارنة، وأخرجها جياشة بالترقب واليقظة والعنف والاندفاع ، وأظهر بيئة الصيد بخصائصها العامة ، وصور الصباع فى هرج ومرج يموج بعضها فى بعض ، ويتلوى بعضها فى الفضاء، وهو يقفز من قسوة الألم وكثرة السهام ، ويخر بعضها صريعاً ، ويحاول بعضها أن ينفلت بنفسه من الموت الذى يتعقبه (٢) .

* * *

وبدأت فنون الدولة الحديثة مرحلتها الرابعة ، منذ أوائل عصر الأسرة التاسعة عشرة ، وامتدت بها حتى نهاية عصر الرعامسة . واستعادت مدارس الفن خلالها بعض الأساليب الفنية التى سبقت عهد آخناتون ؛ فأخذت عنها ما سارت عليه من تأنق وليونة وتفصيل فى خطوط الرسم والنقش ، ونحت سطوح التماثيل ، ثم جمعت بين ذلك كله وما استحبته من فنون العمارنة من حيث الجرأة فى تصوير الحركة والمهارة فى تصوير المشاعر .

وظهرت أهم بواكير النحت فى هذه المرحلة الرابعة فى تمثالين : تمثال لحور محب قبيل اعتلائه العرش ، مثله على هيئة الكاتب ، وأظهره فى جلسة لينة غير منتصبة ، وانحناءة خفيفة تشبه انحناءة الحكيم ابن حابو – ولكنه مثله فى الوقت نفسه

(١) H. Carter, *The Tomb of Tut-Ankh-Amen*, London, 1923, vol. I, pl. II; vol. II; pl. I. A-B.

(٢) *Ibid*, vol. I, Pl. LI, vol. II pl. III; Davies and Gardiner, *Egyptian Paintings*, pl. LXXVIII.

بملامح سمحةحالمة ، ربطته بأسلوب العمارنة ورقة العمارنة[1] .

وتمثال آخر كبير من المرمر للملك سيتى الأول [2] ، صنعه المثال من عدة أجزاء منفصلة نتيجة فيما يبدو لصعوبة قطع المرمر بأحجام ضخمة كبيرة ، أو تقليداً لماجرى عليه فنانو العمارنة من صناعة بعض التماثيل الصغيرة من أجزاء متعددة . وأظهر المثال فى ملامح وجه ملكه واستقامة اتجاهه وانتصابته وتقاسيم جسده كل المثالية الملكية، التى انطبعت بها تماثيل الملوك قبل عهد العمارنة [3] .

وتعاقبت بعد ذلك عهود الرعامسة ، ومارست مدارس النحت أوج نشاطها فى عهد رمسيس الثانى ، وهو فرعون لم يكن بين الفراعنة جميعهم من فاقه شغفاً بالتماثيل وكثرتها وضخامتها . فأخرجت له تماثيل تفوق الحصر ، امتاز مما بقى منها تمثال متوسط الحجم من الجرانيت الأسود أظهر صاحبه بأنف أقنى بعض الشيء ، وملامح نبيلة متسامية وبسمة خفيفة مقصودة [4] . وتمثالان آخران أظهراه فى حجم صغير، يزحف على الأرض فى تواضع، وهو يقدم القربان إلى ربه [5] . وتماثيل كثيرة أخرى ضخمة هائلة أقام الفنانون بعضها فى معابد الرمسيوم (حيث أربت زنة أحد تماثيله فيه على ألف طن) والكرنك والأقصر ومنف وصان الحجر . ونحتوا بعضها الآخر فى الصخر الطبيعى فى واجهة معبد أبى سنبل بالنوبة . وبلغ الفنانون فى نحت بعض هذه التماثيل الكبيرة مبلغاً مقبولاً من النجاح الفنى والنجاح التعبيرى، ولكنهم اكتفوا فى بعضها الآخر بإظهار روعتها عن طريق ضخامتها المفرطة وجلال هيئتها وهيبتها ، وتحقيق روح الاتساق والانسجام بينها وبين الوسط المعمارى الذى أقاموها فيه .

على أنه مهما يكن من أمر ، فإن تقدير هذه التماثيل لاينبغى أن يقتصر على

(١) وعثر له حديثاً فى الكرنك على تمثال آخر يشابهه .

(٢) Metr. Mus. 23. 10.1; *see* a also Cairo 42129; *ASAE*, 1914, XXIX, pls. I-II. Cairo 42139.

(٣) من تماثيل الأفراد الممتعة التى جمعت بين الاتجاهين ، تمثالان لسيدتين تبدو خطوطهما فى غاية النقاء ، وتمثالان آخران لرجلين :

Louvre N 871, E 10655, N 845, 1575.

(٤) Turin 1380.

(٥) Cairo 42142, 42143.

الإشادة بضخامتها وسلامة نسب الغالبية منها وطريقة نحتها فحسب ، وإنما يجب أن يمتد كذلك إلى الجهود الجبارة التى بذلها الصناع والعمال فى قطع كتلها الصلبة الضخمة ، ونقلها من محاجرها ، أو نحتها فى مواضع عرضها القديمة ، وهى جهود لمس صعوبتها عصرنا الحاضر ذو الإمكانيات الواسعة فى نقل تمثال عادى من تماثيل رمسيس الثانى مسافة لاتزيد عن أربعين كيلو متراً ، من موضعه فى بلدة رهينة إلى حيث أقيم فى الميدان الذى سمى باسمه بمدينة القاهرة .

وأصاب تماثيل الأفراد فى بداية عصر الرعامسة نوع من الردة والتعصب لأساليب النحت فيما قبل عهد العمارنة . فعاود المثالون تمثيل الأجسام فيها غضة ممتلئة ، وأظهروا هيئات أصحابها مترفة ، وزادوا تمثيل طيات ثيابها وثنياتها ، وأسرفوا فى تمثيل ترجيل الشعور وتفاصيل الحلى والزينة عليها ، وأفاضوا على صفحات وجوهها حلاوة وطراوة ، واستحبوا فيها ليونة الخطوط واستدارة الزوايا والسطوح (١) .

واستحدثت مدارس النحت فى عصر الرعامسة أوضاعاً جديدة مثلت الملوك بها خلال حفلات تتويجهم . وحين يظهرون مع أسرهم ، وحين انتصاراتهم على أعدائهم (٢)، كما استخدمت الرمز فى التعبير عن أسمائهم بصور منحوتة . واستحدثت أوضاعاً أخرى لتماثيل الأفراد ، مثلتهم فيها وهم يستوحون السداد من أربابهم رعاة الكتابة والحكمة (٣) ، وحين يقدمون نذورهم إلى معبوداتهم ، واقفين وجالسين وراكعين (٤) .

وتوافر لمدارس التصوير والنقش نشاطها الواسع فى مرحلتها الرابعة هذه واتسعت فى مجالات كثيرة ؛ فتوسعت فى مساحات لوحاتها المصورة ، وفى إظهار وحدة المجموعات المنقوشة ، وفى استغلال وحدة المكان . وتوسعت فى تصوير مجالات نشاط الإنسان وعالم الحيوان فى كل من مناظر القتال على البر والبحر وفى مناظر الصيد . وخير مايستشهد به من نماذجها فى هذه المجالات كلها ، هى مناظر

(١) Cairo741-751, 767, 816, 42168, Berlin 14131; Brit. Mus. 565 (36); and *see*, Vandier. *op. cit.*, 258f.

(٢) Cairo 64736.

(٣) Cairo 42162, 59291, Louvre E 11153, 11154, etc.

(٤) Cairo 606, 619, 42156, 42174, etc.



معبد الرسميوم من معهد رمسيس الثانى ، ومناظر معبد حابو من عهد رمسيس الثالث، وبعض مناظر معابد الأقصر والكرنك فى العهدين نفسيهما .

وملأت مناظر الحرب فى هذه المعابد جدراناً عظيمة الاتساع والارتفاع [١] ، صور الفنانون عليها بعض مخيمات الجنود ، وتحركات الجيوش ، ومراحل الكر والفر، وتصادم العربات ، وإقدام الخيول وكبوها . ومجالات القتال بالسيوف والحراب ، والتراشق بالنبال ، وتطويق الحصون ومهاجمتها وتسلق جدرانها ونقب أسافلها . وصوروا تكالب العدو وفشل مسعاه ، وصوروا تراكم القتلى ، وسوق الأسرى . وحاولوا أن يظهروا ذلك كله فى وحدة متصلة يموج بعضها فى بعض دون خطوط تحدها ، أو صفوف تقر بينهما [٢] .

وللتعبير عن وجهة نظرهم، أضاف أولئك الفنانون مزيداً من التفاصيل والتأثير فى بعض لوحاتهم ، فبالغوا أحياناً فى تصوير ذعر العدو وهله ، وأساه وجزعه ، ورجائه وابتهاله ، وخضوعه وامتثاله . وصوروا ضحايا الأعداء وهم يعانون سكرات الموت وقسوة الاحتضار ، ثم أظهروا ساحة المعركة بعد خلوها قفراً موحشاً ، اجتثت الحرب أهلها من فوق الأرض كما اجتثت شجرها سواءً بسواءً ، ولم يقل هذا التفصيل فى تصويرهم لدقائق المعارك البحرية فى عهد رمسيس الثالث .

وشغلت مناظر صيد البر حين ذاك المسطحات الواسعة نفسها ، وخيرها هو ماصوره فنان الأسرة العشرين أيضاً لفرعونه رمسيس الثالث على جدار واسع من جدران معبد حابو ، فقد صور الفرعون يصيد الثيران الوحشية [٣] ، وبلغ الغاية فى تصوير حماسة خلال الصيد ، وتصوير عدو الثيران أمامه فى جنون بين حنايا دغل ضيق ، ثم صور مظاهر الألم الممض فى وجه ثور ضخم ، بعد أن أدمته السهام وجرحته الحراب . ووفق فى تصوير الدغل بنباتاته التى ألقت ظلالها عليه ، وأظهرت عمقه ، وتمايلت تحت ضغط الثيران الهاربة فيه .

وعلى نحو ماسجل المصورون بالنقش نشاط ملوكهم فى الحرب والصيد ،

(١) Wiesz., Atlas, 90 f.; *L. D.*, III, 153 f.

(٢) بدأ هذا الاتجاه فى تصوير المعارك الحربية على جانبى عربة تحوتمس الرابع ، ولكن على نطاق ضيق .

(٣) von Bissing, *op. cit.*, Taf. 92.

أكثروا من تسجيل مظاهر تقواهم وقربهم من أربابهم ، ليجمعوا بين الدين والدنيا ، فسجلوا على جدار واحد بمعبد الكرنك إثنين وعشرين وضعاً للفرعون سيتى الأول ، وهو يحيى ربه ويدعوه ويسبحه ويقدم القرابين إليه واقفاً ومنحنياً وساعياً وراكعاً ، وذلك مالم يتعوده المصورون من قبل فى غير القليل النادر .

ومارست أساليب النقش والتصوير مجالاتها فى مقابر الفراعنة والأمراء وكبار الأفراد فى منطقة غرب طيبة فى الأقصر ، وبلغت ذروة عالية من جمال التصوير ورقته ، ونعومة النقش ونقاوته ، وحيوية التلوين والتعبير ودقة التفاصيل ، فيما صورته من حياة أهلها فى الدنيا وماتمنوا أن يكونوا عليه فى الآخرة .

وعبرت عمارة الرعامسة من ميول الضخامة والروعة فى عصرها .، وخير مابقى منها هو : معبد سيتى الأول وولده رمسيس الثانى فى أبيدوس ، ومعبد الرمسيسوم لرمسيس الثانى أيضاً فى غرب طيبة ، ومعابده المنحوتة فى صخور النوبة (فى أبى سنبل وغيره) ، ومعبد رمسيس الثالث (معبد حابو) فى غرب طيبة . وانفرد كل معبد من هذه المعابد بميزاته ، وانفرد كل منها كذلك بما دل به على الجبروت ، الذى بذل فيه حين تصميم مشروعه وحين تنفيذه .

غير أن أكثر منشآت الرعامسة دلالة على نواحى الإعجاز فى عصرها ، هو بهو الأساطين الكبير فى الكرنك . والكرنك هو المقر الرسمى المقدس لآمون ملك الآلهة المصريين وقرينته موت وولدهما خنسو ، وبعض الأرباب الكبرى التى استضافها فى رحابه ، وشغلت مساحة الكرنك نحو عشرين فداناً ، وضمت بقايا نحو عشرين معبداً ومزاراً . وبدأ مشروع بهو الأساطين الكبير فى الكرنك قبل عهد رمسيس الثانى ، فرعونان أو ثلاثة : أبوه سيتى الأول ، وجده رمسيس الأول ، وربما سلفه حور محب أيضاً [١]، ثم أتمه المهندسون فى عهده ، وجمعوا فيه بين الجلال والجمال والضخامة المفرطة فى سياق واحد ، وجعلوه أضخم بهو من نوعه فى العالم القديم . وأراد المهندسون الذين خططوا هذا البهو أن يجعلوا فى وسطه ممراً واسعاً تعبره المواكب الدينية والهيئات الرسمية فى معبد آمون وخلال أعياده ، فشيدوا فى سبيل إظهار هذا الممر الأوسط وفى سبيل تحديده ، صفين هائلين من أساطين حجرية ضخمة شاهقة ، يتجاوز ارتفاع كل أسطون منها عشرين متراً ، ويبلغ قطره أكثر من

(١) Vandier, *op. cit.*, t. II, 924 and references.



عشرة أمتار ، ويشبه تاجه هيئة زهور البردى المتفتحة ، ويبلغ من سعته ، أى سعة تاجه ، أنه يتسع لوقوف عشرات من الناس فوقه . وهكذا أصبح الممر الأوسط الكبير يقسم البهو إلى جناحين ، تبلغ مساحتهما أكثر من خمسة آلاف متر مربع ، وشاد المهندسون فى كل من الجانبين عشرات من الأساطين المرتفعة بدت فى مجموعها كأنها نباتات ضخمة باسقة متراصة ، وشكلوا تيجانها على هيئة أكمام البردى المتضامة المقفولة ، وقللوا ارتفاع سيقانها عن ارتفاع سوق أساطين الممر الأوسط ؛ رغبة منهم فى أن يجعلوها تفسح بما بينها وبينها من فوارق الارتفاع سبيلاً لمنافذ النور والهواء ، وسبيلاً لتنوع المسطحات . ثم نشروا الألوان والأصباغ على أسافل الأساطين وتيجانها ، ووزعوا الزخارف والنقوش الملونة على السقوف والأعتاب كى تخفف من رهبة المكان ، وتخلع عليه نصيباً من روح البهجة وطابع الجمال .

وإذا كان هذا هو شأن جزء واحد من أحد معابد طيبة بالصعيد فى عهد رمسيس الثانى ، ففى النوبة ، وعلى مبعدة مايقرب من ألف ميل من عاصمته بر رمسيس ، قام معبد لنفس الفرعون ، هزت أخباره أفئدة محبى الآثار والحضارات القديمة منذ سنوات قليلة ، وهو معبد أبى سبل [١] . ومرة أخرى نرى مجد المجهولين، الذين كدوا فى هذا المعبد بالجهد والمهارة يكاد يعادل مجد فرعونهم أو يزيد ، فقد نقروه كأنهم الجان شاهقاً عميقاً متسعاً فى بطن الجبل ، وشكلوا واجهته الصخرية المتسعة بما يحقق التناسق بين عناصرها ويحقق التآلف بينها وبين البيئة الجبلية التى تصدرتها ، وبين مجرى النيل الواسع الذى تطل عليه . ونحتوا فى هذه الواجهة وفى صخر الجبل نفسه أربعة تماثيل هائلة لرمسيس الثانى يزيد ارتفاع كل منها عن ١٩ متراً على الرغم من أنها تمثله جالساً ، وحققوا نسبها كاملة وملامح وجه صاحبها صادقة على الرغم من ضخامتها والاكتفاء فيها بالخطوط العامة . وجعلوا محور المعبد مستقيماً من الشرق إلى الغرب ؛ حتى ترى الشمس التماثيل المقدسة فى محرابه وهو أعمق مكان فيه ، لاسيما تمثال رب الشمس فى يومى الاعتدالين . ونقشوا جدران البهو الداخلى للمعبد (وسعته ١٧,٧٠ × ١٦,٥٠ من الأمتار) ، وجوانب أعمدته بعديد من موضوعات الدين والدنيا والسلام والحرب . ولم تصرفهم الضخامة فى ذلك كله عن تحقيق الاتساق والإتقان فى كل مانحتوه ونقشوه ولونوه ، على الرغم من البيئة

---

(١) يفترض ولتر إمرى أن مشروع بناء هذا المعبد قد بدأ فى عهد سيتى الأول .

W. B. Emery, *Egypt in Nubia*, 1965, 193.

النوبية القصية الفقيرة القاسية التى أتموا عملهم فيها . وجاور هذا المعبد الكبير معبد آخر صغيرة نسب إلى الملكة نفرتارى (زوجة رمسيس) وشاركها فيه أو شاركت هى فيه زوجها رمسيس الثانى والمعبودة حتحور المحلية ، ونحتت فى واجهته ستة تماثيل لكل من الفرعون وزوجته ، تقل من حيث الضخامة عن تماثيل المعبد الكبير ، ولكنها لاتقل فى الإتقان عنها .

* * *

الشيخوخة فى العصور المتأخرة

أولاً - التخبط والتداخل فى عهود الأسرات ٢٢-٢٤
(٩٤٥--٧٢ ق.م)

تتباعت بعد انهيار عصر الأسرة الحادية والعشرين ، عصور امتدت من النصف الثانى للقرن العاشر ق.م حتى نهاية التاريخ الفرعونى فى أواخر القرن الرابع ق.م . وهى أقرب إلى تسمية العصور المتأخرة ، من حيث الزمن أساساً ، ومن حيث القدرة والحضارة ضمناً . وبدأت بداية اضطرارية بعهود حكام نرجح أنهم ذوو أصول مهجنة لم يكونوا أغراباً تماماً عن مصر ، ولم يفتحوا البلاد عنوة ، وإنما كانوا من قبائل خليطة من أهل الواحات والصحراء الغربية الأقدمين (التحنو والتمحو) ، وفئات من شعوب البحر الطارئة من أمثال المشاوش والشرادنة والإقوش والتورشا واللوكى والشكارش والريو .. الذين أسلفنا أنهم عبرو السواحل الغربية والليبية منذ القرن الثالث عشر ق.م وماتلاه ، وعجزوا عن دخول مصر بالقوة أكثر من مرة ، فاكتفى بعضهم بالتسلل إليها للعمل مرتزقة فى جيشها أحياناً ، ومدنيين رعاة وتجاراً ورقيقاً أحياناً أخرى . واستقرت بعض قبائلهم على حوافها الزراعية وفى واحات البادية وحول حصونها الحدودية منذ أواخر عهد رمسيس الثالث . ثم ما لبثوا أن تمصروا عن اختيار أو خضوعاً للأمر الواقع (لاسيما خلال فترات الأسر لمن أسر منهم) [١] ، ودانوا بعقائد المصريين وعبدوا أربابهم شيئاً فشيئاً فاطمأن الفراعنة إلى بعض جماعات ووزعوهم فى حاميات متفرقة وأقطعوهم أراضى زراعية مناسبة المساحة تكفل لهم دخلاً دائماً[٢] ولكن لم ينس هؤلاء النزلاء أصولهم القبلية تماماً فجمع رؤساؤهم بين لقب «ور» المصرى بمعنى عظيم ، وبين لقب «مس» الدخيل بمعنى ملك (قبلى) ، ولقب

---

(١) Meyer, *Geschichte*, ..., II 2, 30 f.; Wilson, *AJSL*. 1935, 73 f.

(٢) Gardiner, *The Wibour Papyrus*, II, 80 f.; *JEA*, XXVII, 41.

«رئيس ما الكبير» اختصاراً فيما يبدو للقب رئيش المشاوش الكبير (١) . ولم ينس المصريون لهم أيضاً أصولهم الأجنبية بسهولة ، فاحتفظوا لهم باسم المشاوش أو المشوش حيث تركزت أغلب جماعات قرب الفيوم ، وباسم (الربو) الليبيين أحياناً ، ثم باسم البدو والأجانب بوجه عام فيما دون ذلك . ولم ينس إقليم طيبة لهم أنهم عاثوا فساداً فى أرضه مرتزقة ومتسللين بحيث كان منهم من هددوا أمن قرية عمال دير المدينة فى غرب طيبة وتسببوا فى تغيب عمالها عن أعمالهم أحياناً ، واعتدوا عليهم منذ أواخر عصر الرعامسة وشاركوهم أرزاقهم (٢) . وطالت إقامة المهاجرين المتمصرين هؤلاء واستقرت أكبر جالياتهم فى منطقة الفيوم سالفة الذكر وفى منطقة أهناسيا ، بخاصة ، باعتبارهما من المداخل الطبيعية من الواحات إلى وادى النيل ، وباعتبارهما منطقتين مناسبتين للنشاط الرعوى والتجارى ، ثم للاستثمار الزراعى أيضاً ، فضلاً عن قربهما من الصحراء الغربية التى كانوا يمتون إليها ويحنون لها . ويفهم من لوحة أقامها المدعو حور باسن فى رحاب سيرابيوم سقارة فى عهد شاشانق الرابع لتسجيل سلسلة نسبه التى أراد أن يرجع بها إلى أبعد جيل من أسلافه ، أن أكبر أسرهم فى أهناسيا انتسبت إلى جد يدعى بيواوا (أو بويو واوا) عاصر أواخر الرعامسة وتعاقب بعض أولاده وأحفاده على كهانة معبود المنطقة المصرى «حريشف» (٣) ، وقد تزعمهم فى أواسط عصر الأسرة الحادية والعشرين أمير يدعى شاشانق حدث اعتداء على قبر ولده نمرت أو نمرود فى أبيدوس، خلال تولى بانچم رئاسة كهنوت آمون فى طيبة ، فلم يقنع شاشانق بالشكاية إليه واستعان بملك تانيس الذى قيل إنه صحبه إلى وحى آمون ، وقد أفتى الوحى لمصلحته ، وأرضاه الملك بأن أذن له بوضع تمثال لولده فى معبد أوزير فى أبيدوس . وزادت أهمية أسرة شاشانق فى حياة حفيده الذى سمى شاشانق أيضاً وحمل لقب كبير المشاوش أمير الأمراء ، وكان على رأس تجمع كبير يعمل له حسابه وأصبح يترضاه الفرعون نفسه . وقد بلغ من ثرائه أن أوقف على مقصورة تمثال أبيه نمرت ابن السيدة محت وسخة مائة أرورة زراعية وحديقة كبيرة ، وعين لها ٢٥ من الأرقاء لحراستها ، بمعاونة الفرعون «بسوسينيس» الثانى (أو

(١) *ZAeS*, XXI, 69; *JEA*, XIX, 23; *Ancient Records*, V, Index, 53, 88; Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, I, 120.

(٢) *JEA*, XII, 254 f.; XIX, 10 f.; Cerny, *CAH*, II, Part 2 B, 1975, 618.

(٣) Louvre 278; Mariette, *Le Serapeum*.., III, pl. Breasted, A.R., IV, 785 f.

الثالث) المادية والأدبية وقيل إنه دعاه للاشتراك فى عيد جلالته وتلقى المجد معه (١) ثم زوج شاشانق إبنه من إبنة هذا الفرعون الأميرة ماعت كارع ، وبفضل هذه المصاهرة وبفضل قوة جماعته ، كفل لنفسه ولولده «وساركون» من بعده ولاية عرش لم يكن يحلم به ، وهو عرش مصر ، وجعل حاضرته فى بوباسطة بشرق الدلتا قرب العاصمة القديمة بررعمسسو ليكون لعهده مايميزه وفى مقابل إطمئنانه إلى ولاء غرب الدلتا له وإنتشار حلفائه وأقربائه على حدودها . وضمن هذا انتقال الحكم إليه فى ظروف سلمية طبيعية ، كما عمل هو على مهادنة بقايا الأسرة السابقة فاحترم ذكرى آخر ملوكها (٢) ، بل وادعت نصوص بعض خلفائه قرابتهم للرعامسة وتلقب أغلبهم بمثل ألقاب الملوك الرعامسة : وسر ماعت رع ، وستبن رع ، وستبن آمون . وأصبحت أهناسياً مقر إمارتهم القديمة إقطاعاً لفرع من أسرتهم ولى أمورها المدنية والدينية واتسع بحدودها . أما الصعيد فتردد فى التسليم بسلطان الحكم الجديد أمداً ثم سلم بالأمر الواقع . ويبدو أنه حدث حين ذاك أن غادر بعض كبار كهنة طيبة مدينتهم أنفة من الخضوع لأصحاب الأصول الغريبة ، واتجهوا إلى أطراف الحدود المصرية الجنوبية قرب الشلال الرابع .

وهكذا أصبحت السمة الغالبة على تكوين الأسرة المالكة الجديدة وبطانتها وأعوانها ، هى أنها ذات أنساب مهجنة جمعت بين دماء بعض أمراء الصحراء الغربية الأصليين ، ودماء بعض الأميرات المصريات من سليلات الأسرة الملكية الحادية والعشرين ، ودماء بعض أمراء القبائل المهاجرة التى سميت اصطلاحاً باسم شعوب البحر وتوافدت هجراتها المتقطعة، كما سلف ذكره عن طريق البحر المتوسط وجزره إلى سواحل شمال أفريقيا منذ أواخر القرن الثالث عشر ق.م وماتلاها .

وكانت أغلب المؤلفات الحديثة قد جرت على تسمية العناصر الحاكمة فى عهود الأسرات ٢٢-٢٤ بالليبيين . وترى فى تعقيبنا التالى أن وصفهم بالمهجنين أقرب إلى الصحة من تسميتهم بالليبيين ؛ ليس لاستبعاد وجود الليبيين بينهم وإنما بناء على عدة أسباب، منها : أنهم لم يكونوا من عنصر واحد بحيث تصدق عليهم تسمية واحدة ، وأن رؤساءهم غلبت عليهم سمات المشاوش وقلت فيهم سمة الربو أو الليبيين شيئاً فشيئاً

(١) Blackman, "The Stela of Shoshenk, Great chief of the Meshwesh," *JEA*, XXVII, 83 f.; P. Montet, *Tanis*, Paris, 1941.

(٢) Cairo, 42192; *Rec. Trav.* XXXVIII, 10.

فى النصوص المصرية . وقد بدأ شاشانق أول ملوك العصر بلقب رئيس ما الكبير أى رئيس المشاوش وليس رئيس الربو ، وكذلك كان أبوه وجده . وحمل اللقب نفسه تاف نخت رأس الأسرة الرابعة والعشرين إلى جانب ألقاب أخرى قبل ولايته العرش [1] .

وإذا كانت المؤلفات الحديثة المذكورة قد درجت على تسمية هذه الأسر وأعوانها باسم الأسر الليبية، فإنما جرت فى ذلك على التقليد الإغريقى القديم الذى أطلق اسم ليبيا على كل أراضى شمال أفريقيا الواقعة غرب دلتا النيل - دون أن يقصره على حدود دولة ليبيا بمعناها المعروف فى العصر الحديث ، مثلما أطلق لفظ أراضى Arabaia أو الأراضى العربية على كل المناطق الصحراوية الواقعة شرق النيل والممتدة بين شرق أفريقيا وغرب آسيا - دون قصره على شبه الجزيرة العربية بمدلولها المألوف - وكذا إطلاق تعبير أثيوبيا على كل المناطق الواقعة فى جنوب مصر دون قصره على الحبشة بمعناها الحدود) .

ويدعو هذا الاستدراك إلى عرض موجز للتكوين الجنسى والاجتماعى لسكان صحراء مصر الغربية فى العصور القديمة .

فقد رددت المصادر المصرية القديمة منذ أواخر الألف الرابع ق.م فصاعداً ذكر أقرب هؤلاء السكان مكاناً من وادى النيل باسم «ثحنو» أو تحنو ، ونسبت إلى أرضهم التى ذكرت بالاسم نفسه منتجات نباتية وأنعاماً وفيرة ؛ مما يعنى امتداد مراعيها بين غرب الدلتا والسواحل الشمالية والواحات المصرية . وصور كبار أهلها فى بعض مناظر الدولة القديمة خلال النصف الثانى من الألف الثالث ق.م بما يشبه هيئة كبار المصريين فى الملامح والملابس وتصفيف الشعور ، كما اشتركوا معهم فى تقديس بعض أرباب غرب الدلتا لاسيما حور ونيت . وكل ذلك مما يشير إلى وحدة الأصول العرقية البعيدة للفريقين واستمرار الصلات بينهم ، وإن أدت حياة البداوة والشرود التى عاش الثحنو عليها بحكم غلبة الظروف الصحراوية على بيئتهم إلى تعدد التجريدات التأديبية ، التى شنتها القوات المصرية عليهم من حين إلى آخر للتقليل من شغبهم ولتعويدهم على الطاعة .

وإلى الغرب والجنوب من برارى ثحنو ، انتشرت قبائل «ثمحو» فيما يمتد من

---

(١) Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, I, 120; Kitchen, *op. cit.*, 128, 141 and refernces.

الواحة الخارجية إلى واحة سليمة وما ورائها . ولعلهم كانوا أكثر بداوة وشروداً نظراً لبعد ديارهم عن وادى النيل ، ولكنهم لم يكونوا بمعزل تماماً عن مصر وأهلها . فقد انضم بعض جنودهم إلى القوات المساعدة بالجيش المصرى تحت قيادة ونى خلال القرن ٢٤ ق.م فى عصر الأسرة السادسة . وصورت بعض المناظر عدداً منهم يشاركون برقصاتهم الخاصة فى بعض المناسبات الدينية ؛ مما يعنى تردد بعض جماعاتهم على القرى والمدن المصرية من حين إلى آخر .

ولايخلو من دلالة أن نتائج الكشوف الأثرية التى بدأها مشروع دراسة الصحارى فى هيئة الآثار المصرية وتوسعت فيها بعثة فرنسية فى منطقة بلاط والواحة الخارجية وإلى حد ما بعثة كندية فى الواحة الداخلة أيضاً ، أظهرت أن الواحات الغربية المصرية قطعت شوطاً كبيراً منذ الدولة القديمة فى الأخذ بأساليب سكان الحضر المصريين ، فى الألقاب والوظائف والعقائد والمبانى والمقابر ؛ مما أكد اعتبارها جزءاً أصيلاً من الدولة المصرية [١] .

ولم يظهر اسم ربو أو الليبيين فى النصوص المصرية القديمة قبل عهد رمسيس الثانى (أو سيتى الأول) فى بداية القرن الثالث عشر ق.م. ولم يعبر حين ذاك عن دولة أو شعب ، وإنما كقبيلة وجنود مرتزقة . وذكرت نصوص ولده مرنبتاح ماسبق الاستشهاد به من أن شدة القحط فى الصحارى دفعتهم مع خمس قبائل أخرى بقضهم وقضيضهم إلى أن يجتازوا البرارى ليصلوا إلى أراضى الدلتا الخصيبة ، لولا أن لاقاهم بجيشه وأفشل مسعاهم ، وكان ذلك من بواعث فخره . وتكرر شغب المهاجرين فى عهد رمسيس الثالث على نحو ماجرى ذكره فى حينه ، وشجعتهم أو دفعتهم أمامها هجرات قبلية أخرى ، وترأسهم الشيخ كابور وولده مشاشار ، فاكتسحوا أرض ثحنو ووصل تسريبهم إلى ماوراء الفرع الكانوبى للدلتا ، إلى أن صدتهم القوات المصرية وأسرت مشاشار – ابن قائدهم وسفكت دمه . ثم مالت بعض الجماعات

(١) Holscher, *Libyer und Aegypter*, 12f., 24f.; Gardiner, *op. cit.*, I, 101 f., 116-119; *ZAeS*, LII, 57 f.; *Archaic Objects*, pl. 64; Borchardt, *Sahure*, II, pl. 1; *Ne-user-Re*, pl. 10; Jequier, *Pepti* II, pl. 9; *Urk.*, I, 101, 16; *Sinuhe*, R 14, 15-16, etc.
A.J. Spalinger, *JSSEA*, IX, No. 3, June 1979, 125-160; Recently, B. Redford, *The Oases in Egyptian History...*, Parts I-IV, *Canadion Dakhleh Oasis Project, Reports on Seasons* 1978-82, 1984-86.

القبلية من هؤلاء إلى إيثار السلم وعاشت على الأطراف الصحراوية وفى الواحات سيما الواحة الداخلة ، واختلطت بأهلها القدامى ... ولونت حياتها البدوية شيئاً فشيئاً بطابع الحياة المصرية المستقرة . وعمل بعض أفرادها جنوداً مرتزقة فى الجيوش المصرية . ويبدو أن بطونا أخرى من قبائل ربو وما شابهها من القبائل كانت قد نزلت من قبل فى نواحى برقة وطرابلس ، واستقرت فيها على مبعدة ممن استقروا على الحدود والواحات المصرية ، وكانت أشد أثراً منهم فى بيئتها الجديدة حيث خلعت اسمها ومسماها على الأرض التى نزلتها ولاتزال تعرف به حتى الآن .

وصورت المصادر المصرية بعد الربو بشعور حمراء وعيون تميل إلى الزرقة وجدائل تصل إلى الكتفين ، وقد اعتادوا الوشم على الذراعين وربما على الساقين أيضاً، وكان عظماؤهم يرتدون نقبة ورداء مزركشاً يغطى كتفاً واحدة ، ولايختتنون ؛ مما يشهد بأصولهم الطارئة على البيئة التى نزلوا فيها .

أسلفنا القول بأن ذكر الربو كان قليلاً بعض الشيء فى أوائل العصور المتأخرة وزاد عنه ذكر قبائل مشوش أو المشاوش . وكان هؤلاء أقدم عهداً منهم بحيث ذكرتهم مصادر عهد أمنحوتب الثالث فى أوائل القرن الرابع عشر ق.م ، وكانوا يلبسون قراب العورة واعتادوا الختان ، ربما تأثراً بالعادات المصرية ودليلاً على تشبعهم بها نتيجة لطول إتصالهما بالجماعات المستقرة فى المناطق الحدودية . وقد إنتسبت أكبر أسرهم فى إقليم أهناسيا إلى الجد بيواوا أو بويو واوا ، الذى تعاقب بعده بعض أولاده وأحفاده على كهانة المعبود المصرى حريشف كما أسلفنا (١) .

ولابأس من الإشارة إلى رأى يصل بين المشاوش من حيث الموطن ومن حيث لقب رؤساء ما ، وبين منطقة شط الجريد جنوب قرطاج (٢) ، وهى صلة يصعب تقرير زمنها كما يصعب تحديد الجانب المؤثر فيها .

وإذا كان لامناص من الاعتراف بأن أسماء ملوك العصر مثل شاشانق (الذى ذكر فى الأشورية بصيغة شوشنقو ، وفى العبرية شوشق وشيشق ، وفى الإغريقية سيسو نخيس) ، وأسماء وساركون وتكرنى وما إليها ، هى أسماء ذات جرس غريب

---

(١) Holscher, *op. cit.*, 32 f.; Gardiner, *op. cit.*, 120 f.; Breasted. *AR*, IV, 785 f.; G.A. Wainwright, The Meshwesh. *AE*, 1962, 89 f.

(٢) See'O. Bates, *The Eastern Libyans* (rev. JEA, 1971, 212).

عن الأسماء المصرية المألوفة ، وتصعب ترجمة مدلولاتها ، إلا أنه يلاحظ أن شيوخ الجماعات ذات الأصول القبلية أو البدوية لايزالون يحتفظون بأسماء وكنيات قلما استخدمت أمثالها فى مناطق الحضر . وقد جرى كل من الملوك المهجنين على صياغة ألقابه الملكية الأربعة الأخرى على نسق الطابع المصرى الموروث . فصاغوا أغلبها على مثال ألقاب الملوك الرعامسة، وتلقب أولهم بلقب أول ملوك الأسرة الحادية والعشرين السابقة لعصرهم ، وهو حج خبر رع ، وترجموا فى هذه الألقاب عن ولائهم للأرباب المصريين الكبار رع وآمون وإيسة وباسطة ؛ تدليلاً على استغراقهم فى الحياة المصرية ، ولو من حيث الظاهر على أقل تقدير . واستمرت عهود كبار هؤلاء الحكام ذوى الأصول المهجنة أكثر من قرنين ، تناسوا فيهما أصلهم الغريب نوعاً ، واعتادوا أن يعتبروا أنفسهم فراعنة مصريين ودانوا بديانة مصر كما ذكرنا ، ثم حاربوا باسمها خارج حدودها ، وحاولوا أن يستعيدوا لها بعض سمعتها الدولية القديمة ، فكانت عهودهم بذلك أقرب فى بعض نواحليها إلى مجهود المماليك ، فيما بعد خلال العصور الوسطى ، لم يعتبرهم التاريخ أغراباً بقدر ما اعتبرهم متمصرين مغتصبين ، ولم يؤثروا فى الروح المصرية بقدر ما تأثروا هم بها ، ولم يمنع اغتصابهم لعرش البلاد من أن يظهر بينهم حكام مصلحون ، ولم تمنعهم أصولهم المهجنة من أن يخلصوا لسمعة مصر واستقلالها وتوسيع حدودها ، ولم يرض أهل البلاد بحكمهم بقدر ماقبلوه على مضض ومرارة . ولاضرورة إلى أن نضيف بعد ذلك أن طول العهد بالحكام ذوى الأصول الأجنبية فى بعض الدول الأوروبية الحديثة نفسها ، قد جعل شعوبهم تتناسى أصولهم ، فليس فى بريطانيا من يهتم برجوع نسب الأسرة المالكة فى بلاده إلى النورمان ، ولم يكن فى بلاد اليونان من يهتم برجوع نسب أسرتها الملكية السابقة إلى الجرمان . ولم تقتصر أوجه الشبه التى عقدناها بين حكام بداية العصور المتأخرة المهجنين ومماليك العصور الوسطى مع اتساع الشقة الزمنية بينهما ، على ما أسلفناه منها ، وإنما تتضح كذلك فى أن التنافس على السلطة العليا ظل شديداً بين كبرائهم مثلهم ، فتخللت عهودهم فترات من الانشقاق وتفرق الكلمة ، بحيث ظهرت منهم كما ألمحنا من قبل ثلاث أسر حاكمة فى مدى القرنين ، وتعاقب منهم ملوك كثيرون ، شاعت بينهم أسماء : شاشانق (لما بين الأربعة وبين السبعة) ، ووساركون (لثلاثة أو أربعة) ، وتكرتى (أو تكلوت لاثنين أو ثلاثة) ، وبامى (أو بامـاى) ، وبادى باسطة (رأس الأسرة الثالثة والعشرين) ، ثم تاف نخت ، وباكن رنف (بوخوريس) ، ملكى

الأسرة الرابعة والعشرين . ومن أسماء العرش المعروفة لبعض هؤلاء الملوك أسماء : حج خبر رع (شاشانق الأول) ، وسخم خبر رع (وساركون الأول) ، وسر ماعت رع (تكرتى الأول) ، وسر ماعت رع - ستبن آمون (وساركون الثانى) ، وحج خبر رع - وسا إيسة (تكرتى الثانى) وسر ماعت رع - سا باسطة (شاشانق الثالث) ، وسر ماعت رع (باماى) ، وعا خبر رع (شاشانق الرابع) .. إلخ ، مع بعض الشك فى ترتيب تعاقبهم[1] ، ولن نبحث فى أمر كل واحد من هؤلاء على حدة ، وإنما نكتفى بالخصائص العامة لعصرهم فى وحدة واحدة .

ففى أسلوب الحكم الداخلى ، رسم أولئك الملوك سياسة بعيدة المدى إزاء طيبة ذات المكانة السياسية والدينية التليدة لاسيما بعد أن اصطدموا بها فى بداية عصرهم . فعمل أغلبهم على أن يعين كل منهم أحد أولاده كبيراً لكهنة آمون فيها لكى يكفل لأسرته عن طريقه السلطة السياسية والسلطة الروحية معاً ولكى يكون له ولها نصيب الأسد من ثروات معابد آمون الطائلة ؛ إلى جانب صبغ نفوذه بصبغة حربية فى الوقت نفسه بتلقيبه بلقب قائد الجيش ، ربما تبريراً لوضع فرق من الجيش تحت إمرته لتأييده فى مركزه . وتعمد بعضهم أن يزيد تدعيم مركز ولده فى هذا المنصب فسمح له بأن يسجل اسمه داخل خرطوش شأنه شأن الملوك ، أى إنهم استفادوا من سابقة النظام الثيوقراطى بشقيها فى عصر الأسرة الحادية والعشرين لمصلحتهم ، ثم زاد وساركون الثالث أحد ملوك الأسرة الثالثة والعشرين فعين ابنته «شبن وبة (أو شبن وبة) كبيرة لكاهنات طيبة حرماً مقدساً لإلهها آمون أو زوجة إلهية ، وضمن لها سلطات كهنوتية ومدنية تفوق سلطات كبير الكهنة نفسه[2] . (وقد سبقت لهذا سابقة أيضاً فى عصر الأسرة الحادية والعشرين ولكن باعتبار الأميرة زوجة لكبير الكهنة ذى الأصل الطيبى) ، وتأيدت مكانتها باعتبارها عابدة للإله متبتلة أو مترهبة له .

ومع نفوذ الأمراء والأميرات كان للملوك أتباع يلقبون بلقب عيون الملك ، يتولون تنفيذ سياستهم فى رداء مدنى أو كهنوتى . وتعددت إنعامات الملوك هؤلاء وهؤلاء إلى نفر من الأمراء القدامى المهجنين والمصريين أصهروا إلى الملوك

(١) Gauthier, Livre des Rois, III, 307 f., K. Baer, *JNES*, 32 (1973), 4-25; Kitchen, *op. cit.*, 467.

(٢) Sander-Hansen, *Das Gottesweib des Amun*, Copenhagen, 1940.

وتزوجوا من بناتهم ، ومع هذه الظروف اتضحت طبقة إقطاعية كبيرة غنية تزايدت أعدادها وثرواتها وتوافر لها نفوذ كبير فى حكم الأقاليم [١] . وحدث فى أواخر العصر أن تكونت فى المجتمع طبقة من المحاربين ، كان أغلب أفرادها من مهجنى الأصل أنصار الحكام ، ذكرتهم بعض المصادر الإغريقية باسم «ماخيموى» ، وأصبحت العسكرية معهم هدفاً يرنو إليه أفراد الأسر الوسطى منهم ويتوارثونها ولداً عن والد ، ويحصلون عن طريقها على إقطاعيات زراعية صغيرة مناسبة ، فظهرت بذلك طبقة متماسكة منطوية على نفسها من العسكريين . وربما اتخذ مثل هذا التقليد سبيله إلى صفوف بعض الكهنة وأسرهم أيضاً [٢] ، ومن هنا تناقل بعض المؤرخين الإغريق فكرتهم الخاطئة منذ القرن السابع ق.م عن قيام الحياة الاجتماعية فى مصر، على أساس الطبقات المهنية .

وكعادة الحكام ذوى الأصل الخليط ، أظهر ملوك العصر اهتماماً مفرطاً بالدين ومعابده ، بل وبسخافات لم يكن لها من قبل غير ظلال خفيفة ، ومنها شدة اهتمامهم بعجول المعبود حاب أو أبيس ، ودفنها فيما عرف فيما بعد باسم سيرابيوم سقارة [٣] . وخصصوا أغلب عمائرهم الدينية لإله الدولة آمون شأنهم شأن سابقيهم ، ولو أنها لم تبلغ فى روائها رغم فخامتها مابلغته معابد الدولة الحديثة . ويذكر لشاشانق الأول (أو لابنه إيوت الذى عينه كبيراً لكنهة آمون) إنشاء المدخل البوباسطى فى سور الكرنك الرئيسى الذى يمتد غرباً مع الجدار الجنوبى لبهو الأساطين الكبير ، فى طريق الفناء الأول المتسع الذى يبدو أن شاشانق بدأه ولم يتمه . كما بدأ الصرح الأول أكبر صروح الكرنك ولو أنه لم تنقش جدرانه . وحين شيدت بوابة عيد السد فى بوباسطة فى عهد ساركون الثانى ، وهى بوابة ضخمة من الجرانيت ، أعلن الملك فى نقوشها اعترافاً بفضل آمون عليه فى عيده ، تحرير طيبة بطولها وعرضها طاهرة مزينة لربها . وأمر ألا يتدخل مفتشو القصر الملكى فى شئونها وأن تتمتع بالإعفاء إلى الأبد باسم ربها الكريم ، وربما كان هذا اعترافاً بالأمر الواقع من تمتعها بنوع من الاستقلال الداخلى . ولم يمنع هذا طيبة من الثورات ضد المتسيطرين الجدد بين كل حين وآخر،

(١) H. Kees, *Ancient Egypt*, 283-284.

(٢) ألكسندر شارف : تاريخ مصر – ص١٦٣.

وذكر هيرودوت أيضاً (تجـ٢-١٦٨) تسمية كالاسيرى وتسمية هرموتوبيس .

(٣) Mariette, *Le Serapeum de Memphis*, pls. 24, 26-28; JEA, XXXIV, pl. 15 f.

فقد ثار بعض أهلها عدة مرات فى عهد وساركون الكاهن الأكبر ابن الملك تكرتى (تكلوت) الثانى ، الذى سجلت باسمه عدة نصوص على البوابة البوباسطية ، ثم فى عهد إبنه شاشانق الثالث . واشتد بعض ملوك العصر فى إخماد ثورات طيبة حرصاً على مصالحهم وهيبة سلطانهم فيها ، بحيث ألقوا بعض زعمائها فى النار أحياناً [1] .

وتطلعت السياسية الخارجية إلى فلسطين وماورائها ، وفتحت مصر أبوابها أمام الفارين من وجه سليمان ، كما فعلت من قبل فى عهد أبيه . فآوت يربعام منافس سليمان ، وكان من نسل أفرايم ووعده أحد الأنبياء بالملك ولكن سليمان أراد الفتك به[2] . ولما توفى سليمان وحقت كلمة الرب على اليهود بتمزيق وحدتهم ، أيد أول (أو أحد أوائل) من تسموا باسم شاشانق من ملوك الأسرة يربعام المنافس القديم لسليمان فى حكم عشرة من أسباط إسرائيل بحيث لم يتبق لرحبعام بن سليمان غير سبط يهوذا وحده (أو هو وبنيامين) [3]. ثم استعرض شاشانق هذا قوة مصر مع ابن سليمان ، وخرج بجيشه ودمر عاصمته أورشليم وغنم كنوز داود وسليمان ، وكان منها ٢٠٠ درع ، و ٣٠٠ ترس من الذهب المطروق ، أو كما روى أحد أسفار التوراة «أخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء ، وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان ، فعمل رحبعام عوضاً عنها أتراس نحاس»[4]. وترك شاشانق بعض آثاره فى مجدو وغيرها من مدن فلسطين .

ولما كان نصره الحربى قد وافى بعد خمول طويل أطنب أعوانه فى الإعادة به فى رواقه بالكرنك وسجلوا أسماء ١٣٥ منطقة فى طاعته (بقى منها نحو ٧٥اسماً) وربما نقلوا بعضها من قوائم ملوك مصريين سابقين [5] .

وعلى أية حال ، فقد عادت حملة شاشانق هذه بفوائد شتى ، فاستعادت مصر بها جانباً من سمعتها الدولية القديمة ، واستعادت سعة صلاتها بفينيقيا وأمرائها ، واستحب بعض هؤلاء الأمراء أن يتقبلوا ويقيموا التماثيل والنصب بأسماء ملوك مصر

(١) *Rec. Trav.*, XXII, 55; XXXI, 6; XXXV, 138.

(٢) الملوك الأول ١١ : ٤٠ .

(٣) نفس السفر ١٤ : ٢٥-٢٧ .

(٤) نفس السفر ١٢ : ١٦-٢٠ .

(٥) D. M. Noth. Die Shoschenkliste, *ZDPV*, LX, 277 f.; Porter and Moss, *Topographical Bilbliography*, VII, 381; Gardiner, *op. cit.*, 330.

فى معابدهم ؛ ومنها تماثيل لكل من شاشانق الأول ووساركون الأول [1] . وأفاضت الحملة على مصر فى الوقت نفسه غنائم وثروات استغلها الملوك فى مواصلة الترف القديم وزيادة مبانى المعابد .

ولما طال الأمد بالحكام ذوى الأصل المهجن . وتشعبت أسرهم ومصالحها ، تفرقت وحدتهم ، وانتهى الأمر بأن ادعى الملك فيهم ثلاثة بيوتات ، بيتان مالكان فى شرق الدلتا ، فى تانيس وبوبسطة ، وبيت ثالث فى سايس (صا الحجر قرب فرع رشيد بغرب الدلتا) ، فضلاً عن عدد ممن أشرنا إليهم من الأمراء الإقطاعيين فى مصر الوسطى وربما الصعيد أيضاً . ومن طريف ماذكره مانيتون عن هؤلاء وهؤلاء قوله بأن أحد ملوكهم الذى ذكره باسم بتوباسنيس (وهو بادى باسطة) رأس الأسرة الثالثة والعشرين ، قد عاصر أول أولمبياد عرفه الإغريق (حوالى عام ٧٧٦ ق.م) .

ولاغرابة إذاً مع اختلاف الآراء الحديثة فى شأن تعاقب هؤلاء الملوك ، أن نجد هذا المؤرخ المصرى القديم مانيتون قد أشكل عليه عددهم وغابت عنه بعض أسمائهم، وإن لم يتجاور الحقيقة كثيراً فى افتراض نحو ٢١٥ عاماً لمجموع مدد حكمهم . وقد روى عنه أفريكانوس أنه حكم خلال عصر الأسرة الثانية والعشرين تسعة ملوك من بوباسطة ، وهم : سيسونخيس (لفترة ٢١ عاماً) ووسرثون (لفترة ١٥ عاماً) وثلاثة آخرون (لفترة ٢٥ عاماً) ، وتاكيلوتيس (لفترة ١٣عاماً) ، وثلاثة آخرون (لفترة ٤٢عاماً) – وبهذا بلغت مدد حكمهم جميعاً ١٢٠ عاماً . وتعاقب أربعة ملوك من تانيس فى عصر الأسرة الثالثة والعشرين خلال ٨٩ عاماً ، وهم : بتوباستيس (لفترة ٨ سنوات) ، وبساموس (لفترة ١٠سنوات) ، وچت (لفترة ٣١ عاماً) . وخلال عصر الأسرة الرابعة والعشرين حكم بوخوريس من سايس لفترة ست سنوات وكان أبوه تخناكتيس ، (وعدل أفريكانوس بعض هذه الأسماء)[2] .

وأخيراً أسفر التنافس بين أدعياء الملك إلى غلبة أمير صا الحجر (سايس) تاف نخت (أو تايف نخت) رأس الأسرة الرابعة والعشرين، فحاول أن يعيد وحدة البلاد باسمه ، ونجح فى إعادة الاستقرار إلى الدلتا ومصر الوسطى ، ولكنه مالبث أن واجهته قوة جديدة فى عام ٧٣٠ ق.م هزت ملكه هزاً ، وهى قوة حكام نباتاً الذين

---

(١) R. Dussaud, *Syria*, V, 145 f.; VI, 101 f.; Porter and Moss, op. cit., VII, 388.

(٢) E. Meyer, *Geschichte*,..., 30-42; *Sitz. B. Berl.*. Ak.. 1928, 521-529.

نجحوا فى إقامة الأسرة الخامسة والعشرين على عرش مصر ، معاصرة لأسرته فى أغلب عصرها ، وهم موضوع بحثنا التالى ، وسوف نتناول سياسة كل من تاف نخت، وولده باكن رنف (أو بوخوريس) فى سياق هذا البحث الأخير .

وعندما واجه أواخر ملوك الأسرات المهجنة ملك نباتا بيعنخى فى مصر كانت تفتت السلطة بينهم قد بلغ مداه ، إذ ولى حينذاك وساركون الرابع على عرش بوبسطة، وولى شاشانق الخامس على عرش تانيس بعد عهد قصير للملك شاشانق الرابع والملك بامى ، كما ولى تاف نخت على عرش سايس[1]. بل وادعى ألقاب الملكية عدد آخر من كبار الأمراء، الذين ارتبطوا بالأسرة المالكة السابقة بروابط القرابة والنسب ، ومنهم يوويت فى ثنت رمو ، ويفنف دى باسطة فى أهناسيا ، ونمرود أو نمرت فى الأشمونين ... إلخ .

* * *

(١) F. Gomaa, *Die Libyschen Furstentumer des Deltas*, 1974.

ثانياً - دفع النوبة العليا لمصر فى عصر الأسرة الخامسة والعشرين (٧٣٠-٦٦٥ ق.م)

ولى الحكم فى أغلب هذا العصر قادة من نباتا (أو نبتا) فى منطقة كاش بالنوبة العليا . ولم يكن هؤلاء بدورهم أغراباً عن مصر وحضارتها ، ولم يعتبروا أنفسهم دخلاء أو غزاة ، وإنما رددوا فى متونهم أنهم أحلاف لطيبة وأتباع العقيدة الصحيحة لإلهها الأكبر آمون . ومن المحتمل كما قدمنا أن بعض أسلاف زعمائهم كانوا من كبار أهل طيبة وغادروها أنفة من الخضوع للمهجنين المتمصرين فى بداية تسيطرهم، ولحق بهم بعض من نفاهم شاشانق وتكرتى الثانى[١] ، ونزحوا بعيداً إلى أقصى الحدود المصرية قرب الشلال الرابع حيث ينهض جبل برقل الذى اعتبرته نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً وعرشاً مقدساً لآمون فى الجنوب ، وهو جبل أوتل منفرد مسطح يشرف على صحراء حصباء ، وتنحدر جوانبه بشدة بحيث يظهر جانبه الجنوبى قائماً على هيئة المخروط . وقامت عند سفحه فوق سهل متسع يبعد عن النهر بنحو ميل مدينة أشرفت على طريق القوافل المتجهة إلى السودان ، وعمرتها معابد ومبان مصرية الطابع . وكانت قد نسبت فى بداية أمرها إلى الفرعون تحوتمس الثالث فى تسميتها «تحوتمس ذابح الأجانب» واعتبرت حداً جنوبياً لولاية نائب الملك فى كاش فى عهد توت عنخ آمون ، نظراً لأهميتها الاستراتيجية . واستمرت على ذكرها بعض مصادر عصور الرعمسة ، ثم اشتهرت باسم نبتا أو نباتا[٢] . ووجد أولئك النازحون ضالتهم فى الاستقرار بمنطقتها المتشبعة بالحضارة المصرية والبعيدة نوعاً عن مظان الغزو ، وربما وجدوا سبيلهم إلى النفوذ فيها عن طريق رئاسة الدين وتولى وحى آمون ، ثم اشتركوا فى رئاساتها باعتبارها عاصمة لدويلة ثيوقراطية وفوا فيها لعبادة آمون ولعقيدة أوزير وللكتابة المصرية [٣] ، لاسيما وقد تشابه اسم أكبر ملوكها بيعنخى إلى حد ما مع الاسم المصرى باى عنخ ابن

---

(١) Et. Drioton et J. Vandier, *L'Egypte*, 511; Kees, *Ancient Egypt*, 340.
الكسندر شارف : المرجع السابق - ص١٧٠ .

(٢) Kees, *op. cit., JEA*, XXXII, pl. 11.

(٣) Drioton et Vandier, *op. cit.*, 538, 543, *JEA*, IV, 213 f.; V, 99 f.; VI, 247 f.; *ZAeS*, LXVI, 76 f.; Griffith, in *Liverpool Annals*, X, 73 f.; Dunham, *El-Kurru*, 1950.

حريحور كبير الكهنة فى نهاية عصر الأسرة ٢٠ ، وحملت أخته الاسم المصرى أمون رديس ، وحمل معها بعض أمرائها وأميراتها فى مصر أسماء مصرية ، كما أخذت بعض مقابرهم بالشكل الهرمى المحور ، وجاورتها فى جبانة كورو دفنات لكتبة وكهنة وفنانين مصريين، وسدوا فى توابيت ذات هيئة بشرية وربما عاصروا بداية الأسرة . وإن جمعوا إلى هذه الصبغة المصرية بحكم اندماجهم فى البيئة الجنوبية خليطاً من الملامح واللهجات النوبية والسودانية والزنجية ، وربما من دماء القبائل الليبية الجنوبية أيضاً .

وعلى العكس من هذا الرأى استبعد ألن جاردنر مصريتهم على أساس أن أسماء حكامهم أسماء غير مصرية، وافترض أن دماء جديدة وفدت عليهم فى النوبة وجددت حيويتهم ، ولكنه لم يعين أصحاب هذه الدماء .

ورأى جورج ريزنر أن الدماء الجديدة كنت لعنصر ليبى أبيض، اخترق درب الأربعين حتى دنقلة فيما يعاصر بداية عصر الأسرة ٢٢ ، واستطاع زعيمه أن يسيطر على عمل نائب الملك فى النوبة وامتاز قومه بالمهارة فى الفروسية وتربية الخيول . واحتج بتشابه ٣٢ رأس سهم مجنحة من الكوارتز وجدت فى مقابر زعمائهم فى كورو بالنوبة مع سهام ليبية ، ثم تلقيب زوجة بيعنخى – تابيرى – بلقب عظيمة التحنو – أو سيدة الليبيين . ولكن يلاحظ فيما نذكره بعد قليل أن نصا من عهد بيعنخى قد سلك الليبيين مع من سماهم بالأنجاس ، وهو مالا يتفق مع القرابة المزعومة بينه وبينهم – كما قد يكون تشابه أسلحتهم مع الأسلحة الليبية التى يصعب تأريخها تشابها عرضياً لايدل بالضرورة على وحدة الأصل الجنسى ، لاسيما وأنه وجد فى مقابلها ٣٩ رأس سهم محلى . أما عن لقب زوجة بيعنجى فقد قرئ أيضاً عظيمة خاستيو أى عظيمة البرارى أو الأقطار الأجنبية . وثمة رأى ثالث أراد أن يغلب الطابع الأفريقى الأسود لدولة نباتا على أساس الملامح الزنجية ولبس الأقراط وزواج المحارم ، وأخذ الأسرة الحاكمة فيها بتقليد توريث العرش لأكبر أمرائها، وبالتالى من الأخ إلى الأخ الذى يليه إذا زاد سنه عن سن الابن الأكبر ، ونهاية بعض أسماء ملوكها بمقطع كا أو قا بمعنى المبجل مثل شباكا وشبتكا وتاهرقا ، وظهور المحلية الأفريقية فى هيئة بعض المقابر وعادات الدفن ، مثل: بناء مقابر دائرية، ووضع المتوفى على سرير والتضحية بالأتباع ، أو دفنهم أحياء مع سادتهم ، ودفن الخيول مع أصحابها .

ونمت دولة نباتا شيئاً فشيئاً حتى أحس ملوكها البأس من أنفسهم، وتتبعوا نتائج التفكك فى جهاز الحكم القائم فى مصر وعملوا على استغلالها ، فعادوا بجنود من مملكتهم الجديدة إلى مصر، التى اعتبروها أمهم وحاولوا تبديل أوضاعها . وترأسهم حين مهدوا لمشروعهم ذاك ملك يدعى «كاشت» أو كاشتا (ربما بمعنى الكاشى) بعد أن ورث سلفه ألارا . ولاندرى شيئاً مؤكداً عن خطوات كاشتا ، ولكن يفهم من نصوص أبنائه أنه مهد للأمر باتصالات ومحالفات مع زعماء طيبة ، وربما أيدهم بجنود ساعدوهم ضد أواخر الملوك المهجنين المتمصرين ، فى ظل الوضع الخاص أو الاستقلال الذاتى الذى نعمت به مدينتهم ، ولكن لم يطل عهده [1].

وجرى على سياسته ولده بيعنخى ذو الاسم المصرى الصبغة فضلاً على تلقبه باسم مصرى آخر وهو وسرماعت رع – سنفررع ، وإن قرأ بعض الباحثين اسمه الشخصى «بى» واعتبر لفظ عنخ لقباً له وأمنية له بالحياة (السعيدة) . ونسبت إليه نصوصه التى سجلها كتبته باللغة المصرية على نصيب حجرى كبير أقامه فى العام ٢٢ من حكمه فى معبد آمون فى بيانا ، مهارة فائقة فى القيادة وفنون الحصار ، واستخدام العقائد فى التأثير السيكلوجى على الناس ، رغم بساطة المجتمع الذى نشأ فيه فى بيئته الجنوبية القصية . وكان كما تحدثت عنه نصوص يتابع مجريات الأمور فى مصر ويضحك منها ، ثم تخطاها إلى التدخل العسكرى المباشر فى العام التاسع عشر أو العشرين من حكمه مدعياً أن ضباطه وحلفاءه فى طيبة راسلوه بقولهم : «هل ستسكت عنا وتنسى الصعيد بينما يتقدم تاف نخت دون مقاوم ؟» . وكان تاف نخت رأس الأسرة الرابعة والعشرين قد مضى فى تقدمه جنوباً فعلاً ووجد الاستجابة من رصفائه حكام أقاليم الدلتا ومصر الوسطى ، وكان من أكبرهم نمرت أو نمرود حاكم حت ور بجوار الأشمونين . وسواء تحرى كتبة بيعنخى الدقة فى نصوصه أم بالغوا فيها ، فإن ما جاء بها عن وصيته لجنوده المتجهين إلى مصر يعتبر من جيد الكلم ودليل الحصافة فى عصره ، فقد أوصاهم ألا يبدأوا بعدوان وألا يحاربوا ليلاً، وأن يتركوا خصمهم يختار زمن الحرب ، ويكونوا عندها على يقين من أن الاله آمون قد أرسلهم بنفسه ، ثم أكد عليهم ألايواجهوا معبد آمون بعدة الحرب ، وإنما يعتبرون

(١) *Cf.* Dows Dunham and M. Macadam, *JEA*, XXXV, 139 f.; H. Von Zeissl, *Aethiopen und Assyrer in Aegypten*, 1955; *ZAeS*, 1963, 74 f.

شارف : المرجع السابق – ص١٧١ .

أنفسهم حجاج مدينته ، فيتطهروا فى نهرها ، ويلبسوا الكتان الأبيض ، وينزعوا سهامهم ويريحوا أقواسهم ، ولايتفاخروا ببأسهم فى رحاب ربها «فبدون آمون لاشجاعة لشجاع ، وهو الذى يشد أزر الضعفاء حتى لتهزم الكثرة أمام القلة ويغلب الواحد ألفا .. وحثهم على التقرب إلى آمون وتقبيل الأرض بين يديه ودعوته إلى هدايتهم إلى سواء السبيل . وتملق رجال الجيش ملكهم كالعادة فألقوا بأنفسهم أمامه، وقالوا إن اسمه هو الذى يهبهم القدرة وتوجيهاته هى التى تفتح لهم الطريق ، وشهرته هى التى تبث الرهبة منهم ، وما انتصر جيش بغير قائد شجاع [١] .

ورغم هذه التقوى الظاهرة، لم يتورع بيعنخى عن شدة العنف مع خصومه فى مدن مصر الوسطى مثل الأشمونيين وأهناسيا والحيبة ، وأنب ضباطه بشدة على عجزهم أمامهم ، وقاد الجيش بنفسه للفتك بهم، وتغلب على حصانة الأشمونين بتكليف رجاله بعمل مطلع مرتفع حول أسوارها ليصعد الرماة عليه إلى برج خفيف بنى فوقه، ووضع آلات (؟) تساعد على دفع السهام وأحجار المقالع إلى قلب المدينة . وشجعته انتصاراته على أن يعلن على مدن الفيوم وماحولها أن ليس أمامها إلا أن تفتح أبوابها فتعيش ، أو أن توصد أبوابها فتموت . ودانت له هذه المدن بالطاعة ولكن مدينة منف الكبيرة استعصمت بحصونها وكثرة خيراتها . وكان خصمه تاف نخت قد سبقه إليها وشدد عزائم أهلها واطمأن إلى حماية الفيضان المرتفع لناحيتها الشرقية فأتاها بيعنخى من مأمنها أى من الناحية الشرقية التى ظن خصومه أن مياه الفيضان كافية لمنع التقدم إليها ، واستعان جنوده بسفن حلفائه الذين سلموا بحكمه فى الأقاليم المصرية ، وحلوا أمراس سفن منف المشدودة إلى جدران بيوت مينائها ، واستولوا عليها واستخدموها فى نقب أسوار المدينة وعمل جسور تؤدى إلى داخلها ومارس بيعنخى تصرفاته البارعة فى مجال التأثير النفسى ، ومنها إظهار التمسك الشديد بتعاليم الدين، بحيث أبى أن يصافح جماعة من الأمراء ذوى الأصل الليبى المهجن ؛ لأنهم غير مختتنين وغير متطهرين، ويأكلون أنواعاً من السمك يأباها الدين . ويبدو أنهم أرادوا تمثيل بعض أقاليم الصعيد والدلتا التى سيطروا عليها وإظهار الولاء له ، ولم يقابل منهم غير نمرود، الذى لم يعف عنه إلا بعد أن تلقى منه خضوعه وأغلب ثروته وقبل تدخل زوجته وتوسطيها لزوجاته وبناته وأخواته فى التسامح معه . ويمثل

---

(١) *Urk.*, III, 1 f.; *Ancient Records*, IV, 796 f.; A. Spalinger, *SAK* 7 (1979), 273-301.

نصائحه التى أسلفناها والتى حض جنوده خلالها على الاغتسال والتطهر والتواضع وتوقير حرمات آمون ، ثم بإظهار شغفه بزيارة المعابد الكبرى فى طيبة ومنف وعين شمس كأنه متشوف للحج إليها من زمن بعيد ، وإظهار الرفق الشديد بدوا به وحيوانات أعدائه لاسيما الخيول ، بحيث كان يتفقد بنفسه اصطبلات المدن المفتوحة ، وعنف خصمه نمرود تعنيفاً شديداً على عدم رعايته لخيوله ، مع إظهار شيء من التسامح مع بعض خصومه كإبقاء الأمراء المحليين على مناصبهم ماداموا قد أظهروا الطاعة له وانفضوا من حول خصمه الأكبر تاف نخت، الذى أبقاه أخيراً أميراً على سايس، وعفا عن ولده بعد إحدى المعارك فى اللاهون حين اعترف له بالأمر الواقع من سلطانه . ومن اللوحات التى سجلت نصر بيعنخى لوحة صور فيها أمام الثالوث الإلهى لطيبة ، وعن يمينه سيدة قد تكون زوجته أو زوجة نمرود ، يتبعها نمرود يرفع أداة السيستروم ويقود فرساً ، وفى نهاية اللوحة تصوير لثلاثة من الأسر المالكة السابقة وبينهم وساركون يقبلون الأرض بين يديه ، ويحتمل أن يكون قد قسم سلطات الدلتا بينهم ، ثم عدد آخر من الرؤساء الإقليميين .

ونفذ بيعنخى رغبة بدأها أبوه، واستهدف منها تدعيم امتيازات أسرته الدينية والشرفية فى طيبة ، فعمل على تعيين أخته «آمون رديس» كبيرة لكاهناتها وحرماً مقدساً لإلهها [1] ، وهنا لم تسمح له سياسته المرنة بأن يقيل شاغلة المنصب شبتن وبة بنت وساركون الأخير من أجلها ، وإنما جعلها تتبناها حتى تصبح وراثتها لمنصبها ذى الثراء العريض والنفوذ الروحى الكبير وراثة سليمة مشروعة . ويبدو أنه سمى ابنته شبن وبة، وجعل أخته تتبناها لترث سلطاتها من بعدها . وكانت أمثالهن تترهبن لآمون بحكم منصبهن وتدفن بعد الموت فى منطقة دير المدينة . وفى ظل هذه الأوضاع أعلن بيعنخى نفسه فرعوناً مصرياً صريحاً ؛ وعاد إلى نباتا حيث سجل أخباره السابقة على نصب كبير فى معبد آمون فيها .

وهنا استغل تاف نخت (شبسسرع) صلب العود فراغ الميدان الداخلى لمصلحته، فاسترجع سلطانه فى الدلتا والأقاليم القريبة منها ، وكان يعتز بلقب الكهانة للمعبود بتاح رب منف ، ونيت ربة سايس . واستعاد ألقاب الملكية ، ولأمر ما تفاداه بيعنخى ولم يقاومه ، ربما لإحساسه بأنه أدى واجبه إزاء مصر وكفى ، أو لشعوره

(١) يتراوح الرأى عن تنفيذ هذا الإجراء بين عهده و عهد أبيه .

بشعبية تاف نخت بين أتباعه وصعوبة قهره . واستمتع هذا الأخير تاف نخت بسلطاته فى عاصمته سايس عدة سنوات (١) ، وظلت أسرته الرابعة والعشرون تعاصر أسرة بيعنخى الخامسة والعشرين لبعض الوقت ، دون أن تنجح إحداهما فى لم شمل مصر كلها تحت رايتها ، وإن حاولت كل منهما أن تعمل بإسم مصر من ناحيتها . فالتفتت أولاهما ، على الرغم من متاعبها الداخلية ، إلى مساعدة فلسطين ، وكان قد سعى إلى التحالف معها «هوشع» ملك السامرة عاصمة العبرانيين الشمالية ، فقبلت تحالفه (٢) ، وترتب على مساعدتها له أن صمدت عاصمته ثلاث سنوات أمام حصار الأشوريين لها خلال عهد الملك شلما نصر الخامس ، وإن كانت هذه العاصمة مالبثت حتى انهارت بعد أن تغيرت مقادير آشور بولاية ملكها الكبير سرجون (الثانى) ، ففتحها فى العام الأول من حكمه (عام ٧٢١ ق.م) ، وقضى على استقلالها وشرد آلافاً من أهلها (٣) .

وأعقب تاف نخت ولده باكن رنف (واح كارع) على ما امتد سلطانه إليه من الدلتا ومصر الوسطى ، وقد اشتهر فى الروايات الإغريقية بإسم بوخوريس (٤) . وسنح له مجالان لإثبات كيانه فى مجال المنافسة مع حكام عصره ، ففى الخارج واصلت مصر فى عهده سياسة أبيه بتأييد مدن فلسطين فى المحافظة على استقلالها ، فأيدت هانو حاكم غزة الذى كان قد لجأ إليها قبل سنوات وساعدته على تكوين حلف يواجه به التوسع الأشورى وعهدت بمعاونته إلى قائدها فى رفح ، وهو شخص لم تذكره المصادر المصرية وذكرته المصادر الأشورية وقصص التوراة باسم سيبئه (راجع ذكره فيما بعد) ، ولكن مصر فاتها حينذاك أن تقدر إمكانيات سرجون الأشورى إبان عنفونه ، فانهزم حاكم غزة برغم تأييدها له . وبوحى هذه التجربة أيقن باكن رنف أن التيارات الخارجية لن تجرى لصالحه ، وأن عليه أن يبدأ بتدعيم جبهته الداخلية ، وإن ظلت حدود بلده ، على الرغم من وهنها ، ملجأ للائذين بها من ولاة الشام ، فلجأ

(١) Spiegelberg, *Rec. Trav.*, XXV, 190 f.

(٢) الملوك الثانى : ١٧ : ١-٦ .

(٣) Luckenbill, *Ancient Records*, Ii, 4. *ANET*, 282.

(٤) Breasted, *Ancient Records*, IV, 884; A. Moret, *De Bochori Rege*, 1903; M. Révillout, "Bocchoris et son code", *Rev. Eg.*, 1907, 124-141; Posener, *ibid.*, 1969, 148-150.

إليها فى أواخر عهده حاكم أشدود فراراً من الأشوريين .

وليس من نصوص مصرية كافية تصور جهود باكن رنف الداخلية صراحة ، ولكن الروايات الشعبية احتفظت له ولأبيه بذكريات طيبة ، ربما لحرصهما على اجتذاب الأنصار وإرضاء الناس فى عهد ، احتدم التنافس فيه بينهما وبين أضرابهما من بقية الحكام الإقطاعيين المتمصرين من ناحية ، وبينهما وبين بيعنخى ودعاياته الذكية من ناحية أخرى . ويفهم مما سجله المؤرخون الكلاسيكيون عن هذه الروايات أنها اعتبرتهما من أعدل الملوك وأكثرهم استنارة . ولابأس من الاستشهاد ببعض مارواه ديودور الصقلى عن هذين الملكين كنموذج لما بقى لهما من سمعة عريضة وما رتبه لهما من أهمية كبيرة بعد وفاتهما بنحو ثمانية قرون، دون التزام بطبيعة الحال بحرفية روايته ؛ فقد نعت تاف نخت الذى ذكره باسم تنافاختوس Tnaphachthos بالحكيم (فقرة ٤٥) ، وروى أنه زهد فى الملك وحياة الترف بعد حملة خرج فيها إلى بلاد العرب وتعرض خلالها لخطر الجوع مع نفاذ مؤن الجيش وإملاق البيئة ، واضطر من ثم إلى أن يشارك عامة جنوده حياتهم المتواضعة فأنس إلى صحبتهم واطمأن بهم، واعتراه السهد والقلق مما كانوا يعانونه من شظف العيش ، فضاق بالتقاليد التى سمحت للملوك برغد العيش دون غيرهم ،ولعن من بدأها وأمر بنقش لعنته للبادئ بها على معبد آمون فى طيبة ، واعتبر ذلك من عوامل إغفال شهرة منى أول الملوك المصريين وإغفال مجده على مر العصور على حد قوله .

وحظى باكن رنف (أو بوخوريس) بشهرة أعرض من سمعة أبيه فى حياته الخاصة وأثره العام . فروى ديودور أنه كان زرى الهيئة ، وكان أضعف الناس بنية ، وأجشع الملوك قاطبة (فقرة ٦٥ ، وفقرة ٩٤) ولكنه وصفه مع ذلك بأنه رابع المشرعين المصريين ، وأنه فاق كل من سبقوه من الملوك فى حكمته ، وكان عاقلاً امتاز بدهائه ، فنظم جميع شئون الملك وشرع بالتفصيل أصول المعاملات الخاصة ، وكان حيكماً فى قضائه إلى حد أن كثيراً من أحكامه ما زال لفرط سداده مأثوراً إلى أيامه . وكان لسان حال ديودور أو معاصريه ود أن يصوره بمثل ماقيل عن سقراط العظيم من أن دمامة خلقته ورث ثيابه وغرابة أطواره كلها لم تحل دون أن تكون له نفس أكثر صفاء من النور وعقلية فذة وحكمة بالغة .

وروى ديودور من قوانين بوخوريس مايقرب من مبدأ البينة على من ادعى

واليمين على من أنكر ، وهو مبدأ أيدته الوثائق الديموطية فيما بعد ، وفسره ديودور بأن من اتهم بأنه اقترض مالاً دون صك وأنكر الاستدانة يعفى من أداء هذا القرض إذا حلف اليمين على بطلانه ، كأن المشرع قد آثر أن يبدأ بافتراض الثقة فى الناس وفى أيمانهم ، فهم فضلاء حتى يثبت العكس عليهم ، وأراد أن يستشعروا قيمة الأيمان ومخافة الإله ، وأن يقدروا أن من حنث فى أيمانه فقد ثقة الناس به ، وأن يخشوا هذه العاقبة بتجنب الأيمان الكاذبة . ولعل المشرع حين أغفل الاعتداد بالدائن المدعى دون صك قد عنى المرابين أكثر من غيرهم ، فقد قضى أيضاً أنهم حتى إذا أقرضوا الناس أموالاً بصكوك، فليس من حقهم أن يزيدوا أصل القرض إلى أكثر من مثله ؛ مما يعنى أنهم يسرفون قبل عهده فى فرض الربح المركب ويزيدون به أصل القرض إلى أكثر من مثله ، ويبدو أن هذا الربح المركب كان دخيلاً على الحياة المصرية ، نقلته إليها الجماعات الغريبة التى هاجرت إلى مصر وتكاثرت أعدادها فيما خلال العصور المتأخرة .

ونسب إلى بوخوريس تجريم شهادة الزور بدنياً ، وتجريم من يحول مياه الرى عن جاره فى غير موعده .

وسجل ديودور بالتقدير أنه قضى بأن يكون استيفاء القرض من ممتلكات المدين وحدها وليس من شخصه ، ولم يجز قط أن يكون شخص المدين فى أى ظرف من الظروف رهينة للدين . وقدم ديودور لذلك تعليلاً طريفاً ، وهو أن الأرض للذين يعملون عليها واكتسبوها بجدهم أو وهبت لهم من الغير ، أما البشر المواطنون فهم ملك الدولة تستأديهم مالها عليهم من واجبات فى الحرب والسلم ، ومن الخطأ البين أن يقبض على المدين وفاء لدينه وهو يواجه الأخطار دفاعاً عن بلاده فيكون من أثر ذلك أن تتعرض سلامة الجميع للخطر من جراء جشع بعض الناس . ولم يستبعد ديودور أن يكون سولون قد نقل هذا التشريع إلى أثينا فيما سماه تخفيف الالتزامات أو التخلص من الحمول، وحرم بمقتضاه استرقاق المدين ، وألغى الديون التى كان ضمانها شخص المدين (أو أنقصها) .

ولاجدال فى براعة التعليل الذى ساقه ديودور ، ولاشك كذلك فى أن القول بأن سولون المشرع الأثينى العظيم قد اقتبس بعض تشريعه من مصر ، يعتبر مفخرة لمصر والمصريين ، لولا أن تعليل ديودور لحكمة المشرع المصرى فيما أصدره هو أقرب إلى

روح الفكر الإغريقى أو الكلاسيكى منه إلى طابع التفكير الشرقى فى القرن الثامن ق.م . وعلى أية حال فثمة تعقيب آخر ، وهو أن استرقاق المدين الذى حرمه باكن رنف كان دخيلاً على الحياة المصرية إما عن طريق الجاليات الأجنبية أو تحت قسوة الحياة فى عهود الاضطرابات . وقد أخذت بمثله التشريعات الإغريقية قبل إصلاحات سولون ، كما أخذت به تشريعات الاثنتى عشرة لوحة الرومانية فى القرن الخامس ق.م واستمر بعدها . والغريب أن نسب هيرودوت إلى ملك مصرى ذكره باسم أسوخيس (ولعله من الملوك المهجنين) أنه أجاز لقلة العملة فى أيامه إمكان رهن المدين مقبرة أبيه، وبالتالى جثته فى مقابل الدين (جـ٢-فقرة ١٣٦) .

وربط بعض الباحثين بين قوانين باكن رنف، وما أتت العقود المصرية به بعد عهده فى القول بأن حق الملكية المطلق للأرض تأيد بصدور قوانينه ، فتيسر انتقال ملكية المنفعة والارتفاق دون قيد أو شرط ، وأطلقت حرية الهبات من كل قيد . وأصبح المزارعون من أهل الطبقات الوسطى يتمتعون باستقلال شخصياتهم حيال الدولة وحيال الاقطاعيين ، فيما عدا التزامهم بتوفية الضرائب وأداء الأعمال العامة . وتحرر أفراد الأسرة من ولاية رب الأسرة عليهم فيما يختص بأملاكهم بحيث اعتبر كل شخص مسئولاً عن ذمته الخاصة ، وانفتحت أمامهم أبواب التحايل لإفراز أنصبتهم من ميراث الأسرة المشترك [١]. ولم يزد حكم باكن رنف عن ست سنوات ثم لقى نهاية مفجعة كما سنرى بعد قليل ، ودفن فى سقارة . وفسر رواة الأساطير التناقض الصارخ بين صلاحه وبين سوء خاتمته بأن ردوا الأمر إلى قدر مقدر ، وزعموا أن كبشاً مباركاً نزل من السماء فى أيامه وتكلم بلسان مبين وتنبأ له بخاتمته ، وأنذر مصر بعده بشقاء طويل . وقد حدث ذلك فعلاً فيما رواه مانيتون وإحدى البرديات الديموطية .

ولازال التاريخ متشوقاً للكشف عن التشريعات التى نسبت إلى باكن رنف، والتى يبدو أنها كانت أحد مصادر تقنين مصرى متأخر، عثر سامى جبرة على بعض

(١) Diodorus, I. 45, 79, 94; A. Moret, *De Bocchori Rege*, 1903; M. Revillout, "Bocchoris et son code", *Rev. Eg.*, 1907, 124-141; G. Posener, *ibid.*, 1969, 148-150; E. Seidle, "Law" in *The Legacy of Egypt*, 1947, 199, 203; G. Mattha. *Bull. de l'Inst. d'Egypte*, 1941, 300-312; J.A. Wilson, *JNES*, 1984, 129 f.; U. Kaplony-Heckel, *MDAIK*, 1966, 146 f.; M. El-Amir, *BIFAO*, 1969, 94; etc.

بردياته التطبيقية بالخط الديموطى فى منطقة تونة الجبل بمصر الوسطى ، وتولى دراستها جرجس متى ونشرت باسمه . وربما تأثرت كذلك بها ثمان برديات قضائية عثرنا عليها مع زكى على فى المنطقة نفسها فى عام ١٩٥٥ ، وينتظر نشر فحواها قريباً (١) .

جرت هذه الأحداث فى الأجزاء الشمالية من مصر الموالية للأسرة الرابعة والعشرين ، أما فى الجنوب فظلت طيبة وماحولها على صداقتها مع نباتا التى قضى ملكها بيعنخى بقية سنوات حكمه منطوياً فيها على نفسه لسبب غير معروف . وشيد له هرم كبير نسبياً بقربها فى كورو على نسق الأهرام المصرية، وإن كان أقل منها بكثير ، وتوفى فى العام ٣١ من حكمه .

ثم عاد النشاط مرة أخرى بين نباتا وبين مصر بولاية ولده أو أخيه (؟) «شاباكا» نفر كارع – واح إب رع الذى استغل حماسة أتباعه لحكمه الجديد ، وقضت جيوشه على استقلال باكن رنف فى مصر وأهلكته قتلاً أو حرقاً ، وربما دفن فى سقارة .

ونسب هيرودوت وديودور إلى شاباكا (أو شباكو) أنه ألغى عقوبة الإعدام، وعمم محلها الأشغال الشاقة فى مثل إقامة السدود والجسور وتعلية مستويات المدن ؛ مما من شأنه أن يفيد الدولة من مجهود المذنبين (ديودور ٦٥) ، وقد يعنى هذا أنه أراد منافسة خصمه باكن رنف فى إصدار التشريعات أو تجديدها .

وآثر شاباكا بعد أن انفرد بالأمر، واتخذ منف عاصمة أن يتقى المشكلات الخارجية ليتفرغ لمشروعاته الداخلية (٢) . فترك حاكم أشدود الهارب منذ عهد باكن رنف لمصيره أمام سرجون الأشورى ، وهادن هذا الأخير وبادله الهدايا ، وكان فى ذلك ماسمح لأعوان كل ملك منهما أن يسرفوا فى الإشادة بملكهم ويبالغوا فى خشية الآخر منه ، فصور أعوان شاباكا ملكهم يقبض على نواصى آسيويين ويتلقى جزاهم . بينما فسر أتباع سرجون هدايا شاباكا إليه بأنه كان قد أدرك، وأتقى بأس أربابه آشور ونابو ومردوك وغضب سرجون نفسه ، على الرغم من وجوده فى بلاد وعرة المسالك

(١) G. Mattha, *The Demotic Legal Code of Hermopolis West*, I-II 1975; E. Luddeckens, Akten des XIII, Intern. Papyrology, 235-239.

(٢) Breasted, *Ancient Records*, IV, 892.

(فى النوبة) ، وعلى الرغم من أن آباءه ماتعودوا من قبل أن يسألوا عن صحة أجداد سرجون إطلاقاً (١) ، وكان هذا هو شأن كتبة الملوك هنا وهناك فى أغلب مايكتبونه ليرضوا به غرور ملوكهم .

وتركت مصر سياسة اللامبالاة الخارجية فى عهد شبتكا (چد كاورع - من خبر رع) ابن بيعنخى . ويبدو أنه لم يكن فى وسعها ، على الرغم من متاعبها ، أن تبقى منعزلة طويلاً عن العالم الخارجى بعد أن قلب الأشوريون موازين القوى فيه رأساً على عقب ، فما أن انتهى عهد سرجون حتى انفجر الشام فى ثورة عارمة ضد الاحتلال الأشورى . وكان ممن تطلعوا إلى عون مصر ميناء صور الفينيقية ، ودولة يهوذا وملكها حزقيا، وبعض المدن الفلسطينية والبدوية . وكان حزقيا ملكاً اعتبره أنصاره مصلحاً لمحاولته تخليص عقائدهم من شوائب الوثنية فيها ، وقد عاصره النبى إشعيا، وكان على عكسه من دعاة الخضوع لآشور والتباعد عن محالفة مصر ؛ فأعانتها مصر ، ليس حباً فيها ، بقدر رغبتها فى اتخاذ ساحتها موقعاً من مواقع تعويق التوسع الآشورى . وأنجدت عاصمتها أورشليم بجيش كان على رأسه طاهرقا بن بيعنخى ، وكان من أفذاذ الحرب رغم صغر سنه بحيث قيل إنه لم يتجاوز حينذاك العقد الثانى من عمره ، ولكن خصمه الأشورى سينا خريب بن سرجون كان أعنف وكان جيشه أكثر عدداً وعدة . وباستخفاف المقتدر أرسل سينا خريب رسوله الرابشاق إلى أهل أورشليم فى عام ٧٠١ ق.م ، ليصرفهم عن حزقيا وحليفه الفرعون المصرى، بل وعن رب يهوذا كذلك ، محتجاً بأن ملكهم حزقيا قد مرق عن دينهم بإزالة العوالى والمذابح التى أقامها أسلافه ، وأنه لا أمل لهم فى مصر التى نخرت المشاكل كيانها وأوهنتها (٢) ، فضلاً عن أن أرباب الأرض جميعاً لم يستطيعوا أن ينقذوا بلادهم من آشور . أما الخاتمة فاختلفت فيها روايات الفريقين ، فادعت نصوص الآشوريين الانتصار المؤزر على المدينة وحلفائها ، وروت أن حزقيا اضطر تحت وطأة الحصار وعدم توفيق النجدة المصرية ، وانفضاض أتباعه من حوله ، إلى أداء الجزية مضاعفة إلى نينوى ومعها وفد من بناته وحظاياه وموسيقيه . ولكن روت التوراة أن

(١) Luckenbill, *op. cit.*, II, 62; ANET, 287.

وراجع تاريخ العراق عن بعض المشكلات التاريخية التى تمس اسم مصر فى نصوص سرجون .

(٢) أخبار الأيام الثانى : الإصحاح ٣٢ .

الجيش الآشورى حل به الموت الإلهي وحام ملك يهوه فوقه ليلاً ، وفي بكرة الصباح أصبحوا جثثاً هامدة ، فارتد الملك الآشورى مدحوراً بخزى الوجه إلى أرضه بعد أن أصبح جيشه كالعصافة في مهب الريح [١] . وتحدث هيرودوت عن المصريين فروى أن ملك مصر باعتباره الكاهن الصالح للإله بتاح هيفايستوس قد أحزيه الأمر واعتمد على عون ربه، أكثر مما اعتمد على مجهود الجنود الذين كان منهم عدد كبير من الصناع والتجار ، وفي عشية الموقعة سرت أسراب هائلة من الجرذان في معسكر الأشوريين، فمزقت الجعاب وقرضت أوتار القسي وسيور الدروع ، فأصبحوا بلا عدة يعتد بها وتفرقوا مغلوبين على أمرهم من أهون المخلوقات [٢] . وذهب بعض الرأى إلى التوفيق بين قصتي التوراة وهيرودوت بأن الجرذان أفشت وباء الطاعون بين الآشوريين فهلك خلق كثير منهم وأوهن الباقين فانسحبوا [٣] . وإن كان توقيت هذه الحادثة لازال يتراوح بين عام حصار أورشليم في هذه المرة ، وعام تخريب سينا خريب لمدينة لاشيش (لخيش) الفلسطينية، ومحاولته الوصول إلى الحدود المصرية بعد أحد عشر عاماً في عام ٦٩٠ ق.م (راجع تاريخ العراق فيما يلى) .

وتكرر تأييد مصر لحلفائها في الشام خلال عهد طاهرقا (خو نفرتم رع) حينما استأثر بالعرش ، لاسيما مدينة صور التي استعصت على الآشوريين فترة طويلة . وفي سبيل التفرغ للمشكلات الشمالية، ترك طاهرقا نباتا لنائبه فيها ، وعهد بطيبة لواليها المحلى حليفه المصرى منتومحات ، واستمد من آمون سنداً لمقاومة أعدائه[٤]. وكان أهم ماقدمه لأمون خلال عهده الذى كان أطول عهود حكام العصر، واستمر ٢٦ عاماً ، هو الصرح الخارجي الكبير (١١٣ × ١٥ متراً) الذى لازال يتقدم أهم معابده في الكرنك ، والسور الضخم الذى يحيط بها . وتعددت آثاره أكثر من سابقيه في مصر ونباتا . ثم ركز اهتمامه السياسي في عواصم الشمال ، لاسيما منف وتانيس واستقر في هذه الأخيرة استعداداً للانطلاق منها إلى الشمال الشرقى؛ حيث الشام

---

(١) الملوك الثاني ١٩ : ٨-٣٥ ؛ إشعيا ١٧ : ١٣ .

(٢) Herodotus, II, 141.

(٣) *cf.*, L.L. Honor, *Sennachertb's Invasion of Palestine*, 1962; J. Lewy, *OLZ*, 1928, 159 f.; U. Ungand, *ZAW*, LIX, 199 f.

(٤) *cf.*, Kienitz, *Die Politische Geschichte Aegyptens vom 7 bis zum 4 Jahrhundert vor der Zeitwende*, Berlin, 1953, 7; *BIFAO*, LI, 28.

وآشور حين تتهيأ الأسباب أو تدعو الضرورة .

وحتى هذه المرحلة كان حكام العصر يعتقدون أنهم نهضوا بمصر من كبوة طويلة ، وحاولوا أن يحيوا تراثها القديم فى الفكر والدين والفنون . ولعل أفضل مايذكره التاريخ لأيامهم فى هذا السبيل هو إعادة تسجيل أو إعادة صياغة المذهب المنفي على لوحة حجرية صلبة فى عهد شاباكا بما يشبه أسلوبه الكلاسيكى القديم (١) بعد أن أتت الأرض على نسخته القديمة ولعلها كانت من البردى أو من الرق . وللأسف أن لوحة عهد شاباكا هذه عندما كشف عنها فى العصر الحديث ، كان قد اتخذها طحان حجراً لطاحونة فحطم من نصوصها مالم يحطمه الزمن منها .

وجارت مدارس الفن بفروعه المختلفة ماذهب عصرها إليه ، ورأت سبيل النهضة فى العودة إلى أساليب عهود الازدهار القديمة ، فقلد فنانوها أساليب فن الدولة القديمة ، وأساليب فن الدولة الوسطى ، وأساليب فن عصر الرعامسة ، ثم حاول بعضهم أن يخرجوا من هذه الفنون بأسلوب جديد . واستحبوا لتماثيل ملوكهم الأسلوب الواقعى الذى يشبه ماتخيرته المدرسة الطيبية لتماثيل ملوكها خلال الدولة الوسطى ، وأخرجوه مما يناسب عصرهم . وتبقى من خير مانحتوه لملوكهم ثلاث رؤوس : رأس للملك شاباكا ، ورأسان للملك طاهرقا . وعبرت ملامح كل رأس من هذه الرؤوس عن السمات الشخصية لصاحبها ، وصورته بالطابع الجنوبى الذى اكتسبته أسرته الملكية خلال إقامتها الطويلة قرب الشلال الرابع . وهكذا أظهر الفنانون رأس شاباكا بوجه متسع وشفتين ممتلئتين وأنف عريض أفطس ، وأظهروا وجه طاهرقا بعنق غليظة ووجه عريض وشفتسن ممتلئتين وشعر مفلفل .

واستفادت تماثيل كبار الأفراد بالاتجاه الجديد ، فأخرجت مدرسة طيبة تمثالين لواليها الكبير «منتومحات» مثله أحدهما واقفاً فى انتصابة تشبه انتصابة تماثيل الدولة القديمة وطابعها المترفع ، وكست وجهه بجدية صارمة عبرت بها عن عزيمته التى واجه الشدائد بها فى عصره ، ثم أظهره تمثاله الآخر الذى لم يبق منه غير رأسه الضخمة وجزء من صدره ، فى ملامح شخصية ناطقة وشعر طبيعى ناعم مرسل ، فى إتقان بالغ جعله من مفاخر النحت المصرى كله . وكان منتومحات فيما يبدو كاهناً رابعاً لآمون ، ولكنه استطاع أن يغطى بشخصيته على مكانة الكاهن الأول فى

(١) F. Junge, *MDAIK* 29 (1973), 195-204.

طيبة . وربما عاونه أن كان أبوه وزيراً وجده عمدة لطيبة . وقد بلغ من أمره أن ذكرته النصوص الأشورية فيما بعد بلقب ملك طيبة ، وإن قاسمته السلطان الفعلى فى طيبة كبيرة الكاهنات والحرم المقدس لآمون شبن وبة الثانية . ونحت أحد مثالى المدرسة نفسها بضعة تماثيل واقعية لشخص من البلاط الملكى، يدعى «حاروا» أظهره فيها بعيوبه البدنية بوجه ممتلئ كوجه الطفل ، وجسم مكتنز يترهل ثدياه كثديى الأنثى .

وإلى جانب الكلف بإحياء التراث القديم ، أضاف الكتبة المصريون خطاً جديداً منذ أواخر القرن الثامن أو أوائل القرن السابع ق.م يزيد اختصاراً وتخففاً من الصور عن الخط الهيراطى ، وتكتب أغلب كلماته كما ينطقها الناس فعلاً ، وكانت هذه الخاصية الأخيرة فيه أحد أسباب تسمية الإغريق له بالخط الديموطى ؛ أى خط الجمهور ، أو الخط العام .

كان طاهرقا فيما دلت الأحداث كفئاً لأحداث عصره ، ومن أطرف ما أتى به أحد نصوص عهده إشارة ضمنية إلى زيادة فيضان النيل فى إحدى السنوات نتيجة لغزارة الأمطار فى الجنوب، وبناء على دعواته لأبيه آمون الذى أكرمه بأربع معجزات للقضاء على الحقط وأعاصير الجنوب والآفات وأسراب الجراد ، وأرسل عاصفة مطرية فى الجنوب فارتفع الفيضان ذراعاً كل يوم، واخترق تلال الصعيد وغطى ربوات الشمال حتى أصبحت الأرض والنهر أشبه بالمحيط الأزلى(١) ، وكانت من المرات الأولى التى علل المصريون أسباب الفيضان فى الشطر الأول من هذه الرواية بهذا التعليل المقبول . ولكن يبدو أن البنيان السياسى والداخلى لمملكة طاهرقا لم يكن سليماً ؛ وأنه لم يبلغ العرش إلا بعد تنافس مرير مع عمه أو أخيه وخصوم آخرين ، وإذا صح ذلك كان فيه مصداق لرواية إشعيا عن ربه، وهو يحض العبرانيين على عدم مخالفة مصر والرضا بالخضوع للأشوريين فى قوله : «أهيج مصريين على مصريين فيحارب رجل أخاه ورجل صاحبه ، مدينة مدينة ومملكة مملكة ...» . ومع هذه الأوضاع القلقة ومع ضعف الحلفاء الخارجين، لم يكن من المتوقع أن تصمد مصر طويلاً فى مواجهة الآشوريين، بعد أن بلغوا مابلغوه حينذاك من توسع وعنفوان

(١) *cf.*, V. Vikentiev, *Rec. Tr. de la Faculté des Lettres, Univ, égyptienne*, 1930; J. Leclant, Montoumhat, 1961; H. W. Muller, in *Munschner Jahrbuch der denden Kunst*, 1975, 7-36.

، وكان عليها أن تواجه سنة الحياة فى شيخوختها الثالثة ، وأن تتلقى جزاء تهاونها فى أمر نفسها . وقد بلغ الأمر مداه حين جند الملك الأشورى أشور أخادين كل إمكاناته لمهاجمة مصر وجهاً لوجه، باعتبارها آخر مناطق الشرق القديم بعداً عن نفوذه ، وأملاً فى القضاء على مابقى لها من قدرة على المنافسة الحربية ، وطمعاً فى ثرائها ، وليقطع معونتها عن حلفائها فى سوريا فلسطين . وقد مر مشروعه ضدها فى مرحلتين : مرحلة هاجم فيها حدودها الشمالية الشرقية فى عام ٦٧٤ ق.م ، ولكنه هزم بجيشه فى معركة دموية كما روت المصادر البابلية . ثم مرحلة ثانية بلغ فيها رفح وماعبر عنه باسم سيل مصر فى عام ٦٧١ ق.م وهناك واجهته مشكلة قلة الماء مع كثافة جيشه ، وساعده عليها جماعة من بدو الصحراء حملوا لجيشه قرب الماء فوق الجمال، وعملوا أدلاء له عبر سيناء إما خوفاً من بطشه ، أو التماساً للارتزاق منه أو لغير ذلك من أسباب .. بالغت نصوصه فى وصف مشقة الطريق الصحراوى وصخوره المدببة وأفاعيه القرناء (وكائناته) الخضراء المجنحة ، كى تشيد بجهوده فى تخطى صعابها . ولكنها كشفت عن مقاومة المصريين بتعبيرها الخاص ، فقالت على لسان ملكها : «قطعت مابين مدينة أشخوبرى (عند مدخل وادى الطميلات) وبين عاصمته منف فى خمسة عشر يوماً ، وكنت أقاتل دون انقطاع فى معارك دموية ضد طاهرقا ملك مصر والنوبة الذى لعنه كل الأرباب الكبار ، وأصبته خمس مرات بسهامى فأدميته بجراح لن يشفى منها»[1] . ونجحت الجيوش الآشورية للأسف فى إسقاط العاصمة منف وأحرقت ودمرت معظمها ، وسيطرت على مناطق الدلتا ، وأضعفت مقاومة مناطق الصعيد . وفتت أشور أخادين سلطة الحكم فى مصر فوزعها على الأمراء الإقليميين، واعتبرهم عمالاً له بعد أن استبعد منهم من توقع طموحه، كما استبعد منهم ذوى الأصل الجنوبى ، وظن أن الأمور استتبت له ، وبلغ من ثقته بنصره أن أمر بتغيير أسماء مدن كثيرة إلى أسماء آشورية نسبها إلى أربابه : آشور ، وسين ، ومردوك ، وإشتار[2] . وصور رجاله ملك مصر إشناكورو جاثياً أمامه مخزوماً من أنفه بحبل يرجو عفوه ، على نصب أقاموها فى أنحاء دولته [3] ، مع أن طاهرقا

(١) D. Luckenbill, *op. cit.*, II, 580; *ANET*, 239; E. Peet, *JEA*, XI, 1925, 117 f.; E. Meyer, *Geschichte des Altertumus*, III, 76 f.,

(٢) Luckenbill, II, 892; ANET, 293-294.

(٣) F.H. Weissbach, *Die Denkmaeler und Inschriften des Nahr el-Kelb*, 1922, pls. XI-XII; R. Mouterde, *Le Nahr-el-Kelb.*, 1932. pl. VI; Olmstead, *History of Assyria*, 384.



لم يقع في قبضته إطلاقاً ولم يهادنه، وإن كان من المحتمل أن ولده نيسو نحرت قد وقع فى أسره . ولم يكتف أشور أخادين بما غنمه من كنوز القصر الملكى المصرى «مما لامثيل له فى آشور ومما أبدعت صناعته» على حد قوله ، وإنما طمع فى أن يجعل مهارة المصريين طوع يمينه فى آشور نفسها ، فأمر بترحيل جماعات من الأطباء والبيطريين والسحرة والصاغة والكتبة والموسيقيين، بل ومن صانعى النعال وصانعى الجعة والخبازين ومن لف لفهم إلي عاصمته [١] ، وكأنما وجد فى مهارتهم كنزاً لاتقل قيمته عن كنوز القصر الملكى ، أو رأى فى إبعادهم عن مصر حرماناً لها من أدوات حضارتها التى دلت بها على عالمها القديم .

كانت هذه هى المرة الثانية التى نجح فيها جيش كبير فى غزو مصر عن طريق مدخلها الشمالى الشرقى (إذا اعتبرنا محنة الهكسوس القديمة غزوة وليست هجرة) . وكانت هى المرة الأولى التى حكمت مصر فيها من خارج حدودها، بعد أن سلخت من تاريخها المكتوب نحو خمسة وعشرين قرناً واستمر كفاح مصر ضد الامتداد الآشورى خلال عهود أربعة ملوك آشوريين: اثنين قاومت جيوشها على حدودها، واثنين كافحت نفوذهما على أرضها [٢] . ولقسوة الوضع، ثار المصريون على الحكم الآشورى سريعاً وعاونوا طاهرقا على استرجاع سلطته على العاصمة خلال عام ٦٦٩ ق.م ، فعزل بدوره من رضوا بولاية آشور أخادين، وحين ذاك جن جنون الملك الآشورى، وكانت مشكلات وراثة عرشه قد احتجزته عاماً فى آشور عقب عودته من مصر، وأعدم فى هذا العام كثيرين من كبار موظفيه [٣]، ثم سارع بالخروج بجيشه، ولكن اشتد به المرض به ولقى نحبه فى الطريق، فعاد جيشه أدراجه إلى بلده. (وليس من المستبعد أن يكون المصريون قد اعتبروا هذه الأحداث انتقاماً إلهياً منه) .

ووقع عبء مواجهة الثورة المصرية على خلفه العنيف أشور بانيبال [٤] ، وقد

(١) D. Luckenbill, *op. cit.*, II, 585; *ANET*, 293.

(٢) A. J. Spalinger, *Orintalia*, 43, 295-326; *JSSEA*, XI, 1 (1981), 37-58; A.K. Grayson, *ibid.*, XI, 2 (1981), 85-88.

(٣) Luckenbill, *op., cit.*, 302, 303.

(٤) See, *op. cit.*, II, 770 f.; M. Streck, *Assurbanipal und die letzten assyrischen Konige, bis zum Untergang (V.A.B.* VH) 1961, II, 2 f.; J. Schawe, *A.F.O.*, X (1935-1936), 170.

عبر عن غيظه بقوله: «وصل رسول سريع إلى نينوى، وأبلغنى النبأ فغضبت جداً لهذه الأحداث واشتعلت نفسى ورفعت كفى إلى آشور وإشتار ..» . وبعد أن اطمأن إلى استقرار أموره الداخلية خرج بجيشه فى عام ٦٦٦ ق.م ، وأجبر عدداً من أمراء الفرات والشام وفلسطين على مصاحبته بقواتهم ، وكانوا كما قال اثنين وعشرين ملكاً . واستعان بخبراتهم الملاحية وهاجم مصر بهم براً وبحراً ، وتلاقى بقواته مع جيوش طاهرقا فى معركة وصفتها النصوص الأشورية بأنها معركة مكشوفة رهيبة ، أحرز النصر فيها ، وانسحب طاهرقا إلى الجنوب على متن النيل مع قلة من قواته، وعز عليه أن يصطحب معه أغلب أساطيله النيلية المقاتلة فاستولى الأشوريون عليها وشجعهم ذلك على أن يستعينوا بأصحاب المهارة الملاحية من جند الفرات والشام؛ رغبة فى تتبعه إلى طيبة أحد معاقل القومية المصرية العتيدة . وأعاد آشور بانيبال بعض الأمراء المصريين الخاضعين إلى حكمهم اللامركزى وإماراتهم الإقليمية ، واطمأن إلى قوة سلطته وقال فى نصوصه : «وهكذا استعدت الإشراف على مصر والنوبة ، وزدت الحاميات عن ذى قبل ، وجعلت تنيظمها أشد إحكاماً وقوة ، وعدت إلى نينوى سالماً بكثير من الأسرى وبغنيمة طائلة» . ولكن خاب ظن هذا الملك ؛ فجيوشه لم تصل إلى النوبة التى ادعى سيطرته عليها ؛ ومالبث بعض أمراء مصر أن فاقوا إلى وطنيتهم وقالوا لأنفسهم فيما روت المتون الأشورية عنهم : «إذا كان طاهرقا قد أبعد عن مصر فأى بقاء لنا بعده ؟ وأرسلوا رسلهم على الخيل إلى طاهرقا يقولون له : دعنا نتصافح ونصل إلى حل مقبول ، ونشترك فى إدارة البلاد معاً حتى لايكون بيننا حاكم أجنبى» . ولكن حدث لسوء حظهم أن اكتشف الآشوريون تدبيرهم فقبضوا على رسلهم، وأعملوا السيف فى مدنهم «ولم يستثنوا أحداً من تانيس والمدن الأخرى التى تعاهدت على الثورة ، فشنقوهم على السرايا وسلخوا جلودهم وغطوا بها أسوار المدن» وأرسلوا زعماء الثورة إلى نينوى حيث أهلكوا جميعاً ، ولم يستثن آشور بانيبال منهم غير أمير سايس «نيكاو» (الأول) ربما باعتباره وريث الأسرة الرابعة والعشرين وسليل أكبر بيت منافس لبيت طاهرقا ، فأبقى عليه وقربه إليه وخلع عليه عدداً من أختامه وأهداه عطايا مرفومة باسمه ، وعين ولده «بسماتيك» أميراً على مدينة أتريب فى شرق الدلتا ، ولعله أراد أن يستعين بكفايتهما فى ضمان خضوع جانبى الدلتا ، وسوف يكون لهذا الولد شأن فى مقاومة الأشوريين بالذات .

ولم تنقطع محاولات المصريين للتحرر ، على الرغم من هذا التدبير ، حتى

ممن أعلنوا الطاعة لآشور بانيبال وانضموا إلى جيشه مكرهين ، فتحدثت سطور قليلة باقية من أحد نصوصه من وال مصرى لم يعتبر ، على حد قولها ، بالمعاملة الشديدة التى لقيها الأمراء المصريون الذين سبقوه إلى العصيان ، فسمعه الضباط الآشوريون وهو يسر بخطته إلى جماعة من إخوانه المصريين انتحوا معه ناحية عند مقدمة الجيش الآشورى ، وقد أجابوه بأنهم على استعداد لتنفيذها بالليل(١) ، وكانت عاقبته وعاقبة زملائه معروفة بطبيعة الحال .

ومرة أخرى هبت مصر تبغى التحرر من المد الآشورى، بعد أن تركها طاهرقا إلى نباتا وورث عرشها الاسمى تانوات آمون (با كا رع) – ابن شبتكا أخ طاهرقا – وتشجع برؤيا ظنها صادقة رأى فيها ثعبانين أحدهما على يمناه والآخر على يسراه(٢)، وفسرها له كبار الكهنة بالنصر على عادة الكهان مع الملوك فى كل عصر، وأولوها بقرب سيطرته على الصعيد والدلتا . وتشجع هذا الملك الذى ذكرته النصوص الآشورية باسم أورامانى فصعد حتى منف وحاصر بجيشه الحامية الآشورية فيها وسيطر على المدينة ، وأدب الأمراء الذين استكانوا لحكم الآشوريين(٣) . ولكن ما لبث آشور بانيبال أن عاد بجيشه إلى مصر، وقد تملكه الغل وساعدته كثافة جيوشه على النصر ، فانسحب تانوات آمون إلى الجنوب ، وتتبعته القوات الآشورية حتى طيبة ودخلتها ودمرتها حوالى عام ٦٥٩ ق.م، على الرغم من مقاومة أهلها وواليها «منتومحات»(٤) . وروت المتون الآشورية على لسان ملكها : «غنمت من طيبة غنائم تجل عن الحصر ، ونزعت مسلتين ضخمتين من قاعدتيهما ، وكانتا مغشيتين بالبرونز المذهب ، وتبلغ زنة كل منهما ٢٥٠٠ تالنت ، وأمرت بنقلهما إلى آشور» . وتحدث متن آخر عن أنه سجل انتصاراته وانتصارات أبيه على خمسة وخمسين تمثالاً من تماثيل الملوك المصريين(٥) (وربما أمر بنقل بعضها أيضاً إلى آشور، ومنها ثلاثة تماثيل للملك طاهرقا وجدت بقاياها فى تل النبى يونس) . ولم يكن الشرق

(١) Th. Bauer, *Das Inschriftwerk Assurbanipals*, 1933, I, pl. 60; II, 56; A Spalinger, *JAOS*, 94 (1974), 316-328.

(٢) *Urk.*, III, 57-77.

(٣) Breasted, *Ancient Records*, IV, 918 f.

(٤) *Ibid.*, 901 f.

(٥) Luckenbill, *op. cit.*, 989.

القديم قد نسى أن طيبة ظلت أقوى العواصم السياسية والدينية طيلة قرون عدة ، ولم ينس أن عمائرها الدينية كانت ولاتزال أكبر من أن تدانى ، ولهذا كان لسقوطها وتدميرها واحتلالها عنوة لأول مرة فى تاريخها دوى كبير عبر عنه النبى ناحوم، بعد نصف قرن، وهو ينذر نينوى عاصمة آشور بأنها لن تكون أعز من نو آمون (أى طيبة) المستقرة بين الأنهار ، تحميها المياه ، البحر حصنها ، ويسورها البحر (؟) ، ويدافع عنها المصريون الذين لاحصر لهم والكوشيون (النوبيون) والقوط والليبيون ، ومع ذلك دمرت وسحق أطفالها عند منعطفات الشوارع ، وألقيت القرعة على أشرافها وقيد عظماؤها بالأغلال[1] .

وعثر فى طيبة على لوحة أرخت بالعام الثامن من حكام تانوات آمون (فى حوالى عام ٦٥ أو ٦٥٤ ق.م) ؛ مما قد يعنى أنه عاود كفاحه بعد تدمير طيبة ، واسترجع سلطانه على بعض مناطق الصعيد[2] . ولكن سيطرته لم تطل أكثر من هذه السنوات الثمان ، بل إن النصوص الصاوية التى أتت بعد عهده أغفلت حكمه ، كما أغفلت سنوات الاحتلال الآشورى ، واعتبرت آخر أعوام حكم طاهرقا (فى حوالى عام ٦٦٤ ق.م) مقدمة لحكم بسماتيك الأول، أول ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، موضوع البحث التالى .

* * *

(١) ناحوم ٣ : ٨-١٠ .

(٢) Berlin 209; *ASAE*, VII, 190, 226-27.

ثالثاً - النهضة فى العصر الصاوى مع الأسرة السادسة والعشرين (٧٥٥ أو ٦٦٤ (؟) - ٥٢٥ ق.م)

روى أخبار هذا العصر إلى جانب نصوصه المصرية القليلة الباقية ، كل من هيرودوت وديودور ، وبعض النصوص المسمارية العراقية ، وروايات من العهد القديم، وجانب من تاريخ يوسيفوس نقله أو تأثر فيه بتاريخ مانيتون .

وحاول حكام العصر أن يقوموا فى نهضتهم بمثل ماقامت به بداية الدولة الحديثة لإجلاء المستعمر وتحرير البلاد واستعادة هيبة الملكية ووحدة الحكم المركزية ، وإعادة تنظيم الجبهة الداخلية ، واسترجاع الولايات الخارجية والهيبة الدولية ، ولكن الظروف كانت مختلفة بين العصرين ، فاختلفت الوسائل كما اختلفت النتائج تبعاً لها .

وينسب العصر إلى اسم عاصمته صا (الحجر) قرب فرع رشيد فى غرب الدلتا، وهى مدينة تقدم كيف ذكرتها النصوص المصرية القديمة باسم «ساو»، واشتهرت لدى الإغريق باسم «سايس» ، وحكمت فيها الأسرة، الرابعة والعشرون . ولما قضى حكام نباتا الجنوبيون على استقلال هذه الأسرة ظل من بقى من أمرائها يجاهدون فى سبيل كيانهم خفية خلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين ، ثم استخدم الغازى الآشورى كبيرهم نيكاو (الأول) لصالحه ، واستغلال عداء أسرته التقليدى للبيت النوبى المصرى خصيم الطرفين .

وعندما اختفى شبح تانوات أمون وريث هذا البيت الأخير، كان أكبر المستفيدين من فراغ جو السياسة المصرية هو «بسماتيك» الأول (واح إب رع)[1] ، ابن نيكاو ، بعد أن أنس الملك الآشورى إليه كما أنس إلى أبيه الذى يحتمل قتله بتدبير تانوات آمون ، فاستغل هو هذا الوضع الاضطرارى من أجل يوم لاحق يقيم فيه أسرة حاكمة جديدة ويستعيد فيه لبلده استقلاله ، ومهد لمشروعه هذا بمحاولة تجميع السلطة الداخلية فى يديه على غفلة من الآشوريين ، وعلى حساب نفوذ أضرابه من الأمراء المعاصرين له والذين عاشوا فى نظام إقطاعى شجعه الآشوريون للإبقاء على تمزيق

---

(١) فسر اسمه بتفسيرات شتى ، ومنها رجل (المعبود) متك وهو معبود محلى ، ورجل الشراب المزوج ، أو يكون لاسمه صلة بمعنى الأسد (سام) فى اللغة الحامية .

Cf. Gauthier, *L.R.*, IV, 75 f. and references; A. Spalinger, *JARCE*, 13 (1976), 133-147.

السلطة بينهم ، وتميز منهم فيما روى هيرودوت أحد عشر أميراً فى الدلتا تعاهدوا معه على اقتسام السلطة، لولا أنه وجد معونة من معبد بتاح فى منف ومعبد وحى بوتو ماميزه عليهم ، فضايقوه بعد أن ظهر طموحه[1] بحيث لم تظهر له نصوص يعتد بها قبل العام التاسع من حكمه ، فصمد لهم واستعان عليهم بأحلاف من أمراء مصر الوسطى، كان من أكبرهم سماتاوى تاف نخت أمير أهناسيا ، وقد أعانوه بقواتهم البرية والملاحية ، ولقوا منه بعد ذلك جزاء وافياً ، فأثابهم بحكم ثلاثة أقاليم من الصعيد ، وجعل لهم احتكار الإشراف على الملاحة النهرية فى الصعيد كله (؟)[2]. وهنا يضيف هيرودوت أنه استعان إلى جانبهم بمرتزقة من الإغريق ، أو استعان ببعض المرتزقة من رجال حليفه جيجيس ملك ليديا، كما روت المصادر الآشورية ونذكره بعد قليل . ولما ضعف شأن طيبة بذهاب حلفها مع نباتا وتدمير الآشوريين لها، استفاد بسماتيك من الفراغ القائم فيها، فأعاد تعيين واليها الكاهن منتومحات على إدارتها المدنية ، وفاوض كبيرة كاهناتها شبن وبة الثانية أخت طاهرقا على أن يدعها فى منصبها بشرط أن تتبنى ابنته نيت إقرت (نيتوكويس) ، وتتخلص من ربيبتها الأولى (ابنة طاهرقا) . وعندما نجح التفاوض وتم التبنى وضمن به لابنته جانباً من الإشراف الروحى على معابد آمون ، والإشراف المادى على مخصصاتها الكبرى ، زادها بإقطاعيات أخرى منه ومن طيبة ومصر الوسطى ومن الدلتا ، وكان بعضها إهداءات من المعابد وربما من الأثرياء أيضاً ، وجعل لها حاشية كبيرة تشبه حاشية الملكات تخير رؤساءها من رجال الدلتا[3]، ثم عهد بإقليم إدفو وأسوان إلى أحد أنصاره. وبهذه الإجراءات المتتابعة اعتقد بسماتيك أنه حقق التوازن بين أولياء السلطة فى مملكته ، فالوجه القبلى قسم سلطاته بين ثلاث جهات حاكمة ، والدلتا أغرى بعض كبارها بمناصب رئيسية فى الصعيد ، وابنته أشرفت باسمه على معظم كهنوت آمون وأملاكه . وكما جرت العادة ، غالباً ماكان المنعم عليهم يعهد إليهم بوظائف كهنوتية حتى يستفيدوا من مخصصاتها ، ويقللوا من تضخم ثروات المعابد الكبيرة،

(١) Herodotus, II, 152; De Meulenaere, *Herodotus et la 26 ste Dynastie*, 1951, 30, 149-150.

(٢) Ryland Papyrus IX, 5, 13 f.; Kees, *Ancient Egypt*, 217.

(٣) اشتهرت هذه اللوحة باسم لوحة التبنى .

Breasted, *Anc. Records*, IV, 953 f.; Leclant, *JNES*, 1954, 169.

ولايثقلوا فى الوقت نفسه على ميزانية الدولة بأعباء جسيمة[١]. وكما حقق الرجل التوازن الإدارى من وجهة نظره ، اعتقد أنه يحقق التوازن فى الجيش كذلك بالاستعانة بمرتزقة من الإغريق أو المتأغرقين يوازنون المجندين والمرتزقة من المهجنين الليبيين وغيرهم . وعندما تطلع إلى الخارج كانت الظروف مواتية ، فقد واصلت آشور نضالاً عنيفاً حينذاك مع منافستها القوية إلام أو عيلام ، وواصلت انتقاماً عنيفاً من أختها اللدود بابل ومن كبار حلفائها ، وواجهت عدة ثورات فى بلاد الشام ، واشتبكت فى حرب ضروس مع دولة ليديا فى آسيا الصغرى ، وهنا كان قد حدث ما أسلفنا خبره من أن بسماتيك حالف «جيجيس» ملك ليديا هذه (حوالى عام ٦٥٥ أو ٦٥٤ ق.م) على أن ينجد أحدهما الآخر حين الحاجة ، وعلى أن يستعين هو ببعض الجنود الإيونيين والكيريين كمرتزقة فى جيشه[٢]. وكانت الشقة بعيدة بين الحليفين ولكن قرب بينهما عداؤهما لآشور ، وعدم تخوف أحدهما من أطماع الآخر ، مع تقدير الإغريق والمتأغرقين لمصر ، على الرغم من النكبات السياسية التى حلت بها . وسبق معرفة المصريين بالإغريق والمتأغرقين من قبل تجاراً ومرتزقة وملاحين مهرة .

وفى أعوامه الأولى ، تخلص بسماتيك وأعوانه من النفوذ الآشورى ، بعد سنوات قليلة لاتتعدى ١٧ عاماً من بدايته ، وإن كنا لاندرى للأسف من تفاصيل كفاحهم المسلح ضده ولاكيفية إجلائهم الحاميات الآشورية عن مصر إلا ما ألمح هيرودوت إليه من أنهم تعقبوها حتى فلسطين[٣]. ووفت مصر بعهدها مع جيجيس فأعدت له نجدة عسكرية فى كفاحه ضد الآشوريين وضد الهجرات السيميرية ، ولكن سقوطه كان سريعاً (فى عام ٦٥٤ ق.م.) ، فلم تؤد النجدة دورها .

عمل بسماتيك على تأمين علاقاته الخارجية ، وسلك سبل السياسة والقوة معاً ، فآثر السلام مع دولة نباتا وأوفد سفارة إليها عادت منها بالهدايا[٤] ، واكتفى بما نجح

---

(١) Ranke, *ZAeS*, XLIV, 45 f.

(٢) Luckenbill, *Ancient Records of Assyria*, II, 748-785.

(٣) Herodotus, II, 157.

(٤) Kienitz, *op. cit.*, 16.

فيه من تخليص بلده من النفوذ الآشورى . ولم يستمر فى عدائه الصريح لآشور بعد مقتل حليفه جيجيس ، وربما هادنها وهادنته حتى الفراغ من متاعبهما[١] .. واستفاد هو من هذه الهدنة ، وسعى برجاله لضمان الخطوط الأمامية فى فلسطين ، ومضى فى هذه الخطوة الأخيرة على مهل ، وحدث حين تنفيذها أن وصلت طلائع هجرات السكيثيين إلى جنوب الشام ، وهى جزء من هجرات آرية خرجت من أواسط آسيا وهددت حدود آشور وخربت مدن آسيا الصغرى ، وتسرب بعضها جنوباً عبر الساحل إلى فلسطين حتى عسقلان ، وكان أهلها غزاة جوابين غير مستقرين ، فاستغل بسماتيك هذه الصفة فيهم ولم يشأن أن يستهكل قواته الحربية معهم فأرضاهم بالعطايا حتى عادوا أدراجهم إلى نواحى آسيا [٢] . ثم تفرغ بسماتيك لمشروعه الخارجى ومضى فيه حتى أتم فتح مدينة أشدود الحصينة حوالى عام ٦٢٠ ق.م بعد مجهود طويل ، ومنذ ذلك الحين أصبح سيد الموقف فى بلده وعلى حدوده ، بل وبدأت مصر تمد العون للآشوريين فى نكباتهم المتلاحقة أمام البابليين والماذيين ، دفعاً لخطر هذين الأخيرين على الوضع القائم فى الشرق القريب .

وطال عهد بسماتيك خمسة وأربعين عاماً (وإن اعتبرها هو أربعة وخمسين) شغلت أغلبها فرحة التحرر من الغزو الآشورى واستعادة وحدة البلاد وعودة الأمن إلى أرضها . وانعكس ذلك على نواحى الحياة الداخلية فيها ، فاشتدت الإشادة بالقومية وعراقة الأصول ؛ وكان من وسائلها إحياء تقاليد الدولة القديمة فى اللغة والدين ، وإحياء أساليب عصور الازدهار القديمة والوسطى والحديثة فى فنون النقش والتصوير والنحت ، مما سنعود إلى ذكره فى ختام حديث هذا العصر . ولما كان النصر يرد عادة إلى التأييد الروحى من الأرباب والمساهمة المادية من معابدهم ، كما يرد إلى الملوك بخاصة ؛ فقد كانت النتيجة الطبيعية بعد إحراز النصر هى رد الفضل لهؤلاء وهؤلاء مضاعفاً عن طريق الإسراف فى إقامة المعابد ومخصصاتها ، وإقامة القصور والمسلات والتماثيل ورصد الهبات والأوقاف بأسماء الآلهة والملوك . وكان نصيب مدن الوجه البحرى ومعابده من تجديدات العصر أكثر من نصيب الصعيد ، بحكم وجود عاصمة الدولة فيه ، فنشطت الإشادة بأربابه لاسيما نيت ربة سايس ، وبتاح

---

(١) Mary Fiancis Gyles, *Pharaonic Policies and Administration*, (663 to 323 B.C.), Carolina, 1959, 21 f.

(٢) Herodotus, I, 105; H, 30, 153-154, 157; IV, 46.

رب منف ، بل والرمز الحيواني للمعبود حاب أو أبيس ، حتى طغت سمعتهم على سمعة أرباب الصعيد ، فيما خلا آمون رع ، الذى احتفظ بمكانته كإله أعلى للدولة .

أسلفنا أن الحكم الجديد بدأ ، كغيره من بدايات الحكم الأخرى ، برفع طبقات وخض أخرى ، وإضعاف أسر إقطاعية وتدعيم أخرى ، تبعاً لميول الحاكم ومدى مايلقاه من تأييد أو معارضة من طائفة أو أخرى ، وللحد من تضخم ثراء كبار الإقطاعيين الجد من مدنيين ودينيين . وسلك بسماتيك سياسة اتبعها خلفاؤه ، وهى الإيحاء إلى كبار أولئك الإقطاعيين بالتبرع بجانب من أملاكهم العقارية للمعابد التى تحتضنها الدولة ، مع استمرارها فى الوقت نفسه على سياسة التوسع فى خلع المناصب الكهنوتية التشريفية على الأشخاص المقربين إلى الملك حتى يستفيدوا من مخصصاتها ويقللوا من تضخم ثروات معابدها واحتكارات كهنّها ، ولايثقلوا فى الوقت ذاته على ميزانية الدولة بأعباء كبيرة كما أسلفنا آنفاً . وبتعبير آخر يمكن القول بأن أولئك الملوك أشعروا الإقطاعيين المتبرعين بأن الدولة لاتبغى أن تقاسمهم ثرواتهم لصالحها الخاص ، وإنما لصالح الأرباب ، كما أشعروا أنصارهم المنعم عليهم بأن إنعاماتهم أشبه بعارية يمكن أن تعود ثانية إلى الأرباب [1] .

وظن بسماتيك أنه حقق التوازن فى جيشه بالاستعانة بالمرتزقة الإغريق أصحاب العزائم الجديدة وأبناء البلاد البعيدة ، التى لايخشى من استغلالها وجودهم فى جشيه ، فى مقابل المرتزقة الآخرين المهجنين الذين تبعه بعضهم ، وتبع بعضهم الآخر الأمراء الإقطاعيين الذين نافسوه فى بداية عهده ، ثم لتزويد جيشه بدماء جديدة ، بعد أن استرخت همم أولئك المجندين المهجنين والمرتزقة من الصحراء والواحات الغربية أو الليبية ومن النوبة ، وأمثالهم ، واستناموا إلى العقارات الزراعية والمرتبات التى خصصتها الدولة لهم . واتخذ بسماتيك من جنده الجديد حرساً خاصاً وحاميات للحدود ، ومنها حامية فى حصن دفنة على الصحراء الشرقية ، وهو حصن ذكره سفر إرميا بما يعنى حصن البرابرة [2]، وفى ماريا عند مريوط على بداية الصحراء الغربية، وفى إلفنتينى قرب أسوان ، أى إنه عالج الخطأ بخطأ آخر . وتوافد فى أعقاب المرتزقة الأجانب أعداد من التجار الإغريق عملوا لحسابهم فى مصر ،

---

(١) Ranke, *op. cit.*, H. Kess, "Zur Innenpolitik der Saitendynastie", *NGWG*, 1935, 96 f.

(٢) إرميا ٢ : ١٦ ، ٤٣ : ٥-٧ .

ووسطاء بينها وبين بلادهم ، في تجارة الغلال والفضة والمصنوعات الدقيقة والفنون . وهنا يروى هيرودوت أن بسماتيك أوصى بتكوين طائفة من التراجمة لتيسير التفاهم بين الوافدين الإغريق ، وهيئات الجيش والبلاط والإدارة فضلاً عن أغراض التجارة والزيارة ، وكان نواتها عدد مختار من الشبان المصريين النابهين [1] .

وعند وفاة بسماتيك الأول ، كانت الأمور قد مضت سريعة في الشرق الأوسط ، فقضى البابليون والماذيون على كيان آشور . وطمعت بابل في أن تستعيد الأملاك الآشورية الغربية في الشام لحسابها ، ولكن مصر اختطت الخطة نفسها لصالحها في عهد خلفه نيكاو الثاني (وحم إب رع) . وقدر نيكاو طموح بابل ، فبادر بالخطوة الأولى ، وخرج بجيشه إلى فلسطين في عام ٦٠٨ ، فشق الجيش طريقه دون معارضة تذكر ، وعندما اعترضه حاكم أورشلين اليهودي يوشيا أنذره بالحسنى ولكنه لم يرعو ففتك به في مجدو [2]، ثم تابع مسيرته في أواسط سوريا وشمالها ، وأحرز نجاحاً ضد البابلين قرب قرقميش في كيموخو وقوراماتي ، اللتين ذكرتهما النصوص المصرية عند الفرات ، وربما عاون حينذاك بقايا الآشوريين بقيادة آشور أو بالليط . وبهذا استعاد الإشراف المصري على أجزاء واسعة من الهلال الخصيب ، فيما بين عامي ٦٠٨ و ٦٠٥ ق.م وعاقب نيكاو أورشليم مرة أخرى فعزل حاكمها ابن القتيل ، وعين بدله أخاه إيليقيم الذي غير اسمه الى يهو ياقيم ، ليكون تابعه ، وألزمه بجزية ضخمة[3]. ثم بدأت المقادير تسلك وجهة أخرى ، منذ أن عهد الملك نابو بولاسر بقيادة جيوشه إلى ولده «نبو خذ نصر» (نابو – كدوري – أوصر) وكان كفئاً لمواجهة الموقف من وجهة النظر البالية . ولكن نيكاو المصري تجاهل هذه الحقيقة وركبه الغرور ، فترك المبادرة وتوقف بجيشه طويلاً عند نهر الكلب حيث سجل له رجاله أخبار نصره وآيات تمجيده على المرتفعات المطلة عليه ، فكانت فرصة لولي العهد البابلي دعم جيشه فيها وتخير موضع معركته فتيسر له النصر عند قرقميش في عام ٦٠٥ أو ٦٠٤ ق.م [4] . وحينذاك تخلى نيكاو عن شمال بلاد الشما كارهاً واحتفظ بجنوبها ، ولكن لم يطل احتفاظه بها ، بعد أن خلف نبوخذ نصر أباه وتشجع باستقرار

(١) Herodotus, *op. cit.*, 154, 164.

(٢) الأيام الثاني ٣٥ : ٢٠-٢٥ . Yoyotte, *Nechao*, 372.

(٣) الملوك الثاني ٢٣-٣٥ ؛ الأيام الثاني ٣٦ : ٣-٤ .

(٤) Woolley, *Charchemish*, II, 125-127.

دولته فتابع طريقه بجيشه إلى فلسطين وحينئذ أعلن له يهو ياقيم اليهودى الطاعة، وصار عهده ثلاث سنوات على حد تعبير سفر الملوك ، ثم ثار عليه وكون حلفاً ضده بتشجيع مصر التى أفسدت هجوماً بابلياً على حدودها فى عام ٦٠١ ق.م ، فضربه نبوخذ نصر بقواته وبمن خرجوا عن حلفه من أقاليم الشام ، أو كما روت أخبار التوراة «أرسل ضده جيشاً مؤلفاً من كلدانيين وسوريين ومؤابيين وعمونيين»[١] . وقتل الوالى اليهودى خلال الحصار وسبى معظم قومه ومعهم ولده يهويا كين فى عام ٥٩٧ ق.م ، وعين نبوخذ نصر «صدقيا» ملكاً جديداً على أورشليم ، وسوف تكون له قصته معه .

وتجمدت السياسة الحربية الشمالية لمصر فى بقية عهد نيكاو ، سواء نتيجة لعقد معاهدة عدم اعتداء بينه وبين بابل ، وهذا مارواه هيرودوت وزاد عليه أن نيكاو زوج أخته أو إبنته من نبوخذ نصر فصارت ملكة على بابل [٢] ، وهى رواية لم تتأكد بعد، إما نتيجة لانشغال نيكاو بحدوده الجنوبية ، أو لرغبته فى الاتجاه إلى إحراز سيادة بحرية لأغراض التجارة وحماية السواحل وأغراض التوسع ، وقد لوحظت كثرة ألقاب «قباطنة الأساطيل الملكية فى (البحر) الأخضر الكبير» فى نصوص عهده[٣] . وكان خير ماذكره التاريخ لسياسته هذه أمران ، أولهما : محاولة ربط الدلتا بالبحر الأحمر بطريق مائى لتشجيع التجارة البحرية وزيادة الاستفادة من مواردها ، بشق قناة تجرى من فرع الدلتا البوبسطى القديم حتى خليج السويس أو البحيرات المرة قرب ميناء الاسماعيلية الحالية . وروى هيرودوت أن المشروع بعد أن بدأ واستهلك تنفيذه آلافاً من الرجال أوقف فجأة نتيجة لوحى إلهى أنذر نيكاو بأنه يبذل جهده لمصلحة الأجنبى ، بينما أضاف ديودور الصقلى أن المصريين تخوفوا من أن يكون منسوب مياه البحر أعلى من منسوب مياه فروع الدلتا فيغرقها . ولكن يبدو أن المشروع تم تنفيذه حنيذاك فعلاً ، أو تم أغلبه [٤] .

أما المأثرة الأخرى ، فهى إيفاد بعثة بحرية للدوران حول أفريقيا ، وبدأت

---

(١) الملوك الثانى ٢٤ : ١-٤ .

(٢) Herodotus, I, 184-186.

(٣) De Meulenaere, *op. cit.*, 60-61.

(٤) Herodotus, II, 158; Diodorus, I, 33; Strabo, XVII, 8; see, G. Posener, *Chronique d'Egypte*, 1938, 272; P. Newberry, *JEA*, 1942, 64 f.; A.B. Lloyd, *JEA*, 63 (1977), 142-155.

رحلتها من خليج السويس والبحر الأحمر . وروى هيرودوت أنها أتمتها فى ثلاث سنوات ، كانت تريح فيها على البر خلال مواسم الخريف ، ثم عبرت مضيق جبل طارق (أعمدة هيراكليس) ، وعندما عادت روى ملاحوها أنهم فى دورانهم حول الأرض (أى أفريقيا) كانت الشمس على يمينهم ، على عكس ماخرجوا به ، وهى ملاحظة شك هيرودوت فى إمكان حدوثها ، مع أنها دليل صدقهم . وكانت من أقدم المرات التي تم فيها مثل هذا المشروع البحرى الضخم لأغراض الكشف والمعرفة وإظهار المهارة وفتح أسواق للتجارة وأملاً فى توسيع النفوذ فى آن واحد ، ولابد أنه مهدت له معارف وإرهاصات سابقة ، روى هيرودوت منها بناء سفن كورنثية أو إيونية ذات ثلاث طبقات من المجاديف Triremes ، (وسفن جيلية) كانت تمخر عباب البحر الشمالى (المتوسط) والخليج العربى (السويس) ، والاستعانة بخبرة ملاحين فينيقيين وإغريق أو متأغرقين إلى جانب الملاحين المصريين [1] .

لم تتغير هذه السياسة فى عهد بسماتيك الثانى (نفر إب رع) منذ عام ٥٩٥ ق.م. وفيه خرج موكب ملكى أو بعثة ملكية من مصر إلى سوريا ، صحبها عدد من الكهنة اختيروا من معابد مختلفة ، ومن طريف ما سجل بهذه المناسبة أن كهنة طيبة رشحوا كاهناً منهم يدعى بادى إيسة وقالوا له : « لقد وقع الاختيار عليك للذهاب إلى بلاد خارو مع الفرعون ، وما من أحد فى هذه المدينة يمكن أن يقوم بهذا عداك ، فلاحظ أنك كاتب دار الحياة وما من شىء تسأل عنه لن تجد له الجواب الملائم»[2] ، ولعلهم قصدوا بذلك أسئلة كهنة سوريا ومحاوراتهم له . وإن لم يسلم بادى إيسة فى الوقت نفسه من كيد بعض زملائه له .

وظلت مصر على الرغم من سياستها الشمالية السلمية تستقبل اللائذين بها من أهل الشام ومن اليهود الفارين من وجه البابليين . وإذا كان ثمة جديد فى هذا العهد فهو قيام مشكلات فى الجنوب ، استدعت إيفاد حملة اشترك فيها مع الجنود المصريين جنود مرتزقة من الإغريق والكيريين فضلاً عن آخرين من الصحراء الغربية ، وربما من اليهود المتمصرين أيضاً . وسجل كاتب أو ضابط إغريقى على أحد تماثيل

---

(١) Herodotus, IV, 42; De Meulenaere, *op. cit.*, 50-52; A.B. Lloyd, *JEA*, 58 (1972), 268-279; J. *of Hellenic Studies*, London 95 (1975), 45-61.

(٢) Ryland Papyri IX, 14, 19 f.

رمسيس الثانى فى معبد أبى سنبل مايقول : «بعد أن وصل الملك (بسماتيك) إلى إلفنتين كتب هذه العبارات من أبحروا مع بسماتيكوس بن ثيوكلوس ، ووصلوا إلى مابعد كيوس وإلى الحد الذى سمح النهر به ، وكان أصحاب اللسان الأجنبى تحت قيادة بوتاسيمتو ، بينما قاد المصريين أمازيس»[١] . ويحتمل بلوغ الحملة حدود نباتا ثم عودتها إلى مصر بخيرات ضخمة سمحت للفرعون بأن يغدق الإنعامات على أعضائها وعلى كثير من المنشآت الدينية ولايخلو من دلالة أن قائد الفرقة الأجنبية كان مصرياً أو متمصراً يدعى بادى سماتاوى وهو الذى حور كاتب النص الإغريقى اسمه إلى بوتاسيمتو[٢] .

تحولت سياسة مصر إلى ممارسة القوة فى الشمال فى عهد الملك واح إب رع (حعع إب رع) الذى اشتهر عند مؤرخى الإغريق باسم أبريس ، واعتقد الأستاذ فلندرز بترى أنه عثر على جزء من قصره فى منف . وكان سر تغيرها أمران ، وهما : رغبة مصر فى الاستفادة من إمكانيات قوتها البحرية النامية فى مراقبة موانى الشام لتعطيل مصالح البابليين فيها وحتى لايستغلوها ضدها ، أو على الأقل لتأمين تجارتها التى تأثرت بامتداد النفوذ البابلى ، ثم عودة البابليين إلى التوسع الحربى فى فلسطين وحصارهم لثورة أورشليم فى عام ٥٨٨ ق.م. ولكن الحظ خان مصر فى مشروعاتها ، فاصطدمت مصالحها بمصالح الميناءين صور وصيدا وحدثت اشتباكات بينهما واستولت على صيدا [٣] ، كما تدخلت لمصلحة أورشليم ، ولكنها لم تلق منها جزاء ولاشكورا ؛ فقد شجعت التحركات المصرية مدن فلسطين على الثورة ضد النفوذ البابلى ، مما أدى بجيوش نبوخذ نصر إلى مهاجمتها ومحاصرة أورشليم للمرة الثانية، وهنا ساعدها الملك المصرى واح إب رع على مقاومة الحصار فى عام ٥٨٧ ق.م. وانقسم أهلها حينذاك فريقين : فريقاً تزعمه الملك صدقيا وحمد لمصر معونتها تكلم باسمه النبىء حننيا فدعا إلى كسر النير البابلى باسم الرب ، وفريقاً آخر تزعمه النبى

(١) Sauneron et Yoyotte, "La Campagne Nubienne de Psammetique II", *BIFAO*, 1952.
157, f.; Text. Publications of the Centre of Documentation, D 9, j. G, XVIII.

(٢) Alan Rowe, "New light on objects belonging to the generals Potasimto and Amasis in the Egyptian Museum", 156 f.

(٣) Herodotus, II, 161.

إرميا ، وأخذ يتنبأ بأن ملك مصر سوف يعود إلى بلده وأن البابليين سوف يستولون على أورشليم ويحرقونها ، وأنه يجب وضع أعناق الأمة تحت نير ملك بابل بأمر الرب أيضاً[١] .. وهكذا كان شأن من تسببت إليهم النبوة من بنى إسرائيل ، إلا من عصم ! .

وتحقق تشاؤم إرميا ، ودمر البابليون أورشليم فى عام ٥٨٦ ق.م ، وشاءت الأقدار أن يأسروا صدقيا صديق مصر وأتباعه وعينوا جداليا مكانه . وربما أسروا إرميا أيضاً ثم أطلقوا سراحه لما سمعوه من دعاياته السابقة . ولاذ إرميا خصيم مصر برحابها ولكنه لم يجمد لها صنيعها ، ولم يشكر لملكها أن قبل بعض اليهود مرتزقة فى جيشه ، وإنما واصل دعاواه قائلاً : «هكذا قال الرب ، لسوف أوقع الفرعون هوفرا بين يدى أعدائه الذين يطلبون حياته» [٢] .

وترك نبوخذ نصر أورشليم ودق الحصار على أسوار صور ، فصمدت له ثلاثة عشر عاماً ، وعاونها المصريون من البحر (راجع تاريخ العراق) ؛ مما أثار حفيظته على مصر وجعله يصمم على الانتقام المباشر منها . وقد تحدثت نصوصه عن حملة أرسلها إلى حدودها الشمالية الشرقية (فى عام ٥٦٨ أو ٥٦٧) [٣] ، ولاندرى هل حدثت الحملة فعلاً وفشلت ، أم لم تحدث إطلاقاً .

وكان أمام الفرعون واح إب رع (أبريس) من المشاكل الأخرى ما أثقل عليه بعد أن اتجه بفضيلة النجدة هذه المرة إلى الغرب ، فعادت عليه بأذى لايقل عن الأذى الذى أصابه من الشرق ، فقد نشأ نزاع مرير بين القبائل الليبية الممتدة حتى تونس الحالية وجماعات من الدوريين الإغريق ، استعمروا برقة وماحولها استعماراً تجارياً ما لبث حتى تحول إلى استعمار سياسى أصبحوا به سادة البلد واتخذوا مدينة Cyrene أو قرنيه عاصمة لهم . وشيئاً فشيئا ازدادت أعدادهم بمهاجرين جدد ، وازداد ضدهم فى الوقت نفسه ضيق الليبيين بهم لمنافستهم إياهم فى أرزاقهم وأرضهم وتعاليهم عليهم . وطلب هؤلاء الأخارى عون مصر فأعانتهم عسكرياً ، ولكن جيشها وقع فى كمين ولم يعد منه غير القليل ، فثار العائدون مع المواطنين ضد ملكهم واح

---

(١) إرميا ٢٨ : ١ ؛ ٣٧ : ١-٥ .

(٢) الملوك الثانى ٢٥ : ٢٦ ؛ إرميا ٤٤ : ٣ .

(٣) Langdon, *Die Newbabylonischen Konigschriften*, 207.
J. K. Hoffmeier, *JSSEA*, XI, 3 (1981), 165-170.

إب رع في مصر، واتهموه بأنه دبر هذه الحملة ليتخلص من المحاربين المصريين في الجيش حتى يزداد تسلطاً على مصر ، وأنه أسرف في احتضان الإغريق على حسابهم[1] ، وكان لكل من الاتهامين نصيب من الصحة فيما يبدو ، وقد أزاد التذمر ضده ضيق الكهنة في عهده من إسرافه في منح مناصب المعابد لكبار موظفيه المدنيين [2] .

وندب واح إب رع قائد جيشه (المصري) أحمس للتفاوض مع الثوار ، ولكنهم اجتذبوه إلى صفوفهم وعهدوا إليه بزعامتهم ، فهاجم بهم الفرعون وأنصاره وأسره ويبدو أنه أجبره على إشراكه في الحكم معه ، ثم تجدد القتال بينهما وقتل واح إب رع على أيدي الثوار أو اغتيل بأيدي أعوانه [3] .

وأصبحت حزازات الإغريق مع المصريين مشكلة عويصة ، ردها هيرودوت إلى اختلاف العقائد بين الطرفين، وروى أنه بلغ من أمرها أن المصريين كانوا يأنفون (أحياناً) من تقبيل إغريقي أو استعمال أدواته الخاصة ، كما وردها معه بعض المحدثين إلى اختلاف حضارتي الفريقين ، وإلى اختلاف نظرة كل منهما إلى الأخذ بأمور النظافة المادية والمعنوية (وقد أبدى هيرودوت عجبه من إسراف المتدينين المصريين نظافتهم) [4] ولكل هذا صحته ، ولكن دون أن نستبعد العامل القوي في القضية وتقدير مرارة المصريين من انتقال مقاليد الحرب والاقتصاد في بلدهم إلى أيدي دخلاء يسهل تقبلهم على الرحب والسعة إن كانوا قلة أو رضوا بالقليل، ولكن الإغريق غدوا كثرة ينعمون بالكثير ، ويتبادلون النفع والانتفاع مع الحكام ولاسبيل إلى استهلاك تقاليدهم الإغريقية في المحيط المصري بسهولة .

وفي هذه الظروف القلقة وخلال الحرب الأهلية، انتهز نبوخذ نصر البابلي فرصته فهددت جيوشه الحدود المصرية، ثم ارتدت عنها ربما بشيء من الهدايا

(١) Herodotus, II, 161, 169; IV, 159.

(٢) J. Reymond, *ASAE*, 1957, 251 f. Cf. A. Rowe, *A History of Ancient Cyrenaica*, *ASAE*, Supl. cahier, 12, Cairo, 1958.

(٣) Dareessy, *Rec. Trav.*, XXII, 1 f.; Breasted, *op. cit.*, IV, 1001 f.

(٤) Herodotus, II, 41; Youyotte, *Histoire Universelle*, 245 f.; M. F. Gyles, *op. cit.*, 33-34.

والمصالحة على عدم الاعتداء [(١)] .

وأصبح على أحمس المصرى ، أو أمازيس الثانى كما اشتهر عند مؤرخى الإغريق أن يحل المشكلة، بعد أن ولته مصر عرشها باسم خنم إب رع - أحمس - سانيت . وكان أميل إلى السلم والسياسة مرحاً ذكياً ساخراً محباً للشراب، يميل إلى الدعابة الشعبية [(٢)] ، على عادة أغلب المصريين .

وعمل أحمس على أن يراعى مصالح المواطنين المصريين ، وأراد فى الوقت نفسه ألا يخسر صداقة العالم اليونانى الإغريقى، لو اشتد على الإغريق فى بلده فى عهد ظهرت فيه إرهاصات بأخطار جديدة من جانب الفرس . وهكذا أرضى الشعور الوطنى أولاً بأن أمر بسحب القوات الإغريقية والمتأغرقة من حاميات الحدود وتركزهم فى أحياء خاصة من مدينة منف، التى عاد إليها دور العاصمة الأولى ، ليظلوا تحت رقابة بلاطه وليكونوا قلة فى مجموع منف الكبير . كما عمل على إبعاد التجار الإغريق عن مناطق الاحتكاك المباشر بجماهير المصريين ، ومنعهم من التجول فى الأسواق المحلية الداخلية ، ولكنه لم يحرمهم من حرية العمل جملة، وإنما سمح لهم بتركيز نشاطهم فى بلدة نقراطيس ، وهى بلدة تقع على الجانب الغربى من الفرع الكانوبى فى نطاق الإقليم الصاوى ، وتقوم على أنقاضها نقرش وكوم جعيف قرب محافظة الإسكندرية؛ أى فى نطاق إقطاعيات الأسرة الحاكمة وتحت إشرافها . وكان الإغريق على معرفة بها منذ أن سمح بسماتيك الثانى لفريق من مهاجرى ميليتوس بالإقامة فيها ، فوسعوها وزادوا عمرانها ونظموا إدارتها المحلية على النسق الإغريقى ، وأقاموا فيها معابد صغيرة لأبوللو وأفروديت وغيرهما ، وجمعوا بين الأسلوبين المصرى والإغريقى فى صناعة الجعلان والفخار الفاخر والتمائم والتماثيل الصغيرة، التى صدروها إلى موانى البحر المتوسط وجزره لاسيما جنوب إيطاليا وسردينيا . وكانت السفن الإغريقية والمصرية تصل نقراطيس بسهولة ، وبهذا كانت سلفاً بعيداً لميناء الإسكندرية من حيث الأداء [(٣)] . واستمر أحمس فى توثيق علاقات

---

(١) Weidemann, "Nebuchadnezar und Aegyptens", *AeZ*, XVI, 87 f.; Kienitz, *op., cit.*, 30; Gyles, op. cit., 35.

(٢) Herodotus, II, 169; L. Spence, *Myths and Legends of Ancient Egypt*, 1949, 196.

(٣) Petrie, *Naucratis*, I-II; Prinz, *Funde aus Naukratis;* Milne, *JEA*, 1939, 177 f.

الود بالإغريق والمتأغرقين الخارجيين وهدى المعابد الإغريقية ، كما عقد حلفاً مع قرنيه فى الغرب ، وذكر هيرودوت أنه تزوج منها كما تزوج من كريتية . وترتب على ذلك أن اعتبره المؤرخون الإغريق أكثر الملوك الصاويين حنكة وحصافة وخلعوا عليه لقب Philhellene ، وأشادوا بنجاحه فى تحقيق السلم الداخلى بين المصريين وبين الإغريق فى ظروف عسيرة، ودون التضحية بمصالح اقتصادية أو عسكرية كبيرة .

ولسنا ندرى حقيقة مشاعر المصريين إزاء إجراءاته ، ولكن يبدو أنه ظل يتمتع بينهم بشعبية كبيرة . ونسب هيرودوت إليه أنه سن قانوناً يقضى على كل مصرى بأن يتقدم سنوياً لوالى منطقته؛ ليبين له مصادر كسبه ويثبت له حلالها من حرامها ، وأن من أهمل ذلك أو عجز عن إثبات موارد رزقه حق عليه الإعدام ، وأضاف أن المشرع الإغريقى الشهير سولون إقتبس هذا القانون وطبقه فى أثينا (١) . وتدعو الأمانة التاريخية إلى الإشارة إلى مافى من شك ، على الرغم مما فيها من تمجيد للمشرع المصرى ، إذا قدرنا أن تشريعات سولون فى صدرت عام ٥٩٤ أو عام ٥٩٠ ق.م قد سبقت تولية أحمس فى عام ٥٧٠ ق.م، وقد يكون غرض أحمس من قانونه ذاك ، فرض ضريبة على الدخل العام ، أو الحد من الكسب غير المشروع والبطالة والتواكل بين الناس .

وعلى أية حال، فإن روح السلام وحب الأمن الداخلى عند أحمس كلاهما لم يخبت طموحه ، ولم تمنعه مجاملة الإغريق من منافستهم فى البحر المتوسط ، فاستولى أسطوله على جزيرة قبرس(٢) ، ودل بذلك على قوة بحرية سبقت فى نشاطها أساطيل البطالمة . بل ونسب ديودور الصقلى بداية الحملات المصرية على قبرس إلى عهد أبريس (واح إب رع) .

وتعدت سياسة العهد الحدود القريبة إلى ماهو أوسع ، فعقدت مصر سلسلة من المعاهدات إتقاء خطر الفرس المرتقب، بعد أن ارتفع شأوهم فى هضاب إيران (راجع تاريخ العراق) . وتحالف أحمس مع كرويسوس ملك ليديا العظيم ، وبوليكراتيس

(١) Herodctus, II, 177.

(٢) Ibid., II, 182; Diodorus, 68.

طاغية ساموس . وثمة فرض باحتمال امتداد الحلف إلى إسبارطه وبابل أيضاً (١) . وبدأ قورش ملك الفرس بليديا ، وثمة رواية بأن مصر أنجدت حليفتها ليديا بعشرة آلاف قاتلوا فى صفوف متراصة وتترسوا بتروس كبيرة تستر الجسم كله . ولكن كرويسوس فشل وانهارت دولته سريعاً . وأضافت هذه الرواية أنه عز على قورش أن يتغلب على المحاربين المصريين بسهولة ، فقدر شجاعتهم وأقطع من رغب فى البقاء منهم مدينتين على ساحل آسيا الصغرى . وسواء صدقت هذه الرواية أم بالغت ، فهى لاتخلو من دلالة على تقدير كفاية المصريين فى نظر معاصريهم، على الرغم مما شهدته مصر من نكبات فى عصورها المتأخرة . وعقب قورش ببابل فابتلعها (راجع تاريخ العراق) ، وآثرت ساموس الخضوع ، وتبعها الفينيقيون ، وبقيت مصر وحدها . وقبل أن يتجه الغول الفارسى إليها ، توفى أحمس فى عام ٥٢٦ بعد أن حكم ٤٤ عاماً، ففقدت مصر به ركناً له كفايته وله شعبيته . وقبل أن نصل بها إلى نهاية المطاف ، نستعرض طرفاً من خصائص آثار العصر الصاوى وكتاباته وفنونه .

توزعت آثار هذا العصر فى شمال الوادى وجنوبه ولكن تركز أهمها فى رحاب ثلاث مدن كبيرة وهى سايس ومنف وطيبة . وكانت فى الوجه البحرى أوفر منها فى الوجه القبلى ، لولا أن عفت على أغلبها فيه ظروفه الطبيعية والسياسية (من حيث رطوبة أرضه وكثرة تعرضها لمشاكل الهجرات والغزوات ، إلخ) . ودفن بعض ملوك العصر فى جبانة سايس ، حتى واح إب رع (أبريس) الذى ذهب ضحية خطئه لم يأب شعبه أن يكرم مثواه بعد قتله . واتخذ كثير من كبار الشخصيات ، من أطباء وقادة وقباطنة ، مقابرهم فى سقارة حول أهرام الأسرتين الثالثة والخامسة وبجوار ماظنوه قبر الحكيم إيمحوتب وعلى مقربة من مدافن أبيس (السيرابيوم) المقدسة . واتخذ بعضهم الآخر مقابرهم فى غرب طيبة قرب الدير البحرى وعلى مقربة من مقابر عصر الأسرة الخامسة والعشرين ، وكان أغلبهم ممن عملوا فى خدمة العابدات الإلهيات (أو محارم آمون المقدسات) (٢) .

وتأثرت أساليب هذه المبانى وتلك برد الفعل القومى، الذى وضح مع مقاومة

---

(١) Herodotus, I, 77; II, 69--70; III, 39 f.

(٢) Daressy, *Rec. Tr.*, XVII, 17 f.; Benedite, *Mon. Piot*, XXV, I f.; Wreszinsky, *Atlas*, 132 f.; Schell, *Mem. Miss. Arch.*, V, 624 f.; Petrie, *Memphis*, II, pls. 2-9; von Bissing, *Archiv f. Orient.*, IX, 35 f.; etc.

الغزو الآشورى وفرحة الخلاص منه ، والذى دعا إلى الاعتزاز بالأصول ونادى باحتذاء أساليبها عسى أن يترتب عليها مجد يشبه مجدها القديم . وكان نصيب الفنانين من الاستجابة لهذه الدعوة أن قلدوا مناظر الدولة القديمة المنفية فى لوحات المقابر الجديدة ، من حيث هيئات الملابس والزينة ، وتصوير صيد المناقع والأحراج ، وتصوير مواكب حاملات الهدايا والقرابين وممثلى الضياع وممثلاتها [(١)] . وجاراهم الكتبة ، أو سبقوهم ، وتخيروا فقرات من متون أهرام الدولة القديمة فسجلوها فى بعض مقابر الخاصة ، وحذوا فى كتابة بعض نصوص النصب حذو أسلوب الدولة القديمة وهجاء كلماتها ، واستحبوا كتابة بعض هذه الكلمات ، بحروف هجائية مفردة صريحة . وإن لم يمنعهم هذا التمسك بالقديم من التوسع فى استخدام الخط الديموطى المستحدث فى الكتابة على البردى واللخاف والألواح لتسجيل شئون حياتهم العادية ونصوصهم الأدبية .

وسلك المثالون من ناحيتهم سبيلين : سبيلاً قلدوا به أساليب تماثيل الدولة القديمة المنفية وأشكال ملابسها وأوضاع أصحابها الواقفين والجالسين والمتربعين على هيئة الكتبة ، وخلعوا فيه على تماثيل ملوكهم مظاهر القداسة القديمة ، ومثلوهم بنظرات متسامية لامحدودة تنتقل بهم من عالم الناس إلى عالم قدسى عال بعيد [(٢)] . وسبيلاً آخر استحب المثالون فيه الأسلوب الواقعى الذى اشتهرت طيبة به فى بعض عصورها الوسيطة ، ثم زادوا فى إكساب بعض تماثيلهم طابع التأثير والواقعية بأن تخلوا عن تمثيل الشعور المستعارة لأصحابها واكتفوا لهم بالرؤوس الحليقة ، مما سمح لهم بأن يظهروا مدى ضيقها أو اتساعها أو استطالتها حسب تقاطيع أصحابها ، واعتادوا أن يصقلوا وجوهها صقلاً كاملاً كلما صنعوها من أحجار صلبة ذات حبيبات دقيقة[(٣)] .

---

(١) Gunn, *ASAE*, 1927, 122 f.; Posener, *op. cit.*, 1934, 142; Kuentz, *BIFAO*, 28, 103 f.; I. Nagy, in *Acta Antiqua Acad.*, Budapest 21 (1973), 53-64.

(٢) Cairo, 528, 533, 835, 925, 36908, 37341; Bosse, *Die Menschliche Figur*, 1936, Nr. 138, 214, also 217-218.

(٣) G. Vittmann, Die Familie der saitischen Koenige, *Orientalia* 44 (1975), 375-387. Cairo, 890; Berlin, 12500; Floreny, 1525; Bosse, *op. cit.*, 205-206; Cl. Barocas, in *Inst. Univ. Orientale Bull.*, Napoli, 1974, 113-161.

ويبدو أن العصر شهد نهضة علمية تناسبه ، كان منها مايتصل بالمعارف الفلكية والطبية ، ومايحتمل من قياس عمق نهر النيل فى عهد بسماتيك الأول ، وكثرة خروج البعثات إلى الصحراء الليبية . وامتدت معالم هذه النهضة إلى العصر التالى له على الرغم من مشكلاته السياسية [١] .

* * *

(١) L. Kakosy, in *Scientiarum Budapestiensis*..., 1975, 17-22.

رابعاً - النكسة مع الغزو الفارسى والأسرة السابعة والعشرين (٥٢٥-٤٠٤ ق.م)

تحددت مقابر الشرق القديم بميلاد الدولة الهخامنشية الفارسية فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وهى دولة أراد ملوكها أن يثبتوا لمواطنيهم بعقليتهم القبلية الجبلية أنهم يفوقون أسلافهم ذوى الميراث الحضارى الطويل من الإميين وماذيين ، قوة واقتداراً فى الداخل وفى الخارج ، وصمموا على بسط نفوذ دولتهم فى الاتجاهات الأربعة ، مستغلين فتوتهم وشيخوخة جيرانهم ، فخرجوا بحملات مسعورة ولكنها قوية منظمة يدقون الأرض دقاً عنيفاً تحت قيادة قورش (الثانى) حتى بلغوا آسيا الصغرى، واكتسحوا دولة ليديا التى كانت شيئاً عظيماً فى نظر إغريق الشرق والغرب معاً ، ثم عادوا فطووا بابل ذات التراث المجيد (راجع تاريخ العراق) ، وأدركوا من ثم سهولة إخضاع العالم المحيط بهم، والذى مزقته المنافسات والحروب المتصلة ، لحكومة عالية واحدة ، هى حكومتهم بطبيعة الحال . ومات ملكهم قورش فى عام ٥٢٩ ق.م قبل أن يحقق حلمه بفتح مصر التى كانت هى وبلاد الإغريق والفرس الدعائم الدولية الثلاثة حينذاك . وتولى تحقيق هذا الأمل قمبيز (الثانى) ، وعندما بدأ مشروعه لغزو مصر من حدودها الشمالية الشرقية عاونته الظروف ، فاستسلمت له بلاد الشام بدويلاتها الكثيرة ، ووضعت فينيقيا أساطيلها الكبيرة تحت طاعته ، وتخلت قبرص عن التعاون مع مصر ، وفقدت مصر ملكها المحنك أحمس وخلفه على عرشها ملك سيء الطالع هو بسماتيك الثالث (عنخ كانرع) ، وقيل إنه كان من كبار قادة جيشها قائد من المرتزقة الإغريقى يدعى فانيس خانها وهرب إلى جيش قمبيز ، وعاونه بدو الصحراء بحمل الماء عبر مسالكها (١) ، كما كان بمصر أعداد من اليهود الذين اعتبروا أباه قورش مسيحهم المنتظر، بعد أن فك إسار اليهود المنفيين فى بابل وماحولها وأعادهم إلى أورشليم وسمح لهم بتعميرها من جديد ، ولهذا أصبحوا على استعداد لأن يذللوا الصعاب فى سبيل إرضائه . ومع هذه الظروف غير المواتية، قاومت جيوش مصر جهد الاستطاعة وخاضت بقيادة ملكها التعس بسماتيك معركة عنيفة ضد الفرس فى الفرما (بلوزيوم) على الحدود الشمالية الشرقية فى عام ٢٥٢ ق.م ، ورأى المؤرخ هيرودوت آثار المعركة بعد نحو ثلاثة أرباع القرن من وقوعها فشهد بضراوة ماجدث

(١) Herodotus, III, 3-7, 39.

فيها ، وسجل ملاحظة طريفة ذكر فيها أنه رأى جماجم الفرس فى ناحية وجماجم المصريين فى ناحية عند مصب فرع بلوزيوم ، ولاحظ أن جمجمة الفارسى يمكن أن تصدعها بحصاة (على الرغم مما هو معروف عن ضخامة الرأس الآرية) ، بينما لاتنكسر جمجمة المصرى إلا بضربة حجر . ولم يثبت الجيش المصرى طويلاً أمام الطوفان الفارسى فتراجع إلى العاصمة منف ، ولكنها سقطت هى الأخرى وأسر ملكها بسماتيك الثالث ، وربما تساهل قمبيز وأطلق سراحه ولكن بسماتيك أبت عليه وطنيته إلا أن يستأنف المقاومة ، ولما انكشف أمره انتحر [١] . وخضعت مصر للفرس كما خضع ماعداها من أمم الشرق ، وإن لم يعفها هذا من وزر كبير، بعد أن فتحت أبوابها للمرتزقة من هنا وهناك وجعلتهم دعامة جيشها .

وبلغ من تقدير قمبيز لضخامة البلد الذى سيطر عليه أن أقام فى مصر أكثر من ثلاث سنوات ، صحبها فى بدايتها ما يتأتى عادة من الغزاة من تخريب ونهب ومصادرات وغرامات ، ولم تسلم المعابد من كل هذا فتخرب أغلبها وأنقصت مخصصاتها إلى النصف، وعسكر فيها جنود الاحتلال من كل ملة ونحلة [٢] . ثم هدأت شرة الغزاة وتفتحت أمام قمبيز فى مصر آمال جديدة ناحية الغرب والجنوب ، وخطط لثلاثة مشروعات فشلت كلها ، فقد مهد لغزو قرطاجة الفينيقية الأصل ذات الشهرة التجارية (فى تونس)، وتعلل بأن استقل هداياها وهدايا قرنيه إليه ، وأراد أن يستعين بالأسطول الفينيقى على فتحها ، ولكنه فشل ولعله لم يجد الإخلاص والاستجابة الفعالة من أبناء عمومتها الفينيقيين . وأرسل حملة إلى سيوة أحد مراكز آمون الكبرى ووحيه ذى الشهرة الواسعة ، ليتم بها فتح الواحات وربما ليفتح بها طريقاً إلى مابعدها عن طريق البر ، فابتلعت الغرود والعواصف الرملية الكثيفة حملته . وقاد حملة إلى نباتا طمعاً فى ذهب النوبة وليفتح بها طريقاً إلى السودان، ولكنها فشلت من قلة الزاد وصعوبة الطريق ومقاومة نباتا [٣] . وكان من الطبيعى أن يرى المصريون فى هذا الفشل المثلث انتقاماً من السماء ، وقد أحاطوه بأساطير وجدت آذاناً صاغية من الإغريق أعداء الفرس ، فروى هيرودوت أن قمبيز أصابته لوثة من جراء فشله ،

(١) Herodotus, III, 13-15.

(٢) Posener, *La premiere domination Perce en Egypte*, 1936; Cowley, Aramaic Papyri of the Fifth Century B. C., No. 301. 14.

(٣) Herodotus, III, 17, 25, 26; Wainwright, *JEA*, 1952, 75 f.

وعندما رجع من حملة النوبة إلى منف وجد أهلها يحتفلون بمولد أبيس جديد، فظنها فرحة الشماتة به وقتل كبارهم وطعن أبيس بخنجره ، وأمر بإخراج جثة أمازيس الصاوى حبيب قومه ، واستنزل اللعنات عليها ثم حرقها ، وقيل إن ما أثار حفيظته على واحة سيوة هو أن وحى آمون فيها كان قد تنبأ بفشله سلفاً . ثم روى هيرودوت أن الرجل جن لاسيما بعد أن بلغه نبأ مؤامرة فى فارس للاستيلاء على عرشه ، فسارع بالعودة إلى بلده ، وهنا كان لايزال للانتقام الإلهى بقية ، فحدث خلال سفره فى سوريا أن وخز نفسه بسلاحه فى فخذه فى موضع مماثل للموضع الذى طعن فيه أبيس المقدس ، فتسسمم الجرح وأودى به (ويرى فيدمان ودريوتون وبوزنر أن كل مايعرف عن موقف قمبيز إزاء أبيس هو تأخير دفنه نحو خمسة عشر شهراً ، لأسباب غير معروفة ، وهى فترة أطول بكثير مما تطلبه عملية تحنيطه) [١] . وقد تكون أمثال هذه الأساطير التى تتمسح فى القدر وفى انتقام الآلهة هى حيلة الشعوب حين تغلب على أمرها ، ولكن الخسارة الكبرى التى خسرها قمبيز فعلاً كانت إنتقال عرشه من فرعه إلى فرع آخر من أسرته، بعد معارك دامية انتهت بتولى الملك دارا الأول فى عام ٥٢١ ق.م .

وكان دارا (أو دارايا فاهوش) ذا شخصية حربية وإدارية وتشريعية كبيرة، دعت أتباعه وأعداءه معاً إلى تلقيبه بلقب «الملك العظيم» . وقد أصاب مصر من تنظيماته أنه أدرك أن أمورها لن تستقر إلا فى ظل قوانينها الخاصة، فألغى بعض اجراءات سلفه، وسمح بالرجوع إلى ماكانت الأمور عليه فى ظل التشريع الصاوى ، وأمر واليه باختيار لجنة من حكماء البلاد كهنة وكتبة مدنيين وعسكريين ، لجمع التشريعات المصرية المعمول بها حتى العام الرابع والأربعين من حكم أحمس الثانى (أمازيس) وإعادة تدوينها بكل من الكتابتين المصرية والمسمارية ، وهو عمل خدر الناس به وشغل به أصحابه نحو أربع أو خمس سنوات [٢] ، وإن كان قد كرر مثله فى ولايات أخرى مما يدل على اتباعه سياسة عامة مرسومة فى دولته . وحاول دارا إنعاش الأوضاع الاقتصادية فى مصر لمصلحة حكمه بطبيعة الحال ، فأمر بإعادة شق

(١) Herodotus, III, 16, 27-29 167; Plutarch, *de Iside*, 44; Posener, *op. cit.*, 173 f.

(٢) Diodorus, I, 95; Spiegelberg, Die *Sogenante demotische Chronik*,1914, 30 f.; Ed. Meyer, *Sitz. AK. der Wissenchaften*, 1915, 287 f.

ماطمسه الطمي والرمال من قناة نيكاو المؤدية إلى البحر الأحمر ، مع نقش النصب التى أشادت بهذا العمل بكل من الهيروغليفية والمسمارية . وكان من دوافع مضيه فى هذا المشروع تيسير وصول سفن الجزى إلى فارس عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى ثم الخليج الفارسى (أو العربى) ، وكانت تبلغ أربعاً وعشرين سفينة سنوياً ، فى مقابل التقليل من النشاط التجارى الملاحى المتجه إلى إغريق نقراطيس فى غرب الدلتا . ثم اعتبار القناة مرحلة من مراحل تنشيط التجارة البحرية المتبادلة مع الهند[١] . وليس من المستبعد أنه تبع الفرس فى دخولهم إلى مصر واستقرارهم فيها أعداد أكثر من تجار البلاد الخاضعة لسلطتهم .

واعتبر الفرس مصر للأسف ولاية تحكم من قبل دولتهم ، ولكنها كانت أولى الولايات فى غناها ، أو الثانية على أقل تقدير ، وكانوا يفرضون عليها مايبلغ ألف تالنت من الفضة (وقدر التالنت بستة وخمسين رطلاً) بين جزى ونفقات احتلال ، ويستغلون من مناجم معادنها مايعادل هذا المقدار [٢] . وعهدوا بأمرها إلى وال فارسى (خشاترا فافان وهو لقب حرف فى اليونانية إلى ساتراب) . وغالباً ماكان هذا الوالى يختار من كبار عظماء الفرس وأمرائهم ، وقد يكون أخاً للملك الفارسى نفسه تقديراً لأهمية منصبه . وكان يعاونه عدد من الموظفين والجباة الفرس والبابليين والسوريين واليهود ، يعملون لصالحه ، إلى جانب قلة من كبار المصريين ترك بعضهم عدة مقابر فى سقارة ذات آبار عميقة ونقوش تشبه النقوش الصاوية . ودخلت العملة الفعلية مصر مع الفرس ، ونسب إلى أول ولاتهم على مصر أنه سك عملة من الفضة الخالصة تدليلاً على ثرائه ، مما حوسب عليه فيما بعد ، كما ظهرت عملة ذهبية فى عهد دار [٣] . وكان من الطبيعى أن يجعل الولاة الفرس لكتابتهم المسمارية نصيباً فى تدوين أوامرهم إلى جانب الكتابة المصرية ، واستعملوا معها اللغة الأرامية مع أتباعهم

---

(١) Herodotus, II, 158; IV, 39; Pliny, VI, 26; Posener, op. cit., 48 f.; 108 f.; *Chr. d'Egypte*. 1938, 259 f.; Kent *JNES*, 1942, 415 f.; W. Hinzs, *Arch. Mitt. aus Iran*, 1975, 115-121.

(٢) Herodotus, III, 89-90; II, 89-90; II, 139; Olmstead, *History of Persia*, 298; Gyles, *op. cit.*, 70.

(٣) Herodotus, IV, 166.

الساميين ومنهم اليهود (1) . أما الدواوين المحلية فقد توسع كتبّها المصريون فى استخدام الخط الديموطى المختصر . وكعادة مصر ، والبلاد العريقة المتحضرة ، تقهر قاهريها بحضارتها ، سمى بعض الفرس المقيمين فى مصر أبناءهم بأسماء مصرية واتجهوا بدعواتهم إلى الأرباب المصريين ، وأكمل ملوكهم بعض المعابد التى بدأها الملوك الصاويون ، لاسيما فى مناطق الدلتا والواحة الخارجة.

ولم يخل الأمر من منتفعين من المصريين أنفسهم ظنوا حسن السياسة فى التسليم بالأمر الواقع، ومحاولة خبث شرة الغزاة، وإنقاذ مايمكن إنقاذه منهم بالتقية والمداراة . وقد نخالف هؤلاء فى مذهبهم ، ولكن ليس للتاريخ إلا أن يثبت الأمر الواقع من تصرفاتهم . وكان منهم رجل من سايس يدعى وچاحور رسنة ، روى فى نصوصه ، بحق أو بغير حق ، أنه جمع بين عدد مختلف من التخصصات ، فكان من المشرفين على الأسطول فى نهاية العصر الصاوى ، ثم ظهر عالماً بالدين والتقاليد خبيراً بالطب مشجعاً للثقافات العالية راعياً لإقليمه ، فى بداية العصر الفارسى . وروى أنه قابل قمبيز وأطلعه على ما أساء رجاله به إلى معابد سايس ، ودعاه إلى تقوى أربابها ، فاستجاب له وزار معبد الربة نيت فيها وركع أمامها ، واستحق بذلك أن يصوغ له ديباجة ألقابه وفق التقاليد المصرية . ثم كان وچاحور رسنة أكثر نجاحاً ، من وجهة نظره ، فى عهد دارا الذى استصحبه معه إلى فارس بعد زيارته لمصر ، ثم أعاده منها بما رد على سايس اعتبارها ، وسمح له «بإصلاح قاعة دار الحياة (المتعلقة بالطب) بعد أن تخريت» . وكانت دور الحياة أشبه بمعاهد للثقافات العالية فى مصر القديمة . وأضاف أنه زود هذه الدار بكل دارسيها من علية القوم دون أن يكون بينهم ابن وضيع ، وجعلهم تحت إشراف كل ذى معرفة حتى يتعلموا منهم فنونهم جميعها ، ثم زودهم بكل نافع لهم وبكل مهماتهم التى كانت مدونة لهم ، وفق ماكانوا عليه من قبل (2) .

---

(1) Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 369-370.

(2) Schaefer, *ZAeS*, 37, 74; Kees, *ZAeS*, 73, 87 f.; Gardiner, *JEA*, 1938, 170-171; Posener, *La premiere Domination Perse*, 1 f.; A.B. Lloyd. *JEA*, 68 (1982), 166-180.

عبدالعزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة – القاهرة ١٩٦٦ – الفصل التاسع ص٢١٩–٢٢٨ .

وعلى أية حال ، فإذا كان وقع صدمة الغزو عنيفاً ، وكانت إصلاحات دارا قد خدرت المصريين بحيث اجتذبت نفراً منهم إلى طاعته ، إلا أن نار الوطنية المغلوبة على أمرها لم تخب تماماً تحت الرماد ، فهبت فى مصر خلال العصر الفارسى أربع ثورات ، ارتبطت فى أغلبها بمصائر الفرس فى نزاعهم الطويل مع الإغريق ، فى عالم أصبحت موازين القوة والاقتصاد فيه فى أيدى الفرس من ناحية والإغريق من ناحية أخرى . فبعد هزيمة الفرس فى ماراثون أمام الأثينيين فى عام ٤٩٠ ق.م ، هبت ثورة فى مصر حوالى عام ٤٨٨ أو ٤٨٦ ق.م ، وكان وقعها شديداً على دارا الذى ظن أن الشرق طوع يمينه ، ومات دارا واستمرت الثورة بضع سنوات حتى أخمدها خلفه العنيف أخشويرش (أكسركيس) واشتط فى الانتقام من مصر واستغلالها، فهجر عدداً كبيراً من أهل الحرف إلى فارس (كما فعل الآشوريون من قبل) وفرض على مصر إعداد مائتى سفينة استغلها فى قتاله ضد الإغريق ، وشدد الحاميات هنا وهناك واستعان فيها باليهود ، ثم عين أخاه والياً على مصر حتى ينفذ سياسته فيها[1]. ولكن منذ ذلك الحين اهتزت السيطرة الفارسية ولم تكتمل حلقاتها مرة أخرى . فعندما حم القضاء فى هذا الملك وخلفه أخوه أرتاخشاشا الأول (أرتا كسركسيس) هبت ثورة أعنف من سابقتها فى عام ٤٦٠ ق.م ، تزعمها أمير من الدلتا يدعى إرتن حر إرو بن بسماتيك (وهو إناروس فى الروايات الإغريقية) ، وجعل مركز مقاومته فى مريوط بعيداً بعض الشىء عن حاميات الفرس ، وتغلب الثوار على جزء من الجيش الفارسى وقتلوا قائده والى مصر وشقيق ملك الفرس ، وأجبروا بقية وحداته على التراجع إلى منف . واستعداداً لمرحلة تالية ، واتقاء أن يستغل الفرس سيطرتهم على منف فى حرمان الثوار من معونات الصعيد ، خرج زعيم الثورة بالمقاومة عن نطاقها الإقليمى ، فحالف أثينا فى عهد بريكليس العظيم . ووجدت أثينا فى هذا الحلف فرصة لزيادة وارداتها من الغلال المصرى ، ولمضايقة أعدائها الفرس الذين كانوا ينافسونها فى قبرص ، فأمدت الثوار بأسطول روى بعض المؤرخين الإغريق أنه بلغ مابين ٢٠٠ و٣٠٠ سفينة من ذوات الثلاث طبقات من المجاذيف ، وليس من ضرورة للأخذ بحرفية هذا العدد الكبير من السفن ، ويكفى القول بأنه كان أسطولاً كبيراً . ونجح الأحلاف فى استرجاع أغلب استحكامات منف من أيدى الفرس ، وهنا جند الملك

(١) Herodotus, I, 35; VII, 7, 236; Cameron, *JNES*, 1958, 161 f. amd *see*, Cowley, *op. cit.*; G.R. Driver, *Aramatic Documents of the Fifth Century*, 1957.

الفارسى جانباً كبيراً أيضاً من إمكانيات دولته لخلق الثورة ، ووجه لهذا الغرض جيشاً ضخماً ذكر بعض رواة الإغريق أنه بلغ ٣٠٠ ألف مقاتل (وهو عدد مبالغ فيه كذلك) ، وأغرى إسبارطه عدوة أثينا اللدود بمقادير كبيرة من الفضة لكى تشغل أثينا بالحرب وتصرفها عن مساعدة المصريين . وتم هذا كله وهزم الفرس الأحلاف وأسروا زعيم الثورة ثم قتلوه فى عاصمتهم ، وحصروا الإغريق فى جزيرة بالنيل منذ عام ٤٥٦ حتى عام ٤٥٤ ق.م. وتحت وطأة الحصار ، ونتيجة لتأثر المدد الأثينى ، ولاستعانة الفرس برجال البحر الفينيقيين فى تحطيمه ، تهاوى بحارة الإغريق واستطاع بعضهم الفرار إلى برقة [١] . ولكن الثورة المصرية لم تمت ، وتسلم رايتها أمير سياس ، أمون حر (الأول ، أو أمير يتايوس كما سماه بعض مؤرخى الإغريق) أكبر أعوان الزعيم المقتول ، لبضع سنوات ، وجرب حظه فى التحالف مع أثينا ، فوعدته بنجدة قوامها ستون سفينة ، ولكن مشاكلها الخاصة جعلتها تسترجع أسطولها قبل أن يصل الشواطىء المصرية ، ثم ما لبثت أن عقدت مع الفرس معاهدة كالياس فى عام ٤٤٩-٤٤٨ ق.م، وتناست حليفتها مصر [٢] ، مما أدى إلى إضعاف الثورة وإن لم يقض تماماً على بذورها .

وجرب الفرس سياسة المسالمة ، فعينوا ابنى زعيمى الثورة فى منصبى والديهما بالدلتا ، ولكن هذا لم يؤد الغرض منه ، فحاول أحدهما (وهو بسماتيك أو أمون حر الثانى ؟) استئناف النضال ، وفاوض الأثينيين بعد صلحهم المؤقت مع اسبارطه عام ٤٤٥ ق.م ، على أن يمدهم بما بين ٣٠ و ٤٠ ألف مكيال من الغلال ، فى مقابل نجدة عسكرية ، مما يعنى أن مساعدات الإغريق كانت تشترى بالمال لتجنيد المرتزقة ، كما تعنى ضخامة كمية الغلال التى عرضها سعة الأراضى التى سيطر عليها . ويبدو أن الغلال وصلت أثينا ولكن نجدة أثينا لم تصل إلى مصر [٣] .

* * *

(١) Herodotus, II, 41, 140 165, III, 12-15; VII, 7, 15; Thucydides, I, 104, 109, 110, 129; Diodorus, XI, 71, 77; Kienitz, *op. cit.*, 69.

(٢) Thucydides, I, 112; Plutarch, *Cimon*, 18; J.B. Bury, *History of Greece*. 3rd ed., 360.

(٣) Herodotus, III, 15; Plutarch. *Pericles*, 37.

خامساً - ابتسامة مبتسرة فى عصور الأسرات ٢٨-٣٠ (٤٠٤-٣٤٣ ق.م)

ماع الموقف لبعض الوقت فيما بين الفرس وبين المصريين منذ منتصف القرن الخامس ق.م ، وزار مصر حينذاك أبو التاريخ هيرودوت وأشاد بمجدها ، مع أن مجدها ذاك لم يكن غير ظل باهت ضئيل لمجدها القديم ، وأشار فى الوقت نفسه إلى تعدد طوائفها ووجود الفوارق بين طبقاتها وانشغال الناس بالخرافات، التى ألبست ثوب الدين واتصلت بحيوانات أربابه ، مما لم تلجأ مصر كثيراً إليه إلا فى عهود ضعفها السياسى وقلقها النفسى .

ولم يكن لمصر حينذاك أن تفكر فى إعادة التعاون العسكرى مع الإغريق ضد الفرس ، بعد أن هادنت الدولتان الكبيرتان أثينا وإسبارطه الفرس ، وانقلبت كل منهما على الأخرى تطحنها وتهد بنيانها (منذ عام ٤٣١ ق.م) . وظل الأمر مائعاً بالنسبة للقوميين المصريين، حتى دخلت ثوراتهم مرحلتها الرابعة معتمدة على سواعد رجالها بزعامة أمون حر الثانى فى حوالى عام ٤١٠ ق.م ، وامتد لهيبها إلى أغلب الأقاليم المصرية، وتكللت بالنجاح بعد نحو ست سنوات (أو ثمان سنوات) ، وإن كنا لاندرى عن تفاصيلها إلا ماذكرته روايات إغريقية من أن الملك أمون حر استعان بقوات حاكم كيليكيا، الذى لجأ إليه بأسطوله وذخائره فراراً من بطش الفرس ، وأنها انتهت بخلوص حكم مصر لأهلها ، وتحررها من ربقة الفرس [١] . ومن هنا بدأ المؤرخ مانيتون الأسرة الثامنة والعشرين وقصرها على ملك واحد وهو زعيم الثورة أمون حر (الثانى) ، الذى استعاد ألقاب الفراعنة حوالى عام ٤٠٤ ق.م، وساعده على الاستقرار قليلاً وفاة دارا الثانى ملك الفرس وانشغال ملكها الجديد أكسركسيس الثانى بثورة أخيه قورش ضده . ولكن أمون حر لم يستمر على العرش المستقل غير ست سنوات وبضعة شهور، ومات فى حوالى عام ٣٩٧ ق.م ، ولم يخلفه ولده من صلبه . وبررت بردية مصرية ديموطية هذا المصير من وجهة نظرها ، بأنه كان قد تجاوز نصوص شريعة قومه ، ولهذا عاقبه الأرباب بحرمان ولده من عرشه ، ولم يشفع له عندهم نضاله فى سبيل تحرير بلده . ولاندرى هل عنت بمخالفته لهذه الشريعة اعتداءه بصورة ما على حرمات الدين أو متعلقات المعابد ، أم أنها عنت بذلك خطيئة أكبر، وهى احتمال

(١) Xenophon, *Anabasis*, I, 14, V, 73.

اتجاهه إلى مصانعة الملك الفارسي (أرتا كسركسيس الثاني) عدو الأمس بعد أن تخلص من مشاكله الداخلية وفتك بأخيه المنافس له على العرش وبدأ يهدد الإغريق ، وهو اتجاه ، إن صح ، كان في نظر أمون حر سياسة لاتضره بعد أن استمتع باستقلاله، بينما كان في نظر الوطنيين المتطرفين خيانة استحق من أجلها أن يحرم نسله من عرشه .

وكان لكل من الجاليتين النزيلتين في مصر حينذاك ، الإغريق واليهود ، مصير مختلف وسط هذه الأحداث . أما الإغريق ، فقد ترتب على تكرار محالفات الثوار المصريين للأثينيين ، أن تفتحت أمام تجارهم الأسواق المحلية من جديد ، وعوضتهم عما خسروه من منافسة قناة شرق الدلتا إلى البحر الأحمر لتجارة نقراطيس[1] . وأما اليهود الذين آوتهم مصر منذ عهود اضطهاد الآشوريين لهم ، وسمحت لهم بمزاولة نشاطهم التجارى وحرية العقيدة فيها ، فقد قابلوا ذلك بأن أصبحوا أعواناً للفرس ضدها ، وانضموا إلى بعض الحاميات الفارسية ، لاسيما حامية إلفنتين موضوع الحديث التالى .

الوثائق الآرامية فى أسوان :

عثر فى جزيرة آبو ، أى فى جزيرة إلفنتين (أو إلفانتينى) فى منطقة أسوان ، على عدة وثائق آرامية أرجع أغلبها إلى أواسط القرن الخامس ق.م . ، ولقيت اهتماماً خاصاً من الباحثين فى الساميات ومن الباحثين اليهود بالذات لترجمتها والتعقيب عليها [2] . وصورت هذه الوثائق عدة جوانب من حياة أقليات أجنبية ضمت آراميين ويهودا وسوريين وفى بعض الأحيان إغريقاً وإيجيين ، ثم بابليين وخوارزميين وماذيين وفرساً . وقد عاشوا أعداداً محدودة بقرب مواطنى المنطقة المصريين . ولم تكن موارد أسوان المتواضعة لتتيح لأولئك الأجانب والمتمصرين استغلالاً اقتصادياً كبيراً ، ولهذا عمل أغلبهم بحرفة الجنود المرتزقة فى حصون أسوان التى مثلت همزة

(١) *cf.*, Mallet, *Les repparts, des Grecs avec l'Egypte, de la conquete de Cambyse a celle d'Alexandre*, 1922, 77 f.

(٢) *Cf.*, Sayce and Cowley, *Aramaic Papyri discovered at Aswan*, 1906; G.R. Driver, *Aramaic Documents of the Fifth Century B.C.*, 1957; *ZAeS*, 1964, 63f.; B. Porton, *Archives from Elephantine*, 1968; etc.

الوصل بين أقاليم مصر الجنوبية وبقية النوبة وماورائها ، فى فترات السلم وفترات الحروب على حد سواء .

وذكرت الوثائق الآرامية من مسميات التنظيمات العسكرية التى انضوت تحتها هذه الجماعات ، الاسم الآرامى «حيلا» بمعنى حامية أو فرقة ، واسم «دجل» بمعنى وحدة أو معسكر ، وإن دل أحياناً على معنى اللواء أى العلم ، وكان كل منهما يضم المجندين وأسرهم ، ثم تعبير المائة ليدل على سرية بالعدد نفسه .

وحظيت أوضاع الجالية اليهودية بالاهتمام الأوسع من الدراسة والتعقيب ، كما أسلفنا ، وتركزت هذه الجالية فى جزيرة إلفنتينى ، وإلى حد ما فى سونو أى فى مدينة أسوان ، وكان منهم عسكريون ومدنيون . وغالباً ما وصف العسكريون منهم بأنهم بعول قرية أى أفراد القرية ، وقد يوصف بعضهم بالصفتين ، أو ينتمون إلى دجلين أى وحدتين ، أو ينسبون إلى مقر إقامتهم فيقال بعول آبو ، وبعول سونو .

وتعددت وجهات النظر فى ظروف اتجاه هذه الجالية اليهودية إلى آبو أو أسوان، وتوقيت بداية سكناها فيها وانضمامها إلى معسكراتها . وربطت بعض الآراء بين لجوئهم إلى مصر وأحداث التاريخ اليهودى خلال القرنين السابع والسادس ق.م، حين أدت مراحل النزاع بين يهود إسرائيل وبين يهود يهوذا ، ثم بينهم جميعاً وبين الآشوريين ، إلى نزوح جماعات من هؤلاء وهؤلاء إلى أماكن قصية يلتمسون الأمن فيها . ولعل مصر الغنية القريبة من فلسطين كانت ملجأ مغرياً للبعض منهم . وقد سبق ذكر المرات التى وقفت مصر فيها سنداً لليهود ضد الآشوريين ، حينما تدخلت فى عهد تاف نخت لنجدة السامرة ضد جيش شلما نصر الخامس ، ثم فى عهد شبتكو وطاهرقا لنجدة أورشليم ضد جيش سيبا خريب .

وحينما عاد يوشيا فى عام ٦٣١ ق.م إلى تغييره الدينى الذى تضمنه سفر تثنية الاشتراع ، نزح بعض معارضيه وبعض الكهنة الذين فقدوا امتيازات معابدهم ، إلى مصر . ثم زادت دواعى الهرب من يهوذا حينما اشتد حصار البابليين لها ، وقد عاونتها مصر فى عهد الملك واح إب رع على مقاومة هذا الحصار . وعندما تمكن البابليون منها ودمروها ارتحل بعض أهلها إلى مصر ووسعتهم رحابة صدرها ، كما استقبلت بعدهم نبيهم إرميا وأعوانه حينما لاذوا بها لبعض الوقت .

ولما كان اللاجئون فى أغلب هذه الأحوال مستضعفين، لم يجد بعضهم بأساً

من أن يعيشوا فى أقصى جنوب مصر ويحتملوا ظروف الحياة فيه .

والتفتت آراء أخرى إلى ما اتصل بمصر نفسها من أحداث مع آشور وبابل وفارس ، وماكان من دواعي وصول بعض اليهود إلى أقاليمها الجنوبية . فافترض رأى أن أسلافهم كانوا ممن ساقهم الملك الآشورى آشور بانيبال من أتباع منسا ملك يهوذا خلال حملته ضد مصر فى عام ٦٦٧ ق.م ، ولعله ألزمهم جنوب مصر ليعملوا فيه باسمه ، أو لعلهم انطووا فيه على أنفسهم بعد رحيله . وردهم رأى آخر إلى عهد الملك بسماتيك الأول فى منتصف القرن السابع ق.م حينما فتح أبواب مصر أمام الجنود المرتزقة من كل نحلة ، كى يحفظ التوازن بهم فى جيشه إزاء المرتزقة القدامى الذين استشرى أمرهم واستعان ببعضهم الأمراء الإقطاعيون المنافسون له ، فدخل مصر بعض اليهود إلى جانب غيرهم من بلاد الشام (وبلاد الإغريق وجزر البحر المتوسط الشرقية) . وعندما استقر أمر الملك ، وزع مرتزقة جيشه على حاميات الحدود فكان من نصيب اليهود أن ضموا إلى حامية أسوان . ولعله قد جند بعضاً آخر من يهود أورشليم خلال حصار جيشه الطويل لمدينة أشدود ، وتلقى بعضاً آخر منهم من منسا ملك يهوذا فى مقابل مازوده به من خيول الحرب . وعندما مد الملك نيكاو الثانى نفوذه على أورشليم خلال استعداده لملاقاة البابليين ، فرض عليها جزية كبيرة وأسر ملكها أو قتله ، وساق بعض أعوانه إلى مصر .

وثمة رأى يفترض ماهو قريب من هذه الظروف أيضاً فى عهد الملك بسماتيك الثانى ، على أساس احتمال انضمام بعض اليهود إلى معسكره خلال حملة جيشه على منطقة خارو فى جنوب الشام ، وأن بعضهم قد انضم إلى مرتزقة جيشه الذين تألفوا من كريين وإيونيين وروديسيين وفينيقيين خلال حملته على أطراف دولة نباتا الجنوبية .

ويبدو أنه كان من المشكلات التى واجهت الملك واح إب رع (أبريس) فى أواخر عهده ثورة بعض جنود حامية إلفنتينى الوطنيين ضده وارتحالهم إلى داخل النوبة ، وبهذا سنحت الفرصة أمام المرتزقة الأجانب ومنهم اليهود ليستقروا محلهم . وذكر المصرى نسحور قائد بوابة الأقطار الجنوبية فى عهد هذا الملك تواجد جنود عامو (أى قبليين) ، وستيو (أى آسيويين) ، وحاونبو (أى إيجيين) ، فى أسوان ، وكان أغلب القبليين والآسيويين فيما يبدو من الآراميين واليهود . وأشارت بردية ديموطية

من العام ٤١ من عهد الملك أحمس الثانى (أمازيس) إلى إيفاد بعض قواته إلى النوبة، وكان من بين الجنود المرتزقة المنضمين إليها ٦٠ شخصاً من خارو أى من جنوب الشام ، و ١٥ شخصاً من آشور (أو من سوريا ؟) . ولعله زاد من فرص التواجد فى أسوان أمامهم اتجاه سياسة الدولة حينذاك إلى سحب المرتزقة الإغريق من حاميات الحدود ، فحلوا محلهم .

والغريب أن نبوءات متنبئ اليهود أو أحبارهم ، ظلت مع كل ماقدمته مصر لشعبهم فى الداخل وفى الخارج لاتنى تتوعدها بالمستقبل المظلم وبكل شر مستطير !

وتزايد تواجد اليهود نسبياً فى معسكرات أسوان على الحدود الجنوبية خلال عصر الاحتلال الفارسى ، فكانوا من أدواته وأقرب إلى الإخلاص له وعيوناً له على الوطنيين المصريين وعلى أحداث النوبة . ولعل ذوى قرباهم من يهود فلسطين الذين اعتبروا قورش ملك الفرس مسيحهم المنتظر الذى أعادهم من المنفى فى بابل ، قد ساعدوا الحملة الفارسية على مصر فى عهد ولده قمبيز . وهكذا وجد يهود مصر الجزاء المباشر على ذلك بحيث روى أحدهم فى القرن الخامس ق.م فى أسوان ، أن ملك الفرس (قمبيز) قد هدم كل معابد آلهة مصر وأنقص مواردها، ولكنه لم يصب المعبد اليهودى فى جزيرة آبو بسوء . وروى هيرودوت من ناحية أخرى أن قمبيز أرسل أكلة السمك من الفينيقيين يحملون الهدايا إلى دولة نباتا بهدف التجسس عليها ، ولعل بعضهم كانوا من اليهود . واستمرت سياسة تقرب اليهود من الفرس فى مصر فى عهود خلفاء قمبيز بحيث اعتزوا بأنهم احتفظوا لديهم بنسخة من تاريخ حياة الملك دارا الأول ، وعندما بليت كتبوا لأنفسهم نسخة أخرى .

على أن الملوك ، حتى ملوك الفرس أو نوابهم على مصر ، لم يطمئنوا إلى ولاء هذه الطائفة دون ضمان ورقابة ، فجعلوا رؤساء الفرق الكبيرة «حيلا» والفرق الصغيرة أيضاً «دجل» من جنسيات أخرى ، كالبابليين والفرس . وذكرت الوثائق المعروفة حتى الآن أربعة رؤساء دجل بين أعوام ٤٦٤-٤٤٦ ق.م ، وأربعة آخرين بين أعوام ٤٤٦ و٤٢٠ ، ثم ثلاثة أو أربعة بين أعوام ٤١١ و ٤٠٠ ق.م . ولايعرف إن دل تكرار رقم الأربعة فى هذه الحالات على تواجد أربع وحدات دجل فى آن واحد ، أم غير ذلك . وهكذا كان رئيس المنطقة الملقب بلقب «فراتركا» ربما بمعنى الأول أو المقدم ، من غير اليهود أيضاً ، وكانت له بحكم منصبه سلطات الإشراف العسكرى والمدنى معاً .

ضمنت حرفة الجندية للأقليات الأجنبية فى منطقة أسوان الإقامة والحماية ، وانتفعوا بمرتباتها التى كانت عينية فى معظم أحوالها تصرف من بيت المال فى آبو وقد عبرت الوثائق عنه باسم خزانة الملك ، وعن طريق بيت الملك ، أى ديوان الحكم فى المنطقة . ولم يحل هذا دون أن يعمل بعضهم فى الزراعة، وأن يتملكوا تبعاً لذلك بعض الأراضى المحدودة ، وأن يرافق بعضهم قوافل التجارة إلى الجنوب ، ويعمل بعض آخر جباة ضرائب فى خدمة الدولة . وعاش المرابون اليهود فى هذا المجتمع المفتعل الصغير على ما عاشوا عليه فى كل العصور ، فاتسمت شروطهم الربوية بالإجحاف حتى فيما بين بعضهم البعض ، فبلغ سعر الفائدة ٦٠ ٪ وكانت سريعاً ما تتضاعف؛ حيث كانت فائدة مركبة تضاف قيمتها إلى أصل الدين، إن لم تسدد فى موعدها لتخضع مثله لربح آخر .

وكطائفة تعتمد أساساً على رابطة الدين - أقام يهود إلفنتين فى شمال الجزيرة معبداً للإله يهوه، جمعوا له المعونات من أثريائهم وفرضوا له تبرعات على رجالهم ونسائهم ، ولعلهم قلدوا فيه بعض خصائص معبد أورشليم فى صورة متواضعة بطبيعة الحال ، فكان له أعمدة حجرية وسقف خشبى ويقوم به نصب ومذبح ، ووصفوا ربه بأنه رب الجنود وأنه الرب الموجود فى آبو الحصن أى حصن إلفنتين ، وإن خالفوا بذلك قانون الإصلاح الدينى، الذى لم يعترف إلا بمعبد أورشليم معبداً رسمياً، ودعا إلى الاعتقاد بأن الإله مسكنه السماء وأن اسمه هو الذى يسكن المعبد .

وسواء أتى اليهود معهم برواسب ديانة التعدد القديمة فى فلسطين ، أو خضعوا لدواعى الاختلاط ببيئة المرتزقة التى عاشوا فيها ، أم أتت الوثائق الآرامية بأخبارهم إلى جانب أخبار غيرهم وخلطت بينهم ، فقد وردت فى هذه الوثائق أسماء معبودات مصرية وآرامية وبابلية وفارسية قديمة أيضاً ، مثل، أسماء ساتت وخنوم ، وبيتئيل شمين (ملكة السماء) ، ونابو ، وبانيت ، إلخ .

ومع مرور الوقت قامت بين الأقليات فى أسوان ومنهم اليهود، والمواطنين المصريين فى المنطقة علاقات تزاوج وتجارة وعمل ومداينات ، بحيث تزوجت يهودية من رجلين مصريين (على التعاقب) ، وتزوج مصرى من آرامية ، وتزوج يهود من مصريات . وكان من الطبيعى أن تشوب هذه العلاقات بعض المنازعات من حين إلى آخر ، وكان للمواطنين فى بعض الأحيان اليد العليا فيها ، بحيث روت

إحدى الوثائق أن المحكمة جعلت امرأة يهودية تقسم باسم المعبودة المصرية ساتت فى قضية قامت بينها وبين مصرى . واشترط مصرى على مدينه اليهودى أن يدفع أربعة شواقل فائدة قرضه بمقتضى أوزان بتاح الإله المصرى، وليس بمقتضى أوزان الملك الفارسى ، وعامله بمعاملة المرابين اليهود أى بمقتضى الربح المركب . واشترط تعاقد مصرى على متعهدين يهوديين تسلما ٥٠ إردباً من الشعير والعدس من ملامح مصرى لتوزيعها على أفراد الحامية ضماناً أو شرطاً جزائياً قدره ألف شاقل ، وربما اشترط الملاح نفسه أن يحصل أجره من حصتهما المقررة من بيت الملك، وأن يقتضيه من ممتلكاتهما إن امتنعا عن أدائه .

وكانت اللغة الآرامية قد طغت على اللغة العبرية فى فلسطين نفسها لبعض الوقت كلغة للثقافة والمراسلات ، ولهذا لم يكن من الغريب أن تطغى عليها كذلك بين يهود إلفنتين لاسيما مع اختلاطهم بالآراميين المشتركين معهم فيها . وتأثرت لغتهم كذلك باللغة المصرية فى بعض تعبيراتها الدارجة وفى تعبيرات التعاقد .

وكما كان بناء معبد اليهود فى إلفنتين معبراً عن روابطهم ، أصبح خرابه مقدمة لتفرقهم . فعندما طال احتماء اليهود بالمحتلين الفرس، تناسوا حقوق الوطن المصرى الذى آواهم . وعندما تعاقبت ثورات المواطنين ضد الاحتلال الفارسى (فى أأعوام ٤٨٨-٤٨٦ ، ٤٦٠-٤٥٤ ، ٤٥٠ ، ٤١٠ ق.م) لم يساندهم اليهود فيها ، أو على حد تعبير إحدى الوثائق الآرامية لم يتركوا مراكزهم ولم توجه إليهم تهمة التمرد. وربما تجاوزوا تجاهل المشاعر القومية للمصريين إلى تجاهل تقاليدهم الدينية أيضاً ، فتجرأوا على تقديم الأضاحى من الكباش فى معبدهم عوضاً عن الجداء ، وكان الكبش رمزاً مقدساً للمعبود خنوم فى أسوان . وهكذا استمر السخط يتفاقم ضدهم حتى أفضى إلى تدمير معبدهم فى حوالى عام ٤١٠ ق.م خلال العام الرابع عشر من حكم الملك الفارسى دارا الثانى . والطريف أن رسائل اليهود لم تنسب هدم المعبد إلى كهنة خنوم المصريين فى حصن إلفنتين وحدهم ، وإنما ذكرت أنهم استغلوا غياب الوالى الأكبر (خشاترا بافان أو الساتراب) أرشام الفارسى عن مصر ، فاتفقوا مع فراتركا أسوان ، أى رئيسها ، فيدرانجا الفارسى ، على إزالة معبد اليهود من الجزيرة فاستجاب لهم وكلف ولده أحد قادة حامية أسوان فقاد المصريين وجنوداً آخرين وهدموا المعبد ، وأقاموا على جزء من أنقاضه مدخلاً إلى ناحية معبد خنوم المصرى ، وفى سبيل إقامة هذا المدخل استغلوا جزءاً يحد مخزناً ملكياً مجاوراً له، وأقاموا سوراً

فى وسط الحصن وعطلوا (حين بنائه) بئرا كانت تمد المعسكر اليهودى بالماء . وهكذا ألقى اليهود جانباً كبيراً من مسئولية ماحدث على الحاكم الفارسى المحلى وولده ؛ مما يعنى أن مسلكهم لم يرض بعض الفرس أيضاً ، وإن ادعوا فى رسائلهم أن هذا الحاكم فعل مافعله مقابل رشوة كبيرة ، وهو ادعاء يصعب أن يعرض الرجل به سمعته وسمعة ولده للمساءلة أمام ملكه نصير اليهود .

وعلى أية حال ، ففى ثلاث رسائل للوالى الفارسى أرشام وهو بالخارج مايشير إلى «وقت ثورة مصر» ، مما يعنى قيام ثورة فى غيابه ، وأن إجراء أهل أسوان ضد المعبد اليهودى كان صدى لثورة عامة ضد المحتلين وأعوانهم أو على الأقل قد صادفها وانتفع بآثارها . وقد يزكى هذا الاستنتاج بردية ذكرت أسماء خمسة من كبار اليهود وأكثر من ست نساء عوقبوا وربما اعتقلوا عند البوابة فى مدينة طيبة ، وروت أنه جرى استرداد المقتنيات التى كانت قد سلبت من بعض المساكن ، وفرضت عقوبة مالية . وربما دل هذا على سبق اعتداءات يهودية، ثم تعرض المعتدين للعقوبة والتغريم فى مدينة طيبة على أيدى قضاة وطنيين فى فترة من فترات ازدهار الشعور الوطنى ضد المحتلين وأعوانهم .

وتسامح المصريون بعض الشيء ، فتركوا اليهود حيث هم ، وربما لم يعترضوا على إعادة بناء معبدهم فى موضع آخر خارج حصن إلفنتينى . ولكن لم يقنع اليهود بهذا التسامح وأبوا إلا أن يعاد المعبد فى موضعه نفسه بحجة أن الملوك المصريين السابقين لم يعترضوا عليه، وعندما احتل الفرس مصر أبقوا عليه وحينما اعتدوا على معابد كل آلهة مصر لم ينالوه بسوء . ولاستثارة العطف عليهم ادعى اليهود أنهم حرموا على أنفسهم شرب الخمر والتضمخ بالزيوت ومضاجعة النساء حتى يعاد بناء معبدهم . وتوالت رسائل رؤسائهم إلى كل من أملوا فى مساعدته لهم ، فكتبوا إلى باجوهى الوالى الفارسى على يهوذا (وثمة احتمال بيهوديته على الرغم من اسمه الفارسى) وإلى يوهانان حاخام أورشليم وزملائه الكهنة وإلى كبرائها ، ولكن لم يستجب لعويلهم أحد .

وعاودوا الشكاية والاستعطاف فى رسائلهم بعد ثلاث سنوات ، إلى باجوهى مرة أخرى وإلى داليا وشليمنا ولدى سنبلاط حاكم السامرة عساهما أن يقنعا أباهما بمعاونتهم . وكان من تزلفهم فى افتتاحية إحدى رسائلهم إلى باجوهى فى عام ٤٠٧

ق.م مايقول «أعز رب السماء مولانا كثيراً وعلى امتداد العمر ، وحباه الحظوة لدى جلالة الملك دارا ونبلاء الفرس أكثر مما هو عليه الآن ألف مرة ...» ، الخ . ثم وعدوه إن استجاب لهم وكتب إلى أصدقائه فى مصر لإعادة بناء المعبد وإعادة القرابين والبخور والمحروقات (على نفقة الدولة ؟) أن يقدموا مثل كل هذا باسمه فى ويصلوا من أجله هم ونساؤهم وأطفالهم وكل اليهود الموجودين معهم . ولعلهم أرفقوا برسالتهم هدايا ملائمة مما جعل باجوهى ودااليا يعدان رسولهم شفاهةً وليس كتابة بالسعى لتحقيق أملهم، دون الالتزام بتقديم الأضاحى المحروقة التى كان يجب أن يقتصر تقديمها على معبد أورشليم وحده . والتزم يهود إلفنتينى بهذا الأمر فكتبوا إلى أحد أصحاب النفوذ فى مصر ولعه أرشام وإلى مصر الفارسي يعدونه إن هو سمح بإعادة بناء المعبد ؛ حيث كان بأنهم لن يقدموا أغناماً أو ثيراناً أو ماعز كأضاحى محروقة ، وسوف يكتفون بالبخور وقرابين الطعام والشراب ، وأنهم سوف يقدمون إلى بيت مولاهم فى مقابل ذلك أموالاً كثيرة وألف إردب من الشعير . ولعلهم قدروا فى التزامهم هنا بعدم تقديم الأضاحى المحروقة أمراً آخر ، وهو احترام شريعة الفرس المجوس التى حرمت تدنيس النيران بجثث الحيوانات .

ومضى عهد دارا الثانى ، ونكاية فى المصريين حصل اليهود من خلفه أرتاخشاشا (أرتا كسركسيس) الثانى على وعد بتنفيذ مطلبهم ، فى مقابل وقوفهم فى وجه الثوار المصريين ، ويبدو أنهم أعادوا معبدهم بصورة ما . وبعد قليل أعلن الملك المصرى أمون حر (الثانى) نفسه فرعوناً وحرر بلاده من الفرس فى حوالى عام ٤٠٤ ق.م ، ولو أن وثائق الآراميين واليهود لم تؤرخ باسمه حتى العام ٤٠١ ق.م؛ مما قد يعنى ترددهم فى الاستجابة له . ثم انقطعت وثائقهم بعد عام ٣٩٩ ق.م ، مما يدل على تبدد شملهم خلال عهود الأسرات الفرعونية الثلاث الأخيرة ، وإن استعادوا بعض كيانهم مرة أخرى بعد ذلك فى بداية العصر البطلمى [١] .

* * *

(١) انظر مصطفى كمال عبدالعليم : اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان – ١٩٦٨ .

الأسرتان الأخيرتان .

توالى على مصر بعد إجلاء الفرس فى عام ٤٠٤ ق.م أكثر من ستين عاماً ، لم يخب الصراع خلالها بين مصر المستقلة التى مافتئت تذود عن سمعتها وتحاول الانتقام لنفسها مما أصابها إبان فترة الاحتلال ، وبين فارس التى مافتئت تعاودها حمى الاستعمار ورغبة الثأر لشرفها المسلوب . وتعاقبت على عرش مصر بعد عهد أمون حر الثانى أسرتان حاكمتان من (شرق) الدلتا ، صحت عزائم أصحاب الشخصيات القوية من ملوكهما على متابعة النهوض بعد النكسة واستعادة المجد القديم، بينما قطعت دابر أصحاب الشخصيات الضعيفة منهم مناوأة الأرستقراطية الإقطاعية لهم ، بحيث لم تزد فترة حكم الواحد منهم عن بضعة شهور أحياناً . ونشأت أولى الأسرتين ، وهى التاسعة والعشرون ، فى مدينة منديس (تمى الأمديد وتل الربع شمال شرق السنبلاوين) ، ولم تستمر أكثر من عشرين أو واحداً وعشرين عاماً تعاقب فيها أربعة ملوك أو خمسة ، كان أهمهم أثراً مؤسسها نايف عاورود (بانرع – مرن نثر) – ثم ثالث ملوكها هجر (أو هقر ، أو هكر) . وجرى كل منهما على سنة التعاون مع العالم الإغريقى ، لمواجهة الفرس أعداء الطرفين .

وبادر الفرس مع بداية عصر الأسرة التاسعة والعشرين مستغلين قلقلة انتقال العرش المصرى من أسرة المحرر أمون حر (الثانى) ، وحشدوا جيشاً وأسطولاً كبيرين فى فينيقيا لغزو مصر [١] ، ولكن صرفهم عن إتمام خطتهم مشاكل ولاية عرشهم وثورة آسيا الصغرى وجزرها ضدهم، بعد أن أيدتها دولة إسبارطه الطامعة فى زعامة الإغريق وصاحبة أقوى الجيوش البرية فى أرض اليونان ، واتقاء لعودة غدر الفرس تقاربت وجهات النظر بين مصر وبين اسبارطه فى عهد ملكها أجيسيلاوس . وبدأت مصر فى عهد نايف عاورود بمد يد العون لحليفتها بأموال وخمسمائة ألف مكيال من الغلال وتجهيز مائة سفينة مقاتلة ، ولكن هذا المدد الذى تحملته خزائن مصر المجاهدة المجهدة لم يؤد الغرض منه، وحطمه قائد أثينى كان يخدم الفرس عند رودس [٢] . وبعد سنوات عقدت إسبارطه الصلح مع الفرس ، ولم تتذكر مصر فى صلحها ، فبقيت مصر وحدها .

---

(١) Kienitz, *op. cit.*, 76 (*Xenophon, Anabasis*, I, 4-5); C. Tranunecker, *BIFAO*, 79 (1979), 395-436.

(٢) Diodorus, XVI, 79.

ولبت مصر المتعطشة للانتقام لكرامتها والباحثة عن الأحلاف حولها دعوتين أخريين فى عهد هجر (خنم ماعت رع - ستبن خنوم) لمناوأة الفرس ، إحداهما من أثينا ، والأخرى من إفاجوراس ملك قبرس ، فأعانت هذا الأخير بخمسين سفينة ، ومدد من الغلال . وأخذ كل منهما يكافح الفرس فى ناحية ؛ مصر تكافحهم على حدودها ، وأهل قبرس يكافحونهم فى جزيرتهم وعلى سواحل فينيقيا . وبدأ الفرس بمهاجمة مصر ولكنها كسرت حدة جيشهم فى معركة غير محددة المعالم ناضلتهم فيها برجالها وبمرتزقة من الإغريق كان على رأسهم القائد خابرياس الأثينى . وبعد نضال طويل سلمت قبرس أمام الفرس فى عام ٣٨٠ ق.م [١] ، وبقيت مصر وحدها مرة أخرى .

وكان هجر (أو هقر أو هكر) أطول ملوك الأسرة حكماً فى هذا العصر القلق (٣٩٣-٣٨٠ ق.م) ، ولأمر مابدا ارتباطه بالإله خنوم رب أسوان واضحاً فى اسمه وألقابه ، وعللت بردية الأيام الديموطية استقراره النسبى بسخائه مع المعابد ، ولكن مالبث الحظ أن تخلى عنه ، على حد قولها ، لأنه خالف الشريعة وجافى إخوته . فاكفهر الجو السياسى ، وتبعه اثنان حكم أحدهما أقل من العام ، وحكم الآخر شهوراً قليلة وانتقل عرش مصر بعدهما فى ظروف قلقة إلى أسرة جديدة من سمنود (على مبعدة قليلة من عاصمة الأسرة السابقة) .

استعان مؤسس الأسرة الأخيرة ، الثلاثين ، نخت نيف (خبر كارع)- أو نكتانب كماسماه الإغريق (خلال ٣٨٠-٣٦٣ ق.م) بمساعدات المعابد ، وبتأييد كهنة سايس على تدعيم ملكه ، ثم رد لهم الفضل مضاعفاً . وكان من ذلك أن أحال ضريبة العشر المفروضة على منتجات وواردات وصادرات نقراطيس مركز التجارة الإغريقية إلى صالح معابد المعبودة نيت فى سايس [٢] . ونشط العمران فى عهده فى المعابد المصرية ، ابتداء من شمال الدلتا حتى جزيرة فيلاى جنوبى أسوان . وكان عليه أن يتيقظ لغدر الفرس ويستعين بمن يمكن الاستعانة به ضدهم ، لولا أن أحلاف الأمس وهم الإغريق تعود جنودهم وقادتهم أن يعملوا لمن يجزل العطاء لهم ، حتى ضد

(١) Bury, *op. cit.*, 556-57; Gyles, *op. cit.*, 43.

(٢) Erman u. Wilke, *ZAeS* XXXVIII, 127 f; Posener, *ASAE*, 1934, 141 f.; Gunn, *JEA*, 1934, 55 f.

بعضهم بعضاً ، وهكذا عوضاً عن أن تتعاون أثينا معه خضعت لضغط الفرس فاستدعت قائدها خابرياس الذى كان يعمل بأعوانه فى الجيش المصرى ، بل وساهمت فى إعداد ٢٠ ألفاً من المرتزقة لمعاونة الفرس ضد مصر . وفى ظل هذه الملابسات تجمع فى بلاد الشام الخاضعة للفرس جيش ضخم قدره رواة الإغريق بمائتى ألف من جيوش الفرس وأتباعهم فضلاً عن العشرين ألفاً من مرتزقة الإغريق (وهو تقدير مبالغ فيه) . وصعب على طاقة مصر أن ترده وحدها بسهولة فعبر الحدود إلى الدلتا فى صيف ٣٧٣ ق.م واستخدم الفرع المنديسى فى نقل بعض قواته الكبيرة ، وهنا لجأ القادة المصريون إلى إجراء بارع فتريثوا حتى تدفق أفراد هذه القوات على الدلتا ووصلوا منف ، ثم حصروهم عندها حتى دهمتهم مياه الفيضان ، وأشاعت الفشل فيهم فتراجعوا أمام هجمات المصريين (١) .

ولما كانت معاونة الإغريق تشترى بالأكثر من المال ، بذل الملك «چدحر» (إرماعت نرع) ، أوتيوس كما دعاه مؤرخو الإغريق ، الكثير فى سبيل شرائها من إسبارطه ومن أثينا معاً ، فاستعاد خابرياس الأثينى إلى خدمته هو وعشرة الاف من قومه ، وفاوض أجيسيلاوس ملك إسبارطه العجوز ليستعين بخبرته ، فانضم إليه بألف من رجاله (وكانت مصر قد أسلفت العون له بمددها الذى غرق عند رودس) . وجند چدحر ثمانين ألفا من المصريين والمهجنين ، وأعد مابين ٢٠٠-٣٠٠ سفينة وصله بعضها من آسيا الصغرى (٢) ، وتأهب للخروج بهم عبر الحدود لضرب جيوش الفرس خارج بلاده وليحرمهم من خيرات الشام ومراكز تجمعاتهم فيها . ولكن الأمور لم تكن هينة أمامه ، فقد تنافس القائد الأثينى والملك الإسبارطى على القيادة العليا ، وحل چدحر هذه المشكلة بأن تولاها بنفسه ، وعهد بقيادة المرتزقة كلهم إلى أجيسيلاوس الإسبارطى العجوز الذى بلغ الثمانين، وظن أنه سوف يأتى برجاله الألف العجب العجاب ، كما عهد بقيادة الأسطول إلى خابرياس الأثينى المغرور (٣) ، ولكنه لم يستطع أن يستل الحقد من قلب أحدهما تجاه الآخر أو تجاهه هو . ولتموين جيشه الضخم ، والإنفاق على مشروعه الكبير ، ولإرضاء المرتزقة الذين أبوا أن يتسلموا

---

(١) Diodorus, XIV, 10; XV. 41-43; Plutarch, *Agesilaus*. 23, 3; Naville, *The Shrine of Saft el-Henneh and the Land of Goshen*, 6 f.; *ZAeS*, 1963, 90 f.

(٢) Gyles, *op cit.*, 44; Xenophon, *Agesilaus*, II, 27.

(٣) Diodorus, XV, 9, 92; Gyles, *op. cit.*, 44 and notes.

أجوراً عينية كالعادة ، وطلبوا أن يتسلموها نقداً ، رأى أنه لابأس من فرض تضحيات اقتصادية على شعبه طيلة فترة الحروب وفى سبيل هدف أسمى ، ولعله استأنس فى ذلك بمشورة خابرياس الأثينى ، فأمر بمصادرة كثير من مدخرات المعادن الثمينة فى مصر ، وحض الكهنة على التنازل عن جانب من أملاكهم الخاصة والاكتفاء بإنفاق عشر المخصصات المرصودة للمعابد وتحويل بقيتها لخزائن الدولة حتى تنتهى الحرب، وحض كل مواطن قادر على التبرع بجانب من مدخراته، وفرض نسبة ضريبية معينة على عمليات البيع والشراء ، إلى جانب تعميم ضريبة العشر على الأرباح ومصادر الدخل المختلفة (١) .

وعندما خرج الجيش اللجب إلى بلاد الشام لضرب الفرس فيها ، أعاد إلى الأذهان ذكريات جيوش الدولة الحديثة وأمجادها ، لولا أن أتاه الأذى من مأمنه فى مصر والشام معاً ، ففى مصر انقلب على جدحر أخوه ونائبه على عرشه واستعان بتذمر بعض الكهنة والمتضررين من الضرائب الجديدة ، التى رأوها تنصرف إلى المرتزقة الأجانب أكثر مما تصل إلى مواطنيهم . ولما كان هذا الأخ شيخاً استدعى ولده الذى فارق جيش عمه ليقود الإنقلاب بدلاً منه . وفى الشام أحدثت أخبار الانقلاب انشقاقاً فى صفوف الجيش ، واختار المرتزقة صوالحهم ، فانسحب خابرياس الأثينى بجنوده ، وانضج أجيسيلاوس الإسبارطى بجماعته إلى ابن الأخ المطالب بالعرش وعاد إلى مصر ليتلقى جزاء تأييده له (٢) . وهنا لجأ جدحر كسيراً إلى صيدا، وروى منافسوه أنه طلب حق اللجوء السياسى بعد ذلك من الفرس ، وهكذا أتت نهايته على غير ما أراده لنفسه وانتهى مشروعه إلى غير ما أمله فيه شعبه .

ولما كانت مقادير الشرق قد ارتبطت إلى حد كبير بما بين الإغريق والفرس ومصر ، ظهر رأيان متعارضان فى بلاد الإغريق ، رددهما فريقان من ساستها فى خضم النزاع بين مقدونيا الناهضة بزعامة فيليب الثانى وبين أثينا العجوز الواهنة ، بشأن مدى المنطقية فى التعاون مع مصر على قتال الفرس . وعبر أرسطو عن الرأى الأول بلسان مقدونيا وأيد منطقية مساعدة المصريين حتى لايقعوا فريسة للفرس ثانية، ونبه قومه إلى أن دارا وأكسركسيس لم يتمكنا من قتال الإغريق إلا بعد إخضاع مصر،

---

(١) *Ibid.*, 45 (after Ps., Aristotle, *Oeconomica*, II, 25 f.; *Polyaenus*, III, 5 f.).

(٢) Diodorus, XVI, 40, 46, 48; Gyles, *op. cit.*

وأنه لايستبعد حدوث الأمر نفسه إذا تكرر استعمار الفرس لها من جديد . وذهب إلى ضد هذا الرأى خطيب أثينا الأشهر ديموسثينيس فسخر ممن يريدون حرب الفرس فى مصر ، ودعاهم إلى أن يقفوا فى وجه أطماع فيليب الغول المقدونى فى أرضهم قبل أن يقفوا فى وجه الفرس (١) .

ونعود إلى مصر التى ولى عرشها ابن الأخ «نخت حرحب» (سنچم إب رع) أو نكتانبو (الثانى) كما دعاه بعض المؤرخين الكلاسيكيين (٢) ، فأخرص الأصوات الباقية على الولاء لعمه ، وأرضى الكهنة المتذمرين ، وأعاد الجند الإسبارطيين بالهدايا ، وقد مات قائدهم العجوز فى الطريق . ثم رد بالجيش المصرى هجوماً حاول الفرس أن يستغلوا به ماكان من تفرق الكلمة فى بلده ، وترتب على انتصاره عليهم أن انقبلت مدن فينيقيا ضدهم وتزعمتها صيدا التى قيل إن چدحر الملك المخلوع كان قد لجأ إليها . وبهذا ظن نخت حرحب أن زمانه صفا له، وأن الأمن تحقق له فى الداخل وفى الخارج ، فكثرت إنشاءات العمائر الدينية فى عهده تخليداً لذكره ، وإظهاراً لتقواه، وتعبيراً عن الشكر المعتاد للأرباب ، ومجاملة للكهنة .

وحتى هذه المرحلة كانت مصر لاتزال تعتبر نفسها فى نهضة ، ولاتزال تعتبر عند مفكرى الإغريق مصدراً للمعرفة والعلم القديم ، وحسبنا أن نشير إلى مارواه بعض المؤرخين الكلاسيكيين من أن الفيلسوف الأثينى الأشهر أفلاطون قد زار مصر فى أوائل القرن الرابع ق.م ليتعلم فيها الحكمة واللاهوت والعلوم . وتتعرض صحة هذه الزيارة للجدل، ولكن يكفى مافى روايتها من دلالة على تقدير العالم الخارجى لمصر، حتى وهى فى أيام محنتها . وانعكست مشاعر العصر وآماله ونكساته على فنونه التى نكتفى باستعراض القليل الأهم منها . فقد انتقلت إلى حوزة المتحف المصرى والمتاحف الأوروبية ، ومتحف برلين بخاصة ، رؤوس صغيرة مصرية من أحجار صلبة رائعة ، اختلف الباحثون فى توقيتها بين عصر الأسرة السادسة والعشرين وبين عصر الأسرة الثلاثين ، واتصفت ملامح هذه الرؤوس باتساع مابين الأنف

---

(١) *Op. cit.*, (after *Aristotle, Rhetoric*, II, 20, 3-4; Demosthenes, *Rhodians*, 3-4).

(٢) *cf.* Tresson, *Kemi*, 1931, 126 f.; Ernst Meyer, ZAeS, 1951, 68 f,; Bicker mann, in *Melanges Maspero* 1934, 77 f.; V. Clero, *Rev. Eg.*, 1951, 25 f.

والشفة ، وتقطيب مابين الحاجبين ، وكرمشة الركن الخارجى للعين (١) . وظهرت بهيئة شابهتها هيئة الرؤوس الاغريقية بل والرؤوس الرومانية التى أتت بعدها بأجيال طويلة. ولاتعنى هذه المشابهة أن فنانى الرؤوس المصرية كانوا إغريقاً أو روماناً أو متأثرين بفن الإغريق أو الرومان بالضرورة ، فالإغريق حينذاك وعلى الرغم من تقدمهم الثقافى كانوا لايأنفون من استيحاء مايناسبهم من فنون المصريين (٢) ، دون القيام بتعليم الفنانين المصريين أو التأثير فى فنونهم تأثيراً يذكر ، ولم يكن للرومان حينذاك حضارة يعتد بها .

وفيما بين عصر الأسرة الثامنة والعشرين وعصر الأسرة الثلاثين ، طور الفنانون المصريون تراثهم القومى القديم للمرة الأخيرة ، وجاهدوا فى الارتقاء به جهد طاقتهم، ونحتوا تماثيل قليلة العدد ، ولكنها رائعة الأداء والتعبير ، تكسو وجوهها جميعها علامات المسئولية والهم وآثار الكفاح ، وتغلب عليها تجاعيد الجباه وتقطيباتها(٣) .

وبقى من نماذجها الناجحة تمثال نصفى للفرعون «هجر» ، ورأسان للفرعون «نخت نبف» ، وتمثال للفرعون «نخت حرحب» ، وصورت هذه القطع الأربع بهيئاتها الشخصية الصادقة آخر روائع فن النحت المصرى فى عصوره القومية الخالصة القديمة (٤) .

واستمر فنانو الإنتاج الدينى يلبون مطالب كبار الكهنة والحكام فى نحت التماثيل الكبيرة والتوابيت الضخمة ، وكأن هؤلاء ، أو الغالبية منهم على أقل تقدير ، لم يتأثروا كثيراً بما أصاب بلادهم فى عصورها الأخيرة من متاعب ونكسات . فنحتوا لهم توابيتهم الحجرية من أشد الأحجار صلابة وصنعوها بأحجام هائلة ، وشكلوها على هيئات بشرية كاملة ، ونقشوا سطوحها الداخلية والخارجية بنصوص كتب الموتى

(١) Berlin, 255, 12500, 23728; K. Bose, *Die Menschliche Figur*, 58 A, 205-206, 208.

(٢) *See, JEA*, 1930, 45 f.; F.R. Grace *AJA*, 1942; Iversen, *Mitt. Deutsch*, XV, 1957, 324 f,; R. Anthes, *PAPS*, 1963; K. Levin, *AJA*, 1964; W.M. Davies, *JEA*, 1982, 61-81.

(٣) Waigall, *Ancient Egyptian Works of Art*, Fig 327.

(٤) cf. Bosse, *op. cit.*, S. 94 f.

ومناظر الآخرة ، وفعلوا ذلك كله فى إسراف شديد ، يصعب أن نتصور معه كم كانت تستلزم صناعة التابوت الواحد منها من جهد ونفقة وصبر طويل .

* * *

خاتمة المطاف القديم

كان الأمن الذى توافر لمصر فى عهد نخت حرحب أمناً كاذباً ، إذ استعر حقد الفرس على مصر الناهضة منذ أن ولى أمرهم أرتا كسركسيس الثالث (أوخوس) ، وكان طموحاً أعاد لقومه الأمل فى الانتقام لشرفهم المسلوب واستعادة غلال مصر وذهبها ، وبذل فى سبيل مشروعه لغزوها منذ عام ٣٤٥ ق.م جهوداً روى ديودور الصقلى أخبارها . وقاد جيشه بنفسه ، وبدأ بميناء صيدا مركز الثورة فى فينيقيا فدمرها بعد ن تخلت عنها النجدة الإغريقية التى استأجرتها مصر من أجلها ، وانضمت إليه ، ثم أخضع جيرانها [1] . وعندما شارف الحدود المصرية بلغت قواته فيما روى بعض مؤرخي الإغريق أكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل من بلده ومن ولاياته ومن مرتزقة الإغريق وأمثالهم ، فضلاً عن ٣٠٠ سفينة . واستفاد من تجارب الحرب السابقة ، فبدأ هجومه فى خريف ٣٤٣ ق.م ، دون خشية من أخطار الفيضان ، واستفاد من قواته البرية والملاحية معاً ، فوزعها لدخول الدلتا من ثلاث جهات ، وسلك سبيل المخادعة فأمر قادته بأن يعرضوا الأمان للمدن إذا فتحت أبوابها . ووقفت مصر فى وجهه وقاومت بقواتها جيوشه مقاومة عنيفة فى بلوزيوم (الفرما) ، وبلغ مجموع جيشها فيما روى مؤرخو الإغريق نحو مائة ألف ، وكان كافياً للمقاومة على أرض بلده على الرغم من أنه ثلث عدد جيوش الفرس . وهنا روى أن نخت حرحب تردد فى الأخذ برأى قادته فى ضرورة استمرار القتال فى أعقاب مقاومة بلوزيوم ، وانخدع برؤيا رأى فيها الإله إنحرة يعده بإنقاذ مصر بالفيضان كما حدث فى المرة الأولى . وكان فى هذا التردد فرصة للفرس ، ومالبث جنوده المرتزقة من الإغريق أن انضموا إليهم بعد أن أحسوا بأن الكفة بدأت تميل لصالحهم ، فتراجع نخت حرحب إلى منف واستعد للتحصن بها على أمل إطالة وقوف الأعداء عندها حتى يتحقق له وعد ربه ، وعندما أيقن عقم المقاومة تراجع إلى أقصى الصعيد حيث احتفظ بحكمه نحو

---

(١) Diodorus, XVI, 40 f.

عـامين [١] ، ثم اختـفى أثره وأصبح مـحـوراً لأسطورة نعرضـهـا بعد قليل . ونشر الأخطبوط الفارسي نفوذه على مادون ذلك من أجزاء الوادى ، وبدأ استعماره الثانى ، وهو استعمار لم يطل غير عشر سنوات أو أحد عشر عاماً، ولكن بدأ بانتقام عنيف ولم يرع عـهود الأمان التى قطعها ملكه للمدن المفتوحة ، وماكان يرتجى أمان من غاز موتور . وهنا وصفت بردية الأيام الديموطية كيف فقدت بيوت المصريين رجالها .. وسكنها الماذيون (الفرس) [٢] . وروى كل من ديودور الصقلى والمصادر البطلمية أن أرتاكسركسيس أمر بتدمير أسوار المدن الرئيسية ، ونهب كنوز المعابد ، وامتهن ديانتها وأمر بنقل تماثيلها الثمينة إلى فارس وتاجر أعوانه بوثائقها النادرة ، ثم كافأ الإغريق الذين عاونوه وأعادهم إلى بلادهم ، وعين والياً فارساً على مصر وعاد بجيشه إلى بابل ومعه غنائم طائلة واكتسب شهرة واسعة بنجاحه [٣] ، ولكن لأمد محدود ، إذ مات مسموماً وتبعه ولده مسموماً كذلك . ووصف بتوزيريس (بادى أوزير) كاهن الأشمونين المصرى أحداث هذه الفترة ، وكيف لم يسترجع أحد موضعه الذى كان فيه نتيجة للاضطرابات التى شهدتها مصر ، حين كان الصعيد فى قلق والدلتا فى ثورة ... وبعد أن خوت المعابد وما عاد شيء يجرى فيها منذ غزاها الأجانب [٤] .

وكانت الدلتا وماحولها فى ثورة فعلاً على الرغم من انتشار الحاميات الفارسية فيها ، وقد ذهب زعـماؤها مذهبين : فرأى فريق منهم أن يناضل فى وطنه ، وكان على رأسهم زعيم يدعى خباش سيطر على جانب من الدلتا واعترف به كهنة منف وبعض أهل الصعيد فرعوناً [٥] . وصرف الفرس عنه أصوات دقات عنيفة سمعوها من بلاد الإغريق التى بدأت حينذاك أعظم أيامهم تحت راية الإسكندر الثالث (الأكبر) . ثم فريق آخر من المصريين رأوا العودة إلى معاونة الإغريق ضد الفرس فى الخارج ثم الاستعانة بهم ضدهم فى الدفاع عن الداخل ، وكان من هؤلاء طبيب مقاتل يدعى

---

(١) Maspero, *Les contes populaires de l'Egypte ancienne*, 4 eme, ed., 307, Brugsch, *Thesaurus*, III, 549, ; Chassinat, *Edfou*, VII, 239; Bickermann, *op. cit.*, 81 f.

(٢) Spiegelberg, *Demotic Chronicle*, 14 f.

(٣) Diodorus XVI, 51.

(٤) Lefebure, *Le Tombeau de Petosiris*, I, 3 f.

(٥) Kienitz, *op. cit.*, 185 f., 232.; A, Spalinger, *ZAeS*, 105 (1978), 142-154; (1980), 87.

سماتاوى تاف نخت انضم ببعض أعوانه إلى جيوش الإغريق عندما عبرت أوروبا إلى آسيا وهبطت من آسيا الصغرى إلى قتال الفرس فى الشام (١) . ولم يكن قادة الإغريق فى هذه المرة من أثينا أو إسبارطه ، ولكنهم كانوا أساساً من المقدونيين تحت زعامة الإسكندر ، الذى خرج من بلده بهدف عريض ، وهو القضاء على دولة الفرس والحلول محلها فى مناطق نفوذها ، وإذلال ملكها ومعاملته بما حاول أكسركسيس الأول أن يعامل الإغريق به ، ثم تكوين دولة عالمية تحت رئاسته . وكانت دولة الفرس حينذاك لاتزال ضخمة الإمكانات متسعة الأرجاء وفيرة الثراء تسيطر على الهلال الخصيب وأجزاء من الشرق الأوسط وتستطيع أن تجند جيوشاً ضخمة من رجالها ومن ولاياتها ، ولكنها كانت مع ذلك عجوزاً مهلهلة ، مزقتها الخلافات الداخلية ، وجمدت جيوشها عند أساليب حرب عتيقة ، وكرهتها الشعوب الخاضعة لها . وكان على رأسها ملك محبوب من مواطنيه وهو دارا الثالث ، ولكنه كان ضعيف الإرادة بطىء التصرف سىء الحظ . ولن نسهب فى وصف انتصار قوات الإسكندر عليه وعلى جيوشه فى موقعة إسوس الشهيرة قرب الإسكندونة الحالية فى نوفمبر ٣٣٣ ق.م ، ويكفى أن نضيف أن الإسكندر خطط لنفسه بعد انتصاره فيها أن يحل محل الفرس فى بلاد الشام ومصر حتى يحرمهم من مواردهما الضخمة ويحرمهم من سواحلهما الطويلة ومن اتخاذ موانيهما ملاجىء لأساطيلهم ، ثم ينتفع بهذا كله ويضع أكبر موارد الغلال فى الشرق فى قبضته ، ويؤمن ظهره إذا هاجم الفرس فى عقر دارهم (٢) . ومرة أخرى نتجاوز عن تفاصيل حروب الإسكندر فى الشام ، لنجد الوالى الفارسى فى مصر يعلن التسليم له ويترك له مقاليدها . وعندما دخلها الإسكندر فى خريف ٣٣٢ ق.م فى ثوب منقذها من الفرس ، لم يكن أعوانه أغراباً منها ، فطالما عمل بعضهم مرتزقة فى جيشها ، وطالما شاركها بعضهم فى معاداة الفرس . وعلى نحو ما عمل إغريق نقراطيس وسطاء فى التجارة بينها وبين بلاد اليونان عملوا كذلك وسطاء بينها وبين الإسكندر . ولكن فات مصر أن إغريق اليوم غير إغريق الأمس ، وأنهم أتوها يومئذ يعملون لحسابهم الخاص ، مستعمرين وليسوا مأجورين ، سادة وليسوا مرتزقة . وسلك الإسكندر فى مصر مسلك النزيل الحصيف ، فاحترم تقاليدها

(١) Schaefer, Aegyptiaca, Festschrift f. Ebers, 92 f.; Sethe, Urk., II, 1 f.; BIFAO, XXX, 369 f.

(٢) cf J. Bury, op. cit., 748 f., 757 f.

واحترم أربابها وأراد كسب ود أهلها من مدخل الدين ، والتخطيط للتنظيم والتجديد . وهكذا زار معبد بتاح فى منف وتجشم مشقة الرحلة إلى معبد آمون سيد الرمال مقر الوحى ذائع الصيت فى واحة سيوة بقلب الصحراء الغربية، وادعى النبوة له واستلهم وحيه ، فاعترف كهنته بالأمر الواقع وبشروا الإسكندر بما أراد أن يبشروه به من تأييد ربهم ونصره . ولعله أراد أن يجعل سيوة قاعدة لانطلاق واسع آخر ناحية الغرب اللامحدود . والطريف أن بعض المصريين أشاعوا حينذاك أو بعده بقليل ما أرضى قوميتهم المغلوبة على أمرها ، فرووا أن الإسكندر لم يكن غريباً عن الأرض الكريمة التى دخلها ، وأن ملكهم القومى الأخير نخت حرحب (نكتابو الثانى) الذى خفى أمره كان قد نزح إلى مقدونيا تتلبسه روح آمون ، حيث شغف بملكتها أولمبياس حباً وأنجب منها الإسكندر (١) .

ولسنا ندرى مدى تصديق حكماء المصريين لهذا التهريف ، ولكن الغريب أنه على الرغم من كثرة ما ادعاه الإسكندر من البنوة لأرباب كبار آخرين فى الغرب وفى الشرق ، ظلت بنوته لآمون المصرى لاصقة به لصوق بنوته لزيوس الإغريقى ، بحيث حدث عندما اختصم رجاله معه فى أواخر عهده وهم فى قلب بلاد السند أن نكصوا عن متابعته إلى الحرب والفتح قائلين له : «اذهب أنت وأبوك آمون فقاتلا»(٢)، كما قال اليهود من قبل لنبيهم موسى .

---

(١) Moret, *Du caractéres religeux de la royauté pharaonique*, 67-68; (Psuedo-Callisthenes, 4 f.).

(٢) Bury, *op. cit.*, 816.

من عقائد الدين والآخرة

أولاً - عقائد التأليه :

نشأتها : أخذت الديانة المصرية القديمة حين نشأتها وفي مراحل طويلة من تاريخها البعيد بتعدد المعبودات وتنوع المعتقدات شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة . ولكنها ظلت أغنى من غيرها في وفرة نصوصها ، ووضوح قضاياها ، وثباتها على مبادئها ، ثم رقى تطوراتها التى انتقلت فيها من عقائد التعدد إلى صور مختلفة من أفكار التوحيد .

ورد المصريون الأوائل كل ظاهرة حسية جزئية تأثرت بها حياتهم وبيئاتهم إلى قدرة علوية أو علة خفية تحركها وتتحكم فيها وتستحق التقديس من أجلها ، الأمر الذى أفضى إلى كثرة ماقدسوه من العلل المستترة والقوى الربانية المتكفلة بالرياح والأمطار وظواهر السماء ، وبجريان النيل وتعاقب الفيضانات ، وتجدد خصوبة الأرض ونمو النبات ، وخصائص الخصب النوعى فى الإنسان والحيوان ، والمتسببة أيضاً فيما اتصفت به كل بيئة محلية فى أرضهم من صفات ، بل والمقدرة لما تميزت به حضارتهم فى مجملها من خصائص سمت بها عن بقية الحضارات المعاصرة لها ، كمزايا التبكير بالكتابة والحساب والحكمة والفنون ومايشبهها من آيات أكبروها فردوا خلقها ورعايتها إلى قدرات علوية سامية فاقت قدرات البشر .

ولما كانت هذه القوى خفية يحس الناس بآثارها وفاعلياتها ولكنهم لايرون هيئاتها ، ربط المتدينون منهم بين تصوراتهم العقائدية الذهنية وعلامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات ، بروابط الأسباب والنتائج . فرمزوا إلى كل قوة عليا وعلة خفية تخيلوها برمز حسي يعبر عن سر من أسرارها ويحمل صفة من صفاتها . والتمسوا أغلب رموزهم تلك فيما عمر بيئتهم من كائنات وأشياء وحيوانات وطيور وأشجار وزواحف لاحظوا أنه يتأتى عن بعضها كثير من الخير ويتأتى عن بعضها كثير من الشر ، ويظهر أثر بعضها فى جهات بعينها وفى ظروف بعينها أكثر مما

يظهر أثر بعضها الآخر ، وهو الأمر الذى لم يكن يخلو من إعجاز فى نطاق تصوراتهم القديمة التى كانت فى عصورها الأولى لاتزال قليلة التجارب محدودة الآفاق تنجذب إلى الجزئيات أكثر مما تنجذب إلى الكليات . وبوحى هذه التصورات رمزوا بحيوية الكبش الطلوق إلى بعض أرباب الإخصاب الطبيعى والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل إلى شىء من ذلك وإلى مصدر قوة البأس فى مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها إلى حنو ربة السماء وأمومتها ، ورمزوا بقسوة السباع واللبؤات والذئاب إلى أرباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل إلى إله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع إلى أرباب الأزل ، ورمزوا بخصائص الصقر إلى رب الضياء وحامى الملكية ، وهلم جرا . أو هم بمعنى آخر جسدوا صفات هؤلاء الأرباب فى كائنات حسية كانوا يتعاملون معها فى دنياهم .

وصاحبت ذلك عوامل أخرى كانت قد ارتبطت فى أذهان الجماعات البدائية الأولى بصور فطرية من الرغبة والرهبة والخيال . كالرغبة فى استمرار النفع والاستزادة من الخير من أجناس معينة من الحيوان والطير والشجر عن طريق تقديس القوى الخفية التى تخيلوها تتولى أمرها وتوجهها لغاياتها . ثم صور الرهبة المختلفة : رهبة الخوف ، ورهبة العجب ، ورهبة الاستعظام ، التى كانوا يستشعرونها أمام نوعيات معينة أيضاً من الحيوانات والطيور والزواحف ، وبالتالى تجاه القوى الخفية التى أوجدتها وزكت فيها قدراتها . وأخيراً عامل الخيال الدينى المتمثل فى إيمان عامة الناس بالمعجزات والكرامات وحرفية الأساطير .

* * *

خصائصها : وفى ضوء ما أسلفناه من تصورات وتأويلات ، قد يهضم منطق العصر الحاضر أقلها ، ويأبى أكثرها ، يمكن أن نرتب للعقائد المصرية فى عصورها التاريخية القديمة ، وعقائد الفئات المصرية المثقفة بخاصة ، الخصائص التالية فيما يتعلق بما هو شائع من تداخل الصور الحيوانية فى هيئات أغلب معبوداتهم :

أولاً – يلحظ أنه ما من معبد من المعابد المصرية الكبيرة الباقية ، مما خلفته العصور الممتدة من الدولة القديمة حتى نهاية الدولة الحديثة على أقل تقدير ، أى خلال مايقرب من ألفى عام ، قد تضمن مكاناً معداً لحيوان ؛ مما يعنى أن مزار الحيوان المختار إذا وجد لم يكن مقراً لعبادة فعلية مفروضة داخل المعبد . ولكننا إذا

قدرنا من ناحية أخرى ، بناء على نصوص وصور قليلة وعادات أخرى تتعلق باهتمامات مصريى العصور المتأخرة برعاية مثل عجول أبيس ومنيفس وتكفينها حين دفنها ، أمكن افتراض أنه إذا قضت الظروف حينذاك بالعناية بحيوان معبود ما ، وضع الكهنة الحيوان المختار فى مزار منفصل عن مكان العبادة ، بحيث إن شاء المتعبد زاره وإن شاء تجاوزه .

ثانياً – ترتب على التفرقة بين كل معبود وبين رموزه الحية من الحيوانات والطيور ، أن اختلف وضع هذه الكائنات عند المصريين عنه لدى شعوب أخرى ، فلم يكن اختيارهم لرمز أو فرد من الحيوان يؤدى إلى تقديس كل أفراد نوعه ، ولم يكن من بأس على قرية ترمز إلى ربها بهيئة الفحل مثلاً أن تستخدم الفحول فى الحقل والنقل والذبح وتضريبها . وإنما هو مجرد حيوان واحد منها يتخيره الكهنة إذا توافرت فيه علامات حددها لهم دينهم ونواميسه ، ثم يتركونه فى مزاره آية مشهودة حتى ينفق ؛ على العكس من شعوب أخرى قدست أنواعاً من الحيوانات بكافة أفرادها أو حرمت على الأقل ذبحها وإيذاءها .

ثالثاً – أنهم لم يقدسوا حيواناً لذاته ، ولم يقروا تماماً لأربابهم بالتجسد المادى فى هيئة حيوان أو طير ، وإنما كان اهتمام المثقفين منهم بما تخيروه من هيئات الحيوان والطير يستهدف رغبتين ، وهما : رغبة الرمز إلى صفات إله خفى ببعض المخلوقات الظاهرة التى تحمل صفة من صفاته أو آية من آياته ، ثم رغبة التقرب إليه عن طريق الرعاية التى يقدمونها ضمناً لما رمزوا به إليه من مخلوقاته .

رابعاً – قلت أهمية الدور الذى لعبته الهيئات الحيوانية الخالصة لرموز الأرباب المصريين منذ أوائل العصور التاريخية ، وأصبحت الهيئة البشرية هى أكرم ماتصور المصريون القدماء به أربابهم . وجرت العادة على تصويرهم إياهم وتمثيلهم على هيئة الإنسان فى أغلب الأحوال ، مع تميزهم عنه بأزليتهم وأبديتهم ومطلق قدرتهم . ولو أن ضرورة تمييز كل معبود منهم عن الآخر ، دفعت أتباعهم إلى تمثيل كل واحد منهم بجسم إنسان ورأس الحيوان أو الطير الذى رمزوا به إليه ، وذلك مانفذه الفنانون المصريون فى صورهم وتماثيلهم فى توافق عجيب لم يستطعه فنان آخر قديم . أو تمثيلهم بهيئة الإنسان كاملة مع تمييز كل منهم بشارة تدل عليه وكان من هؤلاء الأرباب الأخارى الذين احتفظوا بالهيئة البشرية الخالصة فى أغلب الأحوال : أتوم ،

وبتاح ، وعنچتى ، ومين ، وجب ، ونوت ، وأوزير ، وإيسة ، ونبت حت ، وسشات ، وخنسو ... .

خامساً – ندر أن قدس المصريون معبوداً ذا رمز حيوانى باسم الحيوان المادى الذى يرتبط به ، فهم لم يقدسوا هيئة الصقر مثلاً بالإسم الحيوانى «بيك» ، ولكن باسم ربانى وهو «حور» . ولم يقدسوا هيئة البقرة بإسمها الحيوانى وهو «إحة» ، وإنما باسم «حتحور» . ولم يقدسوا رمز التمساح باسمه الحيوانى وهو «مسح» ، ولكن باسم ربانى وهو «سوبك» . ولم يقدسوا رمز الكبش باسمه الحيوانى وهو «با» ، ولكن بأحد إسمين ربانيين وهما : «خنوم» و «آمون» . بل ولم يقدسوا السماء بإسمها الطبيعى وهو «بت» ، ولكن باسم ربتها «نوت» . وهكذا كان الشأن بالنسبة لبعض رموزهم الطبيعية الأخرى .

سادساً – كانت بعض أسماء معبوداتهم التى أسلفناها ، صفات فى جوهرها أكثر منها أسماء ، فاسم «حور» يعنى العالى أو البعيد ، واسم «سخمة» يعنى القادرة أو المقتدرة . واسم «أتوم» يعنى الكامل والأتم المتناهى . واسم «آمون» يعنى الحفيظ والخفى ، وما إلى ذلك من أسماء يعز علينا تفسير معانيها بالتحديد .

تلك إذاً هى بعض الخصائص التى أخذت الطوائف المتنورة بها فى تعليل مابين المعبودات وبين رموزها ، وتوضيح صفاتها . ويختلف ما أوردناه عنها هنا من أغلب مافسرت به العقائد المصرية القديمة فى كثير من المؤلفات الحديثة الأخرى مما سنناقشه بتوسع فى كتاب آخر [1] . غير أنه ينبغى أن نقدر إزاءها أن العجز البشرى ، وعجز الإنسان القديم من طوائف العامة بخاصة ، لم يكن يسمح بتحكيم المنطق والأليق دائماً فيما يأتيه جمهرة الناس من أمور العبادة . فالشخص العادى قد يؤمن فعلاً بوجود إله عظيم فى السماء يدعى «رع» أو يدعى «حور آختى» ، وإله خفى يدعى «آمون» أو «آمون رع» ، ولايتردد فى أن يعظم اسمه ويسلم بقدرته على العطاء والمنع والخير والشر ، ولكنه إذا فجأه البؤس والضر وجد نفسه أقرب إلى التوجه إلى المحسوس الملموس من المقدسات المادية فى بيئته ، منه إلى التوجه إلى رع فى علاه أو آمون فى خفائه ، وحينئذ قد يجد هذا المحسوس الملموس فى ضريح مقدس فى

(١) وراجع عبدالعزيز صالح : قصة الدين فى مصر القديمة ، المجلة – نوفمبر ١٩٥٨ – ص٣٦-٣٧ ، ٤٣-٤٤ ، ٥٠-٥٣ .

قريته أو فى حيه . أو فى تمثال بساحة معبد قريب منه ، أو فى حيوان بمزار ما ، أو فى شيء وهمى لاصلة له إطلاقاً بمعبد ، وحينذاك لاينادى رع العالى فى سماه ، بقدر مايضرع إلى الروح التى تسكن شجرة الجميز فى قريته ، أو الحية التى تسكن قمة الجبل فى منطقته . حتى إذا اشتد الضر به أو انصرف عنه لايجد بأساً من ثم فى أن يتوجه بقربانه ونذره إلى شجرة الجميز أو قمة الجبل ، وليس إلى معبد الرب كما ينبغى أن يكون [1] .

* * *

فى سبيل الترابط :

افترض المصريون القدامى أواصر القربى والتشابه بين بعض معبوداتهم وبعض آخر ، بناء على دوافع عدة يمكن تخمين أقدمها زمناً بما مر به مجتمعهم القديم من ظروف الاتصال المكانى والترابط المعيشى ، وإيحاءات السياسة ، ثم اتساع آفاق التفكير . وعلى هذا النحو يمكن أن يفترض أن أولى خطواتهم للربط بين معبوداتهم قد بدأت عندهم منذ أدت دوافع السلم والحرب بقراهم وبلدانهم القديمة المتفرقة إلى التضامن مع بعضها البعض على هيئة أقاليم كبيرة نوعاً خلال فترات متقاربة من فجر تاريخهم القديم ، الأمر الذى شجع الفريق الأقوى فى كل إقليم على أن يسود معبوده ، كما يسود حاكمه ، على بقية الجماعات المشتركة معه فى نطاق إقليمه ، وعلى أن يجعل هذا المعبود ممثلاً لإقليمه ورأساً لمعبودات قومه فى آن واحد . وعندما أدت الظروف مرة أخرى إلى ترابط مجموعات تلك الأقاليم على هيئة ممالك صغيرة ، تحت تأثير تقارب المصالح المشتركة حيناً وتحت ضغط القوة والغلبة حيناً آخر ، تكررت العملية السابقة بصورة تلقائية ، فكفل الفريق الحاكم فى كل مملكة نوعاً من الهيمنة لمعبوده على من سواه من معبودات الأقاليم الخاضعة للواء مملكته (كما أسلفنا القول من قبل) . ولما أفضت الحوادث إلى انتظام هذه الممالك المتفرقة فى ظل مملكة واحدة، لفترات متقطعة فيما قبل الأسرات ، ثم للمرة الأخيرة منذ بداية العصور التاريخية ، أصبح لمعبود الملك فى المملكة المتحدة سيادته الواسعة على بقية معبودات دولته ، وهو أمر يمكن افتراض مثله لكل من المعبودين أوزير ورع على التوالى فيما قبل الأسرات ، ثم المعبود حور معبود أوائل ملوك العصر التاريخية وراعيهم الذى غدا

---

(١) أنظر أيضاً : أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة – معرب بالقاهرة – ١٩٥٢ .

من ثم معبوداً رسمياً لدولة كلها وراعياً لها ، مع ملاحظة أن الاعتراف به وبمن سبقوه من المعبودات الكبار لم يقض على معبودات الممالك الصغرى القديمة ومعبودات الأقاليم ، كما أن هذه بدورها لم تجب معبودات القرى القديمة التى سادتها، وإنما استمرت جميعها تعبد جنباً إلى جنب ، فيما عدا ما تناساه أتباعها من تلقاء أنفسهم أو نقلوا صفاته إلى معبودات أخرى من تلقاء أنفسهم ؛ بحيث لم يأب أتباع الإله الأكبر أن يدعوا أنصار المعبودات الصغرى وشأنهم ، كما لم يأب أصحاب المعبودات الصغرى أن يشاركوا فى تمجيد الإله الأكبر والاتجاه إليه فى الجليل من شئونهم . وأدت إلى هذا الوضع الدينى أو هذا الخلط الدينى عوامل عدة نذكر منها : غلبة روح المحافظة على القديم الموروث فى أمور الدين والعبادات ، وغلبة روح التسامح التى احترمت تعدد المعبودات ، وحرص الملوك على عدم تركيز السلطة الدينية فى أيدى كهنة معبود واحد ، وعملهم على توكيد روابطهم بجميع الدوحات الإلهية التى تخيلها رعاياهم من أجل المزيد من شرعية صلتهم بها وشمول سلطانهم . ثم اتجاه أغلب المصريين إلى افتراض روابط الزيجة والأبوة والبنوة بين أربابهم المتقاربين فى الصفات أو فى أماكن العبادة ، وذلك أمر زادت منطقيته بعد أن تخيلوا لأربابهم هيئات إنسانية خالصة وافترضوا لهم حياة تماثلها حياة البشر لولا أنها سرمدية عليا ، تزاوجوا فيها وأنسلوا ، وأحبوا فيها وغضبوا ، وحكموا وتحاكموا ، وكانت لهم مجامع يتداولون الأمور فيها ، وعلاهم إله أكبر ذو عرش وصولجان ، وله وزير وكاتب وسجلات وديوان . ويسرت هذه الأخيلة افتراض قيام أسر إلهية ثلاثية تكونت من أب وأم وولد ، أو من زوج وزوجتين . ثم أسر تساعية كبيرة فى مثل عين شمس وغيرها تضمنت الجد وجد الجد والابن والحفيد . وترتب على ذلك كله أن الإله الأكبر للدولة لم يعد رئيساً لآلهة متنافرين ، وإنما غدا رئيساً لآلهة متقاربين ، لأغلبهم صلة بمن سواه ، ولأغلبهم نصيب من صفات الآخرين ، ولكل منهم نصيب من رعاية الدولة وملوكها ، على الرغم مما تصوره الأساطير بينهم أحياناً من أدوار التنافس المتقطعة .

وتغير اسم الإله الأكبر للدولة المصرية مرات قليلة خلال عصورها التاريخية القديمة ، وترتب هذا التغيير فى معظم مراته على تغير العواصم الكبرى وأربابها ، وتغير الأسرات الحاكمة وانحياز بعضها للمعبود الأكبر فى مسقط رأسها ، والاتجاه الشخصى والفكرى للملك أحياناً ، ثم ازدياد نفوذ كهنة معبود معين على من سواهم .

وهكذا بينما انعقدت الهيمنة للإله حور فى بداية الأسرات ، انعقدت الأولوية للإله رع منذ أواسط الدولة القديمة (مع ظهور إرهاصات قديمة سابقة بأهميته) ، ثم انتقلت الرئاسة إلى آمون فى الدولة السوطى ، وآمون رع فى بداية الدولة الحديثة ، ثم إلى آتون فى عهد أخناتون ، وعادت بعده إلى آمون رع حتى نهاية العصور الفرعونية . وقد كانوا جميعهم يرتبطون بألوهية الشمس بسبب صريح أو ضمنى ، وإن تغيرت أسماؤهم من عصر إلى عصر .

* * *

فى سبيل التوحيد :

جنباً إلى جنب مع التطورات البطيئة السابقة لأفكار التأليه المصرية القديمة ، ظلت فكرة الوحدانية تراود أذهان كبار المفكرين المصريين من حين إلى حين . ونرى أنها بدأت لديهم على صورة الإيمان بوحدة الخالق ، ثم انتقلوا بها إلى الاعتقاد بوحدة الربوبية ، وأرهصوا بعدها بما يشبه عقائد الحلول والتشبيه . ثم انتهوا أخيراً إلى الإيمان بوحدة المعبود . وإذا انتقلنا بهذا الذى نراه [1] من الإجمال إلى التفصيل ألفينا الاعتراف بوحدة الإله الخالق قائمة فى مذهبى عين شمس ومنف القديمين لتفسير نشأة الوجود ، حين رد أصحاب كل مذهب منهما الوجود بطبيعته وأربابه وناسه وبقية كائناته ، إلى خالق واحد دعوه فى عين شمس باسم توم ، بمعنى الأتم المتناهى ، ودعوه فى منف باسم بتاح ربما بمعنى الصانع أو الفتاح أو الخلاق (راجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) .

وظهرت بوادر الإيمان بوحدة الربوبية منذ اتجه أهل الفكر المتطور بين أواخر الدولة القديمة وأوائل الدولة الوسطى ، إلى إله الشمس باعتباره إلهاً خالقاً وإلهاً أكبر فى آن واحد . وجعلوا اسمه قاسماً مشتركاً مع أسماء بقية المعبودات الهامة ، ولكن دون أن يحاولوا إفناءهم فيه . فأطلقوا عليهم مثل أسماء : سوبك رع ، وآمون رع ، وتحوتى رع ، وبتاح رع ، وهلم جرا ... ، وكأنهم أرادوا بذلك اعتبارهم مجرد صور منه ، أو هم بمعنى آخر قد اعتبروا الربوبية التى تجمعهم جوهراً واحداً مركزه رع ، ولكنه جوهر له أوجه عدة يعبر كل وجه منها عن قدرة ربانية متميزة باسم إلهى

---

(١) وراجع : عبدالعزيز صالح - الوحدانية فى مصر القديمة - المجلة ٣١ - يوليو ١٩٥٩ ، ص١١-٢٢ .

خاص . وكان فى اقترابهم من هذه الفكرة ، فكرة وحدة الربوبية ، ماجعلهم قريبين من الاعتراف بوحدة الخلق فى الوقت نفسه ، فقال قائلهم وهو يسبح ربه الخالق القديم «أتوم» (وقد غدا صورة لإله الشمس) :

أتوم ، خلقت البشر جميعاً ، ونوعت هيئاتهم
ووهبت الحياة لهم جميعاً ، وفرقت بين ألوانهم
ياسميعاً لرجاء الأسير ، يالطيفاً بمن دعاه .. [1]

ومضى تيار الفكر الدينى المتطور فى طريقه ، ووجد أصحابه فى اتساع آفاق الدولة الحديثة ماجعلهم يتشوقون إلى الوحدانية الكاملة ويرهصون بها ، وبدأها بعضهم بما يشبه عقائد الحلول ، فصوروا ربهم «آمون» على أنه فرد مطلق خفى ، ولكنه حفاظ لكل شيء ، حال فى كل شيء ، موجود فى كل الوجود . ووصفه قائلهم بأنه «أكبر من فى السماء ، وأسن من فى الأرض ، رب الكائنات ، حفاظ كل شيء ، وباق فى كل شيء» [2] .

وهكذا آمن كبار القوم بخفاء جوهر ربهم ، وتفرده بقدرته العليا ، واطمأنوا إلى وجوده فى كل الوجود وإلى رعايته لكل من فى الوجود (وإن كانوا قد تخيلوا هذا الوجود فى مصر بخاصة ، وأحياناً فى توابعها ، أكثر من غيرها) . ولكن عزت عليهم للأسف عدة أمور ، أهمها : أنهم لم يكتفوا له باسم واحد ، ولم ينزهوه تماماً عن التشبيه ، ولم ينكروا تعدد المعبودات إلى جانبه . فوصفوه فرداً وكبيراً لجماعة الأرباب فى آن واحد ، ونزهوه عن المادية وتخيلوا له صوراً كثيرة فى آن واحد . وتمثلت علل هذا الخلط فيما سبق أن مهدنا به لنشأة الدين القديم ، أى فى صعوبة التخلص من القديم الموروث ، وفى سماحة المتعبدين ، وفى تشابه سبل الدعوة إلى المعروف عند أتباع كل معبود ، وفى افتراض القرابة الوثيقة بين الأرباب المختلفين ، وفى منطقية التبرير الشكلى بأن الإله الأكبر هو الذى خلقهم بأمره ومن نفسه أو من بدنه وعينه ورشحه ، وأمر برعايتهم ، ثم فى مرونة الفكر الدينى التى لم تأب أن تتقبل الجديد وتضعه جنباً إلى جنب مع القديم ، مع استغلال الملوك لكل هذه العوامل لكى يحولوا بها دون تركيز النفوذ الدينى فى أيدى كهنوت معبود واحد ، ولكى يوهموا أتباع كل

(١) Brit. Mus. 40959; S. Hasan, *Hymnes religieux du Moyen Empire*, 192-193.

(٢) Pap. Boulaq XVII, I, 4.

معبود أنهم معهم ، ولايأبون عليهم حرية عقائدهم .

وضاقت بكل ذلك صدور بعض المجددين فى أواسط عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وتمنوا لو اهتدوا إلى التعبير عن ربهم باسم واحد ، والرمز إلى آيات قدرته برمز واحد ، وإعلان وحدانيته صريحة واضحة . وأراد هؤلاء المجددون أن يبدأوا بتحديد اسم معبودهم وتحديد رمزه ، وأوحى الحذر عليهم بأن يربطوا بين الجديد الذى يودونه ، والقديم الذى تعوده أغلب معاصريهم ، فبشروا باسم «آتون» ، وهو اسم قديم اتجه به أسلافهم أدباء البلاط الفرعونى منذ الدولة الوسطى وجهتين : وجهة لفظية يدل فيها على معنى «الكوكب» ويعنى كوكب الشمس أكثر من غيره ، ووجهة أخرى لاهوتية ينم فيها عن الإله المتحكم فى هذا الكوكب[1] .

ومنذ عهود الملك تحوتمس الرابع رأى المجددون فى اسم آتون مايفى بغرضهم للتعبير عن اسم ربهم ورمزه ، وأقنعوا أنفسهم بأنه لايقلل من جلال ربهم المطلق أن يرمزوا إليه بآية الشمس كبرى آياته ، فما من شك فى أن من يتحكم فى كوكبها وينظم مسيرته قادر على أن يدبر أمور المخلوقات كلها . وسلكت هذه الدعوة سبيلها فى حذر وهوادة وتقبلها بعض كبار الكهان بمرونتهم التقليدية .

واتخذ الملك أمنحوتب الثالث منهاجاً وسطاً بين آمون وآتون ، فحابى دعوة آمون القديمة وكهنته الأقوياء وأعلن أنه ولى العرش بناء على بنوته له وبناء على أمره، وأغدق العطايا على معابده وكهنّها . ثم ساير فى الوقت نفسه دعوة آتون الجديدة وسمح بعبادته جهرة فى طيبة ، وتقبل إطلاق اسمه على بعض أركان قصره ومحتوياته . وهكذا استمر اللبس بين القديم والجديد ، وبين آمون وآتون ، خلال عهده.

وبقيت علة العلل بين طرفين : الملك الذى كان بيده جسم الأمر لو أراد .. ، لولا أنه جرى على سنة أسلافه ، وآثر الإبقاء على تعدد المذاهب خشية أن تتركز سيطرة الدين كاملة فى جانب أصحاب مذهب واحد . ثم كبار كهنة آمون الذين تهيأ لهم من الشهرة والثراء العريض وسلطان المناصب ما أرهب الناس منهم وجعل التغاضى عن عقائدهم أمراً غير ميسور . ولم يعد من سبيل إلى اكتمال دعوة التوحيد

(١) Coffin *Texts, D* 47, 209; *D* 50, 230; XLVII, 208, 226; Sinuhe, B 213; Pap. Petersburg, *B*, 24-25; *Urk.*, IV, 54; Cairo 34001, 7, 17, etc.

وراجع : عبدالعزيز صالح – البحث السابق – ١٥ .

إلا إذا اختصم الطرفان أصحاب الزمام : الملوك وكبار الكهان ، أو تهيأت حوافز جديدة عنيفة لإصلاح الدين المصرى القديم كله .

وللمرة الأولى ، تهيأ العاملان فى عهد الملك أمنحوتب الرابع منذ عام ١٣٦٧ ق.م. وكان ذا نفس حساسة مرهفة ، وانجذب منذ صغره إلى تيارات الدين الذى كان خاله من كبار كهنته . وانتوى لنفسه منهاجاً يتزعم به دعوة آتون دعوة التوحيد ، وبدأ التبشير به على حذر ، فشيد معبداً باسم آتون فى رحاب الكرنك معقل آمون ، وأعلن أن العبادة ينبغى أن تتجه إلى «الوالد آتون الحى» ، وأن آتون ماهو إلا «رع حر آختى يتهلل فى الأفق باعتباره النور الذى فى الكوكب آتون» . وتختلف ترجمتنا هذه عما أتت به أغلب المؤلفات الأخرى (١) .

واستهدف أمنحوتب الرابع من هذه البداية ثلاثة أمور ، وهى : أن يحدد رأس عقيدته الدينية ، وألا يفاجىء الناس بأسماء جديدة لم يألفوها ، وأن يوحى إليهم بأنه لم يطلب منهم غير العودة إلى معبود الفطرة ، معبود أجدادهم الأولين ، رع حر آختى ، وهو بذاته آتون ، ذلك الذى رغب الناس فيه بتسميته باسم «الوالد» ، وربط بينه وبين آية النور المعجزة المستحبة فى كوكبه .

وعلى الرغم من بساطة هذا الاستهلال البارع الذى بدأ أمنحوتب دعوته به ، أوجس كهنة آمون خيفة منه ، وقدروا أن يافعاً مثله يستطيع أن يتزعم مذهباً فى الدين ويفتى بالرأى فيه ، خليق بأن يتأتى على يديه تغيير كبير ، فأضمروا له العداء وجافوه ، وبادلهم هو جفاء بجفاء ، وسارت الأمور بينهما من سىء إلى أسوأ ، وأبدت عين البغض بين الفريقين كثيراً من مساوئ خافية ، ومساوئ أخرى كانت تتغاضى عنها عين المجاملة . وبدا للملك ماذكرناه له من دوافع كثيرة حين بحثنا تاريخ السياسة فى عهده ، ومايتمثل فى ضيقه بانصراف الولاء الدينى لأرباب عديدين ، وانصراف أموال الدولة إلى معابدهم الكثيرة ، وضيقه بثراء كبار كهنة آمون واتساع تدخلهم فى شئون الدولة ، وضيقه بروح المحافظة التى تعللت بالدين وقيدت حرية الناس ، ثم أمله فى أن يجد من شيوع دينه الجديد خارج مصر مايحقق رابطة متينة ، توثق الصلات بينها وبين أتباعها وجيرانها .

وفى العام السادس من حكمه جهر أمنحوتب الرابع بعقيدته ، وأعلن توحيده

(١) *cf.* Gunn, *JEA*, X, 168 f.

خالصاً ، فنادى بإله واحد لاشريك له ، ولامحل لتعدد الأرباب والربات إلى جنبه ، ليس هو آمون ، ولكنه آتون . وليس هو ممن تقوم عبادته خلف أستار وأسرار ، ولكنه إله يشهد الناس آياته دون حجاب ، ولهم أن يعبدوه حيثما سقط من كوكبه على الأرض شعاع ، ونزه فنانوه ربهم هذا عن أن يرمزوا إليه بهيئة إنسان أو جسم إنسان ورأس حيوان ، وآثروا له رمز كوكب الشمس بكل مافيه من قدرة ربانية مستترة وجسم ظاهر مضىء تصدر عنه أشعة عدة ، وبمعنى أصح أيد عدة بأكف مبسوطة تمتد على الأرض لتهبها الحياة . وكان رمزاً قديماً جديداً فى آن واحد ، قديماً فى هيئة قرص الشمس ، جديداً بهيئة الأيدى التى بدأ تصويرها منذ عهد الملك تحوتمس الرابع. ويبدو أن الفنانين لم يروا فى تصوير أكف الإله المبسوطة انتقاصاً من روحانيته ، واعتبروا تصويرها نوعاً من التعبير الفني يغنى عن الوصف والكتابة ، وشابههم فى ذلك فنانو عصر النهضة المسيحيون ، فيما بعد حين صوروا يد الله بين الغمام ونحتوا لها التماثيل ..

وبدأ أمنحوتب الرابع بنفسه ، فتبرأ من لفظ آمون فى اسمه ، وسمى نفسه آخناتون ، ربما بمعنى المخلص لآتون أو النافع لآتون أو المجد لآتون ، وتختلف هذه الترجمات المقترحة عن ترجمات أخرى شائعة . وهاجر بأهله وأتباعه من العاصمة القديمة «طيبة» إلى أرض وصفها بأنها أرض بكر طهور ، لم يدنسها شرك فى العبادة ولم يعبد فيها من قبل إله أو إلهة ، تتوسط أراضى القطر ، وتقوم على أنقاضها بلدة العمارنة الحالية ، وسماها «آخيتاتون» بمعنى أفق آتون أو مشرق آتون .

وخرجت أناشيد الدين الجديد تناجى ربها بالود والحب والتبجيل ، وقالت فيما قالت : «تجليك فى أفق السماء بديع ، آتون الحى أصل الحياة ... أنت البهى ، أنت الجليل ، أنت المنير ، أنت العلى فوق كل أرض ..» .

وعرضت الأناشيد مدن الإله الظاهرة فى حجج فطرية مقنعة ، استخدمت المقابلة فيها بين حال الأرض وأهلها حين غياب نور (كوكب) الرب وحين ظهوره . فكلما غاب أظلم الكون وأصبح كالموات ، وهجع الخلق ، وخيف النهب ، واستشرى الوحش ، ودبت الزواحف . فإذا أشرق آتون بدل الحال غير الحال ، فشتت الظلمة وبسط الأشعة وكفل الأمن ويسر السعى . (وظهرت الحجج نفسها ضمن مارددته فيما بعد مزامير العبرانيين ؛ مما دعا ببعض الباحثين الغربيين مثل برستد وجريفث

وغيرهما إلى الربط بينهما واعتبار الأناشيد المصرية أصلاً لها) .

وكانت مذاهب الدين القديم قد ربطت بين الإله وعباده بروابط شتى ، فتخيرت الدعوة الجديدة من هذه الروابط ، روابط العطف والحب ، وأعلنت أن ربها عظيم المحبة ، وأنه أم وأب لكل من خلق ، وله يسبح البشر والحيوان والطير والنبات ، كل منهم بطريقته وتسبيحه ، وقالت : «الزهر ونبت الأرض ينفتح لمرآك ، وتتملكه النشوة لمحياك ، والأنعام تتراقص على أقدامها ، والطيور فى أوكارها تطوى أجنحتها وتنشرها تسبيحاً لآتون الحى خالقها .. ، الأرض بأسرها عامرة بحبك ، والعشب والشجر يتمايل لمطلع وجهك ، وأسماك الماء تتراقص لرؤيتك ...» .

وبلغت الدعوة غايتها القصوى حين خرجت عن الإقليمية إلى العالمية ، فنادت بإله رحيم فى كل أمره ، محبوب فى كل أمره ، خلق الكون عن حب ورغبة ، واقتضت عدالته أن ينتفع القريب والبعيد بفضله ، وتنبسط آلاؤه بانتشار أشعته فى أقطار الدنيا بأسرها ، دون تفرقة فيها بين أبيض وأسود ، فلم لايجتمع الناس إذاً على عبادته كما اجتمعوا على النفع منه ؟ . وقال آخناتون فى هذا وهو يسبح ربه :

«رب أحد دون شريك ، برأت الدنيا وكنت فرداً .

خلقت البشر والأنعام ، وكل مايسعى على الأرض بقدم ، ويحلق بجناح فى الفضاء .

وأقطار سوريا والسودان وأرض مصر ، وجهت كل فرد فيها إلى موطنه ، ودبرت للجميع شئونهم فأصبح لكل فرد رزقه وتعين لكل فرد أجله ، وظلت الألسنة بينهم فى النطق متباينة والهيئات والألوان متمايزة .

آتون ياضوء النهار ، ياعظيم المجد ، بلدانا نائية تهبها الحياة وترسل الغيث من أجلها ، يموج الغيث فوق الجبال كالبحر الخضم ويسقى الحقول بين القرى .

ما أجل تدبيرك رب الخلود ، فيضان فى السماء لأهل القفار وحيوان الفلا ومايدب على قدم ، وفيضان سواه لأرض مصر يأتى إليها من دنيا العدم» (١) .

وهكذا لم يجد آخناتون بأساً من أن يذكر اسم مصر العظيمة بعد ذكره الشام

(١) Davies, *El-Amarna*, VI, pl. XXVII; Sandman, *Texts from the Time of Akhenaten*, 1938, 93 f.; II, 5-6; 12, 10; 15, etc...

(باسم خارو) والسودان باسم كاش ، مادام الخالق الرازق واحداً ، رحيماً هنا رحيماً هناك ، جواداً هنا منعماً هناك ، خلق الجميع على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومواطنهم، وتكفل بأرزاقهم ، وكان معجزاً حين وهب مصر فيضاناً من الخفاء ، كريماً حين وهب غيرها فيضاناً من سحب السماء .

وتزعم آخناتون مجالس الدعوة وأعلن نفسه نبيها والمصطفى لنشرها ، واصطفى لنفسه حواريين يعلمهم كما علمه إلهه [١] . ورأى أن تشييد دور العبادة خير سبيل لنشر الدعوة ، فعمل على الإكثار منها بإسم آتون فى أمهات المدن المصرية ، كما أوحى بإقامة أمثالها فى عواصم النوبة والشام . وجعل مدينته «آخيتاتون» مدينة فاضلة تعمل للدين والدنيا معاً ، تبشر بالإيمان السمح المستبشر ، وتشيد بالعدل فى كل أمره ، وتتردد تسابيح الشكر والصلوات لآتون فى معابدها ، كما تتردد الأغانى والأنغام وأهازيج حب الطبيعة والجمال فى مجالسها .

وعكس هو وأتباعه جوهر الدعوة على الآداب والفنون ، وحاولوا أن يخلصوهما من ركام التقاليد وقيود التراث القديم التى لاتوائم دعوة التحرر والاعتراف بالأمر الواقع فى عهدهم ، فتخففوا من أساليب الأدب المتقعرة القديمة وغلبوا عليها لغة الحديث المقبولة الشائعة . وبدأ آخناتون بنفسه فى دعوة تحرر الفنون ، ففتح مغاليق قصره للمثالين والرسامين ، فمثلوه فى بشريته الخالصة ، وصوروه هو وأسرته فى حياتهم العادية ، حين فرحهم وحزنهم ، وعبثهم وجدهم . وتوهم أنصار الدعوة أن الأمور قد صفت لهم ، وتمنوا لفرعونهم ومعلمهم أن يظل بينهم وفى عاصمتهم «حتى يسود البجع ، ويبيض الغراب ، وتتحرك الجبال ، وينساب الماء إلى حيث ينبع »[٢] .

وعلى الرغم من ذلك كله ، لم يطل الأمد بدعوة التوحيد هذه ، ولم يتهيأ لها من كثرة الأتباع ماكان يرجى لمثلها ، ولم ينته الأجل بملكها حتى كان قد رأى عوامل التحلل والفشل تدب فيها من حيث ظن الخير ومن حيث لم يحتسب . وتمثلت هذه العوامل فيما قدمنا به عنها حين حديثنا عن الجوانب السياسية فى عهد آخناتون ، ومجملها : عدم خروجه بنفسه للترويج لدعوته فى أمهات العواصم داخل مصر وخارجها . وتقبله إسراف أنصاره فى تمجيده حتى أعلنوه ابنا للإله، وأوشكوا أن

---

(١) *Ibid.*, I, 7 f., 60, 6; 80, 17 f.; 92, 8-9. Cf. *ZAeS*, 1967, 25-50.

(٢) Sandman, *op. cit.*, 9; Elman, *op. cit.*, 393.

يؤلهوه أيضاً وأن ينشغلوا بشخصه عن ديانته ، وأن دعوته لم تأت بجديد يجذب العامة إليها ويرقى بحياتهم الاقتصادية أو الطبقية . وأن عقائد التعدد القديمة قد تغلغلت في معاملات جمهرة الناس ، بحيث يصعب انتزاعها من نفوسهم بسهولة ، وأن سمعة آمون رب الدولة القديم ونفوذ من بقى من كبار كهنته ، كلاهما لم تخمد جذوته على الرغم من الرماد المؤقت الذى غطاها ، وأن الشرق القديم الذى أمل آخناتون أن يجتذبه إليه بدعوته إلى عالمية الدين وإلى روح المسالمة والإخاء ، كان فى شغل شاغل عنه بمشاكله الخاصة ، وبمن تنازعوا أموره من الأموريين والكنعانيين والأراميين والعابيرو والخابيرو ، وبمن احتربوا عليه من الميتانيين والحيثيين . بل إن مشاكل أسرة آخناتون نفسها واتجاهات أمه وزوجته لم تكفل له الهدوء كاملاً ، ولم يكن له ولد يرثه على العرش والدعوة ، وإنما ست بنات وأخوان (؟) ، اتجه أكبرهما وهو «سمنخ كارع» إلى مهادنة كهنة آمون فى حياة أخيه ، وسلم أصغرهما وهو توت عنخ آتون ببأس خصومه والأمر الواقع بعد وفاة أخيه ، فارتد عن ديانة آتون ، وعاد إلى طيبة مقر آمون ، وولى عرشها باسم «توت عنخ آمون» وناصر عقائدها وعمر معابد أربابها ورباتها .

وسلكت نفحة الوحدانية بعد ذلك مسالك أخرى مستترة تحاشت فيها نقمة أنصار التعدد الكثيرين وضمنت بقاءها بين القلة المستنيرة من خاصة أهل الفكر فى مجتمعها ، مما نتناول تفصيله فى بحث آخر (١) .

ثانياً : عقائد البعث والخلود :

طمعت أغلب شعوب العالم القديم فى الخلود واستمرار أو استئناف الحياة بعد الممات ، ربما بمالا يقل كثيراً عما طمع فيه المصريون القدماء ، ولكن بينما رتبت تلك الشعوب طمعها فى الخلود على الأمل وحده ووقفت عنده ، رتب المصريون القدامى طمعهم فيه على المنطق والعمل والأمل والعقيدة فى آن واحد ، وكانوا أول أمة آمنت بالبعث والخلود من تلقاء نفسها (على الأقل فيما يعرف من المصادر القديمة حتى الآن) .

وافترض صفوة المصريين المتدينين القدماء للإنسان مقومات عدة ، طبيعية

---

(١) راجع للمؤلف : الوحدانية فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٥٩ .

ومكتسبة ، أهمها سبعة (وليست ثلاثة فقط كما تكتفى بها أغلب المؤلفات الحديثة)[1]، وهى : جسم مادى (خت) ، وقلب مدرك (إب) ، وطاقة أو فاعلية أو نفس فاعلة (كا)[2] ، واسم معنوى (رن) ، وظل ملازم (شوت) ، وروح خالدة تسرى فى الظاهر والباطن (با) ، ونورانية شفافة (آخ) . وتشتد صلته بالاثنتين الأخيرتين منها بعد وفاته ، إذا كان صالحاً . واعتقدوا أنه لابقاء للمرء فى أخراه إلا باجتماع كل هذه المقومات ، وأنه لاسعادة لها فى جملتها دون مساعدة خارجية . ولهذا تلمسوا سبل الاهتمام بكل واحد منها على حدة ، إلى جانب الاهتمام بها جميعها كوحدة واحدة . فالجسد ينبغى أن يصان ويحنط ، والقلب يحفظ ويعوذ ، والكا أو النفس الفاعلة تتلى التراتيل باسمها من أجل صاحبها وتقدم القرابين لصالحها ، والروح تتنقل ماشاء لها ربها فى عالم الأرض أو فى عالم السماء مادامت خيرة ، والنورانية تكتسب بالتقوى ، والاسم يخلد عن طريق صالح الأعمال وترديده فى الدعوات وتكراره فى نقوش المقبرة وقرنه بالسمعة الطيبة له وللأسرة عن طريق جهود الابن الأكبر[3].

ومع ماتفاعلت به العقائد الدينية القديمة بعامة مع إيحاءات بيئاتها الطبيعية ، وجد المصريون الأوائل فى خصائص بيئتهم ما أوحى لهم بمنطقية الخلود الأخروى وشجعهم على الإلحاح فى طلبه . فقد اعتادت أغلب أجيالهم منذ فجر التاريخ القديم على أن يدفنوا موتاهم فى الحواف الصحراوية (والغربية منها بخاصة) ، ليناوا

---

(١) كثيرة هى المؤلفات التى كتبت عن عقائد مابعد الموت فى مصر القديمة ، ومن أفضلها :

أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة – معرب بالقاهرة ١٩٥٢ .

جيمس هنرى برستد : تطور الفكر والدين – معرب بالقاهرة ١٩٦٥ .

فجر الضمير – معرب بالقاهرة ١٩٥٦ .

Gardiner, *The attitude of the ancient Egyptians to Death and the Dead*, 1935; Kees, *Totenglauben und Jenseitsvorstellungen der alten Aegypter*, (2ed), 1956; Vandier, *La Religion Egyptienne*, Paris, 1949, Ch. III-IV; Morenz, *La Religion Egyptienne*, Paris, 1962, Ch. IX; etc.

(٢) راجع للمؤلف عن هذا المعنى : A. Saleh, "Notes on the Egyptian *Ka*", *Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo Univ*, XXII, Part 2 (165), 1 f.

(٣) راجع أيضاً للمؤلف : مداخل الروح وتطوراتها حتى أواخر الدولة القديمة – مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – ١٩٦٤ – ص٩٥ – ١٣٦ .

ومقومات الإنسان وماهيته فى مصر القديمة – فى المجلة نفسها – ١٩٦٩ – ص١٥٩ – ١٩٨ .

بمقابرهم عن رطوبة الأرض الطينية ، ويتركوا الأرض الطميية للزراعة . ويوفروا أراضى القرى لمصلحة أحيائها . وشيئاً فشيئاً تبينوا أن مقابرهم الصحراوية تحفظ جثث موتاهم بحالة لا بأس بها لفترات غير قصيرة ، وعندما اقترنت هذه الظاهرة بأحاسيسهم الدينية لم يردوها إلى جفاف الصحراء وحده ، ولا إلى دور الرمال فى امتصاص رطوبة الجسد وحده ، وإنما ردوها أساساً إلى فضل قدرة ربانية حانية ، وقدروا أنهم إذا استرضوا صاحب هذه القدرة وقدسوه ، زاد من رعايته لجثثهم وحفظها سليمة لأطول مدة ممكنة . وحدث بالفعل أن المعبود الذى تخيلوه رباً للحواف الصحراوية وهو «إنبو» (أو أنوبيس فى اللغة الإغريقية) ، كان هو نفس المعبود الذى تخيلوه راعياً لجثث الموتى وقادراً على حفظها وحامياً للجبانات . وقد انتشر تقديسه من طائفة إلى أخرى حتى أصبح الجميع يتوجهون بدعواتهم الأخروية إليه ، واعتبروه رباً للتحنيط بارعاً فيه ، ورمزوا إليه بهيئة ابن آوى ، وهو رمز يصعب تعليل اختياره ، مع شرور بنات آوى فى الجبانات والصحراوات ، إلا بما قدمنا به وهو الاعتقاد العكسى بأنه لن يستطيع أن يخبت شرة هذه الحيوانات إلا من خلقها وارتضى لها هيئتها الخاصة وجعلها آية ظاهرة لقدرته ، بعد أن يترضاه الناس ويحسنوا الظن به فيغلبوا قدرة الخير فيه على قدرة الشر .

ولم يكن فيضان نهر النيل العظيم ومايترتب عليه من نتائج حيوية فى حياة المصريين بمعزل عن الإيحاء إليهم بإمكان تجدد الحياة والبعث وهم يرونه يتجدد كل عام فى موسم لايخلفه ، فيخصب التربة ، وينبت البذرة ويحيى الخضرة ويدفع دورة الحياة الزراعية دفعات جديدة دائماً . ولم يتوهموا أن هذه المظاهر تحدث تلقائياً من غير علة أو غاية ، وإنما آمنوا معها برب كريم يدفع الفيضان من باطن الأرض ، وينمى النبات من الحب المدفون فى التربة ، ويحيى الحقول الجافة بعد مواتها كلما مسها بفيضه ورحمته . ومع طول التدبر ونمو التدين قدروا أن من يتعهد طبيعتهم بالحياة المتجددة ويدفع عنها مواتها ، قادر من غير شك على أن يتعهد أهلها بالحياة بعد وفاتهم ، طالما أحبهم وأحبوه ، وطالما تقربوا إليه وقدسوه . وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيله بعضهم رباً للفيضان والخصب والزرع ، وقدسوه باسم أوزير كان هو نفس المعبود الذى نسوا إليه ربوبية البعث والآخرة ، وجعلوا مملكته تحت الأرض ، وامتد تقديسهم له فى طول البلاد وعرضها وزادوا دوماً فى صفاته ، وأحاطوه بأساطير وتخيلات عدة (وهو غير الإله حعبى) .

وكما استمد المصريون القدامى أملهم فى البعث من أحوال الأرض وأربابها ، استمدوه من السماء وأكبر أربابها حين لاحظوا ولاحظته معهم كل الشعوب من أثر الشمس في دورة الحياة اليومية ، وارتباط شروقها بيقظة الكائنات بعد النوم ، والنوم هو الموت الأصغر كما يقال ، وبالحركة بعد الخمول ، والرؤية بعد قلة الرؤية . ولم يرد المصريون ذلك إلى عملية آلية لاروح فيها ولاهدف لها ، وإنما ردوه إلى ربهم القادر رع الذى اتخذ الشمس آيته الكبرى لنفع الأحياء فى الدنيا ، وتوهموا فيه وفى علل شروق شمسه وغروبها ماسبق تفصيله فى عقائد التأليه ، ثم قدروا أن من يسير الشمس لنفعهم فى الدنيا قادر على أن يوجهها لنفعهم فى الآخرة ، بعد أن تتجه إلى الأفق الغربى حيث توجد أغلب مدافنهم ، فتنزل فيه إلى ماتحت الأرض وتضىء ظلمة القبور وتنير مسالك العالم السفلى . وتخيلوا لربها من أجل هاتين الغايتين مركبين (سبق التنويه بهما) ، مركباً يعبر بها سماء الأحياء فى النهار ، وهى معنجة ، ومركباً يعبر بها سماء الموتى فى الليل وهى «مسكتة» ، وله فى هذه الأخيرة مسار معلوم تحدثت عنه كتب الموتى فى كل ساعة من ساعات الليل الاثنتى عشرة .

وتراوحت وسائل أجيال المصريين لتأمين الخلود وتحقيق سعادة الموتى ، بين الماديات وبين المعنويات تبعاً لتوالى العصور ونمو الإمكانات وتطور الفكر والتصورات . فسادت الماديات فى العصور المبكرة ، ثم غلبت المعنويات عليها شيئاً فشيئاً خلال العصور المتحضرة المتتالية ، ولكن دون أن تمحوها . فإلى جانب الارتقاء المستمر بعمارة المقابر وتوسيعها وتأمينها ضد عوادى الزمن واعتداءات الغير ، باعتبارها المساكن الباقية لجثث أصحابها ، اقترنت الرعاية المادية فى العصور المبكرة بتزويد المتوفى فى قبره بما يمكن تزويده به من أوانى الطعام والشراب ومايعنيه من الأدوات الضرورية وبعض مقتنياته الثمينة الخاصة ، وتماثيل صغيرة رمزية لخدمه وجواريه إذا كان ثرياً ، وهو مايمكن تفسيره بالرغبة فى إكرامه وإيثاره وضمان بقائه، وبالأمل فى أن ينتفع بما يوضع معه فى قبره خلال سفره الطويل ، انتفاعاً يناسبه ، وكل ذلك مع الحرص على تقديم القرابين وتلاوة التراتيل باسمه فى الجزء العلوى من مقبرته فى أوقات معينة وبما يتفق مع استطاعة أهله .

وتطورت نوعيات الرعاية منذ أوائل العصور التاريخية ، فاستعاضت شيئاً فشيئاً عن الأطعمة والمشروبات الفعلية التى توضع فى أسفل القبر ، بتسجيل أسمائها وأعدادها ورموزها فى قوائم منقوشة على لوحات خاصة ، تتخذ أوضاعاً محددة فى

قاعات تقديم القرابين فوق سطح الأرض ، ثم تصوير بعض مصادر الخيرات الدنيوية من زراعة وصناعة وصيد وإدارة وثراء واستمتاع ، على الجدران الداخلية فى الجزء العلوى من المقبرة ابتداء من أوائل الدولة القديمة . وقد رمزت هذه النقوش والمناظر فى مجملها إلى أهم ما استحبه أهلها فى دنياهم وتمنوه لأخراهم ، ثم عبرت بتفاصيلها عن أغراض شتى ، يمكن أن نذكر منها إذكاء سعادة الروح وتذكيرها بحياتها الأولى كلما هبطت من عالم السماء على قبرها ، مع الاعتقاد بإمكان تحولها إلى حقائق عملية تناسب العالم غير المنظور الذى سوف ينتقلون إليه ، عن طريق مايكتب معها ويتلى عليها من تعاويذ السحر وتراتيل الدين ، واعتبارها تعويضاً احتياطياً لاحتمال تقصير الورثة فى تقديم القرابين الفعلية لصالح الموتى ويمكن أن نضيف من ناحية أخرى اتخاذها وسيلة لتخليد السمعة والتفاخر والتعبير عن الثراء ، ووسيلة للتعبير عن حب الزخرف والرغبة فى استرواح صور الفن الجميل فى الدنيا والآخرة . وانتقلت بعض هذه النقوش والمناظر منذ أواخر الدولة القديمة ، من جدران الحجرات فوق سطح الأرض إلى جدران غرف الدفن وماحولها ، ثم انتقل بعضها إلى سطوح التوابيت ، ولكن ظلت أغراضها فى أغلب الأحيان متشابهة .

وكان التابوت يعتبر المسكن الأصغر للمتوفى ، كما كان قبره يعتبر مسكنه الأكبر، ولهذا وجد من العناية والتطوير نصيباً كبيراً .

وتضمنت أغلب المقابر إلى جانب مناظرها ونصوصها ، تماثيل كبيرة وصغيرة لأصحابها ، وضعت فى أوائل الدولة القديمة فى مقاصير مغلقة الجوانب وفى أقرب مكان فوق سطح الأرض يمكن أن يؤدى إلى بئر الدفن ، لكى ترغب الروح فى التردد على مقبرة صاحبها وتسترشد بملامحها وهى فى طريقها إلى حجرة دفنه حيث تحط فيها على جثته . وليس من المستبعد أن تكون هذه الرغبة قد ارتبطت عند أصحابها بالخشية من أن تتغير ملامح الجثة أو تتحلى رغم وسائل حفظها ، فتضل الروح عنها أو تنفر من أن تعود إليها .

ثم انتقلت التماثيل منذ أواسط الدولة القديمة إلى مقاصير مفتوحة بالمقابر ، وجمعت إلى غرضها السالف غرض تخليد صورة المتوفى بين الأحياء المترددين على مقبرته ، وغرض تقديم القرابين والتراتيل أمامها لمنفعة روحه حين تتلبسها .

وساير الفنانون المصريون عقائد قومهم التى وعدت المؤمنين بها بالبعث براء

من أعراض الضعف والمرض وعيوب البدن ، فنحتوا هذه التماثيل فى هيئات صحيحة قوية مستبشرة ، ولم يمثلوا فيها عيوب البدن إلا فى مرات نادرة . وغالباً ما أصحبت تماثيل المتوفى تماثيل أخرى صغيرة لخدمه وجواريه ، كل بعمله الذى تخصص فيه ، ابتغاء أن تنتفع روحه بمجهودات أعمالهم فى الآخرة كما تنتفع بصورهم فى مناظر جدران المقبرة . وظهرت منذ عصر الانتقال الأول تماثيل أخرى صغيرة تسمى الوشابتى يقوم بعضها بدور المجيب عن صاحبه حين يدعى لشأن من شئون الحياة الثانية ، ويقوم بعضها الآخر بدور التابع المسخر لأداء ما يأنف صاحبه من أدائه من أعمال فى الآخرة (١) .

وليس أدل على أن المصريين لم يعملوا لتقبل الموت بقدر ماعملوا للتغلب عليه من آية التحنيط ، التى حفظت على جثث أغنيائهم خواص تقاطيعها ، وجلودها وشعورها ، وأصابعها بأظافرها ، على الرغم من مرور مايتراوح بين ماقد يبلغ ثلاثة آلاف وثلاثة آلاف وخمسمائة عام عليها . ومعروف ما استهدفه المصريون من التحنيط من حيث الرغبة فى الإبقاء على جسم المتوفى سليماً واضح الملامح بقدر الإمكان ، رعاية لصاحبه ، وضماناً لبعثه ، وتشجيعاً لروحه على أن تأنس إليه وتتلبسه . وقد سلكوا فى سبيل التحنيط مراحل وتجارب عدة ، تدع تفاصيلها وتتابعها التاريخى لبحث آخر تال ، ويكفى أن نذكر أنهم وصلوا إلى كمال التحنيط فى الدولة الحديثة . ويفهم مما احتفظت به نصوص معدودات ومما سجله المؤرخان هيرودوت وديودور ، ومما انتهى إليه الأخصائيون المحدثون (٢) ، أن البطن كانت تشق من جانبها بشفرة ظرانية رقيقة لتستخرج منها أحشاء الفراغ البطنى والفراغ الصدرى فيما عدا القلب ، وقد يستخرج المخ من الرأس أيضاً ، ثم تعالج كل من هذه بمواد معينة وتلف على حدة وتوضع فى تجاويف الجسم ثانية ، أو توضع فى أوان فاخرة تناسب صاحبها (وتسمى الأوانى الكانوبية) وتحاط بمواد تحفظ عليها كيانها وتمنع فسادها ، مع الاعتقاد فى إيكال رعايتها إلى أبناء الإله حور الأربعة ، وحينئذ تملأ فراغاتها فى

(١) Speleers, *Les figurines egyptiennes*, 1923.

(٢) *cf.* Pap. Boulaq, III; Pap. Louvre 5158; Herodotus, II, 88 f.; Diodorus, I, 91 f.; Dawson, *JEA, XIII, 40 f.*; E. Smith and Dawson, *Egyptian Mummies*, 1924; Sethe, *Zur Geschichte der Einbalsmierung bei der Aegypter...*, 1934; Lucas, Ancient *Egyptian Materials and Industries*, 1948; Ch. XII and notes.

الجسم بالراتنجات والصموغ والنشارة وما يماثلها .

أما المواد الأساسية المستعملة لكى تتشرب دهنيات الجسم وشحومه وعفونته ، وتكسبه النقاء والجفاف والرائحة الذكية ، فكان منها فيما يعرف حتى الآن : النطرون وشمع العسل والقرفة والكاسيا والبصل وأنواع من الراتنجات الصمغية وحبوب العرعر وزيته وزيت الأرز وزيت الزيتون ، والمر والمستكة والحناء ، وكل ذلك بنسب وطرق لاتزال تحوطها الأسرار حتى الآن . وأضاف محنطو عصر الأسرة الحادية والعشرين خطوة قد تحتسب لهم أو عليهم ، وهى معالجة تقلصات الأعضاء فى بعض أجزاء الجسم حين التحنيط بحشو ماتحت الجلد بمواد مختلفة حتى تنبسط وتتخذ شكلها الأصلى ، وحشو الصدغين أحياناً حتى يتخذا امتلاءهما الطبيعى ، وملء تجويف العين بما يرد عليها حيويتها .

وشيئاً فشيئاً شاع استخدام التحنيط لكل من يقدر على نفقاته من أفراد الشعب ، وأصبحت له ثلاث مراتب كما روى هيرودوت تتفاوت فى تكاليفها ومدى إتقانها ، كما تتفاوت فى مدى فترتها بين أيام معدودات وبين سبعين يوماً أو ماهو أكثر . وكان تمام عملية التحنيط فيما يسبقها ويصحبها ويتلوها من عمليات الغسل والتنظيف والتطهير والتعطير واللف والتكفين ثم وضع التمائم ، لاسيما تميمة القلب ، والحلى والأقنعة الذهبية ، وكتابة الاسم والألقاب وبعض النصوص الدينية المختارة ، فضلاً عما يتلى عليها من الرقى والإشارات الرمزية إلى فتح الفم وتنشيط الحواس ، وما إلى ذلك مما ابتدعه الكهان وبرعوا فيه واعتمدوا فى معايشهم عليه .

وكما ذكرنا لم يكن للخطوات السابقة من أثر فى عرف المصريين ، إلا بفضل مايتلى عليها من تراتيل السحر والعقائد ، عند الوفاة ، وعند الغسل والتطهير ، وعند الدفن ، وعند تقديم القرابين ، وعند إجراء الصلوات فى مقاصير المقابر وهياكل المعابد .

وأوسع المصادر الدينية حظاً فيما تضمنته من هذه التراتيل ، وأوسعها تعبيراً عن عقائد مابعد الموت وتطورها من عصر إلى آخر ، هى : متون الأهرام ، ومتون التوابيت ، وكتب الموتى . وقد استشهدنا ببعض خصائص المصدرين الأولين منها ، خلال حديثنا عن التطور الحضارى للنصف الثانى من الدولة القديمة بالنسبة لمتون الأهرام ، وخلال عصر اللامركزية الأولى بالنسبة لمتون التوابيت . وأسلفنا عن متون

الأهرام التى بدأ تسجيلها فى باطن أهرام الملوك منذ نهاية عصر الأسرة الخامسة حتى نهاية الدولة القديمة (ثم عادت فى العصر الصاوى) ، أنها لم تكن وليدة عصر كتابتها وحده ، وإنما كانت من تراث عصور طويلة سابقة وإنتاج كفايات فكرية متباينة ، ولهذا تضمنت صوراً أخروية ودنيوية وأسطورية وفلسفية ، بعضها بدائى مضطرب ، وبعضها راقٍ منطقى .

وظهرت متون التوابيت ، منذ أواخر الدولة القديمة [١] ، وزادت حصيلتها وتنوعت مذاهبها فى عصر الانتقال الأول فيما مر بنا ، ثم فى الدولة الوسطى . واقتبس الكهان بعض أورادها من متون الأهرام ، ثم ألفوا بقيتها بما يتناسب مع عهودهم المتتالية وآمال الناس فيها . وأسلفنا أن أهم ظواهرها تلقب كل متوفى فيها بلقب «أوزير» أملاً فى أن ينعم فى الآخرة بما نعم به هذا المعبود الشهيد الخير ويخلد فيها مثل خلوده . وكان هذا اللقب فى بدايته قاصراً على الملك المصرى باعتباره وريث أوزير فى الدنيا والآخرة ، فلما اهتزت أركان الملكية فى أواخر الدولة القديمة ، انتحل كبار الدولة وحكام الأقاليم امتيازاتها الدينية ورجوا لأنفسهم فى الآخرة ماكان الملوك يرجونه لأنفسهم ، وتلقبوا مثلهم بلقب أوزير ، ثم قلدهم فى ذلك من تحتهم من مختلف الطبقات حتى شاع اللقب وأصبح أملاً عاماً لكل إنسان [٢] .

ولم تؤد متون التوابيت إلى الاستغناء عن نقش متون دينية أخرى على جدران المقابر ، ثم لم تغن هذه ولا تلك عن ظهور موسوعات دينية جديدة أكثر شهرة منها فى الدولة الحديثة ، وهى كتب الموتى التى أصبحت تكتب على أدراج متفاوتة الأطوال من البردى ، وتحفظ مع المتوفى فى تابوته أو توضع بين أكفانه .

ولم تكن فى حقيقة أمرها كتاباً يلتزم ترتيباً معيناً ، ويتحدد ببداية أو نهاية ، ومن أجل هذا عدلنا عن تسميتها بالاسم الشائع لها وهو كتاب الموتى ، وإنما كانت فصولاً دينية متفرقة تطور بعضها عن متون التوابيت ، وألف بعضها الآخر بما يتفق مع تصورات عصره ، وكان الكتبة الدينيون يكتبون فى كل درج مايحفظونه منها أو

---

(١) Speleers, *Textes des Cercueils*, 1947; A. de Buck, *The Egyptian Coffin Texte*, 1935 f.; Faulkner, *The Ancient Egyptian Coffin texts*, I-III.

(٢) Moret, "L'accession de la plébe êgyptienne aux droits religeux politiques sous le Moyen Empire", *Rec. d'etudes ég.*, 1922, 231 f.

ماتتوافر عندهم نسخة ، أو مايطلبه منهم العميل نفسه ، ويشيع عادة فى أيامهم . وقد داخل تطورات هذه الفصول كثير من أوهام السحر والأخيلة الشعبية ، ونكتفى هنا بنماذج من أفضل مافيها .

وكانت فكرة المسئولية والحساب أمام كبار الأرباب قد ترددت من قبل فى كل من متون الأهرام ومتون التوابيت ، ولكنها أصبحت أوضح فى كتب الموتى ، وعبر عنها فيها باللفظ والصورة ، وبصور معنوية وأخرى مادية ، ومن أكثر صورها شيوعاً تصوير ميزان ينصب ويوضع قلب المتوفى في إحدى كفتيه ، باعتباره مصدر النية والضمير والمشاعر ، بينما تصور فى الكفة الأخرى ريشة ترمز من حيث اللفظ إلى كلمة «ماعت» بمعنى العدالة ، وترمز من حيث الصورة إلى دقة الوزن وحساسيته . ويجرى الحساب عادة فى حضرة رب الآخرة أوزير ، وبحضور اثنين وأربعين قاضياً مقدساً ، يمثلون أرباب عواصم الأقاليم ، بينما يقوم على تقييم الحسنات والسيئات رب الكتابة والحكمة تحوتى ، فسيطر على لوحته نتيجة الوزن ونتيجة دفاع المتوفى عن نفسه أمام أربابه وإلهه الأكبر ، وحينئذ يتحدد مصيره ، فإما إلى جنان ذات برك وغدران وزروع ترتفع سيقان سنابلها إلى سبعة أذرع ، وإما إلى جحيم تتنوع فيه صور الحرمان والفزع وأذى الوحوش والحيات والنيران .

ويبدأ المتوفى يتنصل من آثام الدنيا فى دفاع إنكارى طويل ، يقول فى بعض عباراته : لم أتكب ذنباً ضد الناس ... ، لم أضلل الرعية ... ، لم أرتكب إثماً فى دار الحق ... ، ماقسوت على فقير ، ماحرضت عبداً على سيده ... ، ما أمرضت (إنساناً) ، وما أبكيت إنساناً ... ، لم أقتل ولم آمر بقتل ، لم آت اللواط ، لم أطفف الكيل ولا الميزان . وعندما ينتهى من حديثه الطويل ، يعلن طهارته بقوله : إنى طاهر ، طاهر، طاهر ، طاهر ، ونقائى نقاء طائر البنو الكبير فى أهناسيا .

وفى هذه المبادئ من الطهر وكثير أمثالها مما تضمنته كتب الموتى ونعالجه بتفصيل فى بحث آخر ، مايشهد بأن القيم العليا فى أغلب الأديان وفى الحضارات الراقية تكاد تكون واحدة ، وإن اختلف مدى استمرارها ومدى الأخذ بها [١] .

---

(١) راجع للمؤلف : ديانة مصر القديمة - القاهرة ١٩٩٠ .

من الأدب المصرى القديم

سجلت نصوص الآداب المصرية القديمة على صفحات البردى وعلى الألواح واللخاف ، بخطوطها المتنوعة : الخط الهيروغليفي والخط الهيراطي منذ أواخر الألف الرابع ق.م ، والخط الديموطى منذ القرن الثامن ق.م ، ثم الخط القبطى منذ القرن الثانى للميلاد . وظلت لغتها طيلة عدة آلاف من السنين واحدة متصلة فى أساسها ومن حيث جوهرها مع تمايز خفيف وتطور ، يسير فى نحوها وأساليبها وهجاء كلماتها من عصر إلى آخر ، من عصور تاريخها الطويل .

أولاً - فى أدب الأسطورة والملحمة :

أسطورة أوزير وتطوراتها :

هذه واحدة من أشهر الأساطير التى نسب روتها فيها أعمال زعماء أتباع الأرباب القدامى إلى شخوص أربابهم حيناً ، كما ارتفعوا فيها بمكانة بعض الزعماء الأوائل إلى مستوى الأرباب حيناً آخر ، ثم طبقوا فيها تصرفات البشر ومشاعرهم على حياة المعبودات وتخيلوهم يحكمون على التتابع فى الزمن الأول ويتزاوجون وينسلون ، ويتعاونون ويتخاصمون ، ويتبادلون الحب والكره ، والوفاء والغدر .

سجلت أسطورة أوزير أول ما سجلت موجزة فى سياق بعض متون الأهرام الدينية منذ نهاية عصر الأسرة الخامسة نقلاً بطبيعة الحال من عصور أسبق منها ، مما يعنى أنها اصطبغت قبل كتابتها الأولى بصفة القداسة ، وربما كانت تردد فى أعياد المعابد أو تمثل فى مناسبات معينة . كما اتصلت فى بعض أطوارها بتاريخ الملكية المقدسة وذكرياتها ، مما يدفع إلى الظن بأنها كانت تردد كذلك أحياناً فى أروقة القصور الملكية وربما تمثل أيضاً . واتضحت الصبغة الإنسانية للأسطورة شيئاً فشيئاً بعد ذلك ، واستمر رواة كل جيل يضيفون إليها من خيالاتهم بما يوائم تصورات عصرهم ومايزيد من تأثيرها فى أذهان الناس ، ولكن دون التضحية بجوهر الأسطورة القديمة وقداستها .

كان شخوصها الرئيسيون أربعة يتألفون من أخ وأخت أو زوج وزوجة ، وولد وعم . وتمايز من نماذج الطباع والعواطف فيها أربعة : صلاح ووفاء وحسد وانتقام . وبغير أن نتكلف سجعاً ، نرى أنه يمكن إرجاع مصادرها إلى أربعة أيضاً : ذكريات قومية بعيدة ، وتخريجات مذهبية أو دينية ، وعبرة خلقية ، ثم صياغة فنية . وبهذا المحصول المتنوع أصبحت من أوليات أساطير الدراما الكبيرة المعروفة فى العالم القديم [1] .

كان أوزير وإيسة ، فيما هو معروف وفيما مر بنا من بعض صفحات هذا الكتاب (٦٨-٧١) ، أخين وزوجين من مجموعة رباعية يكملها أخوان آخران : سوتخ أو ست وأخته نبت حت (وبما يكاد يشبه أبناء آدم الأربعة الأوائل) .. وكان الأربعة رعيلاً أولاً جمع بين الألوهية وبين البشرية فى أعقاب انفصال السماء عن الأرض . وبنقلة سريعة اعتبرت أسطورة أوزير ملكاً على البشر يعدل بينهم ويهديهم إلى مايصلح أمرهم ، إلى أن نقم أخوه ست على منزلته ، فكاد له وانشق عليه وقاتله عند مياه ندية حتى قتله ورماه فى اليم واغتصب عرشه . وظلت إيسة وفية لزوجها الشهيد، فداومت البحث عن بدنه حتى عثرت عليه ، واستعانت بسحرها حتى ردت روحه عليه لفترة من الوقت ، وحطت عليه كما تحط أنثى الطيور ، فحملت منه حملاً ربانياً ، ووضعت منه طفلها «حور» (أو حورس كما شهره الإغريق) ، وربت طفلها خفية فى خم بأحراج الدلتا ، وعاونتها كائنات عدة على كفالته ، فأرضعته بقرة ، ورعته معها سبع عقارب . عادت إيسة فشهرت بست الغاصب القاتل بين الأرباب والناس ، وكادت له عدة مرات . وعندما شب ولدها سريعاً ، كما يشب أبناء الأساطير الذين لايخضعون فى نموهم لحكم المنطق والزمن ، تعاونت هى وأختها نبت حت على تجديد المناحة على أوزير الشهيد واستثارة الحلفاء من أجل الأخذ بثأره . وعهدوا بزعامتهم لولدها حور ، ودعوه «المنتقم لأبيه» ، وتجمع معه زعماؤهم وأربابهم وتبعوا أكبر رعاة الحرب فيهم «وبواوت» [2] . وطالت المواقف بينهم وبين ست وأنصاره حتى فقد حور عينه ، وفقد ست خصيته بمعنى فقد كل منهما منطقة حساسة من

---

(١) *See*, Moret, *La Passion d'Osiris*, dans *Rois et dieux d'Egypt*, Paris, 1916, 77f.; Vandier, *La Religion Egyptienne*, Paris, 1949, and *notes*.

(٢) Pyr. 1004c-f.; 2109; *JEA*, 1944, 52 f.; Sethe, *Urgeschichte*, 191; *Unters*., III, 12-16.

دولته ، ثم توقف القتال لهدنة قصيرة ، استغلها أنصار حور لعرض الأمر على أرباب الدولة الحكماء أصحاب القضاء فى عين شمس (أو فى منف) ، حيث جاءوا معهم ببدن شهيدهم أوزير ليكون آية صريحة على ماحل به من غدر . وأقام حور الدعوى باسم أبيه ، فأدان القضاة ست بالاعتداء على أخيه ، ولكن ست أنكر أنه بدأ بالشر ، وادعى أن أوزير هو الذى تحداه ونزل أرضه ، فأبى القضاة الأخذ بدعواه ، وبرأوا أوزير من تهمة البدء بالعدوان ، واعتبروه «ماع خرو» أى مبرأ أو صادق التعبير . ولما لم يكن له فى الدنيا غاية ، بعد أن برئت ساحته وأدين خصمه ، انتقل إلى العالم السفلى ، ومارس سلطانه على ملكوت الموتى ، وعاود نشاطه ، فاستمر يدفع الماء من تحت الأرض ، ويدفع الخصب إلى التربة وينمى الحب ، أو هو بمعنى آخر ، ظل يقيم الأدلة على حيويته وقدرته ، فيظهر أثره على هيئة الماء الدافق فى مواسم الفيضان ، كما يظهر على هيئة النبت الأخضر فى مواسم الزراعة .

وهكذا انتهى جوهر الأسطورة القديمة بتغليب الحق وبقاء الخير ، والإيمان بالقدر وبعدالة الأرباب ، وتبرير أسباب تقديس أوزير فى العالم الآخر ، وتعليل سر القدرة الربانية فى دفع الفيضان وتجدد الخصب وإنماء الحب والزرع . وكانت مشاهدها مما يمكن تمثيله بسهولة فى المعابد والقصور ، وفى مواسم طبيعية معينة ترمز إلى بعث أوزير وغلبة الخصب على الجفاف وتغلب الخير على الشر . ويستفاد من نصوص إيخر نفرة أحد كبار موظفى الخزانة فى عصر الأسرة الثانية عشرة أن الأسطورة كانت تمثل فى العيد الأكبر للإله أوزير بمعبد أبيدوس لعدة أيام قد تصل إلى ثمانية ، بحيث يمثل فصل منها فى كل يوم ، ويشارك فيها جمهور من حجاج المعبد [١]. ويبدو أن أحداثها التى رويناها عن متون متفرقة من متون الأهرام والتوابيت وشواهد أخرى تضمنها المذهب المنفى ، لم تكن من بنات الخيال برمتها ، وإنما كانت فيما يغلب على الظن رموزاً لأحداث قومية بعيدة سبق أن مهدنا بأخبارها لمراحل قيام وحدة مصر فى فجر التاريخ (كما أسلفنا القول من قبل) ولايخلو من دلالة أنه على الرغم من ضراوة النزاع بين أوزير وست ، أو بمعنى آخر بين أنصار رب الوجه البحرى وأنصار رب الصعيد ، إلا أن الأسطورة اعتبرتهما أخوين دائماً اعترافاً فيما يبدو بصلة القربى بين الوجهين وانتسابها إلى وطن واحد ، على الرغم

(١) Schaefer, *Die Mysterien des Osiris in Abydos*, 1904; Wilson, *ANET*, 1955, 329-330.



من الاختلافات العرضية بينهما .

وأضافت خبرات الأيام إلى مشاهد أسطورة أوزير وأسرته أخيلة عدة استهوت أذواق أهلها ورمزت إلى بعض خصائص المجتمع المصرى فى عصور إضافتها ، وإن انتهت فى مجملها إلى نهايات متماثلة ينتصر الحق فيها على الباطل مهما طال أمد التنازع بينهما . فكان من ذلك على سبيل المثال أن حادثة قتل ست لأخيه عنوة وإلقائه لدى ماء ترعة ندية ، تهذبت روايتها وصورت على هيئة مكيدة محبوكة دبرها ست فى حفل أقامه فى قصره ، حيث أعد صندوقاً فاخراً وعد بأن يهبه لمن يطابق جسمه ، فتهافت المدعوون يتمددون فيه ، ولما جاء دور أوزير نزله فطابقه ، وهنا أطبق أخوه الصندوق عليه وأحكم غطاءه وألقاه به فى النيل .

وحادثة عثور إيسة على بدن زوجها فى مصر ، اتسع مجالها فقيل إن نهر النيل احتمل الصندوق حتى مصبه ، ثم أسلمه للبحر الأخضر ، فاحتمله البحر بدوره حتى ألقاه آمناً على شاطىء جبيل (فى لبنان) ، فأظلته هناك شجرة مباركة واحتوته فى جوفها . وساحت إيسة فى الأرض بحثاً عن أخيها ، حتى بلغت جبيل واهتدت إلى الشجرة ، واستخلصت الوديعة منها واحتملتها إلى مصر ، حيث أعادت إلى بدن أخيها روحه وحملت منه ، وتسترت معه . ولكن أخاه ست كشف مخبأه ومزقه فى هذه المرة شر ممزق وقطعه اثنتين وأربعين قطعة (وفى رواية أخرى أربع عشرة قطعة) ورمى بكل قطعة فى كان ، وذلك يرمز فيما يبدو إلى تفرق وحدة البلاد القديمة فى فترة مما قبل الأسرات وتجزئتها إلى عدد من الأقاليم ، كما يفسر تعدد مزارات أوزير التى قامت على أجزائه الموزعة فى هذه الأقاليم [١] .

وأصبح الرواة كلما ألمت ببلدهم مصيبة وتعرضت لغزو خارجى عبر صحراواتها رمزوا إلى هذه المصيبة فى أساطيرهم بالربط بينها وبين مكائد ست وإيحاءاته . فظنوا مثل هذا الظن بالنسبة للهكسوس الذين أتوا من نواحى آسيا وعبدوا الإله سوتخ وحاربوا تحت رايته . وظنوه كذلك بالنسبة للغزو الفارسى الذى استهان بمعابدهم ومذاهبهم فى العصور المتأخرة . وأدمجت كل هذه الشرور رمزاً فى أساطير وتمثيليات تبناها معبد أوزير فى أبيدوس واحتفظت بها بعض البرديات المتأخرة ،

(١) Plutarch, *De Iside*..., XII-XIX; Sethe, *ZAeS*, XLV, 12f.; *Guenth*-Aglouеft, *Rev. d'Eg.*; 1933, 197f.

وخدمت عدة أغراض منها غرض إرضاء السامعين والمشاهدين بالرمز إلى تقلبات مظاهر الطبيعة ومواجهة الخير وللشر والخصب للجدب ، وفشل المكائد التى دبرها ست ضد أخيه وولده ، وغرض ترديد اللعنات باسم الدين والقومية على الأعداء الأجانب الذين سمح ست لهم باجتياز أراضيه الأسيوية وإيذاء الوطن فى كرامته . ولو أن هذه الدعاوى ضد ست لم تمثل فى واقع الأمر غير وجهة نظر واحدة ، وهى وجهة نظر المتحيزين لعبادة أوزير وولده حور ، ولم تمنع أنصار عبادة ست من بقية المصريين من أن يعتبروه رباً قادراً يرسل العواصف لكى تبشر بالمطر ، ويستخدم طاقته الحربية فى نصرة مصر وجيوشها ، ويستخدم قوته السحرية فى حماية رب الشمس ومركبه ، بل ويأخذ بناصر أخيه أوزير أحياناً فى عالم الآخرة .

الحق والبهتان (١) :

رمز أدباء مصريون من الدولة الحديثة إلى بعض العناصر الأخلاقية فى مثل الأسطورة السابقة بصورة توائم عصورهم ، ولم يذكروا فيها أوزير وست صراحة ، وإنما كنوا عنهما باسمين معنويين ، وهما : الحق والبهتان . وكانا أخوين عاشا بين البشر ، وأراد البهتان أن يكيد لأخيه فترك خنجره وديعة لديه ، ثم استلبه منه خفية ، وعاد فطالبه به ، ولما اعتذر أخوه له عن ضياعه لم يقبل عذره ، ولما حاول أن يعوضه عنه لم يقبل عوضه ، وشكاه إلى الأرباب ، وادعى أن سلاح خنجره كان فى ارتفاع الجبل ، وأن مقبضه لايقل ارتفاعاً عن الشجر ، ففوض الأرباب له أن يقترح التعويض الذى يحبه ، فأصر على أن يقتلع عينى أخيه ويستخدمه حارساً لداره ، فأجابه الأرباب القضاة إلى ما أراده .

وأذل البهتان أخاه ، وجعله حارساً لبابه ، ولكنه كان كلما نظر إليه أحس بالخزى وبأن الضرير لايزال يحتفظ بوقاره وبهائه ، فأمر عبدين بأن يلقياه إلى السباع . ولما خرج العبدان بالحق قال لهما : أتضحيان بى من أجل البهتان ؟ واستعطفهما ، فرقا له وتركاه بناحية من نواحى الجبل ، وعادا إلى مولاهما وأوهماه بأنهما نفذا أمره وخلصاه من منافسه .

وبعد حين شهدت الحق أنثى بارعة الجمال هفا إليه فؤادها ، فبعثت إليه جاريتها تستدعيه ثم تزوجته . لكنها خشيت أن يعايرها الناس به ، فأخفت خبر قرانه

(١) Chester Beatty Pap. II; Gardiner, *Hieratic Papyri*, 3rd vol. Series, I, 6.

بها ، وخصصت له حجرة بجانب باب دارها . وأثمر الزواج طفلاً ، تعهدته الأم بالتربية الصالحة ، وأخفت عنه سر أبيه ، وألحقته بمدرسة أتقن الكتابة فيها ، وتعلم فنون الرياضة والنزال وتفوق على أقرانه فيها ، ولكن نغص عليه سعادته أن زملاءه كانوا يسألونه دائماً عن أبيه ، ويعيرونه بأنه لا أب له ، ولما شب أصر على أن يعرف حقيقة أبيه من أمه ، فدلته عليه وأخبرته أنه بواب دارها ، فاستنكر فعلتها ، ولم يأب أن يصارحها برأيه فيها ، وأن مماتها كان أفضل له من حياتها .

وأراد الغلام أن يكيد لعمه البهتان كما كاد هو لأبيه ، فأخذ معه ثوراً سميناً وعهد به إلى أحد الرعاة الذين يستخدمهم عمه ، وطلب منه أن يرعاه حتى يعود من سفره فى مقابل أجر أعطاه إياه . وحدث أن تفقد البهتان مراعيه ، فأعجب بالثور وذبحه ، دون أن يعبأ بتوسلات راعيه . وعاد الغلام بعد شهور ، وشكا الراعى ومولاه إلى الأرباب ، وأراد أن يعجز البهتان عن التعويض ، فادعى أن ثوره كان ينجب ستين عجلاً كل يوم ، وأنه كان إذا وقف وسط الدلتا بلغ أحد قرنيه جبالها الشرقية ومس قرنه الآخر جبالها الغربية . فتعجب الأرباب من دعواه ، وقالوا إنهم لم يروا ثوراً بمثل هذه الضخامة ، فأجابهم الغلام : وهل رأيتم خنجراً بضخامة الخنجر الذى حكمتم على أبى بالعمى من أجله ؟ وهنا أسقط فى يد الأرباب وعلموا أن البهتان خدعهم ، فردوا على الحق بصره ، وأمروا بجلد البهتان مائة جلدة ، وبجرحه خمسة جراح بالغة وفقء عينيه ، وبأن يصبح بواباً لأخيه جزاءاً وفاقاً على ماكان قد فعله به. وربما عبر القصاص بهذا العقاب عما أصبحت عليه العقوبات البدنية فى عصرهم عن جريمة التزوير والبلاغ الكاذب ، كما عبروا بتربية الابن تربية كتابية ورياضية وعسكرية عما كانوا يستحبونه لتربية أبناء الكبراء فى أيامهم .

بين هلاك البشرية وإنقاذها :

روت هذه الأسطورة أن الإله رع بعد أن أوجد نفسه بنفسه وخلق الوجود وتملك أمور الأرباب والبشر ، تقدمت به السن ، فتآمر ضده جماعة من أشرار الناس كفروا بنعمته وانتشروا فى الأرض ، فآلمه كفرهم وجمع كبار الأرباب عنده ، وقال لهم «تأملوا الناس الذين خلقوا من عينى يدبرون أمراً ضدى : فأفتونى بما ترون» . فأفتاه شيخهم نون بألا يواجه العصاة بشخصه خشية أن يهلكوا وتفنى الدنيا معهم ، وأوصاه بأن يرسل عينه على من يجدفون فى حقه ، فعمل رع بمشورته وسلط عليهم عينه ،

فتشكلت العين تفنوت فى هيئة بقرة السماء رمز الربة حتحور ، وفتكت بالعصاة ، وشربت من دمائهم واستمرأت طعم الدم ولذة الانتقام ، فبدأت تأخذ الأبرياء بجريرة العصاة ، وأوشكت أن تفنى البشر أجمعين ، لولا أن تدارك الرب الناس برحمته وأوحى إلى أوليائه بأن يتحايلوا على فتاته العاتية بشراب وطلب منهم أن يجهزوا سبعة آلاف إناء من الجعة ، وأن يرسلوا عداءين سريعين يجرون جريان ظل الجسم ، ليسرعا إلى أسوان ويحضرا منها مسحوقاً أحمر اشتهرت به (ولعله أوكسيد الحديد) ، ثم أوصاهم بأن يخلطوا هذا المسحوق بالجعة . ولما أهل صباح اليوم الموعود الذى اعتزمت حتحور (أو تفنوت) فيه إفناء البشر ، قال لهم أسكبوا الجعة فى المكان الذى قالت إنها ستهلك البشر فيه . فرووا الحقول بها حتى ارتفعت نحو قبضة . لما رأت حتحور المزيج الأحمر حسبته دماً مسفوحاً ونظرت إلى وجهها الجميل فيه فانتشت وأوغلت فيه وشربت منه بشره حتى خدرت وتراخت عن التمادى فى القتل ، وأنجى الناس من بطشها [١] . أما من بقى ممن تمردوا على خالقهم، فقد ذكرت أسطورة مماثلة أنهم تخوفوا عذابه فتفرقوا شر فرقة، وفر فريق منهم إلى الجنوب حيث أصبحوا السلف القديم للنوبيين ، وهرع آخرون إلى الشمال فكانوا أسلافاً للأسيويين ، فى حين نشأ الليبيون من الفارين إلى الغرب ، وأسلاف البدو من اللائذين بالشرق [٢] .

وهكذا قامت عقدة الأسطورة على الإيحاء بأن رحمة الرب غلبت نقمته ، وأن جلاله لم يمنعه من طلب الفتوى والأخذ برأى غيره ، وأن ماحدث من شر فى تمرد بعض خلقه عليه فى الزمن القديم ، كان سبباً فى عمران بقية الكون ، وقد يتأتى بعض الخير من الشر أحياناً ، فضلاً عما صورته الأسطورة من عنف تفنوت أو حتحور ورمزت به إلى أن للإناث بطشة دونها بطشات الرجال .

ثانياً - فى أدب القصة :

ظلت شخصيات الفراعنة محوراً لعدد كبير من القصص ، الرسمية منها والشعبية . وجمعت قصصهم فى سياقها بين حقائق موضوعية ، وصياغة فنية ، وأخيلة تصور المعجزات وفنون السحر ، وآراء خاصة وأمانى عامة عبر القصاص عنها بطريق الرمز .

---

(١) Roeder, *Urkunden zur Religion des alten Aegypten*, 142.

(٢) Naville, *Textes relatifs au Mythe d'Horus*, 21, 2 f.

سنفرو والحكماء : كان سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة من أهم الشخصيات التى دارت القصص حولها : وقد روت عنه إحداها أنه استدعى كبير الكهنة المرتلين فى عهده ، وكان يدعى چاچا مءنخ ، وسأله عن تسرية يرفه بها عن نفسه ، فأشار عليه أن يلتمس التسرية فى الخضرة والماء والوجه الحسن ، وبأن يستقل قارباً ويصطحب معه طائفة من العذارى ويطلق البصر فيما أفاءه النيل على جانبيه من خضرة وخير عميم . وعمل سنفرو بالنصيحة واصطحب فى قاربه الكبير عشرين عذراء ، وعهد إليهن بالتجذيف والغناء ، فاصطففن على جانبى القارب وجذفت كل منهن بمجذاف من الأبنوس المرصع بالذهب ، كما روت القصة ، وانطلقن فى التغريد والتجذيف ، وكانت كل منهن تحلى جبهتها بإكليل تزينه حلية على هيئة السمكة ، وحدث أن تهدل شعر رئيستهن على وجهها فأزاحته بيدها ، وعندئذ سقطت حليتها فى الماء فسكتت عن الغناء وسكتت بعدها الباقيات ، ولما سألها الملك عن علة سكوتها ، قصت عليه أمرها فوعدها بأن يعوضها عن حليتها بما هو خير منها ولكنها أبت بعناد الأنثى المدللة إلا حليتها ، فأسقط فى يد سنفرو ، واستدعى كبير الكهنة المرتلين ، وقال له چاچا مءنخ يا أخى ، حدث كذا وكذا ، فاستجاب الكاهن لطلب مولاه ، واستعان بسحره فطوى ماء النهر على جانب كما ذكرت القصة ، واستخرج الحلية وردها إلى صاحبتها (١) .

تلك قصة داخلها التهويل والتنميق ، من غير شك ، ويعنينا الرمز فيها إلى حياة الرفاهة التى عاشها صاحبها ، وأن قصاصها لم يتخيل ملكه رباً مطلقاً قادراً مقتدراً دائماً ، كما اعتادت النصوص الرسمية أن تصف ملوكها ، ولم يجد بأساً فى أن يصوره قاصراً عن أن يفعل بعض مايستطيع كاهن من رعيته أن يفعله ، وأن هذا الملك وإن خاطبه رعاياه بلقب الربوبية إلا أنه لم يكن يعتقد فى نفسه الربوبية الفعلية ؛ بحيث لم يكن من المستبعد عليه تبعاً لذلك أن يخاطب أهل العلم فى عصره بلفظ الأخوة ، كما خاطب كاهنه المرتل .

ورمزت قصة ثانية إلى مارمزت إليه الرواية الأولى من تواضع سنفرو وشغفه بمجالسة العلماء ، فذكرت أن سنفرو «الملك الفاضل» أمر حامل أختامه أن يستدعى إليه أعضاء بلاطه ذات صباح ، وطلب إليهم أن يشيروا عليه بولد حكيم أو أخ ماهر أو

(١) Erman, *Die Literatur...*, 67 f.

صديق أدى أعمالاً باهرة حتى يحدثه بمواعظ قصيرة أو حديث لطيف يلتذ بسماعه . فسجد الرجال في حضرته وأشاروا عليه بكاهن مرتل من تل بسطة يدعى «نفررحو» أى زين الرجال (أو نفرتى) ، ووصفوه له بأنه مواطن طويل الباع شديد الإرادة كاتب طلق الأصابع ذو مقام يزيد ثراؤه عن ثراء أقرانه ، فأمرهم بأن يستدعوه إليه ، وعندما وفد الحكيم على سنفرو سجد أمامه ، فقال له الفرعون : «إلى نفررحو ياصديقى وحدثنى بمواعظ مختصرة سديدة أو أحاديث طريفة أستمتع بسماعها» . وسأله نفررحو «هل مما حدث أو مما سيحدث ، مولاى ؟» فقال له سنفرو «بل ماسوف يحدث ، فإن ماحدث تم وانقضى» . وعندما تهيأ نفررحو للرواية ، مد الملك يده إلى صندوق أدوات الكتابة وسحب منه لفافة بردى ولوحة وتهيأ للكتابة ، فى جلال الحكام وتواضع العلماء [1] ، وسجل ما استغله أنصار الملك أمنمحات مؤسس الأسرة الثانية عشرة فيما بعد للدعاية لعهده ، كما ذكرنا من قبل .

قصة خوفو والحكيم جدي (أو قصة خوفو والسحرة) :

صورت هذه القصة خوفو صاحب الهرم الأكبر، يجالس عدداً من أولاده يسامرهم ،ويسمع من كل واحد منهم ما تناهى إلى علمه عن أخبار الماضى وأخبار أصحاب المعجزات فيه . وروت أنه كان كلما سمع من أبنائه عن معجزة قام بها كاهن مرتل قديم أو ملك قديم ، ترحم على هذا العالم كما ترحم على الملك ، وأمر بأن تخلد لكل منهما ذكراه، وأن تجزل العطايا والقرابين لمقبرته [2] ثم صورته يبعث ولده إلى حكيم من قومه يدعى چدى لم يكن قد رآه من قبل ، فقابل الحكم ابن خوفو وحادثه محادثة الند للند ، وأقر له الأمير بمكانة تليق بسنه وعلمه . ولما وصل چدى إلى خوفو ، قال له الملك «ماهذا چدى وكيف لم نرك حتى الآن ؟» فأجاب چدى : «مولاى ، من دعى أجاب ، ولما دعوتنى لبيت» . ومعنى هذا أن الرجل لم يكن يجد مايلزمه بأن يتمسح ببلاط الملك ، من تلقاء نفسه أو يقصد أعتابه رجاء فضله .

وكان خوفو قد سمع عن چدى أنه يستطيع أن يجبر أسداً على أن يسير أليفاً طائعاً خلفه ، وأنه يستطيع أن يقطع الرقبة ثم يتلو عليها تعاويذه فتعود إلى مكانها من الجسم وتسترد حيويتها ، فطلب منه أن يجرى معجزاته وسحره على مصرى

(١) Gardiner, *JEA*, I, 100 f.

(٢) Erman, *op. cit.*, 69 f.; *JEA*, 1925, 3f.; 1930, 66.

(سجين) ، فاعتذر الرجل وأجاب فى عناد : «ولكن ليس على إنسان مولاى الحاكم ، وحسبك أن أحداً لم يطلب أداء شىء من ذلك على هذا الشعب النبيل» . وهكذا لم يأب جدى أن يرد على ملكه العظيم بما يعتقده ، ولم يأب أن يعتبر السجين المصرى فرداً من شعب نبيل ، على الرغم من جرمه الذى دخل السجن من أجله .

وأضافت القصة أن خوفو صعب عليه الاهتداء إلى طائفة من الخزائن أو الوثائق المقدسة التى ذكر له أتباعه أنه تخص رب الحكمة تحوتى ، فأسل جدى عنها، فأجابه الرجل بأنه يعرف مكانها فعلاً ، ولكنه حاوره عنها وداوره وأبى أن يقوده إليها، وظل خوفو على جهل بها ، على الرغم من أن نصوصه الملكية الرسمية ونصوص رجال حاشيته كانت تلقبه بلقب «نثرعا» أى الإله العظيم ! ولسنا نشك فى أن ذكر السحر فى هذه القصة محض اختلاق وخيال ، وأن اعتذار الحكيم عن أدائه لايزيد عن مجرد تخلص لبق لطيف ، ولكن حسبنا من القصة أنها كشفت عما كان مؤلفها المصرى يتخيله عن بشرية خوفو ، واحتمال قصوره عن أداء مايؤديه بعض علماء رعاياه ، وكشفت عما كان الناس يودون أن يظهر به حكيم من الشعب فى مواجهة الملك العظيم ، صاحب الهرم الأكبر ، من عزة النفس والاعتراف لقومه بنبالة الأصل .

قصة العاشقين والتمساح :

على نحو ماجعل القصاص المصريون من حكمائهم والمبرزين من رجالهم شركاء فى قصص ملوكهم ، جعلوا من أولئك الحكماء والمبرزين محوراً خالصاً لعدد آخر من القصص . ومن أقدم هذه القصص قصة ردت أحداثها إلى القرن الثامن والعشرين ق.م ، وصورت خيانة زوجة كاهن كبير فى منف يدعى «وباإنر» هامت بحب فتى من أهل المدينة كانت تراسله عن طريق وصيفتها ، فتجرأ الفتى واعتاد أن يختلى بها خلسة بين قصف ومجون فى جوسق بحديقة قصرها ، وإذا قام عنها اغتسل فى بركة صغيرة بالحديقة نفسها . وعز على ناظر الدار أن تهون كرامة سيده فأبلغه الخبر . وحينما تأكد الكاهن من صحة الاتهام مارس سحره وشكل تمساحاً من الشمع طوله بعرض سبعة أصابع ، وتلا عليه أوراد سحره ، وقال «من نزل يغتسل فى بركتى فاقبض عليه» . وعهد الكاهن بتمساحه المسحور إلى تابعه وأوصاه بأن يلقيه فى الماء حين ينزل الفتى . وحين حانت الساعة وتكررت الخطيئة انفرد التمساح

سبعة أذرع واقتنص الفتى ومكث به تحت الماء سبعة أيام كاملة ، كان الكاهن خلالها فى رحلة مع ملك عصره نب كا ، فلما عاد من رحلته دعا الملك إلى داره ليشهده على القضية وعلى معجزاته فى حلها ، واستدعى أمامه التمساح المسحور فخرج من الماء يجر فريسته ، وارتاع الملك من هول ما رأى ، ولما أفرخ روعه قال للتمساح خذ مالك . فنزل به التمساح إلى أعماق البركة واختفى . وقضى الملك على الزوجة الزانية بالحرق علناً وذر رمادها فى النهر [١]، وهو ماقد يشير إلى عقوبة الزنا فى أيامه .

قصة الأخوين :

هذه قصة من القرن الثانى عشر ق.م ، صورت مايمكن أن تأتيه أنثى لعوب فى بيت ريفى صغير . وأسهبت القصة فى وصف الحياة الريفية ، وجمعت بين مايمكن أن يحدث فى واقع الحياة ، ومالا يحدث إلا فى عالم الخيال والمعجزات . وجعلت أبطالها ثلاثة : إنبو ، وهو صاحب دار ومزرعة ، وزوجته الفاتنة اللعوب ، وباتا شقيقه الصغير [٢] .

ووصفت القصة باتا الصغير بآيات القوة والإخلاص والوفاء ، فصورته مؤيداً بقدرة ربانية ، وروت أنه عرف منطق الحيوان ، ونسبت إليه المهارة المطلقة فى شئون الزراعة والرعى . واعتاد باتا أن يخرج بماشية أخيه مع الفجر فيحرث أو يحصد ، ويرعى قطيعه ، ثم يعود فى المساء محملاً بخيرات الحقل وألبان البقرة ويقدمها راضياً بين يدى أخيه وزوجته . وبعد أن يتناول عشاءه ينطلق إلى حظيرة الماشية ، فينام فيها وحيداً قانعاً . فإذا اقترب الفجر أعد إفطار أخيه وقدمه إليه ، ثم أخذ إفطاره معه وساق ماشيته إلى الحقل والمرعى، وكان يحدث أحياناً أن تتسار الماشية فيما بينها بأن الكلأ فى مكان بعينه وفير نضير ، فيفهم باتا قولها ويحقق لها رغبتها وينتجع بها ماتوده من العشب والمرعى .

ولما حل موسم الزراعة قال له أخوه : هلم أعد الثيران للحرث ، فالأرض انحسر ماؤها وتهيأت للزرع ، وآتنا ببذور نغرسها مبكرين . فأطاع باتا ، وصحب أخاه إلى الحقل ، وانشغلا فى الحرث ، وفاضت نفساهما بالأمل لقيامهما بالعمل فى بداية

---

(١) Erman, op. cit., 66 f.

(٢) Gardiner, *Late Egyptian Stories,* 9f.' Wilson, *op. cit.,* 23f.

الموسم . ولكن حدث بعد فترة أن اضطرا إلى التوقف لنفاذ البذور ، فأرسل إنبو أخاه إلى القرية وأوصاه بأن يسرع فى إحضار المزيد من البذور . ولما بلغ باتا الدار ألفى زوجة أخيه تضفر شعرها ، فناداها فى مرح وبساطة قائلاً : «انهضى وناولينى كمية من البذور حتى أعجل بها إلى الحقل ، فأخى ينتظرنى ، ولاتعوقينى» . ولكن الأنثى تثاقلت وقالت له «اذهب أنت إلى مخزن الغلا واحمل منه ماتشاء ، ولاتضطرنى إلى ترك ضفائرى» .

ودخل باتا المخزن وأعد غرارة كبيرة ، واكتال شعيراً وحنطة . ولما خرج بهما سألته : كم احتملت على كتفك ؟ فأجاب : «ثلاثة مكاييل من الحنطة واثنين من الشعير» . فحاورته قائلة : «فيك بأس شديد وأشهد أنك تزداد قوة وجسارة على الدوام» . ودبرت أمراً فى نفسها ثم هبت واقفة وتعلقت به وقالت هيت لك ، ودعنا نمرح ساعة ونضجع ، فذلك خير لك ، ولسوف أخيط لك ثياباً حساناً . وفوجئ الفتى وأجفل وبدا فى هيئة فهد الصعيد الغضوب كما روت القصة ، وأربد وجهه من سوء مادعته إليه . وأجفلت المرأة بدورها وخشيته خشية شديدة .

وقال لها الفتى : «اسمعى ، أنت بالنسبة لى فى منزلة الأم وزوجك فى منزلة الأب لأنه أكبر منى وقد تعهدنى وربانى ، فلم هذا العار الذى تدعيننى إليه ؟ إياك أن تفاتحينى فيه مرة أخرى ، ولك من ناحيتى ألا أخبر أحداً به أو أدعه يخرج من فمى إلى أحد» . واحتمل باتا حمولته ، وانصرف إلى المزرعة فلما بلغ أخاه استأنف العمل كدأبه ، دون أن ينبس ببنت شفة .

ولما حان المساء انفصل الأخ الأكبر وقصد داره ، وبقى الأصغر خلف ماشيته حتى أكمل حمولتها من خيرات الأرض ، ثم ساقها أمامه ليبيت بها فى حظيرته . وخشيت زوجة إنبو عاقبة زلتها ، فاستعانت بعقار جعلها كالمريضة أو المضروبة . فلما بلغ بعلها داره وجدها ممددة متهالكة ، فلم تصب الماء على يديه كعادتها ، ولم توقد المصباح قبل مجيئه . ووجد الدار فى ظلام دامس ، فاقترب منها وسألها عمن أساء إليها . قالت : لم يحادثنى سوى أخيك ، أتى يأخذ البذور ووجدنى وحيدة فراودنى عن نفسى وأمسك شعرى ، فأبيت أن أطيعه ، وقلت له ألست فى منزلة أمك ، وأخوك فى منزلة أبيك ؟ فغضب وآذانى حتى لا أبوح لك بأمره . فإذا تركته يعيش ، مت أنا، وأخشى إذا رجع فى المساء وفاتحته فى عاره أن ينسب السوء إلى . وأربد وجه الزوج،

وشحذ خنجره واختبأ خلف باب الحظيرة ، ونوى أن يقتل أخاه حين رجوعه . وعاد باتا حين الغروب محملاً بخيرات الأرض كعادته ، فلما دخلت أولى بقراته الحظيرة ، همست له : «أخوك واقف أمامك بخنجره ليقتلك ، فاهرب من أمامه» . وفهم باتا قولها ، ثم سمع مثله من البقرة التى تلتها ، وتطلع إلى أسفل الباب فرأى قدمى أخيه ، فألقى حمولته على الأرض وأطلق العنان لساقيه ، وتبعه أخوه .

وتطلع باتا فى محنته إلى ربه رب الشمس رع حرآ ختى وناجاه : «مولاى الكريم ، أنت الذى تفرق بين الآثم والبرىء» . فاستجاب رع لدعائه وفصل بينه وبين أخيه بنهر عظيم ملأته التماسيح . وضرب الأخ الأكبر بكفيه من الغيظ ، فناداه أخوه من الضفة الأخرى : الزم مكانك حتى يطلع رب الشمس ونحتكم إليه وتحل الرب رع حرآ ختى حين الصباح ، وتطلع كل من الأخوين إلى الآخر . فقال الأصغر لأخيه : «لم طاردتنى لتقتلنى قبل أن تسمع دفاعى ؟ ألست أخاك الأصغر وأنت أب لى ؟ إنك حين أرسلتنى لآتيك بالبذور دعتنى امرأتك إلى الخنا ، ولكنها قصت عليك العكس» . ثم قص قصته عليه وخنقته العبرات ، واستل بوصة حادة وقطع إحليله ورماه فى الماء ليثبت لأخيه زهده فى الخنا وأهل الخنا وكاد يغشى عليه من فرط الألم . وندم الأخ الأكبر ، ولم يتمالك نفسه فبكى ، ولكنه عجز عن أن يصل إلى أخيه خوفاً من التماسيح .

ونادى باتا أخاه : إذا ظننت بى السوء مرة فهلا تذكرت لى خيراً فعلته من أجلك ؟ عد إلى دارك واجمع ماشيتك فلن أمكث فى أرض تعيش فيها ، وسأذهب إلى وادى الأرز وعليك أن تسرع إلى مساعدتى إذا علمت أن سوءاً ألم بى ، فلسوف أنتزع قلبى وأضعه فوق شجرة أرز ، فإن حدث أن قطع أحد الشجرة وسقط قلبى فابحث عنه، ولاتمل البحث ولو أنفقت فى البحث سبع سنين ، فإذا وجدته ضعه فى ماء بارد، ترد على الحياة . ولسوف تعلم آية سقوطه حين تقدم إليك كأس جعة فتجدها ازبدت واعتكرت ، فإن حدث ذلك فلا تتوان فى الرحيل إلى . وانطلق الفتى إلى حال سبيله ورجع أخوه إلى داره يحثو التراب على شعره ويضع يده على رأسه ، ثم اندفع هائجاً فذبح زوجته ورمى جسدها إلى الكلاب ، وعاش يبكى أخاه .

ومضت القصة فى الخيال ، فروت أن باتا فارق مصر إلى وادى الأرز فى لبنان ، وأن الأرباب عوضوه عن تضحيته بأنثى بارعة الجمال ، أحبها وأخلص لها ، ولكنها عاشرته على دخل ، ربما لأنه أصبح عنيناً .

ثم نقل البحر خصلة من شعرها إلى فرعون مصر ، فسحره عطرها ، وأرسل رسله يبحثون عن صاحبتها فقتلهم باتا إلا واحداً عاد إليه يخبره بمقتل زملائه . فأرسل الفرعون إليها جماعة أخرى ومنهم امرأة عجوز تحمل إليها هداياه ، فقبلت الزوجة عطاياه وانجذبت إلى سلطانه ، وصحبت رسله وسافرت إليه وتقربت منه ، وأوحت إليه بإهلاك زوجها وقطع الشجرة التى ائتمنها على قلبه ، فاستجاب الفرعون لكيدها ، وأمر بقطع الشجرة فمات باتا ولكن أخاه تنبه إلى آية اعتكار كأس الجعة فظل يبحث عن قلب أخيه ثلاث سنين حتى وجده ودعا الأرباب فبعثوه فى خلق جديد . وأراد باتا أن يرد على زوجته عاقبة غدرها ، فتنكر لها فى هيئة فحل شديد مرة ، وهيئة شجرة مثمرة مرة ، وكلما كشفت أمره حرضت زوجها الفرعون على إهلاكه ، ولكنها ظلت تحيا فى نعيم فاتر وقلق متصل حتى غلب الحق ، وعوض الأرباب زوجها القديم بعرش مصر وملكها العريض ، فقبض عليها وتحاكم معها إلى قضاته ، فأدانوها ولقيت حتفها جزاء غدرها .

من قصص المغامرات :

توافر لقصص المغامرات مجالها فى الرواية ، ومنها قصة من القرن الحادى والعشرين ق.م صورت أهوال البحر ، وهى قصة «نجاة الملاح» . وأخرى من القرن العشرين ق.م ، صورت متاعب نازح عن طريق البر وهى قصة سنوهى ، وثالثة صورت فتى تحدى حظه وقدره ، وهى قصة الأمير الموعود من الدولة الحديثة .

نجاة الملاح :

تذكر أغلب الكتب العربية هذه القصة باسم «الملاح الغريق» وهو ترجمة خاطئة لتعبير *The Shipwrecked Sailor* فى الكتب الأفرنجية ، ونرى أن تسمية نجاة الملاح أقرب إلى مضمونها .

روت هذه القصة أن أحد رجالات البلاد كان فى سبيل عودته بطريق النيل من مهمة كلفه بها ملكه فيما وراء أرض واوات ، بأقاصى النوبة ، ولكن لم يقدر له النجاح فيها ، ولما اقتربت سفينته من العاصمة أتاه أحد خاصته من الملاحين يهنؤه بسلامة العودة دون نقص فى ملاحيه ، ويصف له فرح رجاله ومعانقة بعضهم لبعض ، ولكن الرجل كان فى واد آخر ، وظل مهموماً يتخوف عاقبة فشله ، فانبرى اللاح يسرى عنه ويهون عليه ويبعث الأمل فى نفسه ، وقص عليه قصة تداولت عليه فيها

شدائد ظن أن لانجاة له منها ، ولكنه نجى وسلم وعاد إلى وطنه واستمتع باجتماع شمله بأهل بيته [١] .

وروى له فى قصته أنه خرج بسفينة كبيرة بلغ طولها مائة وعشرين ذراعاً وبلغ عرضها أربعين ذراعاً ، واستقلها معه مائة وعشرون بحاراً وصفهم له بأنهم كانوا من خيرة ملاحى مصر ، وأنهم خبروا السماء والأرض ، وأن قلوبهم كانت أشد من قلوب الأسود ، وكانوا يتنبأون بالريح قبل أن تقبل وبالعاصفة قبل أن تحدث ، ولكن حدث لهم ما لم يتوقعوه فدهمتهم العاصفة وهاجت أمواج البحر وارتفعت ثمانية أذرع، فغرقت السفينة بمن فيها ، ولم ينج منها غير راوى القصة الذى ألقت الأمواج به على جزيرة فى أقصى الأخضر الكبير (أى فى أقصى البحر الأحمر) ، فقضى فيها ثلاثة أيام فى دغل لا أنيس له فيه ولامعين . ثم اتخذ طريقه فى أرضها فوجد فيها خيرات لاتحصى من الفواكه والطيور والأسماك ، فطعم وشرب ، ولم ينس أربابه فأشعل ناراً وقدم عليها قرباناً . وإذ هو كذلك سمع دبيباً قاصفاً يقبل عليه ، فغشيه من الخوف ماغشيه ، ولما استمسك وجد أفعواناً ضخماً طوله ثلاثون ذراعاً ، ويزيد أثر دبيبه على الأرض عن المترين عرضاً ، وكان جسده مغشى بالذهب وحاجباه بلون الزبرجد ، فانبطح البحار على بطنه فرقاً وإجلالاً ، وتوجه الثعبان إليه وسأله عن حاله وعما أتى به إلى جزيرته التى يحف الموج بها ، فاستبد الخوف بالرجل وفقد السمع والقدرة على الكلام . وحمله الثعبان فى فمه إلى جحره وترفق به حتى أفرخ روعه ثم أعاد عليه سؤاله فقص الرجل عليه قصته بتمامها .. ، وهنا هون الثعبان عليه القضية ، وذكره بآلاء ربه الذى قدر له الحياة وأرساه على «جزيرة الكا» ثم بشره بأنه سيعود إلى وطنه ، وأن سفينة مصرية سوف تأتى إليه بملاحين يعرفهم ، ولكن بعد أربعة أشهر ، فيرجع معهم إلى بلده ويموت فيه .

واستأنس الثعبان بالرجل ، وأراد أن يهون عليه أمره ، فقال له : «ما ألذ أن يروى الإنسان ما ذاقه بعد انقضاء محنته» ، ثم قص عليه قصته فإذا ببلواه لاتقل عن بلواه ، وروى له أنه عاش مع إخوته وأولاده فى الجزيرة ، وكانت عدتهم سبعة وثلاثين ، عدا طفلة صغيرة رزقها بعد أن ارتجاها ودعا بها ، ولكن نجماً هوى من السماء فاحترقوا بناره ، ولم ينج سواه ، فكاد يموت حزناً عليهم بعد أن وجدهم كومة

(١) Golenischeff, *Le Conte du Naufrage*; Erman, *op. cit.*, 57 f.

هباء ، وأبى الثعبان أن يعكس حزنه على ضيفه فشجعه وقال له : «إذا تشجعت وشددت قلبك فلسوف تملأ حضنك بأولادك ، ولسوف تقبل زوجتك وترى دارك ، وأجمل من ذلك كله أنك سوف تبلغ العاصمة التى كنت تعيش فيها بين إخوانك» .

وأكبر الملاح الثعبان ، فأقبل عليه وقبل الأرض بين يديه ، ونذر على نفسه ليبلغن أمره إلى الفرعون حين يعود إلى وطنه، ويعمل على تقديم القرابين والبخور باسمه وإرسال السفن إليه بخيرات بلده . فتبسم الثعبان ضاحكاً من قوله ، وأفهمه أنه بذاته سيد بلاد بوينة وأن بخورها ملكه . ثم انقضت الأربعة الأشهر ، وتحقق وعد الثعبان فأقبلت السفينة، وتعرف الملاح على من فيها ونزل إليهم مزوداً بكميات هائلة من المر والتوابل وذيول الزراف والصموغ والبخور وأنياب العاج والفهود والنسانيس، ثم فارق الجزيرة بعد أن علم من سيدها أنها سوف تزول من الوجود ويبتلعها الموج ، وعاد الرجل إلى بلده بعد شهرين يملؤه الأمل بما وعده الثعبان به من سعادة فى داره ولقائه لأطفاله ثم وفاته فى وطنه .

لايزال تحديد جانب الحقيقة وجانب الخيال من هذه القصة موضعاً لجدل طويل، وإن ذهب الظن إلى أن مغامرة الملاح فيها كانت قرب جزيرة الزبرجد فى البحر الأحمر . وعلى أية حال فإنما يعنينا من القصة غلبة روح التفاؤل فيها ، وحرص كاتبها أو راويها على أن يفترض لكل مصيبة ماهو أشد منها ، ويفترض لكل مشكلة مخرجاً منها . وأملت هذه الروح على الملاح المغامر على أن يشجع أمير سفينته الذى تخوف غضب ملكه بقوله : «استمع إلى أيها النبيل ، (وثق أنى) رجل برىء من المبالغة . اغتسل وضع الماء على أناملك (حتى تهدأ أطرافك) ، وأجب إذا سئلت ، وتحدث إلى الملك وذهنك معك ، أجب دون تردد ، فمنطق الرجل يحميه وحديثه يكفل له مايصون به وجهه ، وتصرف بما يمليه (عليك) عقلك» .

سنوهي :

صورت قصته مغامرات البر [1] ، (وقد أسلفنا عنها من قبل) أنها قصة رجل من بلاط الملك أمنمحات الأول ومن المتصلين بأجنحة ابنته وزوجة ولى عهده ، وأنه كان قد صحب ولى العهد سنوسرت فى تجريده إلى المناطق الليبية الشمالية ، وسمع

(١) Gardiner, *Notes on the Story of Sinuhe*, 1916; A.M. Blackman, *Middle Egyptian Stories*, 1932, 1 f.; Wilson, *op. cit.*, 18 f.

خلال عودته معه بنبأ وفاة الملك أمنمحات ، كما سمع لغطاً فهم منه وجود أخذ و رد بين الأمراء، فخشى فتنة على العرش فى العاصمة، يعز عليه أن يلتزم الجانب الصالح خلالها ، فآثر البعد بنفسه واستخفى من الجيش واعتزله ، وتخطى الحدود الشمالية الشرقية وحيداً ، ولقى فى طريقه ووحدته مشقات طويلة ، وأسلمته أرض إلى أرض على حد قوله ، حتى بلغ رتنو العليا ، وهى منطقة واسعة وسط سوريا أو شرق لبنان ، وطالت إقامته فيها ، وأقدم على مغامرات كثيرة ، ولكن لم يفارقه الحنين إلى وطنه ، وتناقلت الرسل أخباره ودعواته وأمانيه ، حتى وصلت أنباؤه إلى الملك سنوسرت (الأول) فرق لحاله وعفا عنه وبعث يستدعيه ، ولما عاد إلى وطنه سجل قصته نثراً شائقاً . وقد ذكرنا الدلالات التاريخية لهذه القصة فى سياق حديثنا عن سياسة عصره، ونكتفى هنا بملامحها الأدبية ، دون ضرورة إلى سرد تفاصيلها الطويلة .

فهى من حيث الشكل قصة واقعية لتجربة شخصية حدثت فى زمان ومكان ، ولها بداية ونهاية ، وقد تضمنت فى سياقها معلومات بسيطة مشوقة عن نظم البلاد الملكى المصرى وبعض العقائد والعادات السارية فى أيامه ، ومعلومات موجزة أخرى عن بلاد الشام وبعض أهلها ، وتضمنت من شعر المدائح والأمثال الجارية ، ومن صيغ التراسل ولباقة الاستعطاف ورقة الاعتذار ما كان المعلمون والطلبة المصريون يلذ لهم الاستشهاد به وترصيع كتابتهم به . ثم هى من الناحية الفنية قد أبدعت تصوير مشاعر الإيمان ومشاعر الخوف ، ومشاعر المفاخرة ، والتغلب على المشاق ، وعاطفة الحنين إلى الوطن وتقديس الدفن تحت ترابه .

وهكذا وصف سنوهي وفاة الملك أمنمحات فقال : «رفع الصقر إلى السماوات العلا ، ولحق بالكوكب ، واتصل بدنه ببارئه ، وخيم الوجوم على عاصمته ، وغلق مدخلاً قصره ، وحزن النبلاء عليه وولول العوام» . ووصف الأرض التى نزلها فى الشام ، فقال : «كانت بلدة طيبة تدعى إيا ، فيها تين وأعناب ، وخمرها أغزر من مائها، وفير عسلها وزيتونها ، كل الثمر على أشجارها ، فيها شعير وحنطة ، ولاحصر لأنعامها» ، ووصف حاله إزاء حسد بعض القبائل له ، وتحدى أحد أبطالها لمنازلته فى غربته ، فقال : «أصبحت أشبه بفحل وسط قطيع غريب ، يضربه قائد العجول ويهاجمه ثور طويل القرون ... ، ولكن إذا كان الخصم فحلا ويبغى القتال فأنا بدورى فحل قتال ، ولست أخشىماينتهى أمرنا إليه» .

وروى رسالة الملك إليه يستدعيه ، وذكر فى جزء منها قول سنوسرت له « ...

عد إلى مصر حتى ترى الأرض التي نشأت فيها ، وقبل الأرض عند البوابة الثنائية العظمى والتحق بالبلاط . لقد هرمت الآن وعز نشاطك ، فتذكر يوم الدفن ، وليلة إعداد الطيوب والأكفان ، ويوماً يعد لك فيه موكب مشهود وتابوت ذهبى بقناع من اللازورد .. ، لاينبغى أن تموت فى بلد غريب ، ولاينبغى أن يخفرك البدو ، أو تكفن فى جلد شاة .. ، هذا ليس أوان الطواف فى الأرض ، فعد واحذر المرض ...» . ورداً على هذه الروح الرقيقة من الملك ، كتب سنوهى إليه يشكره ويبرىء نفسه قائلاً « ... هذا ابتهال خادم لمولاه ذى الإدراك البصير بالناس ، عساه يقدر ماتهيب هذا العبد روايته ولازال أكبر من أن يردده ...» ، ثم قال « ... إن فرار خادمك لم يخطط ، لم يكن فى ذهنى ، لم أكن منشغلاً به ، ولا أدرى ما الذى زحزحنى عن مكانى ، كما لو كنت فى حلم ، ثم أحسست بإحساس رجل من الدلتا وجد نفسه فجأة فى أسوان ، أو رجل من مناقع الشمال وجد نفسه فجأة فى النوبة . لم أروع ، ولم يتتبعنى أحد ، لم أسمع كلمة تحقير ، ولم يذكر مناد اسمى (بسوء) ، ومع ذلك اقشعر بدنى وارتعدت فرائصى ، وساقنى قلبى إلى حيث أراد من قدر الأمر ...» [1] .

اليائس من الحياة :

استشهدنا على بلبلة الأفكار والمذاهب فى عصر الانتقال الأول (راجع ماسبق ذكره فى هذا الصدد) بحوار بين رجل سئم عيوب الحياة فى عصره ، وبين روحه ، وأسلفنا أنه تضمن ثلاثة اتجاهات فكرية تضاربت فى ذهنه وجادلته روحه فيها : اتجاهاً ضاق بمساوئ عصره ، وآخر دعا إلى متعة الدنيا والشك فى وجود الآخرة ، وثالثاً اعتبر مشكلات الحياة متاعب زائلة ، وتطلع إلى عدل الجزاء فى الآخرة . وكانت ثلاثة من أربعة اتجاهات أشرنا إلى اعتبارها نتيجة طبيعية لزلزلة الأوضاع السياسية والاجتماعية فى نهاية الدولة القديمة ، واضطراب الناس بعدها فى تلمس وضع صالح لأمور دنياهم وأخراهم .

وينقص المحاورة جزء من بدايتها [2] . ويبدو أن صاحبها كان قد أعلن فى

(١) Sinuhe, R. 5f.; B 80 f., 109 f., 179 f. 206 f.

(٢) راجع للمؤلف : الحوار فى الأدب المصرى القديم - المجلة - العدد التاسع - سبتمبر ١٩٥٧ - ص١٦-٢٨ .

Scharff, *Der Bericht uber das Streitgesprach eines Lebnsmuden mit seiner Seele*, 1937; Faulkner, *JEA*, 1956, 21 f.; E, Brunner-Traut, *ZAeS*, 1967, 6f.

مقدمتها ضيقه بمساوئ أيامه وتفكيره فى الخلاص منها ، بينما التزمت روحه جانب الرضا بدنياها والتغاضى عما وراءها . ولهذا احتدم الجدل بينهما حتى تحدته بأن يقدم على الانتحار حرقاً إن كان حقاً عازفاً عن الدنيا راغباً فى الموت ، فما جرؤ صاحبها على التضحية بنفسه . ولما امتنع عليها فى الحالتين ، الرضا بالواقع أو الرضا بالموت، تمنعت هى الأخرى عن مناقشته . ولكنه ما لبث حتى عاود التفكير ثانية فيما دعته إليه من أن ينتقل وإياها إلى عالم الآخرة ، وبدأ يستدرجها فى الحديث عساها تشجعه ، وأشهد عليها جمعاً تخيله من الناس ، ولكنها لم تستجب لدعوته ، وقالت تشجعه على الحياة : ابتغ يوماً هنيئاً وتناس الهم ، (وإلا فأين أنت من مصيبة) مواطن حرث أرضه وحمل محصوله إلى بطن مركب وأعد رحلته وهو يحسب أن عيده قد اقترب ، وفجأة رأى وهو يرقب المركب والشمس تدخل خدرها انطلاق إعصار من الشمال ، فجهد فى أن ينفلت بزوجته وأولاده ، ولكنهم هووا فى بحيرة تعج بالتماسيح فى سواد الليل ، فانتهى (وقد خلص بنفسه) إلى أن قعد وزفر ودمع وهو يقول : لئن لم أبك تلك الولادة (وهى زوجته) التى لايرجى لها خروج من عالم الموتى إلى حياة أخرى على الأرض ، فإنما أنوح على صغارها الذين قضوا فراخاً فى البيضة وشهدوا طلعة التمساح من قبل أن يحيوا ...» .

وهدفت الروح من رواية هذه القصة وقصة أخرى تلتها ، أن تقنع صاحبها بأنه إذا تأمل مصائب الناس هانت عليه بلواه . ولكن النتيجة كانت عكسية ، فأثار حديثها وجيعته واندفع يجيبها فى حديث طويل يتساءل فيه عن السلوى التى تغريه بها وعن قيمة الحياة التى تدعوه إلى الرضا بها ، بعد أن زلزلت عواديها كيانه وفقد فيها الكرامة والثقة والأم جميعاً . ونظم إجابته لها فى أربع مقطوعات قصار . وكشف لها فى الأولى عما أصاب سمعته وكرامته ، نتيجة فيما يحتمل لتكفله بدعوة لم تجد سميعاً ولامجيباً بقدر ماقوبلت به من صد وإساءة ، فقال فى بيتين من أبياتها ، التى بدأت ببدايات متشابهة فى كل نظم على حدة :

كفاك أن عيف اسمى كفاك ، أكثر من رائحة الرخم فى نهار صائف اتقدت سماؤه .

كفاك أن عيف اسمى كفاك ، أكثر من سمعة زوجة ردد الناس البهتان عنها لبعلها .

وفى نظمه الثانى أخذ يأسى على زوال المستجيب والصديق والقريب وانتفاء الخير ، قائلاً فيما قال :

لمن أتحدث اليوم – والأشقاء أشرار – وأصدقاء اليوم لايرغبون !

لمن أتحدث اليوم – وقد قر الناس على السوء – وأهملت الحسنى فى كل مكان !

لمن أتحدث اليوم – وما عاد أحد يذكر الماضى – ولامعونة لأحد يعمل فى هذا الزمان !

لمن أتحدث اليوم – وما من رضى الفؤاد – ومن كان يرافق لم يعد له وجود !

لمن أتحدث اليوم – وبأساء ألمت بالبلاد – ما لها من حدود !

وفى نظمه الثالث عاود الرجل ذكر الموت ، فما تصور دونه خلاصاً من عجز مسعاه وما رآه من لؤم الطباع ، وقال فيما قال :

بدا الموت أمامى اليوم كالبرء للسقيم والخروج إلى الفضاء بعد حجز .

بد الموت أمامى اليوم كعبير المر وجلسة تحت ظلة فى يوم ريح صر .

بدا الموت أمامى اليوم كتشوق رجل إلى وطنه بعد سنين عدة فى الأسر .

وبعد أن فرغ من تشوقه إلى الموت ، كما فرغ من قبل من ذكر مبررات ضيقه بالحياة ، أكد فى نظمه الرابع حياة مابعد الموت ، حيث الثواب وحسن المآب ، قائلاً فيما قال :

وأيم الحق ، من وصل هناك ، سيكون رباً يحيا ، ويرد الشر على من أتاه .

وأيم الحق ، من وصل هناك ، سيكون عالماً بالأمر ، ولن يصرف عن شكواه لرع إذا ناجاه .

وبهذه التصورات عما بعد الموت ، اختتم الرجل حواره ، ولم يكن لروحه مأخذ عليها ، ولكنها كانت ترى أنه ما من بأس فى أن يؤدى واجباته الدينية ويستمتع بالحياة فى آن واحد ، ثم ينتظر الموت فى أجله الطبيعى ، وحينئذ تهدأ معه ويلقاها إلى جانبه ، فقالت : «دع الشكوى ، رفيقى وأنحى ، وألق بخورك على الجمر ، وابتغ الحياة كما قلت لك ، ابتغينى هاهنا وأقص عنك عالم الموت ، فإن بلغت الغرب فى أجلك وورى جسدك فى التراب ، فلسوف أحط معك وحينئذ ننشد الاستقرار معاً» .

ثالثاً - فى أدب النصيحة :

تكفل بالنصح والتوجيه فى مصر القديمة أطراف ثلاثة : آباء مثقفون ، ومعلمون من الكهان والمدنيين ، ثم أدباء انتحلوا لأنفسهم سمات الآباء تارة وسمات المعلمين تارة سواها : وتفاوتت المستويات الاجتماعية للأطراف الثلاثة ، فكان منهم أمراء ووزراء ، جنباً إلى جنب مع أفراد من أواسط الكتاب والكهان ؛ مما يعنى أن الحكمة لم تكن وقفاً على طبقة معينة من الناس دون أخرى . وقد تلاقت سبلهم فى ثلاث نواح ، وهى : أن أغلبهم نسب نصائحه إلى خبرته الشخصية وتجارب أسلافه أكثر مما نسبها إلى وحى السماء وأوامر الأرباب ، وأن كلا منهم حاول أن يتجاوب بتعاليمه مع الأوضاع التى ارتضاها الفراعنة لمجتمعه بعد أن ظن فيها القداسة وردها إلى عدالة الأرباب ، وأن أغلبهم تحرى الإقناع والتوسط فى تكييف أوامره ونواهيه .

وسوف نتخير فيما يلى فقرات قصاراً من هذه التعاليم .

من نصائح بتاح حوتب :

كان بتاح حوتب من أقدم أصحاب التعاليم ووزيراً من القرن الخامس والعشرين ق.م ، فى عهد الملك إسسى (١). وفى سياق حديثه صور لولده سبيل الاستقرار فى الأسرة قائلاً له : «إذا أصبحت كفئاً كون أسرتك ، وأحبب زوجتك فى حدود العرف أو عاملها بما تستحق ... ، أشبع جوفها ، وإستر ظهرها ، وعطر بشرتها بالدهن العطر ، فالدهن ترياق بدنها ... ، وأسعدها ماحييت ، فالمرأة حقل نافع لولى أمرها ... ولاتتهمها عن سوء ظن ، وامتدحها تخبت شرها ، فإن نفرت راقبها ، واستمل قلبها بعطاياك تستقر فى دارك ، وسوف يكيدها أن تعاشرها ضرة فى دارها ...» .

وفى مقابل قيامه بهذه المسئوليات الأسرية ، دعاه إلى سبل التنعم مع البساطة والتوسط قائلاً له «ساير نفسك ماحييت ، ولكن لاتتجاوز العرف ، وإياك أن تبتر ساعة المتعة ، فالنفس تأبى أن يفسد وقت متعتها . ولاتستنفد من شئون اليوم أكثر مما يعول دارك ، وعندما يواتيك الثراء ينبغى أن يستمتع القلب ، فلن يجدى الثراء إذا أهمل القلب» . «وكن سمح الوجه مادمت حياً ، فإن مايخرج من الشونة لن يعود فيدخلها» .

ومرة أخرى وفى مقابل سماحه له بأن يجعل لقلبه عليه حقاً ، أوصاه بالحياء

---

(١) Prisse Papyrus; Z. Zaba, *Les Maximes de Ptahhotep*, Prague, 1956.

وعصمة الجسد قائلاً له :

«إحذر مخالطة النساء ، فما طاب مكان حللن فيه» ، ومن سوء الرأى أن يتلصص عليهن إنسان . وكم من امرىء ضل عن رشاده حين استهواه جسد براق ثم تحول عنه إلى هباء ، وأصبحت فترات متعته القصار أضغاث أحلام وأفضت به إلى الهلاك» . ثم عقب على ذلك بعبارات سائرة قال فيها «ينساق الفتى إلى الإثم والنهى يدهاه ، ألا تفعل الإثم فالإثم عار ، واربأ بنفسك عن وخز الضمير كل نهار» . وعبارات أخرى مشابهة قال فيها «مهموم النفس طوال يومه لن يصيب لنفسه فترة هنيئة ، ومكشوف النفس طوال يومه لن يشيد لنفسه داراً سعيدة ، ومن أطاع هواه انتهى إلى التمنى دون سواه» .

وقال له وهو يعظه ألايخضع لمطالب بدنه ، وأن يكرم نفسه ويكرم من حوله : «إذا طعم بدنك والتفت وجهك إلى جيرانك (أى أكرمتهم) أطراك الناس من حيث لاتدرى . أما إذا ضل الفؤاد وأطاع جسده فإنه يكون قد أحل صغاره محل حبه ، وتعس عقل صاحبه وساء وجهه بما جرته عليه نفسه» . ولقد عزت نفوس أتباع الرب وحده ، ومن أطاع بدنه كان عدو نفسه» .

وقال له وهو يوصيه بحسن الاستماع إذا أصبح صاحب منصب وجاه : «ترفق حين تستمع إلى حديث الشاكى ، ولاتنهزه حتى يفضى بما فى جوفه ويحكى ما جاء من أجله ، فالمتظلم يحب أن يؤمن السامع على قوله حتى ينهى ظلامته ، والمهموم قد يفضل أن يواسيه السامع عن أن يقضى له حاجته ، ومن شأن حسن الاستماع أن يريح الفؤاد» .

وردد بتاح حوتب تقاليد عصره بوجوب طاعة الرئيس أياً ما كان ، باعتباره أكبر فى السن والمقام ، وبيده المنع والعطاء ، وباعتباره ممثلاً للفرعون ، واستخدم لذلك عبارات قد نرضى أقلها ونرفض أكثرها ، ولكنه فى مقابل ذلك لم يشأ أن يصرف ولده إلى انتظار الخير من الكبراء وحدهم ، وإنما التمس له كذلك من جانب الإيمان والثقة بالنفس مايكفل له الاتزان السلوكى فى عمله ويغنيه عن تملق الرؤساء وذل الرجاء ، قائلاً له : «الرجل من قال اكتسبت بعملى ... ، وليس الرجل من قال أتمنى لنفسى . وقد يقول إنسان لسوف أشبع هنا ، فإذا هو فى غده محروم من خيرات الكبار ، ويقول لسوف أغنى هناك ، ثم ينتهى إلى ترك ثروته لمن لايعلمه . ذلك أنه

ماتحقق تدبير للخلق ، وأن ما أراده الرب يتحقق ، فإذا عزمت أن تحيا بالقناعة أتاك ماقدره لك الأرباب بأكمله .. ، والرزق وفق إرادة الرب ، والجهود هو من يعترض على إرادته» . ثم دله على حال هى الغنى بعينه وقال له يصفها : «هى أن تزكو سمعتك بغير أن تتكلم ... ، ويطريك الناس من حيث لاتعلم» [١] .

من نصائح آنى :

أراد الحكيم الأديب آنى ، فى بداية الدولة الحديثة (حوالى القرن الخامس عشر ق.م [٢] ، أن يرشد ولده إلى مقومات السعادة فى الأسرة ، فقال له : «تخير زوجتك حين الصبا وأرشدها كيف تصبح إنسانة ، وعساها تنجب لك طفلاً ، فإنها إذا أنجبته لك وأنت شاب استطعت أن تربيه وتجعله رجلاً ، وطوبى للرجل إذا أصبح كثير الأهل وأصبح يرتجى من أجل أبنائه» .

ثم قال له : «لاتقس على زوجتك فى دارها إن أدركت صلاحها ، ولاتسألها عن شيء أين موضعه إذا تخيرت له وضعه الملائم . افتح عينيك وأنت صامت تدرك فضائلها ، وإن شئت أن تسعد فاجعل يدك معها وعاونها . يجهل كثير من الناس كيف يمنع الإنسان أسباب الشقاق فى داره ، وقد لايجد أحدهم مبرراً للنزاع فيعمل على خلقه ، بينما يستطيع كل إنسان أن يوفر الاستقرار فى داره إذا تحكم سريعاً فى نزعات نفسه . ولكن احذر أن تمشى فى طاعة أنثى ، أو تسمح لها بأن تسيطر على رأيك» .

وكما أوصاه بزوجته أوصاه أكثر بأمه ، قائلاً له : «ضاعف الخبز لأمك ، واحملها إن استطعت كما حملتك ، فطالما تحملت عبئك ولم تتركه على ... ، ومنذ ولدت بعد أشهرك أسلمت ثدييها لفمك خلال ثلاث سنين ، متحملة قاذوراتك دون أنفة قائلة : ما الذى أفعله . وحينما ألحقت بالمدرسة وعلمت الكتابة فيها ظلت تواظب دونى (على الذهاب إليك) يومياً بالخبز والشراب من دارها . فإذا شببت واتخذت زوجة واستقررت فى دارك ضع نصب عينيك كيف ولدتك أمك وكيف كانت تربيتك كلها» .

وقال له وهو يعظه بألايتجاوز حد القناعة فى طعامه وشرابه : «لاتجبر نفسك

---

(١) راجع للمؤلف عن خصائص أخرى لنفس التعاليم : *التربية والتعليم فى مصر القديمة* – القاهرة ١٩٩٦ – ص٨١-٩٦ .

(٢) A. Volten, *Studien zum Weisheitsbuch des Anti*, Kobenhage, 1937.

على أن تشرب زق جعة ، فإنك إذا شربته عجزت عن البيان وتكلمت لغواً لاتدرك معناه .. ، وإذا التمسك رجل ليسائلك وجدك ملقى على الأرض أشبه بطفل غرير» . ثم أراد أن يصرفه عن نهم الطعام إلى لذة الإحسان ، فقال له . لاتأكل طعاماً وغيرك واقف دون أن تحث الخطى إليه وتمد يدك بالطعام إليه ، ولسوف يعرف لك ذلك إلى أبد الآبدين» .

وقال يوصى ولده بصراحة الحديث : «إياك ألا تقاوم الإلتواء فى داخلية نفسك» . ثم دعاه إلى التبصر حين الخطاب وحين الجواب قائلاً : «إن جوف الإنسان أوسع من شونتى الغلال الملكيتين ، يتسع لكل جواب ، فتخير خير الحديث وتكلم صواباً ، واحتفظ بسيئه فى جوفك» . وكان من طريف تأديبه له بأدب الدعاء قوله : «إدع بقلب محب ، ولاتجهر بصوتك ، يستجيب الإله لدعائك ويسمع ماتقول ويتقبل قربانك» .

من نصائح أمنموبى :

كان الشيخ أمنموبى موظفاً أدبياً متديناً ، فى فترة ما من القرن العاشر أو التاسع ق.م (١) ، وقد تحدث فى مقدمة تعاليمه عن أغراضه منها ، وهى أن تكون هادياً لقارئها إلى السعادة ، ومرشداً إلى قواعد مخالطة الخلصاء والكبراء ، وتقاليد أهل البلاط ، ومعرفة الرد شفاهة وكتابة على كل من يحادثه ويراسله ، فضلاً عن راحة ضميره وحسن سمعته بين الأقارب والأغراب .

ولما كان الشيخ قد عاش فى عصر شاهد الحكم الثيوقراطى واشتدت فيه نزعة التدين ، وكان قد هيأ ولده لمنصب ذى صلة بمعبد ، اصطبغت تعاليمه بروح التقوى والدعوة إلى خشية الإله والثقة بعلمه وعدله والإيمان بقضائه وقدره . وقال لولده «كن رصيناً فى تفكيرك وثبت فؤادك ولاتتعود أن تجدف بلسانك» «ولا تفصلن فؤادك عن لسانك ، تصبح مشروعاتك كلها ناجحة» . «وثمة شىء آخر محبب إلى الرب وهو التروى قبل الكلام» .

وكان من قوله له إنه «شتان بين الكلام الذى يقوله الناس وبين مايفعله الإله» . وعمل على أن يصرفه عن التبرم بالحياة وتخوف المستقبل ، قائلاً له : «لاتقل : إن

(١). Brit. Mus. Pap. 10474; F. Ll. Griffith, *JEA*, XII, 191 f.

اليوم أشبه بغد ، فإلام ينتهى هذا ؟ ، (كلا) فالغد آت واليوم منقض ، وقد تصبح اللجة الغائرة حافة للأمواج» ، «ولاتقض الليل متخوفاً من الغد قائلاً عندما يطلع النهار كيف يكون الغد ؟ فما يعلم إنسان ما سيكون عليه الغد ، والإله دائماً فى فلاح (تدبيره) والإنسان دائماً فى خيبة ظنونه» . «ولاتتبرم بالفقر ، فإن رامى السهام إذا اندفع إلى الأمام هجرته جنوده حين الخطر» . ودعاه إلى احترام كبار السن وعلل ذلك بتعليل لطيف قال فيه «لاتسب من يكبرك سناً ، فإنه قد شاهد (نور الإله) رع قبلك .. ، دعه يضربك إن شاء ويدك فى خاصرتك . ودعه يسبك إن شاء وأنت صامت ...» . ودعاه بالتالى إلى احترام الرئيس وملاينته والبعد عن مجابهته بما يسؤوه ، ولكنه نبه إلى جانب ذلك إلى رب يهب الإنسان حاجاته فى الحياة ويجعله آمناً من كل خوف إذا دعاه ، ويظل المؤمن فى يده فى سلام . وقال له فى ذلك : «كن ثابتاً أمام غيرك من الناس ، فالإنسان فى مأمن فى يد الرب ، والرب يمقت من يزور فى الكلام ، وكبر مقتاً عنده النفاق» . واعتبر ربه هذا واهباً للعدالة ومن لايتحرى عدالته يفسد تدبيره فى دنياه ، وقال : «لاتخصص عنايتك لمن اكتسى بثوب قشيب ، وتقبله فى الأسمال . ولاتتقبل رشوة من صاحب نفوذ ، أو تظلم مقصور اليد من أجله ، فالعدل هبة غالية من الرب يهبها لمن يشاء» . وقال له : «إن الرب يحب إسعاد الفقير ، أكثر مما يحب تعظيم النبيل» .

وعلى نحو ما وضحت المشابهة والتأثير بين أناشيد أخناتون وبين مزامير العبرانيين ، وضح تأثر مشابه من تعاليم أمنموبى على تعالى اليهود فى سفر الأمثال ، فى اللفظ والمعنى ، بل وفى تقسيم الفقرات أيضاً [1] ، مما سنعود إلى بحثه مع حضارات الشام فى المجلد التالى لهذا الكتاب .

من نصائح المعلمين :

شارك المعلمون والأدباء المحترفون الآباء المثقفين فى تعاليم الحكمة والتهذيب، وكان أكثرهم حديثاً معلمو وأدباء عصر الرعامسة . وقد أراد أحدهم أن يزكى النخوة والنجدة فى نفس تلميذه وقارئه ، فقال له : «إذا رجاك يتيم مسكين اضطهده آخر وود هلاكه ، فسارع إليه وقدم المعونة إليه . اجعل نفسك منقذاً له ، فمن أعانه ربه حق عليه أن يعين كثيرين غيره ...» وقال : حرر غيرك إنه وجدته رهين القيد ، وكن

(١) D. C. Simpson, JEA, XII, 232 f.

حامياً للضعيف ، فلقد قيل إن الحسنى لمن لايدعى الجهل بآلام غيره» .. وقال : «أياماً كانت خبرتك بالكتب ، وكنت متعمقاً فى التعاليم .. ، فعليك أن تحترم الغير حتى تحترم ، وأحب الناس يحبك الناس ، ولاتبالغ فى أحاديثك» .

رابعاً – فى أدب النقد والتوجعات :

إبوور والثورة الشعبية :

أسلفنا فى حديثنا عن أواخر الدولة القديمة (كما أسلفنا من قبل) أن الدورة التاريخية الأولى لمصر قد انتهت فى أواخر القرن ٢٣ ق.م بثورة شعبية صور أخبارها من وجهة نظره حكيم راويه يدعى إبوور ، أو إبو العجوز . وقد حفظ المصريون وصفه لأحداث عصره وموقف فرعونه وبلاطه ، ورددوا روايته أجيالاً طويلة وسجلوها على صفحات البردى ، وبقيت من صورها بردية كتبها أديب من الدولة الحديثة، وتعرف الآن اصطلاحاً باسم بردية ليدن ٣٤٤ بعد أن انتقلت للأسف إلى حوزة متحف ليدن[١] .

كان إبوور من دعاة الإصلاح ما فى ذلك من شك ، وكان يدرك مفاسد الحكم فى عصره ما فى ذلك من شك أيضاً ، لولا أنه كان من طبقة أرستقراطية قديمة وكان يتمنى أن يتأتى إصلاحها من داخلها أو بوحى ملك حازم عادل دون أن يفرض التغيير عليها فرضاً عن طريق طبقة أقل منزلة منها ، أو عن طريق الشعب فى حدود تعبيراتنا الحالية ، ولهذا اختلط الإخلاص فى روايته بالمبالغة ، واختلط التحسر بالأمل، واختلط الخيال بالواقع ، كما سيتضح من عباراته الحرفية التى سوف نستشهد ببعض ترجماتها .

يفهم مما رواه إبوور أنه تعاونت على إشعال الثورة العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية نفسها التى أسلفا ذكرها (فيما قبل) . فالدولة فى مجملها قد ولت عنها هيبها وهبطت إلى مستوى من الضعف أصبحت معه على حد قوله «فى طريقها إلى أن تصب الماء (لغيرها) ، ومن أوضاع الماء (أى الإمكانات) يكون قد شل الذراع الفتية واحتجزها فى الأغلال» ، «والأجانب الذين كانوا يخشونها والذين

---

(١) Pap. Leiden I, 344 rt.; Gardiner, *The Admonitions of an Egyptian Sage*, 1909; Wilson, *AENT*, 441 f.

ويراجع للمؤلف : حضارة مصر القديمة وآثارها – القاهرة ١٩٦٢– جـ١– ص٣٩٢–٤٠٠.

عرف الشعب (تفاهتهم) أصبحوا يقولون لن تستطيع مصر أن تأتى شيئاً . فالرمال (المحيطة بها) هى كل حمايتها» . وفسدت ولاية الحكام ، وقال إبوور عنها : «حقاً لاتزال العدالة باقية فى الأرض باسمها ، ولكن المؤسف حقاً هو الخطأ فى تطبيقهم لها» ، وقال : «عظماء البلاد لاتبلغهم أمور البلاد ، والكل آل إلى الدمار» وظهر عجز الملكية عن كبح جماح الجنود المرتزقة فى جيشها بحيث «أصبحت خيرات مصر نهباً مشاعاً» لكل من نزلها من دون أهلها ، وقال إبوور فى ذلك : «إن الجنود الذى جندناهم من أجل صالحنا أصبحوا ضمن الآسيويين ، ألا بعداً للخراب الذى حدث (فى مصر) ، فقد جعل القبليين الآسيويين يعرفون أحوال البلاد» . وعجزت الدولة عن صد هجرات البدو فتجاوزوا حدودها وتسربوا إلى أراضى الدلتا وشاركوا المصريين معايشهم واعتبروا أنفسهم من أصحاب البلاد وخاصة أهلها ، وقال الحكيم فى ذلك : «تخربت الأقاليم ، وتوافدت قبائل قواسة غريبة إلى مصر ، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون فى أى مكان» ، ثم قال والألم يحز فى نفسه : «وأصبح الأجانب مصريين فى كل مكان .. ، وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغراباً وأهملوا جانباً» . وكان من الطبيعى أن يعز الأمن فى البلاد ، وقد قال عنه : «(يقولون) الطرق محروسة ، ولكن القوم يختبئون على الأشجار حتى يأتى سار بليل فينهبون مايحمله ويسلبونه ماعليه ، ويشوهون وجهه بالعصا ، وربما قتلوه ظلماً» ، وقال : «إذا مشى ثلاثة فى طريق وجدهم الناس إثنين ، فغالباً ماتذبح الأكثرية الأقلية» .

وتخاصم حكام الأقاليم بعضهم مع بعض واستأثر أغلبهم بثروات أقاليمهم ، وامتنعت عن خزائن الحكومة المركزية ضرائب أغلب مناطق الصعيد القصية ، وقال إبوور فى ذلك : «الحق إن أسوان وجرجا فى أرض الصعيد لم تعودا تؤديان الضرائب نتيجة لشيوع الفتن ، فعز الغلال .. ومنتجات المصانع ، فكيف يسير بيت المال إذاً بغير موارده ؟» وقال : «قلت سفن الصعيد ، وتخربت المدن ، وأصبح الصعيد خراباً يباباً» .

وتوقفت سبل التجارة الخارجية مع غرب آسيا بعد أن هددتها الفوضى والهجرات الأمورية ، وقال إبوور عنها : «ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل ، فما الذى سوف نفعله إذاً بخصوص أخشاب الأرز (التى اعتدنا أن نصنع منها) توابيتنا ، والزيوت التى يحنط الكبراء بها ، (وترد من) هناك ، ومما يجاور كفتيو . ماعاد يأتى من ذلك شىء حتى أصبح مجىء أهل الواحات بمنتجاتهم (البسيطة) شيئاً ذا بال» .

نشبت الثورة من جراء هذه العيوب كلها ، وصحبها في بدايتها نوع من العنف الجماهيري ورغبة الانتقام والتنفيث عن الغضب المكبوت ، ويبدو أنه أعوزتها الزعامة التي توجهها الوجهة السليمة ، فاستغلها بعض الغوغاء وأهل السوء ، وقال إيوور وهو يصف بدايتها «قال حراس الأبواب (بعضهم لبعض) فلننطلق وننهب ، وأبى الغسالون أن يحملوا أحمالهم ... ، وتسلح صيادو الطيور بأدواتهم ، وتترس أهل الدلتا بالتروس... ، وحدث شيء قدر منذ عهد حور وزمن التاسوع» .

أغرق إيوور في وصف سوء الحال والمآل ، ووصف ما شاء له الوصف شدة الاعتداءات على حرمة الملكية ومقدساتها ودواوينها ودور قضائها ، وقال عن هذه الأخيرة : «فتحت الدواوين وسلبت كشوف الإحصاء وأتلفت سجلات كتبة المحاصيل» وقال : «ألقيت قوانين دار القضاء في العراء ، ووطئت بالأقدام في الشوارع ، ومزقها الغوغاء في الأزقة ، وأخذ العوام يروحون ويجيئون في دور (القضاء) الكبيرة ، ونفى القضاة في الأرض ، واحترقت البوابات والأعمدة والأسوار» .

وقال في شيء من التهويل والمبالغة : «أصبح الرجل ينظر إلى ولده كأنه عدوه» ، ... وساءت الوجوه ، وتأهب القواس ، واستشرى النهب في كل مكان وما عاد لرجل الأمس وجود ..» ، وقال : «قست القلوب ، وغزا الوباء الأرض (وسرى) الدم في كل مكان ، وأصبح مجرى النهر قبراً ، وغدا مكان التطهر فيه بلون الدم ، وإذا قصده الناس ليرتووا منه عافوا جثث البشر وظلوا على ظمئهم إلى الماء» . وعز الأمن في الريف وتعطلت الزراعة ، وقال إيوور : «أصبح الرجل يخرج ليحرث وهو بالمجن» ، «وأفاض إله النيل الماء ، ولكن ما من أحد يود أن يحرث من أجل نفسه ، بعد أن أصبح الناس جميعهم يقولون : لسنا نعرف ماسوف يتأتى في هذه الدنيا» . وتعطلت الصناعة والفنون بدورها ، وقال إيوور «أصبح الصناع جميعاً عاطلين ، وأفسد أعداء البلاد فنونها» ، «وأصبح بناة الأهرام فلاحين» . وبالغ في تصوير سوء الحالة الإقتصادية فقال : «أصبحت العاصمة في خوف من العوز ، وأصبح الناس يأكلون الحشائش ويتبلعون بالماء ....» .

لم ينس الرجل طبقته التي انحدر منها ، فأخذ يتحدث عن انقلاب أوضاع الطبقات ويقارن بين ماكان وماهو كائن ؛ ولم يكن من الهين عليه بطبيعة الحال أن تزول النعمة من قوم إلى قوم أو من طبقة إلى طبقة ، فقال في عبارات قوية

اصطبغت بروح الأدب وتعنينا من حيث صياغتها وطرافتها أكثر مما تعنينا من حيث دلالتها على واقع أكيد . قال الحكيم فيما قال : «فارقت النبالة الدنيا وأصبحت ربات البيوت يقلن أنى لنا مانأكله ، وذبلت أجسادهن فى الأسمال وهاضت قلوبهن من ذل السؤال» وقال : «غدا الأثرياء يولولون وغدا المحرومون مسرورين ... وما من أبيض الثوب فى هذا الزمان . ودارت الأرض كما تدور عجلة الفخار . وأصبح المواطن يقول ما أشد البلاء وماذا أفعل ؟ وأصبح ابن الناس نسياً منسياً وغدا ابن سيدته كابن خادمته» . وانذار على الطبقة الجديدة فقال فى عبارات متفرقة : تجرأت الجوارى بأفواههن ، وإذا تكلمت سيداتهن ثقل ذلك على الخدم . وأصبح العوام من أرباب الرفاهة ، ومن لم يكن منهم يتخذ نعلاً أصبح ذا ثراء عريض ، ومن لم يكن يعرف الظل أصبح صاحب ظل ظليل ، ومن كان رسولاً أصبح يرسل غيره ، ومن كان يتساقط شعره من قلة الدهان أصبح يمتلك قدور المر الغالى ، ومن لم يكن له صندوق أصبح صاحب أثاث ، ومن كانت ترى وجهها فى الماء أصبحت ذات مرآة ...

وكره بعض الناس دنياهم وآثروا الانتحار ، سواء لضياع حقوقهم القديمة ، أو لأسفهم عما أصاب المعابد والمقابر ، أو لأسفهم عما أصاب بلدهم من اضطراب لم يعرفوا علاجه ، وعبر إيوور عن رأيهم بقوله «ولى وانقضى ما شهده الأمس ، وبقيت الأرض لسوء حظها ، ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس فلا يحدث حمل ولا ولادة ، وتهدأ الأرض من الضجيج ولايكون هناك متخاصمون» ، وقد «أصبح الكبير والصغير يتمنيان الفناء ، وأصبح الأطفال يقولون ليت آباءنا لم يهبونا الحياة» و «غصت التماسيح بما أصبحت تقتنصه بعد أن ذهب الناس إليها من تلقاء أنفسهم» .

غير أن كل هذه السواءات المبالغ فيها ، لم تحرم الثورة من مزاياها ونتائجها الطيبة التى أسلفناها لها (فيما سبق) ، وخلاصتها أنها حركت ضمائر الحكماء إلى الإصلاح ، ودعت إلى التفكير فيما ينبغى أن يكون علية سلوك الحكام ، وشجعت على مواجهة الملك بعيوبه ، وشجعت على إعادة النظر فى العقائد ، وأدت إلى نشأة طبقات جديدة تعتز بالعصامية أكثر مما تعتز بالأحساب .

* * *

شكاوى القروى الفصيح :

أسلفنا من قبل أن قصة «القروى الفصيح» ألفها أديب فى العصر الأهناسى أو فيما بعده بقليل ، ليصور بها ماهو كائن فعلاً فى عصره من أوضاع الحكم والإدارة ، ويعقب عليها بما كان يرجو أن يسود عصره من أوضاع مستحبة بين الحكام والمحكومين [١] . وتروى القصة أن قروياً يسمى «خون إنبو» خرج من بلدة تسمى «غيط الملح» وهى بلدة من نواحى الفيوم (وإن ظنها البعض خطأً فى وادى النطرون) وترك فيها زوجته مارية وأولادها وترك لهم جانباً مما كان يدخره من الغلال ، وحمل حميره ببضاعة متواضعة من نطرون وأعشاب وجلود وأحجار شبه كريمة ابتغاء أن يتجر بها فى مدينة أهناسيا عاصمة الملك فى عهده . ومر فى طريقه على قرية أو ضيعة تسمى «برفيفى» كان يتولى أمرها موظف شره يدعى «تحوتى نخت» أو «نمتى نخت» نيابة عن موظف آخر كبير كان يرأس نظارة الخاصة الملكية ويدعى «رنسى بن مرو» . وطمع نمتى نخت فى تجارة القروى وحميره وأراد أن يكون له نصيب منها ، وتفتق ذهنه عن حيلة خبيثة ، فاعترضه على طريق زراعى ضيق كان لابد له أن يمر عليه ، وأوعز إلى خادمه أن يبسط على الطريق قماشاً يغطيه بالعرض ، ولما تقدم القروى على الطريق نهاه نمتى نخت أن يمر على قماشه المبسوط ، فاعتذر القروى بأنه كان حسن النية فيما أقدم عليه ، وابتعد عن القماش وسار قرب الزراعة ، فنهره مرة أخرى . وفجأة قضم أحد حمير القروى قضمة من سنابل الغلال فاعتبرها نمتى فرصته وأصر على أن يستولى على الحمار جزاء جرمه، فاحتج القروى وهدد بإبلاغ الأمر إلى ناظر الخاصة وصاحب الأرض ، فغضب نمتى وأخذته العزة بالإثم واستولى على بضاعة الرجل وحميره كلها . وولول القروى واشتد عويله ، فنهره نمتى فى صفاقة غريبة قائلاً له : «لاترفع صوتك يافلاح ، أنت قريب من بلد رب السكون» .. وكان رب السكون هذا هو المعبود أوزير ، ويبدو أنه كان له ضريح قريب من برفيفى يهابه الناس ويحترمونه .

ولكن القروى لم يهتم به وقال بلهجته الريفية اللطيفة : «تضربنى وتنهب متاعى وتوقف الشكوى على لسانى ؟ يارب السكون إدينى إذاً حاجتى حتى أبطل الصراخ الذى يغضبك» .

(١) F. Vogelsang u. A. H. Gardiner, *Die Klagen des Bauern*, 1908; Gardiner, JEA, IX, 5 f.

واستمر القروى طيلة عشرة أيام يشكو حيناً ويسترحم حيناً ، ولكن بغير طائل ، فاتخذ سبيله إلى العاصمة أهناسيا ليشكو بلواه إلى ناظر الخاصة رنسى ، وقابله فعلاً ذات صباح وهو فى طريقه من داره إلى النهر ليستقل قارب المحكمة ، ورجاه أن يرسل معه تابعاً من عنده حتى يعهد إليه بقصته . ورجع التابع بنص القصة إلى رئيسه ، فعرضها رنسي على من كانوا بصحبته من الموظفين فهونوا الأمر عليه وانحازوا إلى جانب زميلهم نمتى نخت وعز عليهم أن يعاقب من أجل فلاح ، وحاولوا أن يشككوا رئيسهم فى صحة دعواه . ولكن رنسى أسر أمراً فى نفسه .

واستبطأ القروى رد رنسى فوجه إليه استعطافاً رقيقاً ليناً حاول أن يستثير به نخوته فبدأه بأمنيات طيبة ، وحببه في العدل ، ووصفه بما يحب أمثاله أن يوصفوا به، وكان من قوله له : «إذا كنت حقاً أبا لليتيم ، وزوجاً للأرمل ، وأخاً للمطلقة ، ورداء لمن لا أم له ، فشجعنى على أن أنشر سمعتك فى هذه الأرض بما يتفق مع كل قانون قويم ، وعساك تكون حاكماً بريئاً من الجشع ، ونبيلاً منزهاً عن الدنية ، تزهق الباطل وتحق الحق وتلبى نداءه . وهأنذا أقول وأنت تسمع . أقم العدل أمدحك ويمدحك المادحون – أزل معاناتى فقد ثقلت ، واحمنى فقد ضعت ...» .

وفعل استعطاف القروى فعله لدى ناظر الخاصة أو على الأصح فعل مديحه فعله لديه ، فأعجب به وأسرع إلى فرعونه وهو يقول : «مولاى وجدت واحداً من أولئك القرويين جيد الكلم يتحدث بالصواب ، نهب متاعه وأتانى يتظلم إلى» ، وقص قصته عليه ، فرد الفرعون عليه بقوله : « (أستحلفك) بحق ماتحب أن ترانى معافى ، أن تؤخره ها هنا ، ولاتعقب على شيء يقوله ، عساه يواصل الحديث ، ثم يؤتى إلينا بحديثه مكتوباً فنسمعه ، بشرط أن تتكفل برزق زوجته وعياله ، فالقروى من هؤلاء القرويين يأتينا عادة بعد إملاق ، وعليك كذلك أن تتكفل بمعاشه (طيلة بقائه هنا) بشرط أن تصرف له (رزق) دون أن تشعره بأنك أنت معطيه» .

وهكذا صور الشق الأول من القصة أكثر من جانب من جوانب الحياة فى عصرها ، فصور لؤم بعض الموظفين وسوء استغلالهم لسلطتهم وتستر بعضهم على بعض ، ولكنه لم يأب أن يصور إلى جانبهم موظفين آخرين يتقبلون الشكاية والمظالم ويودون إزالة أسبابها ، ولم يأب أن يصور فرعوناً يستعذب فصاحة قروى من رعاياه ويتمنى أن يستزيد منها ثم يأمر بالإحسان إليه فى عاصمته دون أن يعرف من هو

المحسن عليه ، ودون أن يشعر بفضل أحل عليه ، فضلاً عن الإحسان إلى أسرته فى قريتها والتكفل برزقها .

وعمل ناظر الخاصة بتوجيهات فرعونه ، فتغافل عن الرد على خون إنبو ، وظن هذا أنه أهمله فتحول من الاستعطاف إلى الشكاية ثم إلى الشراسة ، وتحول من لين الحديث إلى العنف والنقد الصريح ، وتوجه إلى رنسى بثمان شكايات متتابعة بعد استعطافه الأول ، لم يسلم حين تقديمها من الأذى وضرب الحجاب وإهانة الحراس ، ولكنه لم يتخل عن عناده ، واستمر يصر على إسماع صوته للحاكم ولو ناله الضرب والأذى ، وعمل على أن يصور فى هذه الشكايات مبادئ العدالة الاجتماعية والسياسية والقانونية التى كان يطمع فيها المفكرون المصلحون فى عصره .

تصور خون إنبو أن الحاكم يشبه دفة السفينة التى تحدد مسيرتها ، ويشبه السند الذى يعتمد الناس عليه ، ويشبه خيط الميزان فى دقة تعبيره عن وزن الأمور ، فقال لناظر الخاصة وهو يشكوه إلى نفسه :

«أيها الدفة لاتنحرف ، ويأيها السند لاتميل ، ويأيها الخيط لاتتذبذب ...

«لقد انفلت العدل من تحتك وأقصى عن موضعه ، والموظفون يشاغبون ، والموعظة الحسنة أهملت وهاهم القضاة يتخاطفون ماسلب منى ... !» .

وقال فى تشبيه لطيف وتجسيم للصورة : «ها أنت رئيس وبيدك ميزان ، إذا اختل الميزان فأنت مختل . ولسانك هو لسانه الصغير ، وقلبك صنجته ، وشفتاك قبه ، فإذا سترت وجهك عمن يطفف ، فمن يرفع العار ؟» .

وقال فى شكاية طريفة الأسلوب بليغة المعنى ، وهو يحضه على اتباع العدل : «أقم العدل لرب العدل الذى عدل عدالته موجود ، وياقلم تحوتى وقرطاسه ولوحته ، تنزهوا عن عمل السوء ، فإنما الخير بالخير ، والحسنى لها ماهو أحسن منها ، والعدل خالد إلى الأبد يهبط مع صاحبه إلى الجبانة ، فإذا دفن احتوته الأرض معه ، ولن تزول سمعته من هذه الدنيا ، ولسوف يذكر بالخير ، وهذا هو خير ما فى أقوال الرب... ، فمن يكن سنداً لا ينبغى له أن يميل ، ومن يكن ميزاناً لاينبغى له أن يتذبذب . وسواء جئت أنا أم أتى غيرى وجب عليك أن تتحدث ولاتنصت إلى هكذا كما لو كنت أحادث شخصاً أخرس ...» . إنك لاتلين ولاتضعف ... ، وما جازيتنى

على أحاديثى الحسان التى صدرت عن فم الإله رع نفسه ، .. قل الحق إذاً وافعل الصواب فالعدل عظيم وخالد ...» .

ولم يكتف القروى بالنصيحة والحديث عن واجبات الحكام ، وإنما أخذ يشتد على ناظر الخاصة ويعنفه ، وكان من قوله له : «إنك قادر ومقتدر ، وذراعك طائلة ، ولكن فؤادك قاس ، والرحمة قد تجاوزتك ، فما أتعس المحزون الذى تحطمه . لكانك رسول لرب التمساح ، بل إنك زدت عن ربة الوباء ، وإذا كان العدم يرتجى منها ، ارتجى منك العدم ...» .

وترتب على عنف القروى فى حديثه أن أمر رنسى بضربه بالسياط ، ولكنه لم يرتدع ، وقال بعد ضربه :

«ضل ابن مرو طريقه ، وعمى وجهه عما يراه ، وأصيب بالصمم عما يسمعه ، وضل ضميره عما يذكر به . إنك أشبه بقرية بغير عمدة ، وجماعة لاكبير لها ، ومركب لاربان فيها ، وعصبة لاهادى لها . أنت نبيل نهاب ، وحاكم مرتش ، وكبير لمنطقة كان ينبغى أن يمنع الاختلاس ولكنه أصبح نموذجاً لمن يود أن يختلس» .

وزاد خون إنبو فعرض خلال شكاواه لناظر الخاصة بالصفات التى كانت تنسب عادة إلى الفرعون ، ولو أنه لم يذكر الفرعون صراحة ، فقال : «أنت رع رب السماء وسط حاشيتك ومنك قوام الخلق جميعهم . وأنت كالفيضان ، بل أنت حعبى صاحب الفيضان الذى يسبغ الخضرة على الحقول ويعمر البرارى ، فاقطع إذاً دابر النهب وأوقفه وأكرم البائس ، ولاتكن فيضاناً ضد الشاكى ، واحذر قرب الآخرة» .

وأطال القروى فى شكاياته ، ولما فرغ معينه منها استدعاه ناظر الخاصة ، فتوقع الرجل أن تكون الدعوة لمقتله ، وأخذ يروض نفسه على ملاقاة الموت فى شجاعة ، ولكن رنسى طمأنه وأراه شكاواه منسوخة على برديات جديدة أعدها ليعرضها على الفرعون شخصياً ، فلما عرضها على مولاه أمره بأن يقضى فى القضية بنفسه ، فقضى بتجريد نمتى نخت من ممتلكاته ، ووهبها للقروى فضلاً عن حميره وبضاعته .

* * *

تلك فيما رأينا نماذج يسيرة من الأدب المصرى القديم ، تدل على الرغم من

قلتها وقدمها البعيد وصعوبة التعبير بدقة عن ألفاظها ، على عقليات ناضجة وأحاسيس نابضة وأذواق مرهفة ، ونضم إليها ماسبق أن استشهدنا به فى بقية صفحات هذا الكتاب من أدب السياسة والحكم ، فى مثل نصائح خيتى لولى عهده ، وتعاليم أمنمحات الأول لولده ، وتعاليم تحوتمس الثالث لوزيره ، وتأملات سيتى الأول ، وقصة ونآمون ؛ وما استشهدنا به من الأدب الحربى فى حوليات كامس وتحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى ورمسيس الثانى ومرنبتاح ورمسيس الثالث وبيعنخى ؛ وماسبق تبيانه من أدب التراجم الشخصية فضلاً عن الأدب الدينى (الفصل الحادى عشر) . وكنا نود أن نعقب على حديث الأدب بحديث آخر عن العلوم ، لولا رغبة التخفيف وضيق المقام [1] .

* * *

(١) راجع من الكتب العربية :

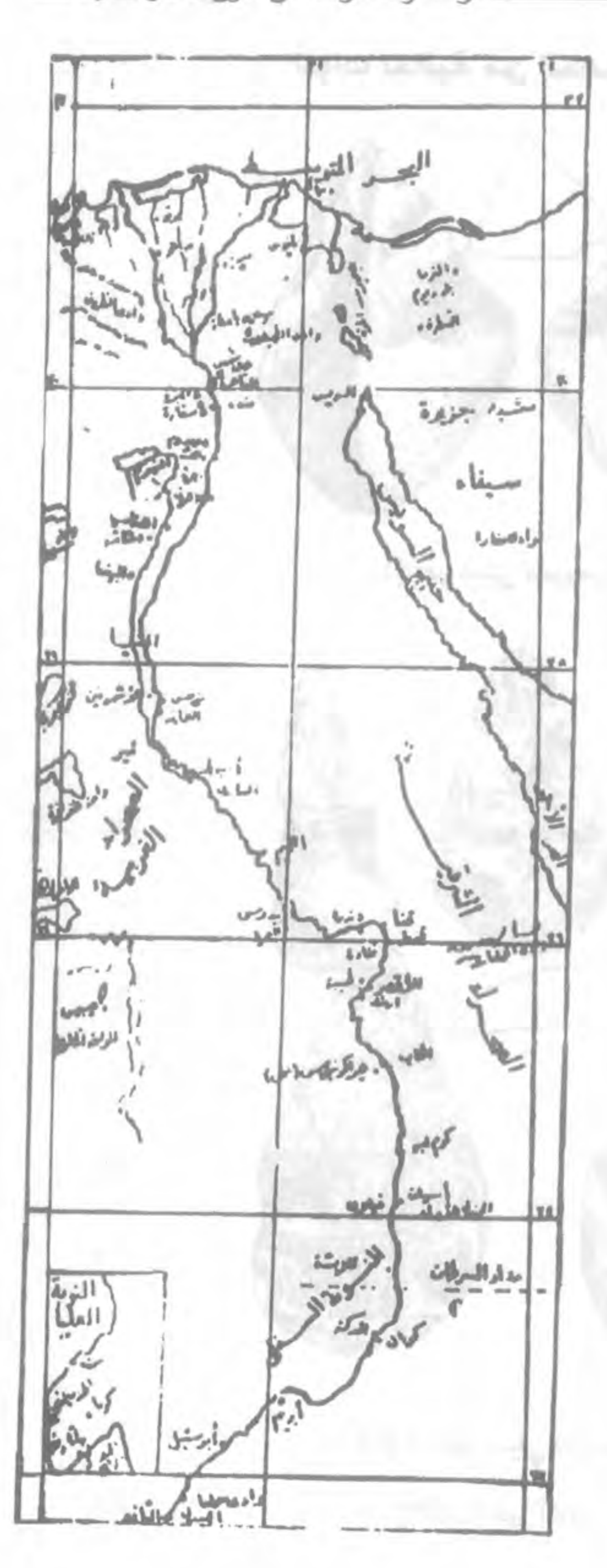
عن الرياضيات للمؤلف : التربية والتعليم فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٦٦ - الفصل الثانى عشر .

عن الطب : حسن كمال - الطب المصرى القديم - مجلدان - القاهرة ١٩٦٤ .

عن العلوم بإيجاز : إرمان ورانكه - مصر والحياة المصرية القديمة - معرب بالقاهرة ١٩٥٠ .

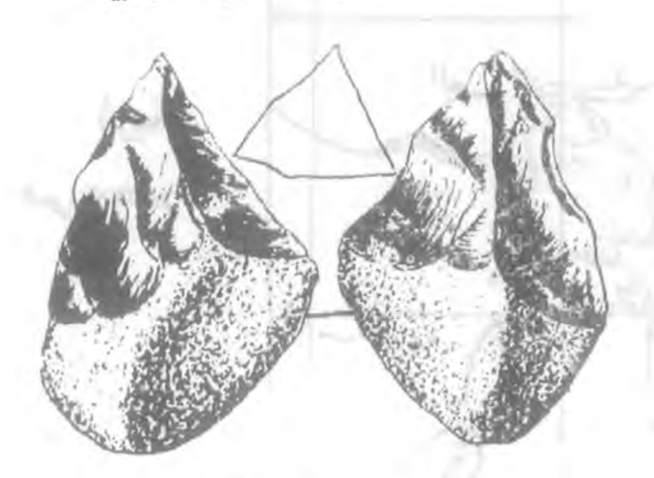
خرائط

ومختارات من فنون مصر القديمة

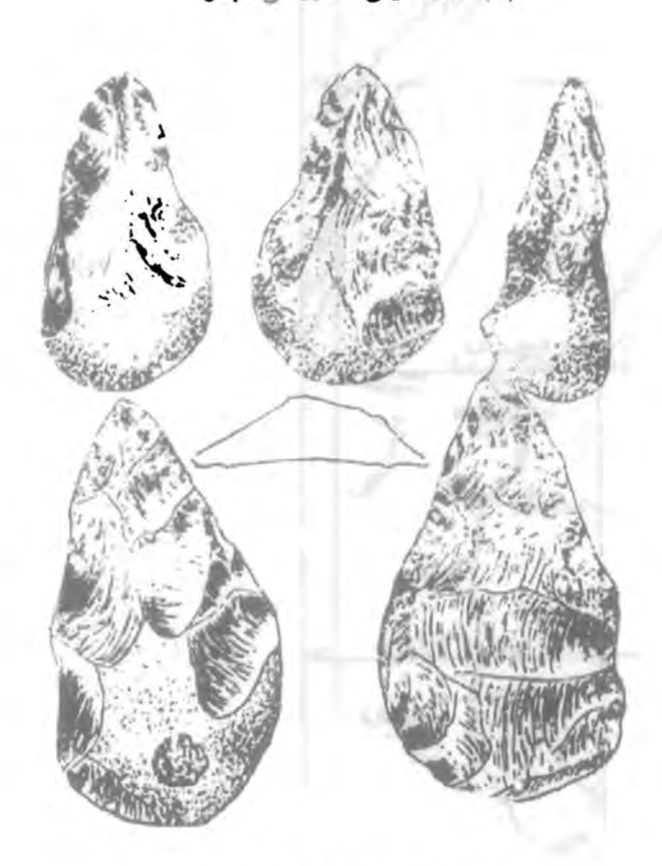


أهم المواقع الأثرية القديمة فى مصر

أدوات بدائية من الدهور الحجرية



(١) فهر شيلى مخروطى مبكر



(٢) (أ) فهر شيلي ذو وجهين

(٢) (ب) فهر أشولي

رسوم على الفخار من فجر التاريخ

(من أواسط الألف الرابع ق.م)



(٣) زخارف تخطيطية على فخار من نقادة الأولى

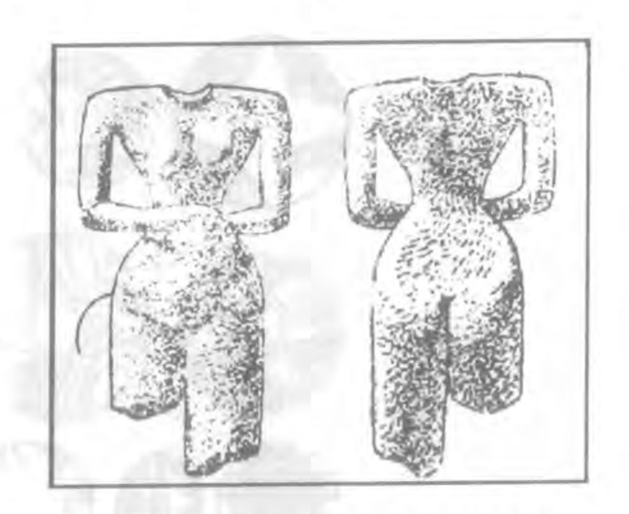


(٤) أفراس نهر وأسماك ودوائر على فخار من نقادة الأولى



(٥) نموذجان لمراكب نقادية

نقش ونحت من عصر ماقبل الأسرات
(من النصف الثانى للألف الرابع ق.م)



(٦) فتاة من البداري - تشكيل من الفخار



(٧) فيل يعلو أفعوانا



(٨) ظبيان يتناجيان

(٩) كبشان يتحفزان وبيئة برية

منحوتات ونقوش من عصر بداية الأسرات

(فى أواخر الألف الرابع وأوائل الألف الثالث ق.م)

(١٠) أنثى ناضجة

(١١) شاب بشعر مرسل مفروق وأزار كاسر

(١٢) أسير مقيد

(١٣) رأس شيخ من الصحراء الغربية

(١٤) مقدمة كلب





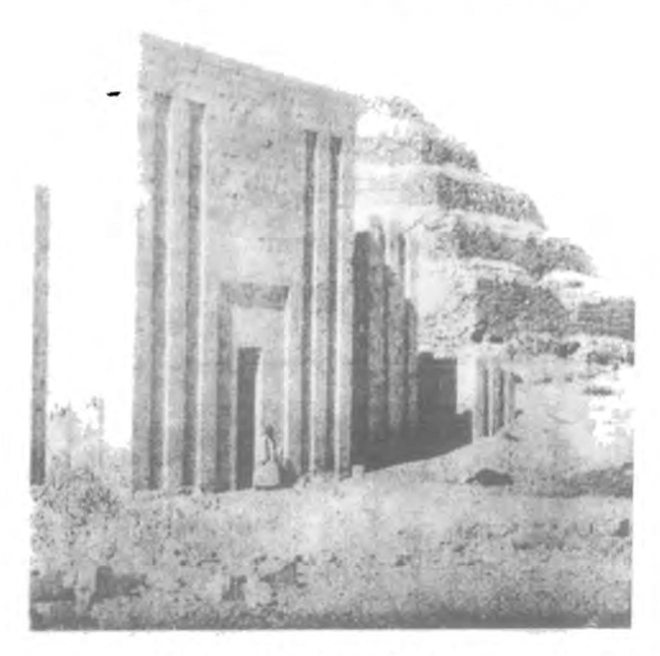
(١٥) نقش تسجيلي على رأس مقمعة الملك العقرب



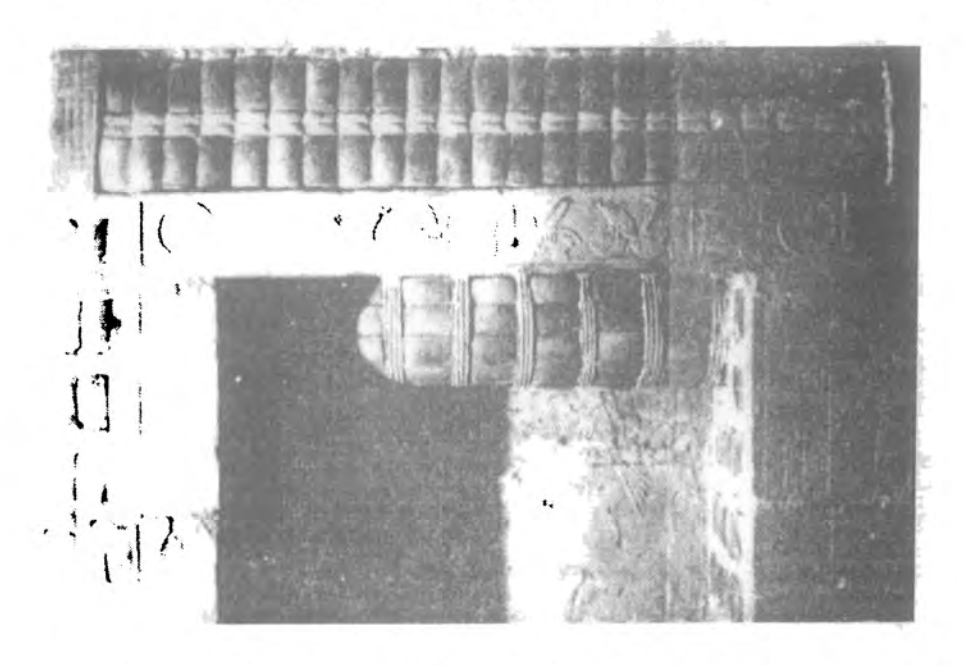


(١٦) (أ) و(ب) نقش النصر على وجهى صلاية الملك نعرمر

من روائع الدولة القديمة
(فى القرون ٢٨-٢٣ ق.م)



(١٧) هرم سقارة المدرج وواجهة سوره الكبير



(١٨) قراميد القاشانى تقلد هيئة جدائل الحصير الفاخر بالمقبرة الجنوبية للملك زوسر



(١٩) الملك زوسر رأس الأسرة الثالثة

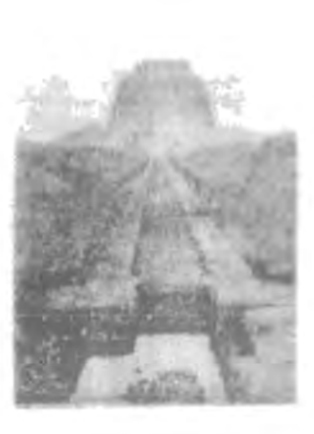


(٢٠) الحكيم أيموحتب مهندس هرم سقارة المدرج

(فى تمثال من عصر متأخر)



(٢١) تخطيط للملك سنفرو رأس الاسرة الرابعة



(٢٢) بقايا هرم حونى فى ميدوم



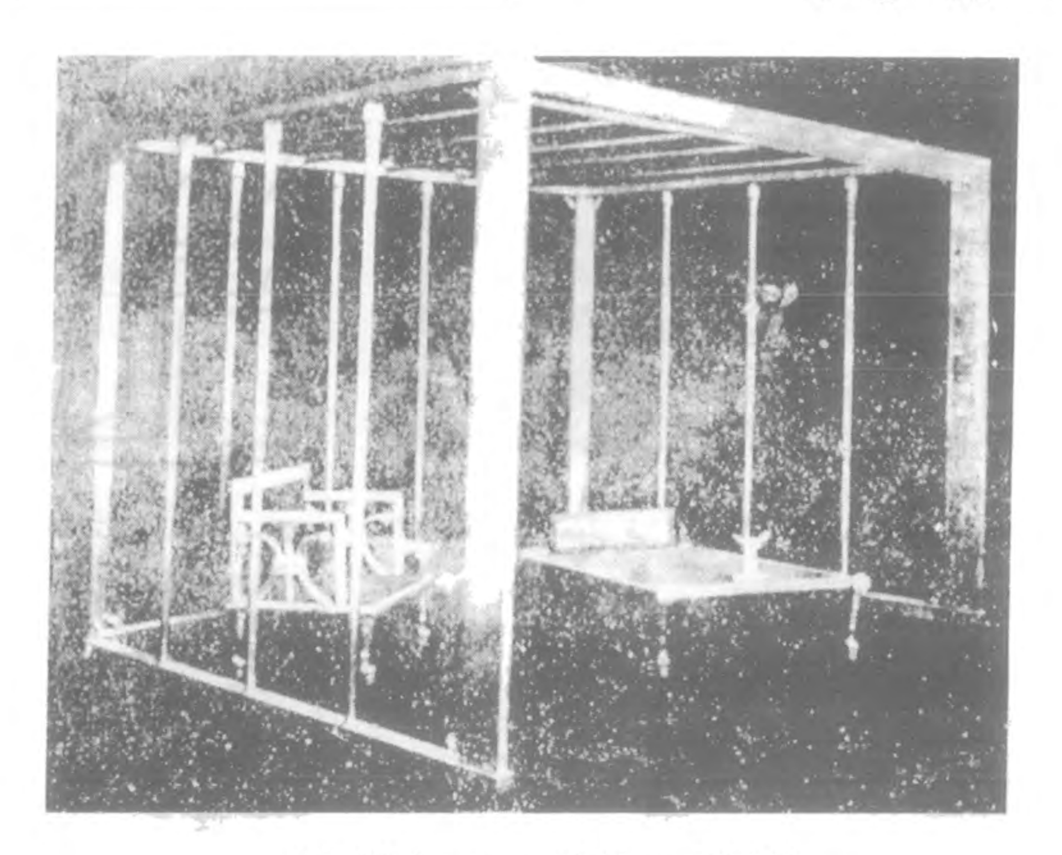
(٢٣) قطاع فى عمارة حجرة الدفن وسقوفها العلوية فى هرم خوفو



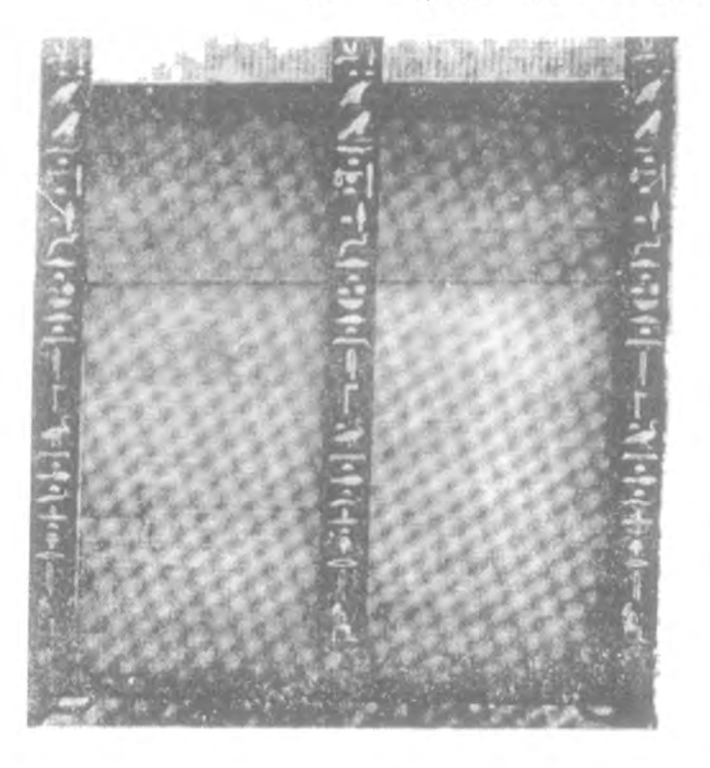
(٢٤) الملك خوفو (؟) صاحب الهرم الاكبر



(٢٥) حم أونو أحد مهندسى (؟) الهرم الأكبر



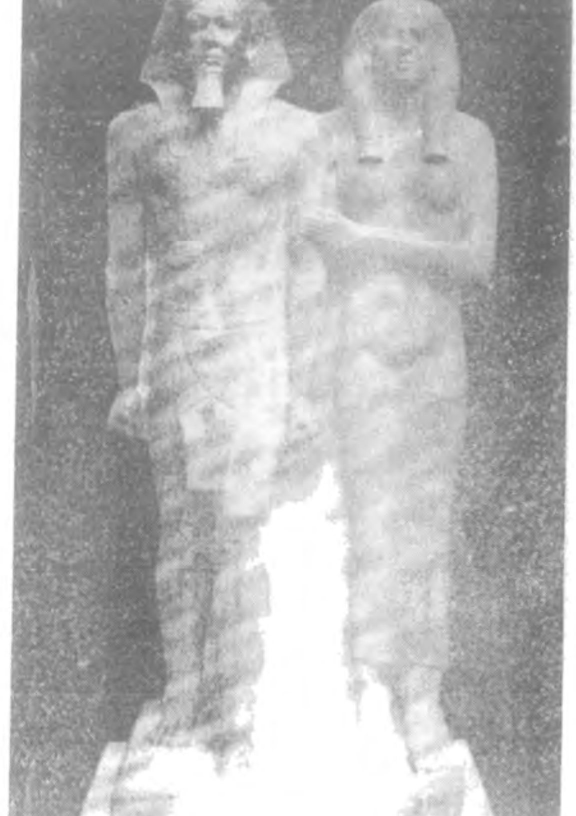
(٢٦) ظلة سرير الملكة حوتب حرس أم الملك خوفو

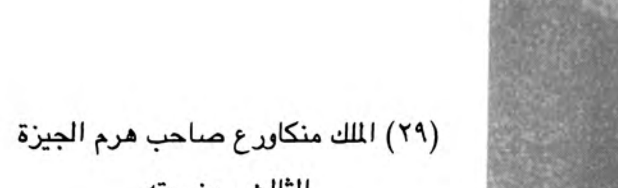


(٢٧) خلفية مقعد الملكة
حوتب حرس



(٢٨) الملك خفرع صاحب هرم البصرة الأوسط





(٢٩) الملك منكاورع صاحب هرم الجيزة الثالث ، وزوجته



(٣٠) رع حوتب وزوجته نفر من بداية عصر الأسرة الرابعة



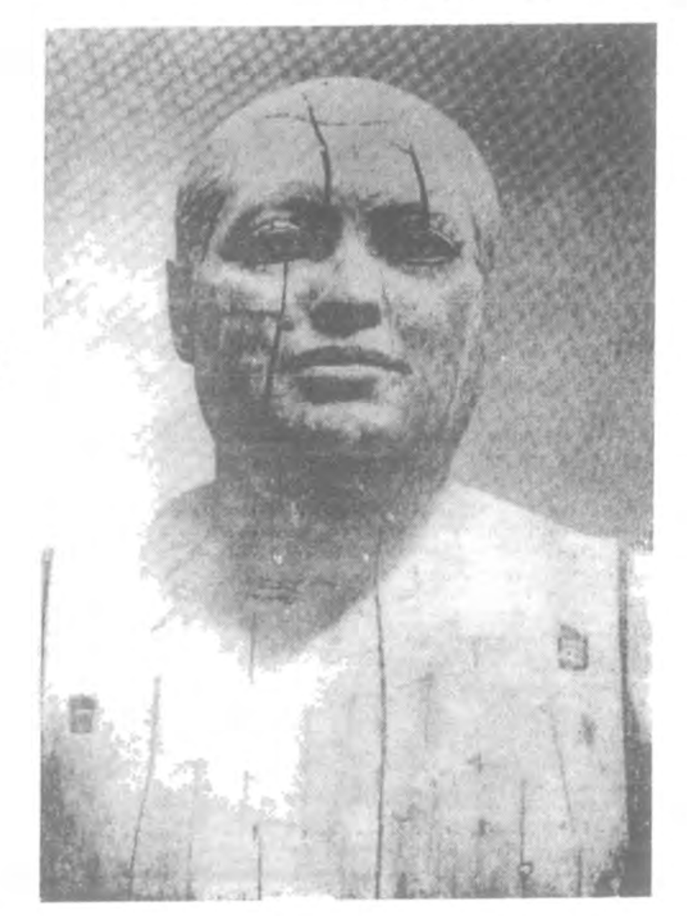
(٣١) الملك ببى الأول من الأسرة السادسة - **تشكيل** بالنحاس المطروق



(٣٢) تمثال نصفى نادر للأمير
عنخ حاف



(٣٣) كاتب متأنق فى جلسة تقليدية



(٣٤) كاعبر - شيخ البلد - نحت في الخشب



(٣٥) أحد أعيان الأقاليم

من فن الأسرة الثانية عشرة وعصر الانتقال الثانى
(ق ٢٠ - ١٨ ق . م)



(٣٦) الملك سنوسرت الأول بتاج الدلتا وتاج الصعيد



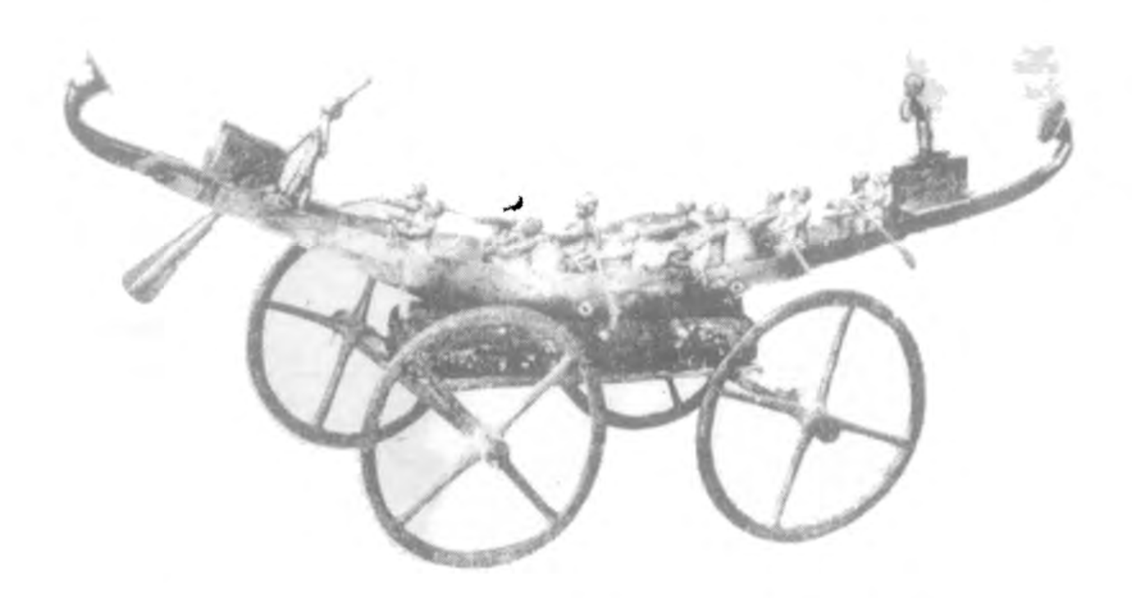
(٣٧) الملك سنوسرت الثالث بملامحه الصارمة



(٣٨) الملك أمنمحات الثالث بملامحه الوادعة



(٣٩) رأس سقننرع شهيد الوطنية



(٤٠) نموذج لمركب مقدسة فوق عجلات - من متاع الملكة تتس شرى

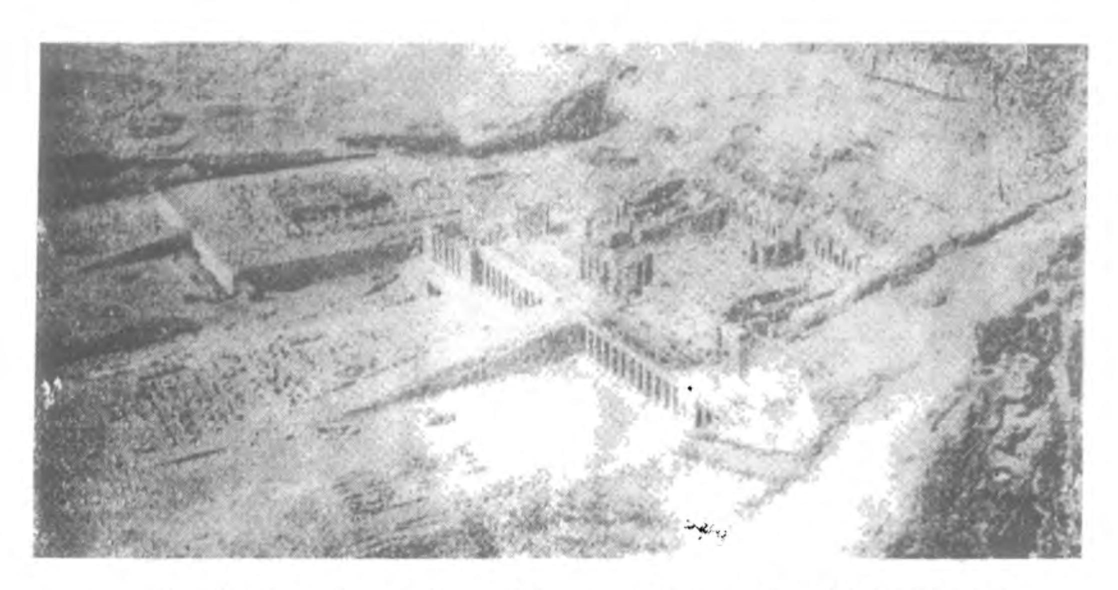
من روائع من فنون وعمائر الدولة الحديثة
(ق ١٦ - ١١ ق . م)



(٤١) حاتشبسوت الملكة الفاتنة القوية



(٤٣) سنموت مهندس معبد الدير البحرى

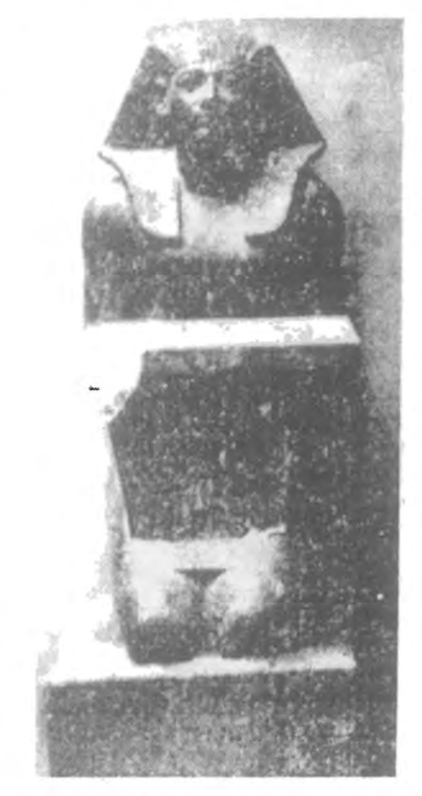


(٤٢) توافق تشكيلى بين معبد حاتشبسوت -وأمون- والسفوح الجبلية فى الدير البحرى



(٤٤) تحوتمس الثالث القائد المثقف





(٤٥ و٤٦) تحوتمس الثالث متعبداً

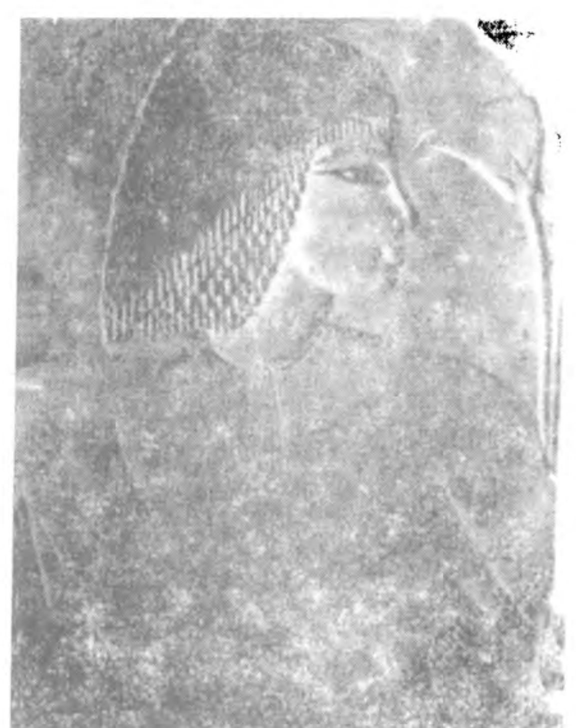


(٤٧) أمنحوتب الثالث الملك المرفه





(٤٨ و٤٩) أمنحوتب بن حابو - الكاتب المهندس الورع فى شبابه وشيخوخته



(٥٠) فتوة وأناقة وشباب من بيت الوزير
رعمس



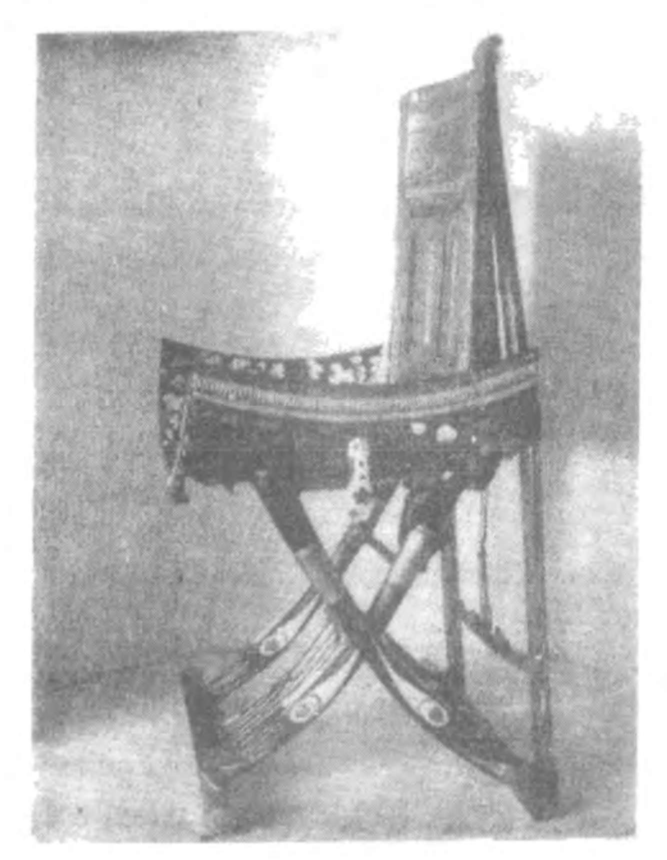
(٥١) أخناتون داعية التوحيد



(٥٢) نفرتيتى فاتنة عصرها



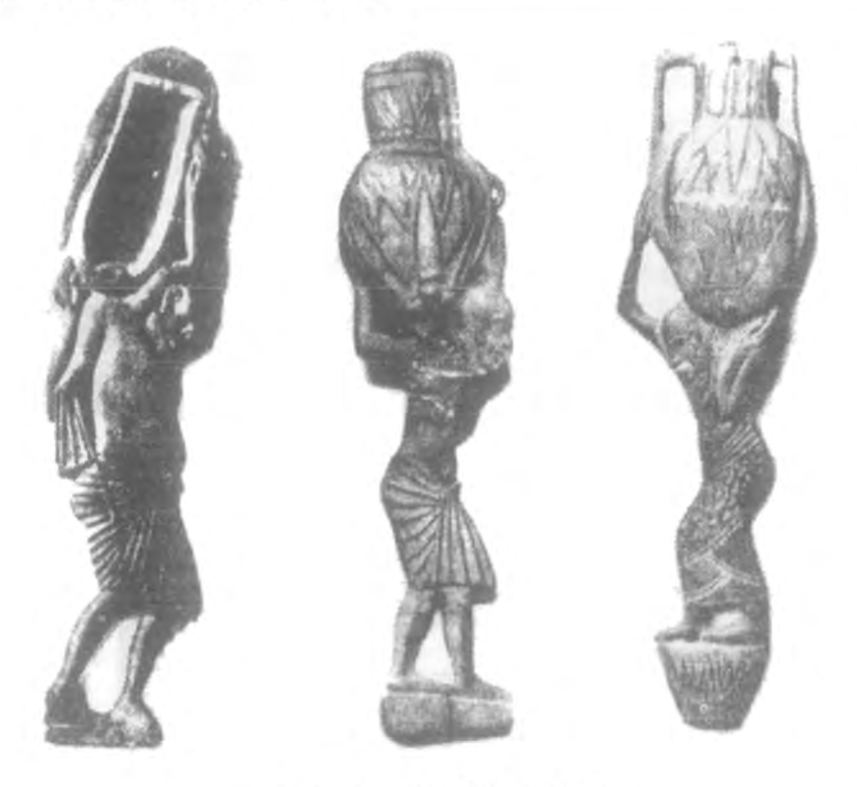
(٥٣) حنان الملكين ومرح طفلتين



(٥٤) مقعد فاخر لتوت عنخ أمون



(٥٥) معبد الأقصر



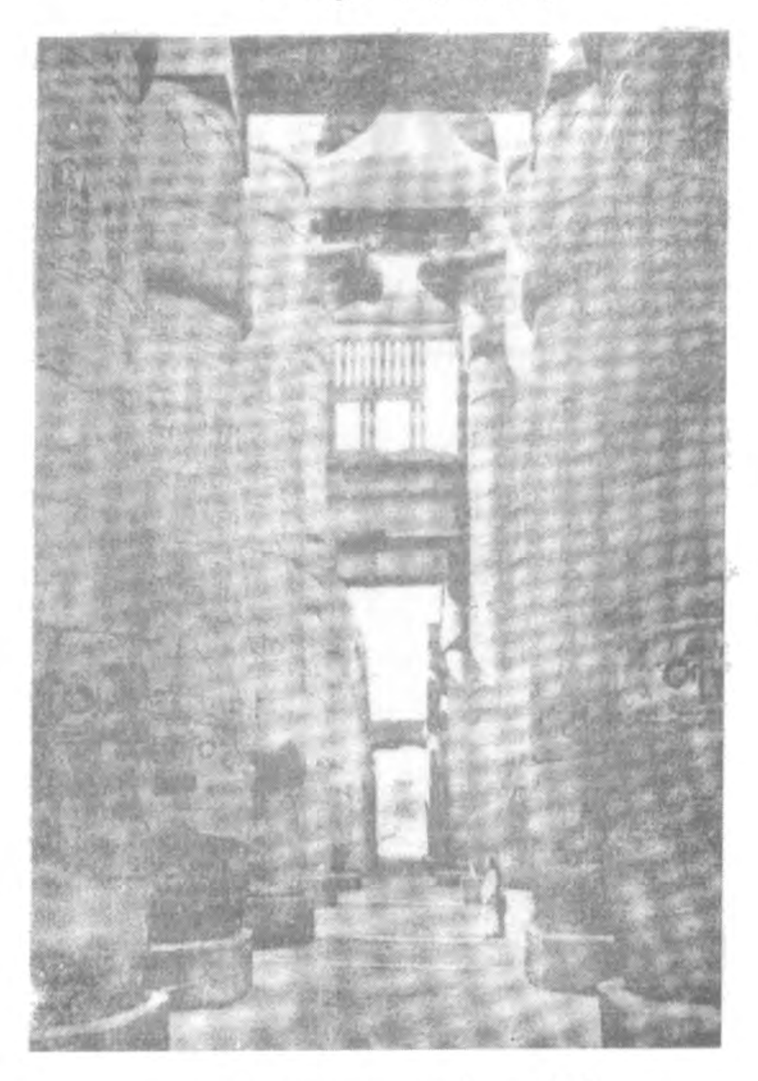
(٥٦) كدح الأتباع فى قطع فنية



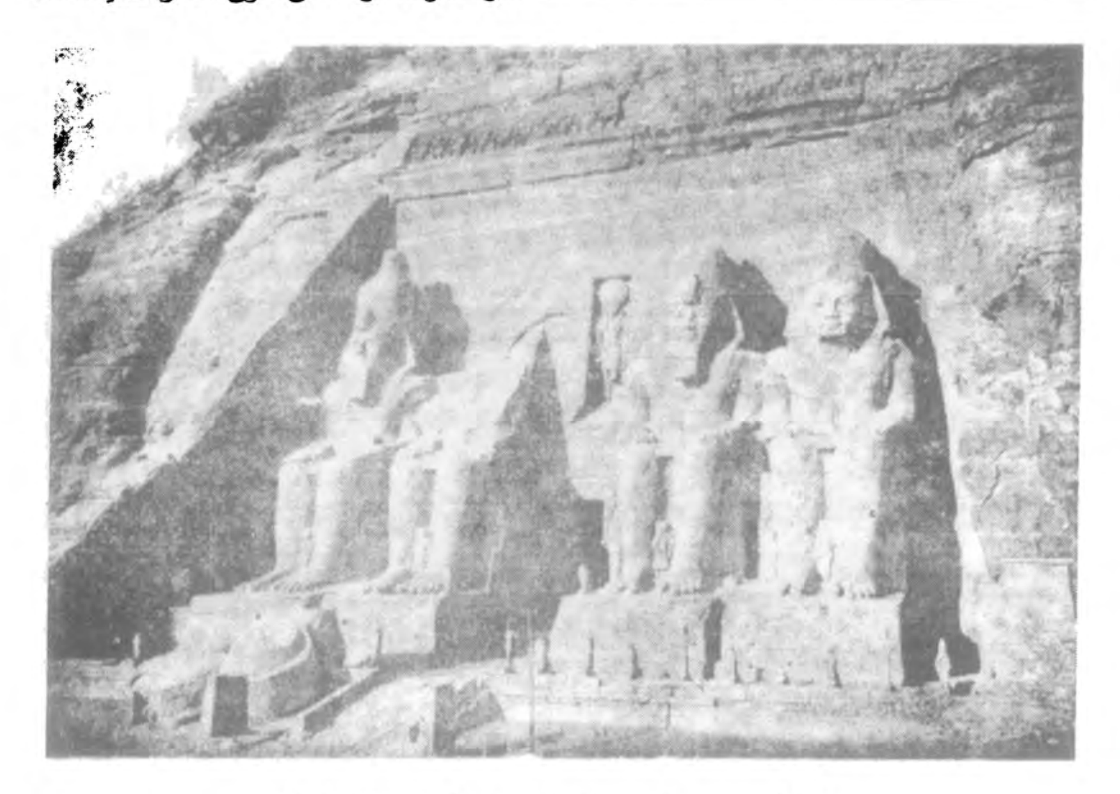
(٥٧) رمسيس الثانى جبار الحرب والتعمير



(٥٨) رمسيس الثانى خاشعاً



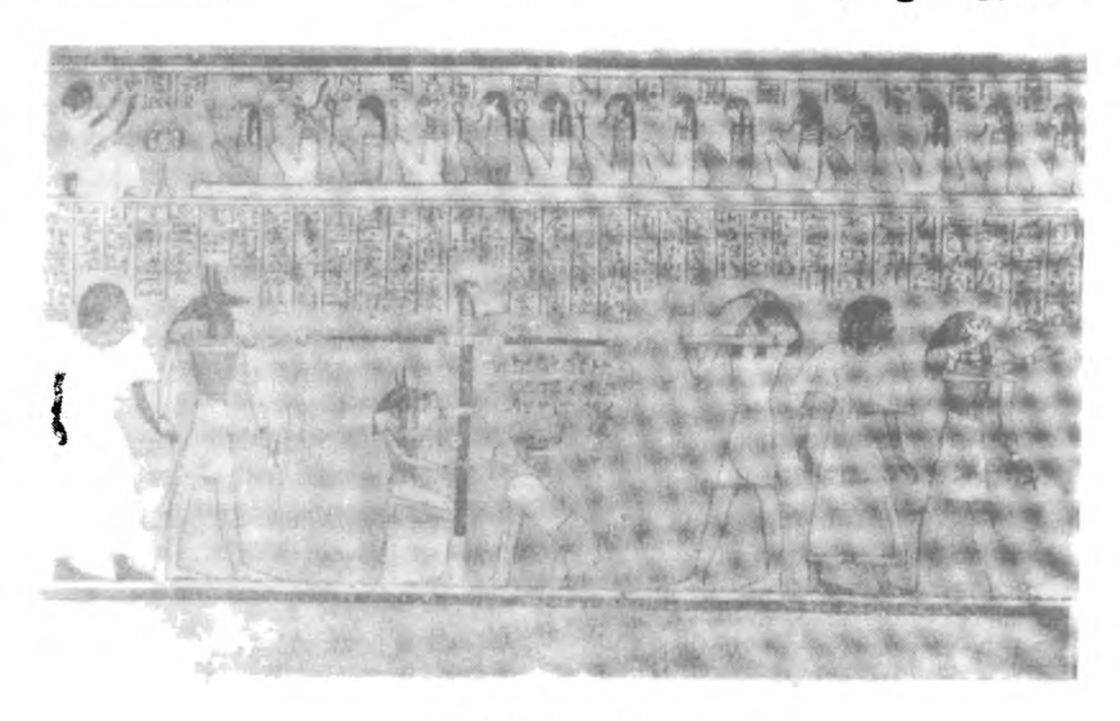
(٥٩) بهو الأساطين العظيم فى الكرنك



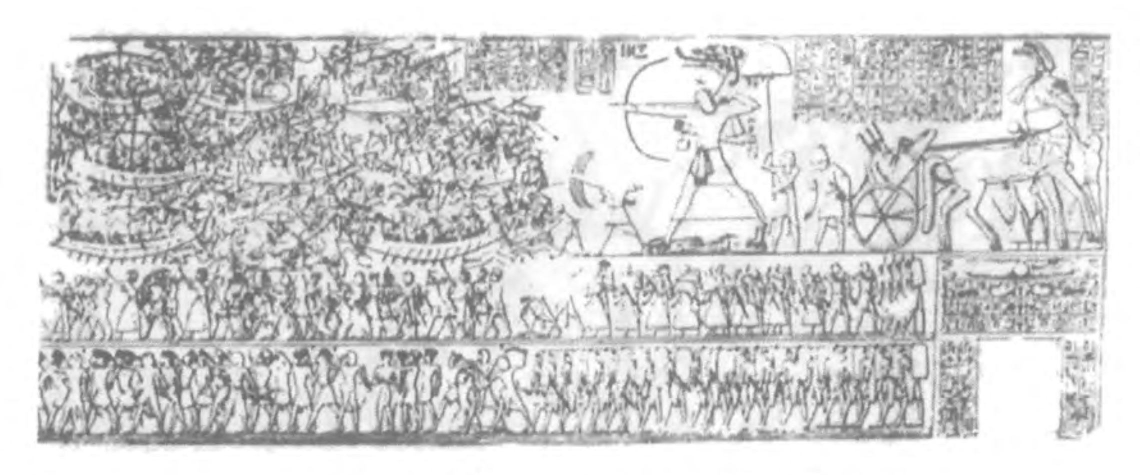
(٦٠) رمسيس يتصدر واجهة معبد أبى سنبل بالنوبة



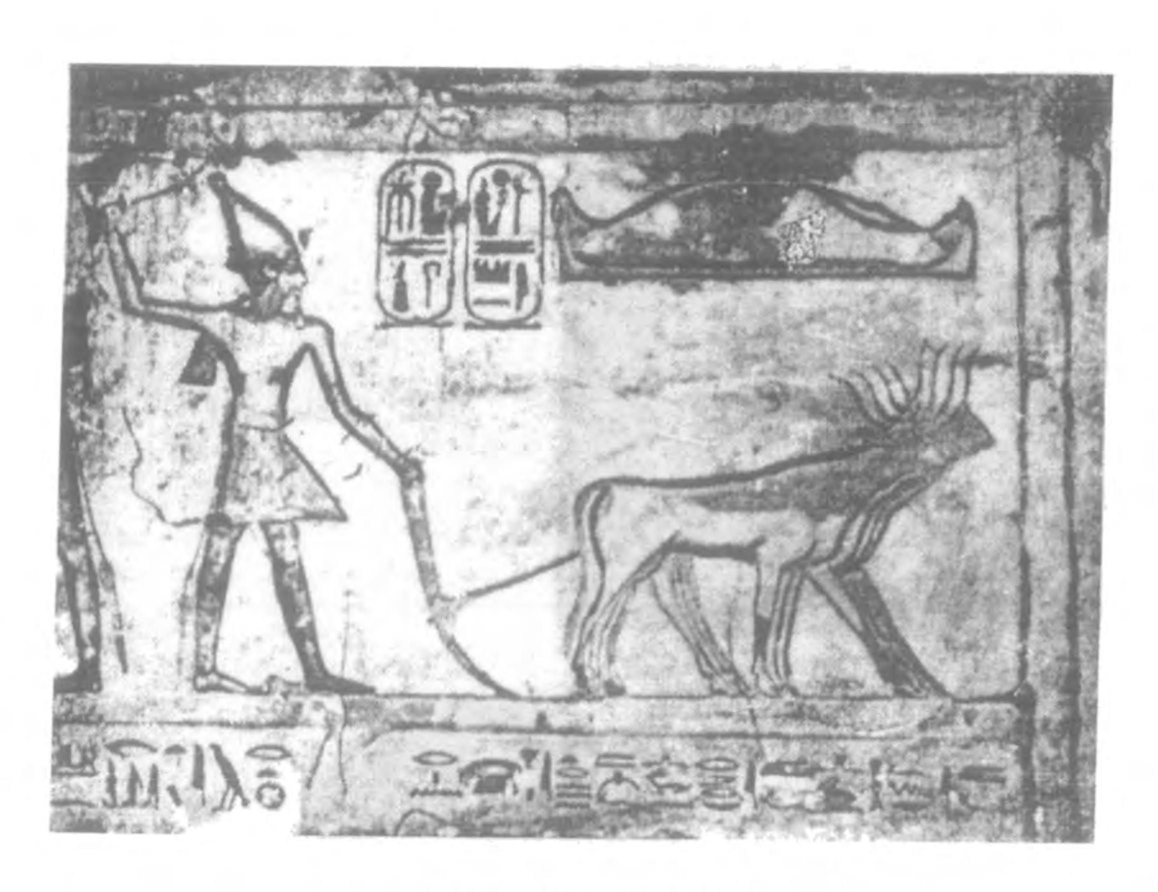
(٦١) ثرى يتفقد العمل فى ضيعته



(٦٢) حساب الآخرة



(٦٣) قتال البر والماء فى عهد رمسيس الثالث ضد شعوب البحر



(٦٤) رمسيس الثالث يحرث جنته

من فنون العصور المتأخرة



(٦٥) منتومحات والى طيبة



(٦٦) روعة الفن لمنتومحات



(٦٧) طاهر قا النوبى المتمصر



(٦٨) حورم أخت النوبى فى أهاب مصرى



(٦٩) أمون رديس فى هيئة مصرية خالصة

الكتاب الثانى

العـــــــراق

(بلاد النهـــرين)

منذ فجر التاريخ حتى نهاية العصر الكلدانى (٥٣٩ق . م .)

تمهيد

تاريخ بلاد النهرين القديم هو أقرب ما يقرن بتاريخ مصر القديم ، من حيث السبق الزمنى والثراء المتنوع والطابع المتميز واتصال التطور فى مجالات الفكر والمادة معاً . وكان فيما بقى ظاهراً من آثار العراق ، وما أتت به قصص التوراة عن الآشوريين والبابليين وعلاقاتهم بمناطق فلسطين والعبرانيين ، ثم ماسجله الرحالة والمؤرخون الإغريق والرومان الكلاسيكيون عنهم وعنها ، ما أثار تطلع عدد من الرحالة والباحثين ، بل والمغامرين الغربيين فى بداية العصر الحديث إلى محاولة كشف النقاب عن آثار بلاد العراق وتاريخها القديم . وأخذ تطلعهم هذا يكتسى بطابع الجدية منذ أواخر القرن الثامن عشر ، حين استرعت بقايا النصوص المسمارية العراقية والفارسية القديمة أنظار اللغويين ، وعمل بعضهم على نسخها والنشر عنها ، مما مهد لمحاولات أولية شتى لقراءتها ومعرفة رموز كتابتها ، منذ أوائل القرن التاسع عشر .

وقد أثمر الاتجاهان معاً بجهود عدد من الرواد الكبار ، ومنهم هنرى رولنسن ، وف. شبيجل ، وجورج ف. جروتفند وآخرون ، ويسرت لهم جهودهم الاستعانة بنصوص معينة تصادف أن سجلت مضامينها قديماً بأكثر من لغة واحدة مثل نصوص بهستون التى سجلت انتصارات الملك دارا الأول بكل من اللغات : الإلامية أو العيلامية العتيقة، والبابلية السامية ، والفارسية القديمة ، مما يسر عقد المقارنات بين ألفاظها والاستعانة بالواحدة منها فى فهم مترادفاتها الأخرى ، ومقارنتها بنصوص إصطخر (برسوبوليس) للملك أخشويرش الأول .

وبلغت أمثال هذه المحاولات بواكير النجاح منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وأدى هذا النجاح بدوره ، مع نشاط الرحالة الأوروبيين فى وصف الآثار القائمة وتصويرها إلى تشجيع المتاحف العلمية والجمعيات العلمية الأجنبية الثرية على تبنى عمليات الكشف عن الآثار فى العراق ، وفتح الأبواب لتقبل مايحصل الأفراد عليه من الآثار فى نظير مكافآت سخية .

وقد تركز الاهتمام فى بداية أمره على شمال العراق على أمل البحث عن آثار مدن نينوى وأشور ونمرود ذات الشهرة التاريخية الواسعة . وبدأ هذا العمل كالعادة نفر

يوصفون بالمغامرين أكثر مما يوصفون بالباحثين ومنهم بول إميل بوتا الذى تنقل بنشاطه السريع من تلال نينوى إلى تلال خور ساباد . ثم هنرى لايارد الذى تنقل بدوره بين نمرود وبين نينوى . وكان لما كشفه كل منهما من قصور الملوك الآشوريين العظام ومقتنياتها القديمة دوى عالمى كبير وتشجيع لغيرهما على سلوك السبيل نفسها . وقد عمل رعيلهم الأول فى أرض بكر وبوسائل بسيطة وبخبرات متواضعة ، وكانوا يهدفون أساساً استخراج أكبر عدد من الآثار الفنية والثمينة فى أقصر وقت مستطاع وبأقل كلفة ممكنة ، حتى يشبعوا رغبتهم فى الشهرة والمال ، ويشبعوا نهم المتاحف الأجنبية وأصحاب المجموعات الخاصة . وكانوا بوسائلهم هذه أكثر جناية على آثار العراق من زملائهم الأجانب المغامرين الأوائل الذين عملوا فى مصر ؛ فقد كفل للآثار المصرية نصيبها من المنعة تشييد معظم مبانيها الرئيسية بأحجار صلبة متنوعة ، وتماسك موادها الأخرى نتيجة لصيانتها فى رمال الصحراء وفى مناخ جاف ، على العكس من آثار العراق التى شيدت غالبية مبانيها من اللبن والآجر، وشيد أقلها بالحجر الجيرى والألباستر ، وقلت مناعة موادها الأخرى نتيجة لرطوبة أرضها ، مما كان يتطلب من الباحثين عنها دراية كافية بوسائل التنقيب العلمى عن الآثار ووقايتها وحفظها ، وهو مالم يتوافر كثيراً لأوائلهم ، الأمر الذى أفضى إلى تصدع وتفتت كثير من الآثار الصغيرة التى اكتشفوها بمجرد تعرضها للعوامل الجوية الخارجية .

وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر بداية اهتمام الدراسات الأثرية بالنصف الجنوبى من بلاد النهرين ، وكان ذلك إيذاناً بالكشف عن حضارات السومريين والأكديين ، فى مثل مدن كيش وأور والوركاء ونفر ولجش ونيبور . ثم اتسعت البحوث الأثرية فى جنوب العراق وشماله معاً فى القرن العشرين واتسم بعضها بالطابع العلمى الدقيق فى الكشف عن الآثار وقراءة النصوص وتحليلها ، وصحبها اهتمام مماثل بآثار فجر التاريخ فى النصف الجنوبى ، فى مثل العبيد وجمدة نصر ، وفى النصف الشمالى فى مثل تل حلف وحسونة ... الأمر الذى جعل كل فترة من فترات الحضارات العراقية الطويلة الممتدة من الدهر الحجرى القديم الأسفل حتى نهاية العصر الكلدانى الأخير ، جديرة بدراسة مستقلة مستفيضة (١) .

(١) G.E. Daniel, *A. Hundred Years of Archaeology*, 1949.

ولم تؤد دراسة النصوص المسمارية القديمة إلى الكشف عن تاريخ أهلها وحده، وإنما أزاحت النقاب كذلك فى صيغها الآشورية والبابلية الكلدانية بخاصة عن فترات من التاريخ المقارن لشعوب وقبائل تعاملت مع الآشوريين والبابليين تعاملاً حضارياً حيناً وتعاملاً حربياً حيناً آخر .

وإذا كان ثمة مايضاف إلى هذا التمهيد ، فهى ملاحظة تعترض كل من يكتب باللغة العربية عن تاريخ العراق القديم وماسواه من تواريخ الشرق القديم ، وتتمثل في التقيد أحياناً بألفاظ ومسميات ذات جرس أجنبى ، واستخدامها بحرفيتها أو بمعناها ، اعتماداً على شيوعها ونظراً لسبق الباحثين الأجانب فى دراسة حضارات هذا الشرق وكثرة مؤلفاتهم عنها .، مثل لفظ ميزوبوتاميا Mesopotamia الإغريقى الصبغة الذى تستخدمه بعض الكتب العربية بحرفيته ، بينما يترجمه بعضها الآخر باسم «بلاد مابين النهرين» ، وهى ترجمة أمينة ، لولا أنه ينبغى أن يقدر إلى جانبها أن مواطن الحضارة العراقية القديمة لم تقتصر على مابين النهرين ، وإنما امتدت إلى ماحولهما أيضاً ، بل إن طائفة من أقدم المواطن الأثرية مثل العبيد واريدو وأور ، قامت غرب الفرات وليس فيما بينه وبين دجلة ، كما قامت إشنونا (تل أسمر) ونوزى شرق دجلة وليس فيما بينه وبين الفرات .

وفطن بعض الكتاب الإغريق أنفسهم إلى قصور لفظ ميزوبوتاميا ، فأضافوا إليه لفظ بارابوتاميا Parapotamia أى خارج النهرين أو ماحولهما . وهكذا يحسن فيما نرى أن نقول «بلاد النهرين» وهى التسمية التى استخدمناها فى هذا الكتاب ، دون تسمية «بلاد مابين النهرين» الشائعة .

واستخدمت كتب عربية أخرى تعبير «بلاد الرافدين» (وحضارة الرافدين) ، وهو تعبير لطيف ، لولا أن روافد النهر تختلف عن النهر ذاته فيما هو معروف .

ومايجرى على هذا اللفظ من تحفظ يجرى مثله على ألفاظ قديمة أخرى ، نكتبها مضطرين بحكم العادة بمنطوقها الذى حرفه بعض كتبة التوراة وبعض المؤرخين الكلاسيكيين ، مثل أسماء الملوك سرجون وسينا خريب وإسر هدون ونبوخذ نصر .. ، عوضاً عن تسمياتهم الأصيلة : شروكين ، وسين أخى ربا ، وأشور أخادين، ونابو كدورى أوصر ، إلخ . والعلة فى هذا هى العلة نفسها فى الملاحظة السابقة ، أى سبق الأجانب عنا فى دراسة تاريخ العراق القديم ، واستخدامهم لهذه الألفاظ فى

مؤلفاتهم الكثيرة ؛ مما أكسبها شهرة وشيوعاً وجعل التخلى عنها أمراً غير يسير ، وإن أمكن التخفف من عدم دقتها فيما نرى باستخدام أصولها القديمة الصحيحة معها ، جنباً إلى جنب ، ولو من حين إلى حين وهو ماسوف نتبعه هنا ، (ويراجع أيضاً فيما يلى عيلام وإلام والخاتيين ، والحيثيين ، وهلم جرا) .

* * * * *

فجر التاريخ العراقى
فى العصر الحجرى الحديث

(أ) فى الحقبة النيوليثية (الحجرية الحديثة)

قدمنا في الجزء الأول ، من هذا الكتاب ، لعدد من مراكز الحضارات الأولية للدهور الحجرية القديمة والوسطية فى بلاد النهرين ، وما استتبع ذلك من المعرفة المبكرة ببدايات الزراعة والاستقرار فى وديانها وحول مجاريها المائية وقد بدأت أهم مواطنها خلال الألف الخامس ق.م فى وديان العراق الشمالية التى انتفعت بمياه الأمطار فى الرى وصرف ملوحة الأرض إلى جانب انتفاعها بفروع النهرين ، أكثر من انتشارها فى السهول الجنوبية التى لم تكن أراضيها قد صلحت بعد للاستغلال والسكنى ، لاسيما القريبة منها من سواحل الخليج العربى ؛ نظراً لانخفاضها وكثرة مناقعها كوكثافة نباتاتها المائية غير المثمرة ، وارتفاع نسبة الملوحة فى تربتها .

وفرقت البحوث الأثرية الحديثة بين ثلاث مناطق حضارية متواضعة لبداية العصر الحجرى الحديث فى النصف الشمالى من العراق ، نشأت قراها حيث تقوم الآن: جرمو شرقى منطقة كركوك فى سهل جمجمال قرب أحد فروع دجلة ، وحسونة فى جنوب الموصل الحالية ، ثم حلف فى أعالى نهر الخابور . وتضمنت آثار كل منطقة منها عدة مستويات لعمران متواضع فى تتابع زمنى، يقوم تقديره على الاحتمالات أكثر مما يقوم على اليقين، وهو أمر يغتفر لقلة بقاياها الأثرية وبعد زمنها.

فقد اعتبر بريدوود (R. J.. Braidwood) قرية جرمو أقدم قرية زراعية ، ونسب إليها تماثيل طينية بدائية متواضعة ، لحيوانات ، ورجال ، ومايشبه نساء جالسات ذوات أرداف غلاظ [١]. ولكن لازال توقيت عهد هذه الحضارة قرين الشك حتى الآن ، بحيث تردد الباحث V.G.C. Childe فى نسبتها إلى عصر الزراعة وشك فى تمثيلها لمرحلة حضارية متميزة ، بل واعتبرها مجرد قرية صغيرة متخلفة

(١) R. J. Braidwood, in *Sumer*, VII (1951); *BASOA*, No. 124 (1951); :The World's first farming villages", *Illustrated London News*, April, 28, 1956, 410f.; etc.

قد ترجع إلى أواخر العصر الحجرى الحديث أو مابعدها [١] .

أما مخلفات حسونة فكانت أسعد حظاً فى تقرير نسبتها إلى عصر بداية الزراعة، وتضمنت أكمتها عدة مستويات لعمران متواضع متتابع ، بحيث وجد فى أقدمها فخار خشن بدائى ، وظهر فى أوسطها فخار ذو زخارف مرسومة ، وظهر فى أحدثها فخار ذو خربشات ورسوم محفورة حفراً بسيطاً [٢] . ووجدت أشباه لهذه الأنواع فى عدة مواقع أخرى معاصرة (مثل تل الصوان وسامرا وتل المطارة) كما جرت محاولات لتعرف تخطيط بقايا نوعيات المساكن والمقابر التى استخدمها أهلها القدامى فى مراحلهم المتطورة (من حيث الحضارة) والمتأخرة نوعاً (من حيث الزمن) .

أما حضارة حلف ومصنوعاتها فقد انتشرت نماذجها رغم تواضعها ، بين جزء من العراق وجزء من أطراف الشام القريبة منه ، بحكم موقعها الحدودى بينهما فى وسط الفرات ، فانتشرت فى الجانب العراقى فى مثل سامرا والأربجية وتبة جاورا، وميزها فخار يدوى ملون ومصقول مزخرف برسوم حيوانية ونباتية وتخطيطية ، يعتبر راقياً إلى حد ما بالنسبة للأنواع السابقة له . وأختام صغيرة صنع بعضها من السربنتين . وتخلفت لها بقايا مساكن صغيرة دائرية المقطع ربما كانت مقببة السقوف استخدم أهلها قطع الدبش الغفل فى تدعيم أساساتها [٣] . وعاشت مظاهر هذه الحضارة حتى عاصرت المراحل الأولى لاستخدام النحاس . ووجد عدد من مقابرها داخل مساكنها ، كما عثر فيها على عدد من تماثيل الخصوبة والأمومة الطينية الصغيرة .

---

(١) *See* also, P. Mortensen, *Sumer*, 1962, 74-76; J. Mellaart, *CAH, I*, 257-58.

(٢) R.J. Braidwood, *Sumer*, 1945, 59 f.; 1947, 26f.; 1950, 93 f.; Braidwood, J.G. Smith and C. Leslie, "Matarra : A southern variant of the Hassuna assemblage", *JNES*, 1952, 2f., ; T. Dabbach, "Hassuna-Pottery", *Sumer*, 1965, 93 f.; F. El-Wailly-B. Abues-Soof, "Tell-Es-Sawwan" *Ibid.*, 17 f.; 24; also, *Sumer*, 1968, 58 f., 1971, 3f.; 1973, 7 f.; Mellaart, *op. cit.*, 271 f.

وراجع ترجمات فؤاد سفر وبشير فرنسيس العربية فى مجلة سومر لعامى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ .

(٣) Von Oppenhiem, *Tell Halaf*, 1943, M.E.L. Mallowan & C.J. Rosse, *Prehistoric Assyria, The Excavations at Tell Arpachiyah*, 1933; Irak, II, 1935 1 f.
S. Lloydand F. Safar, *Sumer*, 1948; A. Jawad, *ibid.*, 1974.

(ب) فى الحقبة الخالكوليثية (النحاسية الحجرية)

شهدت بلاد العراق فى أواخر عهد حضارة حلف ، دبيب النشاط الحضارى فى مناطقها الوسطى والجنوبية ، وتمثلت المراكز المبكرة لهذا النشاط فى كل من إريدو وحجى محمد ، ونسبت إلى كل منهما مستويات ومراحل عديدة من العمران تتراوح بين ١٤ وبين ١٩ مرحلة (١) ، وتدعو كثرتها إلى الشك فيها أكثر مما تدعو إلى تأكيدها ، ولم تكن أيهما بمعزل تماماً عن حضارات الشمال المعاصرة لها . وارتبطت أهم أنشطة هذه الفترة بتطور صناعى جديد ، وربما بتحركات شعوبية أو قبلية جديدة أيضاً . أما التطور الصناعى فهو بداية معرفة استخلاص معدن النحاس واستخدامه على نطاق ضيق ، جنباً إلى جنب مع الأدوات الحجرية فيما يعرف اصطلاحاً باسم العصر النحاسى الحجرى أو عصر بداية المعادن . وفرقت البحوث الأثرية بين ثلاث مراحل شهدها العراق فى هذا العصر ، ونسبت كلاً منها إلى أقدم أو أكبر الأماكن التى عثر فيها على مخلفاتها ، فأطلقت عليها أسماء : حضارة العبيد ، وحضارة الوركاء ، وحضارة جمدة نصر . وقد تعاقبت ثلاثتها فى مواضعها من جنوب العراق إلى وسطه على مسافات متفاوتة ، ولكنها تداخلت مع بعضها البعض فى أزمنتها وخصائص منتجاتها ، إلى حد أن مال الرأى الحديث إلى إدماج ثالثتها وهى جمدة نصر فى حضارة الوركاء ، واعتبارها مرحلة أخيرة منها ، وسوف نأخذ بهذا الرأى فيما يلى :

حضارة العبيد (أو تل العبيد) :

لم يتوافر معدن النحاس الذى تميز هذا العصر ببداية استعماله كثيراً فى بلاد النهرين ، وإزاء هذه الظاهرة لجأ الباحثون إلى أن يفترضوا أن من أدخلوا استخدامه إلى بلاد العراق لأول مرة قد وفدوا به عليها من منطقة خارجية يتوافر فيها ، مثل مناطق عدن أو إيران أو الأناضول .

وافترضوا خروج هجرات لأصحاب حضارة النحاس فى هذا العصر من جنوب غرب إيران أو فيما يحتمل عبره إلى العراق قبل أوائل الألف الرابع ق.م ، إثر حدوث تغير مناخى وأشاع الجفاف الشديد فى مواطنهم الأولى . وعثر من مصنوعاتهم فى بلدة إريدو (أبى شهرين الحالية) على فخار ملون شديد الاحتراق ذى أرضية تميل إلى

(١) Mallowan, *C.A.H., I*, 330 f.; J. Mellaart, *ibid.*, 67 f.

الإخضرار يشبه الفخار المميز لمعاصريهم فى أرض إلام أو عيلام جنوب غربى إيران. وقيل إن أولئك النازحين كانوا على معرفة بطريقة البناء باللبن التى يحتمل أنهم مارسوها أيضاً قبل انتقالهم إلى سهول النهرين . وعندما نجحوا فى الاستقرار فى مواطنهم الجديدة تشجعت هجرات أخرى على النزوج إلى مايلى مواطنهم شمالاً من بلاد النهرين . ولو أنه ليس من الضرورى إذا صح هذا الرأى أن نفترض أن المسرح قد خلا لهجرات الهضاب الشرقية حينذاك ، وإنما لايبعد أنه كانت تقابلها فى الوقت نفسه هجرات سامية شقت طريقها من الغرب إلى بلاد النهرين بالانتشار السلمى حيناً وبالغزو القبلى حيناً آخر .

وأدى تكاثر هؤلاء وهؤلاء ، واستفادة بعضهم من إمكانات بعض ، إلى انتشار أنواع راقية نسبياً من فخار مزخرف برسوم بنية أو سوداء طغى إنتاجها شيئاً فشيئاً على إنتاج فخار حسونة الشمالى وكانت أكثر انتشاراً من الجنوب والوسط إلى الشمال الشرقى عنها إلى الشمال الغربى (ووجدت نماذجها فى تبة جاورا والأربجية ونينوى وسنجار ومندرلى وسامرا قرب نهر دجلة ، وباغوص وغيرها قرب نهر الفرات ، وفى حسونة نفسها) [1] ؛ مما يعنى قيام المبادلات والاتصالات بين أهل الشمال وأهل الجنوب فى العراق . وبلغ من رقة صناعة بعض أوانى هذا الفخار مادفع بعض الآثاريين إلى التعبير عنها باسم «أوانى قشر البيض» . وزود بعضها بآذان ومقابض وصنابير .

وعبر مهرة الصناع حينذاك عن فنون عصرهم على أفضل نوعيات هذه الأوانى الفخارية ، فزينوا سطوحها الخارجية بأشكال تخطيطية متجانسة وبألوان حمراء وسمراء ، واستغلوا بواطنها المتسعة لتصوير مجموعات تخطيطية أيضاً لنساء وطيور وحيوانات وأسماك . وتعتبر بعض نماذجها الراقية مفخرة لعصرها [2] إن صحت نسبتها إليه فعلاً . فمن هذه المجموعات الراقية التى نستشهد بها على حذر : مجموعة صورت ست إناث يتوزعن على محيط دائرة تتطاير شعورهن داخلها ، وتحيط بهن ستة عقارب كبيرة توزعت هى الأخرى على المحيط الدائرى لباطن

(١) Hall, *A Seasan's work at Ur, Al'ubaid and Abu Shaharin*, 1930; Ann Louise Perkins, *The comparative stratigraphy of early Mesopotamia*, 1949; and *See* S.N. Kramer, *From the Toblets of Sumer*, Ch. XXII.

(٢) *Cf. JNES*, III (1944), 47 f.; *Sumer*, 1971, pls. XII-XIII.



الصفحة . وليست أشكال النساء هنا غير خطوط تقريبية لاتزيد الرأس فيها عن بقعة سوداء ، ولايزيد الساقان فيها عن خطين متجاورين ، ولكنها تميزت على الرغم من ذلك بتناسقها والفصل بين الساقين واستدارة خطوط الفخذين فيها . وصفحة أخرى صورت فيها أربعة طيور طويلة الرقاب والأجنحة ، توزعت على أركان باطن الصحفة واتجهت نحو مركزها والتقط كل طائر منها سمكة بمنقاره . واستغل الصانع الرسام الفراغات بين هذه الطيور فوزع حولها مجموعة أخرى من الأسماك فى شكل دائرة ، ثم عبر عن مركز الدائرة فى الصحفة بخطوط متقاطعة تكاد تقرب من هيئة الصليب المعقوف .

ولم يكن الصانع العبيدى أقل توفيقاً فى صحفة ثالثة ، فرسم فيها أربعة مثلثات تلاقت رؤوسها على هيئة المعين ، واستغلها لتصوير أربع عنزات تصويراً تجريدياً لطيفاً بالنسبة لعصره . ووجدت كسر فخارية أخرى صورت عليها مجموعة من الطيور تلتقط طعامها بمناقيرها ، وأخرى تتجمع فوق قطيع حيوانى ، وصورت غيرها فهداً ذا جلد مرقش يرتكز على خلفيته ... إلخ .

وخطا أصحاب حضارة العبيد بعض الخطوط البطيئة فى العمارة ، فوجدت لهم (فى تل العقير) آثار عدة مساكن لبنية يحتمل أنه كانت لها ميازيت فى سطوحها . كما بقى من أطلال معابدهم الدينية آثار أرضية معبد فى إريدو (أبى شهرين) [١] . شيد لمعبود ذى صلة أولية بالمعبود إنكى ، الذى اعتبره خلفاؤهم فى العصور التاريخية رباً للمياه العذبة وتخيلوه مستقراً فى أعماقها .

ونشأ معبد إريدو هذا متواضعاً يناسب إمكانات عصره ، وتكون من مقصورة بسيطة (١٢ × ١٥ قدماً) أقيمت فيها مشكاة لتمثال معبودها أو رمزه ، ومائدة من اللبن للقرابين وضعت أمام هذه المشكاة [٢] . وتجدد المعبد وزاد اتساعه أكثر من مرة خلال عصر العبيد ، ودل تخطيطه فى مراحله الناضجة على تطورات مبتكرة ، فشيد من جديد فوق مسطح يؤدى إليه درج . ويدعو الارتفاع بمثل هذا المعبد فوق المسطح ذى الدرج إلى أكثر من فرض واحد ، فهو قد يعتبر تطوراً معمارياً محضاً فى أسلوب

(١) *Sumer*, III (1947), 84 f.; IV (1948), 115 f.

(٢) H. Frankfort, *The Art and Architecture of The Ancient Orient*, 1958, 2 f.; Mallowan, *op. cit.*, 335 f.



البناء ، أو إجراء عملياً محضاً للارتفاع بقاعدته عن مستوى الأرض الرطبة المحيطة به ، أو يكون تعبيراً دينياً يدل على رغبة أصحابه فى التسامى بمعبدهم ومعبودهم إلى العلى ، أو يعبر عن فكرة شعوبية تدل على أن أصحابه كانوا فى بداية أمرهم من سكان المرتفعات الذين عبدوا آلهتهم ، آلهة الربوات ، فوق قممها العالية ، فلما تركوا هذه الربوات والهضبات واستقروا على سهول النهرين استعاضوا عنها بمسطحات أو دكات من صنع أيديهم . وليس من سبيل إلى ترجيح أحد هذه الفروض دون غيره بالنسبة لهذا العصر ، ولو أننا سنلحظ فيما بعد أن الفرض الأخير منها قد زكته شواهد متأخرة ظهرت فى آثار أواخر بواكير العصر الكتابى وفى آثار العصور السومرية وأساطيرها . وزادت إحدى مراحل تجديد معبد إريدو فى محتويات مقصورته ، فأضيف مذبح جديد على مبعدة من مائدة القربان القديمة ، وأحيطت المقصورة بحجرات جانبية ، كما شكلت واجهة جدران المعبد الخارجية على هيئة مشكاوات (أو دخلات) رأسية مستطيلة بسيطة ، تعاقبت الواحدة منها بعد الأخرى على مسافات متساوية [١] .

وتكرر أسلوب هذا المعبد فى مدن سومرية أخرى مثل مدينة أور (فى مستوى عمرانها الرابع) . كما جرى أهل شمال العراق على السبيل نفسه فى تطوير عمارة معابدهم ، فتميزت المراحل المتطورة لمعابد بلدة تبة جاورا بتعاقب المشكاوات الرئسية فى كل من الواجهات الداخلية والخارجية لجدرانها ، ولم تعد جوانب هذه المشكاوات قائمة الزوايا دائماً ، وإنما أصبحت الرئيسة منها تبنى بعدة مستويات داخلية متدرجة . غير أنه ليس من سبيل للقطع بإرجاع هذه التطورات إلى عصر العبيد فعلاً أم لفترة لاحقة له ، نظراً لاستمرار مظاهر ماقبل لتاريخ فى تبة جاورات إلى مابعد انتهاء عصرها فى الجنوب [٢] .

وفى جنوب العراق ، عثر فى إريدو مما يعاصر حضارة العبيد ، على عديد من المقابر الفردية والجماعية التى تضمن بعضها صناديق من الطين المحروق وتماثيل صغيرة متواضعة من الصلصال لمعبودات وقوارب وأوانٍ للقرابين ، وجمعت بعض الأشكال البشرية وتماثيل الأمومة فيها بين خصائص الجنسين . وتميزت المراكز

(١) *Ibid.*, 380 f.; Frankfort, *op. cit.*, 380 f.

(٢) A. L. Perkins, *op. cit.;* J. Tobler, *Excavations at Tepe Gawra*, Ii (1950), 30 f.

الشمالية من العصر نفسه بأختام حجرية صغيرة ، نقشت بصور حيوانية وخطية، ومختومات من الطين تماثلها (١) .

(جـ) قبيل العصر الكتابى

حضارة الوركاء :

لعبت بلدة أوروك (أو أونوج) التى تقوم على أنقاضها وتحتفظ باسمها بلدة الوركاء الحالية (والتى ذكرتها التوراة باسم إرك) ، دوراً رئيسياً فى حضارة فجر التاريخ العراقى القديم . واعتبرت المقر المقدس لإنانا (أو إن نن) ربة الزهرة ابنة المعبود آنو وزوجته ، وإن زادت شهرتها فيها عن شهرته . وقسم الباحثون فيها مراحل عمرانها وتطوراتها الفنية المتواضعة فى فجر التاريخ إلى ست عشرة مرحلة ، عاصرت فى أغلبها حضارة العبيد (٢) ، ثم دخلت بمرحلتيها الرابعة والثالثة فى عصر جديد سمى اصطلاحاً باسم (Proto-Literate Period) نتيجة لاحتمال إبتداع أولى علامات الكتابة العراقية فيه ، وقد ترجمته بعض الكتب العربية بأسماء ماقبل العصر الكتابى ، والعصر الشبيه بالكتابى ، فضلاً عن بواكير العصر الكتابى ... الخ .

وترتب على الوفرة النسبية لآثار بلدة الوركاء خلال هذا العصر أن أطلق الآثاريون اسم حضارتها على بقية مواطن العمران المحلية التى عاشت معها وشابهتها فى خصائصها ، وإن تميزت إلى جانبها فى آخر مراحلها تسمية حضارية أخرى ، ألا وهى تسمية «حضارة جمدة نصر» التى أشرنا إلى الاتجاه الحديث نحو إدماجها فيها . وتفاوت انتشار خصائص حضارة الوركاء فى الجنوب والشمال بتفاوت مدى التطور فى مراحلها المتتابعة ، دون التزام بعدد الستة عشر الذى قسمت إليه مراحل عمرانها- وكانت مظاهر التطور فى مراحل بواكير العصر الكتابى أكثر وضوحاً فى الجنوب عنها فى الشمال .

ويبدو أن المجتمع الزراعى العراقى القديم قد بدأ يصطبغ بصبغة مدنية منذ أواخر حضارة الوركاء (أو منذ بواكير العصر الكتابى الجديد) ، فنشأت فيه بلدان أو

---

(١) Mallowan, *op. cit.*; Lloyd and Safar, *op. cit.*,

(٢) Frankfort, The Last Predynastic Period in Babylonia; *C.A.H., I, part* II, 70 f.; Raymond Weill, *Recherches sur la Ire Dynastie et les prepharaonique*, Le Caire, 1961, II, 296;

مدن صغيرة تطورت عن القرى الكبيرة ، وامتازت عما يحيط بها من أراضى الزراعة والقرى العادية باتساع عمرانها اتساعاً نسبياً وبأهمية معابدها وقصور حكامها، وكفاية صناعها وفنانيها ، وباتساع مجالات الإنتاج وفرص التشجيع فيها ، وإن ظل ذلك كله فى حدود نسبية بطبيعة الحال .

ولعل أهم مايصور الرقى النسبى فى حضارة الوركاء ، هو نقوش أختامها التى ترجع مراحلها الأولية المتواضعة إلى عهود حلف والعبيد ، ثم تطور عمارة معابدها . فقد استخدم أهل أوروك ، أو الوركاء ، أختاماً مخروطية ذات قواعد شبه دائرة كانوا يختمون بها على الطين عن طريق الضغط عليها ضغطاً رأسياً ، وأختاماً أخرى أسطوانية الشكل كانوا يثبتونها فى أيد خشبية ويختمون بها بتمريرها بقوة على سدادات الأوانى ولوحات الصلصال الطرية الصغيرة ، وقد شاع هذا النوع الأخير واستغله الصناع لنقش مناظر دنيوية ودينية وأسطورية وعناصر أخرى زخرفية على سطوحه .

وبلغت نقوش أختام أوروك غايتها من التنوع خلال المرحلتين الرابعة والثالثة من مراحل عمران بلدتها ، فصورت مناظرها الدينية بعض أعياد المعبودات ، ورمزت إلى تقوى الحكام وكبار الناس . ومما بقى منها مايصور حاكماً يتقدم بسنبلتى شعير إلى ستة رؤوس من ماشية معبد مدينته كأنه يطعمها ، وتلاه تابعه يحمل له مجموعة سنابل أخرى (١) . وصورت غيرها رجلاً كبير المقام فى مرحلتين من مراحل زيارته لمعبد هام ، فأظهرته فى بداية رحلته يستقل قارباً يجذف له فيه أحد أتباعه ويتوجه به إلى مرساة المعبد ، ثم صورته يسير فى رحاب المعبد مبتهلاً ضاماً كفيه تجاه وجهه مع ثنى إبهاميهما إلى الخلف ، يحف به كاهنان يرفعان قلادتين فخمتين أهداهما باسمه إلى ربة المعبد (٢) .

ورمزت المناظر الدنيوية فى نقوش الأختام إلى بعض الأحداث العامة فى عصرها ، فصور أحد مابقى منها ساحة حرب يتصدرها رئيس ذو لحية كثيفة وعمامة كبيرة ونقبة نصفية ، يقف منتصباً مستنداً إلى رمحه فى اعتزاز وقوة ، وقد تجمع أمامه عدد من زعماء أسراه عراة ، ومنهم اثنان تقدما إليه فى خضوع يعلنان التسليم

(١) H. Frankfort, *Cylinder Seals*, pl. V. d.

(٢) H. Farnkfort, *The Art and Architecture*,... pl. VIII c.



وثلاثة رجال قيدت سواعدهم خلف ظهورهم وألقوا أذلة على أرض المعركة (١) . ثم رمزت مناظر أختام أخرى إلى كفاح الأفراد ضد أخطار بيئتهم الخشنة ، مع شيء من المبالغة التى ترتفع بهم إلى مصاف الأبطال ، كتصوير راع يدفع أسداً ضخماً بعيداً عن بقرته دون خشية منه (٢) .

وصورت النقوش نفسها حيوانات بيئتها تصويراً يستهدف تسجيل حياتها العادية فى بعض أمره ، ويستهدف غرض الزخرفة فى بعض أمره . فصورتها أحياناً يتلو بعضها بعضاً ويهاجم بعضها بعضاً من الخلف (٣) . وألفت من صور الأفاعى الضخمة وصور الأسود برقاب تشبه الأفاعى مجموعات زخرفية محورية يواجه كل حيوان فيها حيواناً آخر يماثله ويتداخل فيه ، بحيث تلتف عنق كل منهما على عنق الآخر وتؤلفان بجزئيهما العلويين هيئة حلقة مستديرة ، بينما يواجه رأس كل منهما رأس الآخر أو يدابره (٤) .

ولعبت صور المراكب دورها فى مناظر الأختام ، ودلت على أهميتها فى حياة الناس وانتقالاتهم الفعلية . وكانت مراكب ذات طرفين مرتفعين يميلان إلى الداخل أو إلى الخارج ، وامتازت فى أغلب صورها برموز تخطيطية ترمز إلى أصحابها أو ترمز إلى معبوداتهم ، وتناسب فى الوقت ذاته المناظر المسجلة معها ، وهى مناظر كان منها ماهو دنيوى الطابع يتألف من تصوير صاحب المركب وزوجته (٥) ، كما كان منها ماهو دينى الطابع يتألف من تصوير جانب من حفل دينى فى عيد إحدى المعبودات (٦) ، تصويراً مختصراً بطبيعة الحال .

وكان من البدهى أن يتفاوت مدى إتقان أمثال هذه النقوش بتفاوت كفايات الصناع ، وثراء أصحابها النسبى ، ومدى التطور الفنى والفكرى فى عصرها . غير أن

---

(١) *Ibid.*, Fig. 7a.

(٢) H.H. von der Oslen, *Ancient Oriental Seals*, No. 695.

(٣) A. Scharff, *Die Fruhkulturen Aegyptens und Mesopotamiens*, 1951, Taf. VIII, 45, IX, 46, 51; Frankfort, *op. cit.*, Fig. 7e, pl. VIII a.

(٤) A. Scharff, *op. cit.*, 26, Taf. VII, 40, Abb; 9,10; Frankfort, *op. cit.*, Fig. 7b, pl. VIII b.

(٥) A. Scharff, *ZAeS*, LXXI (1935), 94 *(m)*.

(٦) *Ibid.*, 95 *(n)*.



صور الحيوانات فيها ظلت على وجه الإجمال أكثر إتقاناً من صور الإنسان ، وقد صورها الفنانون من الجانب دائماً ، وبرع بعضهم فى تصوير قوة عضلات أجسام الأسود [1] ، وتصوير تحركات الماعز والأغنام وتفاصيل قرونها وشعورها وأصوافها ، والتعبير عن عجزها إزاء هجمات الوحوش الكاسرة ، وتصوير ضراوة الأفاعى [2] . والتزم بعض أولئك الصناع الفنانين بتصوير كل حيوان مستقلاً عن الآخر لإظهار فرديته . بينما مارس عدد آخر منهم بعض قواعد المنظور الأولية فى تصوير الحيوانات ، فصوروا بعضها يخفى أجزاء بعضها الآخر حين سيره [3] .

واكتفى صناع الأختام بتصوير الملامح العامة للإنسان دون تفصيل ، وأخذوا بما أخذ به أغلب الفنانين الأوائل من تصوير رأس الإنسان وجذعه الأسفل من الجانب مع تصوير عينه تصويراً أمامياً ، وتصوير صدره باتساعه ، وتقديم ساقه البعيدة إلى الأمام ، وإن كان أقلهم قد تعدى هذه التقاليد أحياناً ونجح فى تصوير الكتفين تصويراً جانبياً حين الضرورة [4] .

وصور الرسامون الأوائل كهنة معابدهم عراة تماماً ، قصار الشعور وحليقى الشوارب واللحى ، بينما صوروا المدنيين بثياب نصفية تمتد من السرة إلى الركبة ، أو تزيد قليلاً أحياناً [5] ، وبثياب طويلة أحياناً أخرى .

ومارس مهرة فنانى بواكير العصر شبه الكتابى فى نهاية حضارة الوركاء النقش على الأوانى الحجرية الفاخرة وعلى بعض النصب الصغيرة . وأمتع ماينسب إليهم من الأوانى المنقوشة آنية أسطوانية أو مزهرية حجرية قسمت سطوحها إلى ثلاثة صفوف تتضمن أشكالاً دينية وزخرفية . وظهرت المعبودة إنانا فى صفها الأعلى كرية للخصب تستقبل موكب تقديم النذور والقرابين فى عيد رئيسى لعله عيد الزواج المقدس أو رأس السنة الزراعية ، ينسدل غطاء رأسها على ظهرها وكتفيها وتتدثر بثوب طويل أو شال واسع ، وتجمع بيسراها مجامع ثوبها بينما ترفع يمناها لتبارك بها

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, pl. 8 a.

(٢) *Ibid.*, pl. 8*a*, Fig. 7*e*.

(٣) انظر حاشية ٢ أعلاه .

(٤) Frankfort, *op. cit.*, pl. 8 d.

(٥) *Ibid.*, pl. 8 *a*, Fkg. 7 *a*.

سلة فاكهة قدمها إليها أحد كهنتها العراة . وتلاها تصوير شعار معبدها المعبر عن اسمها والمشيد من الغاب (أو القصب) المحزوم ، ومجموعات الهدايا الفاخرة التى قدمت إليها ، ثم رجل وأنثى بملابس طويلة وشعر مرسل طويل (أو غطاء رأس طويل) يصعدان مسطحى المعبد المسورين . ويرى فالكنشتين وياكوبسن أنه صورت فى يد الرجل علامة كتابية ترمز إلى كونه حاكم أوروك وممثل دوموزى رب الإخصاب .

وشغل الصف الثانى من نقوش الآنية تصوير عدد من الكهنة أو الأتباع العراة حاملى القرابين ، بينما صورت فى صفه الثالث مجموعة كباش ونعاج ونباتات على التتابع . وعبرت صور الكباش فيها عن الأنواع الشائعة فى عصرها ، فمنها كباش أفقية القرون ومنها عالية القرون ، وكلها قصيرة الذيول ذات طيات سميكة تحت أعناقها وفى مقدمات صدورها . ولاتزال نقوش هذه الآنية تعتبر خير نقوش أوانى عصرها (١) ، بل ولم يعثر بعد على مايدانى نقوشها فى آثار عدة قرون تالية لها من الألف الثالث قبل الميلاد .

وظلت نقوش نصب الوركاء متواضعة على الرغم من أن بعض صناعها قد نجحوا فى تنفيذها على الأحجار الصلبة أحياناً ، ومن هذا القبيل جزء من نصب صغير من حجر الجرانيت الأسود (وهو فريد بمادته فى بيئته) نقشت عليه هيئة رجل يصيد الأسود بسهامه وآخر يهاجمها برمحه ، ويبدو أنهما فردان من جماعة ترمز إلى طبقة الحكام أو الأبطال الأوائل الذين أراد الفنان أن يرمز إلى بأسهم فى مواجهة الحيوانات الضارية وكفاحهم الشاق فى سبيل تأمين الحياة فى بيئتهم (٢) . ولم يوفق ناقش النصب فى تصوير النسب الجسمية السليمة لهذين الرجلين ، وإن نجح نجاحاً لابأس به فى التعبير عن حركة أذرعهما خلال إطلاق القوس وتصويب الرمح، وصورهما بأنف أقنى بعض الشيء .

---

(١) H. Heinrich, *Kleinfunde..., Uruk*, Taf. 2, 3, A Scharff, *Die Fruhkulturen*, 1941, 22, 35, Taf. V, 31; H. A. Grosenewegen-H. Frankfort, *Arrest and Movement*, 150-152.

(٢) Holdeke, Heinrich und Schott, *Funfter vorlaufiger Bericht..., Uruk...*, 1934, 11-13; Frankfort, *The Art and Architecture of the Ancient Orient*, 14.



ثم بدأ أواخر فنانى العصر بممارسة تجاربهم لتنفيذ النقش الغائر والنقش المجسم والنقش المفرغ ، وكانوا أكثر توفيقاً فى النوعين الأخيرين ، ومن روائعهما الباقية كأس منقوشة من تل أجرب برز من أحد وجهيها شكل بطل أسطورى ربعة ، عار إلا من حزام حول وسطه ، وله لحية طويلة ممشطة وشعر مرسل ، يضغط بيديه على كفلى شبلين يلتفتان بوجهيهما إليه كأنما يستنكران ضغطه عليهما ، وبدت آثار الجهد على البطل فى تجاعيد جبهته وانطباق شفتيه واتساع محجرى عينيه . وبرزا على الوجه الآخر للكأس أسدان فاغرا الفاهين ، على مستوى أعلى من مستوى الشبلين .

ووجدت قاعدة كأس حجرية أخرى فى تل أجرب أيضاً نقشت عليها هيئة البطل الربعة بخف صوفى (؟) طويل ، يمسك ذنبى أسدين يهاجمان فحلين خرافيين برأسين ملتحيين [١] . وقد أزال فنان الكأسين جزءاً من الأرضية التى تحيط بأشكال الأولى ، ثم أزالها تماماً فى قاعدة الكأس الثانية فبدت أشكالهما مجسمة واضحة .

وتعددت صور النقش على أوان وكؤوس أخرى جمع بعضها بين أسلوب النقش البارز العادى وبين أسلوب الصور المجسمة . كأن ينقش جسم حيوان مثلاً على سطح آنية نقشاً عادياً ، على حين يبرز رأسه منها بروزاً كاملاً . بحيث يواجه الرائى باتساعه كأنه رأس تمثال مجسم [٢] . وظلت أمثال هذه الأواني على صغرها تعتبر فى عصرها من أدوات الترف ومن كنوز المعابد ، بحيث طعم بعضها بالصدف والمحار واليشب الأحمر [٣] .

وخطا فن النحت ذو الأبعاد الثلاثة خطوات بطيئة كذلك خلال بواكير العصر الكتابى ، وتخلفت من نماذجه الصغيرة تماثيل لحيوانات أليفة وضارية وتماثيل بشرية وتماثيل كائنات أسطورية وخرافية . وكان من هذه التماثيل ماينحت قائماً بذاته ، ومنها مايعتبر جزءاً من تركيبات أخرى ، كأن ينحت الصانع أو المثال قاعدة قطعة ثمينة من مقتنيات المعابد والقصور ، أو مقدمتها ، مثل المباخر والمذابح والأحواض وموائد القرابين وقطع الزينة ، على هيئة رأس شاة [٤] ، أو على هيئة كبش بارك

(١) *Op. cit.*, pl. 6*a* - *c*.

(٢) *Ibid.*, pl. 5*a* -*b*.

(٣) *Ibid.*, pl. 11 and notes 33-35.

(٤) *Ibid.*, pl. 4 *b*.

يواجه الرائى برأسه بينما يخرج من ظهره قائم معدنى يربطه ببقية القطعة التى يتصل بها (١) .

وكان من المثالين من يرمز إلى الحارس المقدس الذى يرعى معبده أو يرعى قصر مولاه ، بتمثال كائن أسطورى يجمع بين عناصر مختلفة ، كأن يجمع بين جسم الأنثى وهيئة القردة ووجه للبؤة (٢) . واستهوت تماثيل النساء الفنانين الأوائل ، كما ظلت تستهويهم فى كل عصر ، فرمزوا بها إلى رباتهم وإلى رعاة الأمومة ، وعبروا بها عن بعض شخصيات مجتمعهم ، وعن جمال الأنثى بوجه عام . ولم يبلغ أغلب هذه التماثيل حد الإجادة ولكن بعضها لم يخل فى الوقت ذاته مما يعبر به عن محاولات فنية ترمى إلى تقليد الطبيعة أحياناً فى صدق مثل تمثيل بروز النهدين وانسياب الشعر النسوى الطويل المرسل (٣) .

ومن خير ما افترضت نسبته إلى هذا العصر من منحوتات ، رأس من الألباستر طعمت بمواد مختلفة لأنثى عثر عليه فى الوركاء (٤) يمكن اعتبارها مفخرة لعصرها إن صحت نسبتها إليه فعلاً ، بل وقلما بلغ الفن العراقى مبلغ إجادتها فى تاريخه كله . وقد نحتت بحجم يقرب من حجم الرأس الطبيعية (ويبلغ ارتفاعها ٢٠سم) وكانت ملونة . وتظهر دقة التمثيل فيها فى رقة تكوين ملامح صاحبتها ونعومة خديها ورقة شفتيها وخطوط ذقنها ونقوش حاجبيها وانسياب الخصل الرقيقة من مفرق شعرها على جبهتها ، وكانت فجوات عينيها وحاجبيها مطعمة ، كما كانت خصل شعرها مكسوة بطبقة معدنية رقيقة . وقد استقامت خلفية الرأس وبقيت فيه ثقوب كانت تستخدم لتثبيتها فى جسم تمثال صاحبتها (٤) .

وواصل التطور المعمارى طريقه حينذاك فى أبنية المعابد والمساكن الرئيسية فى عصره . واحتفظت مدينة الوركاء ، بأطلال معبد عرف باسم المعبد الأبيض

(١) *Ibid.*, pl. 4*a*.

(٢) *J.A.O.S.*, LXX (1950), 223 f.

(٣) Frankfort, *op. cit.*, pl. 9 b.

(٤) *U.V.B.* XI, pl. I (Vorlaufiger Bericht uber die von der deutschen Forschungsgemeinschaft in Uruk-Warka unternommenen Augsrabungen..., 1940).

لكسائه بالجص واستخدام الكلس أو الحجر الجيرى فى بعض أجزائه [1] . وقد أقيم أولاً من اللبن للمعبود آنو فى نهاية بواكير العصر الكتابى ، فوق ربوة أو دكة اصطناعية ترتفع نحو اثنى عشر متراً عن مستوى السهل الممتد حولها وتشرف عليه . وسورت جوانب هذه الربوة بسور ذى مشكاوات ، واعتبرت فيما يحتمل بديلاً عن أمثال مسطح معبد إريدو ، أو اعتبرت على الأرجح نموذجاً لأصله الجبلى القديم . ويؤدى إلى سطحها طريق صاعد ودرج طويل بقى جزء منه . وتوسط المعبد الأبيض سطح الربوة واستكملت جدرانه هيئة المستطيل وتشكلت على هيئة مشكاوات متتالية ، تعاقبت فى كل منها عدة مستويات داخلية ، وكانت قد بنيت باللبن كالعادة ودعمتها فلوق نخيل قصيرة ، ثم كسيت بجص أبيض . وتوسطت المعبد مقصورته الرئيسية وتضمنت فى داخلها عنصريها الرئيسيين ، وهما المذبح ومائدة القربان ، ولكن مذبحها كان ذا درج ويبلغ ارتفاعه أكثر من متر ، وجاور مائدة القربان فيها موقد منخفض نصف دائرى . وأحاطت بالمقصورة بضع حجرات فصلت بينها جدران ذات مشكاوات نصفية ، وزينت بمخاريط ملونة – وألحقت به معابد صغيرة أخرى . وفى بعض مداخله الإضافية شكلت فى المعبد أعمدة كاملة وأخرى نصفية المقطع . واستمر تل هذا المعبد باقياً حتى احتوته وضمته أسوار معبد آن أو آنو الكبير فى العصور الهيلينستية ، أى بعد بداية البناء فوقه بنحو ثلاثين قرناً ، وقد يعنى ذلك أنه كان يرتبط بقداسة خاصة عند أهله ، أدت بهم إلى شدة المحافظة عليه .

وظل أسلوب المسطحات متبعاً فى بناء المعابد جنباً إلى جنب مع طراز التل أو الربوة ، فعثر فى تل العقير على أطلال معبد (مزوق) عاصر معبد الوركاء ، وأقيم فوق مسطحان [2] وليس مسطحاً واحداً ، وكان يؤدى إليه درجان . وخطوا بذلك خطوة جديدة ، استكملها خلفاؤهم على المدى الطويل حين زادوا أعداد المسطحات أو الطبقات وجعلوها تتراوح بين الثلاثة وبين السبعة ، كما سيمر بنا فى صفحات تالية . وصورت المناظر على جانبى مقصورة معبد العقير حيوانات قائمة وجاثمة ، تميزت منها صور فهود لعلها مثلت الحماية الرمزية للمعبد .

---

(١) *U.V.B.*, VIII, (1963), Abb. 13, Taf. 40 f.; *Mitt. der Deutschen Orient-Gesellschaft*, Nr. 83 (1951).

(٢) Seton Lloyd and Foual Safar, "Tell Uqair", *JNES*, 1934, 132 f.

وكشفت التنقيبات الأثرية عن أطلال معابد أخرى ، كان منها معبد فرعى يجاور معبد الوركاء ، للربة إنانا [١] ، ومعبد لإله القمر شيد وسط مساكن بلدة خفاجى تناولته تعديلات كثيرة ، تميزت منها مرحلة خامسة ، أصبح يتقدم المعبد فيها ثلاثة أفنية متعاقبة يضمها معه سور كبير [٢] .

وظلت قوالب اللبن هى مادة البناء الرئيسية طوال ذلك العصر ، واستغلت فى تشكيل نوعين من الأساطين ، أساطين نصف دائرية المقطع تعتمد على جدران ساندة، وأساطين أخرى دائرية المقطع يبلغ قطر الكبيرة منها نحو المترين .

واستعان المعماريون على إدخال عنصر الزخرفة فى مبانيهم بما أشرنا إليه من تعاقب المشكاوات أو الدخلات فى واجهاتها المتسعة بما يخفف من حدة استقامتها ويعمل على تعاقب الأضواء والظلال فيها ، ثم عن طريق كسائها بطبقة من الملاط أو الجص وتلوينها بلون واحد ، كما حدث بالنسبة لكساء جدران معبد الوركاء بجص أبيض، أو تصوير صفوف من الحيوانات (والنباتات) عليها ، كما حدث بالنسبة لجدران معبد العقير [٣] .

ولما لم يكن من اليسير نقش جدران المبانى اللبنية نقشاً غائراً أو بارزاً ، عالج معماريو العصر هذا النقص بعدة وسائل : فكان منهم من ينقشون أفاريز حجرية صغيرة بما تراءى لهم نقشه من رموز الأرباب وصور الحيوانات ثم يثبتونها فى الجدران الرئيسية بسيور تناسبها ، عن طريق فجوات فى خلفياتها [٤] . كما كان منهم من يزخرفون المساحات الصغيرة من الجدران بلوحات فخارية صغيرة تشكل على هيئات الحيوانات والزهور ، ثم يختم عليها بأطراف أعواد البوص بحيث تبدو أرضيتها كما لو كانت مشكلة من دوائر صغيرة [٥] .

---

(١) *U.V.B.*, VII (1935), Taf. II.

(٢) Delougaz and Lloyd, *The temple oval at Khafaje*, 1940, pl. V a; *Pre-Sargonic Temples in Diyalah Region*, 1942.

(٣) *Ibidem.*

(٤) Frankfort, *The Birth of Civilization in the Near East*, 1951, pl. X, Figs. 17-18.

(٥) *U.V.B. II*, Abb. 25-27; III, Taf. 18; XI, Taf. 34.

وكانت بعض الأساطين والجدران تزخرف كذلك بمخاريط فخارية صغيرة (يبلغ متوسط طول الواحد منها نحو عشرة سنتيمترات) يلونون رؤوسها المستديرة بألوان سوداء وحمراء ، وقد توجد معها مخاريط حجرية أو مرمرية صغيرة أحياناً ثم تعشق متجاورة فى الجدران والأساطين ، بحيث تؤلف رؤوسها الملونة الظاهرة أشكالاً زخرفية تشبه هيئات المثلثات وخطوط الزجزاج [1] . ويرى البعض أنها حلت محل الحصير الملون الفاخر، الذى كان يسدل من قبل على الجدران الطينية ستاراً وزينة[1] .

وبلغ من افتتان بعض الباحثين بآثار فجر التاريخ العراقى التى أجملنا مظاهرها الأساسية فى الصفحات السابقة ، أن افترضوا لأصحابها توسعاً سياسياً يزيد عن رقيهم الحضارى . فنسب إليهم صمويل نوح كرامر ما أسماه أول إمبراطورية سامية إيرانية فى بلاد (مابين) النهرين ، ثم افترض أن نفوذ هذه الإمبراطورية قد امتد من العراق إلى غرب إيران حيث شمل أرض إلام أو عيلام ، وافترض وجود دولة حاجزة فى أقاليم غرب إيران تفصل بين إمبراطورية (مابين) النهرين هذه وبين البرابرة [2] . غير أن مثل هذا الغلو فى التقدير ليس له مايبرره فى عصر فجر التاريخ العراقى البعيد ، لاسيما إذا قدرنا أن أكثر من خمسة قرون من العصور التاريخية نفسها قد مرت بعد ذلك ، دون أن يجتمع سكان بلاد النهرين فى دولة واحدة ، ناهيك بامبراطورية واحدة! (مع ملاحظة تسمية «بلاد مابين النهرين» ، وليس بلاد النهرين، فى الترجمة العربية لهذا الكتاب) .

وعلى أية حال فإن بدايات ابتداع علامات الكتابة فى أواخر عصر الوركاء ، وهى ماسوف نتناولها فى سياق بحث خاص فى صفحات تالية ، تكفى لتمييزها عما سبقها ، وتجعلها مبشرة بتحضر واسع يأتى بعدها .

* * *

(١) *U.V.B.*, III, Taf. 1; VII, Taf. 17 a. - وانظر تقارير الحفائر فى مجلة سومر ١٩٦١ عن مخاريط حجرية ملونة .

(٢) See, S.N. Kramer, *From the Tablets of Sumer*, 1956, Ch. XXII.

عصر بداية الأسرات السومرى

بدأت خصائص العصور التاريخية فى العراق فى فترة ماتراوحت تقديرات المؤرخين بشأنها بما بين أوائل القرن الثلاثين ق.م ، والقرن الثامن والعشرين ق.م. وتعددت مراكز التجمع والتحضر حينذاك فى النصف الجنوبى من سهول النهرين ، وهى سهول عبرت بعض النصوص السومرية عنها باسم «كلام» أو «كالاما» ، ورمزت إليها نصوص أخرى بمجموعة العلامات الكتابية «كى - إن - جى» ، ثم ذكرتها نصوص القرن الخامس والعشرين ق.م باسم «سومر» أو «شومر» ، وهو إسم ليس من المستبعد أنه كان يجرى على ألسنة أصحابه قبل ذلك بزمن طويل ، ثم شاع فيما بعد أكثر مما سواه والتصق بأهله الذين عرفهم التاريخ باسم السومريين ، واستخدمه الساميون خلفاؤهم فى قولهم «مات شوميريم» بمعنى أرض شومير [(١)] .

وصورت المناظر والتماثيل السومرية خاصة أهلها أميل إلى الامتلاء ، مع قصر القامة أو توسطها ، وصورت بعضهم بأنف كبير أقنى [(٢)] ، وأظهرتهم حليقى الشوارب ، ولم تظهرهم فى عصورهم الأولى بلحى إلا فى حالات قليلة تبدو اللحى الكبيرة فيها أشبه باللحى المستعارة ، بينما أظهرتهم تماثيلهم فى أواخر عصر بداية الأسرات بلحى كثة [(٣)] . أما شعر الرأس عندهم فمختلف ، فمنه الحليق ، والقصير ، والطويل المعقوص ، والمرسل على هيئة الضفائر ، وإن بدا فى بعض صوره طويلاً كثيفاً أحياناً مرسلاً على الكتفين وأقرب إلى هيئة الشعور المستعارة [(٤)] . وصورت

(١) *For* : "Sumer" "Shumer" and "Shuwer" See : *Encyclopaedia Britanica*, XXVI, 75.

(٢) J.B. Pritchard, *The Ancient Near East*, Figs, 115, 154; H. Frankfort, *The Art and Architecture...*, Fig. 9, pls. 11 a, 17, 22, 23, 25, 33 *a-b*.

(٣) *Encyclopedie photographique de l'art*, I, 204; *Syria*, XVI, pls. IX, XX, XXIV; *Frankfort, Sculpture*... pls. 52-53; *More Sculpture*..., pls. 35-36.

(٤) *Cf.*, Frankfort, *The Art and Architecture*..., pl. 34, Fig. 12 (left), pls. 19, 33*a*, and pls. 22 *c*, 24 *a-b*,25.

المناظر نفسها أصحابها برؤوس عارية إلا من خوذ الحرب وتيجان الحكم . وكانت ثيابهم متنوعة ، وأكثرها نصفية فضفاضة تبدأ بثنية عريضة مطوية عند الخصر تؤدى غرض الحزام ، وتمتد إلى ماتحت الركبة (١) ، أو تنسدل إلى قرب العرقوبين(٢) ، وينتهى بعضها بشرائط طويلة مدببة الأطراف مرسلة فى صف واحد ، أو تكسوها عوضاً عن الشرائط أهداب (من خيوط معقودة) تتعاقب فى صفوف يتلو بعضها بعضاً، على هيئة جزة الغنم أو على هيئة فلوس السمك (٣). وغالباً مايظهر الحكام وذوو الحيثية السومريون بعباءات واسعة يبدو أنها كانت تتخذ من أصواف الأغنام الطويلة الممشطة تمشيطاً جيداً ، ويلتفعون بها بحيث تغطى الكتف اليسرى وجزءاً من ذراعها وتمر من تحت إبط الكتف اليمنى (٤). وظهر بعض أولئك الحكام والخاصة بمعاطف فريدة مزركشة يتصل طرفاها أسفل الرقبة (٥) ، على الرغم من غلبة الحرارة والرطوبة فى الأجزاء الجنوبية من العراق . أما النساء السومريات فقد ظهرن فى صور قليلة بشعور طويلة مرسلة وبثياب طويلة كاسية .

وتخيل السومريون بعض أربابهم فيما صوروهم به على هيئات بشرية مثالية وبلحى كثة ممشطة وشعور طويلة معقوصة من الخلف ، وبملابس تقرب من ملابس الحكام ، وتوجوا بعضهم بقرون قد تدل على عصور بدائية عتيقة كان الحكام يزينون تيجانهم فيها بالقرون .

* * *

لازال التاريخ على غير بينة أكيدة من جنس السومريين وموطنهم الأصيل الذى وفدوا منه على العراق إذا كانوا قد أتوا إليه حقاً من خارجه . وذفعت إلى الحيرة فى تحديد أصلهم الجنسى واللغوى عدة أسباب ، منها : اختلاف لغتهم المكتوبة عن اللغات السامية المألوفة مع صعوبة تقريبها فى الوقت نفسه إلى مجموعة اللغات الآرية المعروفة . وقد ذهب فرض حديث إلى تقريبها إلى مجموعة اللغات قليلة الشيوع التى تأخذ بطريقة الإلصاق (Aggulitination) مثل المجموعة الأسيانية أو مجموعة الأورال

(١) See for example, Frankfort, *op. cit.*, Figs, 9, 16 *b*, pls. 11 *a*. 13, 17, 19, 33 *a*, 36, 37.

(٢) *Ibid*. Fig. 12 (right), pl. 33 *b*.

(٣) *Op. cit.*, pls. 19, 21, 23, 33 *b*.

(٤) *Ibid.*, pls. 33, 34.

(٥) *Ibid.*, p. 36; cf. G. Contenau, *La Civilisation d'Assaur et de Babylone*, 1951, 19.

طاى [1] (ومن مظاهر الإلصاق اللغوى إدراج لفظين أو أكثر لتكوين كلمة جديدة ، وإدماج الضمير فى الفعل المتصل به) ، ولكن بغير أدلة مقنعة . ولوحظ من جهة أخرى أن من أسماء المعالم الرئيسية فى أرض العراق والتى تضمنتها النصوص السومرية نفسها مايختلف فى لفظه عن مفردات لغة أصحابها السومريين ، ويختلف عن مسميات اللغة السامية فى الوقت ذاته ، مثل أسماء : دجلة (إديقلات) ، والفرات (بورانون ، بورنونا) [2] ، وإريدو ، وشوروباك ... إلخ ؛ مما قد يوحى باختلافهم فى الجنس أو اللغة عمن لحقوا بهم أيضاً . ثم أزاد الشك فى وحدة جنسهم أن تبين بعض الباحثين أن جماجمهم الباقية قد جمعت بين خصائص الرؤوس السامية الطويلة وخصائص أصحاب الرؤوس العريضة من غير الساميين [3]. وهذه ظاهرة يمكن أن تقرن بما أسلفناه عن تصوير بعضهم بأنف أقنى ، وتصوير بعض كبارهم بأردية ثقيلة لاتناسب حرارة جنوب العراق ، فضلاً على ماسوف نذكره بعد قليل عن مدلول إقامة بعض معابدهم الكبرى فوق ربوات أو مسطحات اصطناعية ، وما ألمحت إليه أساطيرهم القديمة من الربط بين أصول بعض معبوداتهم ، ومناطق جبلية أو هضبية مرتفعة .

فقد جرى السومريون على عادة أهل بواكير العصر الكتابى الذين سبقوهم فى مجالات الحضارة بالعراق ، من حيث تشييد بعض هياكل أربابهم فوق مسطحات اصطناعية مرتفعة . وصوروا الأرضيات التى يعتليها أولئك الأرباب فى مناظرهم الدينية على هيئة مدرجات الجبال وكومات الأحجار ؛ مما قد يعنى أنهم شابهوا أصحاب حضارة الوركاء ، أو حضارة بواكير العصر الكتابى ، فى فكرة تعويض معابد آلهتهم عن قممها العالية فى بيئات جبلية قديمة ، بإقامة المسطحات الاصطناعية العالية فى سهول العراق لسبب أو أكثر من الأسباب التى افترضناها وذكرناها من قبل فى الصفحات السابقة من الجزء الأول . وقد يتصل بهذه الظاهرة ماجرى عليه السومريون من تسمية معبد إلههم إنليل فى مدينة نيبور السومرية باسم «إكور» ، وهو اسم يحتمل أن يعنى معنى (البيت الجبلى) وماوصفوا به ربتهم إنانا فى إحدى

---

(١) *Ibid.*, 19, 23.

صمويل كرامر : من ألواح سومر – ترجمة طه باقر – ١٩٥٧ – راجع المقدمة بقلم المترجم .

(٢) حور هذا الاسم فى النصوص السامية إلى بوراتوم ، وبوراتى ، ثم إلى فرات .

(٣) *Cf.* Sumer, 1949, 1950; Frankfort, *The Birth of Civilization*, 1948.



الأساطير بأنها ملكة السماء الجليلة التى تسكن «جبال» الأرض العالية شوبا ، ثم روايتهم عن معبودهم أوتو رب الشمس ، فى الأسطورة نفسها ، برغبته فى أن يشيد أتباعه معبده متسامياً «كالجبل» المقدس ويكون مزاره فيه كالغار ، وأن يجلبوا له أحجاره من جبال أرتا لبنائه [١] .

وقد يتصل بهذا الأصل الجبلى المفترض ، وصلة أسلاف السومريين المقترحة به ما أتت به أسطورتان لملك يدعى إنمركار اعتبرته القوائم السومرية المتأخرة ثانى ملوك الأسرة الأولى فى مدينة أوروك بعد الطوفان [٢] . وروت إحداهما أن الربة إنانا قد اصطفته من بلاد شوبا الجبلية ، كما وصفته بأنه المحتبى بالإمارة فى البلاد «الجبلية المحصنة» ، وأنه الراعى الذى ولدته البقرة الأمينة فى «جوف الجبال» . وكل ذلك مما يحتمل معه الربط بين أصول الرجل وأسطورته ، ومنطقة ما من مناطق المرتفعات . وروت الأسطورة الثانية أن إنمركار هذا كان على علاقة بمدينة أرتا وملكها ، وهى مدينة تقع فى منطقة جبلية افترض كرامر أنها منطقة أنشان فى بلاد عيلام (فى إيران) ، وسمحت له هذه العلاقة بأن يطلب من ملكها أحجاراً ومعادن ثمينة لبناء معابد أربابه وزخرفتها ، فى مقابل تصدير الغلال إليه ، ولو أنه يبدو من الأسطورتين أن روح التنافس الخفى بين الملكين جعلت كلاً منهما يتعالى على الآخر فى طلبه ويضمر له الغدر فى نفسه .

وبناء على كل هذه المشكلات والشبهات ، اتجهت الآراء فى تخمين الأصل الجنسى واللغوى للسومريين إلى عدة مذاهب ، كان منها ما افترض أن أجداد السومريين هاجروا إلى العراق من المرتفعات الشمالية والشمالية الشرقية التى تحف به، عن طريق أرمينيا وإيران . وهو فرض قد يجد مايزكيه فى توافر البيئة الجبلية والخصائص الجنسية المومى إليها فى هاتين المنطقتين ، لولا أنه يمكن أن نستبعد أرمينيا منها ، على اعتبار أنه كان من المستبعد أن يهبط المهاجرون منها ويتجاوزوا المناطق الصالحة للاستيطان القريبة منها فى شمال بلاد النهرين ، ليذهبوا بعيداً عنها ثم يستقروا فى الأجزاء الجنوبية حيث تشتد ملوحة الأرض وترتفع المياه الجوفية والرواسب المعدنية للفيضانات وحيث كانت أطرافها لاتزال وحشية الطابع تتطلب مجهودات كبيرة لتهذيبها وتيسير الانتفاع بها . ومن المعروف أن الأطراف القصوى

(١) صمويل كرامر : من ألواح سومر - لوحات ١٤-١٦.

(٢) المرجع السابق - لوحات ١٤-١٦ ، ٧١ ، ٧٨ Kramer, JAOS, 63 (1952), 191 f.

لهذه الأجزاء ، التى سميت فيما بعد باسم شط العرب ، وإن توافرت لها أهمية خاصة بحكم إشرافها على الخليج العربى ومصاب النهرين ، وبحكم اعتبارها من مناطق الاتصال القريبة بين العراق وإيران ، إلا أنه تعقبها شمالاً فى أرض العراق منطقة منخفضة كثيرة التعرض لأخطار الفيضان كثيرة المناقع قليلة الصلاحية للزراعة والعمران الدائم ، ويلى هذه المنطقة شمالاً منطقة النشاط الحضرى القديم فى بلاد النهرين .

وإلى جانب هذا الفرض فثمة رأى آخر ، ذهب فيه صمويل كرامر إلى اعتبار أجداد السومريين بدوا مما وراء القوقاز ، أو مما وراء بحر قزوين ، اندفعوا على مناطق غرب إيران فيما يعاصر عصر العبيد أو أوائل عصر الوركاء ، ونجحوا فى اقتباس حضارة بلاد النهرين التى امتدت منها (على حد رأيه) عبر حدود إيران ، ثم استعانوا بما تعلموه منها ، وبخفة الحركة البدوية فى الاندفاع إلى جنوب العراق منذ الربع الأخير من الألف الرابع ق.م وسيطروا عليه تدريجياً خلال فترة من فترات حضارة الوركاء . وكان لما أشاعوه به من الاضطراب حينذاك أثر فى بداية فترة ركود حضارى فيه ، وإن يكن قد نشأ خلال هذه الفترة نفسها (حوالى القرن الثلاثين ق.م) عصر البطولة السومرى الذى قام على الشجاعة الفردية للقادة السومريين ومحاولاتهم لتملك زمام السلطة فى المناطق التى سكنوها ، لاسيما وأنه لم يكن عليهم أن يبسطوا سلطانهم عليها وحدها ، وإنما كان عليهم أن يواجهوا فى الوقت نفسه هجرات سامية لم تكن تنقطع اندفاعاتها من ناحية الغرب على حدود العراق . وعندما تمت الغلبة للسومريين، وتم اندماجهم فى السكان الأصليين الذين كانوا أرقى حضارة منهم ، بدأ العصر الشبيه بالكتابى فى العراق حوالى القرن التاسع والعشرين ق.م ، على حد قوله(١)؛ ليمهد بعد ذلك لنشأة العصور التاريخية الصريحة .

وافترض رأى ثالث أن السومريين هاجروا من منطقة ما تقع فى جزء من الأرجاء الممتدة بين باكستان وبين أفغانستان وبلوخستان ، واستقروا بعض الزمن فى غربى إيران ، ثم نزحوا منها إلى بلاد النهرين عن طريق الخليج العربى وجزيرة البحرين (٢) . وزكى أصحاب هذا الفرض رأيهم بسند حضارى وآخر أسطورى . فقد

(١) كرامر : المرجع السابق – الفصل ٢٢ .

(٢) See, E.A. Speiser, "The Sumerian Problem Reviewed", *Hebrew Union College Annual*, XXIIII, (1950-51), 339 f.

تشابهت أوائل طرز الفخار السومرى القديم وزخارفه فى بلاد النهرين مع نماذج وزخارف الفخار القديمة ، التى انتشرت جنوباً بشرق حتى منطقتى خاريا وموهنجو دارا بسهول السند (١) (وإن كان إنتاجها الحضارى المعروف قد تأخر فى الزمن عن العصر السومرى نفسه) ، مما قد يوحى بوجود روابط جنسية وحضارية بدائية قديمة بين أهل هذه النواحى الذين سبقوا الأجناس الهندو آرية فى سكناها ، والذين يكفى أن يقال عنهم إنهم من الفروع المبكرة للسلالات الأسيانية Asianic الآسيوية ، مع تقدير ما ألمحت إليه الأساطير السومرية فيما بعد من أن أصحابها الأوائل هاجروا من الجنوب عن طريق البحر فى عصور كان بقية الخلق لايزالون يسعون فيها على أربع ، على حد روايتها ، واستقروا حيناً فى جنة تلمون (أو دلمون) ، وهى فيما يرجح جزيرة البحرين الحالية (٢) ، تلك التى روت الأساطير السومرية أنه لم يكن ينعق فيها غراب أسود ، ولايفترس أسد ، ولايعتدى ذئب على حمل ، ولاتحنى الحمامة رأسها ، ولاتوجد أرملة ، ولامرض فيها ولاشيخوخة ، ولانواح ولارثاء ،.... ولكن كان ينقصها الماء إلى أن أوحى إنكى (رب الحكمة) إلى أوتو (رب الشمس) بأن يزودها بينابيع المياه العذبة ، ففعل ، وتحولت بستاناً أنبتت فيه نخر ساج (الإلهة الأم) ثمانية أنواع من النباتات على غفلة من إنكى نفسه (٣)، ثم نزحوا منها بعد ذلك إلى «كالاما» بالعراق لأمر ما ، لم تسجله الأسطورة .

وأبى رأى رابع اعتبار السومريين أغراباً ، وتشكك فى نتائج دراسة بقايا الجماجم السومرية ، وافترض أن الرؤوس العريضة فيها ترتبت على اتصالات متقطعة بين سكان جنوب العراق ذوى الأصل السامى فى فجر التاريخ وجيرانهم ذوى الأصل ماقبل الآرى ذوى الرؤوس العريضة ، دون أن يتأتى عن هجرة أو وحدة جنسية لازمة بين الفريقين . ولكن صعب على هذا الرأى تعليل اختلاف لغة السومريين عن

---

(١) *Cf.* Frankfort, *The Art and Architecture...*, p. 1, n. 3; Hall, *History of the Ancient Near East*, 173; Mackay, "Sumerian Connection with Ancient India", *JRAS*, 1925, 697.

(٢) *Cf.* P.B. Cornwall, "On the Location of Dilmun" "*BASOR*, No. 103 (1946); *JCS*, VI, No. 4 (1952); Kramer, *BASOR*, 1954 (Suppl. No.1); The Indus Civiilzation and Dilmun... *Expedition*, VI, 1964.

(٣) كرامر : المرجع السابق - لوحة ٥٩ - ص٢٤١ + Kramer, *ANET*, 38f.

اللغات السامية . وعندما أراد أن يوازن بين هيئات أرباب العصر السومرى ذوى اللحى الكثة والشعور الكثيفة والملابس الصوفية التى تقربهم إلى هيئات الرعاة الساميين ، وجماهير السومريين حليقى اللحى والرؤوس ، لم يزد الأمر غير تعقيد[1] .

وإذا كان ثمة مايمكن إضافته هنا فهو احتمال اعتبار السومريين فرعاً جنوبياً مما سمى اصطلاحاً باسم الجنس القوقازى أو جنس البحر المتوسط ، يختلف عن الفرع السامى ، دون أن ينفى هذا تواجد الساميين وربما من أطلق عليهم اصطلاحاً أيضاً اسم الجزريين معهم على أرض العراق بنسبة ما ، وإن ظل نفوذهم أقل من نفوذ السومريين لعهود طويلة .

إنه على مهما يكن من أمر هذه الآراء التى لايزال كل منها بحاجة إلى قرائن جديدة لتزكيته عن غيره ، فالذى لاشك فيه هو أن السومريين فى أوائل العصور التاريخية ، قد انتفعوا بالحضارات التى سبقتهم منذ بواكير العصر الكتابى ، ثم طوروها إلى مايتفق مع مطالب عصرهم وإمكاناته وأذواقه ، وكان من أوضح مظاهر التطوير هو تنظيم علامات الكتابة ، وأساليب البناء ، وأساليب النقوش .

الكتابة المسمارية :

ظهرت تباشير الكتابة فيما يحتمل منذ المراحل الأخيرة لحضارة الوركاء ، أو حضارة جمدة نصر ، فى أواخر فجر التاريخ العراقى القديم ، كما أسلفنا من قبل ، وبدأت بالطريقة التصورية أو التصويرية ، التى تعبر كل صورة منها عما تمثله على وجه التقريب ، وهى طريقة تصلح للتعبير عن الماديات ولكنها لاتكفى للتعبير عن المعنويات ، وقليلاً ماعبرت عن الفكرة المعنوية بشىء مادى يرمز إليها كالذراع الذى يعبر عن القوة ، أو القدم التى تعبر عن حركة المشى ، شأنها فى ذلك شأن الكتابة المصرية فى بداية ظهورها . وعثر على بعض نماذج هذا الطور الكتابى على لوح حجرى صغير رقيق من مدينة كيش ، صورت علاماته التصويرية مايمثل الوجه والقدم وواجهة المسكن وما إليها داخل مستطيلات متسعة ، تتحدد بخطوط تفصل بين

(١) *Cf.* Keith, by Hall, Wooley, *Ur-Excavations*, Ed. Meyer, *Histoire* (trad), t. III, 369 Frankfort, *Studies*.., 91; and *see*, H. Schamakel, *Das Land Sumer*, 1956, 44 f., *Geschichte des alten Vorderasien*, 1957, 3 f.

كل واحد منها والآخر . ونموذج صغير آخر نقشت علاماته التصويرية فى مستطيلات ضيقة تتعاقب فى أنهر رأسية [١] . ثم تطورت الكتابة على أيدى السومريين بخاصة إلى المرحلة الصوتية التى تؤدى علاماتها وصورها وظائف المقاطع الصوتية ويقصد بها نطق لفظها أكثر من مدلول شكلها ، ويمكن التعبير بها عن المعنويات ، مثل استخدام الصورة المختصرة للجذع الأعلى للإنسان للدلالة على المقطع «لو» الذى يعبر عن معنى رجل أو إنسان ، وفقاً لسياق الكلام . واستخدام الصورة المختصرة لجريان الماء للتعبير عن الماء «آ» وعلى حرفى «فى» ، واستخدام صورة السمكة للدلالة على السمكة «خا» وللتعبير عما يوازى لفظ «لعل» . واستخدام صورة النجم للتعبير عن اللفظ «آن» ، وعن السماء ، وعن لفظ إله (دنجر) ، وعن معنى السمو ، فضلاً عن دلالتها على النجم نفسه ، وعثر على عشرات اللوحات فى الوركاء ، قد ترجع كتابتها إلى هذا الطور التصويرى المقطعى [٢] .

وزاد السومريون علاماتهم المقطعية الصوتية مع توالى الزمن واستمرار الخبرة حتى أوفت بمطالب حضارتهم ، وبلغت أشكالها مبلغاً عددياً كبيراً ، ثم عادوا فيسروها عن طريق تركيز أعدادها وأشكالها ، واتجهوا بها وجهة خطية ، فقللوا انحناءاتها ودوائرها ؛ كيما تتناسب خطوطها الحادة الجديدة مع طبيعة اللوحات الطينية اللينة ، التى استحبوا الكتابة عليها ووجدوها أقرب فى التناول وأيسر فى الكلفة من قطع الحجر . وهى لوحات كانوا يتخيرون طميها نقياً ناعماً ويصبونه فى قوالب ذات أشكال متعارف عليها ، فتخرج اللوحة على هيئة القرص مسطحة الوجهين ، أو على هيئة نصف أو ربع الدائرة مستوية السطح محدبة الظهر ، أو على هيئة المستطيل ، وقليلاً ماتكون على هيئة المخروط . وقد يتركونها على حالها بعد الكتابة أو يجففونها فى حرارة عادية بحيث تكتسب صلابة مناسبة . ويلفون أهمها بنسيج يمهرونه بختم صاحبها فوق قطعة من الطين اللزج ، لاسيما إذا كانت لوحة لها اعتبارها أو كانت ستنقل من مكان إلى آخر على هيئة الرسالة . وشاعت هيئة الاستطالة فى الألواح منذ خواتيم العصر السومرى القديم ، وأصبحت اللوحات الهامة منها تحرق فى أفران وتحفظ فى أغلفة طينية ، بعد أن ينثر عليها قليل من مسحوق الطمى الجاف ليمنع

---

(١) C. Leonard Woolley, *Ur Excavations*, Figs. 1,2.

(٢) طه باقر – مجلة سومر ١٩٦١ .

التصاقها بغلافها ، ذلك الغلاف الذى كان يجب كسره مرة ثانية بطبيعة الحال قبل قراءة لوحته الداخلية .

وكتب السومريون عباراتهم فى بداية عصورهم دون ترتيب ثابت (فى مثل نص أوتوج حاكم كيش على نذر للمعبود إنليل ، ونص على رأس مقمعة ميسيلم حاكم كيش أيضاً) . ثم أصبحوا يرتبون عباراتهم فى أنهر رأسية يفصل بين كل نهر منها وآخر خط رأسى (فى مثل لوحة أور نانشه ولوحة إياناتم) . وكانوا يبدأونها من اليمين أو من اليسار ، ثم انتهوا أخيراً إلى تفضيل السطور الأفقية . وكان منهم من يكتبون وجهى اللوحة المسطحة بعد قلبها رأساً لعقب بحيث يقابل النهر الأول من ظهرها النهر الأخير من سطحها ، كما كان منهم من استعاضوا عن اللوحات المسطحة بكتل طينية مجسمة على هيئة الأسطوانة ، أو هيئة المنشور ، رغبة فى أن تتسع سطوحها للنصوص المطولة .

واستمرت موجة الاختزال تعمل عملها البطىء فى العلامات السومرية . وواصلت وجهتها التخطيطية حتى غدت هيئة كل علامة منها تشبه هيئة المسمار ؛ مما دعا إلى تسمية كتابتها اصطلاحاً باسم الكتابة المسمارية (أو الكتابة الإسفينية) . وناسبت هذه الكتابة فى هيئتها الجديدة استخدام أهلها لأقلام الغاب والخشب (والمعدن) ذات السن المدبب ، ثم الأقلام المنشورية المقطع التى انتهوا إلى الكتابة بها فأصبحت بدورها من أسباب تسمية الكتابة بالكتابة المسمارية . وظل السومريون منذ ذلك الحين يصورون خطوطهم المسمارية رأسية وأفقية ومائلة ، متجاورة ، ومتصلة أو متقاطعة ، وإن احتفظوا لعدد قليل منها بهيئاته التصويرية القديمة ، مثل صورة القدم والسهم والمشط وبعض الأغصان والأزهار ، وهى صور استخدمت لذاتها أحياناً ، ولتكون مخصصات لكلمات تتصل بها أحياناً أخرى . كما تخففوا شيئاً فشيئاً من الفواصل الرأسية التى كانت تفصل بين كل سطر وآخر .

لم تميز الرموز الصوتية السومرية كثيراً بين الحروف المتقاربة فى النطق ، مثلما بين حرفى د ، ت ، وما بين حروف ج ، ك ، ق ، ومابين حرفى س ، ز ، مما أحس الساميون بالنقص فيه ، عندما أصبحوا يكتبون لغتهم بالكتابة المسمارية وحاولوا تعويضه منذ العصر الأكدى فى أعقاب عصر بداية الأسرات السومرى . غير أن المقاطع السومرية تميزت فى مقابل هذا النقص بتضمنها مايؤدى غرض حروف

الحركة التى تنقص أغلب الكتابات السامية القديمة ، حين توضيحها للتعبيرات المركبة التى تتألف من «حرف حركة + حرف ساكن» أو تتألف من «حرف ساكن ـ حرف حركة» ، أو تتألف من «حرف ساكن + حرف حركة ـ حرف ساكن» .

وعمل السومريون على الجمع بين القديم والمستحدث فى كتابتهم ، شأنهم فى ذلك شأن أغلب الشعوب الزراعية المحافظة القديمة مثل الشعب المصرى ، وترتب على ذلك أن كتبتهم كانوا يكتبون الكلمة الواحدة بصورتين أحياناً ، وبالطريقتين التخطيطية والصوتية معاً . فكلمة «ماتو» بمعنى أرض ، قد يكتبها الكاتب السومرى بثلاث علامات مسمارية بسيطة تدل عليها ، ثم يتبعها بثلاثة رموز صوتية تساوى «ما – آ – تو» ، فضلاً عن التجائه إلى إضافة المخصصات التصويرية إلى كلماته أحياناً ، كما ألمحنا من قبل ، مثل إلحاق علمة الشجرة بأسماء الأشجار وأنواع الخشب والمصنوعات الخشبية ، وإلحاق علامة المكان بأسماء الأقطار والبلدان ... ، إلخ .

واستمرت الكتابة المسمارية فى تطورها ، وانتقلت بخصائصها من لوحات الطين الشائعة إلى لوحات الحجر والمعدن حيثما توافرت (مع بقاء الغلبة للوحات الطين) . وكانت جهود السومريين الأوائل فى تطويرها بمثابة حجر الزاوية لها . وظلت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة التى نافستها شهرتها فى العالم القديم ، فى أربعة أمور ، وهى : سهولة التعبير نسبياً عن الحركات فى مقاطعها ، وتخليها فى أغلب الأحوال عن الصور الطبيعية الأصيلة ، فى مقابل عدم تطورها إلى مرحلة الحروف الهجائية ، وعدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة التى عرفها المصريون لاسيما صفحات البردى وأنواع المداد . ولو أن هذه الاختلافات كلها لم تحل دون استمرارها قروناً طويلة عند السوميين وعند من تلاهم من الساميين ، بل ولم تقف دون شيوعها من العراق إلى مايتصل به فى غرب إيران وشمال بلاد الشام وشرق الأناضول . وعندما قل استخدامها فى أواخر التاريخ العراقى وغلبت الكتابة الأرامية عليها شيئاً فشيئاً ، انطوت فى ظل النسيان وأصبحت مجرد رموز وطلاسم ، حتى بدأت الدراسات الحديثة تكشف النقاب عنها مرة ثانية ، منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى (أسلفنا ذكر ذلك من قبل فى الجزء الأول من الكتاب) [١] .

---

(١) *Cf.* S.N. Kramer *Sumerian Mythology* 1944, 1 f.

وسجل السومريون الأعداد الحسابية على هيئة دوائر وأنصاف دوائر أحياناً ، وعلى هيئة خطوط مسمارية قائمة ومائلة تشبه فى جملتها هيئة المربعات والمعينات أحياناً أخرى ، واعتبروا العدد ٦ بداية الكثرة فى الآحاد بعد العدد ٥ الذى يمثل نهاية العد على أصابع اليد الواحدة ، كما اعتبروا العدد ٦٠ بداية الكثرة فى العشرات ، وكانوا يرمزون إليه بعلامة مسمارية قائمة ، شأنه فى ذلك شأن الواحد بداية العد . ولعل التقسيم الستينى الحالى للساعات والدقائق كان متأثراً نوعاً ما فى أصله البعيد بعلم الفلك البابلى المتأثر بدوره بعلم الرياضيات السومرى .

وتوافرت للكاتب السومرى مكانته فى مجتمعه ، وكان الكتبة لايزالون قلة ، ويبدو أنهم ظلوا ألصق بالمعابد منهم بغيرها ، وظل الناس يحسون بأهميتهم حين يعاملونهم بأسماء الحكام ورؤساء المعابد ، وحين يلجأون إليهم لكتابة العقود وتحرير الرسائل أو قراءتها . وكان كتبة المحفوظات يحفظون لوحاتهم الهامة فى جرار وسلال يعنونونها ببطاقات صغيرة مسطحة أو بيضاوية أو مستديرة ويسجلون عليها طبيعة محتوياتها . ومن هذا القبيل ماذكرته بطاقة صغيرة سجل عليها كاتبها : «لوحات ماجاء به سماكو البحر وسماكو النهر - بارتامتارا زوجة لوجالاندا إنسى لجش - السنة الثانية» ، وكان لهذا الزوجة الأميرة كاتب خاص، سجلت على ختمه عبارة «أنيجال كاتب دائرة الزوجة» [1] .

التطور السياسي :

اعتمدت الحياة السياسية فى بلاد سومر على إمارات المدن ودويلاتها ، فى واقعها وكما روت الأساطير ، (وبما يشبه ما أصبح يسمى فيما بعد (City-States) ، دون أن تتطور إلى نظام الدولة المركزية الكبيرة الواحدة إلا بعد قرون طويلة . وترتب على ذلك أن تعاصرت دويلات وأسر حاكمة كثيرة فى مثل مدن كيش (تل الأحيمر) ، وأوروك (الوركاء) ، وشوروباك (فارة) ، وأور (المقير) ، ولجش (تلو) ، وأوما (تل جوخة) ، وإريدو (أبو شهرين) ، وسيبار (أبو حبة) ، وخفاجى ، ونيبور (نفر) ...

وتلقب رأس الحكم فى المدينة السومرية فى بداية أمره بلقب «إنسى» [2] ، ربما

---

(١) ل. ديلابورت : بلاد مابين النهرين - تعريب محرم كمال - ص٢٣٨ ، ٢٤٣ .

(٢) عن ترجيح قراءة هذا اللقب «إنسي» عن قراءتى «إيشاكو» و «باتيسي» القديمتين :
See, Falkenstein, *ZA*, XLII, 152 f.; F.M. Th. Boehl, *MAOG*,XI, 37; and *ANET*, 267.

بمعنى النائب أو الوكيل إشارة إلى وكالته عن معبود مدينته فى حكم بلده وأهلها ، وإشارة إلى القداسة بالوكالة التى يرتكز عليها فى ممارسة سلطاته الدينية والمدنية(١).
ويفترض البعض ومنهم ياكوبسن (Th. Jacobsen) أنه سبق إسناد الرياسة إلى رئيس واحد . نوع من الحكم الثيوقراطى كان يتولاه من يلقب بلقب سانجا ويشرف على شئون المعبد الرئيسى ومصالحه ، ونوع من الحكم الديموقراطى تمثل فى وجود مجموعة من الشيوخ كانوا يجتمعون فى مجالس عرفية ويتشاورون فى أمور مدينتهم، ويسندون القيادة إلى واحد منهم خلال الحروب . واعتمد ياكوبسن فى تخريجه هذا على عبارات وردت فى قصة جلجميش وقصة إنمركار ، وماتضمنته بعض الأساطير عن مجامع الأرباب ، ولو أنها عبارات ليس من الضرورى أن تدل على ماذهب إليه.
وظلت الصبغة الدينية ألصق بلقب «إنسى» وترتب عليها أن انفسح المجال أمام كهنة المعبودات السومرية ليكون لهم شأن فعال فى أوضاع دويلاتهم وسياستها ، وظلت معابدهم تنتفع بنصيب كبير من ثروات المدن وأرضها وضرائب أصحابها حتى أصبحت بأملاكها شبه وحدات اقتصادية وإدارية قائمة بذاتها (٢). ومعنى هذا أن الصبغة الدينية للحكم كانت سلاحاً ذا حدين ، فهى وإن ضمنت بعض القداسة للحاكم، إلا أنها كان يمكن أن تخلق أمامه منتفعين ومنافسين من رجال الكهنوت . ولهذا مال حكام المدن إلى تغليب الصبغة السياسية فى سلطاتهم ، وتلقب كل منهم بلقب «لوجال»، بمعنى الرجل الجليل وبما يرادف لقب ملك ، واتسعت سلطاتهم المدنية على حساب سلطان الكهان ، وإن ظلوا من الناحية الشكلية يعتبرون ممثلين لمعبوداتهم على الأرض ، ويدعون أنهم يصدرون فى تصرفاتهم عن وحيهم لاسيما فى فترات الحروب ، ثم تركوا لقب إنسى لولاتهم الفرعيين ، وإن استعادوه لأنفسهم من حين إلى حين؛ ليؤكدوا صلاتهم بأربابهم وتواضعهم إزاءهم . وظهرت لهذا التطور فى سلطات الحكام السومريين أمثلة شرقية أخرى لاحقة لعصورهم ، فبدأ الحكم فى جنوب شبه الجزيرة العربية بالصبغة نفسها وتلقب الحكام هناك بلقب مكرب ولقب مزود ، ثم

---

(١) *Cf.* Th. Jacobsen, "Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia", *JNES*, II (1943), 172.

(٢) Th. Jacobsen, *JNES*, 1943, 145 f.; J. author), *The Intellectual Adventures of the Ancient Man*, 1946, 186; Frankfort, *The Birth of Civilization in the Near East*, 68.

انتقل هؤلاء وهؤلاء إلى ألقاب الملوك ، وأكدوا بها الصفة الدنيوية فى حكمهم .

وهكذا قطع السومريون أكثر من خمسة قرون من عصر بداية الأسرات العراقى، غابت فيها الوحدة السياسية الكاملة عن آفاقهم ، ولم تجمع بين مدنهم محالفات بريئة طويلة الأمد فى غير القليل النادر ، ومن هذا القبيل صداقة بعض حكام كيش الأقدمين لمعاصريهم حكام لجش لفترة من الزمن ، وإن ظلت اليد العليا لحكام كيش فى هذه الصداقة .

ويبدو أنه لم يكن يدفع دويلات المدن تلك إلى محاولات الترابط من حين إلى آخر ، غير الرغبة فى تحقيق منافع ذاتية فى أغلب الأحوال ، ومن هذا القبيل رغبة المدن القوية فى بسط نفوذها على جيرانها ، أو رغبتها فى تصريف منتجاتها وتأمين سبل تجارتها عن طريق إستبقاء علاقات الود مع جيرانها الذين تسلك قوافل تجارتها أرضهم وتجد رواجها عندهم ، أو رغبتها في سد مطالبها من المواد الأولية التى تتوافر فى منطقة قريبة منها . ولم تتطلع دويلة منها إلى تحقيق وحدة وطنية ثابتة تستهدف الصالح العام السومرى ، إلا فى عهود متأخرة نسبياً ، على الرغم من أن أهلها فى مجموعهم كانوا يحسون تلقائياً بوحدة جنسهم ، وجنس «أصحاب الرؤوس السود» ، ووحدة الأرض «كالاما» التى عاشوا عليها ، ويحسون بتقارب مذاهبهم العقائدية التى شجعتهم على أن يتمثلوا بعض أربابهم فى بعض آخر ، ويتخيلوا صفات بعضهم لبعض آخر ، فضلاً عن شعورهم برقى حضاراتهم فى جملتها عن حضارات جيرانهم من أهل البوادى وأهل الجبال ، لاسيما بعد أن اتسعت آفاقهم وأخذت بثقافتهم مناطق فى غرب الفرات وأخرى فى شرق دجلة .

وليس من المستبعد أن حياة اللامركزية السومرية كانت لها مزاياها الداخلية من حيث تفرغ الحكام لأحوال دويلاتهم وإلمامهم بمشاكلها نتيجة لمحدودية رقعتها ، فضلاً عن قربهم من رعاياهم وصلتهم المباشرة بهم ؛ ولكنها من جهة أخرى زادت من فرص المشاحنات بينهم على الحدود وعلى النفوذ وحرمت سياستها من الإنطلاق الدولى بمعناه الواسع .

ويمكن ترتيب مايماثل هذه النتائج بوجهيها على الإنتاج الحضارى للمدن السومرية ، فقد ارتقت كل مدينة بحضارتها رقياً يناسب إمكاناتها ، وحاولت كل منها أن تبتدع فى صناعاتها وفنونها جهد طاقتها ، كما يتضح مما بقى من روائع مخلفات

مدينة أور وغيرها ، ولكن عز عليها فى الوقت نفسه ، نتيجة لتفرق إمكاناتها ، أن تنتج من العمائر وفنون الدنيا والدين مايضارع العمائر والفنون المصرية التى عاصرتها فيما بين القرن الثلاثين وبين أواسط القرن الرابع والعشرين ق.م ، سواء فى روعتها أم فى ضخامتها واتساع مسطحاتها .

* * *

صورت المصادر السومرية المتفرقة طرفاً من أواخر أدوار التنافس وأعنفها بين مدينتى لجش (تلو) ، وأوما (تل جوخة) ، وقامت كل منهما على أحد فروع الفرات الداخلية . وبدأ التنافس بينهما على موارد الماء وحدود الزراعة ، ثم تدخل للفصل بينهما «ميسيلم» أو ميسالم أحد حكام كيش الأوائل ، وكانت له صلة وثيقة بمدينة لجش شجعته على أن يقدم هداياه إلى ربها نين جيرسو ، وربما شارك فى بناء معبده ، فى الوقت الذى حكم لجش فيه حاكم يدعى لوجال شاج نانشه (أو شاج أنجور) ، ففرض بينهما حدوداً فاصلة بعد أن أقنعهما بأن معبودته أوحت إليه بتقرير السلم بينهما ، وبأن ما أوحت إليه به كان عن أمر الإله إنليل نفسه ، ثم أقام نصباً سجل عليه قضاءه بينهما (١) ؛ مما يعنى أن الوازع الدينى كان له تأثير معترف به فى الأمور المصيرية . ولكن النزاع الحدودى بين المدينتين كان قد تطور فى جوهره إلى تنافس على الزعامة والسيطرة .

ولم يرد اسم ميسيلم فى قوائم الملوك السومرية ، ولكن نصوص لجش أشادت به ، ويلغ من تقدير المؤرخين لشخصه أن اتخذوه علماً على مرحلة من مراحل الحضارة السومرية فى عصره ، واعتبروا أن نقوش رأس صولجانه أو مقمعته النذرية ، التى وجدت فى تلو تعبر عن واحدة م أقدم كتابة تاريخية معروفة (٢) .

وظهر فى لجش عدد من رجال الإصلاح والسياسة (٣) ، عرف التاريخ منهم

(١) E. de Sarzec, *Découvertes en Chaldée*, pl. I ter. ; *Encyclopédie photogyraphique de l' Art*. I, 176; G. A. Barton, *The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad*, 1929, 2-3; Kramer, *Tablets...*, Ch. Y.

(٢) مورتجات : الفن فى العراق القديم – ص٦٣ ، ٨٢ .

(٣) See, E. Sollberger. *Corpus des inscriptions royales presargoniques de Lagash*, Geneve, 1956.

مؤسس أسرة حاكمة يدعى أورنشه أو (أورنانشي وكان ينطق من قبل أورنينا) ، نشط العمران الداخلى فى عهده وتميزت نقوشه بالمناظر العائلية التى ضمت زوجته وأبناءه وبعض أتباعه مع ذكر أسمائهم على ظهر اللوحة . وصوره فنانوه خلال لحظات تقواه فى نقوش لوحة صغيرة من الحجر الجيرى ، يحمل فوق رأسه سلة يحتمل أنها كانت تتضمن بضعة نماذج من أدوات البناء والتعمير ، أو تتضمن كمية من الطين أو التراب لضرب اللبنات الأولى فى حفل إقامة مشروع جديد (قد يكون مشروعاً دينياً) [1] ، وصور فى لوحة أخرى صغيرة (ذات ثقب مستدير فى وسطها) يسير فى هيئة المتعبد أو الداعى يضع يديه على أسفل صدره ، ومن خلفه حاجبه بحجم صغير يرفع يديه على هيئة التحية ، ثم أربعة من الأمراء أبنائه فى صفين يسيرون على هيئة أبيهم ، وكلهم يرتدون ثياباً نصفية تمتد من أسفل الصدر إلى ماتحت الركبة ، ومثلت صورة ثالثة هذا الحالكم الطيب فى وليمة لعله كان يحتفل فيها بإتمام مشروعه . وجاء فى نصوصه أن سفنه وسفن دلمون نقلت الأخشاب الضرورية لبناء المعابد على متن النهر. وعلى الرغم من اتجاهه الدينى امتد نفوذ أورنانشة خارج بلده حتى مدينة أور.

واشتهر حاكم من أحفاده يدعى إأناتم ، أو إياناتم Eannatum ، كان رجل الحرب فى دولته ، تطور التنافس فى أيامه إلى دوره العنيف مع أوما . ويبدو أن حكامها ومنهم من يدعى أوش ، تنكروا فى عهد سلفه لمعاهدة السلام القديمة وأظهروا العدوان واحتلوا الأطراف الزراعية (جودانا) الفاصلة بين المدينتين ، فرد إأناتام لهم الصاع صاعين ، وذكرت نصوصه أنه استفتى ربه فى حربهم وزار معبده واستلقى فيه على وجهه طالباً وحيه ، فتمثل له نين جيرسو فى رؤياه ووقف عند رأسه، ووعده بأن ينصره وبأن قوة بابار سوف تؤيده [2] . وعندما تم النصر له على خصومه خلد فنان ذكراه على لوحة تعرف اصطلاحاً باسم لوحة العقبان[3] ، نقشت مناظرها على

---

(١) E. de Sarzec, *op. cit.*, pl. 2 bis.; and see, *Sumer*, 1959, 21 f.; 1960, 35 f.
وشابهه فى هذا لادرنانشه أحد خلفائه (مورتجات : المرجع السابق – ص١٤٥ ولوحة ١٠٩) .

(٢) Thureau-Dangin, *Les Inscriptions de Sumer et d'Akkad*, 27.

(٣) Heuzey et Thureau-Dangin, *Restitution de la stele des Vautours*, ; Handcock, *Mesopotamian Archaeology*, Fig. 27 f.; Frankfort, *The Art and Architecture...*, pls. 34-35.

وجهيها وبقيت منها ست قطع . وتعتبر من المصادر الهامة فى التعبير عن نظام الجيش وأسلحته فى عهدها ، وعن بعض عقائد مجتمعها .. فقد صور الملك عليها يحارب برمح غليظ وقوس وعصا معقوفة ، راكباً عربته ، وراجلاً ، وصور بعض جنوده المشاة فى صفوف صغيرة يتترسون بتروس كبيرة يقل ارتفاعها عن قامة الرجل بقليل ، ويحملون رماحهم أفقياً ، ومشاة آخرين يتسلحون بالحراب الطويلة المشرعة والبلط ، وجعل لبعض هؤلاء وهؤلاء مايشبه الخوذ على رؤوسهم ، وأشير إلى أن من استشهدوا منهم دفنوا فى ساحة المعركة بعد النصر فى احتفال مهيب ، وصور بعض إخوانهم يحملون سلال التراب ليوسدوهم فى باطن الأرض فى مقبرة جماعية قدمت عليها القرابين وسكب الماء المقدس ، بينما صور جثث الأعداء عارية ممددة تحت أقدام الجنود ، وصور بعضها الآخر تنهشها الأسود والعقبان وصغار الطيور ، وذكر أن ضحاياه بلغوا ٣٦٠٠رجل . ووفق الفنان فى تصوير بعض الجنود بطريقة التصفيف الرأسى فجعل أدناهم مكاناً أقلهم ارتفاعاً وأبعدهم مكاناً أكثرهم ارتفاعاً ، وإن أخطأ فجعل هؤلاء الأخارى أضخم ممن يتقدمونهم .

وصور الفنان الملك يزجى الشكر لربه نين جيرسو ويصب القرابين فى حضرته . وأظهر هذا المعبود على الوجه الآخر للوحة على هيئة شيخ جليل بنقبة نصفية ولحية طويلة ولمة شعر كثيفة فى مؤخرة رأسه على شاكلة الأبطال الأسطوريين ، يقبض بيسراه على أطراف شبكة كبيرة أو قفص ذى شباك ارتمى فيه ضحاياه قتلى وبعضهم يتخبط تخبط الأسماك، وكأنما أحاط بهم جميعاً وأوقعهم فى شباكه التى جمعها ماسك على هيئة نسر برأس أسد يعتلى أسدين وهو رمز من رموز الموت. وأشهر نين جيرسو مقمعته بيمناه كأنما يرعب بها من بقى منهم على قيد الحياة . ومع اهتمام إأناتم بذكر أبيه وجده باسميهما إلا أن النصر شجعه على ادعاء النسب الإلهى فادعى أن الإله نين جيرسو وضع بذرته ، وحملت به الربة نينخرساج وأرضعته وأجلسته على ركبتيها كما احتوته الربة إنانا بين ذراعيها (١). ويحتمل أن تكون هذه اللوحة قد أقيمت تخليداً لذكرى نصر إأناتم ومعبوده فى عهد ابن أخيه إنتمنا .

ولما استقر النصر لإأناتم ، أعاد تخطيط الحدود ، لصالح لدولته بطبيعة الحال ، وأجبر خصومه على عقد معاهدة جديدة أعاد بمقتضاها النصب القديم إلى مكانه ،

(١) Jacobsen, *JNES*, XI, 1943, 119-121.

وحفر رجاله خندقاً كبيراً على طول الحدود وأقاموا عدة نصب على امتداده ، وبنوا على جانبيه عدة مزارات لمعبوداتهم لتكون رادعاً للعدوان ، ويبدو أنه كان من المفروض أن تجرى المياه إلى الخندق من قنوات أوما المهزومة . وأراد إياناتم أن يخفف وقع الهزيمة على خصومه ، فسمح لهم باستغلال جزء من الأرض الحدودية بشرط أداء الضرائب عليها ، وذكرت نصوصه أن رجاله حفروا قناة كبيرة امتدت من النهر إلى خزان متسع كبير عند مدينة لجش [١]. ثم شجعه نصره على مهاجمة مدن أور وأوروك وكيش وغيرها ، واشتد على حكامها ، وابتغى أن يكفل لنفسه السيادة على أرض سومر ، وادعت نصوصه أنه تجاوز حدودها شرقاً وغرباً ، ولكنه لم يتمتع بثمرة انتصاراته طويلاً ، فثارت ضده أغلب المدن التى حاول إخضاعها ، ولقى بعض الفشل بجنوده على حدود إلام (عيلام فى إيران) .

ولما قضى الرجل نحبه حاول بعض خلفائه أن ينهجوا نهجه فى الحرب وبسط النفوذ ، فكانت لهم حروبهم على حدود عيلام وحاولوا زيادة اتصالاتهم ببلاد الشام . فقد خلفه أخوه إناناتوم الذى ذكر فى نصوصه أن نانشه قد أحبته ، وأن إنانا سمته باسمه ، وعلمه إنكى الحكمة ، ووهبه إنليل القوة ، وزكاه الملك أوروسكار ، حتى لقد أصبحت الأقطار الأخرى ملك يمينه وألقى الثوار تحت أقدامه – وظل مع ذلك يعتبر إنسياً للآلهة لهم المعابد وأصلح مرافق بلده [٢] .

ولكن لم تخل الأيام من عودة المنازعات مع دولة أوما ، وقد قص خبرها أحد كتبة «إينتيمنا» (إبن أخ إياناتم) على أسطوانتين من الطين ، وبدأ قصته بعلاقات المدينتين منذ أيام ميسيلم ، وأنهاها باستنزال اللعنات على من يتعدوا الحدود الموسومة باسم نين جيرسو ونانشه ، سواء أكانوا من دويلة أوما أم من غيرها ، واستعدى عليهم ربه إنليل ودعا عليهم بأن يلقى عليهم نين جيرسو شبكته ، وأن تتنزل عليهم يده الرفيعة وقدمه السنية من عل . ولم يكتف الرجل باستنزال اللعنات ، وإنما تلاقى جيشه مع خصومه أهل أوما فى سهل «جانا أو جيجا» ودحرهم ، ثم أعاد الكرة عليهم، حينما سيطر على حكمهم كاهن يدعى «إل»، ذهبت آماله إلى حد الطمع فى مهاجمة

(١) كان اسم القناة «هو مادمشا» ويحتمل أن تكون القناة الحالية التى تتفرع من دجلة عند قنطرة كوت وتنحدر جنوباً حتى تلو (لجش) وتسمى شط الحى . أما الخزان فكان متسعاً وأكمل فى عهد ابن أخيه أنتيمنا . Jacobsen, *Sumer*, 1969, 103 f.

(٢) Iraq Museum, I.M. 67842; *Sumer*, 1973; 29 f.



لجش نفسها . وتخلفت من عهد إنتمنا آثار عدة أهمها آنية فضية ذات نقوش رائعة ، ولوحة صغيرة منقوشة من الطمى المشبع بالقار (سوف نعرضهما بعد قليل) ، ونشط فى إقامة المعابد وزاد من إهداءاته لها . وقد عثر له فى أور على تمثال معبر من الديوريت ، كما نحتت فى أيامه رؤوس نسائية ذات أغطية وتسريحات متنوعة على هيئة العمائم ، جعلت من عهده بداية لاتجاهات فنية جديدة [1] .

ويبدو أن حرص الحكام ذوى السلطة الدينية على رد انتصاراتهم إلى تأييد أربابهم ، وحرصهم على استفتاء وحيهم وطلب عونهم ، شجع كهنة أولئك الأرباب على أن يتمتعوا بنفوذ كبير فى ظل ملوكهم ، وأن يشاركوهم قيادة الجيوش لحماية ذمار مدنهم ، كما شجعهم على أن يذكروا أسماءهم إلى جانب أسمائهم ، وسمحت لهم هذه الأوضاع بأن يزيدوا ثراء معابدهم ، ويضاعفوا التزامات السكان إزاءها ، بل ويشتطوا فى تحصيل نصيب واف من الإتاوات أو الضرائب على كل ما كبر أو صغر حتى على جز صوف الغنم وعلى طلاق الرجل لامرأته وعلى دفن الموتى ، فانضاف استغلالهم إلى استغلال ضعاف النفوس من الولاة ورجال القصر وكبار الموظفين وجباة الضرائب ، بحيث قيل إن بيوت الحاكم وضياعه وبيوت حريم القصر ومزارعهن ، وبيوت أطفال القصر ومزارعهم ، أصبحت يتاخم بعضها الآخر وتتلو بعضها بعضاً . ومن المحتمل أن نفوذ الكهنة قد تضخم فى لجش بحيث شاركوا الحكام أهميتهم ، إن لم يكونوا قد طغوا على نفوذهم فعلاً [2] ، حتى استرجع النفوذ منهم ، واسترجع الحكم الصالح فى الوقت نفسه ، لوجال «أورو كاجينا» أو أورو إنمجينا وقد وجه همه إلى الإصلاحات الداخلية فى عهده القصير الذى لم يزد عن ثمانية أعوام ، وتعمد أن يحد من دخل الكهان ويمنع الرشا ويعزل من حامت الشبهات حولهم من الموظفين ، فأصدر عدة قرارات تحدث فى بدايتها عن المساوئ التى سبقت عهده ، وكيف كان الكهنة والموظفون يغتصبون فيها أرزاق العباد ويستغلون مزارع المعابد وماشيتها كأنما هى ملك خالص لهم ، ويشتطون حتى فى تحصيل أجور الدفن . وأعلن فى أحدها كيف أقر ربه بأسه فى قلوب ستة وثلاثين ألفاً من رعاياه ، وكيف وفقه إلى أن يسير على هديه ، ويعيد حرية Ama-ar-gi الأهلين الذين قاسوا المظالم ،

(١) مورتجات : المرجع السابق - ص١٢٦-١٢٧ ، حاشية ١٦٩ ، لوحة ١٢٦-١٢٧ .

(٢) انظر ل. ديلابورت : المرجع السابق ، ص٢٩ ، ١٦٢ .

Th. Jacobsen (J. author) *The Intellectual Adventures of Ancient Man*, 186.

فخفف عن الملاحين عبودية العمل فى مراكبهم لمصلحة نظار الملاحة ، وخفف عن الرعاة عبودية العمل وراء الحمير والأغنام لمصلحة نظار الماشية . ولاندرى هل عنى بذلك تخفيف ساعات العمل عليهم أم الحد من سلطة الرؤساء فى استغلالهم . وشجع ذلك كاتبه على أن يقول إنه لم يعد هناك جاب للضرائب فى عهده ، وروى كيف أنه لم يسمح لشخص كبير بأن يشترى داراً تجاور أملاكه إلا أدى فى مقابلها مايرضى صاحبها الفقير دون إجبار ، أو يشترى جحشاً دون أن يؤدى ثمنه لصاحبه . وأعلن استعداده أمام ربه نين جيرسو لرعاية الأرامل والأيتام وحماية الفقراء من الأغنياء (١) .

ويفهم من نصوص عهده أن إصلاحاته خففت أجر كاهن الدفن إلى ثلاث قدور من النبيذ وثمانين رغيفاً وتيس وأريكة (؟) ، بعد أن كان يتقاضى سبع قدور و٤٢٠ رغيفاً وتيسا وعدة أرائك . وخفض مرتبات بعض الكهنة إلى النصف ، وألزم العرافين فى المعابد بأن يقدمو تنبؤاتهم بغير مقابل ، بعد أن كانوا يشتطون فى فرض أجورهم عنها على الناس .

ومهما يكن من أمر تقدير إصلاحات أوروكاجينا باعتبارها مجرد تنظيمات إدارية أو باعتبارها بداية متواضعة لتشريعات العراق ، فإنه يبدو أن عصره كان يتطلب منهاجاً آخر إلى جانب منهاج الإصلاح المدنى الداخلى ، فقد ظهر فى أوما عدوة لجش اللدود حاكم طموح وهو لوجال «زاجيزى» ، استفاد من انصراف أهل لجش إلى حياة السلم ، فهاجمهم بجيشه وضرب مدينتهم وأساء إلى ملكهم ، وسجل أحد كتبة لجش ما أصاب بلده منه على لسان ملكه التقى ، فصور كيف اعتدى رجال أوما على هياكل الأرباب وأملاكهم وكيف نهبوا مدخراتها وحرقوها ، وعقب على ذلك بقوله «آذى رجال أوما لجش فأثموا فى حق نين جيرسو» . ثم توعدهم القصاص العادل فتنبأ لهم بأنهم سوف يفقدون بأسهم ، وبرر ذلك بقوله إنه ما من ذنب جناه ربه أو ملكه ، ملك جيرسو ، ولكن الذنب كله ذنب زاجيزى ، ولهذا فلن يحتمل إثمه وحده ، وإنما سوف تحتمله معه ربته نيدابا (أو نيسابا) فوق عنقها (٢) . ومعنى ذلك أن الناس كما كانوا يعتقدون أن المعبودات تشارك الحكام انتصاراتهم ، كانوا يعتقدون

(١) M. Lambert, "Les reformes d'Urukagina", *Revue d'assyriologie*, V, (1956), 169 f.; G.A. Barton, *The Royal Inscriptions*, 80 f.

(٢) *Op. cit.*, 90-91; *Vorderasiatische Bibliothek*, I, 58.



أنها تشاركهم أخطاءهم أيضاً .

وتجرأ زاجيزى بنصره فبدأ فى تنفيذ مشروع لم يجرؤ أسلافه على المضى فى تنفيذه ، وهو مشروع توحيد المدن السومرية تحت زعامته ، ونقل مركز نشاطه إلى أوروك ربما لسمعتها الحضارية والعقائدية القديمة ، واعتبر نفسه ملكاً على سومر «لوجال كالاما» ، (وربما سبقه إلى هذا الإدعاء حاكم آخر يدعى إنشاكو شانا ولكن لم يتحقق له مدلول إدعائه) (١) . ولم يهمل لوجال زاجيزى الاستعانة بالدين وأربابه وكان له فى نفسه رأى آخر يختلف عن رأى لجش فيه ، فادعى أن أرباب سومر رعوه ورددوا اسمه ونصبوه فى هياكلهم إنسيا للبلاد كلها ، وظل يعتبر نفسه كاهناً للإله آن إله أوروك الأكبر ، بل وادعى أنه الابن المولود للربة نيسابا وأنه رضيع اللبن المقدس من الربة نينخر ساج (٢) . وكتب أحد رجاله يقول على لسانه بعد أن عدد صلة مولاه بأربابه «عندما عهد إنليل رب الدنيا بملكية هذه الأرض إلى لوجال زاجيزى ، أقد العدالة فى الأرض وغلب بأسه البلاد من مشرق الشمس إلى مغربها ، وفرض الجزى على أهلها . وحقت السيادة لإنليل حينذاك من البحر الأسفل ، والدجلة والفرات ، إلى البحر الأعلى ، واستقرت أحوال البلاد فى سلام ، وسقيت الأرض بماء السعادة ..» ثم دعا زاجيزى لنفسه بقوله «أدام (الإله) عمرى أمد الحياة ، ونشر السلام على الأرض، وأزاد الجنود (أو الناس) بعدد حشائش الأرض ..» (٣) . ولعله رأى أن توحيد البلاد غاية غالية تبرر مايبذله من أجلها ومايمكن أن يلحق بالغير من أذى فى سبيلها ، وأنه كان فى إعلاء شأن دولته إعلاء لشأن ربه إنليل ، وأن حربه كانت حرباً مقدسة . ولم تقف آمال زاجيزى عند حدود بلده ، وإنما تطلع إلى مايمتد من البحر الأسفل (الخليج العربى) إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط أو بحر قزوين ؟) ، على حد دعواه ، وربما كانت له جهوده بالفعل فى سبيل تحقيق أطماعه ، لولا أن واجهته بوادر تغيير شامل سرت فى أوصال بلاد العراق كلها وقضت على آماله جميعها ، وكان أصحاب هذا التغيير هم الأكديون الساميون . وتعين على السومريين منذ ذلك الحين أى منذ أواسط القرن الرابع والعشرين ق.م أن يتمهلوا مع الزمن حتى أتيحت

---

(١) ل. ديلابورت : المرجع السابق – ص١٩ .

(٢) R. Labat. *Le Caractére Religieué de la Royoute Assyro-Babylonienne*,1939, 63 f.

(٣) Theureau-Dangin, *Konigsinchriften*, 219; G.A. Barton, *op. cit.*, 98-99.

لهم فرصة الظهور والغلبة مرة أخرى بعد أكثر من قرنين .

بيد أن السومريين وإن عز عليهم التوسع السياسى الكبير خارج حدودهم ، فإن حضارتهم لم يعوزها الانتشار السلمى الواسع ، فمدت جناحيها عن طرق التجارة على ضفتى الدجلة والفرات ، وتركت بصماتها على فنون دويلة آشور ، وفنون دويلة مارى (تل الحريرى قرب بوكمال والضفة اليمنى للفرات وكانت تغلب عليها الصبغة السامية قبل الأكدية وهو ماعبرت عنه حفائر تل خويرة فى منتصف مابين نهيرى الخابور والبليخ ، وحفائر حران (تل أبيض) ، فضلاً عن أطراف الشام الشرقية [١] .

استمر عصر بداية الأسرات السومرى أكثر من خمسة قرون ، غابت الوحدة السياسية فى أغلبها عن آفاق أهله كما مر بنا ، ولهذا كان من منطق الأشياء أن تتعدد الأساليب الفنية خلاله بتعدد دويلات مدنه وتعدد أذواق أهلها وحكامها ، لولا أن غياب الوحدة الفنية الكاملة عن أرض سوم لم يمنع من شيوع أساليب معينة منها على حساب أساليب أخرى من حين إلى حين ؛ نتيجة لتبادل المصنوعات الفنية الصغيرة بين المدن ، كالأختام الأسطوانية المنقوشة ، وتحف المعابد مثل رؤوس المقامع الرمزية وقوائم المباخر والموائد الفاخرة التى كانت تشكل بأشكال حيوانية وزخرفية لاتخلو من جمال .

واستشهدنا فيما مر بنا من تاريخ السومريين بما اقتضاه سياق الحديث عنهم من دلالات مناظر النصب ونصوصها ، وتطور فنون عمارة المعابد الأرضية والزقورات ، وسوف نتابع الحديث فى الصفحات التالية عن صور أخرى من نقوش الأختام والمقامع والأوانى واللوحات الصغيرة ، التى شاعت فى عصرهم من حيث أساليبها العامة ونماذجها الممتازة ، ومختارات من تماثيل الحكام والمعبودات ، فضلاً عن خصائص المساكن ومحتويات المقابر .

فقد شاع فى مناظر أختام الفترات الأولى من عصر بداية الأسرات السومرى ، أسلوب نقش تخطيطى بارز اكتفى فنانه بتصوير الخطوط العامة للأجسام ، واعتمد فيه

---

(١) See, M. Mallowan, *Iraq*, IX (1947); Pairot, *Syria*, XVI-XVII (1935-6); *Revue d'assyrilogie*, XXXI (1934), 180 f.; W. Andrae, *Die archaischen Ischtar temple in Assur*, Leipzig, 1922.

مورتجات : المرجع السابق – ص٨٢ وحاشية ٩٢ .

على تكرار وحدات محدودة كان يستغل مابينها من فراغات لتصوير أشكال نباتية وتجريدية عديدة . وانعكس صدى هذا الأسلوب على نقوش الأوانى الحجرية ورسوم الأوانى الفخارية ، وقرب فى الاصطلاح الفنى إلى مايسمى باسم Brocade Style وكانت نماذجه الأولى قد ظهرت منذ بواكير العصر الكتابى ثم اختفت حتى ظهرت ثانية في أوائل عصر بداية الأسرات السومرى . ويبدو أن تجدد ظهوره حينذاك ارتبط بقرب تأثر أهله بفنون مواطنهم الأولى ، أكثر من ارتباطه برغبتهم فى إحياء أسلوب عراقى قديم .

وتطورت نقوش الأختام بعد ذلك فى أواسط عصر بداية الأسرات السومرى ، وتميزت بتعدد موضوعات مناظرها وتداخل صورها وتقاطع أجزائها مع بعضها البعض ، واستغلال مابينها لتصوير رؤوس حيوانية ونباتات ورموز تخطيطية . واستحب فنانوها تصوير إخضاع الأبطال الأسطوريين للحيوانات الضارية مثل الأسود . واعتادوا تصوير أولئك الأبطال فى هيئات محورة مركبة من عناصر متباينة ترمز إلى قوى الطبيعة الخارقة ، كأن تجمع بين رؤوس البشر وأيديهم وأجسام وقرون الفحول . ونفذوا أشكالهم بخطوط عامة وزوايا حادة أحياناً ، وبخطوط لينة وزوايا منحنية حيناً آخر [٢] . واستبقى بعضهم أسلوب البروكيد وزادوه ثراء بزيادة تزاحم صوره ، كما زادوه حلية بترقيش بعض صوره بنقط وخطوط متقاطعة وترصيع عيونها بعجائن ملونة [٣] ؛ مما يعنى أنه ما من أسلوب فنى كان يستطيع أن يجب أسلوباً آخر ، وإن طغى عليه وزاد شيوعاً عنه .

ثم تخففت نقوش أختام المراحل الأخيرة لعصر بداية الأسرات السومرى من تقاطع الصور ، واستحبت الأشكال الممتلئة ذات الخطوط اللينة ، وحاولت أن توفر الفراغات المناسبة حولها ، وأن تستغل هذه الفراغات فى تسجيل نصوص قصيرة أحياناً . ومال فنانوها إلى إيثار الواقعية فى مناظرهم ، فقللوا صور الأبطال الخرافيين وأظهروا إلى جانبهم أبطالاً من البشر صوروهم عراة فى أغلب أحوالهم ، واهتموا

---

(١) See, Frankfort, *The Art and Architecture...*, 18-20, Fig. 8, pl. 11 a.

(٢) *Op. cit.*, Figs. 14*a-c*, 15a-b; 36 *a-b*; H. Heinrich, *Fara*, (1931), pls, 47a, 65c, 49f. 51 f.

(٣) Frankfort, *op. cit.*, 19, Fig. 9, pl. 11 *b*.

بإبراز تفاصيل الشعور والقرون والأجنحة فى صورهم [1] .

وواصلت النقوش السومرية سبيلها على رؤوس المقاطع الرمزية ، التى اعتاد الحكام وكبار الشخصيات أن يقتنوها فى قصورهم أو يهدوها إلى معابد أربابهم لعقد الصلة بين صفة المقاتلة فى أنفسهم ، ورعاة الحرب من أربابهم . وعلى سطوح الأوانى الحجرية والمعدنية ، ومن أمتع مايستشهد به منها نقوش آنية طقوس فضية كبيرة ذات قاعدة نحاسية أهداها انتمنا حاكم لجش لمعبود مدينته ، ونقش فنانها على سطوحها بضعة مناظر لحيوانات أليفة وكاسرة تسيطر عليها نسور المعبود نين جيرسو ذات رؤوس الأسود ، ونجح كل النجاح فى التعبير عن الحركة الطبيعية لماشية مضطجعة أو باركة ترفع كل منها ساقها الأمامية وترتكز على حافر ساقها الأخرى استعداداً للنهوض [2] .

واستحب فنان العهد هذه الحركة فكررها على لوحة صغيرة من الطين المشبع بالقار ، فصور شاة سمينة (أو بقرة صغيرة) راقدة ، تهم بالوقوف برفع إحدى قائمتيها الأماميتين . وعبر عن حركة أخرى لطيفة فى رمز معبوده فصور نسره المهيب يطأ ظهرى أسدين ، وهو تصوير معتاد على آثار المعبود نين جيرسو ، ولكنه صور الأسدين يتطاولان برأسيهما إلى أطراف جناحى النشر لينهشاها ، على خلاف المألوف فى تصوير أمثالهما ، وبهذا التحوير كفل الفنان الحيوية للوحته على الرغم من خشونة سطحها .

ولايكاد يفضل هذين النموذجين ، فى موضوعهما وعصرهما نفسه، غير نقوش لوحة مستطيلة مكسوة برقائق النحاس ، شكل الفنان سطحها بالنقش البارز على هيئة نسر قائم مهيب برأس أسد يبسط جناحيه من عل فوق وعلين يتدابران أمامه فى ثقة لاتقل تعبيراً عن تعبير مهابته، وتتفرع قرونهما على حافتى اللوحة فى إتقان ملحوظ[3] .

ومارس الفنانون السومريون تعبيراتهم الفنية القصيرة على لوحات حجرية صغيرة ، مستطيلة ومربعة ، ظهرت منذ أواسط عصر بداية الأسرات وشاعت فى

(١) *Ibid.*, 36-40 Fig. 16, pl. 40.

(٢) E. de Sarzec, L. Heuzey, *Decouverts en Chaldee*, p. 43.

مورتجات : المرجع السابق – لوحة ١١٣ .

(٣) Donal Hanson, *JNES*, XXII, 145 f.



أواخره ، وكانت تثبت في جدران هياكل المعابد بوصلات عن طريق فجوات صغيرة تتوسطها (١) ، لتظل شاهداً على ارتباط أصحابها بأربابهم ، وقد سمى أغلبها بلوحات النذور ، ووجد عديد منها في معبد إنانا في نفر ، ومما يسمى عصر ميسلم (٢) . ويبدو أن بعضاً آخر منها كانت تثبت في جدران قاعات البيوت الخاصة باعتبارها لوحات تذكارية ولأغراض الزخرف والزينة . وماثلتها لوحات خشبية فاخرة كسيت أحياناً بالنحاس المطروق ، وشكلت بعض صورها الصغيرة بالأصداف وطعمت إطاراتها باللازورد ، وكانت من غير شك من المقتنيات الغالية في القصور ، وتؤلف قطعاً من أثاثها الفاخر (٣) .

وسجلت نقوش هذه اللوحات (أو البطاقات) صوراً متنوعة من الحياة المدنية والحربية في مجتمعها ، في حدود ماسمح به ضيق مساحاتها ، فرمزت بصورها إلى المحافل الخاصة ومايدور فيها من غناء ورقص وموسيقى وشراب ، ومايجرى فيها من رعاية الخدم لسادتهم . وعادة مايظهر في حفلات الشراب رجل وامرأة متقابلين ، يمسك كل منهما كأس شرابه بيد وغصناً باليد الأخرى ، وتتوسطهما جرة شراب كبيرة ، ويحيط بهما الحضور والخدم والموسيقيون والراقصون (في أعداد محدودة) فضلاً عن حيوانات الأضاحي (٤). ورمز له بعضها بمناظرها إلى الأعياد العامة ومايدور فيها من مباريات المصارعة والملاكمة (؟) والرقص وتسلق الأشجار . وصورت الحكام يعودون بعرباتهم المدنية تجرها أربع دواب ، أو عرباتهم الحربية من ساحات القتال حيث يشرفون على إحصاء الغنائم والأسرى . وعبرت بعض المناظر عن هزائم الأعداء بتصوير قتلاهم تطؤهم عجلات الحرب ، وتصوير أسراهم جرحى متهالكين ، وملقين على الأرض مقيدين . وأكثرت من تصوير تقوى الحكام حين يشرعون في تشييد المعابد ويتأهبون للمشاركة في وضع لبناتها الأولى ، وتصوير تقوى الأفراد حين يتقدمون بقرابينهم أمام أربابهم ، وحين يشتركون في أعيادهم

---

(١) Hall and Woolley, *Ur Excavations*, pl. 1, 6.

(٢) Frankfort, *op. cit.*, 32-33.

(٣) *Ibid.*, 34-35, pls. 36-37; *Syria*, XVI (1935), pl. XXVIII; t. XX (1940), pl. VI, 4; Mackay, *A Sumerian palace... at Kish*, pls. XXXV-XXXVI; Frankfort, *Oriental Institute Discoveries in Iraq*, 1993, 1934, Fig. 25.

(٤) مورتجات : المرجع السابق – ص٨٧–٨٨ ، لوحات ٤٢–٤٩ .

وحين يسوقون نذورهم وأنعامهم هدايا لمعابدهم[1] .

وظلت النصب الحجرية واللوحات الكبيرة أصلح مما عداها لإشباع رغبات الحكام فى تسجيل أخبار انتصاراتهم وآيات تقواهم ومايعتزون به من أعمالهم ، وقد استعرضنا صوراً من مضمونها ودلالاتها حين الحديث عن مناظر المعابد ولوحة العقبان .

تقيدت أغلب النقوش السومرية السابقة بمبادئ الرسم والنقش الشائعة فى العالم القديم ، من حيث تصوير أشكالها فوق خطوط أفقية ترمز إلى الأرضية التى تقف عليها ، وتضمن استواء صفوفها ، وتفصل بينها وبين صفوف المناظر التى تصور تحتها ، (مع استثناءات قليلة غير مقصودة لذاتها تخلى الناقش فيها عن تصوير أمثال هذه الخطوط) [2] ، ثم من حيث تصوير وجه الإنسان وجذعه الأسفل من جانب مع تصوير عينه من أمام وتصوير كتفيه باتساعهما ، ومن حيث تصوير الأفراد يتعاقب الواحد منهم خلف الآخر حتى ولو كانوا يسيرون فى حقيقتهم فى جماعات مختلفة (مع استثناءات قليلة أيضاً) ، ثم من حيث تصوير الحكام بأحجام تزيد عن أحجام مرؤوسيهم وأتباعهم وأولادهم أيضاً (وهى المبادئ نفسها المستخدمة فى مصر القديمة أيضاً مع اختلاف النسب والأساليب) .

ولم يتخفف الفنانون السومريون من بعض هذه المبادئ إلا حين تصويرهم الكائنات الأسطورية والخرافية والحيوانات والطيور ، فصوروا بعض وجوهها كاملة من الأمام ، وصوروا أشكالها يتقاطع الواحد منها مع الآخر ، كما صوروا الجنود فى صفوف أفقية متراصة أحياناً .

واكتفت أغلب اللوحات السومرية بتصوير ملامح شخوصها البشرية بخطوطها العامة ، وقليلاً ماحفلت بإظهار تفاصيل الجسم كعضلات الصدر والذراعين (فى مثل لوحة أورنانشه) . وقد يرجع طابع العمومية فى صورها إلى صغر أحجامها وصعوبة

---

(١) E. de Sarzec-Heuzey, *op. cit.*, pl. 2 bis; C.L. Woolley, *Ur Excavations*, II, pl. 181; G. Contenau, *Manuel...*, Fig. 357; Fiankfort, *Sculpture...*, pl. 45, Nos. 105, 125; pl. 108 No. 188, pl. 109 No. 192; *More Sculpture*, pls. 62, 64 *b*. 65, 67 No. 327.

(٢) See, Frankfort, *The Art and Architecture*,... 19, pl. 11*a*.

تمثيل الملامح الشخصية فيها .

بيد أنه على الرغم من بساطة خطوط هذه اللوحات ، بل وخشونتها أحياناً ، فإنها لم تعجز فى أغلب أحوالها عن إعطاء صورة واضحة عن موضوعاتها وعن هيئات أهلها وتقاليدهم فى الزى والعبادة وعما كانوا يستخدمونه فى حياتهم اليومية من أدوات لم يتبق منها فى أرضهم غير القليل النادر .

وقد مهدنا بما صورته هذه النقوش من خصائص الشخصيات الكبيرة فى الهيئات والملابس ، فى بداية حديثنا عن الجنس السومرى وموطنه الأصيل . أما عن صور الأفراد العاديين فقد كان من صورهم الطريفة مايصور الحمالين يحملون أثقالهم على ظهورهم ويشدونها بحبال إلى جباههم [١] ، كما يفعل بعض الحمالين الشرقيين حتى اليوم . وظهر من صور حيواناتهم الأليفة كباش أفقية القرون (وجدت أمثالها فى مصر القديمة حتى عصور الدولة الوسطى) ، وأخرى ذات قرون منتصبة منفرجة ، وكباش طويلة الصوف وأبقار ذات بروز يشبه السنام فوق أعناقها (ولاتزال أمثالها موجودة حتى الآن فى بعض أقطار الشرقين الأدنى والأوسط) .

وصورت اللوحات السومرية نوعين من العربات : عربة صغيرة بعجلتين مصمتتين إلا من فتحة الدنجل [٢] ، وأخرى فاخرة بأربع عجلات مصمتة أيضاً يتكون جسمها من ثلاثة أجزاء : جزء أمامى ذى جانبين مرتفعين مفرغين تعلوه مظلة أو مظلتان ويخصص لوقوف صاحب العربة [٣] ، وجزء أوسط مربع أو مستطيل يشبه الصندوق يخصص لمرافقيه ، ثم جزء خلفى منخفض مسطح يمتد بمستوى أرضية العربة ويستخدم فى الصعود إلى العربة ولوقوف التابع حامل الرمح أو الجلوس السائس ووجهه إلى الخلف . ولاتختلف عربة الحرب عن العربة الخاصة عادة إلا بخلو جزئها الأمامى من المظلة ، مع تزويدها بالأسلحة وجعاب السهام [٤] . وغالباً ماتجر العربة أربع دواب صغيرة تشبه الحمير لولا أنها طويلة الذيول بما يشبه خيول

---

(١) *Op. cit...*, pl. 37 Lower.

(٢) *Ibid.*, pl. 33 *a*; Compare also pl. 20 *a*.

(٣) *Ibid.* pl. 36 Upper.

(٤) *Op. cit.*, pl. 36 Lower.

السيسى الصغيرة ، أو تجرها ثيران .

فن النحت : أدت قلة المحاجر الصالحة فى جنوب بلاد النهرين إلى صغر أحجام التماثيل السومرية، ونحت أغلب المعروف منها من أحجار لينة مثل الحجر الجيرى والألباستر ، مع قلة المصنوع منها من أحجار صلبة كالبازلت أو الديوريت .

وظلت تماثيل الأرباب أكبر حجماً مما سواها ، كى تعبر بضخامتها النسبية عن جلال أربابها وتدل على تقوى أصحاب الفضل فى إهدائها إلى معابدهم (وتختلف هذه التماثيل عن تماثيل العبادة الفعلية الصغيرة التى كانت تصنع عادة من مواد ثمينة أو من أخشاب تغشى برقائق ذهبية ومايشبهها) . ووجد أغلبها فى معابد منطقة ديالى فى تل أسمر وخفاجى وتل أجرب [1] . واحتفظت أرضية معبد تل أسمر (فى إشنونا القديمة) بثلاثة عشر تمثالاً لأرباب وربات وحكام وكهنة ، استمر أسلوب نحتها حتى أواسط عصر بداية الأسرات السومرى[2] . ويبدو أن الكهنة كانوا قد اكتنزوها فى أرضية معبدهم ، خلال إحدى مرات تجديده أو خلال فترة مضطربة خشوا فيها على مقتنياته .

ونحتت أغلب هذه التماثيل بخطوط جافة وزوايا حادة تشبه خطوط النقش السائدة فى أوائل عصر بداية الأسرات السومرى . وانصب أغلب الاهتمام فيها على تعبيرات وجوهها ، فأفرغ المثالون ماكانوا يتخيلونه من رهبة أربابهم على وجوهها ، وعبروا عن هذه الرهبة بضخامة الوجه وعرض الكتفين وشدة اتساع العينين وتحديقهما بما يحتمل أن يعبر عن وصف المعبود بأنه يصير ، أو وصف المتعبد بالانتباه والترقب لإجابة دعائه : ثم انطباقة الشفتين وكثافة شعر الرأس المجعد (المستعار) واسترساله على الكتفين أو على الصدر ، مع اتصال شعر اللحية المستطيلة بشعر الشارب واسترسال شعرها على الصدر فى تجاعيد أفقية حادة محورة تتناسب مع خطوط الأنف والشفتين وشعر الرأس . وغالباً مايكون الجذع العلوى عارياً ، ويلتف الجذع السفلى بنقبة قصيرة ذات هدب . وقد تتشابك اليدان أمام الصدر ، أو تمسكان بكأس ، وتكون المرافق بارزة .

---

(١) مورتجات : المرجع السابق – ص١٠٢ .

(٢) Frankfort, *Sculpture of the third millennium from Tell - Asmar and Khafaje*, 1930; *The Art and Architecture of the Ancient Orient*, 24, pls, 13-17.



وتضمنت هذه المجموعة تمثالين لمعبودتين ، بدت إحداهما رشيقة القوام ممتلئة الوجه طويلة الجيد ، يستدير شعرها حول رأسها وتلتف عباءتها حول جسدها وتترك كتفها اليمنى عارية ، ولايعيب نحت تمثالها غير شدة اتساع عينيها المستديرتين المطعمتين وبعض الحدة فى خطوط مرفقيها النحيلين .

ولايقل ميزة عنهما النصف العلوى لتمثال المعبود آبو ، الذى يحتمل أنه كان يمثل معها الشخصيتين الرئيستين فى طقوس الزواج المقدس (١) .

ووضح من تماثيل الكهنة فى المجموعة نفسها تمثال لكاهن حليق الرأس والشارب واللحية ، تتفق عيوب نحته مع عيوب تماثيل أربابه .

ووجدت فى الوقت نفسه تماثيل صغيرة لمتعبدين خاشعين من الرجال والنساء تعبر عن أن الفارق الواسع بينهم وبين معبوداتهم ، لايمكن عبوره إلا بالتذلل والخشوع والدعاء وتقديم القرابين (٢) .

وتخفف فن النحت منذ أواخر عصر بداية الأسرات السومرى من زواياه الحادة، واستحب ليونة السطوح واستدارة الأركان ، وحاول الفنانون أن يظهروا فيه طيات البطن ولغد الرقبة . وترسموا الأسلوب الوقعى فى التعبير عن الملامح الشخصية على وجوه بعض تماثيلهم ، وتفننوا فى تمثيل تصفيفات الشعر وأزياء الثياب لبعض تماثيل النساء . واستعانوا بإظهار البسمة الخفيفة على الشفاه للتخفيف من صلابة الوجوه وللاقتراب بها من عالم الناس ، ولو أنهم لم ينجحوا غير نجاح قليل فى التعبير عن هذه البسمة ، أو فى التخلص من جمود العيون وتحديقها مع تطعيمها بمواد مختلفة . واحتفظت حفائر مدن تل أجرب وخفاجى ومارى بمجموعة طيبة من هذه التماثيل ، نافست بعضها بعضاً فى التعبير عن أساليب عصرها وكفاية فنانيها وظهور الملامح السامية فيها . وقد تقرن هذه الأخيرة بتماثيل صغيرة أخرى ، وجدت فى تل خويرة بشمال سوريا (٣) .

واحتفظت منطقة لجش بتماثيل صغيرة جديدة تميز منها تمثال جالس للكاتب

---

(١) مورتجات : المرجع السابق – ص١٠٥-١٠٦ – لوحات ٥٩-٦٢ .

(٢) مورتجات : المرجع نفسه – ص٩٦ .

(٣) المرجع السابق – ص١٠٨-١١٣ ، ١١٥-١١٨ ، لوحات ٦٣-٦٨ ، ٦٩-٧٥ .

دودو بجسم ممتلئ ورأس حليقة وابتسامة خفيفة ونقبة نصفية ، وقد جمع يديه على صدره .

وقد تعاصره عدة تماثيل متربعة لأفراد وجدت فى خفاجي وتلو وتل العبيد ، وهى ذات طابع شخصى لطيف (١) .

وأدت التماثيل المعدنية دورها فى رواج الفنون السومرية الصغرى . وتمثل أغلب مابقى منها من مقتنيات المعابد فى رموز المعبودات ، وتماثيل النذور الحيوانية، وقوائم المباخر ، وقواعد أواني الدهون ، ونماذج العربات الصغيرة ومساند المشاعل ، وأطراف الموائد (٢) ، فضلاً عن بعض تماثيل الأفراد المتعبدين وحملة القرابين والنذور . وابتكر الفنانون السومريون لتحفهم تلك أشكالاً خفيفة الظل من عوالم الإنسان والحيوان والنبات ، ومن أمتع مايستشهد به منها قطعة معدنية أخرجتها حفائر أور ، لعنزة (أو جدى ؟) تتطاول على شجرة قصيرة ذات ساق محورة وفرعين يتماثلان فى أغصانهما وبراعمهما وزهورهما المعدنية ، وتطل برأسها فيما بينهما . ورصع الفنان خصل شعر العنزة الطويل بقطع من اللازورد والأصداف ثبتها بالقار على جسمها الخشبى . وارتكزت العنزة والشجيرة على قاعدة صغيرة كفتت بمعينات صغيرة يتعاقب فيها اللونان الأحمر والأبيض ، وصفحت أطرافها برقائق من الفضة(٣). ولايكاد يعيب تمثال العنزة فى منظرها الجانبى غير قصر رقبتها بحيث تبدو رأسها مدفونة بين كتفيها ، ثم وقوفها ثابتة على مجمع حافريها وليس طرفيهما؛ بحيث بدت فى وقفتها وبارتفاعها، وكأنها تتطلع إلى الشجيرة أو من خلالها دون الأكل من أوراقها (٤) .

من بقايا القصور :

ترجع إلى عصر بداية الأسرات أطلال أحد قصور حكام مدينة كيش ، وهو قصر بنى من اللبن فوق ربوة صناعية . وبقيت من أطلاله الأجزاء السفلى من

---

(١) المرجع نفسه : لوحات ١٠٦-١٠٨ .

(٢) Frankfort, *More Sculpture...*, pls. 54, 95; *The Art and Architecture...*, pl. 29, etc...

(٣) *Ibid.*, pl. 28 (Brit. Museum, hight, c. 50 cm).

(٤) قارن لهذا مناظر مصرية تتضمن عنصرى الشجرة والعنزة أيضاً ولكن بأشكال محورة أخرى: J. Leibovitch, *ASAE*, XLVIII, 245 f.



جدرانه المتماسكة ، وجزء من درجه ، وقواعد بعض أعمدته . ويبدو أن درجه الصاعد على سفح الربوة كان يؤدى إلى مدخل مزخرف ، يليه فناء مكشوف ذو أساطين من الآجر ، يمتد الضوء منه إلى الغرف الداخلية المتصلة به ، وقامت سقوف قاعات القصر الرئيسية على أساطين مماثلة ، وزينت بعض جدرانها بلوحات سوداء من الشست ، طعمت بأصداف ومناظر ترمز إلى انتصارات أصحاب القصر وجانب ، مما كان يجرى فى ضياعهم الزراعية من تربية الماشية والماعز وحليها وتربية الجداء، وقد نفذت بعض هذه الأشكال بإتقان بارع وفى حيوية لطيفة [١] .

المقابر :

لعل أمتع مايستشهد به من عادات الدفن ومحتويات المقابر أو حفر الموت الأعظم كما قال السومريون ، فى عصرهم الأول ، هو ماتضمنته مقابر مدينة أور[٢]، وهى مقابر كثيرة العدد بنيت أقبيتها باللبن تحت سطح الأرض وقرب زقورة المدينة ، وتراوحت أعداد الغرف فيها بين الواحدة والأربع ، وسقفت بعض غرفها بعقود . ومن أحدثها ومن أفضل مابقى سليماً منها مقبرة تنسب إلى عظيم يسمى مس كلام شار (أو مس كلام دج) ، وسيدة تسمى شوب آد ، ولازال الرأى متأرجحاً بين اعتبارهما من الأمراء الحكام أو من الكهنة ، وإن كان الاعتبار الأول هو الأرجح . وتضمنت هذه المقابر مادلت به على بعض عقائد الدفن عند أهلها ، وماعبرت به عن رقى الفن والصناعة ورقة أذواق فى عصرها . فقد جرت عادة أصحابها الأثرياء على دفن أتباعهم معهم ، من الجند والخدم والوصيفات والموسيقيات ، وسائقى العربات ، والثيران والحمير التى تجر العربات وتجر الزحافات الخشبية المستخدمة فى نقل الرفات . واختلفت أعداد هؤلاء الأتباع فى أكثر من ست عشرة مقبرة بين الأربعة وبين الأربعة والسبعين . ويفترض أنه كان يضحى بهم بالسم عند وفاة سادتهم ، ثم يدفنون معهم مع إبقاء جثثهم فى صورتها الدنيوية من حيث الملبس والزينة وأدوات الحرفة ، ودفن أقربهم مكانة من صاحب المقبرة معه فى حجرة دفنه ، وترتيب بقيتهم فى صفوف فيما بين مدخل المقبرة ومدخل حجرة الدفن . وليس مايمكن

(١) *Field Museum Anthropology Memories*, I (1929).

وانظر بقايا أطلال قصر حكم آخر في مدينة إريدو – مجلة سومر ٣١ (١٩٥٠) .

(٢) L. Woolley, *Ur Excavations, The Royal Cemetery*, 1934.

تأكيده حتى الآن عما إذا كانت عادة دفن الأتباع هذه قد ارتبطت بأمل أصحابها بحياة أخرى ودوا أن يصحبهم أتباعهم إليها ليقوموا على خدمتهم فيها , أم أنها ارتبطت بمجرد رغبة الأحياء فى تكريم عظمائهم عند موتهم وتحريم خدمة أتباعهم لسادة آخرين ، مع مايقتضيه ذلك من إجبار أولئك الأتباع على التظاهر بالولاء الأبدى لأرباب نعمتهم ورضاهم بالتضحية بأنفسهم من أجلهم . أم أنها عادة ارتبطت بتقاليد دينية تتصل بعقائد العبادة والآلهة أكثر مما تصل بأصحاب المقابر أنفسهم ، كافتراض التضحية بأفراد المواكب الدينية ، ومنهم أصحاب المقابر أنفسهم فى أعقاب أعياد رأس السنة الزراعية والزواج المقدس الذى يقوم فيه الحاكم وزوجته ، أو كبير الكهنة وكبيرة الكاهنات ، بالدور الرئيسى بعد أن يؤدى كل منهم دوره فيها ، من أجل استدرار رضا الأرباب ودوام الخصب فى البلاد . ووجدت فتحات فى سقوف بعض المقابر دفعت أصحاب الفرض الثالث إلى الظن باحتمال مرور أنابيب فخارية فيها تصلها بأرضية معابد أو مقاصير مقامة فوقها[1] . وعلى أية حال فلم تستمر التضحية البشرية طويلاً فى العصور التالية .

ودل مادفن به أصحاب المقابر السومرية وأتباعهم من حلى وأدوات متنوعة على ثراء كبير . ومن خير ماتحتفظ به المتاحف الآن من هذه الحلى والأدوات خوذ فاخرة صنعت إحداها من الذهب المطروق ، وخناجر ثمينة طعمت بعض مقابضها باللازورد وكسيت أغمادها برقائق ذهبية مزخرفة ، ونصال حراب ورؤوس بلط رمزية ، ودبابيس مذهبة وحلى ذهبية من خواتم لطيفة وأقراط مستديرة وأخرى مشكلة على هيئة وريقات الزهور ، وقلائد ذات حبات أنبوبية ، ودلايات مشكلة على هيئات الزهور ووريقات الشجر ، وعلب مزخرفة للدهون العطرة ، ومجموعة ذهبية من ملقط ومثقب وملعقة دهون علقت ثلاثتها فى حلقة فضية ، وعصائب ذهبية ، ورقعة داما مطعمة ، وأباريق وصحاف نحاسية وفضية ولوحة خشبية مطعمة باللازورد والصدف صورت على أحد وجهيها مناظر حربية دقيقة ، وصورت على وجهها الآخر مناظر من الحياة المدنية لملكها ويطلق عليها اصطلاحاً اسم لواء أور .

ومن أمتع أدوات الإستعمال الحرفى التى وجدت فى المقابر قيثارات مكفتة فاخرة ، شكلت مقدمة إحداها على هيئة رأس ثور ملتح بلغت حد الروعة فى تعبيراتها

---

(١) See, S. Smith, *JRAS*, 1928, 849 f.; F. Bohl, *AZ*, 1930, 83 f.; A. Moortgat, *Tammuz*, 1949; *CAH*, vol. I, Part 2 (3rd ed.), 1971.

ودقة تفاصيلها ودلالتها على يد بارعة متمكنة ، وطعم صدر صندوق القيثارة نفسها بمناظر حفل تعتبر من أرق مناظر فنون أور فى خفة الظل وجرأة التعبير . واختار فنانها شخوص الحفل من عالم الحيوان وخلع عليهم تصرفات الإنسان ، فصور ذئباً قائماً يتمنطق بحزام يثبت فيه سكينه ، ويقدم بين يديه مائدة حافلة بأطايب اللحوم ، ويتبعه أسد مهندم ، يحمل كأساً وقنينة شراب ، وصور داخل الحفل حماراً منهمكاً فى العزف على قيثارة يقيمها له دب كبير ، ويتقدمه نمس ينقر على دف ويهز الصلاصل ، وصور غزالة رشيقة تنتصب على قدميها لتقدم مبخرتين أو كأسين مرمريتين لمعبود بجسم عقرب [1] . وليس مايمكن تأكيده عما إذا كان الفنان قد اختار شخوص موضوعه لمجرد الفكاهة وإظهار البراعة فى التعبير ، أم قصد بها نوعاً من أنواع الكاريكاتير الهادفة ، أم اختارها للدلالة على مشاركة الكائنات المختلفة فى عيد من أعياد الأرباب . وعلى أية حال فقد تكررت هذه التعبيرات على ختم من العصر نفسه صور أسداً على عرش يعب من كأس يقدمها إليه وعل ، ومعه ثلاثة حمير تقوم على خدمته وإطرابه [2] . وختم آخر من تل أسمر صور أسداً وحماراً يمتصان شراباً بغابتين رفيعتين [3] .

ولاشك فى أنه كان لعصر بداية الأسرات السومرى آدابه ، كما كانت له عقائده وفنونه ، لولا أنه لم يكتشف من نصوص هذه الآداب غير نتف نادرة[4] . ويبدو أن أهله تناقلوها شفاهة أكثر مما توارثوها كتابة ، بحيث لم يعثر على مكتوباتها إلا بعد انتهاء عصرهم بفترة طويلة ، وبعد أن قل استخدام اللغة السومرية كلغة حديث عامة فى العصر الأكدى وخلال عصر الإحياء السومرى ومابعده [5] ، مما سنعرض له فى حينه .

* * *

(١) M. Ritten, Les animaus a attitudes humaines dans l'art de l'ancienne Mesopotamie", *Rec. Et. Semitiques*, 1938, 97 f.

(٢) L. Legrain, *Ur Excavations*, III (1936), pl. 20 No 384.

(٣) Frankfort, *Cylinder Seals*, 94 fig. 30.

(٤) Falkenstein, *Compte tendu..*, II, 18-19; A. Barton, *Miscellaneous Babylonian Inscriptions*, No. 1.

(٥) *See*, W.G. Lambert, *Babylonian Wisdom Literature*, 1960, 3 f.

العقائد الدينية والمعابد والزقورات السومرية :

أخذ السومريون بتعدد الأرباب والربات شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من أصحاب الديانات الوضعية القديمة . وسجلوا بعض أسماء أولئك الأرباب والربات بصيغ موجزة فى نقوشهم المبكرة ، ثم سجل خلفاؤهم لها ألقاباً عدة فى أساطير مسهبة التزموا فيها بصورها القديمة أحياناً ، وذكروها بصور مستحدثة أحياناً أخرى[١].

ويفهم مما سجله هؤلاء وهؤلاء أن ديانتهم كانت ديانة طبيعية فى مجملها ، وأن فقهاءهم تخيلوا السماء والأرض فى بداية أمرهما ملتصقتين يحيط بهما محيط مائى عظيم . وكان فى أولهما إله مذكر وهو «آن» أو «آنو» الذى اعتبروه الجد الأكبر للمعبودات ، وفى الثانية إلهة مؤنثة «كى» . ونتج عن اتصال هذين الزوجين ، عنصر ثالث وهو إنليل (رب) «ليل» أى رب الهواء والأنفاس والفضاء الذى تدخل بينهما وفصلهما ، ورفع أباه «آن» بسمائه إلى أعلى ، وحط بأمه «كى» إلى أسفل حيث اختلط بها ، وترتب على وجوده معها أن بدأ ظهور بقية الأرباب ، ومنهم من سموا باسم الأنوناكى الخمسين العظام والسبعة أصحاب المصائر ، ثم بدأ خلق النباتات والأنعام والناس .

وكان أكبر أبناء إنليل هو القمر (أو إله القمر) ننا أو ننار أو نانور ، وقيل إنه أنجبه سفاحاً بعد أن اغتصب الصبية المقدسة «ننليل» (على الرغم من ضيق مهبلها ورقة شفتيها كما قالوا) ، فأدت فعلته هذه إلى تجرؤ بقية الأرباب عليه ونعتهم إياه بالشراسة والخلاعة وأنه لاخلق له ورغبتهم فى نفيه ، على الرغم من أنه كان سيدهم وفى منزلة الأب منهم ، وعلى الرغم من عطفه السابق عليهم وعلى البشر[٢] .

وشارك أرباب السماء والهواء فى قدم النشأة ، عند السومريين ، «إنكى» روح الماء المحيط بالسماء والأرض ، ابن «عنصر الأمومة فى المحيط الأزلى» ، وزوج ننماخ السيدة العظمى التى لقبت أيضاً بلقب نينتو بمعنى السيدة الوالدة ، وقد وكل بالأعماق واتخذ مقره فى مياه العمق «آبسو» التى تخيل السومريون مركزها معبد آى-

---

(١) *See*, S. N. Kramer, *Sumerian Mythology*, 1944; H. Hooke, *Babylonian and Assyrian Religion*, 1953.

(٢) Kramer, *op. cit.*, 43 f.



أبسو (أي معبد البحار) في منطقة إريدو (أبي شهرين الحالية) أول مدينة هبطت الملكية إليها من السماء وحكم فيها أول ملكين من ملوك ما بعد الطوفان على غير مبعدة من الخليج العربي . وكان إنكي يعتبر إلها للماء وللحكمة ومقرراً لمصائر الأقطار والمدن وحافظ نواميس الحضارة في كل مظاهرها المادية والروحية ، والموصي بمظاهر الحياة إلى أربابها مثل دوموزي ، الذي عهد إليه بخصوبة الأنعام وخصوبة الأرض ، وإشكور الذي عهد إليه بأمر الرياح .

وروى كهنة إريدو أن إنكي ظل يحتفظ بنواميس الحضارة في أعماق آبسو بأرضهم حتى أغوته عنها إنانا ربة الزهرة وربة مدينة أوروك ، فأغرته بجمالها وشجعته على الشراب واللهو معها ، على الرغم من أنه كان منها في منزلة الوالد ، حتى وعدها بكلمته وأعطاها نواميسه وفنون الحضارة ، فلم استرد وعيه أرسل مبعوثه وأعوانه في إثرها ليسترجعوا منها نواميسه ويعطلوا مركبها ، ولكنهم فشلوا . وقد يعبر هذا عن حادثة تحول الزعامة الحضارية من إريدو إلى أوروك ووجهة نظر كهان إريدو في تفسيرها [1] .

وكما أنجب إنليل القمر ، اعتقد السومريون أن القمر بدوره أنجب الشمس (أو رب الشمس) «أوتو» باعتباره زوجاً أو أخا للمعبودة الأم إنانا ربة الزهرة (أو أمها الربة نين جال) .

وتوفر لإنليل دوره في تكييف مظاهر الطبيعة وخلقها ، فخلق الصيف «إيمشي» والشتاء «إينتين» ، وخص كلا منهما بمزياه وفوائده ، ولكنهما اختصما وتفاخرا وتنابذا، فانحاز هو إلى جانب الشتاء ، وفضله بما يكون فيه من حرث ونسل وتكاثر بين بني الإنسان والحيوان .

وكما تفاخر الصيف والشتاء ، عريد الأخوان لهار وأشنان ، رب الماشية وربة الغلال ، وتنابذا ، واعتز كل منهما بما عنده ، واحتكما إلى إنليل وإنكي ، فقضى الحكمان لصالح أشنان ربة الغلال دون أخيها [2] .

وهكذا مضى السومريون في تخيلاتهم بما لايختلف كثيراً عما تخيله غيرهم من أصحاب الديانات الوضعية الأوائل كالمصريين والكنعانيين القدامى . فافترضوا

(١) مورتجات : المرجع السابق – ١٨٧ .

(٢) صمويل كرامر : من ألواح سومر – لوحات ٥٢–٥٥ – الفصل ١٦ .

لكل ظاهرة طبيعية ربا أو ربة ، وافترضوا لأربابهم صوراً بشرية مضخمة وحياة تماثلها حياة البشر ، تزاوجوا فيها وتناسلوا ، وتحابوا وتخاصموا ، لولا أنها كانت حياة سرمدية ذات مقدرة مطلقة . واستقرت لأربابهم الكبار عبادات رئيسية فى مدن بعينها. فكان أكبر مراكز عبادة آن أو آنو فى أوروك ، كما أسلفنا حيث عرف معبده فيها باسم «أى – أنا» وأطلق اسمه على حى بأكمله [١] . واستقر أكبر مراكز عبادة إنليل فى مدينة نيبور (نفر) وسمى معبده فيها «إكور» ربما بمعنى البيت الجبلى . غير أن ذلك لم يحل دون انتشار عبادة مثل هذين الربين مع غيرها من الأرباب فى معابد صغرى بمدن أخرى كثيرة ، وهنا قد يلقب المعبود بلقب جديد ، أو ينسب إلى الحى الذى يوجد معبده فيه ، على نحو ما لقب إينورتا ، أحد أرباب الأعاصير والسحب الممطرة ورعاة الحرب ، وإبن إنليل ، فى مدينة لجش ، بلقب «نين جيرسو» ، وكانت جيرسو هذه ضاحية مقدسة تجاور لجش (وسمى معبده فيها إنينو) .

وعلى نحو ماتصور السومريون لمظاهر الطبيعة أرباباً عديدين ، أطلقوا على كل منهم صفة «دنجر» بمعنى إله ، تخيلوا لوجوه حضارتهم أرباباً ابتدعوها ورعوا أصحابها ، مثل «نابو» رب الكتابة . وردوا إلى أولئك الأرباب فضل إنشاء مدنهم وتنظيمها ووضع شرائعها ثم جمعوا إلى هؤلاء وهؤلاء أرباباً صغاراً لعلهم كانوا يشبهون الأولياء والقديسين فيما بعد ، اتخذهم الأفراد رعاة شخصين وحماة وشفعاء لهم لدى الأرباب الكبار ، الذين تخيلوهم بعيدين عن مستوى دنياهم ، بعيدين عن آفاق عقولهم ولم يكن أحدهم يجد بأساً من أن يعتبر معبوده الخاص (أو معبود أسرته) «راعيه الموكل به» و «ربه وأباه المقدس الذى أنجبه» .

وعلى نحو ماتصور السومريون أربابهم بهيئات بشرية كما أسلفنا ، رمزوا إليهم أحياناً بهيئات الحيوانات والطيور ، وصوروا أغلب رموزهم الحيوانية فى هيئات مركبة ، ومن ذلك القبيل أن رمزوا إلى معبودهم نين جيرسو بهيئة نسر مهيب بجناحين كبيرين ورأس أسد (أو رأس لبؤة) ، وكانوا إذا صوروه على هيئة بشرية جعلوا وجه الأسد شعاراً لردائه أو لمقعد عرشه ، أو لموطئ قدميه .

وفى خلق البشر وأسبابه ظهرت للسومريين تقديرات طريفة تعتمد فى مجملها على الإيمان بأن الناس ما خلقوا إلا ليعبدوا الأرباب ، ويخدموهم ويوفروا القرابين

---

(١) *cf. Sumer*, 1960, 3 f.

لمعابدهم . وشاعت لهم فى هذا السبيل روايات شتى أغلبها مضطرب مختلط ، ويفهم من بعضها أن أربابهم عاشوا فى بداية خلقهم هائمين كالسوائم ، لايقدرون على شيء من أمرهم ، حتى خلق إلههم الأكبر الأنعام من أجلهم ووكل بها «لهار» ، وأنبت الغلال ووكل بها «أشنان» (أخت لهار) ، فطعموا ونعموا ، ولكنهم لم يحسوا للشبع والرى طعماً ، فاتجهوا بضراعتهم إلى المعبود الحكيم «إنكيش» الذى كان حتى ذلك الحين سادراً فى مياه العمق غير عابئبهم ، ووسطوا لديه أمه نمو (روح الأمومة فى المحيط الأزلى) فبثت ضراعتهم إليه وقالت له فيما قالت « .. قم إذاً يابنى ، ولنصنع شيئاً لائقاً . لنصنع (بشراً) عبيداً للأرباب .. » فاستجاب لها وقال لها «أماه» إن الكائن الذى نطقت باسمه موجود ، فاربطى عليه صورة الآلهة (؟) . أضربى لب الطين الموجود فوق مياه العمق ، واجعلى أعوانك يكثفون الطين جيداً ، وشكلى أنت له أعضاءه وجوارحه ، وستعمل ننماخ من فوق يدك .. ، ثم قدرى مصيره يا أماه ، وستربط ننماخ عليه صورة الآلهة ، ذلك هو الإنسان ..» . وأرادت الأساطير أن تعلل خلق ناقصى التكوين بمنطقها ، فروت أن إنكى وننماخ (زوجته ؟) أسرفا ذات مرة فى الشراب ، فقبضت قبضة من طين مياه العمق (وأرادت أن تقلد أمه نمو) ، وخلقت منه ستة أنواع ، فخرجوا شواذا (ومنهم المرأة العقيم .. والمخنث) . وشاء إنكى أن يلهو بدوره ويجرب حظه فى الخلق ، فقبض قبضة من الطين وشكلها ، ولكنه فشل وصنع مخلوقاً لاروح فيه ، لايعرف الكلام ولا أكل الطعام ... [1] .

وتخيل السومريون فى بداية الخلق عصراً ذهبياً ، انعقدت الهيمنة فيه للمعبود «إنليل» . وصورت إحدى أساطيرهم المتأخرة مظاهر ذلك العصر ، فقالت إنه لم يكن فى الوجود حينذاك حية أو عقرب ، ولاضبع ولاسبع ، ولاكلب برى ولاذئب ، وما من خوف ولافزع ، ولم يكن للإنسان منافس . وفى غابر الأزمان كانت بلاد شوبر وهمازى (فى غرب إيران ؟) ، وأرض سومر كثيرة الخيرات ، البلد العظيم ذو النواميس المقدسة الخاصة بالإمارة ، وبلاد أورى (وسط بلاد النهرين وشمالها؟) التى حوت كل طريف ، وبلاد مارتو (بوادى العراق والشام) ، كانت كلها آمنة مطمئنة ،

---

(١) Kramer, *Sumerian Mythology*, 68 f.

كرامر : المرجع السابق – الفصل ١٣ .

وجميع الكون والناس فى وحدة وألفة ، يمجدون إنليل بلسان واحد ..» (١) .

وتناقل السومريون الأقدمون أسماء حكامهم وأبطالهم وزعمائهم الأوائل شفاهة فى سياق الأساطير ، وخلطوا بينها وبين أسماء أربابهم ، وظلوا يحتفظون بها حتى دون خلفاؤهم أخبارهم الأسطورية التى عرفوها عنهم فى قوائم مختلطة ، وذكروا أن العمران تركز قبل الطوفان فى خمس مدن كبيرة متعاقبة ، وهى : إريدو وبادتيبيرا ، ولاراك ، وسيبار ، وشورورباك . وأضافوا أنه حكم كلا من هذه المدن على التعاقب عدد من الأرباب وأنصاف الأرباب لفترات دامت آلاف السنين حتى أغرقها الطوفان. وعندما عاد العمران إلى أرض العراق بعد انحسار الطوفان ظهرت مدن أخرى كثيرة مثل كيش ، وأوروك ، وأور ، وأداب ، وماري ... ونسبوا أوائل الحكم فى هذه المدن إلى شخصيات أسطورية أيضاً قيل إنها عمرت هى الأخرى قروناً كثيرة ، ثم تواضعوا ونسبوا إلى بعض من عرفوهم من الحكام الفعليين قريبى العهد من عصورهم التاريخية عشرات محدودة من السنين (٢) . بيد أن مهما يكن فى هذه الأخبار الأسطورية التى تضمنها قوائم الملوك من مبالغات واختلافات ، فهى قد تضمنت حقيقتين ، وهما : فكرة حدوث طوفان قديم فى أرضهم ، ثم قيام أوضاعهم السياسية على أساس وجود المدن المستقلة المتفرقة .

وسوف نعرض لتفاصيل قصة الطوفان حين الحديث عن آداب السومريين فى أواخر عصرهم بعد قليل ، وحسبنا الآن عنها أن البحوث الأثرية الحديثة كشفت فى الطبقات السفلى العتيقة لمدن أور ، وشورورباك ، وكيش ، عن آثار فيضان كاسح طمس على عمرانها بطبقات من الطمى تراوح سمكها فى بعض المواضع بين نصف المترويين الثلاثة أمتار . ويرجع البعض هذا الطوفان إلى أوائل الألف الرابع ق.م ، بينما يرجع بعض آخر بداية عصر مابعد الفيضان إلى قبيل استقرار السومريين بالعراق فى أوائل الألف الثالث ق.م (٣) .

---

(١) Kramer, *From The Tablets of Sumer*, Ch. XXV; Kupper, *Les nomades en Mesopotamie*, 1957; Th. Jacobsen, *The Sumerian King List (Assyriologyical Studies* No. XI), 1939; E. A. Speiser, Ancient Mesopotamia, by R.C. Dentan, *The Idea of History in the Ancient Near East*, 1955, 35 f.

(٢) Mallowan, *op. cit.*, 243-244.

(٣) Woolley, *Excavations at Ur*, 28 f.; Martin A. Beek, *Atlas of Mesopotamia*, 1962, 12; Mallowan, *Iraq*, XXVI, 1964, 69 f., 74 f.

وكما جرى فى مصر القديمة وغيرها ، احتفظ حكام سومر الكبار الأوائل برئاسة شئون الديانة من الناحية الرسمية باعتبارهم خلفاء أو وكلاء عن أربابهم ، ولكنهم خلعوا الممارسة الفعلية للكهنوت على أبنائهم وكبار الكهنة والأعوان من الناحية الواقعية . واندرج فى سلك المعابد عدد كبير من طوائف الكهنة والكاهنات ، أولئك الذين كانوا يتلون التراتيل والتعاويذ والدعوات ، ويقدمون القرابين ويعنون بالتماثيل ومحتويات المعابد ويترجمون عن وحى ربهم واستخاراته ، ويقيمون أعياده بأناشيدهم وموسيقاهم ورقصاتهم ، ويرأسون شعائر العبادة ويفرضون وجودهم على شعائر الموتى. واحتفظت النصوص لهؤلاء الكهنة بألقاب كثيرة ، كانت منها ألقاب : إن ، وجونج ، ولو ماخ ، وسنجا ، وسنكوماخ .. إلخ .

ويبدو أن الإقبال على عمل الاستخارات وتعرف وحى الأرباب والاحتكام إليهم فى القضايا ، والقسم فى حضرة تماثيلهم ، كان أمراً شائعاً بين الكبار والعاديين من السومريين المتدينين ، وأصبح استيحاء الوحى بذلك مورد رزق واسع لطائفة العرافين، وهؤلاء روى خلفاؤهم عرافو العصور المتأخرة أن منهم من كانوا يمارسون مهنتهم عراة ، وأنهم تلقوا أسرار مهنتهم عن إنميدور إنكى أحد الملوك المقدسين ، الذين روت الأساطير أنهم حكموا العراق قبل الطوفان . وصورت بعض المناظر السومرية كهنها يؤدون وظائفهم عراة فعلاً (١) .

وكالعادة ظلت أطلال المعابد الرئيسية والقصور الكبيرة أكثر بقاء من غيرها ، وجرى السومريون على عادة سابقيهم فى بناء الهياكل الدينية الرئيسية فوق مسطحات عالية ، إلى جانب بناء المعابد الأرضى العادية . واشتهرت معابد المسطحات العالية (بعد تطويرها) باسم «زقورة» ويمعلى القمة المرتفعة أو المدببة . وأطلق السومريون اسم «شاخورو» بمعنى «قاعة الانتظار» على كل من الهيكل العلوى الذى يعلو بناء الزقورة ، وعلى القاعة التى تسبق قدس الأقداس فى المعابد الأرضية ، ويبدو أنهم عنوا به فى الحالة الأولى قاعة انتظار تجلى المعبود الأكبر للمدينة فى مناسبات خاصة ، ثم عرفوها بهذه الصفة باسم «جيجونو» . وليس مايعرف عن هذه المناسبات الخاصة غير إشارت تضمنتها نصوص متأخرة ، وتحدثت فيها عن أعياد رأس السنة (الزراعية) والزواج المقدس لبعض الأرباب ، وعلى رأسهم دوموزى رب

(١) J.B. Pritchard, *The Ancient Near East*, Fig. 154.



الإخصاب والرعاة ، الذى يظل حبيساً فى العالم الآخر ، خلال فصل الجفاف الذى يتراوح بين أسابيع وبين ستة شهور ، فتأسى عليه زوجته أو أمه ويشاركها الناس أساها بالعويل والرثاء والدعاء خلال شهر تموز قبيل بداية كل رأس سنة جديدة ، وتستمر طقوسهم حينذاك عدة أيام يتخيلون أن دوموزى قد تخلص بعدها من عالم الفناء وبعث من جديد ، وحينئذ يعلن الكهنة بداية الزواج المقدس فى هيكله ، كناية عن عودة خصوبة الأرض والأنعام وبداية موسم زراعى جديد ، وهكذا وصف دوموزى فى بعض نصوصه (المتأخرة أيضاً) بأنه زوج إشتار العروس ... خالق بذرة الكباش رؤوس القطعان» كما لقب بالثور البرى . وقد قيل عن رب مدينة لجش فى مناسبة مماثلة إنه حين يهبط للزواج المقدس بقرينته ، يكون كالعاصفة الهادرة والطير الجارح»[١]. ولازال الباحثون يرتبون على هذه الأعياد ، صوراً وتخريجات يستوحونها من النصوص والأساطير ولكن دون أن يصلوا بها إلى حد اليقين ، فيرى بعضهم أنه ليس المعبود وحده ، هو الذى كان يرجى أن يتزوج زواجاً رمزياً فى عيد رأس السنة وإنما اقتضت التقاليد كذلك بأن يدخل الحاكم الأعلى فى كل عيد بكاهنة يتخيرها ممن خصصن ونذرن أنفسهن للمعبودة إنانا ربة الحب والتوالد والأمومة (وصفات أخرى) ، ضماناً لخصب التربة وخصب الأرحام ، ويستشهد أصحاب هذا التخريج بوصف إيانا تم ملك لجش الأولى أنه الزوج المحبوب للمعبودة إنانا ، وإشارة جوديا ملك لجش الثانية إلى قيامه بدور الزوج لمعبودته باؤ وتأديته مراسم الزواج من اغتسال وتقديم للهدايا والقرابين . ثم الاستشهاد بأغنية سومرية متأخرة نوعاً تناجى العروس المقدسة فيها الملك (شوسين آخر ملوك أور) باعتباره عريسها ، وتذكر أنه أسر قلبها وأنها تواجهه واجفة ، ثم تخاطبه بقلب الأسد وتطلب إليه أن يحتبيها لنفسه ، وتعرض عليه أن تدلله بتدليل أشهى من الشهد ، وأن يدللها بدوره ويضاجعها حتى مطلع الفجر ...[٢] .

ويبدو أن أعياد الزواج هذه كانت تأخذ طابع المرح (بعد أيام النواح والدعاء) ، ويجرى فيها مايجرى فى الأفراح من ولائم ورقص وعزف وقصف ، ويدخل المحتفلون ومعهم الأغصان الخضراء وكؤوس الشراب على تمثال معبودهم ، الذى يمثل أحياناً يمسك كأس شرابه بين يديه هو الآخر . (وعثر فى معبد بمدينة خفاجى

(١) *Op. cit.*, 30.

(٢) S. Kramer, *Tablets...*, Ch. XXIII; *Turk. Belleten*, XVI, 345 f.



من أوائل العصر السومرى على أكثر من ٦٠٠ كأس مهشمة ، يبدو أنها كانت من مخلفات أمثال هذه الأعياد)(١) .

ولازال اسم دوموزى باقياً فى تسمية شهر تموز الذى كانت تجرى فيه مراسم الحزن على وفاته مقرونة بموت النبات صيفاً حيث الجفاف والشمس المحرقة ، بينما يحتفى بمراسم بعثه وزواجه فى شهر نيسان أول شهور السنة البابلية . وكان من تفسير اسم دوموزى أنه الابن المخلص والثور البرى ، وكان له وجهان كرب للرعى والرعاة ورب للإخصاب ونمو النبات (٢) ويمكن أن يقرن الاعتقاد فى البعث المتجدد لأوزير رب الخصب وخلوده فى مصر القديمة ، وقصة أدونيس عند الفينيقيين والإغريق ، وبعث الإله بعل عند الكنعانيين .

واحتفظت مدن العراق بأطلال بسيطة لمعابد العصر السومرى الأول ، ومنها معبد بلدة خفاجى الذى بنى وسط مساكن بلدته ، وشيد بالتخطيط المستطيل المعتاد فوق مسطح بلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار ونصف المتر ، وتقدمه (فى مرحلة تجديده الحادية عشرة) فناء صغير ، وأحاطت به حجرات جانبية ضمه معها سور بيضاوى . وتقدمت هذه المجموعة ساحة كبيرة أخرى ، تضمنت فيما يبدو مبانى الإدارة ومساكن الكهنة وأتباع المعبد ، وأحاط بهذه الساحة وبمجموعة المعبد معاً سور بيضاوى آخر كبير ، يحف بمدخله صرحان مرتفعان(٣) .

ومن نماذج أطلال المعابد الأخرى الباقية ، معبد فى العقير (جنوبى بغداد بنحو خمسين ميلا)(٤) ، تألف من دكة (أى مرتفع ممهد) على هيئة نصف الدائرة العلوى، شكلت جدرانها الخارجية بمشكاوات رأسية ، ولها درجان متقابلان فى نهايتى واجهتها ، ويعلوها مسطح يؤدى إليه درج . ويعلو هذا المسطح بناء المعبد العلوى وهو مستطيل شكلت جدرانه الخارجية بمشكاوات رأسية لونت بجص أبيض . وتألف المعبد فى داخله من مقصورة رئيسية ، تتضمن المذبح ومائدة القرابين ويحيط بها صفان من أربع حجرات . وكسيت جدران المقصورة الداخلية بملاط أبيض رسمت عليه

(١) Frankfort, *op. cit.*, pl. 13, p. 24, n. 25; *Sculpture of the Third Millennium...*, 1939, 45 f.

(٢) فاضل عبدالواحد : عشتار ومأساة تموز – طبعة ثانية – بغداد ١٩٨٦ ومراجعه .

(٣) P. Delougaz, *The temple oval at Khafaje*, Chicago, 1940.

(٤) كرامر : المرجع السابق : لوحات ٣٥–٣٧ .

أفاريز ملونة من أشكال هندسية وأشكال بشرية وحيوانية ، ومنها أشكال نمور أو لبؤات مرقطة رائعة التصوير بالنسبة لفنون عصرها .

واحتفظت بلدة العبيد بأطلال ثلاثة معابد متعاقبة بنى بعضها فوق أطلال بعض ، ويحتمل أن أولها وهو معبد ننخر ساج بدأه «آ – آنى – بدا» أحد ملوك أسرة أور الأولى فى عصر بداية الأسرات السومرى . وتضمنت أطلاله الباقية أجزاء بسيطة من قاعدته وجدران واجهته اللبنية ذات المشكاوات الرأسية ، ودرجاً حجرياً كان يؤدى إلى ربوته ، وعدة آثار فنية أخرى صغيرة ؛ مما سمح للأثرى الأستاذ وولى [1] بتخيل صورة تقريبية لما كان عليه هذا المعبد حين إنشائه ، ولو أنها صورة مغالية بعض الشيء بالنسبة لعصرها ، فهو يتخيله فوق مرتفع (مكسو) بالآجر ، يؤدى إليه درج عريض من الحجر المستورد ، ويقوم على رأس الدرج مدخل ذو أعمدة ، يربض على جانبيه أسدان نحاسيان فى حجمهما الطبيعى (؟) طعمت عيونهما وأسنانهما باليشب والصدف ، ورفعت أسكفة الباب على أسطوانتين من جذوع النخيل ، طعم مسطحاهما بصفوف من الفسيفساء ، مثبتة بالقار ومشكلة على هيئة مثلثات ومعينات تتعاقب فيها ألوان الأحمر والأسود ولون الصدف ، ويعلو الأسكفة لوحة مستطيلة صفحت بالنحاس، وشكلت واجهتها بشعار إله المعبد ، بينما زخرفت الجدران الداخلية الرئيسية لمقصورة المعبد بنقوش بارزة تمثل أنعاماً وعقداً من أزهار مختلفة ألوانها تعلوها أفاريز من لوحات خشبية محوطة بأطر نحاسية أرضيتها عجينة سوداء ، طعمت بقطع دقيقة من المحار والأصداف والحجر الجيرى تمثل صفوفاً من الطير وصفوفاً من الثيران يعلو بعضها بعضاً ، وتألفت صورة كل ثور من ست أو سبع قطع من الصدف صنعت ورتبت بحيث تعبر عن تدرج مسطح جسم الحيوان . ثم صفوف لبقرات حلوب وعجول صغار كممت أفواهها ؛ حتى لاتزيح الرجال الحالبين عن ضروع أمهاتها ومناظر تعبئة اللبن وصبه بأقماع فى قدور كبيرة ، وإعداد اللبن لعمل الزبد . ويضيف وولى إلى ذلك أنه كانت تلتصق بجدران المعبد تماثيل نحاسية ، وتتضمن داخليته تماثيل حجرية ومزاهر سجل عليها مهدوها الأتقياء أسماءهم . ولو أن هذا كله فيما يبدو لازال يحتمل الشك من حيث الصورة وربما من حيث الزمن أيضاً .

(١) *JNES*, II. No, 2; and *see, Iraq*, V (1938), 1 f. (for a similar temple at Al-Ubaid).

وعلى أية حال فقد صورت نقوش العصر وآثاره القليلة الباقية ، ماتضمنته معابده من كنوز فنية تناسب عهودها ، فصورت عروش الأرباب تحملها تماثيل الأسود والفحول الباركة ، وصورت موائد الطيوب والدهون تحملها تماثيل معدنية على هيئات حيوانية لطيفة (١) . وذلك بطبيعة الحال فضلاً عما كانت تتضمنه من تماثيل أربابها وحكام مدنها وربما كبار كهنتها أيضاً .

واعتاد بناة المعابد السومرية أن يضعوا فى أساساتها ودائع من تماثيل ولوحات وأوان ، تتناسب مع أهمية المعبد ورخاء عهده وثراء الحاكم فى بلده . وعادة ماكانت هذه الودائع توضع فى صناديق من الآجر الممزوج القار ، ويكون من تماثيل الحاكم الصغيرة فيها مايمثله يحمل قصعة ملاط على رأسه باعتباره بانى المعبد ورمزاً على اشتراكه الفعلى فى وضع أساسه (٢) . ويعتقد بعض الباحثين أن كلمة «هيكل» التى لاتزال تستعمل بين رجال الدين العبرانيين والمسيحيين ، كانت سومرية الأصل وكانت تكتب إكللو أو إجاللو (e-gallu) بمعنى البيت الجليل ، ثم انتقلت إلى العبرية وأضيفت إليها هاء التعريف وتناولها بعض التصحيف . وإذا صح ذلك انضاف إلى بقية تأثيرات العهود السومرية على ما أتى بعدها ، على الرغم من قدم زمنها .

* * *

(١) Frankfort, *The Art and Architecture*, Fig. 12.

(٢) جون هامرتون : تاريخ العالم - معرب بالقاهرة ، جـ٢ - شكل ص٥٥٤ .

E. de Sarzec & Heuzey, *Découverts en Chaldée*, pl. 2 ter; 5 bis.

الفصل الخامس عشر

العصر الأكدى

٢٣٤٠-٢١٨٠ (أو ٢٣٧١ - ٢٢٣٠) ق.م.

كان الأكديون فرعاً من هجرات سامية متوالية تكاثرت أعدادها فى بوادى العراق والشام قبيل منتصف الألف الثالث ق.م ، ثم انشعبت فروعاً كثيرة ، فكان منها ما انتشر فى نواحى الشام واتجهت آمال بعض جماعاته إلى مناطق الهلال الخصيب فيها ، كما كان منها ما اقتربت جماعاته من المناطق الخصبة فى أواسط حوض نهر الفرات بالعراق . وتقدم أن أصحاب الشعبة الأولى عرفوا باسم أطلقه السومريون عليهم وهو «الأموريون» ربما بمعنى أهل الغرب (وإن ذكرت نصوص بابلية أحد آلهتهم الكبرى باسم أمورو مما يحتمل معه نسبتهم إليه) . أما جماعات الشعبة الأخرى فكان أظهر فروعها فرع «الأكديين» الذين اكتسبوا اسمهم بالانتساب مؤخراً إلى العاصمة أكد (أو أجادة) التى أصبحت مركزاً لنشاطهم السياسى والحربى بعد فترة من استقرارهم بالعراق وبعد أن انتظمت أمورهم وعز شأنهم فيه .

وليس ثمة مايعرف يقيناً عن تفاصيل الظروف التى هيأت لهذا الفرع من الساميين الاستقرار فى بلاد النهرين والتأثير فى مجريات أمورها ، ولكن يمكن القول احتمالاً بأنهم بدأوا دخولهم إليها عن طريق التسلل البطئ على من تقدموهم من أوائل الساميين وربما من ترجم عنهم تجاوزا باسم الجزريين ، حيث وجدت أسماء وألفاظ سامية متفرقة فى نصوص سومر منذ أواسط الألف الثالث ق.م. ومن أقدم ما أمكن ترسمه من هذه الألفاظ كلمة مكر بمعنى تاجر ، وكلمة نانجار بمعنى نجار ، فضلاً عما ورد فى القوائم السومرية من تسمية بعض ملوك مابعد الطوفان بأسماء سامية ، بل واحتمال سبق الطوفان بملك آخر قديم سمى ألوليم وهو اسم سامى أيضاً [١] . ويبدو أن تطاحن المدن السومرية فى العراق الجنوبى من أجل الزعامة الداخلية صرف

(١) *See*, A. Deimel, *Die Inschriften von Fara*, I, 35, III, 5; Salonen, *Studia Orientalia*, XI, 1, 23; Falkenstein, *Compte rendu...*, II, 13.



أنظارها عما كان يجرى على أطراف الفرات ، على الرغم مما ادعته نصوص زعيمها زاجيزى السومرى من أنه استطاع أن يمد فتوحه من البحر الأدنى حتى البحر الأعلى بالعراق .

وفي هذه الظروف المحتملة ، انفسح سبيل السعى أمام أهل الهجرات الجديدة الفتية فنزلوا وسط الفرات أو وسط العراق على من سبقوهم من بنى عمومتهم أصحاب الدماء السامية القديمة المتناثرة ، وسيطر زعماؤهم على بضع مدن عتيقة كانت أهمها مدينة كيش صاحبة الأثر القديم فى مجريات الحوادث بين المدن السومرية الكبيرة الواقعة إلى جنوبها ، فاستفادوا من حضارتها ، هى وأمثالها ، وتأقلموا عليها شيئاً فشيئاً، ولم يكن لديهم مايضيفونه إليها وهم أنصاف بدو ، غير دماء فتية طموحة قدر لها فيما بعد ، كما سنرى بعد قليل ، أن تنجح فى تكوين أول دولة كبيرة مركزية مستقرة فى العراق ، وأن تشكل مستقبله الدولى خلال مايقرب من قرن ونصف قرن ، واستطاعت أن تذهب بولاء الأفراد والجماعات لمدنهم وزعمائهم المحليين ، إلى الولاء للدولة فى مجموعها ولحاكمها الأعلى الكبير ، ودعت إلى نوع من تعظيم أولى الأمر الكبار زكى فكرة تقديس كبار الحكام ونعتهم بنعوت الربوبية مما لم يكن له من قبل غير ظل خفيف ، وإن لم يسلم الجميع بصواب هذه الفكرة على سواء . وأدخلت معها ألفاظاً ومسميات سامية وجدت سبيلها إلى لغة العقائد والأدب وأسماء الأفراد (١) ، فأدخلت إلى مجالات الديانة اسمى سين وشمش ربى القمر والشمس ، إلى جانب اسميهما السومريين القديمين ننار وأوتو ، واسم إيا فى مقابل اسم إنكى رب المياه الأزلية والحكمة السومرى ، واسم المعبودة إشتار ربة الزهرة (وهى عشتار وعثترة وعشتروت عند الساميين الغربيين) التى شابهت إنانا السومرية . وربما عنى اسم إشتار فى بدايته معنى الإلهة ومعنى المقدسة ، والمنذورة للزواج المقدس (٢) . كما أدخلت معها بضع صفات ربانية مثل بعل بمعنى سيد ، وإيل (أو إل) بمعنى الإله (٣)

---

(١) J. Gelb, *Old Akkadian Writing and Grammar*, 1952.

(٢) فاضل عبدالواحد : المرجع السابق - ومراجعه - بغداد ١٩٨٦ - ص٣٢-٣٣ .

(٣) J. Bottéro, "Les Divinites Semitique Anciennes en Mesopotamie", *La Antiche Divinita Semitiche*, Rome 1958, 17-63; S. N. Kramer, 5.
Sumero-Akkadian Interconnections, Religious Ideas, *Recontre Assyriologique Internationale*, IX, 1960, 272-283.

فضلاً عن لقب «شار» أو «شاور» بمعنى ملك وقد حل محل لقب لوجال السومرى القديم . وألقاب كهنوتية مثل أشيبو بمعنى كهنة الطقوس ، وعدد كبير من أسماء الأفراد منها اسم يقرب من اسم «إشماعيل» (أو يشمع إل) ونرى له دلالة بالغة الأهمية، إذ أن ظهوره منذ أكثر من أربعة آلاف عام يدحض دعوى بعض غلاة اليهود ممن أرادوا أن يشككوا العرب الشماليين فيما تواتر عن نسبهم إلى اسماعيل عليه السلام ، بدعوى إن اسم اسماعيل لم يعرف له مثيل يسبق ظهور الإسلام بكثير ، على الرغم من ورود هذا الاسم فعلاً فيما لديهم من العهد القديم .

وتعاقب على حكم كيش عدد من الرؤساء الجدد ، ثم ورث العرش عنهم أو اغتصبه منهم شخص من الساميين اشتهر باسم شروكين ، وذكر عن نفسه في نقوشه أنه نشأ من أصل متواضع ، وأنه لم يعرف أباه ، وأن أخواله استحبوا حياة المرتفعات ، وأن أمه ولدته خفية فى مدينة أزوبيرانو على ضفة الفرات ثم وضعته فى سلة من البوص أحكمت غطاءها بالقار وألقت بها في النهر ، فاحتمله الماء حتى انتشله فلاح مبارك يدعى أكي وهو يعمل بالشادوف على ضفة النهر ، فاتخذه ولداً وعلمه صنعة البستانى ، ثم شملته الربة إشتار (وهى عشتار عند الساميين الغربيين كما أسلفنا) بحبها ورفعت قدره [1] ، ولم يقصد الرجل إظهار التواضع بهذه الرواية بقدر ماتعمد تأكيد عصاميته ورعاية الربة له ووصوله إلى اعتلاء العرش بفضل تأييدها . ومن المستبعد أن يكون قد سلم بولادته سفاحاً ، وإنما قد يفسر عدم معرفته لأبيه بأن أمه كانت ممن وهبن عفافهن لربها ومعبده ، أو كبير كهنته من حيث الواقع تدليلاً على تبتلها فى خدمته وتضحيتها بعفافها فى سبيل خير مدينته . ويبدو أنه بعد أن شب عن طوقه وصل فى مدارج نجاحه الوظيفية إلى مرتبة ساقى القصر الملكى بكيش ثم وثب على عرشها فى ظروف غير معروفة .

اعتلى ذلك الرجل العرش باسم شروكين (Sharru-ken) ، أى الملك الصادق ، أو الملك الشرعي ، أو شيء من هذا القبيل [2] ، واعتادت كتب التاريخ على أن تحور هذا الاسم إلى نطقه الإغريقى وهو سرجون، وسوف نجرى فيما يلى على استخدام هذا

(١) L. W. King, *Chronicles conecrning early Babylonian kings*, II, 86 f.; E. A. Speiser, *ANET*, 1955, 119.

(٢) Brit. Mus. 26, 472, *cf.* J. Lewey, *Hebrew Union College Annual*, XIX, (1946), 420, 480.



الاسم الأخير لشيوعه على الرغم من تحريفه . ووجه الرجل عنايته منذ أيام حكمه الأولى إلى قواته المحارية ، واستخدام الأسلحة البرونزية ، وزاد الاهتمام منذ عهده بتقوية الفرق ذات الأسلحة الخفيفة من القواسة ، وارتقت فى جيشه أساليب المبارزة الفردية ، مما يتفق مع الأصل شبه البدوى له ولبنى جلدته فى هذا الجيش .

اتخذ سرجون عاصمة جديدة قريبة من كيش عرفها التاريخ باسم أجادة (السومرى) واسم أكد (السامى) أو عمل على تجديدها ، ربما باعتبارها من المراكز الرئيسية لعبادة الربة إشتار (أو عشتار التى اعتبرها راعيته منذ صغره) ، وكان معبدها فيها يسمى «يولماء»[1] ، ونقل إليها بلاطه ليتميز عهده من عهود من سبقوه شكلاً وموضوعاً ، ومهد لآماله الداخلية بتلقيب نفسه بلقب «ملك أرض سومر وأكد» (Sharru mat Shumeri u Akkade) بعد أن قصرت همة معاصره زاجيزى السومرى على لقب ملك سومر وحدها . ثم مهد لأطماعه الخارجية بأن ادعى لنفسه لقب «شاركبرات أربعيم» ، أى ملك الجهات (أو الأركان أو المناطق) الأربع[2] ، وهو لقب اعتاد أسلافه أن يصفوا به سلطان أربابهم الكبار . فانتحله لنفسه وابتغى أن يقنع به نفسه ويقنع شعبه بأنه نائب الأرباب على جهات الأرض كلها .

وطال عهد سرجون نحو أربعة وخمسين عاماً ، فاستطاع أن يحقق الكثير من آماله ، وسارت سياسته على أساس خطة مرسومة ، وبدأ بما هو أقرب إليه ، فدعم سيطرته على أصحاب الرؤوس السود ، على حد تعبير نصوصه ، ثم اتجه إلى شمال العراق حيث تقل سيطرة السومريين ، وواصل فتوحه هناك حتى بلغت جيوشه جبال زاجوراس التى تحف ببلاد النهرين وكسرت حدة الجوتيين الجبليين الأشداء بأسلحتها البرونزية . وبعد أن أمن ظهره واستفاد من موارد المناطق الشمالية ، عاد سرجون وألقى بثقل جيوشه على المناطق الجنوبية السومرية وقد سبقته شهرته وسمعة انتصاراته إليها فخضت من شوكتها ، وشدد على زعيمها الطموح زاجيزى الذى طال عهده ، فهدم بجيشه أسوار مدينته وقسا فى معاملته حتى ذكر أحد نصوصه أنه أمر بتطويق عنقه وجره حتى بوابة إنليل[3]، ربما ليخلع عنه ألقابه الدينية والدنيوية أمام

---

(١) Th. J. Meek, *ANET*, 165, n. 33.

(٢) وازى هذا اللقب لقب سومرى تتألف كتابته من المقاطع «آن - أوب - دا - لو - با» ، ثم عبر الآشوريون عن مثله بلقب «شار كشتي» بمعنى ملك الكون .

(٣) G. A. Barton, *op. cit.*, 101; Leo Oppenheim, *ANET*, 267.

المعبود إنليل ويخلعها على نفسه ، ثم هاجم بجيوشه بقية المدن السومرية الكبيرة من أمثال أور وإينمار وغيرهما ، وبلغ بجيوشه البحر (أى الخليج العربى) وغسل سلاحه فيه ، وحق له حينذاك لقبه الذى ادعاه لنفسه وهو لقب ملك أرض سومر وأكد ، وتوافرت لدولته الموحدة منذ ذلك الحين إمكانات بشرية وموارد مادية ضخمة لم تتهيأ لدويلات المدن السومرية أو السامية القديمة قبل عهده ، كما توافرت لها السيطرة على شرايين التجارة الرئيسية فى معظم بلاد النهرين .

وبقى لسرجون أمله الآخر ، وهو السيطرة على مايستطيع السيطرة عليه فيما وراء حدود بلاده ، لتأمين سلامتها وتأمين سبل تجارتها الخارجية وضمان تزويدها بما ينقصها من المواد الأولية ، فضلاً عن إشباع شهوة المجد الحربى عنده وحب الشهرة والرغبة فى الاستزادة من النفوذ والسلطان . فوجد جيوشه إلى التخوم الغربية لدولته ، وبدأ بالمنطقة المحيطة بدويلة مارى «وجعل فمها واحدا»[1] أى وحد كلمتها أو وحد حكمها تحت سلطانه ، ثم وجه جيوشه إلى الحدود الغربية لدولة إلام (عيلام) ، حيث حالفها النصر ، فترتب على ذلك أن وقفت إلام كما وقفت مارى موقف الطاعة منه على حد رواية نصوصه . وأصبح لدولته بعض الإشراف على المناطق التجارية المتصلة بالخليج العربى والقريبة منه ، مثل جزيرة دلمون (جزيرة البحرين) ، وماچان التى يحتمل أنها كانت تشغل ماتشغله عمان الحالية ، وملوخا التى يحتمل وقوعها بين المنطقتين السابقتين . وكانت ثلاثتها من البلاد البحرية والساحلية ذات الخبرة بالملاحة وصناعة السفن ، فسارت سفنها على مياه أكد ، على حد قوله ، أو بمنى آخر سارت السفن المصنوعة من أخشابها وبأيدى رجالها فى الفرات حتى جاوزت عاصمته أكد .

وأضافت نصوص سرجون ، إن حقاً وإن ادعاء ، أن سلطانه امتد حتى غابة الأرز وجبل الفضة ، وقد يعنى هذا بلوغه منطقة أمانوس المنتجة للأخشاب والفضة (إن لم يعن منطقتى لبنان وطوروس) . وذكرت أنه خاض أربعاً وثلاثين معركة وانتصر فيها[2] . ثم نسبت إلى نصوص خلفائه أنه غزا جانيش (أوبور شخاندا - قرب جول تبة الحالية) فى كبادوكيا بآسيا الصغرى انتصاراً لجالية أكدية كانت تتعامل فيها

(١) Brit. Mus., 26, 472; Oppenheim, *op. cit.*, 266.

(٢) Anno Poebel, *Historical Texts*, 1914, 175, 178; L. Oppenheim, *op. cit*,. 268.

فى الصوف والفضة وتعرضت لاضطهاد أحد الحكام المحليين فيها (وهو نورداجان ملك بور شخاندا) ، فأخذ سرجون بثأرها . وهاجمتها جيوشه ، وقيل إن رجاله أرسلوا منها فسائل جديدة من التين والكروم والأزهار إلى بساتين عاصمته[1]. ولاضرورة للتسليم بحرفية هذه الرواية وأشباهها ، وإن لم تخل من دلالة على ماتوافر للرجل من شهرة بين خلفائه بحيث اعتبروه أهلاً لكل أمر عظيم ، واعتبروا نهضة عهده أصلاً لامتداد نفوذهم الخارجى ودليلاً على قدمه . وتذكرنا نجدة سرجون فى أكد لمواطنيه فى آسيا الصغرى بنجدة المعتصم فى بغداد المجاورة لها لمن استنجدت به فى عمورية بآسيا الصغرى أيضاً – مع الفارق الزمنى الكبير بينهما .

ذاعت شهرة سرجون إلى هذه الجدود فى عالمه القديم ، وذكرت نصوصه أن أهل بلاطه انتشروا فيما لايقل عن خمسة أميال مربعة حول قصره ، وأن حراس قصره بلغوا ٥٤٠٠ جندى كانوا يأكلون يومياً من أسمطته[2] . وليس من شك فى أن عهد هذا الرجل يعتبر نقطة تحول رئيسية فى تاريخ بلاد النهرين لأكثر من سبب واحد : فهو كما رأينا كان من عمل على توحيد أجزاء كبيرة منها تحت زعامة سياسة واحدة ، بينما لم تزد آمال سابقيه الأقربين على توحيد أرض سومر وحدها . وهو أول من ثبت دعائم أسرة سامية حاكمة قوية استمرت تعتلى العرش نحواً من قرن ونصف قرن . ويغلب على الظن أنه حدثت فى عهده محاولة من أقدم المحاولات لتقريب أسماء الشهور فى المدن العراقية من بعضها البعض ؛ تمهيداً لتوحيد التقاويم فيها ، وإن لم يقدر لهذه المحاولة استمرار طويل . ولايقل أهمية عن ذلك كله أنه وبعض خلفائه الأقربين كانوا أول من حققوا لبلاد النهرين نفوذاً خارجياً سيطرت به على بعض مايجاورها حدودها من مناطق وجماعات[3] .

ومع ذلك كله انتهت حياة سرجون السياسية على غير ماتوقعه لنفسه ، فنشبت ضده ثورات عدة ، وأيدت هذه الثورات جماهير سهل سوبارتو ، وبلغ من عنف الثوار

---

(١) *Boghazkoi-Studien (Yale Oriental Series)*, facs. 6 ; Albright, *JSOR*, 1923, 1 f.

ل. ديلابورت : المرجع السابق – ص٣٢– وروى عن سرجون أنه وصل (أى وصل نفوذه) حتى كفتارة ، وقد قربها بعض الباحثين إلى كفتورة التوراة أو كريت الحالية ، وهو أمر مشكوك فيه .

G. Roux, *Ancient Iraq*, 1966, 143.

(٢) Ebeling, in Alt. *Texte zum alten Testament*, 338; Oppenheim, *op. cit.*, 268.

(٣) H. E. Hirsch, Die Insehriften der Konige von Agade, *AFO*, XX, 1963, 1-82.

أن حاصروا عاصمته ، ولكنه قاومهم بجيشه وشتت شملهم ثم انتقم من مدنهم . وعندما ابتغت نصوص خلفائه أن تجد تفسيراً للمتاعب التى واجهها فى خواتيم عمره، ردتها إلى انتقام إلهي ، وذكرت أنه كان قد نكل بمدينة بابل مدينة الرب مردوك فى ثورة غضبه وأزال أساساتها الموسومة باسمه ثم أعاد بناءها على هواه ، فغضب مردوك عليه وابتلى قومه بالمجاعة وفرق شملهم من حوله وقضى عليه بعدم الراحة (فى قبره)(١). ولايعنينا من هذا التفسير الدينى إلا اعتباره صورة من تخيلات الشعور القديمة عن أسباب زوال الدول ، وبخاصة أن عبادة مردوك لم يكن لها شأن كبير فى أيامه ، وأن نصوص سرجون صورته حريصاً على التقرب من أربابه واعتبرته رئيس كهنة إشتار ، والكاهن المنتخب للإله آنو ملك الأرض ، والإنسى العظيم لإنليل . وذكرت أنه ركع ذات مرة فى صلاته أمام المعبود داجان(٢) ، كما نصب ابنته كاهنة لإله القمر ننار فى أور .

لم تنته القلاقل فى الدولة الأكدية بانتصارات سرجون العجوز ، وإنما استمرت فى عهود خلفائه واستنفذت بعض جهود دولتهم ، فاشتبكت جيوش ولده «ريموش» فى فترة حكمه القصيرة مع مدن أور وأوما ولجش ودير من عواصم الحضارة السومرية الأولية(٣) . وإن كان صراع جيوشه معها لم يصرفه عن أن يؤكد انتسابه إلى أرباب مدينة «كيش» السومرية القديمة ، فاستمسك بلقب «شارو - كيش شاتيم» وهو لقب وصل بينه وبين ربها «آنو» وحاشيته ، ولم يصرفه كذلك عن مواصلة جهود أبيه فى مجالات التوسع الخارجى ، فشنت جيوشه حروباً ظافرة على أرض فى عيلام(٤) . ثم واصل خليفته «مانيشتوسو» سياسته وادعت نصوصه أن جيوشه هاجمت حلفاً من اثنين وثلاثين أميراً على الشاطئ العيلامى لتأمين استغلال مناجم الفضة القريبة منه(٥) .

---

(١) Brit. Mus. 26, 472; E. Ebeling, *op. cit.*, 336; L. Oppenheim, *op. cit.*, F. F. Weidner, *Archiv fur Orientforschung*, XIII (1940-1944), 236, n. 26.

(٢) E. Ebeling, *op. cit.*, ; L. Oppenheim, *op. cit.*, 268.

(٣) زعمت نصوصه أن ضحايا هذه المدن السومرية بلغوا ٨٠٤٠ رجلاً مرة ، و ٨٩٠٠ مرة أخرى ، غير أعداد الأسرى فى المرتين .

(٤) ديلابورت : المرجع السابق - ص٣٤ .

(٥) V. Scheil, *MAP*, II, 1-52; *RISA*, 129-31; G. Roux, *op. cit.*, 144.



غير أن أكبر من يقرنه التاريخ بسرجون من رجالات أسرته هو حفيده البعيد نرام سين الذى أكمل آماله بعزيمة راسخة ، وتوافر له عهد حكم طويل استمر نحو ٣٦ عاماً ، وذكرت نصوصه أن مناطق نفوذ دولته اتسعت شرقاً فى إلام (عيلام) وشمالاً على حدود آسيا الصغرى وجنوباً بشرق فى ماجان التى استغل رجاله محاجرها الديوريتية ، وغرباً حتى أمانوس (جبل الأرز) . وذكرت إحدى القوائم المتأخرة التى سجلها خلفاؤه أنه قبض بنفسه على مانو دانو ملك ماجان . وافترض بعض الباحثين ومنهم أولبرايت فى عام ١٩٢٠ رأياً غريباً بعيداً عن المنطق الزمنى والمنطق التاريخى زعموا فيه أن ماجان هى مصر القديمة وأن مانو دانو هو تحريف لاسم الملك منى أول ملوك عصورها التاريخية (مع أنه حكم قبل عهد نرام سين بثمانية قرون) . وعاد أولبرايت فاعتذر عن تورطه فى هذا التخريج وأصبح رأيه غير ذى موضوع [١] . وروت نصوص نرام سين أنه غلب تسعة جيوش وأسر ثلاثة ملوك وقضى على ثورة تزعمتها ضده مدينة كيش . وربما يسر للنشاط الأكدى أن يمد أطرافه إلى قرب الشام أن مصر كانت تمر حين ذاك بأواخر عصر الانتقال الأول أو بداية الدولة الوسطى ولم تكن تبغى غير أن تؤيد روابطها بجيرانها فى الخارج عن طريق الحضارة دون السيطرة والغلبة . وعلى أية حال فليس من ضرورة للتسليم بحرفية ما جاءت به نصوص نرام سين عن انتصاراته المتكررة أو توسعه المتصل، وإنما يكفى القول أنه أحيى عهد سرجون فى نشاطه العسكرى وسمعته الخارجية ، وأن توسعه هو وجده البعيد قد ساعد على انتشار الصبغة الأكدية السامية فى صورها اللغوية والأدبية الجديدة ، وبنواحيها الفنية ، فى بعض المناطق المجاورة شمالاً وغرباً وجنوباً بشرق ، حيث تبادلت التأثير والتأثر مع غيرها . ووجدت لوحة مدرسية تتضمن جزءاً من موضوع تاريخى باللغة الأكدية ، كما احتفظت مدينة مارى بنصوص ذات صبغة أكدية عتيقة ، إلى جانب أمثلة قليلة أخرى[٢] .

---

(١) *See*, Albright, "Mines and Naram-Sin", *JEA*, VI, 29 f.; A. Ungand, *Archiv fur Orientforscehung*, XIV, (1941-1944), 199 f.

and Compare : Sayce, *JEA*, VI, 296; Langdon, *JEA*, VII, 123 f.

(٢) I. J. Gelb, *Material for the Assyrian Dictionary*, I, No. 172; *Revue d'Assyriologie*, L., 1-10.

الفنون فى العصر الأكدى :

تنسب إلى عهد سرجون بضعة أجزاء مهشمة من نصب وجد فى سوسه ، تصوره نقوشه تحت مظلة على رأس جنوده ، وهو يجمع أعداءه الأسرى فى شبكته أمام معبودته إشتار التى تعتلى عرشها ، أى إنه يقوم بمثل ماتضمنته لوحة العقبان السومرية باسم ملكها إأناتم ومعبوده نين جرسو(١) .

ووجد قرص من الحجر الكلسى تصور نقوشه الأميرة إن خيدو أنا ابنة سرجون وهى تصب الماء المقدس وتتقدم موكب القربان ، وكانت قد اختيرت عروساً مقدسة لمعبود أور(٢) .

وثمة جزء من نصب من الألباستر بقى مما نقش عليه صف من الأسرى العراة قيدت أذرعهم ووضعت أعناقهم فى النير ، وقد اختلفت ملامحهم بما يعبر عن تعدد جنسياتهم . وظهر السادة المنتصرون بشيلان طويلة تغطى الكتفين وتتقاطع على الصدر ، ولهم شعور ولحى كثة تكاد تكون مقدمة مبكرة للأشكال الآشورية (٣) .

وسجل أحد فنانى نرام سين انتصاره على بعض خصومه (ملوك سودورى ولولوبو فيما وراء دجلة) من المرتفعات الشرقية على لوحة مخروطية الشكل تشبه هيئة المسلة من الحجر الرملى ويبلغ أقصى ارتفاعها مترين وأقصى عرضها متراً ، كانت قد أقيمت فى معبد الشمس فى مدينة سيبار ثم نقلت فيما بعد إلى مدينة سوسه . وتعتبر مناظرها من أمتع النقوش الأكدية المتأثرة بالفن السومرى حيوية وحركة . وقد صور الملك فيها بجسم فارع مشدود على الرغم من لحيته الطويلة الكثة ، وبقوسه المزدوج وخوذته وتاجه ذى القرون وصندله ذى الشرائط ، يسير قدماً برجاله ليهاجم بهم حصن أعدائه ، وصور مقدمى جيشه وحملة ألويته يتقدمون صاعدين معه سفح التل الذى يقوم الحصن فوقه ويتخللون أدغاله (التى عبر عنها بشجرة هرمة) ، وأبدع الفنان تصوير حركتهم الصاعدة وتصوير العمق بين صفيهم ، وأظهر مبلغ أوامر الملك يأمر بها من خلفه ، ونافخ البوق يرتكز على الأرض بيده ويشرع بوقه عالياً ليرسل صوته قوياً مدوياً ، كما صور بعض الأعداء يتساقطون من سفح التل على أم رؤوسهم،

---

(١) مورتجات : المرجع السابق – ص١٥٧-١٥٩ ، لوحات ١٢٥-٢٢٧ .

(٢) المرجع نفسه – ص١٥٩-١٦١ ، لوحة ١٢٨ .

(٣) المرجع نفسه – ص١٦٦ ، لوحتا ١٣٦-١٣٧ .

وصور بعضاً آخر يتراجعون ويهبطون التل هبوطاً اضطرارياً عمودياً ، وكأنه أراد أن يعبر عن التباين الحركى المتصل بين ارتقاء فى جانب وبين هبوط فى جانب آخر ، ثم جعل غاية الركب قمة جبل عظيم تتوجه رموز مقدسة محورة قد ترمز إلى الثالوث الملكى ثالوث القمر والشمس والزهرة .

واكتفى فنان اللوحة بتصوير الخطوط العامة فى وجوه رجاله دون تفصيل ، فيما خلا وجه الملك ، ولكنه عوض عمومية ملامح الوجوه بالتعبير عن القوة الدافعة فى نفوس أصحابها عن طريق تمثيل صدورهم الناهضة ورؤوسهم المشرعة واختلاف المستويات بين سيقانهم خلال عملية التسلق ، وصور ثيابهم رقيقة تكاد تشف عن أجسادهم على غير العادة فى أغلب الصور العراقية القديمة [١] .

وفى النحت طبعت الروح الأكدية فنون عصرها بطابعها ، فنحت المثالون لملوكهم الكبار تماثيل تقرب من أحجامهم الطبيعية وشكلوها بالملامح السامية الصلبة الدقيقة . وكانوا قد ورثوا عن أواخر العصر السومرى الأسلوب الواقعى فهذبوه ، ومن خير مايستشهد به من إنتاجهم الفنى رأس ملكية (لعلها للملك نرام سين) صنعت من البرونز بما يقرب من الحجم الطبيعى[٢] ، تخلى فنانها عن عادة التعبير باتساع محجرى العينين وشدة تحديقهما عن شدة بأس الحكام ومهابتهم ، وعبر عن شخصية نبيلة قبل كل شىء ، فاكتفى بتمثيل العين اللوزية السامية فى حجمها الطبيعى وأرخى جفنها الأعلى قليلاً ، ولانت يده فى التعبير عن انحدار صحفتى الخدين وامتلاء الشفتين ودقة عظام الأنف ، وعنى بتمثيل اللحية المرجلة ولكنه أعطاها فى مجملها ملامح اللحية الطبيعية ووصل بينها وبين شعر الفودين وشعر الشارب ، وترك خصل

---

(١) *See*, Groenewegen-Frankfort, *Arrest and Movement*, 162 f.

ورجع عن نصب أخرى ونقوش مختلفة من عهد نرام سين :

Sidney Smith, *Early History of Assyria*, 96 f.; L. W. King, *A History of Sumer and Akkad*, 245, Fig. 59; *Geographical Journal*, LXV, (1925), 63 f.

ديلابورت : المرجع السابق – شكل ٢٨ وص١١٢ ، مورتجات : المرجع السابق – ص١٧٨–١٨١، لوحتا ١٥٥–١٥٦ .

(٢) Frankfort, *op. cit.*, Pls. 42-43; *Annuals of Archaeology and Anthropology*, Liver-pool, XIX, (1932).

مورتجات : المرجع السابق – ص١٧٨ ، لوحة ١٥٤ .

الشعر الطبيعى الممشطة تتهدل على الجبهة بعد أن سوى أطرافها ، ومثل فى مؤخرتها غطاء الرأس أو الخوذة الملكية ، بعصابة مجدولة ذات شريط ذهبى، تبرز مقدمتها قليلاً إلى الأمام على هيئة العمامة، وتنعقد مؤخرتها (مع جملة الشعر) من الخلف بحلقات معدنية ، وتنسدل تحتها ضفائر صغيرة تنهدل على العنق ....

ومارس الفنانون مهارتهم فى الحجر . وبقيت من إنتاجهم عدة تماثيل للملك مانشتوسو بن سرجون وبعض كبار رجاله تميزت بتجسيد العضلات تحت الملابس(١). ويضاف إليها تمثال معبودة جالسة قد تمثل إشتار(٢) ، وتمثالان لمتعبد واقف يحمل حملاً منذوراً بين ذراعيه(٣). وبقيت من إنتاجهم كذلك عدة رؤوس حجرية اختلفت فيما بينها فى درجات الإجادة وسلامة التعبير ، ومثلت رجالاً ونساء من أور ومارى وآشور ونحتت من الكلس والألباستر والديوريت(٤) .

– واستفادت نقوش الأختام من الأساليب الراقية التى انتهى إليها عصر بداية الأسرات السومرى ، فحافظت على الخطوط الممتلئة اللينة ، واستفادت من تنوع الموضوعات ، ولكنها تأثرت إلى جانب ذلك بروح الكفاح الملحمى فى عصرها فعبرت عن مناظر الصراع الأسطورية القديمة تعبيراً منطقياً يظهر الجهد والعزم والحركة ولايعتمد فقط على تصوير البطش والهيئة المخيفة ، ومن ذلك أن صورت إحداها بطلها بجسم الفحل، يعصر رقبة أسد بيسراه، ويستعين على ذلك بالارتكاز على إحدى ركبتيه وطرف قدمه ، ولم تجد بأساً فى أن تظهر علامات الجهد واضحة على ملامحه حين يرفع الأسد بكتفيه(٥) .

وعمل تقدير الأكديين للتراث السومرى على تشجيع فنانيهم على أن ينهلوا من

---

(١) مورتجات : المرجع السابق – ص١٧٩–١٧٣ ، لوحات ١٣٩–١٤٦ .

(٢) المرجع نفسه : ص١٥٩ ، لوحة ١٢٨ .

(٣) المرجع نفسه : ص١٥٩ ، لوحة ١٢٩ .

(٤) Frankfort, *More Sculpture*, Pls. 68, 72; G. Contenau, *Manuel...*, 685, Figs. 474-5; *Bulletin of the Fogg Museum of Art*, Harvard University, IX, (1939), 13-18.
Frankfort, *op. cit.*, Pl. 45 a (Brit. Mus., 91478).

مورتجات : المرجع السابق – لوحات ١٣١–١٣٣ .

(٥) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 45 a (Brit. Mus., 91478).



أساطيره وعقائده ويترجموا عنها فى نقوش الأختام تعبيراً أكثر تفصيلاً من تعبيرات العصر السومرى نفسه . ومن هذا القبيل أن نقش على ختم صغير من اللازورد مشهد قتال بين ثلاث معبودات فى جانب ، وخمس فى جانب آخر . وقد صوروا إله الجو يستقل عربته التى تصدر عن قرقعتها أصوات الرعد ويجرها مارد ينفث اللهب من فمه [1] ، وصوروه فى حالة غضبه يصوب سهامه على فحل السماء[2] . وصوروا بعض مواقف أسطورة «زو» ذى الجناحين والمخالب الذى سرق ألواح القدر من ربه الأكبر إنليل[3] . وعبروا عن هيئات تقديم القرابين أمام تماثيل المعبودات بخطوط ومناظر واضحة لطيفة[4]. وصوروا بعض تيجان المعبودات ذات القرون بما يماثل هيئات عمائمهم المخروطية التى تشبه القواقع ، وزادوا أعداد القرون الزوجية على رؤوس أربابهم الكبار[5] .

وينسب إلى أختام العصر الأكدى ومايقاربه (فيما سبقه وما تلاه) موضوع يمكن أن تقارن تفاصيله بفكرة المصريين القدماء عن إله الشمس . فقد صور الفنانون العراقيون فى هذه الفترة معبودهم الشمسى على عرشه تنبثق الأشعة من كتفيه على هيئة ألسنة اللهب ، ويجذف بمجذاف طويل فى قارب كبير من البوص والألياف المجدولة ، وتوجوا مؤخرة قاربه برأس صل كبير . وصوروا معه فى بعض مناظره أسداً بوجه بشرى . كما صوروه يخرج فى ساعة الشروق بهيئة بشرية من بين جبلين، ثم صوروه فى ساعة الغروب ينحدر بجسده فى قلب جبل عميق ويرفع بإحدى يديه غصناً ، وبالأخرى سكيناً ذات حافة مشرشرة ، ومن حوله إيا رب الحكمة، ونينورتا رب الحرب والعواصف ، ومعبودة مجنحة [6] .

---

(١) *Ibid.*, 45 b.

(٢) *Ibid.*, P. 46.

(٣) ديلابورت : المرجع السابق – شكل ٣٠ .
and See; T. Fise, "The Zu Bird" *Bull. of the Rylands' Library*, XXXI, (1948), 162 f.

(٤) Frankfort, op. cit., Fig. 17 a.

(٥) *Ibid.*, Fig. 17 b.

(٦) A. Parrot, *in Studia Marina*, 117 f.; Frankfort, *op. cit.*, Figs. 15b, 17 b.
ديلابورت : المرجع السابق .

وكان كل من مركب إله الشمس والصل والأسد وجبل الشروق ، واختفاء الشمس فى جبل بعيد ، من عناصر ديانة الشمس فى عقائد مصر القديمة . فهل عرفها العراقيون عن المصريون ثم نفذوا تصويرها بأسلوبهم الخاص ، وربطوا بينها وبين أساطيرهم الدينية ؟ ذلك أمر محتمل ، وإن تضمنت المناظر العراقية فى الوقت ذاته عناصر أخرى تختلف عن التصورات الشمسية فى مصر ، اختلافاً ملحوظاً .

وغالباً ماشفع صناع الأختام مناظر أختامهم بنصوص قصيرة مرتبة ، وتركوا على بعض سطوحها فراغات ليسجل فيها شارى الختم اسمه(١) . واتبعوا فى استغلال سطوح الأشكال المصورة عليها ، والخرافية منها بوجه خاص ، أسلوباً قد يقبل ذوق وينفر منه آخر ، وهو ترقيش جسومها ورؤوسها بحبيبات وخطوط وتموجات تعبر عن الشعور والمخالب وزخارف الملابس .

وتخلفت بعض وثائق المعاملات الأكدية الصغيرة ، ومن نماذجها إيصال يتحدث عن مقدار من الشعير عهد به فلاح إلى تاجر ليبيعه باسمه فى سوق مدينة لولوبوم (قرب السليمانية وشرق كركوك الحالية) ، وسجل كاتب الإيصال صنف الشعير ووزنه بالكور (٢) .

وتقرير صغير آخر عين كاتبه فيها مقادير الغلال التى تسلمها منه شخص معين ذكره باسمه واسم بلده ، وكان عليه أن يصرفها لعدد من الرجال والنساء والأطفال شهراً بشهر لمدى أربعة شهور ، وجعل نصيب رئيس العمال ١٢٠ كو شهرياً، ولأربعة عمال ٦٠ كو (للواحد ؟) ، ولجاريتين ٣٠ كو ، ولولدين ٣٠ كو ، ولطفلين ٢٠ كو ، ولبنتين ٢٠ كو . ثم جمع المقادير كلها فى الشهر فأصبحت كوراً و٢٦٠ كو (والكور يساوى ٣٠٠ كو) ، وفى الأربعة شهور ٧ كور و ١٤٠ كو(٣) .

* * *

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, 44, Pl. 45.

(٢) Th. J. Meek, *ANET*, 217.

(٣) *Ibidem*.



نهاية دولة :

أسلفنا أنه ترتب على جهود عهد سرجون وعهد نرام سين بخاصة أن اصطبغت حضارات بعض المناطق المجاورة لأطراف العراق بصبغة ثقافية متجانسة إلى حد ما ، فوجد الخط المسمارى سبيله على المسالك التجارية إلى عدد غير قليل من مراكز الاستقرار المدنى، فيما يجاور العراق من أطراف شمال سوريا وجنوب آسيا الصغرى وسواحل إلام (عيلام) ، كما انتقلت معه إليها بعض مظاهر الدين العراقى وأساطيره .

غير أن الدولة الأكدية وإن نجحت فى أغراضها التوسعية والحضارية، إلا أنها لم تبرأ من بذور فشلها السياسى ، ولعل أهمها تأثيراً فيها هو أن ملوكها تعمدوا محاباة العنصر الأكدى على حساب العنصر السومرى ، وأسرفوا فى تأكيد مظاهر سلطانهم الفردى ، بحيث أصبح من أعوانهم من يسمى ولده شروكين إيلى بمعنى سرجون إلهى ، وأصبح أنصار نرام سين يرمزون إليه، كما لو كان إله أكد وإله بلده وصوروه بتاج الأرباب [1] على حين أصبح حكام المدن فى عهده يلقبون بخدم الملك أو عبيده[2]. وإذا كانت محاباة العنصر الأكدى قد وجدت مبرراتها لدى الحكام فى منطقية استعانتهم ببنى جلدتهم الساميين واطمئنانهم إلى إخلاصهم ، كما برروا الحكم المركزى بما يفيد الصالح العام للدولة ، إلا أن هذا التطور أدى إلى تذمر المدن السومرية ذات الحضارة القديمة والنظام اللامركزى من حكم الأكديين ، ومحاولاتها المتكررة للانسلاخ عن جسم الدولة منذ أواخر عهد سرجون نفسه .

غير أن ذلك كله لم يمنع الملوك الأكديين من إظهار تقواهم وتأكيد صلاتهم بمعبودات دولتهم ، سومريين وساميين ، على نحو ماذكرنا عن سياسة سرجون ، عن طريق إنشاء المعابد أو تجديدها وتوسيعها ، مثلما فعلوا مع معبد إنليل فى نيبور السومرية ، وهو المسمى إكور ، وقد تضمن إلى جانب تماثيل معبوده تماثيل أخرى لعدد من ملوك الأسرة الأكدية لتأكيد صلاتهم بمعبود المعبد من ناحية ، وتكريماً لأنفسهم فى شخوص تماثيلهم من ناحية أخرى ، وكانوا يخصصون لهذه التماثيل أوقافاً للإنفاق منها على القائمين على رعايتها وتقديم القرابين أمامها . وظلت نصوص أشباه هذه التماثيل ، وما كان يصحبها من النصب المنقوشة ، مصدراً لما

(١) ديلابورت : المرجع السابق – ص١٧٥ .

(٢) Frankfort, *Kingship and the Gods*, Ch. XXI; *The Birth of Civilization*, 74.

احتفظت به نصوص العصور العراقية المتأخرة عن حوادث العصر الأكدى وتتابع ملوكه .

لم تتأت الأخطار التى حاقت بالدولة الأكدية من داخلها فحسب ، وإنما هددتها فى الوقت نفسه أخطار حدودية تمثلت فى تحركات قبائل الجوتيين الذين لايعرف التاريخ عنهم إلا أنهم من أهل الجبال ، ولعلها جبال زاجوراس أو المرتفعات الشرقية والشمالية الشرقية ، وأن من الأقاليم التى نسبوا إليها إقليم شهر زور الذى ارتبط فيما بعد باسم اللولوبى أو اللولوبيين . وقد استكانوا لجبروت الدولة الأكدية فى فترات بأسها، وتعلموا من جيوشها أساليب الحرب المنظمة وعتادها ، ولكنهم ظلوا متنمرين لها يتحينون الفرص للانقلاب عليها . وقد تعددت المناوشات بين جماعاتهم وبينها من حين إلى آخر ، لاسيما بعد عهد نرام سين ، وكانت هذه المناوشات تنتهى بانتصاراتهم حيناً وانهزامهم حيناً آخر .

واستمر العاملان ينخران فى جسم الدولة ، الانشقاق الداخلى وتهديدات الجوتيين . واشتد الشقاق الداخلى بعد وفاة شارجالى شارى بن نرام سين أو حفيده ، بحيث تعاقب على العرش بعده أربعة ملوك فى ثلاثة أعوام ، واستقلت أوروك وتعاقب عليها هى الأخرى خمسة ملوك محليون فيما لايزيد عن ربع القرن .

وشيئاً فشيئاً ، وفى ظل هذه الظروف ، تدفق الجوتيون على أرض الزراعة بالعراق وفرضوا وجودهم على أغلب أجزائها فى فترات الضعف الأخيرة للدولة ، وأذاقوا أهل المدن المتحضرة القديمة الأمرين من بأسهم ، ووصفهم أحد الأدباء السومريين حينذاك بأنهم وحوش الجبال الذين فتكوا بالسكان واغتصبوا النساء من أزواجهم وسلبوا الأطفال من أمهاتهم ، وعملوا على فساد الحكم ونهبوا سومر ونقلوا كنوزها معهم إلى الجبال . وذلك وصف قد يتفق مع ماهو معروف عن خشونة الجماعات الجبلية ، لولا أنه يصور وجهة نظر واحدة وهى وجهة نظر خصومهم ، مما يستوجب التحفظ فى التسليم به .

ومرة أخرى شاء أهل الدين والأساطير فى نفر أن يبرروا زوال مجد أكد والأكديين فردوه إلى إثم نرام سين ورجاله فى حق إكور معبد إنليل فى نفر ، وقصوا فى رواياتهم أن إنليل كان قد أهلك كيش وأوروك ، وبارك فى سرجون ووهبه السيادة كما بارك فى أجادة (أكد) التى زاد مجدها بتدبير ربتها الحامية إنانا فحلت الحكمة فيها كما انتشر الثراء ، وبلغت أوجها فى عهد نرام سين فرفع أسوارها كالجبال وكانت

أبوابها مفتوحة يأتيها المارتو وهم القوم الذين لايعرفون الغلة ، وأهل ملوخا قوم الأرض السوداء ، كما يأتيها العيلاميون من الشرق ، والسوباريون من الشمال ، وكلهم يحمل هداياه كل شهر وفى مطلع العام ، ثم أصبحت أبواب أجادة مطروحة ساقطة ، وتركت إنانا هداياهم وحل الرعب فى (معبدها) أولماش وصبت نقمتها على المدينة فولت عنها السيادة وأصبحت خراباً يباباً ، وأخذ نرام سين ينعيها ، وكان قد عصى إنليل سبع سنوات وأذن لجنده بمهاجمة معبده إكور فنهبوه ودمروه حتى «أصبح البيت وقد تمدد كالشاب الميت المطروح ، وقطعت الغلة من الباب الذى لم تكن الغلة تنقطع عنه» ، ونهبوا نفر نفسها «فهاج إنليل وقذفهم بأهل الجبال الجوتيين فعم القحط والجوع أرض سومر كلها وتفشى فيها الرعب والغلاء والوباء وتهددت بالفناء ، وحينئذ انبرى ثمانية أرباب منهم سين وإنكى ونينورتا وأوتو ونيدابا ووعدوه بتدمير أجادة عسى أن يكشف الضر عن بقية البلاد ، وواجهوا أجادة ونطقوا بلعنة الخراب عليها ودعوا عليها بأن يعود طوبها إلى أصله (الطينى) فى ماء العمق ، وتذبح زوجاتها عوضاً عن بقراتها وتذبح أبناءها عوضاً عن أغنامها ، وينضب منها كل شىء ...» وانتهت الرواية بتأكيد حدوث ذلك كله ، وبأن من أراد أن يسكن أجادة لم يعد فيها موضعاً للسكنى ، ومن أراد النوم فيها لم يعد يجد فيها موضعاً ينام فيه[1] .

غير أن هذا التصوير لزوال الدولة الأكدية لم يمنع الكاتب السومرى من أن يعترف بالحقيقة الواقعة التى ترتبت على زوالها ، وهى أنه تلاها عصر لم يكن يعرف أحد فيه الملك من غير الملك ، نتيجة فيما يبدو لكثرة أدعياء الحكم وكثرة المتسيطرين من الجوتيين .

ومع توالى الأيام ، خفت حدة الجوتيين وخشونتهم رويداً رويداً ، ولم يكن أمامهم وهم غير ذوى ثقافة فكرية راقية إلا أن ينهلوا من معين الثقافة السومرية الأكدية فاصطبغوا بها وعبدوا أربابها مع أربابهم [2] ، وإن كان من المحتمل أنه توافر لهم بعض الأثر فى طبع فنون عصرهم بطابعهم الخاص[3] . ويبدو أنهم اتخذوا مدينة

---

(١) كرامر : من ألواح سومر – ملحق ١ ، ص٣٨٩-٣٩٤ .

Speiser, Some Factors in the Collapse of Akkad, *JAOS*, 1952, 97, 101; Kramer, *ANET*, 646. *Also*, Oppenheim, *Letters from Mesopotamia*, 1967, 71-7 f.

(٢) ديلابورت المرجع السابق –ص٣٧ .

(٣) مورتجات : المرجع السابق – ص١٩١ .

كركوك واحدة من مدنهم الرئيسية ، ولكن المدن المتحضرة القديمة ظلت كارهة لهم، وظلت تتحين الفرص لمناضلتهم ولاسيما فى المناطق الجنوبية البعيدة نوعاً من حكمهم المباشر . وبدأت هذا النضال لجش وأوروك ، بل واستعاد بعض الأمراء الأكديين سلطانهم جزئياً بحيث مد أحدهم (شدرول) نفوذه إلى منطقة إشنونا قرب دجلة .

وكان نضال لجش (تلو) نضالاً سلمياً ، اكتفت فيها بأن تستعيد للسومريين كيانهم ونشاطهم السلمى الذاتى فى الداخل وفى الخارج ، وبدأ بمسعاها ذاك فى الربع الأخير من القرن الثانى والعشرين ق.م عصر جديد ، يسمى اصطلاحاً باسم العصر السومرى الحديث ، أو عصر الإحياء السومرى ، وهو موضوع الفصل التالى .

الفصل السادس عشر

عصر الإحياء السومرى

(منذ عام ٢١٢٠ أو أواخر القرن ٢٢ ق.م)

النهضة فى لجش :

استغلت لجش (أو تللو) فى نهضتها مسالك التجارة الرئيسية حولها استغلالاً واسعاً لصالحها ، وكان خير عهودها عهد ملكها التقى جوديا ، قبيل أوائل القرن الحادى والعشرين ق.م أو أواسطه ، وكان رجلاً اعتز أو اكتفى فى أغلب نصوصه بلقب «إنسى» القديم الذى تلقب به حكام لجش فى عهود تبعيتهم للدولة الأكدية ، وفى عهود سيطرة الجوتيين ، ولكنه استعاض عن الانتساب إليهم فى قلبه بالانتساب إلى سيادة ربه نين جيرسو أى سيد جيرسو وهو الحى المقدس فى تللو ، واعتبره ملكه واعتبر نفسه إنسياً له . ثم نعتته نصوص عهده بلقب «الراعى» ، وقال فى نقوش أحد تماثيله «أناالراعى حبيب ملكه (نين جيرسو) طال عمرى» (١) .

ولم تذكر نقوش جوديا الحرب غير مرة واحدة مع دولة أنشان . ولكن حملت قوافل التجارة شهرته وسجلت اسمه فى شمال سوريا وفى عيلام والبحرين وعمان . واحتفظت له أرض لجش بأكثر من ستة عشر تمثالاً وجزءاً من تمثال نحت أغلبها من أحجار الديوريت ، وقد تفرقت بعد الكشف عنها فى متاحف العراق واللوفر والمتحف البريطانى (٢) . وأخذت هذه التماثيل بالأسلوب الواقعى الذى بدأ نضوجه من قبل خلال العصر الأكدى ، وعبرت بخطوطها المرنة عن ملامح الجنس السومرى ذى الرأس العريضة ، وغلبت على ملامح صاحبها وهيئاته روح التقوى والتواضع الكريم ، ويبدو أن اعتبار أهل عصره نكبة الجوتيين على أرضهم غضباً من الأرباب كان له

---

(١) *See*, A. Parrot, *Tello, Vingt compagnes de fouilles*, (1927-1933), Paris, 1948, P. L.

(٢) *Ibid.*

أثره فى تغليب روح التقوى فى حياتهم إبان سعيهم للتخلص من غزاتهم وتحرير بلدهم (١) .

وأظهرت تماثيل جوديا صاحبها جالساً وواقفاً على هيئة المتعبد ، فى أحجام تقل عن حجمه الطبيعى (فيما خلا واحد منها) ، وأعوزت الجالسة منها سلامة النسب بين الجذع العلوى والجذع السفلى ، والرأس والرقبة ، ولكنها لم تخل على الرغم من ذلك من حيوية أضفاها عليها صدق تمثيل ملامح وجهه العريض الحليق ، وتفاصيل حاجبيه الكثيفين واتساع مابين أنفه وشفته وامتلاء ذقنه وبروزها ، وتفاصيل عمامته (أو قلنسوته) الصوفية الواسعة ذات الخصل ، وبساطة ثيابه ورقة أطرافها الموشاة التى عبر الفنان عنها بتموجات خفيفة وخطوط مرسلة وزوايا منفرجة . وتخلصت بعض تماثيله الواقفة الصغيرة المنحوتة من حجر الديوريت وحجر الحية (السربنتين) من قلة التناسب بين أجزائها ، وجنبته تصلب الهيئة ومثلته فى وضع طبيعى خاشع لطيف، تكاد تشف عباءته الثمينة عن عضلات بدنه ، ولم يعبها بعض الشىء غير اتساع مجرى العينين واتصال الحاجبين ، وهو اتساع اتصفت به أغلب تماثيل العراق . والطريف أن من تماثيله الجالسة ماتتشابه بعض تفاصيله مع تفاصيل التماثيل المصرية فى عصور الدولة الوسطى وماتلاها ، من حيث نقش نصوص رأسية فوق الجزء الأسفل من ثوبه ، ثم من حيث نقش اسمه داخل مستطيل على كتفه ، ووضع مسطح مستطيل على ركبتيه تضمن فى إحدى المرات تصميماً لمعبد وتصوير لوحة (مسطرة) وقلم (٢) .

أقيمت أغلب تماثيل جوديا فى معبد لجش الكبير ، وأقيمت فى فنائه عدة نصب، وتركت تحت أحجار أساسه آثار صغيرة منقوشة . واتسعت سطوح تماثيل جوديا تلك ونصبه وسطوح الصولجانات ورؤوس المقامع التى أهداها إلى هذا المعبد ، وإلى بقية معابد دولته ، لنقوش سجلت مظاهر تقواه إزاء أربابه ولاسيما نين جيرسو إله لجش الذى اعتبره ربه وملكه ، واعتبر نفسه إنسياً له ، وروى كتبته فيها على لسانه اهتمامه باستيراد أحجار مختلفة الأنواع والألوان ، ومعادن مختلفة القيم وأخشاب ، عن طريق البر والنهر والبحر من أرض إلام (عيلام) وعاصمتها سوسه ، ومن ماجان وملوخا ، ومن كيماش وجبل الأرز وجبل الصنوبر ، لصالح معبد لجش

(١) Frankfort, *The Art and Architecture...*, 47.

(٢) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 46; Parrot, *op. cit.*, Pl. XVI d.

بوجه خاص ، وأكد أنه التزم فى تجديد هذا المعبد وبناء مقاصيره وصناعة رموز معبوده وأسلحته، ماجرى به العرف القديم وما أوصى به المعبودان نين زاجا ، ونين سيكيلا (١) .

وتحدثت نقوش الرجل عن فضل أربابه فى منع طغيان الفرات على أرضه . وروت أنه رأى ذات مرة فى رؤياه معبوده على هيئة شيخ متوج، تسمو هامته إلى كبد السماء ، يحيط به أسدان وحمار رابض وشمس مشرقة ، وسيدة تمسك قلماً مع لوحة النجم السعيد ، ومعبود فى إهاب محارب ظهر كأنه يخطط تصميم معبد . واستفتى جوديا وحى أربابه (أو على الأصح استفتى كهنتهم) فى تأويل رؤياه ، فأتاه وحى ربته نينا بأن الشيخ المتوج هو نين جيرسو ، وأن الشمس ترمز إلى ربه نين جيزيدا ، وأن السيدة ذات القلم واللوحة هى نيسابا ، وأن المعبود فى هيئة المحارب هو نندوب ، وأن الرؤيا إيحاء له بإعادة بناء معبد نين جيرسو بعد خرابه فى عهد الفوضى ، وأما الحمار المضجع فهو جوديا نفسه ! ويبدو أن الرجل كان لايزال بحاجة إلى آية أخرى فسوف فى الأمر حتى حل القحط بأرضه فاتجه بدعائه إلى نين جيرسو ، وأتاه نداء ربه بأنه إذا بدأت يمينه فى تأسيس معبده فلسوف ترقى الصرخة إلى السماء من أجل الرياح والأمطار ، ولسوف تسقط السماء حينئذ فيضها، بعد أن يضع الرب قدمه على الجبل العالى ، جبل العاصفة ، ولسوف ينزل الفيضان من قمة مقدسة شاهقة الارتفاع(٢). وعندما تم بناء المعبد أكدت نصوص الملك حسن معاملته لمن اشتركوا فى بنائه من رعاياه ، وأشركتهم فى ثوابه ، فتحدثت عن انتفاء الضرب واللكز ، وقالت إنهم كانوا يعتبرون عملهم قرباناً لربهم (٣) .

ولم يكن جوديا ، فيما تحدثت به عنه نصوصه ، أقل ولاء لربات مدينته منه لأربابها ، فكان من ابتهالاته للربة جاتو مدو ربة لجش قوله لها : «مليكتى ، بنت السماء البهية ، يا من تجيبين الدعوات ، وترفعين الرأس ، وتهبين الحياة لأرض سومر ، أنت تعرفين مايصلح مدينتى ، أنت مليكتى ، أنت الأم التى أسست لجش ، لاأم لى وأنت أمى ، لا أب لى وأنت أبى ... ، جاتومدو ما ألذ (ترديد) اسمك» (٤) .

---

(١) G.A. Barton, *op. cit.*, 181 f., 205 f.; L. Oppenheim, *op. cit.*, 268-269.

(٢) G. A. Barton, *op. cit.*, 214-217; Lambert and Tournay, *RB*, 1948, 403 f.; *RA*, 1952, 81.

(٣) Barton, 182-183; Frankfort, *Kingship and the Gods*, 255.

(٤) A. Falkenstein, W. von Soden, *Sumerische und Akkadiesche Hymnen und Gebete*, Zurich, 1953, 140, 173, etc.

وتخلفت من مفاخر النحت من عهد جوديا مفردات أخرى ، ومنها رؤوس رجال حليقى اللحى والشوارب ورؤوس وتماثيل نساء بلغت الغاية فى بساطة خطوطها، وسلامة تعبيراتها ، وإتقان تمثيل الحلى ووشى الملابس عليها على الرغم من قسوة أحجارها (١) ، وتمثال قد يرجع إلى عهده أو إلى العصر الأكدى ، يجمع بين جسم فحل رابض ورأس إنسان ملتح يلتفت جانباً فى تناسق لطيف (٢) ، وبقايا أسود كبيرة، ورأس مقمعة رمزية مذهبة شكلت سطوحها على هيئة رؤوس السباع (٣) .

وتضمنت ودائع أساسات المعابد اللجشية (لاسيما معبد نين جيرسو ومعبد إنانا) روائع معدنية صغيرة ، تميزت منها قطع على هيئة الأوتاد زودت بأشكال ربانية وملكية ، كناية فيما يبدو عما كان الملوك يرجونه لمبانى معابدهم من ثبات يتعهده الأرباب . ومن نماذج هذه الأوتاد وتد يتصل به تمثال صغير رائع لمعبود طويل الشعر واللحية يلبس قلنسوة لطيفة هرمية الشكل ، أو لولبية الشكل مائلة ، ويعتلي منصة صغيرة ويرسل ساقيه منها ، وقد احتضن الوتد بين ساقيه، وبدا كأنما يهم بغرسه فى الأرض (٤) ، ثم أوتاد أخرى احتضنها جوديا نفسه، وقد حمل على رأسه سلة كان من المفروض أن تتضمن بعض أدوات البناء، أو تتضمن الطين الذى كان يعتزم أن يضرب به اللبنة الأولى فى أساس المعبد (٥) .

وأدت نقوش العهد دورها فى تسجيل مفاخر الرقى الفنى خلاله ، وصور بعضها وقورات ذات ثلاثة مسطحات ، ليس من المستبعد أن إحداها كانت تقوم فى العاصمة لجش بالذات .

وجرت نقوش الأختام حينذاك على الأسلوب الأكدى ، وشاعت فيها مثلها مناظر التقرب من الآلهة ، ولكن روح التقوى غلبت فيها على مجرد الرغبة فى الإهداء إلى الأرباب . واحتفظت نقوش أحد أختام جوديا وأحد نصبه بمنظر متماثل،

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 50, a-b, etc.

(٢) *Ibid*, Pl. 50 c.

(٣) Parrot, *op. cit.*, Fig. 42 h.

وانظر عن آثار أخرى من عهده : Frankfort, *op. cit.*, 49 and References.

(٤) *Ibid.*, Pl.. 51 a.

(٥) Parrot, *op. cit.*, Fig. 44, *and See*, E. Douglas van Butren, *Foundation figurines and offerings*, Berlin, 1931.

صور راعيه نين جيزيدا يأخذ بيده ليقدمه إلى كبير الأرباب واهب الفيضان، الذى استوى على عرشه بتاجه ذى القرون ، حيث تقرب جوديا إلى مولاه بآنية ينسكب على جانبيها الماء الطهور ، وبدا فى حضرته متواضعاً وجلا، يلبس ملفعة بسيطة موشاة الأطراف ويضع كفه تجاه فمه فى هيئة التوسل والدعاء وظهرت خلفه ربته بثوب بسيط رقيق ذى خطوط طولية ، وقد رفعت يديها إجلالاً لربها الأكبر وتشفعاً لربيبها جوديا عنده ، وظهر من خلفها تنين خرافى مجنح بجسم أسد ورأس ثعبان وساقى نسر . ونجح الفنان فى الحالين فى تمثيل ملامح شخوصه بوضوح، وفى تحقيق التناسب فى صورهم ،وفى التمييز بين شموخ المعبود وخشوع المتعبد ورجاء الشفيع وقسوة التنين (١) .

واحتفظت إحدى لوحات عهده بتصوير ممتع لفتى وفتاة يدقان على طبل كبير فى حفل دينى . كما بقيت كأس كبيرة باسمه صنعت من حجر الحية ، جسدت على سطوحها الخارجية بالنقش البارز هيئات حيوانات خرافية مجنحة قرناء، تقف على سيقانها الخلفية، وتمسك عمداً ذات مقابض تشبه مقابض السيوف ، وأفاع ضخمة قائمة متقابلة تلتف حول محور رأسى ، وقد رقشت أجسادها جميعها بقطع حجرية صغيرة وطعمت رؤوسها بمواد ملونة (٢) .

وصاحب تعمير المعابد ورقى الفنون فى عهد جوديا نشاط عمرانى ، كان من صوره الاهتمام بوسائل الرى ، وبقى من نصوص عهده ما يتحدث عن شق قناة نسبت إلى رب لجش وسميت «نين جيرسو أو شومجال» ، ويبدو أن حفرها كان عملاً ذا بال بحيث أرخ به فى سنته (٣) .

وظل خلفاء جوديا يرددون ذكراه ، وساعدت كثرة تماثيله فى معبد لجش وكثرة الأوقاف المرصودة على قرابينها ، على استمرار تبجيله أو تقديسه بعد عهده .

واحتفظت فنون لجش بمستواها الرفيع فى عهد «أورنين جيرسو» بن جوديا ، واحتفظت له أرضها ببضعة تماثيل صغيرة ممتعة تشبه تماثيل أبيه ، صوره بعضها

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق – شكل ٣١ . Frankfort, *op. cit.*, 49.

(٢) *Ibid.*, Pl. 51 b (Louvre Archives Photographiques), *and See : Iraq*, I (1934), 60 f.

(٣) ديلابورت : المرجع السابق ص١٢٨ .

حليق الشارب واللحية على عادة الكهان ، بينما صوره بعضها الآخر بشعر طويل ولحية ولعلها لحية مستعارة ، واستغل الفنانون بعض قواعد هذه التماثيل لنقش صور عدد من المتعبدين، يتقدمون بقرابينهم وهم جثاة (١) .

وفى عهدى أوربابا وجوديا ظهرت أوائل تماثيل الأساس من البرونز على هيئة معبود راكع ذى لحية طويلة وتاج بأربعة قرون ، وهو يدق وتداً يشبه الإسفين فى الأرض بكلتى يديه . وحمل أحد هذه التماثيل اسم جوديا نفسه ، وحمل آخر اسم حاكم سوسه فى تاريخ قريب منه ، (وأبدل المعبود فيما بعد فى عهد أورنمو بشكل رجل أو امرأة يحمل سلة البناء فوق رأسه كما حذف الإسفين) (٢) .

فى أوروك :

وقع عبء الكفاح المسلح ضد الغزاة الجوتيين على أكتاف دولة أوروك . ويحتمل أن تكون نهضتها قد عاصرت فى بعض أيامها نهضة كل من لجش وأور(٣). ولعلها قد استغلت سمعتها القديمة وبعد موقعها الجنوبى وحاولت توحيد كلمة المدن السومرية القريبة منها تحت رايتها ضد الغزاة – وظهر من أبرز حكامها أوتو خيجال الذى أعلن حرب الخلاص باسم رعاته الأرباب إنليل وإنانا وجلجميش الذين استنصرهم ، وواصلت قواته الزحف من الوركاء وكلاب لستة أيام ، وقبضت على نائبى الجوتيين فى سومر ، ثم هزمت قوات الجوتيين فى موقعة فاصلة قرب كركر ، وأسرت ملكهم تريكان وأهله بعد أن فر هارباً إلى بلدة دبروم ، وكانت نصوص أوروك قد وصفته بالأفعوان وعقرب الجبال الذى نشر العداوة والبغضاء بين أهل سومر(٤) . واستحقت أوروك بنصرها نوعاً من اعتراف أغلب المدن السومرية بزعامتها الشكلية ، لولا أن الآمال العريضة ما لبثت حتى لعبت برؤوس حكامها ، فسارعوا باتخاذ لقب

---

(١) Parrot, *op. cit.*, Pl. XXIII A-C.

(٢) مورتجات : المرجع السابق – ص١٩٢ – لوحات ١٥٨-١٦٠ .

(٣) انظر عن احتمال معاصرة جوديا لعهد مؤسس أسرة أور الثالثة أورنمو أو ولده شولجى :
Kramer, *Bull. of University Museum*, 1952, 22; *Orientalia*, XXIII, 1954, 6, n. 3.

(٤) C. J. Gadd, *A Sumerian Reading-Book*, 1924, 65-73; S. N. Kramer, *The Sumerians*, 1963, 325-326.

فاضل عبدالواحد : سومر – ١٩٧٤ ص٤٧-٥٧.

الملك العريض ، ملك سومر وأكد ، قبل أن يستكملوا عدتهم له ، وشغلتهم مظاهر السلطان عن مواصلة العمل الجدى ، فانفلتت الزعامة الفعلية منهم إلى دولة أور .

النهضة فى دولة أور :

نهضت أور نهضتها ببداية أسرة حكم جديدة أسسها «أورنمو» قبيل القرن الحادى والعشرين ق.م ، أو فى منتصفه ، وعرفت اصطلاحاً باسم أسرة أور الثالثة ، وتعاقب على عرش هذه الأسرة خمسة ملوك سعوا إلى استعادة الحكم الموحد ، واشتهر منهم إلى جانب مؤسسها أورنمو [1] ولده (شولجى أو شاخ جى) ، وبمجهود هذين الملكين بالذات خضعت كثير من المدن السومرية والأكدية لأور ؛ مما سمح لملوكها بأن يتلقبوا بمثل لقبى سرجون الأكدى ، أى «ملك سومر وأكد» ، و «ملك الجهات الأربع» ، وإن ظل هذا اللقب الأخير بخاصة لقباً تشريفياً أكثر منه لقباً فعلياً ؛ إذ أنه على الرغم من جهود الملكين وبعض خلفائهما فى سبيل توسيع الحدود ، وكثرة ماوجد من وثائق تحمل أسماء هؤلاء الملوك فى أمهات المدن الأخرى مثل لجش ونيبور وأوما وآشور ، واعتراف آشور فى الشمال بنفوذهم الاسمى ، وبحيث أقام أهل مدينة إشنونا معبداً فى مدينتهم نسبوه إلى ملك أور «شوسين» [2] ، كما أرسل أحد ملوك آشور هدية ثمينة إلى بورسين ملك أور القوى ، ملك الأقاليم الأربعة [3] ، إلا أن حجم المملكة ظل أقل بكثير مما كان عليه فى العصر الأكدى .

وأضافت دولة أور بضعة تجديدات فى آفاق السياسة والتشريع ومجالات الصناعة والفن : فأثر لنظم الحكم الداخلية فيها أن مؤسسها أورنمو كان من أقدم مصدرى التشريعات المكتوبة المعروفة فى تاريخ العراق (بعد تنظيمات أوروكاجينا) حيث عثر على أجزاء من نسختين لتشريعه غلب عليهما الأسلوب السومرى وكتب إحديهما طالب فى مدينة أور ، وكتب الأخرى طالب من مدينة نفر بعد وفاة أورنمو

---

(١) وهم أورنمو ، وشولجى ، وأمارسين ، وإبى سين .

Bulletin of the University, XVII, No. 2 (1952); *Orientalia* (New Series), XXIII, 40 f.; *Scientific American Bull.*, January 1953, Castellino, *AZ*, XVIII, 1957, 1-57.

(٢) S. Moscati, *The Face of the Ancient Orient*, 1960, 26.

(٣) *See*, Frankfort, *The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers of Tell-Asmar*, Chicago, 1940.

بنحو ثلاثة قرون ؛ مما قد يعنى أن هذا التشريع جاوز صبغته المحلية وطبق فى مدن أخرى ، وأن فعاليته استمرت لفترة طويلة ، وبدأ كاتب التشريع باختيار المعبودين آنو وإنليل للمعبود ننار إله القمر ملكاً على مدينة أور ، ثم اختيار هذا الأخير «أورنمو» نائباً عنه أو ممثلاً له يقوم مقامه على الأرض . ولعل الربط بين التشريعات وبين اختيار الآلهة وإرادتهم أو إيحاءاتهم ، وهو أمر سنراه أكثر وضوحاً فى تشريعات أخرى تالية ، كان مقصوداً لكفالة احترام بنودها وخلع الشرعية عليها فضلاً عن تأكيد دور الملوك كوسطاء بين الآلهة وبين شعوبهم عن طريقها . وتضمنت المواد الأولى من تشريع أورنمو العبارات المعتادة عن سعى صاحبه إلى ضبط الموازين والمكاييل وتوحيدها ، ورغبته فى تخليص المواطنين ممن يستغلون ماشيتهم وأغنامهم ودوابهم ، وإلى أن يمنع وقوع اليتيم فريسة للثرى ووقوع الأرملة ضحية للقوى، وألا يكون صاحب الشاقل ضحية مالك المينه (وتساوى المينه me-na, ma-na ستين شاقلاً) . وكانت كل من المينه أو المينا ، والشيقل أو الشاقل ، قطعة معدنية ذات وزن معلوم يصل إلى نحو ٥٥٠ جراماً تقوم مقام العملة ، وليست منها ، وتختلف قيمتها الحقيقية باختلاف نوع معدنها .

وفى تجريم الاعتداء على النفس والممتلكات ، قر قانون رنمو أو غرامات على الجروح بآلات معينة (لاتقضى إلى الوفاة) ، فجعل غرم جرح الساق عشرة شواقل من الفضة ، وغرم كسر العظام مينه من الفضة ، وغرم قطع الأنف ثلثى مينه من الفضة، وغرامة كسر السن شاقلين من الفضة .

وجعل التشريع العوض عن الجارية بمثلها أو عشرة شواقل من الفضة أو مايساويها من المقتنيات ، وجعل حلوان إعادة العبد الآبق والجارية إلى مالكهما شاقلين من الفضة .

ونص على أن من اقتحم حقلاً مزروعاً فأفسده، فعليه أن يعوض صاحبه بقيمة ما أفسده ، ومن أغرق حقلاً عامداً عوض صاحبه بثلاثة كور من الشعير عن كل إكو من الأرض . ومن استأجر أرضاً لزراعتها فأهملها وأصبحت بوراً ، عوض صاحبها بثلاثة كور من الشعير عن كل إكو من مساحتها .

وجعل التشريع غرامة شهادة الزور ١٥ شاقلاً من الفضة ، وأجاز إظهار البينة عن طريق الامتحان بإلقاء المتهم فى النهر . ويبدو أن الحكمة من ذلك هى إيكال

أمره إلى إله النهر إذا عجز القاضى عن إثبات التهمة عليه أو نفيها عنه ، فإن شاء الرب أنقذه وبرأه ، وإن شاء أغرقه بذنبه .

ولعل عدالة الجزاء كانت تقتضى أن يوثق المتهم ويثقل بالأحجار قبل إلقائه فى النهر بحيث يكون غارقاً لامحالة ، فإذا طفا ونجا اعتبر ذلك معجزة ودليلاً على رغبة الإله فى تبرئته . وكان امتحان النهر متبعاً كذلك فيما يبدو فى إلام ومارى وقرقميش(١) ، وذلك عرف يمكن مقارنته بما يأخذ به بعض البدو حتى الآن من امتحان المتهم ، عن طريق استخدام البشعة فإن احترق لسانه بها عند لمسها اعتبر ذلك قرينة على إجرامه ، وإن سلم لسانه كان من أدلة براءته حيث يعطل الخوف من انكشاف أمره إفراز الغدد اللعابية ويجف لعاب الريق .

وفى الأحوال الشخصية نص التشريع على أن من تزوج بكراً ثم طلقها دفع لها مينه من الفضة ، وإذا تزوجها ثيباً وطلقها دفع لها نصف مينه من الفضة ، وإذا عاشر أرملة دون عقد زواج وتركها فلا تعويض لها عنده . وألزم والد الخطيبة برد ضعف هدايا الخطيب إذا أخلف وعده له وزوجها لآخر . ونص التشريع على أن من رمى زوجة آخر بالفحشاء ثم برأها امتحان النهر غرم ثلث مينه من الفضة ، وإذا أوقعت زوجة رجلاً فى حبائلها بطرق السحر فواقعها حق عليها الذبح دونه . ومن اغتصب جارية رجل آخر وكانت بكراً غرم خمسة شواقل من الفضل . ونص على أنه إذ ساوت جارية الرجل نفسها بسيدتها وأهانتها (أو أهانته) حشى فمها بالملح ونقع به (٢). وأصبحت أغلب هذه البنود ، وهى قلة من كثرة لم يعثر عليها ، أساساً لبعض ماتلاها من تشريعات ، كما أن ماوجد منها أدى إلى رفض فكرة قديمة شائعة كانت تعتبر تشريعات حمورابى البابلى أقدم تشريعات مكتوبة فى العراق أم فى العالم بأسره .

أعيد فى عهد أورنمو نسوير عاصمته ذات الهيئة البيضاوية التى أطلت على نهر الفرات بميناء ذات أرصفة واسعة ، وحماها الماء من ثلاث جهات ، وبلغت

(١) هورست كلنجن : حمورابى ملك بابل وعصره – مترجم ببغداد ١٩٨٧– ص١٤٩ .

(٢) E. Szlechter, Le Code d'Ur-Nammu, *Rev. d'Assyriologie*, 49, 1955, 169 f.; Kramer and Gurney, AS, XVI, (1965), 13-19; J. J. Falkenstein, *Supplement to ANET*, 1969, 523-26; *J. C. S.*, XXII (1968-69), 66 f.; C. J. Gadd, *CAH*, Vol. I, Part 2 B (1971), 598.



مساحتها نيفا ونصف ميل طولاً ، وربع ميل عرضاً ، وامتدت حولها ضواحيها وشغلت معها مساحة قدرت بنحو أربعة أميال طولاً وميل ونصف عرضاً . وأطل سور المدينة من داخله على ساحة متسعة (بلغت مساحتها ٤٠٠ ياردة × ٢٠٠ ياردة) قامت فيها معابد المدينة الكبرى المخصصة للمعبود ننار وزوجته ننجال وحاشيتهما . وبقيت أجزاء لبعض هذه المعابد حتى الآن بحالة لابأس بها .

وفى الحياة السياسية ، حاولت أور أن تتجنب إلى حد ما العوامل الوخيمة التى نخرت فى كيان الدولة الأكدية من قبلها؛ نتيجة للتفرقة بين السومريين وبين الساميين وشطر أهل البلد الواحد شطرين ، فاستعانت بالعنصرين فى جيشها وفى مناصب الإدارة . وجمعت بين اللغتين السومرية والأكدية فى بعض الوثائق الرسمية والأدبية . وتسمى بعض ملوكها بأسماء سامية الصبغة مثل شوسين ، وإبى سين . ولو أن هذه السياسة لم تمنع ملوكها من انتسابهم إلى سومر وآلهتها أكثر من غيرها ، ولا من مركزة الحكم فى عاصمتهم كما فعل الأكديون من قبل ، وتغليب سياسة القصر على سياسة المعبد . فظلت هذه العاصمة تشرف على كل كبيرة وصغيرة من أمور الرى واقتصاديات المدن والأقاليم ، ويبدو أنها استعانت على ذلك باستحداث نظام يشبه نظام الوزارة ، والعناية بنظام العدائين لتبليغ أوامرها إلى ولاة أقاليمها ، واعتبرت أولئك الولاة مجرد موظفين كبار يخضعون للنقل من إقليم إلى إقليم ، ويعملون باسم الدولة فى استخدام الأيدى العاملة واحتكار التجارة الخارجية [١] .

ولم يضح ملوك أور بالهالة المقدسة، التى اكتسبتها الملكية منذ أيام الدولة الأكدية وقبلها بقليل ، عن طريق ادعاء الأصل الإلهى وتقديس مهمة حماية البلاد . وكان من أكثرهم استمساكاً بها «شولجى» (ذلك الذى كان اسمه يقرأ دونجي ثم ظهر رأى جديد يقرأه شاخ – جى) [٢] ، وقد اختير كاهناً أكبر للمعبودة إنانا فى أوروك فى حياة أبيه ، وذكرت نصوصه أن الإله اختاره بنفسه [٣] ، وأطلق اسمه بعد تولية العرش على أحد شهور دولته ، ورفعه أهل بلاطه إلى مرتبة الربوبية أو ماهو قريب منها

---

(١) هورست : المرجع السابق – ص٢٩-٣٠ .

(٢) Th. Jacobsen, *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, 1947, 16 f.

(٣) ديلابورت : المرجع السابق – ص١٨٠ .

ورضى هو بها بطبيعة الحال ، فسمى بعضهم أولاده باسم «شولجى إيلى» بمعنى شولجى إلهى ، و «شولجى بانى» بمعنى شولجى الخالق ، فضلاً عن «شولجى أبى» . وأقطع شولجى ابنته منطقة واسعة ، فأصبحت أميرة لها ، وربط بين الميول الدينية فى بعض المدن الكبيرة ، وعقائد بلده عن طريق تكليف كل مدينة بنفقات قرابين معبد إله العاصمة شهراً على الأقل من كل عام ، ووقع أغلب العزم فى ذلك على مدينة لجش فتكفلت بأداء القرابين أربعة أشهر كاملة .

وعبر كاتب سومرى عن رأى شولجى فى نفسه فكتب على لسانه يقول :

«أنا الملك ، كنت بطلاً فى بطن أمى ، أنا شولجى ، صاحب البأس منذ مولدى، أنا أسد ثاقب البصر ، ابن مارد ، أنا ملك أركان الدنيا الأربعة ، أنا حامى السومريين وراعيهم ، أنا بطل ، رب البلاد كلها .

أحب الخير وأقصى الشر وأمقت ألفاظ العداوة ، أنا شولجى الملك القدير ، أخضعت البلاد الثائرة وكفلت الأمان لشعبى ... شولجى الذى توافر له بأس السماء والأرض ، ولم يكن له مثيل ، شولجى الذى رعاه رب السماء» (١) .

ولم يكن اعتداد شولجى بنفسه بغير أثر سيء على أذهان كتبة التاريخ بعد عهده ، فذكروا أنه وإن اهتم الاهتمام الشديد بمدينة إريدو التى تقع قرب شاطئ البحر، إلا أنه استولى على ذخائر معبد إساجيلا معبد بابل ، فغضب بعل ولم يرض عن جثته (٢) .

وجرى خلفاء شولجى ومنهم ولده أمرسين على سياسته فى الاستمساك بهالة الملك المقدسة . وأثنت كاهنة من كاهنات لوكور على مولاها شوسين (الابن الثانى لشولجى فى أوائل الألف الثانى ق.م) على ما أولاها إياه من هدايا ونعم ، وصاغت مديحها فى نشيد بدأته بوصف الملك بالطهر ، وامتدحت أمه أبسيمتى لولادتها إياه ، ثم عددت عطاياه لها بعد أن أطرته بنشيدها ، وذكرت منها قلادة ذهبية وختماً من اللازورد وخاتماً ذهبياً وآخر من الفضة ، وأكدت أن تطلع الملك إليها كان أثمن لديها من هداياه ، وأضافت أن عاصمته تجثو لدى قدميه كالشبل الصغير ، وترفع أكفها تضرعاً إليه ، ثم نعتته بربها وحبيبها ورب بلده وحبيب إنليل . وعندما سجل أحد

(١) S. Moscati, *op. cit.*, 38.

(٢) E. Ebeling, *op. cit.*, 336; ANET, 267.



الناسخين المتأخرين هذه القصيدة بقلمه حرص على أن يسبق اسم شوسين بمخصص الأرباب (١) .

واحتفظت منطقة أور وماحولها بعدد كبير من لوحاتها المكتوبة ، ومنها ماتناول العلاقات الاقتصادية ومنها ماعدد القرابين والضرائب المرصودة لإله القمر ننار ، ومنها ماتناول قضايا العقارات ونقض الالتزامات (٢) . ويفهم من طريقة تأريخ أمثال هذه اللوحات أنها كانت تؤرخ بالأعوام والشهور ، وأن الأعوام ظلت تسمى بأهم حدث فيها ، وقد يكون هذا الحدث ولاية ملك جديد أو قيامه بمشروع جديد مثلما سمى العام الثامن عشر من حكم أورنمو باسم «العام الذى بسط أورنمو الملك السبيل فيه من أسفل إلى أعلى» وقد يفهم من هذا التعبير امتداد نفوذه فيه من الجنوب إلى الشمال . وقد يؤرخ العام بإنقاذ منطقة فيه من ضرر ما . وكان أصحاب الوثيقة يقسمون فيها عادة باسم الملك الحاكم ويشهدون عليها الشهود ، ويختمون عليها بأختامهم . ومن نماذج هذه الوثائق صك صغير يقول كاتبه : «١٨٠٠ كوراً من الشعير هدية (أو نذراً) لونانا حاكم زيمودار ، تسلمها أورجاالاليم باسم (معبد) شولجى نانا (الكائن) على ترعة دوروول . شهر شيجوركود ، عام ولاية شوسين الملك المقدس» (٣) .

ثم وثيقة قرض يقول كاتبها : ١٢٠ شاقلاً من الفضة ، أرباحها ٥ شواقل ، اقترضها أداكالا من أوردولازاجا ، على أن يسددها فى شهر سيج وأقسم على ذلك باسم الملك» . وبعد أن وقع ثلاثة شهود ، أرخ الكاتب لوحته بقوله : «شهر شيجوركود فى عام أنقذ الملك المقدس إبى سين ، سيمورو» . ثم ختم المستدين على الوثيقة بختمه ثلاث مرات (٤) .

وإذا حرر المتعاقدون لوحتهم خارج عاصمتهم ، أضافوا إلى اسم الشهر والعام ،

---

(١) S. N. Kramer, *ANET*, 496.

كرامر : من ألواح سومر – الفصل ٢٣ – ص٣٦٦-٣٦٩ .

(٢) *Babylonica*, III, 100 f.; C. J. Gadd, *Sumerian Reading Book*, 172-175; J. B. Nies, *Ur Dynasty Tablets*, 1920.

(٣) حكم شوسين فيما بين ١٩٨١-١٩٧٢ ق.م تقريباً .

TH. J. Meek, *ANET*, 217; L. Legrain, *R. A.*, XXX 91933), 117-125, No. 7.

(٤) يحتمل توقيت عهد إبى سين من ١٩٧٢ ق.م.

TH. J. Meek, *op. cit.*, J. B. Nies, *op. cit.*, No 30.

اسم حاكم منطقتهم ، وربما اسم الموظف الذى يؤدى عمل القاضى فيها أيضاً (١) .

الفنون فى عهد أسرة أور الثالثة :

صاحب التقدم السياسى فى أور نشاط معمارى وتطور فنى لم يبق للأسف من نماذجهما غير القليل . فقد بقيت من آثار معابد أور بقايا زقورة فخمة أقيمت باسم معبود القمر ننار فى عهد أورنمو على أطلال زقورة، أقدم منها نسبت إلى أيام أسرة أور الأولى (٢) .

وقد شيدت فوق ربوة متسعة تنهض فى الزاوية الغربية من الحرم المقدس للمدينة وهو حرم مسور واسع ذو بوابات . وتتألف من ثلاثة مسطحات (أو طوابق) متتالية تميل أعالى قاعدتها الرباعية وجدران مسطحها الأول ميلاً قليلاً إلى الداخل وتواجه زواياها الجهات الأربع ، وتتعاقب المشكاوات على جوانبها ، وتتوجها مقصورة علوية . وشادوا بناءها من اللبن كعادة أسلافهم ثم كسوا جدرانها الخارجية بالآجر الأحمر المرصوص فوق ملاط من القار . وكان يؤدى إلى مسطحها الأول ثلاثة طرق صاعدة طويلة ذات درجات كثيرة ، طريق أوسط وطريقان جانبيان . وأكملت هذه الزقورة ورصف فناؤها فى عهد شولجى بن أورنمو، ثم حظيت بتعديلات كثيرة، حتى جددت بعد أمل طويل من إنشائها فى عهد نبو خذ نصر ثم أكملها نابو نهيد خلال العصر الكلدانى المتأخر حيث كسيت المقصورة العلوية بالطوب المزجج ذى اللون الأزرق اللامع، وترجع بقاياها الحالية إلى مابقى من هذا التجديد بعد تخربها فى العصر الفارسى، ولو أن ذلك لاينفى أنها نشأت فخمة منذ بدايتها بحيث كانت تشرف على مدينتها وترتفع مقصورتها عن أية عمارة دنيوى أو دينية فيها . ويفترض بعض الباحثين أن مسطحاتها كانت تتضمن أشجاراً غرست فى نقاط متفرقة منها .

ولوحظ من التجديدات العقائدية فى معابد أور أن تماثيل معبوداتها أصبحت توضع داخل مشكاوات مرتفعة يؤدى إليها درج ، بعد أن كانت توضع فوق قواعدها

---

(١) Meek, *op. cit.*, ; Gadd, *op. cit.*, 173.

(٢) *Antiquaries Journal*, 1925, 347 f.; 1934, Pl. XLIX; H. Lenzen, *Die Entwicklung der Zikkurrat*, 47 f.; L. Woolley, *Ur Excavations*, II, 1939, Pl. 31.

وانظر سومر ١٩٦١ – ص٥ ، مورتجات : المرجع السابق- ص١٩٥ شكلاً ٣٩-١٤٠ ، لوحة ١٦١ .

أمام المشكاوات وليس داخلها (١) .

ونسب إلى عهد أورنمو معبد آخر للمعبود إنليل فى مدينته نيبور (نفر) بلغت مساحة المسطح الأول لزقورته ٥٧ × ٣٨ متراً ، وكشف عن جانب من السور المبنى باللبن الذى أحاط بها هى وبقية توابع المعبد . وشيدت زقوره للمعبودة إنانا فى الوركاء وكان تخطيطها أبسط من زقورة أور . وأعتمد بناؤها على قوالب اللبن التى يدعم طبقاتها حصير الأسل وحزم القصب ، كما استخدمت حبال البردى التى يبلغ سمكها سمك ذراع الرجل فى قنوات أفقية لتدعيم الجدران الخارجية (٢) .

وسرت رقة الطابع فى نقوش العصر ، وإن ظلت شواهدها قليلة هى الأخرى ، ومنها عدة مناظر سلسة الخطوط نقشت على نصب كبير من الحجر الجيرى أقيم باسم أورنمو بمناسبة إنشائه أحد المعابد ، وبلغ ارتفاعه الأصلى نحو ثلاثة أمتار . وتكرر تصوير الملك على وجهيه بلحية طويلة وعباءة طويلة مرسلة واسعة الأكمام وقلنسوة عريضة الحافة نصف كرية ، يقدم تسابيحه ويسكب قرابينه أمام ننار إله القمر وحامى أور وزوجته الربة ننجال وغيرهما من الأرباب أصحاب العروش والتيجان ذات القرون، يتبعه ولى عهده أو كبير أتباعه فى وضع ابتهال خاشع حى . ورفع بعض أولئك الأرباب بيمينه حلقة وعصا ، يحتمل أنهما من أدوات قياس المعبد فى بداية بنائه . غير أن أطرف مناظر النصب هى تصوير أورنمو ينقل بعض أدوات البناء ، وقد سلكها فى عصا رفعها على كتفه على نحو مايحمل الراعى زاده فى عصاه ، ويتبعه تابع يعاونه فى حملها ، ثم تصوير سلم خشبى كبير فى وضع مائل مجسم خلال مرحلة من مراحل البناء ، وتصوير معبودة مجنحة تطل من بين السحب تصب ماء من قدرها كأنها ملاك (٣) ....

وثمة منظر على ختم يصور أبى سين ملك أور حليق اللحية برداء ذى ثنيات عريضة مزركشة يرسل أطرافه على ذراعه ويقيم بأطراف أنامله آنية دقيقة تلقاها من كاهن يواجهه فى أدب وبساطة ، أو يهديها إليه . وبدت ملامح الرجلين ، على صغر

---

(١) Frankfort, *The Art and Archiecture...*, 69.

(٢) مورتجات : المرجع السابق – ص١٩٧ .

(٣) Leo Legrain "The Stele of the flying angles", *Museum Journal*, XVIII, (1927), 75 f.

صورتيهما ، هادئة سمحة متفائلة بما يناسب الموقف أو المنظر الذى صورا فيه [١] ، ووجد تمثال أساس برونزى للملك أورنمو، يصوره بملامح شخصية رشيق القوام عارى الصدر يحمل بيديه آنية فوق رأسه [٢] .

وجارى فن النحت فن النقش فى تطوره . وبقيت من نماذجه عدة رؤوس نحت بعضها من الديوريت ونحت بعضها من الألباستر ، وطعمت بعض عيونها بالمحار الأبيض واللازورد الأزرق ، مما يعنى أن الأحجار المناسبة للنحت كانت تستورد من أجله بخاصة ، وقد بذل الفنانون فيها جهداً ملحوظاً لإظهار تعبيرات الوجوه ومسطحات عظامها وهيئات الشفاه ، وتصفيفات الشعر للرجال وللنساء ، وتفاصيل أغطية الرأس التى كان منها الشال والعقال للرجل والعصابة للمرأة ، وإن ظلت العيون فيها جميعها جاحظة متسعة .

ومن أمتع مابقى من هذه الرؤوس ، رأسان تعتبران من روائع الفن الواقعى فى عصرهما ، إحداهما لأنثى (أو معبودة) نضرة الوجه زادت من حلاوتها نقاوة حجر المرمر الذى قدت رأسها منه ، وقد انسابت جدائل شعرها على كتفيها من تحت عصابة رأس سميكة ملفوفة . والرأس الأخرى من الفخار لرجل ملتح يرتدى عمامة هرمية لطيفة فوق رأسه [٣] .

واحتفظت أور بمقابر بعض أمرائها وأثريائها خلال عصر أسرتها الثالثة قرب مدافن عصر أسرتها الأولى غير بعيد عن ألاى خورساك إلى الجنوب الشرقى من معبد ننا الكبير [٤] . وشابهت هذه المقابر فى أسلوبها طراز المقابر القديمة التى سبقت العصر الأكدى فيها ، وتميزت عمارتها ببناء سقوف حجرات دفنها على هيئة عقود مقبية أو حنايا أو على هيئة الهرم الناقص ، مع استخدام الدبش فيها . وما من شك فى أنها كانت تتضمن ، مثلما تضمنت المقابر السابقة عنها ، ماتعبر به عن ترف حياة أصحابها ورقة أذواق عصرهم .

وكانت تسد بالآجر بعد الدفن ، ويعلوها بناء مؤقت لتقبل القرابين حين أداء

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 54 a.

(٢) مورتجات : المرجع السابق – ص١٩٤ .

(٣) *Op. cit.*, Pl. 54 b-c .

(٤) مورتجات : المرجع السابق – ص٢٠٢ .

مراسم الدفن أمام مدخل المقبرة وعلى درجاتها وفى الردهة - كما يقام فوقها بناء دائم توضع فيه التماثيل وموائد الضحايا المحروقة والماء المقدس . ويملأ فراغ القبر عادة برمل نقى أبيض ويخفى المدخل المؤدى إلى درجات القبر إلا من فتحة ضيقة فى الجدار القائم فوقها [1] .

* * *

(١) المرجع نفسه - ص٢٠٢-٢٠٤ ، شكل ٤٦ ، ولوحة ١٦٣ .

من الأدب السومرى

احتفظت ألواح الألف الثانى ق.م ومابعده بآداب سومرية الصبغة والأسلوب ، نسخها أصحابها عن أصول قديمة ، وصعب تحديد عهود هذه الأصول تحديداً مقنعاً ، ولهذا لانرى من بأس فى أن نستشهد هنا بعدد منها خلال الحديث عن عصر إحياء الحضارة السومرية باعتباره عصر بلوغها ذروة نضوجها ، دون أن ينفى ذلك احتمال تأليف بعضها قبله بكثير واحتمال تأليف بعضها بعده بقليل . وتضمنت تلك الآداب قصصاً وملاحم وأساطير ومحاورات دنيوية ودينية ، كانت من أشهرها قصة الطوفان، وملاحم إينمركار ، ولوجال بندا ، ومغامرات جلجميش ، ونزول الربة إنانا إلى العالم السفلى ، ومحاورة الفلاح والراعى ، ومحاورة الصيف والشتاء ، ... ، فضلاً عن أمثال سائرة ، ونصوص تعليمية تصور حياة الدراسة وتصور مواد التدريس . واشتركت هذه وتلك مع غيرها من الآداب القديمة فى ملامح عامة ، مثل غلبة الطابع الدينى عليها ، وكثرة استخدامها الرمز للتعبير عن الفكرة والحادثة ، وكثرة التكرار اللفظى الذى يناسب الإلقاء والإنشاد أكثر مما يلائم القراءة ، وصعوبة التمييز فيها بين ماهو شعر وبين ماهو نثر . ثم تميزت من ناحيتها بخصائص معينة ظهرت فيها أكثر مما ظهرت فى غيرها ، ومنها بداية بعض قصصها ومحاوراتها بمخلص يمهد لها ، أو بمقدمة ميثولوجية تكسبها نوعاً من القداسة .

تخلف من قصة الطوفان السومرية أقلها (١) وصور هذا القليل زمناً بعيداً خلق فيه آن وإنليل وإنكى ونينهور ساج البشر «أصحاب الرؤوس السود» ، والنباتات والحيوانات ، وتكاثر الخلق والكائنات ونزلت الملكية من السماء إلى الأرض ، حيث بدأ العمران من خمس مدن أشرف الإله آن (أو إنليل) على إنشائها فى مواضع ظاهرة وسماها بأسمائها ، وهى : إريدو وبادتبرا ولاراك وسيبار وشوروباك ، وخصصها لعبادة خمسة من الأرباب والربات . ثم قضى بأن يغمر الفيضان الأرض لأمور لم تحتفظ بها السطور الباقية من القصة ، وأعلن قضاءه فى مجلس الأرباب ، فدب الذعر فى قلوبهم لاسيما ننتو وإنانا ، وقلوب الملوك المقدسين . وكان أشدهم اهتماماً به المعبود إنكى الحكيم رب مياه الأعماق ، وملك صالح يدعى زيو سدرا . وأراد إنكى أن

(١) بقى من ألواحها ثلث لوح وجد فى نفر ، كتب فى العصر البابلى عن أصل سومرى قديم .



يخبر زيوسدرا باليوم الموعود بطريق غير مباشر ، فأوحى إليه بأن يقف بجوار جدار مقدس وأن يستمع منه إلى صوته ، وأتاه الصوت قائلاً : «سوف ألقى إليك كلمتى ، فاستمع لأمرى . بقضائنا سوف (يكتسح) الفيضان مراكز العبادة ويقضى على سلالة البشر . ذاك قرار مجلس الأرباب ، وقضاء آن وإنليل ...» . ويبدو أن نصحه بأن يبنى سفينة كبيرة وينقل إليها ماتستطيع أن تحتمله من المخلوقات ... ، فصدع بأمره وعمل بنصيحته (١) .

وفى اليوم الموعود هبت الأعاصير هبة عنيفة وأطاحت بالعواصم ومراكز العبادة وصحبها فيضان كاسح ، واستمر ذلك سبعة أيام وسبع ليال ، اكتسح الفيضان الأرض فيها ، ودفع السفينة قدماً ...

وبعد فترة ما بزغ المعبود أوتو رب الشمس فأنار السماء والأرض ، وفتح زيوسدرا فتحة فى جدار سفينته وتطلع منها فرأى أشعة أنوار ربه ، وعلم بصفحه ، فركع وضحى من أجله بفحل وشاة : كما استرضى بقية الأرباب الكبار .

ونادى آن وإنليل : «نسمة السماء ... نسمة الأرض» ، فظهرت الخضرة على الأرض من جديد وإنما النبات ، ووهب الرب الأكبر زيوسدرا حياة سرمدية ، فعاش فى أرض العبور أرض دلمون ، دار الشروق على البحر ، وكان خلوده سبباً فى الحفاظ على النبات وعلى سلالة البشر والاحتفاظ بأسمائهم .

ويحتمل من سياق لوح صغير أن زيوسدرا كان قد تلقى الحكمة عن أبيه شورورباك أحد ملوك ماقبل الطوفان ، وورد فى وصاياه أنه شورورباك بن وبر توتو ، وكان من قوله لولده : نصيحة أقدمها لك فتقبل نصيحتى ، وكلمة أقولها لها ، فأعرها سمعك ، لاتهمل وصيتى ولاتتعد كلمتى . وقوله : لاينبغى اقتناء حمار مزعج النهيق ، ولا ينبغى زراعة حقل على الطريق (٢) .

* * *

(١) Kramer, *ANET*, 43 f. (and references); M. Civil, The Sumerian flood Story, *Atra-hasis*, 1969; W.G. Lambert, *Babylonian Wisdom Literature*, Oxford, 1960, 92 f. Civil et Biggs, *RA*, LX, 1-5, R.D. Biggs, *ANET*, 1969, 594-5.

(٢) ذكرت النصوص الإغريقية للعصور المتأخرة مرادف زيوسدرا باسم Xisouthros واعتبرته خلفاً للملك Otiartes – تحريفاً للاسمين القديمين .

وحظى جلجميش ملك أوروك وسيد حى كلاب حيث تقوم زقورة الإله آنو [١]، بنصيب كبير من القصص السومرى ، وترتب على كثرة ماكتب عنه أن ظهرت له صورتان ، صورة احتفظت له بشجاعته وجرأته ولكنها لم تأب أن تعترف بتسليمه بالأر الواقع حين يتبين عجزه أمام عدوه ، وصورة أخرى جعلته مغامراً مغواراً لايهن له عزم ولايشق له غبار مهما واجهه من المصاعب .

وظهر جلجميش فى صورته الأولى حاكماً على مدينة أوروك ولكنه كان بمدينته أقل منزلة من أجا ملك كيش التى أكدت الأساطير السومرية أنها كانت أول مدينة نزلتها الملكية بعد الطوفان ، وربما كان تابعاً له ، ويبدو أن أجا هذا اشتط ذات مرة فى طلب الجزى منه ، فثارت نفس جلجميش وابتغى أن يرفع النير عن بلده ، فجمع شيوخ المدينة ودعاهم إلى امتشاق السلاح ضد كيش ، ولكنهم آثروا السلامة مع الخضوع ولم يستجيبوا له . فلم ييأس وأعاد الكرة على جمهور شعبه فاستجاب الناس لدعوته وهللوا له وعز عليهم أن تخضع مدينتهم لعدو ، وفيها إأنا معبد آنو الذى نزل من السماء، وأقامه الأرباب الكبار بأنفسهم حتى أصبحت جدرانه تلامس السحاب .

واشتدت عزيمة جلجميش بتأييد شعبه ، فنادى على تابعه وصديقه إنكيدو أن يدع أدوات الفلاحة جانباً ويمتشق سلاح الحرب ، وبلغ ذلك سمع أجا ملك كيش فخرج بجيوشه وحاصر أوروك . واستنفر جلجميش من رجاله من يستطيع مواجهة أجا ، فنفر له بطل يدعى بير هور تورى ، ولكنه ماكاد يخرج من بوابة المدينة حتى تكاثر الأعداء عليه وأسروه واقتادوه إلى ملكهم فلم يهن عزمه أمامه واستمر يشيد بمولاه جلجميش وشجاعته .

وصعد جلجميش على أسوار المدينة فخشى عليه رجاله ، وخرج تابعه إنكيدو يرقب البوابة . ولما رأى جلجميش عقم المقاومة وكثرة العدو سلم بالأمر الواقع ، فنادى أجا وامتدحه وعظمه ، مداراة له وخضوعاً للأمر الواقع ، فرق له قلبه ورفع الحصار عن مدينته وشكره على أدبه وأمنه على بلده .

سجلت هذه الأسطورة على إحدى عشرة لوحة صغيرة فى فترة ما من الألف الثانى ق.م ، ورأى ياكوبسن وكرامر فى استشارة جلجميش لجماعة الشيوخ ثم جمهور

(١) كرامر : من ألواح سومر – لوحتا ٦١-٦٢ ، ص٤٣٤-٤٣٥ .

الشعب نوعاً من أساليب الديموقراطية القديمة واعتبرا الجماعتين أشبه بيرلمان من مجلسين للشيوخ والشباب (١) . ولو أنه ليس من ضرورة للأخذ بحرفية هذا التخريج لأن القصة لاتحتمله .

وظهر جلجميش فى صورته الأخرى يتحدى الموت ، ويحاول أن ينتصر عليه باكتساب شهرة فذة تخلد ذكره . وتخير مجال هذه الشهرة فى أرض الأحياء أرض الأرز «هوروم» ليأتى ببعض أشجار أرزها إلى أوروك رغم أنف حارسها المخيف هواوا.

واستفتى جلجميش أوتو رب الشمس وصاحب هذه الأرض فيما انتواه ، وصور له قلقه من البقاء فى مدينة يموت الإنسان فيها ويفنى دون ذكر يخلده ، فأشفق أوتو عليه من وعورة الطريق ومخاوفه ، ولكنه بكى واستعطفه ، فرق له واعتبر دموعه قرباناً له ووعده العون .

واصطحب جلجميش صديقه وتابعه إنكيدو ، وجمع خمسين متطوعاً من الشبان الأعزاب الذين لا أم لهم ولا دار ، حتى لايشغلهم عن مهمتهم شاغل من الأهل وتسهل عليهم المغامرة . وقطع معهم الجبال السبعة التى تفصل بين أوروك وبين الأرض الموعودة ولما بلغها حاول صديقه إنكيدو أن يثنيه عن دخولها وخوفه أهوالها ، وذكره بحزن أمه عليه إن لقى حتفه فيها ، فأقسم أبيه وأمه أنه لن يتراجع حتى يقاتل ذلك الكائن هواوا سواء أكان بشراً أم إلهاً . وذكرت القصص أبا جلجميش باسم لوجال باندا وذكرت أمه باسم نينسون ، وكانت أكثر احتفاء بها فوصفتها بالحكمة ودللتها النصوص الأشورية المتأخرة باسم نيسونا . وواصل جلجميش مغامرته حتى بلغ قصر هواوا الأرزى ، وبعد أن قطع سبع شجرات وتركها إلى رجاله ، اقتحم قاعة هواوا وهدده فيها ثم مال إلى أن يعفو عنه بعد أن ظهر عليه ، ولكن إنكيدو خوفه عاقبة العفو عنه وشجعه على قتله وقطع رقبته . وليس من المستبعد أن هواوا هذا كان اسماً رمزياً لزعيم أو جماعة عمل أو عملت على حرمان العراقيين من الحصول على أشجار الأرز من غابات لبنان واحتكرته دونهم فنسبت الأسطورة تحطيم هذا الاحتكار وأهله إلى مجهود بطلها العظيم جلجميش ، ربما تعويضاً له عن الاعتراف بالأمر

(١) T. H. Jacobsen, "Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia", *JNES*, 1945; Kramer, *American Journal of Archaeology*, 1949.

الواقع من أن الحياة الأبدية التى كان يسعى إليها هى احتكار للآلهة الكبار وحدهم، وقد حجبوا أمرها عمن عداهم ، وأن الأعمال الجليلة هى التى تخلد ذكرى عظماء البشر حتى وإن بلغوا مرتبة أنصاف الآلهة .

واحتفظت الألواح السومرية بأسطورتين أخريين قصيرتين لمقاتلة الأبطال لكائنات خرافية شريرة ، تضمنت أولاهما مقدمة قصة جلجميش وإنكيدو . وكان بطلها المعبود إنكى الذى أراد أن يثأر من الوحش كور لاختطافه الربة إرشكيجال واغتنامه إياها لنفسه فى عالمه السفلى ، فتتبعه فى قاربه ، وأخذ كور يرشق سفينة إنكى بالأحجار ويضرب قاعدتها ويسلط مياه البحر على مقدمتها ، ولم تعرف نهاية هذه الأسطورة ، ولكن يبدو أن إنكى انتصر فيها وأيد انتصاره بتحكمه فى مياه الأعماق وتسميته بإله آبسو [1] .

وكان بطل الأسطورة الثانية «نينورتا» رب الرياح الجنوبية وابن إنليل (رب الهواء) ونناخ التى لقبت بلقب «نن خرساج» ربما بمعنى ربة الجبل ، وكان خصمه هو «أسج» شيطان المرض القاطن فى كور ، فتغلب عليه بعد جهد كبير ، ولكن حدث بعد أن قضى عليه أن طغت المياه (المالحة ؟) الحبيسة تحت كور على سطح الأرض وغطت على مياه الأنهار ، وأشاعت القحط ، وظلت كذلك حتى عمل نينورتا على تكديس الأحجار فوق كور وجعل منها سداً حجز به تلك المياه العظمى ، وصرف ماغمر البلاد منها إلى نهر دجلة (؟) وأزاح عن البلاد ما أصابها من كرب ومجاعة[2] . ومن طبعات الأختام التى صورت قتال الأبطال للكائنات الخرافية ختم من أور ، صور البطل فيه بهيئة بشرية وصور مساعده على هيئة رجل برأس ثور .

وطرق السومريون فن الحوار الذى يقوم على التفاخر ، وعادة مايكون طرفاه اثنين من الأرباب أو من الحيوانات أو من الأشجار ، أو يقوم على التقاضى أمام معبود أو عدد من الأرباب [3]. ومن نماذجه حوار اشترك فيه أربعة : أوتو رب الشمس وأخته

---

(١) كرامر : من ألواح سومر – الفصل ٢٠– ص٢٨٤–٢٨٦ .

(٢) المرجع نفسه : ص٢٨٦–٢٨٩ .

(٣) L. Woolley, *Ur Excavations, The Royal Cemetery*, 359.

See, J.J.A. Van Dijk, La Sagesse Sumero-Accadienne, 31 f.; W. G. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, 1969, 150 f.

إنانا ورب الرعاة دوموزى ورب الزارعين إنكيمدو . وهو حوار يبدو أن مؤلفه أراد أن يعبر به عن فصل من فصول الصراع الدائم فى العراق بين أهل البادية وأهل الحضر، واضطرار الزارعين إلى قبول الرعاة فى أرضهم عن تراض فى بعض الأحيان وعلى مضض فى أغلب الأحيان . ولايخلو الجزء الباقى من هذا الحوار من تكرار وسذاجة ، ولكنه لايخلو من طرافة على أية حال ، ويمكن تلخيصه على النحو التالى :

تقدم الراعى والفلاح لخطبة العذراء إنانا ، وكما يحدث أحياناً من مفاتحة الفتاة فى أمر المتقدم لخطبتها رغبها أخوها أوتو فى قبول الراعى دوموزى وأغراها بكثرة ما لديه من اللبن والشحم والدسم ، فأبت إلا زواج الفلاح ، وقالت لأخيها لن يتزوجنى الراعى ويطوينى فى ثوبه المصنوع من صوف الغنم الخشن ، وسيتزوجنى الفلاح الذى ينمى النبات ويزرع الحبوب ، ويملأ مخازن الغلا بها .

وهنا تقدم الراعى بنفسه إليها واستنكر منها أن تفضل الفلاح عليه ، وأخذ يثبت لها أن الفلاح ما امتلك شيئاً إلا وكان عند الراعى مايقابله ، فلديه شاته البيضاء التى تقابل ثوبه الأبيض ، وعنده اللبن الأصفر الذى يقابل جعته الفاخرة ، والجبن الذى يقابل خبزه ... الخ ، وادعى أنه يستطيع أن يعول الفلاح بفتات موائده ، ويبدو أنها اقتنعت برأيه ومالت إليه ، فتشجع وواجه الفلاح وبدأه بالمشاجرة فاتقى الفلاح شره ولاينه ودعاه إلى أن يترك أغنامه ترعى فى حقوله وترتوى من قنواته ، فلانت شدة الراعى بدوره ومال إلى مصادقته ودعاه إلى عرسه لاسيما بعد أن عرض عليه أن يهدى عرسوه بعض خيراته . ولم تخل أيام الزوجين من خلافات تتفاخر فيها إنانا بنبل أسرتها وتعيب عليه تشرد أسرته ، وفترات من التراضى تحن فيها إلى معاشرته فتتزين له وتعانقه .

* * *

صور الأدباء السومريون عالم الموتى «كور» باعتباره عالم الظلام والمخاوف وعالماً لارجعة منه (١) . وحملت كلمة كور معانٍ كثيرة ، ومنها معانى الجبل والقطر الأجنبى والمتاهة والفراغ الكائن بين سطح الأرض وبين المحيط الأزلى (٢) . ومما

(١) Kramer, *JCS*, II, (1948), 60 f.; *ANET*, 41 f.

(٢) كرامر : من ألواح سومر – ص٢٦١ ، ٢٨٢ .



يستشهد به عن عالم الموتى أسطورة عرفت اصطلاحاً باسم «نزول إنانا إلى العالم السفلى» (١) .

وتروى الأسطورة أن إنانا اشتاقت إلى أن ترى ملك أختها الكبرى إرشكيجال ربة العالم السفلى ، فتركت دنيا الأرض والسماء ، وهجرت معابدها ، ولكنها لم تنس فتنتها وزينتها فاكتحلت بكحل يسمى «دعه يأتى ، دعه يأتى» وأصلحت هندامها ، وتزينت بحليها الفاخرة وكانت منها قلادة تسمى «تعال يارجل ، تعال ...» وتحصنت برموزها السحرية السبعة واصطحبت تابعها الأمين «ننشوبر» إلى بوابة العالم السفلى ، ولكنها تخوفت ما عساها تلقاه فى ذلك العالم المجهول ، لاسيما من أختها اللدود ربة الموت والظلام ، فأوصت تابعها بأن يترقب عودتها ثلاثة أيام فإن لم تعد إليه ملأ السماء صياحاً ، واستصرخ الأرباب لإنقاذها .

وعندما اقتربت إنانا من قصر اللازورد عند مدخل العالم السفلى بدأت بأسلوب التعاظم وخاطبت الحارس بجفاء وأمرته بفتح بابه وإلا فعلت به الأفاعيل . وذكرت له أنها «إنانا من مشرق الشمس» ، فرد عليها بمثل لهجتها وقال لها «إذا كنت إنانا من مشرق الشمس ، فلم أتيت إذاً إلى أرض لارجعة منها ، وطريق لم يعد منه مسافر ، وكيف طاوعك قلبك على ذلك ؟» ، فادعت أنها علمت بمقتل زوج أختها الكبرى ، السيد جوجالانا ، وأنها تود أن تحضر مراسيم جنازته ، فاستأذنها فى أن يبلغ الأمر لمولاته ، ولما قص لمولاته قصتها ووصفها لها عرفتها وتخوفت أن تنافسها فى سلطانها ، فأمرته بأن يفتح لها مزاليج العالم السفلى السبعة وأن يجعلها تنحنى فى حضرتها ، فأطاع أمرها ، وأدخا إنانا ، وكانت كلما دخلت باباً جردوها من أحد رموزها وحليها ، فإذا سألتهم عن سر ذلك قالوا لها «اصمتى إنانا فتقاليد العالم السفلى قد استقرت ، فلا تناقشى مراسيمها» ، حتى إذا بلغت البوابة السابعة نزعوا عنها ثوبها، وأدخلوها على أختها التى استوت على عرشها فانحنت أمامها عارية ، ولم يلبث أعوانها القضاة السبعة (وهم فريق من الأنوناكى) أن صوبوا نحوها نظرات الموت وقالوا كلمتهم بصرخة التجريم التى تعذب الروح ، فسقطت صريعة ، فأخذوا جثتها

(١) Kramer, *JOS*, XV, (1951), 1-17.

وعلقوها فى مسمار ...![1] .

ومرت ثلاثة أيام على مصرعها ، فعمل تابعها بوصيتها فارتدى ثياب الحزن والفقر وملأ السماء نحيباً من أجلها ، واتجه إلى المعبود إنليل وبكى عنده ، وقال له فيما قال : أيها الولد إنليل ، لاتترك ابنتك تهلك فى العالم السفلى ، لاتدع معدنك الطيب يعلوه الغبار ، لاتدع لازوردك الحر يتفتت ...» ، فقابله إنليل ببرود ورد عليه بما يفهم منه أنها هى التى اختارت مصيرها بنفسها ولم يجبرها أحد على النزول إلى العالم السفلى .

وأعاد التابع الكرة على المعبود ننار رب القمر فلقى منه مثلما لقى من إنليل ، فاتجه إلى إنكى رب الحكمة ووجد عنده بغيته ، فخلق إنكى معبودين من درن قلامة ظفره المصبوغ باللون الأحمر ، ووهب أحدهما طعام الحياة وأوصاه بأن ينثره على جسد إنانا ستين مرة ، ووهب ثانيهما ماء الحياة وأوصاه أن يسكبه فوق جسدها ستين مرة حتى تعود إلى الحياة . وأكد عليهما ألا يقربا نبات العالم السفلى ولاماءه ، فصدع الرسولان بما أمرهما به ، وبذلك استخلصا جثة الملكة من مسمارها ونثرا عليها طعام الحياة وماءها فاستعادت إنانا حياتها ، وتأهبت للصعود من العالم السفلى ، ولكن الأنوناكى اشترطوا لخروجها أن تخضع للعرف القاضى بألا يخرج أحد من عالم الظلام دون تقديم بديل عنه ، فرضخت مرغمة واصطحبها زبانية الموت ضماناً لوعدها ، فقصدت بهم مدينة أوما ثم مدينة باد تيبيرا ابتغاء التضحية بربيهما ، ولكن هذين أظهرا لها الخضوع والتذلل حتى انصرفت عنهما واتجهت إلى كلاب دار زوجها دوموزى ، وبدلاً من أن ينزل هذا لزوجته اعتلى عرشه ، فحرضت الشياطين عليه وصوبت نحوه نظرة الموت ونطقت ضده بصرخة التجريم قائلة «أما هذا فخذوه» فأخذه الشياطين وأوثقوه بالقيود وانهالوا عليه بالسياط والفؤوس . وبكى دوموزى حتى اخضر وجهه وتضرع أخيراً إلى أخ زوجته أوتو رب الشمس أن يعينه وذكره بأنه هو الذى يزود بيت أمه بالزبد ويزود بيت ننجال باللبن[2] .

---

(١) Edward Chiera, *Revue d'Assyriologie*, XXXIV, 93 f.; S.N. Kramer, *op. cit.*, 52 f.; *Journal of the Cuneiform Studies*, V, 1951.

كرامر : من ألواح سومر – الفصل ١٩ – لوحة ٦٣ .

(٢) المرجع نفسه – لوحة ٧٠ ، ص٣٢٤ .

فاستجاب له بعد لأى وغير له هيئته حتى أنكرتها أخته كشتن - أنا التى خبأته فى حظيرة للماشية ، ولكن الشياطين اهتدوا إليه وضربوه وأخذوه معهم إلى عالم الموتى. وتعددت الإضافات والتعديلات على القصة لاسيما بالنسبة لفترة بقائه فى العالم السفلى التى اختلفت الروايات فى تقديرها بين ثلاثة أيام ، وبين ثلاثين يوماً ، وبين نصف عام حيث تطوعت أخته الوفية كشتن - أنا بأن تحل محله خلال نصف العام الآخر فاستحقت التقدير خلال زوجته إنانا التى أودت به لمصلحتها (١) .

وظل النواح يتكرر عليه فى ذكرى وفاته حتى حرمته التوراة وقال عنه النبى حزقيال حوالى عام ٥٩٠ ق.م إنه لأمر بغيض .

وصورت إحدى لوحات قصة جلجميش محظورات العالم السفلى ، فى حديث جلجميش لصديقه وتابعه إنكيدو حين تطوع للنزول إلى العالم السفلى ليستنقذ منه هديتين أهدتهما إليه الربة إنانا ، فأوصاه بألا يرتدى ثياباً نظيفة وألا يتعطر وألا يأخذ معه عصا الرماية ولايلبس نعلا ولايقبل زوجته أو يضربها ولايقبل ولده أو يضربه ، وكل ذلك حتى لايستثير شياطين العالم السفلى ضده . ولكن إنكيدو تهاون وارتكب المحظور فأطبق عالم الموتى عليه وعجز عن الصعود منه . وعندئذ استنجد صديقه جلجميش برب الحكمة إنكى لينقذه ، فأمر أوتو إله الشمس أن يثقب ثقباً فى العالم السفلى وأن يسمح لشبح إنكيدو بالنفاذ منه ، ففعل . وعندما خرج الشبح عانقه جلجميش وأخذ يسأله عما شهده فى العالم السفلى عن مصير الموتى الذين خلفوا من ورائهم ذرية من ابن واحد إلى سبعة أبناء ، وعن مصير شهداء الحرب والذى لم يدفن والذى حرم من القربان ... إلخ .

وصور أحد الألواح السومرية مصير أورنمو ملك أورحين نزل العالم السفلى «كور» فاسترضى أربابه السبعة الكبار بالقرابين ، كلا منهم فى قصره ، وترضى كاتبهم ، واستقر فى قصره حيث رحب الموتى به ، وحيث زاره جلجميش الذى غدا بعد قضايا فى العالم السفلى ولقنه مراسم العالم الآخر ، ولكن ما انقضت سبعة أيام ثم عشرة حتى حن أورنمو إلى مدينته التى لم يكمل أسوارها ، وإلى قصره الذى تركه

(١) Ebeling, *Tod und Leben*, 49; Falkenstein, *Bibliotheca Orientalis*, XXII, 1965, 279-293; *BASOR*, 1966, 31;

فاضل عبدالواحد : عشتار ومأساة تموز - بغداد ١٩٨٦ - ص١٢٩-١٣١ .

دون تطهير ، وإلى زوجته وولده ، وأخذ يتسمع نحيب بلاد سومر عليه وينتحب لبكائها [١] .

عرفت دور العلم عند السومريين باسم بيوت الألواح «أى - دبا» ، سواء فى ذلك إن كانت دوراً للتعليم فعلاً أم كانت مجرد خزائن للكتب (مع شيء من التجوز فى التعبير عن الألواح باسم الكتب) . وكان المشرف عليها يدعى أوميا ، أى الخبير ، ويلقب بلقب أبى الدار إذا كان معلماً ، ويشاركه فى إشرافه على تلاميذه وعقابهم عريف أو أكثر . ولم يعثر بعد على مبان يمكن القطع باعتبارها مدارس فعلية ، وكل مايمكن تقديمه فى هذا السبيل ، معلقاً على الاحتمال وحده ، عدة بيوت وجدت فى كل من مدن نيبور وسيبار (أبو حبة قرب بغداد) ، وأور ، وتل حرمل (قرب إشنونا) ، قد تكون بيوت معلمين أو مدارس ، لأنها تميزت عما سواها بكثرة ألواح الكتابة التى وجدت فيها ، ثم حجرتان فى بيت بمدينة مارى (تل الحريرى) اشتملتا على صفوف من المصاطب مختلفة السعة بنيت من الآجر ، تتسع الواحدة منها لشخص أو شخصين أو أربعة أشخاص ، وقد تكونان مكتباً أو مدرسة .

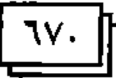
ولما كان الخلط المسمارى خطاً معقداً فى أشكاله الاصطلاحية وفى تعبيراته ، كان من الطبيعى أن يستهلك التلميذ فى تجويده سنوات طويلة ، يتعلم خلالها مايناسب سنه من صيغ الرسائل وقصائد المعبودات والمقطوعات الأدبية والأسطورية المناسبة ، وعدداً من المفردات التى تتناول مطالب بيئته وخصائصها ، كأسماء الوظائف وأسماء الحيوانات وأسماء الأشجار والنباتات ، وأسماء المعادن والأحجار ، وهلم جرا [٢] . ووجدت لوحة فى تل حرمل تتضمن أسماء مئات من الأشجار والقصب والمواد ومنها حوالى مائة اسم لطيور خصص كل منهما فى نهايته بصورة طائر . وكان اسم مؤلفها أو ناسخها هو : أرا - إيمتى ، وقد سجل اسمه فيها وقدم له بأسماء عدد من الأرباب رعاة المعرفة والآداب كما لو كانوا قد شاركوه كتابته بإيحاءاتهم فقال : نيدابا - خاى- جشتن - أنا - أرا - إيمتى بن نورم لبسي الكاتب كتبوه .

وقدم صمويل كرامر نصاً مسمارياً وصف تلميذ فيه طرفاً من حياته المدرسية

---

(١) كرامر : المرجع السابق - ص٢٦٢ .

(٢) المرجع نفسه : ص٤٧ .



بناء على أسئلة وجهت إليه (١) ، ويفهم من ترجمة كرامر للنص أن التلميذ كان يبكر فيأخذ من أمه رغيفين ، وينطلق إلى المدرسة متردداً وهو يحسب للعريف ألف حساب، وعند دخوله يحرص على تحية المعلم ، ثم يستظهر لوحه فى فترة الصباح ، وبعد أن يتناول غذاءه ، يكتب لوحه الجديد أو يستكمله ، وفى العصر يتلقى درسه المكتوب ، وبعد الانصراف يعود إلى داره فيطلع أباه على درسه وعلى اما استظهره فى يومه . غير أن مجهوده لم يكن يعفيه من أذى الضرب فى المدرسة جزاء الثرثرة وكثرة الحركة أو جزاء الهرب أو لرداءة خطه . ولم يكن لمثله إلا أن يلجأ إلى أقصر الطرق ، فأشار على أبيه بدعوة المعلم فى داره ومهاداته ، فاستجاب الأب وأكرم المعلم وكساه وأهداه . ويفعل الاسترضاء فعله ، فما أن يعيد الولد قراءة ألواحه أمام معلمه ؛ حتى يستبشر المعلم ويعلن رضاه عنه ويبرر هذا الرضا بما تبينه من طاعته وعمله بإرشاداته ، ويبشره بمستقبل باسم يتفوق فيه على أقرانه بعد أن أصبح من مريدى المعرفة .

* * *

وبغير أن نفسد جمال الصورة التى رسمناها للآداب السومرية ، لابأس من أن نضيف إليها حقيقة واقعة ، وهى أن ما استشهدنا به منها يمثل إنتاجها الرقيق وحده ، أما غثها فكثير . وفيما بين الغث والثمين وقع أدب دينى أسطورى صور كيد الأرباب السومريين بعضهم لبعض وإسفاف بعضهم مع بعض ، بما يمكن تعليله بأن السومريين الأوائل عاشوا لفترات طويلة أمام الطبيعة وجها لوجه ، ووجدوها طبيعة صاخبة بهيمية غير متميزة ، فألصقوا الصفات نفسها بأربابها ، ثم تعدوا هذه المرحلة من التفكير بعد أن تهذبت حضارتهم ، ولكنهم لم ينسوا تماماً تصورات أجدادهم الأولى ، فأورثوها لأحفادهم . وقد مر بنا من صورها كيف تخيلوا القمر ولد سفاحاً ، وكيف اغتصبت إنانا ألواح القدر من إنكى . وصورت أسطورة لهم شدة حسد المعبود إنكى للمعبود إنليل على إجتماع الناس على عبادته بلسان واحد ، الأمر الذى أدى به إلى أن أشاع الوقيعة بينهم وبين ربهم إنليل ، وبلبل ألسنتهم ، على الرغم من أن إنكى الحسود هذا كان يوصف بالذات بأنه حكيم الأرباب . وربط صموئيل نوح كرامر بين هذه الأسطورة ، ومارواه العبرانيون عن قصة برج بابل ووحدة الألسن ، القديمة ثم

---

(١) المرجع نفسه – الفصل الثانى – لوحتا ١١-١٢ .

بلبلتها فيه نتيجة لغيرة ألوهيم من طموح الإنسان ليكون شبيهاً بإلهه .

وصورت أسطورة أخرى المعبودة إنانا ، بعد نزولها من السماء ، على هيئة بغى مقدسة أدركها التعب فنامت تحت شجرة فى بستان بأرض شوبر (فى غرب إيران) ، فغافلها البستانى وقبلها وضاجعها ثم هرب منها إلى بلاد سومر بلاد إخوته أصحاب الرؤوس السود ، واحتمى بعمرانها . فصبت إنانا نقمتها على بلده وسلطت عليها عواصف مدمرة وملأت آبارها بالدم .

وأضافت أسطورة ثالثة عن بداية الخلق فى جنة تلمون ، أن إنكى رب الحكمة ضاجع ننخرساج وأنجب منها فتاة ، ثم طمع فى ابنته منها واستولدها حفيدة ، وضاجع الحفيدة واستولدها هى الأخرى ، وظل كذلك حتى نبهت ننخرساج الزوجة الجدة حفيدتها الرابعة ألا تستسلم لجدها حتى يمهرها بنوعين من النباتات ، فأتاها بالمهر ونكحها هى الأخرى . وهنا سلمت الجدة بالأمر الواقع ، وانتوت الانتقام ، واستخدمت النباتين فى توليد ثمانية أنواع جديدة من النباتات ، وكان لها هدف معين منها . فلما رأى الجد النهم النبت الجديد طمع فيه وأكله ، فلعنته ننخرساج وهجرته . ولما أصابه السقم وأوشك على الهلاك ، جد فى البحث عن زوجته الغاضبة ولم يدله عليه غير ثعلب .. ولما كانت حيكمة ، كما تقول الأسطورة وضعته بين ركبيها وأخرجت من مواطن دائه تسعة أولاد [1] ، بعد أن استعبر بنتيجة مافعل .

نهاية أور :

تعرضت دولة أور فى أواسط القرن العشرين ق.م لهزتين عنيفتين ، صدرتا عن طائفتين طموحتين وهما أنصاف الإلاميين ، والأموريون . أما الإلاميون (أو العيلاميون) ومن خالطوهم وتأثروا بهم فهم جيرانها القدماء فى شرقها وجنوبها الشرقى ، وكثيراً ماصدمتهم وتصادموا معها ، وناوأتهم حتى أخضعت بعض جماعاتهم لسلطانها أحياناً . ولكن حدث لأمر ما أن انبعثت فيهم روح جديدة شجعتهم على مد سلطانهم على جزء من دولة أور . وناوأ الأموريون الدولة من غربها ،

---

(١) Kramer, *From the Tablets...*, Ch. XI, XXV; *BASOR*, 1945, (Supl. No. 1); ANET, 37 f.; Th. Jacobsen (j.a.), *The Intellectual Adventures of the Ancient Man*, 157 f.

والأموريون هم أولئك الفروع من الساميين ، الذين انتشروا فى باديتى الشام والعراق فى أواسط الألف الثالث ق.م وامتدوا حتى غربى الفرات الأوسط حيث غلبوا على من سماهم السومريون القدماء «مارتو» (أى الغربيين) وعرفهم بنو عمومتهم الأكديون باسمهم هذا وهو «الأموريين» ، وهو اسم سبق أنه يؤدى المعنى القديم نفسه أى الغربيين وإن كان أحد معبوداتهم الكبرى قد سمى أمورو مما يحمل على الظن بنسبتهم إلى اسمه (١) . وكان قرب مناطق الأموريين من صحراوات شبه الجزيرة العربية يزودهم من حين إلى آخر بهجرات من بنى عمومتهم البدو الساميين ، وهذه قد تنطوى فى ظلهم حيناً ، وقد تغلب بعض جماعاتهم على أمرها حيناً آخر ، ولكنها كانت تجدد دماءهم وحيويتهم فى أغلب الأحيان وظلت ضفاف الفرات وخيراتها الطبيعية والحضارية مطمعاً للأموريين القريبين منها حتى توافرت لهم أسباب هجرة كبيرة قوية ، وهى أسباب يصعب تحديد تفاصيلها ، ولكنها لاتخرج فى أغلب الظن عن احتمال فرارهم من اشتداد موجات الجفاف الطويلة فى أرضهم ، أو ارتفاع نسبة التكاثر الداخلى فى قبائلهم ، أو ظهور زعامات قوية طموحة بين صفوفهم ، ثم إحساس أقرب جماعاتهم من أرض العراق بتخلخل قبضة أواخر ملوك أور على أطراف دولتهم لاسيما بعد أن انشغلوا بضغط الإلاميين على مشارفها الشرقية . وانهارت أغلب احتكاراتهم التجارية ، وسنحت الفرص أمام أمراء المدن للمبادرات الفردية .

وسيطر الأموريون فى بداية تغلبهم على مناطق الحواف . ومن كبرى المدن التى مدوا نفوذهم إليها مدينة مارى بين نهر الخابور ونهر الفرات ، وكانت لأهلها صلة قديمة بالعنصر السامى . وبدأ حكام المدن يوازنون بين الولاء للغزاة وبين الولاء لعرش أور ، وكان من هؤلاء أمير سامى الأصل يدعى إشبى إرا ، من حكام مارى ، أخذ يظهر الولاء للفريقين حتى يتكشف له الفريق الغالب منهما فينضم إليه ويأخذ من ثم يعمل لما فيه مصلحته . وصورت هذه الأوضاع رسالة أرسلها «إبى سين» آخر ملوك أور إلى قائد من قادته يدعى «بوزور نوموشدا» تولى حكم مدينة كازاللو (وهى

(١) *See*, Edward, *Die Zweite Zwischenzeit Babylonien*, 1957; *Kupper, Les Nomades en Mesopotamie*, 1957.



مدينة غير معروفة قد تقع شرقى دجلة) (١) ، عاب عليه فيها تردده فى مهاجمة رجل مارى «إشبى إرا» ، بعد أن تلقى من هذا القائد رسالة أخبره فيها أن إشبى إرا بث عيونه حوله ، وأنه لن يستطيع مغادرة أرضه إلا بعد أن ينزاح خطره عنه ... ورد إبى سين أسباب المحنة إلى القضاء والقدر وإرادة الأرباب وفساد الدولة ، فقال لقائده : «قضى إنليل بالشر على سومر وهبط عدوها من أرض ... وتولى زعامة البلاد . وترك إنليل الملكية لإشبى إرا الرجل الوضيع غير السومرى . وسجدت سومر فى مجمع الأرباب ، وقضى إنليل أنه طالما بقى أهل السوء فيها فلسوف يدمر إشبى إرا رجل مارى بنيانها ويكتسح أرضها (٢) .

ويبدو أن إشبى إرا استمر فى خداعه وادعى الغيرة على مدن أخرى غير مارى، فنقل نشاطه إلى مدينة نيبور ثم إلى مدينة «إسين» إلى الجنوب منها بنحو ثلاثين كيلو متر . ومن هناك أرسل إلى إبى سين يدعى أنه سوف يدافع عن المدينتين ويطلب المدد منه لهذا الغرض ، ولكن الملك السومرى ظل على سوء الظن به ، فانتهزها إشبى إرا ، وكشف القناع عن أطماعه وسيطر على المدينتين لصالحه واتخذ ثانيتهما عاصمة له ، فى الوقت نفسه الذى اندفع فيه حلفاؤه الساميون إلى قلب العراق، وسيطروا على سهل سوبار (٣) .

واعترف الملك السومرى إبى سين فى رسالته إلى قائده بهذه الحقيقة المرة ، وحاول معه محاولته الأخيرة ، فتنبأ له بأنه إن ضل وجرى مجرى المنحازين إلى الساميين فلن يقدره العدو قدره ، ودعاه من ثم إلى التزام جادة الصواب ، وبشره بأن الأمور لن يبلغ مأربه ، لأن إنليل سوف يكشف الغمة ويرسل جماعات جديدة من بدو مارتو يفسدون عليه أمره ، وقد يهاجمه العيلاميون أيضاً ، وحين ذاك تستفيد سومر من تنافس الخصوم وتستعيد مجدها القديم .

وشيئاً فشيئاً انقطع التأريخ باسم إبى سين السومرفى مدينة بعد أخرى (مثل مدن إشنونا ولجش وأوما ..) مما يعنى انسلاخها عنه أو وقوعها فى يد عدوه . وسواء

---

(١) هورست كلنجل : حمورابى ملك بابل وعصره – مترجم ببغداد ١٩٨٧ – ص٣٢ .

(٢) Kramer, *ANET*, 480-481; A. Falkenstein, ZA, XLIX, (1949) 59 f.

(٣) See, Jacobsen, *Journal of Cuneiform Studies*, VII (2), 1953,39; F.A. Ali, *Archic Orientalni*, XXXIII, 1965, 520-540.

تقدم الإلاميون حينذاك من تلقاء أنفسهم ، أم استنجد بهم إبى سين (ضد أمير أمورى يدعى نابلانوم) كما يعتقد ياكوبسن ، فقد استغلوا الظروف لمصلحتهم ومدوا سلطانهم حتى مدينة لارسا، التى قامت على مقربة من أور وقامت على أطلاها بلدة سنكرة الحالية ، وكانت مركزاً من مراكز عبادة الشمس ، وعرف معبد إله الشمس فيها باسم إيابار . وكان المنتفع بهذه الخطوة (كادرمورياك) ملك منطقة إيموتبال وهى منطقة فى شرق دجلة قريبة من الحدود الإيرانية ، جرت فى حكامها دماء إلامية ، وكان يتلقب بلقب أدا إيموتبال بمعنى والدها . وبعد أن سيطر على لارسا لقب نفسه بلقب أدا الغرب وعين ولده وردسين ملكاً عليها حتى خلفه أخوه ريم سين، الذى طال حكمه أكثر من ستين عاما (١) .

وكان لسقوط أوربين فكى الكماشة ، حينذاك ، واقتسام مجدها وأملاكها بين خصومها العيلاميين والأموريين ، بل وبين جماعات جبلية دعت النصوص أصحابها باسم السوباريين (٢) ، نتيجة فيما يبدو لسيطرتهم على مناطق سوبار (أو سوبارتو) ، دوى كبير فى نفوس أهلها ونفوس السومريين بكافة ونظم شاعر سومرى خبر دمار أور (بعد فترة من حدوثه) فى قصيدة ، واعتبره دماراً لسومر كلها (٣) .

وبدأ الشاعر قصيدته بقوله : «فارق الفحل مقره وتفرق قطيعه مع الرياح» وقصد بالفحل هنا إله أور ثم عدد أسماء المدن السومرية الكبرى وذكر أن أربابها ورباتها فعلوا فعلة إله أور ، فهجر إنليل نيبور وتفرق قطيعه ... ، وهجرت إنانا أوروك، وهجر إنكى إريدو .. ، وهلم جرا ، ثم أخذ ينعى مصائر المدن وينعى تساقط لبنات مساكنها ، وبدأ بمدينة أور ... ، ثم انتقل إلى وصف قرار الأرباب بدمارها وسفك دماء أهلها ، وكيف أنه (أى الشاعر) آثر ألا يتركها على الرغم مما أصابها ، وأنه أخذ يسكب دموع عينيه لربه آن ، ويبتهل لربه إنليل ، ولكن ما من سميع ولامجيب . واستمر نحيب الناس .. ، وامتلأت الطرق بجثث القتلى الذين حطمتهم

(١) هورست : المرجع السابق – ص٣٦ .

(٢) See, ANET, 460 .

(٣) Th. Jacobsen, *AJSL*, LVIII, 219 f.; M. Mitzel, *Orientalia (New Series)*, XIV (1945), 185 f.; XV, 46 f. ; See, Kramer, *op. cit.*, 455 ; also, *ANET*, 1969, 611-619.

هـ. كلنجل : المرجع السابق – ص٣٣ .



الرماح والمقامع ، وظلوا تحت وهج الشمس حتى أذابت الشمس شحومهم ، أما من نجوا فقد ذلوا وجاعوا حتى تخلت الأم عن ابنتها ، وهجر الأب ولده ، وفارقت الزوجة زوجها...

ونعت الربة نينجال بدورها الدمار الذى لحق بداخل المدينة وخارجها ، وقالت:... تراكم الوحل فى أنهار مدينتى ، وأصبحت كأنها جحور الثعالب ، وما عاد الماء يجرى فيها . وهجرها عمالها ، ولم يتبق غلال فى حقول بلدى وهجرها مزارعوها ، ... وأصبحت أحمات النخيل والكروم بعسلها ونبيذها (جرداء) كقمة الجبل (؟) ، .. ضاعت مدينتى ولم أعد ملكتها ، وتحولت دارى إلى أطلال ، وقامت مدينة غير المدينة ودار غير الدار ، ياويلتى ، أين أجلس وأين أقف ؟ ، أنا نينجال طردت من دارى ولم يعد لى مقر ، وغدوت شريدة فى مدينة غريبة ..

ورد الشاعر على نحيب ربته نينجال بنحيب مثله ، قائلاً : مليكتى ، أصبح فؤادك كالماء ، فكيف تعيشين ؟ أيتها السيدة العادلة التى تخربت مدينتها كيف تعيشين ؟ ... ، دموعك أصبحت دموعاً غريبة ، فالبلد لم يعد يذرف الدموع .. ، وإلى متى ياترى ستظلين غريبة بجوار مدينتك ؟ ثم تمنى لها أن تؤوب إلى ديارها أوبة الفحل إلى حظيرته ، والشاة إلى قطيعها ، والطفل إلى مهده ، ودعا لها بأن يقضى لها آن ملك الأرباب بالأمان ؛ ويمنحها إنليل ملك الدنيا الحظ (السعيد) حتى تعود أور إلى حالها من أجلها ، وتمارس فيها سلطانها .

ويرى ياكوبسن أن تأليف القصيدة لايتأخر أكثر من سبعين عاماً أو ثمانين عاماً بعد تدمير أور ، بينما يستبعد كرامر مثل هذا التحديد ويكتفى بافتراض تأليفها فيما بين انتهاء عصر أور، والعصر الكاسى .

النهضة الثالثة فى عصر إسين - ولارسا :

كان من الطبيعى أن يتنافس الأموريون والعيلاميون وأنصارهم على السلطان فى العراق ، فاستمرت المنازعات سجالاً بينهما ، وسمح هذا لبعض مدن العراق القديمة بأن تستأنف سيرها الحضارى على غفلة من هؤلاء وهؤلاء ، وشجعها على ذلك أن الأموريون أنفسهم احتضنوا الحضارة السومرية الأكدية فى العاصمة «إسين» وسمحوا لها بالنمو فى مدنها القديمة ، ولم يصروا على إرغام هذه المدن على الانضواء معهم فى وحدة سياسية دائمة، على الرغم من تلقب ملوكهم باللقب العريض

المألوف لقب «ملك سومر وأكد» .

ويبدو أن الإلاميين أو العيلاميين اتخذوا من جانبهم خطوة مماثلة ، فتركوا لمدينة «لارسا» استقلالها الذاتى ، واكتفوا بأن ولوا عليها أمراء من بينهم المالك ، وحمل بعض أولئك الأمراء كنيات سامية ؛ مما قد يعنى أنهم بدورهم قد اختلطوا بالساميين العراقيين وتعايشوا معهم . وإن ظلت الأطماع السياسية تلعب برؤوسهم فى مقابل أطماع الأموريين .

ومع هذه السياسة من الأموريين والإلاميين، دلت نصوص هؤلاء وهؤلاء على اهتمام زعمائهم المقيمين فى إسين ولارسا ، بالعمائر الدينية القديمة ، وذلك مثل تجديد زقورة أور فى عهدى إشمى داجان ملك إسين وعهد وردسين ملك لارسا ، وتعيين إشمى داجان ابنته إناناتم كبيرة لكاهنات ننا (أو ننار) رب القمر السومرى .

وكشف عن ضاحية سكنية لمدينة أور بلغ اتساعها نحو عشرة آلاف ياردة مربعة ، شيدت مساكنها فى عصر إسين – لارسا ، وهى بيوت بنيت قواعدها من الآجر وأقيمت بقية جدرانها من اللبن ، ولم تختلف فيما بينها إلا من حيث مساحاتها . فالمنزل المتسع منها كان ذا فناء داخلى مرصوف بقوالب الآخر، يتلقى الضوء والهواء من كوة كبيرة بطنف السقف العلوى للطابق الأول ، وتنفتح عليه غرف الجلوس وغرف الضيافة ، وتتفرع منه ملحقات الدار الصغيرة ، ويبدأ من إحدى زواياه الدرج المؤدى إلى الطابق العلوى . وجرت العادة على أن تسكن الأسرة فى هذا الطابق العلوى الذى تطل شرفاته الخشبية الداخلية على الفناء، وتعتمد على أساطين خشبية أيضاً ترتكز قواعدها على أرضيته . وتميزت بعض المساكن بمقاصير للعبادة الخاصة، وتضمنت بعضها مقابر أهلها تحت مقاصيرها أو تحت أرضية إحدى حجراتها السفلية. أما الطرقات فكانت ضيقة غير مرصوفة، تتناثر فيها هياكل العبادة الصغيرة التى لايزيد بنيانها أحياناً عن قاعة واحدة أو قاعتين [1] .

(١) *Antiquaries Journal*, VII, Pls. 41-41 XI (1931), 359 f.

تشريع إشنونا [1] :

انتعشت دويلات المدن العراقية شيئاً فشيئاً من جديد وعاش بعضها بعد سقوط أور بفترة طويلة ، وساعدها على ذلك أن نهضتها كانت نهضة فكرية أكثر منها نهضة عدائية أو توسعية ، الأمر الذى صرف عنها غضب إسين ولارسا . وكان من أنشطها دويلة مدينة إشنونا ، التى يقوم على بعض أنقاضها الآن تل أسمر فى منطقة ديالى على الطريق التجارى بين العراق وبين إلام . وكانت فيما يبدو أكثر ميلاً إلى السامية منها إلى السومرية على الرغم من موقعها ، واعتبرت تشباك إلهها الأكبر ، واتسع نشاطها إلى قرب كركوك . وخير مايذكر لحكامها هو خروجهم بتشريع مكتوب فى أوائل القرن التاسع عشر ق.م أو قبلها بقليل . ووجدت بعض لوحاته فى شادوبوم وهى تل (أبى) حرمل شرقى بغداد وقد غلب عليها الأسلوب الأكدى . ويعتبر هذا التشريع هو الثانى من نوعه بعد البداية التى قام بها أور نمو ملك أور ، أو هو الثالث بعد المحاولة الإدارية التى قام بها أورو كاجينا فى لجش . وبقيت منه إحدى وستون مادة عالجت أهم جوانب الحياة فى عصرها وشهدت بالكفاية التشريعية لأصحابها ، فاهتمت طائفة منها بتحديد أسعار الأقوات الضرورية مثل الشعير والزيت والملح ، فجعلت كور الشعير (= ٣٠٠ لتر) بشاقل فضة ، وسعرت الثلاث «قا» من أحسن صنوف الزيوت بشاقل فضة ، وكورى الملح بشاقل فضة ، والقا من زيت السمسم الفاخر بثلاث سيات من الشعير ، إلخ . ولعلها قامت بذلك مقام التسعيرة الجبرية .

واهتمت مجموعة ثانية بتعيين (الحد الأدنى ؟) لأجور العربات والقوارب ومن يعملون عليها ، والحد (الأدنى ؟) لأجور العمال الزراعيين . فجعلت أجرة العربة بثيرانها وسائقها طوال اليوم بانا و٤ سيات من الشعير ، أو ثلث شاقل فضة . وجعلت أجرة نقل حمولة كور بالقارب ٢ قو شعير ، وأجرة المراكبى سية وقو من الشعير على أن يعمل على قاربه طوال اليوم ، وجعلت إيجار المكارى وحماره طوال اليوم سيتين

---

(١) نسب A. Goetze التشريع إلى الملك بلالاما (مجلة سومر ١٩٤٨) ثم عدل عن هذه التسمية واكتفى بنسبة التشريع إلى مدينته وترجم طه باقر بنود هذا التشريع فى الجزء الثانى من المجلد الرابع لمجلة سومر ١٩٤٨-ص١٦٥ إلخ - وانظر أيضاً سومر ١٩٦١ - هورست كلنجل : المرجع السابق - ص٩٠ .

See, A. Goetze, *The Eshnunna Law*, 1956; *ANET*, 1969, 161 f.; Gadd, *CAH*, Vol. II, Part 1, 1973, 187 f.

من الشعير أو وزن ١٢ حبة من الفضة ، وجعلت أجرة الأجير فى الشهر شاقلاً من الفضة وبانا من الشعير (٦٠ لتراً) ، إلخ ، فى حين شددت العقوبة أو الغرامة على العامل المتوانى عن أداء عمله .

واهتمت مجموعة ثالثة بتحديد العقوبات على جرائم عصرها وعلى الأضرار التى تلحق بالغير ، وجمعت فى ذلك بين القصاص والغرامة، فرضيت بالقتل عقاباً للقاتل ، ولكنها أقرت مبدأ التعويض عن الجروح التى لاتؤدى إلى الوفاة ولو لم تتأت عن أداة ما . فقضت على من عض أنف شخص أو اقتلع عينه بأن يدفع غرامة قدرها مينه من الفضة (وكانت فى تشريع أور ثلثى مينه فقط مما يعنى الرغبة فى تشديد الجزاء) ، وقضت على من كسرسنا لآخر أو قدمه أو قطع أذنه بأن يدفع نصف مينه من الفضة ، وقضت على من صفع وجه آخر وشوهه بأن يدفع له عشرة شواقل من الفضة . وألقت مسئولية ما يأتيه العبد أو الفحل أو الكلب على كاهل صاحبه .

وعنيت مجموعة رابعة من تشريع إشنونا بتنظيم العلاقات الأسرية والمعاملات الخاصة . فاشترطت بنودها رضا الوالدين على زواج ابنتهما ، وذكرت أن من أغوى فتاة على معاشرته دون أن يعقد عليها أمام والديها لن تصبح زوجته ولو أقامت فى داره حولاً كاملاً . وأخذت بما قررته أور من أنه إذا تعاقد رجل مع شاب على تزويجه ابنته فى مقابل خدمته (؟) ثم زوجها لغيره وجب عليه أن يرد له ضعف ما أخذه منه، وإذا توفى أحدهما قبل الزواج عاد نصيب كل منهما إلى صاحبه . ونصت على حق المحارب الذى يؤسر مدافعاً أو غازياً وينقل إلى ديار أعدائه ، فى أن يسترد زوجته حين عودته ولو تزوجت غيره وأنجبت منه خلال غيابه عنها ، ولكنها حرمت هذا الحق على من فارق بلده كارهاً له أو آبقاً من سيده . وجعلت القتل عقاباً للزوجة الزانية وعقاباً لمن يغتصب فتاة مخطوبة ... ، ونصت على أنه على من طلق زوجته ذات الأولاد (دون ذنب أتته ؟) وتزوج غيرها أن يفارق الدار ومافيها هو ومن أراد أن يتبعه من أهل داره ، وفى هذا سبق من التشريعات العراقية القديمة لكفالة حقوق الزوجة الحاضنة عما تطلعت إليه بعض القوانين المعاصرة .

ووضعت بنود المعاملات مبدء الشفعة ، فاعترفت بأن الإخوة أحق بشراء نصيب أخيهم من الميراث إذا أراد بيعه ، وبأن من باع داراً أصبح أحق بشرائها ثانية لو باعها مشتريها .

وحددت أرباع القروض معدنية كانت أم عينية، فجعلت ربح الشاقل من الفضة سدساً وست حبات ، وجعلت ربح كور الشعير بانا وأربع سيات من نوعه نفسه .

وفى العقوبات فرض التشريع عشرة شواقل من الفضلة على من يضبط نهاراً في حقل رجل من الموشكينو أو فى داره ، والموشكينو هم أهل الطبقات العادية من الأحرار، ويبدو أنها عنت منهم من يعملون لصالح القصور الملكية والمعابد بخاصة . وفرضت الإعدام على من يضبط ليلاً فى حقل رجل من الموشكينو أو فى داره . ولعل التشديد فى عقوبة سارق الليل ترجع إلى أنه قد لايتورع عن ارتكاب جريمة القتل متستراً بالظلام ولايكتفى بالسرقة .

غير أن كل المكاسب التشريعية كانت لأحرار إشنونا (أو يلو (م) ، حتى الفقراء منهم (موشكينو (م) دون العبيد (اردو) والإماء (امتو) الذين أهدرت كافة حقوقهم . فقد حرصت مجموعة خامسة من التشريع نفسه على تأكيد حقوق القصور الملكية والمعابد والسادة فيما يمتلكون من العبيد والجوارى والعقارات ، فحرمت على الرقيق والإماء الموسومين بأسماء سادتهم أن يجتازوا بوابة إشنونا دون إذن سادتهم ، وأكدت حق السادة فى امتلاك أبناء جواريهم ولو رباهم غيرهم ، وحرمت على أى من العبد والجارية أن يتاجر لحسابه ، وتوعدت من يتعامل معه ، أى إنها اعتبرت العبد لايملك شيئاً ، وأنه هو وما يملكه ملك لسيده . وإن دعانا الحياد التاريخى إلى الاعتراف بأن هذه النظرة إلى طبقة الأرقاء والعبيد لم تكن غريبة تماماً عن نظرة معظم الشعوب القديمة المعاصرة لها .

وهكذا تناولت بنود تشريع إشنونا أغلب مشكلات الحياة فى عصرها ، وتحتمل بداية عمران شادويم أو حرمل التى وجدت بها أغلب لوحاتها والتى تبعد نحو ستة أميال إلى شرق بغداد ، فى منتصف الألف الثالث ق.م ، ولكن ترجع أهم مبانيها ولوحاتها الباقية إلى النصف الأول من الألف الثانى ق.م . ومن هذه المبانى معبد مسطح يتألف من مدخل وساحة ومقصورة تقع كلها على محور واحد . وأطلال قصر متسع ، ومعابد أخرى صغيرة ، وعدة بيوت وجدت فيها ألواح ذات صبغة تعليمية مما يوحى بانتماء بعضها إلى مدرسة ، فضلاً عن لوحات القانون سالف الذكر . أما من حيث الطابع الثقافى فقد جمعت آداب إشنونا (أو أسمر وحرمل) بين الثقافتين السومرية والسامية وغلبت الأخيرة ، ووجدت لها لوحات للأسلوبين ، كما وجدت منها

لوحات كتبت نصوصها باللغتين (١) ، على العكس من مدن أخرى سومرية النشأة ظلت مستمسكة بثقافتها القديمة مثل نيبور .

تشريع إسين :

يبدو أن صدور تشريع إشنونا (وتشريع أور من قبله) شجع مدناً عراقية أخرى على تجميع شتات أعرافها وقوانينها والإضافة إليها وتنظيمها وتسجيلها . فخرجت إسين كبرى عواصم الأموريين بتشريع مكتوب فى عهد لبت إشتار (أو لبت عشتار) خامس ملوكها فى أواخر النصف الأول من القرن ١٩ ق.م ، أى بعد تشريع إشنونا بنحو نصف قرن (٢) . وربما سجل رجاله هذا التشريع على نصب حجرى كبير لم يعثر عليه بعد ، وسجلوا نسخاً أخرى منه على ألواح طينية صغيرة ، عثر منها على سبع لوحات تفاوتت فى مدى اكتمالها وأعداد سطورها ، وتضمنت فى مجملها ثمانى وثلاثين مادة ، يحتمل أنها ألفت ما بين الخمس والنصف من مواد التشريع (٣) .

اتخذ لبت إشتار فى مقدمة تشريعه لقب ملك سومر وأكد ونسب اختياره إلى المعبودين الكبيرين آنو وإنليل ، واعتبر نفسه ولداً لإنليل ، ووصف نفسه بأنه الراعى الحكيم . ولكنه عقب على ذلك بأنه راع متواضع وأنه مزارع ، وأكد رعايته للمدن السومرية العتيقة نيبور وأور وإريدو وأوروك ، وافتخر بأن ربه وهبه إمارة البلاد ليحق الحق فيها ويعمل على إسعاد السومريين والأكديين جميعهم ، ويقاوم الفساد والقلاقل بقوة السلاح . ثم أكد أنه استوحى تشريعه من الرب أوتو (رب الشمس) والرب إنليل ، وأقر كلماتها المقدسة ، وذلك قول فسرناه من قبل بالرغبة فى كفالة الشرعية

---

(١) *See*, Sumer, II, 19 f. ; III, 48 f. ; IV, 52 f., 63 f., 63 f., 137 f. ; V, 34 f. ; VI, 4 f. ; 39 f. ; VII, 28 f. ; 126 f. ; XI, Pls. I-XVI, XVI, XIII, 65 f.

(٢) وسبق تشريع حمورابى البابلى بنحو قرن ونصف قرن .

(٣) عثر على ست لوحات فى نيبور ، نقلت منها إلى متحف الجامعة بلندن ، ويحتفظ متحف اللوفر باللوحة السابعة، ولكن مصدرها غير معروف .

See, Francis Steele, "The Code of Libit Ishtar", *AJA*, LII (1948), 425 f. ; Szlechter, *RA*, 1957, 57 f. ; 177 f. ; 19587, 74 f. ; S.N. Kramer, *ANET*, 159 f., The Sumerians, 1963, 336 f.

هورست كلنجل : المرجع السابق – ص٨٩ ، طه باقر : قانون لبت عشتار – سومر – المجلد الرابع – الجزء الثانى – ص٤ ومابعدها .

الاحترام والنفاذ للتشريعات . أنه ثم ذكر ابتغى أن يحرر أبناء مدن سومر وأكد بناتها من الرق الذى فرض عليهم . وليس فى تشريع لبت إشتار ماينص صراحة على نوعية هذا التحرير إن كان تحريراً لرق المدنيين ، أم هو فتح لأبواب التحرر من لرق بوجه عام ، أم هو تقليل من واجبات الخدمة (بين ١٠ و ١٦ يوماً) ، وفقاً للحالة لاجتماعية بالنسبة للطوائف الدنيا . وليس فيما بقى منه غير قليل يمكن ربطه بدعوة تحرير الرق التى تعهد بها ، ولكنه على قلته يعتبر مفخرة لزمانه ، فقد عالج بعض ما أهملته التشريعات السابقة له من النظر إلى مصلحة الرقيق، وأباح للعبد أن يحرر نفسه إذا دفع لسيده ضعف ما اشتراه به (وهو مايقرب من نظام المكاتبة فى الشريعة الإسلامية) ، ولكنه فرض على من آوى عبداً آبقاً فى داره شهراً أن يعوض أصحابه عنه عبداً آخر أو يدفع عنه خمسة عشر شاقلاً من الفضة ، وكان قد صدر لهذا النص الجزائى شبيه فى تشريع أور بالنسبة للجارية .

وشهدت ألواح إسين باستجابة أصحابها لدعوة ملكهم ، ومن أطرف حالات العتق التى صورتها قصة لزوجين أعتقا جاريتهما وحرما على أولادهما أن يسترقوها ، وسمحا لها بالبقاء فى دارهما حيث هى [1] .

وفى المعاملات تناولت بنود التشريع الباقية أجور المراكب ، وبعض حالات الملكية والمواريث وبعض حالات التعويض . فنصت بنود الملكية على أنه إذا جاورت أرض بور منزلاً عامراً ، وأنذر صاحب المنزل صاحبها بخوفه من أن يعتدى معتد على منزله عن طريقها ، ثم سرق منزله فعلاً ، وجب على صاحب الأرض أن يعوضه عما سرق منه . ونصت على أنه إذا عجز مالك أو مالكة عن دفع ضرائب أرضه (الحكومية ؟) ، وسددها شخص آخر ثلاثة أعوام حق لهذا الأخير أن ينتفع بها دون حق الاعتراض من المنتفع الأصلى بها .

وتعدى التشريع تعويضات الإضرار بالبشر إلى تعويضات أصحاب حيوانات الإيجار عن الأضرار التى تصيب حيواناتهم . فمن استأجر ثوراً وقطع أنفه (من حيث يوضع المقود) دفع لصاحبه ثلث ثمنه ، فإذا فقأ عينه دفع نصف ثمنه ، وإذا كسر

(١) *Revue d'Assyriologie et d'Archeologie orientale*, XIV.

ديلابورت بلاد مابين النهرين – ص٨١ .

وانظر كرامر : المرجع السابق – ص١٢٣-١٢٧ .

قرنه أو قطع ذيله دفع ربع ثمنه ، وجعل غرامة اقتلاع شجرة من بستان ثلاثين شاقلاً.

وفى الأحوال الشخصية نصت تنظيمات الأسرة على أنه إذا أنجب زوج أولاداً من جاريته وحررها ، لايحق لأولادها أن يشاركوا أبناءه من زوجته الشرعية فى ميراثهم عنه . وعلى العكس من ذلك إذا اتخذ رجل لنفسه حظية «ولو من الميدان العام» ، مع عقم زوجته ، وجب عليه أن ينفق على حظيته وأن يورث أولادها منه ، ولكن ليس له أن يسكنها فى داره مادامت حليلته على قيد الحياة فيها (وفى ذلك بعض التقدير لكرامة الزوجة الشرعية ومراعاة مشاعرها كعاقرا محرومة) . فإذا هجر رجل زوجته وبنى بغيرها ، تعين عليه أن يستمر فى الإنفاق عليها ما دامت باقية فى داره .

ويحتمل من بعض الوثائق القضائية أن المحاكم كانت تأخذ بما يشبه نظام المحلفين ، فقد تحدثت إحدى هذه الوثائق عن ثلاثة رجال : حلاق وبستانى وشخص ثالث لم تذكر مهنته ، قتلوا أحد موظفى المعابد ، وبلغ من فجورهم أن أخبروا زوجة القتيل بجريمتهم ، ولكنها لسبب ما لم تبلغ الأمر إلى السلطات المسئولة . وعندما ترامى خبر الجريمة إلى أسماع الملك أور نينورتا ملك إسين، أحال القضية إلى مجمع المواطنين فى مدينة نيبور . وفى المحكمة طالب تسعة بإعدام القتلة والمرأة أيضاً ، وكان منهم صياد طيور وفخرانى وحاجب وبستانى .. ، ولكن وقف اثنان آخران ، موظف بمعبد وبستانى ، وتساءلا عن جريرة المرأة ، وقالا إنها لم تشترك فى القتل ، ويحتمل أنهما بررا سكوتها بأن زوجها لم يكن يقوم بإعالتها . ويبدو أن المحكمة أخذت بهذا الرأى واكتفت بإعدام القتلة [1] . وهذا إن صح يعنى أنه لم يكن من بأس فى الأخذ برأى القلة ما دام صائباً ، وأنه لم يكن من بأس فى الاستنارة برأى العقلاء من العامة فضلاً عن الخاصة فى شئون القضاء ، وكل من المبدأين مقبول ، وكان ثانيهما معمولاً به فى مصر القديمة .

ووروت التقاويم العراقية قصة طريفة عن تاسع ملوك إسين «إرا إميتى» ، فذكرت أنه اختار بستانياً يدعى «بعل ابنى» واعتبره بديلاً له واطمأن إليه فرفعه على

(١) Edward Chiera, *Old Babylonian* Contracts, No. 173. But. *See*, Th. Jacobsen, *Analecta Biblica*, XII (1959) 133 f. ; J. J. Finkelstein, *ANET*, 1969, 542.



لعرش وألبسه تاجه . ويحتمل حدوث هذا خلال قيام الملك بشعيرة دينية بمناسبة خسوف القمر الذى يعتبر نذير شؤم للحكام (١) . ولكن حدث أن زهقت روح الملك فجأة وهو يزدرد ثريداً ساخناً ، فاستغل البستانى الموقف لصالحه واستمسك بالعرش وحكم البلاد حكماً فعلياً .

* * *

فى لارسا :

لم تتخلف العاصمة الكبيرة الثانية «لارسا» عن ركب عصرها ، فتوسعت فى استخدام الكتابة لتسجيل أغلب أمورها اليومية ، شأنها شأن المدن المتحضرة فى عصرها ، ومن عقودها الطريفة الباقية وثيقة بين راع وبين صاحب ماشية عهد إليه بتربية ٤٤٦ رأساً من الأغنام والماشية ، فتعهد له من ناحيته بأن يعوضه عما يفقده منها ، وأقسم على تعهده باسم ملك عصره (وردسين فى الربع الثانى من القرن ١٨ ق.م) ، ثم وقع على الوثيقة بخاتمة ستة توقيعات ، وشهد عليه فيها سبعة شهود ، ثم أرخها الكاتب بعام بناء السور العظيم (وهو العام العاشر من حكم وردسين) (٢) .

ووثيقة أخرى ، استأجر مالك بها عاملاً يدعى «سين اشمائى» (أى سين اسمعنى) ، حولاً كاملاً ، وحدد له فيها أجره السنوى ستة شواقل من الفضة ، دفع له أربعة منها مقدماً ، وأشهد الكاتب عليه فيها ثلاثة شهود ، ثم أرخها بيوم محدد وشهر محدد من العام الثلاثين لهزيمة إسين ، على حد قوله (٣) .

وكان المتسبب فى هزيمة إسين التى ذكرها هذا التاريخ هو ريم سين ملك لارسا فى العام التاسع والعشرين من حكمه ، بعد فترة تنافس شديد بين أسرته الحاكمة وبين ملوكها ، وكان انتصاره عليها حاسماً مدمراً ، لم يترك لها بعده غير استقلال داخلى

---

(١) Ebbeling, *op. cit.*, 336 ; and *See*, Ungand, *Orientalia* (N.S.), XII (1943), 194 f. ; Labat, *Le Caractére Religieux de la Royauté Assyrobabylonienne*, Paris, 1939, 104 f. ; *Frankfort, Kingship and the Gods*, Chicago, 1947, 263 f.

(٢) Th. J. Meek, *ANET*, 218 (*Also, AJSL*, XXXIII, 203 f., No. 3).

(٣) Meek, op. cit., 219 (P. Koschaker und A. Ungand, Hammurabi Gesetz., Nr. 1676).

ضئيل ، وظل رجال دولته يؤرخون بذكراه نحو ثلاثين عاماً [١] .

وثمة لوحة تضمنت على وجهيها تمريناً تعليمياً قام على أساس تدوين عدد من البنود القانونية، التى يحتمل ردها إلى عصر إسين - ولارسا أو مابعده ، وإن صعب تحديد صاحب الفضل فى تشريعها [٢] . ومنها أنه إذا ضرب رجل امرأة حرة فأجهضها عن غير قصد ، غرم عشرة شواقل فضة ، فإذا أجهضها عامداً غرم ضعف ذلك (أى ٢٠ شاقلاً) . وإذا تنصل ولد من أبويه بالتبنى وجهر بذلك أمامهما، حرم من إرثهما وجاز لهما بيعه بيع الرقيق . وإذا استغنى أبوان عن ولدهما (المتبنى) تنازلاً له عن بعض أملاكهما . وإذا أغرى رجل فتاة حرة فى الطريق واغتصبها ولم يكن أبواها على علم بخروجها إلى الطرقات ، جاز لهما أن يلزماه بتزوجها . فإذا كان خروجها عن رضا منهما ، وأنكر الذى اغتصبها علمه بأنها من الحرائر وأقسم على ذلك أمام بوابة المعبد برئ .

فى الفـــن :

صاحب الرقى الفكرى فى عصر إسين - لارسا ، نشاط فنى محلى فى النقش والنحت ، وتمثلت شواهد النقش حينذاك فى لوحات ملونة من الطين المحروق قامت على مذابح المعابد (وشابهت لوحات القديسين فى أديرة العصور الوسطى) ، وتوضع بحيث تواجه المتعبد وتقوم أمامه مقام تمثال معبوده ، ولذلك ظهرت هيئاتها بارزة مجسمة وشكلت بتصوير أمامى وليس جانبياً كالمعتاد . وعبرت هذه اللوحات عن هيئات المعبودات ورموزهم ، فصور بعضها إله الشمس تخرج الأشعة من ساعديه . وصور بعضها ربة الموت على هيئة فتاة عارية بوجه ممتلئ حلو قوى الشكيمة وساقى طائر كاسر ومخالبه ، وكان أصحابها يرمزون إليها بجانب صورتها البشرية بهيئة البومة التى تطوف فى الليل دون أن يسمع لها صوت [٣] .

واحتفظ بعض الأفراد فى بيوتهم بلوحات مماثلة ولكنها صغيرة ، يحتمل أنهم كانوا يقيمونها فوق مذابحهم الأسرية ، ويصورون فيها هيئة المعبود الذى يتبركون

---

(١) *See, ANET*, 219, n. 39.

(٢) Finkelstein, *JAOS*, 1966, 357 f. ; *ANET*, 1969, 525-6, and 545.

(٣) Frankfort, *The Art and Architecture of the Ancient Orient*, Pl. 56, P. 56; *Archiv. f. Orient forschung*, XII, 128 f.

بصورته ويعتبرونه راعى أسرتهم ، مثل المعبودة نبنتو ربة الولادة [1] ، والمعبودة جولا التى رمزوا إليها بهيئة كلبة ترضع أجراءها [2] ، إلى جانب لوحات أخرى ذات طابع دنيوى تخدم غرض الزحرف [3] .

واشتركت اللوحات والتماثيل الصغيرة فى تمثيل مردة مخيفين، قد يرمزون إلى الكائنات الخرافية التى روت قصص الخليقة السومرية أنها عاشت فى الهوة الأولى أو المحيط البدائى ، وكانت ذات طبائع مزدوجة وخلقات مركبة ، بحيث قد يمثل أحدها بوجهين أو بأربعة وجوه ، أو يمثل بما يجمع إليه خصائص الذكر والأنثى ، أو خصائص الإنسان والحيوان ... [4] .

ولم يحل وجود لوحات العبادة تلك دون إقامة التماثيل المعتادة للمعبودات والملوك وكبار الكهنة ، أو نذور المتعبدين فى ساحات المعابد ومقاصيرها وعند مداخلها . وتفاوتت هذه التماثيل فى مادتها ومدى اتقانها ، فصنعت من الصلصال والجص والحجر والمعدن [5] . ومن أمتع مابقى منها فى المعابد تمثال دقيق لكلبة (تشبه فصيلة البولدوج) تحمل آنية فوق ظهرها وتلتفت برأسها ، ومثل الفنان شعر رأسها وتهدل أذنيها وطيات عنقها وتفاصيل مخالبها تمثيلاً صادقاً بارعاً ، وسجل على بدنها إهداء من سومو إيلو ملك لارسا إلى إحدى معبودات لجش [6]. وتجرى مجرى هذا التمثال الصغير من حيث الإتقان، عدة أوان، نقشت سطوحها بأشكال حيوانية وجسمت رؤوس حيواناتها، وأطلت مقدماتها من زوايا الآنية وطعمت عيونها تطعيماً بارعاً [7] .

---

(١) Frankfort, Pl. 58 C ; JENS, 1944, 198 f.

(٢) *Ibid.*, *op. cit.*, Pl. 59 A.

(٣) *Ibid.*, Pl. 59 B-C.

(٤) *Ibid.*, Pls. 58 A-B, 66.

(٥) Syria, XIX, 1948, Pl. X ; Frankfort, Lloyd, and Jacobsen, The *Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers of Tell Asmar*, 1940, 206-214, and Figs. 108-122.

ل. ديلابورت : المرجع السابق – ص٢٢٠-٢٢١ .

(٦) Frankfort, *The Art and Architecture..*, Pl. 67 B.

(٧) *Ibid.*, Pl. 67 A ; *Encyclopedie Photographique de l'Art*, I, 248-249.

واحتفظت مدن إسين ولارسا وإشنونا ومارى وآشور بنماذج من فنون عصرها . وتعتبر فنون مارى أمتعها أسلوباً وتعبيراً ، وكانت كذلك منذ عصر الإحياء السومرى ، ويبدو أن قربها من مواطن الحضارة الشامية كفل لها ثروة متنوعة من أساليب الفنون الشامية والعراقية فى آن واحد ، فتخير فنانوها ما يناسب أذواقهم من الجانبين ، وظلوا أميل إلى إيثار المذهب الواقعى والأسلوب السلس وطابع السماحة فى فنهم ؛ بحيث لايخلو أكثر تماثيلهم غلظة من ملامح الطيبة والوداعة [1] . وتجلت فى تماثيلهم بوجه عام طراوة مستحبة فى تشكيل خطوط الأجزاء العارية من الجسم وتشكيل طيات الثياب وزركشاتها [2] . وتأثرت تماثيل المعبودات بروح البساطة نفسها، فبقى منها تمثال لمعبودة لاتكاد بملامح وجهها واسترسال شعرها وطراز ثوبها وصورة قلادتها تختلف عن هيئات سيدات شمال سوريا الحاليات فى شىء كثير ، وقد ضمت إلى صدرها آنية أسطوانية صغيرة اتصلت فتحتها السفلى بجسم تمثالها ، ويحتمل أن الماء كان يصلها عن طريق أنبوبة فى ظهره ، ويندفع منها إلى حوض تطل عليه ، بما يشبه تماثيل النافورات [3] .

وظلت تماثيل آشور من أخشن تماثيل عصرها [4] ، بينما ظلت تماثيل إشنونا بين بين [5] .

واحتفظت كل من إشنونا ومارى بأطلال من قصور حكامها ، ويرجع قصر إشنونا إلى عصر تبعيتها لدولة أور الثالثة ، ويبدو أنه تضمن إلى جانب مقر صاحبه إدارات الحكم الرئيسية فى إمارته ، وكان من طابقين ، ويفضى مدخله إلى ممر جانبى مسور طويل، يتعين على الداخل أن يسلكه قبل أن يصل إلى الفناء الداخلى الكبير ، ثم يقطع هذا الفناء على طريق ممهد بالطين قبل أن يبلغ مجلس الأمير ، بما يكفل الأمان لصاحب القصر ويسمح لحراسه بمراقبة الداخلين إليه . وقام فى طرفى القصر معبدان ، معبد صغير ، وآخر كبير أقامه حكام القصر باسم شوسين ملك أور فى

---

(١) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 61- A-B.

(٢) (تمثالا بوزور عشتار وإدو إلو) . *op. cit.*, Pls. 60, 61 C.

(٣) *Ibid.*, Pl. 62, P. 58.

(٤) W. Andrac, *Das wiederstehends Assuer*, 1938, 88 f., Taf. 44.

(٥) G. Contenau, *Manuel..*, 801-3, Figs. 559-61.



عهد تبعيتهم له ، ثم ضموه إلى قصرهم بعد أن ضعف شأن دولته (١) .

وسوف نخصص لحضارة دويلة مارى فصلاً خاصاً فيما بعد ضمن حضارات بلاد الشام . وكفل لقصرها الملكى شهرته الخاصة ، اتساع مساحته ورسوم جدرانه وكثرة ملحقاته وكثرة الألواح المكتوبة التى عثر عليها فى ديوان سجلاته(٢) . فقد شغل القصر نحو ستة أفدنة ، وتضمن مائتين وسيتن حجرة بجدران مرسومة ملونة، أخذت مناظرها بما أخذ به فن النحت فى عهدها من واقعية الملامح وسلاسة الخطوط وحيوية الطابع وبساطة الأداء وتفاصيل الأزياء ، فصورت مناظر حربية وأسطورية وقصصية ودينية لم يبق منها للأسف غير أجزاء يسيرة ، وأحاطت بها إطارات ضيقة تتألف من شجيرات وكائنات خيرة وأخرى مخيفة ، وإطارات زخرفية ذات وحدات لولبية تشبه مثيلاتها فى الفن الإيجى . ولاتزال أكثر مناظر القصر حيوية مناظر مواكب القرابين وتصور رجالاً بوجود نحيفة دقيقة ولحى طبيعية قصيرة يغطون رؤوسهم بقلانس بعضها مرتفع يشبه القاووق ، وبعضها عريض منخفض بشرائط بيضاء يشبه البيريه ، وبعضها يشبه الطواقى الصوفية التى يلبسها أهل الجبال ويرتدون ثياباً مقفولة بحلقات واسعة تحت الرقبة ، وعباءات زركشت أطرافها بأهداب تشبه ريش الطيور أو فلوس السمك ... ، ويسوق بعضهم ثيراناً كسيت أطراف قرونها بحليات معدنية، وتدلت على جباهها حليات هلالية ، وعبر الرسام عن تجعدات جلودها وشعور رؤوسها تعبيراً بارعاً بألوان متدرجة اكتفى فيها كلها باللون الأسود ومشتقاته .

واحتفظت لوحة مسمارية من أواسط الألف الثانى ق.م بنموذج لما كانت عليه عمارة المدن السومرية خلال عصر إسين -لارسا ، أو بعده بقليل ، فى هيئة تخطيط أو خارطة لمدينة نيبور (نفر) السومرية التى نسبها أهلها إلى معبودهم الأكبر إنليل ، فسموها «إنليل كى» أى مقره . وهى خارطة كتبت أبعادها بالأرقام وبوحدة الجار القياسية (وتعادل اثنى عشر قدماً) ، وسجلت عليها بياناتها المختصرة باصطلاحات سومرية وأكدية . وصورت نيبور قريبة من موارد الماء والزراعة، يحد نهر الفرات

(١) *Op. cit.*, P. 52, Fig. 19; Frankfort, Lloyde nd Jacobsen, *The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers of Tell Asmar*, Pl. I.

(٢) A. Parrot, Mari, 1945, 1953; C.F. Jean, *Six Compagnes de Fouilles de Fouilles a Mari...*, Paris, 1952.

(بورانون) جنوبها الغربى وتحد شمالها الغربى قناة ، ويحيط بها سور كبير تنفتح فى ضلعه الجنوبى ثلاث بوابات، سجلت بأسماء : البوابة السامية ، والبوابة العظيمة ، بوابة الأنجاس (؟) (كاجال موسو كاتم) . وتنفتح فى ضلعه الجنوبى ثلاث بوابات أيضاً سميت بأسماء : بوابة إله القمر (كاجال نانا) ، وبوابة أوروك (وتقع أوروك إلى الجنوب الشرقى من نيبور) ، والبوابة المواجهة لمدينة أور . وتضمن الضلع الشمالى للسور بوابة واحدة سميت «بوابة نرجال» (حاكم العالم السفلى) . وحف بالمدينة خندقان : خندق (خريتم) يوازى سورها الجنوبى الغربى ، وآخر يوازى سورها الجنوبى الشرقى . وصور داخل المدينة بيوت على هيئة مستطيلات متفاوتة السعة ، وبستان كبير ، ومعبدين على أقل تقدير ، معبد «إكور» (بمعنى البيت الجبلى) ، ومعبد «كى – أور» ، فضلاً عن معبد آخر يقع فى ضاحية المدينة خارج سورها يسمى إشماخ بمعنى المعبد الشامخ [1] .

والخلاصة : أن الهجرات التى نزلت بلاد النهرين منذ أوائل الألف الثانى ق.م، والهجرات الأمورية منها بخاصة ، لم تكن شراً كلها على العراق ، وإنما كانت خيراً له فى بعض أمرها ، وكان خير مافيها هو أن الهجرات الأمورية منها جددت دماء الساميين فى أرض العراق وجددت حيويتهم ، ولم تحل دون نشاط مختلف المدن القديمة وازدهارها فى ظلها ، ومن هذه المدن فيما رأينا ، مدن إشنونا وإسين ومارى ، وإلى حد ما مدينة لارسا ، ثم مدينة أخرى استفادت من تنافس المدينتين إسين ولارسا وإضعاف ثانيتهما لأولاهما ، وقدر لها أن تغطى بشهرتها على شهرة مدن العراق كلها فى عصرها ، وتلك هى مدينة بابل موضوع البحث التالى .

* * *

(١) كرامر : من ألواح سومر – لوحة ٨٠ ، شكل ٨١ ، ملحق ١ ص٣٩٥-٤٠١ .

الفصل السابع عشر

دولة بابل الأولى (أو العصر البابلى القديم)

(١٨٨٠ (؟) - ١٥١٥ق.م)

ألف عصب هذه الدولة جماعات ممن أسلفنا ذكرهم من الأموريين الذين انتشروا بين المدن المتحضرة فى العراق واستقروا فيها وولوا حكم بعضها . وكانت ببابل قبل زعامتهم لها بلدة عادية عرفها السومريون باسم «كدنجيرا»، فأحالوها إلى حضارة كبيرة وأحسنوا استغلال موقعها الاستراتيجي والاقتصادى المتميز لقيامها فى منطقة خصبة يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات فى أواسط العراق ، حيث يتيسر الرى المباشر والرى بالوساطة ، وتجود فيها الغلال ، وإن تطلبت وفرة إنتاجها بذل الرعاية الدائمة لقنوات الرى والتقليل من ملوحة الأرض التى لايكاد يقاومها غير زراعة الشعير ، والتى تترك فيما بينها مساحات جافة تستخدم للرعى(١) واشتهرت هذه الحاضرة باسم بابل أو بابلا ، وهو اسم يصعب تأكيد معناه وإن كان الشائع هو تقريبه إلى باب إيليم ، أو باب إل ، أى باب الإله ، ويرى أصحاب هذه الترجمة أنها كانت قريبة مما تدل عليه التسمية السومرية «كدنجيرا»، التى استمرت تستخدم إلى جانبها مع مترادفات أخرى مستحدثة (٢) . وتقع أطلال المدينة حالياً جنوب غرب مدينة بغداد على فرع من الجانب الشرقى للفرات ، وتدل على طبوغرافيتها خمس ربوات بجوار الحله تحتفظ الشمالية منها باسم بابل . ونسب البابليون مدناً أخرى إلى بقية أربابهم ، مثل كارشمش بمعنى حصن الشمس أو مدينة الشمس ، ونور أداد رب الحرب والعواصف .

---

(١) *See*, Th. Bauer, *Die Ostkananaer;* C. F. Jean, in *Studia Mariana,* 63 f.
هـ . كلنجل : المرجع السابق – ص ١٩ – ٢١ .

(٢) يختلف هذا التفسير اللغوى بطبيعة الحال عما ورد فى بعض أنساب سفر التكوين فى العهد القديم من أن اسمها دعى بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ، ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض . (تكوين ١١ : ١ – ٩) .



وانتشرت بين أسماء الساميين الذين عمروا هذه المدينة وانتسبوا إليها وماحولها، أسماء مركبة ظهرت بوادرها بين الأموريين منذ أيام الأكديين وزادت منذ تكوين دولة إسين ، وشاع فى عدد كبير منها إسم إيل (أو إل) الذى تداخل اسمه فى اسم المدينة المحددة بابل ، مرادفا لاسم الإله (واسم الله حيث بقى فى مثل أسماء إسرائيل وإسماعيل وجبرائيل وعذرائيل وميكائيل) .ومن أسماء البابلين طائفة ذات دلالا ت رقيقة تدل على إحساس الواحد منهم بقربه من ربه مثل «إيلوشو أبو شو» بمعنى إلهه أبوه (ويرادف المقطع «شو» الضمير «هو» فى اللغة العربية ، وربما كان ينطق مثل نطقه ؛ إى بضم الشين وفتح الواو ، ويرادفه فى ذلك الضمير «سو» فى اللغة المصرية القديمة ولعله كان ينطق مثل نقطه أيضا) . و«إيلما أبى» بمعنى إلهى أبى ، و«إيلو شو ابينشو» بمعنى إلهه الذى بناه (أو سواه) ، و«جيميل إيليشو» بمعنى هدية أو عطية إلهه، و«إيلى دورى» بمعنى إلهى حصنى، و«إيلى إشمأنى» ربما بمعنا إلهى إسمعنى ، و«إيلى أمورو بمعنى إلهى أمورو» و«إيلى إمدى» بمعنى إلهى سندى (لامرأة) ، فضلا عن الاسماء المركبة التى تداخل فيها اسم رب القمر السامى سين ، والتى عرفتها بلاد العراق قبل ذلك بزمن طويل وقبيل عصر الأكديين .

اعتلى زعماء الساميين عرش دولة بابل منذ عام ١٨٨٠ ق.م تقريباً ، وتعاقب منهم خمسة ملوك فيما يسمى العصر البابلى القديم ، وهم : سومو أبوم ، وسومو إيل ، وسابو ، وأب إيل سين ، وسين مو بالليط . وقد عملوا على تفاوت فى مجهوداتهم ، على تحسين مدينتهم وتنشيط اقتصادياتها وإعدادها للمشاركة بدورها فى قيادة بلاد النهرين .

ولكن لم يخل الميدان السياسى فى العراق لنهضة البابليين وقوة إسين ولارسا فحسب ، وإنما شاركتهم فيه حينذاك نهضات أخرى إقليمية فى كل من آشور ومارى وإشنونا . ويبدو انها اقترنت باستيطان أسر حاكمة جديدة سامية أو أمورية الأصل أيضاً فيها ، كما عاصرت وتعاملت مع دويلات كنعانية قامت فى الوقت نفسه على أطراف بلاد الشام فى مثل قطنة وحلب ويمخد وماسواها مما سوف تكون له دراسته الخاصة فى بحث حضارات الشام .

وبدأت دولة آشور (مرحلة عصرها القديم) بعهد ملكها إيلشوما فى أوائل القرن ١٩ ق. م أو نحوها . وزادت أهميتها فى عهد ولده شمشى أداد الذى انتفع باحتكار

الطرق التجارية المتعاملة مع إمارات آسيا الصغرى فى معدن القصدير ومنتجات أخرى . وتغلب لفترة ما على دويلة مارى ؛ مما سوف نستكمل خبره بعد قليل .

ومارست إشنونا أسلوبا مماثلا فى نهضتها حين استقل بها أمير سامى الأصل يدعى إبق أداد الثانى وتوسع هو وولده حتى أعالى نهير الخابور وتحالف ثانيهما مع دولة إلام .

وترقبت كل هذه القوى نتائج الصراع بين المدينتين الكبيرتين المتنافستين إسين – ولارسا ، وسوف نكتفى بموقف ملوك بابل الذين اشتبك جيش أولهم سومو أبوم مع جيش آشور (فى عهد إيلوشوما) ، ولكن لم ينته القتال بينهما إلى نتيجة حاسمة . وإن كان الملك البابلى قد عمل بعده على تحصين عاصمته بسور جديد من اللبن إتقاء للمفاجآت ، وأزاد رجاله خطوطهم الدفاعية فشادوا سوراً آخر فى إحدى ضواحى العاصمة ، كما أزادوا ظهيرها الزراعى، فضموا إليها منطقة خصبة تدعى دلبات تبعد عنها بنحو سبعة وعشرين كيلو متر .

وعندما إزدادت سمعة بابل، اعترفت منطقة سيبار (أبو حبة) بسلطانها اعترافاً جزئياً وأقسمت وثائقها باسم ملك بابل فى نصوصها المكتوبة . كما خضعت لنفوذها مدينة كيش بعد حرب طويلة تعاونت عليها فيها مع دولة لارسا . وانهزمت أمامها جيوش منطقة كازاللو ... ولو أن خضوع هذه المناطق القديمة لحكم الأسرة البابلية لم يكن دائماً خضوعاً مخلصاً أو مطلقاً ، فحاولت كيش أن ترفع النير عنها فى عهد سومو أبوم نفسه ، وذكر ملكها أنه لم يبق لديه بعد كفاح دام ثمانى سنوات غير ثلاثمائة جندى ، ولكنه واصل الجهاد معهم حتى استرد لبلده سيادته .

وتجدد النزاع بين بابل وبين دويلات المدن الخاضعة لها فى عهد ثانى ملوكها ، مما لا نود التفصيل فيه إلا أن ملكها أزاد سورها بعد انتصاره على خصومه وتوسعت جيوشه فى فتوحها الإقليمية حتى سيطرت على إقليم أكد كله وسيطرت على عدة أجزاء من أرض سومو . ووجدت بابل فى دولة لارسا وأسرتها الحاكمة نصف الإلامية أكبر منافس لها ، بينما أصبحت دولة إسين فريسة للفريقين ، يقتطع ملوك لارسا بعض أجزائها حينا ، ويقتطع البابليون بعض أجزائها حينا آخر . وظلت الحال كذلك حتى ولى حكم بابل سادس ملوكها وأكثرهم شهرة وهو حمورابى .

عهد حمورابى [1] :

بدأ حكمه حوالى ١٧٢٨ ق.م (فى عرف أصحاب التأريخ المتخصر ، أو بين عام ١٧٩٢ وعام ١٧٥٠ فى رأى آخر) ، وطال عهده ثلاثة وأربعين عاماً قدر له فيها أن ينهض ببابل من دويلة صغيرة إلى عاصمة دولة كبيرة ذات إمكانات متعددة وأملاك واسعة وشهرة ضخمة . وبدأ مواد تشريعه التى خلدت اسمه فى التاريخ منذ العام الثانى من حكمه ، وخلد كتبته هذه البداية فى تسمية عامها باسم عام «إقرار (حمورابى) العدالة فى الأرض» [2] ، وإن لم تكتمل هذه التشريعات إلا بعد ذلك بسنوات عدة (انظر فيما بعد) .

واستهدف الرجل منذ سنوات حكمه الأولى ضرورة توحيد أغلب بلاد النهرين تحت طاعته سواء بالسياسة أم بالحرب ، مع إقصاء النفوذ شبه الإلامى عن جنوب العراق . وبدت منه فى سبيل تحقيق هذا الهدف حنكة لا تقل عن حنكة سرجون الأكدى سامى الأصل مثله . فسجلت له حولياته أخبار جهوده فى إخضاع مدن كثيرة مثل أوروك وإسين ومالجى ورابيكوم وغيرها ، ولعله أراد بانتصاراته عليها الانتفاع بمواردها المادية وأن يذيع شهرته أمامه ، وأن يحد من نفوذ أعنف منافسيه ريم سين ذى الأصل الإلامى وآخر ملوك لارسا عليها حتى يتفرغ له . وكان ريم سين كفئاً لمشاكل عهده بحيث ظل يناوىء حمورابى حتى العام الثلاثين من حكمه ، وبحيث كتب أحد أعوان ملك دويلة مارى رسالة إلى ملكه يكشف له فيها عن أوضاع العراق ، قائلا له : «ليس هناك ملك واحد يمكن أن يقال عنه إنه أقوى الجميع ، فإن عشرة أو خمسة عشر حاكماً يتبعون حمورابى (ملك) بابل ، ومثل هذا العدد يتبعون ريم سين (ملك لارسا) ، ومثلهم يتبعون إبعل بى إيل (ملك إشنونا) ... إلخ» [3] .

وبدأ حمورابى بسياسة التحالف والتعايش السلمى مع الدويلات والمدن القريبة، دون الإصرار على إخضاعها أو على أقل تقدير حتى تسنح له فرصة إخضاعها . ويذكر من هذا القبيل تحالفه معل اقوى المتاخمة لحدوده، والتى يود أن يأمنها على

(١) حمورابى هو النطق الشائع لاسم هذا الملك، وإن افترض بعض المستشرقين احتمال تحريفه من حمورابى أو عمورپى .

(٢) A. Ungand, "Datenlisten", in *Reallexiklon der Assyiology,* II, 187 f., Nr. 2.

(٣) Dossin, *Syria,* XIX, 177 f.

ظهره وينتفع بصلاتها مع قوى أخرى بعيدة ، مثلما فعل مع ملوك آشور وماری وإشنونا ومالها من صلات بدول حلب ويمخد وإلام . وكان حريصا على أن تضل له اليد العليا فى كل تحالف ، وعلى أن يأخذ أكثر مما يعطى ، فيطلب الإمدادات العسكرية من حلفائه ويضن عليهم بعسكره حتى إذا ما ضعف أحدهم تحت ضغط أعدائه تقدم هو بقواته وسيطر على بلده ، مثلما فعل مع ماری وإشنونا بخاصة [١] . وهو ما كان يعتبر من حسن التدبير من وجهة نظر أنصاره ، ويعتبر سمة للغدر من وجهة نظر خصومه . وكان من سياسته هدم أسوار المدن التى لا يأمنها ، وتقوية أسوار المدن الموالية له فى المناطق الاستراتيجية الحساسة (وسميت بعض هذه الأسوار بأسماء أرباب مدنها) [٢] ، والعمل على رعاية تماثيل معبودات المدن التابعة والخاضعة بعد الاستيلاء عليها ، حتى تكون سبيلا لولاء مشاعر أتباعها . وكان من ذلك أن ذكر أحد نصوصه أنه أعلى كلمة الربة إنانا فى نينوى وأعاد لمدينة آشور حصانتها [٣] . أو لتحملها جيوشه معها باعتبارها موالية لها حين تعاود غزو مناطقها فتيسر لها مهمتها . وكانت رعاية هذه التماثيل تستتبع رعاية من يخدمونها من كهنتها وكاهناتها وإحياء أعيادها فى معابد بابل نفسها [٤] .

وشيئاً فشيئاً اطمأن حمورابى إلى متانة موقفه وسلامة ظهره ، وتفرغ من ثم لملك لارسا وحلفائه ، فمال ميزان القوى إلى جانبه منذ العام الثلاثين من حكمه ، حتى فر ريم سين إلى منطقة إيموتبال مسقط رأس أسرته ، وتتبعته الجيوش البابلية إليها ، ثم واصلت انتصاراتها فيما يليها من إرض إلام وسيطرت على جزء منها . ويبدو أن الأمر كان كذلك فيما بين البابليين وبين إشنونا وسوبارتو ، بحيث رددت حوليات حمورابى ذكر اسميهما مرات كثيرة، وعمله على إغراق أراضى إشنونا بعد تخريب سدود المياه فيها . وعندما آتت جهود حمورابى وجيوشه ثمارها ، استقرت زعامة دولته فى العراق فاعترفت بنفوذها آشور فى الشمال وإن لم تنطو تماماً تحت

---

(١) Albright, *ANET*, 482; C. Jean, *Archives Royales de Mari*, II, No. 22.

هـ. كلنجل : المرجع السابق – ص ٤٣ – ٤٤ .

(٢) A. Ungand, *op. cit.*, Nos. 19, 20, 21, 25.

(٣) *See*, *ANET*, 165 .

(٤) Leonard W. King, *The Letters and Inscriptions of Hammurabi*, Nos. 34, 45.

لطانها . وماري في الغرب ، كما خضعت لها أغلب المناطق الجبلية الشمالية الشمالية الشرقية .

وكان من الطبيعي أن يلازم الاهتمام بالحروب في عهده اهتمام آخر برضا هة دولته الساميين والسومريين الذين رد إليهم تأييده ونصره ، وبخاصة آنو وإنليل مردوك . وتمثل هذه الاهتمام في عهده كما تمثل في عهود من سبقوه ولحقوا به من ملوك ، في إنشاء المعابد وتجديدها وزيادة تماثيلها والاحتفاء بأعيادها وأوقافها رعاية كهنتها وكاهناتها (١) .

واحتفظت حولياته باسم نهير صغير شقه رجاله أو أزادوا اتساعه وامتداده ، قالت عنه «نهير حمورابي (واهب) الخير للناس ، حبيب آنو وإنليل ، الذي غذى يبور وإريدو وأور ولارسا وأوروك وإسين بمورد ري دائم» ، وكان يبدأ من الفرات سفل كيش ويمتد حتى الخليج العربي (٢) .

تشريعات حمورابي :

لم تعتمد شهرة حمورابي على فتوحاته ومنشآته ورعايته لاقتصاديات بلده بقدر ما اعتمدت على التشريعات الإدارية والقانونية المتنوعة التي بدأ بإصدارها منذ العام الثاني من حكمه وحتى أواخر أيامه كما أسلفنا . وسجلها كتبته على عدة نصب ولوحات اشتهر منها نصب حجري كبير من الديوريت جمع بين شكل اللوحة وشكل المسلة المحورة (وبلغ أقصى ارتفاعه الباقي ٢٢٥سم ، وأقصى عرضه في أسفله ١٩٠سم ، وأقصى عرضه في أعلاه ١٦٥سم) ، ولعله أقيم أصلا في معبد شمش في سيبار أو في معبد مردوك في بابل . وظهر الملك في جزئه العلوي، يتلقى السلطة والإذن بإصدار تشريعاته من رب الشمس والعدل «شمش» بتاجه ذي القرون والأشعة التي تخرج من كتفيه ، وهو جالس يعتلي عشره في مهابة، ويقبض على رمزي عصا الرعي وخيط القياس التقليدين كما يمد يده بخاتم وصولجان ، بينما وقف الملك أمامه برداء كهنوتي طويل وقلنسوة عريضة يرفع يده اليمنى إجلالا لمولاه ورموزه . ونقشت نصوص النصب بخط مسماري دقيق. وكان العيلاميون (أو الإلاميون) قد

(١) Ungand, *op. cit.*, Nos. 3, 4, 5, 12, 13, 14, 16, 17, 18, 29, 43, 36.... .

(٢) ل. ديلابورت : بلاد ما بين النهرين – ص ١٢٩ .

استولوا عليه فى أواخر القرن الثانى عشر ق. م ونقلوه مع غيره من الأسلاب الثمينة إلى عاصمتهم سوسه (في عهد ملكهم شوتراك ناخونتى) نكاية فى أصحابها العراقيين الذين سبق لهم أن انتصروا على أسلافهم . ثم أزالوا نحو ٢٨ سطرا من سطوره ليسجلوا نصر ملكهم مكانها – ولكنهم لم يتموا هذا العلم ربما اتقاء اللعنات التى صبها صاحبه على من يمحو كلماته . ونقل النصب بعد العثور عليه من ثلاثة أجزاء فى عام ١٩٠١ إلى متحف اللوفر فى باريس حيث تعرف كنه محتواه V Sxheil وترجم بعض عباراته. وعوضت نقص بعض أجزاء النصب نصوص تسع قطع حجرية صغيرة لمسلتين أو ثلاثة ، وبضع لوحات من الصلصال نسخت فيما بعد فى نينوى [١] .

لم تعد تشريعات حمورابى تعتبر هى الأولى من نوعها فى تاريخ بلاد النهرين كما كان يظن من قبل ، حيث سبقتها كما تقدم ثلاث محاولات للتشريع ولتدوين نصوص العرف القديم وتقنينه ، فى أور ، وإشنونا ، وإسين (وإصلاحات لجش احتمالا) ، ولم تكن مزة أخرى بنت عهدها ولا جديدة كلها ولا صدرت فى سنة واحدة ، وإنما تضمنت كثيراً مما سبقها من نصوص الأعراف الاجتماعية واللوائح الإدارية ونصوص التقنين ، وأبقت بعضها على حاله ، وعدلت بعضها الآخر وزادت عليه ، واكتسبت بعض شهرتها بناء على نقشها على أكبر سجل قديم عثر عليه حتى الآن احتفظ بقوانين عهده والعهود التى سبقته . وأغلب الظن أنه تولى تجميع هذه التشريعات فى أواخر عهد حمورابى عدد ما من رجاله القانونيين والمؤرخين والإداريين أغفلت النصوص أسماءهم ونحلت فضلهم إلى ملكهم بل وجعلتها من وحى ربه إليه ، وهو مسلك كثيراً ما تكررت أمثاله فى العصور القديمة بل والعصور الحديثة أيضا .

تألفت المواد الباقية من تشريعات حمورابى من ٢٨٢ مادة ، تناولت أهم أمور القضاء والأمن ، وحقوق المدنيين والمحاربين ، ومسئولياتهم فى المجتمع ، ونظمت

---

(١) R. de Vaux, *RB*, 53 (1946), 328 f.; Meek, The Code of Hammurabi, *ANET*, 1966, 163 f.; Driver and Miles, *The Babylonian Laws*, I- II 1952 - 55; R. Borger, *Babylonisch* Assyrische *Lesestucke*, Roma 1963 .

محمود الأمين : قوانين حمورابى – مجلة كلية الآداب – بغداد ١٩٦١ .

فوزى رشيد : الشرائع العراقية القديمة – بغداد ١٩٧٩ .

شروط عدد من المعاملات والعقود ، وتوسعت في الأحوال الشخصية بما تتضمنه من تقاليد الزواج والطلاق والمواريث والتبنى ، وتحدثت عن الاعتداءات على النفس والمال والقصاص والتعويضات ، وأجور المهنيين ومسئولياتهم . وتضمن خلال هذا في ثناياها أحكاماً راقية يتقبلها المنطق في كل عصر ، وأحكاماً أخرى يصعب قبولها إلا بمنطق الحياة في عصرها . ولم تخل أغلب بنودها من تكرار وتناقض نتيجة لإصدارها متفرقة وعلى فترات متعددة وإدخال بعض التعديلات عليها . ويرى بعض الباحثين في ترتيب بنود هذه التشريعات ما يسمح بتقسيمها إلى ثلاث مجموعات : مجموعة تتضمن البنود ١ – ٥ وتتعلق بأمور القضاء والتقاضي وأصول المرافعات ، ومجموعة ثانية تتألف من البنود ٦ – ١٢٦ وتتضمن قانون الأموال أو المعاملات ، ثم مجموعة ثالثة تتألف من البنود ١٢٧ – ٢٨٢ وتتضمن قوانين الأسرة أو الأحوال الشخصية . غير أن هذا التقسيم يشوبه شيء من الافتعال ويصعب تتبعه حرفياً ، ويماثله في هذا تقسيم آخر يفترض في تشريع حمورابي ست مجموعات متمايزة . وتعبر الأرقام التي وضعت بين قوسين فيما يلي عن أرقام بنود التشريع كما جرى التعارف عليها .

ومن مختارات هذا التشريع الراقية في شئون التقاضي والقضاء ، أنه أيما مواطن اتهم مواطناً آخر بجريمة يعاقب عليها بالإعدام ثم لم تثبت عليه قتل عوضاً عنه . وإذا اتهمه بجريمة يعاقب عليها بالتغريم ، ثم لم تثبت عليه دفع غرامتها . وقد ينطوي هذا تحت ما يعبر الآن عنه بمكافحة البلاغات الكاذبة وأحكام رد الشرف . ونصت على أنه أيما قاض أصدر حكمه في قضية ودونه ووقع عليه ثم زور فيه لغرض ما، وثبت ذلك عليه ، أقيل من منصبه وحرمت عليه مناصب القضاء ، ودفع ما يوازي اثنتي عشرة مرة من قيمة الشيء الذي زور فيه وفي ذلك ما فيه من مكافحة الرشوة في القضاء وهي شر البلية (١ – ٥) .

وتضمنت بعض مبادئها الراقية في مسئولية الدولة عن شئون الأمن وحقوق المواطنين علهيا ، أنه إذا سرق مواطن ولم يتيسر القبض على سارقه واسترجاع المسروقات ، عوضته مدينته وحاكم منطقته عما سرق منه بعد أن يعلنه ويؤكد صحة دعواه أمام تمثال معبوده ويثبته أمام رجال الإدارة في بلدته (٢٣) . وإذا قتل مواطن ولم تتيسر معرفة قاتله والاقتصاص منه تعاونت المدينة وحاكم الإقليم على دفع دية إلى أهله مقدارها مينه من الفضة (٢٤) . وإذا شب حريق في دار مواطن وكلف آخر

بإطفائه فاستغل وجوده فى الدار واختلس بعض متاعها ، ألقى به فى النار (٢٥) . وتقرر فى الوقت ذاته أنه إذا ما ادعى شخص فقد متاعه أمام تمثال معبوده وطالب منطقته بتعويض عنه، ثم تبين كذب ادعائه، غرم بما يوازى ضعف قيمة ادعائه .

ومن مبادئها الراقية كذلك فى إقرار حقوق المحاربين فى مقابل مسئولياتهم، أنه إذا افتدى ممول محارباً أو متعهداً بالجيش من الأسر وأعانه على العودة إلى بلده ، رد المحارب فديته من أملاكه المنقولة ، فإن لم يستطع تولاها عنه بيت رب مدينته (أى حصل عليها من دخل معبده) ، فإن لم يتيسر ذلك تولت الدولة سدادها عنه (٣٢) ، حتى لا يضطر إلى التضحية بالأملاك العقارية التى تقطعها الدولة له فى سبيل افتداء نفسه . وكان إقطاع المحارب يسمى كو ، وقد يتألف من حقل أو بستان أو دار ، أو يضم الاثنين أو الثلاثة جميعها ويدفع عنه صاحبه ضريبة سنوية ويورث حق الانتفاع به لولده الأكبر ، على ألا يحق له أن يبيعه أو يرهنه أو يورثه لزوجته أو لابنته ، ويمكن أن ينزع منه هذا الإقطاع بأمر ملكى ويوهب لشخص آخر .

وإذا استشهد محارب آلت أملاكه إلى ولده (٢٨) ، فإذا كان ولده صغيراً تولت أمه إدارتها نيابة عنه إن استطاعت ، وربته من ريعها نظير انتفاعها بثلث إيرادها (٢٩) . فإذا لم يكن له ولد ، وآلت إقطاعيته إلى شخص آخر ، ثم ظهر أنه حى وعاد إلى بلده حق له أن يسترد إقطاعيته (٢٧) .

وفى الأحوال الشخصية أو الأسرية ، أضافت تشريعات حمورابى إلى ما نصت عليه تشريعات سابقة من إلزام والد الخطيبة برد ضعف هدايا الخطيب إليه إذا ما رفضه بعد قبوله ، حق والد الخطيبة فى الاحتفاظ بهدايا الخطيب إليها إن عدل هو من تلقاء نفسه عن إتمام الخطبة وتزوج بأخرى (١٥٩) .

وتضمنت هذه التشريعات إمكان تضامن الزوجين برضائهما فى المسئولية عن سداد الديون التى تبرم بعد الزواج ، وليس مما قبله – لاسيما إذا ما نص على عدم التزام أحدهما بها فى عقد القرآن (١٥١ – ١٥٣) .

وأخذت تشريعات حمورابى بمثل نص إشنونا من حيث حق المحارب الذى يؤسر فى ديار الأعداء فى أن يسترد زوجته إذا عاد إلى بلده ، ولو كانت فى فراش زوج جديد حتى وإن أنجبت منه (١٣٥) . وحرمت هذا الحق على من فارق بلده كارها له (١٣٦) . وزادت فحتمت على زوجة الأسير أن تلزم داره ما دام فيها ما

يكفيها (١٣٣) ، وألا تلجأ إلى فراش آخر وإلا رجمت وألقي بها في النهر (١٣٣ب) . فإذا لم يكن لديها ما يقيم أودها فلا بأس عليها فيما فعلت (١٤٣) .

وأحاطت تشريعات حمورابي أفراد الأسرة وتقاليدها بضماناتها وعقوباتها ، وزادت على ما نصت عليه تشريعات أور وإسين في حقوق الزوجة الشرعية ، فأباحت لها وللزوج الكاهنة بخاصة ، أن تسترد جاريتها التي وهبتها لزوجها وتعيدها إلى الرق (١٤٥ - ١٤٧) إذا كانت أنجبت منه إن تبينت منها تطلعاً إلى مساواة نفسها بها ، كما أباحت لها بيعها إن كانت غير ذات ولد ، حتى ولو كانت أثيرة عند زوجها . وقد قرر رجل في عهد سين موبالليط والد حمورابي ، في عقد زواجه ، أن على زوجته الثانية أن تغسل قدمي زوجته الأولى وأن تحمل لها مقعدها حتى ولو شاءت أن تذهب به إلى معبد مردوك [١] وهو قرار شكلي في أغلب الظن . وأكدت التشريعات حق الزوجة في استرداد مالها من شرقتم (أو شريقتو) في بيت الزوجية ، وهي مخصصاتها الشخصية التي تزوجت بها من ثروة أبيها ويمكن أن تعهد بها كأمانة إلى زوجها لاستثمارها أو للمعاونة في النفقات بما يشبه الدوطة عند بعض الشعوب المعاصرة - حين طلاقها - ما لم تكن ناشزاً . وأضافت إلى شرقتم المطلقة ذات الأولاد القصر نصف أملاك زوجها لتستغله في تربية أبنائها حتى يبلغوا رشدهم ثم تجتزئ منه نصيباً تستعين به على زواج جديد إن استحبت فراقهم (١٣٧) . وأضافت إلى شرقتم المطلقة العاقر نفقة أو تعويضاً يبلغ مينه من الفضة بالنسبة للطبقات العليا وثلث مينه بالنسبة لأهل الطبقات العادية (١٣٨ - ١٤٠) . ويبدو أنه لم يكن من الضروري أن يلتزم كل مطلق ومطلقة بهذه المبادئ ، وكان الأمر يتوقف على ظروف الطلاق ومدى التراضي به بين المطلقين ومقدار ثرائهما [١] .

وإذا طلبت المرأة الانفصال عن زوجها وامتنعت عليه وثبت لأعضاء مجلس المدينة إضراره بها وهجره لها ، طلقت منه واستردت مخصصاتها . ولكن إذا ثبت تجنيها عليه وعلى بيتها حرمت من مخصصاتها وألقيت في النهر (١٤٢ - ١٤٣) .

وردت التشريعات مخصصات الزوجة المتوفاة ذات الأولاد على أولادها

(١) Paul Dhorme, *Choix des Textes Religieux Assyro - Babyloniens,* No. XIX.

كوك : دراسات في القانون البابلي (مترجم) .

(١٦٢) ، وجعلت شرقتم الزوجة العاقر المتوفاة من حق أبيها بعد أن يسترد زوجها منها قيمة هباته وهداياه إليها حين عرسها . وحين نتدبر أحكام الشريقتو هذه نرى أن المشرع قد غطى بها كل حالاتها ، ودل بذلك على عقلية تقنينية واعية .

وجعلت التشريعات للزوج حق الوصية أو الهبة لزوجته دون اعتراض من أبنائه، وسمحت لها بأن تتنازل عن جزء من هذه الهبة لأولادها ، ولكن دون الغرباء (١٥٠) ، واعترفت بحقها فى أن تلزم بيت زوجها المتوفى إلا إذا أرادت أن تتركه لتتزوج وحينذاك يكون لها حق الخروج بمخصصاتها دون هباته وهدايا عرسها (١٧٢) بعد أن يتحرى المسئولون تركة زوجها الأول ونصيب أبنائه منها . وقضى المشرع على من أشار بإصبع الاتهام إلى كاهنة أو إلى زوجة غيره دون بينة أكيدة ، بضربه وحلق نصف شعره فى ساحة القضاء تشهيراً بافترائه عليها (١٢٧) ، فإذا اتهم زوج زوجته بفاحشة ولم يقدم بينة واضحة على فجورها ، كفاها أن تقسم على طهرها أمام معبودها وتعود إلى دار زوجها (١٣١) وهو ما أقرت الشريعة الإسلامية بما يشبهه مع تجديدات تتفق مع روح دينها . وإذا تزوج رجل على زوجته نظراً لمرضها ، فليس له أن يطلقها أو يخرجها من داره أو يمنع الإنفاق عليها (١٤٨) .

وفى مقابل هذه الضمانات التى كفلتها التشريعات للزوجة ، ألزمتها بواجبات زوجها وبيتها ، بحيث إذا شكاها زوجها أمام مجلس المدينة واتضح إهمالها لواجباتها الزوجية ولكن تبين الأعضاء فيها خيرا – منحوها فترة لمراجعة نفسها . فإن قصرت حرموها من مخصصاتها وسمحوا لزوجها بأن يتزوج عليها ويستبقيها فى داره إن شاء ويلزمها بخدمته (١٤١) . فإن تبينوا نشوزها وإضرارها بزوجها رجمت وألقى بها فى النهر (١٤٣) . فإن ثبت عليها الزنا أمروا بتقييدها هى ومن زنى بها وإلقائهما فى النهر ، إلا إذا عفا عنها زوجها وعفا الملك بالتالى عن عشيقها (١٢٩) . فإذا تآمرت زوجة على قتل زوجها من أجل عشيقها ، أعدمت على الوتد (١٥٣) .

وفصلت التشريعات صلات الأولاد بأبويهم وحقوقهم فى المواريث . فجعلت من حق كل والد على أبيه أن يعينه بمهر يتزوج به ، فإن مات الوالد دون أن يتزوج أحد أبنائه ، أفرد له إخوته قيمة مهر تناسب ثروة أبيه قبل أن يقتسموا ميراثه (١٦٦) . وكفلت الأمر نفسه بالنسبة للابنة ومخصصاتها ... ، بحيث إذا مات أب دون أن

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٩٢ .

يزوج ابنته ، ودون أن يفرد لها مخصصات مسجلة أفرد لها إخوتها مخصصاتها المناسبة من ميراثه (١٧٨ – ١٧٩) . وقيدت حق الوالد فى حرمان ولده بحكم القضاة فى مدى عصيانه ، فإن أدانوه أنذروه ، فإن لم يرتدع وعاود الإساءة إلى أبيه وافقوا على حرمانه . وإن تبينوا براءته حموه من أبيه (١٦٨ – ١٦٩) . وجعلت للأبناء الذكور حصصاً متساوية فى ميراث أبيهم ومخصصات أمهم ، إلا إذا أوصى الأب لولده البكر بوصية (١٦٥) . وجعلت للابنة كاهنة كانت أم مدنية أم خنثى (؟) حق استغلال ما يعادل ثلث نصيب أخيها على أن تبقى الرقبة لإخوتها ولا يحق لها أن تتصرف فيها (١٨١) ، وجعلت للأب أن يكتب لابنته فى حياته حق اختيار من يتولى مسئولية إدارة إرثها منه ، فإن لم يفعل قام إخوتها بإدارته والإنفاق عليها من ريعه . فإن قصروا فى ذلك جاز لها أن تؤجره لمن تشاء ، ولكن دون أن يكون لها حق بيعه أو استخدامه فى سداد دين شخص ما ، وعلى أن تؤول الرقبة فى أملاكها بعد وفاتها إلى إخوتها . واستثنيت من عملت بالكهانة العليا فى معبد مردوك رب بابل فسمح لها بأن تستغل حصتها كما تشاء ، وتهبها لمن تشاء بشرط ألا ترث حقوقاً إقطاعية ، حتى لا تنتقل إلى أسرة غير أسرتها (١٨٢) .

وألحقت التشريعات الأبناء بخير الأبوين ، فنصت على أنه إذا تزوج عبد بحرة احتفظ أولادها بحريتهم ، فإذا مات عنها زوجها استردت مخصصاتها ، وإذا كانت ذات ولد قاسمت مولى زوجها المقتنيات التى شاركت زوجها فيها بعد زواجها به، واحتفظت بنطفها من أجل أولادها (١٧٥ و١٧٦) . وسمحت التشريعات للأب بحق الاعتراف بأولاده من جاريته ، فإذا اعترف بهم شاركوا أولاده الشرعيين ميراثه بشرط أن يتركوا لولده الشرعى البكر حق اختيار نصيبه بنفسه (١٧٠) . وإن لم يعترف صراحة ببنوتهم حرموامن ميراثه ، مع حرمان إخوتهم الشرعينن من استرقاقهم (١٧١) .

ونظمت التشريعات أمور التبنى، فسمحت للرجل بأن يتخذ ربيبه ولداً له ويورثه فإن فعل واعترف به ولدا ، ثم تنكر له ربيبه وكان لقيطاً وأبى أبوته وتطلع إلى اللحاق بأبويه بعد أن عرفهما ، قطع لسانه الذى نطق بالمنكر فى حق من رباه، أو سملت إحدى عينيه أو قطعت أذنه . وحرمت انسحاب الربيب إذا تبناه صانع ورباه وعلمه صنعته . ولكنها من ناحية أخرى أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا عرفهما ولم يكن متبنيه قد اعترف به ولداً له ، كما أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا لم

يعلمه متبنيه الصانع حرفته . واشترطت على من يتبنى طفلا ثم يستغنى عنه بعد أن ينجب أولاداً من صلبه ، ألا يرده إلى أهله صفر اليدين، وأن يهبه ما يساوى ثلث نصيب ولده من صلبه من ثروته المنقولة (١٨٥ - ١٩٣) . وإذا اقتصرت فعلة ربيب الكاهنة المتزوجة على إنكار أمومتها قص نصف شعر رأسه وطيف به فى البلدة . وإذا اقتصرت على إنكارة أبوة الزوج قص شعره قصة العبيد وأقصى عن البيت (١) .

ونصت التشريعات على أن من باع جاريته أم بعض أولاده أو أخرها (أم أعارها ؟) لآخر فى سبيل توفير الضرائب المستحقة عليه ، حق له أن يستردها من شاريها أو مستأجرها بما أداه فى مقابلها نفسه (١١٩) . وحفظت مكانة الزوجة الشرعية إزاء الجارية ، بمثل ما قدمنا له به ، وبأن نصت على أنه إذا وهبت زوجة زوجها جارية لتعوضه عن عدم الإنجاب منها وتغنيه عن الزوج بأخرى علمانية ليست من أسرتها ، فأحبها وشجعها ذلك على أن تعتبر نفسها ندا لها حق للزوجة أن تعيدها إلى الرق وتبيعها (إن استطاعت) . فإن كانت قد حملت منه أو ولدت له دمغتها بميسم العبودية وأبقتها فى دارها من أجل أولادها (١٤٥ - ١٤٧) .

وأباح المشرع ثلاثة أيام للمشاورة فى شراء العبد أو الجارية ، وشهراً يستطيع المشترى أن يعيد العبد خلاله إلى بائعه ويسترد ثمنه إذا تبين أنه مصاب بصرع ، فإذا انقضى الشهر كان مالكاً له مسئولا عن الدعاوى التى تقام بشأنه . ونصت على أنه إذا اشترى رجل عبدا أو أمة من بلد غريب ثم عاد إلى بلده وتبين له العبد ملك لمواطن آخر من أهل بلده ،وطالبه به سيده ، وجب تسليمه إليه دون تعويض ، فإذا كان العبد من بلد آخر دفع فيه سيده ما دفعه فيه مشتريه واسترده . فإذا أنكر العبد تبعيته لسيده ثم ثبتت التبعية عليه صلمت أذنه (٢٧٨ - ٢٨٢) .

وقضت التشريعات على من ضرب أباه بقطع يده (١٩٥) ، وعلى من ضاجع أمه بعد وفاة أبيه بأن يحرق معها (١٥٧) ، وعلى من ضاجع زوجة أبيه الأرمل ذلت الأولاد باستبعاده من أسرته (١٥٨) ، وقضت بالنفى على من يضاجع ابنته (١٥٤) ، وبالهلاك غرقاً على من يضاجع زوجة ابنه بعد دخوله بها (١٥٥) . وكان فى اقتراف هذه الأوضاع الشاذة ما ينم عن تفشى الفساد فى المجتمع .

---

(١) هـ . كلنجل : المرجع السابق - ١٧٩ .

ويبدو أن توسع الدولة البابلية وما أدى إليه من ضم الأراضى الخاضعة لها باسم التاج قد زاد من فرص المنح والاستئجار وكثرة استخدام الأيدى العاملة ، كما أن اتساع مجالات التجارة الداخلية والخارجية قد زاد من فرص الوساطة والتعامل بالصكوك التى قام التعامل فيها بالفضة أكثر من الذهب .

وفى شئون الزراعة قضت بعض بنود التشريعات أنه إذا استأجر مزارع حقلا ليزرعه حبا ولم يزرعه ، أدى لصاحبه حبا يعادل ما أنتجه حقل جاره (٤٢- ٤٣) . وإذا شاركه فيه وأهمل بعضه اعتبر الجزء المهمل من نصيبه (٦١) . ومن اقتلع شجرة من بستان جاره دون موافقته غرم نصف مينه من الفضة .

وتوسعت التشريعات البابلية فى أمور القروض والمشاركة والأمانات والوكالة فى قوافل التجارة . وجعلت تدوين عقودها وشهادة الشهود عليها، أساساً لحق التقاضى بشأنها (١٩٩) وعينت متوسط أرباح القروض (١٢٢ – ١٢٣) بالخمس (٨٨+) واشترطت أداءها بالمكاييل والأوزان نفسها التى أقرضت بها (٩٤) . (فكانت فائدة كور الغلة ٦٠ قو ، وفائدة شاقل الفضة سدس شاقل وست سيات) ، ولو أن بعض لوحات القروض الفعلية من العصر نفسه قد دلت على زيادة أرباح القروض ونقصانها عن هذه النسبة فى مناسبات خاصة . وتمثلت حالات النقص فيما كانت تقرضه المعابد والإدارات الحكومية فى بعض الحالات إلى ما يوازى ١٢٪ بينما ارتفعت نسبة الفائدة فى حالات أخرى إلى الثلث .

وظهر فى بعض العقود ما ينم عن إمكان رهن (جهود ؟) الأبناء والبنات والزوجات فى مقابل الدين، وربما إمكان بيع الابن والتنازل عنه أيضاً . وجعل التشريع الحد الأقصى لاسترقاق المدين ثلاث سنوات يجب تسريحه بعدها (١١٧) . وقد يعنى السماح برهن أفراد الأسرة أن ثراء الدولة وكبار الملاك لم يقترن بالضرورة برخاء عام تستفيد منه الطبقات العادية ، وهو ما سوف يظهر أكثر وضوحا فيما بعد فى التشريعات الآشورية .

وكان من تجديدات تشريعات حمورابى تحديد أجور الأطباء ومراعاة الحالة الطبقية والاقتصادية للمرضى بحيث حدد أجر العملية فى البدن أو فى العين بالنسبة للثرى بعشرة شواقل ، وبالنسبة للشخص العادى بخمسة شواقل ، وبالنسبة للعبد بشاقلين يتحملهما عنه سيده (٢١٥ – ٢١٧) . وحدد أجر العلاج العادى وجبر العظام

بالنسبة للطبقات الثلاث بخمسة شواقل وثلاثة وشاقلين على التوالى (٢٢٠ - ٢٢٣) . ولم تغفل حدود أجور علاج الحيوانات وتعويضاتها (٢٢٤ - ٢٢٥) .

كانت هذه هى أهم المعالم الطيبة فى تشريعات عهد حمورابى ، أما أهم ما يؤخذ عليها من وجهة نظر التشريعات السماوية والعصر الحاضر على أقل تقدير ، فهو أنها لم تجعل لأحكامها صفة التعميم دائماً ، وأقرت بالتفاوت فى الحقوق المدنية والعقوبات بين طبقات لاسادة «أو يلو (م)» ، والعامة من الأحرار «مشكينو (م)» والعبيد «وردو (م)» ، كما أخذت الأبناء أحيانا بجرائر الآباء . فهى وإن استحدثت على سبيل المثال مبدأ العين بالعين والسن بالسن (١٩٦) والولد بالولد ، إلا أنها قصرت تطبيق هذا القصاص على أفراد الطبقة الواحدة ، ولمصلحة الطبقات العليا بخاصة ، بينما اكتفت بالتعويض المادى جزاء لاعتداء أحد أفراد هذه الطبقات على فرد من طبقة أخرى أقل منزلة من طبقته . فجعلت عقوبة فقء عين العامى أو كسر عظمه نصف مينه من الفضة ، وجزاءهما بالنسبة للعبد نصف ثمنه . وإذا صفع رجل رجلا أرقى منزلة منه جلد ستين جلدة علناً ، ولكنه إذا صفع رجلا من طبقته دفع مينة من الفضة ، وإذا صفع عامى عامياً آخر دفع عشر شواقل من الفضة . وجعلت غرامة إجهاض المرأة من الخاصة عشرة شواقل فإذا ماتت قتلت ابنة قاتلها ، وغرامة إجهاض المرأة من العامة خمسة شواقل ، فإذا ماتت ففديتها نصف مينه من الفضة ، وغرامة إجهاض الأمة شاقلين ، فإذا ماتت ففديتها ثلث مينة (١٩٦ - ٢١٤) . وقضت بتغريم من يختلس شيئاً من مقتنيات المعبد أو الدولة ثلاثين مثلا لما اختلسه ، فإن اختلسه من «موشكينوم» دفع عشرة أمثاله ، فإن كان معدما قتل (٨) ؛ أى إنها فرقت بين عقوبة سارق المعبد والدولة، وبين عقوبة سارق المواطن العادى ، وجعلت الإعدام جزاء المفلس فى الحالتين . وألزمت الأبناء أحياناً بجرائر آبائهم ، فإذا أهمل معمارى فى عمله وانهار المنزل الذى بناه على ابن صاحبه قتل ابنه ، وإذا أجهض رجل سيدة من طبقته أو من الخاصة فماتت، قتلت ابنته (٢١٠) كما سبق ذكره .

واصطبغت أغلب مواد تشريعات حمورابى بالشدة فى مواجهة الإضرار بمصالح الدولة والاعتداءات على النفس والمال فجعلت الإعدام عقوبة لعدد من الجرائم المنكرة التى تستوجب القتل فعلا - مثل التآمر على مصالح الدولة وأمنها والوقوف فى سبيل تنفيذ أوامرها ، كإيواء ثائر أو مجرم هارب ، أو التكتم على مؤامرات قطاع الطرق (١٠٩) ، أو التهرب من خدمة الجيش ولو عن طريق تقديم

بديل ، وعقوبة للضابط الذى أباح مثل هذا الإبدال أو تكتم أمره (٣٣) . ولكنها زادت فقضت بالإعدام كذلك جزاء لجرائم أخرى لا يخلو منها أى مجتمع فجعلته عقوبة للاعتداء على أملاك المعابد وأملاك القصر . وجعلته عقوبة لمن يعجز عن رد المسروقات ودفع التعويضات عنها ، وعقوبة لمن يسم عبدا بغير ميسم سيده وبدون علمه (٢٢٦ ، ٢٢٧) ، وعقوبة لخطف الأطفال ، وإخفاء العبيد ، ونقب الدور (٢١) ، وعقوبة لمن يتجر فى المسروقات ، ومن يدعى ملكيته لأشياء ثم يثبت تدليسه ويتبين أنها مسروقة ٩٠ – ١١) ، وعقوبة للكاهنة التى تفتح حانة أو تتردد عليها لتسكر فيها (١١٠) ، وكانت حانات الشراب منتشرة وتديرها نساء لسن على مستوى جيد من السمعة ، وعقوبة للمعمارى الذى يتسبب إهماله فى انهيار منزل على صاحبه (٢٢٩) . وجعلته عقوبة للرؤساء الإداريين إذا حرموا محاربا مما أنعم الملك عليه به ، أو اغتصبوا متاع داره أثناء غيابه أو أجروها لصالحهم أو تخلوا عنها لصاحب نفوذ فى ساحة القضاء (٣٤) ، وحرمت عليهم شراءها وإلا خسروا ما اشتروها به (٣٥) .

وتضمنت التشريعات أنه إذا اتهم مواطن مواطناً آخر بالاشتغال بالسحر ، وبدا بعض الاحتمال فى هذا الاتهام كان على المدعى عليه أن يلقى بنفسه فى النهر فإذا ابتلعه الماد ورثه الآخر ، وإذا نجا أعدم من اتهمه وآلت أملاكه إليه . وقضت بأنه إذا أدت العملية الجراحية بسلاح برونزى إلى وفاة مريض حر أو أدى فتح دمل فى إحدى عينيه إلى ذهاب نورها قطعت يد الطبيب (ولعل ذلك كان مشروطاً بإهمال الطبيب وإن لم ينص عليه صراحة) ، فإذا كان المريض عبداً عوض الطبيب سيده عن حياته بعبد مثله ، وعن عينه بنصف ثمنه من الفضة (٢١٧ – ٢٢٠) .

وربما قارب هذا قطع ثدى المرضعة إذا عهد إليها بإرضاع طفل فمات عندها (لأنها أهملته) وأرضعت طفلا آخر دون إخطار والديه (١٩٤) . وكان الإرضاع حرفة ويدوم لسنتين أو ثلاث ، يكتب به عقد وتخصص فيه قيمة الأجر. وتجرى على البيطرى غرمة مادية على موت الحيوان . وإذا قام حلاق بإزالة قصة العبيد لأحد الأرقاء دون موافقة سيده قطعت يده (٢٢٦ – ٢٢٧) .

وإذا التمسنا بعض العذر لشدة الأحكام البابلية، فليس من المستبعد أن تكون للتخويف ومنع الجريمة قبل وقوعها ، أكثر مما هى للتطبيق الحرفى ، أو تكون قد ارتبطت بتعاليم دينية متشددة إلى حد ما ، أو تكون رد فعل لشيوع الفساد فى مجتمعها

وفيما قبل عهدها لا سيما بالنسبة لما أرادت منعه من الحالات الشاذة للعلاقات غير المشروعة بين أفراد الأسر .

وعاب بعض المستشرقين ما ورد فى التشريعات البابلية السامية من قصاص العين بالعين والسن بالسن .. ، ورجم الزناة أحيانا ، واعتبروا كل ذلك انعكاسا لعادة الأخذ بالثأر وشدة القسوة لدى البدو الساميين ، وكثيراً ما عنوا بهم المسلمين بالذات . ويكفى فى دحض هذا التخصيص المقصود أحيانا سن مبدء القصاص فى التوراة فى كل من سفر الخروج (٢١ : ٢٣ – ٢٥) ، وسفر اللاويين (٢٤ : ١٩ – ٢٠) ، وسفر التثنية (١٩ : ٢١) . وكذا سن عقاب الرجم لبعض الحالات فى سفر التثنية (٢٢ : ٢٣ – ٢٤) ، وكل ذلك فيما سبق أخذ العصور الإسلامية به (فى مثل سورة المائدة آية ٤٥) بعدة قرون ، وبما يعنى أن أحكامها وجدت مبرراتها ودواعى استمرارها .

* * *

وصف حمورابى نفسه فى مقدمة تشريعاته بما اعتاد الملوك القدماء أن يصفوا به أنفسهم ، من أمور متقاربة أو متعارضة ، وذلك من حيث الصلة بالأرباب وتقواهم ، وإظهار الفضل وتقدير الواجب ، ومن حيث إظهار المسالمة وحب التعمير والافتخار بالقوة والجبروت . واعتبر حمورابى شمش رب الشمس وقاضى العدالة معبوده الحامى ،وادعى البنوة للمعبود سين ، كما رفع من شأن المعبود مردوك . وإذا كان هذا الملك لم يظهر فى مناظر نصب تشريعه بشارات الربوبية مثل التاج والقرون ، إلا أنه وصف نفسه بأنه إله بين الملوك ، وأنه أول الملوك وزعيمهم والخالد بينهم ، وأنه الملك الحكيم الكامل منقذ شعبه من البأساء ، وأنه طرق جهات العالم الأربع ، وفتح كذا وأخضع كذا ، وأنه سليل سامو لائيل ، والوريث الجبار لسين موباليط ، البذرة الأزلية للمملكة شمش بابل . وأنه الملك الذى نشر النور على سومر وأكد وأخضع الجهات الأربع ، محبوب إشتار، من دعاه مردوك لإسباغ العدالة على الناس وتوفير القيادة الخفية للبلاد فنشر الحق والعدل وعم الرخاء . وإذا كان قد استحب أن يشتهر بروح التقى وإقرار السلام إلا أنه حرص كذلك على أن نبدأ تشريعاته بتمجيد انتصاراته الحربية وأمجاده التوسعية . وكان من آثار هذه السمعة الغالية التى ادعاها لنفسه أو ادعاها له أتباعه أن سمى بعض رعاياه أبناءهم باسم حمورابى إيلو بمعنى حمورابى إله (أو هو الإله) . ولكنه وصف نفسه إلى جانب ذلك بأنه الأمير التقى ،

وأن الأرباب تخيروه لإصلاح أحوال الناس ، وأنه المطيع للإله شمش العظيم ، وأنه كثير الدعاء للأرباب ، ويعرف الرب أداد تضرعه ، وأنه لم يهمل رعاية أصحاب الرؤوس السود الذين عهد بهم إليه رباه إنليل ومردوك ، وأن ربه مردوك أمره بأن يرشد الناس إلى الطريق القويم ويحق الحق والعدالة ويدونها بلغة البلاد ، فاستعان بأمر شمش القاضى الأعظم للسماء والأرض ، وذلل الصعاب للناس ، وكان أشبه بوالد لهم ، ووضع أهل سومر وأكد فى جوفه حتى سعدوا بحمايته وأظلهم بحكمه ، ثم رجا أن تدوم عدالته وتنتشر فى البلاد كلها بإذن مولاه مردوك ، ودعا الملوك الذين سوف يعقبونه إلى أن يتبعوا أسلوب حكمه ، ودعا كل مظلوم إلى أن يذهب بنفسه إلى نصب تشريعاته ويقرأها بعناية ويتمعن حكمته فيها حتى تستبين له قضيته ويهدأ باله ، واستعدى أربابه على كل من يمحو هذه التشريعات أو يغير فيها .

هذا ويضيف اللغويون أن هذه التشريعات لم تعبر عن نضج العقلية التشريعية فى عصرها فحسب ، وإنما عبرت كذلك عن دور الاكتمال فى الأسلوب اللغوى البابلى الذى أصبح من بعد نموذجاً كلاسيكيا للكتابات الراقية فى العراق كله .

لم تكن تشريعات الرجل وليدة عهدها وحده كما سبق القول ، ولم تكن فريدة فى نوعها ، وربما لم تجديداتها من وضع حمورابى نفسه بالضرورة على أساس ما أسلفناه من أن بعض التاريخ القديم وبعض التاريخ الحديث أيضاً تاريخ غير عادل أحيانا حين ينسب خير الأعمال إلى الملوك والرؤساء ويغفل ذكر من شقوا فى سبيلها من الرعية . ومع ذلك فقد كانت تشريعات عهده جديرة بشخصيته ، ويبدو أنه ظل معنياً بتطبيقها وظل يتدخل فى كثير من الشئون الإدارية بنفسه (١) وكان يصدر الأحكام فى بعض قضاياها ويحيل بعضاً آخر إلى محاكم خاصة ، فتضمنت إحدى اللوحات الباقية من عهده أمراً منه بافتداء أسير على حساب معبد مدينته قال فيه «وأما بخصوص إمانينوم الذى أسره العدو ، فتصرف عشر مينات من الفضة من معبد سين إلى ممولة (الذى افتداه)» (٢) . وسمع حمورابى بارتشاء بعض موظفيه ، فأرسل

(١) انظر عن رسائل حمورابى :

L. W. King. *The Letters and Inscriptions of Hammurabi;* Harper, *Letters and Inscriptions of Hammurabi;* A. Ungand, *Briefe Konig Hammurabis.*

(٢) *Yale Oriental Series, t.* II, No. 32.

مندوباً من عنده للتحقق من الأمر وسماع أقوال الشهود والتحرز على الرشوة ، ثم إراسال المتهمين والشهود إليه[١] . وكثيراً ما تضمنت رسائله إلى عماله أوامره بالتحقيق فى سرقات ومظالم سمع بها [٢] ، وأوامر أخرى بالتشديد على الملتزمين المتباطئين فى تأدية الضرائب التى التزموا بها وإرسالهم إليه مع التحفظ على أملاكهم إن امتنعوا ن السداد [٣] . وذلك فضلا عن أوامره إلى حكام الأقاليم بتنفيذ الخدمات العامة فى أقاليمهم ، مثل حفر الترع وتطريها ، والإشراف على تجميع العمال والأهالى للقيام بها [٤] . غير أنه يبدو أن صفة العمومية التى أكدها حمورابى لتشريعاته لم تمنع قضاة عاصمته من أن يعترفوا بحق قضاة الأقاليم فى تطبيقها بما يناسب أحوال أقاليمهم ، أو هى على الأقل لم تجعلهم يصرون على مركزية القضاء فى العاصمة ، بحيث شهدت إحدى لوحاتهم القضائية برفضهم نظر قضية كان المدعى عليه فيها من أهل سيبار ، وتحريلهم إياها إلى قضاء سيبار بالذات [٥] .

ولا يستبعد أن من أسباب حرص حمورابى على تدوين كل قوانين عصره ، رغبته فى أن تتولى هيئة الموظفين المدنيين الخاضعة له خضوعاً كاملا ، تطبيقها وفق نصوصها ، وحتى لا يكون للكهنة حجة فى الاستئثار بتفسير القانون وإصدار الأحكام أو تأويلها [٦] . وربما ترتب على ذلك أن المعابد لم تعد تسمى بالضرورة دور العدل ، وتولت الدولة بنفسها كل ما يختص بإقامة العدالة حتى بالنسبة للأماكن المقدسة .

* * *

---

(١) L. W. King, *op. cit.*, No. 11.

(٢) *Op, cit,* 3, 12, 18, 24, 30, 73, 74.

(٣) *Ibid.*, Nos. 16, 30, 33.

(٤) *Ibid.*, Now. 5, 26.

(٥) ديلابورت : المرجع السابق – ص ١١٩ .

(٦) كاميل طومسون : فى تاريخ العالم (هامرتون) – معرب بالقاهرة : الفصل الثامن عشر – ص ٦٠٤ – ٦٠٥ .

فـى الـفـنـون :

تأثر الفن فى عهد حمورابى بنهضة عصره ، وكان من الطبيعى أن تظهر آيات رقية فى تماثيل الملك نفسه وفى صوره . وبقيت رأس جرانيتية يرجح أنها تمثل رأسه ، وضحت فيها الملامح السامية النبيلة التى ظهرت من قبل خلال العصر الأكدى القديم ، ونجح فنانها النجاح كله فى تمثيل نحافة وجه صاحبها ومستويات عظام الخدين ودقة تمثيل ركن العين ومسطحات الجفنين وخطوط الشفتين وتعبيرهما عن شخصية صلبة مجربة (١) .

وعبر النقش عن جانب التقوى فى شخصية حمورابى فى صورته أمام ربه شمش فى الجزء العلوى من النصب الحجرى الكبير الذى سجلت تشريعاته عليه . فصوره واقفاً بعباءة محبوكة انسابت خطوطها المشدودة مع خطوط جسده ، يحيى مولاه برفع يده ويواجهه فى هيئة المقدر لجلاله ، ولكنها مواجهة كريمة تشبه مواجهة الوزير لمليكه . وصور المعبود شمش نفسه أقرب إلى عالم الدنيا منه إلى عالم الخيال ، لولا لحيته شديدة الكثافة والطول ، وتاجه الطريف ذو الأربعة أزواج من القرون ، وألسنة اللهب التى تشع من كتفيه . وصوره يمسك بالعصا والحلقة رمزى العدالة ، وكأنه مع حمورابى أشبه برجلين متحدث ومستمع ، وإن بدت شفتاهما مطبقتين . واستطاع الفنان أن يوازى بين جنسه المعبود ووقفة الملك. بالجمع بين استقامة جدع الإله واستقامة عصاه ، واستقامة جسم الملك (٢) . (تراجع أيضاً ص ما ذكرناه من قبل فى هذا الصدد) .

وثمة تمثال برونزى صغير ذهب إلى أبعد من ذلك فى تمثيل العلاقة بين الإنسان وربه ، وهو لشيخ ربعة يركع على ركبته اليمنى ويقيم اليسرى ، ويضم مجمع ثوبه بيده اليسرى ويجمع أصابع يمناه ويقربها من شفتيه كأنه يدعو بها أو يتمنى . والطريف أن نفس حركة اليد على الفم لا زال يؤديها بعض المسلمين حين الدعاء خلال الاستماع إلى آذان الصلاة .. وقد عبرت شفتا صاحب التمثال عن استبشاره

---

(١) توجد الرأس بمتحف اللوفر – ويبلغ ارتفاعها نحو ١٥سم .

See, Frankfort, *The Art and Architecture...* , Pl. 163 .

(٢) *Cf.* H. A. Croenewegen - H. Frankfort, *Arrest and Movement...* , 168 f.

باستجابة ربه لأمنيته . ولا يخلو التمثال من عيوب يسيرة تتمثل فى اتساع العينين وقلة تناسق الجزء الأسفل من الساق مع بقية الجسم ، ولكنه فى مجمله رائع التعبير . وغشى وجهه ويداه برقائق ذهبية ، وثمة احتمال بتمثيله للملك حمورابى نفسه . وقد تكررت هيئته نقشاً على قاعدته وسجل معه نص يذكر إهداءه إلى المعبود أمورو (من أجل حياة حمورابى) (١) .

وكشفت البحوث الأثرية عن أطلال متفرقة من أحياء مدينته بابل فى عهد حمورابى ؛ قامت فوقها مبانى قرى القصر وتل عمران والمركز الحالية . وشيدت بيوتها على نسق البيوت التى سبقت عهده ، فبنيت أساساتها ومداميكها السفلى من الآجر ؛ بينما شيدت مداميكها العليا من قوالب اللبن العادية . وكشفت الأبحاث كذلك عن أطلال بعض أحياء مدينة أكد من العهد نفسه ؛ ويفهم منها أنها خضعت لتخطيط منظم وتميز فيها طريق مقدس إلى معبد إشتار (عشتار) ووازته بضعة شوارع رئيسية تعامدت عليها شوارع أخرى (٢) .

وارتفع شأن مردوك معبود بابل بارتفاع شأن مدينته ، وكان يعتبر من قبل ولداً للمعبود إنكى ، ثم تعمد البابليون تعظيم شأنه ليكفلوا لمدينتهم زعامة دينية إلى جانب زعامتها السياسية ، وبحيث تنافس المدن الدينينة الأخرى القديمة ؛ فنسبوا إليه هزيمة التنين تيامة (رمز ملوحة البحر وأخطاره) وأضافوا أن انتصاره هذا جعل الآلهة الكبار يمنحونه حق تقرير المصائر ، وخلع عليه رب الحكمة إيا حكمته واسمه ، وقال «فليسم إيا مثلى» ، ثم خاطبه قائلا «أى بنى ، ماذا هناك لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرفه أنت أيضاً» (٣) . ومثل مردوك فى صوره المتأخرة بأذنين كبيرتين ترمزان إلى أنه «السميع» ، وكثيراً ما صور تحت قدميه وحش خرافى راقد يرمز إلى تيامة بعد أن أخضعها وذللها .

تعاقب بعد حمورابى خمسة ملوك على عرش بابل ، شهدت أيامهم صوراً مختلفة من الحرب والسلام . واحتفظت حوليات ولده «سمسو إيلونا» ببعض هذه

(١) فى متحف اللوفر - وارتفاعه نحو ٢٠ سم .

See, Frankfort, *The Art and Architecture ...* , Pl. 64.

(٢) ديلابورت : المرجع السابق - ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) ديلابورت : المرجع السابع ص ١٧١ - ١٧٢ .



الصور ، فذكرت من مشروعات عهده الإصلاحية أنه أعفى سومر وأكد من الضـرائب فى العـام التـالى لحكمـه ؛ وقـد يعنى ذلك أنه أعـفى الممـولين من متأخرات الضرائب بمناسبة اعتلائه العرش . ثم ذكرت الحوليات نفسها من صور القلاقل فى عهده ما يدل على أعداء عديدين ، وملك مغتصب شرير ، وهدم أسوار وبناء أسوار، وعصيان أقطار كثيرة ، ووجود جيش أمورى وجيش كاسى ، وجعله ذلك يقول فى نصوص العام العشرين من حكمه «فى هذا الوقت عادانى الجميع من سومر وأكد . وفى غضون سنة واحدة شهرت السلاح فعلياً ثمانى مرات ، وحولت معاقل أعدائى إلى خرائب . وصارت البلاد كلها تعيش وفقاً لأوامرى» (١) . ورددت نصوص أخرى متأخرة عن عهده أسماء بعض خصومه ، ومنهم رجل تسمى باسم ريم سين الثانى ملك لارسا القديم رغبة فى استعادة مجده وجمع حوله حلفاً من المدن الكبيرة التى عز عليها خضوعها لبابل ؛ مثل أوروك وإسين ؛ فضلا عن منطقته الأصلية منطقة إيموتيبال ، ولكن دارت الدائرة عليه وعلى حلفائه ، وقيل إن الجيوش البابلية قبضت عليه حياً فى قصره . وخصم عنيف آخر يدعى إليما إيلوم أو إيلوما عيلوم حكم أرض البحر وهى مناطق المناقع المستصلحة قرب مصبى دجلة والفرات ، وقد حاربته جيوش سمسو إيلونا ولكن بغير نتيجة حاسمة ، فاستمر خطره فى عهد أبيشو أو أبيعشوش البابلى الذى حاول أن يستعين على هزيمته ببناء سد على نهر دجلة يعوق تقدمه أو يغرق أرضه . فنجح رجاله فى بناء السد كما روت الحوليات، ولكنهم فشلوا فى الانتصار على خصمه (راجع فيما بعد) . وربما ظهرت فى الوقت نفسه تقريباً جماعات هانا فى منطقة مارى وحمل أحد حكامها اسم كاشتيلناش مما قد يوحى بأنه كاسى الأصل (٢) .

تلك صورة مصغرة للقلاقل التيواجهت خلفاء حمورابى ، وما لبثت البلاد أن تعرضت بعدها لأخطار أشد وأعنف ، وهى أخطار ندع مناقشة أسبابها ونتائجها إلى ما بعد كلمة قصيرة عن أثر العصر البابلى فى التراث الأدبى لبلاد النهرين .

---

(١) هـ. كلنجل : المرجع السابق – ص ٤٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٠ .

من الأدب البابلى

استفادت الحضارة البابلية من مخلفات السومريين والأكديين اللغوية والأدبية ، على نحو ما استفادت من تراثهم التشريعى ، ثم أضافت إليها ما ناسب عصرها وأذواق أهلها . وكان أصحابها أسعد حظاً من أسلافهم الأكديين أصحاب الثقافة السامية القديمة ، فالأكديون كانوا ينحتون فى الصخر عندما كتبوا لغتهم السامية بالكتابة المسمارية ، وهذا لم يترك لهم مجالا واسعا للخروج بأدب سامٍ متميز، أما البابليون فقد وجدوا الأرض ممهدة بمجهودات سومرية وسامية خليطة. وكان من تجديداتهم فى الكتابة أن أدخلوا فى نصوصها المسمارية علامات للتعبير عن أصوات لم تكن متميزة ، ومنها التعبير بعلامتين متمايزتين عن كل من الجيم والقاف، وبدأوا فى تصنيف قوائم لغوية تجمع بين كلمات سومرية قديمة ومترادفاتها السامية . وعمل كتبتهم على تسجيل بعض أسماء الحيوانات والنباتات فى قوائم متصلة ، وسجلوا بعض القصص والأساطير السومرية والسامية الكبيرة بأسلوبهم الخاص .

أساطير نشأوجو القد

انتفع البابليون ببعض عناصر الفكر السومرى عن أصول الخلق المادى والمعنوى فى دنياهم ، وخرجوا بنظرية عن نشأة الوجود جعلوا ربهم مردوك قطب الدائرة فيها ، ونافسوا بها نظريات السومريين أنفسهم ، وضمنوها ما تواتر إليهم عن نشأة الحضارة الأولى عند مجمع البحرين ، وما سبقها من خواء وعماء ووحشية ، وما صاحبها من تحديات مضنية بين الأجيال المتتابعة فى سبيل التغلب على أخطار البحر والتحكم فى جبروت النهر ، وفى سبيل التحول من الركود إلى النشاط ، ومن الفوضى إلى الاستقرار ،و ضمنوها ما تواتر إليهم عن فاعلية السحر القديم ، ووجود نوع من الشورى بين أصحاب الرأى القدماء ؛ حتى إذا ما اتفق رأيهم على زعيم أسلموا له وعهدوا إليه بمقدراتهم .

وخرجت النظرية مهوشة مطولة يكثر فيها التكرار وتتعدد فيها الأسماء ، كالعادة فى النصوص القديمة . ولكن يمكن الخروج من عناصرها المهذبة ، بأنهم ردوا أصول الأشياء إلى ماء أزلى اختلط عذبه بمالحه ، ومثل العذوية فيه آبسو وهو مذكر ، ومثلت الملوحة فيه تيامة وهى أنثى . وعنونوا نظريتهم بمقطعها الأول الذى يقول «إنوما إليش» بمعنى «حينما فى العلا» . واسترسلت الفقرة الأولى منها قائلة : «حينما فى العلا لم يكن للسماء ذكر ، وفى الدنا لم يكن للأرض اسم ، ولم يكن من

شيء غير آبسو والدهم (رب المياه العذبة) وتيامة أمهم (رب المياه المالحة)» . وافترضت النظرية نشأة أجيال الأرباب في جوف ماء البحر (تيامة) جيلا بعد جيل ، وكان كل جيل منهم يوفق من سبقه ، حتى انعقدت ألوية الحكمة بينهم للإله «إيا» الملقب بلقب «نوديمو» .ولكن حكمة أولئك الأرباب لم تحل دون شدة صخبهم وسعيهم إلى التبديل والتغيير ، الأمر الذى أقلق أباهم آبسو وجعله يهم بالقضاء عليهم ، رغم معارضة أمهم تيامة التى قالت «وكيف نقضى على من خلقناهم بأنفسنا؟ إن مسلكهم معيب حقاً ولكنه شيء متوقع» . ثم ألقى «إيا» النعاس على آبسو وقتله وأفناه في نفسه وبنى بيته فيما كان يشغله (إي – آبسو) وعاشيء فيه هو وزوجته ، وأنجبا ولدهما «مردوك» الذى فاقت قدرته كل الحدود . وهنا عاودت تيامة ذكرى زوجها المضحى به ، فانقلبت على أحفادها وسلطت عليهم الكواسر والزواحف والمخاوف . واستعانت عليهم بإله قديم يدعى «كنجو» ، أغرته بنفسها وعهدت إليه بألواح القدر . وعجز الأرباب متفرقين ومجتمعين أمام هذين الحليفين ، سواء بالمداهنة أم بالعنف ، حتى تخيروا من بينهم «مردوك» لقيادة الحرب ضدها وفوضوه السلطة المطلقة وخلعوا عليه قدراتهم وأسرار أسمائهم وارتضوا ملكاً عليهم. وقد تعدد لقاؤه مع تيامة بالسحر تارة وبالحرب أخرى ، حتى تصيدها بشبكة وأطلق عليها ريح السموم فملأت جوفها ونفختها ، فقيدها وذبحها ، واندار على حليفها كنجر واسترد منه ألواح القدر وختمها بخاتمه واستودعها في مكنون صدره . ثم عاد إلى تيامة فبقرها وقسمها نصفين «مثل نصفى صدفة البحر ، وجعل نصفها الأعلى سماء ونصفها الأسفل أرضاً ، وعين في السماء حرساً ونظم ماءها وعين مواضع الأرباب فيها . أرسى الأرض وجبالها والدجلة والفرات وفجر العيون والينابيع . ويبدو أن العناصر الرئيسية التى ترمز إلى عنف صراع الأجيال ومشاكل الطبيعة في هذه الأسطورة كانت تمثل في احتفالات رأس السنة ، حيث يتقمص الملك شخص مردوك بطلها الأخير ، مع ما يقام فيها من مراسم دينية أخرى [١] .

* * *

توسع البابليون فيما روته الأساطير السومرية عن خلق الإنسان وعلاقته بأربابه

(١) Lapat, *Le poeme Babylonien de la Creation,* 1935; A. Heidel, *The Babylonian Genesis,* 1942; E. A. Speiser, ANET, 60 f.; A. K. Grayson, *Ibid.,* 501 f.; M. E. Eliade, *Myth and Reality,* 1963, 5 f.

فى بداية الخلق والنشأة وضمنته فى أتراخاسيس الذى قد يعنى اسمه معنى «فائق الإدراك (أو الحكمة)» . ويفهم منها أن عالم السماء والأرض كان قاصراً على طوائف الأرباب بمراتبهم المختلفة ، حيث وقع غرم العمل فى إصلاح الأرض وزراعتها لإعالة الجميع على أكتاف طائفة منهم تسمى إججى ، حتى ناءت هذه الطائفة بمشقة العمل أربعين عاماً ، ثم جمعت أمرها وحملت المشاعل وتظاهرت معلنة احتجاجها أمام قصر الإله الأعظم إنليل . واستفتى إنليل بطانته من مجمع الأرباب ، واستقر رأيهم على خلق الإنسان كى يحمل النير عوضاً عنهم ويخدم المعبودات ويكد من أجل إقامة معابدها وتوفير قرابينها .

وعملا بمشورة إيا رب الحكمة ، عهد الآلهة إلى الربة الأم ننتو التى لقبت بلقب مامى (أو ماما) بأن تخلق الإنسان الأول «لوللو» ، وأعانها إيا فأعد لها الطين النقى الطاهر ومارس عدداً من الشعائر حين إعداده – ولأمر ما ذبح الآلهة فى هذه المناسبة واحداً منهم يدعى وإيلا ربما لشخصه كما روت القصة ، أو لأنه كان أشدهم ذنباً فى تحريض طائفة الإججى على العصيان كما روت قصة سومرية عن ذبيحها كنجو . وتفلت ننتو على الطين ومزجته بلحم الضحية ودمه ، وعاونها إيا ، وشكلت من الطين سبعة ذكور وسبع إناث ، وقدرت تسعة شهور لحمل الإناث . وبين دقات الطبول وقراءة التعاويذ خرج الإنسان الحى ، وأتاها الأرباب يقبلون قدميها عرفاناً بجميلها ، واستحقت أن توصف لذلك بسيدة الآلهة «بليت إيلى» .

وانقضى بعد ذلك ألف ومائتان من الأعوام تكاثر الناس فيها ، واشتد صخبهم حتى صاق إنليل بضجيجهم فأمر نمتار بأن يبتليهم بالأوبئة والأوجاع ليقلل أعدادهم ، ولم ينقذهم من الفناء غير الرب إيا وفائق الحكمة اتراخاسيس اللذين قر رأيهما على استمالة نمتار بالقرابين من «طحين وخبز مقدد» عسى أن «تخجله الهدية فيرفع يده عن العالمين» ونجحت الحيلة وخف البلاء .

وبعد ألف ومائتى عام أخرى تضخمت شرور الناس ، فقرر إنليل أن يبتليهم بالقحط والمجاعة ، وأمر أداد بأن يحبس المطر وأن يرسل الرياح جافة حسوما ، واستمر هذا لست سنوات فجفت الأرض وهزل البشر وقلت المواليد وأكل الناس أولادهم . وهنا استرضى إيا وأتراخاسيس أداد بقربان من طحين وخبز مقدد حتى لان جانبه وسمح بقليل من الطل والندى ، وعمل إيا من ناحيته على أن يفتح ثغرة لمياه الأعماق فتدفقت تروى الأرض وتحيى أهلها . وبلغ استياء إنليل مداه لفشل خططه ،

وقر رأيه أن على أن يغرق كل الخلق بما أرادوا أن يحيوا به . وأمر بطوفان كاسح (أبوبو فى البابلية وأماورو فى السومرية) - وأخذ المواثيق على الأرباب أن يعاونوه على إحداثه .

واشتركت القصة فى رواية أحداث الطوفان مع قصة جلجميش التالية دراسة أحداثها - كما تشابهت إلى حد ما مع بعض قصص التوراة (سفر التكوين ٦ : ١ - ٢٢) فى تصوير غضب الإله على البشر وابتلائه إياهم ثم عقابه لهم بالطوفان . ولكن ذهب القرآن الكريم مذهباً آخر فى تصوير ما أدى إلى الطوفان وتصوير بعض أحداثه (فى سور : نوح والأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر) .

جلجميش وقصة الطوفان :

هذه أشهر الأساطير التى روى البابليون فى ثناياها قصة الطوفان القديمة، بعد أن عدلوا فيها وأضافوا إليها وغيروا بعض مسمياتها . وتخلفت من الصياغة البابلية لهذه الأسطورة ألواح مبعثرة قليلة، أمكن تصحيح قصتها واستكمالها من ألواح أخرى مرادفة لها وأكثر تفصيلا منها كتبت بعدها باللغات الأشورية والحورية والحيثية (١) . وبهذا أمكن تكوين صورة عامة لها يفهم منها أن جلجميش كان حاكماً على مدينة أوروك ، أحبه شمش وحباه آنو وإنليل وإيا بنضرة الشباب وبسطة الجسم وجمال الصورة والقوة الخارقة والحكمة السابغة والنظرة الثاقبة حتى أصبح إنساناً مثالياً ، أو على حد تعبير الأسطورة حتى أصبح به ثلثان من الربوبية وثلث من البشرية . وقد اهتم بمدينته وأسوارها كما اهتم ببلاطه وفخامته ورفاهيته؛ فدب الحسد منه فى نفوس معاصريه ، وشكوه إلى أربابهم ؛ وادعوا أنه يسخر أبنائهم ويحتبى عذاراهم ونساءهم ؛ فاستجاب الأرباب لشكواهم وابتغوا أن يعيدوا السلام والطمأنينة إلى أرض أوروك التى أرسى الحكماء السبعة بنيانها (وهم سبعة حكماء أسطوريون نسبت القصص إليهم تأسيس وتحضير أقدم مدن فى الوجود العراقى) (٢) . وأمر آنو الربة أرورو أن تخلق

(١) See, *ANET,* 90, 163, 172; A. Heidel, *The Gilgamesh Epic and the Old Testament Parallels,* 1946; Ephraim Speiser, *ANET,* 72 f.

(٢) H. Zimmern, *AZ,* XXXV (1923), 151 f.



من الطين إنساناً ينافس جلجميش قوة واقتداراً حتى تهبط عزيمته حسداً منه فينصرف طغيانه عن شعبه . وأتمت أرورو أمرها وغسلت يديها وقبضت قبضة من طين البرارى وتفلت عليها وخلقت منها غلاماً دعى إنكيدوا (أو إنجيدو) عظيم البأس ، له قوة الأسود وسرعة الطير ، وفيه قبس من روح آنو وتينورتا ، ولكنه نشأ على الرغم من قوته أشعر غير ذى فطنة ولا حكمة ، فمال إلى مصاحبة الغزلان آكلات العشب دون الناس ، وشاركها مرعاها وموارد شربها ، وعزف عن طعام الناس وموارد شربهم . وبلغ من إخلاصه لحيواناته أن تتبع شباك الصيادين فأتلفها ، وتتبع حفرهم فردمها . فاشتكاه صائد إلى أبيه الشيخ ، فوجهه أبوه إلى جلجميش وتنبأ له أنه سوف يستأسر إنكيدوا عن طريق أنثى ، فلما أعاد شكواه على جلجميش أوصاه بالفعل بأن يغويه بغانية جميلة ، ففعل ماأوصاه به وارتحل بها ثلاثة أيام حتى بلغا البرية التى يعيش فيها ، وتربصا به يومين حتى خرج بحيواناته يسقيها . واستطاعت الأنثى أن تلفه بجمالها . فكشفت له عن مفاتنها وخلعت له ملابسها وفرشتها له ، ونجحت فيما فشل فيه غيرها ، فاستجاب لها إنكيدوا وقضى معها ستة أيام وسبع ليال ، ولما أفاق بعدها التفت إلى البرية وحيواناتها ، ولكن الحيوانات التى أحبته لفطرته وطهره ما أن رأت وجهه بعد الخطيئة حتى ازورت عنه وهجرته ، فأدرك دنسه واشتد به عذاب النفس والحزن واليأس . ولكن المرأة شغلته بحديثها المعسول وأوهمته أنه أصبح حكيما وحرضته على أن يواجه جلجميش ويستحوذ على مدينته أوروك وملكه العريض وينتقل من حياة البرارى إلى جوار مقر آو وإشتار (عشتار) وحياة المدنية . فاستجاب إنكيدوا للمرأة مرة أخرى ووصل معها إلى أوروك . وهنا تواردت الرؤى على جلجميش ، ورأى فيما يرى النائم روح آنو تجلت فى السماء على هيئة كوكب ونزلت عليه فحاول أن يرفعها أو يحركها ففشل ، وتجمع أهل أوروك حولها وقبلوا قدميها . ولما أفاق جلجميش قص رؤياه على أمه الحكيمة نينسون ، فنبأته بنبأ إنكيدو وتنبأت له بأنه سيميل إليه كما يميل إلى أنثى . ثم رأى فى رؤيا أخرى أن قومه ثبتوا فأساً فى الأرض وتجمعوا حولها ، فاتجه إليها بدوره ، ولما أعاد الرؤيا على أمه، فسرتها له بتأويلها الأول نفسه .

وقضى إنكيدو مع غانيته ستة أيام وسبع ليال أخرى كاد ينسى نفسه فيها ، فأثارت المرأة عزيمته ثانية وألبسته ثياباً جديدة ، وخرجت تشده كأنها أمه إلى أماكن الرعاة ليستعيد نخوته بينهم ، فحن هناك إلى رضاعة لبن البرارى ، وعندما قدم إليه

طعامهم وشرابهم ما درى كيف يطعمه ويشربه ، فراضته المرأة عليه حتى اعتاده واستساغ الشراب العنيف وأسرف فيه ، وأزال شعر بدنه واعتاد الطيوب ، وأصبح يذود عن أغنام الرعاة ويصيد السباع . ثم أتى البرية رجل يستصرخه صد جلجميش الذى استولى على زوجته ، فاستثارت الغانية والناس همته حتى خرج إلى أوروك، وهناك تجمع الناس حوله ورأوا فيه كفئاً لجلجميش وإن كان أقصر قامة منه .

وتلاقى البطلان فى سوق المدينة وتصارعا مصارعة عنيفة ، واستطاع جلجميش أن ينتصر على خصمه ، ثم رق كل منهما للآخر وصادقه وأصبح كل منهما أحب إلى صديقه من نفسه ، حتى كان يوم رأى فيه جلجميش صديقه دامع العين كسير الفؤاد ، فلما سأله عما به شكا له الإعياء والمرض ، فاعتزم جلجميش أن يدفع عنه الملل ويشركه فى مغامرة مثيرة ، وعرض عليه أن ينطلقا إلى حيث يعيش هواوا ويتعاونا على قتله عسى أن يذهب النحس عن الأرض بهلاكه ، وهنا قصت الألواح مغامرة الصديقين فى صورة قريبة من صورتها السومرية القديمة مع تعديلات يسيرة وتعبيرات تناسب آفاق المعرفة فى عصرها ، وكان من ذلك أن ذكرت جبل الأرز فى أرض الأحياء التى اتجها إليها باسمه الكنعانى المعروف للساميين وهو جبل حرمون، الذى ذكرت نصوص أو جاريت فى الشام أن معبوداتها تستقر فوقه . ثم كان من أمتع ما جاءت به قول جلجميش لصديقه، وهو يرد على مخاوفه من لقاء هواوا «من يستطيع أن يعاند السماء يا صديقى ؟ ليس من يخلد تحت الشمس غير الأرباب ، أما البشر فأيامهم معدودات ... ، وأنت هنا تخشى الموت ؟ ، فأين بطولتك الفذة إذاً؟ أولى بك أن تهيب بى أن تقدم ولاتخف، فإذا سقطت صريعاً تركت لنفسى سمعة طيبة ، وقال عنى خلفائى من أهل بيتى سقط جلجميش بعد أن تحدى هواوا» .

وأضافت النسخ الآشورية للقصة أن جلجميش بعد أن نجح فى إقناع شيوخ بلده بمغامرته التفتوا إلى إنكيدوا، وقالوا له «نحن أعضاء المجلس أمناك على الملك ، فأعده سالما إلينا» ، والتفت جلجميش إلى صديقه وقال له هيا بنا إلى القصر الكبير (إجالمه) وإلى حضرة الملكة العظيمة ينسون . وعندما قص عليها ما عزم عليه فزعت وارتدت رداءها الكهنوتى وصعدت الدرج وعلت السور وطلعت إلى السطح وحرقت البخور فتصاعد عبيره عالياً لربها شمش ثم رفعت يديها إلى معبودها وقالت تخاطبه . لم وهبتنى جلجميش ولدا؟ ولم جعلت هذا الابن القلق من نصيبى؟

ثم انتهت الألواح إلى ما انتهت إليه القصة السومرية من قتل هواوا (أو خمبابا) ، وأضافت أن جلجميش انتشى بعد النصر واغتسل وعقص شعره وأرسل ضفيرته خلف ظهره واستبدل ثيابه وارتدى عباءة ذات أهداب ، فلمحته الربة إشتار (عشتار) وشغفت به حبا وابتغته زوجاً لها ومنته بأمانٍ كثيرة ووعدته بملك عريض . فاستهان بعرضها وذكرها بغرامياتها المتقلبة وكيف أحبت دوموزى فى صباها ثم غدرت به ، وكيف أحبت طائراً ثم كسرت جناحه ، وكيف عشقت أسداً وحفرت له سبع حفر بعد سبع حفر ، وكيف أحبت محارباً وراعياً ، بل وأحبت بستانى القصر ، ثم غدرت بمن أحبها منهم ومسخت منهم من استعصم عليها . فلما واجه جلجميش هذه الربة الحسناء بحقيقتها، انقلب حبها له إلى حقد شديد وشكته إلى والديها فى السماء (آنو وأنتو) ، ودعت أباها إلى أن يرسل عليه فحل السماء ليقتله ، وتوعدته إن لم يفعل بأن تفتح أبواب العالم السفلى فيخرج أمواته ويفتكون بالأحياء ، فاستجاب لها أبوها وأرسل معها فحلا من السماء بعذاب شديد صبه على مدينة أوروك ، وأخذ يفتك بالمئات منها فى كل خوار . وأراد إنكيدوا أن يفتدى صديقه فتصدى للفحل ونجا من حفره بعد أن سقط فى إحداها ، ثم تعاون هو وجلجميش على ذبحه وقدما قلبه قرباناً إلى شمش ؛ فجن جنون إشتار وصبت اللعنات على أورك وحرضت الكاهنات على أهلها . فتصدى لها إنكيدوا وتوعدها بأن يفعل بها مثل ما فعل بالفحل ؛ وأفسد هو وصديقه خطتها وكان يوم انتصارهما عليها يوماً مشهوداً ، خرجت العازفات فيه ينشدن بإيعاز من جلجميش : من هو أعظم المغاوير قدراً؟ من هو أعظم الناس قدراً فيرد الناس وراءهن : ذاك هو جلجميش أعظم المغاوير قدراً ، ذاك جلجميش أعظم الناس شهرة . وتلك صورة من هتاف الأنصار للبطل تربط الماضى بالحاضر .

وانقلب حال السماء وأربابها ، فاجتمع آنو وإنليل وشمش ، وانقسموا فريقين : آنو وإنليل فى جانب وقد اعتزما الفتك بإنكيدوا لإهانته إشتار ، واشتراكه فى قتل هواوا وقتل الفحل ، وشمش فى جانب آخر وقد أصر على حماية الصديقين واعترف بأنهما قتلا هواوا والفحل بأمره ... ، وانتصر رأى آنو وإنليل وابتليا إنكيدو بداء عضال لا يرتجى البرء منه . واسترسلت الأسطورة فى وصف أسف جلجميش على صديقه ، وخوف إنكيدوا من عالم الفناء وأهواله ، وتبرمه بما لحق به ، حتى أتاه صوت شمش من السماء بعتاب رقيق ، ذكره فيه بفضل ربه عليه حين وهبه القوة والبأس من قبل ، وحين حباه بصداقته للبطل جلجميش ، وحين أيده بنصره فى مغامراته القديمة ،

فقرت نفس إنكيدو ورضى بنصيبه وتحولت لعناته إلى دعوات ، ولكن ظلت الرؤى تتوارد عليه وتدفعه إلى أن يتذكر العالم الآخر رغم أنفه ، حيث الدار التى لم يتركها شخص دخلها ، حيث الدار التي لم يتركها شخص دلخها ، وحيث الطريق التى لا رجعة منها ، وحيث الظلام الأبدى الذى عز النور على أهله ، وحيث الطعام طين وتراب ، وحيث لا يجد الموتى ما يتدثرون به سوى أجنحة كأجنحة الطيور ، وحيث تحيا ملكة العام الآخر إرشكيجال وحيث تركع أمامها كاتبتها بلت سرى تقرأ لها لوحها المكتوب ، وقد رآها إنكيدوا فى منامه ترفع رأسها وتتطلع إليه وتقول من أتى بهذا الشخص هنا؟ فأدرك أنها النهاية ، واشتد به المرض وظل يعانى سكرات الموت عشرة أيام (أو اثنى عشر يوماً) ، فلما أحس دنو أجله دعا جلجميش وودعه وأفضى إليه بأسفه على أنه لم يمت شهيداً فى معركة وأن عليه أن يموت على فراشه . ولما قضى نحبه بكاه جلجميش وظل يندبه بحرقة ووفاء ، وأبنه ونعى صفاته وشجاعته بعبارات ينفطر لها الفؤاد ، ثم فاق إلى نفسه وتخيل نفسه يلقى مصير إنكيدو فطارت نفسه شعاعاً وكره الموت ، وعتزم أن يلجأ إلى جده الأكبر الحكيم أوتانبشتيم (أو وتنابشتو ، أو أوتونبشتم) بن وبر توتو ، (وهو نوح البابلى ، فى ...... زيوسدرا السومرى ، وقابله فيما بعد Xisouthros فى النصوص الإغريقية) [1] ، عله يجد عنده سر الحياة . وانطلق من ثم يقطع البرارى حتى بلغ جبلا يسمى جبل ماشو تتصاعد قمته إلى عنان السماء وتصل جذوره إلى العالم السفلى ، ولقى حارسه وكان له وجه عقرب ، فخوفه الحارس أهوال الطريق ولكنه لم ينثن عن عزمه وظل يقطع مفازاته ويتخطى أهواله حتى لقد ناداه شمش من علاه : إلى أين جلجميش ؟ إرجع فلن تجد الحياة التى تسعى إليها .. ، فأجابه : وهل بعد أن أقطع البرارى أضع رأسى فى قلب الأرض وأنام أبد الدهر ؟ دع ناظرى يمتلئان بنورك دائماً فإن الظلمة تتشتت أمام النور ...

واستمر جلجميش فى طريقه ، وقابل صاحبه حانة تدعى سيدورى روى لها قصته وقصة صديقه الذى اختطفه الموت بعد أن سقطت دودة من أنفه وتحول إلى طين ، على حد قوله ، فلم يستطعم الحياة من بعده ، فردت عليه بأن الموت نهاية كل حى، وأن للإنسان أن ينعم بحياته ويطعم ويشرب ويلبس ويمرح ، وأنه ليس من سبيل

(١) *ANET,* 88, n. 143 (Cf., Jacobsen, *The Sumerian Kings List* (1939), 76 - 77, n. 34, and *for his father: Ibid.*, 75 - 76, n. 32; *ANET,* 594; Civil et Biggs, *RA*, LX, 1966. 1 - 5 .

إلى حياة الخلود التى يبتغيها ، وأنه يفصل بينه وبين أوتا نبتشتيم بحر لم يعبره إنسان ، وأنه لن يستطيع عبوره بغير مساعدة نوتى فظيع يدعى سورسونابو. وكأنما أراد القصاص أن يبين أن الرؤية الصحيحة قد تتوافر عند صاحبة حانة وتغيب عن جلجميش بعد أن ألهته عنها شدة رغبته فى استمرار الحياة .

وقد ورد فى الأسطورة ما يقول : أين تذهب جلجميش؟ إن الحياة التى تتبتغيها لن تجدها ، فقد استأثر بها الآلهة ، وقضوا بالموت على البشر ، فاملأ بطنك واستمتع بكل يوم وكن فرحا ليل نهار ، وارقص وتجمل بالثياب النظيفة ، اغسل رأسك ، واسبح فى الماء وتعلق بالطفل الذى يتعلق بيدك ، واسعد زوجتك بين ذراعيك» . وقابل جلجميش النوتى وحاوره وراضاه حتى اصطحبه معه فى قاربه ، وركبا الموج شهراً وثمانية عشر يوماً إلى أن بلغا مياه الأعماق . وخرج جلجميش إلى جزيرة جده أوتانبشتيم (أو وتنابشتو) وقابله ورأى فيه صورة من نفسه وقص عليه قصته ورجاه أن يدله على سر الخلود ، ولكن جده أراد أن يزيده خبرة بأحداث الماضى البعيد قبل أن يلبى رجاءه ، فقص عليه قصة الطوفان القديم ، قائلا له :

«سأكشف لك جلجميش سراً ، وهو سر ربانى . شورورباك مدينة تعرفها تقع على ضفة الفرات ، هى مدينة عتيقة عاش الأرباب فيها ، وعندما أرادت مشيئتهم إحداث الطوفان ، كان بينهم أرباب سومريون ومنهم آو أبوهم ، والشجاع إنليل مستشارهم ، ومساعدهم نينورتا ، وإنوجيه متولى أمر قنواتهم . وكان معهم كذلك معبود سامٍ خير وهو رب الحكمة إيا الذى حزبه الأمر ولكنه لم يشأ أن يفشى سر الآلهة جهرة ، فجعل أوتا نبشتيم يرى فى منامه ما يحذره من الطوفان ، ولما لم يدرك هذا الأخير مغزى رؤياه وتطلع إلى تفسيرها ألقى إيا حديثه إلى كوخه بطريق غير مباشر قاذلا : يا كوخ البوص ، يا جدار ويا جدار ؛ يا كوخ البوص ، ياجدار وياجدار ، أصيخوا ورددوا :

يا رجل شورورباك يا ابن وبرتوتو .

اهدم الدار وابن سفينة . دع أملاكك وانقذ حياتك ...

ارحل بها وخذ بذرة كل حى ...

اجعل عرضها مثل طولها ...

ففهمت وقلت مولاى إيا أمرت سيدى وسأكون أهلا لحمل الرسالة ، ولكن بم أجيب أهل المدينة وشيوخها ؟ فقال إيا إنى سمعت أن إنليل غير راض عني ، ولهذا لن أبقى فى مدينتكم ولن أطرق أرض إنليل -ولسوف أذهب إلى الأعماق وأعيش مع مولاى إيا - ولسوف يبارك لكم فى الطير والأسماك ويجعل الأرض تؤتى أكلها ، ذلك الذى يأمر فى ظلمة الليل باخضرار اليابس - ولسوف يرسل عليكم مطراً من الغلال (وكلمة الغلال تورية عن الهلاك لاشتراكهما فى اللفظ) ... وبعد أن تعلم الحكيم من ربه كيف يصنع السفينة من البوص والأخشاب على الرغم من أنه لم تكن له معرفة سابقة بصناعتها ، قال : وعند الفجر تجمع الناس حولى ، وحمل الصغار القار، وحمل الكبار كل الضروريات ، وفى اليوم الخامس أتممت إطار السفينة ، وكانت سعة أرضها فداناً كاملا، وارتفاع جدرانها ١٢٠ ذراعاً ... ، وجعلت لها سبعة مسطحات أى قسمتها ستة أقسام وقسمت أرضيتها تسعة أجزاء .. وأكرمت من عملوا معى .. ، واكتملت السفينة في اليوم السابع وأنزلوها الماء ، وحملتها بكل ما عندى ، وما أملك من فضة وذهب ، وحملتها بصنوف الأحياء كلهم ، وأخذت معى كل عائلتى وأقربائى ، وحيوانات البرارى ، وكل الصناع .

وحدد «شمش» وقتاً معيناً لى قائلا : عندما يرسل من يبعث القلق بالليل ، رذاذاً من المن ، ارحل بسفينتك وأغلق مدخلها . وحان الوقت .. وتطلعت إلى الجو، فوجدته معتما ، فغلقت السفينة ، وعهدت بها إلى النوتى بوزور أمورى . وظهرت غمامة سوداء فى الفجر ، رعد فيها أداد ، وتقدمها شولات وهانيش رسولين فوق السهل والجبل ، وحطم إراجال المساند (التى تسند السماء) ، وخرج نينورتا فجل الترع تفيض ، وحمل الأنوناكيون المشاعل وجعلوا الأرض تتوهج بها، وبلغ غضب أداد السماوات ، وأحال النور إلى ظلمة ، وهبت عاصفة الجنوب يوماً كاملا بسرعة عنيفة فنسفت الجبال ، واقتلعت الناس ، فخشى الأرباب عاقبة الطوفان وأجفلوا وصعدوا إلى سماء آنو (أعلى السماوات) وتجمعوا كالكلاب حين تقبع بجوار الجدران ، وصرخت إشتار صرخة أنثى تلد ، وولولت صاحبة الصوت الشجى قائلة : ضاعت الأيام الخوالى هباء لأنى أخطأت فى مجمع الأرباب ؛ ولكن كيف أخطئ فى مجمعهم وأعلن حرباً لفناء الناس وأنا التى وهبتهم الحياة ، فتكاثروا كأسماك البحر ...» وبكى الأنوناكيون معها .

واستمرت أعاصير الطوفان ستة أيام (وست) ليال واكتسحت الأرض كما تكتسحها عاصفة الجنوب وفى اليوم السابع هبطت العاصفة وهدأ البحر وتوقف الطوفان . وتطلعت إلى الجو ، فإذا سكون شامل والناس قد تحولوا إلى طين ، وأصبحت الأرضيات فى مستوى السقوف ، ففتحت منفذاً ، وسقط الضوء على وجهى ، فسجدت وبكيت ، وتطلعت أتلمس خطوط الساحل على مدى البحر هنا وهناك ، وبدت يابسة والتصقت السفينة (نسرات نابشتم أى منقذة الحيا) بجبل نيزير [1] فاحتجزها ، يوما ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة وستة أيام ولم يدعها تتحرك . وفى اليوم السابع أطلقت حمامة ، فذهبت وعادت وعز عليها أن تجد مكاناً ظاهراً تحط عليه ، وأرسلت سنومو فذهب وعاد حين لم يجد موضعاً ظاهراً يحط عليه ، فأرسلت غراباً فذهب ورأى الماء يتناقص فأكل وعب ودار ولم يعد . وحينذاك واجهت الجهات الأربع وضحيت وسكبت قربانا فوق قمة الجبل ، ونصبت ١٤ قدراً ، وعندما شم الأرباب الرائحة تجمعوا كالطيور حول الأضاحى . ثم وصلت العظيمة (إشتار ورفعت حليها العظيمة التى أهداها لها آنو ، وقالت : أيها الأرباب ، بحق هذا اللازورد حول عنقى ، سوف اذكر هذه الأيام ولن تغيب عنى ذكراها . ادعوا الأرباب إلى الأضاحى ولكن لا تدعوا إنليل الذى سبب الطوفان وأهلك شعبى . وبعد فترة وصل إنليل فلما رأى السفينة غضب وقال : هل نجت نفس وما كان لبشر أن يبقى ؟ فأجال نينورتا ، ومن غير إيا يفشى الخطط وهو العليم بكل شىء ؟

وهنا قال إيا لإنليل العظيم : يا حكيم الأرباب يا بطل ، كيف تتهور وتأمر بالطوفان ؟ إنما تقع الخطيئة على مرتكبها ، وعلى الباغى تدور الدوائر ، كمن رحيما وإلا قطع ... ، كن صبوراً وإلا أقصى ..

أما كان يخرج أسد فيقتل الناس عوضاً عن الفيضان؟

أما كان يخرج ذئب فيقتل الناس عوضاً عن الفيضان؟

أما كانت تحدث مجاعة فتقتل الناس عوضاً عن الفيضان؟

---

(١) تعددت المحاولات لتعرف هذا الجبل فى منطقة كردستان قرب السليمانية ، وجنوبى الزاب الأصغر ، وحيث يوجد بير أمر جدروون أو بير إه نيه جدروون ، أو جبل أرارات أو جرديان فى أرمينيا – ولكن بغير دليل قاطع .

لست أنا من يفشي سر الأرباب الكبار . لقد جعلت أتراخاسيس (حكيم الحكماء أى أوتانبشتيم) يرى رؤيا كشف فيها سر الأرباب ، فاقض فيه إذن !

(ولا يبعد أن الراوى أراد أن يعبر بمثل التساؤلات السابقة عما في ذهنه أو في عصره عن حكمة ربه في إرسال الطوفان الذى أوشك أن يهلك كل البشر) .

وعند ذلك خرج إنليل من السفينة وأمسك يدى وأخرجنى وأخرج زوجتى وجعلها تركع بجانبى ، ووقف بيننا ولمس جبهتينا ليباركنا ، وقال : لم يعد أوتانبشتيم بشراً ، سيكون هو وزوجته أشبه بنا معشر الأرباب ، وسيستقر بعيداً عند مصاب الأنهار . فرفعنى الأرباب إلى مصاب الأنهار . ولكن أنت (يا جلجميش) من سيجمع له الأرباب ليهبك الحياة ؟ قم لا تنم...» .

وانقضت ستة أيام وسبع ليال ، وجلجميش قابع وقد غلبه النعاس . فقال أوتانبتشيم لزوجته : «انظرى إلى هذا البطل الذى يبحث عن الحياة ، لقد استولى عليه النعاس ...» فقالت له زوجته : «المسه لعله يصحو ويعود من حيث أتى» . ولكنه قال لها : «إن الإنسان من طبعه الخداع ، ولسوف يحاول أن يخدعك (أى ينكر أنه نام) ، فقومى اخبزى فطائر وضعيها فوق يافوخه ، وعلمى على الجدار (عدد) الأيام التى نامها» . فخبزت سبع فطائر ووضعتها فوق رأسه (يوماً بعد يوم) ، وعلمت (عدد) الأيام على الجدار ، فجفت الفطيرة الأولى ، وفسدت الثانية ، وعفنت الثالثة ، وبيضت الرابعة ، واخضرت الخامسة ، وظلت السادسة كما هى ، وعندما وضعت له السابعة صحا وقال لجده : «الواقع أنه قلما ينتابنى النعاس ، وحالما تلمسنى أصحو» . فقال جده : «قم جلجميش وعد الفطائر ولاحظ ما صارت إليه ...» . وأسقط في يد جلجميش وعلم بعزم جده على ترحيله ، فقال له : «وما عساى أفعل وأين أذهب وقد خمدت أطرافى ، وفى حجرة نومى يستقر الموت وأينما ذهبت فهو الموت... ؟» .

واستدعى أوتانبشتيم نوتيه وأمره بأن يأخذ جلجميش إلى البحيرة ليزيل أوساخه ويحمل الماء عنه أدران جلده وحتى يظهر بهاء جسده ، وأوصاه بأن يزوده بثوب وعمامة جديدين ويساعده على العودة إلى بلده . فنفذ النوتى ما أمره به واستعد للإبحار بجلجميش ، ولكن زوجة أوتانبشتيم قالت له بحنان الجدة على حفيدها : «وما عساك معطيه وهو عائد إلى بلده ؟» فاستدعاه وقال له سوف أعهد إليك بسر ربانى ، نباتا سوف يوخزك شوكه مثل الورد (ينقب فى غور البحر) ، ما أن تحرزه حتى

تتجدد حياتك . فما سمع جلجميش قوله حتى ربط أحجارا إلى قدميه وغاص بها فى الماء حتى رأى النبات واقتلعه ووخزه شوكه ثم حل الأحجار فطفا ، وقال للنوتى «سوف آخذ هذا النبات إلى أوروك وأسميه رجوع الشيخ إلى صباه وسوف آكله بنفسى» .

وبعد ثلاثين مرحلة رأى جلجميش بئراً صافية فأراد أن يبترد فيها ، ونزل الماء، ولكن أفعى شمت النبات فاختطفته واختفت به . وربما أراد راوى القصة بذكر اختطاف الحية لسر الأبدية أن يفسر به قدرتها على تجديد جلدها وشبابها الظاهرى كلما أدركها الهرم ولحق البلى بجلدها . وقعد جلجميش يبكى ، ويندب حظه .. ثم رضخ للأمر الواقع واصطحب الملاح ودعاه إلى زيارة أوروك ، ووصفها له بأن مساحة مساكنها تبلغ ساراً ، وتمتد بساتينها ساراً ، وتمتد حدودها سارا .. وهكذا انتهت القصة إلى ما يفيد بأن سنة الموت جارية منذ الأزل وحتى الأبد على كل حى ، وأنه لم يغيرها للأبطال أن أتى جلجميش بالأعاجيب فى سبيل تغييرها ، وأن الخلود اقتصر على الآلهة ولم ينله من البشر غير أوتانبشتيم الذى يكاد يرادف الخضر عليه السلام فى الأقاصيص العربية الشعبية ، فضلا عن مرادفته للنبى نوح ، وإن كانت القصة العراقية القديمة قد أشركت معه زوجته أيضاً فى الخلود .

صعود إيتانا إلى السماء :

ورث البابليون عن السومريين من أساطير العبرة التى استخدمت حوار الحيوانات والطيور للتعبير عن فكرتها ، أسطورة ملك من ملوك كيش القدماء كان يدعى إيتانا ويلقب بالراعى [١] ، ثم صاغوها بأسلوبهم فخرجت تصور حكمة القدر فى المنع والعطاء ، وتصور عواقب البغى والصلاح ، وتصور سداد حكمة الصغير عن رأى الكبير أحياناً ، وتصور أمل البشرية القديم الجديد فى ارتقاء الجو إلى عالم السماء.

كان إيتانا من أوائل من نزلت الملكية عليهم من السماء بعد الطوفان ، وقد أوتى من كل شىء فيما خلا نعمة الولد ، وعلم من تنبؤات الكهان أنه لا علاج لعقمه إلا بنبات الإنجاب ، وأنه لا وجود لهذا النبات إلا فى السماء السابعة سماء آنو، ولما طال

---

(١) Th. Jacobsen, *The Sumerian Kings List,* 1939, 80 - 81; Frankfort, *Cylinder Seals*, 1939, 139 f.

تضرعه لربه شمش كي يهبه اسما (أي ولداً) يخلد ذكره ، اتخذ شمش أداة لتنفيذ قضاء قديم ، ودله على نسر عجوز مهيض الجناح مثلوم المخالب منبوذ في حفرة عميقة ، وأمره بأن يعينه حتى يسترد قواه عله يحمله معه إلى السماء حيث توجد طلبته .

وكانت قصة النسر أنه تآخى مع أفعوان وعقد معه أغلظ الإيمان على الإخلاص ، وأشهدا معا رب الشمس على أن من خان العهد سوف يضل طريقه وتسد الجبال سبيله . وعاشا متجاورين ، الأفعوان في ساق شجرة والنسر في قمتها ، وأنجب كل منهما ولداً . وكان للأفعوان نصيب مما يصيده النسر ، وللنسر نصيب مما يصيده الأفعوان . حتى كان يوم دب فيه دبيب الشر في قلب النسر العجوز فقال لولده إنه يشتهي أن يفترس ابن الثعبان ثم يهجر الأرض ويتخذ سكنه في السماء . وهنا ذكره ولده الصغير الأريب بقسمه ، وحذره من انتقام ربه ، ولكنه لم يرعو وأتم جريمته . وعندما عاد الثعبان وافتقد ولده اتجه بشكواه إلى شمش فاستجاب له ربه الذي عز عليه أن يحنث النسر بقسمه باسمه ، ووعده بأن ييسر له قتل ثور بري بين الجبال ، وأن عليه أن يبقر بطنه ويختبئ فيه . حتى إذا حط النسر عليه ليأكله تمكن منه وفعل ما يشتهيه . وحدث ما رسمه شمش ، واتخذ الثعبان مخبأه في جوف الثور ، وعندما حطت عقبان السماء على الفريسة أقبل النسر معها يسعى إلى نصيبه ، فنهاه ولده الحكيم وحذره أن تكون مكيدة ، ولكنه لم يرعو واكتفى بأن دار حول جثة الثور عدة مرات ؛ حتى استيقن من أنه لا وجود لعدوه الأفعوان بجواره ، ثم ولج بطن الثور يريد أطايبها ، وهنا تمكن الأفعوان منه ، فانهار الغادر الجبان باكياً مستعطفاً ، ولكن الأفعوان واجهه بأنه لا مفر من تنفيذ قضاء شمش فيه ، ونتف ريشه وكسر جناحيه وثلم مخالبه ورماه في حفرة ليلقى حتفه فيها . وحينذاك أعلن النسر توبته لربه ، ولكن لم تفارقه حيلته ، فنادى ربه قائلا : إلا ألقيتني ها هنا فمن ذا الذي يعتبر بانتقامك مني ؟ أنقذ حياتي ، ولأشيعن ذكرك وقدرتك للأبد» . فأجابه شمش بقوله «أنت شرير ، وقد أسأت إلي ، والآن دعوتني ، ولن ألبي دعوتك (في التو) ، ولكني سوف أرسل إليك فما بعد من يأخذ بيدك» .

سمع إيتانا هذه القصة من النسر بعد أن عثر عليه كسيراً في حفرته ، وقص عليه هو الآخر قصته ، ثم أطعمه ورعاه حتى استرد قوته واستوى جناحاه . وعندما اعتزم الصعود إلى السماء ، طلب النسر منه أن يلاصقه صدراً لصدر ، وأن يضم

ساعديه حول وسطه ويستمسك بريشه ، ثم أقلع به . ولما علا به فى أجواء السماء قال له : تطلع يا صديقى إلى الأرض كيف تحولت إلى مجرد ربوة ، وكيف يبدو البحر وكأنه مجرد جدول . وطفق كلما ارتقى به عالياً نبهه إلى ملاحظة الأرض والبحر وكيف يتناقصان تدريجياً فى مجال الرؤية ، حتى أصبح البحر العريض فى هيئة الدلو وتناقص بعد ذلك إلى هيئة سلة الخبز ثم اختفى عن النظر تماما هو والأرض (وتلك ملاحظات بارعة من القصاص بغير شك) . ولما أوشكا بلوغ المنتهى ، اختلفت الروايات فى مصيرهما ، فروت إحداها أنهما بلغا سماء آنو ووقفا عند مدخلها وأديا التحية ثم صمتت بينما روت أخرى أن النسر أجفل عندها وارتعد وهوى بحمله سريعاً مرحلة إثر مرحلة حتى سقطا على الأرض ، أرض آنو ، من حيث طمعا أن يدخلا فى سمائه [1] .

وأخذت بحوار الحيوانات والزواحف والطيور أقاصيص أخرى ، بعضها سومرى محور ، وبعضها بابلى مستحدث . وكانت منها أقصوصة ألاعيب الثعلب ذلك الذى تطلع إلى ربه إنليل ووعده بأنه سوف يضحى له بكل عائلته ويصلى له إن هو وهبه قروناً ، ثم مكر بذئب وكلب ، وتحاكموا جميعاً وتفاخروا أمام ربهم [2] (على عادة الأساطير السومرية القديمة فى التحاكم أمام الأرباب وأولى الرأى) . وقصة الثعلب والسيسى . ثم محاورة الأثلة والنخلة ذات المقدمة الميثولوجية السومرية ، وتفاخرهما فى قصر أول ملوك ما بعد الطوفان ، على أيهما أنفع وأبهى . ومحاورة الصفصافة وشجرة الغار [3] ، فى صورة ظهرت لها أشباهها فى كثير من الآداب القديمة ، مثل الأدب المصرى القديم . وتضمنت الآداب البابلية عدداً من الأمثال والعبارات المرحة جمعت بين الحكمة وبين الفكاهة .

وعلى أية حال فإنما يتضح من سياق الأساطير البابلية السابقة ، شيء قريب مما عقبنا به على الأساطير السومرية ، وهو أن براعة أهلها فى التخيل والرمز لم

(١) S. Langdon, *Babylonica,* XII (1931), 1 f.; E. Ebeling, *A. f. O.,* XIV (1944), 278 F.; E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics, *ANET,* 114 f.; Williams, Phoenix, X (1956), 70 f.

(٢) Lambert, *op. cit.,* 186 f. and References.

(٣) *Ibid.,* 151 f., 164 f., 175 f., 221 f.; R. D. Biggs, *ANET,* 592; Saggs, *The Greatness that was Babylon,* 444 f.



تستطع أن تجنبهم الاعتراف بنوازع السوء فى بعض أربابهم ، أو فى عناصر بيئتهم والأرباب المتحكمين فيها بمعنى أصح ، فأب يريد أن يدمر أولاده وإيا يقتل جده ، وتيامة تحارب أحفادها ، ثم تلقى حتفها على يد واحد منهم . وفى قصة جلجميش رأينا كيف حقدت إشتار على جلجميش وصديقه وكيف أجبرت أباها على أن يرسل فحلا على الأرض بعذاب شديد . وفى قصة الطوفان رأينا كيف أنكر بعض الأرباب أفعال بعض آخر ، وفى قصة أخرى يسرق رب الطير «زو» ألواح القدر من أربابها ، فيجمعون أمرهم على الانتقام منه وتثور ثائرتهم ضده (مثلما استولت إنانا السومرية على ألواح القدر بالخديعة من إنكى فى الزمن القديم) . وزادت أساطير الدين فصورت «سين» رب القمر البابلى يعشق إحدى بقراته فينقلب ثوراً وينكحها سراً . وصورت آنو إله السماء يطرد ابنته «لاماشتو» من السماء إلى الأرض لسوء سلوكها . وقد تكون فى هذه وتلك رموز دينية أو قومية لا ندركها ، ولكنها لا تخلو على أية حال ؛ مما يدل على أن الآداب فى كل عصر لا تبرأ من الغث إلى جانب الثمين، وعلى أن عوامل الصراع والعنف فى البيئة العراقية القديمة أثرت فى تصورات الساميين كما أثرت من قبل فى تصورات السومريين ، وإن أصبحت فى عهودهم المتحضرة أخف أثراً بكثير [١] .

ومع ضخامة الدور الذى قامت به بابل الأولى فى تاريخ العراق وحضارته إلا أن ما عثر عليه حتى الآن من آثارها لا زال أقل بكثير مما كان يتوقع منها ، بل وأقل نوعا مما جادت به أرض مدن تاريخية أخرى مثل لارسا وأور وسيبار ونيبور وكيش. وعاق اتساع البحث الأثرى فى أرض بابل ارتفاع مستوى المياه الجوفية فيها ، وكثافة رواسب الطمى بها وكثرة تغير مجرى نهر الفرات وقنواته حولها – ولم تكن المعرفة التاريخية بها فى بعض العصور الكلاسيكية أفضل من ذلك بكثير ، حتى لقد أغفل المؤرخ هيرودوت فى القرن الخامس ق. م اسم حمورابى أكبر ملوكها الأوائل ، إلى أن أحياه العثور على نصب تشريعاته وقراءة بنودها فى أوائل القرن الحالى .

* * *

(١) *See,* Langdon, *Semitic Mythology,* 97; Landsberger, *JNES,* XIV, 14; *Babylonian Inscriptions...,* IV, 126; Lambert, *op. cit.,* 5 f.



الفصل الثامن عشر

العصر الكاسى (أو الكاشى)

(١٥٨٠ - أواخر القرن ١٢ ق. م)

تمهيـد :

تعرض الشرق الأدنى منذ ما قبل عهد حمورابى فى أوائل الألف الثانى ق.م لأخطار جماعات هندو آرية تدفقت على أطرافه من أواسط آسيا، وأقدمت على مثل ما أقدمت عليه هجرات وغزوات الهكسوس إلى الشام ومصر القديمة، من حيث بدايتها على هيئة تسللات قبلية بسيطة تتابعت على أجيال طويلة، ثم أعقبتها هجرات عنيفة بقضها وقضيضها تفرقت فيما وجدت سبيلها ميسراً إليه من مناطق آسيا الصغرى وشمال بلاد النهرين وشمالها الغربى ومن الشام ثم شمال مصر . وقد تقدم كيف عرفها التاريخ بعد استقرارها فى كل بلد من هذه البلاد باسم خاص، فعرف أهلها فى آسيا الصغرى باسم الخاتيين (ثم باسم الحيثيين) ، وعرفهم فى المناطق الشمالية الغربية من نهر الفرات باسم الحوريين (أو الخوريين) ، وعرفهم فى مرتفعات بلاد النهرين باسم الكاسيين (أو الكاشيين) ، وكان الاسم الأخير فيما يحتمل اسما لجماعات أسيانية قديمة نزلوا عليها وأدمجوها تحت نفوذهم . وقل ما يعرف عن المقر الأول أو الموطن الأول للكاسيين الأصليين، وثمة آراء تردهم إلى المرتفعات الشرقية ، وتنسب اسمهم إلى اسم معبودهم كاشو ، وتربط بينهم وبين جماعات متأخرة عنهم فى الزمن ذكرها بطلميوس الجغرافى باسم Kossaeans وذكرها غيره باسم Kissians (١) .

وأحست دولة بابل بتسللات الكاسين والحوريين والخاتيين أيضاً ، ولكن أقربهم خطراً عليها كانوا الكاسيين الذين أدوا فى مرتفعات العراق دور الجوتيين القدماء . واستطاعت جيوش حمورابى وجيوش خلفه سمسو إيلونا أن ترد خطرهم ، فانكسرت

---

(١) *cf.* Sidney Smith, *Alalakh and Chronology,* 21 f.; R. Girshman, *Iran,* Pelican Series, 65 .

فيصل الوائلى : الكاشيون .



حدتهم إلى حين ، واكتفوا بالتسلل السلمى البطئ إلى مدن العراق المتحضرة وعملوا فيها أجراء مرتزقة ، بينما ظلت قبائلهم الكثيفة الطامعة فى الخيرات والسيطرة تتربص بدولة بابل الدوائر . وأحاطت الدوائر ببابل من عاملين: عامل داخلى وآخر خارجى . فقد انشق على الدولة فى الداخل أهل مناطقها الجنوبية ، وكانوا فيما يبدو خليطاً من ذرارى السومريين ومن قبائل أمورية مهاجرة ، وعمل هؤلاء شيئا فشيئا على استصلاح أراضى المناقع الرقيبة من مصاب النهرين ليكون لهم منها موطن جديد ، وكونوا لأنفسهم دولة ناشئة عرفها التاريخ باسم دولة البحر (أو أرض أوروكوج) نظراً لقربها من سواحل الخليج العربى ، وظهر خطرهم كدولة فيما مر بنا منذ أواخر عهد سمسو إيلونا البابلى ، وربما نجحوا فى ضم نيبور المدينة الدينية القديمة إلى حوزتهم ، فحاربت جيوش سمسو إيلونا جيوش ملكهم إيليما إيلوم مرتين بغير نتيجة حاسمة . واستمر خطر هذا الملك الأخير فى عهد إبيشوم البابلى (خليفة سمسو إيلونا) الذى حاول أن يستعين على هزيمة جيشه بإقامة سد فى مجرى نهر دجلة يؤدى إلى إفاضة مائه أو ماء فيضانه على دولته ، ولكنه فشل فى الانتصار عليه [١] . وهكذا استمرت عوامل الشقاق الداخلى تعمل عملها فى تفتيت جسم الدولة البابلية .

وبدأ الخطر الخارجى على دولة بابل من قبل الخاتيين (الحيثيين) الذين تكررت اعتداءاتهم على حدودها القريبة منهم ، ثم ازدادت غاراتهم شدة عليها بتقادم عهدها وتفاقم مشاكلها الداخلية حتى استطاعوا فى عهد ملكهم مورسيل (أو مرسيلى) الأول أن يحتلوا عاصمتها نفسا وغنموا كنوزها ودمروها تدميراً هائلا حوالى عام ١٥٩٥ ق. م ، وقضوا على استقلالها فى عهد ملكها الحادى عشر (سمسو ديتانا) [٢] ، ولا زالت بعض آثار تدميرهم ماثلة حتى الآن . وحاول الخاتيون أن يمتدوا فى جنوب بلاد النهرين ، ولكن وقفت فى سبيلهم دولة البحر الناشئة وكسرت شرتهم لا سيما بعد أن بعدت الشقة بينهم وبين وطنهم . ولهذا لم يجد التاريخ بأساً من أن يحتفظ لهذه الدولة (دولة البحر) بذكرى طيبة فأطلق على أسرتها الحاكمة اصطلاحاً أسرة بابل الثانية .

---

(١) *See, ANET*, 271; Ebeling, *AOT*, 337 .

(٢) *ANET*, 271 .

ولم تطل إقامة الخاتيين (الحيثيين) فى بابل ، ونزحوا عنها بعد أن أضعفوا شأنها فى عالم الحرب والسياسة . وربما تركوا فيها حامية قليلة ، فخلا المجال للخصمين الآخرين ، دولة البحر والكاسيين . وكانت دولة البحر أسبق إلى الاستفادة من الوضع القائم ، وشجعها أنها ساهمت فى تخفيف قبضة الخاتيين على بابل ... ولكن المهمة كانت فوق طاقتها ، ولم يطل أمد استقرارها هى الأخرى ، واضطرت إلى أن تواجه أطماع الكاسيين الذين مالت كفة النصر إلى جانبهم فى عهد زعيمهم جانداش الذى أعلن نفسه ملكاً على بابل والأركان (أو الأقاليم) الأربعة وسومر وأكد ، وبدأت منذ ذلك الحين أسرة مالكة جديدة عرفت اصطلاحاً باسم أسرة بابل الثالثة .

واستمرت دولة البحر قائمة لبعض الوقت فى بداية عصر الكاسيين ، ونسبت الحوليات إلى أحد ملوكها الأواخر «إيا جميل» مهاجمته لأرض عيلام ، ولكن الكاسيين استمروا يوجهون هجماتهم عليها حتى قضوا على استقلالها .

ساد الكاسيون جزءاً كبيراً من العراق ، ولكن أعدادهم كانت قليلة ، وحضارتهم القومية كانت خشنة ضئيلة ، فاكتفوا بأن جعلوا أنفسهم طبقة أرستقراطية حاكمة بين السكان الأصليين وانتفعوا بحضارة بلاد النهرين وقلدوا فنونها فى مبانيهم ومعابدهم وتماثيلهم ، واعتبروا اللغة البابلية السامية لغة الكتابة الراقية إلى جانب لغتهم الخاصة . وكان كل ما أضافوه إلى حضارة بلاد النهرين هو أنهم أدخلوا إليها سلالات جديدة من خيول سهوب آسيا طغت شيئا فشيئاً على سلالة السيسى القديمة وأنواع الحمير الجبلية ، وغيروا بعض وحدات الأوزان والمقاييس (شأنهم شأن الهكسوس فى مصر) . وكان من التطورات اليسيرة التى لحقت بصناعة الأختام الأسطوانية فى عصرهم كثرة صناعتها من اليشب وبداية صناعتها من العقيق اليمانى وكثرة تسجيل دعوات التعبد وتمجيد الأرباب عليها على حساب صور الأشخاص والأشياء . ثم دخلت صناعة الحديد إلى العراق فى النصف الأخير من عصرهم .

وأرخ الكتبة الكاسيون بسنوات حكم ملوكهم (١) ، بعد أن كان أهل العراق يؤرخون بالأحداث الرئيسية أكثر من غيرها . وشاد بعض ملوكهم مدناً جديدة نسبوا

(١) *cf.* Albert, T. Clay, *Documents from the temple archrives of Nippur dated in the reigns of Cassite Rulers,* 1926; A. Poebel, *Assyriological Studies,* 15 .



بعضها إلى أنفسهم، وأخصها مدينة دور كوريجالزو أى مدينته أو حصنه ، وهى عقر قوف الحالية التى تبعد عن بغداد بنحو عشرين ميلا (١) .

وجرى الملوك الكاسيون على السياسة القديمة فى منح الإقطاعيات العقارية للمقربين إليهم من العسكريين والمدنيين، ويبدو أنهم حرروا ملكيتها بحيث أصبحت أشبه بالأملاك الخاصة لأصحابها ، لا سيما بالنسبة لأفراد الطبقة الكاسية الحاكمة. ومن الوثائق الطريفة التى احتفظت بأسلوب منح الإقطاعيات والإعفاءات فى عصرهم هبة سجلها ملك كاسى يدعى «مليشيباك» باسم ابنته وابنه ، ومنح كلا منهما بمقتضاها إقطاعية واسعة فى أرض البحر بعد أن استصلحها أعوانه وأعدوها للزراعة وأنشأوا فيها قرى جديدة . وشفع الملك تفاصيل هذ الهبة بإعفائها من التكاليف التى تفرضها دولته على مناطقها الزراعية ، وهى تكاليف عرفتها بلاد النهرين قبل عهده بعصور طويلة ، ويفهم من قرارته بشأنها أن الدولة كانت تحصل على جزء من باكورة المحاصيل الزراعية ، وتستخدم مواشى الإقطاعيات لمصلحة أراضيها الزراعية الخاصة حين تشاء ، وتسخر العمال الزراعيين فى خدمة المرافق الملكية والمرافق العامة مثل شق الترع وتطهيرها وتشييد جسورها وقطع الحشائش المائية والأعشاب البرية ، وهى إجراءات اعتادت عليها أغلب الحكومات القديمة .

واتسعت الصبغة الإقطاعية فى الدولة إلى حد يمكن اعتبارها معه ممثلة للعصور الوسطى البابلية ، وكان من مظاهرها بين الطبقات العادية توارث الحرف بين أسر وطوائف معينة ، يذكر الشخص فيها فى نصوصه باسمه واسم أبيه ثم ينسب إلى حرفته ؛ مما سمح بتتبع أصول بعض الأسر الحرفية فيها لبضعة أجيال ، وكانت منها أسر للكتبة ارتبطت بالمعابد أكثر مما ارتبطت بغيرها وكان لها الفضل فى نسخ كثير من الألواح الدينية والأدبية القديمة (٢) .

وعبد الكاسيون أرباب بلاد النهرين إلى جانب أربابهم القوميين ، بأسمائهم القديمة أحياناً وبمسميات آرية أحياناً أخرى (٣) . واعتز أحدهم (أجوم) بأنه أرجع

---

(١) *Iraq*, Supplement, 1944, 1945, *Iraq*, VIII (1946), 73 F.

(٢) Lambert, *op cit.*, 13 .

(٣) Sabation Moscati, *The Face of the Ancient Orient*, 1961, 154 .

تمثال مردوك وتمثال زوجته زربانيتوم من دولة هانا بعد أن اغتصبتهما خلال فترة الفوضى، التى عمت بلاد النهرين فى أعقاب الغزو الخاتى ، وأعادهما إلى إساجيل بابل فى احتفال مهيب (١) .

واتبع الملوك الكاسيون سياسة ملوك العالم القديم فى اكتساب ولاء كبار رجال الدين وتأكيد القربى من الأرباب عن طريق منح الهبات والإقطاعيات للمعابد وإعفائها من الضرائب ، وكانوا يمنحون بعض هذه الهبات من خزائنهم ويسجل كتبتهم تفاصيلها على نصب حجرية صغيرة تسمى كودورو ، إلى جانب تسجيلها على ألواح الطمى العادية . واستغل الفنانون سوطح هذه النصب لتصوير هيئات ملوكهم أصحاب الفضل فى منح الإقطاعيات ، تصويراً مختصراً حيناً ، وتصويراً يفسر ملامحهم وملابسهم وأغطية رؤوسهم حيناً آخر (٢) . كما استغلوها لتصوير رموز أربابهم الذين أشهدوا على منحها ووضعوها تحت رعايتهم . ومن هذه الرموز رموز حيوانية تصرف الفنانون فى تشكيل صورها ، ورموز أخرى معمارية صورت واجهات الهياكل والمقاصير البدائية ؛ مما جعل منها مصدراً من مصادر المعرفة بعمارة المعابد الأولى . وزاد بعض الفنانين فضمنوا نقوش هذه النصب مناظر أسطورية كانوا يستهدفونها لذاتها ومضمونها حيناً ، ويستغلونها لغرض الزخرف وملء الفراغ وإظهار البراعة فى التخيل والتصور حيناً آخر .

وتابع الكاسيون عادة الغزاة محبى الاستقرار فى اتخاذ رعاية المعابد ستارا ينسى الناس أصلهم الدخيل القديم . فأصلحوا معابد بابلية كثيرة وأعادوا بناءها ، وبقيت من آثار معابدهم الجديدة أطلال زقورة ضخمة بجانب قصر الحكم فى عاصمتهم دور كورجالزو (عقرقوف قرب بغداد) ، أدت إليها ثلاثة طرق صاعدة ذات درجات ، على مثال زقررة أور(٣) . وأطلال معبد فى الوركاء للمعبودة إنانا يؤرخ عهده بأواسط القرن الخامس عشر ق. م (٤) .

(١) ديلابورت : بلاد ما بين النهرين – ص ٥٢ .

(٢) Frankfor, *The Art* and *Architecture*... pl. 71

(٣) انظر سومر ١٩٦١ *Ibid., 63;* Iraq, 1944, 1945, 1946.

(٤) Frankfort, *op. cit.*, Fig. 23 .



وانضافت إلى عمارة المعابد فى عصرهم تطورات وتجديدات تناولت محاور مقاصيرها الرئيسية وتشكيل الواجهات الخارجية . فامتازت عمارة معبد الوركاء بتدعيم أركانه الخارجية بأكتاف ذات مستويين لم تمارسها بلاد النهرين إلا قبيل عصورها التاريخية ثم هجرتها . وإمتازت بعض الدخلات والمشكاوات الخارجية للمعبد نفسه بتحوير زخارفها تحويراً محدثاً عن طريق استغلال بطونها فى بناء تماثيل أرباب وربات من قوالب اللبن بحيث تبرز من جسم البناء نفسه ، ومع تشكيل رأس كل معبود وجذعه الأعلى تشكيلا كاملا والاكتفاء بتشكيل الخطوط العامة لبقية جسمه على هيئة الثوب الطويل المحبوك ، وتشكيل لبنات هذا الثوب بما يرمز إلى مدرجات الجبال بالنسبة للأرباب وتموجات الماء بالنسبة للربات . واستغل بناء المعبد المسطحات الفاصلة بين كل دخلة أو مشكاة وأخرى لتشكيل زخرف مستحدث على هيئة خطى زجزاج رأسيين متقابلين يعبران عن سلسولى ماء ويصبان فوق جبلين (؟) ، وأحاط المشكاوات بأطر علوية وسفلية تعاقبت فيها حليات على هيئة الأقراص والدوائر . وكان ذلك كله بدعاً فى عمارة بلاد النهرين (١) . وأضافت العمائر المدنية الكاسية تجديداً آخر فى بناء صفات ذات أعمدة حول أفنيتها الكبيرة ، وظهر لها ما يماثلها فى عمائر الحيثيين فى بلاد الأناضول . ودعت هذه الظواهر والتجديدات فى العمائر إلى احتمال دخول الكاسيين بفكرتها من بيئاتهم الأصلية القديمة (٢) .

ولم تخل الفنون التشكيلية الكاسية ، من نماذج طيبة وإن كانت قليلة للغاية ، ومن هذه النماذج رأس صغيرة للبؤة من الطين المحروق (٣) يعتبر من روائع الفن القديم فى تمثيل شرطة العين وتجويفها وتكوين الفم والأنف والتعبير عن شعيرات الوجه ، بخطوط بسيطة متمكنة ، ورأس صغيرة من الطين المحروق الملون أيضاً(٤) ، لرجل مثلته بأنف أقنى بعض الشيء ، وأجادت التعبير عن بروز شفته العليا عن السفلى ، وعن تصفيف شعره .

* * *

(١) *Erster vorl. Bericht... Uruk - Warka,* 1929, 30 f.; Frankfort, *op. cit.,* pl. 70 A.

(٢) *Ibid.,* 64

(٣) *Ibid.,* pl. 70 C. – ارتفاعها نحو ٥ سم .

(٤) *Ibid.,* pl. 70 – ارتفاعها نحو ٧ سم .

سارت العلاقات الخارجية السلمية للدولة الكاسية فى نطاق عادى محدود . فسارات قوافها التجارية فى مساراتها التقليدية مع بلاد الشام ومصر ، وكانت النصوص المصرية قد ذكرت اسم بابل مرتين على الأقل خلال عصور الدولة الحديث حتى عهد تحوتمس الثالث [١] ، ثم أغفلته ، ربما بعد انتقال أزمة الحكم إلى الكاسيين، واستخدمت بدلاً منه سنجار لمدلول يتسع عن المدلول الإقليمى لكلمة بابل (كما ذكرت اسم جبل سنجار ، وهو جبل يقع غربى الموصل)[٢] . واكتست العلاقات المصرية البابلية بطابع الصداقة الشخصية خلال القرن الرابع عشر ق . م، وتمخضت هذه الصداقة عن مصاهرة البيتين الحاكمين أكثر من مرة، ومما يذكر فى هذا زواج أمنحوتب الثالث بابنه الملك البابلى كاردنياوش ، وطمعه فيما بعد فى الزواج من بنت أخيها كادشمان خارجى (و كادشمان إنليل ، مع ضنه فى الوقت نفسه بتزويجه إحدى بناته أو إحدى أميرات بيته الفرعونى المالك . وعندما اضطرب حبل الأمن بين الأموريين والكنعانيين فى الشام خلال عهد الفرعون المصرى آخناتون ، وتأثرت المتاجر البابلية بفوضى الطريق فى أرض كنعان ، ولم يجد الملك الكاسى البابلى غير الفرعون المصرى يستصرخه لتأمين تجارته ويقول له «كنعان أرضك ... وأمراؤها مواليك» وأرسل له مع رسالته هدية ثلاث مينات من اللازورد وخمسة جياد وخمس عربات [٣] .

وظل الكاسيون يؤلفون الطبقة الحاكمة فى قلب العراق ما يقرب من خمسة قرون (من أوائل القرن ١٦ إلى أواخر القرن ١٢ ق . م) ، ولم يجد المؤرخون بأساً فى أن يعتبروا أسرتهم ، فيما أسلفنا ، الأسرة البابلية الثالثة ، على الرغم من أنهم كانوا أغراباً فى أصلهم عن بابل . ولكن لم يخلص لهم أمر بلاد النهرين تماماً خلال

---

(١) وذكره أحد النصوص المصرية باسم ببير (ولم تكن الحروف الهجائية المصرية تتضمن حرف اللام، وإنما تعبر عنه بالنون والراء أو بإحديهما) .

See, *Urk., IV, 668, 12* .

(٢) Gauthier , *Dict Geog.*, II, 20 f.; Mcyer, *Festschrift fur Ebers*, 63 f.; Muller, *Egyptian Researches*, II, 92 .

وتميز اسم سنجار هنا عن اسم يماثله، ورد فى نصوص تحوتمس الثالث؛ كذلك للدلالة عن منطقة فى شمال قادش قرب نهر العاصى .

(٣) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٥٥ .

قرونهم الخمسة ، ففضلا عن دولة البحر التى نازعتهم السيادة على المناطق الجنوبية فى بداية عصرهم حتى تغلبوا عليها ، تحكم الآشوريون فى المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من نهر دجلة ، وتحكم الحوريون فى المناطق الغربية والشمالية الغربية من نهر الفرات ، بغير حدود صريحة فاصلة بين امتداد هؤلاء أو هؤلاء ، ثم ظهر بعدهم الميتانيون .

مع آشـــــور :

يرد تاريخ آشور مفصلا فى فصل تال من هذا الكتاب ، ويكفى أن نجتزئ الآن منه ما يعاصر الكاسيين، ولم تكن آشور ذات شأن كبير فى بداية الأمر ، بحيث اقتطع الحوريون جزءاً من أرضها ، وعاملها الكاسيون على حذر . وحدث أن تصاهر البيتان الحاكمان فى آشور وبابل لبعض الوقت ، فتزوج الملك البابلى (كاروندداش) من ابنة الملك الآشوري (آشور أو باللبط) ، وجعل ولدها ولى عهده ، فعز على الأمراء الكاسيين أن يسرى الدم الآشورى فى عروق وريث عرشهم ويصبح ذلك سبباً لتدخل الآشوريين فى شئون دولتهم ، فاغتالوا ولى العهد وولوا غيره مكانه . ولا تعنينا هذه المصاهرة وذاك الاغتيال من حيث هما حادثان فرديان ، ولكن تعنينا دلالتهما على عدم توافر الثقة بين الدولتين . وحدث أن خرج الآشوريون عن نطاقهم الإقليمى، وأوفدوا سفارة إلى الفرعون المصرى آخناتون ، فاحتج الملك البابلى على هذه الجرأة وكتب إلى الفرعون المصرى بأنه لم يكن يحق للآشوريين أن يتصلوا به اتصالا مباشراً، وأنه لا يزال يعتبرهم من أتباعه . ويضيف ديلابورت أن الملك الآشورى كان قد غار من إهداء الفرعون إلى توسراتا الميتانى عشرين وزنة من الذهب ، وتساءل عن سبب عدم حظوته بمثل هذه المعاملة .

مع الحوريين (أو الخوريين) :

يعتبر الحوريون أو الخوريون فرعاً من الهجرات التى ارتبطت مواطنهم الأولى بالمرتفعات ، وإن صعب تحديد أصولهم الجنسية واللغوية تحديداً مرضيا حتى الآن . وغالباً ما أرجع تعريفهم الشائع إلى تعبيرات خور وخور - ردوا ، وخور - روم ، إلخ. ومن أهم المناطق التى نسب الباحثون المحدثون نشأتهم إليها أوركيش (أو أوركيس) قرب أراضى الجوتيين القدماء ، مع افتراض صلة ما بين لغتهم وبين لغة المناطق المحيطة ببحيرة فانو التى شغلت جزءا منها فيما بعد دولة نايبرى وأورارتو ؛

حيث تشابه اثنان على الأقل من معبوداتها مع معبودين حوريين وهما تيشوب وشيميجى . وتعددت الفروض بالتالى لإرجاع ظهور الحوريين فى العراق وما حوله إلى ما يعاصر أواخر العصر السومرى القديم (فى القرن ٢٣ ق . م) ، أو إلى عصر الإحياء السومرى (فى القرون ٢١ - ١٩ ق . م) ، ولكن دون ترجيح لأيهما [١] . ثم تأكد كيانهم الاجتماعى فيما عاصر دولة بابل الأولى ، ودولة مارى ، ودولة آشور فى عصرها القديم . وظهرت بعض مسمياتهم ومعتقداتهم فعلا فى نصوص مارى ومصادر خاتى (أو الحيثيين) ؛ مما يحتمل معه إرجاع وضوح هجراتهم إلى المشرق إلى القرن ١٨ ق . م أو ما هو قريب منه [٢] . وحينما تخلخل شأن هذه الدول نسبياً واحدة بعد أخرى انفسح المجال أمام الحوريين للانتشارفى بلاد النهرين حتى أرانجا (كركوك) ، ونوزى (يورجان تبة) جنوب شرق نينوى ، كما امتدوا غربا فى المناطق السورية حيث شاركوا الجماعات السامية فى ألالاخ ويمخد (حلب وتل العطشانة) ووضحت الصبغة الحورية هناك خلال القرن ١٧ ق . م [٣] . ولو أن هذا الامتداد كان فيما يغلب على الظن امتدادا تجاريا وتسربا سلميا يرتبط بالنفوذ الاقتصادى والحضارى أكثر مما يرتبط بالنفوذ الحربى أو السياسى . وقد اختلطت عقائدهم بعقائد سومر وأكد من ناحية ، وعقائد الشام من ناحية أخرى ، وكتبوا لغتهم الحورية بالخط المسمارى العراقى القديم ولم يكونوا بغير أثر فى الحياة العامة للجانبين .

وكان من أهم المعبودات الحورية تيشوب رب الجو والرعد والعواصف الممطر ، وزوجته خبا أو خبات ، وشيميجى رب الشمس ، وأوشوم رب القمر ، وشاوش (أو شاوشكا) رب الزهرة .

---

(١) *cf.* E. A. Speiser, *Introduction to Hurrian,* New Haven, 1940, 1941; I. J. Gelb, *Hurrians and Subarians,* Chicago, 1944; A. Goetze, *JNES,* II, 1946, 168; S. Smith, *Antiquity,* XVI, No. 64, 1942, 321; A. Parrot, *RA,* 42, 1948, 170.

(٢) *See,* S. Moscatti, *op cit.,* 189; Thureau - Dangin *RA,* 1939, 1 f.; A. Pohl, Khurri-ti, *Encyclopaedia Cattolica,* VI, Citta del Vaticano, 1951, coll. 15511 - 12 .

(١) D. J. Guterbock, in *Cahiers d'Histoire Mondiale,* II, 2, 1954; A. H. Gardiner, *AEO,* 1947, I, 185 .



وعرف المصريون القدماء أقرب مناطق الحوريين إليهم بمترادفات نهرى، ونهرن ، ونهرينا [(١)] ، وعرف البابليون المنطقة نفسها باسم «ماتونخريما» (روماتوناريما) . وليس ما يعرف إن كان الاسم المصرى «نهرينا» ومرادفه البابلى «نخريما» ، يدلان على معنى «أرض النهر» ، أى على (بعض) أرض الفرات ، أم يدلان على صيغة التثنية لنهرين معينين، ويعنيان بذلك ما يمتد بين نهر الفرات وبين فرعه نهير الخابور . وعلى أية حال فقد عنت النصوص المصرية بكلمة نهرن ومترادفاتها أراضى تمتد حول ضفتى الفرات .

مع الميتان :

وفدت على الحوريين وافدة جديدة من بنى عمومتهم الهند وآريين من أواسط آسيا خلال القرن السادس عشر ق. م . وعرف هؤلاء الوافدون باسم مثن ومايتنى أو الميتان والميتانيين ، وذكرت النصوص المصرية بالدهم باسم «تاومثن» واسم «خاسوت متن» ، أى أراضى مثن ، وبرارى (أو أقطار) متن . وقد أخذوا بالنظام الفيدرالى الذى اعتاده أغلب الهندوآريين ذوى الأصول القبلية أو الرعوية ، وهو نظام كان يجعل السيادة فى أيدى طبقة أرستقراطية من النبلاء الفرسان المحاربين يتميزون باستخدام الخيول والعربات الحربية ويسمون سماريانو» ، ويعتبرون أنفسهم أقراناً بعضهم لبعض ويعتبرون ملكهم رأس أقرانه .

واشتهر من أسماء ملوكهم : شوتارنا (١ – ٣) ، وشوشتانار ، وأرتاتاما ، وتوشراتا ، .... إلخ . وذكرت النصوص المصرية أقدم ملوكهم المعروفين باسم شوشاتار .

كما ذكرت من أسماء الأميرات والأمراء ذوى الأصول الحورية والهند وآرية الخليطة تادوخبا ، وجيلوخبا ، وعبدوخبا ، إلخ .

واتخذ الميتانيون عاصمتهم فى مدينة تسمى واسو كاتى (أو اشو كانى) ، وهى مدينة صعب تحديد مكان أطلالها ، وإن ذهب الظن إلى تقريبها إلى تل الفخارية على نهير الخابور قرب رأس العين شرقى تل حلف وحران . وعملوا على أن يسودوا

(١) *Urk. IV*, 697, 3 - 4, *Wb.* II, 286, 11; *ZAeS, LXIX*, 24 f.; Davies, *Tombs of Two Officials*, pl. 28; *Urk. IV.*, 891, 8; 710, 4, 15; 711, 5; Papyrus Anastasi, IV, 15m 4.; Gardiner, *op. cit.*, I, 171 f.

الحوريين ، وربما نجحوا فى ذلك منذ أوائل القرن ١٥ ق. م وجعلوا أغلبهم من رعاياهم ، كما دفعوا فريقاً منهم إلى أطراف الشام ؛ حيث تضمنت الرسائل المسمارية لأمراء جنوب الشام المرسلة إلى البلاط الفرعونى فيما بعد أسماء قريبة من الأسماء الحورية ، وأخرى تجمع بين الحورية والسامية .

واحتفظ الحوريون والميتانيون بخاصة من المعبودات الهندوآرية بالمعبودات إندرا ، وفاروتا ، وميثرا ، وسوما ، وقايا ، وتيشوب ، وهبة ربة الشمس أيضاً ، ولكنهم كالعادة جمعوا إليهم بعض معبودات بلاد النهرين ، لا سيما إشتار التى صورتها الأساطير تناصر الخير وتقف فى وجه مارد شرير يدعى خيدامو ، كما جمعوا بين الخط المسمارى والأسلوب الحورى والمفردات الميتانية .

واتسع نفوذ الميتان فى مثل ما انتشر الحوريون فيه من أواسط العراق والشام، من أرانجا شرقاً إلى ألالاخ غرباً ، وضغطوا لفترة ما على نشاط جيرانهم الآشوريين والخاتيين . وربما جرى الاصطلاح على تسمية أراضيهم والمناطق الخاضعة لها باسم خانى جالبات وتسمية المملكة بعد اتحادها بمملكة ميتانى ، فضلا عن وجود جماعات من فرسانها الماريانو فى قوات دويلات أخرى ، وهو ما أغرى دولة الميتان إلى التطلع على أن يكون ضلعًا فى زعامة الشرق ، فنازعت مصر فى زعامتها التى حققتها لنفسها منذ عهد تحوتمس الأول فى أوائل دولتها الحديثة، حين امتد نفوذها فيما بين الشلال الرابع جنوباً وضفاف الفرات شمالا بشرق منذ أواخر القرن ١٦ ق.م. ومر بنا فى ص ٢٢٩ وما بعدها كيف تجرأ الميتان على تنفيذ أطماعهم ، فألوا بعض ولاة الشام على المصريين منذ أواخر عهد الملكة المصرية حاتشبسوت وخلال أوائل عهد الفرعون تحوتمس الثالث ، وكيف تصدت لهم جيوش هذا الفرعون فى عدة مواقع وأفسدت مشاريعهم ومشاريع حلفائهم ، وكيف استمرت العلاقات بين الدولتين، مصر والميتان، علاقات عدائية حتى نهاية عهد الفرعون أمنحوتب الثانى ، ثم مالت كل منهما إلى سياسة التقارب . وليس من المستبعد أن يكون التقارب قد بدأ من ناحية الميتان بعد أن أحسوا باستيقاظ الآشوريين فى شرقهم واستعداد الخاتيين (الحيثيين) فى شمالهم الغربى ، وتمخض التقارب بين الدولتين عن مصاهرة بيتيهما الحاكمين منذ عهد الفرعون المصرى تحوتمس الرابع ، ثم فى عهد ولده أمنحوتب الثالث ، وعهد حفيده آخناتون .

واستقرت حينذاك صداقة الدولتين ، وراسل حكامهما بعضهم بعضاً بلفظ الأخوة ، واعتاد كل منهم أن يسأل الآخر فى رسائله عن أهله وداره وخيوله وأتباعه . وتسامح المصريون مع ديانة أصدقائهم ، ولم ير أمنحوتب الثالث بأساً فى أن يتقبل فى قصره تمثالين صغيرين للمعبودين العراقيين شمش وإشتار، أرسلهما الملك الميتانى مع ابنته عروس أمنحوتب لتستعين ببركتهما على إقرار حبها فى قلبه ، فضلا عن ٣١٧ من النساء والخدم . ولم يجد الفرعون بأساً كذلك فى أن يتقبل تمثالا آخر لإشتار، أتاه هدية من صديقه الملك الميتانى ليتبرك به فى مرضه . ويبدو أنه كانت لبلاد النهرين فى جملتها شهرة خاصة فى الطب ولاسحر تعادل شهرة مصر فيهما ؛ إذ تكررت الظاهرة نفسها مع الحيثيين فى عصر لاحق لهذا العصر ، وطلب الملك الخاتى (الحيثى) موتاللو من معاصره البابلى أن يوفد إليه طبيباً وساحراً ، وإن كان قد طلب الطلب نفسه من مصر أيضاً فأرسلت إليه تمثالا لمعبودها رب الشفاء خنسو ومعه كاهن ملازم له . وليس من المستبعد حين يتم الكشف عن عاصمة الميتان القديمة أن يتضح مدى تأثر إنتاجهم الفنى بالفن المصرى القديم .

وتتميز من آثارهم المعروفة حتى الآن أوان فخارية لطيفة ذات صبغة صفراء وخطوط سوداء غليظة ورسوم تخطيطية بيضاء . وقد عثر على نماذج منها فى مناطق عدة ، مثل : نوزى وآشور ونينوى وتل حلق وتل العطشانة (١) .

وعلى أية حال ، فقد ظلت دول الهلال الخصيب تتطلع إلى مصر خلال هذه العهود على أنها أكبر دول الشرق كله ، بحكم ضخامة إمكانياتها المادية والبشرية والفكرية ، وأسلفنا فى بحثنا للتاريخ المصرى (كما أسلفنا ذلك من قبل) كيف ظل ملوك هذا الشرق وأمراؤه يرجون فرعون مصر أن يفيض عليهم من ذهبها نظير هداياهم من الأرقاء والجوارى والمركبات والجياد والأحجار الكريمة ، تساوى فى ذلك ملوك الميتان وملوك بابل وملوك آشور ، فضلاً عن أمراء الشام وحكام قبرص . وكيف

---

(١) I. J. Gelb, *op.; cit.*, Gelb - and Others, *Nuze Personal Names*, 1943; R. T. O'Callaghan, New Light on the Maryannu as Chariot - Warrior, *JKF*, I, 3, 1950, 309 f.; P. E. Dumont, *JAO* S, 67 (1947), 251 - 252; P. Thieme, *ibid.*, 80 (1960), 306 - 315 .

محمد عبد اللطيف : الحوريون وصلات مصر بم – ١٩٨٦ .

أنه على الرغم من ترحيب ملوك الشرق وأمرائه بمصاهرة أمنحوتب الثالث المصرى، ظل ضنيناً عليهم بأميرات بيته ، بحجة أنه لم يسبق أن تزوجت أميرة مصرية بشخص أجنبى .

لم يطل أمد السلام الذى حققه الميتان لأنفسهم ، فبدأ الخاتيون ينافسونهم فى المنطقة الشامية العراقية التى تلى الأناضول وتمتد فيما بين الفرات وبين ساحل البحر المتوسط ، وكان لهم ضلع ذات مرة فى إزاحة أحد الملوك الميتان عن عرشه وتنصيب أحد عملائه وصياً على وريث العرش الصغير . وظلت الحال مائعة بين الدولتين حتى ولى عرش الخاتيين ملكهم الطموح سوبيلوليوما فهاجم بجيوشه أرض الميتان ،ولكن ملكهم توشراتا استعان بصهر الفرعون المصرى أمنحوتب الثالث فأعانه بجيوش ردت الخاتيين على أدبارهم ، واحتجز الملك الميتانى عربة وخيولا من الغنائم لصهره أمنحوتب المصري ، وبعض الحلي لأخته (زوجة أمنحوتب) [1] . ثم شغلت مصر مشاكلها الخاصة عن حليفتها ، وعمل الملك الخاتى من ناحيته على تأليب بعض الأمراء الميتان على ملكهم وعلى استمالة ود الآشوريين فى نضاله معهم ، ثم ضرب ضربته فهاجم بجيوشه عاصمة الميتان وكاد أن يقضى على دولتهم ، لولا أن شغلته عنهم ثورة فى أملاك دولته بشمال الشام ، وعندما انسحب بجيوشه من العراق، استغل أصدقاؤه الآشوريون تخلخل الموقف لصالحهم ، فاتبعو طريقته واستمالوا بعض الأمراء الميتان إلى صفوفهم ، وهاجموا العاصمة الميتانية واستردوا منها كنوزاً كان الميتان قد اغتصبوها من أراضيهم ، ولكن آشور كانت على الرغم من ذلك لا تزال فى بداية نهضتها ولهذا لم تستمر فى الشوط إلى نهايته . وعادت أزمة الموقف السياسى إلى أيدى الخاتيين ، وساعدهم أن اغتيل خصمهم الميتانى العنيد توشراتا، فأجبروا ولده ماتى وازا أو كورتى وازا على عقد معاهدة معهم اعترف فيها بخضوعه لهم ، على الرغم من أنه كان زوجاً لابنة الملك الخاتى . وما لبثت دولة الميتان حتى توارت من مسرح الحرب والسياسة ، حوالى عام ١٣٦٥ ق. م [2] ، وتشتت أهلها

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(٢) L. Delaporte, *Les Hittites*, 93 f.; A. Goetze, Der Hethiterreich, in *Der Alte Orient*, 1928, 26 f.; *ANET*, 205 - 206, 218 .

الآريون فى نواحى الأناضول وسواحل الشام ، ولم يعودوا يعرفون باسم الميتان ، وإنما بالاسم القديم اسم «الحوريين» أو «الخوريين» ،و كان لهم أثر لاينكر فى نقل ثقافة بلاد النهرين وأساطيرها إلى المناطق ، ا لتى نزلوها سواء حين قوتهم أم حين تفرقهم .

الأفول حتى نهاية الأسرة البابلية السابعة :

لم تستفد دولة بابل الكاسية كثيراً بزوال الضغط الميتانى عن حدودها ، بل على العكس من ذلك وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام قوتين ناهضتين طموحتين ، وهما دولة آشور ودولة الخاتيين ، فضلا عن دولة إلام (علام) منافستها العتيدة .

واستعرضت بابل عضلاتها مع إلام ، وتحدت كل منهما الأخرى ، وروى أن الملك العيلامى تحدى معاصره البابلى كويجالزو تحدياً شخصياً ، وقال له «أقبل ، ندخل المعركة ... أنت وأنا» ، وخالف الحظ البابلى فتقدم بجيوشه حتى العاصمة العيلامية سوسه ، وشجعه هذا النصر على أن يجرب حظه مع آشور ، ولكنه فشل معها . وظلت كفة النصر متأرجحة بين بابل وبين جارتيها إلام وآشور فطوراً يسود الهدوء ، وطوراً يغلب البابليون وطوراً يغلبون ، على حين أدى انشغال الخاتيين بمنافسة المصريين تارة ومنافسة الآشوريين تارة أخرى ، إلى بقاء علاقات الود الظاهرى قائمة بينهم وبين البابليين ، بحيث طلب الملك الخاتى (الحيثى) خاتوسيلى ذات مرة من حليفه البابلى (كادشمان إنليل الثالث؟) أن يتعاون معه فى مهاجمة عدو مشترك ، قد يكون من الآشوريين أو من الهجرات الأرامية التى بدأت تهدد سبل التجارة بين الدولتين .

وعلى أية حال ، فسوف نوجز هذه الوجوه المختلفة للعلاقات بين بابل وبين جيرانها ، فى أن بابل فقدت روحها الجريئة الخلاقة فى أغلب عهود الكاسيين ، وسارت أمورها رتيبة مقلدة فى أغلب أحوالها ، فيما خلال هزات قليلة متباعدة ، كان أعنفها بالنسبة لبابل مهاجمة جيوش الملك الآشورى توكلتى نينورتا الأول لها وتدميرها إياها وسلبها كنوزها . وبرر الكتبة الآشوريون هذه القسوة بادعائهم أن أرباب المدن البابلية كانوا قد هجروها استياء من مسكل كاشتيلياش ملك بابل ولعنوها . ثم رحبوا بالفاتح الآشورى الذى انتقم لهم بتأديب مدنهم [1] ، (وهذا هو منطق

(١) *See, A f. O, XVIII,* 33 F.; 42; *MAOG,* XII, 2, 7, 23 f.

المنتصر فى كل زمان ، مع تغيير ألفاظه بما يتناسب مع عصره) . ولكن ما لبث البابليون حتى أخذوا بثأرهم من آشور وحاصروا عاصمتها عقب اغتيال ملكها الفاتح العنيف توكلتى نينورتا فى أواخر القرن ١٣ ق. م .

وكان احتدام التنافس بين بابل وبين آشور فرصة الإلاميين ، فشددوا الضغط على جنوب العراق وهاجموا بابل نفسها ، وطالت اشتباكاتهم معها حتى دمروها أكثر من تدمير الآشوريين لها ، وقضوا على الحكم الكاسى فيها فى أواخر القرن الثانى عشر ق. م وغنموا ما بقى من كنوزها ونقلوا أغلب آثارها الفنية إلى عاصمتهم سوسه، سواء حباً فى الغنم والنهب ، أو لحرمانها من كل ما يذكرها بأيام مجدها ، وكان من هذاه الآثار ما يتعلق بملوك قدماء أحرزوا النصر عليها ، مثل : نصب سرجون الأكدى ، ونصب نرام سين ، وعمود (أو مسلة) مانيشتوسو ، ونصب تشريعات حمورابى الذى ظل عاصمتهم حتى عثر عليه فى أوائل القرن الحالى ، ونصب أخرى كاسية وغير كاسية كثيرة ، يغلب على الظن أنهم أجبروا الأسرى البابليين على نقلها بأنفسهم رغم ضخامتها وشدة ثقلها .

غير أن بابل ذات الماضى المجيد لم تكن لتموت بسهولة ، وإن ترنحت طويلا تحت ضربات خصومها فتحاملت حتى نهضت وتزعمها ملوك ناضوا فى سبيل تحرير أرضهم من ربقة السيطرة الإلامية ، وعرفت أسرتهم اصطلاحاً باسم الأسرة البابلية الرابعة، ومدت جيوش أشهر ملوكهم نبوخذ روسر (نبوخذ نصر الأول) (١) جناحيها شرقاً للانتقام من الإلاميين وغرباً لإرهاب بقايا الأموريين وخلفائهم الأراميين ، لولا أن هذه النهضة البابلية لم يطل أمدها ، وتعرضت بابل مرة أخرى لهزات عنيفة أتتها من قبل دولة آشور التى نضج كيانها فى المرحلة الثانية من عصرها الوسيط ، وهزات أخرى أتتها من قبل الأراميين الذين فرضوا وجودهم على العراق فرضاً .

وشقت بابل طريقها على وهن ، بالحرب تارة وبالمهادنة والمصاهرة والرضا بالأمر الواقع تارة أخرى ، حتى بلغ عرشها أحد الأراميين فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ق. م ، واستطاع أن يصاهر معاصره الملك الآشورى ويضمن

(١) *See*, W. J. Hinke, *A new boundary stone of Nebuchadnezzar I*, Philadelphia. 1907 .

مهادنته ، ولكنه لم يستطع أن يكفل الأمن الداخلى فى دولته . وأحدثت التحركات الأرامية القبلية الداخلية كثيراً من الاضطراب حتى تعاقبت ثلاث أسر حاكمة (من الخامسة إلى السابعة) فى نحو نصف قرن ، وكانت الأسرة الثامنة التى تلتها أفضل حظاً فى طول أمد حكمها ، ولكن كان عليها أن تنتظر مصيرها المحتوم على أيدى الآشوريين فى عصرهم الحديث ، مما سنعرض لذكره مرة أخرى فى سياق الفصل التاسع عشر .

* * *

من الحياة الفكرية فى العصر الكاسى :

اتضحت ظاهرة جديرة بالتسجيل بالنسبة لحضارة أهل العراق منذ أواسط الألف الثانى ق. م أو منذ ما قبلها بقليل ، وهى انتشار خطهم المسمارى وأساليبهم السامية وطريقتهم فى الكتابة على ألواح الطين ، انتشاراً واسعاً بفضل البابليين أولاً ثم الحوريين والميتانيين والكاسيين ، فى المراسلات الدبلوماسية لأغلب مناطق الشام ومناطق آسيا الصغرى ، بحيث لم يتميز عن خطهم وأسلوبهم حينذاك غير خط مصر القديمة وأسلوبها . واستمر الحال كذلك حتى بعد أن ضعف شأن البابليين والحوريين والميتانيين والكاسيين بفترة طويلة ؛ مما يعنى أن الكتابة بالخط المسمارى والأسلوب البابلى أصبحت مجرد تقليد لا يرتبط بالضرورة بسمعة أصحابه الأصليين ، وكان شأنها فى ذلك يشبه ما أصبحت عليه اللغة الفرنسية حين غدت لغة الدبلوماسية الأوروبية إبان ازدهار ملكيتها وإمبراطوريتها، ثم استمرت كذلك حتى الحرب العالمية الثانية بعد أن انكمشت سمعة فرنسا وزعامتها بوقت طويل .

وعلى الرغم من سعى الإلاميين المتصل لإضعاف بابل ونجاحهم فيما هدفوا إليه من تحطيمها ، ظهر التشابه بين كتابتهم وكتابتها منذ أواخر القرن الثانى عشر ق. م ، أى منذ أن حطموا عاصمتها ، وإن كانوا قد قللوا عدد الرموز المسمارية إلى ما يزيد قليلا عن المائة ، وظلت هذه الرموز حتى العهد الأخمينى يتشابه نحو خمسها مع كتابة بابل ؛ أى حتى استخدمت فيها الحروف الهجائية(١).

(١) راجع منس فى الفصل ٣٥ من موسوعة جون هامرتون : تاريخ العالم - معرب بالقاهرة .

ونشأ بعض الظن بظهور اسم العراق فى أواخر العصر الكاسى ، عن طريق تقريبه من كلمة أريقا التى ظهرت فى النصوص خلال القرن الثانى عشر ق. م . ولكن لا زال الجدل واسعاً بشأن هذا الاسم ، وتميل بعض الآراء إلى اعتباره اسما سومرياً دارجاً يعنى الموطن ، بينما تميل آراء أخرى إلى اعتباره اسماً إيرانى الأصل قريب الصلة بكلمة إيراك (على وزن إيران) ويعنى معنى السهل أو البلاد السفلى (فى مقابل مرتفعات إيران) ، أما العرب فقد قربوه إلى معنى الجرف أو السهل وبخاصة فى مناطقه الجنوبية (١) .

ويذكر لصيغ التراسل الإدارية فى عصر الكاسيين تعبير الرئيس فيها عن نفسه بلفظ الأب ، وتعبير الزميل أو الصديق عن صديقه بلفظ الأخ (٢) ، ولو أن ذلك لم يمنع تزلف المرؤوسين إلى رؤسائهم وتعبيرهم عن شدة خضوعهم لهم فى رسائلهم ، ومن ذلك أن وصف حاكم إقليم نفسه فى رسالة إلى ملكه بأنه التراب الذى يطؤه (٣) .

أخرج كتبة العصر الكاسى قوائم لفظية بكلمات كاسية و ما يقابلها من المفردات البابلية ، أى مما يقوم مقام القواميس المقارنة (المتواضعة) ويجرى مجرى قوائم المفردات السامية – السومرية القديمة . أما من حيث إنتاجهم الأدبى بمعناه الصريح ، فقد ظل أدباً مقلداً غير مبتدع ، اعتبروا الأصول البابلية فيه نماذج كلاسيكية تحتذى ، وترتب على تقديرهم لهذه الأصول أن أدوا للتراث العراقى مأثرة جليلة ، ألا وهى نشاط بعض المعلمين والمتأدبين منهم بنسخ لوحات الأدب القديمة ، والبابلية منها بخاصة ، سواء بأمر الحكام ولمصلحة مكتباتهم ، أم لتلبية مطالب هواة الأدب القديم فى عصرهم . وقد أصبح لهذا النشاط أثره فيما بعد عصرهم فى تزويد المكتبات الآشورية الكبيرة بنماذج تحتذى للنسخ ، كان الكتبة الآشوريون يحتفظون فى عناوين نسخها الجديدة بأسماء ناسخيها الكاسيين القدامى، فيقولون مثلا : «محاورة الثعلب» عن ابنى مردوك بن لودومونونا ، معلم... ، «محاورة الصفصافة وفقاً (للوحة)

(١) راجع كذلك : طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة – جـ١ – ص ٧٦ .

(٢) *The Babylonian Expedition of the University of Pennsylvania, Cuneiform Texts,* XVII, 76 .

(٣) *Ibid.*, 24 .

أورنانا ، معلم ...» ... وهلم جرا(١).

وفى إنتاجه الخاص القليل ، استخدم الأدب الكاسى أسلوباً يختلف عن لغة الحديث فى عصره ، استعاره الأدباء من لغة العصر البابلى الأول ، وضمنوه كلمات سامية ظهرت قبله أيضاً (٢) .

لأمجدن رب الحكمة :

عبر الأدب الكاسى عن حياة القلق والمحن التى عاشها أهله فى نهاية عصرهم، بتوجعات ومنظومات غلبت عليها نغمة الشك والحزن ، وإن انتهت فى أغلب أحوالها بالخضوع للأمر الواقع ، والتسليم بحكمة الرب فيما يبتلى به عباده من سراد ومن ضراء . ولم يكن هذا الاتجاه جديداً تماما على آداب بلاد النهرين ، فقد خرجت بمثله عهود الأزمات حين انهيار دولة أور ، وخلال عهود القلق التى انتهى بها عصر إسين - لارسا ، ولكنه أصبح أظهر وأشد مرارة فى العصر الكاسى.

ومما يستشهد به فى هذا السبيل ، منظومة طويلة لسرى، لاقى فى حياته ما لاقاه أيوب فى عصره ، نعمة قصيرة وضراء طويلة ، ثم أبل أخيراً بعد أن عز عليه الدواء . وأكد الرجل فى توجعاته مايعنى أن المؤمن مصاب وأن القدر إذا انحط بكلكله على إنسان حطمه ، أو على حد قوله عن ربه «ثقلت يده علىّ فلم احتملها»ولم تحتفظ مقدمة منظومته بعنوانها ، ولكن يفهم مما بقى منها أنها اشتهرت باسم «لود - لول بل - نميقى» وبما يعنى «لأمجدن رب الحكمة» (٣) .

وصور الرجل فى بدايتها مكانته الأولى حين كان ذا لقب وجه وأسرة ومزارع وأتباع ، وتحدث عن تقواه إزاء الأرباب وإخلاصه لملكه ، وحسن معاملته لقومه ، ثم صور كيف انقلب ذلك كله إلى عكسه ، فذهب الجاه وتمرد الأتباع وتنكر الأصدقاء ونضبت العافية وكلح وجه الدنيا وادلهم ، فعاش عيشة السوائم ، وهجره ربه، ومكن

(١) *J. of Cuneiform Studies*, II, 1 f. and 112 f.; W. G. Lambert, *Babylonian Wisdom Literature*, 1960, 13, 164, 186 .

(٢) *Op. cit.* 14.

(٣) R. H. Pfeiffer, *ANET*, 434, f.; R. D. Biggs, *ibid.*, 1969, 596 - 600; and *see* Lambert, *op. cit.*, 21 f.

الناس منه فحطموه وسحقوه دون ذنب يعرفه. وقال وهو يعترف بعجزه عن فهم حكمة الغيب وتصاريف القدر : «هديت بالمدى إلى شعائر الرب ، ودعوت قومى إلى تمجيد الربة ، ومجدت الملك كما مجدت الرب ، ووجهت الناس إلى إجلال القصر ، وظننت أن هذا يرضى الإله ، ولكن يبدو أن ما يظنه المرء صواباً قد يكون مسيئاً لربه، وما يتراءى للإنسان قبحه قد يكون حسنا عند ربه . فمن ذا الذى يدرك إرادة أرباب السماء؟ ومن ذا الذى يدرك تدبير آلهة الأعماق؟ وأين عرف الناس سبيل الرب حقاً ؟ إن من عاش الأمس مات اليوم وفى برهة هلك وفجأة انسحق . يهلل الناس ويفرحون حيناً ، وفجأة ينوحون كالنادبات. تتغير أحوالهم من بين فتحة ساق وانطباقتها ؛ يجوعون فيغدون كأنهم جثث هامدة ، ويشبعون فيزاحمون أربابهم . فى السراء يتطاولون إلى السماء ، وفى الضراء يهوون إلى الجحيم . لقد عجزت (وأيم الحق) عن كنه هذه الأمور وما أدركت مغزاها» (١) .

واسترسل الرجل فى توجعاته ، ولكنه أنهى شكاواه بما جعله يمجد رب الحكمة، إذ تواردت الرؤى عليه ، وتجلى له فيها رسل ربه الأكبر ، فحملوا له أنباء عفوه، ثم تجلى له ربه مردوك بنفسه فباركه وشفى علته فى النفس والبدن وجعله يوقن بحكمته فى بلائه وبأن العقبى للأخيار مهما تواردت عليهم المصائب .

بين يائس وواعظ :

هذه قصيدة أخرى ضمنها ناظمها وجهتى نظر فى تصاريف القدر وحظوظ البشر ، وأجرى أفكارها على لسان صديقين ، صديق برح به وعانى ألواناً من العذاب، وأخذ يتكلم باسم الواقع ويعبر عن مرارته ، ويبحث عمن يسمع له ويتفهم غرضه من شكواه . وصديق آخر مجامل متفائل يتكلم باسم الدين ويدعو إلى الصبر وإلى الثقة بعدالة الرب . ناء أولهما بزمانه الذى يبجل الثرى اللئيم ، وليس فيه من يأخذ بيد المستقيم وتساءل : «هل (ترى إلى) الأسد الفاتك الذى ينعم بأكل خير اللحوم يقدم قرباناً وبخوراً لربته ليهدئ غضبها (ويجعلها تناصره) ؟» . فيرد الآخر بقوله «إنه عدو القطيع ، ذلك الأسد الذى نوهت به ، وتذكر أنه من أجل زئير الأسد تحفر له

(١) Tablet I, 29 - 48., *ANET*, 19 .

وقارن هذا بتوجع سومرى قديم أمام ربه .



الحفر ، وذلك الذى تقول إنه احتبى بالثروة وتكدست خيراته ، قد يهلكه الحاكم ويجعله طعاماً للنار فى وقته المعلوم ، فهل تريد أن تسلك سبيلهم ؟أجمل بك أن تتوخى رضا الرب ..» . وهنا يقول الأول : «منذ طفولتى بحثت عن تدبير الرب ، وفى خشو وتقوى تلمست الربة ، ومع ذلك حملت بأنواع السخرة دون فائدة ، وأعطانى الرب حرماناً عوضاً عن الغنى» . فيجيب الآخر : «لقد أبيت الحق ، وضللت عن تدبير الرب» ، ولا تحسبن إن إرادة الإله تسير وفق رغبة نفسك ، فإنما الطهر الحقيقى للربة هو الذى أهملته ، ... وأمر الرب والربة لم يبلغ منك القلب» ، إلخ (١) .

التابع الساخر :

قريب من الضياع السابق الذى تاه الناس فيه بين الخطأ والصواب ، ورأى الإنسان الشر فيه فى موضع الإحسان ، والإحسان فيه فى موضع الإساءة ، حوار ساخر أجوف بين سيد وعبده ، صور الشك فى القيم الاجتماعية السائدة ، وجعل العبد صوت سيده ، والسيد أسير تملق خادمه . وصور لكل شيء وجهين ، كلاهما مقنع ولكنه مغرض . ويبدأ الحوار بقول السيد فى تعاظم : «عبدى ، إصغ إلى» . فيرد العبد مطيعاً : «لبيك مولاى ، لبيك» . ويقول السيد متحمساً : «أعد لى العربة فوراً فلسوف أنطلق إلى القصر» . ويجيب التابع محبذاً «انطلق مولاى انطلق» فلسوف يتحقق لك كل ما ترجوه ، وسوف يكون الملك حفياً بك» . فلا يلبث السيد أن ينكص قائلا : «كلا عبدى ، لن أذهب إطلاقاً» ... فيطاوعه التابع قائلا فى تخابث «لا تركب ، مولاى ، لا تركب ، فقد يرغمك (الملك) على سلوك طريق لا تعرفه ، ويريك صنوفاً من الشقاء بالليل والنهار» .

ويسترسل السيد والتابع فى اقتراحات أخرى ، لا يلبث كل منهما حتى ينقضها بالإيمان نفسه الذى قبلها به . ومنها أن يقول السيد : «لسوف أقدم معروفاً لبلدى» فيجيب التابع : «افعل سيدى افعل ، فمن فعل معروفاً لبلده وضعت أعماله فى دائرة مردوك» . وهنا ينكص السيد قائلا : «كلا يا عبدى لن أفعل معروفاً لبلدى» . فيجد الخادم الرد جاهزاً ويقول : «لا تفعل سيدى لا تفعل ، وانطلق إلى الخرائب وجس

(١) R. H. Pefeiffer, *op. cit.*, 429 f.; *Recueil Edward Dhorme*, Paris, 1951, 685 f.; Biggs, *ANET*, 1969, 602 - 604 .

خلالها ، وانظر إلى جماجم الأعالى والأسافل ، فلن تفرق بها بين خير وآثم» . ويقول السيد : «لسوف أحب امرأة» ، فيجيب التابع على عادته «نعم أحب مولاى ، أحب ، فمن أحب نسى السقم والهم» . ولكن الرجل لا تفارقه روح التردد فيقول : «كلا ، عبدى ، لن أحب امرأة» ، ولا تفارق العبد الحجة لتبرير تردد سيده فيقول : «لا تحب مولاى ، لا تحب ، فالمرأة بئر (عميق) ، خنجر حاد النصل يحز فى عنق الرجل» .

وبعد أن يدور الرجل وظله فى حلقة مفرغة لا يعرفان معها ما يحسن فعله وما لا ينبغى عمله ، يسأل السيد : «وأين إذاً الصواب يا عبدى؟» فيجيب العبد : «هو أن تدق عنقى وعنقك ، ثم يلقيان معاً فى النهر.» ، وهنا تملكت روح الجبن والأثرة السيد فقال : «كلا عبدى ، لسوف أقتلك أنت وأرسلك أولا» ، فأجابه العبد وهو مطمئن إلى عجز سيده عن البقاء دونه عجزه عن التفكير وعن التنفيذ بمفرده : «وهل يستطيع مولاى أن يعيش أياماً ثلاثة دونى؟» (١) .

* * *

(١) E. A. Speiser, "The case of the obliging servant', *JCS*, VIII (1954), No. 3; W. G. Lambert, *op. cit.*, 139 f.; R. D. Biggs, *ANET*, 1969, 600 - 601.

دولة آشــــــور

أ- المراحل الأولى :

بدأت آشور فى أقدم عصورها الأولى فيما يمتد بين نهرى الزاب الأكبر والزاب الأصغر ، وأطلت على نهر دجلة بضفتيه ، وتكون أغلبها من تلال وهضاب جيرية وفرت لها أحجار البناء ، كما قل ارتفاعها من حرارة المناخ ، ولم تعدم أمطاراً مناسبة، وانتفعت بسهول خصبة متفرقة على ضفتى دجلة وحول أربيل وكركوك . واشترك في اسم آشور كل من أرضها وعاصمتها ومعبودها الأكبر وسكانها الأوائل ، مع تحويره فى التشكيل والنطق بين كل حالة وأخرى ، مثل : آشور وأشور ، وذكرت الألواح المسمارية أرضها باسم «مات آشور» وهذه قد تكون ذات صلة بالتسمية السومرية A. Usar ، كما ذكرت أهلها باسم آشوريو . وغلبت على آشور الصبغة السامية فى أغلب عهودها ، وإن اختلطت بجنسيات أخرى انتشرت فى المرتفعات المحيطة بها شمالا وشرقاً وشمالا بغرب . وانتشرت عبادة ربها آشور عن طريق الجاليات التجارية حتى أعالى دجلة وآسيا الصغرى بحيث تداخل اسمه فى أسماء بعض الأفراد فى منطقة كبادوكيا . ووردت تسمية آشور فى بعض النصوص الأرامية بلفظ آثور ، وذكرتها النصوص المصرية باسم «إسر» و«إسور» .

فى العصر العتيق :

صارت العاصمة آشور التى قامت فوق ربوة صخرية تحف بها مياه دجلة والتى قامت على أنقاضها قلعة الشرقاط الحالية ، أواخر عصر بداية الأسرات السومرى ، وتعاملت دويلات مدنها القديمة مع السومريين ومن تلاهم من الأكديين وانتفعت بحضارة هؤلاء وهؤلاء ، لا سيما قواعد الكتابة المسمارية ، وخلطت بين فنونهم وفنونها المحلية البسيطة . واعترفت بنفوذهم فى عهود قوتهم، ولعلهم سلكوها

(١) انظر أيضاً : طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة – جـ١ .

حينذاك فيمن سموهم السوباريين (وأهل سبارتو ، والسوبارتو) . ثم اتضحت أسماء ملوك آشور الموحدة منذ القرن الحادى والعشرين ق. م أو منذ ما قبله بقليل ، وفيما يعاصر دولة أور الثالثة (١) ، وامتاز منهم حينذاك بوزور آشور (الأول) ، وشروكين (سرجون) الأول، وهو اسم سامى الصبغة . ويسمى عصر أولئك الملوك اصطلاحاً باسم العصر الآشورى العتيق ، وقد امتدت فيه اتصالات آشور وتجارتها شيئاً فشيئاً حتى بلغت آسيا الصغرى .

فى العصر الآشورى القديم :

بدأ الآشوريون وجهاً آخر من تاريخهم في أواخر القرن التاسع عشر ق. م أو أوائل القرن الثامن عشر ق. م ، وبدأت بينهم أسرة حكم جديدة يسمى عصرها اصطلاحاً باسم العصر الآشورى القديم ، وهى أسرة زادت الصبغة السامية فى بعض أسماء ملوكها أكثر مما كانت عليه فى العصر العتيق مثل : إيلوشوما ، وشمشى أداد ، ويشمع أداد ... ، وعاصرت عهود مارى وإسين - ولارسا ، ثم نشأة دولة بابل . واحتفظت أرضها ببضعة نماذج لفن النحت فى عصرها اتصفت فى مجملها بالخشونة، وظهر أصحابها بالنقبة القصيرة دون العباءات الطويلة المعروفة للخاصة فى بقية بلاد العراق (٢) .

وحاول الآشوريون أن يكون لهم شأن فى أحداث عصرهم فاشتبكت جيوش ملكهم إيلوشوما مع جيوش مؤسس الأسرة البابلية (سوم أبوم) (٣) ، ولكن بغير نتيجة حاسمة . ثم مضت كل من الدولتين فى طريقها ، حتى حاول الملك الآشورى شمشى أداد (١٧٢٦ - ١٦٩٤) (٤) أن يحقق لدولته كياناً ينافس به دولة البابليين . واتخذ نينوى عاصمة لأول مرة ، واتسع غرباً وسيطر على دويلة مارى كما أشرنا من قبل وولى عليها ولى عهده يشمع أداد (أو يسمخ أداد) الذى وطد نفوذه بمصاهرة أمير

---

(١) *See, Revue d' Assyriologie,* VIII, 142; E. Ebeling, in *Altorientalische Texte zum alten Testament,* 2n. ed., edited by H. Grossmann, 1926, 333f.; E. F. Weinder "Die grosse Konigsliste aus Assur", *Archiv fur Orientforschung,* III (1926), 66 f.

(٢) W. Anderae, *Das Wiedererstehende Assur,* 1938, 88, Taf. 44 .

(٣) *See, ANET,* 267 .

(٤) A. Poepel, *JNES* (1943), 85 f.

قطنة الذى فتح أمامه طرق التجارة مع سوريا إلى أن قاومه زمرى ليم ابن ملك مارى المخلوع والذى صاهر بدوره أمير حلب وتعاون معه ومع أمير يمخد حتى طرد خصمه واسترجع عرش أبيه . وروت نصوص شمشى أداد الآشورى أنه تلقى فى عاصمته جزى ملوك توكريش وملوك القطر الأعلى ، وأنه أقام نصباً باسمه العظيم فى منطقة لبنان (لا آب – آ – آن) على شاطئ البحر الكبير ، وإذا صحت روايته الأخيرة هذه كان توسعه هو أقدم توسع أ شورى معروف فى بلاد الشام [١] . وربما عادت إلى هذه الفترة بضعة نصوص وجدت فى كبادووكيا بآسيا الصغرى وكتبت باللهجة الآشورية القديمة [٢] .

ولكن ما لبث هذ الفاتح الآشورى حتى اعترف مضطراً بنفوذ معاصره الكبير حمورابى البابلى وأرخ رجاله وثائقهم باسمه إلى جانب اسمه [٣] ... ، واستفادت حينذاك بالفن البابلى فى أساليب النحت ونقوش الأختام [٤] ، واستعار كهنتها بعض صفات مردوك رب بابل وخلعوها على معبودهم آشور ، وأضافوا أن مردوك كان قد خصص من أجله منذ الأزل آلهة الأقاليم الأربعة حتى يمجدوه ولايتهرب من عبادته أحد [٥] ، واعتبروا إشتار (عشتار) زوجة له ولقبوها بلقب بعليت بمعنى السيدة أو الربة أو الملكة ، وخلعوا عليها طابع الحرب وصوروها بقوس وسيف [٦] .

واستردت آشور كيانها المتفرد بعد سقوط أسرة بابل الأولى ، ولكن ظل دورها ثانوياً فى أحداث عصرها وفيما يوازى أغلب العصر الكاسى . وذكرتها النصوص المصرية لأول مرة فى القرن الخامس عشر ق. م باسم «إسور» خلال عهد الفرعون تحوتمس الثالث، وذكرت أن أميرها أهدى إليه كمية من اللازورد الحر وأحجاراً كريمة

---

(١) B. Meissner, "Die Inschriften der altassyrischen Koenige", *Altorientalische Bibliothek*, I, 1926, 24 f.; *ANET*, 274.

(٢) *JNES*, XIV, 17; *BIN, IV*, 26 .

(٣) Delaporte, *Catalogue des Cylindres*, 1910, p. XXXVI, n. 1.

(٤) *Ibid.;* Frankfort, *The Art and Architectur...* , 65 .

(٥) Sidney Smith, *Early History of Assyria*, 1928, 122 f.

(٦) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

أخرى (١) . ولم يكن الآشوريون أسعد حظاً مع الميتانيين الذين توسعوا فى أرضهم حتى كركوك خلال القرن الخامس عشر ؛ ولهذا اكتفوا حينذاك بنظام دويلات المدن .

واحتفظت مدينة نوزى (أرانجا إلى الشرق من كركوك) بعدد من لوحات التبنى والوصايا والبيوع قد تكون آشورية أو حورية كتبت باللغة الأكدية، وتحتمل نسبتها إلى أواسط الألف الثانى ق. م ، ويتعهد المتبنى فيها عادة بضمان نصيب ربيبه فى تركته ، بحيث يصبح وريثه الشرعى والمسئول عن تماثيل معبودات أسرته، إن لم ينجب ولداً من صلبه ، فإن أنجب ولداً حقت الأولوية للابن الشرعى، وحق له أن يتولى رعاية تماثيل معبودات أسرته ، وهنا قد يجعل الموصى لولده الشرعى سهمين من التركة ولربيبه سهماً واحداً ، أو يجعل لكل منهما سهماً بشرط أن يختار الابن الشرعى نصيبه بنفسه . ولما كانت التشريعات العراقية لم تسمح بوراثة البنت للأملاك العقارية ، فقد يتبنى الرجل زوج ابنته الوحيدة ويحفظ لها ممتلكاته العقارية عن طريقه ، وهنا يحذره فى وثيقة التبنى بحرمانه من التبنى والإرث إذا طلقها ، فضلا عن تغريمه بغرامة كبيرة (تبلغ عادة مينه من الذهب ومينه من الفضة) . وقد يستهدف التبنى رغبة التصرف فى أملاك الانتفاع (المقطعة؟) عن طريق التوريث ، وهنا قد يكون التبنى صورياً كذلك يتحايل به صاحب الأرض على بيع أرضه (المقطعة؟) لشخص آخر من غير أسرته ، فيتبناه ويهبه أرضه ، ولكنه يحفظ حقه عنده بأن يشترط عليه من جهة أخرى أن يتولى إصلاحها لحسابه ، ويفرض عليه شرطاً جزائياً إن أخل بتعهداته نحوه ، وغالباً ما يكون أجر الإصلاح والشرط الجزائى هما ثمن الأرض(٢) . وقد يتقبل الرجل ممن يتبناهم هدايا توازى قيمة ما سوف يرثونه منه مؤخراً بناء على تبنيه لهم (٣) . والطريف أن المجتمع الإغريقى قد لجأ إلى ما يشبه هذه الإجراءات بعد قرون طويلة من بدء الآشوريين بها؛ ليتحايل على تقاليد عدم توريث العقار للابنة وعدم بيعه لفرد من خارج العائلة .

---

(١) *Urk.*, IV, 668, 6; 671, 8 .

(٢) Meek, *ANET*, 197 - 198, 219 - 220, *and references* .

(٣) كونتينو (ج) : الحياة اليومية فى بلاد بابل وآشور – معرب ببغداد ١٩٧٨ – ص ٣٨ .

ب- فى العصر الآشورى الوسيط :

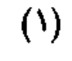
ظل الآشوريون على مهادنتهم الظاهرية للبابليين والكاسيين والميتانيين على التعاقب ، حتى تعرضت دولة الميتان لهجمات عنيفة من جيرانها الخاتيين (الحيثيين) خلال القرن الرابع عشر ق. م ، وبدأت تضعف تحت ضرباتهم وتخسر سلطانها شيئاً فشيئاً ، فقامت آشور إلى نفسها وظهرت فيها أسرة حاكمة جديدة فى الربع الثانى من القرن الرابع عشر ق. م ، يسمى عصرها اصطلاحاً باسم العصر الآشورى الوسيط . واستطاعت هذه الأسرة أن تحالف الخاتيين ضد الميتان ، وانتقمت لنفسها من هؤلاء الأخارى بهجمات سريعة مخرية (يراجع ما ذكرنا ، فى ذلك آنفا) ، واستطاعت فى الوقت نفسه أن ترتبط بالأسرة البابلية (الكاسية) برباط المصاهرة ، وعلى أساس علاقات الند للند ، وأصبحت ضلعاً فى مشكلات وراثة العرش فى بابل نفسها ، ولكن البابليين تقبلوا نشاطها على حذر ، وقد أسلفنا بعض شواهد هذا الحذر حين قتلوا ولى العهد ذى الدم الآشورى من ناحية إلام ، وحين أوفد الآشوريون سفارتهم إلى الفرعون المصرى أخناتون فاحتج البابليون الكاسيون على جرأتهم، وأصر ملكهم على أنهم لا يزالون من أتباعه (يراجع ما ذكرنا ، فى ذلك آنفا) .

وانفسح السبيل أمام الآشوريين بعد انهيار دولة الميتان تحت ضغط الحيثيين فى عام ١٣٦٥ ق. م ، فبرزت بينهم أسماء ضخمة لم يحتفظ التاريخ منها للأسف بغير أسماء الملوك كعادته ، ومن أوائلهم آشور أو بالليط الأول (١٣٦٣ - ١٣٢٨ ق.م) (١) .

وشهدت آشور تحت زعامتهم مرحلتين للتوسع :

المرحلة الأولى للنهضة الوسيطة :

وقد استمرت خلال القرن الثالث عشر ق. م ، وقدرت آشور فيها بأس جيرانها الخاتيين الأشداء ونفوذهم فى أعالى الشام ، فاكتفت بالتوسع فى منطقة الجزيرة وتدعيم حدودها القريبة . وكشفت عن وجه العداء لبابل فهاجمتها جيوشها وخربت أرضها أكثر من مرة ، واحتلتها فى إحدى المرات . وذهبت آمال بعض ملوكها إلى حد العمل على توحيد بلاد النهرين تحت سلطانهم ، فتلقبوا باللقب القديم لقب «ملك سومر وأكد» ، وكان أشهرهم شلمانصر الأول (١٢٦٦ - ١٢٤٣ ق.م) . وولده توكلتى نينورتا الأول (١٢٤٣ - ١٢١٠ ق. م) اللذين عملت آشور فى هديهما على كبح جماح


(١) *See also,* Lucenbill, *Anc. Records,* I, 73 .



الهجرات الآرامية البدوية على حدودها . وكانت بوادى الشام والعراق قد شهدت تحركات بدوية سامية جديدة منذ أواسط الألف الثانى قبل ميلاد المسيح ، واتجهت هذه التحركات بأطماعها ناحية الهلال الخصيب منذ القرن الرابع عشر ، ووضحت تجمعاتها القبلية حينذاك فى ناحية الفرات الأوسط شرقاً وفى أواسط سوريا وشرقها غرباً . وأشارت النصوص الآشورية (والمصرية) إلى قبائلها فى مجموعها باسم الأخلامو واسم السوتو . وذكرت نصوص الملك الآشورى أريك دين إيلو انتصاره على الفريقين فى أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الثالث عشر ق. م (١) . وكانت قبائلهم قد تعدت الفرات حينذاك ، ويبدو أنها حملت معها إلى العراق بعض العبرانيين المستضعفين، إذ ظهرت فى لوحات نوزى القريبة من آشور أسماء عبرية الصبغة مثل هامانا وإيليا (٢) ، وتضمن بعضها عقود استرقاق عبرت عن الطريقة التى تسلل العبرانيون بها إلى أرض العراق واستقروا فيها ، فقالت إحداها : «برغبته دخل مار إديجلات العبرى من أرض آشور ، (دار) تهب تيلا ، باعتباره عبداً» ، وشهد على هذه اللوحة كاتبها وأحد عشر شاهداً (٣) . وقالت أخرى : «برغبتها دخلت سين بالطى العبرية دار تهب تيلا باعتبارها أمة ، فإذا نقضت عهدها ودخلت بيت سيد آخر ، فقأ سيدها عينها وباعها» .

ولم يقنع المهاجرون الساميون طويلا بالحياة القبلية، ولم يكتفوا بالتسلل إلى مواطن الحضارة والخصب والعمران ، وإنما أخذوا يتجمعون شيئاً فشيئاً فى إمارات، وعرفتهم النصوص الآشورية حينذاك باسم الأراميين إلى جانب اسمى الأخلامو والسوتو القديمين . ولعلهم طمعوا فى شغل ما شغله الميتان من قبل فى شمال شرق سوريا وغرب الفرات ، لولا أن نازعهم فيهما كل من الآشوريين وبقايا الحيثيين . ومثل الآشوريين فى هذا النزاع كما قدمنا كل من شلمانصر الأول، الذى روت نصوصه قتال جيوشه للأخلامو والأراميين وبقايا الحيثيين أيضاً ، ثم ولده توكلتى نينورتا الذى روت نصوصه أنه هاجم مارى وأرض خانا (عنات) وأرض راكيبو وجبال الأخلامو . وتكررت الحروب فى عهد آشور رش إيشى ضد الأخلامو ، ولكن

(١) Speiser, *ASOR,* X (1930), No. 56 .

(٢) E. Chiera, *Joint Epedition with the Irag Museum at Nuzi,* 1934, N. 459 .

(٣) *Ibid.,* No. 452; Ebeling, *MAOG,* VII (1933), 88.

استمرت هجرات الأراميين تترى ولم تنقطع (١) .

من الفنون الآشورية الوسيطة :

أكد الفن الآشوري في هذه المرحلة الأولى من العصر الوسيط أسلوبه الخاص في التعبير عن عقائد قومه ، وعن طابع النقش والعمارة بعد أن هضم عدة عناصر استعارها من جيرانه ، لا سيما الميتان الذين كانوا واسطة حضارية لنقل فنون الشام ومصر إلى العراق . فمن التعبيرات الخاصة بهذه المرحلة أن قللت النقوش الآشورية تصوير الأرباب بصورة البشر، واكتفت بالرمز إليهم برموز مادية ومعنوية، ومن هذا القبيل تصوير الملك توكلتي نينورتا ساعياً محيياً ، وجاثياً داعياً، أمام مائدة يعلوها شكل مستطيل يشبه الشراع العريض يرمز إلى المعبود «نوسكو»(٢) . وتصوير ملك آخر يتقبل خضوع أتباعه على حين تطل عليه من على عدة رموز مقدسة ، يتميز منها كفا المعبود آشور تبرزان من بين السحب وتمسك إحداهما قوساً دلالة على طابع الحرب فيه ، وتمتد الأخرى مبسوطة ناحية الملك كأنما تباركه وتعبر عن رعاية صاحبها له (٣) . ثم ملك ثالث صور هو وجنوده في ساحة القتال يطل عليه قرص يشرع قوساً ، يرمز إلى المعبود آشور المحارب ، ومن حوله ذرات مطر تتساقط من السحب وتمثل الجانب الخير للمعبود نفسه (٤). وليس ما يعرف عما إذا كان صدوف الآشوريين في مثل هذه المناظر عن تجسيد أربابهم بصور محسوسة يدل على إمعانهم في تعظيمهم ، أم كان نتيجة لنزعة طوطمية طرأت عليهم (٥) .

وجرى الفنانون على الاتجاه نفسه في نقوش مناظر التعبد على الأختام ، فقللوا من تصوير الأرباب فيها ، واكتفوا في أغلب الأحيان بتصوير التعبد أمام واجهات المعابد ومقاصيرها وزقوراتها ، أو على الأكثر أمام تماثيل الرموز الحيوانية وغير

(١) Dupon - Sommer, *Les Arameens,* Paris, 1949, 17 .

(٢) Frankfort, *The Art and Architecture...,* Pl. 73 B.

(٣) *Ibid.,* Pl. 73A .

(٤) W. Andrea, *Coloured Ceramics from Assur,* Pl. 8.

(٥) *See,* Frankfort, *op. cit.,* 66 .



الحيوانية لمعبوداتها (١) . وذلك فى الوقت نفسه الذى أزادوا فيه تصوير قتال الكائنات الخرافية ومناظر الصيد والحيوانات والأشجار ، مع شيء من العناية بتفاصيل عضلات الإنسان والحيوانات ، وتفاصيل الشعور والأجنحة . ونجحوا فى التعبير عن مظهر الغضب وقوة الافتراس فى هذه الكائنات فخلعوا عليها حيوية مقبولة ، وأحاطوا بعض صورها بأطر زخرفية ، وأرفقوا القليل منها بنصوص أفقية (٢) .

ومارس الفنانون بضعة عناصر فنية جديدة، انتقلت إليهم عن طريق الميتان كذلك ثم طوروها ، وتمثلت فيما يرى هنرى فرانكفورت فى أربعة عناصر عقائدية وزخرفية ومعمارية ، كان منها أن جروا على الرمز إلى بعض أربابهم ، أرباب الحرب وحماة الملكية ، بهيئة قرص مجنح (٣) ، انتقل إليهم فيما يغلب على الظن من مصر القديمة عن طريق الميتان أو السوريين . وأكثروا من تصوير شجرة الحياة المقدسة ، وتصوير الكائنات الخرافية ذات الشوشة على رأسها . ويرى فرانكفورت أنهما عنصران دخلا الفن الآشورى خلال سيطرة الميتان على (جزء من) آشور ، ويتمثل مجهود الآشوريين فى تطوير العنصر الأول منهما فى اعتبار شجرة الحياة عنصراً زخرفياً خالصاً فى رسومهم ونقوشهم (٤) (على الرغم من وضوح دور الشجر فى عائدهم الدينية، بحيث كانوا يقيمون فى عيد رأس السنة ساق شجرة عارياً ويثبتون فيه أوراقاً وثماراً معدنية) (٥) .

ومارس الآشوريون مهارتهم فى صناعة الخزف وزخارفه ، وهذه يحتمل أنها خرجت من مصر، بعد أن بلغت ذروتها فى أيام الدولة الوسطى وانتشرت منها إلى كريت ورودس وسوريا ثم الراق منذ عصر الهكسوس والهجرات الآرية ، وهو عصر تخلخلت فيه الحواجز الدولية التقليدية . ويرى فرانكفورت أن تجديد الآشوريين فى

---

(١) *Zeitschriftfur Assyrilolgie,* XIV, 36 f. 43, Abb., 35 - 38, 46; A. Moortgat, *Vorderasiatische Rollsiegel,* Nr. 591, 592; Frankfort, *op. cit.,* 24 A- B.

(٢) Frankfort, *op. cit.,* 72, Pls. 75 - 76 .

(٣) Frankfort, *Cylinder Seals,* 1939, Fig. 59; *The Art and Architecture...,* 66, 67, 71; O. Weber, *Altorientalische Segel Bilder,* Nr. 36 A.

(٤) Frankfort, *op. cit,* 67 - 68 (*after* Helene J. Kantor) .

(٥) Sidney Smith, *Early History of Assyria,* 123 .

هذه الصناعة يتمثل فى استخدام الخزف لتكسية الجدران (١) . ولكننا نضيف أن المصريين القدماء استخدموه للغرض نفسه فى تكسية جدران بعض حجرات ودهاليز الجزء الأسفل من الهرم المدرج فى سقارة قبل ذلك بأكثر من ألف وخمسمائة عام .

أما العنصر الرابع المعماري المستجد في هذا العصر الآشوري، فيتمثل فى تأزير الأجزاء السفلى من بعض جدران القصور بلوحات حجرية ، سمح لهم بها توافر الأحجار فى هضابهم وفى المرتفعات القريبة منهم ، أكثر من توافرها فيما دون أرضهم من بلاد العراق .

وجرى الملوك الآشوريون على عادة مواطنيهم ملوك بلاد النهرين فى تعمير المعابد والزقورات وبناء الجديد منها ، وكان عهد توكلتى نينورتا من «أنشط العهود فى هذا السبيل ، فجددت فى عهده معابد كثيرة للمعبودات آشور وشمش وسين وآنو وأداد وإشتار وغيرهم (٢) ، وتهدمت هذه المعابد ولم يتبق منها غير رسوم قليلة تعرف الآثاريون منها على تجديدات طفيفة فى فنون عمارتها ، ومنها بناء الزقورة على مساحة مربعة ، وبداية الطرق المفتوحة ذات الدرجات المؤدية إليها بمدخل معقد ، ثم الاتجاه شيئاً فشيئاً إلى الاستغناء عن استخدام هذه الطرق، والاستعاضة عنها بالوصول إلى مسطح الزقورة عن طريق معبر يؤدى إليه من سطح المعبد الأرضى المجاور لها أو من سطح بناية تقوم مقامه ، وأخيراً وضع تمثال المعبود داخل مقصورته فوق صفة عالية يؤدى إليها درج ، رمزاً إلى ارتفاع شأنه واتساع ما بينه وبين خلقه ، ثم احتمال وجود مشكاوات فرعية ملحقة بمعبد رب الدولة آشور ، لأرباب آخرين مثل مردوك البابلى الذى خرب توكلتى نينورتا عاصمته بابل، ونقل تمثاله منها إلى آشور (٣) . وليس ما يعرف عن ارتفاع الزقورات فى هذه المرحلة ، ولكن يحتمل من مناظرها فى نقوش الأختام أنها كانت تتألف من أربع أو خمس طبقات (٤) .

وصورت واجهات المعابد تحف بها صروح أو أبراج عالية (٥) ، وتحلى سطوحها حليات معمارية بسيطة مدرجة ذات زوايا قائمة شاعت أمثالها فى الحليات

(١) Frankfort, *op. cit.*, 67 .

(٢) Andrae, *Das Wiedererstehende Assur*, 1938, Abb. 24, 42, 47, 48, etc ...

(٣) Frankfort, *op. cit.*, 68 - 71.

(٤) Anton Moortgat, *op. cit.*, Nr. 591, 592 .

(٥) Andrae, *op. cit.*, Abb. 49 - 50 .



العلوية المسننة لعمائر الشرق الأدنى فيما تلا ذلك من عصور ، لا سيما في الحصون ، ولا تزال أشباهها تتمثل إلى حد ما في الحليات المسننة التى تعلو المساجد حتى الآن . وكانت تحف بمداخل العابد الآشورية أحياناً تماثيل حيوانية ترمز إلى معبوداتها الكبرى (١) . وتؤدى غرض الحراسة الرمزية لها فضلا على ما تضفيه على المدخل من عنصر الزينة .

وشهدت آشور مقرين ملكيين جديدين فى هذه المرحلة : مدينة كالح على الضفة اليسرى لنهر دجلة (فى مقابل آشور ولكن على مبعدة منها على ضفتى اليمنى) فى عهد شلمانصر الأول ، وامتد عمرانها فوق لسان خصب بين الدجلة والزاب الأكبر ، ثم مدينة أخرى شيدت فى عهد ولده ونسبت إليه فسميت «كارتوكلتى نينورتا» ، وقامت على مبعدة ميلين من آشور . وشاد له رجاله فيها قصراً بقيت منه أطلال طفيفة، يفهم منها أنهم زخرفوا بعض جدرانه بقطع من القاشانى المزخرف ولوحات مرسومة، اقتبسوا موضوعاتها من عالم الإنسان والحيوان والنبات ومن الخطوط الهندسية (٢) ، ونجحوا فى تحقيق التناسب والحيوية فيها إلى حد مقبول ، وصوروا فيها الملك يقاتل بعربته الحربية منفرداً حيناً ، ويشترك معه جنوده فى الحرب الفعلية حيناً آخر (٣) .

وأعقبت النهضة الآشورية الأولى فى عصرها الوسيط فترة انتكاس ، غاضت فيها أحداث التاريخ الآشورى وضعف فيها شأن الملوك واضطرب أمن دولتهم ، على الرغم من أن ظروف التوسع الخارجى كانت مهيأة لهم، بعد أن انهارت دولة الخاتيين (الحيثيين) تحت ضربات الهجرات الآرية الكاسحة التى عرفت اصطلاحاً باسم شعوب البحر ، فى أواخر القرن الثالث عشر ق.م . ويبدو أنه وقف فى سبيل استمرار النهضة الآشورية حينذاك عدة عوامل داخلية وخارجية ، كان منها تكرار النزاع على عرشها ، والتمزق الداخلى فى أرضها ، بعد أن اغتيل توكلتى نينورتا فى مؤامرة دبرها ولده، وكان اغتياله بداية لتحلل كيان حكم أسرته . كما كان منها أن شعوب البحر التى حلت محل الخاتيين كانت لا تزال فى عنفوان شدتها فظلت مصدر

(١) *op. cit.*, Abb., 49 .

(٢) *Ibid.*, Taf. 2 - 3.

(٣) *Ibid.*, Taf. 51 A; *Co'oured Ceramics*, Pls. 6 - 8 .

رعب لجيرانها، وأن جماعات سامية جديدة بدأت تغذى قوة الأراميين فى العراق ، وأن بابل لم تن عن محاولة استرداد كيانها والانتقام لنفسها . ونكتفى هنا بالبابليين .

فقد سارعت بابل بعد اغتيال فاتحها الآشورى توكلتى نينورتا بمحاولة النهوض من كبوتها ، فشنت هجوماً خاطفاً على الآشوريين فتكت فيه بملكهم الجديد وحاصرت عاصمته واستردت كرامتها الدينية باسترداد تمثال معبودها الأكبر (مردوك) ، وقنعت بما أحرزته من نصر سريع ، لتتقى أطرافها الجنوبية الشرقية من الإلاميين (العيلاميين) ، ولكن نشاطها ضد هؤلاء وهؤلاء كان فيما يبدو أشبه بنضال اليائس ، إذ ما لبثت أن انهارت تحت ضغطهما ، ودمرها العيلاميون وقضوا على أسرتها الكاسية فى نهاية القرن الثانى عشر ، وتبع ذلك ما أوجزناه من جهاد بابل المستميت فى سبيل النهوض ، ومقاومتها للعيلاميين حتى أجلتهم عن ديارها ، ثم مناطحتها للآشوريين وانتصارها عليهم مرة وانكماشها أمامهم مرة أخرى .

المرحلة الثانية من النهضة الآشورية الوسيطة :

بدأت مرحلة التوسع الآشورى الثانية خلال العصر الوسيط بعهد تيجلات بيليسر الأول (١١١٤ أو ١١١٢ - ١٠٧٦ ق.م) ، ذلك الذى وصف نفسه [١] بأنه الملك الحق «لوجال كلاجا» (وفى الأكدية شارو دانو) [٢] ، ملك العالم ، ملك آشور، ملك الأطراف الأربعة ، البطل الهمام المؤيد بوحى آشور ونينورتا والأرباب الكبار سادته الذين دحروا أعداءه . وقد انفسح السبيل أمام آشور فى هذا العهد نتيجة لظاهرتين ، وهما ، انكماش القوة المصرية الضارية بعد كفاحها العنيف مع شعوب البحر ونتيجة لمشاكلها الداخلية ، وانكماش نفوذها بالتالى فى بلاد الشام ، ثم خمود حمية شعوب البحر خلفاء الحيثيين فى آسيا الصغرى، وزوال رهبتهم من نفوس جيرانهم .

وترتب على هاتين الظاهرتين أن روت حوليات تيجلات بيليسر الآشورى أن آشور وبقية أربابه العظام منحوه البأس والسلطان وأوحوا إليه بأن يعمل على توسيع

(١) Leo Oppenheim, *ANET,* 274 - 75; Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia,* I, 300 f.

(٢) *Ibid., and See,* Jacobsen, *The Sumerian King - List,* 181 f.; Lewy, *HUCA,* XIX, (1946), 476 .



حدود أرضهم ، وأنه أخضع اثنين وأربعين شعباً وحارب ستين ملكاً وانتصر عليهم، وأنه هاجم أرض نايير (فى أرميديا؟) وأجبر أمراءها الثلاثين على أن يسجدوا لدى قدميه ، واحتجز أبناءهم رهائن عنده (١) ، وأنه بلغ جبال لبنان (شادى لبنانى) وغزا أرض أمور ، وتلقى جزى جبيل (جوبال) وصيدا (صيدونى) وأرواد (أرمادا) ، ثم هاجم أرض خاتى الكبرى وفرض الجزية على ملكها إيلى تيشوب (٢) ، وغزا الصحراء بخيله ورجله وبعون ربه آشور ، وهاجم الأخلامو والأراميين ثمانى وعشرين مرة من أرض سوخى حتى مدينة قرقميش، وأسر منهم وقتل ونهب وانتصر على ست مدن من مدنهم على سفح جبل بشرى وحرقها ودمرها ونقل غنائمها إلى آشور (٣) ، كما عبر الفرات مرتين فى عام واحد ليدحرهم ، وتغلب عليهم ابتداء من تدمر فى أرض أمورو ، وعنات فى أرض سوخى ، حتى مدينة رابيقو فى كاردنياش (بابل؟) (٤) . وجرب حظه مع بابل نفسها فانهزمت جيوشه أمام جيوش ملكها «مردوك نادين أخى» حيناً ، وانتصرت عليه حيناً أخرى ودخلتها لأمد قصير (٥) .
وبلغ من ثقة تيجلات بيليسر بسيطرته على ملكه العريض أن بنى له رجاله قصرين، فيما بين سوريا والعراق فى تل بيرسيب (تل أحمر) وخادانو (أرسلان تاش) وزخرفوا جدرانهما برسوم حروبه ورحلات صيده وأساطير قومه ، وتأثروا فيها بعض الشىء بالأسلوب السورى (٦) .

لم تخل حوليات تيجلات بيليسر من ادعاء واضح فى تعداد الشعوب التى أخضعها والتى قد لا يزيد أغلبها عن مدن وقبائل متفرقة ، وفى تأكيد انتصاراته المستمرة على ملوك قد لا يزيد أغلبهم عن حكام إقليميين إلى جانب أن تعدد حروبه مع جماعات بعينها ، مثل جماعات الأراميين ، يدل ضمناً على عدم وصوله معهم

---

(١) Luckenbill, *op. cit.*, 271, 300 f.; F. Lehmann - Haupt, in *Materialen zur alteren Geschichte Armeniens und Mesopotamiens*, 1907 .

(٢) Luckenbill, *op. cit.*, ; *ANET*, 275 .

(٣) Dupont - Sommer, *op. cit.*, 18 .

(٤) *Ibid.*, 18, 21, Luckenbill. *op. cit.*, 287 .

(٥) ديلابورت المرجع السابق – ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

(٦) Thureau - Dangin... , *Tel Bersip*, 45 .

إلى نتائج حاسمة . غير أن هذه الحوليات لم تخل فى الوقت ذاته من أهمية تاريخية فى تصوير مناطق انتشار الأراميين بين قرقميش وتدمر وحدود بابل ، ولم تخل كذلك من دلالة على خطة رسمت طريق التوسع الآشورى بعد عهده ، فى مناطق جنوب شرق آسيا الصغرى وفى لبنان وشمال سوريا ، إشباعاً لشهوة المجد ، وللاستفادة من أخشابها ، وضمان تنفيذ موانيها التجارية لرغبات آشور ، أو على الأقل لضمان تعاملها معها ، وإن كان تيجلات بيليسر قد عبر عن هذا بتلقى جزاها . وكانت سياسته فى معاقبة أعدائه نبراساً متواضعاً للقسوة على أسوارها ، واعتبر أبناء الأمراء المستسلمين له رهائن عنده .

ولم ينس تيجلات بيليس حظه من الدنيا ، فإلى جانب قصريه السابقيين ، ذكرت نصوصه أنه استقل سفينة من أرواد وأبحر بها مسافة طويلة ، وصاد ما يسمونه فرس (أو كلب) البحر فى البحر الأعلى . وذكر ما يفهم منه أنه أمر باستيراد نباتات جديدة لتزرع فى بساتينه ، واستيراد قطعان من الماعز الجبلى لتطلق فى ساحات الصيد والقنص المخصصة له (١) .

* * *

صاحب فترات الازدهار السياسى والحربى فى المرحلة الثانية من العصر الوسيط نشاط مناسب فى مجالات العمارة والفن والتشريع ، وأخذت آشور تعبر بنفسها عن نفسها فى كل هذه المجالات مع الاستفادة المستمرة من جيرانها .

ولما كانت عمارة المعابد فى العصور القديمة من أهم ما أشبع رغبة الملوك فى خلود الذكر والتفاخر ، تعددت مشروعاتها الآشورية ، ومنها معبد مزدوج فى العاصمة آشور للمعبودين آو وأداد ، بدأ فى عهد آشور رش إيشى وتم فى عهد ولده تيجلات بيليسر الذى ذكرت نصوصه أنه رفع قمته إلى السماء ويذهب الظن إلى أن برجيه كان يرتفعان نحو أربعة طوابق، وأن واجهات جدرانه وأسواره كسيت بالآجر ، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك أكثر من مرة فى العصر الآشورى الحديث .

وعثر فى نينوى على تمثال لمعبود فقد رأسه وأغلب ذراعيه وقدميه ، ونحته فنان بأسلوب أقرب إلى الأسلوب الواقعى ، فمثلها عارية بتقاطيع الجسم الأنثوى

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٦٠ .



العادى ، فأصبح على بساطته يتميز إلى حد كبير عن تماثيل المعبودات الآشورية الثقيلة ذات الملابس الكاسية .

ومن أهم ما استحدثته آشور فى نظمها الإدارية منذ أوائل عصرها الوسيط ، تأريخ وثائقها بأسماء كبار شخصياتها على التعاقب واحداً فواحداً كل عام ، بحيث يبدأ تأريخ الوثائق باسم الملك الحاكم طيلة العام الأول لاعتلائه العرش ، ثم يتجدد اختيار أحد كبار موظفيه عن طريق القرعة كل عام ، ويلقب بلقب «ليمو» أو شاغل وظيفة «ليمو» (١) ، ولعلها كانت تعنى ولايته لأمور التشريع والتوثيق فى عام بعينه.

ونظمت طريقة اختيار الليمو فيما بعد ، فرتبت الوظائف الكبرى فى الدولة ترتيباً تنازلياً ، يبدأ بعد الملك بالوزير (؟) ثم الترتانو وكبار رجال البلاط والحكومة المركزية ثم كبار ولاة الأقاليم ، ويليها كل منهم عاماً واحداً بعد عام الملك الذى يبدأ باعتلائه عرشه ، حتى إذا انتهت القائمة وطال حكم الملك أكثر من ثلاثين عاماً ، يبدأ التأريخ باسمه مرة ثانية ويعود الترتيب التنازلى بعده من جديد . ومعروف أن المصريين القدماء كانوا يعتبرون فترة الثلاثين عاماً فترة مثالية لتولى الملك عرشه ويحتفلون بعدها بعيد يعتقدون أن طقوسه تجدد قدرته على بداية فترة حكم جديدة . ولا ندرى مدى الرابطة بين هذا التقليد الذى أخذ المصريون به منذ بداية عصورهم التاريخية وتحديد فترة الثلاثين عاماً للملك الآشورى . أما تأريخ الوثائق باسم حاكم كبير لفترة عام واحد ، فظهر له شبيه فيما بعد فى أثينا التى كانت تؤرخ وثائقها باسم من يلى منصب الإبينيموس أرخون السنوى ، كما ظهر له شبيه آخر فى دولة سبأ بالنسبة لمن كان يلى منصب الرشاوة ، وفى دولة قتبان بالنسبة لرئيس مجلس المسود (٢) . ولا ندرى مرة أخرى مدى الصلة بين هذه التقاليد .

وقد يكتفى كاتب اللوحة الآشورى بذكر اسم صاحب الليمو ، أو يضيف منصبه إليه ، أو يضيف إليه اسم حادثة مهمة حدثت فى عامه . ومن هذا القبيل أن أرخت هبة عقارية من عهد آشور أو بالليط (١٣٦٣ - ١٣٢٨ ق . م) بشهر كيناته ، اليوم

(١) J. Lewy, *Revue Hittite et Asiatique,* V (1939), 117 f. ; U. Ungand, in *Reallexikon der Assyriologie,* II, 412 f.; E. F. Weidner, *A. f. O.*, XII (1941), 308 f.

(٢) عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة - ١٩٨٨ خ ص ٦٩ - ٧٠ ، ٧٤ - ٧٥ ، ١٠٥ - ١٠٦ .

الســادس ، ليمـو «أداد ناصر» ، ثـم وقعت بـخـاتم «آشـور أو باللى ملك آشـور إبن إريبـا أداد» (١) .

التشـريعـات الآشـورية :

عثر فى أطلال العاصمة آشور (قلعة الشرقاط الحالية) على لوحات تشريعية (من الصلصال) نسخت نصوصها خلال عـهد تيجلات بيليسر الأول فى أواخر القرن الثانى عشر ق. م ، ولكن ذهب ترجيح بعض الباحثين إلى رد أصول تشريعاتها إلى ما قبل عهده بزمن طويل ، وربما إلى أواسط الألف الثانى ق. م(٢)، وسوف نعود إلى مناقشة هذا الترجيح ومعناه .

عالجت هذه التشريعات كثيرا مما عالجته التشريعات العراقية السابقة لها من شئون الأسرة والمعاملات والقروض والرهون والاعتداءات على الغير اعتداء أدبياً أو ماديا (٣) ، ولوحظ من تجـديداتهـا التى لم يكن لهـا من قبل غيـر معـالم بسيطة أنـهـا استفادت من العقوبات العامة والخاصة لصالح الدولة ، فضمنتها تسخير المذنبين فى أعمال الملك (أى فى مشاريع الدولة) لفترات تتراوح بين عشرين يوما وبين أربعين يوما ، واتصفت بقسوة العقوبات فهددت بالخصى والإعدام على الوتد فى كثير من عقوباتها ، واشتدت فى اشتراط التسجيل والإعلان وإشهاد الشهود فى كثير من موضوعاتها ، وتوسعت فى جواز رهن أفراد الأسرة ضمانا للديون ، وحرمت الاشتغال بالسحر وجعلت عقوبته الإعدام . ولأمر ما جعلت أمور النساء محوراً لعدد كبير من بنودها واشتدت على المنحرفات بخاصة . فقضت على سارقة المعبد بتنفيذ قضاء ربه فيـهـا (١) ، وقـضـت على من تـضع يديهـا على مـواطن بتـغـريمهـا ٣٠ مـينه من الرصاص وجلدها عشرين عصا (٢) فإذا أصابت خصيته قطعوا إصبعها ، وإذا أضرت الخصيتين فقأوا عينيها (٤) ، ولعلها عنت بذلك سيئات السمعة والسلوك فى عصر تضمن المجتمع الآشورى فيه طوائف متنوعة من الجماعات الخاضعة له ، وقضت

(١) Ebeling, *MAOG*, XII (1933), 88; *ANET*, 220 .

(٢) *See*, Driver and Miles , *op. cit.*, ; Meek, *ANET*, 180 - 188 .

(٣) تعبر الأرقام الموجودة بين قوسين عن الأرقام الاصطلاحية لبنود التشريع .

(٤) كونتينو (ج) : المرجع السابق – ص ٣٦ – ٣٩ .



على من تجهض نفسها بإعدامها على الخازوق ، وتوعدت من يتستر عليها (٥٣) .

وجعلت التشريعات للزوج ولاية كاملة على زوجته ، وسمحت له بأن يعفو عنها إن أخطأت في حقه ، أو يطبق عليها بنفسه العقوبات البدنية التى فرضها القانون على مثل حالتها . وكفلت لزوجها حق تشويه أذنيها إذا سرقته وهو مريض، أو العفو عنها إذا شاء (٣ - ٤) ، وحرية افتدائها إذا سرقت شيئاً ذا قيمة من بيت جاره ، أو التخلى عنها ليشوه المسروق أنفها بنفسه (٥) . فإذا كانت هذه العقوبات مما يسبب عاهات دائمة مثل فقء العين أو صلم الأذنين أو الجلد المبرح نفذها أمام القضاة وبحضور موظف مسئول ، فإذا أتت المرأة أمرا لم يتناوله القانون جاز لزوجها أن يحلق شعرها أو يعرك أذنها دون عتاب عليه (٥٧ - ٥٩) . فإذا شردت عنه وآوت إلى بيت آخر وبقيت به ثلاثة أيام، كان له أن يشوه أذنيها أو يعفو عنها ، ويجوز له أن يطالب بصلم أذنى من آوتها، وتغريم زوجها إن كان شريكا لها بغرامة كبيرة (٢٤) .

وكما كان للزوجة أن تحتفظ بهبة خاصة «ترِيباتو» تقدم إليها حين خطبتها ويكون شأنها شأن الشرقتم (أو الشركو) الذى تدخل به بيت الزوجية ، اعتبرت التشريعات الآشورية الزوجة متضامنة مع زوجها فى ديونه وعواقب أخطائه وجرائمه (٣٢) ، واعتبرت ثروة أحدهما ثروة للآخر إذا انتفعت منه بهبة عقارية (٣٥) (٣) ونظمت وضع زوجة المحارب الغائب فقضت أن تنتظره خمسة أعوام ، فإذا كان لها أولاد ينفقون عليها استمرت فى عصمته (٣٦) ، أما إذا علمت بأسره وكانت مقلة غير ذات ولد، فعليها أن تنتظره عامين فقط على أن يكفل القضاء لها ما تتعيش به سواء من إيجار أرض زوجها أو داره ، أو من معاشات القصر الملكى، ثم يسمح لها بالزواج من آخر ، على أن يكون لزوجها الأول أن يستردها إن عاد من الأسر (٤٥) .

وسمحت لوالد الخطيب الذى فقد ولده بأن يزوج خطيبته لأحد أولاده الآخرين الذين بلغوا العاشرة (زواجاً اسمياً حتى يكبر؟) ، أو أحد أحفاده من خطيبها المفقود (؟) ، ولا يحق له أن يزوجها بولد دون العاشرة إلا برضاء أبيها (٤٣) ، وسمحت للأرمل غير ذات الولد بأن تتزوج أحد أبناء زوجها (من زوجة أخرى ؟) (٤٦) وهى عيبة وجد لها ما يماثلها فيما بعد فى المجتمع العربى الجاهلى .

وربما كان لعادة الحجاب أصل بابلى قديم ، ولكن الجديد فيه هو أن التشريعات الآشورية أصرت على خروج الحرائر محجبات من الرأس إلى القدم ، لا سيما إذا

خرجن وحدهن ، وعلى أن تسلك الجوارى سبيلهن إذا اصطحبن سادتهن . وأعفت من الحجاب الكاهنات اللائى وهبن عفافهن للمعبد ولم يتزوجن. وحرمته على الإماء والعاهرات تمام التحريم ، وإذا استخدمته جردن من ثيابهن وضربن بالعصا وصب القار على رؤوسهن . وأوجبت على المواطنين فى هذه الحالة أن يقبضوا عليهن محجبات ويشهدوا عليهن ، وتوعدت من يتغاضى عن ذلك بجلده وتسخيره وثقب أذنيه (٤٠) . واشترطت لحصانة المحظية أن يشهد سيدها خمسة أو ستة من جيرانه على أنها أصبحت زوجته، وحينئذ يحق لها أن تتحجب ويحق لأبنائها أن يرثوه فى إقطاعيته (٤١) .

وحرصت على عفاف الزوجات المحصنات ، فقضت بقطع إصبع من يربت على خد أنثى متزوجة ، وقطع شفته السفلى إن قبلها (٩) ، وقضت بالإعدام على من اعتدى على امرأة متزوجة رغماً عنها (١٢) ، وقضت بإعدامهما معاً إن رضيت بما فعله معها . وقضت عليه بما يوازى قضاء زوجها فيها ، فإن قتلها قتل ، وإن صلم أذنيها خصى وشوه وجهه ، وإن عفا عنها عفى عنه (١٥ - ١٦) ، وقضت على من يرافق امرأة متزوجة فى الطريق بتغريمه تعويضاً لزوجها (٢٢) ، وقضت بإعدام القوادة إن دفعت امرأة إلى الفسق رغماً عنها (٢٣) .

وفى الوقت نفسه قضت على من يتهم امرأة بالزنا عند زوجها ويعجز عن إدانتها والاستشهاد على صدق قوله فيها ، باستفتاء النهر فى شأنه إذا شكته المرأة أو زوجها (١٧) ، فإذا اتهمها علناً ولم يأت عليها ببينة وجب ضربه أربعين عصا وخصيه وتغريمه ٦٠ مينه من الرصاص وتسخيره فى أعمال الملك شهراً (١٨) . وقضت على من يغتصب فتاة بكراً بغير رضاها بتجريده من زوجته وتسليمها إلى والد الفتاة لينكحها من يشاء ، وبأن يسلمه (المعتدى) مهر البكر ، فإن شاء بعد ذلك زوجها له وإن شاء زوجها لغيره (٥٥) .

وكافحت اللواط ، فقضت بجواز نكح من يأتيه مع جاره وخصيه (٢٠) ، وقضت على من يتهم جاره بأنه مأبون ثم لم يقم البينة على ادعائه ، بخصيه وضربه خمسين عصا وتغريمه ٦٠ مينه من الرصاص وتسخيره شهراً فى أعمال الملك (١٩) .

وقدرت التشريعات الآشورية جانب المعبودات ، فقضت على من تثبت عليه



البينة بالتجديف وسب المعبد بضربه أربعين عصا ، وقضت على من يتهم آخر بهذه الخطيئة ويعجز عن إثباتها عليه ، بالعقاب البدنى نفسه مع تسخيره فى أعمال الملك شهراً .

ويبدو أن سلطة الأب الآشورى على أبنائه قد زادت بحيث كان يوصف فى بعض الوثائق القانونية بأنه سيد أو مالك لولده . وقد توسعت التشريعات الآشورية فى جواز رهن أفراد الأسرة فى دين ، ولكنها حرمت على الدائن أن يزوج ابنة مدينه الرهينة دون موافقة أبيها (٣٩ – ٤٨) ، فإن مات أبوها وانتقلت ولايتها إلى أخوتها ، أصبح لهؤلاء أن يحرروها من رهينة الدين خلال شهر ، وإلا جاز للدائن أن يزوجها بمن يشاء (٤٨) ، أو يبيعها إذا ورد ما يبيح له ذلك فى نصوص القرض (٤٨) . ولكنحرم على الدائن أن يبيع الرهينة قبل نفاذ الأجل ، وقضت عليه بالضرب والسخرة والغرامة وفقد دينه إن فعل ، فإن مات الرهين عنده ميتة غير طبيعية عوض أهله عنه بمثله (إن كان عبداً؟) .

واشترطت التشريعات للبيوع العقارية أن يعلن المنادى عن العين ثلاث مرات خلال شهر حتى يتسنى لأصحاب الحقوق أن يسجلوا مستحقاتهم لدى المسجل الحكومى خلال هذا الشهر ، فإن خلت العين من الالتزامات ، وجب تسجيل بيعها فى حضرة ممثل ملكى (أو وزير) وكاتب المدينة والمسجلين والمنادى إذا تمت الصفقة فى العاصمة ، أو أمام عمدة أى بلدة أخرى وثلاثة من أعيانها (لوحة ب ٦) .

واستمرت التشريعات فى أحكام أخرى كانت لها أشباهها فى التشريعات القديمة، لا سيما فى شئون المواريث والمشاركة والإيجارات والعمل وما إليها . وإذا كان هناك ما نختتمها به فهو أنها لم تلتزم فى تعبيرها عن الأحرار بلفظ واحد، وإنما فرقت فى التعبير أحياناً بين لفظ «السيد» ، وبين لفظ «الآشورى» (فى مثل لوحة «أ» مادتى ٢٤ ، ٤٠ ، ولوحة «ج» مادة ٣ ؛ إلخ) . وليس ما يعرف إن كان المشرع قد اعتبر ذلك مجرد ترادف لفظى ، أم أنه استهدف به تخصيص الآشورى عن العراقى غير الآشورى ، أم استهدف به التفرقة بين طبقة حاكمة وبين طبقة محكومة تتمثل فى أهل الولايات التى فتحت عنوة وخضعوا للسيادة الآشورية المباشرة فى مقابل اعتبارهم مواطنين آشوريين (من درجة ثانية) لاسيما وأنه كان ينزل من يدعوه بالسيد منزلة أكبر من منزلة الآشورى الحر (أميلوم) أحياناً . وقام هذا الرأى محل

رأى آخر اعتبر التشريعات من وضع طبقة حاكمة مستوطنة ولكنها غير آشورية الأصل مثل طبقة الحوريين أو الميتانيين الذين غلبوا على أجزاء من دولة آشور لفترات متفاوتة إبان قوتهم وضعفها ، مع تقدير اتجاه بعض الباحثين إلى ترجيح تأليف هذه التشريعات فى القرن الخامس عشر ق.م وهو قرن شهد نشاط الهجرات الهندوآرية ، دون أواخر القرن الثانى عشر ق.م الذى نسخت خلاله فى عهد تيجلات بيليس الآشورى . ولو أن هذا يدعو إلى التساؤل لم أبقى نساخ عهد تيجلات بيليسر على هذه التفرقة بعد أن تخلصت أرضهم من تأثير الطبقة الأجنبية فيها . وذلك أمر لا يكفى فيه الظن بسوء تصرف الناسخ .

* * *

لم يطل أمد مرحلة النهضة الثانية من العصر الآشورى الوسيط ، على الرغم من بدايتها المشرقة ، ويبدو أن توسعها فى عهد تيجلات بيليسر الأول بخاصة ، كان طفرة سابقة لأوانها ، فلم تستطع الدولة أن تحافظ على أطرافها البعيدة بعد وفاته ، وانفصلت ولاياتها عنها واحدة بعد أخرى .

وهادنت آشور بابل فترة طويلة حتى تتفرغ للآراميين الذين استمروا فى مناوأتها على فترات متقطعة خلال القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد ، واستمروا على إنشاء الإمارات بجوارها فى شرق الفرات وغربه ، فكونوا إمارة بيت أدينى التى امتد شرقاً حتى بلخ واتخذت عاصمتها فى تل بارسيب على ضفة الفرات جنوبى قرقيش ، وإمارتين فى وادى بلخ ، وعدة إمارات فى وادى الخابور من أهمها بيت باخيانى (وكانت من مدنها جوزانا ووسيكانى) . كما كونت قبائل تيمانايا الأرامية ثلاث إمارات شرقى الخابور الأعلى فيما يسمى منطقة طور عابدين وهى إمارات نصيبينا وخوريزانا وجيدارا . واحتفظت بعض روايات التوراة بذكرى هذه الإمارات القريبة من الخابور فى تسمية أهلها أو أرضها «آرام النهرين» (١) ، والنهران هما على الأغلب الفرات وفرعه الخابور ، وتسمية «فدان (أو بادام) آرام» (٢) ، وكانت أكبر مدن المنطقة التى عاصرت روايات التوراة عنها هى مدينة حران .

(١) Roger, T. O. Callaghan, *Aram Naharaim*, Romo, 1948, 143 .

(٢) سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ، ٢٨ : ٥ . Abel, *Geographie..*, Vol. I, 245 .

واتجه فريق من الآراميين جنوباً ، فانتشرت قبائل السوخى على جوانب الفرات من عنات حتى رابيقو . وانتشرت قبائل اللاكى فى سهل يقع جنوبى جبل سنجار . ولم يقتصر أمر الآراميين على ذلك ، وإنما اتجهت بعض قبائلهم إلى الجنوب الشرقى من دولة آشور ، فانتشرت قبائل الوتواتى على شواطئ دجلة فيما بين فرعيه الزاب الأسفل والأدهم (١) . ومال النصر فى مراحله الأولى إلى صف جماعات الأراميين ، بحيث اضطرت آشور إلى الانكماش فى مناطقها الشرقية إلى حين .

* * *

جـ- فى العصر الآشورى الحديث :

اكتفت آشور بحدودها الضيقة تحت ضغط الآراميين حتى تزعمها آشوردان (٩٣٢ - ٩١٢ ق.م) ، فنهضت فى عهده ، وتأهبت لمكافحة الآراميين شرقاً وغرباً . ثم اشتدت عزائمها فى عهد ولده أداد نيرارى الثانى (٩١١ - ٨٩٠ق.م) الذى غلبت شهرته على شهرة أبيه ، ووصفت نصوصها الآراميين حينذاك بأنهم أهل برارى [١] . ويبدو أن أولئك الآراميين (الشرقيين) وإن أخذوا بحضارة بلاد النهرين واطمأن بعضهم إلى حياة الاستقرار والزراعة ، واستطاعوا أن يرهبوا دولة آشور فترة طويلة وكادوا يسيطرون على مسالك تجارتها ، إلا أنهم ظلوا متخلفين حضارياً عن جيرانهم وعن الآراميين (الغربيين) فى بلاد الشام إلى حد ما ، وظلوا يؤثرون النظام القبلى والتركز فى إمارات منفصلة عرفت كل منها - كما مر بنا - باسم بيت كذا وبيت كذا، فشجع تفرقهم الآشوريين على الاستمرار فى محاولة إخضاعهم كلما توافر لهم ملك طموح وظروف مواتية لاستثارة هممهم ، وهكذا تتبعوهم عاماً فعاماً فى عهد أداد نيرارى (الثانى) فى منطقة طور عابدين حيث توزعت إمارات خوريزانا وجيدارا ونصيبينا ، وفى وادى الخابور .

وبعد هذا الملك أداد نيرارى (الثانى) ، بدأ عصر جديد طويل عرف اصطلاحاً باسم العصر الآشورى الحديث ، أو عصر الاتساع الآشورى الكبير ، وقد استمر نحو ثلاثة قرون من ٩١١ إلى ٦١٢ ق.م ، وشهد مرحلتين عظيمتين من مراحل القوة والازدهار والتوسع توسطتهما فترة ركود . وساعد آشور على التوسع فى المرحلتين أن أغلب شعوب الشرق القديمة فى مصر وبابل وإلام ، كانت قد بلغت أدوار شيخوختها ، وأن الجماعات المستحدثة فى الشرق بقيت على تفرقها ولم تلم شملها ، فانفسخ السبيل أمام آشور لتصول وتجول فيه حيث شاءت .

وبدأ أداد نيرارى المرحلة الأولى للتوسع الآشورى الحديث كما ذكرنا ، ولم يتجه فيها إلى فتوح بعيدة ، وإنما عمل على تثبيت قواعد حكمه واسترجاع الإشراف الفعلى لدولته على تخومها الغربية حول نهرى الفرات والخابور ، وإشعار أهل هذه التخوم ، والآراميين منهم بخاصة ، بسلطانه . ثم اتجه إلى تأمين حدوده الجنوبية ، ولما تعارض سلطانه فيها مع سلطان بابل العجوز حاربها مرتين وغلبتها جيوشه فى

---

(١) *op. cit.*, 18, 31 .



المرتين ، وأتى نصره عليها بمعاهدة حدودية اعترفت بسيادته على أرض السواد من الخابور فى الغرب إلى ما يجاور بغداد الحالية فى الجنوب الشرقى .

وسار خلفه توكلتى نينورتا الثانى (٨٩٠ - ٨٨٤ ق.م) الذى تميزت حولیات حروبه بما ذكرته من التفاصيل اليومية ، على سياسته فى إرهاب الآراميين ، فكان من ضحاياهم فى عهده قبيلة «بيت زمانى» التى اتخذت أميدى حاضرة لها (وهى ديار بكر الحالية) . وتتبعت جيوشه قبائلهم الجنوبية فى وسط العراق وفيما بين دور كوريجالزو (عند أبواب بابل) حتى سيبار [١] . ثم اتجهت حروبه إلى الشمال بغية إرهاب الجماعات الجبلية والوصول إلى حدود، يسهل احتلالها أو يسهل الدفاع عنها حسب مقتضيات الظروف .

ومنذ ذلك الحين اتجهت سياسة آشور إلى مثل ما رسمه لها تيجلات بيليسر ابتداء من عصرها الوسيط ، من حيث إرهاب بابل من حين إلى آخر ، وإخضاع القبائل الجبلية فى الشمال الشرقى ، وتوطيد سلطان الدولة على حدودها الغربية ومحاولة السيطرة الكاملة على الطرق التجارية والحربية التى تتجه غرباً إلى الشام حيث وفرة المنتجات والمخارج البحرية ، مع محاولة إضعاف الفروع الآرامية الغربية التى استمرت فى شرق سوريا وفى أواسطها وامتد نفوذها إلى موانيها البحرية ، ومحاولة الامتداد شمالا بغرب إلى جبال طوروس وآسيا الصغرى .

وتميز من كبار القائمين على تنفيذ هذه السياسة فى آشور ملكها آشور ناصر بال الثانى (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) وكان من وجهة نظر المصالح الآشورية أعظم شخصية ضارية وضارية فى المرحلة الأولى من عصرها الحديث . وقد ورث عن أسلافه الأقربين جيشاً محنكاً وخطة ثبتها هو وخلفاؤه ، وهى: إضرب قبل أن تضرب ، وهاجم قبل أن تهاجم ، واجعل تنكيلك بأقرب خصومك عبرة يخشاها بقية أعدائك [٢]. وبهذا استمر زحف الجيوش الآشورية ، التى استمدت قوتهامن تعاون المقاتلين على ظهور الخيل فيها مع الرماة والمشاة المدججين بالسلاح ، واستخدام أدوات حصار وهدم مطورة كانت منها ما سميت اصطلاحاً باسم الكباش أو الثيران التى تكاد تشبهها الدبابات الحالية وهى ذات أربع أو ست عجلات ومقدمة مدببة أو

---

(١) *op. cit.*, 31 .

(٢) انظر جون هامرتون تاريخ العالم - معرب بالقاهرة - الجزء الثانى - الخبر الثالث .

معاول ، ويبدو أنها كانت تدفع بقوة من بعيد لتنقب الحصون وتدكها ، وأخرى كانت تقوم مقام العربات المصفحة يستتر الجنود فيها وينقبون الحصون وهم في مأمن من سهام العدو، وأبراج متنقلة ليصعد الرماة في داخلها إلى مستوى أعلى أسوار العدو ويسددون أقواسهم على حماتها ، وما يشبه الخراطيم لإطفاء النيران التي يحتمل أن يصبها العدو على آلات الحصار . وقد تجمع أداة الحرب بين غرضين أو أكثر من هذه الأغراض . وكان إخضاع الجيوش الآشورية لكل منافس من منافسيها يوسع من حدود دولتها ، فتنساق بهذا إلى أعداء ومنافسين جدد مما يتطلب منها تكرار الإجراء نفسه . ويبدو أن إحاطة آشور بالأعداء والمنافسين من كل جانب قد زكى فيها على مر العصور روح التحدي وإظهار العنف في المعاملة وقسوة الانتقام ، رغبة في إشاعة الرهبة حولها وتعويض قلة أعداد أهلها .

أكدت نصوص آشور ناصر بال بمعبد نينورتا في كالخ أنه سيطر على المرتفعات الشرقية والشمالية الشرقية وأنه تلقى جزى الخاتيين ، وأنه ضرب في الشام حتى غمس أسلحته في بحر أمورو العميق (أي البحر المتوسط) وتلقى الجزى من الموانى والجزر (الفينيقية) الكبيرة : صور وصيدا وجبيل ، ومحلاتا ، ومايزا ، وأمورو، وإمارات الآراميين وأرواد التي في البحر ، وأنه صعد جبال لبنان ، وجلب (رجاله) أخشاب الأرز والصنوبر من جبال خامانا (أي أمانوس) لمعابد سين وشمش ربي النور، ولاستخدامها في قصره . ومع مبالغاته الواضحة ، امتازت الروايات التي أثبتت على لسانه في حولياته بحيوية فياضة وتفاصيل ممتعة ظهرت بوادرها في حوليات أبيه كما أشرنا ، ويقول فيها : ارتحلت إلى كذا، وجعلت كذا على يساري ، وعبرت نهر أورانتو مثلا (أي نهر العاصي) وقضيت الليل على ضفافه واحتلفت بعيد كذا في قصر كذا [١] ، وغالباً ما كان يفخر بعبوره نهر الفرات في قمة فيضانه مع جيشه الكبير على ناقلات ، وأصبح مثل هذا الفخر عبارة تقليدية رددتها نصوص خلفاته . وسجلت مناظر عهده عبور الفرات هذا ، فصورت نقل العربات على العابرات ، وسباحة الجند بجانبها ، واستعانتهم على تعويمها بقرب منفوخة من جلود الماعز ، وصورت نقل الملك بعربته في قارب خاص ، وسباحة الخيول طليقة في

(١) Luckenbill, *Ancient Records,* I, 476 f.

النهر أو مع إمساك جنود القوراب بأعنتها (١) .

وصبغت نصوص هذا الفاتح الآشورى حروبه وانتصاراته بطابع القسوة الشديدة والرغبة فى تخويف الخارجين على سيطرته ، فتحدثت عن أن رجاله كانوا يسلخون جلود كبار الأعداء أحياء وينشرونها على العمد والأسوار وأبواب المدن ، بالمسامير ، وكانوا يعذبون بعضهم على الأوتاد ويقطعون أيديهم ، ويجمعون جماجمهم فى أكوام أو ينثرونها على الأشجار ، ثم يحرقون مئات من الأسرى ولا يستثنون النساء ، ويجدعون أنوف آخرين ويصلمون آذانهم ويبترون أصابعهم ويسملون أعينهم ، أو يجعلون أجسادهم لبنات فى مبانيهم . وإن لم تمنع أمثال هذه المعاملة آشور ناصر بال من أن يشيد بفضل أربابه فى تأييده ، ويكرر اهتمامه بتقديم القرابين إليهم وحرصه على تخصص أخشاب أرز جبال أمانوس لأبهاء احتفالات معابدهم .

ولسنا مضطرين بطبيعة الحال إلى التسليم بحرفية هذين الضدين من المعلومات، ففى كل منهما مبالغة : مبالغة فى تصوير القسوة لتكون عبرة ، ومبالغة فى تصوير التقوى للتغطية على الأخطاء . وما ينطبق من حكمنا هذا على نصوص آشور ناصر بال ينطبق على نصوص غيره من الملوك القدماء .

ويفهم من بعض حوليات هذا الملك أن عملية توطين الآشوريين فى المدن المفتوحة ليصبحوا سادتها والمتنفعين بخيراتها وليخمدوا نشاط زعمائها ويكونوا عيوناً عليهم لدولتهم ، قد سبقت عهده وربما بدأت فى عهد شلما نصر الأول ، إذ تحدث أحد نصوصه عن أن جماعة منهم توطنوا فى منطقة جبلية فى الشمال الغربى قد أخذهم الغرور وابتغوا أن يتسعوا لحسابهم فى المناطق القريبة منهم فعاملهم بقسوة لا تقل عن معاملته لأعدائه الأجانب (٢) . وترك أخيراً ملكاً موطداً وترك معه قصراً عظيما فى كالح (نمرود) التى اهتم بها اهتمام شلمانصر الأول من قبله ويبدو أنها كانت تعتبر مصيفاً ملكياً (٣) ، ولا تزال بقايا قصره فيها من أروع المصادر لفن النقش فى عهده مما سنعود فيما بعد إلى ذكره .

* * *

(١) Budge, *Assyrian Sculptures in the British Museum*, Pls. XXI a - b, XXII a.

(٢) ديلابورت : بلاد ما بين النهرين - ص ٤١٨ - ٤١٩ .

(٣) *See*, Iraq, 1950.



استفاد شلما نصر الثالث (شلمانو اشاريدو) (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م) من جهود أبيه آشور ناصر بال وحمية دولته ، واستطاع فيما ذكرت نصوصه أن يسود غرب آسيا من الخليج العربى حتى جبال أرمينيا ، ومن الحدود الميدية حتى سواحل البحر المتوسط (١) . ولم يكن أقل اعتزازا بجبروته من أبيه ، فوصفته نصوصه أنه الأفعوان الكبير أوشوم جال (٢) (وكان لقب الأفعوان الكبير مما يوصف به الأرباب، وتلقب به حمورابى ثم انتحله الملوك الآشوريون ، ولعل فيه بعض الشبه بالصل الملكى المصرى) ، وأنه طحن أعداءه جميعاً كما لو كانوا من صلصال . وأنه المقتدر الذى لا يعرف الرحمة فى الحروب .. إلخ . وقد ساعدته الظروف فتدخل فى مشكلات عرش بابل ، ولم يكن ذلك بغير ثمن لصالحه وصالح دولته ، فقد أصبحت له اليد العليا على صاحب عرشها بعد أن ناصره ، وسمح له ذلك أن يتعداها بجيوشه جنوبا إلى كلديا والخليج العربى ، ويتلقى هدايا ملوكها (أو جزاهم على حد تعبير نصوصه) . وقد روت قوله عنها : «هبطت إلى كلديا وقهرت مدنها وسرت حتى البحر الذى يسمونه البحر المالح (الخليج العربى) ، وتلقيت فى بابل جزية أدينى بن داكورى من الفضة والذهب وخشب أوشو والعاج ...» . وصور فنانوه جزية بيت داكورى هذه يحملها أهلها بين صفوف النخيل ويشرف عليها حرساه وكتبته . وسجلوا صورها على أبواب قصره المكسورة بصفائح البرونز فى بلاوات (٣) .

وروت نصوصه فى اتجاهه بجيوشه ناحية الشمال ، أنه اكتسح أرض خاتى كلها وجعلها تلالا خربة كأنما اكتسحها فيضان . ولعلها أرادت بمات خاتى هذه أطراف العراق القريبة من آسيا الصغرى ، أو المناطق التى انتشر فيها بقايا الحيثيين القدماء بعد أن شتتهم أعداؤهم حول قرقميش (٤) ، وكان أبوه قد أشار إلى قتاله إياهم أيضاً . واعتز شلمانصر بزيارته منابع دجلة فى الشمال ، وقالت نصوصه على لسانه: «وبلغت منبع دجلة حيث ينبع الماء ، وغمست سلاح آشور فى مياهه ... ، وأقمت

(١) *See*, Luckenbill, *A. R.*, 475 f. ; Ernest Michel, "Die Assur - Texte, Salmanassars III", *Die Welt des Orients*, 1947, 57 f.

(٢) *See*, *ANET*, 267.

(٣) L. W. King, *Bronze reliefs from the gates of Shalmaneser*, London, 1915, Pl. 64.

(٤) *Cf.*, Luckenbill, *Ancient Records*, I, 475; II, 616 f.; *ANET*, 275 .



حفلا سعيداً ، وأمرت (بنقش) نصب باسمي وصورتي» . وصور الفنانون هذه الزيارة على أبواب قصره ، وهي زيارة اعتبرها L.W. King لأحد روافد دجلة العليا المسمى بالكاليم سو [١] . وعلى مقربة من هذه النواحي ، ذكرت نصوصه حملة له على أورارتو (أورارتي) ، وهو اسم يحتمل أن أطلقه الآشوريون على المنطقة التي سماها أهلها بياينياس شمال غرب آشور، وفيما يتركز حول بحيرة فان الحالية وجبال أرارات شرقي آسيا الصغرى . وكانت النصوص الآشورية قد بدأت ذكرها منذ عهد شلما نصر الأول في القرن الثالث عشر ق.م ، ولكنها زادت في عهد سميه شلما نصر الثالث فذكرت ملكاً من ملوكها ، ثم عادت بعد فترة فذكرت اسم سيدوري قائد أورارتو ، وهو اسم ذكرته أقدم نقوش الأورارتيين أنفسهم بلفظ «ساردوري» ، ويبدو أن شلما نصر قد أحرز بجيوشه نصراً هناك مما خلع عليه شيئاً من القداسة، وسمح لفنانه أن ينقش ما يصور تقديم القربان لصورته على سفح جبل قريب من بحيرة فان [٢] .

وكانت لشلما نصر (الثالث) ، أو لجيوشه بمعنى أصح ، قصة طويلة مع سوريا، امتازت نصوصه عنها بتضمينها عدة أسماء لا تزال حية في أسماء مدنها ومواقعها مع تحريفات وتصحيفات يسيرة مثل أسماء : خالمان عن حلب ، وأماة عن خماة ، ودمشقي عن دمشق ، وخاوراني عن حوران ، وأرانتو عن نهر الأورنت (العاصي) ، وخمري عن عمري ، وقرقرة عن قرقر ، وعمون .. وما إليها . غير أن الأهم من ذلك هو تضمينها اسم أريبو أو عريبو بمعنى العرب ، وأعراب البادية بخاصة ، وصفة أريبي بمعنى العربي ، لأول مرة في النصوص القديمة المعروفة ، واسم جنديبو تحريفاً لاسم أمير عربي يدعى جندب أو جندية ، واسم أخأبو تحريفاً للاسم العبري أخأب أو أحأب . وخطط شلما نصر لمهاجمة دمشق ، أكبر الإمارات الأرامية العربية. بعد أن أرهب هو وأبوه من قبله الإمارات الأرامية الأخرى التي توزعت بين الفرات وقلب الشام ، ولكن دمشق لم تكن صيداً سهلا على الرغم من طول منافساتها مع جيرانها من الأراميين والبدو والعبرانيين ، فعزمت على الوقوف في وجه جبروت الآشوريين ، وجمع أميرها أداد إدري أو (هداد عذيري؟) الأحلاف حوله من أهل الشام ومن العرب أو الأعراب ومن العبرانيين الذين تناسى معهم ضغائنهم القديمة ،

(١) King, *op. cit.*, 13 .

(٢) B. Pritchard, *The Ancient Near East in Pictures*, Fig. 155.



فى سبيل مواجهة عداء الغزو الآشورى العنيف ، وخف بهم إلى قرقرة حيث ضم إليه أميرها وجيشه.

وعبرت نصوص شلما نصر عن لقائه (أو لقاء قواته) مع أولئك الأحلاف بتعبيرات مسرفة ولكنها طريفة ولا بأس من الاستشهاد ببعضها كنموذج لأمثالها . فقد روت على لسانه ما يقول : «... حينما اقتربت من حلب (خالمان) خشى (أهلها) الحرب وارتموا على قدمى ، فتلقيت جزاهم فضة وذهباً وضحيت أمام أداد حلب ، ورجعت من حلب وبلغت مدينتى إرهولينى الحموى ، فهاجمتهما وهاجمت عاصمته أرجانا ، وتلقيت جزاه . واستوليت على ممتلكاته وحرقت قصوره ، ثم واصلت ا لمسيرة إلى قرقرة فمزقتها وحرقتها ودمرتها ، وكان (أميرها) قد جمع حوله ألفين ومائتى عجلة حربية ، وألفا ومائتى فارس ، وعشرين ألفاً من مشاة أداد إدرى الأمورى (الإمريشو أو الإمريشى) واستعان بسبعمائة عربة وسبعمائة فارس ، وعشرة آلاف من مشاة إرهولينى الحموى ، وألفى عربة وعشرة آلاف من مشاة أخأبو وأرض إسرائيل (؟) وخمسمائة جندى من قوى ، وألف جندى من مصرى ... ، وألف (راكب) جمل من جنديبو الأريبى (أى جندب أو جندبة العربى) ، و... ألف من بأسا بن روهوبى العمونى .. ، (وكلهم) إثنا عشر ملكاً تأهبوا لملاقاتى فى معركة حاسمة ، فقابلتهم بقوات آشور العظيمة التى هيأها لى مولاى آشور ، وبالأسلحة التى قدمها لى مرشدى نرجال ... ، وأوقعت بهم الهزيمة بين مدينتى قرقرة وجينزاو ، وذبحت ألفاً وأربعمائة من جنودهم بالسيف، وانحطت عليهم انحطاط أداد حين يرسل عواصفه الممطرة مدراراً ، وبعثرت جثثهم (فى كل مكان) ، وملأت السهل كله بهم ، وأجريت دماءهم ... ، وضاق السهل عن نزول أرواحهم (إلى العالم السفلى) ... ، وجعلت جثثهم معبراً على نهر الأرانتو (الأورنت) ....» .

وهكذا أكد شلما نصر انتصاره على خصومه الأراميين وحلفائهم فى موقعة قرقر حوالى عام ٨٣٣ ق. م ولكن كانت هذه من المرات النادرة – بمحض الصدفة – التى سجل الأراميون فيها وجهة نظرهم فى مواجهة آشور ، وقد أكدوا فيما سجلوه عنها أنهم أحرزوا فيها نصراً كبيراً . ولن نملك إزاء تضارب المصدرين إلا أن نفترض أن موقعة قرقر هذه لم تكن حاسمة لأى طرف من الطرفين ، لاسيما وأن الكتبة الآشوريين قد أعادوا ذكر انتصار ملكهم وتغنوا به مراراً وتكراراً فى نقوش قصوره وعلى العمد والنصب ؛ مما يعنى تكرار حروب الأراميين ضده ، أو هو يعنى تقديرهم



الكبير لقوة الأراميين وحلفائهم واعتبار النصر عليهم ، أى نصر ، كسباً كبيراً ومجداً عظيماً . ويبدو أن الحلف الذى استشهدنا برواية شلما نصر عنه ، لم يكن الحلف الوحيد الذى حاول الأراميون تكوينه على الرغم من انسلاخ أخأب الإسرائيلى وقومه عنهم ، فقد تحدثت النصوص الآشورية عن تحالف أداد إدرى مع أمير حماة واثنى عشر ملكاً نسبتهم إلى ساحل البحر حيناً وإلى ساحل البحر الأعلى والبحر الأسفل حيناً آخر ، وضمت إليهم كل ملوك خاتى مرة ثالثة ، ثم جعلتهم خمسة عشر ملكاً مرة رابعة . وتبارى الكتبة الآشوريون فى تضخيم أعداد قتلى خصومهم الأراميين فيما بين العام السادس والعام الرابع عشر من حكم ملكهم ، فتارة هم ألف وأربعمائة ، وتارة خمسة وعشرون ألفاً ، وتارة عشرون ألفاً وخمسمائة ، وتارة عشرون ألفاً وتسعمائة ... إلخ . وعلى أية حال فلم تهن عزيمة دمشق، ومن بقى على الولاء لحلفها إلا بعد أن مزقتها الأطماع الداخلية ، فاغتيل أداد إدرى ، وولى بعده حزائيل ، وكان ذا كفاية حربية مثله ، وإن كانت النصوص الآشورية قد ادعت أنه مجهول الأب . وروى شلما نصر قصته مع هذا الأمير الجديد قائلا : «وهلك أداد إدرى ، وأصبح حزائيل أميراً على دمشق ... ، وفى العام الثامن عشر من حكمى عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة وكان حزائيل الأمورى (خزائيل الأمريشو) قد اطمأن إلى جشيه الكثيف وتحصن فى جبل سنير (سا – نى – رو) المواجه للبنان فقاتلته وأنزلت به الهزيمة وقتلت ١٦٠٠٠ من رجاله بالسيف ، واستوليت على ١١٢١ عابة ، و٤٧٠ جواداً ، وسيطرت على معسكره ولكنه فر بنفسه فتتبعته إلى دمشق عاصمته . وقطعت بساتينها ... ، وواصلت المسيرة حتى جبال حوران (شادى مات خاورانى) مدمراً وممزقاً ومحرقاً مدناً لا عدد لها ومستولياً على أسلاب لاحصر لها ... ، ووصلت حتى جبال بعلى رأسى بجانب البحر وأقمت هناك نصباً بصورتى ، وتلقيت حينذاك جزى أهل صور وصيدا وياهو بن (أو أمير) عمرى .

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة بين الآشوريين وبين حزائيل، وإنما تكرر لقاؤهما مرات، وكانت إحدى هذه المرات فى العام الحادى والعشرين من حكم شلما نصر . وترتب على إضعاف دمشق أخيراً ما يسر للآشوريين بسط سلطانهم على الإقليم الواقع شماليها والممتد فيما بين الفرات وبين البحر المتوسط . وروى ملكهم هذا الأمر بأسلوبه الخاص فقال فى نصوصه : «اكتسحت مدن أرض أمورو العليا فصارت

تلالا فى مهب الريح العاصفة ، وسرت منتصراً على طول شاطئ البحر الكبير» (١) .
ويبدو أن موانى فينيقيا آثرت السلامة حرصاً على أمنها التجارى ، فراسلت شلما نصر بهداياه واحتراماتها ، وإن كان فناتوه قد اعتبروا هذه الهدايا جزى وأسلاباً ، فصوروا على أحد أبواب قصره هيئة ميناء صور فوق جزيرة صخرية وسط البحر تنتقل منها قوارب الجزى حتى الشاطئ حيث يساعد على رسوها رجال يجرونها بحبال ، ثم صوروا حمولتها تنقل تحت إشراف الحرس الآشورى إلى حيث يستقبلها الملك بنفسه (٢) . ونقش فنان آشورى لملكه نصباً تاريخياً يشيد بأعماله على سفح جبل يجاور نهر الكلب قرب بيروت ، إلى جانب لوحة تاريخية ضخمة قديمة للرعون المصرى رمسيس الثانى (٣) . ثم ضمن بعض فنانيه أغلب أحداث عصره نقشاً وتصويرا على قائم منحجر أسود ذى أربعة أوجه يقل قطره إلى أعلى على هيئة جسم المسلة ، لولا أن قمته شكلت على هيئة ثلاث درجات صغراها هى أعلاها (على عكس المسلات المصرية المدببة الطرف) ، وشغلوا وجوهها الأربعة بنقوش وصور قليلة البروز للغاية ووزعوا مناظرها فى أربع وعشرين لوحة ضمنوها بعض صور الأسلاب والغنائم والجزى وخضوع الأعداء . وعندما أرادوا أن يعبروا عن خضوع إسرائيل لملكهم صوروا ملكها ياهو بن عمرى (وهو فى واقع ليس من بيت عمرى وإنما ولاه الكهنة بعد انهيار بيت عمرى) ساجداً بين يدى الملك ويشرف عليه من على رمز المعبود آشور ورمز المعبود شمش ، وكأن خضوعه لم يكن للملك وحده وإنما لأربابه أيضاً . وتضمنت مناظر الغنائم وحدات تقليدية من حملة الجزى وبيئات الصيد، ومن أطرافها تصوير جمال ذات سنامين (من بكتريا) ، وفيلة من منطقة مصرى فى سوريا ، وقردة بوجوه بشرية مفتعلة (٤) .

نهاية مرحلة :

ادعت نصوص شلما نصر الثالث فيما ادعته ، أنه قاد اثنتين وثلاثين حملة خلال فترة حكمه التى امتدت خمسة وثلاثين عاماً . ولكن نشبت فى نهاية عهده

(١) King , *op. cit.*, 2.

(٢) *Ibid.*, Pl. 13 .

(٣) Pritchard, *op. cit.*, Fig. 103.

(٤) *Ibid.*, Fig. 100 .



فترة ضعف بدأت بخروج ولده الأكبر عليه بسبب ما هضمه حقه في ولاية العهد وتخطيه إياه إلى أخيه الأصغر شمشى أداد الخامس ، ثم حدوث حرب أهلية استمرت نحو ست سنوات .

وظلت آشور نحو ثلاثة أرباع القرن من الزمان (٨٢٤ - ٧٤٥ ق.م) تتلقى ضربات جيرانها الأراميين والبابليين وثورات السوريين والفلسطينيين والعبرانيين حيناً، وتضربهم هي حيناً آخر ، ولكن بغير نتائج حاسمة لها أول جيرانها . وظل ملوكها يدعون أنهم تلقوا خضوع ملوك أركان الدنيا الأربعة من مشرق الشمس عند البحر الكبير إلى مغرب الشمس عند البحر الكبير ، ولكن بغير دليل صحيح . بل حدث على العكس من ذلك وفى عهد شمشى أداد الخامس بالذات أن تجرأت قوات أوراتو (أرارات وبحيرة فان) فاتجهوا جنوباً بشرق حتى الحدود الآشورية وسجل كتبتهم هناك نصباً بانتصارهم بلغتهم الخاصة ، وباللغة الآشورية ، وفرضوا الجزية على ميليتيا أو ملاطية الحالية وما يجاورها .

واحتفظت روايات المؤرخين الإغريق فيما سمعوه عن هذه الفترة بقصة محورة لملكة أطلقوا عليها اسم «سميراميس» تحريفاً فيما يبدو للاسم الآشورى «سمورمات» أو «شميرام» . ولعلها كانت وصية على ولدها أداد نيرارى الثالث من زوجها شمشى أداد الخامس . ورووا أنهم سمعوا أسطورة تدعى أن أمها كانت إلهة تعبد في عسقلان قرب البحر، ويرمز إليها بصورة نصفها سمكة ونصفها حمامة، ولما ولدت ابنتها على هيئة بشرية سوية تركتها للحمام يرعاها ، ولهذا سميت محبوبة (رمات) الحمام (سمو) . ثم عثر عليها كبير رعاة ملك آشور ورباها ، وتزوجها حاكم نينوى «أونيس» . ولكن ملك آشور العظيم «نينوس» طمع فيهاوأجبر زوجها على التخلى عنها فانتحر ، ولجأت هى إلى الحيلة لتنتقم له ولنفسها، فمكرت بالملك الغاصب وطلبت منه أن يعهد إليها بالعرش والسلطان خمسة أيام فرضى ، واستغلت هى سلطانها المؤقت وأمرت بسجن الملك ثم قتلته ، واستأثرت بالعرش بعده أكثر من أربعين عاماً .

أما من حيث الواقع ، فقد استطاع أداد نيرارى الثالث (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م) بعد أن اشتد عوده وانتهت وصاية أمه عليه ، أن يحافظ على القليل الباقى من إرث أجداده ، وساعده الحظ فهادته أو تمسحت بسلطانه الاسمى بعض إمارات فلسطين

ومنها منطقة إدوم ، ويبدو أن غيرتها من جارتها دمشق قد رمتها في أحضانه ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هى أن زادت العزلة على دمشق وزادت وهناً على وهن، وفى هذه الظروف روى كتبة الملك الآشورى أنه أخضع أرض أمورو وأرض عمرى وإدوم وفلسطين (بالاستو ، بالاشتو) ، وأن ملك دمشق اضطر إلى أن يعتبر نفسه تابعاً له وقدم له جزاه فى قصره بدمشق . ويبدو أن مهادنة دمشق له كان لها ظل من الحقيقة فعلا منذ عام ٨٠٢ ق. م [١] . أما فى الشرق والشمال فكان أهم ماتضمنته نصوص أداد نيرارى الثالث هذا من أسماء الأقوام التى تلقى جزاها (أو وصلته متاجرها وهداياها بمعنى أصح) ، اسم أرض الماذيين، وفارس (باراسو) ، وسوف يكون لهؤلاء وهؤلاء أثر وأى أثر فى المستقبل البعيد لإيران وآشور وبلاد النهرين كلها .

ولكن ما لبثت الفتن الأهلية أن عادت بعد عهده ، ومزقت وحدة آشور وأضعفت هيبتها، فأفلت منها ما كان قد هادنها أو والاها من بلاد الشام ، وتراجعت الجيوش الآشورية مدحورة أمام تقدم نفوذ ساديوس وأرجستوس حاكمى أورارتو ، وابتدأت أسباب التقارب بين البطائح الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية وبين الماذيين، وانتهزت بابل المغلوبة على أمرها الفرصة فاستعادت انفصالها عن العجلة الآشورية ، وإن ظلت على حالها من الضعف القديم .

وفى حمأة هذه المشكلات الداخلية والخارجية سجلت النصوص الآشورية حدوث كسوف كلى للشمس وافق عام ٧٦٣ ق. م . ورتبت عليه ما شاءت من تعليقات عقائدية وخرافية [٢] . وفى هذه الظروف كذلك طويت صفحة المرحلة الأولى من العصر الآشورى الحديث .

* * *

---

(١) وبدأت نصوص شلما نصر الثالث بذكرهما فى عامى ٨٤٤ و٨٣٦ ق. م .

Luckenbill, *A. R.* 734 f., 739 f., *ANET,* 281 - 282 .

(٢) انظر جون هامرون : المرجع السابق .



مرحلة الأمجاد الأخيرة من العصر الآشورى الحديث :

بدأت المرحلة الثانية للتوسع الآشورى الحديث فى عام ٧٤٥ ق. م بولاية تيجلات بيليسر الثالث ، الذى ذكرته بعض النصوص البابلية باسم «بولو» . ويحتمل الاسمان أكثر من تفسير واحد ، فقد يكون اسم بولو هو اسمه الشخصى ويدل بهذا على أنه لم يكن من صلب البيت الحاكم أصلا ، وإذا صح هذا أمكن افتراض أنه كان من قادة الجيش نظراً لما تجلى من مهاراته الحربية فيما بعد ، ولما اعتلى العرش تيمن باسم الفاتح القديم تيجلات بيليسر الأول وتسمى باسمه ، أو يكون اسم بولو مجرد مرادف بابلى اخترعه البابليون له لغرض ما فى نفوسهم .

وأراد الحاكم الجديد تيجلات بيليسر أن يثبت قوة شخصيته، وأن ينتشل آشور من وهدته ، فاتجه بفتوحه إلى حيث اعتاد الملوك العظام من قبله ، وبدأ ببابل القريبة منه فهيمن عليها بعد مشقة وعهد بأمرها إلى صنيعة له يدعى نابو نصر ، ثم اتجه بجيوشه إلى سوريا وبعد حروب عامين استعاد أغلبها للنفوذ الآشورى ، وأراد أن يعقب على ذلك بمواجهة سارديوس أمير أورارتو ، ولكن دمشق التى خضعت له على مضض أعلنت ثورة عنيفة ضده عام ٧٩٣ ق. م ، فأصبح يضرب بجيوشه فى الجهتين واستطاع أن يوهن أورارتو ، ولكنه كان أكثر ضراباً فى الشام ، وذكرت نصوصه من بلدانها إلى جانب الأسماء القديمة التى رددتها نصوص أسلافه ، أسماء عسقلان ومؤاب وغزة التى لجأ حاكمها إلى مصر. ثم تدخل فى مشكلات العبرانيين وعين عليهم هوشع ملكاً بعد أن خلعوا ملكهم ، وجعله صنيعة له بينهم [١] .

والتفت الرجل إلى بابل مرة أخرى ، وكانت قد شهدت تنافساً مسلحاً على عرشها ، بعد وفاة نابو نصر العميل الآشورى فيها . وظهر من أشد المتنافسين على حكمها آنذاك مردوك أبال إدين الثانى الذى ذكرته التوراة باسم مرداك بالادان . فانحطت جيوش تيجلات على المتنافسين وأجبرت مردوك أبال إدين على الفرار ، وخضعت بابل للحكم الآشورى المباشر ، ثم تقلد تيجلات تاجها وخلع على نفسه ألقاب ملوكها ولا سيما لقب ملك سومر وأكد ، فى عام ٧٢٩ أو ٧٢٨ ق. م .

(١) *ANET*, 284 .



واتبع تيجلات بيليسر أربع وسائل لتثبيت قبضته على أطراف دولته وممتلكاته ، وهى : تعيين حكام آشوريين على مدنها الكبيرة دون الاكتفاء بحكامها المحليين ، وإيفاد مندوبين فوق العادة لتفقدها وتنفيذ مطالب دولته منها ، وربما كان من أولئك المندوبين من لقبوا بلقب رابشاق الذى ذكرته بعض قصص التوراة[١] ولقب «قيبو» الذى قد يعنى معنى القيم أو الرقيب ، وفرض عبادة الأرباب الآشوريين على بعض أهل المدن العنيدة (مثل غزة) ، ثم تشريد أغلب الخطرين من أهل المناطق المفتوحة ، وتهجير أغلب الأيدى العاملة منهم إلى بلاد أخرى بعيدة عنها، حتى لا تقوم لبلادهم قائمة ، مع إحلال غيرهم من مناطق بعيدة محلهم حتى يضغطوا على السكان الأصليين أو يظلوا بينهم أغراباً مستضعفين ، وتهجير بعض آخر إلى دولة آشور نفسها حتى يظلوا تحت إشراف حكامها وحتى يمكن استغلالهم فى خدمتها استغلالا مباشراً ، فضلا عمن يستعبدون منهم استعباداً تاماً عند خاصة أهلها . وكان من هذا القبيل أن أمر فى عامه الثالث بتهجير ثلاثين ألفاً وثلاثمائة شخص من سكان المنطقة السورية التى تمتد بين حماة وبين البحر إلى منطقة تسمى كو ... ، وتهجير ١٢٢٣ آخرين إلى منطقة الأبا [٢] . ويبدو أنه أحل محلهم سكاناً جلبهم رجاله من منطقة لولومو فى جبال زاجوراس ومنتايير قرب بحيرة فان. وهجر بأمره فى عام آخر عددا كبيرا من أهل «بيت خومريا» [٣] ، أى أرض عمرى فى منطقة العبرانيين ، إلى آشور . بل وروت نصوصه أنه هجر بأمره أكثر من مائة ألف من أنصار المتنافسين فى بابل نفسها بعد أن أخضعها لحكمه المباشر . وكثيراً ما كان التهجير يتضمن نقل (تماثيل) معبودات الأعداء إلى آشور وولاياتها القريبة ، باعتبارهم أسرى حرب حيناً ، وباعتبارهم لاجئين تخلوا عن نصرة مواطنيهم لسوء أعمالهم والتمسوا الحماية من أرباب آشور ضدهم [٤] ، وكانت لهذه السياسة سابقة منذ عهد حمورابى (٥٢٨) .

---

(١) *See for* "Rabshaq" : W. Manitius, *ZA*, XXIV, 199 f.; *B.* Meissner, *Babylonien und Assyrien*, I, 103 .

(٢) Luckenbill, *Ancient Records*, I, 770 .

(٣) *Ibid.*, 819 .

(٤) انظر كذلك خالد الدسوقى : الاستعمار الأشورى وسياسته الدينية فى القرنين الثامن والسابع ق . م ، مقال غير منشور .



ومن أهم ما يرتبط بعهد تيجلات بيليسر ، من وجهة النظر العربية ، هو صدام جيوشه مع قبائل عربية كثيرة انتشرت على الطريق التجارى القديم فى شمال شبه الجزيرة العربية بين البحر الأحمر وبين العراق وذكرت نصوصه أسماء فريدة يتناولها بحثنا لتاريخ شبه الجزيرة العربية [1] . ومنها اسمان لملكتين أطلقت على كل منهما لقب «ملكة أريبى» وهما : ربيبى (تحريفا فيما يبدو عن زبيبة) ، وقد ذكرت أنها أدت الجزية لآشور واعترفت بالطاعة لملكها ، ثم سمسى (تحريفاً عن شمس) وذكرتها النصوص الآشورية فى مناسبتين : مناسبة أدت الجزية فيها للملك الآشورى فى بداية عهدها ، ومناسبة أخرى قلبت له فيها ظهر المجن ونقضت إيمانها بالمعبود شمش ، على حد تعبير النصوص الآشورية ، فساعدت الأراميين أعداءه وتركت رجالها يتعرضون لقوافله ، فحاربها الآشوريون حتى أجبروها على الفرار، وضيقوا على كثير من أعوانها حتى أهلكهم الجوع ، فاضطرت إلى الإذعان وتأدية الجزية ، ولكن الملك الآشورى لم يطمئن إلى إخلاصها فعين رقيباً أو قيماً على بلادها بلقب «قيبو» ليشرف على توجيه سياستها ويكتب إليه عن أمرها [2] . ولم يكتف الآشوريون بأن يسجلوا نصرهم على الملكة شمس بالكتابة وحدها، وإنما سجلوه تصويراً ورمزاً أيضاً (راجع فيما بعد) . وأدرك تيجلات بيليسر أن أعراب الصحراء لن يتمكن منهم غير واحد منهم، فاستمال إليه بعض شيوخهم ، وعين الشيخ إيديبيئيل مشرفاً على منطقة تدعى مصرى [3] ، يبدو أنها كانت قريبة من الحدود المصرية الشمالية الشرقية عن أطراف سيناء .

ولم يسلم أهل الشام للآشوريين وملكهم تيجلات بيليسر تسليماً مطلقاً ، وإنما انبعثت ثوراتهم من حين إلى آخر ، وظلت مصر ملجأ للفارين من وجهه ، مثل هانو أمير غزة (خانونو الخزاتى) . وزادت هذه الثورات بعد وفاته ، فثارت صور ضد ولده شلما نصر الخامس (٧٢٧ – ٧٢٢ ق. م) واستعصمت بجزيرتها وأسوارها. وتطلع العبرانيون حينذاك إلى عون مصر فأعانتهم (أسلفنا ذكر ذلك فى الجزء الأول من

(١) عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة (محاضرات) – إصدار رابع – القاهرة ١٩٨٨ – ص ١٣٦ – ١٣٨ .

(٢) Luckenbill, *op. cit*, I, 777 f.; *ANET*, 283, 284 .

(٣) *IBIDEM*.

الكتاب) ، ولهذا امتد حصار جيشه لعاصمتهم السامرة (سامرينا) ثلاث سنين دون جدوى ، فى الوقت نفسه الذى استنفذت فيه قوى بقية جيوشه فيالشام فى إخضاع صور .

ولم تكن بابل أقل ضيقاً بالحكم الآشورى ، فاستغل الأراميون الكلدانيون تذمرها وسعوا إلى استعادة عرشها . وترتب على ذلك كله أن عرش آشور لم يستمر فى أسرة تيجلات بيليسر الثالث غير جيلين ، وانتقل منها فى عام ٧٢١ ق. م إلى أسرة شروكين الثانى أو سرجون الثانى على حد شهرته فى الكتب التاريخية ،وهو رجل لم يكن أقل كفاية من سميه شروكين الأكدى القديم .

* * *

كان من المشكلات التى واجهت سرجون الثانى فى بداية عهده أن انتهز مردوك أبال إدين كبير بيت باكين الكلدانى فترة البلبلة التى صحبت تغيير الأسرة المالكة الآشورية ، فاستعان بقوات إلامية على استرداد سلطانه على بابل ، وهزم الجيوش الآشورية بمعاونتهم وأعلن نفسه ملكاً فى العام نفسه الذى اعتلى فيه سرجون عرش آشور أو بعده بعام واحد . وتحالف روزاس ملك أورارتو (وخليفة سارديوس) مع الماذيين فى إيران فى جانب ، ومع الفريجيين فى آسيا الصغرى (أو الموشكيين على حد تعبير النصوص الآشورية) فى جانب آخر ، وبدأ الأحلاف يعملون لحسابهم ويحطمون من بقى على الولاء لآشور من جيرانهم حتى حماة وأرواد ، وعاونتها مصر هنا وهناك .

وأجل سرجون أمر بابل وأوراتو وآسيا الصغرى والماذيين أيضاً ، بفلسطين فأخضعها بجيوشه وأتم فتح السامرة العاصمة الشمالية للعبرانيين وخربها وشرد أهلها وأنهى استقلال دولتها ، مما سنعود إلى تفصيله والتعليق عليه بعد قليل . ثم أخذ يضرب بقواته شمالا وشرقاً ، ضد أهل أورارتو ، وضد الماذيين ، الذين روى أنه أسر ملكهم دايوكو ، وضد أهل إقليم كيليكيا (خيلاكو) الذين حرضهم ضده ميداس الفريجى (أو ميتا ملك موشكى) .

وفرغ سرجون أخيراً لمشكلة بابل بعد هزيمة جيوشه فيها باثنى عشر عاماً أمام الكلدانيين والإلاميين (العيلاميين) ، فانفرد بالكدانيين الذين تركهم حلفاؤهم الإلاميين لمصيرهم ، واسترجع التاج البابلى . وفر مردوك أبال إدين أمامه إلى

الجنوب وأخذ معه أشراف بابل رهائن ليساوم بهم حين الحاجة . أما بابل نفسها فقد سلكت سبيل المدن المغلوبة على أمرها ، ففتحت أبوابها لسرجون المنتصر ، واعتبرته محررها ، واستبدلت السيادة الآشورية بالسيادة الآرامية فى عام ٧١٠ق.م ولم يطل الصراع بين الآشوريين والآراميين بعدها ، فاجتاحت جيوش سرجون جنوب العراق وشردت بعض أهل بيت ياكين ، وأحلت محلهم أسرى من أهل الجبال الشماليين ، ولكن سرجون عفا عن زعيمهم مردوك أبال إدين واعتبره حاكماً محلياً فى أرض الجنوب ، سواء لإرضاء الأراميين ، أو لإظهار نفسه بمظهر المترفع عن ملاحقته بعد أن أفقده عزه وشهرته .

وكانت لجيوش آشور فى عهده جولات مع قبائل عربية ، ذكرت نصوصه منها قبائل ثمودى والسبئيين ومملكة سمسى مما نناقشه بتفصيل فى معالجتنا لتاريخ شبه الجزيرة العربية (١) .

واتبع سرجون طريقة تيجلات بيليسر فى معاملة المدن المغلوبة ، وهى تهجير عتاة أهلها وإحلال غيرهم محلهم ، ووضح هذا الإجراء الأخير فى عهده أكثر مما وضح فى عهد أسلافه ، وكان يتخير (عن طريق أعوانه) المهجرين الجدد من مناطق متباعدة حتى لا تتحد كلمتهم عليه ، ويتخير من صفوف المبعدين إلى آشور مشاة وفرساناً يلحقهم بحرسه الخاص أحياناً ليزيد ارتباطهم بشخصه بعد أن فقدوا ارتباطهم بوطنهم ، ومن ذلك على سبيل المثال أن روت نصوصه أنه عمل على تهجير ٢٧,٢٩٠ من أهل السامرة العبرانيين إلى مناطق أخرى بعيدة مثل حران وضفاف الخابور وأطراف ماذى، وعمل على إسكان قوم آخرين مكانهم ، بعد أن أمر بإعادة بناء السامرة إلى أكبر مما كانت عليه، ولكن دون أن يعيد إليها استقلالها ، وعين عليها حاكماً جديداً يؤدى الجزية إليه ، وظل يرسل إلى أرضهم من شاء تهجيره من مشاغبى البلاد الخاضعة ، فأرسل إليها ٧١٥ من عرب البادية و٧٠٩ من البابليين العصاة . وفعل بالمثل مع منطقة حماة، وتخير من أسراها ٦٠٠ فارس من ذوى الدروع الجلدية والحراب وضمهم إلى حرسه الملكى ، وهجر مكانهم إلى حماة ٦٣٠٠ آشورى . وفرض أوضاعاً خاصة على البلاد التى فتحها عنوة أو أتبعها لسلطته المباشرة ، دلت عليها عبارات مختلفة وردت على لسانه فى سياق نصوصه ، مثل

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق



قوله عن أهل أشدود : «واعتبرتهم رعايا آشوريين وحملوا نيرى» ، ومثل قوله عن مستوطنين آشوريين فى قرقميش «وفرضت نير مولاى آشور فوق رقابهم» (١) . ولعله عنى بذلك اعتبارهم رعايا آشوريين (من درجة ثانية) فى مقابل التزامهم بالضرائب والخدمات للملك والدولة والتزامهم بعبادة الآلهة الآشورية وتقديم القرابين لها، وهو ما سبق لنا افتراض مثله فى التعقيب على بعض عبارات التشريعات الآشورية (ص ٥٨٤) .

أكثرت نصوص سرجون من ترديد أخبار انتصاراته على عدد ممن أسلفنا ذكرهم من خصومه العتاة، لا سيما حكام حماة وقرقميش وأشدود وغزة ، وقائد مصرى دعته باسم سببئه (؟) ، فضلا عن أراميى بابل وأمراء أورارتو . ولن نناقش هنا مدى الصحة فى أخبار هذه الانتصارات، ما دمنا لا نملك دليلا للأسف على نقضها ، فيما خلا حديثه عن مصر ، وحسبنا مما سنذكره عن معاركه ما تنم عنه من صور الغليان فى عهده، وما تدل عليه من أن اتساع رقعة الدولة كان يقتضى عيناً ساهرة على الدوام ، وأن شعوب المدن المتحضرة فى الهلال الخصيب لم تتقبل التوسع الآشورى راضية ، وأن النجاح فى بسط النفوذ عن طريق القوة الباطشة شىء، واستقرار أمور الدولة بعد اتساعها شىء آخر . وإن كان مما يعترف به لسرجون بالذات أنه كان سريع التصرف فى مواجهة المشاكل ومتاعب الحروب ، وأنه كان حريصاً على بث عيونه فى أنحاء دولته ليكتبوا له باستمرار عما يجرى فيها وما يتوقعونه منها . وتضمنت النصوص الآشورية أخبار طريفة عن أولئك الخصوم لا بأس من الاستشهاد ببعضها . فقد بلغ من حقدها على حاكم حماة أن اعتبرته حيثيا سوقيا ملعونا مغتصباً للحكم ، وما ذاك إلا لأنه حرض مدن أرواد وسميرا ودمشق والسامرة ضد الآشوريين، وكون حلفاً يشبه حلف قرقر القديم ، بل واتخذ قرقر بالذات مركزاً لنشاطه العسكرى ، ويحتمل أن مصر أيدته وعاونته . وعندما انتصر الآشوريون عليه سلخوا جلده . ووصفت النصوص الآشورية حاكم قرقميش بالوصف نفسه ، فاعتبرته حيثيا خائناً للعهود ، وما ذاك إلا لأنه تعاون مع ميداس الفريجى (ميتا الموشكى) على تحرير بلديهما من تدخل النفوذ الآشورى . واعتبرت النصوص نفسها أهل أشدود فى فلسطين حيثيين أيضاً، وما ذاك إلا لأن ملكهم امتنع عن دفع

(١) Luckenbill, *A. R.*, II, 8, 30; *ANET*, 284, 285, 286 .



الجزية وحرض جيرانه على أن يفعلوا فعلته، فعزله سرجون وولى أخاه الصغير على عرشه ، ولكن أهل أشدود كالوا له الصاع صاعين ، فعزلوا صنيعته وأمعنوا فى مضايقته وطردوه ، وعينوا رجلا من غير الأسرة الحاكمة ، اعتبرته المتون الآشورية «إيونيا» (١) مغتصباً للسلطة وغير أهل لها ، ثم روت على لسان سرجون أنه جن جنونه عندما سمع بخبره ، فلم ينتظر تجييش جيوشه وركب عربة مدنية، وهرع بها هو وحرسه الخاص على حد قوله ، واتجه فوراً إلى أشدود ، ففزع الإيونى ولجأ إلى الحدود المصرية . وحاصر سرجون المدينة حتى سلمت له هى وجيرانها فغنم منها ونهب وسبى ، وعين حاكماً آشورياً على منطقتها ، ونقل إليها مهجرين من المناطق الشرقية واعتبرهم رعايا آشوريين (٢) . ولم تبرأ رواية سرجون عن كل ذلك من ادعاء وتهويل ، فقد ذكرت رواية آشورية أخرى أن أهل أشدود حصنوا مدينتهم ضده وأحاطوها بخندق عميق يزيد عمقه عن عشرة أمتار ، وراسلوا مصر وأمراء جنوب فلسطين وبعض جزر البحر ، فخرج سرجون إليهم بجيش كثيف عبر به الدجلة والفرات إبان اشتداد فيضانهما الربيعى (٣) . وذلك مما يعنى أنه لم يفلح فى هجومه بحرسه الخاص الذى قص قصته فى روايته السابقة ، فارتد عن المدينة وعاد إلى بلده واستعان عليها بكثير من جنده .

وكانت لسرجون قصة قصيرة مع مصر، ذكرنا طرفاً منها فى سياق التاريخ المصرى حين استجابت مصر لنداء هانو حاكم غزة الذى لجأ إليها منذ عهد تيجلات بيليسر ، وساعدته على تكوين حلف يناهض الآشوريين ، وعهدت بمعاونته إلى قائدها ونائب ملكها الذى أسلفنا أن المصادر الآشورية أطلقت عليه اسم «سيبئة» (٤) ولقب تورتان (أو تورتانو ، زو تارتانو) باعتباره لقباً عسكرياً

(١) For *Iamani and Iodna as "Ionian"* See, Luckenbill, *ZA*, XXVIII (1913), 92 f.

(٢) Luckenbill, *A. R.*, II, 30, 63, 97 f., etc .

(٣) *Ibid.*, 193 f.

(٤) ورد هذا الاسم فى سياق قصص التوراة أيضاً (الملوك الثانى ١٧ : ١ - ٦) ، وانظر ص ٣١١ ، وعن تخمين أصله المصرى المحتمل ، يراجع :

Kee, *G. G. A*, 1926, 426; Ranke, *Keilschriftliches Material zur Altaegyptischen Vokalisierung,* 38; Helene von Zeissl, *Aethiopen und Assyren in Aegypten...*, 1944, 18 f.; *See also, Vetus Testamentum,* 1952, 164 - 168; 1970, 116 - 118.

وإدارياً كبيرا (١) ، ويبدو أنه كان يقيم فى رفح . ولم تذكر المصادر المصرية المعروفة شيئاً عن هذه الحادثة ، ولكن الآشوريين رووا أنهم انتصروا على الحلف وأسروا حاكم غزة (٢) . ثم زادوا على ذلك فرووا أن الملوك المصريين النوبيين الذين ولوا عرش مصر فى ذلك الحين «أولئك الذين لم يتعودوا أن يسألوا عن صحة أجداد سرجون (اعتداداً بأنفسهم واستهانة بالآشوريين) آثروا عدم الاصطدام به وتركوا الإيونى حاكم أشدود الهارب لمصيره (٣) .

وأضافت المصادر الآشورية اسمين أثارا مشكلة عويصة ، فروت أن ملكها تلقى جزى برءو (برعو) ملك مصرو (٤) ، كما روت أنه تلقى اثنى عشر جواداً كبيراً لا مثيل لها هدية من شيخينى (أو شلكانى) ملك مصرى ، وأشارت معها إلى ما سمته باسم مدينة نخل مصر (٥) . ويبدو أن هذه الأسماء لم تكن لها صلة وثيقة بمصر بمعناها المعروف حيث ذكرت النصوص الآشورية اسم برءو (برعو) ملك مصرو مع رؤساء البادية مثل سمسى ملكة أريبى ، ويثع أمر السبئى ، مما قد يعنى أن منطقة مصرو كانت من مناطق البادية أيضاً ، ويغلب على الظن أنها كانت قريبة من البحر الأحمر ومن الحدود المصرية ، وأنها المنطقة نفسها التى روى شلما نصر من قبل أنه عين عليها الشيخ البدوى إديبيئيل . أما اسم برءو فقد يكون تحريفاً لاسم شيخها البدوى فى عهده ، أو تكون تبعيتها القديمة لمصر قد أغرت الكتبة الآشوريين على اعتبار جزاها كأنها جزية من الفرعون المصرى نفسه ، وكان لقبه ينطق فى اللغة المصرية برعو فعلا (على نحو ما اعتبروا جزى أو هدايا القبائل العربية القريبة من حدود آشور والمتعاملة مع دولة سبأ من جزى الدولة السبأية الجنوبية البعيدة عنها ، تضخيماً منهم لشأن ملكهم وامتداد سوطته ولو من قبيل المجاز) . أما شيلخينى أو شلكانى ملك مصرى ، فقد يكون اسمه تحريفاً لاسم عربى مثل سلحان ، كما رأى

(١) *Cf.*, A. Unger, *ZATW,* 1923, 204 f.

(٢) Luckenbill, *op. cit.*, II, 55, 80 .

(٣) *Ibid.*, 62.

(٤) *Ibid.*, 18 .

(٥) *See,* E. F. Weidner, *A. f. O.*, XIV (1941), 40 f.



الباحث ريكمان (١) ، وليس اسماً لفرعون مصرى كما ظن فيدنر (٢) ، لا سيما إذا أضفنا أن مصر لم تشتهر بتربية الخيول الكبيرة التى أشارت إليها نصوص سرجون، وإنما كانت جيادها صغيرة الحجم نسبياً تستخدم لجر عربات الحرب ، على الرغم من احتمال تهجينها بسلالة ليبية فى العصور المتأخرة .

ويبقى اسم نخل مصر ، وهذا قد يترجم بمعناه الآشورى بمعنى قناة مصر ، أو سيل مصر ، ويدل بذلك على جزء من وادى العريش ، أو جزء من خليج السويس ، كما رأى بعض الباحثين ، أو يدل على واد قريب من رفح كما نم عن ذلك نص آخر (٣) ، أو يكون له بعض الصلة باسم قرية نخل الحالية فى شبه جزيرة سيناء .

وكان أشد سرور سرجون من أمجاد عهده ، هو سروره بولاء بعض حكام جزيرة قبرس له ورضاهم بإقامة نصب نقشت عليه صورته فى جزيرتهم (٤) . وعبرت نصوصه عن هذه الحال بأسلوبها المبالغ ، فروت أن ملكها أخضع سبعة ملوك من إقليم إيا فى قبرس (إيادنانا) وسط البحر الغربى على مسافة سبعة أيام وعلى مبعدة لم يسمع عنها أسلافه ... (١) . ولم تكن آشور بالدولة البحرية التى تستطيع أن تمد نفوذها على قبرس بمجهود يمينها كما ادعت نصوص سرجون ، وإنما يبدو أن حكام صور وصيدا الفينيقيين أرباب الملاحة والتجارة ، كان لهم نفوذ كبير على جزء من الجزيرة ، فلما دانت مدنيتاهم صور وصيدا لنفوذ سرجون، سارعوا بالتالى إلى إعلان ولائهم فى الجزيرة له؛ حتى لا يتصدى أعوانه لعرقلة نشاطهم التجارى على سواحل الشام وفيما بينها وبين قبرس .

---

(١) Ryckmans, *A. f. O.*, 1940, 54 f.

(٢) *Cf.*, Weidner, *op. cit.*

(٣) *Op. cit.*, 43 f.

(٤) Winckler, *Die Kellschrifttexte Sargons*, I, Pls. 44 - 47 .

(٥) Luckenbill, *Anciera Records*, II, 99 186 .

واحتفظ عهد سرجون برسائل إدارية تكشف عن مدى سيطرة دولته على أتباعها . وكان يبث عيوناً عليهم يكتبون إليه عن مدى تقاربهم وتباعدهم ، ويحرص على أن يتلقى تقارير عيونه أينما ارتحل فى أنحاء دولته الواسعة . فحدث أن زار بابل مرة (فى عام ٧١٣ ق. م) وعهد إلى ولى عهده سينا خريب بتدبير أمور عاصمته ، فأرسل ولده إليه يطمئنه على استقرار أمور الدولة ، وبدأ رسالته بما يبدأ به التابع العادى رسالته ، قائلا له : «إلى الملك سيدى ، من سينا خريب خادمك، سلاماً للملك مولاى ، الأمن سائد فى آشور وفى المعابد وفى حصون الملك كلها ، فليسعد قلب الملك مولاى تماماً» [١] . وشفع سينا خريب رسالته بتقرير مندوبيه ورؤساء حاميات الحدود قرب دولة أورارتو ، وتحدثت هذه التقارير عن اشتباكات بين بعض الأراميين وبين السميريين ، وانتصار الأخيرين فيها ، كما تحدثت عن زيارات ملوك المنطقة (فى الشمال والشمال الشرقى) وأمرائها بعضهم لبعض [٢] . وكان سرجون لا يريد تقارب هؤلاء بعضهم من بعض ، فنمى إلى قصره ذات مرة أن ملك أورارتو وأمراءه سيخرجون بعدد من قواتهم العسكرية بحجة زيارة مدينة موتساتسير المقدسة ، فكتب ناظر القصر (نيابة عن مولاه) أمير هذه المدينة يبلغه استياء مولاه من سماحه لأولئك الحكام بدخول مدينته بجنودهم دون استئذانه ، ولكن رد عليه أمير موتساتسير بأنه لن يمانع فى زيارة ملك آشور لمدينته بعسكره ، فكيف يمنع ملك أورارتو عنها ؟ [٣].

وفى نهاية عهد سرجون بدأت نذر هجرة شعوبية عنيفة، تمثلت فى هجرة قبائل السميريين أو الكيمبريين التى تدفقت بقضها وقضيضها على مملكة أورارتو وهزمت قواتها فى عام ٦٠٧ ق. م واستمرت فى تقدمها حتى لاقاها سرجون بجيشه فى عام ٧٠٥ ق. م ، ويبدو أنه قتل فى المعركة أو اغتيل بعدها ، ولكن بعد أن نجح جيشه فى دفع السميريين ناحية الغرب فاندفعوا إلى آسيا الصغرى وهزموا فى طريقهم جيش ميداس ملك فريجيا ، (ميتا صاحب موشكى) ، أحد أعداء الآشوريين الألداء ، مما أدى به إلى الانتحار . وشيئاً فشيئاً أتى السميريون وحلفاؤهم التربويون على مملكة فريجيا من أساسها .

* * *

(١) Harper, *Assyrian and Babylonian Letters,* No. 197.

(٢) *Ibid.,* Nos. 198, 492, 380 .

(٣) *Ibid.,* No. 409 .



تتابع من الملوك المشاهير فى أسرة سرجون ثلاثة ، وهم : سين أخى ريبا (٧٠٥ – ٦٨١ ق . م) ، الذى اعتادت بعض المؤلفات التاريخية الحديثة على أن تذكره باسم سينا خريب أو سينا حريب ، وآشور أخادين (٦٨١ – ٦٦٨ ق . م) أو أسر حدون أو أسر هدون كما اعتادت بعض هذه المؤلفات على تسميته ، ثم آشور بانيبال (٨٦٦ – ٦٢٦ ق . م) الذى ذكره الإغريق باسم ساردانا بالوس . وقد ساعدت على شهرتهم بعض روايات التوراة عنهم ، وسوف نذكر أولهم باسمه الأكثر شيوعاً وهو سينا خريب لقربه من اسمه الأصيل .

واجهت أولئك الملوك الثلاثة مشكلات ضخمة متعددة، ظهرت بوادرها منذ عهد سرجون نفسه ، وامتدت جذورها إلى ما قبل عهده . واتبع كل منهم أسلوبه الخاص فى معالجتها بما يتفق مع إمكانات دولته ومشاعره الخاصة واتجاهات السياسة فى أيامه . وأهم هذه المشكلات هى :

١- خصومة دولة بابل التى ظلت تئن من الخضوع للآشوريين، وظلت فى الوقت نفسه مطمعاً للآراميين الكلدانيين .

٢- استمرار العداء بين الدولتين العنيفتين المتجاورتين ، آشور وإلام (أو عيلام) ، مع استخدام العيلاميين لكل من الكلدانيين والبابليين للقيام بدور مخلب القط فى بعض مراحل هذا العداء .

٣- وقوف المصريين فى وجه التوسع الآشورى فى الشام ، وتأييدهم للمناطق السورية والفلسطينية ضده ، مع تذمر هذه المناطق تلقائياً من طابع العنف والتعالى عند الآشوريين .

٤- رغبة آشور فى إجبار أعراب الصحارى والبوادى القريبة منها على الطاعة، مع تمرد هؤلاء الأخارى عليها على الرغم من قلة إمكاناتهم .

٥- اضطراب الأوضاع فى الأطراف الشمالية لآشور وفى آسيا الصغرى؛ نتيجة للنزعات الاستقلالية فيها وخشونة طباع سكان جبالها ونزول هجرات هندوآرية جديدة عليها .

مـــع بابـــل :

سوف نعود إلى تفاصيل العلاقات الآشورية البابلية فى تقديمنا لبابل الكلدانية ، وتكفى الإشارة هنا إلى أنه عز على بابل أن تنجب زعيما من أهلها الأصيلين يستعيد لها مجدها القديم ، فتعاقب على حكمها خلال عهد سينا خريب الآشورى ما لا يقل عن ستة ولاة ليس فيهم بابلى أصيل ، وأن هذا الملك لجأ فى تعقب أحد حكامها الكلدانيين بعد فراره بأعوانه إلى الشاطئ العيلامى ، إلى إنشاء أول أسطول حربى كبير فى تاريخ الآشوريين ، اشترك فى إنشائه صناع من صيدا وصور وقبرص ، وعملوا فيه عاماً كاملا على ضفاف دجلة والفرات ، ونقلوا جزءاً منه على طريق البر، وعبر الآشوريون وحلفاؤهم به الخليج العربى وهزموا خصومهم . ثم أتى دور بابل نفسها فخربها رجال سينا خريب تخريباً عنيفاً وسلطوا مياه نهر الفرات على أنقاضها حتى أغرقوها فى عام ٦٨٩ ق. م . وبمنطق المنتصرين المعوج ، لم يتورع ابن سينا خريب عن تبرير هذا التخريب على حساب البابليين المغلوبين بقوله «لقد كانوا من قبل يذلون الضعيف ، وشاع الطغيان فى مدينتهم والرشا والنهب . وكان الولد يسب أباه فى الطريق ، والعبد يهين مولاه ، والجارية تعصى سيدتها ... ، ولقد عطلوا القرابين ، ووضعوا أيديهم على كنوز إساجيل معبد الأرباب ، وباعوا الفضة والذهب والأحجار الكريمة منه إلى عيالم .. ، فغضب مردوك إنليل الآلهة ، ودبر أمره على قهر هذا البلد وتشتيت أهله» .

وكان قتال الآشوريين للكلدانيين فى شط العرب بالجنوب موضوعاً للوحة حية صور فنانها الآشورى منطقة المناقع بأسماكها وحيواناتها المائية الصغيرة ، تتخللها أحراج القصب المرتفعة ، والتى آوى الكلدانيون إليها وتجمعوا فيها فى جماعات صغيرة يتداولون مصيرهم . وصور قتالا عنيفاً فى مراكب من البوص المجدول المكسو بالقار، وصور السبايا الكلدانيات بثياب طويلة كاسية وشعور مرسلة يستعطفن الغازين (١) (وتشبهن للغرابة هيئة الإغريقيات فى المناظر اليونانية القديمة) .

وانكمشت بابل العظيمة على نفسها ، حتى ولى عرش آشور ، آشور أخادين، وكان فيما يبدو من أم بابلية ، وربما ولاه أبوه ناذب ملك على بابل فى حياته ، فانصرفت عواطفه إليها وشجع على إحيائها وولى بدوره عليها ولده الأكبر شمش

(١) Layard, *Monuments of Nineveh*, I. Pl. 25 .



شوموكين ، وتجاوز عن سلطان الكلدانيين فى أرض البحر مع طاعتهم لولده [١]. وربما لم يفعل ذلك بدافع العاطفة وحدها ، وإنما بدافع الرغبة أيضاً فى التفرغ لتنفيذ حلمه الكبير بغزو مصر ، واستقر الأمير الآشورى شمش شوموكين ببابل فترة طويلة ونهض بها خلال حياة أبيه وبعد وفاته ، ثم استغل امكانياته ونفوذه فيها فى التضييق على أخيه الأصغر آشور بانيبال الذى نازعه عرش آشور بعد مقتل أبيه ، وضم إليه حلفاً قوياً من الإلاميين والأمراء الكلدانيين فى أرض البحر ، ولفيفاً من السوريين وأمراء البدو المتذمرين . ولكن ميزان القوى انقلب إلى جانب أخيه الصغير فشددت جيوشه الحصار على بابل عامين ، حتى تفشت فيه الأوبئة والمجاعات واضطرت إلى التسليم وأشعل أميرها النار فى قصره وهلك فى لهيبها . ثم زادتها جيوش آشور بانيبال خراباً على خراب ودمرتها (عام ٦٥٠ ق.م) تدميراً عنيفاً لم تفق منه إلا بعد جيل كامل يوم هبت هبتها الأخيرة للانتقام لنفسها وللقضاء على دولة آشور كلها .

والغريب أن أنصار آشور بانيبال لم يتورعوا عن تمثيله على لوحة صغيرة باسماً مستبشراً يرفع بيده سلة من الخوص المجدول إلى ما فوق مستوى تاجه الطويل، وسجلوا حوله نصوصاً تشيد بفضله فى إعادة بناء «إساجيل» مقر مردوك إله بابل [٢] . واشتد هذا الملك على الكلدانيين الجنوبيين فى أرض البحر فى العام نفسه ، فاضطر واليهم نابو بعل شوماتى حليف أخيه إلى الفرار إلى عيلام . وعين آشور بانيبال «دوباشو» بلاطه والياً عليهم ، ووجه إليهم نداء قال فيه : «أى خدمى... سلام لكم وهدأت قلوبكم ... اذكروا فضلى عليكم قبل خطيئة نابو بعل شوماتى ... وهأنذا أرسل إليكم بعل ابنى الدوباشو الخاص بى ليرأسكم..» ثم طلب منهم الطاعة وهددهم بإرسال جيوشه عليهم إن مالوا إلى العصيان [٣] . وعاش نابو بعل شوماتى لاجئاً فى عيلام لبضع سنوات ، ثم حدث لسوء حظه أن اغتيل الملك العيلامى الذى آواه ، وولى ملك آخر آثر مهادنة آشور بانيبال فأبدى استعداده لتسليمه إليه ، ولما ضاقت السبل باللاجئ الكلدانى نبو بعل شوماتى أمر تابعه بأن يقتله بسلاحه حتى لا يعانى تعذيب أعدائه ، ولكن هذا لم يمنع الآشوريين من التمثيل بجثته، حين سلمت إليهم فقطعوا رأسها وحرموا دفنها .

(١) Harper, *op. cit.*, 839 .

(٢) B. Pritchard. *The Ancient Near East in pictures*, Fig. 129 .

(٣) Harper, *op. cit.*, No. 289 .

مع إلام (عيلام) :

استمر العداء ضارياً أطنابه بين الجارتين اللدودتين آشور وعيلام ، وقد آثرنا التعبير عن هذه الأخيرة خلال هذا الكتاب بنطق إلام وهو أقرب إلى لغة أهلها ، التى لا تتضمن العين السامية مع إلحاقه فى كثير من الحالات أو إبداله باسم عيلام الشائع استخدامه فى المؤلفات العربية . ويبدو أن «إلام» أو «إلامتو» هى التسمية الأكدية لجنوب غرب إيران ووردت تحريفاً لاسم Nim السومرى بمعنى النجد المرتفع وتحويله إلى E. Nim وإبدال نونه لاما . أما عيلام فهو اسم عبرت به أنساب العهد القديم عن الجد الأعلى للإلاميين، الذى اعتبرته للغرابة من الساميين فى مثل قولها فى سفر التكوين (١٠ : ٢٢) «بنو سام : عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام» وقد أصبح هو الأكثر شيوعاً . أما الاسم الذى عبر به الإلاميون عن أنفسهم وبلدهم فلا زال موضعاً للجدل ، ومن الألفاظ المقترحة له هافرتى وخاتمتى وأوفاجا ... إلخ [١] .

وظلت الانتصارات والهزائم الوقتية الخاطفة دولة بين آشور فى عصرها الحديث وبين إلام ، حتى فت فى عضد إلام اختلاف حكامها على أنفسهم بحيث انقسموا فريقين ، ووقفت جيوشهما بعضها لبعض بالمرصاد على ضفتى نهر الهدهد، كما ذكر أحد التقارير الآشورية [٢] ، فتدخل الآشوريون فى مشاكهلم لزيادة نارها وتأليب فريق على فريق ، ثم أتت النهاية السياسية لإلام على يد (جيش) آشور بانيبال فدمر عاصمتها سوسه تدميراً شاملا ، وذكرت نصوصه أنه استولى على كل كنوزها ولم يدع فى قصور ملوكها شيئاً إطلاقاً إلا وأمر بحمله معه ، حتى أوانى الطعام والشراب والغسيل ، ولم يدع معبداً فيها إلا وأمر بنهبه وتدميره وأسر معبوداته ، ولم يدع مقبرة ملكية فيها إلا وأمر بفتح توابيتها وإخراج عظامها ثم نقلها إلى آشور؛ حتى يحرمها الخلود فى أرضها على حد قوله . وزاد فى نصوصه أنه ود لو حمل تراب سوسه معه إلى آشور [٣] (حتى يحرمها البقاء على وجه الأرض إلى أبد الآبدين) . وبذلك أخذ بثأر البابليين القدماء عن غير قصد ، مما فعله الإلاميون معهم فى نهاية القرن الثانى عشر ق. م حينما دمروا عاصمتهم وحرموها من أهم كنوزها وآثارها حتى الحجرية منها (كنصب تشريعات حمورابى وأمثاله) .

(١) انظر أيضا : طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة – ٢٠ .

(٢) Harper , *op. cit.*, No. 289 .

(٣) ديلابورت : المرجع السابق – ص ٤١٩ – ٤٢١ .

وظلت انتصاراته هذه على سوسه مجالا خصباً لتصورات فنانيه ، فأخرجوا لوحات كبيرة مبدعة صوروا فيها ساحة الحرب تموج بالهرج والمرج ، يقتتل فيها المشاة والخيالة وفرسان العربات ، يدقون الرؤوس بالمقامع ويطعنون النحور والظهور بالحراب والسهام ويحزون الرقاب بالسيوف والخناجر ويهرع بعضهم لنجدة بعض ، وينحنى بعضهم على جثة ليسلبه خوذته وسلاحه وجعبة سهامه ، بينما يجثو بعض المغلوبين طلباً للرحمة ، ويلقى بعضهم بنفسه فى النهر التماساً للنجاة . وصوروا القلاع فوق قمم الجبال وعند ملتقى الأنهار يهدمها الغزاة ويشعلون النار فيها ، فيغادرها أهلها ليلحقوا بأفراد جيشهم الذين ركبهم اليأس وساروا مشاة وفرساناً يستحث بعضهم بعضاً، وقد تكدس شيوخهم وأطفالهم فوق عربات مرتفعة متسعة لكل منها عجلتان كبيرتان، وجواد واحد يستحثه سائقه بسوط طويل . ثم صوروا العاصمة سوسه خاوية على عروشها إلا من أطلال البيوت والنخيل ، بيضاوية يحيط بها خندق ومجرى ماء ، ويقع على مبعدة منها نهر كرخا وقد امتلأ مجراه بجثث القتلى والخيول الشاردة والنافقة وبقايا العربات المحطمة . وخرج من المدينة المستضعفون من أهلها رجالا ونساء شيوخاًوصغاراً ، يصفق بعضهم وينشدون نشيداً مغتصباً على أنغم الأوتار ليداروا به بطش الفاتحين، ويمشى بعضهم رافعين أكفهم فى ضراعة رتيبة ذليلة ، بحيث تحافظ الأم على رفع يدها والتمتمة بفمها بينما تمسك طفلها بيدها الأخرى وتنظر إليه حسيرة كسيرة الفؤاد ، أو تنظر إلى من يسير خلفها تسأله عما سيؤول إليه مصيرها (١)، أما رأس تيومان ملك إلام فكانت أداة رصع الفنانون بها صورهم الغريبة، فصوروا ملكهم يقطعها بيده فى ساحة القتال ، وصوروها معلقة فى رقبة حليفه دونانو الجمبولى الذى اقتيد إلى العاصمة بعد أن قطع لسانه وسلخ جلده ثم ذبح كما تذبح الخراف ، وصوروها مرة ثالثة تتدلى من شجرة فى مجلس شراب مولاهم .

غير أن انتصارآشور على إلام لم يكن خيراً كله ، فقد تحملت إلام حتى ذلك الحين مهمة كبح جماح بقية العشائر الإيرانية من ورائها ، ولا سيما الجبلية منها ، فلما انزاح هذا الحاجز بزوالها ، وقع العبء على آشور وحدها فأحست بأن زيادة التوسع أصبحت تؤدى إلى زيادة المشاكل أمامها .

(١) Frankfort, *The Art and Architecture*.. Pls. 103 - 107

مع مصر والشام :

رأينا فى سياق بحثنا للتاريخ المصرى فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، كيف ادعت نصوص الآشوريين أنهم انتصروا على جيوش مصر وحلفائها فى الشام انتصاراً مستمراً ، بينما خالفتها قصص التوراة ونصوص المصريين فى بعض ما ادعته لأهلها، وأن القصة بدأت بعد أن هاجمت جيوش سينا خريب مملكة العبرانيين الجنوبية «يهوذا» التى استنجدت بالمصريين، فأعانوها ، ليس حباً فيها ، بقدر رغبتهم فى اتخاذها موقعاً من مواقع دفع الغزو الآشورى خارج الحدود المصرية . وروت نصوص سينا خريب أنه استولى على ٤٦ مدينة من مدنها الكبرى فضلا عن أعداد كثيرة من قراها ، وقسمها بين أنصاره من حكم عقرون وأشدود وغزة ، وذكرت أنه أسر أكثر من مائتى ألف من أهلها ، وحاصر عاصمتها أورشليم (أورشاليمو) ، فى عهد ملكها حزقيا ونبيها إشعيا . وصور فنانه فى نينوى حصنها ذا خرجات رباعية وصور رماة الآشوريين حولها يعتمدون على ركبة ونصف يسددون السهام عليها وأمام كل منهم ترس كبير . ويبدو أن جيش الملك الآشورى نجح فى أسر عدد من المصريين ؛ ومن ثم أرسل عامله «الرابشاق» إلى أورشليم ليدعو حزقيا إلى التسليم بعد أسر بعض حلفائه أو يؤلب قومه عليه . ثم روت النصوص أن حزقيا اضطر تحت وطأة الحصار وإزاء ما أصاب النجدة المصرية وانفضاض أتباعه عنه إلى أداء الجزية مضاعفة إلى نينوى ومعها بناته وحظاياه وموسيقييه (١) .

وأسلفنا أنه على العكس من الرواية الآشورية، روت أسفار من التوراة أن الجيش الآشورى حل به الموت الإلهى وحام ملك الله فوقه ليلا ، وفى بكرة الصباح أصبحوا جثثاً هامدة (٢) ، فارتد الملك الآشورى مدحوراً بخزى الوجه إلى أرضه(٣)، بعد أن أصبح جيشه كالعصافة فى مهب الريح (٤) . وروى هيرودوت أن المصريين أطلقوا بوحى ربهم جرذاناً على معسكرات الآشوريين فقطعت أوتار قسيهم وأتلفت جعاب

---

(١) Luckenbill, *The Annals of Sennacherib,* 1924; *Ancient Records,* II, 233 f.; *ANET,* 287 - 288 .

(٢) الملوك الثانى : ١٩ : ٣٥ .

(٣) أخبار الأيام الثانى : الإصحاح ٣٢ .

(٤) إشعيا ١٧ : ١٣ .



سهامهم وأفسدت سيور دروعهم مما سهل تمزيقهم إرباً . وربط بعض الباحثين بين قصة الجرذان هذه والهلاك الإلهي الذى تحدثت عنه التوراة بأن الجرذان أفشت وباء الطاعون الدمل بين الآشوريين فأهلكت منهم خلقاً كثيراً مما أجبر بقيتهم على الانسحاب (١) . وعقبنا كذلك بأن توقيت هذه القصة لا زال يتأرجح بين تعيينه بعام حصار أورشليم حوالى عام ٧٠١ ق.م ، وبين تعيينه بعام تخريب سينا خريب لمدينة لاشيش (لخيش) قبيل محاولته الوصول إلى الحدود المصرية حوالى عام ٦٩٠ ق.م ، وكان انتصاره فى لاشيش هذه موضوعاً للوحة حرة نقشها فنانه فى قصر كالح ، وتخلى فيها عن الحدود التخطيطية ، وملأها ببيئة جبلية تنمو الكروم فوقها ، وصور سينا خريب فى مركز قيادته فى حضن الجبل فوق عرش مرتفع (يشبه كراسى الأرابيسك الشرقية المرتفعة) يتقدم إليه كبير أتباعه ومجموعة من القادة يصعدون من أدنى الجبل واحداً بعد الآخر ، ويتفرق على السفح مجموعة أخرى بين صاعد وهابط وواقف ، بينما ارتمى فى حضرة الملك جماعة من يهود لاشيش يقبل بعضهم الأرض، ويجثو بعضهم الآخر يستعطفه ، وقد تعمد الفنان تحقير شأنهم فصورهم قصار القامة يبدون فى جثيهم وسجودهم على هيئة الأطفال (٢) .

ولم تخل روايات الآشوريين عن بقية ثورات فلسطين من غرابة ، حين تحدثت عن صدقيا ملك عسقلان، الذى أبى أن ينحنى للملك الآشورى على حد قولها، وألب عليه جيرانه ، فأسره هو وأهله وأعقابه الذكور . وتحدثت عن أهل عقرون الذين خلعوا ملكهم بادى صنيعة الآشوريين وسلموه إلى حزقيا اليهودى فسجنه، وعندما استرد سينا خريب سيطرته على عقرون، أراد أن يكون عادلا من وجهة نظره ، فأمر بقتل الموظفين والنبلاء الذين اشتركوا فى خلع ملكهم وتعليق جثثهم على الأعمدة حول مدينتهم ، واكتفى باعتبار المواطنين العاديين المتهمين بمشايعة الثوار الكبار ، أسرى حرب ، ثم غض الطرف عن بقية الجماهير التى لم يثبت عليها سوء السلوك (٣) على حد تعبير نصوصه .

---

(١) Herodotus, II, 141; *Cf.*, L. L. Honor, *Sennacherib's invasion of Palestine.* 1962; J. Lewy, *OLZ,* 1928, 150 f. ; U. Ungand, *ZAW,* LIX, 199 f.

(٢) Gadd, *Stones of Assyria,* London, 1936, Pl. 13 .

(٣) Luckenbill, *op. cit.*



ودافعت صيدا وصور عن كيانهما التجارى المستقل ضد سينا خريب ، ولم يكتف لولى ملك صيدا بمحاولة تحقيق استقلال دولته ، وإنما حاول أن يعيد إلى حوزتها تلك المنطقة القبرسية التى أعلن حكامها الولاء لسرجون ، لكن محاولته لم تجد أمام قوة آشور ، ففر إلى قبرس حيث مات بها . وعين الملك الآشورى خلفاً له على صيدا يدعى إيثت بعل [١] . أما صور فقد استعصت أسوراها عليه حتى وفاته .

ولم تيأس المدينتان ، فاستمر نضالهما ، فى عهد آشور أخادين (٦٨١ – ٦٦٨ ق. م) ، ولكن فشل مسعاهما نتيجة لعدم تكافؤ القوى بينهما وبين خصومهما، فدك الآشوريون أسوار صيدا ومبانيها ، وتعقبوا ملكها عبدى ميلكرته فى البحر حتى أسروه، وكلفوا أعداداً كبيرة من سكان السواحل الفينيقيين وبقايا الحيثيين ببناء مدينة جديدة حلت محلها ونسبوها إلى ملكهم فسموها «كا آشور أخادين» ، ثم زودوا هذه المدينة الجديدة بمهاجرين من أهل الجبال وساحل الخليج العربى . وادخروا نهاية قاسية لملك صيدا وأحد حلفائه الأشداء فى جنوب آسيا الصغرى (ساندوارى ملك كوندى وسيزو فى كيليكيا) ، فقطعوا رأسيهما وعلقوهما فى عنقى أميرين من أهل صيدا وساقوهما فى موكب النصر بنينوى وسط أصوات المزامير[٢]، وظلت نصوص الملك الآشورى تؤكد سلطانه على ملوك جزر البحر[٣].

ووجد آشور أخادين متعة كبيرة فى تكليف اثنين وعشرين حاكماً من حكام بلاد الشام وآسيا الصغرى وقبرص ، بتوريد كل ما يتطلبه بناء قصره فى نينوى ابتداء من الأحجار ، وتعمد كتبته أن يسجلوا هذا التكليف فى نصوصهم بصورة توحى بأن الحكام كانوا يشاركون فى عملية نقل المواد المطلوبة ، بأنفسهم مع ما فى ذلك من مشقة بالغة» [٤] . ولم تكن الجيوش الآشورية أقل شدة ، أو أقل نشاطاً من وجهة نظرها، فى معاملة القبائل العربية مما سنتعرض له فى بحث تاريخ شبه الجزيرة العربية . ومع عنف آشور أخادين تفاخر فى بعض نصوصه بتسامحه فى إعادة

---

(١) *Ibid*, II, 547; *Annales of Sennacherib*, 76 f.

(٢) Luckenbill, *A. R.*, II, 527; R. Campell Thompson, *The Prisme of Esarhaddon and of Ashurbanipal*, 1931, 16.

(٣) Bury, *History of Greece*, 1959, 217, n. 1.

(٤) Campell Thompson, *op. cit.*



تماثيل المعبودات التى كانت قد لجأت إلى آشور – كما يقول – إلى معابدها الوطنية . وأطمعت هذه السياسة الطارئة حزائيل ملك قيدار العربية فى أن يرجوه إعادة تماثيل معبوداته التى كان الملكان تيجلات بيليسر وسينا خريب قد استوليا عليها ، فأعادها إليه بعد أن أخذ عليه مواثيق الولاء . وبعد ترميمها نقش اسمه الملكى واسم ربه آشور عليها تذكارا لفضله عليها (١) .

وأدى آشور أخادين ما تردد فيه أبوه ، فاستعرض عضلاته مع مصر ، وكانت مصر تمر حينذاك بفترة من فترات الشيخوخة السياسية والحربية بعد أن أدت دورها الحضارى المجيد قروناً طويلة ، وكانت تسيطر عليها فيما مر بنا، فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، أسرة جمعت دماؤها بين الدم المصرى والدم النوبى الجنوبى ، وولى عرشها حينذاك طاهرقا الذى رددت قصص التوراة اسمه . وكانت الخلافات الداخلية قد فعلت فعلها فيها، كما روى العبرانيون عن نبيهم إشعياء ،حين ينقل عن ربه : «أهيج مصريين على مصريين فيحارب رجل أخاه ورجل صاحبه مدينة مدينة ومملكة مملكة» (٢) .

نجح الآشوريون فيما رأينا فى إضعاف حلفاءمصر بالشام ليفتوا فى عضدها، وكانت أشد أولئك الأحلاف إخلاصاً مدينة صور التى روت النصوص أن حاكمها «بعلو» (بعل إيلى) أجاب عن رسائل الملك الآشورى بإجابة جافة ، فشدد الآشوريون الحصار حولها ، وحاولوا أ ن يمنعوا اتصالاتها البرية والبحرية (٣) إلى أن يفرغوا من حليفتها الكبرى ، فنجحوا بالنسبة للأولى وطال أمرهم فى الثانية . وقد ابتغى آشور أخادين أن يغزو مصر غزواً مباشراً ، أملا فى تحطيم قوتها العسكرية ، وطمعاً فى ثرائها ، وليقطع معونتها من حلفائها السوريين الذين ما فتئوا يتطلعون إليها، على الرغم من تجاوز الحظ عن مشاريعها الحربية أكثر من مرة . ولقد أسلفنا فى بحثنا للتاريخ المصرى فيما ورد بالجزء الأول من هذا الكتاب أن مهاجمته لمصر مرت فى مرحلتين ، مرحلة بدأها عام ٦٧٤ ق. م بلغ فيها الحدود المصرية الفلسطينية ، وهنا

(١) Borger, *Asarhaddon,* 27, ef. 3, 23 - 26 ; Deller - Parpola, *Orientalia,* 37 (1968), 464 - 466 .

(٢) إشعياء ١٩ : ٢ .

(٣) Luckenbill, *op. cit.,* II, 554 f.



روت المصادر البابلية أن جيشه هزم فى معركة دموية بمصر[1]، ثم ارتد عنها ليواجه حلف السكيين والماذيين الذين هددوا الحدود الآشورية الشمالية الشرقية [2] . ثم مرحلة ثانية بدأها عام ٦٧١ ق. م واستعان فيها ببعض أعراب الصحراء على تذليل مشقة الطريق عبر سيناء والصحراء الشرقية ، وكانت له معارك عدة فى الطريق وإزاء منف، كما كانت له سياسته فى ترك بعض الأمراء المحليين فى مناصبهم بعد أن ظن رضاهم بسلطانه ، ثم خرج من مصر بكنوز طائلة وأعداد كبيرة من الفنيين والمهنيين ليحرم بلدهم منهم وتستفيد بهم دولته ، ولكنه لم يهنأ طويلا بنصره ، فثارت مصر ضده وعاونت ملكها طاهرقا على استرجاع سلطانه ، فجن جنون آشور أخادين ، واعتزم الخروج لمقاومة الثورة بنفسه لولا أن مشكلات وراثة عرشه شغلته عاماً كاملا، أعدم فيه عدداً كبيراً من كبار دولته ، ثم خرج بجيشه قاصداً مصر ولكنه مات فى الطريق وأقل جيشه عائدا إلى وطنه . وتكفل بمواجهة المقاومة المصرية خلفه شور بانيبال ، واستعان على مشروعه ضدها بقوات من الشام ونواحى الفرات خرجت تحت راية اثنين وعشرين ملكاً ، على حد رواية نصوصه ، واستعان بخبرتهم الملاحية وهاجم مصر من البر والبحر ، وانتصر بهم على جيش طاهرقا ، ولكن هذا لم يقض على المقاومة ، فما لبثت حتى اشتدت كرة أخرى ، وعاد آشور بانيبال إليها بجيشه للمرة الثانية وبلغ انتقامه فى هذه المرة مداه ودمر طيبة كبرى عواصم العالم القديم ، حوالى عام ٥٦٩ ق. م (وتراجع عن تفاصيل المقاومة وظروف إجلاء الآشوريين عن مصر ما أسلفنا فى هذا الصدد، فى الجزء الأول من الكتاب) .

وبقيت أمام الملك الآشورى صور الحصينة ، ويبدو أنه فت فى عضدها سوء حظ حلفائها المصريين ، وقسوة الحصارعليها من البر والبحر ، فاستسلمت للملك الآشورى حين خرج إليها بجيشه الكبير فى غزوته الثالثة وتبعتها أرواد . وتبجحت النصوص الآشورية فروت أن ملك صور استرضاه بتقديم ولى عهده وبنته وبنات إخوته إليه بالهدايا ، فأعاد إليه ولى عهده واستبقى البنات [3] ، وهكذا فعل مع ملك

---

(١) See, *ANET*, 302 .

(٢) ديلابورت : المرجع السابق ص ٣١٦ .

(٣) Luckenill, *op. cit.*, II, 547 .



أرواد الذى لم يخضع لأحد من ملوك أسرته على حد قوله ، فقبل ابنته هدية منه . وفعل آشور بانيبال بعرب البادية ما فعله بغيرهم مما سنعود إليه فى حينه ، وكانت أشد نقمته عليهم لانضمام بعض زعمائهم إلى أخيه ضده ، وتقلب عواطفهم معا ، وبلغ من شدته معهم أن لجأ إليه أحد زعمائهم وهو يويطع (أو يثع) بن حزائيل معتذراً خاضعاً ، فقبل عذره ، ولكنه أمر بوضع مقود فى عنقه وقرنه مع كلب ودب لحراسة إحدى بوابات عاصمته نينوى، كما أمر بقرن زعيم آخر من زعمائهم بأمراء عيلام وشدهم جميعاً كالخيول إلى عربته فى بعض مواكبه (١) .

وعلى نحو ما بلغت جيوش آشور بانيبال مداها فى بلاد المشرق ، استطاعت أن تدق أبواب مملكة ذات صبغة شرقية غربية فى آسيا الصغرى ، وهى مملكة ليديا التى اعتمدت فى كثير من نشاطها المدنى والحربى على الإغريق المستوطنين فيها ، وتحالفت مع الآشوريين فى عهد ملكها جيجيس ضد قبائل السميريين ، ثم تحالفت مع مصر ضدهم ، فبادلها الآشوريون عداء بعداء وفتكوا بجيشها ، وعندما قتل ملكها جيجيس ، عام ٦٥٣ ق. م فى كفاحه مع السميريين ، اضطر ولده أرديس إلى مهادنتهم (٢) .

بداية النهاية :

أحاطت بالملوك السرجونيين هالات من المجد، شجعتهم على أن يستبدوا بكل من وقعوا تحت طائلتهم ، ولكن بنيانهم الداخلى لم يكن سليما تماماً ، ونخرت فيه عوامل التنازع الأسرى فى القصر الملكى منذ عهد سرجون نفسه، الذى اغتيل فى ميدان القتال أو بعده فى عام ٧٠٥ ق. م ، واغتيل بعده سينا خريب فى المعبد، بيد أحد أبنائه ومعاونة صاحب الليمو عام ٦٨١ ق. م ، واستمرت الفتنة قائمة فى آشور منذ يوم وفاته فى ٢٠ تيبتو إلى الثانى من أذارو (آذار) ، ثم هدأت وأعلن آشور أخادين نفسه ملكاً فى اليوم ١٨ . وفرق آشور أخادين بين أولاده ، فأوصى لأكبرهم شمشى شوموكين بحكم بابل ، وأهمل الثانى ، وأوصى للثالث آشور بانيبال بولاية عهد آشور . وعقد اتفاقيات متعددة مع أمراء الولايات والمدن فى دولته، أخذ عليهم

(١) *See ANET*, 298, 300 .

(٢) Bury, *op. cit.* 111 - 112 .

فيها المواثيق بأسماء أربابه وأربابهم أن يظلوا مخلصين لولده هذا قلباً وقالباً ، وإلا حاق الشر بهم فى الحياة وبعد الممات هم وكل أهلهم (١) . وليس ما يعرف إن كان قد فعل ذلك إيثاراً منه لابن زوجة على ابن زوجة أخرى، أم فعله تقديراً منه لاتساع دولته وصعوبة إشراف شخص واحد عليها . على أنه مهما يكن قصده، فقد تنمر كل من الأخين المحظوظين للآخر ، وانحاز إلى جانب كل منهما فريق من الأمراء والقادة ، وتذبذبت عواطف الأب نفسه بين الفريقين ، فبدأ باضطهاد أنصار الابن الأكبر الذين احتجوا على مضمون وصيته، وأمر بسفك دماء عدد كبير منهم ، ثم استجاب لتحريض من بقى منهم فعاد واضطهد أعوان الابن الأصغر وتغير قلبه عليه ومات وهو على هذا الإحساس نحوه ، بينما ظلت أمه «زاكوتو» صاحبة الحظوة فى عهد أبيه ، والتى حملت فى عهده لقب الملكة الوالدة، وفية عطوفة لحفيدها الأصغر ، وعندما خرج يقاتل إخوته وأعوانهم قامت على رعاية شئونه فى العاصمة وأصبح كبار حكام الأقاليم يراسلونها باعتبارها الملكة الوالدة والوصية على العرش، ويطمئنونها على ولدها (ويعنون حفيدها) ، وينهون إليها أخبار أقاليمهم (٢) ، وعندما استتب الأمر لحفيدها ظل يتلقى نصائحها(٣) .

ولم يكن للدولة بعد أن أضاع التنافس على السلطان صواب ملوكها ، وبعد أن جرأ الابن منهم على أن يغتال أباه ، وجرأ الأخ منهم على الفتك بأخيه ، إلا أن تتوقع نازلة قريبة تحل بها وتهد بنيانها . ولكن وقبل أن نصل بالدولة إلى هذه النهاية ، نستعرض فى الصفحات التالية طرفاً مما اتصفت به الحياة الآشورية فى فترات مجدها إبان عصرها التوسعى الحديث ، من مظاهر الحضارة المادية والفنية والفكرية، إلى جانب ما استدعى السياق التاريخى تصويره متفرقاً فى الصفحات السابقة من مناظر المعارك وفخامة المواكب وصور استمتاع لملوك . ويلاحظ القارئ أننا قد نسهب فى شرح نماذج فنية عراقية بأكثر مما أسهبنا فى شرح النماذج الفنية المصرية، على الرغم من كثرتها، على أساس كثرة ما أصدرناه عن هذ الأخيرة من دراسات مستقلة بها .

(١) Wiseman "The Vassal Treaties of Esarhaddon", *Iraq*, 1958; R. Borger. *ZA*, 1961, 173 - 96; *ANET*, 1968, 524 - 541 .

(٢) Harper, *op. cit.*, No. 303.

(٣) *Ibid*, No. 324 .



صور من الحضارة الآشورية :

ترك الآشوريون آثاراً عدة في عواصمهم الأربعة الكبرى: آشور ونينوى وكالح ودور شروكين . وقامت نينوى بالقرب من الموصل الحالية ، ووجدت بقايا آثارها في ربوتين رئيسيتين : ربوة قويو نجيق في طرفها الشمالي الغربي وهي الأكبر ، وربوة النبي يونس في طرفها الجنوبي الشرقي وهي الأصغر . وتوفرت محاجر الألباستر حولها فاستغلها المعماريون فيها في بناء وتزيين قصور ملوكهم . ولعبت المدينة دور العاصمة منذ القرن الثامن عشر ق. م، وفيما يعاصر عهد حمورابي ؛ وتجدد حظها في العصر الآشوري الحديث خلال القرن السابع ق. م وفي عهدي خريب وآشور بانيبال بخاصة ، حيث بلغ محيط سورها نحو عشرة أميال ، وتضمن مالا يقل عن خمس عشرة بوابة [1] . ولا تزال أطلال معالم مشروعات القنوات والحدائق باقية فيها من عهد سينا خريب ، وقد ذكرت نصوصه أن رجاله زرعوا له فيها شجيرات القطن التي سموها شجيرات الصوف .

ولم تكتشف كل ربوة قويونجيق لاتساعها ، ولكن الصورة العامة للمنطقة التي تشغلها هي قيام قصر سينا خريب في جنوبها الغربي ، وقصر آشور بانيبال في شمالها، وقد اكتشف كلاهما في أواسط القرن الماضي . وقدر لايارد مساحة الجدران المنقوشة المكتشفة من قصر سينا خريب حتى عام ١٨٥٣ بنحو عشرة آلاف قدم ،وإن كان أغلبها قد تهدم في العصور القديمة ، ونقل بعض ما بقي منها إلى حوزة المتحف البريطاني . وتناولت نقوشها ما يصور رحلات الصيد الملكية وحياة البلاط وتقارير تفصيلية للمنشآت المعمارية والدفاعية، التي تمت في عهده وعمل فيها أسراه .

ومثل قصر آشور بانيبال في نينوى مصدراً آخر للفن الآشوري ، ولو أن ما عرف عنه على الرغم من روعته ، لا يزال أقل مما عرف عن القصر الأول ، ليس فقط لما أصابه من تدميرات متعاقبة ، بل ولضياع كثير من نقوش جدرانه وصورها خلال عمليات نقلها في العصر الحديث ، ولا تزال بقايا مناظر الصيد فيه تمثل ذروة ما بلغه الفن الآشوري في ميدانها .

وتخلفت بين القصرين الكبيرين بنينوى بقايا معبدين للإلهين نابو وإشتار . وتحد مدخل المعبد الثاني منهما تماثيل ونقوش تصور الملك منشئ المعبد في طريقه

(١) Thompson, *Iraq*, VII, 1940, 91 f.

إليه على عرش محمول، فوق عجلات ويصحبه أهل بلاطه وحراسه وعدد من الموسيقيين .

وأدت كالحو ، أو كالح التوراة ، أو نمرود الحالية ، دور العاصمة الآشورية الثانية . وهى مدينة قامت على الضفة اليسرى لدجلة ، إلى الشمال الشرقى من مدينة آشور التى تقع على ضفته اليمنى ، وامتد عمرانها فوق لسان خصب بين الدجلة والزاب الأكبر ، ونشأت كمركز عسكرى ، ثم احتلت مكانتها المدنية بتشييد بعض قصور الملوك الآشوريين فيها منذ القرن الثالث عشر ق. م فى عهد شلما نصر الأول ، ثم زادت أهميتها فى العصر الآشورى الحديث ، وكشف فيها حتى الآن عن بقايا قصور الملوك الثالثة الكبار آشور ناصر بالِ الثانى وشلما نصر الثالث وآشور أخادين . وهى قصور دلت على ما دلت عليه قصور نينوى ، من حيث فخامة واجهاتها ، وحراسة التماثيل الحيوانية البشرية الحجرية الضخمة لمداخلها (حراسة رمزية) ، ومن حيث تعدد الأجنحة والقاعات فيها ، وتميز القاعات الرئيسية منها وقاعات العرش؛ بخاصة بمناظر منقوشة تنطق لقطات مختارة من حياة الملوك فى الحرب والسلم مع كثير من المبالغات المعتادة ، ولوحات منقوشة تنطق بمثل ذلك ، كلوحة تصور خضوع ياهو الإسرائيلى أمام شلما نصر الثالث (عام ٨٤١ ق. م) ، وأخريات تتحدث عن حفل افتتاح قصر آشور ناصر بال فى عام ٨٧٩ ق. م ، بعد جهود طويلة ونفقات طائلة بذلت فى تشييده ، وأقيم بعدها حفل بلغ عدد المدعوين فيه ٦٩٥٧٤ شخصاً استضافهم الملك لعشرة أيام (١) ، ثم من حيث قرب المعابد والمزارات والزقورات من الأحياء الملكية ، وأخيراً من حيث ما أدت المصادفات إليه من بقاء بعض التحف والطرف فيها، مثل: قطع العاج الثمينة المشكلة ، والأوانى المعدنية الفاخرة ، واللوحات المسمارية ذات الصبغات الأدبية والإدارية والتنجيمية والتعليمية .

وتخير سرجون لنفسه عاصمة جديدة تقع إلى الشمال الشرقى من نينوى بنحو ١٦ كيلو متراً ، ونسبت إليه فى تسميتها «دور شروكين» أى داره أو مدينته» ، وافتتحها قبل وفاته بنحو خمس سنين . ثم هجرها العمران بعده بفترة قليلة فغطاها الرديم وحمى لحسن الحظ جزءاً كبيراً من أطلالها . واحتفظت المصادر العربية بجزء من التسمية القديمة لهذه المدينة مع قليل من التحريف؛ حيث ذكرتها باسم «سرغون» ،

(١) *ANET*, 1968, 558 - 560 .

بينما احتفظ اسمها الحالى بنطق آخر أطلقه الساسانيون عليها ، هو «خسرو أباد» (أى مدينة خسرو) ، مع تحريفه إلى «خور سباد» و«خور صباد» فى اللغة الدارجة الحالية (١) .

قامت هذه المدينة على خطة شبه مربعة بلغت مساحتها نحو ميل مربع ، وأحاطت بها أسوار ضخمة تنفتح فى واجهاتها الأربع سبعة مداخل متباعدة ، وقيل إنه كان لها ١٥٠ برجاً. وشيد لسرجون فيها قصران من طابق واحد أحدهما كبير فى الضلع الشمالى للمدينة والآخر صغير فى ضلعها الغربى . وقام الكبير منهما فوق مسطح مرتفع يؤدى إليه طريق صاعد ، وتضمن نحو مائتى قاعة بلغت أبعادها القاعات الرئيسية منها نحو ٣٢ × ٨ أمتار ، وبلغت مساحة بهوها الكبير نحو ٩٧٦ متراً . وخدمت القاعات الصغرى منها أغراض الملحقات وأماكن الإدارة . ويذهب الظن إلى أن عدداً من حجراتها المستطيلة سقفت بعقود، وأن عدداً من حجراتها المربعة سقفت بقباب . واتصلت بقصر سرجون عن طريق فنائه الواسع ستة معابد ، ثلاثة كبيرة وثلاثة صغيرة ، وجاورتها زقورة متشركة بلغ طول ضلع قاعدتها ١٤٣ قدماً ، وتخلف منها ما يدل على ثلاث طبقات أو أربع ، لونت كل طبقة منها بلون مختلف عن لون الأخرى ، وبلغ ارتفاع كل واحدة منها ثمانية عشر قدما . ويحتمل أن الزقورة بنيت فى أصلها من سبع طبقات وتوجها قدس الأقداس على ارتفاع ١٤٣ قدماً ، أى بما يساوى طول ضلع القاعدة . وكان يدور حولها طريق صاعد مسور يبدأ من القاعدة حتى القمة . وأقيم أكبر المعابد الستة ، وهو معبد نابو ، فوق مسطح مرتفع يؤدى إليه طريق صاعد ، وتقدمت بوابته الداخلية أسوار مصفحة بالبرونز تعلوها رموز مقدسة ، وكسيت جوانبها بقراميد من القاشانى الملون (أو الطوب المزجج) المزخرف ، تصور حيوانات وطيورا وأشجاراً ، وقامت فى واجهة المعبد أساطين نصفية .

واستخدم المعماريون فى عمائر سرجون الأحجار بكثرة فى الأساسات وقواعد الأساطين وتيجانها وأعتاب الأبواب الرئيسية ، وفى رصف الأرضيات وحشو شرفات القصر ، وتكسية أسافل الجدران الكبيرة ، بينما استخدموا قوالب اللبن فى بناء بقية الجدران، واستخدموا الآجر فى بناء الأقبية والعقود المدببة وما يشبهها، واستفادوا فى

(١) *See,* G Loud, *Khorsabad,* I - II; *Encyclopedie Photographique de l' Art,* II, 1 f.

تنفيذ مبانيهم وزخارفها من أساليب المبانى الحيثية القديمة والمبانى السورية المجاورة لأرضهم . وهكذا كسيت الجوانب الداخلية لمداخل الحصن والقصر الرئيسية بالجص حتى ارتفاع يصل إلى ما بين الخمسة والستة أقدام ، وكسيت أكتافها بلوحات حجرية امتدت نحو ١٤ قدماً طولا وارتفعت نحو ١٣ قدماً ، ونقشت بصور مجسمة شديدة البروز لكائنات حارسة . وكسيت جوانب فناء القصر الرئيسى وجدران قاعاته الرئيسية بلوحات حجرية أيضا نقشت بحوليات سرجون وصوره متبوعاً برجال حاشيته ، فى أحجام كبيرة يزيد بعضها عن الحجم الطبيعى لقامة الإنسان ، بينما نقشت لوحات الممر المؤدى إلى قاعة العرش بصور كائنات حارسة، ولعل الآشوريين قد اقتبسوا أسلوب الكساء الحجرى فى أول الأمر م نمبانى الحيثيين فى بوغاز كوى، ومن مبانى شمال سوريا فى مثل ألالاخ أو تل العطشانة الحالية .

وتميزت عمارة القصر الصغير ببناء صفة ذات أساطين تعقب المدخل، وتقوم أساطينها الخشبية المرتفعة فوق قواعد حجرية شكلت بعض وجوهها على هيئات الأسود ، وشكل بعضها الآخر بما يشبه هيئة الآنية (المصمتة) المزخرفة المنبعجة الجوانب . وكان الآشوريون قد استعاروا أسلوب الصفة وأساطينها ذات القواعد المشكلة من مبانى جيرانهم الغربيين، واحتفظوا لها باسمها الشائع فى شمال سوريا ، وهو «بيت خيلانى»، ويبدو أن الصفة السورية كانت مجرد تقليد لأصل حيثى ، بحيث رأى بعض الآثاريين أن الصفة الآشورية كانت أقرب إلى الأصل الحيثى منها إلى التقليد السورى ، وأنها استخدمت كالصفة الحيثية جزءاً من بهو المدخل ، بينما كانت تعتبر فى سوريا بناية مستقلة بذاتها . ومن الباحثين من يفترض اشتقاق تسمية خيلانى (أو هيلانى) من أصل حيثى بمعنى المدخل أو البوابة (١) .

* * *

عبر الفن التسجيلى الآشورى عن وجوه عدة من الحياة الحربية والاجتماعية والدينية فى عصره ، فضلاً عن دلالته الذاتية عن تطور الأساليب والمهارات الفنية عند أصحابه . ووجد هذا الفن مجالاته الرحبة على السطوح المعتادة القديمة، مثل: سطح النصب ، والجدران المكسوة بالخزف والقاشانى ، والأخشاب المصفحة برقائق معدنية ، وعلى الأختام وقواعد التماثيل والعروش ، فضلا عن سطوح جديدة على

(١) *See.* Frankfort. *op. cit.* 167 and Notes .



عمد تشبه هيئة المسلات ، وعلى الأفاريز الحجرية لجدران القصور والمعابد وكانت ترتفع إلى نحو سبعة أقدام . وظل هدف الفن على هذه السطوح كلها أكثر احتفالاً بإشباع شهوة الغلبة وحب الزهو والتعاظم عند الملوك ، فصورهم يقودون الجيوش ويتقبلون خضوع زعماء خصومهم ويفتكون ببعضهم أو يشهدون التمثيل بهم وصور ربهم آشور يشاركهم القتال ويصوب سهامه من قرصه لمجنح . وصور المشاة والخيالة وفرسان العربات ذات العجلات الغليظة التى يستقلها اثنان أو ثلاثة (ويصحب الملك فيها عادة سائق وتابع مسلح . وصور تحركات الجيوش فى ساعات الكر والفر وعمليات مهاجمة الأسوار بالمدببات والسهام والفؤوس والعمد الطويلة . وصور هدم المدن وتحريقها ، وراحة الجنود فى معسكراتهم . كما صور ذلة الأسارى وتهجير المدنيين ، وحرص على أن يجعل النصر من نصيب الآشوريين دائماً ، شأنه فى ذلك شأن كل فن تسجيلى قديم بالنسبة لأهله ، وترتب على ذلك أن أصبحت أغلب لوحاته لا تخلو من رتابة ومناظر معادة ، زادها افتعالا مبالغة أغلب الفنانين فى تنميق زخارف السطوحوالثياب والشعور واللحى ، والمبالغة فى إظهار عضلات الشخصيات الرئيسية ، وهم الملوك فى أغلب الأحوال ، ثم إخضاع بعض الكائنات الطبيعية لعناصر زخرفية مفتعلة ، وعدم مراعاة التناسب أحياناً بين المكان وشاغليه ، سواء فى الارتفاع أم فى المساحة . ولم يخفف من ثقل هذه الظواهر غير نجاح بعض أولئك الفنانيين فى إظهار حيوية تحركات الأفراد ولفتاتهم ، والتمييز بين ملابس طبقة وأخرى ، والتمييز بين ملابس الآشوريين وملابس أعدائهم والتعبير عن البيئة الطبيعية بما يناسبها، كمنحدرات الجبال وحدود الجزر وأحراج البوص عند مصبات الأنهار ، ثم إظهار طابع الطراوة فى صور الولدان الخواص من خدم القصر بحيث تراهم فى هيئات تشبه هيئات الإناث أو الأغوات . وقد يرجع ذلك إلى كثرة الولدان الأجانب والمولدين من جوارى أرمينيا وإيران وآسيا الصغرى فى بلاطات الملوك وقصور السراة .

وعلى نحو ما سجل الفنانون لحظات انتصار ملوكهم ، صوروا لحظات صيدهم للأسود والثيران الوحشية . وكان الجنود يحيطون عادة بساحة الصيد الملكية ويؤلفون سوراً حولها بتروسهم الكبيرة ، وربما صادوا الأسود من أجماتها واحتجزوها فى أقفاص كبيرة استعداداً لإطلاقها حين يحين وقت الصيد الملكى ، وحينئذ كان يعلو قفص الأسد قفص آخر يحتمى فيه حارسه حين يرفع الباب إلى أعلى لإطلاق الأسد

من أسره [١] . وكان الملك يصيد راجلا وعلى عربته، وفوق صهوة جواده ، ويكسو ذراعيه وساقيه بجلد سميك ذى شرائط ليتقى به تأثير مخالب الوحوش ، أو يصحبه حراسه ليشاركوه الصيد ويناولوه السهام ويجهزوا على الوحوش الجريحة ويدافعوا عنه حين المفاجأة . وقد يسرف الفنان فيصور ملكه يرفع أسداً صحراوياً من ذيله ليدور به ، أو يصوره وقد تجمعت أمامه جثث عدد كبير من السباع وهو يطؤها بقدمه ويسكب عليها ماء مقدساً ليقدمها قرباناً لإشتار ربة الحرب وسط تراتيل الكهان والحراس وأنغام الموسيقى الوترية . ولم يخفف من غلواء الفنانين فى تصوير شجاعة ملوكهم إلا البراعة الفائقة من كبارهم فى تصوير خصائص الحيوان ومظاهر اندفاعه وغضبه ، وتهالكه وألمه ، وبلغوا من ذلك حداً لم يبلغوه فى تصوير الإنسان . وقد وفق فنان عهد آشور بانيبال التوفيق كله فى تصوير الحيوانات الجريحة كتصوير لبؤة أدمتها السهام، فانطلقت تزأر فى ألم ممض وتجر مؤخرتها العاجزة وهى تقاوم نزعها الأخير [٢]. وتصوير أسد هائل تقوقع على نفسه رافعاً كتفيه متحاملا بأربعته على الأرض بكل قوته ليقاوم السقوط وهو ينزف دماءه بغزارة من فمه [٣] ، وآخر تدلى لسانه وبرزت أنيابه وتحجرت مآقيه بعد أن لقى حتفه [٤] .

وعبرت المناظر عن الحياة المدنية للملوك ، ولكنها صبغتها بصبغة رسمية غالبة ، ومن أشهر صورها مناظر آشور ناصر بال فى كالح فى مجالس قصره وفى أعقاب حفلات صيده ، يستمتع بالشراب والموسيقى ، أو يصب الماء من كأسه على صيده ليقدمه قرباناً لربه [٥] . ثم مناظر سرجون مع رجال حاشيته عند استقبال مقدمى الهدايا إليه [٦] ، على جوانب أفنية قصره والردهة المؤدية إلى قاعة عرشه . وزيارة شلما نصر الثالث لمنابع دجلة ودعواته أمام ربها [٧] ،

(١) (Frankfort, *op. cit.*, Pl. 108

(٢) *Ibid*, Pl 111 A.

(٣) *Ibid*, Pl 111 B.

(٤) *Ibid*, Pl 110.

(٥) W Budge, *Assyrian Sculptures in the British Museum*, Pls. XIX a - b, XXXI; *Compare also:* B. Pritchard, *The Ancient Near East*, Fig. 156.

(٦) Frankfort, *op. cit.*, Pls. 96, 97.

(٧) L. W. King, *The Bronze reliefs form the gates of Shalmaneser, III*, Pl. 59 .



وخروج سينا خريب فى موكب النصر فى عربة مدنية، تعلوها مظلة مرتفعة تشبهها مظلات العربات الهندية (١) .

أما عن الحياة الداخلية الخاصة للملوك ، فلعل أشهر مناظرها القليلة الباقية هى صور آشور ناصر بال فى مناسبات شرابه . وصورة آشور بانيبال وقد تخفف من ثيابه التقليدية واستلقى على سرير مرتفع تحت كرمة أو خميلة ، وذلى قلادته من طرف سريره ، ووضع سيفه على منضدة تجاوره ، وجلست أمامه زوجة بدينة ثقيلة تشاركه الشراب ، وأحاط بهما الأتباع والعازفون وخدم المائدة ، وتدلت فى الوقت نفسه رأس عدوه الألد ملك عيلام من شجرة مرتفعة غير مثمرة (٢) .

وليس من نقوش متميزة يستشهد بها فى تصوير حياة الأفراد ، وقد يرجع ذلك إلى طغيان شخصيات الملوك وتغطيتها على من سواها ، أو يرجع إلى قلة احتفال الأفراد أنفسهم بمقابرهم ومناظرها كما حفل المصريون . غير أن المناظر الملكية تجاوزت فى بعض المرات حدود الحياة الملكية إلى تصوير حياة الأتباع ، فصورت على سبيل المثال فترات الراحة للجنود ، ومن هذا القبيل لقطات من معسكر آشور ناصر بال صورت مطابخ الجيش ورجاله ، وحظائر الخيول وسياستها، وعمليات إقامة السرداقات وإعدادها لسكنى الضباط (٣) ، ومنظر لركن من أركان معسكر آشور بانيبال بعد انتصاره على مدينة هامان ، وقد وقف على باب المعسكر جندى مسلح جلست أمامه امرأة تمازحه ، وجلس الجنود فى الداخل يعبون الكاسات ويصطلون (٤) . وصورت بعض المناظر جوانب من حياة الطبقة الكادحة- عرضاً كتصوير عمال يشدون خلفهم عربات كبيرة، محملة بجذوع أشجار ضخمة ، بحبال تنساب فوق أكتافهم كالدواب (٥) .

وظل النقش المسطح أو المنخفض قليل البروز ، أكثر شيوعاً مما سواه . وظل التصوير يؤثر طابع الضخامة والامتلاء بالنسبة للشخصيات الكبيرة ، وطابع الرهبة

---

(١) Frankfort, *op. ci.*, Pl. 89.

(٢) *Ibid.*, Pl. 114 B; Pritchard, *op. cit.*, Fig. 122.

(٣) جون هامرتون : تاريخ العالم – معرب بالقاهرة – جـ ٢ – شكل بصفحة ٢٥٥ .

(٤) Frankfort, *op. cit.*, I, 107 .

(٥) جون هامرتون : المرجع السابق – شكل بصفحة ٢٤٣ .

بالنسبة للشخصيات الخرافية . وتقيدت أغلب المناظر بالتقاليد الفنية القديمة المألوفة ، مثل تقسيم المسطحات إلى صفين أو ثلاثة صفوف ، وانتماء كل موضوع بنهاية صفه، واستقرار الأشخاص فوق خطوط الوقف ، وشغل الفراغات بمفردات مناظر، ليس من الضرورى أن يتوافر الترابط بينها دائماً . ولكن شذت عن هذه التقاليد بضع لوحات كبيرة وصغيرة ، تجاوز الفنانون فى بعضها حدود الخطوط ، وربطوا بين مناظر الصفوف المتعاقبة ، ثم تخلوا فى بعض آخر عن فكرة الصفوف تماماً ونجحوا فى استخدام المسطح كله لتصوير مراحل متتابعة مترابطة من موضوع واحد ، وهو موضوع الحرب فى أغلب الأحوال . ويذكر من النماذج الناجحة لهذه الاتجاهات اتصال المناظر لكل صف على الوجوه الأربعة لمسلة آشور ناصر بال؛ بحيث ظهرت خلفية الخيول التى تجر العربة الملكية على وجه وظهرت بقية العربة وتوابعها فى موازاة السطر نفسه على وجه آخر (١) . ثم تصوير قطعان الظباء والحمر الوحشية والخيول البرية وكلاب الصيد ، تصوير من شاهدها ودرس خصائصها فى أحوال أمنها وساعات فزعها ، طليقة لا تتقيد صورها بخطوط الوقف ولا بالأرضية المستقيمة ، مما سمح بإظهار العمق فى مناظرها (٢) . واتصال موضوع واحد على ثلاثة صفوف فى مناظر الحرب الآشورية العربية ،وهى مناظر تموج بالحركة والكر والفر والسرعة يقاتل الآشوريون فيها بالحراب والسهام ، مشاة وفى العربات وعلى صهوات الخيول ، ويقاتل الأعراب فيها مشاة وعلى ظهور النجائب ، يمتطى كل اثنين بعيراً ، أحدهما يسوقه بعصاه والآخر يرمى عن قوسه أماما وخلفاً ، وتجرى النجائب بسرعة عجيبة لتنقذ راكبيها وتنجو بنفسها ، حتى لتكاد تقفز أو تطير ... (٣) . ثم حرية المناظر فى لوحات الحروب الآشورية الإلامية مما بسطناه فى سياق حديثنا عن الحرب ذاتها . ويماثلها إلى حد ما منظر مهاجمة لاشيش فى عهد سينا خريب (أسلفنا ذكر ذلك فى الصفحات السابقة) .

---

(١) E. Unger, "Der Obelisk des Konigs Assurnasirpal aus Nineveh", *Mitt der Alto-rientalishen Gesell,* VI, 1932; *and See,* Landsberger, Sam'aal, *Ankara,* 1948, 24

ويردها الأول إلى القرن الحادى عشر ق. م، بينما يردها الثانى إلى القرن التاسع ق. م.

(٢) Frankfort, *op cit.,* Pls. 112 - 113, 174 B.

(٣) *Ibid.,* Pl. 102 B.



وتهيأت المواد الأولية الصلبة لفن النحت فى آشور أكثر مما تهيأت فى بابل، لقربها من مناطق الجبال وقرب محاجر الألباستر من عاصمتها نينوى ، ولاتساع أملاكها الخارجية الغنية بالأحجار والمعادن الصالحة للنحت والتشكيل ، لولا أنه لم يبق من التماثيل الآشورية غير قلة لا تتفق مع إمكانيات عصرها . انحصرت نماذجها الناجحة فى تماثيل الملوك والأرباب أكثر من تماثيل الأفراد ، ولسنا ندرى مرة أخرى إن كانت هذه الظاهرة قد ترتبت على محض المصادفة ، أم ترتبت على انعدام شخصية الفرد أمام جبروت الملوك . ويستشهد من التماثيل الناجحة للملوك بتمثال حجرى صغير لآشور ناصر بال يبلغ ارتفاعه نحو المتر ولايخلو من التأثر بالأسلوب البابلى ، يمثله واقفاً فى هيئة رسمية فى سن الرجولة بشارب متدل، وشعر مرسل طويل ولحية ضخمة مرجلة (مستعارة) . ولا تخلو جزيئات هذا التمثال من عيوب ، كضيق الجبهة ، وتحديق العينين ، ورقة الشفتين، وفرطحة القدمين ، والافتعال فى تمثيل اللحية المرجلة ، وخشونة الظهر، ولكنه على الرغم من ذلك مقبول فى مجمله لا سيما ببدنه الملفوف ، وانحدار كتفيه ، وامتلاء ذراعه العارية ، مع نحافة خصره تحت ربطة الزنار ، والحزوز الزخرفية التى تزين ثوبه ، وقد شكلت الشارتان اللتان يمسكهما فى يديه بالنقش البارز فى جسم تمثاله (١) ، ونقشت بضعة سور على صدره تشيد باتساع ملكه . وعثر عليه فى مشكاة بمعبد نينورتا بعاصمته كالح ، باعتباره بانى المعبد ليستفيد عن طريق تمثاله بما يقدم إلى أرباب المعبد من صلوات ودعوات وقرابين . وتمثال صغير من الكهرمان كان جزءاً من حلية كبيرة ، لملك آشورى غير معروف ، تضمن مزايا التمثال السابق دون عيوبه ، وزاد عيها سماحة مظهره ، وسلامة تكوين العينين ، وصدق تمثيل بزخارف نباتية لطيفة (٢) . ثم تمثال صغير للمعبود نابو ، من أواخر القرن التاسع ق. م، يمثله بجسد ملفوف ذى خطوط بسيطة ، وشعر كث مرسل ولحية طويلة وشارب بسيط متدل ، وتاج ذى قرون ، ووجه لا يخلو من سماحة يزكيها عقد يديه أسفل صدره وتشابك كفيه فى ليونة طريفة (٣) .

وجمعت بين النقش والنحت نقوش شديدة البروز، أجيد تفريغ خلفياتها فبدت

(١) Budge, *Asyyrian Sculptures in the British Museum*, Pl. 1 .

(٢) Frankfort, *op. cit.*, Pls. 80 - 81. – وارتفاعه ٢٤ سم، ويوجد فى متحف بوستن .

(٣) ديلابورت : بلاد ما بين النهرين – شكل ٤٦ .

على هيئة التماثيل الناتئة من جدرانها ؛ وتجلت نماذجها الكبيرة على أفاريز حجرية وجصية، كست جوانب مداخل قصر آشور ناصر بال ، ومعبد نينورتا فى كالح ، وجوانب مداخل قصر سرجون ومدخل قاعة عرشه في خور سباد . وتراوحت ارتفاعاتها بين الثلاثة وبين الأربعة أمتار ، وتجسمت مفرداتها على هيئة كائنات حارسة ذات هيئات بشرية مجنحة ، وأخرى ذات هيئات بشرية خالصة ، وثيران وأسود مجنحة برؤوس بشرية ضخمة متوجة لم ينس الفنانون تفاصيلها الصغيرة حتى الأقراط المتدلية من الآذان . ولعب الخيال الفنى والأسطورى دوره فى تمثيل بعض هذه الكائنات الضخمة ذات الأجسام الحيوانية والرؤوس البشرية بخمس سيقان ، اثنتين أماميتين متجاورتين توحيان بطابع الثبات والاستقرار لمن يشاهدهما من الجانب ، وتنسجمان مع امتلاء صدر حيوانهما وفخامة رأسه البشرية ، ثم ثلاث سيقان أخريات ذوات حجم طبيعى تنسجم مع جسم الحيوان ، وتتقدم إحداها الأخرى بحيث توحى فى مجموعها بهيئة المشى لمن يساعدها من الجانب .

وامتازت رؤوس الكائنات عند مدخل قاعة عرش سرجون بتصويرها من الأمام والتفاتها ناحية الداخلين لتملأهم روعة ورهبة . وسمحت سطوحها المجسمة المتسعة بإظهار تفاصيل تكوين الجسم البشرى لا سيما صفحات الوجوه وعضلات الذراعين والساقين ، وتفاصيل الثياب والأجنحة ، فى أناة مستحبة غطت على عيوب طابع المبالغة فى تمثيل اللحى الكثة والشعور الطويلة . واستغلت أرضياتها لنقش نصوص تمجد ملك عصرها (١) ، وهكذا جمعت بين أغراض النقش والنحت والزخرف والتسجيل والرمز بالحماية المقدسة ، كما جمعت بين الأسلوب الواقعى والتخيل الأسطورى ، وجمعت بين الجمود ومظاهر الحركة والحيل الفنية .

وأدى فن الرسم الملون دوره ، وبقيت منه نماذج قليلة ولكنها متقنة تشهد بتجارب طويلة سابقة وأشهرها هى رسوم قاعة عرش سرجون والبهو المؤدى إليها؛ وتتألف من شرائط أفقية عريضة ، تتكرر في كل شريط منها وحدتان زخرفيتان ، إحداهما لحيوان أو كائن خرافى مقدس ، والأخرى لزهرة كبيرة أو تخطيط هندسى لطيف ، وتفصل بين كل شريط وآخر خطوط متجانسة ، ويعلوها كلها ويتوسط

(١) Budge, *op. cit.*, Pls. VI - VI; G. Loud, *Khorsabad*, I, Fig. 56; II, Pl. 46 A.



اتساعها محراب مزخرف تظهر صورة الملك فيه وهو يحى تمثال معبوده [١] .

وواصلت الفنون الصغرى ، أو الفنون التطبيقية ، طريقها فى زخارف النسيج ونقوش الأوانى والكؤوس وزخارف الأساور ، فضلا عن تشكيل القوائم المعدنية للمشاعل وموائد القربان ، وتطعيم وتكفيت اللوحات الخشبية والمرمزية وقطع الأثاث الفاخر . وعبرت وحدات هذه الفنون عن الأذواق الآشورية المعاصرة لها وانتفعت فى ذلك بتراث عصرها الوسيط ، ولكنها استفادت فى الوقت نفسه من محصول الإمبراطورية الواسعة ، فظهرت فيها تأثيرات بابلية وحيثية وسورية ومصرية ، بل وتأثيرات من أرمينيا ، وما حولها أيضاً [٢] .

وبلغت زخارف النسيج الآشورية مبلغاً كبيراً من الرقة والتنوع فى ملابس الملوك بخاصة ؛ واعتمد أغلبها على زخارف نباتية اصطلاحية شاعت فيها صورة الشجرة المقدسة أو شجرة الحياة ؛ ومناظر أسطورية لكائنات مجنحة خيرة وعاتية ، وحيوانات أليفة وضارية [٣] ؛ وتخطيطات هندسية لطيفة تكاد تعتبر الأصل البعيد لتعاشيق الأرابيسك الإسلامية [٤] . ومن أمتع ما يقرن بزخارف الملابس ، تنوع هيئات أغطية الرؤوس فى المناظر الآشورية ، فمنها قلانس تشبه الطاقية ، وأخرى تشبه القاووق والطرطور والأسطوانة المرتفعة ؛ وغيرها تشبه طربوشاً بلون واحد أو لونين قد يكون مرتفعاً يعلوه ما يشبه القمع المقلوب ؛ وقد تتدلى منه عدبة طويلة تصل إلى ما تحت الكتفين ، فضلا عن التيجان المقدسة ذات الزوجين أو الثلاثة أزواج من القرون . وتنوعت طرز النعال أيضاً ؛ فمنها ما يشبه الخف الصوفى ؛ ومنها الطويل الذى يشبه ما يسمى الآن التوزلك أو البوت ؛ ومنها الصندل العادى ذو الأشرطة ، ومنها أشكال أخرى لا تحضرنا مرادفات أسمائها فى اللغة العربية .

وشكلت زخارف بعض اللوحات المرمرية ، فى قصر سرجون بخورسباد وقصر سينا خريب في قويونجيق بنينوى ، بوحدات تشبه وحدات زخارف السجاد الشرقى

(١) *Ibid.*, II, Pls. 88 - 89; *See also,* Layard, *Monuments of Nineveh,* I, Pls. 86 - 87; *Iraq* XII, 1950, Pl. XXX; F. Thureau Dangin, *Tell Barsip,* 54 .

(٢) *See,* Frankfort, *op. cit.*, 101 f. and References.

(٣) Budge, *op. cit.*, Pls. XLIX - LIII.

(٤) *Ibid.*, Pl. LIII, 36 .

المألوفة (١) ، وقد تكون أصلا لها أو تكون مشتقة من زخارف بسط فرشت بها أرضيات القصور الآشورية فعلا .

وانتفعت نقوش الأختام الاسطوانية والمسطحة من تراث العصر الوسيط؛ وأحيت معه عناصر بابلية قديمة ؛ واستعارت كذلك بعض الأساليب الحيثية القديمة؛ وامتازت النقوش الجيدة منها بوضوح مناظرها واستقلال مفرداتهاوحيوية تفاصيلها النباتية والحيوانية ، مثل حراشيف النخيل وسعفه وريش الأجنحة وزخارف الملابس ، واستطاعت أن تعبر بوضوح عن مضمون بعض الأساطير وبعض مناظر الصيد والتعبد وتقديم القرابين .

ونهل الفنانون الآشوريون من فنون سوريا الخاضعة لهم ، واتخذوها معبراً له إلى اقتباس فنون الترف المصرية الخالصة ، والمحورة منها بالطابع السورى. وكان أمتع هذه الفنون بالنسبة لهم هو تطعيم لوحات العاج وجوانب الصناديق الفاخرة وتكفيت الصحاف والأوانى المعدنية وزخارف المقابض العاجية للمراوح الفاخرة والمرايا المعدنية . واحتفظت أطلال قصورهم بقطع عاجية مطعمة بهيئات كائنات حيوانية خرافية مجنحة لها رؤوس الكباش ، ولها أمثالها فى الفن الشامى ، ومنها مقبض عاجى شكل على هيئة شيخ كنعانى (٢) ، ورؤوس نسوية جمعت بين الطابع السورى الشمالى والطابع الحيثى المستحدث (٣) . واحتفظت أطلال قصور الولاة الآشوريين فى أرسلان تاش بتحف بارعة أخرى عبرت بزخارفها وموضوعات نقوشها عن بضعة أساليب وأساطير مصرية خليطة مقتبسة (٤) .

وتضمنت قصور كالح وخورسباد نماذج رائعة للفن المصرى السورى المقتبس ، ومنها قطعة عاجية تمثل أنثى ذات وجه مصرى نحيف طيب سمح تطل من نافذة أو كوة ، هى فيما يغلب على الظن حتحور المصرية التى شبهها السوريون بعشتار ،

---

(١) Perrot et Chipiez, *Histoire de l'Art*, II, Fig. 96 .

(٢) Thureau - Dangin, *Arslan - Tash, 1*931, Pls. 19, 29, 33; Frankfort, *op. cit.* Pl. 168 c - d.

(٣) *Ibid.*, Pl. 167 d - f.

(٤) *Ibid.*, pls. 168 a - b, 169 a - b; Thureau - Dangin,*op. cit*



وسمتها كتب الفن الحديثة «عشتار فى النافذة» و«موناليزا العالم القديم» (١) .

ثم عدد من تماثيل أبو الهول الصغيرة ذات الوجوه المصرية الصميمة . وقطعة عاجية زخرفت بوريقات البردى المصرية وزهور اللوتس وبراعمه المحورة، وتداخلت فيها صور حيوانات سورية مجنحة . وقطعة عاجية أيضاً لصندوق ظهرت عليها صور عازفات ذوات ملامح مصرية وثياب سورية يعزفن على الناى والدف والوتر فى حيوية دافقة . ومقبض مروحة شكلت وجوهه الأربعة على هيئة نوبيين بملابس مصرية تعلوهم زهور اللوتس المحورة . ومقبض مرآة على هيئة أنثى تجمع بين الهيئة المصرية والملامح السورية . وصحاف نقشت حوافها العريضة بمناظر صيد مصرية رقيقة قليلة الحشو قليلة التكلف فى صور الحيوان والطير والإنسان . وأخرى زخرفت من داخلها بدوائر لولبية متعاقبة حول محور نباتى صغير، وأحاطت بها زخرفة إنشائية كبيرة، تألفت من تكرار صور حيوانين خرافيين متقابلين ذوى طابع مصرى، يتوج رأس كل منهما التاج المصرى المزدوج ، وحددت قطرى الدائرة أعمدة مصرية شكلت تيجانها على هيئة الجعل المصرى المجنح . وتكررت الأعمدة بأحجام صغيرة بين كل حيوانين متقابلين وحف بهما شخصان يتعبدان (٢) .

فى الأدب :

كان حظ الآشوريين من الخلق الأدبى نصيباً يسيراً نسبياً ، فعاشوا على آداب العصور التى سبقتهم، ولكن قامت لهم مأثرة عليها ، وهى تجديدهم لأغلب لوحاتها وحفظهم إياها ونشرهم لها مع بعض التحوير والإضافة أحياناً ، لا سيما منذ أن أنشأ ملكهم سرجون مكتبة كبيرة فى نينوى ، قيل إنه نقل منها إلى حوزة المتحف البريطانى وحده ما يزيد عن ٢٢٠٠ لوحة طينية ، وزاد هذه المكتبة وأسس أمثالها أولاده وحفدته ، كان أكثرهم احتفاء بالثقافات القديمة وجمعها فى مكاتباته هو آشور بانيبال الذى أرسل رقاعاً إلى ولاته على الأقاليم يأمرهم فيها بالتحرى عن الألواح المسمارية القديمة حيثما وجدوها ويقول لكل منهم فيها «لايجوز لأى إنسان أن يمنع شيئاً من الألواح عنك ، وإذا عثرت على أية لوحة أو رقية لم أعينها لك وتجد فيها صلاحية لقصرنا استولى عليها وأرسلها إلىّ» . وعثر فى أطلال قصره بنينوى على

(١) Loud. *op. cit.*, Pl. 51 .

(٢) *Ibid.*, Pls. 166 B, 167 a- c, 170 a - c, 171, 172 B, 173 B.

لوحات كثيرة زادت من معرفة الباحثين المحدثين بالآداب القديمة . ولم تكن كل هذه الألواح أدباً خالصاً ولا علماً خالصاً، وإنما تعلق أغلبها بالعبادات والتمائم والتعاويذ . ووجدت رسالة من هذا الملك إلى واليه في بابل ، يأمره فيها بأن يبحث جاداً عن لوحات تعاويذ الأنهار والشهور ورقى الوسائد الملكية وتقاويم الأيام ومراسيم رفع الأيدى ومجموعة الكروب ومجموعة سمع أنها معنونة بعنوان «لا تدع السوء يمس الذاهب إلى المزارع أو الداخل إلى قصره» ، ثم أمره إلى جانب ذلك بأن يضم أشخاصاً معينين إلى معيته بعد أن سمع عن حيازتهم للوحات ثمينة قديمة (١) . واتخذت ألواح أخرى صبغة عملية وعلمية ، فكان منها ما تحدث عن مركبات الزجاج وأطلية الخزف . ووجدت منها جداول تتضمن بضع مئات من أسماء النباتات تداخل بعضها في بعض ، وعبر بعضها عن خصائص نباته وثماره واستعماله ، مثل نبات القنب الذى أسموه نبات الغزل ونبات الهموم نظراً لمفعوله المخدر الذى ينسى الهموم . وتضمنت الألواح تفاصيل عقاقير نباتية، رتب كل منها باسم النبات ونوع المرض الذى يعالجه ثم طريقة تعاطيه ، فكان منها ما يقول : «العرقسوس ، لعلاج السعال ، يدق ويشرب مختمراً . «والصبر ، دواء للصفراء ، يدق ويشرب» (٢) . وكان فى إطلاع بعض الملوك الآشوريين ، لا سيما الملكين آشور أخادين ، وآشور بانيبال على أشباه هذه العقاقير والوصفات ما جعلهم يبدون اهتماماً كبيراً بنشاط أطبائهم ويرسلونهم خصيصاً لعلاج أصدقائهم ،ثم يتلقون منهم تقارير عنهم وعن علاج ذوى قرباهم بخاصة (٣) . وكثيراً ما اختتمت نصوص الألواح بتحذير القارئ من سرقتها أو كسر طابع مكتبتها الخاصة أو العامة، وإلا تعرض لنقمة الآلهة .

وانتفع الكتبة الآشوريون بأساليب المعاجم القديمة في بابل ، وزادوا مفرداتها ومترادفاتها الأجنبية نتيجة لاتساع صلات دولتهم بجيرانها ، وضمنوها مفردات خاتية وكاسية ومصرية .. ، وبعد أن كانوا يؤرخون نصوصهم في عصرهم الآشورى

(١) Contenau. *op. cit.*, 315 f.

(٢) *See*, Campell Thompson, *The Assyrian Herbal*, 1924; *On the Chemistry of the Ancient Assyrians*, 1925 .

(٣) Pfeiffer, *State Letters of Assyria*, 1935, Nos. 285, 288, 294, 295, etc...; Contenau, *op. cit.*, 187 f.



الوسيط بأسماء الشهور : كيناته ، وسين ، وألاناتو ، وشاساراته ، وما يشبهها من أسماء غريبة ، أصبحوا يذكرون شهورهم فى عصرهم الحديث بأسماء : آبو ، وتشريتو ، وتمرز ، ونيسانو ، وأدارو ، وأولولو ، وهى الأسماء المعروفة نفسها للشهور الأرامية الباقية حتى الآن ، مع تغييرات لفظية طفيفة .

ولم يخل الأدب الآشورى الخالص من مزايا خفيفة فى تقاريره وأقاصيصه الحربية بخاصة ، فوصف كاتب مدينة السامرة فى حوليات العام الثامن لفاتحها سرجون الآشورى ، قائلا على لسانه : «لقد كانت قمة عظيمة ترتفع مثل سن الرمح وتسمو فوق الجبال حتى لكأنها رأس تعتمد السماء عليها ، ولها جذور تتعمق حتى تصل إلى قلب الجحيم . وكانت من خارجها كالسلسلة الفقرية للسمكة لاتسمح لأحد بالنفاذ منها» . ولم يقصد كاتب سرجون بذلك أن يشيد بالمدينة ، ولكنه ابتغى أن يشيد بمجهوده فى تحطيمها على الرغم من حصانتها ، إذ أتبع ذلك بوصف مسالكها الوعرة ثم عقب بخطة الحربية فى تذليلها بفضل سعة أفقه وما أوحى أربابه به إليه . وعلى الرغم مما حفل به هذا الأدب الحربى من مبالغات وادعاءات، ظل ذا قيمة لا تنكر فى احتفاظه بأخبار شعوب قديمة لم تترك وثائق مكتوبة تنم عن تاريخها ، مثل القبائل العربية الشمالية والقبائل الجبلية الشمالية ، وإن كان قد صور أخبارها من وجهة نظره الخاصة .

ولعبت العرافة دوراً مهماً فى حياة الآشوريين ، وتقبلها ملوكهم بقبول حسن ، وتكفل به كهنة وكاهنات كان من أنشطهم كهنة المعبود آشور وكاهنات المعبودة إشتار إربلا ، ويبدو أنهم كانوا ينطقون بتنبؤاتهم وهم فى غيبوبة أو حالة انجذاب، فتؤخذ على أنها صادرة من روح المعبود عن طريق وسلطتهم ، ثم يدونها كتبتهم ويرسلونها إلى القصر، إذا كانت تتعلق بشخص الملك ومشروعاته . ومن طريف ما تلقاه آشور أخادين من كاهنة إشتار أنها بعد أن وعدته النصر على أعدائه، توقعت تردده فى تصديق نبوءتها ، فقالت له «ماذا فى قولى الذى تحدثت به إليك لا تستطيع أن تعتمد عليه ... ؟» . وقالت له كاهنة أخرى من إبلا تدعى «بعلة أبيشا» على لسان ربتها إشتار : «... لم لم تصدق النبوءة السابقة التى تحدثت بها إليك؟ صدق هذه ، وادعنى يوم اشتداد العاصفة ... ، واشكرنى...» . وأفسحت حروب آشور بانيبال مع إخوته وفى أنحاء مملكته مجالا خصباً لتنبؤات العرافين وأمنيات المتزلفين ، فأرسل إليه رجل يذكره برؤيا رآها جده ووعده آشور النصر خلالها ، ... ثم دعا له بأن يفتح أقطاراً لم

يفتحها أبوه ... ، وأرسل إليه يخبروه بأنه رآه فى منامه ورأى معه الربة إشتار، ودار بينه وبينهما حديث، انتهى بطبيعة الحال بتأكيد رعاية الربة له وتأييدها إياه (١) .

هذا عن أدوار المجد الآشورى ، أما عن مرحلة انهياره ، فهذه نتناولها فى صفحات تالية مع مسبباتها المباشرة .

* * *

(١) *See,* Pfeiffer, "Akkadian Oracles and prophecies", *ANET,* 499 - 451; Goetze, *Old Babylonian Omen Texts,* 1947 .





الفصل العشرون

بابل الكلدانية
أو العصـــر البابلي الأخــير
(٦٢٦ - ٥٣٩ ق. م)

تمهيد - عودة إلى الآراميين فى بابل والعلاقات مع آشور :

كان الكلدانيون (أو قبائل كلدو) فرعاً من الآراميين، مر بنا أنهم جعلوا ضفاف العراق قبلتهم منذ القرن الرابع عشر ق. م أو نحوه . وأحست بابل بخطورتهم على اقتصادياتها منذ القرن الثالث عشر ق. م ، حين كتب كل من الملك البابلى كادشمان إيلليل والملك الحيثى خاتوسيلى إلى زميله ، بتعكيرهم صفو الأمن على الطرق التجارية الواصلة بين الدولتين (١) . وتسلل الآراميون إلى أرض بابل فى أواخر عصرها الكاسى ، وعند سقوطه ، وشجعهم انتشار بنى عمومتهم حول نهرى الفرات والخابور ، وظهور إماراتهم العديدة فيما يجاور آشور وتضييقهم عليها فى أواخر عصرها الوسيط . ثم تجدد نشاطهم فى دولة بابل فى أواخر عصر أسرتها الرابعة ، وبلغوا غايتهم منها حين اغتصب زعيمهم أداد أبالدين عشرها فى عام ١٠٨٣ ق. م . واحتفظ به زهاء عشرين عاماً ، وهادن ملك آشور «آشور بعل كالا» وزوجه ابنته وأهداها هدية كبيرة . ومن البدهى أنه وفر لقومه الآراميين مكانتهم فى الدولة ، فزاد تدفق قبائلهم على أرضها ، وسادوا «دور كوريجالزو» قرب بغداد ، وانتشرت بعض قبائلهم القوية على الشواطئ الشرقية لدجلة ، وكانت أقواها قبائل الجامبولو (٢) . وأحدثت تحركاتهم هزات عنيفة فى الدولة ، بحيث تعاقبت على عرشها ثلاث أسر حاكمة فى أقل من نصف قرن (٣) .

---

(١) ديلابورت : المرجع السابق - ص ٩٥ . Dupont Sommer, *op. cit.*, 17

(٢) وقامت إلى جانبها قبائل ليتاو وخندارو وبوكودوا ... إلخ . . *Ibid.*, 23

(٣) هى الأسرات الخامسة والسادسة والسابعة . ولم تدم السابعة غير ست سنوات حكم بابل فيها رجل آلامى الأصل (انظر ديلابورت المرجع السابق - ص ٦٠ - ٦١) .



واستمر الآراميون فى توسعهم ، فامتدت قبائل كالدو فى جنوبى العراق حتى الخليج العربى وكانوا ست إمارات أكبرها «بيت داكورى» و«بيت ياكين» (١) . وسيطرت قبائل أخرى على ما بين بابل وبورسيبا ، فخافهم أهل المدينتين على مواكبهم الدينية (٢) . وظهرت آشور حينذاك فى ميدان العلاقات بين الفريقين ، وكانت قد بدأت عصرها الحديث فى أواخر القرن العاشر فعملت فيما مر بنا آنفا ، على إضعاف جيرانها الآراميين الشماليين ثم تجرأت فى عهد أداد نيرارى الثانى وهاجمت البابليين وامتد تأثيرها على الآراميين المنتشرين بين بابل وبورسيبا (٣). وحاولت بابل بعد هدنة قصيرة أن تستخدم الآراميين لحسابها فحرضت بعض طوائف السوتيين على مهاجمة الأطراف الآشورية (٤) ، ولكن خاب مسعاها فى عهد أوشكت آشور أن تبلغ فيه قمة من قمم مجدها ، وهو عهد ملكها آشور ناصر بال الثانى الذى اكتسح بجيشه عدداً كبيراً من القبائل الآرامية الشمالية الضاربة على حدود العراق والشام ، وذكرت نصوصه أنه هجر ١٥٠٠ من قبائل الأخلامو من بيت زامانى التى قهرها أبوه قرب ديار بكر (٥) .

ولم يكن الآراميون بغير أثر فى المجتمع العراقى ، على الرغم من تفرقهم واعتمادهم على حضارة البابليين والآشوريين . فقد ترتب على انتشارهم فى أجزاء شتى من بلاد النهرين ، وتدخلهم فى المعاملات عن طريق التجارة ، ووجود بعضهم خدماً وأرقاء فى بيوت الأثرياء وضياعهم ، أن وجدت لهجاتهم سبيلها إلى السكان الأصيليين وكتب بها بعض المتعلمين بالخط المسمارى ، وبلغ من أمرها أن كتبت بها نصوص قصيرة على بعض آثار شلما نصر الثالث وسرجون وسينا خريب فى كالح وخور سباد ونينوى . ثم نقل بعض الآراميين الغربيين الذين أبعدوا إلى آشور الخط الآرامى الغربى من مواطنه فى الشام إلى العراق ، ونقلوا معه طريقة الكتابة على

(١) وقامت إلى جانبها إمارات لارك وبيت أموكانيوبيت شالى. Dupont Sommer, *op. cit.*, 24.

(٢) وكانت بورسيبا مركز عبادة نابو الذى كان له دوره بجانب مردوك فى احتفالات رأس السنة فى بابل .

(٣) Dupont Sommer, *op. cit.*, 31 .

(٤) ديلابورت : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٥) Dupont Sommer, *op. cit.*, 18, 32 .

البردى التى تعلموها من المصريين والفينقيين . ويحتمل من أحد مناظر عهد شلما نصر الثالث أن أحد كتبته الآراميين كان يكتب على البردى ، وإذا صح ذلك كان نموذجاً لكثيرين غيره . وعندما دعا صاحب وظيفة «الرابشاقه» ملك اليهود فى أورشليم إلى الخضوع والتسليم خاطبه بالآرامية من خارج السور ، وذلك مما يعنى أن أمثاله من كبار الموظفين الآشوريين كانوا يعرفونها (١) .

وشهدت بابل حرباً أهلية بين ملكها وأخيه ، واستعان ملكها (مردوك زاكير شوم) بالملك الآشورى شلما نصر الثالث فأعانه وأصبحت له اليد العليا على عرشه، وسمح ذلك للملك الآشورى بأن يذهب بجيوشه أو بنفوذه حتى كلديا ، وقال فى نصوصه فيما استشهدنا به من قبل : «هبطت إلى كلديا وقهرت مدنها وسرت حتب البحر الذى يسمونه البحر المالح (الخليج العربى) ؛ وتلقيت فى بابل جزية أدينى بن داكورى من الفضة والذهب وخشب أوشو والعاج ...» . وصور فنانوه على أبواب قصره المكسو بصفائح البرونز جزى بيت داكور بالكلدانية يحملها أهلها بين صفوف النخيل ويشرف عليها كتبة الملك وحراسه (٢) . ولم يكن شلما نصر أقل اعتزازاً بخضوع آراميى الجنوب من اعتزازه بانتصاراته المتكررة على بنى عمومتهم الشماليين فى بيت أدينى وشمآل ، وبنى عمومتهم الغربيين فى قرقر.. (راجع قصته معهم) .

ومرة أخرى استعانت بابل بالكلدانيين ومن شابههم من الآراميين ، فضلا عن الإلاميين حلفائهم الاضطرابيين ، فى مهاجمة آشور بعد وفاة ملكها شلما نصر الثالث ، ولكنها فشلت وقتل ملكها وخلا عرشها فترةمن الزمن ، ثم استعادت قواها وعاودت الكرة ضد الآشوريين فى عهد ملكهم أداد نيرارى الثالث ولكنه اكتسح أرضها وتلقى جزى الكلدانيين . وأصاب بابل بعد ذلك ما أصاب آشور من حيث غموض التاريخ واضطراب الحوادث . وانتهت فى ذلك الحين الأسرة البابلية الثامنة ، وتلتها الأسرة التاسعة التى عاصرت بادية المرحلة الآشورية الثانية من عصرها الحديث على نحو ما يرد ذكره بعد قليل .

* * *

(١) وما عثر عليه فعلا رسالة بالآرامية موجهة من موظف آشورى يدعى ببليتر إلى موظف آشورى آخر يدى بير أور ، من منتصف القرن السابع ق. م .

(٢) King, *Bronze Reliefs from th Gates of Shalmaneser,* 1915, Pl. 63.



فى الفن :

حاول الفن البابلى أن يحتفظ خلال فترات الضعف السياسى هذه بإثارات من تقاليده القديمة تذكر أهله بمجدهم الغابر ، مع تلوينها بصبغة حديثة خفيفة تتفق مع اتجاهات عصره والتجديدات الآشورية التى ظهرت فيه . ووجد فن النقش سبيله حينذاك على نصب الهبات ونصب الحدود الإقليمية (كردورو) وعلى النصب التذكارية للملوك . فاحتفظت آثار القرن الحادى عشر ق. م بنصب صغير (من عهد نبوخذ نصر الأول) صور فنانه عليه عدداً من هيئات الأرباب وصور مقاصيرهم ونواويسهم ورموزهم الحيوانية والنجمية والاصطلاحية . وليس للفن نصيب كبير فى هذا النصب فيما خلا مجهود ناقشه فى تصوير مفرداته الكثيرة على مسحه الصغير ومحاولته تمثيل طيات الثوب الواسع لصاحب النصب فى جلوسه ، ولكن بقيت له قيم أخرى معمارية ودينية، تمثلت فى صور ما ذكرناه من المقاصير والرموز المقدسة ، مثل تصوير سقوف المقاصير على هيئات مخروطية ومائلة ومقببة ، وتصوير أسطون لولبى بتاج على هيئة رأسى أسدين متدابرين ، وقد ظهر له ما يماثله فى الفن الإيرانى ، ومثل وضوح التفرقة بين رموز الثالوث السماوى الكبير ، الشمس والقمر والزهرة ، فظهر رمز الشمس على هيئة قرص تتوسطه نجمة رباعية تنبعث الأشعة من بؤرتها ، وظهر رمز من رموز النصب صورة حيوان بارك يخرج من ظهره خطان لولبيان ، يعبران فيما يبدو عن تموجات البرق، ويرمز إلى المعبود أداد رب العواصف والبروق (١) .

واحتفظت آثار القرن التاسع ق. م بلوحة تذكارية مستطيلة سجلت قصة تجديد معبد شمش فى سيبار (أبو حبة الحالية) خلال عهد نابو بالدينا (حوالى عام ٨٧٠ ق. م) (٢) ، وظهر شمش فى أعلاها بهيئته البابلية التى صورتها له لوحة حمورابى ، شيخاً مهيباً برداء كاس وتاج ذى أربعة أزواج من القرون ، مع تحوير يسير فى طريقة تمشيط لحيته الطويلة ، وزخارف ثوبه ، ووضع عصاه ، وزخرفة عرشه التى مثلت معبودين يرفعان سقفه ، وأشرفت عليه ثلاثة أقراص قد ترمز إلى الثالوث السماوى الكبير ، الشمس والقمر والزهرة . وجلس شمش بعرشه داخل ناووس ينحدر سقفه

(١) Pritchard, *The Ancient Near East,* Fig. 142.

(٢) Frankfort, *The Art and Architecture.* Pl. 121.

انحداراً لطيفاً إلى الخلف، وتعتمد واجهته على أسطونين صور الفنان أسطوناً منهما مضلع الساق بما يشبه حراشيف النخيل . وشكل قاعدته وتاجه بوحدات نباتية محورة اعتبرها بعض الباحثين سلفاً قديماً لما سمى فيما بعد باسم زخارف الأعمدة الدورية . وتقدم ناووس شمش صوان استند فوقه رمزه ، وهو عبارة عن قرص ضخم ذى قاعدة مزخرفة تتوسطه نجمة رباعية تنبعث الأشعة من بؤرتها . ولم يصور الفنان القرص بجانبه الضيق الظاهر ، وإنما صوره بواجهته الواسعة على عادة تقاليد الفن القديم فى تصوير الأشياء من أوضح هيئتاتها ووجوهها ، ولكنه تحرر من ناحية أخرى فى تصوير معبودين متجاورين يطلان من السماء على سقف الناووس ويشدان القرص ، فصورهما تصويراً جانبياً سليما بحيث أخفى أقربهما إلى الرائى جذع زميله ، وصور ذراعيهما البعيدتين أكثر انخفاضاً من ذراعيهما القريبتين ؛ مما ينم عن إحساسه بالفارق بين ما يبدو فوق مستوى النظر وما يبدو تحته .و صور الفنان ملكه يبتغى القربى من ربه فى هيئة خاشعة، تنم عن إحساسه بعظم الفارق بينه وبينه وتختلف إلى حد كبير عن هيئة حمورابى القديمة أمام ربه ، فصوره بحجم صغير يحيى إلهه ، متواضعاً يرفع يده ويبسط كفه ، ويتقدمه كاهن يأخذ بيده ، ويلمس مائدة ربه بيده الأخرى متبركاً بها ، وتتبعه راعيته إشتار (؟) . وصور الفنان هذه الشخصيات الثلاث تصويراً جانبياً سليما على الرغم من صغر أحجامها ، وجعل اختلاف أوضاع أيدى أصحابها سببا للتنويع ودفع الرتابة فى التصوير . ثم فصل بين هذه المجموعة المصورة ونصوص اللوحة بفاصل عريض يعبر عن تموجات الماء ، ورتب نصوصه تحته فى سور أفقية، وزعها على ثلاثة أنهر رأسية وقص فيها نبأ آخر إصلاح للمعبد فى عهدى ملكين بابليين سبقا عهد ملكه بأكثر من قرنين، وتخرب المعبد بعدهما إلى أن انتهز مولاه فرصة عقد صلح مع آشور والتفت إلى أداء واجباته نحو معابد أربابه .

* * *

عاصرت الأسرة البابلية التاسعة بداية المرحلة الآشورية الثانية من عصرها الحديث ، ولم تكن ذات أثر مهم فى حياة بلدها ، فدانت بالطاعة لجبروت تيجلات بيليسر الثالث الآشورى . ثم انتقل الحكم منها إلى أسرة حاكمة جديدة خلال عهده، وهى الأسرة البابلية العاشرة منذ عام ٧٣٢ ق. م ، وكان الحدث المهم فى أوائل أيامها

هو نجاح مردوك أبال أدين الكلدانى زعيم بيت ياكين فى اعتلاء عرش بابل مستغلا فرصة البلبلة التى صاحبت انتقال العرش الآشورى إلى البيت السرجونى منذ عام ٧٢١ ق. م ، ومدعياً أنه من سلالة إريا مردوك أحد ملوك الأسرة البابلية الثامنة ، هادفاً بذلك إلى صبغ حكمه بصبغة شرعية ، ولكن ذلك جر عليه وعلى أسرته عداء البيت السرجونى حتى عهد آشور بانيبال ، كما فصلنا ذلك فى حينه .

وتركت أواخر القرن الثامن ق. م نصباً من نصب الهبات (كودورو) ، ظهر عليه الملك البابلى يعلن هبته لأحد أتباعه المقربين ويضعها تحت حماية أرباب ظهرت صور مقاصيرهم وحيواناتهم المقدسة فى أعلى النصب [1] . وصور الفنان ملكه وتابعه تصويراً جانبياً سليما لا سيما بالنسبة للصدر الذى لم يلتزم بتقليد تصويره باتساعه ، وبالنسبة لتصوير قدمى التابع العاريتين اللتين اكتفى بتصوير أصابعهما الظاهرة وحدها ، فأظهر الإصبع الكبير لإحداهما والأصابع الخمس للأخرى ، ولو أنه تصوير سبقت له أمثلة قديمة أخرى كثيرة . ثم صور ملامح وجه ملكه ومسطح رقبته وصدره ورداء رأسه واستدارة ذراعه بخطوط ناعمة وروح بسيطة، تختلف عن الروح الآشورية الرسمية المعاصرة لها فى تصوير الملوك.

يقظة بابل ومادى وانهيار آشور :

شكلت مصائر علاقات بابل بآشور فى أواخر عهد آشور بانيبال وعقب وفاته عدة عوامل ، وهى : اهتزاز الحدود الآشورية تحت ضغط القبائل الهندوآرية والجبلية الناهضة من السميريين والسكيثيين والماذيين ، واهتزاز العرش الآشورى نتيجة لكثرة الخلافات الأسرية فى البيت المالك ، وازدياد حقد البابليين والكلدانيين بعد الانتقامات العنيفة التى أنزلها الآشوريون بهم مرة بعد مرة ، ثم انتقال الحكم فى بابل إلى أسرة كلدانية قوية، استطاعت أن تستغل الظروف المحيطة بها وهى الأسرة الحادية عشرة والأخيرة .

وأسس الحكم البابلى الجديد كلدانى يدعى نابو بولاسر (٦٢٦ - ٦٠٤ ق. م) يحتمل أنه كان ولداً لأمير يدعى كاندا لونو عينه آشور بانيبال على بابل بعد مقتل أخيه ، وعمل قائداً فى الجيش الآشورى وحاكماً على الأقاليم الجنوبية ، ثم عمل

(١) Frankfort, *op. cit.*, Pl. 120 .

لحسابه فزحف على بابل وولى عرشها بعد تفكك أواصر البيت الآشورى الحاكم ، ولكن لم يتعد سلطانه فى بداية أمره ما حولها .

وتتابعت الأحداث فيما حول بلاد النهرين ، ففى شرقها بدأ الماذيون يلعبون دورهم فى نواحى إيران ، وكان هؤلاء (وهم من سماهم الإغريق باسم الميديين) فرعاً من الجماعات ذات الأصل الآرى ، رددت النصوص الآشورية اسمهم منذ القرن التاسع ق. م على أقل تقدير (وإن كان يحتمل ورود اسم قريب من اسمهم منذ عهد تيجلات بيليسر الأول فى أواخر القرن الحادى عشر أيضا) ، وذكرتهم نصوص شلمانصر الثالث حول همدان ، هم والفرس (باراسو) فى جبال كردستان(١) - وخضع القريبون منها لسلطانها . ثم اتضحت تجمعاتهم وأطماعهم منذ أواخر القرن الثامن ق. م ، ومالوا إلى التحرر من نفوذ الآشوريين ، وذكرت نصوص سرجون انتصاراته عليهم ، وأنه نفى بعضهم إلى سوريا وأحل محلهم مهاجرين من سماريا ومن شعوب مغلوبة أخرى ، وأشارت الروايات العبرية إلى شيء من ذلك. ثم نجح الماذيون فى تحقيق كيانهم المستقل حوالى عام ٧٠٨ ق. م بزعامة «دايوكو» ، وروت القصص الإغريقية عن هذا الزعيم الذى سمته دايوكيس أن شعبه انتخبه ملكاً وأنه نجح فى توحيد كلمة القبائل الماذية تحت حكمه واتخذ اكباتانا (ربما بمعنى ملتقى الطرق وهى همدان الحالية) عاصمة . وأقام قصره داخل حصن تحيط به سبعة أسوار ، ثم احتجب عن رعاياه ولم يسمحلهم بأن يتصلوا به اتصالا مباشراً(٢) . ولم يكن من المنتظر أن ترضى آشور عن انسلاخ ماذى عنها فى عهدها السرجونى العظيم ، فتكرر الصدام بينهما ، ولكن قضاء الآشوريين على مملكة إلام فى عام ٦٤٤ ق. م أراح الماذيين من ضغط هذه المملكة عليهم ومقاومتها لرغبتهم فى الاتساع جنوباً منذ عهد ملكهم فراورتى (Phraortes) ، فى منتصف القرن السابع ق. م . وهكذا استغل الماذيون المرتفعات الجنوبية الغنية بمعادنها وأحجارها الكريمة ، كما استغلوا مزارع السفوح والوديان فى بناء اقتصادهم ، ولكنهم ظلوا أقل

(١) دوفادولير : إيران ماضيها وحاضرها - معرب بالقاهرة - ص ٢٦ .

(٢) Herodotus, I, 75 f.; Bury, *The History of Greece*, 221 .

ديلابورت : المرجع السابق - ص ٣٢٠ .



قوة من الآشوريين ، وقتل ملكهم فراورتى فى الحرب (١) .

وزادت أمام الماذيين فرص الانطلاق بعد أن اهتزت أركان الآشوريين بطرد حاميتهم من مصر، وخروج أغلب ولايات الشام عليهم وحدوث الانقسامات الداخلية فى دولتهم ، فانتظمت قبائل مانداهور الماذية تحت زعامة هواخشير (كيخسرو فى الفارسية وأوماكيشتار فى البابلية وكياكساريس Cyaxares فى اليونانية) . وتوالت هجمات جيشه على آشور منذ العام الأول من حكمه ، وحاصر نينوى بعد أن أعاد تنظيم قواته على نسق التنظيم الآشورى ، لولا أن اهتز الشرق الأوسط حينذاك باندفاع السكيثيين أعداء الماذيين ، وقد أخذوا يضربون شرقاً وغرباً دون هدى ، ومالوا فى بداية الأمر إلى محالفة الآشوريين ، ولكنهم ما لبثوا حتى هاجموا كلا من أطراف ماذى وآشور معاً ، مما اضطر هواخشير الماذى إلى التراجع عن آشور ليحمى مملكته (٢) .

وإلى الغرب من آشور كانت دولة ليديا المتأغرقة تحاول طرد هجرات السميريين (أو الكيميريين) البرابرة من آسيا الصغرى . والتمس ملكها جيجيس عون آشور فى عهد ملكها آشور بانيبال ولكنه لم يجد من معونتهم ما كان يبتغيه ، وقتل فى الحرب ، ثم انفردت دولته بالمهمة وطردت السميريين من آسيا الصغرى فى عهد ولده أرديس . واندفع السميريون فى تقهقرهم على الحدود الآشورية فصدتهم عنها جيوش آشور بانيبال بعد جهد جهيد . واقتفى السكيثيون أثر السميريين فاقتحموا ممرات طوروس واجتاحوا مناطق غرب الدولة الآشورية وولاياتها الساحلية دون مقاومة تذكر من الجيوش الآشورية، التى أنهكتها الحروب المتواصلة ولا من الفرق المؤلفة من الشعوب الخاضعة التى لم يكن لها من حسن التدريب ولا من الإخلاص للدولة ما يعوض ضعضعة الآشوريين . بل إن هذه الهزة قد شجعت المدن السورية على أن تنفض ما بقى من النفوذ الآشورى عنها ، وواحدة إثر الأخرى ، بعد أن تبينت ضعف أصحابه . أما السكيثيون فيروى هيرودوت أنهم أوشكوا أن يصلوا فى اندفاعتهم إلى الحدود المصرية ، لولا أن صرفهم الفرعون بسماتيك عنها بالعطايا ، مفضلا ذلك

(١) Herodotus, I, 192 .

(٢) *See,* Landsberger - Vayerm *ZA*, XXXVII, NF. III, 82 f.

عن استهلاك قوته الحربية(١) ، (أسلفنا ذكر ذلك فى الجزء الأول من الكتاب) .

وأدلى نابو بولاسر البابلى الكدانى بدلوه فى أحداث عصره ، فاشتبكت جيوشه مع الآشوريين منذ العام العاشر من حكمه على أقل تقدير ، فى قابلينو ومادانو وعلى نهر الزاب وحول العاصمة آشور نفسها ، فى تكريت (تاكريتين) (٢)، ولكن دون نتائج حاسمة لأحد الجانبيين ، لا سيما وأنه لم يلق العون مخلصاً من كل البابليين ، كما ظلت بقية القبائل الآرامية المجاورة له حريصة على استقلالها الذاتى بجانبه . وفى ظل هذه الظروف التى أحاطت بآشور وجيرانها ، تلفت كل من الطرفين القريبين منها والطامعين فيها ، ونعنى بهما الكلدانيين والماذيين ، كل منها إلى عون الآخر ، بعد أن أيقنا أنه لا قبل لأحدهما منفرداً بأن يهزم آشور ، فتحالفا وأيدا تحالفهما بمصاهرة البيتين الحاكمين فيهما (٣) ، وابتدأت جيوش الحليفين تدق على أبواب آشور من جديد .

ويفهم من الروايات البابلية أن المصريين كان لهم دور فى معاونة الجيوش الآشورية (٤) ، وإذا صح ذلك كان معناه أن آشور لجأت فى محنتها إلى عون مصر خصيمتها العتيدة ، وأن مصر استجابت لها حرصاً على الوضع الدولى القائم ودفعاً للخطر الثنائى الجديد من ماذى وبابل ، ولكن الدفعة التى خرج بها الماذيون المتحفزون والبابليون الكلدانيون الحاقدون على آشور ، كانت أقوى من أن تصدها دولة مزقتها الخلافات أو يصدها حليف بعيد الديار . فشدد ا لماذيون والبابليون حصارهم على نينوى، ودمروها تدميراً عنيفاً فى عام ٦١٢ ق. م ، وقضوا على استقلالها ، وقتلوا ملكها «سين شار إشكين» أو دفعوه إلى الاحتراق بنيرانها كما ذكرت الروايات الإغريقية ، على نحو ما هلك شمش شوموكين ملك بابل الآشورى الأصل قبل ذلك بستة وثلاثين عاماً فى نيران عاصمته . واعترفت الوثائق البابلية بأن أكثر الجهد كان من نصيب الماذيين العتاة ، ليس فى القضاء على نينوى وحدها ، وإنما فى اجتياح

(١) Herodotus, I, 105; II, 30, 153 - 154, 157 ; IV, 46 .

(٢) *ANET,* 204 .

(٣) ديلابورت المرجع السابق – ٦٧ .

(٤) *See, ANET,* 304 .



الأقاليم العراقية التى لم تعترف بالوضع الجديد ولم تنتظم فى سلك الزعيم البابلى أيضاً . ولم يأبه الماذيون حين ذاك بمقدسات العراق ومعابدها (١) ، ويذكر النص البابلى أنهم اكتسحوا ما فوقهم وما تحتهم وما على يمينهم ويسارهم ، وكانوا كإعصار الفيضان . ولم يكن فى وسع حليفهم البابلى غير السكوت فى سبيل القضاء على الغول الآشورى ، أو على حد تعبير النصوص البابلية لم يجد أمامه إلا أن يرسل شعره مهوشاً دون تمشيط ويؤثر النوم على الأرض دون المضاجع ، تدليلا على براءته من انتهاك حرمة المعابد على أيدى حلفائه (٢) .

وجمع الآشوريون فلولهم وتحصنوا فى حران بقيادة آشور أو باللليط وريث العرش الآشورى ، وكانت حران عصباً رئيسياً لأحد الطرق التجارية الكبيرة فى بلاد النهرين (وقد يعنى اسمها معنى الطريق أيضاً) ، ولكنهم ما لبثوا حتى أخلوها تحت ضغط الغزاة ، فدخلها البابليون والماذيون وتركوا حامية بها (حوالى عام ٦١٠ ق.م). ثم حاول آشور أو باللليط أن يجرب حظه للمرة الأخيرة فاستعان بجيش مصرى على حد رواية البابليين ، وحاصر الحامية البابلية فى حران (حوالى ٦٠٩ ق.م) ، ولكن طال أمد الحصار حتى لحقت بها النجدات البابلية والماذية وهزمت جيوشه بعد أن قاومتها نحو ثلاث سنوات (٣) .

وبذلك انتهى دور الآشوريين من التاريخ بعد أن أثبتوا أنهم كانوا أعنف قوة عسكرية منظمة شهدها الشرق القديم حتى عصرهم ، وبعد أن ضربوا المثل فى ضراوة القتال وأساليب العنف لجيرانهم الإيرانيين ، لا سيما الماذيين والفرس ، وبعد أن شتتنوا جهودهم بتوسيع أملاكهم إلى آفاق بعيدة يصعب الاحتفاظ بها ويصعب الدفاع عنها سواء من الشرق أم من الغرب مما أدى إلى تفسخ قواهم ، وبعد أن أثاروا حقد بقية بلاد النهرين عليهم بإصرارهم على إذلال بابل والسيطرة عليها، على الرغم من قرابتها لهم وسمعتها القديمة الواسعة ، وعلى الرغم من استفادتهم من حضارتها .

(١) *Ibid*, 309; Zehnpfund - Langdon , *VAB*, IV, 270 f.

(٢) *Ibidem.*

(٣) *See*, Gadd, *The Fall of Niniveh*, 1923 .

التوسع البابلي الأخير :

زادت صحوة الكلدانيين البابليين بعد القضاء على الكيان الآشورى ، واستمروا فى تقوية جبهتهم الداخلية والاستعانة بالدين عن طريق تعمير المعابد وتشييد الجديد منها ، وسيطروا على أواسط بلاد النهرين وجنوبها ، ورضوا مؤقتاً بسيطرة الماذيين على شمال العراق وأملاك الآشوريين الكثيرة فى شرق دجلة وما يمتد نحو حدود آسيا الصغرى . ثم طمعوا فى إحياء الأملاك الآشورية الغربية فى الشام لحسابهم ، وبدأوا يعملون للسيطرة على بادية الشام وسوريا وفلسطين ، ولكن طموحهم أثار مخاوف مصر من عودة التنافس على الطرق التجارية فى الشام ، فخرج الفرعون نيكاو الثانى بجيشه إلى فلسطين وكسر شوكة مملكة يهوذا التى أرادت أن تنتصر فى عهد يوشيا [١] للقوة البابلية الجديدة ، وواصل طريقه إلى سوريا ليوقف مسيرة الاحتلال البابلى الجديد ، ثم واصل طريقه نحو الفرات ، ولكن انتصاراته أسكرته وأخذه الزهو فعاد وتوقف بجيوشه فترة طويلة فى لبنان ، حيث أمر بتسجيل انتصاراته على صخور وادى الكلب (تلك الصخور التى حفلت بنقوش عدد من الفاتحين والمنتصرين) فكان توقفه بجيوشه فرصة سانحة اغتنمتها الجيوش البابلية فتجمعت وأزادت أعدادها بقيادة ولى العهد البابلى نبوخذ نصر ، والتقت بالمصريين فى موقعة قرقميش عام ٦٠٥ (أو ٦٠٤) ق . م ، ونجحت فى أن توقف زحفهم [٢] . وحاول المصريون أن يعيدوا الكرة لمهاجمة مصالح بابل فى الشام عن طريق البحر مرة أو مرتين ، ولكن مشروعاتهم لم يكتب لها التوفيق[٣] . ويحتمل أنهم عاودوا إرسال قواتهم بالبر مرة أخرى فى عهد بسماتيك الثانى (٥٩٤ – ٥٨٨ ق . م) ؛ حيث أشارت نصوص عسكرية فى أبى سنبل إلى امتداد نفوذه حتى قرقميش . ثم روى هيرودوت أن الفرعون أبريس (واح إب رع) (٥٨٨ – ٥٦٨ ق . م) هاجم صيدا وصور براً وبحراً بعد خضوعهما للبابليين خوفاً من اتخاذها سبيلا لمهاجمة مصر عن طريق البحر [٤] (راجع ما ذكرناه فى هذا الصدد ، فى الجزء الأول من هذا الكتاب) .

---

(١) الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ – ٣٥ – وراجع ص ٣٢٦ .

(٢) Woolley, *Carchemish*, II, 125 - 127 .

(٣) Herodotus, II, 157 .

(٤) Herodotus, II, 161 .



وواصل نبوخذ نصر الثانى (وصحيح اسمه فى البابلية هو «نابو - كدورى - أوصر» بمعنى «الإله نابو يحمى الحدود») مشروعاته فى الشام بعد اعتلائه العرش (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) ، وسيطر على لبنان (لبنانو) وبرر عمله فيها بمنطق الفاتحين ، فاعتبر نفسه محررها وناشر السلام فى ربوعها ، وادعى رعايته لأهلها المشردين ، وبرر اهتمامه بها بملكية ربه مردوك لغاباتها وحب أربابه العراقيين لأخشابها وروائحها الزكية ، ثم وعد أهلها بأن ينقش صورته على سفوح جبالهم حتى لا يعتدى عليهم معتد أويعكر أحد صفو أمنهم [١] .

وخلدت التوراة والأساطير حروب نبوخذ نصر مع مدينتين ، وهما : أورشليم عاصمة يهوذا ، وصور الميناء الحصينة . وقد أسلفنا ذكره فى الجزء الأول من الكتاب كيف تذبذب ولاء يهوذا بين مصر وبابل فى بداية النهضة البابلية وكيف هزم الفرعون نيكاو حاكم أورشليم اليهودى يوشيا عام ٦٠٨ ق.م فى مجدو، وكيف عزل ولده من بعده وعين على المدينة يهوياقيم وألزمه الجزية . وظل الأمر كذلك حتى زال خوف أورشليم من مصر بعد موقعة قرقميش ، فعادت إلى ترددها فى علاقاتها مع بابل بين الطاعة وبين العصيان ، حتى هاجمها نبوخذ نصر حوالى عام ٦٠٠ ق.م فاستسلمت له بسهولة ، وأعلن له حاكمها يهوياقيم الطاعة وصار عبده ثلاث سنوات على حد تعبير سفر الملوك ، ثم ثار عليه بعدها وكون حلفاً ضده ، فهاجمه نبوخذ نصر وضربه بمن خرجوا عن حلفه من أهل الشام ، وأرسل ضده جيشاً مؤلفاً من كلدانيين وسوريين ومؤابيين وعمونيين، كما روت التوراة . وانتصر البابليون وأعوانهم فى عام ٥٩٧ ق.م وأسروا ملك أورشليم وعدة آلاف من جنوده وأهل دولته، وكان فيهم ألف من الصناع ، وأمر نبوخذ نصر بنفى الأسرى جميعاً إلى بابل . وأطلق اليهود على هذا النفى اسم السبى الأول ، ويبدو أنه صحبهم فيهم نبيهم حزقيال.

وعين نبوخذ نصر «صدقيا» اليهودى والياً على أورشليم ، تحت إشرافه ، فظلت يهوذا خاضعة للبابليين أحد عشر عاماً ، ثم ثارت عليهم ، وانقسم أهلها حينذاك

---

(١) *ANET*, 307 . F. H. Wissbach, *Die Inschriften Nebukhadenzars* II *im Wadi Birssa und am Nahr El-Kelb*, 1966; Zehnpfund - Langdon, *VAB*, IV, 151 f.

شيعتين ، أشرنا إليهما فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، شيعة تزعمها صدقيا وتكلم باسمها النبى حننيا فدعا إلى كسر نير بابل والثورة عليها باسم الرب ، وشيعة أخرى مضادة تزعمها النبى إرميا ودعا معها إلى وضع أعناق الأمة تحت نير ملك بابل بامر الرب أيضاً (١) . وكان فى تعارض دعوة النبيئين وتمسحهما فى أوامر الرب ما دعا كلا منهما إلى إنكار نبوة الآخر (٢) . وعاودت جيوش نبوخذ نصر مهاجمة أورشليم فى عام ٥٨٨ أو ٥٨٧ ق. م وشددت الحصار عليها ، ولكنها اضطرت إلى رفع هذا الحصار ، بعد أن تحركت الجيوش المصرية لمساعدتها (فى عهد واح إب رع (٣)) ، ثم عاوت حصارها مرة أخرى وضيقت عليها تضييقاً شديداً نحو عام ونصف عام حتى دخلتها فى عام ٥٨٦ أو ٥٨٥ ق. م ودمرتها ، وأحرقت هيكل سليمان ونقلت خزائنه ، ونفت أربعين ألفاً أو خمسين ألفاً من أهلها إلى بابل لينوحوا عند الفرات على حد قول التوراة . وأسر البابليون صدقيا عند أريحا ، وفعلوا معه ما اعتاد اليهود أن يفعلوه مع بعضهم البعض ، بل ومع أنبيائهم أيضاً الذين كانوا يقتلونهم بغير حق ، فقتلوا أولاده أمامه ثم فقأوا عينيه ليكون سفك دم أولاده آخر منظر يراه (فى ربلة على نهر العاصى) . واعتبرت التوراة ما حل باليهود حينذاك عقاباً لهم على «تماديهم فى عصيان الرب حتى ثار غضبه على شعبه فأصعد عليهم الكلدانيين» (٤) . وصدق الله تعالى حيث قال فى قرآنه الكريم: (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً، فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ..) (٥) ، والعلو هنا هو التمادى فى الظلم . أما إرميا داعية الخضوع لبابل ، فقد لجأ مضطراً مع جماعة كبيرة ممن نجوا من القتل والتشريد إلى مصر ، فوسعتهم رحابة صدرها (٦) .

وتابعت جيوش نبوخذ نصر مهاجمة المدن الفينيقية والسورية ، وكانت أشد

(١) الملوك الثانى ٢٤ ، ١٥ - ١٦ .

(٢) إرميا ٢٨ : ١، ١٢ - ١٤ ، ١٥ - ١٧ ، ٣٧ : ١ - ٥ .

(٣) حزقيال ٢٧ : ١٥ ، إرميا ٢٧ : ٥ .

(٤) الأيام الثانى - الإصحاح ٣٦ .

(٥) سورة الإسراء - الآية ٣ وما بعدها .

(٦) الملوك الثانى ٢٥ : ٢٥ - ٢٦ ، إرميا ٤٤ : ٣١ ، ٣٠ .

هذه المدن مقاومة لها مدينة صور التى ظلت على مقاومتها ثلاثة عشر عاماً (٥٨٥ - ٥٧٣ ق.م) بدت فيها من البسالة صوراً مشرفة وساعدها على المقاومة سهولة اتصالاتها بجزيرة لها بالبحر ، ثم رضيت فى نهاية الأمر بصلح اعترفت فيه بسيادة البابليين ، واضطرت تحت ضغطهم إلى معاونتهم ضد مصر، حين أرادوا أن يتخذوها قاعدة لمهاجمة السواحل المصرية عن طريق البحر (١) .

العمران والفنون :

أرادت بابل الكلدانية أن تعوض أجيال التبعية الطويلة التى مرت عليها ، وقد أسكرتها نشوة النصر على الآشوريين على الرغم من قرابة الجنس والديار بينهما . ووجدت فرصتها الذهبية فى طول عهد ملكها نبوخذ نصر الثانى ، الذى امتد ثلاثة وأربعين عاماً ، وفيما مر بنا من تعدد انتصاراته وأمجاده . فنشطت حركة العمران فيها كما لم تنشط من قبل ، وبلغ محيط عمرانها حينذاك نحو ١٨ كيلو متراً ، وذكر المؤرخون الإغريق أن أسوارها كانت أسواراً دائرية عظيمة، وأنه أحاطت بها أربعة خطوط دفاعية . وأولها هو السور الداخلى للمدينة وقد بنى من اللبن ، وكان ذا أبراج ، وبلغ سمكه ٧,١٢ من الأمتار ، وتلاه على مبعدة اثنى عشر متراً سور آخر خارجى ضخم، بلغ محيطه أحد عشر ميلا ونصف ميل ، بنى من الآجر وثبت بالقار وبلغ سمكه ٧,٨١ من الأمتار ، وأطل على خندق واسع ، ودعم أصحابه بجدار ساند يرتفع بارتفاع الخندق ويبلغ سمكه ٣,٢٥ من الأمتار . أما خطا الدفاع الخارجيان ، فسمى أحدهما بسم السور الماذى وامتد من الشمال إلى الجنوب من بلدة الحديثة على نهر دجلة حتى أبو حبة على نهر الفرات ، وامتد الآخر من خان الناصرية على نهر الفرات حتى مدينة كيش على أحد فروعه .

وتمثلت أهم عمائر ومعالم بابل الكلدانية فى قصر نبوخذ نصر ؛ وفى زقورة «إم. تمن آنكى» أو برج بابل كما سماها الرواة العبرانيون والإغريق والمسلمون؛ وحدائق المدرجات التى اشتهرت خطأ باسم الحدائق المعلقة ، واعتبرت إحدى العجائب السبع فى العالم القديم ، وقيل إنها أعدت للتسرية عن زوجة الملك ماذية الأصل حتى لا توحشها روابى بلادها إذا أقامت فى أرض بابل السهلية المنبسطة . ثم بوابة إشتار (عشتار) ، فضلا عن الأسوار الضخمة التى ذكرناها . وتعصب البابليون

(١) Herodotus, II, 161 .

لتقاليدهم الفنية القديمة فى تنفيذ أمثال هذه العمائر والمشروعات ، وودوا لو اعتبروا تجديدات خصومهم الآشوريين، كأنها لم تكن ولو أن ذلك لم يكن متيسراً دائماً . فرجعوا من ناحيتهم بتخطيطات المعابد إلى أصولها البابلية القديمة، وأزادوا استخدام الآجر المحروق والمزجج ، وأحلوا محل الرسوم المسطحة التى استحبها الآشوريون نقوشاً غائرة .

توسط قصر نبوخذ نصر الجدار الشمالى للمدينة ، وبنى داخل حصن كبير على عادة القصور الملكية فى بلده ، وتألف من وحدات معمارية كثيرة ، وتضمن عدة أفنية ،و أحاطت به ملحقاته التى يحتمل أنه كان منها بعض إدارات الدولة ، وتميزت فيه قاعة عرشه (التى بلغت مساحتها ٥٢ × ١٧ متراً) عن قاعات العروش الآشورية ببساطة طابعها ، واحتل عرشها مشكاة كبيرة (أو حنية أو محراباً ضخماً) توسطت الجدار المواجه للمدخل . وكسيت جدران بهو القصر الكبير بقوالب الآجر ذات السطوح الخزفية الزرقاء الداكنة ،وزخرفت فى أسافلها بإفريز من الأسود الحارسة صورت تصويراً جانبياً (على العكس من أسود خورسباد الآشورية التى تواجه الداخل) ، كما زخرفت فى أعلاها بما يمثل أساطين ذات تيجان مركبة ، تصل بين تيجانها وتعلوها زخارف تكوينية تتألف من زهيرات محورة ومعينات صغيرة . وتعاقبت فى كل هذه الوحدات الزخرفية ألوان بيضاء وصفراء فوق الأرضية الزرقاء الداكنة ، فخلعت طابعاً من البهجة على زخارفها الرقيقة (١) .

بدأ تجديد زقورة «إ. تمن . آنكى» فى عهد نابو بولاسر مؤسس الأسرة الكلدانية . وأكدت نصوص الرجل ومناظره أنه استفتى وحى الأرباب فى تخطيطها القديم، واشترك مع ولديه فى وضع أساسها ، فحمل أدوات البناء فوق رأسه ، وحمل ولى عهده طين اللبنة الأولى ، ورفع ولدهالآخر (نوبا شوم ليشو) معولا ومجرفة .

وخدمت الزقورة معبد مردوك أساساً ، وهو ذلك المعبود البابلى القديم الذى اعتبر أتباعه بقية المعبودات الكبار مجرد صور لنواحى قدرته ، وقالوا يمجدونه : «سين قدسيتك ، وآنو نصيحتك ، وداجان قيادتك ، وإنليل ملكيتك ، وأداد قدرتك ، وإيا حكمتك» (وكان الآشوريون قد نسبوا مثل هذه الصفات أيضاً إلى ربهم نينورتا فى

(١) Koldewey, *Das weiderstehende Babylon,* Abb. 64 .

عصرهم الوسيط ، وإلى معبودهم الأكبر آشور فى عصرهم الحديث) . وخدمت زقورة بابل أربعة معابد أخرى كبيرة أو نحوها ، كان منها معبد «نين ماخ» (أى . ماه) ربة الخصب . وهى معابد أخذت فى تخطيطها وتنظيم قاعاتها وقواعد تماثيلها بالأسلوب الأكدى القديم دون الأسلوب الآشورى الخصيم [١] .

ووصف المؤرخ هيرودوت هذه الزقورة إبان اكتمالها وصفاً شائقاً [٢] ، ثم وصفت رحلة من القرن الثالث ق. م ما بقى منها على أيامها ، كما احتفظت لها أجيال الرواة العبرانيين والمسلمين بصورة أسطورية غالية . أما من حيث الواقع، فلم يتبق منها مما ينم عنها حتى الآن غير خطوطها الأرضية وأطلال ثلاث درجات تؤدى إلى مسطحها الأول من ناحية الجنوب ، وترتب على ذلك أن تعددت النظريات المعمارية فى تصور هيئتها الأولى ، دون أن تسلم إحداها من شك ونقد . ويحتمل مما أتى به هؤلاء جميعاً أنها بنيت من اللبن وكسيت بالآجر، وأن واجهاتها كلها شكلت فيها مشكاوات رأسية متعاقبة ، وأنها توسطت فناء مسوراً عظيم الاتساع (٦٦٧ × ٣٦٥ متراً) يقع المدخل الرئيسى لسوره ناحية الشرق ، وأن طول ضلع مسطحها الأول بلغ حوالى ١٨٣ متراً ، وربما تعاقبت على جوانبه أعمدة مربعة ، ويبلغ طول ضلع مسطحها الثانى نحو ١٠٦ من الأمتار، وتضمن عدة مقاصير لكبار أرباب بابل والمدن المجاورة لها مثل الأرباب : مردوك ونابو وإيا وآنو وسين وتاشمتوم ونوسكو ... ، وعدة مقاصير لكنوز الزقورة . ثم قام فى وسط المسطح ، وهذا هو الأهم ، بناء مدرج تألف من خمسة مسطحات تصغر مساحة كل مسطح منها عما تحته، ويصل بينها درج جانبى صاعد يدور حولها حتى يؤدى إلى أعلاها حيث يتوسط المسطح العلوى منها ويتوجه قدس الأقداس الكبير . ويرى المعماريون الآثاريون الأخذ بما رواه هيرودوت وغيره من أن كل مسطح من المسطحات المتعاقبة للزقورة قد اتخذ لوناً يختلف عن لون الآخر ، ومن الألوان التى يقترحونها لها على التتابع ألوان : الأبيض فالأسود فالبنفسجى فالأزرق فالبرتقالى فالقرمزى فالفضى فالذهبى ، ولكل كل هذه الألوان والأصباغ ذهبت مع زقورتها حينما دمر الفرس أغلبها فى عهد الملك أخشويرش ، وبعد أن

(١) *Op. cit.*, Abb. 32; *Antiquaries Journal,* X, Pl. XXXV, 374 f.

(٢) Herodotus, I, 181; O. E. Ravn, *Herodotus's Description of Babylen,* 1932.

استخدم أهل المنطقة معظم لبناتها فى مبانيهم المتعاقبة (١) .

ووصل بين زقورة بابل و«إساجيل» (é- sag-il) معبد مردوك الأرضى، طريق للمواكب ، ارتفعت أرضيته عن مستوى أرض المدينة ورصفت باللبن المكسو بالقار ، ثم غطيت ببلاطات متسعة من الحجر الجيرى وحفت بها مربعات صغيرة من قطع الرخام الزاوى الأحمر (البرشيا) (٢) . وكان يحف بالطريق جداران وتطل على جانبيه أبراج متباعدة . ويبدو أن بعض واجهات جدارية كسيت بأفاريز من الخزف الملون، نقشت نقشاً بارزاً بما يمثل الكائنات الحارسة ؛ خاصة الأسود .

ويخترق طريق المواكب بوابة إشتار (قاهرة أعدائها) وكان لها أصل قديم ثم جددت فى العصر الكلدانى ، وزيد ارتفاعها حتى بلغ ما بين ٤٠ و٤٧ قدماً ، فأصبحت من معالمه الرئيسية . وتقع فى الركن الشمالى الشرقى من الحصن الجنوبى لبابل، وتؤدى فى الوقت نفسه إلى صرحين كبيرين يرتبط بهما جسر معلق يصلهما بالقصر الملكى . وتألفت البوابة من صرحين رئيسيين علتهما زخرفة معمارية مسننة. وكسيت مساحة كبيرة من جوانبها الكلدانية المستحدثة بقوالب الآجر ذات السطوح الخزفية الزرقاء ، وتعاقبت على سطوحها هذه تسعة صفوف نقشت بالنقش الغائر ، مثل بعضها ثيراناً ذات أشكال محورة، ومثل بعضها صور حيوانات خرافية متباعدة ، وجمع بعضها الآخر فى صوره بين أجزاء من التنين والنسر والأسد والأفعوان ووحيد القرن . وعبرت هذه الصور فى مجموعها عن رموز حيوانية للمعبودين أداد ومردوك، وسمى بعضها باسم سيروش ، وتعاقبت فى جسومها وشعورها وقرونها وأقدامها ومخالبها ألوان بيضاء وصفراء وخضراء وبنية وزرقاء بدرجات متفاوتة ، وتعاقبت ظلالها فوق أرضية زرقاء ، وبهذا أكسبت بوابتها طابع الجمال وخدمت غرض الدين وغرض الزخرف معاً ، وزادها جمالا أنه أحاطت بها أطر منقوشة تتألف من مريات زخرفية وزهيرات كبيرة رقيقة . وكانت جدران البوابة القديمة قد تضمنت قبل العصر الكلدانى صور الحيوانات نفسها ، ولكن بعضها كان منقوشاً فوق الآجر العادى . وعندما رفع رجال نبوخذ نصر مستوى طريق المواكب ، غطت هذه

(١) *Memoires de l'Academie des Inscriptions*, XXXIX, 1913 .

(٢) *See* Parrot, *Ziggurates et Tour de Babel*, 1949 .

وعن طرقات أخرى مرصوفة باللبن والقار – انظر سومر ١٩٦١ – ص ٣ .



التعلية على جزء كبير من صور البوابة القديمة ، وكان ذلك لحسن حظها إذ بقى عدد منها كاملا حتى الآن ، بينما لم يبق من مناظر الآجر الخزفى ، التى شكلت فى عهد نبوخذ نصر نفسه غير أسافلها التى حالت ألوانها . ويبدو أن الصور القديمة والحديثة قد بلغ عددها نحو ٥٧٥ صورة .

ونقبت بعثة آثارية ألمانية فى أرض بابل فترة طويلة قبل الحرب العالمية الأولى ، وعملت على نقل ما وجدته من أجزاء بوابة إشتار مفككة إلى متحف برلين فى ٦٩٤ صندوقاً وصل آخرها إليه فى عام ١٩٢٧ ، حيث أعيد تكوينها بعد ذلك ، فيما هو أقرب إلى تصميمها القديم .

وصاحب الاهتمام بمعابد العاصمة بابل اهتمام مماثل بمعابد المدن الأخرى ذات الشهرة الدينية ، فجددت فى مدينة بورسيا (برص نمرود الحالية) ، إلى الجنوب الغربى من بابل بنحو سبعة أميال ، زقورة تشبه زقورة بابل ، كانت بعض مداميك الآجر فيها مزججة ، وكانت مسطحاتها ملونة بألوان مختلفة . وتحدثت نصوص العصر نفسه عن عربة (صغيرة) للربة إنانا (أو إشتار) ربة الوركاد . شدت إليها سبعة أسود ، أعادها نبوخذ نصر إلى معبدها «إيانا» بعد أن أبعدها عنه أهل المدينة فى عهد الملك إريا مردوك أحد ملوك الأسرة البابلية الثامنة وأقاموا لها تمثالا مزيفاً ، وترتب على فعلتهم هذه أن هجرت المعبودة معبدهم واعتكفت فى مكان قصى كما روى نص الملك (١) .

* * *

الأفول أمام نهضة الفرس :

كانت انطلاقة بابل الكلدانية أشبه بصحوة الموت بالنسبة لتاريخ العراق القديم ، ولم يكن من المنتظر أن تستمر هذه الانطلاقة أمداً طويلا على الرغم من حدتها ، فى عصر ماجت الهضاب الإيرانية المجاورة لها خلاله موجاً شديداً بتحركات قبائل فتية عاتية، أصرت على أن تفرض نفسها على عصرها فرضاً، وأن تبدأ فيه من حيث انتهى غيرها . فقد أدى نجاح قبائل مانداهور فى زعامة الدولة الماذية وتحطيم القوة الآشورية إلى نتيجتين متضادتين : نتيجة مباشرة ، وهى تشجيع بقية الماذيين على

(١) *See, ANET,* 399 .



مواصلة التوسع والدق العنيف على أبواب جيرانهم ، ثم نتيجة لاحقة وهى تشجيع قبائل جبلية أخرى على أن تسلك سبيل الماذيين وتستفيد من تجاربهم بكل ما فيها من فشل ونجاح ، ومنها قبائل البرس أو الفرس التى عاشت فى بداية أمرها فى غرب وجنوب غبر بحيرة أورميا، ثم هاجرت فى حوالى القرن الثامن ق. م إلى جنوب إيران، وتركزت لدى سفوح جبال بختيارى[١].

ورث الماذيون أملاك الآشوريين الشمالية والشرقية كما أسلفنا ، وابتلعوا مناطق أورارتو شيئاً فشيئاً ، وامتدوا شمالا حتى بلغوا نهر هاليس فى آسيا الصغرى، وهناك اصطدمت أطماعهم بدولة ليديا، التى جمعت فى سياستها وعلومها وحياة ملوكها بين تقاليد الشرق والغرب معاً، واتخذت عاصمتها فى مدينة سارديس (راجع ما ذكرنا فى هذا الصدد ، فى الجزء الأول من الكتاب) . وتطور التنافس بين الماذيين والليديين بعد فترة إلى صدام مسلح، لزمت بابل فيه جانب حلفائها الماذيين ، ولكن هذا الصدام توقف بصلح روى بعض المؤرخين الإغريق من أسبابه المباشرة أنه حدث فى أحد أيام العام السادس للحرب (وهو ما يوافق يوم ٢٨ مايو عام ٥٨٥ ق. م) أن أظلمت السماء فجأة فى واضحة النهار، فأجفلت جيوش الفريقين واعتبراها نذيراً من السماء، فتوقفا عن الحرب ، وقيل إن ملكيهما اتفقا على توسيط ملكى بابل وكيليكيا بينهما ، ثم انتهى الأمرإلى هدنة أيدها البيتان الحاكمان بالمصاهرة ، واعتبرا نهر هاليس حداً فاصلا بينهما . وأضاف الإغريق أن الفيلسوف ثاليس (طاليس) الميليتى أبا العلم الإغريقى كان قد تنبأ لقومه بكسوف الشمس فى العام نفسه [٢] . وهى المرة الأولى التى تنبأ فيها عالم إغريقى بحدوث ظاهرة فلكية تنبؤاً صحيحاً .

ولكن لم يطل الأمد بالنهضة الماذية ، وأحاط بها بعد وفاة ملكها هواخشير (كياكساريس) ، ما أحاط بجيرانها أكثر من مرة ، ترف مسرف ترتب على كثرة الأسلاب والمغانم ، وطغيان سياسى ترتب على غرور الحكام الذين أسكرتهم نشوة انتصاراتهم المتكررة ؛ بحيث روى بعض رواة الإغريق قصصاً شتى عن قسوة آخر الملوك الماذيين ستياجيس ، فذكرو أنه غضب ذات مرة على أحد كبار رجال دولته،

---

(١) دوفالدولير : المرجع السابق .

(٢) *See* , Bury, *History of Greece,* 222 .

فقتل ولده أمامه وأرغمه على أن يأكل أحشاءه ... [١] ، ثم طموح بلى صدر عن جزء من الدولة للسيطرة على أجزائها الأخرى ، وقد صدر فى هذه المرة عن إقليم أنشان (فى إلام القديمة وجنوب إيران) . وهو إقليم كانت حياة أهله شاقة جافة، ويمت حكامه بصلة القرابة أو المصاهرة للبيت المالك الماذى، واستطاعوا أن يحتفظوا بمكانتهم إزاءه طوال ثلاثة أجيال ، ولكنهم ظلوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم أعرق أصلة وأحق بالملك وأقدر على تحقيق العدالة منه . وقد بسطوا نفوذهم على إقليم باسو الذى عرف باسمهم فى جنوب غرب إيران ، وتميز من أمرائهم الأوائل الكبار قورش الأول، الذى قاسم أخاه الملك وورثه لولده قمبيز الأول . ثم تبعه قورش الأكبر أو الثانى، الذى حقق حلم أسرته (وذكر أحد الأخبار الإغريقية أن أمه هى ابنة ستياجيس آخر الملوك الماذيين) ، فلم شمل الحاقدين على البيت المالك الماذى وقضى على نفوذه فى حوالى عام ٥٥٥ أو ٥٥٣ ق. م [٢] ، وبدأ أسرة حاكمة جديدة ، أو دولة جديدة ذكرتها المصادر الفارسية باسم الدولة الهخامنشية ، وأطلقت المصادر اليونانية عليها اسم الدولة الأخمينية ، واعتادت المؤلفات الحديثة على أن تذكرها باسم الدولة الفارسية (الأولى) وهو ما سنجرى عليه فيما يلى ، وقامت عاصمتها فى بازار جادة أو برسوبوليس . وكان من تمجيد هذا الملك لنفسه قوله «أنا ابن كامبوزيا (قمبيز) الملك العظيم ملك أنشان، حفيد قورش الملك العظيم ملك أنشان ، سليل شيشبيش الملك العظيم ملك أنشان ، من أسرة (مارست) الملكية دائماً» .

ورثت الدولة الجديدة ملك الماذيين ، ولم تكن لتقف بعزائمها الجديدة عند ما وقفوا عنده ، فتخوفت نهضتها كل من بابل وليديا ومصر . وكانت ليديا هى البادئة بعد أن بلغت أوج مجدها وثرائها فى عهد ملكها كرويسوس Croesus (٥٦٠ – ٥٤٦ ق. م) ، وأخضعت المدن الإيونية والأيولية فى آسيا الصغرى لنفوذها، حتى امتد سلطانها من نهر هاليس إلى بحر إيجه ، وطمعت فى أن تستغل البحر وتسيطر على جزره ، وأصبحت شيئاً عظيماً فى نظر إغريق الشرق والغرب معاً . ثم أقلقتها نهضة فارس فأرادت أن تكون هى البادئة ، وطلبت عون إغريق شبه جزيرة لاكيدايمونيا وزعيمتها إسبارطه ، كما طلبت عون بابل ومصر . وتقدمت جيوشها ناحية الشرق ،

(١) *See, ANET,* 316 .

(٢) *IBID.,* 316 .

ولكنهاما لبثت حتى تحطمت أمام الطوفان الفارسى ، فتراجعت فلولها إلى سارديس ولحق بها قورش وجنوده ، فدمروا العاصمة وأسروا ملكها فى عام ٥٤٦ ق. م، قبل أن يتمكن حلفاؤه من نجدته (١) ، وبذلك أتت نهايته على غير ما توقع لنفسه وعلى غير ما توقع الإغريق له .

وفى بابل لم تستمر النهضة بعد نبوخذ نصر طويلا ، وتعاقب ثلاثة من أسرته على العرش فى مدى سبع سنوات ملؤها التفسخ والقلق ، ثم انتقل الحكم منهم إلى الملك «نابونهيد» ، وكان من أسرة كهنوتية ، أو على الأقل من أسرة يؤيدها الكهنة ، ولو أنه لم يعتبر نفسه فى نصوصه غريباً عن الدوحة الحاكمة ، فادعى أن الرؤى والآيات تعاقبت لتبشره بأنه سيكون خليفة نبوخذ نصر ومتبعاً لطريقته ، برضا مردوك وبقية الأرباب . وأراد الرجل بعد اعتلائه العرش فى عام ٥٥٥ ق. م أن يحقق حسن ظنه بنفسه ، فأسرف فى إظهار تقواه إزاء المعبودات بتجديد معابدهم وزيادتها ، ومن أشهر ما جدده منها زقورة أور التى اعتبر مشيدها القديم أورنمو من أسلافه ، ومعبد الشمس فى سيبار الذى اعتبر مشيده نرام سين الأكدى من أجداده ، وأسرف فى إظهار حب العلم والشغف بجمع اللوحات والآثار القديمة، وشاركته هذه الهواية ابنته التى عينها كبرى كاهنات رب القمر وادعى أن هذا الرب اختارها زوجة بنفسه، بعد أن هدد الدنيا باسوداد وجهه ، أى بخسوفه. كما شاركته الدعوة إلى رعاية المعابد سيدة عجوز لعلها كانت أمه ، تعدت المائة فى عهده وكانت لا تزال ذات سلطان وقوة جسدية وعقلية كاملة (٢) .

وجرب نابونهيد أن يكون سياسيّاً ، فتظاهر بمناصرة قورش الفارسى ضد الماذيين حلفاء بابل بالأمس ، وهدف من ذلك استخلاص مدينة حران الآشورية من سلطانهم لحسابه ، ونجح فى استعادتها فعلا وجدد معبدها الذى يبدو أن جدته وأباه وأمه كانوا من كهنته (٣) . فكانت من الحسنات القيلة التى أداها لدولته؛ نظراً للأهمية الاقتصادية والثقافية التى تجمعت فى هذه المدينة بحكم وقوعها على أحد الطرق التجارية الرئيسية الممتدة من شمال العراق إلى نواحى الشام وآسيا الصغرى، وفى

---

(١) Herodotus, I, 129, 177, etc...

(٢) *See ANET,* 309 f.

(٣) انظر مجلة سومر ١٩٦١ – ص ٥ .

بقعة التقت فيها الثقافات البابلية والآشورية والكنعانية . ثم تمادى فى الثقة بنفسه فغزا شمال سوريا حتى وصل حماة وجبال أمانوس ، وغزا جنوبها حتى إدوم وغزة ، وربما وصل توسعه فى الحجاز حتى يثرب . ولأمر ما أناب عنه على عرش بابل ولده بال شار أوصر (بعل إحم الملك) ، واتجه إلى واحة تيماء بخاصة (١) ، ربما ليحيى أهميتها التجارية على الطريق التجارى بين ساحل البحر المتوسط وشمال غرب شبه الجزيرة العربية والعراق ، ثم ينتفع باقتصادياتها، أو على أمل أن يستعين بها وبوسطها البدوى على تطعيم جيشه بقوات فتية، يحيى بها مجد دولته ويستعد بها لمعركة قريبة لا محيص عنها بينه وبين الفرس الطموحين ، أو ليتخذها ملجأ أخيراً له لو عجز أمام الفرس (٢) . ولكن خاب أمل الرجل فى هذا كله، وخابت سياسته مع تيماء وجيرانها ، إذ اشتد عليها وقتل ملكها، ثم سورها وأقام بها بضع سنوات فى قصر جديد ، على الرغم من سوء ظنه بأهلها وسوء ظنهم به ، بينما أناب عنه ولى عهده فى العاصمة بابل (٣) سرة الدولة التى وجب عليه أن يرعاها بنفسه . وعندما عاد إليها فى عام ٥٤٥ ق. م، كان سوء الإدارة قد عمل عمله فيها ، وانتشرت المجاعات حولها (٤) . وفى هذه الظروف صحت عزيمة قورش الفارسى على ضمها إلى ملكه فى بداية تنفيذ مشروعه لغزو الهلال الخصيب كله . وهنا حاول نابونهيد أن يجمع الأحلاف حوله، ولكنه لم ينجح فى ذلك غير نجاح قليل ، وخشى الآخرون شدة بطش الفرس العتاة . ويبدو أن كلف نابونهيد بآثار الماضى جعله يكثر من صور وتماثيل آلهة المدن الأخرى القديمة فى عاصمته ؛ مما جلب عليه كره كهنته . فاستعاض عن ولائهم باستدعاء تماثيل المعبودات الأخرى إلى بابل ، ليشتركوا مع إلهها مردوك فى حمايتها، ولكنه بمعبوداته كان أقل من أن يقف أمام الطوفان الفارسى فانهزم وعز عليه الالتجاء إلى حصنه فى تيماء . ودخل قورش بجيوشه إلى بابل وادعى فى نصوصه أنها فتحت أبوابها له، ورحبت به ملكاً رد عليها مقومات الحياة ، وروى أن

(١) *ANET,* 311, 560 - 562 .

(٢) Smith, *Babylonian Historical Texts,* 1924, 27 f.

(٣) *See,* J. Lewy, *HUCA,* 1946, 434 f. ; R. P. Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar,* New Haven, 1927; *Mizraim,* I, 1933, 140 f.; W. F. Albrigh, *JRAS,* 1925, 239 f.

(٤) R. P. Dougherty, *Records from Erech,* 1920, No. 154 ; "Nabonidus in Arabia", *JAOS,* XLII, 395 f.; *ANET,* 1968, 562 - 563 .

أهلها فرشوا طريقه فيها بالرياحين . ولكن ورد في رواية أخرى أنه دخلها بمعونة بعض البدو وخيانة قائد في جيشها (١) .

وزاد قورش ، أو من كتب نصوص النصر على لسانه ، فرمى نابونهيد بالكفر والسخافة وتعقيد طقوس الأرباب ، بل وبفساد الذوق حتى في اختيار تمثال معبوده الذي بدا وجهه فيه قاتماً كهيئة القمر في المحاق ، ووصلت جدائل شعره حتى عرقوبيه . واتهمه بأنه تسبب في قتل نبلائه وتعطيل طرق التجارة بمشروعاته التوسعية الفاشلة ، حتى غضب عليه كل الأرباب والناس (٢) ، وما إلى ذلك من ادعاءات يصعب على التاريخ تبين حقيقة الأمر فيها ؛ لأنها صدرت عن مصدر واحد، وعلى لسان منتصر لا منافس له ولا معقب عليه . وزيادة في الاستمتاع بمظاهر النصر أبقى قورش على حياة نابونهيد وبعث به إلى كرمان . ومرة أخرى هلل اليهود للمنتصر وتشفوا في المنهزم، وقالوا بلسان النبي دانيال : «قسمت مملكتك وأعطيت للميديين والفرس» . وزعموا أنها كانت نبوءة كتبت على أحد جدران قصر ملك بابل (٣) .

خاتمة المطاف :

انتهى دور بابل في التاريخ القديم كدولة مستقلة في عام ٥٣٩ ق. م ، كما انتهى قبلها دور آشور بعد عام ٦١٢ ق. م ، ولكن زوال دورهما السياسي لم يستتبعه إطلاقاً زوال وجودهما وتأثيرهما الحضاري في الشرق والغرب معاً . ولم تكن بابل أقل حظاً من أختها في ذلك ، حتى لقد رأى فيها بعض المؤرخين الإغريق الذين زاروها منذ عصرها الفارسي وخلال عصرها السليوكي ، صورة تجمعت فيها المفاخر العقلية للعراق القديم كله ، فتحدثوا عن تراثها الفلكي بما فيه من تقسيمات دائرة البروج ورموزها الاثنى عشر ، وإضافة وتنظيم شهر النسئ (أو الكبس) في تقويمها على أساس دورة زمنية مقدارها ثمان سنوات ودورة أخرى مقدارها تسعة عشر عاماً ، وتحدثوا عن قدرة علمائها على التنبؤ بخسوف القمر مستعينين بدورة الثمانية عشر

(١) R. CHIRMAN, *Iran*, 1964, 131 - 132 .

(٢) Sidney Smith , *Babylonian Historical Texts*, Pls. V- X, P. 83 f.; E. Ebelling, *AOT*, 368 f.; *ANET*, 312 F., 315 f.

(٣) سفر دانيال : ٥ : ٢٨ .

عاماً ، وعن معرفتهم بالمزولة الشمسية والمزولة المقعرة ثم بالساعة المائية ، مع تقسيم الساعة إلى أجزاء ودقائق ... ، وبراعتهم فى استخدام الطريقة الستينية التى توارثوها عن عصورهم القديمة ... إلخ (١) .

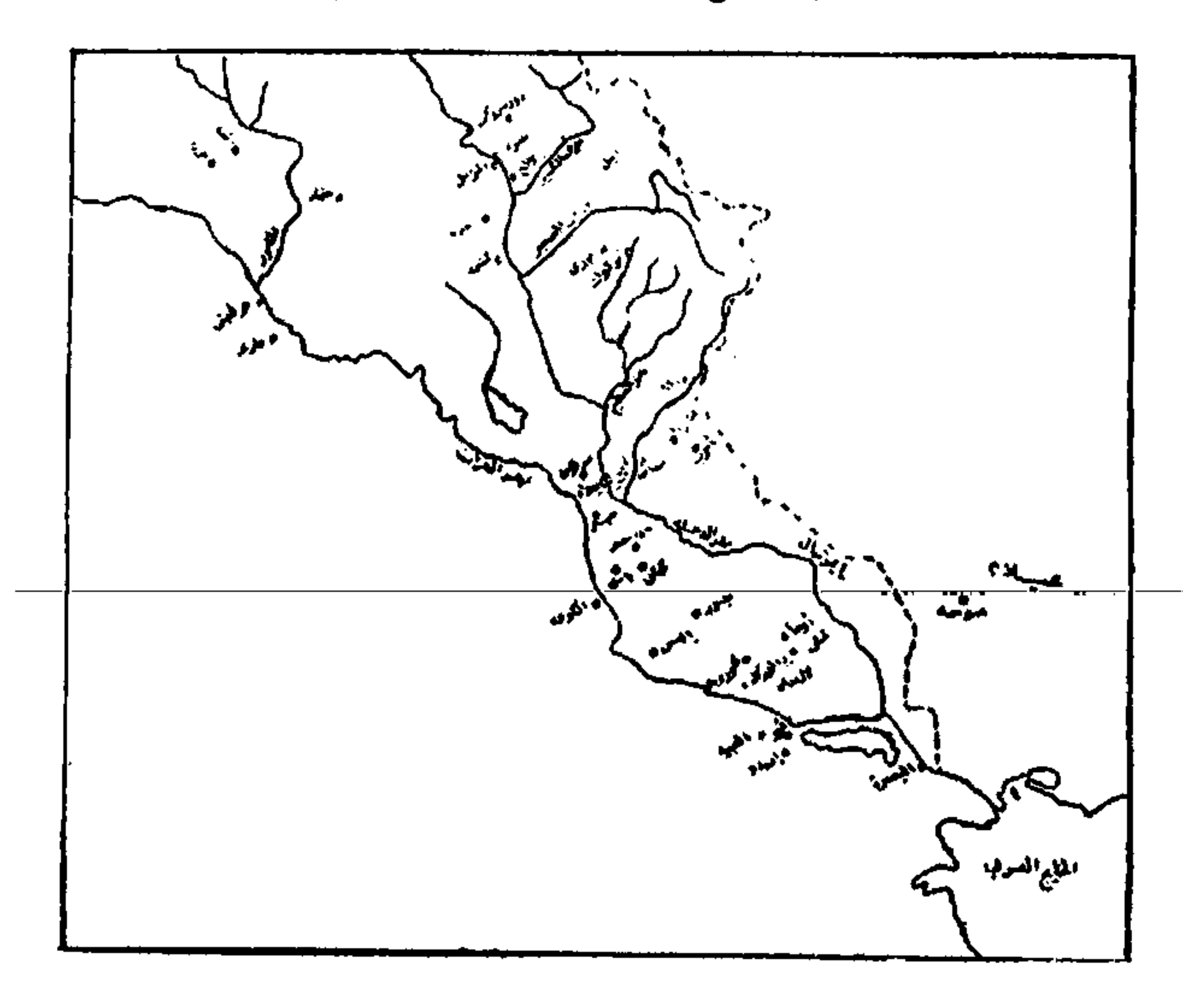
ومن طريف ما صوره أحد البابليين الأواخر ، خريطة لما تشغله بابل وجاراتها من العالم المعروف لديه ، على لوحة مسمارية سجلت فى أعلاها بعض أخبار حملات سرجون الأكدى (ولعله أراد أن يفسر بها مواقع هذه الحملات) ، فصور العالم على هيئة دائرة تحيط بها دائرة أوسع منها قليلا ، بهرتها بابل العظيمة على هيئة دائرة سوداء صغيرة ، ويشقها طولا الفرات ودجلة إلى حيث يصبان فى مياه الخليج . ثم صور مدنا أخرى وشعوباً على هيئة دوائر سجل أسماءها فيها وبجوارها (ولكن دون اهتداء إلى توزيعاتها الجغرافية الصحيحة بطبيعة الحال) . وصور فى شمال البحر الكبير ثمانى جزر ، قال عنها إنها لا ترى الشمس ، وصور على أطراف دائرته مثلثات كبيرة تخيلها فيما يبدو جبالا بعيدة أو رواسى ، ترتكز قبة السماء عليها .. (٢) .

* * *

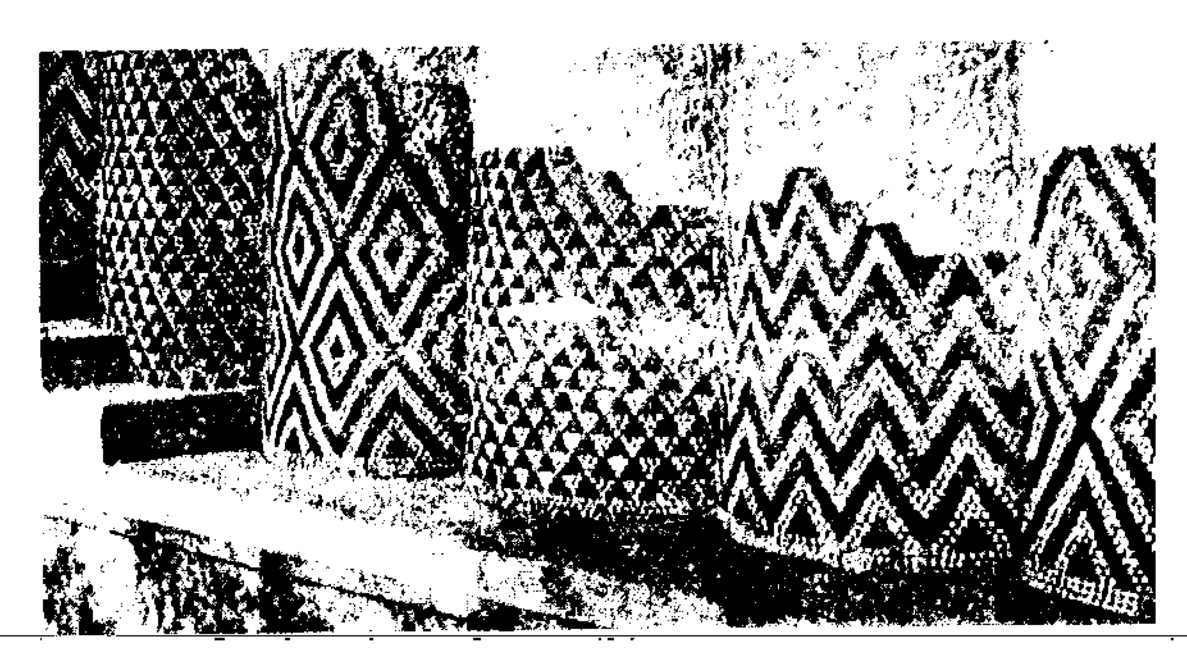
(١) *See*, Thureau - Dangin, *Esquisse d'une histoire du Systeme Sexagesimal,* Paris, 1932; A. T. Olmstead, "Babylonian Astronomy", *AJSJ,* 1938, 113 - 129; O. Neugebauer, "The History of Ancient Astronomy", *JNES,* IV, 1944, 1 f.

(٢) Contenau, *La Civilisation d'Assur et de Babylone,* Paris, 1951, 16 - 17, Fig 2.

أهم المواقع الأثرية فى العراق القديم



مختارات من آثار العراق القديم



٧٠- زخارف أساطين جدارية بمخاريط ملونة من قبيل العصر الكتابي .



٧١- مزهرية مرمرية منقوشة للمعبودة أنانا .





٧٢ ، ٧٣ - من تجارب فن النحت قبيل العصر التاريخي .



٧٤ - حسناء الوركاء (؟) .

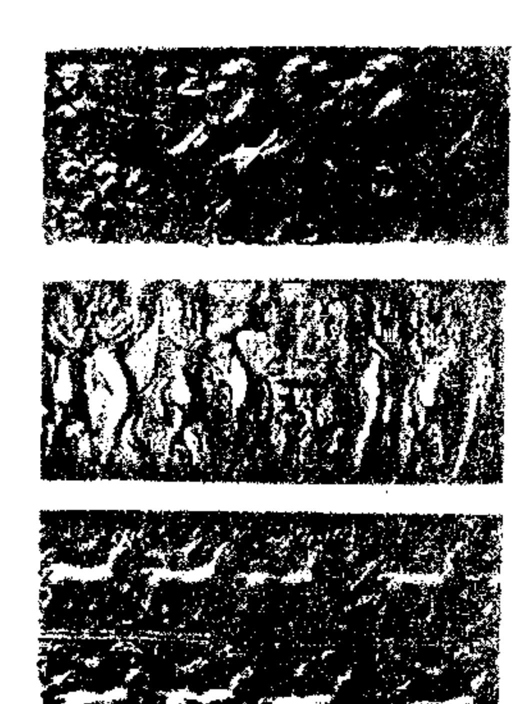




٧٥ – معبودات وكهان سومريون من أشنونا .



٧٦ – عنز (أو كبش ؟) وشجيرة
من أور



٧٧ - مختومات بحيوانات وأساطير سومرية .

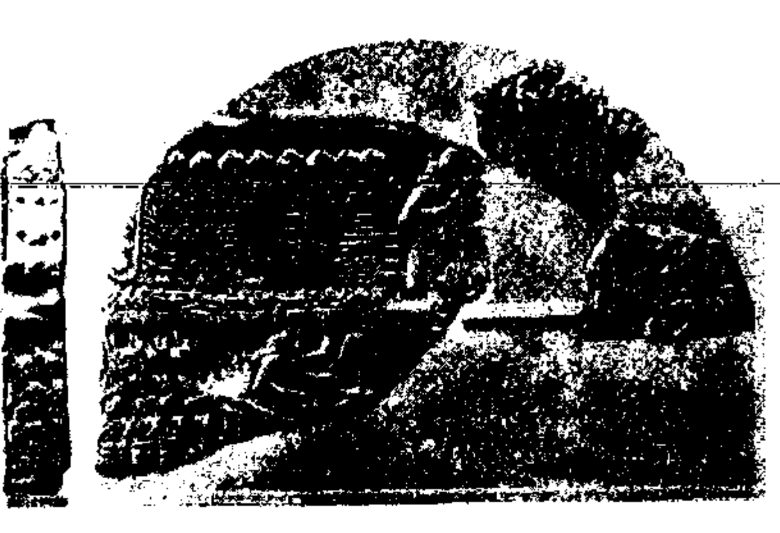


٧٨ - حيوانات فى أهاب البشر ، والعكس بالعكس





٧٩ – خوزة مذهبة من أور





٨٠- أ ، ب – لوحة نصر إياناتم ومعبوده نين جيرسو





٨١ ، ٨٢ – جوديا التقى ملك لجش .

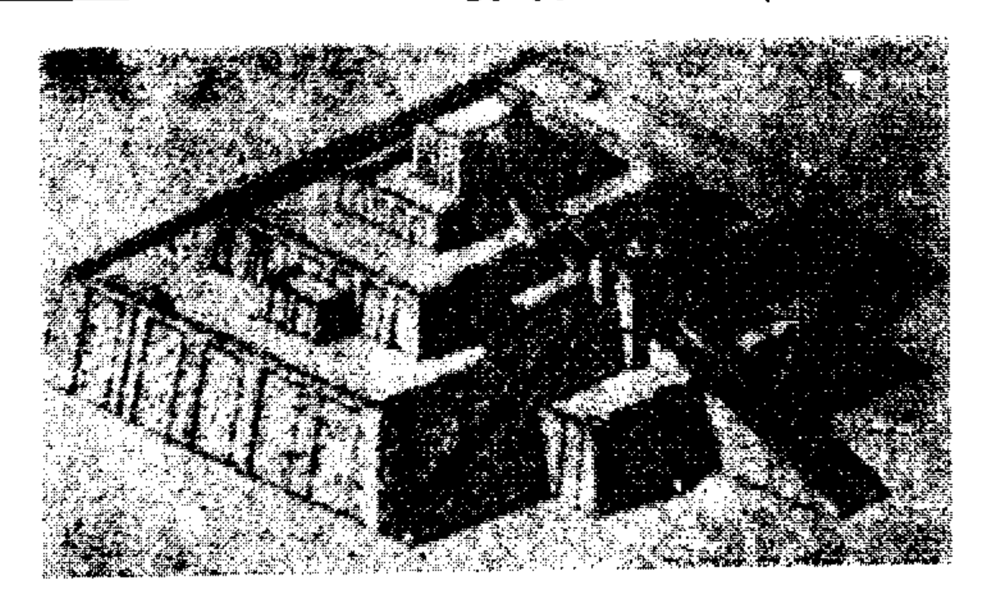


٨٣ – عظيم من لجش .



٨٤ – رأس مرمرية لأنثى من أور .





٨٥ – تخطيط حديث لزقورة أور (حين اكتمالها).



٨٦ – شيخ من ماری .



٨٧ – ربة المياه فی ماری .



٨٨- رأس وقور للملك حمورابى (؟) .

٨٩ - متعبد ورع (باسم حمورابى) من لارسا



٩٠- حمورابى يتلقى الإذن بالتشريع من معبوده شمس .

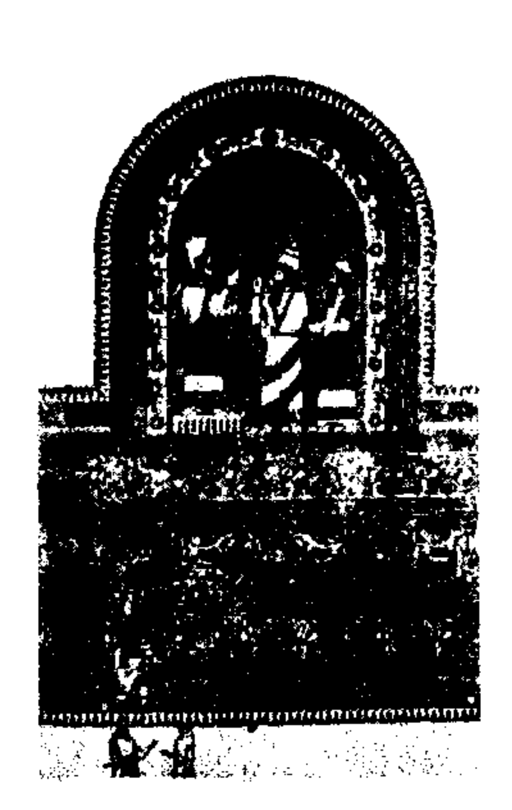




٩١- ملك آشورى مهيب .



٩٢- عامود (مسلة) انتصارات شلما نصر الثالث.



٩٣- رسوم (مرممة) فى قاعة عرش سرجون الآشورى



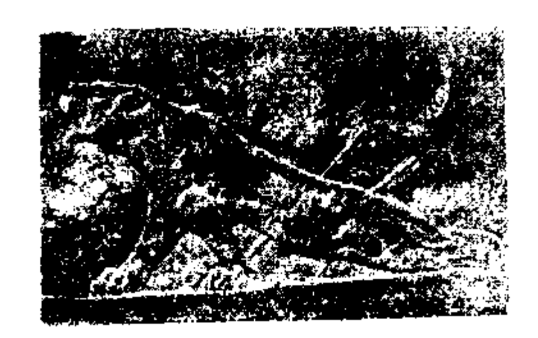


٩٤- حارس آشورى مقدس .



٩٥- فرسان آشوريون فى ساحة صيد .





٩٦- الصرخة الأخيرة من نينوي.



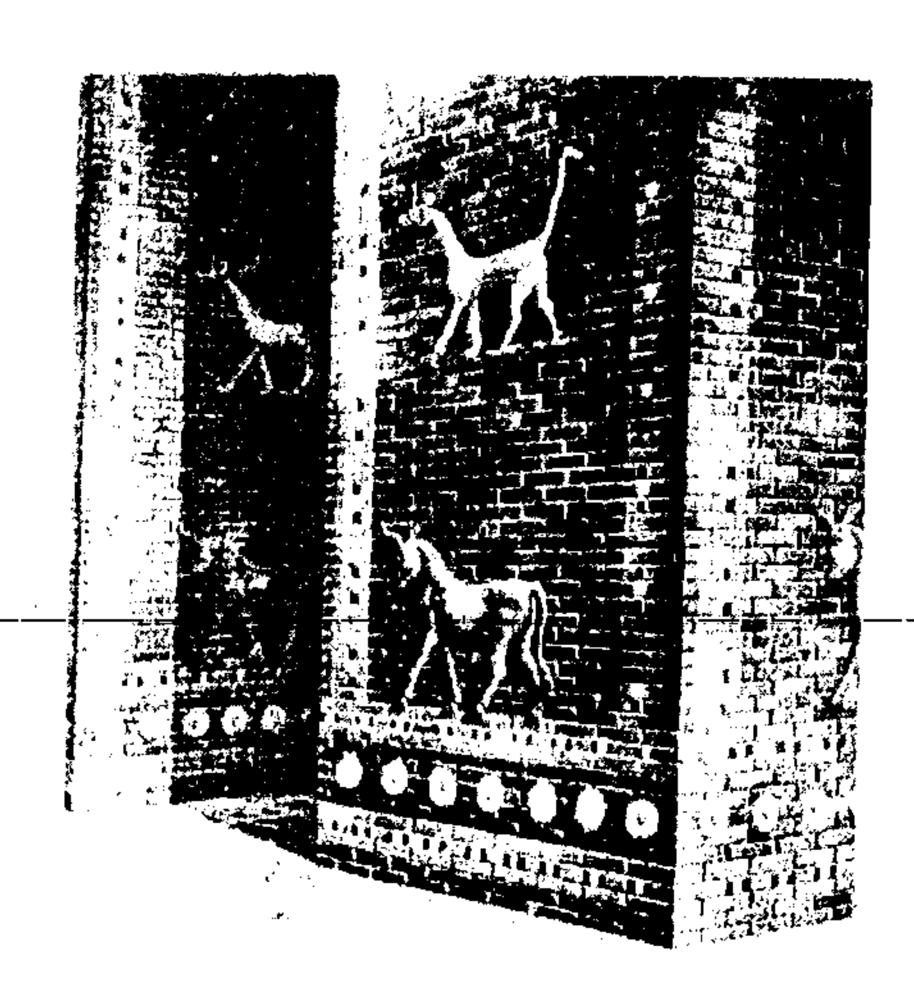
٩٧- نهاية أسد من نينوى.



٩٨- أبو الهول مصرى عراقى مجنح.



٩٩- إشتار العراقية فى هيئة حتحور المصرية (أو موناليزا القديمة فى مشربية النافذة) .



١٠٠- بوابة إشتار (عشتار) بعد ترميمها .



فهرس بأهم الأعلام والمعالم القديمة بمصر والعراق



(ب)

(ح)

(خ)



(ر)

(غ)

(ف)

(ق)

هذا الكتاب

يدعو مؤلـف الكتاب - وهو من المشهود لهم بالكفاءة والاقتدار فى تخصصه - القارئ أن يبحر معه فى تاريخ الشرق الأدنى القديم - مركزًا على مصر والعراق - ذلك الشرق الغامض الساحر الذى مازال وحى استلهام العديد من الكتابات كأنه كنز لاينفد ومعين ثرى لاينضـب .. وقد أشفـق المؤلف - أيما إشفاق - علـى قارئه ، فى هذه الرحلة التى امتدت لعشرين فصلاً كاملة فى أن يعرض عليه ذلك العرض الصافى الضافى الشامل لكل ما قد يقف بذهن القارئ من تساؤلات ..

إن أبرز ما يميز الكتاب ذلك الجهد المضنى الذى بذلـه المؤلف فى تقصى وتتبع كافة مظاهر حضارات الشرق الأدنى القديم وأوجه التشابه والتنوع والاختلاف فيما بينها .. متجاوبـًا مع ذلك الخط التاريخى من صعود وهبوط ، وازدهار واندحار ، لكل عصر من العصور ، خلال تلك الحقب الزمنية المترامية الأبعاد ، زمنيـًا ومكانيـًا ... لقد تحمل المؤلـف عبء اقتفاء آثار تلـك الدورات التاريخية ، وقدمها لقارئه وجبة معرفية دسمة ، ثرية ، تتيه بتفردها ويتيه من يقتنيها باقتنائها ... وتزدان بما احتوته من قلائد المعلومات والمعارف ، ويجمل بها جيد أى مكتبة .. فمرحى لكل راغب فى معرفة ولكل متخصص فى هذا العلم الرفيـع المقدر .. فمن المؤكد أنه سيجد ضالته بين دفتى هذا الكتاب .

الناشر


ISBN 977-05-2018-7



